قِصَّةُ بَدْءِ الخَلْقِ

وَخَلْقُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ

سورة العنكبوت ٢٠

تَأْلِيفُ

د. علي محمد محمد الصَّلَّابي



قصة بدء الخلق

وخلق آدم عليه السلام

تأليف:

د. علي محمد محمد الصلابي

إهداء

إلى إخوتي وأخواتي من بني آدم (عليه السلام):

الباحثين عن حقيقة الخلق وقصة أبينا آدم عليه السلام وعن نشأة وطبيعة الإنسان:

- البدنية.
- الروحية.
- العقلية.
- الفكرية.

ستجدون الأجوبة الشافية – بإذن الله تعالى –عن الأسئلة الوجودية الكبرى في حياة الإنسان، فقد تم بيان قصة الخلق وآدم عليه السلام من الكتاب الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].

وإنه لكتاب مليء بالدروس والفوائد والسنن والنواميس. وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: 110].



مقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70 –71].

اللَّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى.

وأما بعد؛ فكنت ولا زلت أحلم بإنجاز موسوعة (أولي العزم من الرسل)، وذلك قبل

الرحيل عن هذه الدار والانتقال إلى عالم البرزخ والقدوم على الله عز وجل.

وبعد دراسة مستفيضة وموسعة لسيرة نبي الله ورسوله الكريم نوح عليه السلام، ومعرفة بدايات ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية ومراحلها وأسباب زوال الحضارة الإنسانية الأولى، قادني توفيق الله عز وجل وتسديده، ومن ثم شغفي للبحث والمعرفة للعودة إلى المرحلة التي سبقت قصة نوح؛ للتعرف على جذور الحضارة الإنسانية الأولى وقصة الخلق وآدم عليه السلام. وبالرغم من أن آدم عليه السلام ليس من أولي العزم لكن أولاده الخمسة هم أولو العزم (نوح – إبراهيم – موسى – عيسى – محمد خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم السلام).

وإنني أحمد الله عز وجل أن هداني للاهتمام بهذا الميدان المعرفي الغزير في رحاب سور وآيات القرآن الكريم، وأمدني بالهمة والعزيمة والصبر والمتابعة في البحث والوصول إلى حقائق ما كنت أعلمها لولا فضل الله وتوفيقه. وكنت كل يوم أكتشف جهلي وقصور علمي، وكذلك حسرتي على السنوات التي ضاعت في غير محلها من العلوم النافعة، وتبين لي أن خير الأوقات التي تمضي في تعلم العلم والمعارف الهادفة والتي تستمد معينها من القرآن، واستقصاء سير الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

كانت رحلة ماتعة ونافعة قضيتها مع قصة الخلق وآدم عليه السلام واكتشاف معالم جديدة بالنسبة لي من حقائق القرآن الكريم من خلال التفسير الموضوعي للآيات القرآنية. وقد تقيدت في هذه الدراسة، بأقوال علماء التفسير والفقهاء الكبار، وأعمدة التاريخ، ممن ساهموا في إثراء المكتبة الإنسانية والإسلامية بهذه العلوم، وانتهجت منهاجاً

اعتمدت فيه على الآيات القرآنية وتفسيراتها المتنوعة، وأقوال العلماء فيها مع الابتعاد عن الكلمات الغامضة، والتي يصعب فهمها ما استطعت، مخاطباً أبناء عصري بلغتهم وأسلوبهم، محترماً لمنطقهم وعقولهم، ومحركاً لقواهم الروحية والوجدانية والنفسية وطاقاتهم الكامنة، من خلال البراهين الناطقة والأدلة الدامغة، من هدايات الله عز وجل التي جاءت في كتابه العزيز.

إذن، هذا الكتاب من الناحية المعرفية هو محاولة جادة لجمع وتفسير ما يقدمه القرآن الكريم بشأن بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام من خلال مطالعة ما ورد في كتاب الله العزيز وكتابات العلماء والمفكرين وأهل التخصص. وقد قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى مدخل وثلاثة فصول وعدة مباحث وخاتمة:

يبدأ الكتاب بمدخل تمهيدي، ومن ثم يبدأ الفصل الأول للكتاب ويضم ثلاثة مباحث:

ففي المبحث الأول، كان الحديث فيه عن معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله وفضلها وشروطها.

وفي المبحث الثاني، تضمن أدلة إثبات وجود الخالق العظيم سبحانه وتعالى. ومن هذه الأدلة التي ذكرت في القرآن الكريم:

- دليل الخلق
- دليل الفطرة والعهد
- دليل الآفاق

- دليل الأنفس
- دليل الهداية
- دليل انتظام الكون وعدم فساده.

أما الفصـــل الثاني، هما مبحثين، فقد تناول المبحث الأول؛ قصـــة بدء الخلق وقدرة الخالق في خلق المخلوقات، حيث بينت فيه أن بداية الخلق لم تكن غامضـــة وأن الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو رب العالمين، وأنه ســـبحانه تحدى الملحدين. ووضـحت كيفية القضـاء على وسـوسـة الشـيطان في مسـألة الخلق كما بين رسـول الله (صــلى الله عليه وســلم). وقد فصــلت في إثبات صــفات الكمال لله عز وجل وكيف عَرَّف الله نفســه لخلقه في كتابه وتحدثت عن آية الكرســي كأعظم آيات القرآن الكريم. ومن ثم تناولت ثنائية الخلق دليل على وحدانية الخالق، وأشـــرت إلى مظاهر الحكمة في الخلق، وأجبت في المبحث الثاني من هذا الفصل على سؤال مركزي وهو: أيُّ المخلوقات خلقت أولاً!؟

وتحدثت عن خلق الله عز وجل للعرش، وأنه أكبر المخلوقات وعن خلق الله للماء وخلقـه اللوح المحفوظ، وخلق الزمـان، وخلق الأرض، وخلق الجبـال، وأنهـا خُلقـت بعـد الأرض وعن عبوديتها لله عز وجل وســـجودها وتســـبيحها وخشـــيتها وفوائدها وزوالها وفنائها. وتحدثت عن خلق الســـماوات وأن الســـماء والأرض كانتا ملتصـــقتين، وأن السماء سقف الأرض، ورفعها بغير عمد وعن امتناع سقوط السماء على الأرض وعن خلق الشـمس والقمر وأنهما تابعات للسـماء والأرض وعن ضـياء الشـمس ونور القمر،

وتسخير الشمس والقمر وأنهما آيتان لحساب الأيام والشهور والأعوام وعن خلق الليل والنهار والنجوم وماهيتها وعن المجرات، وأسباب قسم الله عز وجل بمواقع النجوم وخلق الرياح وأنواعها وفوائدها وعن السحب البسيطة والركامية وعن الرعد والبرق والصواعق وعن الشجر والنبات ومنافعها وأنواعها وثمارها وألوانها وعن خلق الظلال.

وأما الفصل الثالث، فكان عن حديث القرآن الكريم عن خلق آدم عليه السلام. وقسمت هذا الفصل لعدة مباحث حسب ذكر قصة أبينا آدم عليه السلام في سور القرآن الكريم.

في المبحث الأول من هذا الفصل، بحث في قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة دراسة تفسيرية وتحليلية:

ركزت على الآيات التي قبل القصة والتي بعدها. ففي ذلك أسرار وفوائد ولطائف عظيمة تساعد على التدبر والتأمل والتفكر والوصول إلى نتائج علمية ومعرفية واضحة وأصول عقائدية راسخة، وكان حديثي في المبحث الأول عن معنى اسم الله (الرب) وعن الملائكة وعن الخليفة في الأرض، وعن أصل البشرية. وما هي الغاية والحكمة من خلق الإنسان؟ وهل هناك مخلوقات قبل آدم عليه السلام في الأرض مكلفة؟

وشرحت المقصود من التسبيح والحمد والتقديس الذي قالته الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30]. كما تكلمت عن تعليم آدم عليه السلام للأسماء كلها والمقصود بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]. وكذلك عن العقل الذي هو الأداة الأساسية في التعليم، وعن نشأة اللغة، وعن لمحات الإعجاز

الغيبي في القصة، ولماذا سُمي آدم بهذا الاسم؟ وكيف كانت حرية التعبير عنده؟ وأيضاً عن مكانة حرية التعبير في حياة الإنسان. وكما وقفت متأملاً في اسم الله العليم والحكيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32]. وذكرت بعض متعلقات علم الله عز وجل في خلقه سبحانه وأمره وآثار الإيمان باسمه (العليم) وكذلك (الحكيم).

وفي الفقرة السابعة من هذا المبحث، كان الحديث عن أمر الله للملائكة بالسجود لآدم وطبيعة هذا السجود وأنه لم يكن لعبادة آدم عليه السلام، وإنما كان الغرض منه تنفيذ أمر الله طاعة له فيما أمر وإكراماً لآدم به إظهاراً لفضله وتنويهاً على مكانته عند الله، وبينت حقيقة السجود الذي أمر به الملائكة وهل كل الملائكة أمروا بالسجود؟ وماهي مكانة آدم عليه السلام بين المخلوقات؟ وما هي الأسباب التي جعلت إبليس يمتنع عن السجود؟ وهل إبليس من الجن أو من الملائكة؟ وما هي الحكمة من خلق إبليس؟

وقد نقلت أقوال العلماء في ذمّ التَّكبر والكِبر وأن أصله إبليس، وأن إبليس أول مخلوق أمرنا الله بكفره، وأن الله خلق أمنا حواء كونها شريكة لأبينا آدم في الحياة وبناء اللبنة الأولى من الحضارة الإنسانية وانطلاقها كما كان الحديث عن الجنة، التي ذكرت في القصة، والسماح لهما بالعيش فيها والابتعاد عن شجرة معينة حددت لهما حتى لا يكونا من الظالمين وتحذيرهما من عدوهما إبليس.

وقد ذكرتُ أقوال العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:36]. وكما بينت ما المقصود بوسوسة إبليس، وأهدافه التخريبية

لبني الإنسان في عقله ونفسه وقلبه وبدنه وعمله على إيقاعهم في المعاصي والذنوب والخطايا، ووضحت الآيات الكريمة التي في سورة البقرة المتعلقة بقصة آدم إلى نهايتها كقوله تعالى:

- ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾
- ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾
- ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

– في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

إن قصة آدم عليه السلام كما جاءت في سورة البقرة حرصت على بيان دروسها وفوائدها وقيمها، وسننها النافعة لبني الناس؛ فبينت الحكمة من معصية آدم عليه السلام وتوبته والفرق بين معصية آدم وإبليس وأنه ليس عند الله خطيئة موروثة.

وتحدثت عن هبوط آدم وزوجه وإبليس إلى الأرض والحكمة من الهبوط، وبأن آدم وزوجه مهيّآن لعمارة الأرض لأنها منزلنا الكبير.

ووقفت وقفة تأمل وتدبر في أقدم الوصايا في تاريخ البشرية، وهي قوله تعالى في نهاية القصة في سورة البقرة: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾ [البقرة:28-29]. وكذلك تكلمت عن نبوة آدم عليه السلام ورسالته لبنيه.

وفي المبحث الثاني من الفصل الثاني، فقد تناولت في الحديث قصة آدم عليه السلام وعدوه اللدود إبليس في سورة الأعراف، فقد تحدثت الآيات الكريمة عن عدة أمور:

- بداية الرحلة الكبرى وربط الحياة بالله عز وجل.
- خلق الإنسان وتصويره، وبينت المراحل التي مر بها:
  - المرحلة الأولى: التراب.
  - المرحلة الثانية: المكون الثاني الماء.
  - المرحلة الثالثة: الطين.
  - المرحلة الرابعة: الطين اللازب.
  - المرحلة الخامسة: الحمأ المسنون.
  - المرحلة السادسة الصلصال.

وبعد ما مر آدم عليه السلام بالمراحل المذكورة: خلقه من تراب ثم تحويل التراب إلى طين ثم تحويل الطين إلى طين لازب ثم تحويل اللازب إلى صلصال من حمأ مسنون، ثم تحويل ذلك الصلصال إلى صلصال كالفخار، صار آدم عليه السلام تمثالاً مجسماً بدون روح، وهذه المرحلة هي مرحلة التصوير تمهيداً لنفخ الروح. قال تعالى:﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سٰجِدِينَ﴾ [ص: 71 – 72].

لقد نفخ الله في هذا التمثال المجسَّم من روحه، فدبت فيه الحياة، وصار إنساناً حياً متحركاً؛ أي بث الله فيه الروح، والتي هي سر الحياة، والتي لا يعلم شأنها إلا من خلقها، فهي في عالم الغيب وهي الجزء المهم من هذا الإنسان وهي التي أعطته القيمة والكرامة.

إن نفخة الروح سـبب الحياة وسـر الحياة وكم من أمر لا يعلمه البشـر، ولكنهم يؤمنون به فالكهرباء حتى الآن ما زالت طلسماً، أفلا يؤمن بها البشر!؟

كيف لا، وجُل حياتهم وآلاتهم وأجهزتهم مرتبطة بها أو قائمة عليها ولم يمنع البشـر عدم فهمهم لماهية الكهرباء أن يؤمنوا بها وينتفعوا بها ولا يقول أحد منهم أقنعني بوجود الكهرباء؟

إن كرامة الإنسان متمثلة بنفخة الروح لا بقبضة الطين، فسمت قبضة الطين بنفخة الروح وتوحيد الخالق الكريم والدين العظيم. وإن الدين هو روح الروح، فكأنما الكرامة لهذا الإنسان بالروح وروح الروح، فتأمل![1]

لقد حاولت في هذا الكتاب تبيان ماهية وطبيعة الروح وجوهرها وأنه هناك استحالة لمعرفة حقيقة الروح. كما أنني بينت أول قول وفعل لآدم عليه السـلام، وكان الحديث موسـعاً عن زوجة آدم عليه السـلام أمنا حواء والشـراكة بينهما في تأسـيس الحضـارة الإنسـانية الأولى بأبعادها المادية والروحية، القائمة على توحيد الله عز وجل، وإفراده بالعبادة واتباع شرعه سبحانه.

كما أن معرفة قصة آدم عليه السلام ومراحل خلقه، وخلق ذريته توضح لكل عاقل متبصر في تلك المراحل أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى، وتبطل كل دعوى في أن الخلق وجد صـدفة أو أن الطبيعة هي التي أوجدت هذا الكون وما فيه من مخلوقات أو أن المخلوقات كانت بدائية ثم تطورت بعد مرور الزمان، وبعد أن انتهت مراحل تكوينها

[1] تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن، ط1، 1440هـ-2019م، ص 203.

وتطورها أخرجت لنا الإنسان. فهذه النظرية تسمى بنظرية التطور والارتقاء التي جاء بها داروِن وهذه النظرية مخالفة للحقيقة العلمية التي جاء بها علم التشـــريع الذي بين فروقاً خلقية بين الكائنات الحية مما يثبت خطأ الأساس الذي قامت عليه تلك النظرية[1].

وقد ناقشت النظرية الداروينية بتوسع في هذا الكتاب، وبينت بطلانها بأدلة العلماء، وبراهين العقل، واســـتدلالات المنطق، وأن الحديث العلمي والأبحاث البيولوجية الثابتة تنســـجم مع خطاب القرآن الكريم، وهو القول الحق: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].

وبعد الدراسـة المعمقة للنظرية، تم بيان بطلانها وعدم صـحتها من الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية، مستأنسين بأدلة العلماء الذين ألف العشرات منهم مئات الكتب والتقارير والنشـرات والتحليلات حول بطلان نظرية دارون علمياً وعقلياً، وقد توصـلوا بجهودهم العلمية إلى نسـف النظرية من أسـاسـها وقوضـوا أركانها ودعائمها مستندين في ذلك على العلم الحديث كعلم الوراثة والجيولوجيا وغيرهما مسـتخلصـين عشـرات الأدلة على فسادها.

وقد تعرضت للقضايا التي ذكرتها قصة آدم عليه السلام في سورة الأعراف، وأهمها:

- ســجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس وحواره مع رب العالمين وبيان ســبب عدم الامتثال لأمر الله عز وجل.

[1] تنوع الخطاب في العهد المكي، رجاء صالح البحر، مكتبة المتنبي، الدمام، ط1 2017، ص 152.

- إصـــرار إبليس على إغواء بني آدم وآتيناهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.
- مخاطبة الله له بالإهانة وإخراجه مذءوماً مدحوراً.
- قصة آدم في الجنة وخروجه منها.
- النداءات الإلهية الأربعة لبني آدم بعد قصـة آدم، وما فيها من تقرير وتحذير كما جاءت في سورة الأعراف.

وفي المبحث الثالث من الفصـل الثاني، تناولت قصـة آدم عليه السـلام في سـورة الحجر:

تناولت الحديث فيه عن خلق الإنسـان من صلصـال من حمأ مسنون وخلق الجان من نار السـموم وأصـل المادة التي خلق منها الجان وإثبات تكليف الجان. وبينت أن ﴿مِنْ رُوحِي﴾؛ "من" في هذه الآية بيانية وليست تبعيضية، وورود كلمة الروح في القرآن الكريم، وأهم المظاهر للحياة الروحية للإنسان، ومنها:

- العيش في واحة الأسماء الحسنى.
- التأمل العقلي في مخلوقات الله المبثوثة في الكون وشـرحت كل الآيات المتعلقة بقصـة آدم عليه السـلام ومصـير من اتبع صـراط الله من الجنان والسـعادة الأبدية ومآل من سلك طريق إبليس إلى جهنم التي وصـفتها الآيات بأن لها سبعة أبواب وأن لكل باب منهم جزء مقسم.

في هذا المبحث، وضحت وسائل إبليس من خلال الآيات التي ذكرت في سورة الحجر من التزيين والإغواء: ﴿لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾؛ فالتزيين والإغواء ركنان أساسيان في الخطة الإبليسية، وكل من يسير على خطة إبليس هو من جنده، فمن يغوي الناس عن الحق ويزين لهم الباطل فليعلم أنه من معسكر إبليس. وبينت الوسائل التي استخدمها إبليس وتم فضحها في هذا الكتاب:

- التشكيك في وجود الخالق.
- التشكيك في اختصاص الله بالعبادة وحمل الناس على عبادة الاصنام.
- التشكيك في العقائد الإيمانية.
- التشكيك الذي يشمل حياة المسلم بشكل عام.
- تزيين الهوى والمعاصي.
- التثبيط عن فعل الطاعات.

وكذلك بينت طريق النجاة التي ذكرها الله عز وجل في هذه القصة وأهمية الإخلاص لله رب العالمين في التغلب على الشيطان واتباعه، فالإخلاص جوهر الأخلاق الإيمانية ونقطة دائرتها لأنه هو المميز لما يترتب على الأخلاق الحسنة من المدح والثواب وعظم المنزلة في الآخرة.

وفي المبحث الرابع من الفصل الثاني، قصة آدم عليه السلام في سورة الإسراء:

حيث شرحت فيه الآيات في السورة، معتمداً على علماء التفسير من المتقدمين والمتأخرين ووقفت مع قوله تعالى في نهاية القصة التي جاءت في سورة الإسراء: ﴿وَكَفَىٰ

بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾؛ متأملاً ومتفكراً ومتدبراً في اسم الله الوكيل، وعلاقته بأحداث القصة وأثر ذلك على حياة الإنسان في الدنيا والأخرة.

وفي المبحث الخامس من هذا الفصل، قصة آدم عليه السلام في سورة الكهف:

فقمت بتوضيح الآيات وبيان معانيها وأحكامها وأسرارها وفوائدها. وتوسعت في شرح قول الله تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف:51].

وفي المبحث السادس من الفصل الثاني، بحثت في قصة آدم عليه السلام في سورة طه:

بحث في الآيات الكريمة في سورة طه المرتبطة بقصة أبينا آدم عليه السلام، ثم شرحتها وفسرتها وركزت على استخراج دروسها وعبرها وفوائدها المتعلقة بـ:

- العهد والنسيان والعزم.
- احتياجات الإنسان الرئيسية.
- حرص عدو آدم على الإغواء.
- مدخل إبليس من الغرائز ومن أهمها: غريزة الملك والخلود.
- توبة الله على آدم وهدايته.
- شرع الله فيه الهدى والرحمة.
- الإعراض عن هدايات السماء فيها الضنك والتعاسة والشقاء في الدنيا والآخرة.

في المبحث السابع من الفصل الثاني، تناولت قصة آدم عليه السلام في سورة ص:

وقد بحثت في الآيات قبل الدخول في القصـــة وعلاقتها بها وشـــرحتها وبينت تفسيرها، ثم شرعت في الحديث عن بداية الإنسان والحوار الذي حدث في الملأ الأعلى، المتعلقة بخلق آدم عليه الســـلام التي لا يمكن الوصـــول إليها إلا عن طريق القرآن الكريم الذي نزل على الصادق المعصوم نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي المبحث الثامن من هذا الفصـل، كان الحديث بشـيء من التفصـيل عن هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض وقصة آدم عليه السلام، وذكرت أمور منها:

- بداية الحضارة الإنسانية الأولى
- الزواج والتناسل
- توافر أسباب الحياة
- آدم عليه السلام داعية التوحيد والهداية الربانية.
- عبادة الله في الأرض
- آدم عليه السلام والبيت الحرام
- البناء الأخلاقي للحضارة الإنسانية الأولى
- أصول الأخلاق والفضائل الإنسانية الأولى.
- عمارة الأرض
- المنهج الرباني
- الاستخلاف ومقوماته

- بنو آدم عليه السلام والأمانة
- مفهوم الأمانة ومجالاتها
- مقومات الأمانة
- بنو آدم والكرامة الإنسانية
- التكريم الجسدي
- التكريم العقلي
- التكليف وأمانة الاستخلاف
- من مظاهر التكريم
- قصة آدم عليه السلام (هابيل وقابيل)
- وفاة آدم عليه السلام والرحيل.

لقد انتهيتُ من هذا الكتاب يوم الخميس في تمام الساعة السابعة وأربع وثلاثين دقيقة قبل صلاة المغرب بمدينة إستانبول وذلك بتاريخ: 19 شوال 1441هـ/ 11 يونيو 2020م، وذلك أثناء حصار البشر، وانقطاع أسباب الأسفار بسبب وباء كورونا، والذي تجاوزت أعداد المصابين به أكثر من أربعة ملايين شخص حول العالم ووفاة أكثر من ربع مليون إنسان حتى تاريخ كتابة هذه الكلمات...

اللهم ارفعه عن بني الإنسانية وردهم إليك رداً جميلاً يا أرحم الراحمين.

والحمد لله على فضله ومنه ونسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً وأن يُكرمنا برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين مع إخوتي الذين ساعدوني في

إتمام هذا الكتاب.

وأخيراً: لا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم، وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده، متبرئاً من حولي وقوتي ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي.

فالله خالقي وهو المتفضل وربي الكريم وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي لتبلد مني العقل، وغابت الذاكرة، ويبست الأصابع، وجفت العواطف، وتحجرت المشاعر، وعجز القلم عن البيان... اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وعلى طاعتك.

اللهم إني أعوذ بك من سوء الأخلاق والأعمال والأهواء وطريق الغواية.

اللهم بصرني بما يرضيك، واشرح صدري، وجنبني اللهم مالا يرضيك، واصرفه عن قلبي وتفكيري واسألك يا الله بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تثبتني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد.

اللهم اجعل هذا العمل لوجهك خالصاً. ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقبول والنفع العظيم.

رب اغفر لي ولوالدي ولجميع المؤمنين

نرجو من كل من يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته من دعائه، قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:19].

والحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

د. علي محمّد محمّد الصّلّابي

إستانبول/

19 شوال 1441هـ/ 11 يونيو 2020م

تمهيد

عندما نتحدث عن قصة الخلق وآدم عليه السلام، وجذور الحضارة الإنسانية الأولى، لا بدّ من الحديث عن الخالق العظيم، والرزاق الكريم، الفعّال لما يريد، الكريم المنّان، الواسع العليم، الذي رأيتُ من خلال مسيرتي في عالم التاريخ عظمتَه في الحياة، وفي قيامِ الدول وزوالها، وانتشارِ الحضارات واندثارِها، وعزِّ الحكومات وإذلالها، وقصص الناس، وفي مخلوقاته العجيبة الغريبة، وفي هذا الكون الفسيح، وحركة التاريخ.

هذا الكتابُ إنّما كان نتاجَ هذه المسيرة، بل إحدى ثمارِها، حيثُ وجدتُ أنّ الذين آمنوا بالله العظيم، واتبعوا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، هدى الله قلوبهم، بل زادها إيماناً، لقد عرفوا ربهم، وعلموا أنّ الله هو التواب الرحيم، ذو الفضل العظيم، العزيز الحكيم، الذي ابتلى ابراهيمَ بكلمات، وسمع نداءَ يونسَ في الظُّلمات، واستجابَ لزكريا فوهبه على الكِبَرِ يحيى هادياً مهدياً، وحناناً من لدنه وكان تقياً.

الله جلّ وعلا الذي أزال الكرب عن أيوب، وألان الحديد لداوُد، وسخّر الريح لسليمان، وفلق البحر لموسى، ورفع إليه عيسى، ونجّى هوداً وأهلك قومه، ونجّى صالحاً من الظالمين، فأصبح قومه في دارهم جاثمين، وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وفدى إسماعيل بذبحٍ عظيمٍ، وجعل عيسى وأمّه آيةً للعالمين.

الله جلّ وعلا الذي أغرق فرعون وجنوده، ونجّاه ببدنه ليكون لمن خلفَه آية، وخسفَ بقارون ودارِه الأرض، ونجّى يوسف من غيابة الجُبِّ، وجعلَه على خزائن الأرض، ونصرَ نوحاً على القوم الكافرين، ونجّاه وأهله من الكرب العظيم.

الله جلّ وعلا الذي أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وأسعد وأشقى، وأجدَّ وأبلى، ورفع وخفض، وأعزَّ وأذلَّ، وأعطى ومنع.

الله جلّ وعلا الذي هدى نوحاً وأضلّ ابنه، واختار إبراهيمَ وأبعد أباه، وأنقذَ لوطاً وأهلكَ امرأته، ولعن فرعونَ وهدى زوجتَه، واصطفى محمّداً ومقت عمَّه، وجعل من أنصار دعوته أبناءَ ألدِّ خصومته؛ كخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فسبحانه عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته[1].

الله جلّ وعلا الذي جمع في هذا الوجود بين الكمال والجمال، وعنصرُ الجمال في هذا الكون مقصودٌ قصداً، جمالٌ مقصودٌ، وكمالٌ بلا حدودٍ، فرؤيةُ الجمال على حقيقته لا تكونُ إلا حينما ينظرُ القلبُ بنور الله، فتتكشّفُ له الأشياءُ عن جواهِرها الجميلة وروائعها البديعة، ويتذكّر اللهَ كلّما وقعت عينُه أو حِسُّه على شيءٍ بديع، أو منظرٍ حَسَنٍ، فيُحسُّ بالصلةِ، ويشعرُ بالترابط بين المبدعِ وما أبدعَ، والجميلِ وما جمّل، والمحسنِ وما أحسنَ، ويرى مِنْ وراء هذا الجمال جمالَ الله وجلالَه وكمالَه، والقرآن الكريم يوقظُ القلوبَ لتتبُّعِ مواضعِ الحسنِ وآيات الجمالِ

1 الله أهل الثناء والمجد، ناصر بن مسفر الزهراني، شركة العبيكان، السعودية، ط7، 2007، ص41.

في هــذا الكون البــديع، قــال تعــالى: ﴿فَتَبَـارَكَ اللَّهُ أَحْسَـــنُ الْخَـالِقِينَ﴾ [ســـورة المؤمنون: 14]، وقـال تعـالى: ﴿الَّذِي أَحْسَـــنَ كُلَّ شَـــيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [سورة السجدة: 7]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ســـورة ق: 6]. وتأمّلْ جملةَ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ إنّه استفهامٌ استنكاري لأولئك الذين لهم أعينٌ لا يبصرونَ بها، وقلوبٌ لا يفقهون بها، ولا يرونَ ذلك الجمالَ الســاحرَ، والإبداعَ الأخّاذ، والحُسْـــنَ الجذّابَ، الذي يدل على ربِّ العبـادِ، ولـذلـك يكثرُ في القرآن الكريم الأمرُ بالنظرِ لأخـذِ العبرة، وللإحساسِ بالجمال. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَـــيْءٍ﴾ [ســـورة الأعراف: 185]. وقال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [ســورة الروم: 50]. وقال تعالى: ﴿قُلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِـــئُ النَّشْـــأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَـــيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت: 20].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَـانُ إِلَى طَعَامِهِ ۝ أَنَّا صَـبَبْنَا الْمَاءَ صَـبًّا ۝ ثُمَّ شَـقَقْنَا الْأَرْضَ شَـقًّا ۝ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْـبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَـدَائِقَ غُلْبًـا ۝ وَفَـاكِهَـةً وَأَبًّا ۝ مَتَـاعًـا لَكُمْ وَلِأَنْعَـامِكُمْ﴾ [سورة عبس: 24-32]. وقال تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سـورة يونس: 101]. فأينَ الأعينُ الناظرةُ، والقلوبُ المبصـرةُ، والأذهانُ المتوقّدةُ،

والفطرةُ السليمةُ، والمشاعِرُ الحيّةُ، والأحاسيسُ المرهَفَةُ؟! يا الله، ما أروعَ هذا الكون! وما أجملَ هذا الوجود! إن المتأمِّلَ فيه يُبْهَرُ بجماله، وروعةِ نظامه، وعظمةِ إحكامِهِ، كلُّ شيءٍ فيه جميلٌ، ليلُه ونهارُه، صبحُه ومساؤه، أرضُه وسماؤه، بدرُه وشمسُه، حَرُّه وبردُه، غيمُه وصحوُه، أخضرُه وأغبرُه، جبالُه وتلالُه[1]، سهولُه ووديانُه، بَرُّه وبحرُه، كلُّ شيءٍ جميلٌ، وكلُّ شيءٍ بديعٌ، وكلُّ شيءٍ متقَنٌ، وكلُّ شيءٍ متناسِقٌ، وكلُّ شيءٍ منتَظِمٌ، وكلُّ شيء بقدر، وكلُّ شيءٍ بإحكامٍ، مِنَ الذرّةِ الصغيرةِ إلى الجِرْمِ الكبير، ومنَ الخليّةِ الساذجةِ إلى أعقدِ الأجسام.

انظر إلى الإنسان وروعة خَلْقه، وتباينِ أجناسِه، وتعدُّدِ لغاتِه، واختلافِ نغماتِه، فالله جلَّ وعلا قد أحسنَ كُلَّ شيءٍ خلقه، ومنْ أحسنِ مخلوقاتهِ وأجملِها الإنسان، قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [سورة التغابن: 3].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: 6-8]. قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين: 4].

انظر إلى السماء وهيبتِها، والنجومِ وفتنتِها، والشَّمسِ وحُسنِها، والكواكبِ وروعتِها، والبدرِ وإشراقِه، والفضاءِ ورحابتِه، تأمّلِ السماء في ليلةٍ حالكةٍ وقد

---

1 الله أهل الثناء والمجد، الزهراني، مرجع سابق، ص 66 – 67.

انتشرت فيها الكواكبُ، وبُثَّتْ فيها النجوم.

انظر إلى الأرض كيفَ دحاها، وأخرجَ منها ماءها ومرعاها، والجبالَ أرساها، هذه البحارُ، هذه الأنهارُ، هذا الليلُ، هذا الصبحُ، هذا الضياءُ، هذه الظلالُ، هذه السُّحبُ، هذا التناغُمُ الساري في الوجودِ كلّه، هذا التناسقُ، هذه الزهرةُ، هذه الوردةُ، هذه الثمرةُ اليانعةُ، هذا اللَّبنُ السائغُ، هذا الشَّهْدُ المُذابُ، هذه النخلةُ، هذه النحلةُ، هذه النملةُ، هذه الدُّويبةُ الصغيرةُ المجهّزةُ بالأرجلِ والشُّعيراتِ لتشقَّ طريقَها، وتتعاملَ مع واقعِها، هذه السمكةُ، هذا الطائرُ المغرِّدُ، والبلبلُ الشادي، هذه الزاحفةُ، هذا الحيوانُ؛ جمالٌ لا ينفد، وحُسْنٌ لا ينتهي، وقُرَّةُ عينٍ لا تنقطعُ[1]. قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [سورة الروم: 17-19].

الله سبحانه إلهٌ واحدٌ ليس له شريكٌ، وليسَ له مثيلٌ في ذاته وصفاته وأفعاله، كلُّ ما في الكون من إبداعٍ ونظامٍ وانسجامٍ يدلُّ على أنَّ مبدعَه ومدبِّره واحدٌ، ولو كان وراءَ هذا الكون أكثرُ من مدبِّرٍ، وأكثرُ من منظِّمٍ، لاختلَّ نظامُه، واضطربَتْ سنَنُهُ. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 22]. وليس التوحيدُ مجرَّد إقرارِ العبد

---

1 الله أهل الثناء والمجد، الزهراني، مرجع سابق، ص 69-68.

بأنّه لا خالقَ إلا الله، وأنَّ اللهَ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، كما كان عُبّادُ الأصنامِ مقرّين بذلكَ وهم مشركون، بل التوحيدُ يتضمّن محبَّةَ اللهِ، والخضوعَ له، والذلَّ له، وكمالَ الانقيـادِ لطـاعتِـه، وإخلاصَ العبـادةِ لـه، وإرادةَ وجهـهِ الأعلى بجميعِ الأقوالِ والأعمالِ، والمنعِ والعطاءِ، والحُبِّ والبغض، وهو واحدٌ سـبحانه في ألوهيته، فلا يستحقُّ العبادةَ إلا هو، ولا يجوزُ التوجُّه بخوفٍ أو رجاءٍ إلا إليه. لا خشيةَ إلا منه، ولا ذلَّ إلا إليـه، ولا طمعَ إلا في رحمتـه، ولا اعتمـادَ إلا عليـه، ولا انقيـاد إلا لحكمه[1]. الله جلّ وعلا كلُّ الخلقِ مفتقرونَ إليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: 15].

قد يُعْطَى الإنسـان أموالاً، وقد يُمْنَحُ عقاراً، وقد يُرْزَقُ عيالاً، وقد يُوْهَبُ جاهاً، وقد ينَاَلُ منصباً عظيماً، أو مركزاً كريماً، أو زعامةً عريضةً، أو رياسةً مكينةً، قد يحفُّ به الخدمُ، ويحيطُ به الجندُ، وتحرسُـه الجيوشُ، ويخضَـعُ له الناسُ، وتذلُّ له الرؤوسُ، وتدينُ له الشـعوبُ، ولكنّه مع ذلك فقيرٌ إلى الله، محتاجٌ إلى مولاه[2]. الله تعالى أسـعدَ عبادَه بكتابه، وأبهجَ قلوبَهم بكلامه، وأنارَ بصـائِرَهم بقراءته، أكثرُهم قراءةً له أشدُّهم تعظيماً له، وأقربُهم منزلةً منه أقربُهم من كلامه، وأقرَؤُهم لوحيه.

كلامٌ معجزٌ، وقرآن مبهجٌ، وحبلٌ متينٌ، ونورٌ مبينٌ، ينطِقُ بالعظمـةِ، ويهتِفُ

---

1 الله أهل الثناء والمجد، الزهراني، مرجع سابق، ص 85.

2 الزهراني، المرجع نفسه، ص. ص 127-126.

بالإبداعِ، ويصـدَحُ بالألوهيةِ، ويشـهدُ بالربوبية[1]. قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [سورة الزمر: 23]. وجودُ الله جلّ وعلا أمرٌ ثابتٌ في النفوس، متمكّنٌ في الفِطَرِ، مزروعٌ في الأذهانِ، مغروسٌ في الأفئدةِ، لا يحتاجُ إلى دليلٍ، ولا يتطلّب إثباتاً، ولا يفتقِرُ إلى توكيدٍ. قال الشاعر المتنبي:

وَلَيسَ يَصِحّ في الأفهامِ شـيءٌ إذا احتَـاجَ النّهـارُ إلى دَليـلِ

ولكنَّ بعضَ ذوي الفِطَرِ المنكوسـةِ، والأنْفُسِ المريضـةِ، والعقليّات المتعنّتَةِ، قد يجادلون في ذلك، مع أنّه مغروسٌ في حقيقة ضـمائرهم، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [سورة النمل: 14]. وجاء القرآن الكريمُ مزدهراً بآياتٍ تنطِقُ بالعظمةِ، وتشـهدُ بالربوبيَّةِ، وتَسُـرُّ نفوسَ الواثقين، وتدحَضُ مزاعمَ المارقين، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [سورة الطور: 35].

وقد تعرّضَ أنبياءُ اللهِ، وأمناءُ الوحي، وحملةُ الدعوةِ، ومصـابيحُ الدجى، وأنصـارُ التوحيدِ، لعددٍ من المتعنتين على مرِّ العصـورِ، مع اختلافٍ في طبقاتهم، وتبايُنٍ في تفنُّناتِهم، إلاّ أنّ بعضَهم وصلَ به الأمرُ إلى أنِ ادّعى أنّه ربٌّ العالمين، فأيّد الله أولياءَه بحججٍ قاهرةٍ، ودلائلَ باهرةٍ، وأدلةٍ قاصمةٍ، وصواعقَ مرسلةٍ، تدمّرُ أباطيلَهم، وتنسِفُ

---

1 الزهراني، مرجع سابق، ص 490.

افتراءاتِهم، وتزلزِلُ كياناتِهم، وتُظْهِرُ سُـــخْفَ عقولِهم، وقلّة فهمهم، وانحطاطَ أمانيهم؛ فهذا إبراهيمُ عليه الســـلام يحاوِرُ النمرود، الذي طَغَى وتجبّر، وعتا وتكبّر، وادّعى الربوبيةَ من دون المولى عزّ وجل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّـمْسِ مِنَ الْمَشْـرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [ســورة البقرة: 258]. فحينما أدلى إبراهيمُ بالدليل الأوّلِ على وجودِ الله تعالى وربوبيته فقال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت﴾. قال النمرود: وأنا أحيي وأميتُ (فأتي برجلين قد تحتّمَ قتلهما، فأمرَ بقتلِ أحدهما وعفا عن الآخر، فكأنّه قد أحياه، وأمات الآخر)، وهذه حجةٌ واهيةٌ وردٌّ سخيفٌ، ولكنَّ إبراهيمَ عليه السلام تدرّجَ معه في المحاجَّةِ فأتاه بالضربةِ القاضيةِ، والحجَّةِ الدامغةِ، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّـمْسِ مِنَ الْمَشْـرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [سـورة البقرة: 258]، أي هذه الشمسُ مسخّرةٌ كلَّ صباحٍ تطْلعُ من المشرقِ، كما سخّرها خالقُها ومسيِّرُها وقاهِرُها؛ اللهُ الذي لا إله الا هو، خالقُ كلِّ شــيءٍ، فإنْ كنتَ كما زعمتَ أنَّك تحيي وتميتُ فأتِ بهذهِ الشمسِ مِنَ المغربِ، فإنَّ الذي يحيي ويميت هو الذي يفعلُ ما يشاءُ، ولا يمانَعُ، ولا يغالَبُ، بل قد قهرَ كلَّ شــيءٍ، ودانَ له كُلُّ شــيءٍ، فإنْ كنتَ كما تزعمُ فافعل هذا، فإنْ لم تفعلَه فلســتَ كما زعمتَ، وأنتَ تعلمُ وكلُّ أحدٍ يعلمُ أنك لا تَقْدِرُ على هذا، ولم يبقَ للنمرود كلامٌ يجيبُ فيه الخليلَ عليه الســلام[1]، ولهذا قال

1 الله أهل الثناء والمجد، الزهراني، مرجع سابق، ص 567.

تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: 258].

وقال الصحابي (الشاعر) لبيد بن ربيعة:

فيا عجباً كيفَ يُعْصَى الإلـ ـــــه أمْ كيــفَ يجحَدُهُ

وللهِ فـــي كـــلّ تحريكةٍ علينا وتســكينةٍ شــاهدُ

وفي كـل شـــيءٍ لـه آيـةٌ تــدلُّ على أنـه واحــدُ

وما أجمل هذه الأبياتَ الرائعةَ التي قالها الشاعر إبراهيم بريول رحمه الله:

إني أويت لكل مأوى في الحيا ةِ فما رأيت أعز من مأواكا

وتلمّســت نفســي السـبيل إلى ةِ فلم تجـد منجى ســوى

وبحثت عن سر السعادة جاهداً فوجـدت هـذا الســر في

فليرضَ عني الناس أو فليسخطوا أنا لم أعد أسعى لغير رضاكا

إلى أن قال:

يا أيهـا الإنســـان مهلاً ما بالله جلَّ جلالُهُ أغراكا؟

فاســجد لمولاك القدير فإنما لا بدَّ يوماً تَنْتَهِي دُنياكا

وتكونُ في يومِ القيامةِ مائلاً تُجْزَى بما قَدْ قدّمَتْهُ يَدَاكا

إنَّ حقائقَ الاســلام ثابتةٌ لا تتغير، منذ أُنزلتْ على رسـول الله صـلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، المرجعُ فيها كتابُ اللهِ وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنّ علماءَ الأُمّة في كلِّ جيلٍ، وطلاّبَ العلمِ فيها، يتناولونها بالشـــرح والتفســـيرِ من خلالِ الواقعِ الذي يعيشُـــه كلُّ جيلٍ، وما جدَّ فيها من نوازلَ، وما حدثَ فيه من انحرافٍ في الفهمِ أو السلوكِ، وإنَّ جيلنا الذي نعيشُ فيه لهو مِنْ أحوجِ الأجيالِ إلى التعرُّفِ على حقائق دينه، وخصوصاً قصة الخلق وآدم عليه السلام.

الفصل الأول: أولة وجود الخالق وبدء قصة الخلق

المبحث الأول: معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ فضلُها وشروطُها:

أوَّلُ كلمةٍ يدخلُ بها الإنسـان بوّابةَ الإسـلامِ، ويصـلُ إلى مدارجِ التوحيد، ويرتقي في مراقي العبودية، هي كلمةُ (لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله)، التي بموجبها يعترفُ العبدُ للهِ عزّ وجلّ وحدَه بالربوبية والألوهية، ولمحمَّدٍ صـلى الله عليه وسـلم بالرسـالةِ. أنْ يشـهدَ العبدُ أنَّ الله هوَ المسـتحقُّ للعبادةِ، وأنْ تنصَـرفَ قواه –قوى عقلِهِ وقلبِهِ وبدنهِ وجوارحِه– في التسـبيح، والتهليلِ، والتمجيد، والعبودية لهذا الإله العظيم، الذي أنتَ أيُّها الإنسـان من بعضِ فضـلِه، ومن بعضِ خلقِه، فكلُّ ذرَّاتِ كيانك الداخلية تعترِفُ به، وتمجِّده، وتسبِّحه، شئتَ أم أبيتَ، غفلتَ أم انتبهت، حَيِيْتَ أم مِتَّ، آمنتَ أم كفرتَ، فيبقى اختيارُ الإنسـان أن يعبدَ ربَّه سـبحانه وتعالى طَوْعاً بما أمره الله تعالى، وبما جاء على ألسنةِ رسلِهِ المكرّمين عليهم الصلاة والسـلام[1]، وأن يشـهدَ أنَّ محمَّداً صـلى الله عليه وسـلم الخاتمَ للرسـل هو عبدُ اللهِ ورسـولُه، أرسـلَه ربُّنا إلى الخَلْقِ أجمعين، من الإنس والجن، وذلك إقراراً باللسـانِ، وإيماناً بالقلب، بأنَّه رحمةٌ مهداةٌ للعالمين.

أولاً: معنى: لا إله إلا الله محمد رسول الله:

إن معنى كلمة لا إله إلا الله أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، فهو وحدَه سـبحانه

1 مع الله، سلمان بن فهد العودة، دار الإسلام اليوم، 1429هـ/2008م، ص 39.

المستحقُّ بأنْ تصرفَ له جميعُ العباداتِ، وتكونَ خالصةً له دون سواه، قال تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة: 163].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الزخرف: 26-28]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة آل عمران: 2].

ومعنى شهادةِ (أنَّ محمداً رسول الله): الإقرارُ باللسانِ، والإيمان بالقلبِ، بأنَّ محمَّد بنَ عبد الله القرشيَّ الهاشميَّ رسولُ اللهِ إلى جميعِ الخلقِ من الجنِّ والإنسِ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة الأعراف: 158] .

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [سورة الفرقان: 1].

فكلمة لا إله إلا الله تشمل جزأين؛ النفي والإثبات:

- أما "لا إله": فنافيةٌ لجميعِ ما يُعْبَدُ منْ دونِ الله تعالى، فلا يستحقُّ أنْ يُعْبَدَ أحدٌ سواه، و"النكرةُ في سياق النفي تفيدُ العمومَ"؛ فهي تشملُ كلَّ ما يمكِنُ أنْ

يُتوجَّه إليه بالعبادةِ، وكلَّ مَنْ تُصْرَفُ إليه غير الله تعالى[1].

– أما "إلا الله": فَمُثْبِتَةٌ العبادةَ للهِ تعالى، فهو الإله الحقُّ، المستحقُّ للعبادة، فإنَّ خبر "لا" المحذوفَ "بحق" هو الذي جاءت به نصوصُ الكتاب المبين، فمعنى "لا إله بحق إلا الله": أي لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، فكما تفرَّد سبحانه وتعالى بالخَلْقِ، والرزق، والإحياءِ، والإماتةِ، والإيجاد والإعدامِ، والنفعِ، والضّرِ، وغير ذلك من معاني ربوبيته، ولم يشارِكْه أحدٌ في خلقِ المخلوقات، ولا في التصرّفِ في شيءٍ منها، فكذلك تفرُّدُه سبحانه بالألوهيةِ حقٌّ لا شريكَ له، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سورة لقمان: 30].

–أما لفظ الجلالة في كلمة الشهادة "الله" عزَّ وجلَّ:

– فهو اسمٌ من أسمائه جلَّ وعلا، وهو اسمه الأعظم عندَ قومٍ.

– وهو أكثرُ الأسماءِ تردُّداً في القرآن والسنة.

– و"الله" هو أكثرُ الأسماءِ اشتهاراً وترديداً على ألسنةِ المخلوقين كلّهم بمختلف ألسنتهم.

– و"الله" هو الاسم الدالُّ على الذاتِ العظيمةِ الجامعةِ لصفاتِ الألوهية والربوبية.

---

1 العقيدة الصافية، سيد سعيد عبد الغني، دار طيبة الخضراء، 1434 هـ، ص 260.

– وهو اسمٌ له وحدَه، لا يتعلّق به أحدٌ سواه، ولا يُطْلَقُ على غيره، ولا يدّعيه أحدٌ مِنْ خلقه.

– و"الله" اسمٌ للربِّ المعبودِ المحمودِ، الذي يمجِّده الخلقُ، ويسبّحونه، ويحمَدونه، وتسبّحُ له السماواتُ السبعُ، والأرضونَ السبعُ، ومن فيهنّ، والليل والنهار، والإنس والجن، والبَرُّ والبحر، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة الإسراء: 44].

– و"الله" هو الربُّ الذي تألَهُهُ القلوبُ، وتحنُّ إليه النفوسُ، وتتطلَّعُ إليه الأشواقُ، وتحِبُّ وتأنَسُ بذكره وقربِهِ، وتشتاقُ إليه، وتفتقر إليه المخلوقاتُ كلُّها في كلِّ لحظةٍ وومضةٍ، وخطرةٍ وفكرةٍ، في أمورِها الخاصّةِ والعامّةِ، والكبيرةِ والصغيرةِ، والحاضرةِ والمستقبليةِ، فهو مبديها ومعيدُها، ومُنْشِئُها وباريها، وهي تدينُ له سبحانه وتُقِرُّ، وتفتقِرُ إليه في كلِّ شؤونها وأمورِها، فما مِنْ مخلوق إلا ويشعرُ بأنَّ الله تعالى طوّقه مِنَناً ونعماً، وأفاضَ عليه من آلائه وكرمه وإفضاله وإنعامه الشيء الكثير، فجديرٌ إذاً أنْ يتوجَّه قلبُ الإنسان إلى الله تبارك وتعالى بالحبِّ والتعظيم والحنين.

– "الله" عظيمٌ في ذاته، وصفاته، وأسمائه، وجلاله، ومجده، لا تحيطُ به العقولُ، ولا تدرِكُه الأفهام، ولا تَصِلُ إلى عظمته الظُّنون، فالعقولُ تحارُ في عظمته، وإن

كانت تســـتطيع بما مُنِحَتْ من الطّوْقِ والقدرةِ أن تدرِكَ جانباً من هذه العظمةِ يمنحُها محبةَ اللهِ، والخوفَ منه، والرجاءَ فيه، والتعبُّدَ له بكلِّ ما تســـتطيع[1]. قال الشاعر:

لله في الآفــاق آيات لعــلَّ	أقلها هو ما إليه هـــــــداكا
ولعل ما في النفس من آياته	عجــبٌ عجــابٌ لو ترى
والكون مشحون بأسرار إذا	حاولت تفسيراً لها أعـــياكا

- "الله" هو الإله المعبود، الـذي يُخْلِصُ لـه المؤمنون قلوبَهم، وعبـادتهم، وصـلاتَهم، وحَجَّهم، وأنســاكَهم، وحياتَهم، وآخرتَهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَـلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْـلِمِينَ﴾ [ســورة الأنعام: 162-163]. وروحُ لا إله إلا الله وســرُّها: إفرادُ الربِّ جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه، وتباركَ اسمُه، وتعالى جَدُّه، ولا إله غيرُه؛ بالمحبةِ، والإجلالِ، والتعظيمِ، والخوفِ، والرجاءِ، وتوابعِ ذلك من التوكلِ، والإنابةِ، والرّغبة، والرّهبةِ، فلا يُحَبُّ ســـواه، بل كلُّ من كان يحِبُّ غيره فإنما يحبُّه تبعاً لمحبته، ولأنّه وسـيلةٌ إلى زيادةِ محبته، ولا يُخَاف ولا يُرْجَى سـواه، ولا يُتَوَكَّلُ إلَّا عليه، ولا يُرْغَبُ إلَّا إليه، ولا يُرْهَبُ إلَّا منه، ولا يُحْلَفُ إلَّا باسمِهِ، ولا يُنْذَرُ إلَّا لـه، ولا يُتَابُ إلَّا إليه، ولا يُطَاعُ إلَّا بأمرِهِ، ولا يُحْتَسَـبُ إلَّا له، ولا يُسْـتَعَانُ في الشـدائِد إلَّا به، ولا

1 مع الله، العودة، مرجع سابق، ص 36-37.

يُلْتَجَأُ إلَّا إليه، ولا يُسْــجَدُ إلَّا له، ولا يُذْبَحُ إلَّا له وباسْمِهِ، يجتمع ذلك في حرفٍ واحدٍ؛ هو أنْ لا يُعْبَدَ بجميع أنواعِ العباداتِ إلَّا هو. فهذا هو تحقيقُ شــهادةِ "أن لا إله إلَّا الله"، ولهذا حرَّمَ الله على النارِ مَنْ شــهدَ "أنْ لا إله إلا الله" حقيقةً، ومحالٌ أن يدخل النارَ مَنْ تحقَّقَ بحقيقةِ هذه الشــهادة، وقامَ بها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [سورة المعارج: 33]. فيكونُ قائماً بشهادتهِ في باطنهِ وظاهره، وفي قلبه وقالبه[1].

ومقتضى هذه الشهادة أنْ تصدِّق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبرَ، وأن تمتثل أمرَه فيما أمر، وأنْ تتَجَنَّبَ ما عنه نهى وزجر، وأنْ لا تعبدَ الله إلا بما شرع، وأنْ لا تعتقد أنَّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم حقّاً في الربوبية، وتصريفِ الكون، أو حقّاً في العبادةِ، بل هو صلى الله عليه وسلم عبدٌ لا يُعْبَدُ، ورسولٌ لا يكذَّبُ، ولا يملِكُ لنفسِهِ ولا لغيره شيئاً منَ النفع أو الضرِّ إلا ما شاء الله[2].

لقد عُرِفَتْ لا إله إلا الله لدى المســلمين "بكلمة التوحيد"، و"كلمة الإخلاص"، و"كلمة التقوى"، وكانت لا إله إلا الله إعلانَ ثورةٍ على جبابرةِ الأرض وطواغيتِ الجاهلية، ثورة على كل الأصــنام والآلهة المزعومة من دون الله، ســواء كانت شــجراً أم حجراً أم بشــراً. وكانت لا إله إلا الله نداءً عالمياً لتحريرِ الإنســان من عبوديةِ الإنسان والطبيعة وكلّ مَنْ خُلِق، وكانت لا إله إلا الله عنوانَ

---

1 الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار المعرفة، المغرب، ط1، 1997، ص 139.

2 الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط1، 2003، 233/1.

منهجِ اللهِ الذي لا تعنو الوجوهُ إلا له، ولا تنقادُ القلوبُ إلَّا لحكمه، ولا تخضعُ إلَّا لسلطانه[1].

ثانياً: فضل كلمة "لا إله إلا الله":

لقد ورد في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من الفضائل الجمّة لهذه الكلمة، والخصالِ العديدة، والأوصافِ الحميدةِ، ما يَصْعبُ استقصاؤه في هذا الموضع، فهي كلمةٌ قامت بها الأرضُ والسماوات، وخُلِقَتْ لأجلها جميعُ المخلوقاتِ، وبها أَرسلَ الله تعالى رسلَه، وأنزلَ كتبَه، وشرعَ شرائعَه، ولأجلِها نُصِبَتِ الموازينُ، ووضعت الدواوينُ، وقام سوقُ الجنّة والنار، وبها انقسمتِ الخليقةُ إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجّار، فهي منشأُ الخلقِ والأمر، والثوابِ والعقابِ، وهي الحقُّ الذي خُلِقَتْ له الخليقةُ، وعنها وعن حقوقها السؤالُ والحسابُ، وعليها يقعُ الثوابُ والعقابُ، وعليها نُصِبَتِ القبلةُ، وعليها أُسِّسَتِ الملّةُ ولأجلِها جُرِّدتْ سيوفُ الجهادِ، وهي حقُّ اللهِ على جميعِ العبادِ، فهي كلمةُ الإسلام، ومفتاحُ دارِ السلامِ، وعنها يُسْألُ الأولون والآخرون، فلا تزولُ قدما العبد بين يدي الله حتى يُسْأَل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فجوابُ الأولى: بتحقيق لا إله إلا الله معرفةً، وإقراراً، وعملاً. وجواب الثانية: بتحقيق "أن محمداً رسول الله" معرفةً، وإقراراً، وانقياداً وطاعةً[2].

---

1 الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط4، 1399هـ، ص 31.

2 الجواب الكافي، محمد بن أبي بكر ابن القيم، المرجع السابق، ص 34/1.

ومما ورد في فضـل هذه الكلمة في القرآن الكريم أنّها وُصِـفَتْ بالكلمة الطيبة، والقولِ الثابتِ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سـورة إبراهيم: 24-25]. وأنها العروة الوثقى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [سـورة البقرة: 256]. ومن فضـائلها أنّ الرسـل جميعَهم أُرسـلوا بها مبشِّـرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [سـورة الأنبياء: 25]. إلى غير ذلك من الفضائل التي ذُكِرتْ في القرآن الكريم.

وأما ما ورد في فضلها في السنة المشرفة فكثيرٌ جدّاً؛ نذكرُ منه بعضها:

فمن ذلك أنها أفضـل شـعب الإيمان، فقد ورد عنه صـلى الله عليه وسـلم أنه قال: (الإيمانُ بِضْعٌ وسبعونَ، أو بِضْعٌ وستون شُعْبَةً، أفضلُها: قولُ لا إله إلا الله، وأَدْناها: إمَاطَةُ الأذى عن الطريق)[1].

ومن فضـائلها أن الجهاد أُقِيْمَ من أجل إعلائها، كما قال الرسـول صـلى الله عليه وسـلم: (أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتّى يَشْـهَدوا أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسـولُ اللهِ، ويقيموا الصـلاةَ، ويؤتوا الزكاةَ، فإذا فعلوا ذلك عَصَـمُوا منّي دماءَهم

1 أخرجه مسـلم في صـحيحه، كتاب الإيمان، باب: بيان عدد شـعب الإيمان، وأفضـلها وأدناها وفضـيلة الحياء، وكونه من الإيمان، رقم: (35)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

وأموالَهم، إلَّا بحقِّ الإسلامِ، وحسابُهم على اللهِ)[1].

ومن فضـــائلها أنَّها ترجُحُ بصـــحائفِ الذنوب، كما جاء في حديث البطاقة، فعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضـي الله عنهما قال: قال رسـول الله صـلى الله عليه وســـلم: (إنَّ اللهَ سَـــيُخَلِّصُ رجلاً مِنْ أُمَّتي على رؤوس الخلائق يومَ القيامةِ، فَيَنْشُرُ عليه تسعةً وتسعينَ سِجِلّاً، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يقولُ: أتُنْكِرُ مِنْ هـذا شـــيئاً، أظلمَـك كَتَبتي الحـافظونَ؟ فيقولُ: لا يا ربِّ، فيقولُ: أَفَلَكَ عُـذْرٌ؟ فيقولُ: لا يا ربِّ. فيقولُ: بلى إنَّ لك عِنْدَنَا حســـنةً، فإنه لا ظُلمَ عليكَ اليومَ، فتُخْرَجُ بطاقةٌ فيها: أشـــهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله، وأشـــهدُ أنَّ محمّداً عبدُه ورســـولُه، فيقول: احْضُـرْ وزنَكَ. فيقول: يا ربِّ ما هذهِ البطاقةُ مَعَ هذهِ السـجّلاتِ؟ فقال: إنّك لا تُظْلَمُ. قال: فتوضـــع الســـجّلاتُ في كِفّةٍ، والبطاقةُ في كِفّةٍ، فطاشـــتِ السجلّاتُ، وَثَقُلَتِ البطاقةُ، فلا يَثْقُلُ مَعَ اسمِ اللهِ شيءٌ)[2].

ثالثاً: أفضلُ الذكرِ "لا إله إلا الله":

إنّ ذكرَ اللهِ من أفضـــل العباداتِ المقرّبةِ إلى اللهِ تعالى وأجلّها، وأعظمِها أجراً، مع سهولته ويُسْرِهِ على مَنْ يسرّهُ الله عليه. هذا وإنّ أفضل أنواعِ الذكر بعد القرآن العظيم هو قولُ المرءِ: لا إله إلا الله. وهي كلمةُ التوحيدِ، كما ورد عنه صـــلى الله

---

1 أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم)، رقم: (25)، تحقيق محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، ط 1، 1422.

2 أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب الإيمان عن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشـهد أن لا إله إلا الله، رقم: (2639). وقال الترمذي: هذا حديث حسـن غريب. تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، 1996.

عليه وسلم أنَّه قال: (أفضلُ الذكرِ لا إله إلا الله)[1].

وهذه الكلمةُ الجليلةُ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ أنْ يتعلَّمَها، ويعلمَ مضمونَها ومعناها، وشروطها وأركانها، وكلَّ ما يتعلّق بها؛ لأنّها الكلمةُ التي يصيرُ بها المرءُ مسلماً، فهي الفيصلُ بين الكفر والإسلام، ولأنَّ الله جلّ جلاله أمر أفضلَ خلقِهِ وخاتمَ رسلِهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يَعْلَمَ كلَّ ما يتعلَّقُ بها ويعتقدَه في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة محمد: 19] .

وقد ذمّ الله سبحانه من استكبرَ عنها، وأعرضَ عنها، وتركَ العمل بها، في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [سورة الصافات: 35-36]. ووصف الله سبحانه نفسَه بما تضمنته هذه الكلمةُ في غير موضع من كتابه فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة: 255]. وقال سبحانه: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة غافر: 65]. وحققها إبراهيمُ عليه السلام كما حكى الله عنه بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الزخرف: 26-28].

---

1 أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب دعوات الرسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، رقم: (3383)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

رابعاً: أشعةُ كلمةِ لا إله إلا الله تبدّدُ ظلماتِ القلوبِ:

اعلمْ أنَّ أشعة لا إله إلا الله تبدِّدُ مِنْ ضبابِ الذنوبِ وغيومِهَا بقدر قوّةِ ذلك الشّعاع وضعفه؛ فلها نورٌ، وتفاوتُ أهلِها في ذلك النّور قوةً وضعفاً لا يحصيه إلا الله تعالى، فمن الناس مَنْ نورُ هذه الكلمةِ في قلبه كالشمس، ومنهم مَنْ نورها في قلبه كالكوكب الدرّي، ومنهم مَنْ نورُها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراجِ الضعيف، ولهذا تظهرُ الأنوارُ يومَ القيامةِ بأيمانهم، وبينَ أيديهم، على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علماً وعملاً، ومعرفة وحالاً، وكلّما عَظُمَ نورُ هذه الكلمة واشتدّ أحرقَ مِنَ الشبهاتِ والشهواتِ بحسب قوته وشدّته، حتى إنّه ربما وصلَ إلى حالٍ لا يصادفُ معها شبهةً ولا شهوةً ولا ذنباً إلا أحرقه، وهذا حالُ الصادقِ في توحيدهِ، الذي لم يشركْ باللهِ شيئاً، فأيُّ ذنبٍ أو شهوةٍ أو شبهةٍ دنت من هذا النور أحرقَها، فسماءُ إيمانه قد حُرِستْ بالنجوم من كلِّ سارقٍ لحسناته، فلا يَنَالُ منها السارقُ إلا على غرّةٍ وغفلةٍ، لا بدّ منها للبشر، فإذا استيقظَ وعلمَ ما سُرِقَ منه استنقذه من سارقه، أو حصّل أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبداً مع لصوص الجنّ والإنسِ، ليسَ كمَنْ فتحَ لهم خزانَته، وولّى البابَ ظهره[1].

---

1 الجواب الكافي، محمد بن أبي بكر ابن القيم، مرجع سابق، 19/1.

خامساً: توافق بين "لا إله إلا الله" و"إياك نعبد":

إنّ معنى لا إله إلا الله تضــمّنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْــتَعِين﴾ [سورة الفاتحة: 5]. وهذه الآية متضمّنةٌ لأجلِّ الغايات؛ ففيها يُسْرُ الخلق والأمر، والدنيا والآخرة، وهي متضــمّنةٌ لأجلِّ الغايات، وأفضــل الوســائل، فأجلُّ الغايات عبوديتُه، وأفضل الوسائل إعانتُه، فلا معبودَ يستحقُّ إلا هو، ولا معينَ على عبادته غيره، فعبادتُه أعلى الغايات، وإعانتُهُ أجلُّ الوســائلِ. وقد اشــتملت هذه الكلمةُ على نوعي التوحيد؛ وهما: توحيد الربوبية، وتوحيد العبادة، وتضـمّنت التعبُّدَ باسـم الرب واسم الله، فهو يُعْبَدُ بألوهيته، ويُستعانُ بربوبيته، ويُهْدَى إلى الصراط المستقيم برحمته، فكـان أولُ الســـورةِ ذكر اسمـه: "الله" و"الرب" و"الرحمن" تطـابقـاً لأجل الطالبِ من عبادته وإعانته وهدايته، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله، لا يعينُ على عبادته سواه، ولا يهدي سواه[1].

سادساً: شروط "لا إله إلا الله":

لما كـان معنى لا إلـه إلا الله هو أنّـه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، ولما كـان كثيرٌ من الناس يدرِكُ معنى وأهمية لا إله إلا الله، كان لا بدّ لنا أن نتحدّث عن شـروطِ هذه الكلمة.

ورحم الله وهب بن منبه حين سُئِلَ: أليستْ لا إله إلا الله مفتاح الجنّة؟

1 العقيدة في الله، عمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط 12، 1999، ص96، نقلاً عن ابن القيم في الصلاة.

قال: بلى، ولكنْ ليس مفتاحٌ إلا له أسـنان فإن جئتَ بمفتاحٍ له أسـنانٌ فتَحَ لك، وإلّا لم يفتحْ لكَ[1]، وهذه الأسـنانُ هي شـروطُ هذه الكلمة العظيمة، والتي عددُها سـبعة عند العلماء، وليس المرادُ مِنْ هذا عدَّ ألفاظِها، وحفظَها، فكم مِنْ عامّيٍ اجتمعت فيه والتزمَها، ولو قيل له عدِّدها لم يُحْسِـنْ ذلك. وكم حافظٍ لألفاظِها يجري فيها كالسهمِ، وتراهُ يقعُ كثيراً فيما يناقِضُها، والتوفيق بيد الله[2].

إليك هذه الشروطَ وأدلّتها من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مع الاختصار:

1- العلم بمعناها نفياً وإثباتاً، علماً ينافي الجهل بها:

قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة محمد: 19]، وقال تعالى: ﴿شَـهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: 18]. وفي الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ ماتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أنّه لا إله إلا الله دَخَل الجنّة)[3].

2- اليقين المنافي للشك:

وذلك بأن يكونَ قائِلُها مستيقناً بمدلولِ هذه الكلمة يقيناً جازماً. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي

---

1 أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً، كتاب الجنائز، باب: ما جاء في الجنائز، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله، (417/1). مسائل هامة في توحيد العبادة، محمد القحطاني، ص 21.

2 معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق عمر بن محمود، دار ابن القيم، الدمام، ط 1، 1990، 377/1.

3 صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم: (26).

سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [سورة الحجرات: 15]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ، لا يَلْقَى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ فيهما إلَّا دخلَ الجنَّة)[1]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرةَ رضي الله عنه: (اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هاتَينِ فَمَنْ لقيتَ من وراءِ هذا الحائطِ يَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ مستيقناً بها قلبُه فبشّره بالجنة)[2].

3- القبول لما اقتضته هذه الكلمة بالقلب واللسان:

وقد قصّ الله علينا من أنباء ما قد سبق مِنْ إنجاءِ مَنْ قَبِلَها وانتقامه ممَّن ردّها وأباها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: 47].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس: 103]. وقال تعالى عن الذين كذبوا بهذه الكلمة ورفضوها ولم يقبلوها: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة الزخرف: 25].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ بهِ مِنَ الهُدى والعِلْمِ

---

1 صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم: (27).

2 صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم: (31).

كَمَثَلِ الغَيْثِ الكثيرِ أصـــابَ أرضـــاً، فكانَ مِنْها نقيَّةٌ قَبِلتِ الماء فَأَنْبَتَتِ الكلأَ والعُشْـبَ الكثيرَ، وكانتْ منها أجادِبُ أمسـكتِ الماءَ فنفعَ اللهُ بها الناسَ فشـربوا وسَقَوا وزَرَعُوْا، وأصابتْ منها طائفةً أُخرى إنَّما هيَ قِيعانٌ لا تمسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كلأً. فذلك مَثَلُ مَنْ فَقِهَ في دينِ اللهِ ونَفَعَهُ ما بعثني اللهُ بهِ فَعَلِمَ وعَلَّم، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْساً ولم يَقْبَلْ هُدْى اللهِ الذي أُرْسِلتُ به)[1].

4- الانقياد لما دلّت عليه، المُنافي لترك ذلك:

قال الله سـبحانه وتعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْـلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [سورة الزمر: 54]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [سورة النساء: 125].

5- الصّدق المنافي للكذب:

وذلك بأنْ يقولَها صـدقاً من قلبه، يواطِئُ قلبُه لسـانهَ. قال تعالى: ﴿الم ۝ أَحَسِـبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة العنكبوت: 1-3]. وقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: (ما مِنْ أحدٍ يَشْـهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّداً رسول الله صِدْقاً مِنْ قلبِهِ إلَّا حَرّمهُ اللهُ على النَّارِ)[2].

---

1 صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: فضل من عَلِم وعَلَّم، رقم: (79). صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم، رقم: (2282).

2 صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم: (128)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم: (32).

6-الإخلاص:

وهو تصفيةُ النية في العملِ الصالحِ من جميعِ شوائبِ الشرك، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر: 3]. وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة الزمر: 2]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [سورة البينة: 5]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أسْعَدُ النَّاسِ بشفاعتي مَنْ قالَ لا إلهَ إلَّا اللهُ خالِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِه)[1]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الله حَرّمَ على النَّارِ مَنْ قالَ: لا إلهَ إلَّا اللهَ يبتغي بذلكَ وَجْهَ الله)[2].

7-المحبةُ:

لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلّت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها، وبُغض ما ناقض ذلك: قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [سورة البقرة: 165].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمان: مَنْ كانَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ ممّا سواهما، وأنْ يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا للهِ، وأنْ يكرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ بَعْدَ أنْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّار)[3].

---

1 صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: الحرص على الحديث، رقم: (99).

2 صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب: المساجد في البيوت، رقم: (415). صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، رقم: (33).

3 صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم: (16). صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهنَّ وجد حلاوة الإيمان، رقم: (43).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمنُ أحدُكُم حتّى أكونَ أحبَّ إليهِ مِنْ ولدِهِ ووالدِهِ والناسِ أجمعين)[1].

ومحبةُ اللهِ سبحانه وتعالى لا تتمُّ إلا بمحبَّةِ ما يحبُّه، وكره ما يكرهه، وطريقُ معرفةِ ذلك هو اتباعُ الرسول صلى الله عليه وسلم ومحبتُه، فمحبةُ اللهِ تستلزمُ محبَّة الرسولِ صلى الله عليه وسلم واتباعَه وطاعتَه[2]، فهذه الشروطُ مَنْ حقَّقَها وعملَ بها وابتعدَ عمّا يناقِضُها أوجبَت له مغفرةَ الذنوبِ بإذن الله تعالى[3].

سابعاً: ارتباط (لا إله إلا الله) بالولاء والبراء:

ولما كان أصلُ الموالاة الحبَّ، وأصلُ المعاداةِ البغضَ، وينشأُ عنهما من أعمالِ القلوبِ والجوارحِ ما يدخلُ في حقيقةِ الموالاةِ والمعاداةِ؛ كالنّفْرَةِ، والأُنْسِ، والمعاونة، وكالجهادِ، والهجرة، ونحو ذلك[4]، فإنَّ الولاءَ والبراءَ مِنْ لوازِم لا إله إلا الله، قال الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [سورة آل عمران: 28]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

---

1 صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان، رقم: (15). صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة، رقم: (44).

2 المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، علي بن عبد الحفيظ الكيلاني، عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط 1، 1428، 623/2.

3 المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، الكيلاني، مرجع سابق، 623/2.

4 الرسائل المفيدة، عبد اللطيف بن عبد الرحمن، ص 296.

الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة المائدة: 51].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أوثقُ عُرى الإيمانِ الحبُّ في الله والبغضُ في الله)[1].

ولقد ضرب نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام نموذجَ الأسوة الحسنة في ولائه لربِّ العالمين؛ حيثُ كان عليه السلام أسوةً حسنةً، وقدوةً طيبةً في ولائه لربه ودينه وعباد الله المؤمنين، وبرائه ومعاداته لأعداء الله، ومنهم أبوه. وقد كانت سيرةُ نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام مع قومه كأيِّ نبيٍّ رسول؛ حيث دعاهم بالتي هي أحسن إلى عبادة الله وتوحيده، وإفرادِه بالعبادة، والكفرِ بكلِّ طاغوت يُعْبَدُ من دون الله[2]. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۝ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۝ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۝ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا

---

1 أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الإيمان والرؤيا، رقم: (30443)، قال الألباني في تخريج أحاديث كتاب الإيمان لابن تيمية، ص 119، صحيح.

2 الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد القحطاني، دار طيبة، الرياض، ط 1، ص 145.

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: 41-49]. وتلك هي نقطةُ البَدْءِ في دعوة خليل الرحمن؛ دعوة بالحسنى، مبتدئاً بأقرب الناسِ إليه، فإنْ لم يكن هناك تجاوبٌ مع هذه الدعوة فالاعتزالُ لهذا الباطل وأصحابه، لعلّ في ذلك ردعاً وزجراً وتفكّراً في هذا الأمر الجديد، ونجاة للداعي من مشاركة أهل الباطل في باطلهم، إذا كان لا بدّ له من مخالطتهم ومعاشرتهم، وعدم تمكّنه من الهجرة من أرضهم.

ثم يمضي القرآن في بيان دعوة إبراهيم عليه السلام، مبيّناً أنّه استخدمَ مع قومه كلَّ حجة ودليل، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۝ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۝ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: 69-77].

ولما لم يجدوا حجّةً، وإنّما هو التقليدُ الأعمى لفعل الآباء والأجداد، قال لهم إبراهيم عليه السلام: أنا عدو آلهتكم هذه، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: 4].

وعقيدة إبراهيم عليه السلام هذه هي التي عبّر عنها علماؤنا الأجلاء بقولهم: "لا موالاة إلا بالمعاداة، ولا تصح الموالاةُ إلا بالمعاداة"[1]. وكما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين إنه قال لقومه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: 77]، فلم تصحَّ لخليل الله هذه الموالاةُ والخُلّةُ إلا بتحقيق هذه المعادلة؛ فإنّه لا ولاءَ إلا لله، ولا ولاءَ إلا بالبراءِ مِنْ كلِّ معبودٍ سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الزخرف: 26-28]، أي جعلَ هذه الموالاة للهِ، والبراءةَ من كلِّ معبودٍ سواه، كلمةً باقيةً في عقبه، يتوارثها الأنبياءُ بعضُهم عن بعضٍ، وهي كلمة لا إله إلا الله، وهي التي ورّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة.

وقد كان من نتيجة هذه المعاداةِ وهذا البراء القويِّ أن أجمعَ الطغاةُ على قتل إبراهيم، كما هو حال كل طاغية على مرّ عصور التاريخ في إبادة الدعاة إلى الله؛ لا لشيء إلا لأنهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده، وجمعوا له ناراً عظيمة، فكانت رعايةُ اللهِ وحفظُهُ تحوطان خليله الصادق عليه الصلاة والسلام، فصارت النارُ برداً وسلاماً عليه، قال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۝ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [سورة الصافات: 97-98].

---

1 الولاء والبراء في الإسلام، القحطاني، مرجع سابق، ص. ص 146-147.

لقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغُلِبوا، ولم تبقَ لهم حجةٌ ولا شبهةٌ إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، فكادهم الربُّ جلَّ جلاله، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [سورة الأنبياء: 68-70]. وجاءت التوجيهاتُ الربانيّة لخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم باتباع ملّة إبراهيم عليه السلام. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة النحل: 123]، وقال تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة آل عمران: 95]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: 135].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: 68]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: 125].

وقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [سورة الحج: 78]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [سورة البقرة: 130]. فهذه الأخبار مِنَ اللهِ لأُمّة محمد صلى الله عليه وسلم عَنْ فعلِ إبراهيم عليه السلام من أجلِ الاقتداءِ به في الإخلاص والتوكل على

الله وحده، وعبادةِ الله وحدَه، والبراءِ من الشركِ وأهلِهِ، ومعاداةِ الباطلِ وحزبه[1].

والأمثلةُ على أنّ مِنْ لوازمِ لا إله إلا الله الولاءَ والبراءَ كثيرةٌ؛ كقصة نوح عليه السلام مع زوجه، وغيرها من القصص[2].

لقد جمعت لا إله إلا الله صُهيباً الرومي، وبلالاً الحبشي، وسلمانَ الفارسي، وأبا بكر العربي القرشي، وتوارت عصبيةُ القبيلةِ والجنسِ والأرض، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعوها فإنّها مُنتنةٌ)[3]. وقال: (ليسَ مِنّا مَنْ دعا إلى عصبيةٍ، وليسَ منّا مَنْ قاتلَ على عصبيةٍ، وليس مِنّا مَنْ ماتَ على عصبيةٍ)[4].

وتبقى سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته الأخيار رضوان الله عليهم منارَ هدى وإصلاحٍ لمن سلكَ ذلك السبيل، ورضي بذلك النهجِ القويم[5].

ثامناً: آثار الإقرار بـ "لا إله إلا الله":

إن لكلمة لا إله إلا الله آثاراً عظيمةً في حياةِ المؤمنِ؛ منها:

1- أنَّ المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيّقَ النظر، بخلاف من يقول بآلهةِ

---

1 الولاء والبراء في الإسلام، القحطاني، مرجع سابق، ص 148-149.

2 القحطاني، المرجع نفسه، ص 150.

3 صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: قوله: (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)، رقم: (4905). صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: نصرُ الأخ ظالماً أو مظلوماً، رقم: (2584).

4 أخرجه أبو داوُد في سننه، كتاب الأدب، باب: في العصبية، رقم: (5121)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.

5 الولاء والبراء في الإسلام، القحطاني، مرجع سابق، ص 158.

متعددةِ، أو من يجحدُها.

2-أن الإيمان بهذه الكلمة يُنشـئ في النفس من الأنفة وعزّة النفس ما لا يقوم دونه شيء؛ لأنّه لا نافعَ إلا الله، ولا ضارَّ إلا الله، وهو المحيي المميت، وهو الحكيم القوي، مالك الملك، ومن ثَمَّ يُنْزَعُ من القلبِ كلُّ خوفٍ إلا منه سـبحانه، فلا يطأطِئُ الرأسَ أمامَ أحد من الخلق، ولا يتضـرّعُ إلا إليه، ولا يتكفّف إلا له، ولا يرهب إلا من كبريائه وعظمته؛ لأن لله وحده الكبرياء والعظمة والقدرة، وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد.

3-ينشأ من هذه الكلمة تواضعٌ من غير ذلٍّ، وترفُّعٌ من غير كِبْرٍ.

4-المؤمن بهذه الكلمة يعلم علم اليقين أنَّه لا سـبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح، أما المشركون والكفار فإنَّهم يقضون حياتهم في آمال كاذبة؛ فمنهم من يقول: إنَّ ابنَ الله قُتِلَ وصُـلِبَ كفّارةً لذنوبنا عند أبيه، ومنهم من يقول: نحن أبناءُ اللهِ وأحباؤه فلن يعذّبنا بذنوبنا، ومنهم من يقول: إنّا سنتشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا. ومنهم من يقدّمُ النذورَ والقرابينَ إلى آلهته زاعماً أنّه قد نالَ بذلك رخصـة في العمل بما يشـاء. أما الملحدُ الذي لا يؤمِنُ بالله فيعتقدُ أنّه حرٌّ في هذه الدنيا غيرُ مقيَّدٍ بشرعِ اللهِ، وإنّما إلهه هواه وشهوته وهو عبد لهما.

5-قائل هذه الكلمة لا يتسـرّب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط؛ لأنَّه يؤمنُ أنَّ الله له خزائنُ السـماوات والأرض، ومِنْ ثَمَّ فهو على طمأنينةٍ وسـكينةٍ وأملٍ،

حتى لو طُرِدَ وأهينَ، وضاقت عليه سُبُل العيش.

6-الإيمان بهذه الكلمة يربّي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام، والصّبر والثبات والتوكّل، حينما ينهض بمعالي الأمور ابتغاءَ مرضاة الله. إنَّه يشعر أنَّ وراءه قوة مالك السماء والأرض، فيكونُ ثباتُهُ ورسوخُه وصلابتُه التي يستمدّها من هذا التصور كالجبال الراسية، فأنّى للشرك والكفر بمثل هذه القوة والثبات؟

7-هذه الكلمة تشجعُ الإنسان وتملأ قلبه جرأةً؛ لأن الذي يجبِّنُ الإنسان ويوهنُ عزمه شيئان:

- حبه للنفس والمال والأهل.
- واعتقاده أنَّ أحداً غيرَ الله يميتُ الإنسان.

فإيمانُ المرء ب"لا إله إلا الله" ينزعُ من قلبه الأولَ وهو "حبّه للنفس والمال والأهل"، فيجعله موقناً أنَّ الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله، فعندئذٍ يضحّي في سبيل مرضاة ربه بكلِّ غالٍ ونفيس عنده، كما ينزع الثاني وهو "اعتقادُه أنَّ أحداً غير الله يميت الإنسان"، بأن يلقِي في روعهِ أنّه لا يقدِرُ على سلبِ الحياة منه إنسانٌ ولا حيوانٌ ولا غيرُه إلا إذا جاء أجَلُه، من أجلِ ذلك لا يكونُ في الدنيا أشجعُ ولا أجرأُ ممّنْ يؤمِنُ بالله تعالى، فلا يكادُ يخيفه أو يثبتُ في وجهه زحَفُ الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطرُ الرّصاص، ولا وابلُ القنابل.

8-الإيمان بـ "لا إله إلا الله" يرفع قدر الإنسان، وينشئ فيه الترفُّعَ والقناعةَ

والاستغناء، ويطهّرُ قلبَه من أوساخ الطمع، والشّره، والحسد، والدناءة، واللؤم، وغيرها من الصفات القبيحة.

9-الإيمان بـ "لا إله إلا الله" يجعل الإنسان متقيداً بشرع الله، ومحافظاً عليه، فإنَّ المؤمن يعتِقدُ بيقينٍ أنَّ الله خبيرٌ بكلِّ شيءٍ، وهو أقربُ إليه مِنْ حبلِ الوريد، وأنَّه إنْ كان يستطيعُ أن يفلتَ مِنْ بطشِ أيٍّ كانَ فإنَّه لا يستطيعُ أن يفلتَ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ، وعلى قَدْرِ ما يكونُ هذا الإيمانُ راسخاً في ذهن الإنسان يكونُ متّبعاً لأحكام الله، قائماً عند حدودهِ، لا يجرؤ على اقترافِ ما حَرَّم الله، ويسارعُ إلى الخيراتِ والعمل بما أمر الله.

لذا فالعبدُ الذي ملأ اللهُ قلبه إيماناً بـ "لا إله إلا الله" هو في الحقيقة عبدٌ مطيعٌ منقادٌ لربه سبحانه وتعالى، وهذا هو أصلُ الإسلام، وهو مصدرُ قوته، وكلُّ ما عداه من معتقداتِ الإسلامِ وأحكامِه إنّما هي مبنيةٌ عليه، ولا تستمدّ قوتها إلا منه، والإسلامُ لا يبقى منه شيءٌ لو زال هذا الأساس[1].

---

1 مبادئ الإسلام، أبو الأعلى المودودي، مكتبة الشباب المسلم، دمشق، ط 3، 1961، ص 87.

المبحث الثاني: إثبات وجود الخالق:

رغم أنّه لا توجَدُ في القرآن الكريم مناقشــةٌ صــريحةٌ لمنكري الخالق فإنَّ الإيمانَ بوجودِ خالقٍ لهذا الكون قضـيةٌ ضـرورية لا مسـاغَ للعقلِ في إنكارِها، فهي ليسـتْ قضيةً نظريةً تحتاجُ إلى دليلٍ وبرهانٍ؛ ذلك لأنّ دلالةَ الأثرِ على المؤثّرِ يدركُها العقلُ بداهةً، والعقلُ لا يمكنُ أن يتصـــوّر أثراً -أيَّ أثرٍ- من غيرِ مؤثّرٍ، ولو كانَ أثراً تافهاً، فكيف بهذا الكون العظيم؟! ولذلك لم يناقشِ القرآن الكريم هذه القضـــية حتى حينما أوردَ إنكارَ فرعونَ لربِّ العالمين، يوم أن قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: 23]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [سورة القصص: 38]، ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [سورة غافر: 36-37].

فكان موسى عليه السلام لا يعيرُ اهتماماً لهذه الإنكارات، وتعامل مع فرعونَ على أســـاسِ أنَّه مؤمنٌ بوجودِ الخالقِ، فتراه يقولُ له مثلاً: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَـــائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [سورة الإسراء: 102].

وقد عزا القرآن الكريم هذا الإنكارَ إلى التكبُّرِ والعِنادِ، فقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَـــلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَـالِينَ ۝ فَقَـالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَـــرَيْنِ مِثْلِنَـا وَقَوْمُهُمَـا لَنَـا عَـابِـدُونَ﴾

[سورة المؤمنون: 45-47]. وأوضح ذلك أكثر فقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: 14].

إن البيئة التي أنزل فيها القرآن الكريمُ كانت وثنيةً في الغالب، وكتابيةً في بعض القرى، أو بعض الأشـــخاص، والكتابيون لا ينكرون الخالق، وأمّا الوثنيون فمع عبادتهم للأوثان فإنّهم كانوا يؤمنون بالخالق ســبحانه، وســجَّل القرآن هذا لهم في أكثر من موضع[1]، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [ســورة لقمان: 25]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِــيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِــينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [ســورة لقمان: 32]. ولهذا لم يَحْتَج القرآن الكريم أن يفتحَ الموضـوع مع هؤلاء الناس. بل حتّى خارج هذه البيئة لم يُعرف هناك منكِرٌ للخالق، يقول الشهرستاني: أمّا تعطيلُ العالم عن الصانعِ العليمِ القادرِ الحكيم فلستُ أراها مقالةً لأحدٍ، ولا أعرفُ عليها صــاحبَ مقالةٍ، إلا ما نُقِلَ عن شــرذمة قليلةٍ من الدهريّة، ولســتُ أرى صــاحبَ هذه المقالة ممّن ينكرُ الصــانع، بل هو معترِفٌ بالصــانع، فما عُدَّتْ هذه المســألةُ من النظريات التي قام عليها دليل[2]، ومع خلو القرآن الكريم من مناقشــةٍ صــريحةٍ لمنكري الخالق فإنّه تضــمّن أدلةً كثيرةً لإثبات وجوده، غير أنها جاءت في الغالبِ لإثبات مســائلَ أخرى: كالوحدانية، والنبوة،

---

1 المحكم في العقيدة، محمد عياش الكبيسي، المكتب المصري الحديث، ط 1، ص 65-66.

2 نهاية الإقدام في علم الكلام، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1425، ص 123-124.

والبعث[1]. ومن هذه الأدلة التي ذكرت في القرآن الكريم:

أولاً: دليل الخلق:

وخلاصـــةُ هذا الدليل: أنَّ هذا الخلقَ بكلِّ ما فيه شـــاهدٌ على وجودِ خالقه العليِّ القدير ســبحانه، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَـيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة الطور: 35-36]. يقول لهم: أنتم موجودون، هذه حقيقةٌ لا تنكرونها، وكذلك الســماواتُ والأرضُ موجودتان، وقد تقرّر في بداهةِ العقول أنَّ الموجودَ لا بدَّ من سـببٍ لوجودِهِ. وهذا يدركُه راعي الإبل، فيقول: البعرةُ تدل على البعيرِ، والأثرُ يدلُّ على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وأرضٌ ذاتُ فجاجٍ، وبحارٌ ذاتُ أمواج، أفلا يدلُّ ذلك على العليمِ الخبيرِ؟! ويدركه كبارُ العلماء الباحثين في الحياة والأحياء، يقول أحدهم: إنَّ الله الأزلي الكبير، العالم بكل شيء، والمقتدر على كل شيء، قد تجلّى لي ببدائع صنعه، حتى صرتُ دَهِشاً متحيّراً؛ فأيُّ قدرةٍ، وأيُّ حكمةٍ، وأيُّ إبداعٍ أودعه مصنوعاتِ يده صغيرِها وكبيرِها!؟[2].

وهذا الذي أشـــارتْ إليه الآية هو الذي يُعْرَفُ عندَ العلماء باســـم: قانون السببية، هذا القانون يقول: إنَّ شيئاً من الممكنات لا يحدُثُ بنفسِه من غيرِ شيء؛ لأنّه لا يحمِلُ في طبيعته السببَ الكافي لوجودِه، ولا يستقلُّ بإحداثِ شـيءٍ، لأنَّه

---

1 المحكم في العقيدة، الكبيسي، مرجع سابق، ص 66.

2 مع الله، حسن أيوب، ص 67.

لا يستطيعُ أن يمنحَ غيرَه شيئاً لا يملكه هو[1].

وبهذا الدليل كان علماءُ الإســلام ولا يزالون يواجِهون الجاحدين؛ فهذا الإمام أبو حنيفة رحمه الله يعرِضُ له بعضُ الزنادقة المنكرين للخالق فيقول لهم: ما تقولون في رجلٍ يقولُ لكم: رأيتُ ســفينةً مشــحونةً بالأحمالِ، مملوءةً من الأنفال، قد احتوشــتها في لُجَّةِ البحرِ أمواجٌ متلاطمة، ورياحٌ مختلفة، وهي مِنْ بينها تجري مستويةً، ليس لها ملّاح يجريها، ولا متعهِّدٌ يدفعُها، هل يجوزُ ذلك في العقل؟

قالوا: هذا شيءٌ لا يقبلُه العقلُ.

فقال أبو حنيفة: يا ســبحان الله! إذا لم يجز في العقلِ ســفينة تجري في البحرِ مســتوية من غيرِ متعهِّدٍ ولا مُجْرٍ، فكيف يجوزُ قيامُ هذه الدنيا على اختلافِ أحوالها، وتغيرُّ أعمالها، وسَعَةِ أطرافها، وتباين أكنافها، من غير صانعٍ ولا حافظٍ؟! فبكوا جميعاً، وقالوا: صدقتَ وتابوا[2].

هذا القانون الذي سـلّمت به العقول، وانقادت له، هو الذي تشـير إليه الآية الكريمة: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَــيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [ســورة الطور: 35]. وهو دليلٌ يُرغمُ العقلاءَ على التســليم بأنَّ هناك خالقاً معبوداً، إلاّ أنَّ الآية صــاغته صياغةً بليغةً مؤثرةً، فلا تكاد الآية تمسُّ السمعَ حتى تزلزلَ النفسَ وتهزَّها[3]. قال أبو

---

1 العقيدة في الله، الأشقر، مرجع سابق، ص 69.

2 حسن أيوب، مرجع سابق، ص 68. وانظر: العقيدة في الله، الأشقر، مرجع سابق، ص 70.

3 العقيدة في الله، الأشقر، مرجع سابق، ص 71.

العتاهية:

فوا عجباً كيف يُعْصَـــى ـــــهُ أم كيفَ يجحدهُ

وفي كل شـــيءٍ له تدلّ على أنّه واحدُ

لقد تناولَ القرآن الكريمُ قضـيةَ الخَلْقِ والتدبير تناولاً فريداً، وعُني بتوجيه العقولِ إلى النظرِ في آفـاقِ الكونِ وآيات اللهِ الكثيرة، وأهـابَ بالعقـلِ أنْ يســـتيقظَ من سُباته، ليتفكَّرَ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ، وما أُودعَ فيها من الآيات. ويكرّرُ القرآن الكريم ذلك في أساليب متنوعة، ليرى هذا الإنسانُ ويسمعَ في آفاقِ الكونِ ما يقودُهُ إلى الإيمانِ بخالقه سبحانه وتعالى، ويعلمَ أنَّ هذا الكونَ هو مِنْ صُنعِ اللهِ الخالق المدبر المستحقّ للعبادة وحدَه لا شريك له[1].

ثانياً: دليل الفطرة والعهد:

إنّ معرفة الخالق والإقرارَ بوجودِه تبارك وتعالى وربوبيته أمرٌ بدهي مغروسٌ في نفوس الناس وفطرهم، إذ لو تُرِكَ الإنسانُ في مكانٍ خالٍ لا يوجدُ فيه أحدٌ، بعيداً عن كل المؤثّرات الخارجية، وعن كلِّ الشوائب العقدية، لاستطاعَ بفطرته أن يعرفَ أنَّ لهذا الكونِ خالقاً مدبِّراً ومتصـــرِّفاً، ثم بفطرته يتوجَّه لمحبّةِ خالقِهِ. ومن هنا نعلمُ أنَّ مَنْ أنكرَ وجودَ الخالقَ جلَّ جلاله من الملحدين إنّما أُتوا من انحرافِ فطرهم،

---

1 حماية الرسول صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، محمد بن عبد الله الغامدي، عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ص 216.

ومن تأثيرِ الشياطين عليهم، وتلاعبهم بهم.

ودليلُ الفطرة هذا دلَّ عليه القرآن الكريمُ والسنةُ النبويةُ المطهرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: 30]. فالمقصود بالفطرة هنا الإسلام، فالله جل جلاله فطر الناسَ على دين الإسلامِ والتوحيد[1]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما مِنْ مولودٍ إلا يولدُ على الِفْطَرِة، فأبواه يهوّدانِهِ، أو ينصّرانِهِ أو يمجّسانِهِ، كما تُنْتِجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تحسّون فيها مِنْ جَدْعاء؟)[2]. وفي الحديث القدسي: (يقول تبارك وتعالى: إنّي خَلَقتُ عبادِي حنفاء كلَّهم، وإنّهم أتتهم الشياطينُ فاجْتالَتهُم عن دينهم)[3]. ومعنى "حنفاء" أيّ: مائلينَ عن الأديانِ كلِّها إلى دين الإسلام[4]. ومعنى "اجتالتهم": استخفّتهم، فجالوا معهم في الضلال[5].

ومن أجل أهميّةِ الفطرةِ في دلالةِ الناسِ على ربّهم وتعريفهم به كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصبحَ أو أمسى يقرّرُ أنه يُصْبِحُ ويُمْسِي على هذه الفطرةِ، فطرةِ الإسلامِ، وأنّها لم تتأثَّرْ بالمؤثّرات والعوارض الخارجية من نزغات الشياطينِ

---

1 المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، الكيلاني، مرجع سابق، 368/1.

2 صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبيُّ فمات هل يصلى عليه؟ رقم: (1292). صحيح مسلم، كتاب القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم: (2658).

3 صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف الجنة وأهل النار، رقم: (2865).

4 الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 2، 1964، 144/20.

5 النهاية في غريب الحديث، مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير، (جول)، المكتبة العلمية، بيروت، 1979، 317/1.

ووسـاوسـهم، فقد ورد عنه صـلى الله عليه وسـلم أنَّه كان يقولُ إذا أصـبحَ وإذا أمسى: (أصبحنا -أو أمسينا-على فطرةِ الإسلامِ، وعلى كلمةِ الإخلاصِ، وعلى دينِ نبيّنا محمَّدٍ صـلى الله عليه وسـلم، وعلى ملّةِ أبينا إبراهيم، حنيفاً مسـلماً وما كان من المشركين)[1].

فقد أكّد سـلامة الفطرة من الانحراف بقوله: (وعلى كلَمِة الإخلاص)، وهي شـهادة "أن لا إله إلا الله". وبقوله: (وعلى دينِ نبينّا محمَّدٍ صـلى الله عليه وسـلم) وهو الدين الإسـلامي، وبقوله: (وعلى مِلّةِ أبينا إبراهيمَ حنيفاً مسـلماً) أي مائلاً عن كلِّ ما يخالِفُ هذه الفطرة من الأديان والعقائد الفاسـدة، التي تنكِرُ الربَّ سبحانه وتعالى، أو تزعمُ أنَّ معه شريكاً في مُلْكِهِ أو عبوديتِهِ إلى الإسلام الخالص، فإذا حقَّقَ توحيدَ الألوهية "توحيد العبادة" كان توحيدُ الربوبية محقّقاً؛ لأنَّ توحيدَ الألوهية يتضـمَّنُ توحيدَ الربوبية، وبذلك تكونُ الفطرةُ قد دلّت على توحيدِ الربوبية[2].

وهذه الفطرةُ التي فطرَ الله عليها عبادَه لها صـلةٌ وارتباطٌ وثيق بالعهد الذي أخذه سـبحانه وتعالى على بني آدم وهم في عالم الذَّرِّ، كما أشـار الله بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا

---

1 أخرجه أحمد في مسنده، باب: عبد الرحمن بن أبزى الخزاعي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وآخرين، رقم: (15360)، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2001.

2 المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، الكيلاني، مرجع سابق، 370/1.

أَشْـــرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْـلُ وَكُنَّـا ذُرِّيَّـةً مِنْ بَعْـدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَـا بِمَـا فَعَـلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: 172-173].

فهذا العهدُ والميثاقُ الذي أخذه الله جل جلاله على الناس مضـمونُه الاعترافُ والإقرارُ بربوبيته، وأشــهدَهم على أنفسِــهم فشــهدوا. فمنَ الناس مَنْ حافظ على ذلك العهد، وقام بمقتضــاه ولازِمه؛ من عبادة ربه وحده لا شــريك له، وتوحيده، وصَـدّقَ رسـلَ اللهِ، وآمن بهم وبما جاؤوا به. ومن الناس من تغيَّرتْ فطرتُه وانحرفت، واجتالته الشياطين -والعياذ بالله- فنسيَ ما شهدَ عليه، وما جُبِلَ عليه من الإقرار بربوبية الله عز وجل، فوقع في الكفر والإلحاد، مع أنَّ الله ســبحانه لم يتركْ عبادَه سـدىً، بل أرسـل لهم الرسـلَ، وأنزل معهم الكتبَ، ليُذكِّروا الناس بهذا الإشــهاد وهذا العهد والميثاق، ولكي يبقى المسلمُ متذكِّراً هذا العهد الذي أخذه الله عليه في عالم الذَّرِّ، فقد علّم رســول الله صــلى الله عليه وســلم أصــحابه ذِكْراً يقولونه في الصـباحِ والمسـاءِ، ففي الحديث الصـحيح عنه صـلى الله عليه وسـلم قال: "سـيِّدُ الاستغفارِ أنْ يقولَ العبدُ: اللهمَّ أنتَ ربي لا إلهَ إلاّ أنتَ، خلقتَني وأنا عبدُكَ، وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بكَ مِنْ شَرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمكَ عليَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي إنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت"[1].

فقولـه: (وأنا على عهـدِكَ): أي مـا عـاهـدتُـكَ عليه من الإيمـان بِـكَ، والإقرارِ

1 صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب: أفضل الاستغفار، رقم: 6306.

بوحدانيّتِكَ، لا أزولُ عنه[1]، قال ابن حجر: وقال ابن بطال: قوله: (وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ) يريدُ العهدَ الذي أخذَه الله على عبادِه، حيثُ أخرجَهم أمثالَ الذَّرِّ وأشهدهم على أنفسِهم: ألستُ بربكم؟ فأقرّوا له بالربوبية، وأذعنوا ليه بالوحدانية، و"بالوعدِ" ما قاله على لسان نبيه[2]، فهذا الذكرُ العظيمُ مَن داومَ عليه يومياً ولازمَه حفِظَ نفســـه -بإذن الله-من انحرافِ فطرتِه، وتغيّرِها، ووفّى بعهدِهِ الذي بينه وبين ربه[3].

ثالثاً: دليل الآفاق:

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت: 53]. فقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ أي: علامات وحدانيتنا وقدرتنا[4]، وقوله: "في الآفاق"، يعني: أقطار الســـماوات والأرض؛ من الشـــمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، والرياح، والأمطار، والرعد، والبرق، والصـــواعق، والنبات[5]، وغير ذلك مما فيها من عجائب خلق الله. وفي حديثِ العلماء عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما يدلُّ على آيات الله في الآفاق، والتي منها:

---

1 نتائج الأفكار في شرح حديث الاستغفار، محمد بن أحمد السفاريني، تحقيق عبد العزيز الهبدان وعبد العزيز الدخيل، دار الصميعي، ط 1، 1996، ص 240.

2 فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي ابن حجر، دار المعرفة، بيروت، 1379، 99/11.

3 المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، الكيلاني، مرجع سابق، 373/1.

4 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، 374/15.

5 القرطبي، المرجع نفسه، 374/15.

1- نقص الأوكسجين في الارتفاعات:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنعام: 125] تنصُّ هذه الآية الكريمة على الإنسان عندما يصّعّد في السماء -أي يرتفع في أعالي الجو- يضيقُ صدرُهُ، ويشعر بالاختناق، وهذه حقيقةٌ علميةٌ سببها أنَّ نسبة الأوكسجين تقلُّ كلما ارتفعنا إلى أعلى، كما يقلُّ الضغطُ الجويُّ، وهذان السببان يجعلانِ الإنسانَ يشعر بضيق النفس.

2- حركة النجوم والكواكب في مَداراتها:

كان الناسُ يرونَ أنَّ الأرضَ مركزُ الكون، وتدور حولها الشمسُ والقمرُ والنجومُ السيّارة، ويرونَ نجوماً ثابتة طوال السنة، فيصفونها بالثبات، ثم حدث في عصر "غاليلو" رأيٌ يعتبِرُ أنَّ الأرض هي التي تدورُ حولَ الشمس، وأنَّ الشمسَ هي مركزُ الكونِ.

أمّا القرآن الكريمُ فقد رفضَ قبلَ ذلك جميعَ الآراءِ التي تزعمُ أنَّ للكونِ مركزاً ثابتاً، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس: 40] وكانَ ذلك في عصره سَبْقاً علميّاً[1]، وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ

---

1 البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية، عبد المجيد العرجاوي، دار وحي القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 2008، ص 105.

عَظِيمٌ﴾ [سورة الواقعة: 75-76]. فقد وجدَ العلماءُ أنَّ مواقعَ النجومِ ومساراتها ليست اعتباطيةً، فالكوكبُ وُضعَ في مسارٍ بحيثُ لا تؤدّي قوى التجاذبِ الكونيةُ الكثيرةُ والقوى النابذةُ الناشئةُ عن الدوران، إلى اضطرابٍ كوني، ولقد اختِيْرَ له المسارُ الذي يحقّق له التوازنَ بين تلك القوى الكثيرة. ووجد العلماء أيضاً أنَّ أبعادَ المجموعة الشمسية تتبعُ سلسلةً حسابيةً، وأن للعربِيّ الجاهلي الذي كان يرى النجومَ مبعثرةً في صفحةِ السماءِ أن يعرفَ من تِلقاءِ نفسه أنَّ لمواقِعها شأناً عظيماً[1].

3- دوران الأرض والجبال:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة النمل: 88] لقد كان الناس قديماً يرون أنّ الأرضَ وجبالها ثابتةٌ، بل يضربون المثلَ بثباتها، فجاء القرآن الكريم ليخالفَ ما أَلِفه الناسُ، واستقرّ في أذهانهم، وتحدَّثَ عن ظاهرةٍ كونيةٍ، فقال عن الجبال: إنّما تمرُّ مرَّ السحاب، أي إنَّ الجبال كالسحاب، فكما أنَّ السحابَ لا يتحرّكُ ذاتياً إلا إذا كان هناك شيءٌ يدفعه إلى التحرك، والذي يحرّكُ السحابَ ويدفعُه هي الرياح، فكذلك الجبالُ لا تتحرَّكُ بنفسِها لأنها أوتادُ الأرضِ، ولكن تتحرك، وحركتُها تابعةٌ لحركة الأرض، فالأرضُ تتحرّكُ وتدورُ، وإلا فكيفَ تتحرَّكُ الجبالُ، وتمرُّ مرَّ

---

1 العرجاوي، المرجع نفسه، ص 106.

السـحاب؟ وهذا من صـنع الله الذي أتقن كل شـيء، حينئذٍ يكون هناك يقينٌ ثابتٌ[1].

4- حاجز بين بحرين مالحين:

قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [سورة الرحمن: 19-22]، تتحدّثُ الآيات الكريمةُ عن بحرين يتلاقيان، وفي مكان تلاقيهما يوجدُ حاجزٌ، والظاهر أنها تتحدّث عن بحرين حقيقيين مالحين، وليس عن بحرٍ ونهرٍ؛ لأنّه قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [سورة الرحمن: 22]. والمرجان هو الخرز الأحمر، لا يخرجُ إلا من المياه المالحة، فالآية الكريمةُ إذاً تتحدَّثُ عن حاجزٍ حقيقي بين بحرين مالحين في مكان تلاقيهما، والبحرانِ يتلاقيان في المضـايق؛ لأنه إن لم يكن هناك مضـيقٌ فليس من مسـوّغٍ لاعتبارهما بحرين، بل يكونان بحراً واحداً، إنَّ هذا الذي أثبتته الآية الكريمةُ مسـتغربٌ جداً في عرف الناس، إذ الانطباع السـائد أنَّ المياه المتلاقية لا حواجز بينها، وما كان أحد يعرف هذه الحقيقة، ولا تخطرُ له على بالٍ، إلى أن اكتُشِـفَتْ عام 1962م، وثبت أنَّ ما قاله القرآن الكريم حقيقةٌ مدهشة[2].

---

1 تأملات في العلم والإيمان، مرجع سابق، ص 178.

2 البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية، العرجاوي، مرجع سابق، ص 111.

5- اهتزاز الأرض وزيادتها بالمطر:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [سورة الحج: 5] إن العلمَ يؤكّد أنَّ الأرضَ تهتزُّ فعلاً بنزول الغيثِ عليها، فالحبوبُ والبُصَيلاتُ والدّرناتُ والحُوَيصلاتُ والبكتيريا والجراثيمُ كلُّها تبدأُ بالحركة والانقسامات الخلوية، وامتصاص الماء، وتحليل الغذاء المعقّد إلى وحدات أقل ارتباطاً، وأكثر عدداً، وأكبر حجماً، وبامتلاء مسامِّ الأرضِ بالماءِ تتحرّك جُزيئات الطينِ، وتبدأُ عمليةُ تأيُّنٍ عجيبةٌ في جُزَيئات التربةِ، وتنشطُ الديدانُ الأرضيّةُ في شَقِّ الأنفاقِ الأرضيةِ، وابتلاع كمياتٍ كبيرةٍ من التربة المتلاصقة، وإخراجها بعدَ ذلك مفككةً، كلُّ هذه النشاطات تؤدي إلى زيادةِ حجم التربة، ويمكنُنا رؤية صورةٍ مصغّرة لهذه العمليات بتخمير العجين وزيادة حجمه نتيجة نشاط خلايا الخمائر، وفي التربة تحدثُ ضروبٌ كثيرةٌ لمثل هذا النشاط، مِنْ كلّ ما سبق نجدُ التوافقَ بين ما عرفه العلم وما وصفه القرآن الكريم[1].

6- أوهن البيوت:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: 41]، إنَّ قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، وقوله بعد

1 البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية، العرجاوي، مرجع سابق، ص 127.

ذلك: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: 43]: يشيرانِ إلى أنَّ وَهْنَ بيت العنكبوتِ المتحدَّث عنه وَهْنٌ غيرُ ظاهرٍ ومعروف لدى عامة الناس، وقد ضُرِبَ هذا الوهنُ مثلاً لموالاة الكافرين بعضهم بعضاً، فماذا وجد العلماءُ عند دراسة العنكبوت؟ وجدوا أنَّ الروابطَ بين أفراد العنكبوت في غاية التفكّك، فالأُنثى كثيراً ما تأكل الذكرَ بعد الإلقاح، وقد تأكلُ أبناءها، والأبناءُ يأكُل بعضُهم بعضاً، فهو بيتٌ متفكِّكٌ متداعٍ، وذلك مثلُ موالاةِ الكافرين بعضهم بعضاً[1].

رابعاً: دليل الأنفس:

قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: 21] ولما كان أقربُ الأشياء إلى الإنسان نفسَه دعاه خالقُه وبارئُه ومصوّرُهُ وفاطرُه مِنْ قطرةِ ماءٍ إلى التبصُّرِ والتفكّرِ في نفسِه، فإذا تفكّرَ الإنسانُ في نفسِه استنارت له آيات الربوبيّةِ، وسطعتْ له أنوارُ اليقينِ، واضمحلّتْ عنه غمراتُ الشكِّ والريب، وانقشعتْ عنه ظلماتُ الجهلِ، فإنّه إذا نظر في نفسِهِ وجد آثارَ التدبيرِ فيه قائماتٍ، وأدلّةَ التوحيدِ على ربِّه ناطقاتٍ، شاهدةً لمدبّره، دالةً عليه، مرشدةً إليه[2].

---

1 البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية، العرجاوي، مرجع سابق، ص 128. والأمثلة في البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية كثيرة، ذكرت في كتب بحثت هذا الموضوع؛ منها: "رحلة الإيمان في جسم الإنسان" د. حامد أحمد حامد، و"وحدانية الله تتجلى في وحدة خلقه" للأستاذ عمر أحمد الهواري. وغير ذلك كثير لمن أراد التوسع.

2 التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد الفقي، دار المعرفة، بيروت، 190/1.

وإليك بعضَ البراهين العلمية المتعلّقة بالإنسان وخلقه:

1-الإحساس والجلد:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [سورة النساء: 56] وهذه حقيقةٌ كونيةٌ؛ وهي أنَّ موطنَ الإحساس والألم في الإنسان هو الجلدُ، فالكافرون يعذَّبون عن طريق تبديل الجلد أو تغييره، وذلك ليذوقوا العذابَ، فالإذاقةُ -حسب القرآن الكريم- محلُّها الجلدُ، وقد بيّنَ التشريح المجهري للجلد أنّه عضوٌ غني بالألياف العصبيّةِ التي تستقبل وتنقل جميعَ أنواعِ الحسِّ من المحيط الخارجي، وذلك عن طريق طبقاتِ الجلدِ "البشرة، والأدمة، والنسيج تحت الأدمة"، وهي تنقلُ حِسَّ الألم، والحرارةَ والبرودةَ، والضغطَ، وحِسَّ اللّمس، فالقرآن ينبّهنا إلى هذه الحقيقة، ويقول: إن الله سبحانه كلّما أرادَ أن يذيقَ الكفارَ مزيداً من العذاب استبدلَ بجلودِهم التي احترقت وماتت فيها الأليافُ العصبيّةُ جلوداً سليمة لم تحترقْ، ليذوقوا العذابَ مرّةً أُخرى، وعندما يأتي التشريحُ المجهري ليقول: إنَّ الأليافَ العصبيَّة تكمنُ في الجلدِ نقول: إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهذه الحقيقة في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً[1].

2-البصمات وتحديدها لهوية الإنسان:

---

1 تأملات في العلم والإيمان، مرجع سابق، ص 180.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۝ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [سورة القيامة: 3-4]. لقد توصَّل العلمُ إلى سرِّ البصمةِ في القرن التاسع عشر، وبيّنَ أنَّ البصمةَ تتكوَّن من خطوطٍ بارزةٍ في بَشرَةِ الجلدِ، تجاورها منخفضاتٌ، وتعلو الخطوطَ البارزةَ فتحاتُ المسامِّ العرقية، تتمايل هذه الخطوطُ وتتلوّى، وتتفرّعُ عنها تَغَضُّناتٌ وفروع، لتأخذَ في النهاية في كلِّ شخص شكلاً مميّزاً، وقد ثبتَ أنّه لا يمكِنُ للبصمة أن تتطابقَ وتتماثَل في شخصين في العالم، حتّى في التوائمِ المتماثلةِ التي أصلُها مِنْ بويضةٍ واحدةٍ، يتكوّن البنان في الجنين في الشهر الرابع، ويظلُّ ثابتاً ومميّزاً له طوالَ حياته، ويمكن أن تتقاربَ بصمتان في الشكل تقارباً شديداً، ولكنّهما لا تتطابقان البتَّةَ، ولذلك فإنَّ البصمةَ تعدُّ دليلاً قاطعاً ومميزاً لشخصية الإنسان، معمول بها في كلِّ بلاد العالم، ويعتمدُ عليها في تحقيق القضايا الجنائية لكشف المجرمين واللصوص، وقد يكونُ هذا هو السرُّ في أنَّ الله سبحانه وتعالى خصَّ البنانَ بالذكر، ليبيّن للإنسان هذين الأمرين:

- السرَّ المختفي في البنان، الذي لم يُعْلَمْ أمرُه إلا في عصر الكشوف العلمية.

-القدرةَ الفائقةَ على إعادةِ خلق الإنسان بصورته وخِلقته التي كان عليها[1].

والدعوة مفتوحةٌ للإنسان إلى التفكّر في أجهزته العضوية؛ كالجهاز الهضمي، والتنفسي، والدموي، وغيرها في جسمه، وإلى التأمل في عالم المشاعر والأحاسيس

---

1 تأملات في العلم والإيمان، مرجع سابق، ص 180 – 182.

والأفكار والعقائد.

خامساً: دليل الهداية:

قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [سورة الأعلى: 1-3] . وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه: 50]، والمقصودُ بالهداية المرادةِ في هذه الآيات إعطاءُ كلِّ مخلوقٍ من الخلق والتصوير ما يصلحُ به لما خُلِقَ له، وإرشادُه إلى ما يُصْلِحُه في معيشته، ومطعمه، ومشربه، ومنكحه، وتقلبه، وتصرفه[1].

ومن أسماء الله الحسنى "الهادي" سبحانه وتعالى، الذي يُبصِّرُ عبادَه ويعرّفهم طريقَ الإيمان به، والإقرار بألوهيته، ومعرفة طريق بناء الحياة، ومعرفة نواميسها وسننها، حتى هدى الطيورَ والحيواناتِ والهوام والوحوش إلى ما فيه مصالحها وعيشها، ومحاذرة ما يضرُّها أو يُعْطِبُها. وقد جاء اسم "الهادي" في القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [سورة الفرقان: 31]، وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الحج: 54].

إنّها أولاً: هدايةُ المعارِفِ الفطريةِ الضروريةِ لكلّ مخلوق: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه: 50].

---

1 مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، محمد بن أبي بكر ابن القيم، بيروت، ص 109. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، 1978، ص 78.

وهي ثانياً: هداية الإرشاد والبيان التي بَعَثَ بها أنبياءه، وأنزل بها كتبه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة: 24].

وهي ثالثاً: الأخذُ بالقلوب والعقول إلى مواضع رضاه بالتوفيق والإلهام والحفظ، كما وعد سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [سورة يونس: 9]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت: 69]. وهو منزل الكتاب، الذي مَنْ تركه ضاعَ في بيداءِ الحياةِ، ومن ابتغى الهُدى في غيره أضلَّه الله[1]. وقد نبّه العلماء على كثيرٍ من هداية الله لمخلوقاته، وكتبوا في ذلك كُتباً نافعة، فتحدّثوا عن هداية الله للنملِ والهدهدِ والنحلِ وغيرِها من مخلوقات الله الكثيرة، وهذا بابٌ واسعٌ يكفي فيه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنعام: 38]، وهذه الأمم تعبدُ الله وتسبّحه وتحمده، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: 44]. وقال أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [سورة النور: 41].

---

1 مع الله الاسم الأعظم وقصة الأسماء الحسنى، سلمان بن فهد العودة، مؤسسة الإسلام اليوم، الرياض، ط1، 1430هـ-2009م، ص 280.

وتأمل معي في كل من:

1- النحل:

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: 68-69]، فانظر إليها وإلى اجتهادِها في صنع العسل، وبنائها البيوت المسدّسة، التي هي من أتمِّ الأشكالِ، وأحسنِها استدارةً، وأحكمِها صنعاً، وتلك مِنْ أثرِ صنع الله وإلهامه إياها، وإيحائه إليها. ثم انظر إلى حسن الامتثال؛ اتخذتِ البيوتَ أولاً، فإذا استقرّ لها بيت خرجت منه، فرعت وأكلت من الثمار، ثم أوت إلى بيوتها لأنَّ ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولاً، ثم بالأكل بعد ذلك، ثم إذا سلكتْ سُبُلَ ربها مذلّلةً، لا يستوعِرُ عليها شيءٌ، ثم ترعى، ثم تعود. ومن العجيبِ أنَّ لها أميراً يسمّى "اليعسوب"، لا يتمُّ لها رواحٌ ولا إيابٌ، ولا عملٌ ولا مرعىً إلا به، فهي مؤتمرةٌ بأمره، سامعةٌ له مطيعةٌ، وله عليها تكليفٌ وأمرٌ ونهيٌ، وهي منقادةٌ لأمره، متبعةٌ لرأيه، يدبّرها كما يدبّرُ الملِكُ أمرَ رعيتِه، حتى إنّها إذا أوت إلى بيوتها وقف على بابِ البيت، فلا يدعُ واحدةً تزحم الأُخرى، لا تتقدّم عليها في العبور، بل تعبرُ بيوتها واحدةً بعد واحدةٍ بغير تزاحمٍ، ولا تصادم ولا

تراكمٍ، كما يفعلُ الأميرُ إذا انتهى بعســـكره إلى معبرٍ ضـــيّقٍ، لا يجوز إلا واحداً واحداً. ومن تدبَّر أحوالها وســـياســـاتها وهدايتها، واجتماعَ شملها، وانتظامَ أمرِها، وتدبيرَ مُلكها، وتفويض كلِّ عملٍ إلى واحدٍ منها، يتعجَّب منها كلَّ العجب، ويعلمُ أنّ هذا ليسَ في مقدورِها، ولا هو من ذاتها، فإنَّ هذه أعمالٌ محكمةٌ متقنةٌ في غايةِ الإحكام والإتقان، فمنِ الذي أوحى إليها أمرَها، وجعل ما جعل في طباعها؟! ومن الذي هداها لشـــأنها؟! ومن الذي أنزلَ لها من الطَّلِّ ما إذا جنتْهُ ردّتْهُ عســـلاً صـــافياً، مختلفاً ألوانُه، في غايةِ الحلاوة واللذاذة والمنفعة؟[1]. وقد قال: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه: 50].

2-الهدهد:

ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبيِّ الله سليمان عليه السلام، وقد فقده وتوعّده، فلمّا جاء بَدَرَهُ بالعذر قبل أن ينذره ســـليمان بالعقوبة وخاطبه خطاباً هيّجه به على الإصغاء إليه، والقبول منه، ومن ضمن هذا: إنّي أتيتُك بأمرٍ قد عرفتُه حقَّ المعرفة ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ بحيث أحطتُ به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [سورة النمل: 22]. و"النبأُ" هو الخبر الذي له شـــأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصـــفه بأنه "نبأ يقين" لا شكّ فيه ولا ريب، فهذه مقدّمةٌ بين يدي إخباره لنبيّ الله سليمان بذلك

1 مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، 309/1-310.

النبأ، اســتفرغتْ قلب المخبَر لتلقّي الخبر، وأوجبتْ له التشــويقَ التامَّ إلى سماعهِ ومعرفتهِ، وهذا نوعٌ من براعةِ الاستهلالِ، وخطابِ التهييجِ، ثم كشفَ عن حقيقةِ الخبرِ كشفاً مؤكداً بأدلّةِ التأكيد فقال: ثم أخبر عن شأنِ تلك ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [سورة النمل: 23]، وأنها من أجلِّ الملوك، بحيث أوتيت من كل شيء يَصْلُحُ أن يُؤتاه الملوك، ثم زادَ في تعظيم شأنها بذكر عرشها الذي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم. ثم أخبرَه بما يدعوه إلى قصدهم وغزوهم في عُقرِ دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [سورة النمل: 24]، وحذفَ أداةَ العطفِ من هذه الجملةِ، وأتى بها مستقلّةً غيرَ معطوفةٍ على ما قبلَها؛ إيذاناً بأنّها المقصودةُ وما قبلَها توطئةٌ لها. ثم أخبر عن المُغوِي لهم، الحامل لهم على ذلك ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [سورة النمل: 24] المستقيم، وهو السجود لله وحده. ثم أخبر أنَّ ذلك الصدَّ حالَ بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة النمل: 24]، ثم ذكرَ مِنْ أفعاله سبحانه إخراجَ الخَبْء في السماواتِ والأرض، وهو المخبوءُ فيهما من المطر، والنبات والمعادن، وأنواع ما ينزل من السماء، وما يخرجُ من الأرض.

وفي ذكر الهدهدِ هذا الشأنَ من أفعال الربِّ تعالى بخصوصهِ إشعارٌ بما خصّه اللهُ به من إخراج الماء المخبوءِ تحتَ الأرضِ، قال صاحب "الكشاف": وفي إخراجِ الخَبْءِ أمارةٌ على أنّه من كلامِ الهدهدِ؛ لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك

بإلهام ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة النمل: 25]، جلّت قدرتُه، ولطفَ علمُه، ولا يكاد يخفى على ذي الفِراسة الناظرِ بنورِ الله مخايل كلِّ شخصٍ بصناعة أو فَنّ منَ العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عَمِلَ آدميٌّ عملاً إلا ألقى الله عليه رداءَ عمله[1].

سادساً: دليل انتظام الكون وعدم فساده:

وانتظامُ أمرِ العالم، العلوي والسفلي، وارتباطُ بعضِه ببعضٍ، وجريانُه على نظام مُحْكَمٍ، لا يختلف ولا يفسد، أدلُّ دليلٍ على أنَّ مدبَّره واحدٌ لا إله غيره[2].

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 22]. لو كان في السماواتِ والأرض آلهةٌ تصلحُ لها العبادةُ سوى الله الذي هو خالقُ الأشياءِ، وله العبادةُ والألوهيّةُ التي لا تصلحُ إلا له، أي لفسدَ أهلُ السماواتِ والأرضِ. وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة المؤمنون: 91]، يقول تعالى ذكره: ما للهِ مِنْ ولدٍ، ولا كانَ معه في القديم، أو عندَ خلقِهِ الأشياءَ، مَنْ تصلحُ عبادتُه، إذاً لاعتزلِ كلُّ إلهٍ منهم بما خلقَ مِنْ شيءٍ، فانفردَ به، ولتعالوا، ولعلا بعضهم على بعض، وغلبَ القويُّ منهم الضعيفَ؛ لأنَّ القويَّ لا يرضى أن يعلوه الضعيفُ، والضعيفُ لا يصلحُ أن

---

1 العقيدة في الله، الأشقر، مرجع سابق، ص 116.

2 الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط 1، 1408، 464/3.

يكون إلهاً، فسبحان اللهِ ما أبلغها مِنْ حُجَّةٍ، وما أوجزها لمن عقلَ وتدبّر[1].

وهكذا؛ فإنَّ دليلَ انتظامِ الكونِ وعدم فسادِهِ دليلٌ عقلي قويٌّ على وحدانيةِ الله، لا تملكُ العقولُ السويّةُ ردَّه، وهي ترى انتظامَ أمرِ السماواتِ والأرض وما فيهنّ، ممّا يدلُّ على وجودِ إلهٍ واحدٍ متفردٍ بالخلقِ والتدبيرِ، مما يستوجبُ صرفَ العبادةَ له دونَ سواه[2].

سابعاً: دليل التقدير:

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [سورة الفرقان: 2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر: 49]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [سورة الرعد: 8]، وظاهرةُ التقديرِ تبدو في كلّ ما خلقَ الله عزّ وجلّ في الأرض والسماءِ والإنسان والنبات والحيوان، فقد نظّم اللهُ أجزاءَ هذا الوجودِ على أحسنِ نظامٍ، وأدلّه على كمالِ قدرةِ خالقِهِ، وكمالِ عملِهِ، وكمال حكمتِهِ، وكمالِ لطفِه[3].

ثامناً: دليل التسوية:

قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [سورة النازعات: 27-28]. وقال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾

---

1 جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2000، 17/13.

2 محمد بن جرير الطبري، المرجع نفسه، 49/18.

3 الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، عبد الكريم عبيدات، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2000، ص 314.

[سورة النمل: 88]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة السجدة: 7].

والتسوية: إحسانُ الخَلْقِ، وإكمالُ الصنعةِ، بحيث يكونُ المخلوقُ مهيئاً لأداءِ وظيفته، وبلوغِ كماله، المقدَّر عنه، وجعله مستوياً معتدلاً متناسبَ الأجزاء، بحيث لا يحصلُ تفاوتٌ يخلُّ بالمقصودِ منها[1].

وإذا تأمّلنا مظاهرَ التسوية في الإنسان رأيناها تبدو في كل عضو من أعضائه، فقد أحسنَ اللهُ خلقَه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين: 4] منتصبَ القامة، سويَّ الأعضاءَ حسنَها[2]، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: 7-8]. وإنَّ الجمالَ والسواءَ والاعتدالَ ليبدو في تكوين الإنسان الجسدي والعقلي والروحي، وكلُّ ذلك يتناسَقُ في كيانه في جمالٍ واستهواءٍ.

والأجهزةُ العامةُ لتكوين الإنسان الجسدي؛ كالجهاز العظمي، والجهاز العضلي، والجهاز الهضمي، والجهاز التنفّسي.. إلى غير ذلك من أجهزة الجسم المتعدّدة، كلٌّ منها عجيبةٌ لا تقاسُ إليها كلُّ العجائب الصناعية التي يقفُ الإنسانُ مدهوشاً أمامها، وينسى عجائب ذاته، وهي أضخمُ وأعمقُ وأدقُّ بما لا يقاس[3]،

1 مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، 259/1.

2 دراسات في الثقافة الإسلامية (المصادر – الأسس – الخصائص – التحديات)، أحمد محمد بن جلي، 2016، ص 75.

3 تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر ابن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، 1999، 396/4.

وخلقُ الإنسانِ على هذه الصورة السويّة المعتدلة أمرٌ يستحقُّ التدبرَ الطويلَ؛ لأنَّه خلقٌ لا يملك العقل حياله إلا الإقرار بعظمة الله، والشكر له بأنْ أكرمه بهذه الخِلْقة، وقد كان قادراً أن يركّبه في أيِّ صورةٍ أخرى يشاؤها[1].

إنَّ أدلةَ إثبات وجودِ الخلق جلّ جلالُه؛ كدليل الخلق، ودليل الفطرة والعهد، ودليل الآفاق، ودليل الأنفس، ودليل الهداية، ودليلُ انتظام الكونِ وعدم فسادِه، ودليل التقدير، ودليل التسوية، تثبت أن هذا الكون لم ينشأ مصادفة ولم يوجد اعتباطاً ولم يكن بدون قصد[2]، إننا ونحن في رحابه نشاهدُ الترابطَ بحيث يمكن أن يقال في يقين جازم إن الكون كلّه؛ سماواته وأرضه وما بين السماوات والأرض، بِحارُه وأنهارُه، جِبالُه ووديانُه، نباته وحيوانه، إن جميع أجزاء الكون تُؤلِّف وحدةً متكاملةً مترابطة، هذا التكوين المترابط في ملايين الجزيئات الكونية، بل في بلايين بلايين هذه الجزيئات، ينفي -في تأكيد مطلق- فكرة الطبيعة العمياء، أو فكرة المصادفة، وإذا انتَفَت فكرةُ المصادفة فإن النتيجة التي تترتب على ذلك هي أن يكون للكون مكوِّن، ولعل القارئ يلاحظ مما سبق أننا نبدأ الحديث بمسألة وجود الله والاستدلال على هذا الوجود، وأن ترابط الكون هو من الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى، انظر إلى هذا الترابط في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝

---

1 الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، عبيدات، مرجع سابق، ص 294.

2 قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، دار الرشاد للنشر والتوزيع، ط 1، 2010، ص 11.

وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [سورة عبس: 24-32].

انظر إلى الترابط بين السماء والأرض وبين الماء والنبات في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة الزمر: 21].

هذا الترابط هو ترابط غائي؛ أي: ترابط هادف. هذا الترابط بين بلايين أجزاء الكون الذي يعتبر دليلاً باهراً على وجود الله إنما هو ترابط غائي على حدِّ تعبير الفلاسفة، أي: ترابط له غاية، إنه ليس مجرد ترابط فقط، بل هو ترابط هادف فيه القصد وفيه الغاية، ومن أجل ذلك اعتبر هذا دليلاً على وجود الله، ولقد سمِّي هذا الدليل أيضاً "الدليل الغائي"، إذ إن كل شيءٍ له غاية، وسمِّي أيضاً "دليل القصد"، وذلك أن كل ما في العالم مقصود لا دخل للاعتباط فيه، هادف لا دخل للمصادفة فيه، وانظر إلى القصد والغاية في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [سورة ق: 6-11].

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ۝ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 65-69].

إن الله سبحانه يمسك النظام المترابط في كل لحظة وفي كل ثانية، وإنه سبحانه لو تخلَّف عن شيءٍ منه طرفة عينٍ لتلاشى، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة فاطر: 41].

هذه العقيدة تحتاج إلى إيضاح أكثر؛ في سورة فاطر نجد الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾، وهو سبحانه الذي يمسك في جو السماء، يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة النحل: 79].

ويقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [سورة الملك: 19].

وهو سبحانه مالك الملك يؤتيه في أي لحظة من يشاء، وينزعه في أي لحظة ممن يشاء. وهو سبحانه الذي يصرِّف الليل والنهار كلما أشرف فجر وغربت شمس، وهو الذي يهب الحياة أو يسلبها كلما تنسَّم كائن الحياة وكلما فارقها، يقول سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة آل عمران: 26-27].

لعل القارئ الكريم يلاحظ استعمال الفعل المضارع في هذه الآيات القرآنية ودلالة الفعل المضارع إنما هي للحاضر وللمستقبل.

والآيات القرآنية -من هذا القبيل كثيرة- يقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: 6]. ويقول سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة الروم: 46]. ويقول سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۝ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الروم: 48-50].

وما من شـــك في أن الله خلق وقَّدر، ووضـــع النواميس وقعَّد القواعد، وذلك شـــيء، وإمســـاك كل ذلك والقيّومية عليه شـــيء آخر، فمع الخلق الإمســـاك، والإمساك مستمر لا ينتهي، وهذا هو معنى القيّومية، وهي من صفات الله تعالى، و"القيّوم" اسم من أسمائه سبحانه. ومعنى القيّوم أنه القائم بنفسه، وأنه الذي يقوم به كل موجود، حتى إنه لا يكون للأشياء وجود ولا دوامُ وجودٍ إلا به[1].

– أهي قيوميّة فحسب؟ لا؛ إنها قيومية علم وتدبير قائم على العلم، فضلاً عن كونها قيومية إمســـاك. إن قيومية الله على العالم هي قيومية إمســـاك للعالم وإلا لتلاشـــى، ومن هنا كان المعنى العميق للدعاء الذي يدعو به كثير من الصـــالحين وهو: اللهم لا تكلني إلى نفســـي طرفة عين ولا أقل من ذلك. إذ لو أن الله وكل إنساناً إلى نفسه لتلاشى، فهو ممسك له مادياً، ولو وكله إلى نفسه روحياً لصار فريسة سهلة للنفس الأمّارة بالسوء وللشيطان الموسوس بالشر.

– وقيومية الله على العالم قيومية علم محيط شامل، فهو سبحانه كما يقول في كتابه: ﴿يَعْلَمُ السِّـرَّ وَأَخْفَى﴾ [ســورة طه: 7]، أما الســر فأمره معروف، وإنما الأخفى من السر فهو ما في دائرة اللاشعور.

– وهو ســبحـانـه: ﴿يَعْلَمُ خَـائِنَـةَ الْأَعْيُنِ وَمَـا تُخْفِي الصُّـــدُورُ﴾ [سورة غافر: 19].

---

1 قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص 16.

– وهو سبحانه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [سورة الأنعام: 73].

– وهو سبحانه الذي: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۝ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [سورة الرعد: 8-10].

وعلمه سبحانه ليس مقصوراً على الماضي أو الحاضر فحسب، ولكنه شامل للمستقبل أيضاً، يقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة الحديد: 22].

وإذا كان الله سبحانه وتعالى أعلن أن علمه عام شامل بقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [سورة الأنعام: 73]. إذ إن عالَم الغيب هو ما وراء الطبيعة، وعالم الشهادة هو الطبيعة، فإن الله قد فصّل الأجزاء والجزئيات، وبيّن أنه يعلم اليسير والصغير والكبير، يقول سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: 59-60]. ويقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝ وَقَالَ

الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة سبأ: 2-3].

وأما الأصغر من الذرة الذي ذكره الله سبحانه في الآية الكريمة فلك أن تقول عنه بسهولة ويسر إنه البروتون والإلكترون، ويكون القرآن بذلك قد أشار إلى تفتيت الذرة قبل أن تُفتَّت. وهذه قيّومية العلم، وهي لا تنفك عن قيومية التدبير، إن قيومية التدبير قائمة على قيومية العلم لا تنفك عنها وهي تلازمها حتى لكأنها صفة واحدة[1].

تاسعاً: دليل العناية:

إن الله سبحانه معنيٌّ بالعالم، وعنايته بالكون سارية في جميع أجزائه، وإذا كانت كلمة "العناية" لا تخرج بنا عن جو الترابط الهادف والإمساك والتدبير فإنها تلوّن الحديث عن دليل الترابط على وجود الله بلون آخر، وإذا تلوّن هذا الدليل باللون الرحيم الرقيق سمِّي "دليل العناية".

والقرآن الكريم غاصٌّ بتوجيه الأنظار إلى عناية الله بالكون، وعلى الخصوص بالإنسان في رحاب الكون، فمن أجل الإنسان كانت رحمة الله فيَّاضة بالنعم على الإنسان في نفسه، يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝

---

1 قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص 18.

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد: 8-10]. ويقول سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الروم: 21]. ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء: 70].

ويتحدث الله سبحانه وتعالى عن نعمه العديدة التي أسداها إلى الإنسان، فنعمة الليل والنهار بيّنها الله سبحانه بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة القصص: 71-73].

إن دليل العناية من أجمل الأدلة على وجود الله الذي يقول:

- ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [سورة لقمان: 20].

وسنذكر -مسترسلين مع التيار القرآني- أقوالاً لبعض الحكماء تؤيد هذا الدليل من حيث الترابط الهادف أو من حيث العناية. إن عناية الله السماوية في الكون

كله التي يلاحظها الإنسان في عينيه تبصران، وفي أذنيه تسمعان، وفي عقله يفكر، وفي لســانه ينطق. إن عناية الله التي يلاحظها الإنســان في كل ما يحيط به ويغمره من نعم الله تنفي المصادفة، وإن الترابط الهادف يلغي المصادفة، وإن القصد الظاهر في نظام الكون ينفي المصــادفة. ولنتحدث الآن عن التركيب وكيف أنه يرشــد إلى الصانع:

خذ شيئاً من أيسر الأشياء في تركيبها؛ خذ الفأس مثلاً التي يستعملها الفلاح في حقله أو المعول الذي يستعمله العامل في عمله، إذا مر إنسان على الفأس فرأى قطعة الخشــب ملســاء مســتطيلة قد ثبتت فيها بطريقة محكمة قطعة من الحديد خاصة، أتراه يظن أن ذلك وليد المصادفة البحتة؟ وإذا كان ذلك الظن لا يتأتى في اليســير الســهل فإنه من باب أولى لا يتأتى في المعقد الكثير التركيب كالســاعة أو جهاز الراديو مثلاً[1].

والآن قدِّر في ذهنك -كما يقول المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز-: بيتاً منسَّــق البنيان، فاخر الأســـاس والرِّياش، قائماً على جبل مرتفع تكتنفهما غابة كثيفة، وقُدّر أن رجلاً جاء إلى هذا البيت فلم يجد فيه ولا حوله ديَّاراً ولا نافخ نار، فحدّثته نفسه بأنه عسى أن تكون صخور الجبل قد تناثر بعضها، ثم تجمّع ما تناثر منها ليأخذ شــكل هذا القصــر البديع بما فيه من مخادع ومقاصــير، وأبهاء

1 قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص 20.

ومرافق، وأن تكون أشجار الغابة قد تشققت بنفسها ألواحاً وتركبت أبواباً وسرراً ومقاعد ومناضد، ثم أخذ كل منها مكانه فيه، وأن تكون خيوط الثياب وأصواف الحيوان وأوباره قد تحولت بنفسها أنسجة موشّاة، ثم تقطعت طنافس فانبثّت في حجراته، واستقرت على أرائكه، وأن المصابيح جعلت تهوي إليه بنفسها من كل مكان، فنشبت في سقفه زرافات ووحداناً.. ألست تحكم بأن هذا حلم نائم أو حديث خرافة قد أصيب صاحبه باختلاط في عقله؟

فما ظنك بقصرٍ السماء سقفه، والأرض قراره، والجبال أعمدته، والنبات زينته، والشمس والقمر والنجوم مصابيحه؟ أيكون في حكم العقل أهونَ شأناً من ذلك البيت الصغير؟ أولا يكون أحقَّ بلفت النظر إلى بارئ مصور حي قيوم خلق فسوى وقدّر فهدى؟

إن الاستدلال على وجود الله سبحانه بدليل العناية قديم قدم الإنسانية نفسها، فكل إنسان يشعر بأنه مغمور بنعم الله سبحانه في داخل نفسه وفي خارجها، ويقول الله تعالى معبّراً عن حقيقة يلاحظها كل إنسان بتدبير يسير: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [سورة إبراهيم: 34]، ويقول أيضاً: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [سورة لقمان: 20].

بهذا الدليل نفسه يقيم أحد الحكماء الحجة على المنكرين لوجود الله؛ كان ذلك في العصر اليوناني، وكان المنكر هو أرسطو ديموس –وهو غير أرسطو

الشهير– وجرى الحديث بينه وبين سقراط –أبي الفلاسفة– على النحو التالي:

قال سقراط: أفي الناس من تعجبك براعته في الصنائع؟

قال: نعم، وسمى من الشعراء والمصوِّرين ممن كان يعدّه أبرع من غيره.

فقال سقراط: أيهما عندك أرفع شأناً؛ من يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل، أم من يصوِّر الأشباح الحية المتحركة؟

فقال: من يصنع الصور الحية، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة لا من عمل العقل.

قال سقراط: إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها، وأشياء أخرى بيّنة القصد والمنفعة فما قولك في تلك الأشياء؟ ما هي التي عندك من فعل العقل وما هي التي عندك من فعل المصادفة؟

قال: ما ظهر قصده ومنفعته هو من فعل العقل. وقال سقراط: أولست ترى أن صانع الإنسان في أول نشأته جعل له آلات الحس لما تلك الآلات من المنفعة الظاهرة، فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع ما يكون لعيشه نافعاً صالحاً؟

وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا أنوف نشتمُّها؟ وكيف ندرك المطاعم ونفرّق بين المر والحلو لو لم يكن لنا لسان نذوق به؟

إن بصرنا معرَّض للآفات... أولست ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك فجعلت الأجفان كالأبواب لتمنع ما يعيب العين "آلة البصر" وجعلت الأهداب

كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح؟

وما قولك في آلة السمع وهي تقبل جميع الأصوات ولا تمتلئ أبداً؟ أما رأيت الحيوانات؟ وكيف رُتِّبت أسنانها المقدَّمة وأُعدَّت لقطع الأشياء فتلقيها إلى الأضراس فتدقّها دقّاً؟ فإذا تأملت في ترتيب ذلك أيمكنك أن تشك: هل هي من فعل المصادفة أم هي من فعل العقل؟

قال أرسطو ديموس: نعم، إذا تفكَّرنا في ذلك فإننا نؤمن أنها من فعل صانع حكيم، كثير العناية بمصنوعاته[1].

إن هذا النهج الاستدلالي الذي سرنا عليه حتى الآن هو النهج الذي يقول فيه "كانط" فيلسوف ألمانيا الأكبر: إنه أوضح الأدلة وأقواها على وجود الله، وهو نهج قرآني إسلامي، بيد أن في الإسلام نهجاً آخر في موضوع وجود الله سبحانه وتعالى.

إن دليل القصد أو دليل العناية، أو دليل الترابط -أو غيرها- الذي سبق أن تحدثنا عنه بألوانه المتعددة، لا يعدو أن يكون دليلاً واحداً يسمَّى باسم اللون الغالب الذي يظهر فيه، وهو لا يعدو أيضاً أن يكون دليل الأثر على المؤثِّر، ودلالة الأثر على المؤثر دلالة سهلة واضحة. وإذا كان أثر القدم يدل على المسير -كما قال الأعرابي قديماً- فإن سماء ذات أبراج وأرضاً ذات فجاج يدلان -لا ريب

1 قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص 23.

فيه–على الحكيم الخبير[1].

عاشراً: الله سبحانه وتعالى هو الظاهر:

إن الله سبحانه وتعالى –في أعراف المؤمنين–ظاهراً ظهوراً واضحاً، وهو عز وجل أظهر من كل ما سواه. إن المؤثِّر في أعراف المؤمنين أظهر من الأثر، والخالق أوضح من الخلق، والمكوِّن أجلى من الكون، وإن من أسماء الله اسم "الظاهر".

يقول تاج الدين بن عطاء الله السكندري عن هذا المعنى –متفنناً في التعبير والمعنى–جملة من التعبيرات تتَّحد ألفاظها إلا لفظاً واحداً أو لفظين، فيتغير المعنى بسبب ذلك ويكون للعبارات في مجموعها معنى لطيف... إنه يقول:

–كيف يُتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟ كيف يُتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟ كيف يُتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء؟ كيف يُتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء؟ كيف يُتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود شيء؟

أما عن الاستدلال بالأثر على المؤثِّر فإن ابن عطاء يقول في مناجاته:

"إلهي كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟"

والمفتقر إلى الله –في كلمة ابن عطاء الله–هو الكون كله، هو هذه الآثار كلها،

---

1 قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص 24.

في وجودها وفي ارتباطها، وفي إمساكها، وفي العناية بها[1].

ويتابع ابن عطاء الله مناجاته فيقول متجهاً إلى الله:

- أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهِرَ لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك[2]؟

وفي هذا المنهج كلام كثير، ومهما يكن من شيء فإنه سواء سار الإنسان على النهج الصوفي أو على نهج الاستدلال فالله موجود، وقد كان في أزل ولا شيء معه ثم خلق الخلق[3].

ومن أسماء الله الحسنى "الظاهر"، ومن معاني كلمة الظاهر هو أن الله لكثرة البراهين الدالة عليه، ولكثرة الدلائل التي تشير إليه ظاهر... قيل يا إمام متى كان الله؟ فقال الإمام علي: ومتى لم يكن[4]؟

وقال العلماء: لقد خلق الله كل الكائنات لتظهر آثار قدرته فيها، وهو سبحانه وتعالى ظاهر عليها من جميع الجهات[5].

---

1 الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، العبيدات، مرجع سابق، ص 24.

2 محمود، المرجع نفسه، ص 25.

3 محمود، المرجع تفسه، ص 26.

4 موسوعة أسماء الله الحسنى، محمد راتب النابلسي، دار المكتبي، دمشق، سوريا، ط3، 1425هـ-2004م، 1004/2.

5 النابلسي، المرجع نفسه، 1010/2.

ومن أدق الكلمات وأوضحها أن يقال: الكون كله بما فيه ومن فيه مظهر من مظاهر أسمائه وصفاته، وعلاماته، كل الكون يدل على الله أبداً، كل الكون بمجراته، بالسماوات، والأرض، والنبات، والحيوان، والأطيار، والأسماك، والإنسان، والطعام، والشراب، لذلك فإن أكبر وظيفة للكون أن نتعرف على الله من خلاله، ولو لم نستفِد منه، لكن الذي استفاد من هذا الكون ولم يتعرف على الله من خلاله ما حقق الهدف من وجوده[1].

وقيل في الاسم الظاهر هو المتجلي بأنوار هدايته وآياته، المتنزّه بمعاني أسمائه وصفاته، فهدايته واضحة، وآياته واضحة[(2)].

قال العلماء لا ترى ذرة في الوجود إلا وهي ناطقة بوحدانية المعبود، ولا ترى فاضلاً متخلّقاً بصفات الرجال إلا وتشهد عليه أنوار صفات الكبير المتعال، كل الخير من الله، كل الكمال من الله، كل الأعمال الصالحة بتوفيق الله، بإلهام الله، مصدر الكمال في الكون هو الظاهر. قالوا: الظاهر لا يخفى على كل متأمل، أيُّ إنسان أراد الحقيقة فالله يظهر له. قالوا: هو الظاهر فلا يخفى على كل متأمل، الظاهر لعيون الأرواح والكون، محلّى بالكمال، وكل شيء فيه ينادي: أشهد أن خلَّاقي ذو الجلال والإكرام ظاهر[3]. والظاهر: هو الظاهر على كل شيء دونه،

---

1 موسوعة أسماء الله الحسنى، النابلسي، مرجع سابق، 1010/2.

2 النابلسي، المرجع نفسه، 1010/2.

3 النابلسي، المرجع نفسه، 1010/2.

وهو العالي فوق كل شيء، فلا شيء أعلى منه[1].وقد قال الإمام ابن القيم عن اسم الجلالة (الظاهر) في نونيته:

والظاهر العالي الذي ما فوقه	شـــيء كما قد قال ذو البرهانِ
حقاً رســـول الله ذا تفســـيره	ولقد رواهُ مســـلمٌ بضـــمانِ
فاقبله لا تقبل ســـواه من التفا	ســـير التي قيلت بلا برهـانِ
والشـــيء حين يتمُّ منه علوُّه	فظهوره في غـايـة التبيـانِ
أَوَما ترى هذي الســما وعلوَّها	وظهورهـا وكـذلـك القمرانِ
والعكس أيضـاً ثابتٌ فسُـفُولُهُ	وخفاؤُهُ إذ ذاك مصـــطحبانِ
فـانظر إلى علو المحيط وأخـذِهِ	صـــفةَ الظهور وذاك ذو تبيانِ
وانظر خفاءَ المركز الأدنى ووصـ	ـــف السفل فيه وكونه تحتاني
وظهوره سبحانه بالذات مثـــ	ـــلُ علوه فهما له صـــفتانِ
لا تجحدَنَّهما جحودَ الجهم أو	صـافَ الكمال تكون ذا بهتانِ
وظهوره هو مقتضٍ لعلوّهِ	وعلوُّه لظهوره ببيـانِ[2]

1 جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، مرجع سابق، 124/27.

2 ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، عبد العزيز الجليل، دار طيبة، الرياض، ط3، 1430هـ-2009م، ص 174.

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: و"الظاهر" يدل على عظمة صفاته، واضمحلال كل شيء عند عظمته من ذوات وصفات، ويدل على علوِّه[1].

واسم الله الظاهر مقترن بالباطن، ومن أسرار اقتران أسماء الله الحسنى: الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، فمعرفة هذه الأسماء الأربعة؛ الأول والآخر والظاهر والباطن هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث تنتهي به قواه وفهمه[2].

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة؛ وهي إحاطتان زمانية ومكانية، فإحاطة أوَّليَّته وآخريَّته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوَّليَّته، وكل آخر انتهى إلى آخريَّته، فأحاطت أوليَّته وآخريَّته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريَّته وباطنيَّته بكل ظاهر وباطن، فما ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده؛ فالأولُ قِدمُه، والآخرُ دوامُه وبقاؤُه، والظاهرُ علوُّه وعظمتُه، والباطنُ قربُه ودنوُّه، فسبق كلَّ شيء بأوَّليَّته، وبقي بعد كل شيء بآخريَّته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا تواري منه سماءٌ سماءً، ولا أرضٌ أرضاً، ولا يحجب عنه ظاهرٌ باطناً، بل الباطنُ له ظاهرٌ، الغيبُ عنده شهادةٌ، والبعيدُ منه قريبٌ، والسرُّ عنده علانيةٌ، فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد؛ فهو "الأولُ" في آخريَّتِهِ، و"الآخرُ" في أوَّليَّته،

---

1 الجليل، المرجع نفسه، ص 175.

2 الجليل، المرجع نفسه، ص 178.

و"الظاهرُ" في بطونه، و"الباطنُ" في ظهوره، لم يزل أولاً، وآخراً، وظاهراً، وباطناً[1].

وقد أورد ابن القيم هذه الأسماء مجتمعةً في نونيَّته الشهيرة حيث قال:

هو أولٌ هو آخرٌ هو ظاهرٌ — هو باطنٌ هيَ أربعٌ بوِزانِ

ما قبلَهُ شــيءٌ كذا ما بعدَهُ — شيءٌ تعالى اللهُ ذو السُّلطانِ

ما فوقَهُ شــيءٌ كذا ما دونَهُ — شــيءٌ وذا تفســيرُ ذي

فـانظرْ إلى تفســيرِهِ بتـدبُّرٍ — وتبصُّــرٍ وتعقُّـلٍ لِمَعـانِ[2]

فالله سبحانه لَمّا كان هو الأول الذي خلق الكائنات، والآخر الذي إليه تصير الحادثات، فهو الأصل الجامع؛ فالعلم به أصل كل علم وجامعه، وذكرُهُ أصل كل كلام وجامعه، والعمل له أصـل كل عمل وجامعه. وليس للخلق صـلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته[3].

---

1 طريق الهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار السلفية، القاهرة، ط 2، 1394، ص 25.

2 نونية ابن القيم الجوزية، أبو عبد الله بن أبي بكر الدمشقي، تحقيق: زهير الشاويش، ط1 1404 هـ، 2/ 213.

3 كلام ابن تيمية نقلاً عن: قصة الخلق، محمد بن عبد الله الخرعان، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 2008، ص 13.

الفصل الثاني: قصة بدء الخلق

المبحث الأول: بدء الخلق وقدرة الخالق سبحانه وتعالى

إن الناس -في كل زمان ومكان- يشتاقون إلى معرفة كيفية خلق العالم، ويكثر تساؤلهم بمتى وكيف؟ ويريدون تحديداً واضحاً عن الأول من المخلوقات وعما بعده... إنهم يريدون ترتيباً يكون فيه التعيين والتحديد. لقد شغلت هذه المسألة الكثير من الصحابة، فأخذوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، بل إن الوفود كانت تأتيه من بعيد، يدفعها حب الاستطلاع، ويتجشَّمون السفر من أجل المعرفة... ها هم أولاء ناس من أهل اليمن، كما يروي الإمام البخاري رضي الله عنه، فيقولون جئنا نسألك عن هذا الأمر؛ أي أمر الخلق، خلق الكون، لقد جاؤوا من اليمن يسألون عن متى وكيف؟

وقد روى الإمام البخاري أيضاً عن سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: قام فينا النبي صلى الله عليه وسلم مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق حتَّى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه[1].

ومعنى كلام سيدنا عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ يحدث الصحابة عن بدء الخلق متدرجاً مع الترتيب حتى انتهى إلى نهاية العالم ومصيره، والبعث والحساب، حتى دخل الذين نالتهم رحمة الله الجنة، والذين اكتسبوا

---

1 قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص 27.

السيئات عاقبهم الله بما كسبت أيديهم فأدخلهم النار.

ولقد رُوي عن بعض الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبهم في ذلك من العصر إلى أن غربت الشمس، ويبدو أن رسول الله خطب في ذلك عدة مرات، فقد روى الإمام مسلم عن أبي زيد الأنصاري قال: صلى بنا رسول الله صلاة الصبح فصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى بنا الظهر، ثم صعد المنبر فخطبنا، ثم صلى العصر كذلك حتى غابت الشمس، فحدثنا بما هو كائن، فأعلمُنا أحفظُنا.

ولقد روت الأحاديثُ الصحيحةُ جملةً من القضايا؛ منها ما رواه الإمام البخاري عن عمران بن حصين -رضي الله عنه-وهي إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم عن سؤال وفد اليمن؛ والقضية الأولى في ذلك: كان الله ولم يكن شيء غيره. والقضية الثانية: كان عرشه على الماء. والقضية الثالثة: أنه سبحانه وتعالى كتب في الذِّكر كلَّ شيءٍ "أيّ: في محل الذِّكر؛ أي: اللوح المحفوظ". والقضية الرابعة: أنه سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض[1].

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل اليمن: "كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذِّكر كل شيء، وخلق السماوات

1 قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص 28.

والأرض"[1].

وقد تكرر في القرآن الكريم ذكر بدء الخلق في أكثر من آية؛ مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت: 20]. فالقرآن الكريم من طريقته أن يتخذ الكون كله معرضاً لآيات الإيمان ودلائله، وصفحة مفتوحة للحواس والقلوب، تبحث فيها عن آيات الله، وترى دلائل وجوده ووحدانيته، وصدق وعده ووعيده، ومشاهد الكون وظواهره، حاضرة أبداً لا تغيب عن إنسان، ولكنها تفقد جدَّتها في نفوس الناس بطول الألفة، ويضعف إيقاعها على قلوب البشر بطول التكرار، فيردُّهم القرآن الكريم إلى تلك الروعة الغامرة، وإلى تلك الآيات الباهرة، بتوجيه الموحي، المحيي للمشاهد والظواهر في القلوب والضمائر، ويثير تطلُّعَهم وانتباههم إلى أسرارها وآثارها، ويجعل منها دلائله وبراهينه التي تراها الأبصار وتتأثر بها المشاعر، ولا يتخذ طرق الجدل الذهني البارد، والقضايا المنطقية التي لا حياة فيها ولا حركة، التي وفدت على التفكير الإسلامي من خارجه فظلَّت غريبة عليه، وفي القرآن المثل والمنهج والطريق[2].

- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: والسير في الأرض يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التي لم تألفها العين ولم يملَّها القلب، وهي لفتة عميقة إلى حقيقةٍ

---

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 14.

2 في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط 17، 1412، 2729/5.

دقيقةٍ، وإن الإنســـان ليعيش في المكان الذي ألفه فلا يكاد ينتبه إلى شـــيءٍ من مشـاهده أو عجائبه، حتى إذا سـافر وتنقل وسـاح اسـتيقظ حسُّـه وقلبه إلى كل مشـهد، وإلى كل مظهر في الأرض الجديدة، مما كان يمرُّ على مثله أو أروع منه في موطنه دون التفات ولا انتباه، وربما عاد إلى موطنه بحسٍّ جديد وروح جديدٍ ليبحث ويتأمل ويعجب بما لم يكن يهتم به قبل ســفره وغيبته، وعادت مشـــاهد موطنه وعجائبه تنطق له بعدما كان غافلاً عن حديثها، أو كانت لا تفصـــح له بشـــيء ولا تناجيه، فســبحان منزل هذا القرآن، الخبير بمداخل القلوب وأســرار النفوس[1].

- ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ﴾: إن التعبير هنا بلفظ الماضـــي "كيف بدأ الخلق"، بعد الأمر بالسير في الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق، يثير في النفس خاطراً معيناً؛ ترى هنالك في الأرض ما يدل على نشـــأة الحياة الأولى وكيفية بدء الخليقة فيها، كالحفريات التي يتتبعها بعض العلماء اليوم ليعرفوا منها خط الحياة؛ كيف نشأت؟ وكيف انتشرت؟ وكيف ارتقت؟ وإن كانوا لم يصلوا إلى شيء في معرفة سر الحياة: ما هي؟ ومن أين جاءت إلى الأرض؟ وكيف وجد فيها أول كائن حي؟ ويكون ذلك توجيهاً من الله للبحث عن نشـــأة الحياة الأولى والاســتدلال به عند معرفتها على النشأة الآخرة.

---

1 سيد قطب، المرجع نفسه، 2730/5.

ويقوم بجانب هذا الخاطر خاطر آخر؛ ذلك أن المخاطَبين بهذه الآية أول مرة لم يكونوا مؤهلين لمثل هذا البحث العلمي الذي نشأ حديثاً، فلم يكونوا بمستطيعين يومئذٍ أن يصلوا من ورائه إلى الحقيقة المقصودة به -لو كان ذلك هو المقصود- فلا بد أن القرآن كان يطلب منهم أمراً آخرَ داخلاً في مقدورهم، يحصلون منه على ما ييسر لهم تصور النشأة الآخرة، ويكون المطلوب حينئذ أن ينظروا كيف تبدأ الحياة في النبات والحيوان والإنسان في كل مكان؛ ويكون السير في الأرض -كما أسلفنا- لتنبيه الحواس والمشاعر برؤية المشاهد الجديدة، ودعوتها إلى التأمُّل والتدبُّر في آثار قدرة الله على إنشاء الحياة التي تبرز في كل لحظةٍ من لحظات الليل والنهار.

وهناك احتمال أهم يتماشى مع طبيعة هذا القرآن؛ وهو أنه يوجه توجيهاته التي تناسب حياة الناس في أجيالهم جميعاً، ومستوياتهم جميعاً، وملابسات حياتهم جميعاً، ووسائلهم جميعاً، ليأخذ كل منها بما تؤهله له ظروف حياته ومقدراته، ويبقى فيها امتداد يصلح لقيادة الحياة ونموها أبداً، ومن ثم لا يكون هناك تعارض بين الخاطرين، هذا أقرب وأولى.

-﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: يبدأ الحياة ويعيدها بهذه القدرة المطلقة التي لا تتقيد بتصورات البشر القاصرة، وما يحسبونه قوانين يقيسون عليها الممكن وغير الممكن بما يعرفونه من تجاربهم المحدودة ومن قدرة الله على كل شيء[1]. وقال تعالى:

---

1 في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، 2730/5.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء: 104]. وقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [سورة يونس: 4].

أولاً: بداية الخلق ليست غامضة:

بداية الخلق ليس بداية غامضة أو هلامية كما يصوّرها الفكر الغربي المادي الحديث، الذي يتيه في شعاب من التجارب والنظريات المتناقضة في كثير من الأحيان، وما زال المفكرون الغربيون وعلماء الفيزياء والفلك في حيرة من أمرهم في مسألة تحديد بداية الخلق ونشأة الكون، بل لقد أفضت بهم تلك الحيرة إلى الإلحاد في التصور العام الشائع الآن بين المشتغلين بالعلوم الطبيعية –كما يقول جعفر شيخ إدريس– هو مع الأسف تصور مادي إلحادي؛ يفترض أنه لا واقع إلا الواقع المادي، وأن الحقائق إنما هي الحقائق المادية، وأن الكون مكتفٍ بنفسه، غني عن أيِّ شيءٍ خارجي[1].

ولذا جاء تفسير بداية خلق الإنسان بعيداً عن الدين، وجاء تبعاً لذلك الفكر الاجتماعي والتربوي الإنساني منطلقاً من هذه النظرية المادية الملحدة التي ترفض الدين والإيمان بالله وبما جاء عن الله في تفسير سلوك الإنسان، وارتباطه بالإيمان بالله، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، وهذا يؤكد ما سبق ذكره من

---

1 الفيزياء ووجود الخالق مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين، جعفر شيخ إدريس، الناشر مجلة البيان، ط 1، 2001، ص 15.

أهمية الحديث عن قصة الخلق وارتباطها بكثير من القضايا الكبرى في عقيدة المسلم وحياته[1].

– الله هو الأول: فأول تلك المعالم حقيقة أن الله سبحانه وتعالى هو الأول، فهو الأول بلا ابتداء، وهو الأول فليس قبله شيء، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: 3]. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء...)[2].

قال ابن تيمية رحمه الله: وإنما الغرض هنا أن الله سبحانه لما كان هو الأول الذي خلق الكائنات، والآخر الذي إليه تصير الحادثات، فهو الأصل الجامع؛ فالعلم به أصل كل علم وجامعه، وذكره أصل كل كلام وجامعه، والعمل له أصل كل عمل وجامعه، وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته، فهو سبحانه هو الأول دون بداية، فلا يُسأل متى ولا كيف[3]. ولذلك قال ابن جرير الطبري في تفسيره: هو الأول قبل كل شيء بغير حد[4].

ويقول الشيخ السعدي: الأول: يدل على أن كل ما سواه حادث كائن بعد

---

1 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 15.

2 صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: ما يقوله عند النوم، رقم: (2713).

3 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 15.

4 جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، مرجع سابق، 124/27.

أن لم يكن، ويجب على العبد أن يلحظ فضـل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية؛ إذ السبب والمسبب منه تعالى[1].

– وقد اقترن اسم الأول باسمه الآخر سبحانه وتعالى مرة واحدة في القرآن؛ في قولـه تعـالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّـاهِرُ وَالْبَـاطِنُ وَهُوَ بِكُـلِّ شَـــيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: 3].

– وفي الحديث الشريف عن عائشـة أم المؤمنين قول رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: "اللهمّ أنتَ الأوّلُ الذي ليسَ قبلكَ شـيء، وأنتَ الآخرُ الذي ليسَ بعدكَ شـيء، وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقكَ شـيء، وأنت الباطنُ فليسَ دونكَ شـيء اقْضِ عنّا الديْنَ وأغنِنا من الفقرِ"[2]. قال الخطابي: "الآخر" هو الباقي بعد فناء الخلق، وليس معنى "الآخر" ما لـه انتهـاء، كمـا ليس معنى "الأول" مـا لـه ابتـداء. وقـال البيهقي: "الآخر" هو الـذي لا انتهـاء لوجوده. وقـال الطبري: "الآخر" بعـد كـل شيء بغير نهاية[3].

وأحسن التعريفات وأكملها ما فسّره أعرف البشر بالله عز وجل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك في قوله: (وأنت الآخر فليس بعدك شيء)[4]. ومن

---

1 شرح أسماء الله الحسنى، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبيد بن علي العبيد، الجامعة الإسلامية، المدينة النورة، العدد 112، السنة 33، 1421هـ، ص 169.

2 تفسير القرآن، ابن كثير، 8/ 31.

3 ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 168.

4 تفسير القرآن، ابن كثير، المصدر السابق، 8/ 31.

آثار الإيمان بهذين الاسمين؛ يقول ابن القيم رحمه الله: فعبوديته باسمه "الأَول" تقتضي التجرُّد من مطالعة الأسباب والوقوف عليها والالتفات إِليها، وتجريد النظر إِلى مجرد سبق فضله ورحمته، وأَنه هو المبتدئ بالإِحسان من غير وسيلة من العبد، إِذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده، وأَيُّ وسيلة كانت هناك؟! وإنما هو عدمٌ محضٌ، وقد أَتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. فمنه سبحانه الإِعداد ومنه الإِمداد، وفضله سابق على الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجوده. فمن نزَّل اسمه "الأَول" على هذا المعنى أَوجب له فقراً خاصاً وعبودية خاصة، وعبوديته باسمه "الآخر" تقتضي أيضاً عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنها تعدم لا محالة وتنقضي بالآخرية، ويبقى الدائم الباقي بعدها، فالتعلُّق بها تعلقٌ بما يعدم وينقضي، والتعلق بـ"الآخر" سبحانه وتعالى تعلُّقٌ بالحي الذي لا يموت ولا يزول، فالمتعلق به حقيق أَن لا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنى به، فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار إِلى الله وحده ودوام الفقر إِليه دون كل شيءٍ سواه، وأَن الأَمر ابتدأَ منه وإِليه يرجع، فهو المبتدئ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة، وإِليه تنتهي الأَسباب والوسائل فهو أَول كل شيء وآخره، وكما أَنه رب كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إِلا بأَن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده، فهو الأَول الذي ابتدأَت منه المخلوقات، والآخر الذي انتهت إِليه عبوديتها وإِرادتها ومحبتها، فليس وراءَ الله شيء يُقصد ويُعبد ويُتأَله، كما أَنه ليس قبله شيء

يخلق ويبرأ، فكما كان واحداً في إيجادك فاجعله واحداً في تألهك وعبوديتك، وكما ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حبك وإرادتك وتألهك إليه لتصح لك عبوديته باسمه "الأَول والآخر"، وأَكثر الخلق تعبدوا له باسمه "الأَول"، وإنما الشأن في التعبد له باسمه "الآخر"؛ فهذه عبودية الرسل وأَتباعهم، فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده[1].

ومن أسرار اقتران اسمَي الجلالة: ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾، فيقول ابن القيم: قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [سورة محمد: 17]، فهداهم أولاً فاهتدوا، فزادهم هدى ثانياً. وهذا من سر اسميه: ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾؛ فهو المعد، وهو الممد، ومنه السبب والمسبَّب، وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه. كما قال أعرف الخلق به: (وأعوذ بك منك)[2]. ويقول أيضاً: منه المبدأ وإليه المعاد، وهو الأول والآخر: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [سورة النجم: 42][3].

وقال رحمه الله تعالى: والغايات والنهايات كلها إليه تنتهي: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [سورة النجم: 42]، فانتهت إليه الغايات والنهايات، وليس له سبحانه غاية ولا نهاية، لا في وجوده ولا في مزيد جوده؛ إذ هو "الأول" الذي ليس قبله شيء، و"الآخر" الذي ليس بعده شيء، ولا نهاية لحمده وعطائه، بل كلما

---

1 طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، مرجع سابق، ص 20-21.

2 صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، رقم: 486.

3 أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1991، 143/1.

ازداد له العبد شكراً زاده فضلاً، وكلما ازداد له طاعة زاده لمجده مثوبة، وكلما ازداد منه قرباً لاح له من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل ذلك، وهكذا أبداً لا يقف على غاية ولا نهاية، ولهذا جاء أن أهل الجنة في مزيدٍ دائمٍ بلا انتهاء، فإن نعيمهم متصل ممن لا نهاية لفضله ولا لعطائه، ولا لمزيده ولا لأوصافه، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [سورة ص: 54]. وفي الحديث القدسي: (يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته: ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر)[1].

ومن تلك المعالم ما قرَّرته أول آية في سورة الفاتحة، تلك السورة العظيمة التي يكررها المسلم في كل ركعة من صلاته، ركناً لا تصح صلاته بدونه، حيث حدد الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ﴾ [سورة الفاتحة: 2] حدد الوجود في شيئين؛ ذاته الجليلة سبحانه، وخلقه، فهو الربُّ وما سواه مربوب، إذ معنى "العالمين": ما سوى الله سبحانه وتعالى، قال قتادة رحمه الله: العالمون جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى. ورجحه القرطبي رحمه الله فقال: لأنه شامل لكل مخلوق موجود، دليله قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [سورة الشعراء: 23-24].

1 صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، رقم: 2577. وانظر: ابن القيم، مدارج السالكين، 268/2.

وليس في الوجود شيء غير الخالق والمخلوق، فلا قوة فوق قوة الله، ولا إله بحق غير الله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 22]. كما أنه لا شيء في الوجود خارج عن هذه العالمية المربوبة لله عز وجل، فالكل تحت تصرُّفه وملكه، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة يونس: 61][1].

ويبين الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى معنى قوله: "رب العالمين"، فيقول: وربوبيته للعالم تتضمَّن تصرفه فيه، وتدبيره له، ونفاذ أمره كل وقت فيه، وكونه معه كل ساعة في شأن؛ يخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويصرف الأمور بمشيئته وإرادته، وإنكار ذلك إنكار لربوبيته وإلهيته وملكه[2].

ويتحدث رحمه الله تعالى عما يشاهده العبد من اسمه سبحانه "رب العالمين"، فيقول: وشاهد من ذكر اسمه "رب العالمين" قيوماً قام بنفسه وقام به كل شيء، فهو قائم على كل نفس بخيرها وشرها، قد استوى على عرشه وتفرَّد بتدبير ملكه فالتدبير كله بيديه، ومصير الأمور كلها إليه، فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده

---

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 17.

2 الصواعق المرسلة، ابن القيم، مرجع سابق، 1223/4.

على أيدي ملائكته؛ بالعطاء والمنع، والخفض والرفع، والإحياء والإماتة، والتوبة والعزل، والقبض والبسط، وكشف الكروب وإغاثة الملهوفين وإجابة المضطرين: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمن: 29]. لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا معقب لحكمه، ولا راد لأمره ولا مبدل لكلماته، تعرج الملائكة والروح إليه، وتعرض الأعمال أول النهار وآخره عليه، فيقدر المقادير ويوقت المواقيت ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها، قائماً بتدبير ذلك كله، وحفظه ومصالحه[1].

وقد امتدح الله عز وجل نفسه بأنه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. والعالمون جمع عالم، وكل ما سوى الله فهو عالم، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة: 2] والنصوص المعرّفة بأنه رب العالمين كثيرة جداً، كما مدح نفسه بأن رب كل شيء، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: 164]. وإن الله عز وجل ربُّ كل شيء وخالقه ومليكه والقادر عليه والمتصرف في جميع أموره، وبهذا فإنه لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السماوات والأرض عبدٌ له في قبضته وتحت قهره؛ لأن أحداً لا يدّعي أنه أو غيره من المخلوقين هو الخالق البارئ المحيي المميت القادر على كل شيء، والمتصرف في كل شيء[2]. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ

1 الصلاة وحكم تاركها، أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، القاهرة، 2004م، ص 169-170.

2 ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 91.

وَالْأَبْصَـــارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة يونس: 31].

1- الله (عز وجل) يتحدّى الملحدين:

أقام الله عز وجل الحجّة العقلية الدامغة على الملحدين والمشـــركين، وتحدّى عقولهم وكل قواهم في نفي الإلحاد وفي نفي الشـــريك؛ وذلك من خلال تقرير مبدأ الخلق في قوله تعـالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَـــيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [سورة الطور: 35-37].

وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَـــيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [سورة الطور: 35-37] كاد قلبي أن يطير.

فهذه الآية تنفي مبدأ الإلحاد من خلال الإلزام بوجود خالق، إذ إنهم لم يُخلقوا من غير خالق، فكل مخلوق له خالق[1]. ففي قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَـيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ بيان واضـح بأن وجودهم من غير شـيء أمرٌ ينكره منطق الفطرة ابتداءً، ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل، أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر

---

1 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 170.

لم يدَّعوه ولا يدَّعيه مخلوق.

وإذا كان هذا الفرضـان لا يقومان بحكم منطق الفطرة فإنه لا تبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن؛ وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يشـاركه أحد في الخلق والإنشـاء، فلا يجوز أن يشـاركه أحد في الربوبية والعبادة، وهو منطق واضـح وبسـيط. كذلك يواجههم بوجود السـماوات والأرض حيالهم فهل هم خلقوها؟ فإنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾. وهم -ولا أي عقل يحتكم إلى منطق الفطرة- لا يقولون إن السـماوات والأرض خلقت نفسـها، أو خُلقت من غير خالق، وهم كذلك لا يدَّعون أنهم خلقوها، وهي قائمة حيالهم سؤالاً حياً يتطلب جواباً على وجوده، قد كانوا إذا سئلوا عمن خلق السماوات والأرض قالوا الله، ولكن هذه الحقيقة لم تكن تتضـح في إدراكهم إلى درجة اليقين الذي تنشـأ آثاره في القلب، ويحركه إلى اعتقاد واضـح دقيق: ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾. ثم يهبط بهم درجة عن درجة الخلق والإبداع لأنفسـهم أو للسـماوات والأرض فيسـألهم: هل هم يملكون خزائن الله، ويسـيطرون على القبض والبسط، والضر والنفع؟

- ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ؟﴾: وإذا لم يكونوا كذلك ولم يدعوا هذه الدعوى فمن ذا يملك الخزائن؟ ومن ذا يسـيطر على مقاليد الأمور؟ القرآن يقول: إنه الله القابض الباسط، المدبر المتصرف، وهذا هو التفسير الوحيد لما يجري في الكون من قبض وبسـط وتصـريف وتدبير، بعد انتفاء أن يكونوا هم

المالكين للخزائن المسيطرين على تصريف الأمور. ثم يهبط بهم درجة أخرى فيسألهم إن كانت لهم وسيلة للاستماع إلى مصدر التنزيل: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُوْنَ فِيْهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِيْنٍ﴾ [الطور: 38].

إن محمداً صلى الله عليه وسلم يقول لهم إنه رسول يوحى إليه، وإن هذا القرآن يتنزل عليه من الملأ الأعلى، وهم يكذّبونه فيما يقول، فهل لهم سلّم يستمعون فيه فيعلمون أن محمداً لا يوحى إليه، وأن الحق غير ما يقول؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِيْنٍ﴾: أي ببرهان قوي يحمل في ذاته سلطاناً على النفوس يُلجئها إلى التصديق، وفي هذا تلميح إلى سلطان القرآن الذي يطالعهم في آياته وحججه، وهم يكابرون فيها ويعاندون[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [سورة الفرقان: 1-3]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سورة لقمان: 11]. كما جعل الله التذكير بمبدأ الخلق باباً من أبواب مقتضيات الإيمان به سبحانه

---

1 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 3400/6.

وتوحيده في العبادة، وأنه المستحق لذلك وحده دون ما سواه، وذلك في أكثر من آية في كتاب الله؛ مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: 21]. وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [سورة نوح: 13-14]. إلى غير ذلك من الآيات المبثوثة في القرآن الكريم[1].

2- القضاء على وسوسة الشيطان في مسألة الخلق:

التفكير في مبدأ الخلق دون هديٍ من الوحي مدخل من مداخل الشيطان ووسوسته، والشيطان -لعنه الله- لا يترك سبيلاً للتشويش على ابن آدم إلا سلكه، فمن ذلك ما بيّنه النبي صلى الله عليه وسلم مما يعرض للإنسان في مسألة الخلق من وساوس الشيطان التي تجرُّه للسؤال عمن خلق الله -تعالى الله عن ذلك- وما ينبغي له حينما يعرض له ذلك الأمر. فقد روى البخاري من حديث أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء، فمن خلق الله؟). قال ابن حجر: وفي رواية بدء الخلق: (من خلق ربك؟)، وزاد: (فإذا بلغه فليستعذ به ولينتهِ)، وفي لفظ لمسلم: (فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله)، وزاد في أخرى: (ورسله)، ولأبي داوُد والنسائي من الزيادة؛ فليقل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝

1 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 18.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: 1-4]، ثم ليتفل عن يساره، ثم ليستعذ. وفي رواية أخرى: (فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله، فإن ذلك يذهب عنه).

وهذه من الشبه التي يلقيها الشيطان على ابن آدم ولا يكاد يسلم من التعرّض لها أحد، ولذا نبه لها النبي صلى الله عليه وسلم حتى لا يقع فيها المسلم، وبيّن طريق التخلص منها، وأنها وسوسة من الشيطان للتشويش على إيمانه، وجرِّه إلى دوامة من الوهم[1].

روى أبو داوُد عن أبي هريرة قال: جاء ناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أصحابه فقالوا: يا رسول الله إنا نجد في أنفسنا الشيء يعظم أن نتكلم به، ما نحب أن لنا الدنيا وأنّا تكلمنا به فقال: (أوجدتموه؟ ذلك صريح الإيمان)[2]. ولابن أبي شيبة من حديث ابن عباس: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني أحدث نفسي بالأمر لأن أكون حُمَمَةً أحب إليَّ من أن أتكلم به، فقال: (الحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة). ثم نقل الخطابي: المراد بصريح الإيمان هو الذي يعظم في نفوسهم أن تكلَّموا به، ويمنعهم من قبول ما يلقي الشيطان، فلولا ذلك لم يتعاظم في أنفسهم حتى أنكروه، وليس المراد أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، بل

---

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 19.

2 سنن أبي داود نقلاً عن قصة الخلق، ص 20.

هي من قبل الشيطان وكيده[1].

وكذلك بيّن ابن عباس كيفية علاج الوسوسة الشيطانية، فعن أبي زميل قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال ما هو؟ قال: قلت: والله لا أتكلم به، قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قلت: بلى. فقال لي: ما نجا من ذلك أحد حتى أنزل الله عز وجل: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [سورة يونس: 94]. قال: فقال لي: فإذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: 3][2]. ويعلق ابن القيم على هذا الأثر فيقول: فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببديهة العقل، وأن سلسلة المخلوقات في ابتدائها تنتهي إلى أول ليس قبله شيء، كما تنتهي في آخرها إلى آخر ليس بعده شيء، كما أن ظهوره هو العلو الذي ليس فوقه شيء، وبطونه هو الإحاطة التي لا يكون دونه فيها شيء، ولو كان قبله شيء يكون مؤثراً فيه لكان ذلك هو "الرب" الخلاق، ولا بد أن ينتهي الأمر إلى خالقٍ غير مخلوقٍ، وغني عن غيره، وكل شيء فقير إليه، قائم بنفسه وكل شيء قائم به، موجود بذاته وكل شيء موجود به، قديم لا أول له وكل ما سواه فوجوده بعد عدمه باقٍ بذاته، وبقاء كل شيء به، فهو "الأول" الذي ليس قبله شيء، و"الآخر" الذي ليس بعده شيء،

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 20.

2 ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 180.

"الظاهر" الذي ليس فوقه شيء، "الباطن" الذي ليس دونه شيء[1].

3-الله عز وجل لم يزل خلّاقاً وخلقه دليل على المعاد:

ومن معالم هذه القصة الكبرى أن الله سبحانه لم يزل خلاقاً، فصفة الخلق لله سبحانه وتعالى صفة ذاتية أزلية، فهو لم يزل خالقاً عليماً، وليس الخلق مرحلة انتهت أطوارها وتوقف سيرها، فما يحدث في الكون من فعل أو تقدير أو تدبير أو تغيير أو تبديل، وتصريف لشأن من شؤونه؛ من ليل ونهار، أو صيف أو شتاء، أو حياة أو موت، أو عز أو ذل، أو نصر أو هزيمة، فهو بأمر الله وتدبيره، قال ابن السعدي في تفسير قوله سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [سورة العنكبوت: 20]: فإنكم ستجدون أمماً من الآدميين لا تزال توجد شيئاً فشيئاً، وتجدون النبات والأشجار كيف تحدث، وقتاً بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها، مستمرة في تجددها، بل الخلق دائماً في بدء وإعادة[2].

كما جعل سبحانه مبدأ الخلق دليلاً على قدرته تعالى على إعادته فقال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [سورة الروم: 27]. وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت: 20]. فالقادر على البداية أقدر

---

1 الجليل، مرجع سابق، ص 181.

2 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 21. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2000، ص 568.

على الإعادة، والإعادة على مثال سابق أيسر من البداية بغير مثال[1]. وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ويقول الله تعالى كذّبني ابن آدم وما ينبغي له أن يكذبني، وشتمني وما ينبغي له أن يشتمني، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الله الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)[2].

---

1 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 22.

2 البخاري نقلاً عن قصة الخلق، ص 22.

ثانياً: إثبات صفات الكمال لله تعالى:

ورد في القرآن الكريم وصــف الله بصــفات الكمال، وأنه المنفرد بها وحده دون ما سواه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1-4]. وصــف الله ســبحانه وتعالى في هذه الســورة نفســه بأنه أحد صــمد، فهذان الوصــفان يدلان على اتصــاف الله بغاية الكمال المطلق(1). وجاء معنى الصمد: أنه المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد[2]. ويدل هذا المعنى للصــمد على الإثبات والتنزيه؛ فالإثبات بوصــفه ســبحانه بأنه هو الذي يعمد إليه، أي: يرجع إليه كل أمر، وذلك لأنه هو المتصــــف بجميع صـفات الكمال، فهو القادر على كل شــيء، والفعال لما يريد، والذي بيده الخلق والأمر والجزاء، وما من قوة لغيره تعالى إلا بهيمنة منه، إذا شـــاء أبقاها ومتى شـــاء سلبها، فالمرجع والمرد إليه سبحانه[3].

وأما التنزيه: فوصـــفه تعالى بأنه غنيٌّ عن كل شـــيء، فلا افتقار فيه بوجهٍ من الوجوه؛ لا في وجوده فإنه الأول الذي ليس مثله شيء، وهو الذي لم يلد ولم يولد،

---

1 إثبات علو الله على خلقه، أبو الحسن خوجلي إبراهيم، ص 28. بتصرف. لا تتوفر معلومات أخرى.

2 تقريب التهذيب، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، ط 1، 1986، 245/20.

3 إثبات علو الله على خلقه، إبراهيم، مرجع سابق، ص 29.

ولا في بقائه فإنه الذي يُطعِم ولا يُطعَم، ولا في أفعاله فلا شـــريك له ولا ظهير[1]. ويدل وصفه سبحانه وتعالى بأنه أحد صمد على اتصافه بالكمال المطلق. كما أن "أحد صمد" يدلّان على معنى آخر هو نفي الولادة والتولُّد عن الله سبحانه، فإن الصـمد جاء في بعض الأقوال بأنه الذي لا جوف له، ولا أحشـاء، فلا يأكل ولا يشـرب سبحانه وتعالى. كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: 14].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [سـورة الذاريات: 56-58]. فإن الأحد هو الذي لا كُفُؤ له ولا نظير، فيمتنع أن تكون له صاحبة، والتولد إنما يكون من شيئين:

قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: 101]. وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سـورة الإخلاص: 4]. وفي هذا نفي عن المخلوق مكافأته أو مماثلته للخالق، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

1 إبراهيم، المرجع نفسه، ص. ص 28-29.

[ســـورة الأنعام: 1]. أي: يعدلون به غيره، فيجعلون له من خلقه عدلاً ونظيراً، ومثال هذا قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْـــطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [ســورة مريم: 65]، أي: لا شــيء يســاميه، لا ندَّ ولا عدل، ولا نظير له يســـاويه، فأنكر التشـــبيه والتمثيل، وبهذا يتبين لنا أن تنزيهه ســـبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته، كما دلت على ذلك ســـورة الإخلاص[1].

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الصافات: 180-182].

ثالثاً: الله يُعرّفُ نفسه لخلقه في آية الكرسي:

تعد آية الكرسي أفضل آية في كتاب الله، إذ كل ما فيها متعلق بالذات الإلهية العليّة، وناطق بربوبيته تعالى، وألوهيته وأسمائه وصفاته الدالة على كمال ذاته وعلمه وقدرته وعظيم سلطانه[2].

وهذه الآية تملأ القلب مهابةً من الله وعظمته وجلاله وكماله، فهي تدل على أن الله تعالى منفرد بالألوهية والســـلطان والقدرة، قائم على تدبير الكائنات في كل لحظة، لا يغفل عن شيء في السماوات والأرض[3]. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

1 إثبات علو الله على خلقه، إبراهيم، مرجع سابق، ص 29، بتصرف.

2 أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط 5، 2003، 245/1.

3 التفسير المنير، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط 2، 1418، 18/3.

هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: 255].

وإليك شرحَ هذه الآية العظيمة التي تحدَّث الله فيها عن نفسه عز وجل.

- "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ":

أي: لا خالق ولا معبود بحق وصدق إلا الله عز وجل، وكل ما سواه باطل أصلاً، وهذه الآية أصل في التوحيد؛ واحد ليس له شريك، ولا نظير، ولا وزير، ولا مشير، ومعناه: النهي على أن يعبد شيء غير الله[1]. فهو الإله الحق الذي نتمنى أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأليه له تعالى، لكماله وكمال صفاته، وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقاً أن يكون عبداً لربه ممتثلاً أوامره، متجنباً نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبَّراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة[2].

- "اللَّهُ": هو اسم دال على ذات الله تعالى، رب العالمين، الإله المعبود حقاً، المتّصف بجميع الكمالات المطلقة التي لا تعد ولا تحصى ولا تحد ولا تستنقص،

---

1 السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، صالح علي العود، دار ابن حزم، ط 1، 2009، ص 78.

2 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، 1810/4.

والمتنزه عن جميع العيوب والآفات، ولم يتسمَّ بهذا الاسم غيره سبحانه[1].

- "اللَّهُ": هذا الاسم الجليل، تعلّقت به جميع العوالم بذاتها وبأنواعها قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: 15]. فجميع العباد يقولون: يا الله، دعاءً أو سؤالاً، نداءً أو ذكراً أو مناجاة[2].

- "اللَّهُ": هذا الاسم هو جامع الأسماء الإلهية، الظاهرة والباطنة على الوجه الذي لا نهاية له كما هو أهله سبحانه، لأن أسماءه تعالى هي على حسب صفات كماله، وصفات كماله ما لها نهاية، فأسماؤه ما لها نهاية، ولهذا الاسم الجليل خصائص وفضائل كثيرة مذكورة في كتب المطولات[3].

إن معرفة الله تعالى أجلُّ المعارف، وإرادة وجهه أجلُّ المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال[4].

- "الْحَيُّ الْقَيّومُ":

مدَح الله نفسه بصفتين جليلتين جميلتين فقال: "الحي القيّوم"؛ "الحي": الذي لا يموت، الحي من صفة الله تعالى، وهو الذي لم يزل موجوداً وبالحياة موصوفاً، لم

---

1 المسيح عيسى بن مريم الحقيقة الكاملة، محمد علي الصلابي، ط 1، 2019، ص 436.

2 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، 1810/4.

3 السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، صالح العود، مرجع سابق، ص 79.

4 إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط 1، 1432، 208/2.

تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعتريه الموت بعد حياة، وسائر الأحياء سواء؛ يعتريهم الموت والعدم، فكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه وتعالى[1]. "الحي": من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع "صفات الذات"؛ كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك[2]. والحياة التي وصف بها الإله الواحد هي "الحياة الذاتية" التي لم تأتِ من مصدر آخر كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق، ومن ثم يتفرد الله سبحانه بالحياة على هذا المعنى، كما أنها هي الحياة الأزلية الأبدية التي لا تبدأ من مبدأ ولا تنتهي إلى نهاية[3].

"القيوم" أي: دائم القيام بجميع شؤون الخلق، وهو القائم على كل شيء، فالله عز وجل قائم بتدبير خلقه في إيجادهم وأرزاقهم وجميع ما يحتاجون إليه. "القيوم": هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء؛ من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري[4]. إن صفة "الحياة" متضمنة لجميع صفات الكمال مستلزمة لها، وصفة "القيومية" متضمنة لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى هو اسم "الحي القيوم"، ويكون التوسّل إلى الرب تعالى

---

1 السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العودة، مرجع سابق، ص 80.

2 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، 112/3.

3 في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، 266/1.

4 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، 112/3.

بأحب الأشياء؛ وهي أسماؤه وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات "الحي القيوم"، والمقصود أن لاسم "الحي القيوم" تأثيراً خاصاً في إجابة الدعوات وكشف الكربات، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا اجتهد في الدعاء قال: يا حيُّ يا قيوم[1].

- "لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ":

هذا من تمام حياته وقيوميّته، أنه تبارك وتعالى "لا تأخذه سنة ولا نوم". أي: لا يعتريه نعاس ولا نوم؛ لأنه من أعراض البشرية، والله بخلاف ذلك.

- "السِّنة": ابتداء النعاس، يصير نوماً، و"النوم" أقوى من السِّنة، وإذا كان ذلك كذلك فإن نفي استيلاء السِّنة والنوم على الله تعالى تحقيق لكمال "الحياة" ودوام التدابير، وإثبات لكمال "العلم"، والمراد بهذه الآية أن الله تعالى لا يدركه خلل ولا يلحقه ملل بحال من الأحوال[2].

والخلاصة: هذه الجملة مؤَكِّدة لما قبلها، مقرِّرة لمعنى الحياة والقيوميَّة على أتم وجه، إذ مَن تأخذه السِّنة والنوم يكون ضعيف الحياة، ضعيف القيام بشؤون نفسه وشؤون غيره[3].

---

1 المسيح عيسى بن مريم الحقيقة الكاملة، الصلابي، مرجع سابق، ص 438.

2 السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العود، مرجع سابق، ص 86.

3 الصلابي، مرجع سابق، ص 439.

- "لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض":

لما كان الله سبحانه وتعالى دائم القيام في ملكه وليس لأحد معه فيه شركة ولا لأحد عليه سلطان قرَّر عز وجل قيوميّته هذه بقوله: "له ما في السماوات وما في الأرض"، أي: جميع من فيهما ملكه، يتصرف وحده بحكمته وقدرته وعنايته[1]، وجميع عبيده وملكه تحت قهره وسلطانه[2].

- "مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ":

أي: ليس لمخلوق -كائناً من كان؛ لا ملك مقرَّب ولا نبي مرسل- شفاعة ولا ضراعة عند الله عز وجل إلا برضاه وبعد إذنه، فإن "الشفاعة" كلها لله وحده، وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل، وأنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع عنده إلا بإذنٍ له من الله في الشفاعة[3].

إن الله تعالى لا يشفع عنده أحد بحق ولا إدلال؛ لأن المخلوقات كلها ملكه، ولكن يشفع عنده من أراد هو أن يُظهر كرامته عنده، فيأذن له بأن يشفع فيمن أراد[4].

---

1 الصلابي، مرجع سابق، ص 439.

2 المسيح عيسى بن مريم الحقيقة الكاملة، الصلابي، مرجع سابق، ص 439.

3 السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العود، مرجع سابق ص 91.

4 التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، 21/3.

- "يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ":

أي: إن الله عز وجل عليم بكل ما في السماوات وما في الأرض من شؤون خلقه؛ ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ومن أمر الدنيا والآخرة، والمقصود من ذلك: عموم العلم بسائر الكائنات في الأرض وفي السماوات[1]. وإن الله عز وجل عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أحوال جميع خلقه، حتى يعلم دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء تحت الأرض الغبراء، وحركة الذرة في جو السماء، والطير في الهواء والسمك في الماء[2]. فلا تخفى عليه غائبة في الأرض ولا في السماء ولا ما بينهما، فهو عالم بخفايا وأسرار ملكه ومخلوقاته سبحانه وتعالى[3].

- "وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ":

أي: لا يدركون من العلم أو المعرفة إلا بقدر ما عرَّفهم به أو منه رب العالمين، الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم[4]. فآتاهم الله من علمه ما شاء، وكما شاء، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب[5]. لا يطّلع أحد على شيء من علم الله إلا بمشيئة الله وتعليمه، فما عرفه الإنسان من عالم الغيب، وما عرفه الإنسان من عالم

---

1 السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العود، مرجع سابق، ص 94.

2 المسيح عيسى بن مريم الحقيقة الكاملة، الصلابي، مرجع سابق، ص 440.

3 الصلابي، مرجع سابق، ص 440.

4 السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العود، مرجع سابق، ص 96.

5 الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، المحقق: أحمد شاكر، 1940، مكتبة الحلبي، القاهرة، ص 485.

الشهادة وقوانين هذا الكون، وكيفية تسخيره، لم يكن إلا بمشيئة الله وتعليمه، فهو الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، وهو الذي علّم كل شيء ما علم[1].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على سعة علم الله عز وجل، وأنه محيط بكل شيء؛ قلَّ أو كثر، صغر أو عظم، كما جاء تحديداً في سورة يونس: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة يونس: 61].

إن علم الله تعالى محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا من العلم مثقال ذرة؛ إلّا ما علّمهم الله تعالى[2].

- "وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ":

إن الكرسي هو كناية في الآية عن عظم العلم وشموله واتساعه، وتفسيره بعظم السلطات يتناسب مع قوله تعالى قبل ذلك: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾، ولذلك يصح أن نقول: إن قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ كناية عن عظم قدرته ونفوذ إرادته وواسع علمه وكمال إحاطته، وقد فسر ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنه بأن ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ علمه؛ هو كناية عن سعة الملك وسعة

---

1 الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط 6، 1424، 596/1.

2 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، 112/1.

العلم[1]. وهذه الصـــورة هنا تمنح الحقيقة المراد تمثيلها للقلب قوة وعمقاً وثباتاً، فالكرسي يستخدم عادة في معنى الملك، فإذا وسع كرسيه السماوات والأرض فقد وسعهما سلطانه، وهذه هي الحقيقة من الناحية الذهنية، ولكن الصورة التي ترتسم في الحسِّ من التعبير بالمحسـوس أثبت وأمكن[2]. تأتي: ﴿وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لتقرير ما تضـمّنته "الجمل" كلها من عظمة وكبرياء وعلم وقدرة في حق الله عز وجل في علاه، ولبيان عظمة خلقه في مخلوقاته المسـتلزمة عظمة شـأنه، أو إظهار سعة ملكه[3].

- "وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا":

أي: إن الذي خلق ما في السماوات وما في الأرض من مخلوقات كثيرة لا يشق عليه عز وجل حفظهما، ولا يعجز عن رعاية ما أوجده فيهما، ولا يثقله تعالى تسيير شؤونهما حسبما قضاه وقدَّره فيهما[4]، فسبحان من تقوم السماء بأمره، وتدور الأرض بوحيه، رفع الجبال وأجرى الأنهار وحرّك الهواء وشـــق الحَب وأخرج الثمار، والوجود في قبضـــته وكل ما فيه إنما إرادته، لا تعصـــيه سماء ولا تخرج عن طاعته أرض ولا سحاب[5].

---

1 زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، 2/940-941.

2 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 1/290.

3 التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، 5/11.

4 السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العود، مرجع سابق، ص 111.

5 العود، المرجع نفسه، ص 102.

- "وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ":

أي: الله تعالى فوق خلقه، فلا يعلو إلى مقامه الرفيع أحد، وهو أيضاً الكبير ذو الهيبة والجلال، المتعالي بعظمته جل جلاله على كل عظيم. "العلي": يفسر بأنه أعلى من غيره قدراً، فهو أحق بصفات الكمال، ويفسر بأنه العالي عليهم بالقهر والغلبة، فيعود إلى أنه القادر عليهم وهم المقدورون، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستفتح دعاءه: سبحان ربي العلي الوهاب، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سجد -أي في صلاته-قال: سبحان ربي الأعلى "ثلاثاً".

"الْعَظِيمُ": الذي قد كمل في عظمته[1]، فهو عظيم في ذاته وصفاته، فذاته العليّة جلَّت عن المشابهة، وهو الخالق القاهر القادر، وهو وحده الإله المعبود بحق، وهو الذي يسبّح كل شيء في الوجود بحمده، فهو العظيم وحده، والمعبود وحده، والمعظَّم وحده، وإذا كانت غواشي الحياة قد أضلت الأكثرين فلم يدروا عظمته في الفانية فستنجلي لهم عظمة ذي الجلال في الباقية[2].

هذان هما الوصفان الشاملان: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ لكل الأوصاف السابقة، فالله سبحانه وتعالى هو العلي العظيم. إذن هذه آية الكرسي، أعظم آية في كتاب الله، كما ورد في بعض الآثار المثبتة في الصحاح، وإنها لتدل على وحدانية الله تعالى بكل شعبها، فقد دلت على وحدانية الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾،

---

1 العود، المرجع نفسه، ص 103.

2 زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، 942/2.

ووحدانية الخلق والتكوين، فلا خالق مع الله تعالى، ولا إرادة تمنع إرادته، وقد دل على ذلك بأكثر ما في الآية الكريمة؛ كقوله سبحانه: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. وحدانية الذات والصفات، بمعنى أن الله لا يشبهه شيء أو أحد من خلقه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: 11]. وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، تعالى الله رب العالمين علواً كبيراً، تولانا سبحانه بعنايته وتوفيقه وهدايته[1].

رابعاً: الله غني عن خلقه:

ومن أهم المعالم في هذه القصة العظيمة أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الخلق ليأنس بهم من وحشة، ولا ليستكثر بهم من قلة، ولا ليقوى بهم من ضعف، فهو الغني عن خلقه وهم المفتقرون إليه في كل أحوالهم وهو العزيز الحميد[2].

ومن أسماء الله الحسنى "الغني" وقد ذكر في القرآن ثماني عشرة مرة؛ تارة مفرداً، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [سورة يونس: 68]. وتارة مقروناً باسمه "الحميد" -وهو أكثرها- كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: 15]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة الحديد: 24]. ومرة مقروناً باسمه

---

1 أبو زهرة، المرجع نفسه، 942/2.

2 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 22.

سـبحانه "الكريم"، كما في قوله سـبحانه: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [سـورة النمل: 40]. ومرة مقروناً باسمه سـبحانه "الحليم"، كما في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَـدَقَـةٍ يَتْبَعُهَـا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: 263]. وقد قال الخطابي: "الغني" هو الذي استغنى عن الخلق وعن نصـرتهم وتأييدهم لملكه، فليسـت به حاجة إليهم وهم إليه فقراء محتاجون، كما وصـف نفسـه تعـالى فقـال عز من قـائـل: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [سورة محمد: 38]. وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سـورة فاطر: 15]؛ فهو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، لكماله وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً؛ لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقاً، قادراً، رازقاً، محسـناً، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني الذي بيده خزائن السـماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه غنى عاماً، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية[1]، فالله سبحانه وتعالى ذو الغنى المطلق الذي لا يحتاج إلى أحد، وكل أحد محتاج إليه[2].

---

1 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، 629/5.

2 الجليل، مرجع سابق، ص 677.

خامساً: خلق الله الخلق في أوقات متفاوتة:

من معالم قصة الخلق أن الله سبحانه لم يخلق الخلق جميعهم في وقت واحد، ولا دفعة واحدة، وإنما خلق الخلق في أوقات متفاوتة، وخلق كل مخلوق في مراحل وأطوار متعددة، لتتجلى قدرته وتظهر دلائل تصرفه وتدبيره لخلقه. قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: 9-11]. فالله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق ذلك كله في أقل من هذه المدة، بل في أقل من طرفة عين، لكن حكمته اقتضت أن يكون الخلق على هذا النسق المتميز في هيئته، المرتب على كيفيته، وفي ذلك من الحكم -لمن تأملها- الشيء الكثير، كما أن خلق الإنسان يمر بأطوار ومراحل؛ النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم تأتي مراحل أخرى في البطن، وبعد خروج الطفل من بطن أمه يمر بمراحل نمو مختلفة، تظهر فيها قدرة الله على الخلق والتدبير، وتظهر فيها حكم كثيرة في حياة الإنسان وتكوين وبناء تجاربه وخبراته لا يتصور حصولها بغير ذلك[1].

---

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 26.

سادساً: ثنائية الخلق دلالة على وحدانية الخالق:

من المعالم أن الله سبحانه خلق كل نوع وجنس من الخلق من زوجين، قال سبحانه: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الذاريات: 49]، أيّ جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، ليل ونهار، شمس وقمر، برٌّ وبحر، ضياء وظلام، إيمان وكفر، موت وحياة، شقاء وسعادة، جنة ونار، حتى الحيوانات والنبات، ولهذا قال تعالى: "لعلكم تذكّرون"، أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له[1]. فجعل ثنائية الخلق دلالة على وحدانية الخالق سبحانه، يقول القرطبي: لتعلموا أن خالق الأزواج فرد، فلا يقدر في صفته حركة ولا سكون، ولا ضياء ولا ظلام، ولا قعود ولا قيام، ولا ابتداء ولا انتهاء، إذ هو عز وجل وتر "ليس كمثله شيء"[2]. وقال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يس: 36]. فضرب المثال لذلك بأزواج النبات والبشر، وهذا مما يعلم الناس، ثم ثنّى بأنه سبحانه جعل الزوجية في الخلق عامة، منه ما يعلمه الناس وما لا يعلمونه، ومن يدري؛ فربما كانت هذه قاعدة الكون كله حتى الجماد، وقد أصبح من المعلومات المتداولة أن الذرة -أصغر ما عرف من أجزاء المادة- مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربائي سالب وموجب يتزاوجان

---

1 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، 237/4.

2 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، 53/17.

ويتحدان كما شوهد في عالم الفلك والكائنات الأخرى[1].

سابعاً: مظاهر الحكمة في الخلق:

إن الله عز وجل ربط بين الخلق وبين الحكمة والعلة من الخلق، فلم يخلق الله الخلق عبثاً ولا لعباً، وإنما خلق الخلق جميعه لحكمة، وخلق تفاصيل الخلق لحكم عظيمة يدركها الإنسان في خلقته، وفيما حوله من المخلوقات التي يمتلأ بها الكون؛ من حيوانات، وحشرات، وشجر، ونبات، ومن بحار، وأنهار، وجبال، وسهول، ورياح، وأمطار، وهي حكم متعددة ومتداخلة يؤكد بعضها بعضاً، ويسوق بعضها بعضاً في صور من الجلال والإبداع والكمال، وغايتها وحقيقتها تحقيق العبودية لله دون ما سواه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الدخان: 38-39].

يخبر سبحانه وتعالى عن كمال قدرته، وتمام حكمته، وأنه ما خلق السماوات والأرض لعباً ولا لهواً، ولا سدىً من غير فائدة، وأنه ما خلقهما إلا بالحق، وخلقهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدهما ليعبدوه وحده لا شريك له، وليأمر عباده وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم[2].

---

1 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 27.

2 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ص 719.

وإن الحكمة من أعظم معالم حديث القرآن الكريم والسنة النبوية عن قصة الخلق، فالخلق صفة من صفات الله سبحانه، كما أن أثر هذه الصفة فعل من أفعال الله المنزهة عن العبث واللعب، وإذا تقرر أن كل ما في الكون مخلوق لله سبحانه، من كائنات وما يصدر عنها من أفعال -كما سيأتي مزيد توضيح له في ثنايا هذا الكتاب بإذن الله تعالى- فإن من استقر في نفسه ذلك، وترسَّخ في قرارة قلبه، تنفتح له آفاق عظيمة في تلمُّس أسرار الخلق العظيم، وما يجري فيه من حركة وسكون، وسعادة وبؤس، ورخاء وشدة، وعز وذل، وخيرٍ وشر، وحرب وسلم، وحياة وموت، ونصر وهزيمة.

ولقد قال الله سبحانه في قصة من أكثر القصص إيلاماً وأشدها أذى، تلكم هي قصة الإفك الأثيم الذي افتُري على الطاهرة المصون أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها، قال الله فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [سورة النور: 11].

قال ابن كثير: أي يا آل أبي بكر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم ﴿الَّذِي لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [سورة فصلت: 42] الآية، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنهما وعنها وهي في سياق الموت قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يحبك، ولم يتزوج بكراً

غيرك، وأنزل براءتك من السماء[1].

لقد كان هذا الأمر -الذي هو في ظاهره شر-خيراً لآل أبي بكر وللمسلمين من بعدهم، فقد كان شهادة من الله بمنزلة هذه الأسرة الطاهرة، التي تعرضت لكثير من الأذى والتهم الباطلة. حيث تولى الله الدفاع والذبَّ عنها والشهادة لها بالخيرية، ودفع السوء عنها؛ بما لم يكن للأمة أن تدفعه بقدر ما دفعه القرآن ونافح عنها به، ليس في وقت تنزّل القرآن ووقوع هذه الحادثة الآثمة فحسب، وإنما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[2].

وقد تكلم ابن القيم رحمه الله تعالى في موضوع الحكمة كلاماً نفيساً أوضح فيه معالمها وبيَّن فيه أدلتها وأثرها في إيمان العبد بربه، ومعرفته به سبحانه، وأنها من لوازم الإيمان، وردَّ على شُبه نفي الحكمة بأسلوب علمي، استوفى فيه الموضوع من جوانبه كلها، يقول رحمه الله تعالى: قد دلت أدلة العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة؛ أنه سبحانه حكيم لا يفعل شيئاً عبثاً، ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا في مواضع لا تكاد تحصى، ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها

1 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، 282/3.

2 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 43.

فنذكر بعض أنواعها[1].

ومن ثم ذكر -رحمه الله- اثنين وعشـــرين نوعاً من أنواع الأدلة على إثبات الحكمة؛ من الخلق والأمر، وعقّب على ذلك مبيناً أهمية إثبات الحكمة والإيمان بها في خلق الله وأمره، وخطر إنكارها أو تجاهلها على إيمان العبد وعبوديته لله سبحانه وتعالى، فيقول في ذلك: وكيف يتوهم ذو فطرة صحيحة خلاف ذلك وهذا الوجود شاهد بحكمته وعنايته بخلقه أتمَّ عناية، وما في مخلوقاته من الحكم والمصالح والمنافع والغايات المطلوبة، والعواقب الحميدة، أعظم من أن يحصره عقل، ويكفي الإنسان بفكره وخلقه وأعضائه ومنافعها وقواه وصفاته وهيأته، فإنه لو استنفد عمره لم يحط علماً بجميع ما تضـمّنه خلقه من الحكم والمنافع على التفصـيل، والعالم كله علويه وســفليه بهذه المثابة[2]. ثم قال: وســبحان الله كيف يســتجيز أحد أن يظن برب العالمين وأحكم الحاكمين أنه يعذب كثيراً من خلقه بأشــــد العذاب الأبدي لغير غاية ولا حكمة ولا سبب، وإنما هو محض مشيئة مجردة عن الحكمة والسبب، فلا سبب هناك ولا حكمة ولا غاية، وهل هذا إلا من أسوأ الظن بالرب تعالى؟ ثم بيّن رحمه الله خطر إنكار الحكمة في الخلق في الصــــد عن دين الله عز وجل، فيقول: وجناية هذا القول على الشــرائع من أعظم الجنايات، فإن العقلاء لا يمكنهم إنكار الأســباب والحكم والمصــالح والعلل الغائية، فإذا رأوا أن هذا لا يمكن القول به مع

---

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 44.

2 الخرعان، المرجع السابق، ص 44.

موافقة الشرائع، ولا يمكنهم دفعه عن نفوسهم، خلَّوا الشرائع وراء ظهورهم، وأساؤوا بها الظن، وقالوا: لا يمكننا الجمع بينها وبين عقولنا[1].

والنظر في الحكمة من الخلق لا يقتصـــر على النظر في المخلوقات الظاهرة؛ كالجسم والسماء والأرض والكواكب والنبات والحيوان، وإنما يتعدى ذلك ليشمل كل ما يجري في هذا الكون من أحداث وأفعال للعباد؛ من حياة وموت، ومن صـــحة ومرض، ومن تســـلط للأعداء وإيذاء لعباد الله الصـــالحين، أو من نصـــر للمؤمنين، وهزيمة للكافرين والفاســـقين، فكل ما في الكون من أفعال وتصـــرفات مخلوقة لله ســـبحانه، ولا يجري في ملكه إلا ما أذن بإجرائه، ووراء كل شـــيء من ذلك حكم وغايات وعبر وعظات لمن تأملها وتدبّرها، وقد قال الله سبحانه: ﴿مَا أَصَـابَ مِنْ مُصِـيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِـكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِـيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَـوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [سورة الحديد: 22-23].

أي: لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأســوا على ما فاتكم؛ لأنه لو قدر شــيء لكان، ولا تفرحوا بما آتاكم، أي لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدّكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشـــراً وبطراً تفخرون بها على

1 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 45.

الناس، قال عكرمة: ليس أحد إلا هو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً[1]. والحديث عن الحكمة من الخلق بحر لا ساحل له ولا يمكن حصره.

وفِي كلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ تَدُلُّ على أنّهُ الواحِدُ

سبحانه وتعالى وتقدس في علوّه وعظمة سلطانه، وعز ملكوته[2].

---

1 الخرعان، المرجع نفسه، ص 46.

2 الخرعان، مرجع نفسه، ص 46.

المبحث الثاني: أي المخلوقات خُلق أولاً؟

إن مصـــــدر معرفة أول المخلوقات وكيفية الخلق هو الخبر عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، وما فَهمه أهل العلم منهما، إذ لا مصدر لذلك غير الوحي المعصوم والفهم المهتدي بهديه، وما عدا ذلك فهو فرضيات وتوقعات، ولا تلبث في كثير من الأحيان أن يتراجع عنها القائلون بها ويكتشفون ما ينقضها مما يطلعهم الله عليه من علمه، وقد قال ابن كثير رحمه الله تعالى، في مقدمة كتابه البداية والنهاية: وكان من أعظم نعمه عليهم -أي على بني آدم- وإحســـانه إليهم بعد أن خلقهم ورزقهم ويسر لهم السبيل، وأنطقهم، أن أرسل رسله إليهم، وأنزل كتبه عليهم؛ مبينة حلاله وحرامه، وأخباره وأحكامه، وتفصيل كل شيء في المبدأ والمعاد إلى يوم القيامة، فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم، والأوامر بالانقياد، والنواهي بالتعظيم[1].

إن الحقيقة المجردة تقول إنه لا مصـــــدر حقيقي لمعرفة بداية الخلق غير الوحي المعصـــــوم، قـال تعـالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك: 14].

هذا وقد تعددت أقوال العلماء في أي المخلوقات خلق أولاً؟ فمنهم من قال بأن الماء أول المخلوقات، ومنهم من قال بأن أول المخلوقات هو العرش، ومنهم

1 البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر ابن كثير، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط 1، 1997، 5/1.

من قال بأن القلم هو الأول، ومأخذهم في ذلك من فهمهم للنصوص التي تحدثت عن هذا الموضــوع، قال ابن كثير في تاريخه: وقد أجمع علماء الإســلام قاطبة -لا يشـك في ذلك مسـلم- أن الله خلق السـماوات والأرض وما بينهما في سـتة أيام، كما دل عليه القرآن الكريم.

ثم قال: واختلفوا هل كان قبل خلق السـماوات والأرض شـيء مخلوق قبلهما؟ فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنه لم يكن قبلهما شيء، وأنهما خلقتا من العدم المحض، وقال آخرون: بل كان قبل السماوات والأرض مخلوقات أخر، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـــتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُـــهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [سورة هود: 7][1]. وقال في التفسير: قال مجاهد: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل أن يخلق شـيئاً، وكذا قال وهب بن منبه، وضـمرة وقتادة وابن جرير، وغير واحد، وقال قتادة في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُـــهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ينبّئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق الســـماوات والأرض. وأما الاختلاف: هل خلق العرش أولاً أم الماء أم القلم؟ فقد اختار ابن جرير وابن الجوزي رحمهما الله تعالى أن القلم أول المخلوقات، وهو القلم الذي كتبت به مقادير الخلق، واستدلوا بحديث عبادة بن الصامت الذي رواه الإمام أحمد وأبو داوُد والترمذي، قال: قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: (إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له اكتب، فجرى في تلك السـاعة بما هو كائن

1 البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، 8/1.

إلى يوم القيامة)[1].

قال ابن كثير: والذي عليه الجمهور -فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره- أن العرش مخلوق قبل ذلك، كما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء)، قالوا: فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير، وقد دل هذا الحديث على أن ذلك بعد خلق العرش، فثبت تقديم العرش على القلم الذي كُتبت به المقادير، ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، أيّ ما عدا العرش والماء[2].

وقال ابن حجر في الفتح: وأما ما رواه أحمد والترمذي وصححه من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: (أول ما خلق الله القلم، ثم قال: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة)، فيجمع بينه وبين ما قبله بأن أوليّة القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش، أو بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة، أيّ إنه قيل له: اكتب أول ما خلق. وأما حديث: أول ما خلق الله العقل: فليس له طريق ثبت[3].

وقال آخرون: بل أول ما خلق الله الماء قبل العرش وقبل القلم، واستدلوا

---

1 رواه أحمد وأبو داوُد والترمذي، انظر: قصة الخلق، ص 56.

2 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 57.

3 الخزعان، المرجع نفسه، ص 57.

بحديث أبي رزين العقيلي مرفوعاً: (أن الماء خلق قبل العرش)، وروى السدي في تفسيره بأسانيد متعددة أن الله لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء.

وعلى أيٍّ من هذه الأقوال فما يرجحه كثير من أهل العلم أن العرش والماء هما أول المخلوقات، قال ابن حجر في الفتح: أشار بقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم، لكونهما خُلقا قبل خلق السماوات والأرض، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء[1].

أولاً: خلق العرش والكرسي:

عرش الرحمن هو أعظم المخلوقات حجماً وكيفية وأعلاها مكاناً، فهو سقف الكون، وعليه ذو الجلال والإكرام، ولا يدانيه في عظمته شيء من خلق الله، وقد أضافه إلى نفسه إضافة تشريف وتعظيم؛ فيقال: "عرش الرحمن"، ونسبه إلى نفسه كما نسب عظائم مخلوقاته، فقال سبحانه: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [سورة غافر: 15]، وقال سبحانه: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [سورة التكوير: 20]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الزخرف: 82]، وقال تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [سورة البروج: 15]، وصفه بالكريم في قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [سورة المؤمنون: 116]، كما وصفه بالعظيم في

1 فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، 334/6.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة النمل: 26].

والعرش: قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه: 5]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة الحديد: 4] في غير ما آية من القرآن، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: 17]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الزمر: 75].

والعرش، كما قال القرطبي: لفظ مشترك يطلق على أكثر من واحد؛ قال الجوهري وغيره: العرش سرير الملك، وفي التنزيل: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ [سورة النمل: 41]، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة يوسف: 100]. والعرش سقف البيت. وعرش القدم: ما نتأ في ظهرها وفيه الأصابع، والجمع عروش.

والعرش: الملك والسلطان، يقال: ثُلَّ عرش فلان: إذا ذهب ملكه وسلطانه وعزُّه[1]. ولا مجال للخوض في كيفية العرش وحجمه وخلقه إلا عن طريق الوحي المعصوم، مما ثبت عن الله عز وجل في كتابه، وثبت عن رسوله صلى الله عليه وسلم في سنّته، إذ هو من الأمور الغيبية التي لا مجال للحس والعقل بالخوض فيها،

1 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص: 60.

ولذا فالمعوّل عليه النص الثابت[1]. وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه، وقال محمد بن إسحاق في ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فكان كما وصف نفسه تعالى، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة، الفعال لما يريد، وخلق الله العرش بيده سبحانه وتقدّس من بين أربعة أشياء، كما قال مجاهد: قال عبد الله بن عمر: خلق الله أربعة أشياء بيده؛ العرش، والقلم، وآدم، وجنة عدن، ثم قال لسائر الخلق: كن فكان. أخرجه الدارمي وأبو الشيخ واللالكائي بسند صحيح على شرط مسلم[2]. ومما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك قوله: (فإذا سألتم اللهَ فَسَلُوهُ الفردوس، فإنَّه أوسط الجنَّة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّرُ أنهار الجنة)[3].

ففي هذا الحديث إثبات علو العرش على جميع المخلوقات، وأن الله عز وعلا وجل فوقه مستوٍ عليه، على الوجه الذي يليق به سبحانه وتعالى، بعيداً عن خوض الخائضين، وإفك الأفاكين، وتخرّصات الظانين. كما صح عنه صلى الله عليه وسلم أن للعرش قوائم، فقد جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (يَصعقون يوم القيامة فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم

---

1 الخرعان، المرجع نفسه، ص 60.

2 الخرعان، المرجع نفسه، ص 61.

3 صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماءِ}، {وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيْمِ}، رقم: (7423). ابن حجر: فتح الباري، 415/13.

العرش)[1]. قال ابن حجر: قوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾: إشارة إلى أن العرش مربوب، وكل مربوب مخلوق، وختم الباب -يعني البخاري- بالحديث الذي فيه (فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش)، فإن في إثبات القوائم للعرش دلالة على أنه جسم مركب له أبعاض وأجزاء، والجسم المؤلف محدث مخلوق، وقال البيهقي في "الأسماء والصفات": اتفقت أقاويل هذا التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله وتعبّدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة[2].

وقد أوكل الله تعالى بهذا العرش ملائكة عظاماً يحملونه، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [سورة غافر: 7].

وفي آية أخرى تتحدث عن مشهد من مشاهد يوم القيامة يقول سبحانه: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: 17].

وجاء في وصف عظمة خلق هؤلاء الملائكة ما رواه أبو داوُد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أُذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من

---

1 صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماءِ}، {وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيْمِ}، رقم: (7427). ابن حجر، فتح الباري، 416/13.

2 فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، 416/13.

حملة العرش؛ إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)[1]. صححه الألباني، ورواه ابن أبي حاتم، ولفظه: (تخفق الطير سبعمائة عام)[2].

فسبحان الله العظيم! إذا كان هذا ما بين شحمة أذن هذا الملك وعاتقه، فما صفة بقية خلقته؟ إنه خلق عظيم لا يحيط به وصف، ولا يحده حس، ولا يخضع لحسابات الحاسبين، وتوقعات الخارصين، وإذا كانت هذه صفة بعض خلق الله سبحانه من حملة العرش، فما صفة العرش؟ والله أعلى وأعظم من كل عظيم، وأكبر وأجل من كل كبير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: 11].

وقد رأينا ورأى الناس في بعض صور الفلك التقريبية أحجام المجرات والأفلاك، مما يذهل الرائي، ويجعله خاضعاً ذليلاً أمام عظمة الله العظيم، والذي تبدو فيه الأرض كذرة متلاشية وسط الأفق، لا تساوي في ملك الله ولا خلقه شيئاً يذكر، والعرش لا يقدّر قدرَه إلا الله تعالى. والكرسي، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه: (الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدّر قدره إلا الله تعالى). وفي قوله تعالى:﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾، قال ابن عباس: أي: علمه، كما مرّ معنا في رواية، وفي قوله تعالى:﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾، فالسماوات السبع والأرضون السبع -على عظم خلقها وسعة حجمها-قد وسعها الكرسي،

---

1 أبو داوُد، كتاب: السنة، باب: في الجهمية. صححه الألباني.

2 مختصر شرح العقيدة الطحاوية، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 2001، ص 139.

وغطت سعته على سعتها، بل لقد جاء عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يا أبا ذر، ما السماوات عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة). وفي رواية: (كحلقة من حديد). وقال الضحاك عن ابن عباس: لو أن السماوات السبع والأرضين السبع بُسطن، ثم وصلن بعضهن إلى بعض، ما كنَّ في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة. فيا سبحان الله ماذا تساوي حلقة من حديد لا تتجاوز ثلاث بوصات بالنسبة لفلاة مثل الربع الخالي، أو مثل الصحراء الكبرى!؟

إن النتيجة هي نسبة حجم السماوات والأرض إلى الكرسي، وهي كذلك نسبة حجم الكرسي إلى العرش العظيم، فسبحان من لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وسبحان الله العظيم في ذاته، العظيم في صفاته، العظيم في خلقه وعِلمه[1].

1. الله غني عن عرشه:

إن ما ينبغي التنبيه له في مسألة خلق العرش أنه لا يعني وصف العرش بأنه عرش الرحمن، وأنه بمنزلة السرير للملك، أن الله محتاج إليه، فالله أعظم من ذلك، والخلق كلهم مفتقرون إلى الله، يحتاجون إليه، لا قيام لهم إلا به، والله هو الغني الحميد. قال ابن أبي العز في العقيدة الطحاوية: أما قوله: وهو مستغنٍ عن العرش

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق ص 64.

وما دونه فليبيّن أن خلقه للعرش لاســـتوائه عليه ليس لحاجته إليه؛ بل له في ذلك حكمة اقتضـته، وكون العالي فوق السـافل لا يلزم أن يكون السـافل حاوياً للعالي محيطاً به حاملاً له، ولا أن يكون الأعلى مفتقراً إليه، فانظر إلى السـماء كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها.

فالرب تعالى أعظم شـــأناً وأجلّ من أن يلزم من علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصـائصـه؛ وهي حمله بقدرته للسـافل، وفقر السـافل، وغناه هو سـبحانه عن السـافل، وإحاطته عز وجل به، فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته، وغناه عن العرش وفقر العرش إليه[1].

ومثل ذلك خلق الله العباد لعبادته لا يعني حاجته وافتقاره إليهم وعبادتهم، فهو سـبحانه مسـتغنٍ عنهم وهم الفقراء إليه المحتاجون إليه، وما عبادتهم له إلا دليل فقرهم إليه، وضعفهم بين يديه، فالعرش والسماوات والأرض والملائكة والجن كلهم عباد لله[2].

2. اهتزاز العرش لسعد بن معاذ ومأوى أرواح الشهداء في الجنة

والعرش العظيم حبيب لعباد الله الصـالحين، محبٌ لهم، متودّد إليهم، فكما أنه اهتزّ لموت سعد بن معاذ الأوسي الأنصاري، رضي الله عنه؛ فرحاً وسروراً بقدوم

---

1 مختصر شرح العقيدة الطحاوية، الألباني، المرجع السابق، ص51.

2 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 65.

روح هذا الصحابي الجليل -كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح- فإن العرش العظيم موئل ومستراح عباد الله الصالحين، ومستظلّهم ومكان اجتماعهم عند ربهم يوم القيامة، فإليه تأوي أرواح الشهداء في الجنة حينما يروحون ويغدون بين خمائلها وبساتينها، قال ابن مسعود رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [سورة آل عمران: 169].

قال: أما إنّا قد سألنا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلّقة بالعرش، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففَعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا)[1].

3. العرش مستظَل عباد الله الصالحين

حينما تذهل المرضعات وتتلاشى الصدقات والقربات، وتدنو الشمس فلا يحول دونها شيء، ويزول كل ظل إلا ظل العرش، كما ثبت ذلك في حديث السبعة الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

1 رواه مسلم نقلاً عن قصة الخلق، ص 66.

(سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المســاجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)[1]. وفي رواية عند سعيد بن منصور: (سبعة يظلهم الله في ظل عرشه[2]... الحديث). وقال في الفتح: حديث حسن.

4. العرش ملتقى المتحابين بجلال الله:

والعرش ملتقى المتحابين بجلال الله ومستظَلهم، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: (إن الله تعالى يقول: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي)[3].

5. هو مستظل الرحماء:

الذين يتجاوزون عن عباد الله عند الاقتضاء، كما في حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من ترك لغريمه أو تجاوز عنه كان في ظل العرش يوم القيامة)[4].

---

1 فتح الباري شرح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، 168/2.

2 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 66.

3 مسند أحمد، باب: مسند أبي هريرة، رقم: 7231.

4 إسناده صحيح أخرجه أحمد وغيره، شمس الدين الذهبي، مختصر العلو للعلي العظيم، ص 25.

6. هو مستقر كتاب رحمة الله:

التي كتبها على نفسه لعباده، كما ثبت في الحديث الصحيح عند البخاري عن أبي هريرة رضـي الله عنه، عن النبي صـلى الله عليه وسـلم قال: (إن الله لما قضـى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي)[1].

7. تحته موضع السجود الكريم

للنبي محمد صلى الله عليه وسلم حينما تستشفع البشرية به يوم القيامة إلى ربها ليشفع لهم في فصل القضاء، كما في حديث الشفاعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهش منها، ثم قال: (أنا سـيد الناس يوم القيامة) ... وذكر الحديث إلى أن قال: (فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطَ، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: يا رب أمتي)[2].

8. حملة العرش أحباب الصالحين

حملة العرش ومن حولهم من الملائكة هم أحباب عباد الله الصـالحين، الذين يغمرونهم باسـتغفارهم ودعائهم لهم عند الله، رحمة بهم وتحقيقاً للحميمية التي تجمعهم بهم في طاعتهم لله عز وجل وقربهم منه سبحانه بأعمالهم الصالحة وحبهم له[3].

---

1 صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء، رقم: (7422).

2 البخاري ومسلم وغيرهما. قصة الخلق، الخزعان، ص 67.

3 الخزعان، المرجع نفسه، ص 68.

كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة غافر: 7-9]. إن حملة العرش ومن حوله -وهم من بين القوى المؤمنة في هذه الوجود-يذكرون المؤمنين من البشر عند ربهم، ويستغفرون لهم، ويستنجزون وعد الله إياهم؛ بحكم رابطة الإيمان بينهم وبين المؤمنين. وهؤلاء العباد المقربون يتوجهون بعد تسبيح الله إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخير ما يدعو به مؤمن لمؤمن. وهم يبدؤون دعاءهم بأدب يعلّمنا كيف يكون أدب الدعاء والسؤال، يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [سورة غافر: 7]. يقدمون بين يدي الدعاء بأنهم -في طلب الرحمة للناس-إنما يستمدون من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ويحيلون إلى علم الله الذي وسع كل شيء، وأنهم لا يقدمون بين يدي الله بشيء، إنما هي رحمته وعلمه، منهما يستمدون وإليهما يلجؤون[1]. قال تعالى: ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [سورة غافر: 7]. وتلتقي هذه الإشارة إلى المغفرة والتوبة بمطلع السورة، وبصفة الله هناك: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [سورة غافر: 3]، كما تلتقي الإشارة إلى عذاب الجحيم،

---

1 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 3071/5.

بصفة الله "شديد العقاب" في سورة غافر، ثم يرتقون في الدعاء من الغفران والوقاية من العذاب إلى سؤال الجنة واستنجاز وعد الله لعباده الصالحين: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة غافر: 8].

ودخول الجنة نعيم وفوز تضاف إليه صحبة من صلح من الآباء والأزواج والذريات، وهي نعيم آخر مستقل، ثم هي مظهر من مظاهر الوحدة بين المؤمنين أجمعين، فعند عقدة الإيمان يلتقي الآباء والأبناء والأزواج، ولولا هذه العقدة لتقطّعت بينهم الأسباب. والتعقيب على هذه الفقرة من الدعاء: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيْزُ الحَكِيْمُ﴾ يشير إلى القوة كما يشير إلى الحكمة، وبها يكون الحكم في أمر العباد.

﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، وهذه الدعوة -بعد الدعاء بإدخالهم جنات عدن-لفتة إلى الركيزة الأولى في الموقف العصيب، فالسيئات هي التي توبق أصحابها في الآخرة، وتوردهم مورد التهلكة، فإذا وقى الله عباده المؤمنين منها وقاهم نتائجها وعواقبها، وكانت هذه الرحمة هي الرحمة في ذلك الموقف، وكانت كذلك أولى خطوات السعادة "وذلك هو الفوز العظيم"، فمجرد الوقاية من السيئات هو أمر عظيم[1].

---

1 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 3071/5.

فالعرش والملائكة من حملته والذين من حوله خلق من خلق الله الذين تربطهم بعباد الله الصالحين وشائج الإيمان بالله عز وجل والعبودية الخالصة له سبحانه، إنها العلاقة الحميمة بين عباد الله الصالحين وبين بقية خلق الله؛ علاقة الانسجام والود والتكريم. فالعرش يهتز لموت سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه، والعرش مأوى أرواح الشهداء، ومستظل المتقين، ومستقر رحمة الله الرحمن الرحيم، والإنسان العابد لله يستشعر هذه المودة مع هذا المخلوق العظيم الذي جعل الله فيه من المنافع لخلقه ما لا توازيه منفعة، حينما تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وهو أثر عن القرب من الله العلي الكبير، والإيمان به والتصديق بما جاء عنه وعن رسوله صلى الله عليه وسلم من الوحي المعصوم[1].

ثانياً: خلق الماء:

الماء هو سر الحياة ومنبعها، وهو من أول المخلوقات وجوداً، بل هناك من أهل العلم من قال بأن الماء أول المخلوقات، حتى قيل إنه خلق قبل العرش، ثم خلق العرش بعد ذلك، وحجتهم في ذلك قوله الله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [سورة هود: 7].

كما روى ابن جرير قال: وقال آخرون: بل خلق الله عز وجل الماء قبل العرش. رواه السدي عن أبي مالك وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب رسول

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 69.

الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: إن الله كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء[1].

وقد قرن الله ذكر خلق الماء بخلق العرش، كما في الآية السابقة، باعتبارهما أول المخلوقات، قال ابن حجر رحمه الله: أشار بقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خُلقا قبل خلق السماوات والأرض، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء. وعن مجاهد قال: بدءُ الخلق العرش والماء والهواء، وخلقت الأرض من الماء[2]. وقال القرطبي في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: بيّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء، ولا يلزم من الماء الذي عليه العرش أنه هو الماء الموجود في الأرض، فخلق الله لا يحيط به إلا هو سبحانه، كما قاله بعض العلماء، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: إنه سئل عن قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قال: على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح[3].

1. الماء أساس المخلوقات:

الماء من أعظم مخلوقات الله عز وجل ومن أولها في الوجود، وقد جعله الله أساس الحياة وعنصرها الذي تقوم عليه وتبدأ منه، قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ

---

1 البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، 9/1.

2 فتح الباري شرح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، 334/6.

3 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، 8/9.

كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 30]. وروى أبو حاتم البستي في المسند الصحيح له من حديث أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله إذا رأيتك طابت نفسي وقرَّت عيني؛ أنبئني عن كل شيء، قال: "كل شيء خلق من الماء"[1]. وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة النور: 45]. وقد ورد ذكر كلمتي "ماء، والماء" في القرآن الكريم "59" مرة، وورد ذكر الماء في كلمات أخرى "ماءك، ماءها، ماؤكم، ماؤها" أربع مرات، وبذلك يكون الماء ورد ذكره في القرآن الكريم "63" مرة، **وبقراءة الآيات القرآنية التي ورد ذكر الماء فيها يمكن إدراجها تحت المواضيع التالية:**

2. نزول ماء السماء بقدر:

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون: 18]. ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ بحكمة وتدبير؛ لا أكثر فيغرق ويفسد، ولا أقل فيكون الجدب والمحل، ولا في غير أوانه فيذهب بدداً بلا فائدة.

" فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ" وما أشبهه وهو مستكن في الأرض بماء النطفة، وهو

1 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، 284/11.

مستقر في الرحم.

" فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ" كلاهما مستقر هنالك بتدبير الله لتنشأ عنه الحياة، وهذا من تنسيق المشاهد على طريقة القرآن في التصوير.

" وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ "؛ فيغور في طبقات الأرض البعيدة بكسر أو شق في الطبقات الصخرية التي استقر عليها فحفظته، أو بغير هذا من الأسباب، فالذي أمسكه بقدرته قادر على تبديده وإضاعته، إنما هو فضل الله على الناس ونعمته[1].

3. "أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون؟":

قال تعالى:﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة الواقعة: 68-70]. وهذا الماء أصل الحياة وعنصرها الذي لا تنشأ إلا به كما قدر الله فما دور الإنسان؟ دوره أن يشربه، أما الذي أنشأه من عناصره، وأما الذي أنزله من سحائبه؛ فهو الله سبحانه، وهو الذي قدر أن يكون عذباً فكان، ولو شاء الله لجعله أجاجاً مالحاً لا يستساغ، أو لا ينشئ حياة، فهلا يشكرون فضل الله الذي أجرى مشيئته بما كان[2]؟

---

1 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 2461/4.

2 المعجزة الخالدة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم براهين ساطعة وأدلة قاطعة، محمد علي الصلابي، دار المعرفة، 2016، ص 112.

4. نزول الغيث من مفاتيح الغيب:

عن سـالم بن عبد الله عن أبيه، أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قال: (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة لقمان: 34]) [1].

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ الله﴾ سـبحانه وتعالى قد جعل السـاعة غيباً لا يعلمه سـواه؛ ليبقى الناس على حذر دائم، وتوقّع دائم، ومحاولة دائمة أن يقدموا لها، وهم لا يعلمون متى تأتي، فقد تأتيهم بغتة في أي لحظة ولا مجال للتأجيل في اتخاذ الزاد وكنز الرصيد.

﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ والله ينزل الغيث وفق حكمته بالقدر الذي يريده، وقد يعرف الناس بالتجارب والمقاييس قرب نزوله، ولكنهم لا يقدرون على خلق الأسباب التي تنشئه. والنص يقرر أن الله هو الذي ينزل الغيث، لأنه سبحانه هو المنشئ للأسباب الكونية التي تكوّنه والتي تنظّمه، فاختصاص الله في الغيث هو اختصاص القدرة كما هو ظاهر من النص، مع علم الله الشامل المحيط بكل شيء، فعلم الله وحده هو العلم الصحيح الكامل الشامل الدائم الذي لا تلحق به زيادة ولا نقصان.

1 صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو}، رقم: (4627). ابن حجر، فتح الباري، مرجع سابق، 514/8.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ اختصاص بالعلم كالاختصاص في أمر الساعة، فهو سبحانه الذي يعلم وحده علمَ يقينٍ ماذا في الأرحام في كل لحظة وفي كل طور، من فيض وغيض، ومن حمل، حتى حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم، ونوع هذا الحمل ذكراً أم أنثى، حين لا يملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئاً في اللحظة الأولى لاتحاد الخلية والبويضة، وملامح الجنين، وخواصه، وحالته واستعداداته، فكل أولئك مما يختص به علم الله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذا تَكْسِبُ غَدًا﴾؛ ماذا تكسب من خير وشر، ومن نفع وضر، ومن يسر وعسر، ومن صحة ومرض، ومن طاعة ومعصية، فالكسب أعمّ من الربح المالي وما في معناه؛ وهو كل ما تصيبه النفس في الغداة، وهو غيب مغلق، عليه الأستار، والنفس الإنسانية تقف أمام سدف الغيب لا تملك أن ترى شيئاً مما وراء الستار.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [سورة لقمان: 34]، فذلك أمر وراء الأستار المسبلة السميكة التي لا تنفذ منها الأسماع والأبصار. وإن النفس البشرية لتقف أمام هذه الأستار عاجزة خاشعة، تدرك بالمواجهة حقيقة علمها المحدود، وعجزها الواضح، ويتساقط عنها غرور العلم والمعرفة المدَّعاة، وتعرف أمام ستر الغيب المسدل أن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً، وأن وراء الستر الكثيرَ مما لم يعلمه الناس، ولو علموا كل شيء آخر فسيظلون واقفين أمام تلك الأستار لا يدرون ماذا يكون غداً، بل ماذا يكون اللحظة التالية، وعندئذٍ تطامن النفس البشرية من كبريائها وتخشع لله.

والسياق القرآني يعرض هذه المؤثرات العميقة التأثير في القلب البشري في رقعة فسيحة هائلة، رقعة فسيحة في الزمان والمكان، وفي الحاضر الواقع، والمستقبل المنظور، والغيب السحيق، وفي خواطر النفس، ووثبات الخيال: ما بين الساعة البعيدة المدى، والغيث البعيد المصدر، وما في الأرحام الخافي عن العيان، والكسب في الغد، وهو قريب في الزمان ومغيّب في المجهول، وموضع الموت والدفن.

﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيْرٌ ﴾، وليس غيره بالعليم ولا بالخبير[1].

5. المطر مصدر جميع مياه الأرض:

قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[سورة الزمر: 21].

6. ماء المطر يتوقف عليه كيان الزراعة:

قال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[سورة الأنعام: 99].

---

1 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 2799/5.

7. دورة المياه في الأرض ثابتة:

قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [سورة الرعد: 17].

شبّه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله لحياة القلوب والأرواح بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح، وشبّه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد بما في المطر من النفع العام الضروري، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول؛ فوادٍ كبير يسع ماء كثيراً، كقلب كبيرٍ يسع علماً كثيراً، ووادٍ صغير يأخذ ماء قليلاً كقلب صغير يسع علماً قليلاً، وهكذا.

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها بالزبد الذي يعلو الماء، ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدِّرة له حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي، والحلية الخالصة، كذلك الشبهات والشهوات؛ لا يزال القلب يكرهها ويجاهدها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة، حتى تذهب وتضمحل ويبقى القلب خالصاً صافياً ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره، والرغبة فيه، فالباطل يذهب ويمحقه الحق ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء: 81].

وقال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَضْـرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [سـورة الرعد: 17] [1]. ففي الآية السـابقة مثل الحق والباطل في هذا الحياة، فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً طافياً، ولكنه بعد زبد أو خبث ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئاً ساكناً، وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضـاع أو مات، ولكنه هو الباقي في الأرض، كالماء المحيي والمعدن الصـريح ينفع الناس؛ ﴿كَذَلِكَ يَضْـرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾. وكذلك يقرر مصـائر الدعوات، ومصـائر الاعتقادات، ومصـائر الأعمال والأقوال، وهو الله الواحد القهار، المدبّر للكون والحياة، العليم بالظاهر والباطن، والحق والباطل والباقي والزائل[2].

هذا كما أن في الآية حقيقة علمية تقول: إن دورة المياه الأرضية ثابتة ما دامت قد وجدت الحياة، وإنه لا سبيل إلى زيادة الماء قطرة ولا أن تنقص منه قطرة، فالماء يتبخر من الزرع والنبات، وما تسـتهلكه كل الأحياء من ماء إنما يعود إلى الأرض ثانية كاملاً غير منقوص في مخلفاتها، أو في بقايا أجسـامها، وإن جبال الجليد والثلوج عندما تسيل فإنها لا تضيف جديداً على الماء لأنها أصلاً من ماء الأرض، وهذه الدورة المائية الثابتة والمقدَّرة قد سبقت بها وإليها آيات القرآن الكريم[3].

ومن رحمته سبحانه وتعالى أن جعل الماء على كيفية وهيئة تمكّن من الانتفاع به

---

1 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ص 471.

2 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 2054/4.

3 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ص 168.

على الوجه الأكمل، فينزل المطر من السماء، فيغسل به الأرض ويطهرها، وينقي الهواء من الدخان والغبار والتلوث، فتتجدد الأرض، وتصفو السماء، ويطيب الهواء، قال ابن القيم رحمه الله: ثم تأمل الحكمة البالغة في نزول المطر على الأرض من علوٍّ ليعمّ بسقيه وِهادها وتلولها وظرابها وآكامها ومنخفضها ومرتفعها، ولو كان ربُّها تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع في السفلى وكثر، وفي ذلك فساد، فاقتضت حكمته أن سقاها من فوقها، فينشئ سبحانه السحاب وهي روايا الأرض، ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلقح الفحل الأنثى[1].

ومن حكمته سبحانه في خلق الماء أن منه ما يجري على وجه الأرض كالأنهار، ومنه ما هو مستقر فوق ظهرها كالبحار، ومنه ما يستقر في باطن الأرض كمياه الآبار، ومن رحمته سبحانه أن جعل فيه العذب والمالح الأجاج، وجعل العذب – وهو مياه الأنهار–يجري حتى لا يتعفّن كذلك، ولا يتعفن ما يموت فيه من الحيوانات البرية، وجعل الماء المخزن في الأرض قريباً يمكن تناوله والوصول إليه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون: 18].

قال القرطبي: يعني الماء المختزن، وهذا تهديد ووعيد؛ أي في قدرتنا إذهابه وتغويره، ويهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ

1 مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ص 223.

إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [سورة الملك: 30] أي: غائراً ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [سورة الملك: 30] [1]. والآيات القرآنية كثيرة في بيان الحديث عن الماء وأهميته ومواضيعه، فكم هو ثمين هذا الماء؟ وكم من نعم لا نشعر بأهميتها إلا بعد ضياعها؟ وصدق رب العزة حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 30]. ولولا الله ثم الماء الذي خلقه سبحانه وتعالى ما كان الإنبات ولا النبات ولا الحياة.

ثالثاً: خلق القلم

المقصود بالقلم هنا القلم الذي أمره الله سبحانه وتعالى في بدء الخليقة بأن يكتب مقادير الأشياء وما هو كائن من مخلوقات، وأحداث، وحياة وموت، إلى يوم القيامة، وذلك بمقتضى علم الله بخلقه، ومقتضى كماله وجلاله، فخلق بعلم، وقدّر بعلم، فلا يحدث شيء في ملكه إلا بعلمه، ولا يخرج شيء مما يقع عن علمه وإحاطته سبحانه، في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك: 14].

فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فقال: (يا غلام إني أعلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت

1 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 76.

فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[1].

وقد سبق ذكر أقوال العلماء في أي المخلوقات خلق أولاً؛ فمنهم من قال القلم، ومنهم من قال العرش، ومنهم من قال الماء، ورجح بعضهم[2] أن أول المخلوقات هو العرش، وهو ما سرنا عليه في ترتيب المخلوقات في هذا الكتاب، وقد خرج العلماء من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: (أول ما خلق الله القلم، ثم قال اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة)، بأن المقصود بذلك -يقول ابن كثير-أنه أول المخلوقات من هذا العالم[3]. أي: عدا العرش، أو أن الله قال له: اكتب أول ما خلقه، واستدلوا بعدم أسبقية خلق القلم بالحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء)[4].

قال ابن القيم رحمه الله في شفاء العليل بعد أن ذكر حديث عبد الله بن عمرو السابق: وفيه دليل على أن خلق العرش سابق على خلق القلم، وهذا أصح

---

1 مسند أحمد، رقم: 2670. وفي سنن الترمذي، رقم 2516.

2 مختصر شرح العقيدة الطحاوية، الألباني، المصدر السابق، ص 333.

3 البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق: 9/1. قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 78-79.

4 صحيح مسلم، كتاب القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم: (2653).

القولين، لما روى أبو داوُد في ســـننه، عن أبي حفص الشـــامي، قال عبادة بن الصــامت لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصــابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصـيبك. سمعت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول: (إن أول ما خلق الله القلم، فقال له اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة). يا بني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من مات على غير هذا فليس مني)[1].

– القلم وكتابة المقادير

وكتابة القلم للقدر كانت في الســاعة التي خُلق فيها، لما رواه أحمد في مســنده من حـديث عبـادة بن الوليـد، قـال: حـدثني أبي، قـال: دخلـت على عبـادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصــني واجتهد لي. فقال: أجلســوني، فلما أجلســـوه قال: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقضــاء والقدر خيره وشــره. قلت: يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أول ما خلق الله تعالى القلم، ثم قال اكتب، فجرى في تلك الســـاعة بما هو كائن إلى يوم القيامة). يا بني إن متَّ ولست على ذلك دخلتَ النار[2].

---

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 79.

2 شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم، مرجع سابق، 1/55-56.

رابعاً: خلق اللوح المحفوظ

اللوح المحفوظ أحد المخلوقات العظيمة التي خلقها الله في بدايات الخلق، وقد اقترن ذكره بالقلم في أحاديث كتابة القدر، وسماه الله محفوظاً لأنه لا يتطرق إليه العبث ولا تصل إليه الشياطين، فهو محفوظ من كل تغيير وتبديل، محفوظ من أن ينفُذ إليه أو بغير ما فيه من حكم أو قضاء أو قدر[1]. قال ابن كثير: هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقصان، والتحريف والتبديل[2]، ومكانه على ما روي عن مقاتل عن يمين العرش[3]. واللوح المحفوظ هو الكتاب الذي لم يفرط فيه الله من شيء، فكل ما جرى ويجري فهو مكتوب عند الله تعالى، وأدلة هذه المرتبة في القرآن الكريم كثيرة، نذكر منها قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنعام: 38]. على أحد الوجهين؛ وهو أن المقصود بالكتاب هنا اللوح المحفوظ، فالله أثبت فيه جميع الحوادث، فكل ما يجري مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ[4]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 105].

فأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية، فهو كائن

---

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 84.

2 البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، 4/496-497.

3 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 84.

4 القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه، عبد الرحمن بن صالح المحمود، دار الوطن، ط 2، 1997، ص 60.

لا محالة[1]، والآية دالة على مرتبة الكتابة عند من فسّر الزبور بالكتب بعد الذكر، والذكر أمّ الكتاب عند الله، وهو اللوح المحفوظ[2].

وقال تعالى في قصة أسرى بدر: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: 68]. أي: لولا كتاب سبق به القضاء عند الله أنه قد أحلّ لكم الغنائم، وأن الله رفع عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم العذاب، لمسّكم عذاب عظيم[3]، فالآية دليل على الكتاب السابق. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة الحج: 70]. وهذه الآية من أوضح الأدلة على علمه المحيط بكل شيء، وأنه علّم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب الله ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، فالآية جمعت بين المرتبتين[4].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة النمل: 75]. أي: خفية أو سر من أسرار العالم العلوي والسفلي ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، فقد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فما من حادث جليّ أو خفيّ، إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح

---

1 صحيح تفسير القرآن العظيم، مصطفى العدوي، دار ابن رجب، ط 1، 2010، 177/3.

2 القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه، المحمود، مرجع سابق، ص 60.

3 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، 191/3.

4 الإيمان بالقدر، محمد علي الصلابي، دار المعرفة، ط 2، 2011، ص 48.

المحفوظ[1].

وقال تعالى في آية جمعت بين مرتبتي العلم والكتابة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة يونس: 61]، "وما يعزب عن ربك" أي: ما يغيب عن علمه وبصره وسمعه ومشاهدته أي شيء؛ حتى مثاقيل الذر، بل ما هو أصغر منها، وهذه مرتبة العلم، وقوله: "إلا في كتاب مبين" مرتبة الكتابة، وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين هاتين المرتبتين[2].

وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [سورة يس: 12]. أي: جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور، مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين ها هنا هو أم الكتاب[3]. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [سورة القمر: 52-53].

أي: مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام، "وكل صغير وكبير" أي: من أعمالهم "مستطر" أيّ: مجموع عليهم، ومسطّر في

1 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، 598/5.

2 السعدي، المرجع نفسه، 366/3.

3 صحيح تفسير القرآن العظيم، العدوي، مرجع سابق، 654/3.

صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها[1].

وقال تعالى عن موسى عليه السلام حين قال له فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى۝ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: 51-52].

إن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدّر وهدى شرع يحتج بالقرون الأولى؛ أي الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول: لم يعبدوه بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال، "لا يضل ربي ولا ينسى" أي: لا يشذّ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً، يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، فإن علم المخلوقات يعتريه نقصانان؛ أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء. والآخر: نسيانه بعد علمه، فنزّه نفسه عن ذلك[2].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة فاطر: 11].

---

1 صحيح تفسير القرآن العظيم، العدوي، مرجع سابق، 335/4.

2 العدوي، المرجع نفسه، 115/3.

1. وظيفة اللوح المحفوظ

إن وظيفة اللوح المحفوظ -كما في الآيات والأحاديث-محل كتابة القدر، فقد أمر الله القلم فكتب فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة، قال القرطبي: اللوح المحفوظ الذي فيه أصناف الخلق والخليقة، وبيان أمورهم، وذكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، والأقضية النافذة فيهم، ومآل عواقب أمورهم، وهو أم الكتاب. وقال ابن أبي العز في شرح الطحاوية: اللوح المذكور هو الذي كتب مقادير الخلائق فيه[1].

2. القرآن محفوظ في اللوح منذ الأزل

كتب الله فيه القرآن وحفظه فيه منذ الأزل، وهذا معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [سورة البروج: 21-22]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [سورة الزخرف: 4]. قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ يعني: القرآن في اللوح المحفوظ. وقال ابن القيم في شفاء العليل: والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [سورة البروج: 22].

وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة على أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب، وقد دل القرآن على أن الرب تبارك تعالى كتب في أم

---

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 85.

الكتاب ما يفعله وما يقوله، فكتب في اللوح أفعاله وكلامه؛ فتبت يدا أبي لهب، في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب[1].

وقال ابن كثير: في قوله سبحانه: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [سورة الإسراء: 106]. معنى فرقناه: فصَّلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفرَّقاً منجَّماً على الوقائع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاث وعشرين سنة، قاله عكرمة عن ابن عباس[2].

واللوح المحفوظ في خلقه ووظيفته مظهر من مظاهر قدرة الله الباهرة، والعظمة التي لا تدانيها عظمة، والجلال الذي يقصّر دونه كل جلال، وهو في ذاته كمال وأي كمال، وآية على علم الله المحيط بكل شيء، وإرادته التي لا يحول دونها حائل، ولا يندّ عنها أو يتجاوزها ذو قدرة أو سلطان، وهو معبّر عن عدل الله المطلق الذي لا يتطرق إليه ظلم ولا جَور، فسبحان الله وتقدس في ذاته وصفاته عن كل ما ببال، أو يرد به خيال، وسبحانه وتعالى عن كل ند أو مثيل قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة: 255]. وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [سورة الأنعام: 102]. وسبحانه وتقدّس عما يتقول به المتقولون، أو يتأوّل المتأولون، أو تطيش به عقول القاصرين، وتتردد فيه أفهام ضعفاء المخلوقين[3].

---

1 شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم، مرجع سابق، 1/166-167.

2 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، 3/68.

3 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 88.

خامساً: خلق الزمان

إن المسـلم الذي يؤمن حق الإيمان بمعنى قول الله سـبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [سورة الزمر: 62]، يعرف حق المعرفة أنه ليس هناك في الوجود أحد سـوى الله إلا وهو مخلوق بعد أن لم يكن، وأن الله سبحانه هو الخالق لكل شيءٍ صغيراً كان أم كبيراً، محسوساً أم غيبياً، ومن ذلك الزمان والمكان، والليل والنهار، ومقدار ذلك كله، قال ابن حجر في الفتح عند قوله صلى الله عليه وسلم: (وكتب في الذكر كل شيء): وفيه أن جنس الزمان ونوعه حادث[1].

والزمان نوع من مخلوقات الله العظيمة قلّ من يتأمّله أو يلتفت له؛ فهو الزمان والوقت الذي نتحرك فيه ونعيش أيامه ولياليه، والذي به نحسب الأعمال والآجال، الوقت الذي هو محل الأعمال، وامتداد الآمال[2].

والزمان كما يقول ابن تيمية رحمه الله: هو مقدار الحركة[3]، أي حركة الأفلاك. وقد أخبر سبحانه بخلقه الزمان في غير موضع؛ كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [سورة الأنعام: 1]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 33]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ

---

1 فتح الباري شرح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، 334/6.

2 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 88.

3 مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1995، 492/2.

وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُــكُورًا﴾ [ســورة الفرقان: 62]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران: 190]. وغير ذلك من النصوص التي تبين أنه خالق الزمان[1].

وقد جاء ذكر الزمان في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رســول الله صــلى الله عليه وســلم يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق الســماوات والأرض بخمســين ألف ســنة. قال: وعرشـه على الماء)[2]. فالزمان كان مخلوقاً ومقدّراً حينذاك، وقد جاءت ألفاظ القرآن لتؤكد هذه الحقيقة؛ في مثل قوله سـبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْـتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِــي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَـخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [ســورة الأعراف: 54]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِــيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّـائِلِينَ﴾ [سـورة فصـلت: 9-10]. فبين سـبحانه مقدار المدة التي خلق فيها الســـماوات والأرض وما فيهما، وحددها بأنها ســتة أيام، قال ابن كثير: يخبر تعالى بأنه خلق العالم -سماواته وأرضـه وما بين ذلك- في ستة أيام، كما

---

1 مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، 492/2.

2 سبق تخريجه. قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 90.

أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن؛ والستة الأيام هي: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم عليه السلام، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت؛ وهو القطع[1].

وهذه الأيام لا يلزم منها أن تكون مثل أيام الدنيا في القدر والكيفية، وإنما هي من أيام الله التي يقدّرها كيف يشاء سبحانه، قال ابن كثير: عن ابن عباس ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: 47]، قال: من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض[2].

وأما قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [سورة المعارج: 4]، يقول: لو وَلِيَ حسابَ الخلائق غيرُ الله ما فرغ منه في يوم مقداره خمسون ألف سنة، ويفرغ الله منه مقدار نصف يوم من أيام الدنيا إذا أخذ في حساب الخلائق، فذلك قوله: ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [سورة الأنبياء: 47]. يعني: سرعة الحساب[3].

وقال ابن تيمية: والرسل أخبرت بخلق الأفلاك وخلق الزمان الذي هو مقدار حركتها، مع إخباره بأنها خلقت من مادة قبل ذلك، وفي زمان قبل هذا الزمان،

---

1 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، 4/92-93.

2 ابن كثير، مرجع سابق، 3/228.

3 الرد على الجهمية والزنادقة، أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع، ط 1، ص 93.

فإنه سبحانه أخبر أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وسواء قيل: إن تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المقدّرة بطلوع الشـــمس وغروبها، أو قيل: إنها أكبر منها، كما قال بعضهم: إن كل يوم قدره ألف سنة، فلا ريب أن تلك الأيام التي خلقت فيها السـماوات والأرض غير هذه الأيام، وغير الزمان الذي هو مقدار حركة هذه الأفلاك، وتلك الأيام مقدّرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السموات والأرض.

وقد أخبر سـبحانه أنه خلق السـماوات والأرض في مدة، ومن مادة، ولم يذكر القرآن خلق شـيء من لا شـيء، بل ذكر أنه خلق المخلوق بعد أن لم يكن شـيئاً، كما قال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [سورة مريم: 9]. مع إخباره أنه خلقه من نطفة[1].

وقدرة الله لا يحدّها وصف، ولا تخضع لتصور، ولا يقف دونها حائل أو مانع، فهو سبحانه قادر على أن يجري الأحداث الكثيرة في الزمن القصير الذي لا تجري فيه عادة، بل ولا يتصور في إطار حدود الحسّ أن تجري فيه، ولنتأمل قصة الإسراء والمعراج لنجد فيها ما يبين قدرة الله سـبحانه في التصـرف في الزمان والمكان على الكيفية التي يريد، وأنه القادر على كل شيء بحق سبحانه؛ فقد أسرى برسول الله صـلى الله عليه وسـلم من بيت الله الحرام من مكة إلى بيت المقدس في الشـام، ثم صـلى فيه بالأنبياء، ثم عُرج به إلى السـماء، يستفتح له عند كل سماء، ورأى عدداً

---

1 مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، 18/230-236، بتصرف.

من الأنبياء؛ يسأل عنهم، وكلّم بعضهم، ورأى أهل النار، ودخل الجنة، ووصل إلى مكان سمع فيه صريف أقلام الملائكة، وفرضت عليه الصلاة في تلك الرحلة العظيمة، ثم هبط إلى الأرض، ورجع إلى فراشه في مكة في أقل من ليلة، وليس هذا بغريب ولا مستحيل، فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الزمان، وخلق أفعال العباد، وهو القادر على أن يتصرف فيها بما شاء، وأن يصرفها على ما يشاء، وأن يجعل فيها ما يخرق به عادتها وطبيعتها، ولذلك لما قالت قريش لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ذلك مستنكرة شامتة بما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم قال: والله لئن كان قاله لقد صدق؛ فما يعجبكم من ذلك؟ فو الله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا نبي الله، أحدّثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: "نعم". قال: يا نبي الله، فصفه لي فإنّي قد جئته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فرُفع لي حتى نظرت إليه. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر، ويقول أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله، حتى إذا انتهى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: وأنت يا أبا بكر الصديق، فيومئذٍ سماه الصديق[1].

وبعد أن تحدثنا عن مبتدأ خلق الزمان قبل خلق السماوات والأرض جاء الحديث عن الزمان في الحياة الدنيا والمرتبط بحركة الشمس والقمر، فبحركة الشمس

---

1 تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون، مؤسسة الرسالة، ط 14، 1958، ص 94-95.

يعرف اليوم الزماني، وبحركة القمر يعرف الشهر، ومن ثم السنة، يقول الله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۝ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [سورة الفرقان: 61-62]، أي جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له عز وجل، فمن فاته عمل الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل النهار استدركه في الليل[1]. وقال سبحانه: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [سورة الأعراف: 54].

فاليوم هو مجموع الليل والنهار، يخلف بعضهما بعضاً في حركة مرتبطة بحركة الشمس وجريانها حول الأرض[2]. كما جعل الله القمر مدار تحديد مدة الشهر، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [سورة التوبة: 36]. ففي هذه الآية الكريمة يُقرر الله سبحانه وتعالى أن كون شهور السنة اثني عشر شهراً هو من وضعه عز وجل وليس من وضع البشر، وأن ذلك مقرّر عنده يوم خلق السماوات والأرض وليس أمراً حادثاً أو جديداً، والمقصود هنا بالشهور الشهور القمرية لا الشمسية، وإن توافقت في كون عدة كل منها اثني عشر شهراً؛ لأن الأشهر الأربعة هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، كما في حديث البخاري ومسلم، وهي أشهر

---

1 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، 324/3.

2 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 96.

قمرية وليست شمسية[1].

عن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته فقال: (ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض؛ السنة اثنا عشر شهراً؛ منها أربعة حرم؛ ثلاثة متواليات؛ ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان)[2]. وعن ابن عباس قال: وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض) تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله في أول الأمر؛ من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة، وهكذا قال ها هنا: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض[3].

1. المشركون يعبثون بالتوقيت

وقد عبث المشركون في الجاهلية بترتيب هذه الشهور، وهو المسمى في كتاب الله بالنسيء، أي تأخير الشهور عن مواضعها، وسبب ذلك -كما يقول المفسّرون- أن العرب كانوا أصحاب حروب وغارات، فكان يشق عليهم أن يمكثوا

1 الخرعان، المرجع نفسه، ص 96.

2 الخرعان، المرجع نفسه، ص 96.

3 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، 354/2.

ثلاثة أشهر لا يغيرون فيها، وقالوا: لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها لنهلكنّ، فأخّروا حرمة محرم إلى صفر، وهو النسيء، وقد سمى الله عز وجل ذلك زيادة في الكفر، لما فيه من اعتداء على ما وصفه الله من نواميس كونية، وأحكام شرعية، وإضلال للناس بإباحة خرقهم لحرمة الأشهر التي حرّمها الله، إذ إن مما يترتب على ذلك أن يحج الناس في غير موسم الحج ويصوموا في غير موسم الصوم، وهكذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة التوبة: 37].

2. حكمة خلق الشهور

ومن حكمة وضع الشهور وتسميتها وتوقيفها أنه بذلك يتمكن الناس من معرفة مواقيت عباداتهم، وضبط آجال عقودهم ومعاملاتهم، وقد بين الله سبحانه هذه الحكمة العظيمة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: 189]. وروي عن عطاء والضحاك وغيرهما في ذلك: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل دينهم[1].

وقال القرطبي: في ذلك تبيين لوجه الحكمة في زيادة القمر ونقصانه؛ وهو زوال

---

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 99.

الإشـــكال في الأيمان والمعاملات والحج والعدد والصـــوم والفطر ومدة الحمل والإجارات والأكرية، إلى غير ذلك من مصالح العباد، ونظيره قوله الحق: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [سورة الإسراء: 12]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [سورة يونس: 5]. وإحصاء الأهلة أيسر من إحصاء الأيام[1].

3. الأسبوع لا يعرف إلا بالوحي

أما أيام الأســبوع وتحديد أسمائها فهو مما اختص به أهل الوحي والشـــرائع السماوية، وهو تحديد توقيفي من الله سبحانه وتعالى لا يدرك بحساب ولا يعقل؛ لأنه لا شيء من ذلك يدل على تحديدها وتسميتها، وفي هذا يقول ابن تيمية: إن الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب لدعوة الخلق إلى عبادته وحده لا شريك له، وذلك يتضمن معرفته لما أبدعه من مخلوقاته، وهي المخلوقات المشهودة الموجودة؛ من الســـماوات والأرض وما بينهما، فأخبر في الكتاب الذي لم يأتِ من عنده كتاب أهدى منه بأنه خلق أصول هذه المخلوقات الموجودة المشهودة في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وشرع لأهل الإيمان أن يجتمعوا كل أسبوع يوماً يعبدون الله

1 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، 342/2.

فيه ويحتفلون بذلك، ويكون ذلك آية على الأسبوع الأول الذي خلق الله فيه السماوات والأرض، ولما لم يُعرف الأسبوع إلا بخبر الأنبياء فقد جاء في لغتهم عليهم السلام أسماء أيام الأسبوع، فإن التسمية تتبع النصوص، فالاسم يعبر عما تصوره، فلما كان تصور اليوم والشهر والحول معروفاً بالعقل؛ تصورت ذلك الاسم وعبّرت عن ذلك، وأما الأسبوع فلما لم يكن في مجرد العقل ما يوجب معرفته فإنما عرف بالسمع، وصارت معرفته عند أهل السمع المتلقّين عن الأنبياء دون غيرهم، وحينئذٍ أخبروا الناس بخلق هذا العالم الموجود المشهود وابتداء خلقه، وأنه خلق في ستة أيام[1]. فالوثنيون المنقطعون عن الوحي لا يمكنهم معرفة تحديد تلك الأيام ولا التفريق بينها، وقد ذكر أن الشيوعيين في الاتحاد السوفييتي -إمعاناً منهم في الإلحاد-قد غيّروا أيام الأسبوع إلى خمسة أيام في بداية الثورة البلشفية، ثم إلى ستة أيام، وعادوا بعد ذلك إلى الأيام السبعة، وذلك أنهم بحكم إلحادهم ورفضهم لما له صلة بالدين وجدوا أن إثبات أيام الأسبوع نوع من الاعتراف بمصدرية الدين، وعلاقته بالحياة، لأنه دليل مادي على تسمية أيام الأسبوع وكونها سبعة أو خمسة أو ستة[2].

---

1 مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، 18/230-236.

2 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 100.

سادساً: الأرض خُلقت قبل السماوات

ومما يدل على أن الأرض خُلقت قبل السماوات، قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة فصلت: 9-12].

وفي الآيات الكونية إشارة إلى ثلاث حقائق كونية؛ خلق الأرض وتقدير الأقوات فيها في أربعة أيام قبل السماء، أصل الكون المادي من الدخان، الدورات التكوينية للأرض والسماء ومجموعها ستة أيام.

إن العلوم الفضائية والعلوم الطبيعية ما زالت تحاول التعرف على أصل الكون ونشأته، والمادة الأولية التي تتكون منها الأجرام السماوية، وطريقة تشكيلها، ولقد درسوا ملياً ما يقع على الكرة الأرضية من خارج مجالها من النيازك[1]، والأتربة الكونية، وما حصلوا عليه من قطع من سطح القمر، كل ذلك يؤكد وحدة أصل الكون المادي، وأصبح ذلك حقيقة علمية عندهم، ولكنهم لم يستطيعوا تحديد

---

1 النيزك: كتلة صلبة تخترق الغلاف الجوي وتصل إلى الأرض.

الحالة الأولية لهذه المواد التي كانت عليها قبل تجمعها في مجموعات من النجوم والكواكب والمجرات، ولن يستطيعوا ذلك إلا ظناً وتخميناً، قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [سورة الكهف: 51].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأصل الموحد وساق حقائق كونية في غاية الوضوح: قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 30-32]. ويفصّل في آيات أخرى مراحل الخلق والتكوين، فيقول جل جلاله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: 11].

وأما قوله سبحانه: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [سورة النازعات: 27-31]. وهو ما يوحي بأن السماء خلقت قبل الأرض، حيث قال سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فقد فرّق العلماء هنا بين الخلق والدَّحي، وأن الخلق غير الدَّحي، الذي يعني إخراج الماء والمرعى وإرساءها بالجبال، وفي هذا يقول ابن كثير: ففي هذه الآية أن دحي

الأرض كان بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس رضـــي الله عنهما فيما ذكره البخاري في تفســـير هذه الآية من صـحيحه قال: وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السـماء، ثم استوى إلى السـماء فســواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى: "دحاها". وقوله: "خلق الأرض في يومين"، فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلق السماوات في يومين[1].

إن الآيات في سـورة فصـلت بيّنت أن خلق الأرض ووضـع البركة فيها وتقدير الأقوات في أربعة أيام كل ذلك قبل تشـكيل السـماء وجعلها سـبع سماوات، وهذه الحقيقة لا يســتطيع العلم البشــري أن يصــل إليها إلا من طريق الوحي من خالق السماوات والأرض؛ لأن وسائل البشر محدودة، فلا يستطيعون أن يخترقوا بوسائلهم المادية حجب غيب الماضـــي ليعرفوا تكوين الأجرام الكونية الســـابق منها عن اللاحق[2].

وأما الحقيقة الثالثة في آيات سـورة "فصـلت"، فهي الدورات التكوينية للأرض والســـماء ومجموعها في ســـتة أيام، وقد اختلف المفســـرون قديماً في مقدار اليوم المقصود من الآيات الكريمة؛ فاليوم الاصطلاحي الذي ترتبط به الأحكام التكليفية

---

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 103.

2 المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص 26.

من الصوم والصلاة والعدة وغير ذلك هو من مطلع الفجر أو الشمس إلى غروبها، إلا أن هذه المدة الزمنية المعينة لا تقدر بهذا المقدار إلا بعد وجود الأرض والشمس ووجود دوراتهما في أفلاكهما، والحديث هنا عن خلق الأرض والسماء، فكيف تقدر قبل وجودهما؟

وإن هذا ما دفع بعض المفسرين للذهاب إلى تقدير تلك الأيام بفترة زمنية تتناسب مع أدوار التكوين، فعن مجاهد: يوم من الأيام الستة كألف سنة مما تعدون، وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: 47]. وجاء في سورة المعارج قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [سورة المعارج: 4].

ويَذهب علماء الفلك المعاصرون إلى ما يطلقون عليه "النسبة الزمنية"، وأن لكل كوكب وحدته الزمنية الخاصة به، وذلك يقدر بالنسبة لسبحها في الفضاء ودورانها في أفلاكها[1]. وإطلاق القرآن الكريم اسم اليوم على مقدار ألف سنة تارة وخمسين ألف سنة تارة أخرى يشير إلى مفهوم النسبية هذا. هذا ما جعل الباحثين في أصل تكوين الأجرام السماوية يطلقون اصطلاح الدورات التكوينية؛ فالدور الأول كون الأرض مع السماء رتقاً، والدور الثاني انفصال الأرض عن السماء، والدور الثالث والرابع هما دور تهيئة الأرض للحياة بإرساء الجبال فيها وتقدير

1 المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص 28.

الأقوات وخلق الحياة، إلا أن تقدير هذه الدورات بالمدد الزمنية تتفاوت أقوالهم فيها، وهم في ذلك يتّبعون الظن، وما هم بمستيقنين[1].

1. الأرضون سبع

ذكر الله سبحانه وتعالى أنه خلق سبع أرضين، كما خلق سبع سماوات، فقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: 12].

وفي الصحيح عن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين)[2]. قال ابن تيمية: وقد خلق الله سبع أرضين، بعضهن فوق بعض، كما ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من ظلم شبراً من الأرض طُوقه من سبع أرضين يوم القيامة)، وقد ذكر أبو بكر الأنباري الإجماع على ذلك، وأراد به إجماع أهل الحديث والسنة[3].

2. مدة خلق الأرض

بيّن الله عز وجل أنه خلق الأرض في يومين، وخلق سبحانه الجبال وقدّر أقوات الأرض ومصالحها في يومين آخرين، فاستغرق خلق الأرض وما فيها أربعة أيام،

---

1 مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، دار المسلم، الرياض، ط 2، 1416، ص 183.

2 فتح الباري شرح البخاري، ابن حجر، المرجع السابق، 338/1.

3 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 105.

كما قال سبحانه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [سورة فصلت: 9-10]. ففصّل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده السقف.

وقوله: "خلق الأرض في يومين" يعني يوم الأحد ويوم الاثنين. "وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها" أي: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، "وقدر فيها أقواتها" وهو ما يُحتاج إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس، يعني يومي الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة، ولهذا قال: "أربعة أيام سواء للسائلين". وقال مجاهد وعكرمة في قوله عز وجل: "وقدّر فيها أقواتها": جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها، ومنه العَصَبُ باليمن، والسابِرِيُّ بسابور، والطيالسة بالري[1].

وقال ابن كثير: "وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها" أي: هيّأ أماكن الزرع ومواضع العيون والأنهار، ثم لما أكمل خلق صورة العالم السفلي والعلوي دحى الأرض، فأخرج منها ما كان مودعاً فيها، فخرجت العيون وجرت الأنهار ونبت الزرع والثمار، ولهذا فسر الدحي بإخراج الماء والمرعى منها وإرساء الجبال، فقال: ﴿أَأَنْتُمْ

1 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، 93/4.

أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۞ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: 27-33]، أي: قررها في أماكنها التي وضعها فيها وثبّتها وأكّدها وأطّدها[1].

3. كروية الأرض

يشير القرآن الكريم في بعض من آياته إلى أن الأرض كروية الشكل، فهي بذلك ليست في حقيقتها ممتدة امتداداً ينتهي عند حافة من الحواف، كما كان يتصور الأقدمون ويعتقدون، ولكن الأرض ذات شكل بيضوي كالكرة، وذلك ما تقتضيه سنة الطبيعة في دورتها الرتيبة المنتظمة، وما تقتضيه عجلة الكون المتحرك الدقيق، ولو لم تكن الأرض على هذا النحو من الاستدارة لتعطّلت نواميس الخلق على هذا الكوكب، ولباتت الحياة على ظهره مشلولة أو مستحيلة، ومن الآيات الدالة على كروية الأرض قوله عز وجل: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [سورة يس: 40]. فقد جاء ذلك رداً على السابقين لفهمهم أن اليوم يكون مبدوءاً بالنهار ثم يعقبه الليل، فكأن الله سبحانه يقول لهم: لا يسبق النهار الليل، ولا يسبق الليل النهار، ولكنهما موجودان معاً وفي آنٍ معاً[2].

ومن المعلوم أن أجزاء الأرض تتفاوت فيما بينها من حيث إقبال النهار بضيائه

---

1 البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، 16/1.

2 معجزة القرآن، محمد متولي الشعراوي، المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 1978، ص 94.

أو حلول الليل بسواده، فبينما تزهو بقاع من الأرض بضياء الشمس تسكن بقاعٌ أخرى من الأرض بعد أن أرقدها الليل بظلامه، وذلك كله لا يقع بالتعاقب، ولكنه واقع في الآن نفسه، ما يدل على أن الأرض كروية؛ استناداً إلى الظاهر من دلالة النص القرآني: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [سورة الزمر: 5]. وقوله: "يكور" من التكوير؛ وهو اللفّ، تقول: كار الرجل العمامة كوراً بمعنى أدارها على رأسه، وكوّرت الشيء: إذا لففته على جهة الاستدارة، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [سورة التكوير: 1]. يعني: طويت كطي السجل[1]. ولابن جرير الطبري في تفسيره: "يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل" أي: يُغشي هذا على هذا، وهذا على هذا، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [سورة الحديد: 6][2].

يستفاد مما ورد في التكوير أن المراد به اللف على هيئة الاستدراة، وبذلك فإن تكوير الليل على النهار يعني انبساطه عليه بغشائه الملتف، وذلك على النحو المستدير، وفي ذلك دلالة على أن الأرض مستديرة في هيئتها طبقاً لصورة الغشاء الذي يلفّ الأرض لفّاً دائرياً على شكل الكرة[3].

ومن الآيات الدالة على دوران الأرض آيات إيلاج الليل في النهار، وإيلاج

---

1 المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، 205/2. أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 8، 2005، 134/2.

2 المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص 162.

3 جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، مرجع سابق، 123/9.

النهار في الليل؛ قال تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة آل عمران: 27]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحج: 61]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة لقمان: 29]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [سورة الحديد: 6]. والولوج لغة هو الدخول، ولما كان من غير المعقول دخول زمن على زمن آخر اتضح لنا أن المقصود بكل من الليل والنهار هو المكان الذي يتغشّاه زمن كل من الليل والنهار، أي: الأرض، بمعنى أن الله تعالى يدخل نصف الأرض الذي يخيّم عليه ظلام الليل بالتدريج في مكان النصف الذي يعمّه نور النهار، وهو ما يشير إلى كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس بطريقة غير مباشرة، ولكنها تبلغ من الدقة والشمول والإحاطة ما يعجز البيان عن وصفه[1].

ومن الآيات الدالة على دوران الأرض آية سلخ النهار من الليل؛ قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [سورة يس: 37]. ومعنى ذلك أن الله تعالى ينزع نور النهار من أماكن الأرض التي يتغشّاها الليل بالتدرج

---

1 من آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم، زغلول محمد النجار، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 2005، ص 268-270.

كما ينزع جلد الذبيحة عن كامل بدنها بالتدرج، ولا يكون ذلك إلا بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وفي هذا النص القرآني سبق بالإشارة إلى رقة طبقة النهار في نصف الكرة الأرضية المواجهة للشمس، وهي حقيقة لم يُدركها الإنسان إلا بعد زيارة الفضاء في النصف الثاني من القرن العشرين، واتضحت كذلك لمحة الإعجاز القرآني في تشبيه انحسار طبقة النهار الرقيقة من غلاف الأرض بسلخ جلد الذبيحة عن بدنها. وفيه تأكيد أن الظلام هو الأصل في الكون، وأن نور النهار ظاهرة رقيقة عارضة لا تظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض في نصفها المواجه للشمس، الذي يتحرك باستمرار مع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس[1]. ومن الآيات الدالة على دوران الأرض آية مرور الجبال مرّ السحاب:

يقول الخالق سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة النمل: 88]. ومرور الجبال مرّ السحاب هو كناية عن دوران الأرض حول محورها، وعن جريها وسبحها في مداراتها، وذلك لأن الجبال جزء من الأرض، ولأن الغلاف الغازي للأرض الذي يتحرك فيه السحاب مرتبط كذلك بالأرض برباط الجاذبية، وحركته منضبطة مع حركة كل من الأرض والسحاب المسخر فيه[2].

---

1 النجار، المرجع نفسه، ص 270-271.

2 المعجزة الخالدة، علي الصلابي، مرجع سابق، ص 164.

ومن الآيات الدالة على كروية الأرض ودورانها آيات غشيان الليل والنهار؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: 54]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الرعد: 3]، ومن معاني "يُغشي الليل النهار" أن الله يغطّي بظلمة الليل مكان نور النهار على الأرض بالتدريج فيصير ليلاً، ويغطّي بنور النهار مكان ظلمة الليل على الأرض بالتدريج فيصير نهاراً، وهي إشارة لطيفة إلى كل من كروية الأرض ودورانها، ودورانها حول محورها أمام الشمس دورة كاملة في كل يوم مدته في زمننا الحالي "24" ساعة، يتقاسمها بتفاوت قليل الليل والنهار، في تعاقب تدريجي ينطق بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة، فلو لم تكن الأرض كروية الشكل لما استطاعت الدوران حول محورها، ولو لم تدر حول محورها أمام الشمس لما تبادل الليل والنهار[1].

4. الأرض تتحدث وتخاف وتبكي

جاء الحديث القرآني عن الأرض كما لو أنها كائن حي ناطق، وفي أكثر من

---

1 من آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم، النجار، مرجع سابق، ص 272.

آية، والله سبحانه خلق الخلق وأودع فيهم ما يشاء من القدرة والحياة والفعل على الكيفية التي يريدها سبحانه، فقد قال الله تعالى وتقدس عن السماوات والأرض: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: 11]. قال الحسن البصري: لو أَبَيَا عليه أمرَهُ لعذَّبَهما عذاباً يجدانِ أَلَمَه[1].

كما أنها تتحدث يوم القيامة بما أحدث الناس على ظهرها من خير وشر، كما في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [سورة الزلزلة: 4]، أي: تحدّث بما عمل العاملون على ظهرها من خير وشر، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمَةٍ بما عمل على ظهرها؛ أن تقول عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها)[2].

ووصفها الله بالخوف والإشفاق والتأبّي تعظيماً لأمر الله، مع عدد من مخلوقاته العظيمة؛ حينما عرض سبحانه عليها أمانة التكليف، يقول عز وتقدس: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [سورة الأحزاب: 72].

ووصفها الله بالموت والحياة في مشاهد حسية حينما بلغها الجفاف والقحط،

---

1 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 113.

2 الخزعان، المرجع نفسه، ص 113. رواه الترمذي، رقم: 2429.

أو حينما ينزل عليها المطر فتنبت وتزدهر وتهتز بالعشب الأخضر الرفراف.

ووصفها بأنها تبكي، كما في قوله سبحانه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ [سورة الدخان: 29]، ففيه إثبات البكاء للسماء والأرض، وأنهما لا تبكيان على الكافرين بل تبكيان على فراق المؤمن الصالح في هذه الدنيا، وليس بالضرورة أن يكون هذا البكاء بدموع وأنين حتى يشبه بكاء الإنس والجن، ولكنه بكاء خاص بهما لا يعلمه إلا خالقهما[1].

يقول ابن تيمية: بكاء كل شيء بحسبه؛ قد يكون خشية لله، وقد يكون حزناً على فراق المؤمن[2]. وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل؟ وهذا تعبير عن مدى العلاقة الوثيقة بين هذه المخلوقات العظيمة وبين عباد الله الصالحين، وهي علاقة العبودية لله عز وجل، وأيّ معنى عظيم في هذه العلاقة التي تجعل المسلم منسجماً مع ما حوله من المخلوقات التي سخّرها الله عز وجل لعبادته؟! وأي حرمان وخسارة يعيشها الكافر والمنافق، بل وأصحاب المعاصي، وأي وحشة يجدونها بينهم وبين ما حولهم من خلق الله الذين يعبدون الله ويسبحونه، وهم يعصونه ويكفرون به؟[3]

1 عبودية الكائنات لرب العالمين، فريد إسماعيل التوني، رسالة ماجستير في العقيدة، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، فرع العقيدة، ص 334.

2 جامع الرسائل، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، دار العطاء، الرياض، ط 1، 2001، ص 37.

3 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 114.

قال ابن القيم: وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خُلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها؛ خلقها سبحانه فراشاً ومهاداً، وذلّلها لعباده، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم، وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم، وأرساها بالجبال، فجعلها أوتاداً تحفظها لئلا تميد بهم، ووسّع أكنافها ودحاها، فمدّها وبسطها، وطحاها فوسّعها من جوانبها، وجعلها كفاتاً للأحياء تضمّهم على ظهرها ما داموا أحياء، وكفاتاً للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا، فظهرها وطن للأحياء وبطنها وطن للأموات، وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض في كتابه، ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها[1].

قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [سورة الذاريات: 48]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [سورة غافر: 64]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [سورة البقرة: 22]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [سورة الغاشية: 17-20]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الجاثية: 3]. وهذا كثير في القرآن، فانظر إليها وهي ميتة هامدة خاشعة، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت فتحركت وربَت، فارتفعت واخضرّت وأنبتت من كل زوج بهيج، فأخرجت عجائب الأقوات على اختلافها، وتباين

---

1 مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، 199/1.

مقاديرها، وأشكالها، وألوانها، ومنافعها، والفواكه، والثمار، وأنواع الأدوية، ومراعي الدواب والطير. ثم قطعها المتجاورات، وكيف ينزل عليها ماء واحد فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة؛ واللّقاح واحد والأم واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد: 4]. فكيف كانت هذه الأجنّة المختلفة مودَعة في بطن هذه الأم؟ وكيف كان حملها من لَقاح واحد؟ صنع الله الذي أتقن كل شيء لا إله إلا هو، ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبّه إليه عباده وهداهم إلى التفكير فيه[1].

إن هذه الأرض هي مستقر بني آدم، فيها معاشهم ومسكنهم وموطن رزقهم وكدّهم وكسبهم، وهي مقرّ إقامتهم في هذه الحياة الدنيا، منها خُلقوا وإليها يعودون، ومنها يُخرجون للبعث والحساب، كانت أول ما خلق الله من هذا العالم المشهود قبل السماوات والشمس والقمر والنجوم والكواكب، وقبل الشجر والجبال والدواب، منها خلق آدم عليه السلام؛ فهي مخلوقة قبل خلق البشر، خلقها لهم لتكون مستقراً لهم، وإقامة في هذه الحياة الدنيا، وجعلها الله لهم فراشاً ومهاداً وذلولاً يمشون في مناكبها وأرجائها لتدبير معاشهم وتدبّر عظمة خالقهم، فهي مسكن هُيّئ لساكنيه قبل أن يوجدوا، ووُضع لهم فيه معاشهم وقِوام حياتهم قبل أن

---

1 مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، 1/199-200.

يُخلقوا، فسبحان الله المبدع القدير، العظيم في خلقه وأمره، الذي خلق فأبدع ودبّر فأحكم، علّم كل شيء قبل أن يكون، أحاط بكل شيء علماً، وجعل لكل شيء سبباً، جعلها الله دليلاً على قدرته وحكمته وبديع صنعه، وشاهداً على وحدانيته وعظمته في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته[1].

سابعاً: خلق الجبال

الجبال خلق من مخلوقات الله العظيمة، ذكرها الله في كتابه العزيز في أكثر من أربعين موضعاً؛ تتحدث عن صفاتها ووظائفها وخصائصها، وتدعو إلى التأمل فيها والتدبر في كيفية خلقها، وتشير إلى شيء من عظيم قدرة الله في تكوينه لها، وشدة بنائها، كما تتحدث عن مصيرها ومآلها يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات، وكيف تتحول هذه الجبال مع عظمتها وقوة خلقها هباء منبثاً وكالعهن المنفوش[2].

1. الجبال خلقت بعد الأرض

تشير الآيات القرآنية إلى أن خلق الجبال جاء بعد خلق الأرض؛ بمعنى أن الأرض خلقت أولاً، ثم خلقت فيها الجبال بعد ذلك، كما في قوله سبحانه: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 101.

2 الخرعان، المرجع نفسه، ص 117.

۞ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [سورة النازعات: 27-32].

وقد سبق القول -كما ذكر المفسرون-بأن الدحي هنا للأرض جاء بعد الخلق الأول لها، وبعد خلق السماء كذلك، وعلى هذا فخلق الجبال هو بعد الدحي ومرتبط به، قال به كثير.

"والجبال أرساها" أي: قررها وأثبتها وأكدها في أماكنها، عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت)[1].

وقد وصفها الله بأنها رواسٍ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 31]. وأنها رواسٍ شامخات كما في قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [سورة المرسلات: 27]. ووصفها بأنها أوتاد في قوله عز وجل: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [سورة النبأ: 7]. ودعا عز وجل إلى النظر إليها كيف نصبت في قوله:﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [سورة الغاشية: 19][2].

---

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 118. رواه أحمد، رقم: 12254.

2 الخرعان، المرجع نفسه، ص 118.

2. الجبال في منهج القرآن الكريم:

جاء حديث القرآن عن الجبال على وجوه كثيرة؛ منها:

- شــاهدة على تعنّت الفئة الكافرة التي رفضــت عبادة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ۝ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [سورة هود: 42-43].

- شاهدة على مهارة قوم صالح في النحت والصناعة، وشاهدة على تعنتهم وعصيانهم: قال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [سورة الحجر: 82-83].

3. عبودية الجبال لله

دلت النصوص الشرعية على أن الجبال تسجد لله تعالى وتُسبح وتخشع له، وأنها ثالث الكائنات التي عُرضت عليها الأمانة لحملها، وأنها جاءت بأفعال تدل على إدراكها، وإليك بيانها في النصوص:

أ. سجود الجبال لله تعالى:

ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ

حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة الحج: 18]، فهذه الآية عامة في إثبات السجود لله تعالى من جميع الكائنات، والعطف يفيد أنها جميعاً عابدة لله تعالى، فأما الكيفية فلا يعلمها إلا هو سبحانه. يقول ابن كثير رحمه الله عن سجود الجبال: "وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل"[1].

ب. تسبيح الجبال:

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء: 79]، وقال تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سورة سبأ: 10]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [سورة ص: 18]. فالتسبيح في الآيات السابقة هو على الحقيقة، فقد جعل الله سبحانه لها إدراكاً تسبّح به، واقترانها بالتسبيح مع داوُد عليه السلام وتسخيرها لذلك هو من باب إظهار معجزة هذا النبي عليه السلام، وكذلك استئناساً وإعانة له على التسبيح؛ بحيث تردد معه تسبيحه أو تسبح هي بأمره لها، فجعلها الله عز وجل مُسخَّرة لأمره عليه السلام[2]، فالنداء في قوله تعالى: "يا جبال" للخطاب لمن يُدرك.

---

1 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، 211/3. التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، مرجع سابق، ص 314.

2 عبودية الكائنات لرب العالمين، التوني، مرجع سابق، ص 315.

ونورد هنا أقوال بعض العلماء[1]: قال القرطبي رحمه الله: ذكر الله تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة؛ وهو تسبيح الجبال معه، قال مقاتل: كان داوُد إذا ذكر الله عز وجل ذكرت الجبال معه، فكان يفقه تسبيح الجبال. ثم قال رحمه الله: وإن ذلك تسبيح مقال على الصحيح من الأقوال، وكان عند طلوع الشمس وعند غروبها[2].

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: والتحقيق أن تسبيح الجبال والطير في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ تسبيح حقيقي؛ لأن الله جل وعلا يجعل لها إدراكات تسبّح بها، يعلَمُها هو جل وعلا ونحن لا نعلمها. كما قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [3] [سورة الإسراء: 44].

ت. خَشية الجبال:

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [سورة الحشر: 21]. فالله عز وجل يذكّر الناس بخشيته والخوف منه سبحانه، وذلك باجتناب المعاصي وفعل الطاعات، فيضرب الله تعالى مثلاً بقياس الأولى؛ فالجبل مع صلابته ومع افتراض نزول القرآن عليه فإنه يخشع لله تعالى، فالبشر مع تفضيل الله تعالى لهم على كثير من الكائنات أولى بأن يكونوا أكثر لله

---

1 التوني، المرجع نفسه، ص 315.

2 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، 159/15.

3 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1995، 672/4.

تعالى خشية[1].

يقول محمد الأمين الشـــنقيطي رحمه الله: فدل هذا كله على أنه تعالى وإن لم ينزل القرآن على جبل، لو أنزله عليه لرأيته كما قال تعالى: "خاشـعاً متصـدعاً من خشـــية الله"[2]. كما -ذكر رحمه الله تعالى-أمثلة أخرى لهذا التصـــدّع للجبال من خشيتها لله عز وجل، فيقول: وقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على أقل من هذا التصدع في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْـــفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَـــانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سـورة الأحزاب: 72]. فهذا نص صـريح بأن الجبال أشـفقت من حمل الأمانة، وهي أمانة التكليف بمقتضى خطاب الله تعالى لها، فإذا كانت الجبال أشفقت لمجرد العرض عليها فكيف بها لو أنزل عليها وكلفت بها[3]؟

إن القرآن تحدث عن الجبال بما لم يتصـــوره باحث، أو يقف عليه دارس، إنه حديث عن عبودية هذه المخلوقات لربها وخالقها ســبحانه، وذلها -على عظمتها وصــلابتها- بين يدي موجدها وبارئها، بل إنها لتندك لتجلّي ربها إعظاماً وإجلالاً وذلاً وخوفاً، كما في قصـة موسـى عليه السـلام عندما قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ

1 عبودية الكائنات لرب العالمين، التوني، مرجع سابق، ص 317.

2 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، مرجع سابق، 101/8.

3 عبودية الكائنات لرب العالمين، التوني، مرجع سابق، ص 317.

اسْـتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَـوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَـى صَـعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأعراف: 143].

وذلك أن الجبل حين كشـف الغطاء ورأى النور صـار مثل دك من الدكاك، وقال بعضـهم: "جعله دكاً" أي: فتّته. وقال مجاهد في قوله: "ولكن انظر إلى الجبل فإن اسـتقر مكانه فسـوف تراني"، فإنه أكبر منك وأشـد خلقاً، "فلما تجلى ربه للجبل" فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسـى ما يصنع الجبل فخرّ صعقاً[1].

ث. غضبة الجبال الكونية:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ شَـيْئًا إِدًّا ۝ تَكَادُ السَّـمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَـقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [سورة مريم: 88-91].

فكانت هذه الغضـبة الكونية التي اشـتركت فيها السـماوات والأرض والجبال حتى تحولت إلى زلزال كبير مدمّر بمجرد سماعهم لهذه الكلمة "وقالوا اتخذ الرحمن ولداً"، وكأن الكون كله قد تحول إلى أفواه مزمجرة تقول لهؤلاء المشركين: "لقد جئتم شيئاً إدّاً"، لقد اهتزَّ كل ساكن، وارتجَّ كل مستقر، وغضب كل ما هو داخل هذا الكون غضـباً شـديداً لبارئه وخالقه؛ لأن هذه الكلمة صـدمت كيانه وفطرته،

1 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 124.

وخالفت ما وقر في ضميره وعقله وما استقر في كيانه وحسّه، وهزت القاعدة التي قام عليها الوجود واطمأن إليها، قال تعالى: ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [سورة مريم: 91-92].

وفي وسط هذه الثورة العارمة تدوّي في جنبات الكون اللانهائي آيات بينات، تنزيل من حكيم حميد[1]. قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [سورة مريم: 93-95].

ج-إعجاز الحديث القرآني عن خلق الجبال:

حديث القرآن الكريم عن خلق الجبال كان حديثاً مفصلاً بكونها أوتاداً ورواسي، وأنها ذات ألوان مختلفة متنوعة، وهو ما لم تعرفه البشرية من قبل، ولم يتوصل له العلم الحديث إلا منذ ما لم يزد عن أربعين سنة فقط، يقول الدكتور زغلول النجار في معرض حديثه عن بعض الاكتشافات العلمية المتعلقة بالجبال: هذه المعلومات المكتسبة عن الجبال بدأ الإنسان في جمع أطرافها ببطء شديد منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ولم يتبلور مفهوم صحيح لها إلا في منتصف الستينات من القرن العشرين، عندما كان مفهوم تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض في مرحلة التبلور النهائي له، وفي المقابل نجد أن القرآن العظيم الذي أوحاه

---

1 المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص 169.

الله تعالى إلى خاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم يحوي من حقائق الكون – ومنها حديثه عن الجبال– ما لم يكن متوفراً لأحد في زمان نزوله، ولا لقرون متطاولة من بعد ذلك النزول[1].

ك. "والجبال أوتاداً":

تشـــير الآية إلى أن الجبال أوتاد للأرض، والوتد يكون جزء منه ظاهراً على ســـطح الأرض ومعظمه غائراً فيها، ووظيفته التثبيت لغيره، بينما نرى علماء الجغرافيا والجيولوجيا يعرّفون الجبل بأنه كتلة من الأرض تبرز فوق ما يحيط بها، وهو أعلى من التل[2]. ويقول د. زغلول النجار: إن جميع التعريفات الحالية للجبال تنحصـر في الشـكل الخارجي لهذه التضـاريس، دون الإشـارة لامتداداتها تحت السطح، والتي ثبت أخيراً أنها تزيد على الارتفاع الظاهر بعدة مرات[3]. ثم يقول: ولم تكشف هذه الحقيقة إلا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، عندما تقدم السير جورج آيري بنظرية مفادها أن القشرة الأرضية لا تمثل أساساً مناسباً للجبال التي تعلوها، وافترض أن القشرة الأرضية وما عليها من جبل لا تمثل إلا جزءاً طافياً على بحر من الصخور الكثيفة المرنة، ومن ثم فلا بد أن تكون للجبال جذور ممتدة

1 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 123، منقول بتصرف.

2 بينات الرسول ومعجزاته، عبد المجيد الزنداني، دار الإيمان، القاهرة، ص 88. لا تتوفر معلومات أخرى.

3 الزنداني، مرجع سابق، ص 88، منقول بتصرف.

داخل تلك المنطقة العالية الكاشفة؛ لضمان ثباتها واستقرارها[1].

وهذه الحقيقة العلمية لم تعرف إلا منذ أمد قصير؛ بعدما أمكن تصوير باطن الأرض بالوسائل الحديثة التي لم تكن معروفة قبل القرن العشرين، بل قبل النصف الأخير من هذا القرن، إذا وجد أن الجبل ليس هو الجزء الظاهر منه فوق سطح الأرض فقط، بل إنه مغروس كالوتد في باطن الأرض، وأن الجزء المغروس منه في باطن الأرض هو ما يثبت الجبل مكانه، وهذه الحقيقة لم تكن معروفة للعرب ولا لغيرهم وقت نزول القرآن، حتى يقال إن محمداً صلى الله عليه وسلم اقتبسها من علوم عصره، إنما هي إحدى الإشارات القرآنية الكونية التي وعد الله البشر بأنهم سيعلمونها يوماً من الأيام، ويعلمون أنها حق، ويتبينون أنها وحي من عند الله[2].

ولقد وصف القرآن الجبال شكلاً ووظيفة، فقال تعالى: ﴿وَالْجِبالَ أَوْتاداً﴾ [سورة النبأ: 7]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [سورة لقمان: 10]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُون﴾ [سورة الأنبياء: 31]. والجبال أوتاد بالنسبة إلى سطح الأرض؛ فكما يختفي معظم الوتد في الأرض للتثبيت كذلك يختفي معظم الجبل في الأرض لتثبيت قشرة الأرض. وكما تثبت السفن بمراسيها التي تغوص في ماء سائل، فكذلك تثبت قشرة الأرض بمراسيها الجبلية التي تمتد جذورها

1 لا يأتون بمثله، محمد قطب، دار الشروق، ط 1، 2002، ص 196.

2 محمد قطب، المرجع نفسه، ص 196.

في طبقة لزجة نصف سائلة تطفو عليها القشرة الأرضية[1].

وفيما يخص الجبال فثمة حقيقة؛ وهي أنها خُلقت من أجل ترسية الأرض ومنعها من أن تميد بالناس، فهي -بجذور أوتادها المغروسة في باطن الأرض- تحفظ توازن الأرض، وتجعلها مستقرة ليستطيع البشر أن يعيشوا فوقها، وينشطوا نشاطهم، ويبنوا ما يبنون من منازل ومنشآت، ولولاها لظلت الأرض تميد بالناس وترتجّ بهم ذات اليمين وذات الشمال، فتحدث الزلازل بين الحين والحين، وبصدد تلك الرواسي جاء في سورة الرعد: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الرعد: 3].

وهذه الآية وحدها تحمل حشداً من المعلومات العلمية متتابعة تتابعاً علمياً لم يكن يدركه الناس قبل اتساع معلوماتهم عن هذا الكون وما يجري فيه؛ فالرواسي -وهي الجبال- تحفظ توازن الأرض، وفي الوقت ذاته هي مصدات تصدّ الرياح المحملة ببخار الماء؛ فيصعد إلى الأعلى، فيبرد، فيتكاثف، فينزل إلى الأرض في صورة أمطار، ومن الأمطار الغزيرة تتولد الأنهار، ومن هنا نجد أن ذكر الأنهار بعد الرواسي ليس مجرد تعداد لآيات قدرة الله في الكون، وإنما هناك ترابط علمي بينهما، وهو ترابط السبب والنتيجة.

---

1 بينات الرسول ومعجزاته، الزنداني، مرجع سابق، ص 90.

ومرة أخرى يأتي الترابط العلمي فيما بين الأنهار والثمرات، فالأنهار هي التي تسقي الزروع فتنتج منها الثمار، وثمة حقيقة علمية أخرى؛ هي أن الثمرات أزواج، ولكن الذي يلفت النظر العلمي ذكر غشيان الليل النهار بعد ذكر الثمرات، وهذه حقيقة علمية لم تكن معروفة إلا أخيراً؛ وهي أن الثمرة تنمو في الليل، وأن غشيان الليل النهار أمر ضروري لإنضاج الثمرة، وأنه إذا لم يأخذ النبات حظه من الإظلام في الليل فإنه يضعف ويذوي[1].

هـ-زوال الجبال وفناؤها:

جاءت الآيات القرآنية الكريمة لتبين أن هذه الجبال يوم القيامة تكون كالصوف المنفوش، وأنها تسيّر، وأنها تُفتّت حتى تكون كالهباء المنبثّ في شعاع الشمس.

ويقال إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها، وإبراز ما كانت تواريه؛ فأول الصفات: الاندكاك، وذلك قبل الزلزلة، ثم تصير كالعهن المنفوش، وذلك إذا صارت السماء كالمهل، وقد جمع الله بينهما فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [سورة المعارج: 8-9]. والحالة الثالثة: أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطع بعد أن كانت كالعهن. والحالة الرابعة: أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارّة في

---

1 لا يأتون بمثله، قطب، مرجع سابق، ص 197.

موضــعها والأرض تحتها غير بارزة، فتنســـف عنها لتبرز، وذلك بإرســـال الرياح عليها.

والحالة الخامسة: أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعاً في الهواء، كأنها غبار، فمن نظر إليها من بُعد حســبها لتكاثفها أجســاداً جامدة، وهي في الحقيقة مارّة، إلا أن مرورها من وراء الرياح كأنها مندكة متفتتة. والحالة الســادسـة: أن تكون سراباً، فمن نظر إلى موضعها لم يجد منها شيئاً إلا كالسراب[1].

قال ابن القيم عن الجبال: هذا وإنها لتعلم أن لها موعداً ويوماً تنســـف فيها نسفاً، وتصير كالعهن من هوله وعظمته، فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له، وكانت أم الدرداء رضــي الله عنها إذا ســافرت فصــعدت على جبل تقول لمن معها: أسمعت الجبال ما وعدها ربها؟ فيقال: ما أسمعها؟ فتقول: ﴿وَيَسْـأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [ســورة طه: 105-107]. فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصــلبة، وهذه رقتها وخشـــيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته، وقد أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله، فيا عجباً من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال، تسمع آيات الله تتلى عليها، ويُذكر الرب تبارك وتعالى؛ فلا تلين ولا تخشع ولا تُنيب، فليس بمستنكَر على الله عز وجل ولا يخالف

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 127.

حكمته أن يخلق لها ناراً تذيبها؛ إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه، فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه، ولم يُنب إليه، ولم يُذبه بحبه والبكاء من خشيته، فليتمتع قليلاً فإن أمامه الملين الأعظم، وسيُرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم[1].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: 47].

إنه مشهد تشترك فيه الطبيعة ويرتسم الهول فيه على صفحاتها وعلى صفحات القلوب، إنه مشهد تتحرك فيه الجبال الراسخة فتسير، فكيف بالقلوب؟ وتتبدى فيه الأرض عارية، وتبرز فيه صفحتها مكشوفة لا نجاد فيها ولا وهاد، ولا جبال فيها ولا وديان. وكذلك تتكشف خبايا القلوب فلا تخفى منها خافية[2]، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: 18]. فالجبال الراسية قد نسفت نسفاً، وتحطمت بعد أن كانت حصوناً، وتساوت بالأرض بعد أن كانت تطاول السماء، وبعضها يبث كما يبث الدقيق، فيكون ذرات صغيرة متطايرة[3]. وقد قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [سورة الواقعة: 5-6]. إنه للهول الكبير الذي لا يبقي ولا يذر، إنها الواقعة الكبرى التي تبدل الأرض غير الأرض، والسماوات غير السماوات، والناس أين

---

1 مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، 220/1-221.

2 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 2274/4.

3 المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص 170.

هم[1]؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [سورة عبس: 34-37][2]. ومن مشاهد يوم القيامة العظيمة: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [سورة الحج: 2][3].

ثامناً: خلق السماوات

إن حديث القرآن الكريم عن قصة الخلق، لا سيما خلق السماوات والأرض، حديث تكرّر في العديد من آياته العظيمة، وتناول الكثير من التفاصيل التي يعجز البشر عن إدراكها أو الوصول إليها؛ كالحديث عن الكون ومادة تخلّقه وأول ما خُلق منه، وترتيب خلقه، كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: 9-11]. وقد نفى الله سبحانه وتعالى أن يكون لأحد

---

1 التفسير العلمي المعاصر، سليمان بن صالح القرعاوي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1425، ص 123.

2 المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص 170.

3 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 128.

معه نصيب في شهود هذه البداية العظيمة، فقال سبحانه: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [سورة الكهف: 51]. يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم؛ لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلق السماوات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبّرها ومقدّرها وحدي ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير[1].

يقول الدكتور زغلول النجار في هذا المعنى: إن قضية الخلق؛ خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، لا يمكن أن تخضع للإدراك أو للمشاهدة المباشرة من أي من الجن أو الإنسان، ولذلك لا يستطيع أي عالم تجريبي، بل أي إنسان، أن يتعدى فيها مرحلة التنظير، فلا يمكن لعالم يحترم نفسه أن يقول: نعم هكذا خُلق الكون أو هكذا سيفنى الكون، أو هكذا سيُعاد خلق الكون، فهذه القضايا لا تخضع للإدراك المباشر للعلماء، ولذلك لا يستطيع العالم التجريبي أن يتجاوز فيها مرحلة التنظير[2].

1. السماء والأرض كانتا ملتصقتين

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا

1 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، 3/89.

2 من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، زغلول راغب محمد النجار، دار المعرفة، ط 4، 2007، ص 37.

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 30].

ومن التفاسير لهذه الآية: "أولم يرَ الذين كفروا" أي: الجاحدون لألوهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المتفرد بالتدبير، فكيف يليق أن يُعبد معه غيره أو يشرك به سواه؟ ألم يروا: "أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما"؟ أي: كان الجميع متصلاً بعضه ببعض، متلاصقاً، متراكماً بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السماوات سبعاً والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. أيّ: وهم يشاهدون المخلوقات، تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء.

وفي كل شيءٍ له آيةٌ   تدلّ على أنّه واحدُ

"كانتا رتقاً ففتقناهما" قيل: كانت السماء واحدة ففتق منها سبع سماوات، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين. وقال الحسن وقتادة: كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء[1].

إن دراسات علماء الفلك والكون تؤكد أن الكون كان كتلة متماسكة حارّة، ثم بدأ بانفجار مدوٍّ عظيم أدّى إلى انفصال الكتلة الملتحمة وتفرقت أجزاؤها في

[1] صحيح تفسير القرآن العظيم، العدوي، مرجع سابق، 150/3.

أنحاء الفضاء، وكانت درجة الحرارة عالية جداً، ثم تبردت وانخفضت، هذا ما وصل إليه العلماء بعد دراسات حثيثة ومضنية[1].

2. السماء سقف الأرض

جعل الله السماء سقفاً للأرض، هيأها الله لعباده، وجعلها موضع عبرة ومحل تدبر وتفكر لعباد الله المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [سورة آل عمران: 190-191].

3. رفع السماوات بغير عمد

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الرعد: 2-3]. وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ

---

1 المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص 30.

الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سورة لقمان: 10-11].

وذكر المفســـرون تفســـيرين للآيات المتعلقـة بالعمـد؛ فمنهم من أثبـت أن السـماوات لها أعمدة إلا أنها لا تُرى، فمعنى الآية: الله الذي رفع السـماوات بغير عمد مرئية، وذلك بجعل جملة "ترونها" صـفة "العمد"، والضـمير يعود إلى "عمد". ومنهم من ذهب إلى أن السـماوات ليس لها عمد أصـلاً، ويكون معنى الآية: الله الذي رفع الســـماوات كما ترونها بغير عمد، وذلك بجعل جملة "ترونها" حالاً من السـماوات، وبعود الضـمير إلى السـماوات. ويميل علماء الفلك المعاصـرون إلى التفســير الأول؛ فيقولون: إن الأجرام الســـماوية كلها قد بناها الخالق عز وجل وجعل كل جُرمٍ بمنزلة لبنةٍ من بناء شـامخ، ورفع هذه الأجرام كلها بعضـها فوق بعض بقوى هي نوع القوة الطـاردة المركزيـة، كمـا ربطهـا في نفس الوقـت برباط الجاذبية العالية، والجاذبية تتعادل مع القوى الطاردة المركزية الناجمة عن الدورات في مسارات شبه دائرية، أو قطاعات ناقصة، وهي بمنزلة الأعمدة المقامة بالفعل، رغم أننا نبصـــرها بأعيننا فإن ذلك لا يعني أن تلك الأعمدة غير موجودة بحال من الأحوال، فنحن نسـتطيع أن نتصـورها في مجال كل جسـم مادي، وربما إذا منح شـخص منا حاسـة أخرى زيادة على ما لدينا من حواس يسـتطيع أن يرى تلك الأعمدة أو يحس بها تماماً، كما ندرك بحواسنا العادية أي جسم مادي أو عادي[1].

1 المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص 36.

يقول الدكتور زغلول النجار: تشـير الدراسـات الكونية إلى وجود قوى مسـتترة في اللبنة الأولية للمادة، وفي كل من الذرات والجزيئات، وفي كافة أجرام السـماء، تحكم بناء الكون وتُمسـك بأطرافه إلى أن يشـاء الله تعالى فيدمره، ويعيد خلق غيره من جديد، ومن القوى التي تعرّف عليها العلماء في كل من الأرض والسـماء أربع صور يعتقد أنها أوجه متعددة لقوة عظمى واحدة تسري في مختلف جنبات الكون لتربطه برباط وثيق، وإلا انفرط عقده؛ وهذه القوى هي: القوة النووية الشـديدة، والقوة النووية الضـعيفة، والقوة الكهربائية "المغناطيسـية والكهرومغناطيسـية"، وقوة الجاذبية. وهذه القوى الأربع هي الدعائم الخفية التي يقوم عليها بناء السـماوات والأرض، وقد أدركها العلماء من خلال آثارها الظاهرة والخفية في كل أشياء الكون المدركة، ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية أن هذه القوى الأربع لا بد أن تلتقي في شكل واحد للقوة يمثل وحدة البناء في هذا الكون، ويشـهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه[1].

4. امتناع سقوط السماء على الأرض:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الحج: 65].

1 الصلابي، المرجع نفسه، ص 37.

وهنا "ألم تر" أي: ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابغة وأياديه الواسعة؟ ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من حيوانات ونباتات وجمادات، فجميع ما في الأرض مسخّر لبني آدم؛ حيواناتها لركوبه وحمله وأعماله وأكله وأنواع انتفاعه، وأشجارها وثمارها يقتاتها، وقد سُلِّط على غرسها واستغلالها، ومعادنها يستخرجها وينتفع بها. "والفلك" أي: سخر الفلك، وهي السفن، "تجري في البحر بأمره": تحملكم وتحمل تجارتكم، وتوصلكم من محل إلى آخر، وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها، ومن رحمته بكم أنه: "ويمسك السماء أن تقع على الأرض" فلولا رحمته وقدرته لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك ما فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة فاطر: 41]. "إن الله بالناس لرؤوف رحيم" أرحم بهم من والدَيهم ومن أنفسهم، ومن رحمته أنه سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء[1].

لقد سخر الله ما في الأرض لهذا الإنسان، فجعل نواميسها موافقة لفطرته وطاقاته، ولو اختلفت فطرة الإنسان وتركيبه عن نواميس هذه الأرض ما استطاع الحياة عليها، فضلاً عن الانتفاع بها وبما فيها، وهو الذي خلق الكون وفق هذا النظام الذي اختاره له، وحكّم فيه تلك النواميس التي تظل بها النجوم والكواكب مرفوعة متباعدة، ولا تسقط ولا يصدم بعضها بعضاً، والله سبحانه هو الذي أنشأ

---

1 صحيح تفسير القرآن العظيم، السعدي، مرجع سابق، ص 633.

الناموس المنظِّم للوضع القائم، والله سبحانه "يمسك السماء أن تقع على الأرض"، يفعل ذلك الناموس الذي يعمل فيها، وهو من صـــنعه، "إلا بإذنه" وذلك يوم يعطّل الناموس الذي يُعمله لحكمة ويُعطله كذلك لحكمة[1]. وقد خلق الله السـماوات على هيئةٍ حسـنةٍ جميلة وزيّنها بالنجوم والكواكب ليعظُم الاعتبار بها والتفكُّر في خلقها[2].

فالله عز وجل أخبر عن خلق السـماوات وعظمة اتسـاعها وارتفاعها، وأنها في غاية الحسـن والبهاء والكمال والسـناء، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [سـورة الذاريات: 7]، أي: الخلق الحسـن. وقال تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [سورة الملك: 3-4]. أي: خاسئاً عن أن يرى فيها نقصاً أو خللاً، وهو حسير أي: كليل ضـعيف، ولو نظر حتى يعي ويكلّ ويضـعف لما اطلع على نقص فيها ولا عيب؛ لأنه تعالى قد أحكم خلقها، وزين بالكواكب أفقها، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [سورة البروج:1]، أي: النجوم، وقيل: محال الحرس التي يرمي منها بالشـهب لمسـترق السـمع، ولا منافاة بين القولين. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [سـورة الحجر: 16-17]، فذكر أنه زيّن منظرها بالكواكب الثوابت والسيارات،

---

1 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 2441/4.

2 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 139.

والشــمس والقمر والنجوم الزاهرات، وأنه صــان حوزتها عن حلول الشــياطين بها، وهو معنى: "وحفظناها من كل شيطان رجيم"، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّـمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۝ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [ســورة الصــافات: 6-8]. فســبحان المبدع العظيم الذي خلق فسوى، وقدر فهدى[1].

وخلق السماوات من العظمة والجلال بما لا يحيط به وصف، ولا يدركه حس، فهي من مخلوقات الله العظيمة الجليلة، وخلق الله فيها من المخلوقات ما لا يعلمه إلا الله سبحانه، ففيها من الملائكة الكرام ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، ويكفي في ذلك ما ورد عند البخاري رحمه الله في حديث المعراج؛ أن النبي صـــلى الله عليه وســـلم قال: (... فرفع لي البيت المعمور، فســـألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور، يصـــلي فيه كل يوم ســـبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم)[2]. فإذا كان هذا من أول الخلق، فســـبحان الله العظيم كم عدد ملائكة الله على عظمة خلقهم؟ وكم ســـعة هذه الســـماوات العظيمة التي اســـتوعبتهم عليهم الصـلاة والسـلام، وقد جاء في حديث آخر: (أطّتِ السـماء وحَقّ لها أن تئط، ما فيها موضـع أربع أصـابع إلا عليه ملك سـاجد...)، وإذا كان هذا واحداً من خلق الله الذي جعله في السـماء، فكيف بمخلوقات الله الأخرى التي لا يعلمها إلا هو؟

---

1 الخرعان، مرجع سابق، ص 140.

2 صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، رقم: (3207). ابن حجر، فتح الباري، 349/6.

ويكفي لمتأمل أن يتأمل في حديث المعراج، وما كشف للنبي صلى الله عليه وسلم مما في السماء من خلق[1].

ومن بديع خلق السماوات والأرض لونها الأزرق الجميل. يقول ابن القيم رحمه الله: ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر، وتقوية له، حتى إن من أصابه شيء أضرّ ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد، فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له[2].

تاسعاً: خلق الشمس والقمر

خلق الله الشمس والقمر -تلك الآيتين العظيمتين في فضاء السماء- ليتم بهما بناء الكون، وتستقر بوجودهما حياة الكائنات وتنمو، ليميز الله بهما بين الليل والنهار، والنور والظلام، فسبحان الخالق المبدع المصور المبدئ المعيد، ولم يأتِ الحديث عن خلق الشمس والقمر منفصلاً كما هو بالنسبة لخلق السماء والأرض، وإنما جاء حديث القرآن الكريم عن خلق الشمس والقمر تابعاً لحديثه عن خلق السماء والأرض في آيات كثيرة باعتبارهما جزءاً تابعاً لهما؛ من مثل قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [سورة نوح: 15-16]. وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 145.

2 مفاتيح دار السعادة، ابن القيم، 207/1.

السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [سورة الرعد: 2].

1. الشمس والقمر مخلوقان تابعين للسماء والأرض

والشمس والقمر مخلوقات مع السماوات والأرض، وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 33]. قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس: 38-40].

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي: دائماً تجري لمستقر لها، قدّره الله لا تتعداه، ولا تقصّر عنه، وليس لها تصرّف في نفسها ولا استعصاء على قدرة الله. ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ الذي بعزّته دبّر هذه المخلوقات العظيمة بأكمل تدبير وأحسن نظام، ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ الذي بعلمه جعلها مصالح لعباده، ومنافع في دينهم ودنياهم.

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ ينزلها؛ كل ليلة ينزل منها واحدة، ﴿ حَتَّى عَادَ ﴾ يصغر جداً فيعود ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ أي: عرجون النخلة الذي من قِدمه نشَّ

وصغر حجمه وانحنى، ثم بعد ذلك ما زال يزيد شيئاً فشيئاً حتى يتم نوره ويتسق ضياؤه، وكل من الشمس والقمر والليل والنهار قدَّره تقديراً لا يتعداه، وكل له سلطان ووقت، إذا وُجد عدم الآخر، ولهذا قال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾، أي: في سلطانه الذي هو الليل؛ فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل، ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه. ﴿ كُلٌّ ﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يترددون على الدوام. فكل هذا دليل ظاهر وبرهان باهر على عظمة الخالق وعظمة أوصافه، خصوصاً وصف القدرة والحكمة والعلم في هذا الموضع[1]. وقد قال الشاعر:

الشمس والبدر من أنوار حكمته	والبر والبحر فيضٌ من عطاياهُ
الطير سبَّحه والوحش مجَّده	والموج كبَّره والحوت ناجاهُ
والنمل تحت الصخور الصم قدَّسه	والنحل يهتف حمداً في خلاياهُ
والناس يعصونه جهراً فيسترهم	والعبد ينسى وربي ليس ينساهُ

ومن أوجه الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [سورة يس: 39]. أن التعبير بمنازل القمر يشير إلى مواقع القمر الثمانية والعشرين، وهي مواقعه اليومية المتتالية في السماء بالنسبة إلى نجوم

---

1 صحيح تفسير القرآن العظيم، السعدي، مرجع سابق، ص 819.

تبدو مواقعها قريبة ظاهرياً، فإن التعبير "منازل القمر" يمكن إطلاقه على مراحل القمر المتتالية، وعلى منازله المتوافقة مع تلك المراحل، وهناك ترابط شديد بين منازل القمر ومراحل أشكال القمر المتتالية؛ من الهلال الوليد، إلى التربيع الأول، إلى الأحدب الأول، إلى البدر، ثم الأحدب الثاني، ثم الهلال، ثم المحاق، إلى الهلال الوليد للشهر القمري الجديد. والقمر يبدأ ميلاده بهلال دقيق، ثم يندرج في النمو حتى يصبح بدراً كاملاً، ثم يعود التناقص بالحجم حتى يصير كالعرجون القديم، ثم يختفي لمدة يوم أو يومين في مرحلة المحاق[1]، وتتكرر هذه الدورة في كل شهر قمري حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وضوء الشمس يغمر نصف القمر باستمرار، فيعكس من فوق سطحه المظلم نوراً ينير ظلمة ليل الأرض، وكل ما يستطيع أهل الأرض إدراكه من هذا النور يختلف من يوم إلى يوم تبعاً لموضع كل من الأرض والقمر والشمس في صفحة السماء، والجزء المرئي من نور القمر قبل استكماله بدراً يعرف باسم "قوس النور". أما البدر الكامل فيعرف باسم "دائرة النور"، ونظراً لترنّح القمر في دورانه حول محوره، ولضخامة حجم الشمس بالنسبة إلى حجم القمر، فإن ضوء الشمس ينير أكثر من نصف سطح القمر بقليل، ولذلك لا يمكن أن يرى خيط رفيع من النور يحيط بالقمر عند ميلاد الهلال. وتقدير هذه المنازل القمرية فيه من الدلالة على طلاقة القدرة الإلهية ما فيه؛ لأهميته في معرفة الزمن وتقديره وحسابه باليوم

---

1 المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص 42.

والأسبوع والشهر والسنة، وفي التأريخ للعبادات والأحداث والمعاملات والحقوق، ولما فيه من تأكيد ضبط سرعة القمر ضبطاً دقيقاً من أجل الحيلولة دون ارتطامه بالأرض فيفنيها وتفنيه، أو انفلاته من عقال جاذبيتها فينتهي إلى نهاية لا يعلمها إلا الله، وفي نفس الوقت الارتباط الدقيق بين سرعة دوران كل منهما حول محوره، فإذا زادت إحداهما قلّت الأخرى بنفس المعدل، ولما كانت سرعة دوران الأرض حول محورها في تناقص مستمر بمعدل جزء من الثانية في كل قرن من الزمن، فإن سرعة دوران القمر في تزايد مستمر بنفس المعدل تقريباً، ما يؤدي إلى تباعد القمر عن الأرض بمقدار ثلاثة سنتيمترات في كل سنة، وهذا التباعد سوف يُخرج القمر في يوم من الأيام من مسار جاذبية الأرض ليدخله في نطاق جاذبية الشمس فتبتلعه، تحقيقاً للواقعة القرآنية التي يصفها الحق عز وجل: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [سورة القيامة: 7-9].

ومن هنا كانت هذه الإشارة القرآنية المعجزة التي وصفت مراحل القمر المتتالية في كل شهر، التي يقول فيها ربنا عز وجل: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [سورة يس: 39].

ومن المعجزات القرآنية في هذا الباب وصف المرحلة الأخيرة من مراحل الدورة الشهرية للقمر بالعرجون القديم، وهو العنقود من الرطب "العذق" إذا يبس وانحنى واصفرّ لونه، وهو عند يبوسه على النخل ينحني تجاهها، فكذلك الهلال الثاني ينحني بطرفيه تجاه الأرض، وأما الهلال الوليد فينحني بهما بعيداً عنها، فما أروع

التشبيه القرآني المعجز[1].

2. ضياء الشمس ونور القمر

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يونس: 5].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ ، يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه؛ أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء، وجعل القمر نوراً، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل، وقدّر القمر منازل؛ فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكتمل بدره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر. كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس: 39-40]، وقوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [سورة الأنعام: 96].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَقَدَّرَهُ ﴾ أي: القمر، ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ؛ فبالشمس تعرف الأيام، ويسير القمر وتعرف الشهور

1 من آيات الإعجاز العلمي في السماء، زغلول راغب محمد النجار، دار المعرفة، بيروت، ط 4، 2007، ص 522.

والأعوام. ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي: لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [سورة ص: 27]. وقوله ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أي: يبين الحجج والأدلة، ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ وتقول المعارف الحديثة إن القمر جرم بارد لا حرارة فيه، وإنه يكتسب أشعته ونوره من جرم آخر، ثم يعكسه إلى الأرض، وإن الشمس مضيئة إضاءة ذاتية بأشعة حارة، ولذلك وصفها الله تعالى "بالتوهج" في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [سورة النبأ: 13]. وهذه هي الحقيقة العلمية لكل من الشمس والقمر[1].

وانطلاقاً من هذه الحقائق العلمية التي تمايز بين الضوء الصادر من جسم مشتعل ملتهب مضيء بذاته في درجات حرارة عالية، وبين الشعاع المنعكس من جسم بارد، فيتلقى شعاع الضوء فيعكسه نوراً، ركّز القرآن الكريم باستمرار على التمييز الدقيق بين ضياء الشمس ونور القمر، وبين كون الشمس سراجاً وكون القمر نوراً، فقال عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يونس: 5]، وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [سورة نوح: 15-16]، وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا

---

1 المعجزة القرآنية الإعجاز العلمي والغيبي، محمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة، 1989، ص 188.

وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [سورة الفرقان: 61].

وقابل القرآن الكريم الظلمات بالنور وليس بالضـــياء في آيات كثيرة؛ من مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [سـورة الأنعام: 1]. ووصـف الشـمس بأنها ســراج وهاج، فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا سِــرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [ســورة النبأ: 13]. وحينما وصــف خاتم أنبيائه صــلى الله عليه وســلم بأنه ســراج، بمعنى أنه مضــيء بذاته، أضـــاف إلى وصـــف الســـراج بأنه منير بهداية ربه المنزلة عليه، فقال عز سلطانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِــرَاجًا مُنِيرًا﴾ [ســورة الأحزاب: 45-46]. وحينما وصــف النار وصــفها بالضــياء، ووصــف أشــعتها الســاقطة على ما حولها بالنور، فقال عز من قائل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَـاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِـرُونَ﴾ [سـورة البقرة: 17]. ووصـف أشـعة البرق بأنها ضـوء، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَـاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَــمْعِهِمْ وَأَبْصَـارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: 20].

ووصـف ذاته العليّة عز وجل بأنه نور السـماوات والأرض، وأعطى مثلاً لذلك النور الإلهي، ولله المثل الأعلى، ووصـف في هذا المثل الزيت بأنه يضـيء، ووصـف ســقوط ضــوئه على ما حوله بالنور، قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّـــمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور:35]. وقال عن غيبة الشمس: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [سورة القصص: 71]. وإن هذه الدقة البالغة في التفريق بين الضوء المنبعث من جسم ملتهب مشتعل مضيء بذاته، وبين سقوط هذا الضوء على جسم مظلم بارد وانعكاسه نوراً من سطحه؛ بطريقة مطردة في كل القرآن الكريم، لا يمكن أن يكون لها مصدر من قبل ألف وأربعمائة سنة إلا الله الخالق، فهذا الفرق الدقيق لم يدركه العلماء إلا في القرنين الماضيين، ولا يزال في زماننا كثير من الناس لا يدركونه[1].

3. تسخير الشمس والقمر

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [سورة الرعد: 2]. ومن معاني تسخير الشمس والقمر ضبط حركة كل منهما لما فيه صلاح الكون واستقامة الحياة على الأرض[2].

---

1 المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص 49.

2 الصلابي، مرجع سابق، ص 49.

وجاءت الإشـارات القرآنية إلى تسـخير كل من الشـمس والقمر وإلى جريهما لأجل مسمى في أربعة مواضع من القرآن الكريم على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [سورة الرعد: 2]. وقال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [سورة فاطر: 13]. وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [سورة الزمر: 5]. وكذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة لقمان: 29].

ومعنى ذلك أن كلاً من الشمس والقمر يجري إلى نهايته المختومة بقيام الساعة، وأن هذا الأجل المسمّى صورة من صور التسخير، والساعة لا تأتي إلا بغتة، كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا

بَغْتَةً يَسْـــأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: 187].

ولذلك فقد أبقى ربنا تبارك وتعالى في صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يؤكد لكل ذي بصيرة حتميةَ فناء كل من الشمس والقمر، فتفقد في كل ثانية من عمرها على هيئة طاقة تعادل "4.6" ملايين طن من كتلتها، ما يعني أن الشـمس تحترق بتدرج واضـــح ينتهي بها حتماً إلى الفناء التام، ولكن الآخرة لن تنتظر فناء الشـــمس باحتراقها بالكامل، وذلك لأن الآخرة أمر إلهي "كن فيكون"، وعلى ذلك لا تأتي إلا بغتة دون انتظار لحركة السنن الراهنة التي أبقاها الله تعالى شاهدة على حتمية الآخرة، وإن كانت الآخرة لن تتم بوساطتها[1].

وقد ثبت أن الأرض تفقد بدورانها حول محورها -بفعل كل من الأمواج البحرية، خاصــة عمليتي المد والجزر في البحار الضـــحلة، وحركة الرياح- ما يقدَّر بنحو واحد من الألف من الثانية من سرعتها في كل قرن من الزمان، وهذا النقص في سرعة دوران الأرض حول محورها -على ضآلته- يؤدي إلى تزايد مطرد في سرعة دوران القمر حول محوره، ما يدفعه إلى التباعد عن الأرض بمعدل ثلاثة سنتيمترات في كل ســنة، ويقدر علماءُ الفلك أن هذا التباعد التدريجي للقمر ســوف يُخرجه حتماً في لحظة من اللحظات من نطاق أســر الأرض إلى نطاق جاذبية الشـــمس

1 من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص 586.

فتبتلعه، وتكون في ذلك نهايته الحتمية، وهنا تكفي الإشارة إلى سبق القرآن الكريم بتقرير حتمية ابتلاع الشمس للقمر من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [سورة القيامة: 7-9].

4. الشمس والقمر آيتان لحساب الأيام والشهور والأعوام

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [سورة الإسراء: 12]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [سورة يونس: 5]. وهما آيتان صريحتان في هذا المعنى، وقال بعض المفسرين في تفسير قوله سبحانه: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [سورة الرحمن: 5]. ما يشير إلى معنى كونهما للحساب، قال القرطبي: يعني أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدرِ أحد كيف يحسب شيئاً لو كان الدهر كله ليلاً أو نهاراً[1]. وقد خلق الله الشمس والقمر لحكم عظيمة من أعظمها كونهما آيتين لمعرفة الزمن، ففي حركة الشمس اليومية يعرف زمن النهار؛ أوله، ووسطه، وآخره، وما بينهما، وقد كان الأولون يعرفون الزمن بحركة الظل، وموضع الشمس من السماء من جهة

---

1 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، 153/17.

المشرق أو المغرب، كما يعرف بالقمر توقيت الشهر منذ إهلاله وحتى يصير بدراً، ثم تضاؤله، كما يعرف أيضاً الشهر بوقت شروقه وغروبه[1].

قال ابن القيم: تأمّل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معايشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور؟ ثم تأمل الحكمة في غروبهما، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس، ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول وما فيها من المصالح والحكم، إذ لو كان الزمان كله فصلاً واحداً لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه؛ فلو كان صيفاً كله لفاتت مصالح الشتاء، ولو كان شتاءً لفاتت مصالح الصيف، وكذلك لو كان ربيعاً كله أو خريفاً كله، ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والإضاءة، وكيف جعل لهما بروجاً ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السنة وتمام مصالح حساب العالم الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه، فبذلك يعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون والإجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك.

---

1 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 153.

ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قَدره العزيز العليم سبحانه، فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات؛ لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر، وكان يكون الليل سرمدياً على من لم تطلع عليهم، والنهار سرمدياً على من هي طالعة عليهم، فيفسد هؤلاء وهؤلاء[1]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: 189].

وهذان المخلوقان على عظمتهما "الشمس والقمر" وجلال نفعهما، منقادان خاضعان لله عز وجل ولسلطانه، ذليلان مستسلمان لأمره وقدره، شأنهما في ذلك شأن كل مخلوقات الله التي تسلّم قيادها لربها ذلاً وخضوعاً واستسلاماً، شرعاً وقدراً، فقد ذكر المفسرون أن لهما أجلاً ينتهيان إليه، وساعة يتوقفان عندها بأمر الله عز وجل[2]. جاء عند القرطبي من معاني قوله تعالى:﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [سورة الرحمن: 5] "بحسبان" تقدير آجالهما، أي تجري بآجال كآجال الناس، فإذا جاء أجلهما هلكا، نظيره: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [سورة لقمان: 29]. وقال الضحاك: بقدر[3].

---

1 مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، 1/207-209.

2 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 156.

3 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، 17/153.

عاشراً: خلق الليل والنهار

خلق الله الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصـــنوعاته، ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [سورة فصلت: 37]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّـــمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْـــبَحُونَ﴾ [ســـورة الأنبياء: 33]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [سورة يونس: 10]. وهذا كثير في القرآن، فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضـــمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكناً ولباساً يغشى العالم فتسكن فيه الحركات، وتأوي الحيوانات إلى بيوتها والطير إلى أوكارها، وتستجم فيه النفوس وتستريح من كدّ السعي والتعب، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معايشها وتصرفها جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار، يقدُمُ جيشَه بشيرُ الصباح، فهزم تلك الظلمة ومزّقها كل ممزق، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون، فانتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه، وخرجت الطيور من أوكارها، فيا له من معاد دالّ على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر، وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً منعها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم، ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة، ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلُّف ذلك، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهذا أيضـــاً من آياته الباهرة أن يعمي عن هذه الآيات الواضـــحة البينة من شـــاء من

خلقه، فلا يهتدي بها ولا يبصرها؛ كمن هو واقف في الماء إلى حلقه، وهو يستغيث من العطش وينكر وجود الماء[1].

وفي تعاقب الليل والنهار ما يدعو إلى التدبر والاعتبار بتصرم الأيام وتبدل الأحوال، فكم من أصبح غنياً وأمسى فقيراً، وكم من أمسى عزيزاً وأصبح ذليلاً. وقد فاضل الله بين بعض الليالي وبين بعض الأيام، فخصّ الليل بالقيام والنهار بالصيام، وجعل في بعض الليالي من الخصائص والأمور العظيمة ما لم يجعله في النهار[2].

والليل عظيم قدره، أمر نبيَّه صلى الله عليه وسلم بقيامه، فقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [سورة الإسراء: 79]. وقال: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ [سورة المزمل: 2]. ومدح المؤمنين على قيامه فقال: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [سورة السجدة: 16]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [سورة المزمل: 6-7]. والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات

---

1 مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، 1/203-204.

2 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 176.

المعاش[1].

كما خص الله الليل بأن جعل منه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [سورة القدر: 1-5]. وهي الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: 3-4]؛ أيّ: في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السَّنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها، ﴿حَكِيمٍ﴾ أيّ: محكم لا يبدل ولا يغير[2].

كما أن الليل وقت خلوة المؤمنين بربهم وانطراحهم بين يديه وتضرعهم إليه، فهو كذلك كان وقت مناجاة المؤمنين من عذاب الله الذي ينزله بالقوم الكافرين، كما في قصة لوط وقصة موسى عليهما السلام، قال سبحانه عن لوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [سورة الحجر: 65]. كما قال عن موسى عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ [سورة الدخان: 23].

---

1 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، 435/4. قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 176.

2 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 168.

وهو كذلك موعد اللقاء العظيم والرحلة الجليلة المباركة لسـيد الأولين والآخرين محمد عليه الصـــلاة والســـلام، تلك الرحلة العظيمة التي طويت له فيها الأرض ومعارج السـماء، فرأى من آيات ربه الكبرى؛ إنها رحلة الإسـراء والمعراج، قال عز وجل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سـورة الإسـراء: 1]، إذن، إنها علاقة وثيقة بين هذا الكون بما فيه من أرض وسماء وليل ونهار وبين عباد الله المؤمنين، إنها علاقة تربطهم بالخالق الواحد والإله العظيم؛ الذي خلق وصـــور، فأحكم خلقه وأبدعه، فسبحانه من خالق عظيم ورب كريم[1].

الحادي عشر: خلق النجوم

النجوم من مخلوقات الله العظيمة وآية من آياته الباهرة، والنجوم خلق جميل بلألائه بديع بنوره وسـنائه، أقسـم الله به وبمواقعه، وتحدث عن حكمة خلقه؛ زينة للسـماء، وهداية للسـائرين، ورجوماً للشـياطين، وذكر سـجوده لربه وخضـوعه لسـلطانه، فأقسـم الله بها، كما في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [سـورة الطارق: 1-3]. وكما في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [سورة الواقعة: 75]. وإن مواقع النجوم في السماء، فأقسم الله بها قسماً مغلّظاً، وبيّن أن هذا القسم جليل عظيم لو كنتم تعرفون قدره، أقسم

---

1 الخرعان، المرجع نفسه، ص 169.

بأن هذا القرآن كتاب كريم، جمّ الفوائد والمنافع؛ لاشتماله على أصول الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق، والمعاملات، وعلى غير ذلك من أمور الغيب وضوابط السلوك، وقصص الأنبياء، وأخبار الأمم السابقة والعبر المستفادة منها، وعلى عدد من حقائق ومظاهر الكون الدالة على وجود الله وعظيم قدرته وكمال حكمته وإحاطة علمه، ويأتي جواب القسم: بأن الله تعالى قد تعهد بحفظ هذا الوحي الخاتم في كتاب واحد مصون بقدرة الله، ومحفوظ بحفظه من الضياع والتبديل والتحريف، وهو المصحف الشريف الذي لا يجوز أن يمسّه إلا المطهرون من جميع صور الدنس المادي، أي: المتوضئون الطاهرون، ولا يستشعر عظمته وبركته إلا المطهرون من دنس الشرك والكفر والنفاق ورذائل الأخلاق؛ لأن هذا القرآن الكريم هو وحي الله الخاتم المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم، وهو معجزته الخالدة إلى يوم الدين، أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وربنا سبحانه هو الإله الخالق رب السماوات والأرض ومن فيهن، وقيوم الكون ومليكه سبحانه، يقول عز وجل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الواقعة: 57-80].

وهذا القسم القرآني بمواقع النجوم يُشير إلى سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى إحدى حقائق الكون المبهرة، التي مفادها أنه نظراً للأبعاد الشاسعة التي تفصل نجوم السماء عن أرضنا، فإن هذا الإنسان على هذه الأرض لا يرى النجوم أبداً،

ولكنه يرى مواقع مرّت بها النجوم ثم غادرتها، وفوق ذلك أن هذه المواقع كلها نسبية وليست مطلقة؛ لأن الضوء كأي صورة من صور المادة والطاقة لا يستطيع أن يتحرك في صفحة السماء إلا في خطوط منحنية، وعين الإنسان لا ترى إلا في خطوط مستقيمة، وعلى ذلك فإن الناظر إلى النجوم من فوق سطح يراه على استقامة آخر نقطة ينحني ضوء إليها، فيرى موقعاً وهمياً للنجم من غير الموقع الذي انشق منه ضوءه، فنظراً لانحناء الضوء في صفحة السماء فإن النجوم تبدو لنا في مواقع ظاهرية غير مواقعها الحقيقية. ليس هذا فحسب، بل إن الدراسات الفلكية الحديثة قد أثبتت أن نجوماً قديمة قد خبت أو تلاشت منذ أزمنة بعيدة، والضوء الذي انبثق منها في عدد من المواقع التي مرت بها لا يزال يتلألأ في ظلمة السماء في كل ليلة من ليالي الأرض إلى اليوم الحالي، ومن هنا كان هذا القسم القرآني بمواقع النجوم وليس بالنجوم ذاتها، على عظم قدر النجوم، التي كشف العلم عنها أنها أفران نووية كونية عجيبة يخلق الله تعالى لنا فيها كل صور المادة والطاقة التي ينبني منها هذا الكون المدرك، ثم إن عدد ما أحصاه علماء الفلك من النجوم في الجزء المدرك من السماء الدنيا إلى يومنا هذا تعدى سبعين مليار تريليون نجم[1].

1. ماهية النجوم

إن النجوم هي أجرام سماوية منتشرة في السماء الدنيا؛ كروية، أو شبه كروية،

---

1 من آيات الإعجاز العلمي في السماء، زغلول النجار، مرجع سابق، ص 197.

غازية، ملتهبة، مضيئة بذاتها، متماسكة بقوة الجاذبية على الرغم من بنائها الغازي، هائلة الكتلة، عظيمة الحجم، عالية الحرارة بدرجة مذهلة، وتشع موجات كهرومغناطيسية على هيئة الضوء المرئي وغير المرئي بجميع موجاته. ويمكن بدراسة ضوء النجم الواصل إلينا التعرف على العديد من صفاته الطبيعية والكيميائية؛ من مثل درجة لمعانه، وشدة إضاءته، ودرجة حرارته، وحجمه، ومتوسط كثافته، وكتلته، وتركيبه الكيميائي، ومستوى التفاعلات النووية فيه، وموقعه منا، وسرعة دورانه حول محوره، وسرعة جريه في مداره، وسرعة تباعده عنّا أو اقترابه منا، إلى غير ذلك من الصفات[1].

2. الشمس نجم عادي من نجوم السماء الدنيا

الشمس هي النجم الذي تتبعه أرضنا فتدور حوله مع باقي أفراد المجموعة الشمسية، وتدور معه حول مركز المجرة، ومع المجرة حول مراكز أعلى بالتدريج إلى نهاية لا يعلمها إلا الله، والشمس أقرب نجوم السماء إلينا، ويُقدَّر بعدها عنا بنحو مائة وخمسين مليوناً من الكيلومترات، ويقدر نصف قطرها بنحو سبعمائة ألف كيلومتر[2].

وتجري الشمس ومعها مجموعتها الشمسية في صفحة الكون بسرعة تقدر بنحو 19 كيلومتراً في الثانية نحو نقطة في كوكبة هرقل بالقرب من نجم النسر الواقع، وهي

1 من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص 197.

2 من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص 201.

تسـمى علمياً باسـم "قمة الشـمس"، ولعلها هي ما يسـميها خالقها عز وجل في محكم كتابه باسم "مستقر الشمس"، كما تجري الشمس ومعها مجموعتها الشمسية بســرعة تقدر بنحو "220" كيلومتراً في الثانية حول مركز مجرتنا درب التبانة، لتتم هذه الدورة في "225" مليون ســنة من ســنين الأرض، وأقرب كواكب المجموعة الشمسية إلى الشمس، وهو كوكب عطارد، يبعد عنها بنحو "58" مليون كيلومتر، ويعتقد حسابياً أن هناك كوكباً أبعد من بلوتو، ولكن لم يرصد بعد.

وإذا خرجنا عن نطاق المجموعة الشـمسـية فإن هذه المقاييس الأرضـية لا تفي بقياس المســافات التي تفصــل بقية نجوم الســماء الدنيا عنّا، فاتفق العلماء على وحدة قياس كونية تعرف باسـم السـنة الضـوئية، وهي المسـافة التي يقطعها الضـوء بسرعته المقدرة بنحو ثلاثمائة ألف كم/ثانية في سنة من سنيننا، وهي مسـافة تقدر بنحو "9.5" مليون مليون كيلومتر[1].

3. المجرات تجمعات للنجوم

المجرات هي نظم كونية شاسعة تتكون من التجمعات النجمية والغازات والغبار الكونيين "الدخان الكوني"، بتركيز يتفاوت من موقع لآخر في داخل المجرة، وهذه التجمعات النجمية تضـم عشـرات البلايين إلى بلايين البلايين من النجوم في المجرة الواحدة، وتختلف نجوم المجرة في أحجامها، ودرجات حرارتها، ودرجات لمعانها، وفي

1 النجار، المرجع نفسه، ص 203.

غير ذلك من صـــفاتها الطبيعية والكيميائية، وفي مراحل دورات حياتها وأعمارها؛ فمنهـا النجوم المفردة، والمزدوجـة، والعـديـدة، والعمـاليق الكبـار، والأقزام الحمر، والنجوم القزمة البيضـاء والبُنيّة والسـوداء، والنجوم النيوترونية، والثقوب السـوداء، وأشباه النجوم، وغيرها مما يتخلق باستمرار من الدخان الكوني، ويُفنى إليه.

ومن المجرات ما هو حلزوني الشـكل، ومنها ما هو بيضـاوي، ومنها ما هو في حجمها أو أصغر منها، وتتبع مجرتنا ما يعرف باسـم "المجموعة المحلية"، وهي عبارة عن تجمع محلي لعدد من المجرات، وقد يتجمع عدد أكبر من المجرات على هيئة أكبر تعرف باســـم "عنقود مجري"، كما يتجمع عدد من العناقيد المجرية على هيئة عنقود مجري عملاق يضم عشرات الآلاف من المجرات[1].

وبالإضافة إلى المجرات وتجمعاتها المختلفة في الجزء المدرك من السماء الدنيا فإننا نرى السـدم؛ وهي أجسـام دخانية عملاقة بين النجوم، وقد تتخلق بداخلها النجوم، وعلى ذلك فمن السدم ما هو مضيء وما هو معتم[2].

- من أسباب القسم بمواقع النجوم:

نظراً للأبعاد الشـاسـعة التي تفصـل نجوم السـماء عنا فإنه لا يمكن لنا رؤية النجوم من على سطح الأرض أبداً ولا بأي وسيلة مادية، وكل الذي نراه من نجوم

1 من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص 205.

2 النجار، المرجع نفسه، ص 205.

السماء هو مواقعها التي مرت بها ثم غادرتها، إما بالجري في الفضاء الكوني بسرعة مذهلة، أو بالانفجار والاندثار، أو بالانكسار والطمس.

فالشمس -وهي أقرب نجوم السماء إلينا- تبعد عنا بمسافة مائة وخمسين مليون كيلومتر، فإذا انبثق منها الضوء بسرعته المقدرة بنحو ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية من موقع معين مرّت به الشمس، بسرعة تقدر بنحو (19) كيلومتراً في الثانية، فإن ضوءها يصل إلى الأرض بعد ثماني دقائق وثلث الدقيقة تقريباً، بينما تجري الشمس بسرعة تقدر بنحو (19) كيلومتراً في الثانية في اتجاه نجم النسر الواقع، فتكون الشمس قد تحركت لمسافة لا تقل عن عشرة آلاف كيلومتر عن الموقع الذي انبثق منه الضوء، ونحن لا نرى ضوءها إلا على هيئة صورة وهمية للموقع الذي انبثق منه الضوء الذي رأيناه[1].

وتتغير مواقع النجوم من لحظة إلى أخرى بسرعات تتناسب مع سرعة تحرك النجم في مداره، ومعدلات توسع الكون وتباعد المجرات عنا، والتي يتحرك بعض منها بسرعات تقترب أحياناً من ثلاثة أرباع سرعة الضوء، وأبعد نجوم مجرتنا عنا يصل ضوءه بعد ثمانين ألف سنة من لحظة انبثاقه من النجم، بينما يصلنا ضوء بعض النجوم البعيدة عنا بعد بلايين السنين، وهذه المسافات الشاسعة مستمرة في الزيادة مع الزمن؛ نظراً لاستمرار تباعد المجرات بعضها عن بعض بسبب اتساع

---

1 من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص 206.

الكون، ومن النجوم التي تتلألأ أضـواؤها في سماء ليل الأرض ما ثبت علمياً أنه قد انفجر وتلاشى، أو طمس واختفى منذ ملايين السنين؛ لأن آخر شعاع انبثق منه قبل انفجاره أو طمسه لم يكن قد وصل إلينا بعد، والضوء القادم منه قد يعبّر عن ماضٍ قد يقدر بملايين السنين[1].

ثبت علمياً أن الضوء مثل المادة ينحني أثناء مروره في مجال تجاذبي مثل الكون، وعليه فإن موجات الضـوء تتحرك في صـفحة السـماء الدنيا في خطوط منحنية، يصفها القرآن الكريم بـــ "المعارج"، ويصف الحركة ذاتها بالعروج، وهو الانعطاف والخروج عن الخط المسـتقيم، كما يمكن أن يفيد معنى الصـعود في خط منعطف، ومن هنا كان وصـف رحلة المصـطفى صـلى الله عليه وسـلم في السـماوات العلى بـ"العروج"، وسميت الليلة باسم "المعراج"، والجمع "معارج ومعاريج".

وحينما ينعطف الضوء الصادر من النجم في مساره إلى الأرض فإن الناظر من الأرض يرى موقعاً للنجم على استقامة بصره، وهو موقع يغاير موقعه الذي صدر منه الضـوء، ما يؤكد مرة أخرى أن الإنسـان من فوق سـطح الأرض لا يمكنه أن يرى النجوم أبداً[2].

إن النجوم في داخل المجرة الواحدة مرتبط بعضـهـا ببعض بالجاذبية المتبادلة بينها، التي تحكم مواقع النجوم وكتلها، فمع تسليمنا بأن الله تعالى هو الذي يمسك

---

1 النجار، المرجع نفسه، ص 206، 207.

2 المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص 76.

السماء والأرض أن تزولا، كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة فاطر: 41]. ويقول ربنا: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ [سورة الحج: 65]. إلا أن الله تعالى له سننه التي يحقق بها مشيئته، وهو القادر على أن يقول للشيء "كن فيكون"، وهو تعالى وضع للكون هذه السنن المتدرجة لكي يستطيع الإنسان فهمها ويتمكن من توظيفها في حسن القيام بواجب الاستخلاف في الأرض، فمواقع النجوم على مسافات تتناسب تناسباً طردياً مع كتلتها، ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقوى الجاذبية التي تمسك بها في تلك المواقع، وتحفظ السماء أن تقع على الأرض إلا بإذن الله، ومن هنا كانت قيمة مواقع النجوم التي كانت من وراء هذا القسم القرآني العظيم.

أثبتت دراسات الفلك ودراسات كل من الفيزياء الفلكية والنظرية أن الزمان والمكان شيئان متواصلان، ومن هنا كانت مواقع النجوم المترامية الأبعاد تعكس أعمارها الموغلة في القدم، التي تؤكد أن الكون الذي نحيا فيه ليس أزلياً، إذ كانت له بداية يحددها الدارسون باثني عشر بليوناً من السنين على أقل تقدير، ومن هنا كان في القَسم بمواقع النجوم إشارة إلى قدم الكون مع حدوثه، وهي حقائق لم يتوصل إليها العلم المكتسب إلا بنهاية القرن العشرين[1].

1 من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص 208.

فســبحان الله العليم الحكيم القائل في محكم كتابه: ﴿فَلَا أُقْسِــمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَــمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الواقعة: 75-80].

4. وظائف النجوم:

وقد بين الله ســـبحانه الحكمة من خلقها، وبيّن وظيفتها في الكون في ثلاث وظائف؛ فقد خلقها لتكون آية على عظمته وقدرته يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وتُعرف بها الجهات شمالها وجنوبها وشـرقها وغربها، فقال سـبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [ســورة الأنعام: 97]. وخلقها زينة للســـماء وجمالاً، فقال عز وجل: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّـمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [سـورة الصـافات: 6]. وقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [سورة الملك: 5][1].

إن النجوم من آيات الله الدالة عليه الســاجدة له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْـجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّـمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّـجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة الحج: 18]. وهو سبحانه مع ذلك قد جعل

---

1 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 172.

فيها منافع لعباده، وسخّرها لهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [سورة إبراهيم: 33]. وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: 54]. وقال: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة لقمان: 20][1].

الثاني عشر: خلق الرياح

مخلوق عجيب نحسّ به ولا نراه، ويمتلئ به المكان من حولنا، لكنه لطيف رقيق لا يزاحم أحداً ولا يصبر عنه كائن حيّ، إنه الهواء الذي جعله الله عنصراً للحياة لا يستغني عنه الإنسان، وكل كائن حي قد يصبر عن الماء والطعام ساعات وربما أياماً، لكنه لا يستغني عن الهواء دقائق معدودة، فسبحان الله الخالق العظيم.

إن خلق الهواء هو جزء من خلق هذا الكون، وهو محيط بالأرض، غير أنه يتناقص كلما ارتفع الإنسان إلى الأعلى، كما أثبت العلم الحديث، لا سيما مع توفر إمكانيات الطيران والصعود إلى طبقات الجو العليا، حيث برز فرع من فروع الطب يسمى "طب الفضاء"، فيقول العلماء: إذا ارتفع الإنسان فوق خمسة وعشرين ألف قدم دون حماية من قلة الضغط وندرة الأكسجين فسيموت في الحال، وتتوقف أجهزته؛ مثل الجهاز العصبي، والجهاز التنفسي، فيختنق الإنسان

1 الخرعان، مرجع سابق، ص 175.

وينتهي[1]، وهذا مصداق قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنعام: 125].

وقد جعل الله هذا الهواء عنصراً أساسياً من عناصر الحياة؛ فبه يتنفس الإنسان والحيوان وذوات الأرواح من الطيور والحشرات، كما لا يستغني عنه النباتات في حياته ونموه وانتشاره، حتى الحيوانات في البحر لا تعيش بدونه، وقد يسر الله لها من الخياشيم ما يجعلها تستخلص الهواء من الماء وهي في أعماق البحر وظلماته[2].

إن الرياح هي هواء متحرك وهي موجودة في الحياة فوق البسيطة، ولم يستأثر بها أحد دون الآخر، وما ملَّك الله الرياح أو وكَّل بها أحداً من الناس، بل زمام أمورها وتصريف حركتها وشؤونها بيد الخالق الرحيم[3]. وقد قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: 164]. وقال تعالى: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الجاثية: 5]. والرياح قوة من قوى هذا الكون، وجند من جنود الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة المدثر: 31]. والله عز وجل يرسلها في صورة ما

---

1 من آيات الإعجاز في القرآن الكريم، النجار، مرجع سابق، 2/ 178.

2 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 178.

3 الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، مروان وحيد شعبان التفتنازي، دار المعرفة للطباعة والنشر، 2006، ص 309.

من صورها في الوقت المقدر على من يريد به الهلاك والدمار أو الحياة أو الرحمة[1].

ويرى بعض العلماء أن عامة المواضـــيع التي ذكر الله تعالى فيها الرياح بلفظ الواحد هي للتعبير عن العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [سـورة القمر: 19]، وفي الحديث عن غزوة الأحزاب قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [سورة الأحزاب: 9].

وشـــبه الحق أعمال الكفرة بالرماد الذي تشـــتدّ به الريح، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّـذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَـالُهُمْ كَرَمَـادٍ اشْـتَـدَّتْ بِـهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَـاصِـفٍ﴾ [سـورة إبراهيم: 18]. وكذلك قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَـابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [سورة آل عمران: 117].

المواضع التي ذكرت فيها الريح بلفظ "الرياح" تدل على رحمته عز وجل

قـال تعـالى: ﴿وَهُوَ الَّـذِي أَرْسَـلَ الرِّيَاحَ بُشْـرًا بَيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِـهِ﴾ [سـورة الفرقان: 48]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَـلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّـمَاءِ مَاءً فَأَسْـقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [سـورة الحجر: 22]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِـلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [سورة الروم: 46]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [سورة الروم: 48]. فالأظهر فيه الرحمة، وقرئ بلفظ الجمع[2].

---

1 التفسير العلمي المعاصر، القرعاوي، مرجع سابق، ص 162.

2 مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط 1، 1412هـ، ص 370.

ويعلق القرطبي على هذه القضية فيقول: فمن وحّد الريح، فلأنه اسم للجنس ويدل على القليل والكثير، ومن جمع فلاختلاف الجهات التي تهب منها الرياح، ومن جمع مع الرحمة ووحد مع العذاب فإنه فعل ذلك اعتباراً بالأغلب في القرآن: ﴿ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾[سورة الروم: 46] و﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: 41]، فجاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة، مفردة مع العذاب، إلا في يونس في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [سورة يونس: 22]. وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا هبّت الريح: (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً)[1]. وذلك لأن ريح العذاب شديدة ملتئمة الأجزاء كأنها جسم واحد، وريح الرحمة لينة متقطعة؛ فلذلك هي الرياح، فأفردت مع الفلك في سورة يونس لأن ريح إجراء السفن إنما هي ريح واحدة متصلة، ثم وصفت بالطيب ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب[2]. وإنها لدقة عالية في التعليل لدى القرطبي؛ فالريح هي التي تحمل الدمار والخراب والشر، وشدة قوتها واتصال أجزائها لا يشعر بها الناس، حتى إذا ما وصلت إليهم ونسفت قواعدهم، ودمرت منازلهم، تراهم قد أصيبوا بالهلع والذعر، وربما الزوال، أما الرياح فهي النسيم العليل الحافل بالخير والبركة والهدوء والمطر والراحة النفسية، والطمأنينة القلبية، فتبارك الله الذي جعل للهواء جناحين؛ جناح رحمة

---

1 أحمد بن علي أبو يعلى، مسند أبي يعلى رقم: (2456)، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط 4، 1984.

2 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، 198/1.

وجناح عذاب[1]. **وقد ورد ذكر الريح والرياح في القرآن على وجوه عديدة منها:**

1.رياح النصر

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: 9].

2.مسيّرات السفن في البحار

هي سبب لتحريك السفن على وجه الماء، وبدونها تبقى راكدة دون حراك، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سورة الشورى: 32-33].

3.معنى نسمات الرحمة

قال تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: 57]. فالله عز وجل هو الذي يرسل الرياح، فهي لا ترسل من غيره ولا تُرسل من تلقاء نفسها، ولكن الله سبحانه هو الذي يرسلها، يرسلها بالرحمة لعباده محمّلة بالأمطار، ولا تتنزل إلا

---

1 الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، التفتنازي، مرجع سابق، ص 312.

بأمره ولا تهطل إلا بإرادته، فهي متناســـقة مأمورة حتى تأتي الأرض الموات فتهبط بأمر ربها لإحيائها عندما تكون قد أدّت ما أُمرت به، وتُخرج الأرض -بأمر الله تعالى- الغلال والثمار، وهذه الدورة التي قامت بها الريح والأرض في إخراج الثمر وتقديم العطاء ليس فيها عسر ولا نصب، ولا يكتنفها جهد ولا مشقة؛ لأنها تسير بقوة الله التي لا تُغلب، وبأمره الذي لا يختلف ولا يتوقف: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: 82].

كذلك قضـــية البعث، وقضـــية إحياء الموتى، وقضـــية جمع الذرات المتناثرة والأشلاء المتباينة؛ هينة على الله الذي خلقها من عدم، وهو قادر على إعادتها بعد تفرق. عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسـول الله كيف يعيد الله الخلق، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: (أما مررت بوادي قومك جدباً، ثم مررت به يهتز خضـــراً؟ قال نعم، قال: فتلك آية الله في خلقه)[1].

وقيل وجه التشـــبيه أن إحياءهم من قبورهم يكون بمطر يبعثه الله على قبورهم فتنشـــق عنهم القبور، ثم تعود إليهم الأرواح، ثم يقول الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: 24].

ومن فوائد رياح نســـمات الرحمة أنها تحمل البشـــرى والخير والبركة للخلائق ساكني الأرض، ولها وظائف أخرى سخّرها الله عز وجل لمصلحة عباده؛ ومن تلك

1 المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط 2، 470/19. القرعاوي، التفسير العلمي المعاصر، مرجع سابق، ص 168.

الوظائف ما ذكره الحق عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة الروم: 46].

ووفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾: فالرياح تبشّر بالمطر، وهم يعرفون الريح الممطرة بالخبرة والتجربة فيستبشرون بها، "وليذيقكم من رحمته": بآثار هذه البشرى من الخصب والنماء. "ولتجري الفلك بأمره": سواء بدفع الرياح لها أو بتكوين الأنهار من الأمطار فتجري فيها السفن، وهي تجري مع هذا بأمر الله ووفق سنته التي فطر عليها الكون، وحسب تقديره سبحانه، فقد أودع كل شيء خاصيته ووظيفته، وجعل من شأن هذا أن تطفو الفلك على سطح الماء فتسير، وأن تدفعها الرياح فتجري مع التيار أو ضد التيار، وكل شيء عنده بمقدار[1].

4. إنها بمعنى "العذاب في العقوبة"

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [سورة الأحقاف: 25-26]. وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [سورة الذاريات: 41-42].

---

1 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 2774/5.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۝ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [سورة القمر: 19-20].

تقول الروايات إنه أصابهم حر شديد، واحتبس عنهم المطر، وانتشر الحر والجفاف، ثم ساق إليهم سحابة ففرحوا بها فرحاً شديداً، وخرجوا يستقبلونها في الأودية وهم يحسبون فيها الماء، قائلين: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [سورة الأحقاف: 24]. وجاءهم الرد من الخالق المبدع: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [سورة الأحقاف: 24-25]. وهي الريح الصرصر العاتية التي ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [سورة الذاريات: 42].

وتُصور الآيات أن الريح حية مدركة مأمورة بالتدمير: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [سورة الأحقاف: 25]، وهذه هي الحقيقة التي يجب أن يعيها الناس؛ فهذا الوجود حي، وكل قوة من قواه واعية، وكلها تدرك عن ربها، وتتوجه لما تُكلَّف به من لدنه، والإنسان أحد هذه القوى، وحين يؤمن حق الإيمان، ويفتح قلبه للمعرفة الواصلة، يستطيع أن يعي عن القوى الكونية من حوله، وأن يتجاوب مع الحياة والإدراك، ففي كل شيء روح وحياة، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق، والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأستار التي تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار، وقد أدت الريح ما أمرت

به؛ فدمرت كل شيء فأصبحوا لا يرون إلا مساكنهم[1].

5. إنها بمعنى "القوة والدولة"

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [سورة الأنفال: 45-46]. أي: تذهب قوتكم ونصركم، والقوة عز لأهلها، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وقال الإمام الشافعي:

إِذا هَبَّتْ رِياحُكَ فَاغْتَنِمْها	فَعُقْبَى كُلِّ خافِقَةٍ سُكُوْنُ
ولا تغفل عن الإحسان فيها	فلا تدري السكونُ متى يكونُ[2]

6. إنها بمعنى "اللواقح"

هو كذلك سبب لإثارة السحاب وتلقيحه وتسييره من مكان إلى مكان آخر، ومن بلد إلى بلد آخر، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [سورة الروم: 48]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [سورة الحجر: 22]. بيّنت هذه الآية أن إنزال الماء من السماء بتلقيح

---

1 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 2267/6. القرعاوي، التفسير العلمي المعاصر، مرجع سابق، ص 166.

2 التفسير العلمي المعاصر، القرعاوي، مرجع سابق، ص 163.

الرياح للسحب وتزويد السحب بقطرات الماء، وهذه حقيقة مشاهدة أثبتها علماء المناخ وأفاضوا في الحديث عنها.

يقول القرطبي: معنى لَوَاقِحَ: حوامل؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع، وجعل الريح لاقحاً لأنها تحمل السحاب، أي: تقلّه وتصرفه، ثم تمر به فتستدرّه، أي: تنزله[1].

وقال الطبري: اختلف أهل العربية في وصف الرياح باللقاح، وإنما هي ملقحة، لا لاقحة، وذلك أنها تلقح السحاب والشجر، وإنما توصف باللقح الملقوحة لا الملقح، كما يقال: ناقة لاقح. وبعد أن ذكر أقوال العلماء قال: والصواب في ذلك عندي أن الرياح لواقح، كما وصفها به جلّ ثناؤه من صفتها، وإن كانت قد تلقح السحاب والأشجار، فهي لاقحة ملقحة، ولقحها: حملها الماء، وإلقاحها السحاب والشجر: عملها فيه، وذلك كما قال عبد الله بن مسعود[2].

- **ويمكن أن نستخلص من معطيات الآية القرآنية ما يلي:**

إن الله عز وجل أرسل الرياح وسخّرها لمنافع العباد، وصورة المنفعة في هذه الآية أنها تعمل على التلقيح ﴿ لَوَاقِحَ ﴾، والتلقيح يكون للأشجار والسحب معاً، إلا أن الآية هنا تتحدث عن تلقيح الرياح للسحب فقط، ولقد صرف وجه الإعجاز في هذه الآية عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين على أن المقصود

---

1 تفسير سورة الحجر، القرطبي.

2 جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، مرجع سابق، 14/14.

باللواقح تلقيح الزرع والشجر، والذي يتمعّن في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ يجد أنها تستوعب كلا المعنيين، لكن لا ينبغي أن نغفل الجزء الثاني من الآية؛ وهو قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾، فلو أن ما ذهبوا إليه من أن الرياح تلقح الأشجار فقط لاستلزم المعنى واقتضى السياق القرآني أن يُبنى عليه إخراج الزروع والثمار بدل إنزال الماء، أما وأن القرآن قد رتّب وعقب على إرسال الرياح اللواقح إنزال الماء من السماء ليسقيه الناس فقد تحتّم أن يكون المقصود باللواقح تلقيح الرياح للسحب لإنزال المطر، ويتضح الربط هذا من الفاء، التي ربطت بين السبب والمسبب، وأقامت العلاقة المتينة بين العلة والمعلول، ليكون المعنى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهذا هو وجه من وجوه الإعجاز القرآني في هذا الصدد، وهذا ما أثبته علماء المناخ[1].

ويذكر الدكتور زغلول النجار في حديثه عن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم أن هناك ثلاثة أنواع من التلقيح التي تتم في السحب؛ تلقيح السحب الحارة بالسحب الباردة، ما يزيد عملية التكاثف ومن ثم نزول المطر. وتلقيح السحب موجبة الشحنة بالسحب سالبة الشحنة فيحدث تفريغ وشرر كهربائي، فيكون المطر مصحوباً بالبرق والرعد، وهو صوت تمدد الهواء الناجم عن التفريغ. والتلقيح الثالث -وهو أهم أنواع التلقيح جميعاً- أنّ الرياح تلقح السحاب بما ينزل بسببه المطر، إذ إن نويات التكاثف، وهي النويات التي تتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتكون

---

1 الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، التفتنازي، مرجع سابق، ص 315.

نقطاً من الماء نامية داخل السحب، هي المكونات الأولى من المطر تحملها الرياح إلى مناطق إثارة السحب، وقوام هذه النويات هي أملاح البحار، وما تذرّه الرياح من سطح الأرض والأكاسيد والأتربة كلها لازمة للأمطار، وهذه هي فكرة المطر الصناعي؛ عندما تقوم بعض الطائرات برش السحب التي سبق أن تكونت ببعض المواد تعمل كنويات تكاثف، يتكاثف عليها المطر ويهطل، أي إن الرياح عامل أساسي في تكوين السحب وتلقيحها ونزول المطر، ودائماً ما يربط القرآن بين الرياح والمطر[1]. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: 57].

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله كلاماً عجيباً عن الهواء ووظائفه ومنافعه، وأنه وسيلة اتصال بالمفهوم الحديث لهذا المعنى؛ ينقل الكلام من مكان لآخر، كما ذكر وظائف ومنافع أخرى له غير ذلك، فقال: ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح، فإنه حياة هذه الأبدان، والممسك لها من داخل بما تستنشق منه، ومن خارج بما تباشر به من روحه فتتغذى به ظاهراً وباطناً، وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها وتؤديها للقريب والبعيد، كالبريد والرسول الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل؛ وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها، ينقلها من موضع إلى موضع، فتأتي العبد الرائحة من حيث تهب الريح، وكذلك تأتيه الأصوات، وهو أيضاً الحامل للحر

1 موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد السقا، ص306-307.

والبرد وما هُيئ له من الرحمة والعقاب.

وتأمل كم سُخر للسحاب من ريح حتى أمطر، فسُخّرت له "المثيرة" أولاً فتثيره بين السماء والأرض، ثم سُخرت له "الحاملة" التي تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية، ثم سُخرت له "المؤلّفة" فتؤلف بين كسفه وقطعه، ثم يجتمع بعضها إلى بعض فتصير طبقاً واحداً، ثم سُخرت له "اللاقحة" بمنزلة الذكر الذي يلقح الأنثى فتلقحه بالماء، ولولاها لكان جهاماً لا ماء فيه، ثم سُخرت له "المُزجية" التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أُمر فيفرغ ماءه هنالك، ثم سُخرت له بعد إعصاره "المفرّقة" التي تبثّه وتفرقه في الجو فلا ينزل مجتمعاً، ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات، بل تفرّقه فتجعله قطراً، وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات، ولولاها لكانت عقيماً، وكذلك الرياح التي تسيّر السفن، ولولاها لوقفت على ظهر البحر.

ومن منافعها أنها تبرد الماء وتُضرم النار التي يراد إضرامها، وتجفّف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها، وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح؛ فإنه لولا تسخير الله لها لعباده لذَوى النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وأنتن العالم وفسد؛ ألا ترى إذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذي لو دام لأتلف النفوس، وأسقم الحيوان، وأمرض الأصحاء، وأنهك المرضى، وأفسد الثمار، وعفن الزرع، وأحدث الوباء في الجو؟ فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته

ولطفه ونعمته، كما قال النبي في الرياح إنها من روح الله تأتي بالرحمة[1].

الثالث عشر: خلق السحاب والرعد والبرق والصواعق

إن من مخلوقات الله عز وجل في هذا الكون العجيب السحاب والرعد والبرق والصواعق، وهي خاضعة لقوانينه وقدرته ومشيئته وفق حكمته وعلمه سبحانه وتعالى.

1. السحاب

تحدث الله سبحانه وتعالى عن السحاب، وهو نوعان:

أ. السُحب البسيطة

ذكر هذا النوع في القرآن الكريم، وهي كما يفهم من اسمها تظهر بشكل طبقات تحجب السماء بأكملها، ولا توجد لها حدود واضحة، ويمكن تشبيهها بالضباب المرتفع، وهي من السحب المنخفضة، وقد تصل قاعدتها في بعض الأحيان إلى سطح الأرض فتظهر بشكل ضباب، وقد يحدث أن تتكون من الضباب نفسه عندما يرتفع بتأثير حرارة الشمس أو الرياح أو كليهما، وهي من السحب التي قد يصحبها هطول خفيف من الرذاذ أو حبيبات الثلج، ويكون الهطول عادة متصلاً أو منقطعاً، ومنها ما يكون رقيقاً شفافاً لا يحجب الشمس، ومنها ما يكون سميكاً معتماً، والنوع السميك منها يصاحبه في المعتاد هطول من

---

1 مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، 216/1-217.

المطر أو الثلج أو خليط منهما[1].

وفي هذا النوع قال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [سورة الروم: 48].

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾: وفق ناموسه في تكوين هذا الكون وتنظيمه وتعريفه. ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾: بما تحمله من بخار الماء المتصاعد من كتلة الماء في الأرض. ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ ﴾: ويفرشه ويمده. ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾: بتجميعه وتكثيفه وتراكمه بعضه فوق بعض، أو يصطدم بعضه ببعض، أو تنبعث شرارة كهربائية بين طبقة منه وطبقة، أو كسفة منه وكسفة. ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾: وهو المطر يتساقط من خلال السحاب. ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ لا يعرف هذا الاستبشار على حقيقته كما يعرفه الذين يعيشون مباشرة على المطر[2].

ليس في الكلام مثل هذا الكلام من حيث جمال التعبير واكتمال المعنى، ومن حيث المرونة في العرض الذي يستقيم به المعنى لكل ذي لبّ من الناس، سواء كان في الزمان الغابر وما فيه من بدائية المعرفة، أو كان في زماننا هذا بما فيه من ظواهر مذهلة في العلم والاختراع أو تقدم مثير في الخبرات والنظريات العلمية. إن كلاماً

1 الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، التفتنازي، مرجع سابق، ص 324.

2 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 2775/5.

يسـمو فوق آفاق العقول في عامة الأدهار، وينسـجم تمام الانسـجام مع المعطيات الكونية التي يتوصـــل إليها الإنســـان رويداً رويداً، إن هذا الكلام بهذه الطريقة والكيفية في العرض لا جرم أن يكون من عند الله وأنه معجز[1].

ب. السحب الركامية

تتكون من تراكم السـحب وركوب بعضـها على بعض، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَـحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّـمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِـيبُ بِهِ مَنْ يَشَـاءُ وَيَصْـرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَـاءُ يَكَادُ سَـنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَـارِ﴾ [سـورة النور: 43]. وتمثل هذه الآية الكريمة إعجازاً علمياً رائعاً في علم المناخ والرياح وتكوين السـحب الركامية؛ فهي تتحدث عن تكوين السـحب الركامية، التي تبدأ بدفع الرياح للسـحب رويداً رويداً. ثم تأتي المرحلة الثانية التي تتمثل بتأليف وجمع قطع السحاب، ثم تصبح هذه القطع مركومة بعضـها فوق بعض، وعملية الركم هذه تتبع نزول المطر، وبسـبب التراكم التقاعدي تنشـأ جبال سـيارة من البَرَد، ونويات البَرَد هذه محصـورة في السـحب الركامية، ولم نقرأ في السحب البساطية أنها تحتوي على البَرَد أو البرق أو الرعد، ثم إن الآية تخبر أن هـذا البَرَد لـه برق، والبرق نتيجـة حتميـة للبَرَد، وغير هـذه الحقـائق والأســـرار تحتويها هذه الآية، وســوف نرى بإذن الله أن العلم وصـــل بشـــكل دقيق إلى ما

---

1 إعجاز القرآن، أمير عبد العزيز، مكتبة دنديس، عمان، 2004، ص 192.

أوضحته الآية القرآنية بعدما تطور علم الأرصاد الجوية واستعمال العلماء أجهزة الاستشعار عن بعد والرادارات والأقمار الصناعية وغيرها[1].

وفي آية النور يعرض الله المشهد في إطالةٍ، وتترك أجزاؤه للتأمل قبل أن تلتقي وتتجمع، كل أولئك لتؤدي الغرض من عرضها في لمس القلب وإيقاظه، وبعثه إلى التأمل والعبرة، وتدبر ما وراءها من صنع الله.

إن يد الله تزجي السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان، ثم تؤلف بينه وتجمعه، فإذا هو ركام بعضه فوق بعض، فإذا ثقل خرج منه الماء والوبل الهاطل، وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة، فيها قطع الثلج الصغيرة، ومشهد السحب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها، فإذا المشهد مشهد الجبال حقاً؛ بضخامتها، ومساقطها، وارتفاعاتها وانخفاضاتها، وإنه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس إلا بعد ركوب الطائرة. وهذه الجبال مُسخَّرة بأمر الله، وفق ناموسه الذي يحكم الكون، ووفق هذا الناموس يصيب الله بالمطر من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، وتكملة المشهد: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾: وذلك ليتم التناسق مع جو النور الكبير في الكون العريض، على طريقة التناسق في التصوير[2]. لقد وصفت الآيات القرآنية الوصف الكامل بالضبط لطريقة تكوين السحاب والظواهر المصاحبة لتكوينه، والنتائج المترتبة عليه؛ يبدأ

---

1 الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، التفتنازي، مرجع سابق ص 325.

2 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 2522/4.

بالسوق، ثم بالتأليف، ثم بالتراكم، فينزل المطر.

تغيير حرف العطف: انظر إلى الدقة على مستوى الحرف؛ لأن المدة من السوق إلى التأليف تأخذ زمناً، ومن التأليف إلى نهاية المطر تأخذ زمناً، لكن بعد أن ينتهي الركم إلى نزول المطر لا وجود للزمن، ولذلك كان التعبير المناسب لهذا المعنى بحرف "الفاء"؛ الذي يدل على التعقيب والترتيب بسرعة، ولذلك قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾: يعني يقول لك: انظر إلى السماء. "من جبال"؛ ماء الجبال، أيّ: "فيها من بَرَد": إذاً هي سحاب.

لا يتكون البَرَد إلا في السحاب الركامي الذي تختلف درجة حرارة قاعدته عن قمّته، وبسبب هذا الشكل الجبلي للسحاب يتكون البَرَد، وأما الشكل الطبقي فلا يتكون فيه بَرَد، ولذلك قال: "وينزل من السماء من جبال فيها من بَرَد"، فيجب أن يكون السحاب على شكل جبل. "فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء": يصيب الله به من يشاء، والضمير يرجع إلى البَرَد. يقول علماء الأرصاد: يتكون البَرَد وينزل إلى قاعدة السحاب، وفجأة يأتي تيار هوائي يصرفه ويعيده إلى وسط السحاب.

أما كيفية فهم قوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ فيعني: كان متّجهاً إلى قوم فقال له: ارجع، وتتبّع علماء الأرصاد ذلك فوجدوها

دورة تدورها حبّة البَرَد وتكون غلافاً، فلما تنزّلت حبّة البَرَد إلى الأرض نعرف كم دورة دارت حبّة البَرَد في جسم السحاب. قال تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾: سنا برقه: لمعان برقه؛ في عام 1985م بيّن مؤتمر دولي -لأول مرة- أن البَرَد هو السبب الحقيقي لتكوين البرق، فعندما يتحول البَرَد من سائل إلى جسم صلب تتكون الشحنات الكهربائية الموجبة والسالبة، وعندما تدور حبّة البَرَد توزع الشحنات الموجبة والشحنات السالبة، ومع استمرار الدورات تكون عملية التوصيل، فالبرق من البَرَد[1].

ومن الآيات التي تحدثت عن السحب ونزول الأمطار قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [سورة المرسلات: 27]. أيّ: جعل فيها جبالاً رواسي ثابتات سامقات، تتجمّع على قممها السحب، وتنحدر عنها مساقط الماء العذب، أفيكون هذا إلا عن قدرة وتقدير وحكمة وتدبير؟[2]. فالجبال الشاهقة تكون مصدراً للأمطار، حيث تعترض الرياح المحملة ببخار الماء، إذ تجبر الهواء الرطب على الارتفاع إلى الأعلى فيبرد ويتكاثف ويسقط مطراً غزيراً[3]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [سورة النبأ: 14-16]. "وأنزلنا من المعصرات": أي: السحاب. "ماء

---

1 دلائل الإعجاز العلمي، سيف الدين الكاتب، دار الشرق العربي، لبنان، 2006، ص 436.

2 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 2793/6.

3 الاكتشافات العلمية الحديثة، سليمان عمر قوش، دار الحرمين، الدوحة، ط 1، 1987، ص 157.

ثجاجاً": أي: كثيراً جداً[1].

فقد أثبت العلم الحديث أنه بعد أن يتكون السحاب يمر فيه تيار هوائي دائري يدور كالعصارة، فيرفع بدورانه هذه السحابةَ المشبعةَ ببخار الماء إلى الأعلى فيبرد ويتكثف ويلقح أيضاً، وتبدأ عملية العصر عند نقطة محدّدة في مكان محدّد من الطبقات العليا، فينزل المطر، ثم لا تلبث أن ترفع كمية أخرى من الهواء المشبع ببخار الماء من الأسفل إلى الأعلى، وتتكثف وينزل الماء، فعن طريق العصر ينزل الماء من السحب دفعة دفعة، وليس بانسياب مستمر، وهذه الظاهرة تشاهد كثيراً في المناطق الاستوائية حيث تيارات الحمل قوية، فتحمل السحاب وينزل المطر وتكثر الغابات وتتشابك، وتلتف الأشجار بعضها حول بعض[2].

1. الرعد والبرق والصواعق

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [سورة الرعد: 12-13]؛ أيّ: "هو الذي يريكم البرق" يخبر تعالى بأنه هو الذي يسخّر البرق، وهو ما يُرى من النور اللامع ساطعاً من خلال السحاب. "خوفاً وطمعاً": خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقّته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله. "وينشئ السحاب

1 صحيح تفسير القرآن العظيم، السعدي، مرجع سابق، ص 1072.

2 المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص 110.

الثقال" أي: يخلقها مُنشَـــأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض. "يســـبّح الرعـد بحمـده" لقولـه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَـــيْءٍ إِلَّا يُسَـــبِّحُ بِحَمْـدِهِ﴾ [ســـورة الإســـراء: 44]. "والملائكة من خيفته" أي: خشّــعاً لربهم خائفين من سطوته، "ويرسل الصواعق" وهي هذه النار التي تخرج من السحاب، "فيصيب بها من يشاء" أي: من عباده بحسب ما شاءه وأراده. "وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال" أي: شديد الحول والقوة، فلا يريد شيئاً إلا فعله، ولا يتعاصى عليه شيء، ولا يفوته هارب، فإذا كان وحده الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو يدبر الأمور، وتخضـــع له المخلوقات العظام التي يُخاف منها وتزعج العباد، وهو شديد القوة، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده[1].

وفي هذه الآيات حقيقة كونية؛ وهي أن سبب حدوث البرق والرعد والصواعق مع تكوين السحاب الثقال الممطر، أي: المتشابه الضخم في الجو العاصف، هو اجتماع الحالتين المتضادتين المتكهربتين المتجاذبتين تجاذباً شديداً في هذا السحاب عندما يقترب بعضه من بعض، ثم يجتمعان.

ويخبر العلم بأن البرق شرر كهربائي عظيم الحرارة شديد الضوء مفرط السرعة، ويحدث بمرور الكهرباء في الهواء بين كتل الســـحاب الرعدي، فيســـخن الهواء في مقاومته بمرور الكهرباء خلاله إلى درجة عظيمة، ويتمدد بســـرعة كبيرة، ولكنه يبرد

---

1 صحيح تفسير القرآن العظيم، السعدي، مرجع سابق، ص 470.

ويرجع إلى حالته الأصلية بسرعة كبيرة أيضاً، فتولد من تمدده وانكماشه السريعين موجات اهتزازية عظيمة السعة، فتنتشر في الهواء بين السحاب والأرض، فينشأ عنهما صوت الرعد. فالعلم إذاً يتفق ما قيل من السبب العام من تولد البرق والرعد والصواعق وهو التكهرب الموجب والسالب في السحاب[1].

2.أخطار الصواعق والبرق:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: 19-20]. إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب، فيه تيه وضلال، وفيه هول ورعب، وفيه فزع وحيرة، وفيه أضواء وأصداء؛ صيّب من السماء هاطل غزير "فيه ظلمات ورعد وبرق"، "كلما أضاء لهم مشوا فيه"، "وإذا أظلم عليهم قاموا" أي: وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون وهم مفزعون، "يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت".

إن الحركة التي تغمر المشهد كله؛ من الصيّب الهاطل، إلى الظلمات والرعد

---

1 التفسير العلمي للآيات الكونية تاريخه وموقف العلماء منه، بكر زكي إبراهيم عوض، ص70-71.

والبرق، إلى الحائرين المفزعين فيه، إلى الخطوات المروعة الوجلة التي تقف عندما يخيم الظلام، إن هذه الحركة في المشـــهد لترســـم -عن طريق التأثر الإيحائي- حركة التيه والاضطراب والقلق التي يعيش فيها أولئك المنافقون[1].

الرابع عشر: خلق الشجر والنبات

الشـجر والنبات نعمة من نعم الله في الخلق، وقد كرّر الله ذكرها في كتابه العزيز تذكيراً بما فيها من الجمال والظلال، وما فيها من الثمار والمنافع التي لا تحصـــى، والمتاع النافع للناس ولأنعامهم، وهي آية من آيات الكمال في الخلق الذي أبدعه الله وسـواه وأحكمه وأحسـن صـنعه سـبحانه؛ فخلق الأرض وقدر لها أن تكون مكاناً ليعيش فيه بنو آدم ودوابهم، وقضـى لها أن تكون كوكب حياة، فجعل فيها ما يحقق هذه الغاية؛ بالقدر السـابق من الله عز وجل أن تكون سـكناً لآدم عليه السلام وزوجه وذريتهما من بعدهما، ولذا جاء خلق النبات والشجر مصاحباً لخلق الأرض، والحديث عنه في القرآن مقترن بالحديث عن خلقها.

إن ذلك يقرر الحقيقة العظمى في انتفاء المصـادفة عن الخلق، وأن هذا الكون بما فيه خُلق وفق قدر محكم، ونظام دقيق، وحكمة عظمى، لا ترى فيه من تفاوت، ولا تحس فيه من خلل، ولا تلتمس فيه من نقص ولا عيب، فسـبحان

---

1 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 46/1.

الذي خلق فسوى وقدر فهدى، وسبحان العليم العظيم الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً[1].

1. خلق النبات:

تقرر الآيات الكريمة بداية خلق النبات في الأرض في مرحلة الدحي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [سورة النازعات: 30-31].

فإخراج الماء والمرعى هو معنى الدحي، قال القرطبي: أي: بسطها، وقيل: دحاها سواها، وقيل: دحاها: حرثها وشقها. وقيل: مهّدها للأقوات. والمعاني متقاربة. وقوله: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا ﴾ أي: أخرج من الأرض. ﴿ مَاءَهَا ﴾ أي: العيون المتفجرة بالماء. ﴿ وَمَرْعَاهَا ﴾ أي: النبات الذي يُرعى. وقال القُتَبي: دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجر والحب والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح[2].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [سورة فصلت: 9-10]، وعن ابن عباس

---

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 239.

2 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، 205/19.

قال: خلق الله الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين، فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَاهَا﴾[1].

2. منافع النبات:

والله سبحانه يقرر حقيقة أن هذه الأرض وُضعت في الأصل للناس لعمارتها والعيش فيها، ولذا جعل فيها ما يحقق هذه الغاية، قال تعالى:﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾[سورة الرحمن: 10].

قيل في معنى: ﴿ لِلْأَنَامِ ﴾: الناس، وقيل: الجن والإنس، وقيل: بل كل ما دبّ على وجه الأرض. ثم يبين سبحانه ما وضع فيها من مقومات حياتهم، فيقول عز وجل: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ [سورة الرحمن: 11-12].

ويقول عز وجل مبيناً نعمته على عباده بتنويع نعمه وفضائله فيما يبثه من أنواع النبات وأشكاله وطعومه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: 10-11].

---

1 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، 92/4. الخزعان، قصة الخلق، مرجع سابق، ص 240.

وقد كرر الله تعالى التذكير لعباده في كتابه العزيز بأنه سبحانه الخالق وحده لهذا النبات، ابتداء يوم خلق السماوات والأرض، وامتداداً حين ينزل الماء من السماء، ويخرج الزرع والثمر، في آية من آياته المبهرة الدالة على قدرته على الحياة والموت والبعث والنشور. قال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ ۝ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [سورة الواقعة: 63-64].

وبيّن سبحانه نعمته على عباده بأن جعل لهم في هذه الأرض من المتع وموارد العيش ما يقيم حياتهم وحياة أنعامهم: قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [سورة عبس: 24-32]. والحَب: كل ما يذكر من الحبوب، والقضب: العلف. وأما الفاكهة: فكل ما يتفكّه به من الثمار، والأبّ: ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس[1].

وكما أنها للعيش والأكل فهي كذلك للبهجة والجمال والسرور، قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة النمل: 60][2].

---

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 243.

2 الخرعان، مرجع سابق، ص 243.

3. جمال الأشجار ومنافعها:

الأشـــجار رمز للجمال، وتعتبر من أهم الزينات التي تزين الأرض، جبالها وسهولها ووديانها وحدائقها ومساكنها وشوارع مدنها، وهي محل ضرب الأمثال الجمالية في القرآن الكريم.

أ. شجرة النخيل:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة إبراهيم: 24-25]. "ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة" وهي شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها. "كشجرة طيبة" وهي: النخلة. "أصلها ثابت" في قلب المؤمن علماً واعتقاداً. "وفرعها في السماء" من الكلم الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة، في السماء دائماً. "تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها" يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن وينتفع به غيره. "ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون" ما أمرهم به وما نهاهم عنه[1].

وقال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [سورة ق: 10]. "والنخل باسقات": وهي الطوال، وهو نوع خاص من النخل يتميز بطول ساقه حتى

1 صحيح تفسير القرآن العظيم، السعدي، مرجع سابق، ص 483.

ليتجاوز الثلاثين متراً بالارتفاع. "لها طلع نضيد" أي: متراكب بعضه على بعض، وفي ذلك القدرة الإلهية المبتدعة التي تتجلى في خلق النخلة الباسقة بهذا الطول الفارِه، وإعطائها من القدرات البينة الظاهرة والخفيّة المستترة ما جعل من النخل مضرب المثل في القرآن الكريم، الذي ذكره في عشرين موضعاً، وفضّله على غيره من أنواع الزروع والفاكهة، وجعله في مقابلة غيره من أنواع النبات.

فمن القدرات الظاهرة للنخل ثباته في الأرض، وارتفاعه فوق سطحها، ومقاومته للريح، وتحمله لكل من الحرارة الشديدة والجفاف، وقوته وتعميره، ووفرة إنتاجيته تحت أقسى الظروف، وتعدد أشجاره وثماره شكلاً ولوناً وطعماً وحجماً ونفعاً، وتعدد الفوائد المرجوة من كل جزء من أجزاء شجرته المباركة...إلخ[1].

ب. شجرة الزيتون

ذكر الله في القرآن الكريم شجرة الزيتون كواحدة من مكونات المثل الذي ضربه الله لنوره في السماوات والأرض، الأمر الذي يدل على اهتمام القرآن الكريم بجمال الأشجار، فقد زادت الدنيا جمالاً إلى جمالها ونوراً إلى نورها.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ

---

1 آيات النبات في القرآن الكريم، زغلول نجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص 409.

مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور: 35].
وقد فُسر قوله تعالى "الله نور السماوات والأرض" بكونه مُنوِّر السماوات والأرض، وهادي أهل السماوات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشْتُقَّ اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى، والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين؛ إضافة صفةٍ إلى موصوفها، وإضافة مفعولٍ إلى فاعله[1].

وفي قوله تعالى: "مثل نوره" وهي أن أصل الإيمان يكون من الله، وعندما يشرح الله صدر عبده المؤمن للإسلام، ويجعل له نوراً، فيبدأ به النور والحياة، وقد شبِّه العلم المستفاد من الوحي الواصل للقلب بالزيت الجيد، فاستدامة النور وقوته وسلامته وتنامي حياة القلب إنما تكون بالعلم بالكتاب والسنة والعمل به، فهي غذاؤه ومادة حياته[2].

إن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة تحمله، فتلك المادة للضياء بمنزلة غذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها، ويدوم بدوامها، فإذا ذهبت مادة الإيمان طفئ كما تطفأ النار بفراغ مادتها[3].

إن المثل دل على أن الإيمان يزيد وينقص، ويزيد العلم الواصل للقلب المستفاد

---

1 اجتماع الجيوش الإسلامية، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق عواد عبد الله المعتق، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط 1، 1988، ص 6.

2 الأمثال القرآنية، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط 1، 1980، 360/1.

3 المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص 205.

من نور الكتاب والسنة كما ينقص بنقصه، ومأخذ ذلك من المثل هو تشبيه العلم الذي يمد القلب بالمعارف والحقائق الإيمانية بالزيت الذي يمد المصباح بالوقود، وكون المصباح يزيد ضوءه ويصفو بزيادة الزيت وجودته.

والمؤمنون يتفاوتون بقوة النور الكائن في قلوبهم بحسب ما عندهم من العلم والإيمان، وأكمل المؤمنين نوراً هو النبي صلى الله عليه وسلم؛ لكمال علمه وإيمانه.

إن المثل دل على أن النور الذي يجعله الله في قلوب المؤمنين نور حقيقي، ومأخذ ذلك هو تشبيه ذلك النور الذي يُعلم معناه ولا تعرف كيفيته بنور المصباح.

هناك تشابه بين الفطرة والفتيلة من حيث إن كلاً منهما في أصل خلقه ووضعه مهم لاستدعاء وتشرّب ما يناسبه؛ فالفتيلة تتشرب الوقود المناسب وتمتصه وتتبلل به وتصبح مهيأة به للاشتعال إذا أُوقدت، وكذلك الفطرة على الدين الحنيف التي فطر الله قلوب العباد عليها، مهيأة لاستدعاء ما يناسب من التوحيد والدين الحق، فإذا تشربت ما يرد إليها من ذلك من العلم بالكتاب والسنة فإنها تكون مهيأة لإيقاد مصباح، وقذف نور الإيمان به. قال الله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [سورة الروم: 30].

فالله عز وجل فطر كل الناس على معرفته وتوحيده ومحبته، وجبل نفوسهم على استدعاء وقبول ما يناسب ذلك من الدين والإسلام، والفطرة تزكّى بالعلم المستمد من الكتاب والسنة، وتطهّر من مكائد شياطين الإنس والجن الذين يجتهدون في

إفسادها[1].

إن المثل دل على أثر نور العلم والإيمان على العقل، حيث أكسبه سلامة التعقل وسداد النظر وصحة الاستنتاج.

وإن الطريق إلى الحق في كل المطالب الدينية إنما يكون بأعمال العقل المستنير بالوحي النازل على الرسول صلى الله عليه وسلم لاستخلاص الحقائق والمعارف اليقينية وغيرها، وإن العقل المجرد عن العلم لا سبيل له إلى تلك الحقائق، كما دل المثل على أن النور سطع وأشرق على كل أعمال القلب ووظائفه الأخرى من العقائد والعواطف والإرادات والانفعالات، فأخصبها بالخير والسلام والصلاح.

وفي قوله: "نور على نور" دل على أن نور القرآن والسنة والعلم المستفاد منهما يغذي نور الإيمان ويزيده ويقويه.

وفي قوله تعالى: "ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور" دليل على أن النورين من الله؛ نور الإيمان الذي يقذف في القلب، ونور العلم الذي طريقه الوحي، فمن هُدي إلى الأول واهتدى بالثاني فقد أعطاه الله نوراً تاماً، ومن كان غير ذلك فليس له من نور، بل في طريق من طرق الضلال سائر الظلمات[2].

وفي قوله: "يوقد من شجرة مباركة زيتونة" نور زيت الزيتون كان أصفى نور

---

1 الأمثال القرآنية، الميداني، مرجع سابق، 1/390-412.

2 المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص 206.

يعرفه المخاطَبون، ولكن ليس لهذا وحده كان اختيار هذا المثل، إنما كذلك الظلال المقدسة التي تلقيها الشجرة المباركة في الوادي المقدس في الطور، وهو أقرب منابت الزيتون لجزيرة العرب، وهي شجرة معمرة، وكل ما فيها ينفع الناس؛ زيتها وخشبها وورقها وثمرها. ومرة أخرى يلتفت من النموذج الصغير ليذكّر بالأصل الكبير، فهذه الشجرة ليست شجرة بعينها متحيزة إلى مكان أو جهة، إنما هي مثَل مجرد للتقريب: "لا شرقية ولا غربية"، وزيتها ليس زيتاً من هذا المشهود المحدود، وإنما هو زيت آخر عجيب؛ "يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار" فهو من الشفافية بذاته ومن الإشراق بذاته، حتى ليكاد يضيء بغير احتراق[1].

وذكر تعالى شجرة الزيتون أيضاً في قوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [سورة المؤمنون: 20]؛ "وشجرة تخرج من طور سيناء"؛ هذه الآية تشير بوضوح إلى شجرة الزيتون التي تؤكل ثمارها، ويُؤتدم بزيتها، وبما فيه من منافع للناس.

وفي قوله: "تنبت بالدهن" أي: تنبت ثمارها ملتبسة بالدهن وهو زيت الزيتون. "وصبغ للآكلين": أي: إدام وطعام لهم، سمي صبغاً لكون إداماً، ولأنه يصبغ الخبز إذا لامسه، ولعل في ذلك إشارة إلى ما هو غير الدهن من مئات المركّبات الكيميائية المهمة التي مكّن الله تعالى شجرة الزيتون من استخلاصها من ماء

---

1 في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، 2520/1.

الأرض وتربتها، ونقلها من العصـــارة الغذائية، وتخليقها في أوراقها وثمارها، وهو ما تعجز أكبر المصـانع التي بناها الإنسـان عن تحقيقه، لذلك امتدح ربنا تبارك وتعالى كلاً من شــجرة الزيتون وزيتها في ســتة مواضــع أخرى من القرآن الكريم، وأقســم بالتين والزيتون في موضع سابع منه، والله تعالى غني عن القسم لعباده [1].

وقد ثبت بالدراســة أن أفضــل الزيوت النباتية على الإطلاق هو زيت الزيتون، وذلك لما أعطاه الله تعالى من خاصــية خفض الدم، وتقليل امتصــاص الجســم للكوليســترول بصــفة عامة، وإبقاء المعدل الكلي للكروليســترول في الدم بحدود (13%)، وإنقاص معدل الكوليســترول الخفيف بنســبة (21%)، فيرفع نســبة الكوليسترول المفيد نسبياً في الدم، والمعروف باسم الكوليسترول الثقيل.

ومن الثابت طبياً أنه كلما انخفضـت نسـبة الكوليسـترول الضـار وزادت نسبة المفيد منه في الدم قلّت نسـبة الإصـابة بالجلطة القلبية؛ من مثل الإصــابة بالمرض المعروف باســم "احتشـــاء العضـــلة القلبي"، وعلى ذلك فإن تناول زيت الزيتون بكميات منتظمة يحمي القلب من أمراض انســـداد الشـــرايين، وهي من أكثر الأمراض انتشاراً في الزمن الحاضر.

وقـد ثبـت بالتحليـل الـدقيق احتواء كـل من ثمرة الزيتون وزيتهـا على مركبـات كيميائية تمنع تخثر الدم، وانطلاقاً من ذلك يوصـــي الأطباء كل من أجريت لهم

---

1 من آيات النبات في القرآن الكريم، النجار، المرجع السابق، ص 422.

عمليات توسعة لشرايين القلب بتناول (4-5) ملاعق من زيت الزيتون، ويستخدم في إنتاج العديد من الأدوية، والدهانات الطبية، وزيوت الشعر والصابون، وبه كانت توقد المصابيح في المنازل والمساجد قديماً؛ لصفاء اللهب الناتج عن اشتعاله.

ت. شجرتا التين والزيتون:

قال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [سورة التين: 1-3].

هذه الآيات القرآنية الثلاث يقسم فيها ربنا تبارك وتعالى بكل من التين والزيتون، وجبل طور سيناء، ومكة المكرمة، والله تعالى غني عن القسم لعباده، ولكن إذا جاءت الآية القرآنية بصيغة القسم كان في ذلك تنبيه لنا على أهمية الأمر المقسم به.

وفي القَسَم الثاني بالتين تأكيد لتميز ثمرته بقيمتها الغذائية والصحية، وما بها من إنزيمات مقيدة، وغير ذلك من المركبات الكيميائية المهمة، ومنها المضادة للسرطانات، والفيروسات والبكتيريا والطفيليات، كما أثبتت الدراسات مؤخراً، وفي القسم بالزيتون إشارة إلى تميز أشجاره وثماره وزيوته بميزات عديدة لا تتوفر لغيره من النباتات[1].

1 مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي، زغلول النجار، ص 307.

ث. شجرة اليقطين

قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [سورة الصافات: 145-146].

بتأمل هاتين الآيتين الكريمتين من سورة الصافات، يتبادر إلى الذهن اختيار الله عز وجل للتعبير القرآني "شجرة من يقطين"، لحماية عبده ونبيّه يونس بن متى، على نبينا وعليه من الله السلام، بعد أن نبذه الحوت بالعراء وهو سقيم، أي: وهو منهك القوى من شدة المرض، وهذا التنكير في الإشارة إلى شجرة اليقطين يفيد بأن الشجرة من جنس اليقطين الذي عرفه العرب، ومنه كلٌّ من القرع العسلي، وقرع الكوسا، والحنظل، وليست نوعاً محدداً[1].

وتُوحي الصياغة القرآنية: "شجرة من يقطين" بأن المقصود هو عموم اليقطين الذي نعرفه، وهنا يظهر التساؤل المنطقي؛ وماذا في اليقطينيات من علاج للحالات المماثلة للحالة التي مر بها نبي الله يونس عليه السلام بعد أن التقمه الحوت ولفظه بالعراء وهو سقيم؟ أي مريض منهك القوى[2].

وثبت بالدراسة المختبرية التي قام بها الدكتور كمال فضل خليفة الأستاذ المشارك في علم النبات بجامعة الخرطوم، أن اليقطينيات تحتوي على عدد من

---

1 من آيات النبات في القرآن الكريم، النجار، مرجع سابق، ص 512.

2 المرجع نفسه، ص 514.

المركبات الكيميائية المهمة التي لها تأثير طبي علاجي ووقائي واضح؛ يبرز في مقاومة الحشرات، وفي علاج العديد من الالتهابات الجلدية وتقرحاتها[1].

وفي علاج عدد من أمراض الجهازين الهضمي والبولي، وفي مقاومة بعض الأمراض السرطانية – عافانا الله جميعاً منها–هذا بالإضافة إلى القيمة الغذائية العالية لثمار اليقطينيات المأكولة، والقيمة الطبية للثمار التي لا تؤكل؛ مثل ثمار الحنظل، وهنا تتضح روعة الإشارة القرآنية المبهرة في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [سورة الصافات: 145].

ج. شجر المراعي

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [سورة النحل: 10] .

وفي قوله: "منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون" أي: وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم، ومن الثابت علمياً أن الماء سابق في وجوده على الأرض لخلق جميع أحيائها، وأن النبات سابق في وجوده لخلق الحيوان، وكلاهما سابق في وجوده لخلق الإنسان، وبتقدير الله قام النبات –ولا يزال قائماً– بالدور الرئيسي في إمداد الغلاف الغازي للأرض بالأكسجين، وفي تخليق الجزيئيات العضوية اللازمة لبناء أجساد كل من النبات والحيوان والإنسان، ومن هنا كان اعتماد كل من الإنسان

---

1 مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي، النجار، مرجع سابق، ص 308.

والحيوان في غذائه أساساً على النبات، وهي حقائق لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، ما يؤكد روعة الإشـــارة القرآنية في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَـرَابٌ وَمِنْهُ شَـجَرٌ فِيهِ تُسِـيمُونَ ۝ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: 10-11] .

وفي قوله: "إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون" في تدبير هذا الكون ونواميســـه المواتية لحياة البشر، وما كان الإنسان ليستطيع الحياة على هذا الكوكب لو لم تكن نواميس الكون مواتية لحياته، أو موافقة لفطرته، أو ملبّية لحاجته، والذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير، وهم الذين يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر وما يُنشـــئه على الأرض من حياة وشـــجر وزروع وثمار وبين النواميس العليا للوجود، ودلالتها على الخالق وعلى وحدانية ذاته ووحدانية إرادته، ووحدانية تدبيره، وأما الغافلون فيمرون على مثل هذه الآية في الصباح والمساء وفي الصيف والشتاء فلا توقظ تطلعهم، ولا تثير اســـتطلاعهم ولا تســـتجيش ضـــمائرهم إلى البحث عن صاحب هذا النظام الفريد[1].

1 في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، مرجع سابق، 2162/4.

ح. تنوع الأشجار واختلاف ألوانها

تختلف الأشجار اختلافاً كبيراً في أنواعها وأشكالها وألوانها، مما يعطيها المزيد من الجمال والبهجة، فمنها الباسق، والقصير، ومنها السميك، والنحيف، ومنها كثير الفروع، وقليله، ومنها المتسلّق، والزاحف، وتختلف أيضاً في تنوع ثمارها وأوراقها، وقد لفت القرآن الكريم أنظارنا إلى هذا التنوع.

قال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[سورة الأنعام: 141].

إن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذه الجنات ابتداء، فهو الذي أخرج الحياة من الموت، وهذه الجنات منها المعروشات التي يتعهّدها الإنسان بالعرائس والحوائط، ومنها البريات التي تنبت بذاتها، بقدَر الله، وتنمو بلا مساعدة من الإنسان ولا تنظيم، وإن الله هو الذي خلق الزيتون والرمان منوع الصنوف، متشابهاً وغير متشابه، وإنه هو الذي بث الحياة في هذه الأرض ونوّعها هذا التنويع وجعلها مناسبة للوظائف التي تتطلبها حياة الناس في الأرض، فكيف يذهب الناس في مواجهة هذه الآيات وهذه الحقائق إلى تحكيم غير الله في شأن الزروع، والأنعام، والأموال[1]، وغير ذلك في كونه ومخلوقاته ومناحي الحياة؟

1 في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، مرجع سابق، 1223/3.

هـ. الشجر يؤمن بالله ويسجد له

وثمة أمر عظيم هنا، ما تؤكده الآيات القرآنية الكريمة في هذا الخلق النافع الجميل البهيج؛ من أنه مخلوق، يؤمن بالله، طائع منقاد له، يعبده، ويسجد له في ذل وخضوع، مثله في ذلك مثل السماوات والأرض والجبال وعباد الله المؤمنين، في إشارة إلى تناغم هذا الوجود بربه الخاضع لسلطانه، المنقاد لأمره في ذل وخضوع وسجود[1].

قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [سورة الحج: 18].

وبتدبُّر القلب هذا النص فإذا حشد من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك، وإذا حشد من الأفلاك والأجرام مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم، وإذا حشد من الجبال والشجر والدواب في هذه الأرض التي يعيش عليها الإنسان، إذا بتلك الحشود كلها في موكب خاشع تسجد كلها لله وتتجه إليه وحده دون سواه، تتجه إليه وحده في وحدة واتساق، إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذي يتفرق "وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب"، فيبدو هذا الإنسان عجيباً في ذلك الموكب

---

1 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 243.

المتناســـق، وهنا يقرر أن من يحق عليه العذاب فقد حق عليه الهوان "ومن يهن الله فما له من مكرم" فلا كرامة إلا بإكرام الله، ولا عزة إلا بعزة الله، وقد ذل وهان من دان لغير الله[1].

و. ثمرات مختلف ألوانها

الثمار جزء من جمال الحدائق إن لم تكن أجمل ما فيها، حيث إنها من الألوان والأشـكال ما يضـفي على الحدائق جمالاً وبهجة، والثمار تختلف في ذلك من نوعٍ لآخر، ومن صنف لآخر، بل تختلف حتى في الصنف الواحد، فألوان الثمار تتدرج وتزداد تدرجاً كلما دخل عليها يوم جديد، وهكذا إلى أن يكتمل جمالها باكتمال نضجها[2].

قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّـــمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَـا ۚ وَمِنَ الْجِبَـالِ جُـدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَـا وَغَرَابِيـبُ سُـــودٌ﴾ [سورة فاطر: 27].

إنها لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصـــدر هذا الكتاب، لفتة تطوف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصـــباغ في عواملها في الثمرات، وفي الجبال، وفي الناس، وفي الدواب والأنعام، لفتة تجمع في كلمات قلائل بين الأحياء

---

1 في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، 2414/4.

2 الجمال الحسي في القرآن، ص 174.

وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً، وتدع القلب مأخوذاً بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع الكبير الذي يشـــمل الأرض جميعاً، وتبدأ بإنزال الماء من الســـماء وإخراج الثمرات المختلفات الألوان. وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه الرســـامون في جميل الأجيال، فما من نوع من الثمار يماثل لونُه لونَ نوع آخر، بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونُها لوَن أخواتها من النوع الواحد، فعند التدقيق في أي ثمرتين أختين يبدو شـــيء في ظاهرها، ولكنها من ناحية دراســـة الألوان تبدو طبيعية؛ ففي ألوان الصـــخور شـــبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها، بل إن فيها أحياناً ما يكون على شـــكل بعض الثمار وحجمها كذلك، حتى ما تكاد تفرق من الثمار صغيرها وكبيرها.

"ومن الجبـال جـدد بيض وحمر مختلف ألوانهـا وغرابيـب"، والجـدد: الطرائق والشـــعاب، وهنا لفتة في النص صـــادقة، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها، والجدد مختلف ألوانها فيما بينها، مختلف في درجة اللون، والتظليل، والألوان الأخرى المتداخلة فيه، وهناك جدد وغرابيب سود حالكة شديدة السواد، واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار تهز القلب هزاً وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية؛ فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة، وعلى بعد ما بين وظيفتها في تقدير الإنســـان، ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصـراً مشـتركاً بين هذه وتلك يسـتحق النظر والالتفات، ثم ألوان

الناس وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر، فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه، بل متميز في توءمه الذي شاركه حملاً واحداً في بطن واحد.

وكذلك ألوان الدواب والأنعام، والدواب أشمل، والأنعام أخفى، فالدابة كل حيوان، والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز، خصصها من الدواب لقربها من الإنسان، والألوان والأصباغ فيها كذلك معرض جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور السوداء.

هذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات العجيب التكوين والتلوين يفتحه القرآن ويقلب صفحاته، ويقول إن العلماء الذين يتلونه ويدركونه ويتدبرونه هم الذين يخشون: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [سورة فاطر: 28].

والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية، يعرفونه بآثار صنعته، ويدركونه بآثار قدرته، ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه، ومن ثم يخشونه حقاً ويتقونه حقاً، ويعبدونه حقاً؛ لا بالشعور الذي يجده القلب أمام روعة الكون، ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر الذي يستشعره القلب، ويتحرك به، ويرى يد الله المبدعة للألوان والأصباغ والتكوين والتنسيق في ذلك الكون.

"إن الله عزيز غفور"؛ عزيز قادر على الإبداع وعلى الجزاء، غفور يتدارك بمغفرته

من يقصّرون في خشيته وهم يرون بدائع صنعته[1].

– تأثير "جيمس جينز"[2] وتأثره بهذه الآية:

هذه الواقعة رواها العالم الهندي المغفور له بإذن الله "عناية الله المشرقي"، يقول: كان ذلك يوم أحدٍ من عام 1909م، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكي المشهور "السير جميس جينز"، الأستاذ بجامعة كامبريدج ذاهباً إلى الكنيسة والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوت منه وسلمت عليه، فلم يرد عليّ، فسلمت عليه مرة أخرى فسألني: ماذا تريد مني؟

فقلت له: أريد أمرين يا سيدي؛ الأول هو أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر، فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور، فقلت له: وأما الأمر الآخر فهو ما الذي يدفع رجلاً ذائع الصيت في العالم مثلك لأن يتوجه إلى الكنيسة؟

وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة، ثم قال: عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي. وعندما وصلت إلى داره في المساء خرجت السيدة جيمس في الساعة الرابعة بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني، وعندما دخلتْ عليه غرفته وجدت أمامه منضدة صغيرة عليها أدوات الشاي، وكان البروفيسور منهمكاً في أفكاره، وعندما شعر بوجودي سألني: ماذا كان سؤالك؟ ودون أن ينتظر ردي

---

1 في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، 2942/5.

2جيمس جينز James Hopwood Jeans (1877 – 1946): درسَ الرياضيات في جامعة كامبريج، وهو عالم بريطاني عمل في مجال الرياضيات والفيزياء وعلم الفلك، ومن أشهر إنجازاته تعيين كتلة جينس وهي أقل كتلة لسحابة من الغاز والغبار الكوني يمكن أن يتكون منها نجم.

بدأ يلقي محاضرة عن تكوّن الأجرام السماوية ونظامها المدهش، حتى إني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله، وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائماً، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة، ثم بدأ يقول: يا عناية الله، وعندما أركع أمام الله وأقول: إنك العظيم، أجد أن كل جزء في كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكونٍ وسعادة عظيمتين، وأحس بسعادة تفوق الآخرين ألف مرة، أفهمت يا "عناية الله خان" لماذا أذهب إلى الكنيسة؟

ويضيف العلامة "عناية الله" قائلاً: ولقد أحدثت المحاضرة طوفاناً في عقلي، وقلت له: يا سيدي لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية في كتابي المقدس، فلو سمحتم لي لقرأتها عليكم، فهز رأسه بكل سرور، فقرأت عليه الآية التالية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [سورة فاطر: 27-28]. فصرخ السير جيمس: ماذا قلت؟! "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ؟"

مدهش، وغريب، وعجيب جداً! إن الأمر الذي كشفت عنه هو دراسة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمداً به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى من عند الله. ويستطرد السير جيمس جينز قائلاً: لقد كان محمد أمياً، ولا يمكن أن يكشف عن

هذا بنفسه، ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر، مدهش وغريب جداً.

الخامس عشر: خلق الظلال

هذا المخلوق اللطيف العجيب، إنه الظلال الذي خلقه الله وجعله آية من آياته الدالة على وحدانيته وقدرته، حيث يسجل الله هذا الامتنان بهذه النعمة في آية النحل في:

1. نعمة الظل

في قوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾[سورة النحل: 81]. وقد قال القرطبي: الظلال كل ما يستظل به من البيوت والشجر، وقوله: "مما خلق": يعم جميع الأشخاص المُظِلَّة[1].

فالظل نعمة تقي الإنسان حر الشمس، ويستبرد فيه ويتقي به لهيبها وشعاعها، كما أنه وسيلة توقيت يعرف بها الإنسان مراحل النهار؛ فيقيس بالفيء –وهو امتداد الظل– حركة الشمس، وأوقات الصلاة النهارية؛ الظهر والعصر، وبه تعرف أوقات النهي وصلاة الضحى.

ويتحدث الله سبحانه عن حركة هذا المخلوق اللطيف، وكيف أنه سبحانه يحركه بلطفه وقدرته ويمده ثم يقبضه، ممتناً لكل تلك الحركة العجيبة الهادئة، مذكراً

---

1 تفسير القرطبي، مرجع سابق،159/10.

بأنه سبحانه القادر على جعله ساكناً لا حراك فيه.

2. إعجاز الله في خلق الظل

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [سورة الفرقان: 45-46].

شرع سبحانه وتعالى في بيان الأدلة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ؟" هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس "وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا"، أي: دائماً لا يزول، كما قال تعالى: "ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا"، أيّ لولا أن الشمس تطلع عليه لما عُرف، فإن الضد لا يعرف إلا بضده، وقوله تعالى: "يَسِيرًا" أي سهلاً، وقيل سريعاً، وقيل قبضاً خفيفاً حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة، وقد أظلت الشمس ما فوقه[1].

إنه تعبير يدعو إلى التأمل ويقظة الحس لتلك الحركة التي لا تُخطئها عين، ومتابعة خطوات الظل في مدة انقباضه يشيع في النفس نداوة وراحة، كما يثير فيها يقظة لطيفة شفيفة وهي تتبّع صنع الباري اللطيف القدير، وإن مشهد الظلال والشمس مائلة للمغيب، وهي تطول وتطول، وتمتد وتمتد، ثم في لحظة واعدة ينظر الإنسان فلا يجدها جميعاً، لقد اختفى قرص الشمس وتوارت معه الظلال.

---

1 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 320/3.

وإن بناء الكون المنظور على هذا النسق، وتنسيق المجموعة الشمسية هذا التنسيق هو الذي جعل الظل متحركاً هذه الحركة اللطيفة، ولو اختلف هذا النسق أقل اختلاف لاختلفت آثاره في الظل الذي نراه، ولو كانت الأرض ثابتة لسكن الظل فوقها لا يمتد ولا ينقبض، ولو كانت سرعتها أبطأ أو أسرع مما هي عليه لكان الظل في امتداده وقبضه أبطأ وأسرع، فتنسيق الكون المتطور على ناموسه هذا هو الذي يسمح بظاهرة الظل، ويمنحها خواصها التي نراها.

وهذا التوجيه إلى تلك الظاهرة التي نراها كل يوم، ونمر بها غافلين، هو طرف من منهج القرآن في استحياء الكون دائماً في ضمائرنا، وفي إحياء شعورنا بالكون من حولنا، وفي تحريك خوامد إحساسنا التي أفقدها طول الألفة إيقاع المشاهد الكونية العجيبة، وطرف من ربط العقول والقلوب بهذا الكون الهائل العجيب[1].

3. الظل الساجد

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [سورة النحل: 48].

وهذه الآية الكريمة أشارت إلى هذا المخلوق اللطيف "الظل الساجد" لله عز وجل، والآية الكريمة دعوة مباشرة للتأمل والتدبر في تلك الحركة العجيبة التي يتوقف اهتمام الكثيرين بها عند حد الاتقاء بها من حر الصيف اللاهب، إنه المعنى الإيماني

1 في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، 2569/5.

الذي تعبّر عنه حركة الظل، معنى الخضوع والسجود لله الواحد الأحد في انسجام تام بين مخلوقات هذا الكون الساجد لربه الخاضع المنيب له سبحانه[1].

وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [سورة الرعد: 15].

يُخبر تعالى عن عظمته وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها؛ جماداتها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال -أي بكرة وعشياً- ساجد بظله لله تعالى، قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل.

وقوله: "وهم داخرون" أيّ: صاغرون، وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيئُهُ، وذكر الجبال قال: سجودها فيئُها، وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته[2].

وقال القرطبي: ظلال الحق ساجدة لله تعالى بالغدو والآصال؛ لأنها تبين في هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية، وذلك تصريف الله إياها على ما يشاء، وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ

1 قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 254.

2 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 2/571-572.

وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [سورة النحل: 48]. وقال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد كرهاً وهو كاره[1].

فبئساً لهذا الكافر الذي ينطق كل ما حوله بالوحدانية ويظل في عناده وشذوذه البائس عن هذا الكون في عبادته لله الواحد الأحد، حتى ظله الذي يطبع شكله على الأرض ويتبعه في كل مكان.

إن هذا المعنى العظيم لسجود الظل يستحق من كل عاقل الوقوف أمامه معلناً عبوديته لله، وبراءته من كل جحود أو استكبار عن عبادته سبحانه، أو الذل له، ومظهراً حاجته لفقره لمعبوده الذي يسجد له كل شيء، حتى الظلال.

وقد كرر الله ذكره في أكثر من آية في موضوع من الامتنان العظيم الذي امتنَّ الله به على عباده، فها هو موسى عليه الصلاة والسلام يسجّل الله رحلته من مصر إلى مدين التي لاقى فيها من العنت والشدة ما لاقى، وبعد أن سقى للمرأتين يأوي إلى ظل شجرة وارفة مسلِّماً أمره إلى الله، طارحاً شكواه بين يديه في أدب ولطف، قال سبحانه: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [سورة القصص: 24].

ويتوالى ذكر امتنان الله بنعمة الظل في قصة قوم موسى عليه السلام، وهو ظل ليس من نوع الظل الذي استظلّ به موسى عليه السلام، ولكنه ظل لطيف آخر؛

---

1 تفسير القرطبي، مرجع سابق، 302/9.

إنه ظل السحاب البارد اللطيف، يقول سبحانه: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة الأعراف: 160].

4. الإهلاك بالظل

الظل كما كان لبني إسرائيل نعمة ورحمة ومنّة من الله فقد كان لغيرهم عذاباً وهلاكاً، والله سبحانه يخلق الشيء وضده، يخلق من الشيء أضداداً بمنتهى حكمته وبالغ فضله وكرمه؛ ليعلم الناس أنه على كل شيء قدير. والظل خلق من مخلوقات الله، وجندي من جنوده المنقادين لأمره، فيجعله الله رحمة لقوم وعذاباً لآخرين، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

فقد كان الظل عذاباً لقوم شعيب أصحاب الأيكة، والأيكة هي الشجر الملتف الكثير الظلال، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [سورة الشعراء: 176-178]، إلى قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: 189].

قال ابن عباس: أصابهم حر شديد، فأرسل الله سبحانه سحابة فهربوا إليها ليستظلوا بها، فلما صاروا تحتها صِيح بهم فهلكوا، وقيل: أقامها الله فوق رؤوسهم وألهبها حراً حتى ماتوا من الرَّمد[1].

وقيل: وسلَّط الله عليهم الحرَّ حتى أخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا ماء، فكانوا يدخلون الأسراب ليتبرَّدوا فيها فيجدوها أشد حراً من الظاهر، فهربوا إلى البرّية، فأظلَّتهم سحابة -وهي الظُّلة-فوجدوا برداً ونسيماً، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا[2].

فالظِّل في الدنيا رحمة لعباد الله المؤمنين، ونعمة من النعم التي خلقها الله وسخّرها للناس أجمعين، لكنه يتحول بإرادة الله وقدرته عذاباً وجحيماً على العاصين الكافرين المنكرين لوحدانيته، المعارضين لرسله[3].

5. الظلال في الآخرة

ذكر الله الظلال في صور نعيم الجنة التي ينعم الله بها على عباده في ذلك المستقر الكريم، بل جعل ذلك من أخص خصائص الجنة، حين قال سبحانه: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُوْدٍ﴾[سورة الواقعة: 30] .

وقال عز وجل:﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا

1 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 257.

2 تفسير القرطبي، مرجع سابق، 13/135-137، بتصرف.

3 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 258.

دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾[سورة الرعد: 35].

فالجنة ظلها لا يزول ولا يقلّص، كما قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًاۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾[سورة النساء: 57].

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن في الجنة شجرةً يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها، ثم قرأ: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُوْدٍ﴾)[1].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ [سورة المرسلات: 41].

وقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [سورة يس: 56].

وقال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [سورة الإنسان: 14].

وحينما يُحشر الناس إلى ربهم يوم القيامة، وتدنو منهم الشمس، ويزول كل ملك وسلطان غير ملك الله وسلطانه، لا يبقى إلا ظل عرشه العظيم يستظل به المؤمنون الذين سبقت لهم الحسنى في أمان الله، ويبقى غيرهم في عرقهم يسبحون في كرب شديد وهو عظيم، كما في الحديث الصحيح؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله)[2].

---

1 صحيح البخاري، رقم 620.

2 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 258.

وفي مقابل ذلك يُحرم من هذه النعمة أهل النار، أعاذنا الله وإياكم منها، ويصبح ظلهم دخاناً ولهباً، لا بارد يستظل به، ولا كريم في رائحته يستأنس به، كما في قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [سورة المرسلات: 30-31].

وهو ظل دخان جهنم، يبدو في ظاهره ظلاً وهو دخان كريهٌ لاهب، قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [سورة الواقعة: 43-44].

فيتحول هذا الكائن اللطيف إلى عذاب على من عصى الله وخالف أمره[1].

هذا وقبل الشروع في قصة آدم عليه السلام رأيت الحديث عن المخلوقات التي خلقها الله عز وجل قبل آدم، وطبيعي كان عن بعضها وليس كلها، وقد تحدث الدكتور محمد بن عبد الله الخرعان بنوع من التفصيل في كتابه قصة الخلق، وإن كنت استفدت من الكتاب إلا أنني رجعت لمصادر متخصصة أخرى، وتركت الحديث عن الملائكة والجن والشياطين والجنّة مستقلة، وإنما سيأتي الحديث عن هذه المخلوقات عند دخولي في الكتابة عن قصة آدم عليه السلام، فقد كان الحديث عن معالم الخلق في القرآن والسنة، وأنه هدي نبوي، وأن بداية الخلق ليست غامضة، وأن الله هو الأول، وقد تحدى الملحدين، وأنه سبحانه خلق كل شيء فقدّره تقديراً، ولم يزل خلاقاً عليماً قديراً، وأنه سبحانه غني عن خلقه، وله

1 المرجع نفسه، ص 260.

صفات الكمال والأسماء الحسنى، وقد أشرت فيما مضى إلى أن الخبر عن الله جل وعلا ورسوله صلى الله عليه وسلم مصدر المعرفة ببدء الخلق، وبيّنت أول مخلوقات الله وآراء العلماء في التقديم والتأخير، وبدأت بـ:

- خلق العرش والكرسي.

- وخلق الماء، والقلم، واللوح المحفوظ، والزمن، والأرض، والجبال، والسماوات، والشمس، والقمر، والليل، والنهار، والنجوم، والرياح، والشجر، والظلال، قبل الكتابة عن آدم عليه السلام، وعشت مع الآيات القرآنية متأملاً ومتدبراً ومتفكراً، ورأيت عظمة الله من خلال آياته القرآنية والكونية، وتبين لي أن كل مخلوقات الله عز وجل في الوجود تسبح بحمد الله، وكلٌّ عُلّم صلاته وتسبيحه، وكل ما في السماوات وما في الأرض يسجد لله.

- كل شيء يسبح بحمده:

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة الحديد: 1]

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة النور: 41]

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة الإسراء: 44].

وكل شيء في الوجود يسجد لله[1]. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة الحج: 18]

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة النحل: 49]، وإن الآية الكريمة تبين أن الجميع يسجد لله، جميع دواب الأرض والسماوات والملائكة، والآية التي قبلها فصّلت وعمّمت. سبحانك ربنا ما عبدناك حق عبادتك.

1 خليفة الله في الأرض الإنسان من الخلق إلى البعث، عبد الحافظ سلامة حافظ، ص 65.

الفصل الثالث: حديث القرآن الكريم عن آدم عليه السلام

وردت قصة بدء الخلق وخلق أبينا آدم عليه السلام في القرآن الكريم، والقرين شكل أول وأكمل وأعظم مصدر تاريخي حفظ لنا تلك المرحلة التأسيسة من الخلق وبداية الحضارة الإنسانية الأولى منذ انتقال آدم من الجنة إلى الأرض ومرحلة العمار الأولى. ووردت قصة آدم أكثر ما وردت في سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه...

المبحث الأول: قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة:

- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ

عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة البقرة: 30-39]

أخبر سبحانه وتعالى في هذه السورة ملائكته بأنه سيجعل خليفة في الأرض، والخليفة هو العامر لها، ويخلفه من ذريته خلفاء يتتابعون تناسلاً جيلاً من بعد جيل إلى ما شاء.

وذكر سبحانه وتعالى قصة آدم عليه السلام بعدما ذكر من الآيات الكريمة المتعلقة بأصل الإنسان، وبأن الله عز وجل خلق له ما في الأرض جميعاً، وملّكه حق الانتفاع بها، وأشار إلى خلق السماوات، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: 28-29].

- في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة: 28].

فهذا استدلال قاطع على أن الإيمان بالله أمر مستقر في الفطر والعقول، وأنه

لا عذر لأحد في الكفر به البتة، فذكر تعالى أربعة أمور؛ ثلاثة منها مشـــهودة في هذا العالم، والرابع منتظر موعود به وعد الحق:

الأول: كونهم كانوا أمواتاً لا أرواح فيهم، بل نطفاً وعلقاً ومضغة مواتاً لا حياة فيها.

الثاني: أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة.

الثالث: أنه يميتهم بعد هذه الحياة.

الرابع: أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه، فما بال العاقل يشـــهد هذه الأطوار الثلاثـة الأُوَل ويكـذّب بالرابع، وهـل الرابع إلا طور من أطوار التخليق؟ فالذي أحياكم بعد أن كنتم مواتاً ثم أماتكم بعد أن أحياكم ما الذي يعجزه عن إحيائكم بعدما يميتكم؟ وهل إنكاركم ذلك إلا كفر مجرد بالله؟ فكيف يقع منكم بعدما شهدتموه؟ ففي ضمن هذه الآية الاستدلال على وجود الخالق وصفاته وأفعاله وعلى المعاد[1].

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْـــتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: 29].

بيان نعمة أخرى مرتَّبة على الأولى؛ فإنه خلقهم أحياء قادرين مرة بعد أخرى، وهذه خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم، ويتم به معاشـــهم، ومعنى "لكم" لأجلكم، ولانتفاعكم، وفيه دليل على أن الأصـــل في الأشـــياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم

---

1 بدائع الفوائد، ابن القيم، مرجع سابق، 137/4.

دليل يدل على النقل على هذا الأصـــل، ولا فرق بين الحيوانات وغيرها، مما ينتفع به من غير ضرر، وفي التأكيد بقوله "جميعاً" أقوى دلالة على هذا[1].

وفي قوله: "ثم استوى إلى السـماء فسـواهن"، أيّ: علا عليهن وارتفع فدبّرهن بقدرته، وأتمّهن وأحكمهن وقوّاهن، وخلقهن سبع سماوات[2].

وختم الآية: "وهو بكل شـيء عليم" أيّ: فهو المحيط بكيفية التكوين وحكمته بما ينفع الناس بيانه، وإذا كان العاقل يدرك أن هذا النظام المحكم لا يكون إلا من عليم حكيم فكيف يصح له أن ينكر عليه أن يرسل من يشاء من خلقه لهداية من يشاء من عباده؟[3]

ثم ذكر سـبحانه وتعالى معالم من القصـة الحقيقية لخلق الإنسـان، وعلاقته في خلقته وتكوينه بمخلوقات الله عز وجل من الملائكة والشـيطان ومسـتقبله في الأرض... إلخ.

---

1 محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، 90/2.

2 التدبر والبيان في تفسير القرآن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مرجع سابق، 368/1.

3 تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 251/1.

وإليك تفسير الآيات التي جاءت في قصة آدم في سورة البقرة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: 30].

1. "وإذ قال ربك":

افتتح الله عز وجل الحديث عن قصة آدم عليه السلام بذكر اسم من أسمائه الحسنى، وهو الرب سبحانه وتعالى، ولذلك رأيت أن نعيش مع هذا الاسم العظيم لما له من الأثر في حياتنا ومعرفة أسرار الوجود وقصة الإنسان في هذا الكون، فـ"الرب" من أسماء الله الحسنى التي يدعى بها ويمجَّد بها ويقدَّس بها، وعامة ما جاء في ذكر هذا الاسم الكريم إنما جاء مضافاً إلى الخلق عموماً وخصوصاً؛ مثل:

- "رب العالمين".
- "رب السماوات والأرض".
- "رب الملائكة".
- "رب العرش"، ونحو ذلك.

وورد ذكره في القرآن في أكثر من 90 موضعاً؛ كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة: 2]. وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: 164].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [سورة هود: 66]

وقوله سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [سورة المؤمنون: 97-98]، وقوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سورة سبأ: 15]. وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [سورة الواقعة: 96]. وقد ورد كثيراً في أدعية الأنبياء والصالحين قولهم: "ربنا"[1].

أ. معنى الرب:

قال ابن الأثير: يطلق "الرب" في اللغة على المالك والسيد والمدبّر والمربّي والقّيم والمنعم، ولا يطلق غير مضاف إلا على الله تعالى[2].

وقال الراغب: "والرب" في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام... ولا يقال "الرب" مطلقاً إلا لله المتكفّل بمصلحة الموجودات.

نحو قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سورة سبأ: 15]

وبالإضافة يقال له ولغيره، نحو قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة: 2]

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الدخان: 8] [3]

وقال ابن كثير: "والرب" هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد

---

1 ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص 85.

2 النهاية لابن الأثير، مرجع سابق، 179/2.

3 المفردات، الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص 184.

وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى[1].

ب. اسم الرب من أعظم الممادح التي مجد الله – عز وجل- نفسه بها:

ومن ذلك:

- امتدح الله عز وجل نفسه بأنه "رب العالمين"، والعالمون جمع عالَم، وكل ما سوى الله فهو عالَم، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والنصوص المعرّفة بأنه رب العالمين كثيرة جداً، كما مدح نفسه بأنه رب كل شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: 164]

- تمجيده سبحانه وتعالى بأنه رب العرش العظيم، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة النمل: 26]

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [سورة المؤمنون: 116].

- كما مدح نفسه بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما، قال عز وجل: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [سورة مريم: 65]

- وامتدح الله نفسه تبارك وتعالى بأنه ربنا ورب آبائنا الأولين، قال سبحانه:

---

1 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 23/1.

قَالَ ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الشعراء: 26]

- وقال عن نفسه عز وجل أيضاً "رب المشرق والمغرب"، و"رب المشارق والمغارب"، قال عز وجل: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل: 9]

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [سورة المعارج: 40] [1]

ج. اسم "الرب" من أكثر الأسماء التي يُدعى بها الله عز وجل:

قال السعدي: والرب هو المربّي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم، وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم، ولهذا أكثر دعائهم له بهذا الاسم الجليل؛ لأنهم يطلبون منه التربية الخاصة[2]. وهذا واضح وجلي فيما ذكره الله عز وجل في كتابه الكريم عن أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، وأوليائه الصالحين، حيث صدّروا دعاءهم بهذا الاسم الكريم، ومن ذلك:

- دعاء الأبوين عليهما السلام بقولهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: 23]

- دعاء نوح عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [سورة نوح: 23].

---

1 ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص 88.

2 تفسير السعدي نقلاً عن التدبر والبيان، مرجع سابق، 486/5.

وقوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [سورة هود: 45].

– دعاء موسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ [سورة الأعراف: 151].

﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [سورة الأعراف: 155].

– دعاء يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [سورة يوسف: 33].

وقوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [سورة يوسف: 101].

– دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً﴾ [سورة آل عمران: 38].

– دعاء سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾ [سورة ص: 35].

– دعاء امرأة عمران في قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [سورة آل عمران: 35].

– دعاء عباد الله الصالحين في قولهم: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

[سورة آل عمران: 193-194].

وقولهم: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [سورة الفرقان: 65].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو كثيراً باسم الرب ويمجّده ويعظّمه به، فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (ألا أدلك على سيد الاستغفار اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت...).

- وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه يقول: (اللهمّ رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن...).

- وكان إذا افتتح صلاته من الليل قال: (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض).

- وكان صلى الله عليه وسلم يدعو عند الكرب بقوله: (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم).

والنصوص الواردة في ذلك كثيرة، وهذا يدل على اختصاص هذا الاسم بمعانٍ عظيمة كريمة يتضمنها هذا الاسم الكريم أو يستلزمها[1].

---

1 ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص 91.

د. الرب والإله بينهما اجتماع وافتراق:

أي إنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا؛ وبيان ذلك أن يقال: إذا اجتمع "الرب" و"الإله" في موضع ونص واحد فإنهما يفترقان في المعنى، حيث يتوجه معنى "الرب" إلى المالك المتصرف القادر الخالق المحيي المميت المنفرد بخصائص الربوبية.

و"الإله" يتوجه إلى المعبود المألوه الذي يجب أن يوحّده العباد بأفعالهم، أما إذا افترقا حيث ذكر كل منهما في موضع فإنهما يجتمعان بحيث يدل أحدهما على معناه كما يتضمن معنى الآخر.

- مثال لحالة الاجتماع قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ [سورة الناس: 1-3].

فذكر سبحانه هنا "رب الناس، إله الناس"، وهنا يتوجه معنى "الرب" إلى المالك المتصرف المحيي المميت الخالق البارئ المتفرد بصفات الربوبية، كما يتوجه معنى "الإله" إلى المعبود المألوه المطاع.

- مثال لحالة الافتراق قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة: 163].

وقوله تعالى في كثير من الأدعية القرآنية "ربَّنا، ربّ"، فهنا يتوجه معنى "الإله" في الآية الأولى إلى معنى الألوهية والعبودية لله عز وجل، مع تضمّنه لمعنى الربوبية، ويتوجه معنى "الرب" في الآية الثانية إلى معنى الربوبية والملك والتدبير والخلق، مع

تضمّنه لمعنى العبودية[1].

هـ. من آثار الإيمان باسمه سبحانه "الرب":

إن حديث المولى عز وجل عن قصة آدم عليه السلام مبتدئاً بذكر اسم "الرب" عز وجل هي دعوة للتأمل في هذا الاسم العظيم وآثاره في خلقه، وفي هذا الإنسان المخلوق الجديد وما يستلزمه هذا الاسم "الرب" سبحانه وتعالى من الأسماء والصفات، ويتضمن تعريف الناس غايتهم التي خلقوا من أجلها، وتعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، فكونه ربَّ العالمين لا يليق به أن يترك عباده سدى هملاً لا يعرّفهم بنفسه ولا بما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيه.

فهذا هضم للربوبية ونسبة للرب إلى ما لا يليق: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [سورة المؤمنون: 115].

– الإقرار بربوبية الله عز وجل يقتضي ويستلزم توحيد الله عز وجل وعبادته لا شريك له، إذ إن الخالق لهذا الكون وما فيه، والمتصرف فيه بالإحياء والإماتة والخلق، والرزق، والتدبير، هو المستحق للعبادة وحده، إذ كيف يُعبد مخلوق ضعيف ويُجعل نداً لله تعالى في المحبة والتعظيم والعبادة وهو لم يخلق ولم يملك لنفسه تدبيراً، فضلاً عن أن يملكه لغيره؟ وهذا ما احتج الله عز وجل به على المشركين الذين أقرّوا بربوبيته سبحانه ولكنهم لم يعبدوه وحده، بل أشركوا معه غيره، وقد جاءت هذه

---

1 ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص 96.

الاحتجاجات الكثيرة في القرآن الكريم بأساليب متنوعة منها:

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سور البقرة: 21-22].

- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [سورة الزمر: 38]، فالآيات في هذا كثيرة جداً.

- الإيمان بصفة الربوبية لله عز وجل بمعنى الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا، إذ إن من صفات الرب سبحانه كونه قادراً خالقاً بارئاً مصوراً، حياً قيوماً عليماً سميعاً بصيراً محسناً جواداً كريماً معطياً مانعاً، وقل ذلك في بقية الأسماء والصفات[1].

إن ربوبيته سبحانه إنما تتحقق بكونه فعالاً مدبّراً متصرفاً في خلقه بعلم وبقدر ويريد ويسمع ويبصر، فإذا انتفت عنه صفة الكلام انتفى الأمر والنهي ولوازمها، وذلك ينفي حقيقة الألوهية.

---

1 ولله الأسماء الحسنى، عبدالعزيز الجليل، مرجع سابق، ص 98.

إن الرب هو القادر، الخالق، البارئ، المصـور، الحي، القيوم، العليم، السـميع، البصـير، المحسـن، المنعم، الجواد، المعطي، المانع، الضـار، النافع، المقدم، المؤخر، الذي يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء ويُشقي ويعز من يشاء، ويذل من يشـاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يسـتحقه من الأسماء الحُسنى[1].

– لما كان من معاني "الرب" أنه الذي يربّي عباده وينقلهم من طور إلى طور، وينعم عليهم بما يقيم حياتهم ومعاشـهم، وهو الذي أحسـن خلقهم وأعطى كل شـيء خلقه ثم هدى، فإن هذه المعاني من شـأنها أن تورث قلب العبد المحبةَ العظمى لربه سـبحانه، وحبَّ ما يحبه ومن يحبه، وبغضَ ما يبغضـه ومن يبغضـه، والمسـارعةَ في مرضـاته، وتعظيمه وإجلاله، وشـكره وحمده الحمد اللائق بجلاله وعظمته وسـلطانه وإنعامه. ومن معاني "الرب" أنه المتكفل بأرزاق خلقه، وعنده خزائن السـماوات والأرض، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شـيء قدير، فإن هذه الصفات تورث قلبَ العبد العارف لربه سبحانه قوة في التوكل عليه سبحانه في جلب المنافع ودفع المضار، وفي تصريف جميع أموره؛ فلا يتعلّق إلا بالله تعالى، ولا يرجو إلا هو، ولا يخاف إلا منه سـبحانه، إذ كيف يتعلّق بمخلوق ضعيف مثله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فضلاً عن

---

1 بدائع الفوائد، ابن القيم، مرجع سابق، 212/2.

أن يملكه لغيره؟

- ومن معاني الربوبية اختصاصه سبحانه بجلب المنافع ودفع المضار، وتفريج الكروب، وقضاء الحاجات، فإن العباد –بما أودع الله في فطرهم من معرفة ربهم بهذه الصفات–يلجؤون إلى ربهم ويتضرعون إليه في الشدائد والملمّات، وينفضون أيديهم من كل ما سوى الله عز وجل، وكلما عرف العبد ربه بأسمائه وصفاته أثّر هذا في دعائه وقوة رجائه ولجوئه وتضرّعه لربه سبحانه، والوثوق بكفايته سبحانه وقدرته على قضاء حوائج عباده، ولذلك رأينا في أدعية أنبيائه سبحانه وتعالى وأوليائه تكرار الدعاء بقولهم "ربنا، ربنا"[1].

- ذكر الأسماء الحسنى التي اقترنت باسم الرب تبارك وتعالى:

ورد اقتران اسم الرب سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بأسماء كريمة هي: الرحمن، الرحيم، الغفور، الغفار، العزيز، فقال سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [سورة الفاتحة: 2-3].

وقال عز وجل: ﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة النبأ: 37].

وقال تبارك وتعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [سورة ص: 66].

1 ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص 100.

وقال تبارك وتعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [سورة يس: 58].

وقال سبحانه: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سورة سبأ: 15].

وبتأمّل هذه الأسماء المقترنة باسم "الرب" تعالى نجد أن منها صفة الرحمة والمغفرة، وفي هذا تأكيد أن من أخص صفات "الرب" عز وجل الرحمة والرأفة بعباده، وإنعامه عليهم، وإرساله الرسل إليهم، وإنذارهم وتبشيرهم، وهذه من لوازم التربية العامة، وأما التربية الخاصة من الله عز وجل لأوليائه بتوفيقهم، وحفظهم ورعايتهم، وتربيتهم، فالرحمة والرأفة والمغفرة واضحة جلية في ذلك، والله أعلم، وفي الآية: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [سورة ص: 66].

ورد اسم "العزيز الغفار" وصفة "العزة والغلبة" من موجبات الربوبية والسؤدد[1].

إن اقتران ربوبية برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: 5]، مطابق لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [سورة الفاتحة: 2-3]، فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها، فوسع كلَّ شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه رباً للعالمين ما يدل على علوه على خلقه وكونه فوق كل شيء[2]، كما مر معنا بيانه.

1 ولله الأسماء الحسنى، عبدالعزيز الجليل، مرجع سابق، ص 103.

2 مدارج السالكين، ابن القيم، مرجع سابق، ص 35/1.

2. "للملائكة":

الملائكة جمع مَلَك، واختُلف في اشـــتقاقه؛ فذهب أكثر العلماء إلى أنه من الألوكة وهي الرسـالة، وذهب أبو عبيدة إلى أن أصـله من لاك إذا أرسـل. وقيل: أصـــله من الملك وهو الأخذ بقوة، وقيل: مخفف من "مالك"، وقيل: سموا بذلك لتوليهم تدبير ما أمرهم الله به في الســماوات كما يســمَّى من يتولى تدبير شــؤون الناس في الأرض ملكاً، والقول بأن اشـتقاق الاسـم من الألوكة –وهي الرسـالة– أقرب وأصـــوب من جهة اللغة والمعنى، أما المعنى الآخر فهو من صـــفاتهم عليهم السلام[1].

والملائكة في الشرع هم أجسام عُلوية قائمة بأنفسها، قادرة بالقدرة الإلهية على التشكّل، ذوو قدرات خارقة لا حصر لها، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينكحون، مقرّبون طائعون، لا يعصـــون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء[2].

والذي دلت عليه نصوص الكتاب والسـنة وإجماع المسـلمين أن الملائكة خلق من خلق الله ســبحانه وتعالى خلقهم لعبادته كما خلق الجن والإنس، وهم أحياء عقلاء ناطقون.

1 في الملائكة المقربين، محمد عقيل، ص 15.

2 الواسطة بين الله وخلقه عند أهل السنة ومخالفيهم، المرابط بن محمد يسلم الشنقيطي، ص 105.

وعالم الملائكة غير عالم الجن والإنس، وإن كان الجميع خلق الله، لكنه عالم كريم طاهر، اصطفاه الله في الدنيا لقربه ولتنفيذ أوامره الكونية والشرعية، وجعل الله الملائكة رسله وسفراءه إلى خلقه لإبلاغ وحيه، فأكرمهم الله بهذا، ووصفهم بذلك، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: 26-29].

فأبان الله بهذه الآيات حقيقة الملائكة، وأنهم خلق كريم خلقهم الله لعبادته، ورفع مقامهم وأكرمهم، لكنهم مع هذا الإكرام لم يخرجوا عن مقام العبودية ولا يستطيعون، ولو ادعى أحدهم ذلك مع علوِّ مقامه لعاقبه الله بالنار[1].

أ. منزلة الإيمان بالملائكة:

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان عبد ولا يقبل إلا بتحقيقها، والقرآن الكريم مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم والأمر بالإيمان بهم والتحذير من الكفر بهم، وبيان أحوالهم مع الله ومع الناس، وبيان مراتبهم وأعمالهم؛ فتارة يقرن اسمه باسمهم ويجعل الإيمان به مستلزم الإيمان

1 في الملائكة المقربين، محمد عقيل، مرجع سابق، ص 15.

بهم، وأن البر لا يُنال إلا بالإيمان بهم[1].

- قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [سورة البقرة: 177] .

- وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة البقرة: 285] .

- وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: 18] .

- وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء: 136] .

- وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: 98] .

- وقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة النساء: 172] .

- وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: 17].

[1] المرجع نفسه، ص 16.

- وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [سورة الرعد: 23-24]. وغير ذلك من الآيات.

- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[1]، والأحاديث في ذكر الملائكة كثيرة، قد ذكرتها في كتابي "الإيمان بالملائكة".

إن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره واجب إجمالاً لا يصح إيمان عبد إلا بذلك[2].

وكلما ازداد الإنسان علماً بتفاصيل هذه الأمور لزمه من الإيمان بحسب ما بلغه من ذلك، وهو بذلك يزداد إيماناً[3].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [سورة التوبة: 124] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [سورة المدثر: 31].

والإيمان الواجب يُنال بالعلم، فتعلُّم هذه الأمور على وجه الإجمال فرض عين

---

1 صحيح مسلم، رقم: 8.

2 في الملائكة المقربين، محمد عقيل، مرجع سابق، ص 19.

3 المرجع نفسه، ص 19.

على كل مسلم ومسلمة[1]. **والإيمان المجمل بالملائكة يتضمن عدة أمور منها:**

– الإقرار بوجودهم، وأنهم خلق من خلق الله، خلقهم لعبادته، وهم رسل الله إلى خلقه بما شاء من وحي وغيره، وأن وجودهم حقيقي، وعدم رؤيتنا لهم لا تدل على عدم وجودهم؛ فقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم بعضهم بصورته الحقيقية، ورآهم الأنبياء والصالحون والصحابة وهم متشكّلون بصورة البشر[2].

– إنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله، وإثبات أنهم عباد لله، مأمورون مكلّفون، لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه، وأن الله أكرمهم، ورفع مقامهم عنده، وفضّل بعضهم على بعض، وهم مع هذا لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً من دون الله، وإذا كانوا كذلك فلا يجوز أن يصرف لهم شيء من أنواع العبادة، فضلاً عن أن يوصفوا بصفات الربوبية.

– الإيمان بما ورد في حقهم من الكتاب والسنة.

– الإيمان بمن سمى الله لنا منهم، فنقرّ بهذه الأسماء، وأن لله ملائكة؛ منهم جبريل وميكائيل، فكل من سمى الله لنا واجب علينا الإيمان باسمه، ومن لم يسمَّ لنا نؤمن به إجمالاً[3].

فهذا هو الإيمان المجمل بهم عليهم السلام، وهو فرض عين على كل مسلم،

---

1 في الملائكة المقربين، مرجع سابق، ص 19.

2 الإيمان بالملائكة، علي الصلابي، دار ابن كثير، بيروت، ط1، 1432هـ/ 2011، ص 18.

3 في الملائكة المقربين، محمد عقيل، مرجع سابق، ص 20.

ويجب عليهم أن يتعلموا هذا ويعتقدوه[1].

-خلقهم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم) [2].

وأما متى خلقوا فالله تعالى لم يخبرنا بذلك، ولكننا نعلم أن خلقهم سابق على خلق آدم أبي البشر عليه السلام، فقد أخبرنا الله أنه أعلم الملائكة بأنه سيجعل في الأرض خليفة[3].

- أثر الإيمان بالملائكة في حياة الإنسان:

للإيمان بالملائكة أثر في حياة المسلم يتمثل بما يأتي:

- إن الإيمان بالملائكة يقوي الشعور لدى المسلم بعظمة الله عز وجل، فالملائكة -كما يتضح من صفاقم ووظائفهم في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة- خلق عظيم؛ عظيم في القدرة، عظيم في السرعة.

وهذه العظمة تعكس عظمة الباري سبحانه وتعالى، فهو الله الواحد الأحد، بديع السماوات والأرض، ولا يعدو الملائكة أن يكونوا جنداً من جنوده لتنفيذ أمره وعبادته سبحانه[4].

---

1 المرجع نفسه، ص 21.

2 مسلم، 2294/4.

3 الإيمان بالملائكة، الصلابي، مرجع سابق، ص 18.

4 العقيدة الإسلامية، أحمد الجلي، ص 178.

والمقصود أن العلم بهذه المخلوقات العظيمة -وهي ملائكة الرحمن عليهم السلام- والتدبر في صفاتهم التي أخبرنا بها في القرآن، وثبتت في السنّة، يجعل القلب مضطراً إلى تعظيم خالقه وهيبته، وخوفه ورجائه، فإن خالق هذه المخلوقات العظيمة ولا شك يستحق أن يعبد وحده سبحانه وتعالى، وأن يُتقى بأن يذكر فلا ينسى ويطاع فلا يعصى[1].

قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [سورة الحج: 74-76].

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة الزمر: 67].

وقد احتج العلماء بأحوال الملائكة مع الله عز وجل على وجوب إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة وتعظيمه، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سورة سبأ: 23].

وهذه الآية قيل إنها تقطع عروق شجر الشرك، وهذه الآية تبين حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم من عُبد من دون الله، فإذا كان هذا حالهم مع الله تعالى، وهيبتهم منه، وخشيتهم له، فكيف يدعوهم أحد من دون الله؟ وإذا كانوا لا يُدعون

1 في الملائكة المقربين، محمد عقيل، مرجع سابق، ص 229.

مع الله لا استقلالاً ولا واسطة، فغيرهم ممن لا يقدر على شيء من الأموات والأصنام أولى أن لا يدعى ولا يعبد، ففيه الرد على المشركين جميعاً الذين يدعون مع الله من لا يداني الملائكة ولا يساويهم في صفة من صفاتهم[1].

– تحقيق الإيمان: فمن آمن بالملائكة فقد حقق ركناً من أركان الإيمان، ويلزمه أن يأتي ببقية الأركان، والكفر بهم ولا شك كفر بالله يوجب زوال بقية الأركان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء: 136].

– معرفة الكثير من أسرار الكون والخلق، ما يزيد الإيمان في قلب المؤمن، فيتعرف الإنسان على كثير من أسرار الكون إذا تدبّر الآيات التي ذكر الله فيها الملائكة وما وكّلوا به من أعمال، فينشرح صدره، ويزداد إيمانه، فإذا رأى السحاب عرف أن له ملائكة تسوقه، وهذه الجبال لها ملائكة تتولاها كذلك، والنطفة في الرحم، والميت في قبره ستأتيه، ويوم القيامة سيرى الملائكة فيحبهم ويزداد خشية وتعظيماً[2].

– الحصول على الأمن والطمأنينة؛ فالأمن في الدنيا، والطمأنينة والحياة الطبيعية في الدنيا والآخرة متوقفة على تحقيق الإيمان بالملائكة عليهم السلام.

---

1 المرجع نفسه، ص 230.

2 في الملائكة المقربين، المرجع نفسه، ص 232.

وهناك أمن آخر وطمأنينة حسية في الدنيا تحصل لمن حقق الإيمان بالملائكة؛ وذلك أن الإنسان إذا عرف أن الله تعالى قد وكّل به ملائكة يحفظونه بأمر الله ويحفظونه من أعدائه، اطمأنت نفسه، وسكن قلبه، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه إن ذكر الله ببعض الأذكار المشروعة؛ كآية الكرسي، وسورة الإخلاص، والمعوذتين، ونحو ذلك أرسل الله تعالى ملائكة يحفظونه من أعدائه، وتوكّل عليه، وابتعد عما لا ينفعه من الذهاب إلى الكهان والسحرة ونحوهم، لأنهم لا يزيدونه إلا خوفاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن: 6].

وأينما كنت وأينما توجهت في بر أو بحر، وأرض أو سماء، وليل أو نهار، فإن معك ملائكة لا يفارقونك أبداً، فاحرص على الأذكار المشروعة حتى تحصل على الأمن والطمأنينة، ولذلك أرسل الله الملائكة إلى النبي صلى الله عليه وأصحابه في الغزو لتثبيتهم، كما قال سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [سورة الأنفال: 9-12].

– الإيمان بالملائكة يعكس مركز الإنسـان الكبير في الكون؛ فالملائكة الذين هم أشد منا قوة وأقوى سريرة قد أمروا بالسجود لآدم عليه السلام، وسُخّروا لتدبير أمور حياتنا في الدنيا والقيام بشـؤونها في الآخرة، وفي هذا تنبيه للإنسـان الذي جعله الله خليفة في الأرض لكي يعرف قيمته وقدره، وأن يتصرف بناء على ذلك، فيسلك الصراط المستقيم، ويتجنب طريق الغواية والضلال، وقد قال الشاعر:

قد رشـحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسـك أن ترعى مع الهمل[1]

– الإيمان بالملائكة يدفع الإنسـان إلى التشـبه بهم؛ في الإقدام على الطاعات والابتعاد عن المعاصي، فحينما يعلم الإنسان أن الملائكة يسبّحون الليل والنهار لا يفترون، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، يحمله ذلك على التشبّه بهم، والسـير على نهجهم، فتقوى بذلك روحه المعنوية، ويتدرج في مدارج الكمال، وقد نبّه الإمام الغزالي إلى هذا المعنى في بيانه لأسـرار العبادات؛ ففي بيانه لأسـرار الصـوم قال: إن المقصـود به الاقتداء بالملائكة في الكف عن الشـهوات بحسـب الإمكان؛ فإنهم منزّهون عن الشـهوات... وكلما قمع الإنسـان الشـهوات ارتفع إلى أعلى عليين، والتحق بأفق الملائكة.

والملائكة مقربون من الله عز وجل، والذي يقتدي بهم ويتشـبه بأخلاقهم يقرب من الله عز وجل كقربهم، فإن الشـبيه من الشـبيه قريب. وفي بيانه لأسـرار الحج

1 الإيمان بالملائكة، الصلابي، مرجع سابق، ص 158.

يقول: واعلم أنك بالطواف متشبّه بالملائكة الحافّين حول العرش الطائفين حوله[1].

- إن الإيمان بالملائكة يدفع الإنسان إلى الاستحياء من الله تعالى، والبعد عن معصيته في السر والعلن، فإذا آمن الإنسان بأن الملائكة تغشاه مجالسه وتتولى كتابة أعماله، وأنهم يتعقّبونه في صحوه وغفلته، وفي سفره وحضره، فلن يستسهل الإقدام على المعصية أو اقتراف الخطيئة، وقال الشاعر:

ولكل عبدٍ حافظانِ لكل ما يقع الجزاء عليه مخلوقانِ

أُمرا بكَتْبِ كلامه وفعاله وهما لأمر الله مؤتمرانِ[2]

- الانتباه إلى أن هذه الحياة الدنيا فانية لا تدوم:

حين يتذكر الإنسان ملك الموت المأمور بقبض الأرواح حين يتوفاها، ومن ثم فلا تستحق هذه الحياة الدنيا أن ينشغل بها الإنسان عن الآخرة، ويكفيه منها الحلال الطيب الذي أباحه الله عز وجل.

- عمل الحساب للآخرة:

حين يتذكر الإنسان ترحيب الملائكة بالمؤمنين في الجنة، وتعذيبهم للكفار في النار، فيحبّ أن يكون ممن أنعم الله عليهم بجنته ورضوانه، ووقاهم عذاب

---

1 إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، 269/1.

2 الإيمان بالملائكة، الصلابي، مرجع سابق، ص 160. نونية القحطاني، ص 16.

السموم[1].

إن الإيمان بالملائكة له أهميته في حياة الإنسان، ولذلك جاء ذكرها في بداية قصة آدم عليه السلام، وأخذت حيزاً من الحديث الرباني عنها في كتاب الله عز وجل؛ لترسيخ الإيمان بهم، وتجدد المحبة والمودة والصحبة مع عباد الله الأبرار الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والذين يربطنا بهم تحقيق العبودية الخالصة لخالقنا العظيم[2].

إننا نجد الكثير من المسلمين لا يهتمون بتفاصيل الإيمان بالملائكة، وإنما يكتفون بكلمات عامة يطلقونها، وإذا ذهبنا في الاتجاه المعاكس نرى اهتمام الناس بالكتب التي تتحدث عن الشياطين والجن والسحر والعين والحسد... إلخ، ولا يمكننا المقارنة من حيث الكم بين المؤلفات التي تتحدث عن الملائكة وغيرها من الأمور التي ذكرتها؛ فإن الكتب التي أُفردت للحديث عن الملائكة لدى الكتّاب المعاصرين قليلة جداً، على حسب علمي واطلاعي، كما أن حديث العلماء والدعاة والفقهاء وطلاب العلم وأهل الفكر والثقافة في وسائل الإعلام؛ كالفضائيات وغيرها، عن الملائكة نادر من حيث التفصيل والتوضيح والبيان، مع أن لهم صلة قوية بالإنسان قبل مولده، وأثناء حياته، وعند مماته، وفي داره البرزخية، وعند البعث والحياة الآخرة، ولهم في كل المراحل أعمال يقومون بها.

---

1 ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص 188.

2 الإيمان بالملائكة، الصلابي، مرجع سابق، ص 7.

والملائكة المقربون هم أصحاب الدعاء العظيم لأهل الإيمان الذي ذكره الله لنا في كتابه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة غافر: 7-9].

فهذا الدعاء من الملائكة المقربين لأهل الإيمان من بني الإنسان، الذي تقشعر منه الأبدان، يحتاج لتأمل وتفكر وتدبر.

وعلى المسلمين أن يجدّدوا علاقتهم الإيمانية بالملائكة، فالكثير منا أصابه ضعف وفتور، وربما النسيان، في علاقته بالملائكة، وهذا من وساوس إبليس وطرقه الخبيثة لكي يجعل الناس يلهثون خلف الشياطين والسحرة... إلخ، ويتركوا من جعلهم الله سبباً في حمايتهم من المخلوقات الشريرة وغير المنظورة، قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [سورة الرعد: 11]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [سورة الأنعام: 61].

"وهو القاهر فوق عباده" أي: وهو الذي قهر كل شـــيء، وخضـــع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شـــيء. "ويرســـل عليكم حفظة" أي: من الملائكة بَدَنَ الإنســـان[1]، وقال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [ســورة الطارق: 4]، أي: حافظ يحرسها من الآفات[2].

3. "إني جاعل في الأرض خليفة":

عبّر ســبحانه وتعالى عن الأمر المســتقبلي باســم الفاعل "جاعل" الدال على الثبوت والاستقرار، ولم يعبّر بالفعل المضـارع "سـأجعل" الدال على ما سـيحدث؛ لأن الأمر ثابت مســـتقر مفروغ منه ولا راد له، لأن ما أراده الله واقع، فبما أنه ســبحانه قدّر ذلك وأراده فقد اختار له كلمة تدل على الإنجاز والتحقيق، ولذلك قال: "إني جاعل". والمراد بالأرض في الآية الأرض المعروفة التي خلقها الله وهيّأها وجهزها لحياة الخليفة عليها، بما فيها من مظاهر الحياة المختلفة.

وتدل جملة "إني جاعل في الأرض خليفة" على أن هذا الخليفة سـتكون إقامته في الجنة مؤقتة؛ لأنه لم يُخلق للإقامة فيها في الفترة الأولى من حياته، إنما خلق ليكون خليفة في الأرض، وليسكن في الأرض وليعمرها ويصلحها.

قال الله هذا القول للملائكة من باب الإعلام والإخبار، أي إنه أخبرهم بما

1 صحيح تفسير ابن كثير، العدوي، 27/2.

2 المرجع نفسه، 625/4.

سيفعله سبحانه ليكون عندهم علم وخبر به[1]، وليس للاستئذان من الملائكة، فإنه ليس لأحد من الخلق مع الله شراكة في شيء من شؤونه، فهو سبحانه وتعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيْدُ﴾ [سورة هود: 107]، ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 23].

كما أن هذا الإعلام ليس للمشورة؛ لأن الله تعالى منزّه عن الحاجة إلى المشورة، لأنه إنما يطلب المشورة من غيره من قد يخفى عليه وجه الصواب فيما يطلب فيه المشورة، والله عن كل هذا مستغنٍ، لأنه تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [سورة آل عمران: 5]. قد علم ما كان على كان وما يكون كيف يكون، وهو بكل شيء عليم، إذن فالمقصود من هذا الإعلام بخلق آدم هو تكريم الله تعالى ملائكته بهذا الإعلام، ثم هو أيضاً تنويه بهذا المخلوق؛ أي آدم عليه السلام.

ولا يمنع أن تكون مع هذه الحكمة حكم أخرى؛ كإطلاع الملائكة على ما خفي عليهم من حكمة خلق آدم عليه السلام، ليكون منهم السؤال عن وجه الحكمة من خلق مَن شأنه الإفساد في الأرض، ويكون من الله إحاطتهم علماً بحال هذا المخلوق بما لم يكونوا يعلمون[2].

قال القرطبي: قال أرباب المعاني: خاطب الله الملائكة لا للمشورة، ولكن

1 سيرة آدم، صلاح الخالدي، ص 43.

2 قصة آدم، عمر إيمان، ص 63.

لاستخراج ما فيهم من رؤية الحركات، والعبادة، والتسبيح، والتقديس، ثم ردهم إلى قيمتهم فقال عز وجل: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [سورة البقرة: 34] [1].

وقال ابن عاشـــور: قال المفســـرون: وقول الله موجَّه إلى الملائكة على وجه الإخبار ليشوِّقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وجهٍ يُزيل بما علم الله أنه في نفوســـهم من ســـوء الظن بهذا الجنس... ولتنبيه الملائكة على ما دقّ وخفي من حكمة خلق آدم[2].

"إني جاعل في الأرض خليفة"، وإذن فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى، ففيم إذن كانت تلك الشـــجرة؟ وفيم إذن كان بلاء آدم؟ وفيم إذن كان الهبوط على الأرض؟

وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى، ثم قال: ولعلني ألمح أن هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإيقاظاً للقوى المذخورة في كيانه، وتدريباً على تلقّي الغواية، وتذوّق العافية، وتجرّع الندامة، ومعرفة العدو، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين، أي إلى جناب الله عز وجل[3].

أ. معنى خليفة:

في الاســـتعمال القرآني ترد كلمة "خليفة" بالمفهوم الحياتي البنائي الشـــامل،

---

1 تفسير القرطبي، مرجع سابق، 263/1.

2 تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1984، ص 64.

3 في ظلال القرآن، السيد قطب، مرجع سابق، 31/1.

فمهمة الإنسان عمارة الأرض، ولهذا خُلق: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود: 61].

- "إني جاعل في الأرض خليفة"، الملائكة ظنوا أنفسهم أهلاً للخلافة بالتسبيح والتقديس، فكشف لهم أن المهمة لا تتم بمجرد هذا؛ هي مهمة البناء، والكدح، والأعباء، مهمة لا يقوم بها إلا من كان مخلوقاً من الأرض، المهمة منوطة بمن أصله الطين والتراب والماء، الخلافة في الأرض هي عبادة آدم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: 56]، فالصلاة والذكر وإصلاح الأرض والضرب فيها وكشف أسرارها أعمال صالحة تتعاضد وتتكامل.

- "الخلافة" لا تكون إلا حين يكون هذا الكائن يخلف بعضه بعضاً في عبادة تراكمية اختيارية، تقوم على تلك الأمانة العجيبة التي أبت السماوات والأرض والجبال حملها فحملها الإنسان ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: 72].

- الخلافة تقوم على حرية إرادة هذا الكائن وحرية اختياره؛ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد: 10].

- الخلافة والاستعمار في الأرض تجعل الكشف والبناء والعلم والاختراع لخدمة الإنسانية مهمة ربانية وليست أمراً هامشياً أو ثانوياً.

- الإنسان خُلق ليُستخلف وليس ليكون نسخة أخرى من الملائكة.

- والاستخلاف هو عمارة الأرض بحسب نظام الله، والتسبيح والذكر عونٌ

ومددٌ لإنجاز المهمة والصبر على تبعاتها وتكاليفها ومشقاتها، والصلة بالله هي للأمل والحب والتسامح والنجاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

– ليست الخلافة مهمة سياسية فحسب، بل هي تكليف معرفي وإنساني واسع. الله حاضر لا يغيب، وفي حديث السفر: (اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل)[1].

– الإنسان ليس خليفة عن الله، بل هو خليفة من الله[2].

– إن جمهور المختصين ذهبوا إلى أن المراد بالخليفة في الآية المذكورة آدم وذريته، والمستخلِف لهم هو الله عز وجل[3].

– ليس المقصود بالخليفة شخص آدم فقط، بل المقصود به نوع الإنسان عامة، فالآية جاءت في معرض الإخبار بخلق نوع جديد وليست في معرض البيان لأحوال خاصة بشخص آدم.

– هذه الخلافة في الأرض تتطلب تنفيذ مراد الله في إقامة الحياة على الأرض، إذ من معاني الاستخلاف التكليف بتنفيذ الأوامر التي تصب في تعمير الأرض وتحقق عبودية الله عز وجل، والاستخلاف في هذا المقام هو استخلاف تشريف

---

1 علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، سلمان العودة، ص 94.

2 المرجع نفسه، ص 94.

3 لا يأتيه الباطل، محمد سعيد رمضان، ص 132.

للخليفة[1].

- إن غاية حياة الإنســـان هي إذن في نطاق عقيدة الخلافة أن يقوم بحركة تعمير في الأرض وفق أوامر الله ونواهيه، بحيث يكون في كل منشـــط مادي أو معنوي متجهاً إلى الله تعالى؛ يســـتجلي مراده ويتحرّاه ويبتغي مرضـــاته، ويجدّ في الفوز بها، وبهذا المعنى تكون حركة الإنســـان على الأرض في كل اتجاهاتها الفردية والجماعية والمادية والمعنوية حركة عبادة لله تعالى[2].

ب. أصل البشرية:

- "إني جاعل في الأرض خليفة" يؤكد هذا النص القرآني الكريم أن أصـــل البشـرية كلها زوج واحد خلقه ربنا تبارك وتعالى خلقاً خاصـاً بـــ "الخليفة"؛ لأنه تعالى وضع في بنائه القدرة على التزاوج وإنتاج سلالة خصبة ملأت الأرض ببلايين من الأفراد الذين عاشـــوا وماتوا، وبالبلايين الذين يملؤون جنبات الأرض اليوم، وبالبلايين الذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة.

وهذا من معاني لفظ "الخليفة"؛ لأن البشر يخلف بعضهم بعضاً على الأرض، ولأن كل فرد منهم مستخلَف من الله تعالى على الأرض استخلافَ تكريم وتشريف مع الابتلاء والامتحان لكل فرد من بني الإنسان.

---

1 فقه التحفيز الإسلامي، عبدالمجيد النجار، ص 52.

2 فقه التحفيز الإسلامي، عبدالمجيد النجار، مرجع سابق، ص 52.

وحقيقة الخلق الخاص للإنسان طمرتها الحضارة المادية المعاصرة تحت ركام فكرة "التطور العضــوي"، وهي فكرة أشــاعها عدد من شــياطين الإنس للتخلص من الإيمان بالخلق ومن الســـجود للخالق عز وجل في طاعة وعبودية كاملتين، وقد أغواهم الشـيطان بذلك عن طريق السـجل الأحفوري الذي يشـير إلى قدم الحياة على الأرض (نحو 3800 مليون سـنة)، وإلى قصـر سـلالة الإنسـان عليها (نحو أربعين إلى خمسـين ألف سـنة فقط)، وإلى تدرج عمارة أرضـنا بموجات متتابعة من صـــور الحياة التي بدأت بقلّة من العدد وببســـاطة من البناء والتركيب، ثم تزايدت عـدداً وتعقّـدت بنـاء وتركيباً مع الزمن، على الرغم من عـدم تكـامـل الســـجـل الأحفوري وكثرة الثغرات به.

وهذه الملاحظة العلمية الصحيحة استخدمتها الحضارة المادية المعاصرة في محاولة يائســة لنفي عملية الخلق، والتنكُّر للخالق ســبحانه وتعالى، انطلاقاً من ادعاءات ثلاثة:

أولها: الادعاء الباطل بعشــوائية تخلّق الصــورة الباكرة للحياة، وقد أثبت العلم استحالة ذلك.

وثانيها: الادعاء بعشــوائية التدرج في تتابع الحياة، علماً بأن هذا التتابع يســير دوماً إلى تكامل في الخلق، والعشوائية تعجز عن تحقيق ذلك التكامل.

وثالثها: الادعاء الباطل بأن الإنسان منبثق عن سلسلة الحياة الحيوانية السابقة

على وجوده، وهذا ما لم يستطع أحد إثباته من أدعياء التطور العضوي حتى اليوم؛ وذلك لتميز الصفات التشريحية والوراثية الخاصة بالإنسان عن جميع المخلوقات السابقة على وجوده، مع التسليم بوحدة البناء في الخلائق جميعاً، وهي تشهد على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى، وإذا أضفنا إلى ذلك الذكاء الواضح في الإنسان، وقدراته الذهنية الحاضرة، وتمكّنه من الإدراك والشعور والانفعال بدرجات متميزة، ومن التعبير عن انفعالاته ومشاعره بوضوح، ومن النطق بالكلام المنطقي المرتب، بالإضافة إلى قدرته على اكتساب المعارف وتعليمها، وعلى إتقان المهارات وتوريثها، وغير ذلك من القدرات التي اختص بها الله تعالى الإنسان، يتضح زيف المحاولات البائسة لربط الإنسان بسلسلة الحيوانات السابقة على وجوده.

ومن أبرز الأدلة على نفي الفكرة الخاطئة التي تنادي بأن الإنسان متسلسل عما قبله من الحيوانات هو حقيقة التسلسل الوراثي الذي ينتهي بنسب البشر جميعاً إلى أب واحد وأم واحدة؛ هما اللذان وصفهما ربنا تبارك وتعالى مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين بقوله العزيز: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: 30].

وأكد ربنا تبارك وتعالى حقيقة خلق أبوينا آدم وحواء من نفسٍ واحدةٍ فقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء: 1].

- كذلك أكد الله الخالق سبحانه وتعالى خلافة البشر بعضهم لبعض وهم من أصـــل واحد، فقال وقوله الحق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: 13].

ويؤكد القرآن الكريم أن البشر جميعاً (إلى قيام الساعة) كانوا في صلب أبيهم آدم عليه السلام لحظة خلقه، وأن الله تعالى قد أسجد الملائكة لأبي البشر، ونحن جميعاً من صـــلبه، فكأنما أســـجدهم لنا جميعاً نحن الخلفاء في الأرض، آدم وجميع نســـله، إلى آخر فرد من هذا النســـل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [سورة الأعراف: 11].

ومن هنا تتضـــح ومضـــة الإعجاز الإنبائي والعلمي في قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [ســـورة البقرة: 30]، وذلك يدل بالتأكيد على الحقيقة التاريخية لأبوينا آدم وحواء عليهما الســـلام، اللذين أرادت الحضارة المادية المعاصرة إنكار وجودهما إنكاراً تاماً، ورد البشرية إلى عدد من الأصول الحيوانية المختلف عليها دون دليل قاطع[1].

ويؤكد القرآن الكريم أن آدم عليه السلام هو أبو البشر جميعاً، وأول أنبياء الله

---

1 من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، زغلول النجار، 81/1.

جميعاً، وأن الله خلقه من أديم الأرض بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلّمه مِن عِلمِه، وأسجد له الملائكة سجود احترام وتوقير، وأدخله هو وزوجه الجنة، ثم استخلفه ونسله في الأرض، وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

ولفظ "خليفة" في هذا النص القرآني الكريم جاء بالإفراد، ما دفع بعض المفسرين إلى اعتبار الخليفة هو آدم وحده، ولكن لما كانت ذرية آدم جميعها قد خُلقت في صلبه لحظة خلقه، كانت خلافة الأرض لآدم لجميع بنيه من بعده إلى قيام الساعة[1]، والخليفة اسم يصلح للواحد والجمع، كما يصلح للذكر والأنثى[2].

وعلم الوراثة يقول عن الفرد منا، الذي يتكون جسده من ألف تريليون خلية في المتوسط: إنه يُردّ إلى خليتين تناسليتين لا تُريان بالعين المجردة؛ إحداهما من الأب والأخرى من الأم، ويرد جسد كل واحد من الآباء والأمهات بالتسلسل الزمني حتى يصل بكل واحد منهم إلى خلية تناسلية من أبينا آدم وأخرى من أمنا حواء، عليهما رضوان الله، ومعنى ذلك أن البشر جميعاً الذين عاشوا وماتوا، والذين يملؤون جنبات الأرض اليوم، والذين سيأتون من بعدنا إلى قيام الساعة، كانوا في صُلب أبوينا آدم وحواء عليه السلام لحظة خلقهما، لذلك عبّر النص الكريم – الذي نحن بصدده- عن هذه البلايين التي تعد ولا تحصى باللفظ المفرد "خليفة".

ولما كان علم الوراثة هو من أحدث المعارف المكتسبة، فإن سبق القرآن الكريم

1 المرجع نفسه، 81/1.

2 قصة آدم، عمر إيمان أبو بكر، مرجع سابق، ص 65.

بالإشارة إلى تلك الحقيقة العلمية من قبل ألف وأربعمائة سنة يعد واحداً من أوجه الإعجاز العلمي والإنبائي في كتاب الله، الذي أكد حقيقة وجود بني آدم جميعاً في صلب أبيهم آدم عليه السلام لحظة خلقه، وذلك بوصف استخلاف آدم وذريته في الأرض بالإفراد "خليفة"، وزاد القرآن الكريم في تأكيد هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: 172].

ج. الخلافة ليست تسلطاً على الناس:

الخلافة ليست تسلطاً على الناس بالأحكام، فلماذا أقضي جزءاً من عمري في ملاحقة الآخرين واتهامهم وتصنيفهم؟ ألم يكن الأجدر بي أن أقوم بمهمتي عبر عزل غصن الشوك عن طريقهم؟ وأن أدع أمرهم إلى خالقهم؟

هل الإحساس الزائد بالاحتساب على الناس يربّي فينا الفضول وشدة الملاحظة؟

هل هو ينمي الحاسة السادسة التي تجعلنا نشمّ ونتخيل ما لم تره أعيننا ولم تسمعه آذاننا؟

لِمَ نلمح الخطوة الأولى –وقد تكون من اللَّمَم–فنتوقع أن صاحبها قد أفضى إلى الخطوة العاشرة؟ هَبني رأيت امرأً على معصية، أفما كان ستر الله الذي وسعني يسعه؟

كنت أظن الخلافة معنى خاصــاً بآدم، أو بأصــحاب المســؤولية الكبرى، ثم تذكرت قول رســول الله صــلى الله عليه وســلم: (كلكم راعٍ وكلكم مســؤول عن رعيته)، حتى ذكر الرجل والمرأة والخادم.

سألت نفسي: ما الذي سيتغير في شخصيتي وحياتي وتعامل الأشياء من حولي لو استشعرت مفهوم أنني مستخلف على هذه المسؤولية مهما صغرت، ومسؤول عنها أحفظت أم ضيّعت، وأن بذلك نجاتي أو عطبي؟

لقد وصلت[1].

إن مفهوم الخلافة يدخل في الســـياســـة، والاقتصـــاد، والحياة الاجتماعية، والرياضـية، والفنية، والأدبية والشـعرية، وفي كل نواحي الحياة، إذا عاش كل إنسـان في أي مجال من مجالات الحياة بالقيم الإنســـانية الجميلة، وتقرّب بها إلى الله عز وجل، وتناغم مع الكون في الإصـلاح، وحارب الفسـاد، فكل إنسـان بهذا المفهوم هو خليفة في هذه الأرض.

د. الغاية والحكمة من خلق الإنسان:

إن الحكمة من خلق الإنســـان حددها ووضـــع معالمها الله ســـبحانه وتعالى، فالحكمة ســـابقة على الخلق، وقبل أن يبرز آدم عليه الســـلام من العدم إلى الوجود بيّن الله تعالى الحكمة من وراء خلقه؛ ألا وهي الخلافة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

1 علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، العودة، مرجع سابق، ص 99.

لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: 30].

وهذه الآية الكريمة إنما هي إحدى الأجوبة الثلاثة التي ذكرها القرآن الكريم لتحديد الغاية والحكمة من خلق الإنسان، وتلك الآيات هي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: 56].

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: 30].

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: 110].

وهذه الدعوة هي حقيقة هذه الأمة التي أكسبتها صفة الخيريَّة على سائر الأمم قبلها. إذن مهمة الإنسان في الحياة لا تنحصر في دائرة الشهوات، وإلا تردّى إلى مرتبة البهائم، وإنما خُلق ليكون خليفة قائماً يَدين الله في نفسه، عابداً لربه، داعياً غيره لطاعة الله وامتثال أمره.

ومتى قام بهذه المهمة فهو كالشجرة الطيبة التي تثمر أطيب الثمار وأحلاها، وتؤتي أُكُلَها كل حين بإذن ربها، ومن غفل عن غاية وجوده فهو كالشجرة العقيم التي لا ثمر لها، فتكون نهايتها هي القطع، وتصبح حطباً ووقوداً مع الحجارة للنار[1].

---

1 وقفات في حياة الأنبياء، خالد عبد العليم، ص 13.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [سورة البقرة: 30].

وفي هذا دليل على أن الملائكة كانوا على علم بأن مراد الله من خلق الأرض وأهلها هو الصلاح لا الفساد، والطاعة لا المعصية، ولهذا لم تفهم الملائكة وجه الحكمة من هذا المخلوق الذي من شأنه أن يفسد في الأرض مع ما تقرر في أذهانهم من أنه لا شيء أبغض إلى الله من إفساد الأرض وسفك الدماء، فلم يكن لها بدٌّ من استكشاف وجه الحكمة من خلق هذا المخلوق بقولهم: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟".

مما هو معلوم أن الملائكة لا يسبقون الله بقول ولا يعصون له أمراً، وهم إلى ما يأمرهم مبادرون، وإنما أقدموا على هذا السؤال لأنهم فهموا من إعلام الله إياهم بخلق هذا الخليفة أن يُظهروا ما لديهم من علمٍ تجاه هذا المخلوق، فكان هذا السؤال طلباً للحكمة من خلقه، واستكشافاً لما خفي عنهم، وكان من الله هذا الجواب: "إني أعلم ما لا تعلمون"، فأوقفهم الله على الجانب الآخر لهذا المخلوق الجديد من الصلاح، وأنه يتحقق ببعضهم من الخير أضعاف أضعاف ما يحصل من بعضهم من الفساد.

وعليه لم يكن هذا الاستفهام من الملائكة اعتراضاً على الله فيما أراد من خلق هذا المخلوق، كما أنه لم يكن حسداً من الملائكة لآدم عليه السلام، كما يقوله

بعض النـاس[1]. وقـال البغوي: لم يكن هـذا من الملائكـة على طريق الاعتراض والعجب بالعمل، بل على سبيل التعجب وطلب وجه الحكمة[2].

وبمثل ذلك قال أيضـاً ابن كثير، وزاده إيضـاحاً فقال: وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسـد لبني آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسـد في الأرض ويسـفك الدماء[3]؟

إن اسـتفهام الملائكة لا يمكن أن يكون إنكارياً، وإنما أرادوا أن يعرفوا الحكمة من اسـتخلاف آدم؛ من باب العلم وزيادة اليقين، إنهم يؤمنون بحكمـة الله في أفعاله، وبما أنه أراد اسـتخلاف آدم فهذا هو الصـواب، ولكنهم لا يعرفون وجه الصـواب، فسـألوا الله عن ذلك من باب "الاستفهام". كما أنهم يقولون: أخبرنا يا ربنا عن الحكمة من جعلك آدم خليفة لنعرفها ونزداد بذلك علماً ويقيناً، ولذلك أجابهم الله عن سؤالهم مبيناً لهم حكمته من ذلك الاستخلاف[4].

---

1 قصة آدم، عمر إيمان أبو بكر، مرجع سابق، ص 68.

2 معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، 79/1.

3 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 216/1.

4 مواقف الأنبياء في القرآن، صلاح عبدالفتاح الخالدي، ص 20.

1. كيف عرفت الملائكة إفساد الخليفة وسفكه للدماء؟

إن الملائكة لا يعلمون الغيب إلا ما علّمهم الله منه، فلا بد أن يكونوا قد علموا ذلك بوجه من الوجوه، ولا سيما أن الله سبحانه وتعالى قد أقرّهم على ذلك ولم ينكر عليهم، والدليل على صدقهم في ذلك أن من يعصي الله ويفسد في الأرض من بني آدم أكثر ممن يطيع الله فيها بالصلاح والاستقامة، كما هو مشاهَد، وقد تباينت أقوال أهل العلم في الطريقة التي علمت بها الملائكة أن هذا الخليفة يفسد في الأرض، وهذا ملخص أقوالهم:

- قال بعضهم: إن الله هو الذي أطلع الملائكة على ذلك، وعليه فإن في الكلام حذفاً؛ وتقديره "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" يفعل كيت وكيت.

- وقال بعضهم: إن الملائكة اطلعت على ذلك من اللوح المحفوظ، إذ فيه كل ما كان وما يكون.

- وقال آخرون: إنهم قاسوا هذا الخليفة على الأمة التي تقدمت عليه في الأرض من الجن، وقد أفسدوا، فقاسوا أحد الثقلين على الآخر.

- وقال بعضهم: إنهم علموا ذلك بما ثبت في علمهم أنهم وحدهم هم المعصومون، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم.

ولا شك أن بين ما ذكره هؤلاء العلماء من الأقوال ما يُعلم بطلانه ويُقطع بعدم صحته؛ كقولهم إن الملائكة علمت بذلك من اللوح المحفوظ؛ لأن الملائكة لا

تعلم بكل ما في اللوح المحفوظ، وإنما تعلم منه ما علّمهم الله.

وكذلك قولهم: إنهم قاسوه على الأمة التي تقدمت على آدم، وهو خطأ؛ إذ لا قياس بمعدوم لا يُعلم حاله على موجود طُرد جدهم الأعلى –وهو إبليس–من رحمة الله، فكما لا يصح قياس آدم، أحد الأنبياء، بإبليس اللعين، كذلك لا يصح قياس ذريته من الإنس على ذريته من الشياطين[1].

وقد رجح الدكتور عمر إيمان أبو بكر ما ذكره ابن كثير عن القرطبي، حيث قال: علموا ذلك بما فهموه من الطبيعة البشرية؛ فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم، ويرد عنهم المحارم والمآثم[2].

وهؤلاء العلماء ذكروا هذا القول ضمن تلك الأقوال، ولم يرجّحوا واحداً منها، وإنما رجّحتُ هذا القول على غيره لدليل أن إبليس –عليه لعائن الله– استدل بصورة آدم على أنه خلق لا يتمالك عن الوقوع في المعاصي، كما ثبت ذلك من حديث أنس، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لما خلق الله آدم تركه الله ما شاء أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك) [3]، فإذا كان إبليس، وهو الجاهل، قد أدرك طبيعة آدم من خلال صورة هيكله، وأن

1 قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 70.

2 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 216/1.

3 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 216/1.

ذريته ممن تقع منهم المخالفات، فالملائكة الموكلون على بني آدم في متابعة كل ما يصدر عنهم؛ من ابتداء خلقهم إلى مماتهم، أولى أن يعرفوا بحاله من إبليس اللعين[1].

وقد رجّح ابن عاشـــور هذا الرأي على غيره بقوله: والأظهر أنهم رأوه بعد نفخ الروح فيه، فعلموا أنه تركيب يستطيع صاحبه أن يخرج عن الجبلة إلى الاكتساب، وعن الامتثال إلى المعصية... إلى أن قال: فمجرد مشاهدة الملائكة لهذا المخلوق العجيب المراد جعله خليفة في الأرض كافٍ في إحاطتهم بما يشـــتمل عليه من عجائب الصفات على نحو ما يظهر منها في الخارج، لأن مداركهم غاية في السمو لسلامتها من كدرات المادة[2].

لعل هذا ما توقعوه من الخليفة بفراســـتهم الإيمانية، أو لعلهم ســـألوا الله عما سيكون من هذا الخليفة في المستقبل في الأرض، فأخبرهم أنه سيكون منه إفساد وسفك للدماء، فسألوه عن حكمة استخلافه مع ما سيفعله من شرور.

لعل هذا، ولعل ذاك، ولعل هناك تفســـيراً آخر لا نعلمه، ونقدم هذا من باب النظر والاجتهاد والتأويل والاحتمال لا من باب الجزم واليقين؛ لأننا لا نملك أدلة على الجزم، ونقدم هذا الاحتمال من باب غلبة الظن، والله أعلم.

ولقد كان ما توقعته الملائكة من الخليفة صحيحاً، بدليل أن الله لم يخِّطئهم فيه،

---

1 قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 71، الفساد في الأرض وموقف الإسلام منه، أسامة ظافر كبارة، ص 54.

2 التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، 211/1.

فلم يقل: لا لن يفسد في الأرض ولن يسفك الدماء، واكتفى بالإحالة على علمه: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: 30]، ثم بين لهم حكمة استخلافه للخليفة رغم الإفساد وسفك الدماء بعد ذلك[1].

2. الإفساد وسفك الدماء من لوازم تعمير الأرض:

الذي سيُفسد في الأرض وسيسفك الدماء ليس هو الخليفة الأول آدم أبا البشر، عليه السلام، لأنه نبي صالح مصلح، إنما سيحصل ذلك من الكثير من ذريته، وهم الكافرون الظالمون، وإن الإفساد في الأرض وسفك الدماء من لوازم الخلافة في الأرض وضريبة لا بد منها؛ لأن الناس عندما يُستخلفون على الأرض سيختلفون ويتنازعون، وسيتصادمون ويتقاتلون، وستتعارض مصالحهم وتتصادم أهواؤهم، كل يريد ما يحقق مصلحته وشهوته وهواه.

وعندما يحصل ذلك سيتحقق الفساد في الأرض، وتخريب بعض ما فيها في معمعة الصراع، وستُسفك الدماء الكثيرة التي تقدم على مذابح إرضاء المصالح والأهواء والشهوات.

لكن هذه الضريبة لا بد منها، وهذا الشر حتمي لا إيقاف له، ولكنه ليس كل شيء؛ حيث سيكون هناك إعمار للأرض واهتمام بها، واستخراج لكنوزها واستثمار لخيراتها، وهذا خير كثير يصغر بجانبه الشر الجزئي المتمثل في الإفساد

1 سيرة آدم عليه السلام، صلاح عبد الفتاح الخالدي، مرجع سابق، ص 48.

وسفك الدماء، ويقل ويتضاءل ويُنظر له على أنه شر لا بد منه لتحقيق الخلافة والحصول على الخير الكثير.

لقد شاء الله العليم الحكيم أن يكون عند الخلفاء الجدد اهتمام في تعمير الأرض، وحرصٌ على تملّك ما فيها، وإقبالٌ كبير عليها، وبذلك تنشط الحركة على الأرض وتتزاحم الأقدام وتتشابك المشاريع والمخططات، ويتدافع الناس ويتعاركون، وهذا التدافع والتعارك ضروري لصلاح الأرض[1].

وصدق الله العظيم: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: 251].

3. المخلوقات على الأرض قبل آدم غير مكلَّفة:

يظهر من خلال الآيات القرآنية الكريمة أن الأرض لم يسكنها أحد من المخلوقين العقلاء قبل آدم عليه السلام، وأن المخلوقات الحية على الأرض كانت الحيوانات والدواب وغيرها، وهذه غير عاقلة وغير مكلفة، وكانت الأرض جاهزة مهيأة لاستقبال الخليفة الذي يستعمرها هو وذريته، فلم يحصل فيها إفساد ولا سفك للدماء فكيف وقد بيّنّا كيف عرفت الملائكة ذلك؟

ولا تلتفت هنا للأساطير الباطلة التي تزعم أن الأرض كانت مسكونة قبل آدم

1 سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 49.

بصـــنفين من المخلوقات الحية هما الجنُّ والحنُّ، وأن حروباً ومعارك وقعت بين الجنّ والحنّ، وقتل بعضهم بعضاً، وحصل الإفساد في الأرض وسُفكت الدماء، وأن الله أنزل إبليس، وكان اسمه عزازيل، يقود مجموعة من الملائكة لفض الاشـــتباكات والفصــــل بين المتقاتلين، وأنه نجح في ذلك وانهزم الجن إلى رؤوس الجبال، وجزائر المحيطات، وأنه أبيد الحنُّ نهائياً.

لا نلتفت لهذه الأباطيل ولا ندري من أين جاء مروّجوها بها، ولا من الذي ذكرها لهم، كل ما نقوله إننا لا نقبلها؛ لأنه لم يرد في القرآن والسنة الصحيحة دليل عليها[1].

4. الله يرضى لعباده أن يسألوه:

إن الله تعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه وما يخفى عليهم من أسراره في خلقه، ولا سيما عند الحيرة، والسؤال يكون بالمقال، ويكون بالحال، والتوجه إلى الله تعالى في استفاضـة العلم بالمطلوب من ينابيعه التي جرت سنته تعالى بأن يفيض منها؛ كالبحث العلمي والاستدلال العقلي، والإلهام الإلهي، وربما كان للملائكة طريق آخر لاســـتفاضــــة العلم غير معروفة لأحد من البشر، فيمكننا أن نحمل سؤال الملائكة على ذلك.

ومن الفوائد الجليلة؛ إذا كان من أســـرار الله تعالى وحكمه ما يخفى على

---

1 سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 47.

الملائكة فنحن أولى بأن يخفى علينا، فلا مطمع للإنســـان في معرفة جميع أســـرار الخليقة وحكمها؛ لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلاً[1].

5. نصب إمام أو خليفة أو رئيس:

هذه الآية أصـل في نصـب إمام وخليفة يُسـمع له ويُطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام العدل والإنصـاف وفض المنازعات بين الناس، قال ابن كثير: وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم، وينتصـــر من ظالمهم لمظلومهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن تعـاطي الفواحش، إلى غير ذلـك من الأمور المهمـة التي لا تمكن إقـامتهـا إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[2].

ومما اســـتنبطه القرطبي وتبعه على ذلك الإمام ابن كثير: نعلم أن الخلافة هي كون الناس يخلف بعضهم بعضاً، والخلافة هي أسّ الإسلام وعموده، والصحابة لم يجهزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا دفنوه حتى أقاموا خليفة[3]، وكانت طريقة الاختيار شـوريّة، وتداول أهل الحل والعقد في سـقيفة بني سـاعدة مسـألة اختيار حاكم بعد وفاة رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، وبايعوه بيعة خاصـة، ثم رشـحوه

1 تفسير المنار، 1/254-255.

2 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 1/125.

3 التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مرجع سابق، 1/380.

للناس في اليوم الثاني، وبايعته الأمة في المسجد البيعة العامة[1].

وقد أفرز ما دار في سـقيفة بني سـاعدة مجموعة من المبادئ؛ منها أن قيادة الأمة لا تقام إلا بالاختيار، وأن البيعة هي أصـل في أصـول الاختيار وشـرعيّة القيادة، وأن الرئاسـة لا يتولاها إلا الأصـلب ديناً والأكفأ إدارة، فاختيار الخليفة يكون وفق مقومات إنسانية أخلاقية وشخصية وإسلامية، وأن الحوار الذي دار في سقيفة بني ساعدة قام على قاعدة الأمن النفسي السائد بين المسلمين، حيث لا هرج ولا مرج، ولا تكذيب ولا مؤامرات، ولا نقض للاتفاق[2]، حيث المرجعية في الحوار إلى المرجعية الإسلامية والعقل الراشد والفهم السديد للوصول إلى مصلحة الأمة والشعب والإنسانية.

- أول ما قرَّره اجتماع السـقيفة هو أن نظام الحكم ودسـتور الدولة يقرَّر بالشورى الحرة، تطبيقاً لمبدأ الشورى الذي نص عليه القرآن الكريم.

ولذلك كان هذا المبدأ محل إجماع، وهذا الإجماع هو النصـوص القرآنية التي فرضت الشورى، أي إن هذا الإجماع كشف وأكد أول أصل شرعي لنظام الحكم في الإسلام؛ وهو الشورى الملزمة، وهذا أول مبدأ دستوري تقرَّر بالإجماع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إن هذا الإجماع لم يكن إلا تأكيداً وتطبيقاً لنصوص

---

1 الخلافة والخلفاء الراشدون بين الشورى والديمقراطية، سالم البهنساوي، مرجع سابق، ص 66-67.

2 دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، عبد الرحمن عبدالواحد شجاع، ص 656.

الكتاب والسنة التي أوجبت الشورى[1].

– تقرر يوم السقيفة أيضاً أن اختيار رئيس الدولة أو الحكومة الإسلامية وتحديد سلطانه يجب أن يتم بالشورى، أي البيعة الحرة التي تمنحه تفويضاً ليتولى الولاية بالشروط والقيود التي يتضمّنها عقد البيعة الاختيارية الحرة – الدستور في النظم المعاصرة–وكان هذا ثاني المبادئ الدستورية التي أفردها الإجماع، وكان قراراً إجماعياً كالقرار السابق.

– تطبيقاً للمبدأين السابقين قرَّر اجتماع السقيفة اختيار أبي بكر ليكون الخليفة الأول للدولة الإسلامية[2]، ثم إن الترشيح لم يصحَّ نهائياً إلا بعد أن تمت له البيعة العامة، أي موافقة جمهور المسلمين في اليوم التالي بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قبوله لها بالشروط التي ذكرها في خطبته المشهورة التي تبيّن لنا بعض معاني الخلافة في الأرض بالنسبة إلى الحاكم المنتخب من قبل الشعب أو الأمة، والذي جاء فيه: (أما بعد، أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أُريح عليه حقَّه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله

---

1 قصة الشورى والاستشارة، توفيق الواعي، ص 140.

2 المرجع نفسه، ص 140.

ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله)[1].

وتعتبر هذه الخطبة الرائعة من عيون الخطب الإنسـانية على إيجازها، وقد قرر الصـدّيق فيها مبادئ العدل والرحمة في التعامل بين الحاكم والمحكوم، وركّز على أن طاعة ولي الأمر مترتّبة على طاعة الله ورسـوله، ونص على الجهاد في سـبيل الله لأهميته في إعزاز القيم الإنسانية التي أمر الله بها عباده.

ثالثاً: التسـبيح والحمد والتقديس لله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَـبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:251]:

1- التسبيح:

أشارت الآية الكريمة إلى التسبيح، وتكرّر في الكتاب والسنة ذكر هذه الكلمة في مواضع كثيرة بعبارات مختلفة ومناسبات متعددة.

ويعد التسبيح من الألفاظ الشرعية التي اشتهرت في الشرع أكثر من اشتهارها في اللغة، ولهذا كان له في الشـرع مفهوم واسـع، حيث اسـتُعمل في معانٍ متعددة، كما سنبيّنه بإذن الله.

أ. المعنى الأصلي للتسبيح في الشرع:

ورد عن النبي صـلى الله عليه وسـلم بيان معنى التسـبيح في عدة أحاديث، كما

1 البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، 6/305-306.

ورد في بيان معناه آثار كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ورحمهم، وأقوال وافرة من أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين، ومن الأحاديث في بيان معنى التسبيح[1]:

– حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير سبحان الله، فقال: (هو تنزيه الله تبارك وتعالى من السوء)[2].

– وحديث إبراهيم بن يزيد التيمي، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سبحان الله انكفاف[3] الله عن كل سوء)[4].

– وحديث موسى بن طلحة، قال: سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التسبيح، فقال: (هو إنزاهه عن السوء)[5].

وهذه الأحاديث تنهض بمجموعها للاحتجاج، وإن كان الأول منها ضعيفاً، فإن الأخيرين قويان؛ إلا أنهما مرسلان.

والحديث المرسل إذا اعتضد بمجيئه من وجه آخر مسند أو مرسل كان ذلك

---

1 التسبيح في الكتاب والسنة، محمد كندو، 68/1.

2 مسند البزار، رقم: 950، والأسماء والصفات، البيهقي، رقم: 59.

3 انكفاف الله: تنزيهه وتقديسه.

4 أخرجه الطبراني، كتاب الدعاء، 1592/3، رقم: 1755.

5 مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، 126/16.

دليلاً على صدقه وقوي الاحتجاج به[1].

ويشـهد لما تضـمّنته هذه الأحاديث من تفسـير التسـبيح في الشـرع بتنزيه الله تعالى ما ثبت من حديث حذيفة بن اليمان رضـــي الله عنه؛ أنه صـــلّى مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فكان عليه الصلاة والسلام يقرأ مترسّلاً[2]، فإذا مر بآية فيها تسبيح سبّح[3]، وفي رواية إذا مرّ بآية فيها تنزيه الله عز وجل سبّح[4].

وجعل تنزيه الله عز وجل في الرواية الثانية مكان التســـبيح في الرواية الأولى، فكان كالتفســـير له. وأما الآثار الواردة في بيان معنى التســبيح فكثيرة؛ منها ما هو عن ابن عباس، فقد قال: سبحان الله: تنزيه الله[5].

إن التســـبيح لله عز وجل يتضـــمّن تنزيه ذاته ســـبحانه وتعالى من كل نقص وعيب، وتنزيه صفاته من كل سوء وذم، ومن مماثلة صفات المخلوقين، وتنزيه أفعاله من العبث والظلم والشـــر وخلاف الحكمة[6]، والتســـبيح هو التنزيه عن النقائص بالاعتقاد والعبادة والقول[7]، وتفســير التســبيح بأنه تنزيه الله تعالى عن الســوء مجمع عليه لغة وشرعاً[8].

---

1 مجموع الفتاوى، ابن تيمية، المرجع نفسه، 247/13-350.

2 مترسلاً: متأنّياً.

3 مسلم، 526/1، رقم: 772.

4 صحيح سنن ابن ماجه للألباني، رقم: 1119.

5 الطبراني، ك الدعاء، 1593/3، رقم: 1759.

6 التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، 75/1.

7 التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، 151/29.

8 التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، 76/1.

ب. تسبيح الملائكة:

ورد في عدة مواضع من القرآن الكريم أن الملائكة يسبّحون الله تسبيحاً دائماً من غير انقطاع ولا فتور ولا سآمة، ومن هذه المواضع:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [سورة الأعراف: 206]، فقوله: "إن الذين عند ربك" يعني بهم الملائكة[1]، وهذه العنديَّة تعني قربهم من الله تعالى ورفعة منزلتهم على غيرهم من المخلوقات، ثم وصفهم الله تعالى – في هذه الآية- بثلاثة أوصاف:

أنهم لا يستكبرون عن عبادة الله تعالى، وأنهم يسبّحونه، وأنهم يسجدون له.

وهذه الأوصاف دالة على كمال عبوديتهم لله تعالى، حيث قد اجتمعت لهم العبادة القلبية والقولية والبدنية[2]. فعدم الاستكبار عبادة قلبية عنها تنشأ العبادة القولية والبدنية.

والتسبيح هو ذكرهم لله تعالى وتنزيههم إياه عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته[3]، وهو عبادة كائنة بالقلب –وهي اعتقاد التنزيه–وباللسان وهي قول: سبحان الله ونحوه من الذكر، وبالجوارح كالصلاة مثلاً، والسجود عبادة بدنية تتضمن الخضوع والذل لله العلي العظيم.

---

1 تفسير الطبري، مرجع سابق، 167/6.

2 البحر المحيط، أبو حيان، 449/4-450.

3 بدائع الفوائد، ابن القيم، مرجع سابق، 23/1.

وتقديم الجار والمجرور في قوله: "وله يسجدون" إيذان باختصاص سجودهم لله تعالى وحده دون غيره[1].

– وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 19-20]، فقوله هنا: "ومن عنده" يعني الملائكة[2]، كما في الآية السابقة، وقد تضمّنت هذه الآية بيان أن الملائكة زيادة على عدم استكبارهم عن عبادة الله؛ "لا يستحسرون" أي: لا يتعبون ولا يملون[3]، وبهذا فهم: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 20]، وهذا كالبيان لقوله: "لا يستحسرون" لأن من يحب أمراً ولا يتعب منه لا يتركه ولا يمل منه، بل يواظب عليه، والملائكة كذلك؛ يحبّون تسبيح الله تعالى فهم دائبون عليه ليلاً ونهاراً، لا يلحقهم كلال ولا إعياء، ولا يشغلهم التسبيح عن تدبير ما وكلوا به من أمور الخلق[4].

– وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [سورة فصلت: 38]، وهذه الآية في معنى الآيتين السابقتين،

---

1 البحر المحيط، أبو حيان، مرجع سابق، 450/4.

2 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، 184/3.

3 تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، 36/17.

4 التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، 274/1.

فقوله: "لا يسأمون" كقوله: "لا يفترون"[1].

وجميع هذه الآيات دالة على قوة الملائكة وكمال حياتهم، وشدة الداعي القوي منهم إلى تسبيح الله تعالى وملازمته، فلا يلحقهم فيه فتور ولا سآمة، ولا يشغلهم عنه شاغل[2].

- في قوله سبحانه وتعالى حكاية عن الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [سورة الصافات: 165-166]، وفي هذا تمدّح بوقوفهم صفوفاً في السماء لعبادة الله تعالى، وتسبيحهم لله تعالى، وقد أقسم الله بهم في قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ [سورة الصافات: 1]، قال الإمام أبو جرير الطبري: فأما الصافات فإنها الملائكة الصافات لربها في السماء[3]، وقولهم: "إنا لنحن المسبحون" قال قتادة: هذا قول الملائكة يُثنون بمكانهم من العبادة[4].

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير الآيتين: أي نصطفّ فنسبّح الرب ونمجّده ونقدّسه وننزّهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه[5].

- قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الزمر: 75].

---

1 تفسير الطبري، مرجع سابق، 113/11.

2 مدارج السالكين، ابن القيم، مرجع سابق، 245/3. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، مرجع سابق، ص 520-521.

3 تفسير الطبري، مرجع سابق، 467/10.

4 المرجع نفسه، 539/10.

5 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، 26/4.

وهذه الآية ذُكرت بعد ذكر أحداث يوم القيامة وما يقع فيه من القضـــاء بين العباد، وتوفية كل نفس ما عملت، وإدخال أهل الجنة وأهل النار كلاً في المحل الذي يستحقه ويليق به.

فقوله: "وترى الملائكة" أي في ذلك اليوم العظيم[1].

"حافين من حول العرش" أي محدقين محيطين بالعرش[2].

"يسبّحون بحمد ربهم" أي يمجّدونه، ويعظّمونه، ويقدّسونه، وينزّهونه عن الجور وعن كل ما لا يليق بجلاله[3].

"وقُضي بينهم" أي بين الخلائق[4]، "بالحق" أي بالعدل[5].

"وقيل الحمد لله رب العالمين" وهذا إخبار عن حمد الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، لله رب العالمين، عقيب قضـــائه بالحق بين الخلائق، ولهذا حُذف فاعل الحمد في قوله: "وقيل"؛ لإفادة العموم والإطلاق، حتى لا يُســـمع إلا حامد لله تعالى من أوليائه ومن أعدائه ومن جميع مخلوقاته[6].

قال الحســن البصــري: لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم؛ ما وجدوا عليه

---

1 تيسير الكريم الرحمن، السعدي، مرجع سابق، ص 731.

2 تفسير البغوي، مرجع سابق، 134/7.

3 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 75/4.

4 المرجع نفسه، 75/4.

5 تفسير الطبري، مرجع سابق، 26/11، وتفسير البغوي، مرجع سابق، 134/7.

6 الصواعق المرسلة، ابن القيم، مرجع سابق، 1496/4-1497.

حجّة ولا سبيلاً[1].

– قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [سورة غافر: 7].

وفي هذه الآية ذكر تعالى صنفين من الملائكة المسبِّحة بحمده؛ وهما الملائكة الذين يحملون العرش، والملائكة الذين يطوفون حول العرش، ثم أخبر عنهم جميعاً بثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنهم "يسبّحون بحمد ربهم"، وهذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصاً التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده؛ لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره، وحمد له، بل الحمد هو العبادة لله.

الأمر الثاني: أنهم "يؤمنون به"، أي يقرّون بالله أنه لا إله لهم سواه، ويشهدون بذلك، لا يستكبرون عن عبادته[2].

الأمر الثالث: أنهم "يستغفرون للذين آمنوا"، أي يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، وأقرّ بمثل إقرار الملائكة؛ من توحيد الله تعالى والبراءة من

---

1 التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، 279/1.

2 التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، 279/1.

كل معبود سواه.

وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضـــائله الكثيرة؛ أن الله تعالى قيّض ملائكته المقرّبين الذين لا ذنوب عليهم يســتغفرون لأهل الإيمان من البشـــر، ويدعون لهم بظهر الغيب، فالمؤمن بإيمانه اكتســب هذا الفضـــل العظيم[1]. وقوله تعالى: "ربنا وســعت كل شـــيء رحمة وعلماً" هو بيان لصــفة دعائهم للمؤمنين، وكذا الآيتان المذكورتان بعدها.

وتخصيص هذين الصنفين من الملائكة بالذكر في الموضعين السابقين دليل على ما لهما من شأن عظيم؛ إذ اختارهم الله تعالى لحمل عرشه العظيم والطواف حوله، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم وأقربهم منه سبحانه وتعالى[2].

- وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُـــرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُـبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سورة سبأ: 40-41].

وهذا تقريع للمشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق؛ حين يحشرهم الله تعالى جميعاً، ثم يســأل الملائكة الذين كان هؤلاء المشــركون يتخذونهم آلهة من دون الله، فيقول تعالى: "أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟"، أي أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟[3].

---

1 المرجع نفسه، 279/1.

2 تفسير البغوي، 139/1، تفسير ابن كثير، 77/4.

3 تفسير ابن كثير، 550/3.

فيجيب الملائكة متبرّئين من عبادة المشــركين: "قالوا ســبحانك أنت ولينا من دونهم"، افتتحوا جوابهم بالتســبيح لله تعالى، أي تنزيهاً لك أن يكون معك شـريك في العبـادة، فنحن عبيـدك مفتقرون إلى ولايتـك فلا نتخذ ولياً من دونـك، ونبرأ إليك من هؤلاء المشركين[1].

وهـذا يعني أن الملائكـة لم يأمروهم بـذلـك –وحـاشـــاهـم-وإنما أمرهم بـذلـك الشياطين من الجن[2]، ولهذا قالوا: "بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون"[3].

ج. حال الملائكة في تسبيحهم لله:

قد يظن ظانٌّ من وصف الملائكة بأنهم يسبّحون الليل والنهار لا يفترون، وأنهم يُلهمون التسبيح كما يُلهم الناس النَّفَس، أن التسبيح يصدر منهم على وجه العادة بلا شعور ولا اهتمام، وهذا الظن بعيد عن الواقع:

– فإن الله تعالى قد وصـــف حال الملائكة في تســـبيحهم لله عز وجل فقال: ﴿وَيُسَـبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [سـورة الرعد: 13]، فقوله تعالى: "والملائكة من خيفته" يعني: وتسبّح الملائكة من خيفته[4]، ومن هنا للتعليل، ومعنى

---

1 التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، 284/1.

2 المرجع نفسه، 284/1.

3 المرجع نفسه، 284/1.

4 تفسير الطبري، مرجع سابق، 360/7. التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، 285/1.

"خيفته" هيبته وإجلاله ورهبته[1]، وهاء الضـمير فيه راجع إلى الله عز وجل[2]، فدلّت هذه الآية على أن الملائكة يسبّحون الله تعالى خاشعين له خائفين منه.

- كما وصفهم سبحانه في آية أخرى بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة النحل: 50].

- وبقوله في آية أخرى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 28].

قال ابن عباس: يخافون الله وليس كخوف ابن آدم، لا يعرف أحدهم من على يمينه ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله شيء[3].

- ومما يبين أيضـاً حال الملائكة في تسـبيحهم لله تعالى قوله عز وجل: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الشورى: 5].

والآية تبين أن الســـماوات في غاية الخوف من الله تعالى والهيبة والإجلال له، وكذلك سـكانها من الملائكة، فهم يسبّحون بحمد ربهم، أي ينزّهونه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، مع إثباتهم له كل كمال وجلال، خوفاً منه وهيبة وإجلالاً[4].

ويتبيّن حال الملائكة في تســبيحهم لله تعالى، وأنهم لشـــدّة خوفهم من الله

---

1 البحر المحيط، أبو حيان، مرجع سابق، 366/5.

2 زاد المسير لابن الجوزي، 314/4.

3 المرجع نفسه، 314/4.

4 أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، 415/4.

وهيبتهم وإجلالهم له يسبّحون بحمده على الدوام بلا انقطاع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: "ويستغفرون لمن في الأرض"، يعني لخصوص الذين آمنوا منهم، كما أوضحه الله تعالى بقوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة غافر: 7].

وقوله تعالى في ختام الآية: "ألا إن الله هو الغفور الرحيم" أكد فيه أنه هو وحده المختص بغفران الذنوب، وإيجاد الرحمات، وذلك بذكر حرف الاستفتاح "ألا"، وحرف التوكيد "إن" المقتضيين للتوكيد، وضمير الفصل "هو" المقتضي للحصر[1].

وبجميع ما سبق ذكره في هذا المطلب من الآيات والأحاديث والآثار يتجلّى مقام الملائكة في التسبيح، وأنهم في هذه العبادة العظيمة متميزون عن غيرهم من العالمين[2]. وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الكلام أفضل؟ قال: (ما اصطفى الله لملائكته، أو لعباده: سبحان الله وبحمده)[3].

وإذا اتضح ما يتعلق بتسبيح الملائكة لله تعالى، فينبغي أن تكون للعلم بذلك فوائد عملية بالنسبة للمؤمن؛ بأن يقتدي بالملائكة الكرام فيُكثر من تسبيح الله تعالى بالليل والنهار على قدر طاقته، فإن إخبار الله سبحانه عنهم في الآيات

---

1 المرجع نفسه، 415/4.

2 التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، 289/1.

3 مسلم، رقم: 2731.

السابقة، ووصفه إياهم فيها بما وَصَفَ، فيه حَثٌّ للمؤمنين وترغيب لهم في أن يقتدوا بهم فيما ذكره عنهم؛ لأنهم إذا كان أولئك –وهم معصومون من الذنب والخطأ–هذه حالهم في التسبيح والذكر والعبادة، فكيف ينبغي أن يكون غيرهم؟[1].

وإذا كان الله عز وجل قد أعطى الملائكة من القدرة وكمال الحياة ما يفوق ما للبشر من ذلك، فإن المؤمن يجتهد في الاقتداء بهم في حدود طاقته البشرية، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وبالله تعالى التوفيق[2].

2– الحمد:

إن "الحمد لله" يدل هذا الثناء على وجوب اتصافه تعالى بجميع صفات الكمال، وهو ثابت له تعالى بطريق البرهان والاستدلال، ولهذا فسّر بعضهم "الحمد" بالإحاطة بأوصاف الكمال. ولما كانت كمالاته سبحانه غير متناهية ولا يحيط بها أحد من المخلوقات، حمد الله تعالى نفسه بنفسه، فقال: "الحمد لله".

وقد ورد في بعض أدعية النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[3].

فما عرف اللهَ حق المعرفة أحد، وما أحاط بكمالاته غيره تعالى، تقدَّست ذاته،

---

1 التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، 292/1.

2 المرجع نفسه، 292/1.

3 رواه مسلم، 486.

وتباركت أسماؤه، وتسامت صفاته.

واستحقاقه سبحانه بالحمد ثابت ودائم قبل إيجاده للخلق وبعده، وسواء حمده العباد أم كفروه وجحدوا فضله فإن صفات كماله وجماله وجلاله أزلية أبدية غير حادثة، لا يطرأ عليها تغيير أو تبديل، فهو سبحانه خالق قبل أن يخلق الخلق، لأنه قادر على الخلق أزلاً، ورازق قبل أن يرزق الخلق، لأنه قادر عليه أزلاً.

والألف واللام في "الحمد" لاستغراق جميع المحامد، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: (اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، ولك الخلق كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله)[1].

وأمر الله تعالى عباده أن يُثنوا عليه به في ضمن هذا الثناء الذي أثنى به على نفسه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها)[2].

قال ابن كثير: "الحمد لله" ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا الحمد لله، وهو ثناء على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدّية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، وهو نقيض الذم، وأعمّ من الشكر،

1 رواه البيهقي في السنن. التفسير الموضوعي، طهماز، 30/1.

2 مسلم، رقم: 2734.

والشكر الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف[1].

وقال الشنقيطي في أضواء البيان: قوله تعالى: "الحمد لله" لم يذكر بحمده هنا ظرفاً مكانياً ولا زمانياً، وذكر في سورة الروم أن من ظروفه المكانية السماوات والأرض؛ في قوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الروم: 7].

وذكر في سورة القصص أن من ظروفه الزمانية الدنيا والآخرة؛ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ [سورة القصص: 70]. وقال في سورة سبأ: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة سبأ: 1][2].

وقد نبّه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره؛ بأن حمد نفسه في أول الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع، وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفرده بالإلهية، وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاة أحد من خلقه لحاجته إليه، وحمد نفسه على علوه وكبريائه، وحمد نفسه في الأولى والآخرة، وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوي والسفلي، ونبه إلى هذا كله في كتابه، وحمد نفسه عليه، فتنوع حمده وأسباب حمده، وجمعها تارة وفرّقها أخرى ليتعرف إلى عباده ويعرّفهم كيف يحمدونه وكيف يُثنون عليه، وليتحبّب إليهم بذلك ويحبّهم إذا عرفوه وأحبوه وحمدوه.

---

1 مختصر تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 20/1.

2 أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، 33/1.

- قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [سورة الفاتحة: 2-4].

- وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة الأنعام: 1].

- وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الكهف: 1-2].

- وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة سبأ: 1].

- وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة فاطر: 1].

- وقال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة القصص: 70].

- وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة غافر: 65].

- وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [سورة الروم: 17-18].

- وأخبر عن حمد خلقه له بعد فصله بينهم والحكم لأهل طاعته بثوابه وكرامته، والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهانته: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الزمر: 75].

- وأخبر عن حمد أهل الجنة له وأنهم لم يدخلوها إلا بحمده، كما أن أهل النار لم يدخلوها إلا بحمده.

- فقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [سورة الأعراف: 43].

- وقال عن أهل النار: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [سورة القصص: 74-75].

- وقال: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [سورة الملك: 11].

وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم، وعلموا أنهم كانوا كاذبين في الدنيا مكذّبين بآيات ربهم، مشركين به، جاحدين لإلهيته، مفترين عليه.

وهذا اعتراف منهم بعدله فيهم، وأخذهم ببعض حقه عليهم، وأنه غير ظالم، وإنما دخلوا النار بعدله وحمده، وإنما عوقبوا بأفعالهم وبما كانوا قادرين على فعله وتركه، لا كما تقول الجبرية، وتفصيل هذه الحكمة مما لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة به، ولا إلى التعبير عنه.

ولكن بالجملة فكل صــفة عليا واســم حســن وثناء جميل، وكل حمد ومدح وتسـبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام فهو لله عز وجل على أكمل الوجوه وأتمّها وأدومها، وجميع ما يوصـف به ويذكر به ويخبر عنه به فهو محامد له وثناء وتسـبيح له وتقديس، فسبحانه وبحمده لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسـه وفوق ما يثني عليه خلقه، فله الحمد أولاً وآخراً، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله ورفيع مجده وعلو جده[1]. فهذا تنبيه على أحد نوعي حمده، وهو حمد الصفات والأسماء.

والنوع الثاني: حمد النعم والآلاء، وهذا مشـهود للخليقة برها وفاجرها، مؤمنها وكافرها، من جزيل مواهبه، وسـعة عطاياه، وكريم أياديه، وجميل صـنائعه، وحسـن معاملته لعباده، وسـعة رحمته لهم، وبرّه ولطفه وحنانه وإجابته لدعوات المضـطرّين، وكشـــف كربات المكروبين، وإغاثة الملهوفين، ورحمته للعالمين، وابتدائه بالنعم قبل السـؤال ومن غير اسـتحقاق، بل ابتداء منه بمجرد فضـله وكرمه وإحسـانه، ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسـبابها، وصـرفها بعد وقوعها، ولطفه تعالى في ذلك بإيصـاله إلى من أراد بأحسـن الألطاف، وتبليغه من ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهدايته خاصـته وعباده إلى دار السـلام، ومدافعته عنهم أحسـن الدفاع، وحمايتهم من مراتع الآثام، وحبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسـوق والعصيان، وجعلهم الراشـدين، وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيّدهم بروح منه، وسمّاهم

---

1 طريق الهجرتين، ابن القيم، مرجع سابق، ص 130-133.

المسلمين قبل أن يخلقهم، وذكرهم قبل أن يذكروه.

وأعطاهم قبل أن يسألوه، وتحبّب إليهم بنعمه مع غناه، وبغّضهم إليه بالمعاصي، وأفقرهم إليه، ومع هذا كله اتخذ لهم داراً وأعدّ لهم فيها من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وملأها من جميع الخيرات، وأودعها من النعيم والحبرة والسرور والبهجة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم أرسل إليهم الرسل يدعونهم إليها، ثم يسَّر لهم الأسباب التي توصلهم إليها وأعانهم عليها، ورضي منهم باليسير في هذه المدة القصيرة جداً، بالإضافة إلى بقاء دار النعيم، وضمن لهم إن أحسنوا أن يُثيبهم بالحسنة عشراً، وإن أساؤوا واستغفروه أن يغفر لهم، ووعدهم أن يمحو ما جنوه من السيئات بما يفعلونه بعدها من الحسنات، وذكّرهم بآلائه وتعرَّف إليهم بأسمائه، وأمرهم بما أمرهم به رحمة منه بهم وإحساناً لا حاجة منه إليهم، ونهاهم عما نهاهم عنه حماية وصيانة لهم لا بخلاً منه عليهم، وخاطبهم بألطف الخطاب وأحلاه، ونصحهم بأحسن النصائح، ووصاهم بأكمل الوصايا، وأمرهم بأشرف الخصال، ونهاهم عن أقبح الأقوال والأعمال، وصرَّف لهم الآيات وضرب لهم الأمثال، ووسع لهم طرق العلم به ومعرفته، وفتح لهم أبواب الهداية، وعرَّفهم الأسباب التي تُدنيهم من رضاه وتُبعدهم عن غضبه، ويخاطبهم بألطف الخطاب، ويسميهم بأحسن أسمائهم[1].

---

1 التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المغراوي، مرجع سابق، 91/1.

3- قرن التسبيح بالتحميد:

لهذه المسألة شأن عظيم يسترعي النظر ويستدعي الانتباه؛ وذلك لأن قَرن التسبيح بالتحميد هو الأكثر وروداً في نصوص الشرع، وجاء في كتاب الله تعالى الأمر بقرن التسبيح بالتحميد في مواضع منها:

- ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في سور: [طه: 130]، [غافر: 55]، [ق: 39]، [الطور: 48]. وهذه أربعة مواضع.

وقال تعالى في موضعين آخرين: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ سور: [الحجر: 98]، [النصر: 3]. وقال في موضع: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الفرقان: 58].

كما جاء في كتاب الله تعالى الخبر عن قرن التسبيح بالتحميد في مواضع عديدة؛ مثل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: 44].

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة السجدة: 15].

- وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الشورى: 5]. ونحو ذلك من الآيات.

وأما السنة فورد فيها قرن التسبيح بالتحميد في أحاديث كثيرة تفوق الحصر، ومن ذلك:

حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن أحب

الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده)[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن –أو تملأ–ما بين السماوات والأرض)[2].

فهذا حال التسبيح مع التحميد في الكتاب والسنة، وقد قال ابن تيمية: والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له[3]، وقال أيضاً: فالتسبيح قرين التحميد[4].

وله رحمه الله رسالة لطيفة بعنوان: "قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات وبيان اقتران التهليل بالتكبير والتسبيح بالتحميد"[5]. وبيّن في رسالته هذه أن التسبيح والتحميد يجمع النفي والإثبات؛ نفي المعايب وإثبات المحامد، وذلك يتضمن التعظيم[6].

وقال: التسبيح يتضمن التنزيه المستلزِم للتعظيم، والحمد يتضمن إثبات المحامد المتضمّن لنفي نقائصها[7].

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا

1 مسلم، رقم: 2731.

2 مسلم، رقم: 223.

3 ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، 251/10.

4 المرجع نفسه، 231/24.

5 التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، 195/1.

6 قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، ص 32.

7 قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، ابن تيمية، المرجع نفسه، ص 23.

يَصِفُونَ ۝ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الصافات: 180-182]. ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ويستلزم التنزيه من النقص، قرن بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن[1].

وعلى كل فإن صيغة التسبيح المقرون بالتحميد من أكمل صيغ الثناء على الله تعالى، وأدلها على استغراق الثناء عليه سبحانه بكل كمال؛ لأن التسبيح دال على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من النقائص والعيوب والأمثال والشركاء، والتحميد دال على إثبات ما يليق به من المحامد والفضائل وصفات الكمال، فإذا سبّح العبد بحمده جمع له بين الأمرين[2].

4- التقديس:

جاء التقديس مقروناً بالتسبيح في قول الله سبحانه حكاية عن الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة: 30].

والتقديس على وزن التفعيل كالتسبيح، وهو كذلك مصدر كالتسبيح، من الفعل: قدّس يقدّس تقديساً، وأصل مادته "قدس"، ومعناه "التطهر"، وقال ابن

---

1 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 28/4.

2 التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، 207/1.

القيم: أصـــل الكلمة من الطهارة والنزاهة، ومنه بيت المقدس[1]، لأنه مكان يُتطهر فيه من الذنوب، ومَن أمَّه لا يريد إلا الصلاة فيه رجع من خطيئته كيوم ولدته أمه، ومنه سمي جبريل روح القدس[2]؛ لأنه طاهر من كل عيب[3].

فالتقديس: معناه التطهير، يقال: قدّسه، أي طهّره[4]، ومعناه في حق الله تعالى: تنزيه الله عز وجل، "ونقدّس لك" ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك[5].

وقال ابن عاشـور: فمعنى نسـبح بحمدك ونقدس لك: نحن نعظمك وننزهك، والأول: بالقول، والثاني: باعتقاد صفات الكمال المناسبة للذات العليّة، فلا يُتوهم التكرار بين نسـبح ونقدّس، وأُوثرت الجملة الاسمية في قوله: "ونحن نسـبّح" لإفادة الدلالة على الدوام والثبات أي: نحن الدائمون على التســبيح والتقديس دون هذا المخلوق[6].

وكما قُرن بين التســبيح والتقديس في الآية المتقدم ذكرها جاء في الســنة القرن بين اسـم الله تعالى "السُّـبّوح" واسمه تعالى "القُدّوس"، وذلك فيما روته عائشـة أم

---

1 التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، 113/1.

2 التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، المرجع نفسه، 114/1.

3 شفاء العليل، ابن القيم، مرجع سابق، 2/64-65.

4 لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، 186/6.

5 تفسير الطبري، مرجع سابق، 248/1، تفسير البغوي، مرجع سابق، 79/1.

6 التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، 406/1.

المؤمنين رضـي الله عنها أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم كان يقول في ركوعه وسجوده: (سُبوح قُدوس رب الملائكة والروح)[1].

وقد تبين بما سبق أن التقديس كالتسبيح وزناً ومعنى، وكذلك القُدوس والسُّبوح في الوزن والمعنى، وذهب الحليمي في كلامٍ له إلى أن التقديس هو إثبات المدائح لله تعالى المتضـمن نفي المذامّ عنه سـبحانه، وأن التسـبيح هو نفي المذامّ عن الله سبحانه المتضمن إثبات المدائح له تعالى، فقولنا: هو كذا، ظاهره التقديس، وقولنا: ليس كذا، ظاهره التسبيح، فالتسبيح موجود في ضمن التقديس، والتقديس موجود في ضمن التسبيح، قال وقد جمع الله تبارك وتعالى بينهما في سورة الإخلاص فقال عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: 1-4].

فهذا تسبيح، والأمران معاً راجعان إلى إفراده وتوحيده ونفي الشريك والتشبيه عنه[2]. ومفاد كلامه هذا أن التقديس إيجاب يتضـمن سـلباً، وأن التسـبيح سـلب يتضمن إيجاباً، وأن صفات الله تعالى المثبتة داخلة في معنى التقديس، وصفات الله المنفية داخلة في معنى التسـبيح، وهذا تقرير جيد لمعنى التقديس والتسـبيح وما بينهما من المناسبة، والله تعالى أعلم[3].

---

1 مسلم، 53/1، رقم: 487.

2 التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، 119/1.

3 كندو، المرجع نفسه، 119/1.

5- "قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ":

قال الله للملائكة: "إني أعلم" من هذا الخليفة "ما لا تعلمون"؛ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا أعلم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر، فلو لم يكن في ذلك إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته للخلق، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة؛ كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز المكلفين من الخير والشر بالامتحان، وليتبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه واتصف به، فهذه حكم عظيمة يكفي بعضها في ذلك[1].

"إني أعلم ما لا تعلمون" فإن كنتم أعملتم القياس وظننتم آدم في ميزان الأقوام المتخلفين المتوحشين ناقصي العقول فإن الله يعلم من فضله وذريته ومزيّته وتكريمه ورحمته ما لا تعلمون.

إنه عبد موصول بالله معرفة وحباً وخوفاً ورجاء، وموصول بالأرض إعماراً واكتشافاً وإبداعاً، خُلق ليضيف للأرض قيمة، وللشمس وللقمر وللنجوم والسماوات، فوجوده فيها كشف إعجازها وأظهر تسخيرها وجلّى مقاصدها وحِكمها ومراميها وفتق أسرارها.

---

1 تفسير السعدي نقلاً عن التدبر والبيان، مرجع سابق، 71/1.

عبر قرون متطاولة كان الأنبياء عليهم السلام والأولياء والصديقون والشهداء، وكانت الصلوات والدعوات والخلوات والخشوع والدموع، وكان الابتلاء والصبر والكرب والفرج والضيق والأمل والحزن والسرور والمحاولة والخطأ والصواب والذنب والمتاب والوصل والصد والعتاب، وكان وكان وكان[1].

عبر قرون متطاولة كان الكشف والتعلم والمغامرة والإبداع والنجاح والفشل والمشكلة والحل، والبحث والتعثر والوصول والخدمات والتسهيل والتطور والنظريات المعرفية.

لكل منا أن يقرأ في حراك البشر وجهاً جميلاً طيباً بعدما غلبت لغة التشاؤم والتشاتم والمؤامرة والصراع والقطيعة، حتى نسينا –نحن المسلمين–أو كدنا، حكمة الباري في خلق الحياة والبشر برّهم وفاجرهم، خاطئهم ومصيبهم، مؤمنهم وكافرهم.

لكل منا أن يستشعر شيئاً من أسرار خلقه تحت ظل هذا الجواب الرباني: "إني أعلم ما لا تعلمون" بدلاً من اليأس والقنوط وطول المثول أمام مصاعب الحياة ومتاعبها وإخفاقاتها وابتلاءاتها، أو الرغبة في اختصار المسير، وانتظار المصير، واستعجال الرحيل، لنؤمن بحكمة الحياة وجمالها؛ لأنها صادرة من الله الحكيم الجميل الطيب الصبور. وليكن هذا الإيمان دافعاً للاستمتاع بها وتذوق جمالياتها، دافعاً للإضافة الإبداعية علمية أو أدبية، ولو كانت يسيرة؛ فالجود من الموجود، وليكن

1 علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، سلمان العودة، ص 153.

فعلنا للخير، وإحساننا لشركائنا فيها، وصبرنا عليهم تأويلاً حسناً للجواب الإلهي العظيم.

ولنردد مع الملائكة فيما أعيانا فهمه وإدراكه، جواب العجز عن معرفة الأسماء: "سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَاۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ". ولنقتبس من آدم عليه السلام سر الإلهام والتفوق والجرأة في عقله، والتواضع في خلقه وأصله، فلا يتعلم العلم مستحٍ ولا مستكبر[1].

"إني أعلم ما لا تعلمون" تعلّق الغرض بذكر علمه تعالى بما شذّ عنهم، وقد كان قول الله تعالى هذا تنهية للمحاورة وإجمالاً للحجة على الملائكة بأن سعة علم الله تحيط بما لم يحط به علمهم، وأنه حين أراد أن يجعل آدم خليفة كانت إرادته عن علم بأنه أهل للخلافة، وتأكيد الجملة بـ "إن" لتنزيل الملائكة في مراجعتهم وغفلتهم عن الحكمة منزلة المترددين[2].

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة: 31].

هذه الآية تحكي لحظة مهيبة في تاريخ الكون جمعت خالق السماوات والأرض وكل مخلوقات الله عز وجل في حوار مفتوح مع الملأ الأعلى وهم الملائكة المقربون

1 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 154.

2 التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، 1/406-407.

الذين ينفّذون أعلى أوامر رب العالمين[1].

1. "وعلم آدم الأسماء كلها":

علّم الله سبحانه وتعالى آدم أسماء الأشياء وألهمه توليد الأسماء وفكرة التسمية ذاتها، وأعطاه القدرة على ابتكار الأسماء المناسبة للأشياء، فلو لم يكن لها أسماء فكيف نعرفها وكيف نحددها للآخرين؟ سنكون مضطرّين لجلبها والإشارة إليها، وكيف لنا أن نجلب البحر أو القمر أو الصحراء أو الأموات؟

ولذا صرنا نسمي كل شيء، حتى الشوارع، والبيوت، والغرف، والقطط، والأشجار، وما لا يحتاج إلى أسماء؛ لأن فكرة التسمية تريحنا من عناء طويل.

بعضهم يقول علّمه أسماء كل شيء[2]، قال ابن كثير: والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها، ذواتها وصفاتها وأفعالها، كما قال ابن عباس: حتى الفسوة والفسية[3].

يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر، ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية: ثم ساق حديث الشفاعة، ثم قال: -أي ابن كثير-ووجه إيراده ههنا المقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام: (فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء)، فدل على أنه علمه أسماء

---

1 آذان الأنعام، عماد محمد بابكر، ص 91.

2 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 66.

3 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 1/127-128.

جميع المخلوقات، ولهذا قال: "ثم عرضهم على الملائكة"، يعني المسميات[1].

ويرى شيخي وأستاذي سلمان العودة: والأقرب أنه علمه أسماء الأشياء المتاحة المتوفرة عنده، وأهمها:

- أسماء الله الحسنى، ومنها معرفته باسم نفسه ومعرفتهم باسم حواء، لأنها خلقت من حي، كما قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما.

ومعرفة الأسماء ليست منشطاً صوتياً لغوياً فحسب، لا، بل هي منشط إدراكي معرفي يعني القدرة على معرفة تقوم على أساسها الحضارة، وواضح أن هذا التعريف هو لتأهيل آدم للخلافة في الأرض.

معرفة الأسماء تقتضي معرفة الدلالة واللغة، والقدرة على تخيّل الأشياء وتصورها، وعلى النطق بحروفها وأسمائها[2]. فقد ميز الله آدم بالعلم، وأراد منه أن يسعى ويطلب المزيد، ونجح فيما عجزت عنه الملائكة واعتذرت بأنه لا علم لها لأن الله لم يعلّمها.

وإدراك آدم للأشياء التي حوله والمتعلقة بالخلافة في الأرض تفصيلي، وإدراك الملائكة كلّي تعميمي، فهي ميزة آدمية وفضيلة بشرية واصطفاء رباني، ولذا تولى آدم مهمّة إخبار الملائكة بأسماء الأشياء، ولذا كانت الموسوعة والمعرفة متصلة

---

1 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 128/1.

2 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 67.

بحفظ الأسماء وإدراك معانيها، والذين يحفظون أسماء الناس ومعلوماتهم هم الأكثر قرباً منهم وتأثيراً فيهم، ومعظم كلامنا أسماء وروابط بين الأسماء، ولذا كان أول ما نطق به آدم "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"[1].

- و"الحمد" اسم.

- و"الله" اسم لذاته سبحانه.

- و"الرب" اسم.

- و"العالم" أو "العوالم" أو "العالمون" أسماء، وحين نقول: الكلام اسم وفعل وحرف فهذا يحتمل أن الاسم هو الأصل، وأن الأفعال والحروف مشتقة منه، والأفعال صادرة عن أشخاص، والحروف روابط[2].

والأشياء التي نحفظها من التاريخ عبارة عن أسماء، اللغات، المدن، حتى النظريات تحولت إلى أسماء؛ هذه نظرية آينشتاين أو نظرية فيثاغورس، المباني تحولت إلى أسماء، والمعارك والدول والأيام والسنين والكتب والمدارس وأكثر حالات الجدل الدائم مرتبطة بأسماء[3].

وأعظم المعرفة وأنفعها معرفة الله.

---

1 المرجع نفسه، ص 67.

2 العودة، المرجع نفسه، ص 68.

3 العودة، المرجع نفسه، ص 69.

"الله" المفردة التي انتظمت المعجم كله.

"الله" الاســـم الذي نقوله فتتحول الصـــحراء إلى حديقة، والعطش إلى ري، والفقر إلى غنى، والهزيمة إلى انتصـار، والضـيق إلى سعة، واليأس إلى شـفقة، والموت إلى حياة.

كيف السـبيل إلى معرفته وقربه ومناجاته إلا بمعرفة أسمائه وله من الأسماء ما لا ينحصـر ولا ينتهي، وما لا يعرفه ملك مقرب ولا نبي مرسـل، فاللهم لك الحمد لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

ومن أسمائه "99" اسماً وردت في الكتاب والسنة، (من أحصاها دخل الجنة)[1].

حين يخرّ النبي صـلى الله عليه وسـلم سـاجداً يوم القيامة يفتح الله عليه بمحامد وثناءات لم يكن يعلمها من قبل، فيقول الله له: (ارفع رأســـك، وســـل تعطه، وقل يسمع، واشفع تُشفّع)[2].

ومن الدعاء المأثور: (أسـألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك)[3].

- "وعلّم آدم الأسماء كلها" علّمه حقائق المســـميات وما لها من قوانين النفع والضـر، فإنه عليه السـلام كان في حاجة أن يعرف خواص الكون الذي قُدّر له أن

---

1 صحيح البخاري، رقم: 2763.

2 صحيح مسلم، رقم: 193.

3 مسند أحمد، رقم: 4318.

يهبط إليه... فآدم عليه السلام تعلّم حقائق الأشياء وسنن الله التي تحكمها وتضبط خيرها وشرها، وتنظم نفعها وضرها.

وبث الله في آدم عليه السلام من أسرار الفهم والتمييز والاستعداد الفطري ما يكشف به تلك النواميس والسنن، ويميز خصائص الأشياء بعضها من بعض، والتعليم هنا مسند إلى الله تعالى، وحين نعود إلى معاني التعليم التي أسندها الله إلى ذاته مباشرة، أي بدون وساطة ملك أو بشر من الرسل، نراها كلها في القرآن الكريم دالة على مواهب الله سبحانه؛ من استعداد فطري للإدراك والفهم والإلهام والمعرفة.

وقد يكون هذا الاستعداد الفطري عاملاً شاملاً بجميع أفراد النوع الإنساني، كما في قوله سبحانه: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: 5]، وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمن: 3-4]، أيّ أودع فيه النطق والتعبير عما يجول في نفسه[1].

أ. العقل هو الأداة الأساسية في التعليم وفضل العلم:

إن الميزة الأولى عند أبينا آدم عليه السلام الرغبة في التعلم، وتلقّى آدم عليه السلام تعليمه الأساسي في أفضل بيئة "الجنة"، وتمكّن من العيش على الأرض بسلام، وكانت الأرض له مدرسة أخرى، ولم تكن منفى، وتعبير القرآن الكريم عن

1 آدم عليه السلام، محمد البهي، ص 96.

مزيّة آدم كان بـ "التعليم" وليس بـ "العقل"، والعقل هو الأداة الأساسية في التعليم.

وكان آدم عليه السلام مزوّداً بملكة التفكير والنظر والتحليل والفهم والفقه واللغة، ولم يأتِ لفظ العقل في نصوص الشريعة كمصدر، بل جاء هو ومرادفاته؛ كفعل: "يعقلون، يتفكرون، يفقهون، يعلمون، ينظرون".

ثمة غموض في مفهوم العقل؛ إذ يطلق على تلك الأداة ويطلق على ما تنتجه من علوم ومعارف وحقائق وظنون وموروثات ثقافية وحضارية وأنماط تفكير، والعلوم التطبيقية هي سر التفوق الإنساني وليس النظريات الفلسفية المجردة.

وفُضّل آدم بالعلم، ولذا سجدت له الملائكة، وفُضّل بنو آدم بعضهم على بعض بالعلم، فـ (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب).

كان في حيثياته حروف أسبقية فطرية يبحث فيها عن حاجاته، والمعرفة أهم حاجاته، كما يبحث المولود الجديد عن الثدي[1]، وكان سالماً من العقل الجمعي والموروث العريض الذي كبّل بنيه فيما بعد؛ فأربك تفاعلهم، وعطّل ملكاتهم، وحرف فطرتهم عن مسارها، ووضع القيود والأغلال في أعناقهم فلم يعد أكثرهم يفرّق بين جيد ورديء.

تعلّم آدم عليه السلام حروف الحمد على النعم، ومنها نعمة الحياة، فحين

---

1 علّمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 74.

عطس قال: "الحمد لله رب العالمين"، معرفة الله بالقلب، والشعور بقربه ولطفه، وحضور معاني صفاته هي الأهم، وهي الركن الأول في الهوية الإنسانية، واستقبل الإلهام الرباني بمعرفة اللغات والأسماء، وأعلن هذا العلم، وهو بهذا يثبت قدرته على التعليم وجدارته به، وجرأته عليه أمام من لا يحصيهم إلا الله من الملائكة، والعجب أن التعقيب القرآني جاء بلفظ ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة: 33].

فاختيار آدم كان على علم، زكّاه الاختيار، وسؤال الملائكة كان سؤال من لا يعلم لمن يعلم؛ ما تعجبون من جاهل يسأل عالماً؟

تعلّم من الألم والندم، والتجربة والخطأ، فأسرع بالتوبة والتنصّل والاستغفار وحوّل الفشل والإخفاق إلى نجاح واستعادة للموقع وتقدّم أكثر.

تعلم وزوجه الخصف، وهو نوع من الصناعة احتاج إليه حين بدت له عورته، وسرعان ما اهتدى لفكرة الأخذ من ورق الشجرة، فالحاجة أمّ الاختراع، والمعرفة يجب أن تكون مواكِبة للحاجات المتجددة للإنسان، ولو كان الإنسان سبباً في حدوث الحاجات بتجاوزه وظلمه[1].

تعلّم وزوجه طبيعة العلاقة بينهما، ونطق أبجدية الحب الأولى بفصاحةٍ لا تردّد فيها، ومضيا مع الفطرة الهادية المهدية صوب الوصال الجسدي والروحي والعاطفي

---

1 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 75.

والتكـامـل والإنجـاب: ﴿رَبُّنَـا الَّـذِي أَعْطَىٰ كُـلَّ شَـيْءٍ خَلْقَـهُ ثُمَّ هَـدَىٰ﴾ [سورة طه: 50].

تابعوا أمر الحمل بدهشة رائعة وفرحة غامرة، وداخلهم شعور يعز وصفه لرؤية وجه التوءم الأول. ربما سقط جنين فتعلموا منه مراحل نموه، أو كان غير سويّ الخلقة فخافوا على المواليد من بعده، إذ هم يدركون أنهم على الأرض الجارية وفق السنن والنواميس والنظم الإلهية وليسوا في جنة يكون الحمل فيها والوضع والنمو في لحظة واحدة، ولهذا تضرعا إلى الله بالدعاء: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: 189].

والأقرب أن مقصود الصلاح هنا أن يكون المولود سليماً معافى صحيحاً من غير علة ولا إعاقة ولا تشويه.

والقصة المروية بأن الشيطان وسوس لآدم وحواء واقترح عليهما تسمية المولود عبد الحارث حتى يسلم من الأذى رواية مضطربة المتن والإسناد[1]، ولو صحّت لكانت ذنباً أعظم من أكلهما من الشجرة وأولى بالاعتذار[2] والتوبة وطلب المغفرة والرحمة.

1 تفسير الطبري، مرجع سابق، 622/10، البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، 225/1.

2 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 76.

فالجزء الثاني في الآية متعلق بكل أبوين أشـــركا مع الله غيره وليس بآدم وحواء على التعيين، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ۚ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة الأعراف: 190]. ولذا قال الشيخ السعدي: أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل الكلام في الجنس[1].

تعلم قابيل من الغراب طريقة الدفن، والغراب طائر فاسق وقابيل فاسق يتعلم من فاســـق، فالعلم ليس محصـــوراً من أحد ويؤخذ من كل أحد، كما تعلم النبي المعصوم سليمان عليه السلام من الهدهد وتحقق من نبئه وبنى عليه.

والحضـارة تراكم إنسـاني، وأسـعد الناس بها من أسـهم في بنائها وانفتح على خيرها وتخفّف من شرها.

والأفراد كما الأمم يجب أن يقيســوا من أصــلهم الأول ديمومة التعلم والتعليم، وطلب الزيادة من العلم، والتعبّد بالمعرفة حتى الموت[2]: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: 99].

وورد في التاريخ أن آدم عليه السـلام أول من وضـع الخط والكتب[3]، وفي هذا الـدرس بيـان لاســتعداد النـاس للتعلّم والتعليم، وأن ذلـك من فطرة الله تعـالى للإنسان، وأنه السنّة الدائمة للبشرية حتى تقوم الساعة.

---

1 تفسير السعدي نقلاً عن التدبر والبيان، مرجع سابق، ص 311، بتصرف.

2 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 77.

3 شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص 41.

- قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: 114].

- وقال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: 76].

- وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: 53].

ثم جاءت الدعوة للبشر للنظر في الكون وفي الأرض، وكانت أول آيات نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: 1-5].

وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم فرضاً، فقال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم)[1]، والحديث عن ذلك طويل وواسع.

ويقترن بطلب العلم الاختبار بين المتعلمين للتنافس من جهة، وبيان الأفضل والأحسن من جهة أخرى، وتحديد الأجدر بالتفوق من جهة ثالثة، وهو ما تطبّقه البشرية منذ القدم، وتُعقد لها الاختبارات اليومية والشهرية والفصلية والسنوية، سيراً على منهج الله وشرعه الأول[2].

ب. نشأة اللغة:

في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: 31]، حيث يؤكد

---

1 سنن ابن ماجه، 81/1، رقم 244، صحح معناه النووي.

2 شرعة الله للأنبياء، الزحيلي، مرجع سابق، ص 42.

هذا النص القرآني الكريم أن الإنســـان بدأ عالماً عابداً ناطقاً متكلّماً بلغة منطقية مفهومة، في الوقت الذي ينادي فيه أغلب علماء الدراســـات الإنســـية "الأنثروبولوجية" بأن الإنسان الأول لم تكن له القدرة على الكلام، ولم تكن له لغة يتكلم بها مع غيره ســـوى لغة الإشـــارة؛ باليد الواحدة أو باليدين، وكذلك يصـــرّ بعض علماء الدراسات الإنسية اليوم على أن الإنسان الأول لم تكن له أي عقيدة محدّدة، أو أي معرفة بذاته أو بالكون من حوله، ثم تعلّم اللغة من الطيور ومن غيرها من الحيوانات، وتعرّف على الله بعد ذلك من خوفه من الظواهر الطبيعية وفزعه من آثارها، وانطلاقاً من هذا الفهم الخاطئ كتب مايكل كورباليس، الأستاذ بجامعة برنســتون الأمريكية كتاباً بعنوان: "في نشـأة اللغة: من إشـارة اليد إلى نطق الفم"[1].

وجاء في هذا الكتاب ما ترجمته: وأنا أزعم أن اللغة في معظم هذه الفترة كانت إشـــارية في الدرجة الأولى، على الرغم من أن الأصـــوات أخذت تتخلّلها بصـــورة متزايدة.

ويضيف: وقد يكون إصدار الأصوات قد خدماً جزئياً في نشـأة اللغة، لكونه إضـــافة إلى إشـــارة الوجه والفم واليدين، وجعل الإشـــارات غير المنظورة لكل من اللسان والتجويف الفموي مسموعة، واللغة بالطبع –حتى لغة اليوم– نادراً ما تكون صوتية خالصة.

---

1 من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، النجار، مرجع سابق، 90/1

وهذا التضـــارب في تحقيق قضــية غيبية غيبةً مطلقة كقضــية نشــأة اللغة عند الإنسان سببه الانخداع بفكرة التطور العضوي التي فنّدتها الكشوف العلمية أخيراً، ودحضتها دحضاً كاملاً، خاصة في مجالات مثل مجالات علوم الوراثة، وعلم الخلية الحية، وعلم الأحياء الجزئي[1].

وجميع ما وُضع من نظريات وفروض لتفسير نشأة اللغة بعيداً عن حقيقة خلق أبينا آدم عليه الســـلام خلقاً خاصـــاً، وتعليم خالقه له الأسماء كلها لحظة خلقه، وعن تهيئة جســد الإنســان تشـريحياً للنطق بالكلام، هي نظريات وفروض باطلة، ويدحض تلك الفروض والنظريات التقارب الشــديد بين جميع لغات أهل الأرض، وشيوع العديد من الألفاظ بينها، خاصة بين اللغات القديمة منها، مع تسليمنا بأن اللغة تنمو وتتطور كما ينمو ويتطور كل كائن حي، وتكفي في ذلك الإشـــارة إلى أن أكثر من خمسين في المائة من ألفاظ كل من اللغتين السريانية والعبرية هي ألفاظ عربية الأصل، وبالتحليل الدقيق للغات أهل الأرض، التي يقدَّر عددها اليوم بأكثر من خمســة آلاف لغة ولهجة، يمكن ردها إلى أصــل واحد هو لغة أبوينا آدم وحواء عليهما السلام، وقد كانت هي اللغة العربية، كما جاء في عدد من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشـريفة والآثار الإنســانية التي كُشـف عنها، ومن أقوال ربنا تبارك وتعالى المؤيدة لهذا الاستنتاج ما يلي:

1 من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، النجار، مرجع سابق،90/1.

- قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: 31].

- وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمن: 1-4].

- وقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: 1-5].

كذلك فإن خلق الإنسان مزوداً بأجهزة للسمع والنطق، منها الأذنان، واللسان، والتجويف الفمي، والحبال الصوتية المرتبطة بجهاز عصبي غاية في دقة البناء وإحكام الأداء، ينفي بشكل قاطع جميع ادعاءات الدهريين بأن الإنسان بدأ وجوده جاهلاً كافراً، أبكم، ثم تعلم النطق بتقليد أصوات الحيوانات من حوله، كما تعرّف على الله من فَزَعِه من الظواهر الطبيعية، وعلى الرغم من وضوح ذلك فإن كثيراً من الملاحدة والمشركين -الذين زادت أعدادهم زيادة مفزعة في ظل الحضارة المادية المعاصرة- لا يزالون يتنكرون لخالقهم وينسبون كل شيء إلى الطبيعة، دون أن يتمكنوا من تحديد دقيق لمدلول لفظة "الطبيعة" الذي ابتدعوه للتهرّب من نسبة الخلق إلى الخالق عز وجل[1].

أما نحن معشر المسلمين فنؤمن بأن الإنسان خُلق عالماً عابداً ناطقاً مفكّراً

1 من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، النجار، مرجع سابق، 92/1.

مزوّداً بكل صــفات التكريم التي كرّمه الله بها، مزوّداً كذلك بكل الأدوات اللازمة لتأهيله بالقدرات المطلوبة لحمل أمانة الاستخلاف في الأرض والقيام بتكاليفها[1].

إن اللغة وسـيلة لمعرفة أسماء الأشـياء، وهكذا نعرف أن الله قد قذف بالإلهام أسماء الأشـياء في إدراك آدم عليه السـلام، وكان إدراك آدم توفيقياً؛ أي إنه عرف كل اســم لكل مســمّى كما خلقه الله تعالى، ثم نزل إلى الأرض لتتطور هذه المسميات ويعمل العقل الإنساني لتطوير وتحديد الأشياء، ما استدعى أن يضع لها أسماء مشتقّة مما تلقاه آدم عليه السلام من الحق عز وجل.

إن الله تعالى قذف بالإلهام كل الأسماء في قلب ووجدان وإدراك آدم، بدليل أن "المسميات" قد عُرضت على الملائكة فلم تعرف أسماءها، ولم تتعرف الملائكة على المسميات، وذلك من طلاقة قدرة الله تعالى عندما ألهم آدم فتعلّم آدم الأسماء[2].

ج. من لمحات الإعجاز الغيبي:

إن الإشارة القرآنية إلى تعليم الله عز وجل لأبينا آدم عليه السلام الأسماء كلها، "أي أسماء كل شـيء بمسـمياته"، تبقى لمحة من لمحات الإعجاز الإنبائي الغيبي التي لو لم يخبرنا بها ربنا تبارك وتعالى ما كان أمام الإنســان من سـبيل للوصـول إليها، وتضاربت آراء غير المسلمين في تفسير نشأة اللغة عند الإنسان، كما ضربنا مثلاً

1 المرجع نفسه، 92/1.

2 قصص الأنبياء، محمد متولي شعراوي، 13/1.

واحداً على ذلك بكتاب مايكل كورباليس الذي سبقت الإشارة إليه، "وغيره كثير".

فقد خلق الله أبوينا آدم وحواء عليهما السلام وفي فم كل واحد منهما لسان ينطق به، وجعل لكل منهما حَنجرةً، وعدداً من الأوتار الصوتية، وشفتين، وصفّين من الأسنان، ورئتين، وهذه هي المكونات الأساسية للنطق، التي يحركها المخ والجهاز العصبي، وينظّم حركاتها في أثناء الكلام حتى تخرج الحروف والألفاظ جلية واضحة، والمنطق السوي يحكم بأن الله تعالى لم يزوّد أبوينا آدم وحواء عليهما السلام بهذا الجهاز المتقن للكلام ثم يدعهما أبكمين لا يعرفان لغة يتكلمان بها، ولا يجدان إلا الإشارة وسيلة للتفاهم بينهما.

وتكفي في ذلك أيضاً الإشارة إلى أن اللسان البشري يتألف من سبع عشرة عضلة متشعّبة في مساحته بالكامل "ثماني عضلات منها مزدوجة، وعضلة واحدة مفردة، ويتخلل هذه العضلات ويحيط بها أعداد من الخلايا والأنسجة المتخصصة التي من بينها أنسجة دهنية وليمفاوية، وأعداد من الغدد اللعابية التي تُبقي اللسان رطباً باستمرار، ويغلّف ذلك كله بغشاء مخاطي رقيق، وبناء على هذا التركيب المرن جداً يستطيع الإنسان تحريك لسانه في كل الاتجاهات بمرونة كبيرة كذلك، وترتبط عضلات وأنسجة اللسان بالفك الأسفل بواسطة عظمة ذات رأسين تحكم حركتها ولا تعوقها.

وأما الشفتان اللتان يَستكمل وجه الإنسان بهما جماله وإحساسه وقدرته على النطق فهما مليئتان بالأوعية الدموية التي تتفرّع بكثافة عالية في الأغشية المخاطية المكوِّنة لهما، ولذلك تبدوان باللون الأحمر، وهناك حزمة متمركزة من العضلات اللافّة حول الشفتين لتمثّل واحدة من مجموع العضلات المعقّدة المعينة على النطق بالكلام، والمحدِّدة لتعبيرات الوجه، وتؤدي الشفتان في الإنسان دوراً مهماً في النطق، فعند الكلام تجمع الحبال الصوتية في مكان واحد، وتهتزّ جراء حركة تيار الهواء الخارج عند الزفير، كما يتحرك كل من اللسان والشفتين والأسنان فيتمكن الإنسان من النطق بالكلام.

وكذلك صمّمت القدرة الإلهية المبدعة كلاً من الأنف والفم في الإنسان على أن يعطيا جميع المواصفات الخاصة بإطلاق الصوت، وفي الوقت الذي تبدأ فيه الكلمات بالخروج من الفم بسلاسة فإن اللسان يأخذ وضعاً من الاقتراب والابتعاد من سقف الفم بمسافات محددة، وتتقلص الشفتان أو تتوسعان، ويتحرك في هذه العمليات العديد من العضلات بشكل سريع حتى يتحقق النطق عند الإنسان، ولولا هذا البناء المحكم بجهاز النطق ما استطاع الإنسان الكلام على الإطلاق، ومن هنا يمنُّ الله الخالق البارئ المصور على الإنسان بقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد: 8-10].

وهل يمكن لعاقل أن يتصور خلق أجهزة الكلام المعقّدة في الإنسان بغير تقدير الله؟[1]

وهل يمكن أن يقدّر الله سبحانه للإنسان هذا كله ثم لا يعلّمه لغة يعرف بها أسماء الأشياء؟

ومن هنا يأتي هذا النص القرآني: "وعلّم آدم الأسماء كلها".

معجزة علمية حقيقية، كما يأتي معجزة إنبائية غيبية، تشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العليّة في نفس لغة وحيه —اللغة العربية—وحفظه دون نقصٍ أو زيادةٍ واحدةٍ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهّد بهذا الحفظ تعهّداً مطلقاً إلى أن يشاء الله، حتى يبقى القرآن الكريم حجّة الله البالغة على الخلق أجمعين إلى يوم الدين[2].

د. لماذا سمي آدم؟

اختلف أهل اللغة في اشتقاقات اسم آدم على أربعة أقوال:

- الفريق الأول: سمّي آدم لأنه خُلق من أدمة الأرض؛ أي وجهها[3].

---

1 من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، النجار، مرجع سابق، 95/1.

2 من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، النجار، مرجع سابق، 95/1.

3 آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، ص 19.

• الفريق الثاني: قالوا إنه مشتقّ من السُّمرة من لونه، يقال رجل آدم نحو أسمر، يعني أنه مشتق من الأدمة وهي سمرة اللون[1].

• الفريق الثالث: يسمّى بذلك لكونه من عناصر مختلفة وقوى متفرّقة[2].

• الفريق الرابع: قالوا سمّي بذلك لما طُيّب به من الروح المنفوخة فيه، المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾[سورة الحجر: 29].

ورجّح الكثير من العلماء رأي الفريق الأول؛ أن آدم مشتق من أدمة الأرض، وذلك لما دلّت عليه أحاديث خلق آدم من التراب[3].

ورجّح الدكتور عبد الحليم محمود أحد هذه الأقوال، فقال: أما كلمة آدم فقد تعوّد الناس أن يقولوا في سبب التسمية بها إنه سمي بآدم لأن جسده خُلق من أديم الأرض، أي وجهها، أو لأن لونه يميل إلى السمرة، يقال: رجل آدم أي مائل لونه إلى السمرة، وأما الرأي الجميل في التسمية فهو أنه سمي بذلك لما طُيّب به من الروح المنفوخ فيه، المذكور في قوله تعالى:﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء: 70]، ومن ذلك قولهم: الإدام، وهو ما يطيَّب به الطعام.

ولقد استشار رجل الرسول صلى الله عليه وسلم في الزواج فقال له: (لو نظرت

---

1 المرجع نفسه، ص 19.

2 المرجع نفسه، ص 19.

3 آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص 19.

إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما)، يؤلِّف ويُطيِّب.

فالتسمية بآدم – على هذا الوجه الذي نرتضيه -إنما هي إشارة وتوجيه نحو التحلّي بالكمال المستطاع، وذلك بالخلق وبالعقل وبالفهم والرويّة وبكل حسن طيب[1].

ولم يتناول العلماء السابقون تعريف آدم عليه السلام اصطلاحاً، ولكن وجدناه عند بعض العلماء المحدثين، من هذه التعريفات:

– آدم عليه السلام هو أول إنسان خلقه الله، وهو أول الجنس البشري، ومنه ومن زوجه خلق الله بنيه الذين عمّروا الأرض من بعده، وهو أول اسم ذكره الله فيمن اصطفاهم على العالمين[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: 33].

– هو أول مخلوق من البشر ظهر على سطح الأرض في هذا الوجود، فهو أبو الناس جميعاً، وإليه ينتمي جميع سكان الأرض من الإنس، وليس قبله مخلوق من النوع الإنساني على الإطلاق[3].

هـ. حرية التعبير عند آدم عليه السلام:

إن أول تعليم علّمه الله تعالى لآدم عليه السلام هو الكلام والتعبير﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ

---

1 قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص 51.

2 الارتباط الزمني بين الأنبياء، محمد وصفي، ص 5.

3 الابتلاء وأثره في حياة المؤمن، عبد الله ميرغني، ص 83.

الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: 31].

الأسماء كلها ليقول ما يريد، ويسمّي الأشياء كلها بأسمائها، بينما ترى اليوم أن تسمية الأشياء بأسمائها قد تكون لها تبعات وتجر إلى مشكلات.

والعلاقة متينة بين خلق الله للإنسان وتعليمه البيان، فقد قال تعالى:﴿ الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمن: 1-4].

فلم يكن أول شيء علّمه الله لآدم هو أداء صلاته، أو كسب قوته، أو ستر عورته، بل أول شيء علّمه إياه بعد خلقه أو مع خلقه هو البيان، والأسماء المحتاج إليها لأجل البيان، وقال تعالى عن بداية خلق الإنسان: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [سورة البلد: 8-9].

ومعلوم أن أكبر وظيفة للسان والشفتين هي وظيفة التعبير والبيان، وعلى العكس من هذا نجد نبي الله إبراهيم عليه السلام يعرّض بالأصنام وعجزها وتفاهتها بكونها لا تقدر على النطق، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 62-63].

فالذي لا ينطق ولا يعبّر إنما هو تمثال لا إنسان: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: 18].

إن وظيفة التعبير والبيان هي من أعظم الخصائص والمواهب الفطرية التي ميّز

الله بها الجنس البشـــري، وجعلها في تكوينه من أول أمره، فهي تشـــكّل جزءاً من هوية الإنســـان وماهيّته، وهذا يدل على الأهمية البالغة التي تكتســبها وظيفة البيان في حياة الإنســان وفي حياة الجماعة البشـرية، ولا شـك أن البيان –الذي يشـكّل جزءاً من فطرة الإنسان وهويّته– إنما يتجسّد في التعبير الصادق عما في النفس وما في العقل وما في القلب، ففطرة الإنسان وأصالته تتمثّل في تسميته الأشياء بأسمائها الحقيقية، أي في تعبيره الصادق والمطابق عما في قلبه وضميره.

ومما يؤكد فطريّة هذا السـلوك وانحراف مخالفته عن هدي الفطرة هو كون الناس جميعاً يحبّون الإفصـــاح والصـــراحة، ويحبّون الإنســـان الصـــريح، ويحبّون من يقول الحقيقة، وليســت الصـراحة المحبوبة فطرياً سـوى التعبير الصـادق السـويّ عما في القلب حينما يتطلبه المقام[1].

وضـدّها إما يكون بعدم التعبير عما في النفس أو التعبير بخلاف ما في النفس، ويؤكد العلامة ابن عاشـور أن صـفة الحرية كلها –وضـمنها حرية القول–هي صـفة فطرية وضـرورية لكل تقدم بشـري، حيث قال: إن الحرية خاطر غريزي في النفوس البشـــرية، فيها نماء القوى الإنســـانية من تفكير وقول وعمل، وبها تنطلق المواهب العقلية متسابقة في ميادين الابتكار والتدقيق، فلا يحق أن تُسام بقيد إلا قيداً يُدفع به عن صاحبها ضرٌّ ثابت، أو يُجلب به نفع[2].

---

1 الحريات من القرآن الكريم، علي الصلابي، ص 79.

2 أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر بن عاشور، ص 162.

وإذا ثبت واتضح أن خاصية البيان والتعبير هي صفة فطرية خلقية في الإنسان فمعناه أنها تفوق درجة الحقوق المكتسبة، وترتقي إلى درجة "الحقوق الطبيعية"، أو لنقل إنها ليست فقط حقاً من حقوق الإنسان، بل هي صفة من صفات الإنسان، وفرق كبير بين أن يُجرّد الإنسان أو يُنتقص من بعض حقوقه، وأن يجرد أو ينتقص من بعض صفاته الذاتية؛ ففي الحالة الثانية يصاب الإنسان في صميم إنسانيته وليس فقط في حق من حقوقه.

ولذا يرى ابن عاشور أن موقف تحديد الحرية موقف صعب وحرج ودقيق على المشرّع غير المعصوم، فواجب ولاة الأمور التريّث وعدم التعجّل، لأن ما زاد على ما يقتضيه درء المفاسد وجلب المصالح الحاجية من تحديد الحرية يعد ظلماً[1].

وقال: اعلم أن الاعتداء على الحرية نوع من أنواع الظلم[2]؛ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، إن الله عز وجل جعل لآدم القدرة على التعبير عما في النفس من مشاعر وخواطر وأفكار، والرمز بالأسماء للمسمّيات، وإطلاق الأسماء على الأشياء كلها، سواء كانت مخلوقات حية أو جمادات أو أفكاراً ومعاني وتصورات. فالآية القرآنية وضحت أن الله عز وجل علّم آدم عليه السلام ومكّنه من النطق والرمز بالأسماء لكل المسميات[3].

---

1 أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ابن عاشور، مرجع سابق، ص 177.

2 مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص 287.

3 سفر التكوين في ميزان القرآن من آدم إلى إبراهيم، صلاح الخالدي، ص 56.

و. المراد التربوي من تعليم آدم الأسماء كلها:

في ضوء قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: 31].

لقد شرّف الله العليم سبحانه آدم وكرّمه بتعليمه علم الأسماء، الذي عَرَف به عليه السلام جميع موجودات الوجود اسماً ووظيفة: فعلم آدم كان موهوباً من الرب الأعلى من غير كسب ومشقّة، بينما العلم الذي أُعطي لأبناء آدم فهو مكسوب وحافل بالتعب والعناء، ولكن الله فطر الناس مجبولين باستعداد كسب هذا العلم لكي يسخّروا أشياء الكون ويؤدّوا مسؤولياتهم تجاه خلافة الأرض[1].

وبهذا العلم الرباني والهبة الإلهية يتحقّق العلم بالأسماء معرفة ومفهوماً واستخداماً وإدراكاً من أجل التعبير عن حقيقة الأشياء وكشف أسرارها والاستفادة منها والرقي بوظائفها وتطويرها[2].

فالأسماء هي المفتاح الحقيقي الذي نفتح به معنى المعرفة، كما أن من عظمة التعليم الرباني في حكمة الله القاضية بجعل علم الأسماء علماً كاملاً غير منقوص لأنه من الله وحده، الذي له الكمال المطلق، ولأن مرادات الله التي ظهرت لنا من خلال كلامه سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

إن هذا العلم الكامل بعد أن تهيّئه إعداداً لخلافة آدم في الأرض ليكون أهلاً

---

1 الإنسان الصالح، علي خميس الغامدي، ص 178.

2 الإنسان الصالح، علي خميس الغامدي، مرجع سابق، ص 178.

للخلافة ومتســلّحاً بالعلم في حياته، إذ إن الأسماء هي المدخل إلى معرفة الوجود، والتعليم الكـامل للأسمـاء يعني اكتمـال الإدراك للوجود، وهـذا يعني تعليم الأسمـاء معرفة ومفهوماً واســـتخداماً وتفاعلاً حقيقياً في الحياة، فأصـــبحت الأسماء هي الأســـاس الذي قام عليه علم البشـــر، فالقيمة بتعليم آدم الأسماء كلها تتمثل في المغازي التربوية الآتية:

- الدرس التربوي الأول تلقاه آدم عليه الســـلام من الله عز وجل، فإن معرفة الأسماء والعلم بها توقيفية من الله ابتداء لآدم عليه السلام.

قـال تعـالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَـاءَ كُلَّهَـا﴾، ثم تكون للأجيـال من بعـده بالاكتســـاب حيث يعلّمها الجيل الأول للأجيال اللاحقة بالتربية والتعليم، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَـيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّـمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل: 78].

- الأسماء تجعل الإنســـان مدركاً لحقائق الوجود كما هي، وتتميز هذه الحقائق على غيرها، كما أنها تمكّن الإنســـان من القدرة على التعبير عن مفردات الوجود وحقائقه المتعددة.

- معرفة الأسماء تجعلنا قادرين على تحديد قيمة الأشـــياء إيجاباً أو ســـلباً، وتساعدنا على تمييز الحسن من القبيح، كما أنها تساعد على إدراك أسماء الأشياء وأسماء الأشـخاص وأسماء المعاني ونعبر عنها جميعاً، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن

يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة البقرة: 269].

– تعليم آدم الأسماء هو القاعدة الصلبة والدعامة الحقيقة لفهم العلوم، واكتساب المعرفة، وتطوير الحياة، وتحسين ظروف العيش والبناء، كما أنها أكسبت الإنسان إدراكاً واعياً يجعل العقل هو الأساس والغريزة تابعة مطيعة له، وأما الحيوان الذي حُرم من هذا العلم المفيد فالغريزة هي التي تحدد حركته وسلوكه.

– إن تعليم آدم الأسماء هو علم رباني موهوب كامل يدل على كمال الله الذي علّم الأسماء، وتعليمها قبس من علم الله، وثمرة ذلك العلم هو القدرة على استيعاب الأسماء كلها.

– تعليم آدم يساعد على معرفة الله بأسمائه وصفاته ودعائه بها، ويعين الفرد على الإيمان والعمل الصالح[1].

خامساً: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة: 31].

"ثم عرضهم على الملائكة" يعني المسمَّيات، أي عرض تلك الأسماء على الملائكة[2]، أي أطلعهم إطلاعاً إجمالياً بالإلهام الذي يليق بحالهم على مجموع تلك

1 الإنسان الصالح، الغامدي، مرجع سابق، ص 181.

2 قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 77.

الأشياء، ولو عُرضت على نفوسهم عرضاً تفصيلياً لعلموها، ولم يكن علمهم محدوداً، والحال أنه عرضها عليهم وسألهم عنها سؤال تعجيز: "فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ".

والأمر في قوله: "أنبئوني" ليس بأمر تنفيذ؛ إذ لا علم للملائكة بهذه الأسماء المسؤول عنها، ولو طُلب منها الإجابة بما لا تستطيعه لكان تكليفاً بما لا يطاق، وذلك غير واقع في الشرائع؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: 286]، وإنما المراد به هو إظهار عجز الملائكة عن علم ما يرون من المسميات المعروضة عليهم لتتبين بذلك الحكمة الإلهية من خلق آدم عليه السلام[1].

- وفي قوله تعالى: "إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ"، للعلماء في هذه الجملة قولان:

أحدهما: أي إن كنتم صادقين فيما اختلج في خواطركم من أني لا أخلق خلقاً إلا وأنتم أعلم وأكرم عليَّ منه.

والقول الثاني: "إن كنتم صادقين" في أنّ بني آدم يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء فيها، وأنكم الأجدر بالاستخلاف منهم[2].

ودلالة القرآن تحتمل القولين، ويمكن الجمع بين القولين بأن يكون بعض الملائكة قال بهذا والبعض الثاني قال بذاك، فيكون اختلاف العلماء في تفسير

---

1 أبو بكر، المرجع نفسه، 79.

2 المرجع نفسه، ص 80.

قوله: "إن كنتم صادقين" من باب اختلاف التنوّع، والله أعلم بالصواب[1].

سادساً: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة: 32].

طلب الله من الملائكة أن يخبروه بأسماء المسميات المعروضة مع أنه يعلم أنهم سيعجزون لأنه لم يعلمهم إياها من قبل، ولكنه أراد أن يقدّم لهم الحكمة من الاستخلاف بطريقة عملية[2]. وكانت إجابة الملائكة اعترافاً بالعجز عن معرفة أسماء المسميات المعروضة عليهم.

الاستفتاح بقوله: "سبحانك"؛ قبل الجواب إنما هو للتأدب مع الله أن يحيط أحد بالحكم الإلهية من وراء خلق مخلوقاته[3].

وبدؤوا جوابهم بتسبيح الله وتنزيهه عن كل نقص، ووصفه بالكمال والجلال، ثم اعترفوا بقصور علمهم، وأنهم لا يعلمون الجواب لأنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله إياه.

وفي هذا الاعتراف الملائكي دليل على أن علم الملائكة هبة من الله سبحانه، وأنه ليس علماً ذاتياً مكتسباً. ما علَّمهم الله إياه يعلمون، وما لم يعلمهم الله لا

---

1 قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 82.

2 سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 67.

3 قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 82.

يعلمونه، فهناك أشياء كثيرة يجهلونها "لا علم لنا إلا ما علمتنا".

وقصـــور علم الملائكة وجهلهم بأشـــياء كثيرة لم يعلّمهم الله إياها دليل على نقصهم وضعفهم، وهذه صفة ملازمة لكل مخلوق، والعلم الكامل الشامل إنما هو لله وحده سبحانه.

وبعدما اعترفوا بقصـور علمهم أثنوا على الله بما يسـتحقه، وجمعوا بين وصـفه بالعلم ووصفه بالحكمة "إنك أنت العليم الحكيم"[1].

1. العليم سبحانه وتعالى:

إن اسم الله العليم ذُكر بوضوح في قصة آدم عليه السلام، وأبونا آدم في علمه أثر من علم الله عز وجل، وكان على يقين بأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، ولا بد للإنسـان من معرفة اسـم الله العليم، وأن يبذل ما في مقدوره في معرفة أسماء الله وصـفاته، وتقديسـه، ويجعل هذه المسـألة أهم المسـائل عنده، وأَولاها بالإيثار، وأحقَّها بالتحقيق.

وقد تحدثنا عن اسـم الله عز وجل "الرَّب" وعلاقته بقصـة آدم عليه السـلام، وأحاول كلما مررت باسم من أسماء الله الحسنى في قصة آدم عليه السلام أن أقف معه وأبيّنه للقارئ الكريم.

فعندما نتدبَّر اســـم الله العليم نعلم أن العلم كلَّه بجميع وجوهه واعتباراته لله

---

1 سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 67.

تعالى، فيعلم الله تعالى الأمور المتأخّرة أزلاً وأبداً، ويعلم جليل الأمور وحقيَرها وصغيَرها وكبيرَها، ويعلم ظواهر الأشياء وبواطنها، غيبها وشهادتها، ما يعلم الخلق منه وما لا يعلمون، ويعلم تعالى الواجبات أو المستحيلات والجائزات، ويعلم تعالى ما تحت الأرض السفلى ويعلم ما فوق السماوات العُلى، ويعلم جزئيات الأمور وخفايا الصدور، وخفايا ما وقع ويقع في أرجاء العالم وأنحاء المملكة، فهو الذي أحاط علمه بجميع الأشياء في كل الأوقات، ولا يعرض لعلمه تعالى خفاء ولا نسيان، كقوله في غير موضع: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: 282]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [سورة آل عمران: 119] [1].

أ- معنى اسم العليم ومتعلَّقات علم الله عز وجل في خلقه سبحانه وأمره:

- معنى اسم الله العليم: قال ابن جرير الطبري رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة: 32]، إنك أنت يا ربنا العليم من غير تعليم بجميع ما قد كان وما هو كائن، والعالم للغيوب دون خلقك[2].

وقال السعدي رحمه الله: هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات، والمستحيلات، والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي،

---

1 ولله الأسماء الحسنى، عبدالعزيز الجليل، مرجع سابق، ص 335.

2 تفسير الطبري، مرجع سابق، 175/1.

وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[1].

والنصوص في ذكر إحاطة علم الله وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جداً؛ منها:

- ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة لقمان: 34].

- وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة النمل: 78].

وقوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة النساء: 12].

- ذكر بعض متعلقات علم الله عز وجل في خلقه سبحانه وأمره:

- شمول علم الله عز وجل لكل شيء في السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق: 12].

وقال عز وجل: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة سبأ: 3].

- علمه الشامل لكل ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، قال الله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحديد: 4].

---

1 تفسير السعدي، مرجع سابق، 299/5.

- علمه المحيط واختصاصه بمفاتح الغيب، وبما يحدث من صغير أو كبير في البر والبحر، قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الأنعام: 59].

- علمه المحيط بمكنونات القلوب وما تخفيه الصدور وما توسوس به النفوس، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: 29].

وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [سورة الرعد: 10].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: 16].

ومن ذلك علمه سبحانه بكل ما يقوله العباد ويعملونه سراً وعلانية، في ليل أو نهار، فرادى أو جماعات، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة يونس: 61].

- علمه الشامل بما في الأرحام لكل أنثى، قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ

كُـلُّ أُنثَىٰ وَمَـا تَغِيضُ الْأَرْحَـامُ وَمَـا تَزْدَادُ ۖ وَكُـلُّ شَـيْءٍ عِنـدَهُ بِمِقْـدَارٍ﴾ [سورة الرعد: 8].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة لقمان: 34].

– علمه سبحانه بكل الأشياء قبل وقوعها، وأن ذلك في كتابٍ، وله الحكمة البالغة في تقديرها، قال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة الحديد: 22].

– علمه سبحانه بأحوال عباده تقّيهم من فاجرهم، وغنيهم من فقيرهم، وغير ذلك من الفوارق، وذلك قبل أن يخلقهم ويكلّفهم، وأن توفيقه لمن يشاء وخذلانه لمن يشاء إنما يكون عن علمٍ بأحوال عباده، وعن حكمةٍ بالغة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [سورة الأنعام: 124].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [سورة الحج: 75]، وقال عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [سورة الفتح: 26] [1].

1 ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 337.

- علمه المحيط الدقيق لكل مناجاةٍ بين اثنين فأكثر مهما أسرّوا النجوى، قال الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة المجادلة: 1].

وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة المجادلة: 7].

- علمه الشامل لما ينزل من الشرائع على رسله، وأنه سبحانه أعلم بما ينزل، وأعلم بما يصلح لعباده: قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: 101].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: 9].

وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: 38].

وكثير من آيات الأحكام يختمها الله عز وجل بقوله: "والله عليم حكيم"، و"إن الله كان عليماً حكيماً"، "وكان الله عليماً حكيماً"، ليخبرنا الله عز وجل أنه إنما يشرع بعلم وحكمةٍ، يقول عز وجل: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [سورة النساء: 166][1].

1 ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 338.

- هذا العلم الذي يعلمه الإنسان المحدود من علوم الدين والدنيا إنما هو من تعليم الله تعالى له، واختصاصه له بالعقل، وقابليته التعليم، وإلا فالإنسان كما قال عنه خالقه عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل: 78].

- اختص الله عز وجل نفسه سبحانه بعلوم الغيب، قال سبحانه: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأنعام: 59].

وقال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة النمل: 65].

وذكر منها خمسة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة لقمان: 34].

- إن الله سبحانه لكمال علمه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، أي إنه سبحانه يعلم الأمور الماضية التي وقعت، والأمور المستقبلية التي لم تقع بعد، ويعلم الأمور التي لم تقع لو فُرض أنها تقع كيف تقع، وهذا من كمال علمه بالغيب وعواقب الأمور، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر: 49]. وقال تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [سورة الفتح: 27] [1].

---

1 ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 341.

ولا شك أن آدم عليه السلام آمن إيماناً عظيماً باسم الله العليم، وعرّف أبناءه بعظمة الله من خلال أسمائه، وتوارث الأنبياء والمرسلون والمصلحون والصالحون دعوة التوحيد ودعوا الناس إليها. وإن من آثار الإيمان باسمه سبحانه "العليم":

عاش آدم عليه السلام وحواء، وكذلك أبناؤهم من الأنبياء والمرسلين، موحِّدين مستشعرين لعظمة الله وجلاله وجماله وهيبته وخوفه ومحبّته، وإيمانهم بعلم الله المحيط بكل شيء، ما ولّد له ولبنيه الاختيار من بعده الخوف من الله عز وجل، ودفعهم ذلك إلى الاستقامة على أمر الله عز وجل ظاهراً وباطناً، فتزكَّت أعمالُهُ، وبنوه الصالحون كذلك، بعد نزوله في الأرض وبداية مسيرة الحياة الإنسانية، وأثمر إيمانه بشمول علوم الله لكل شيء في السماوات والأرض وللبواطن والظواهر في قلب آدم عليه السلام تعظيم الله تعالى والحياء منه، وطمأنينته إزاء ما يقضيه الله من الأحكام القدرية؛ كالمصائب والمكروهات التي لم تحدث إلا بعلم الله تعالى وحكمته، وأنها ليست عبثاً ولعباً. أثمر يقينه بعلم الله تعالى الشامل لكل شيء الرجاء والأنس بالله، ودفع اليأس والقنوط من القلب، والإيمان باسمه العليم اقتضى محبّة آدم وحواء عليهما السلام للعلم والحرص عليه، وتطوير ملكاتهم وأدواتهم المعرفية؛ لأن الله سبحانه العليم يحب كل عليم، ومن سار في طريق التعلم والتعليم والمعرفة التي تدل على حقائق الأمور وتعمّق الصلة بالله عز وجل وعبادته على هذه الأرض.

إننا مطالبون بتعميق الإيمان في نفوسنا وتحقيق التوحيد في قلوبنا والسير على

منهج الله في حياتنا، وإن التأمل في قصة آدم عليه السلام وجذور البشرية والوقوف مع أسماء الله الحسنى وصفاته العُلى، والحرص على حفظها وفهمها والتعبّد بها، تفتح للإنسان الذي يريد أن يتصل بموكب أبيه آدم عليه السلام وبنيه من الأنبياء والمرسلين والمصلحين آفاقاً رحبة وحياة طيبة.

2. الحكيم:

ذكر الله عز وجل في قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة اسم الله الحكيم على لسان الملائكة الكرام، حيث قالوا: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة: 32].

وقد دلّت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة؛ أنه سبحانه "حكيم" لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل كما فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا، وهذا في مواضع لا تكاد تحصى، ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها[1].

واسم "الحكيم" من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه للأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه، فإنكار ذلك إنكار لهذا

---

1 شفاء العليل، ابن القيم، مرجع سابق، 190/1.

الاسم ولوازمه[1].

"والحكيم" هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة: 50]، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك؛ فيحكم بين عباده في شرعه وفي قدره وجزائه، والحكمة وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها[2].

والحكيم: الموصوف بكمال الحكمة وبكمال الحُكْم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم والاطلاع على مبادئ الأمور وعواقبها، واسع الحمد، تام القدرة، غزير الرحمة، فهذا الذي يضع الأشياء مواضعها ويُنزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال[3].

وورد اسمه سبحانه وتعالى "الحكيم" في القرآن الكريم في واحد وتسعين موضعاً، وفي جميع المواضع يرد هذا الاسم الكريم مقترناً باسم آخر من أسمائه الحسنى، ومن ذلك:

أ. اقتران اسمه سبحانه "الحكيم" باسمه عز وجل "العزيز":

وقد تكرر هذا الاقتران في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي

---

1 مدارج السالكين، ابن القيم، مرجع سابق، 31/1.

2 تفسير السعدي، مرجع سابق، 621/5.

3 الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، ص 50.

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة الصف: 1].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة المائدة: 38].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء: 56]، وغير ذلك من الآيات.

وعن سر اقتران هذين الاسمين الكريمين فإن العزة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما يشاء، ويأمر وينهى، ويثني ويعاقب، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر[1].

ب. اقتران اسمه سبحانه "الحكيم" باسمه "العليم":

وورد ذلك في القرآن كثيراً، وبعضها يتقدّم فيها اسم "الحكيم" على "العليم"، كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: 83].

وأكثر مواضع الاقتران يتقدم فيها اسمه "العليم" على "الحكيم"، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة: 32].

---

1 الجواب الكافي، ابن القيم، مرجع سابق، ص 81.

ويلاحظ أن المقامات التي يتقدم فيها اسم "العليم" على اسم "الحكيم" منوطة بالعلم أولاً ثم بالحكمة، ففي مقام الاعتراف بالعجز وقصـــور العلم يقابله ولا بد الإقرار والتسـليم للعليم، فإذا كان "العليم" هو "الحكيم" فذلك هو العلم البالغ حد الكمال، فيكون الاعتراف مصـــحوباً بغاية الرضـــا والتســـليم[1] "إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ".

– وفي مقام ارتباط الصبر وانتظار الفرج باسم الله "العليم" ارتباطاً قوياً، وذلك أن العبد إذا كان عظيم الإيمان عميق الصـــلة بربه واســـتلبت عليه الفرج لم يتزعزع يقينه؛ لأنه معتمد على علم الله عز وجل في اختيار الزمان الأنســـب لما يرجوه من الفرج، معوّل على حكمته في تهيئة الأسـباب له ليقع على أحسـن ما يكون، كما في قول يعقوب عليه السـلام: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة يوسف: 83].

– ومثل ذلك يقال في مقام التواضـع والتحدّث بنعمة الله وفضـله؛ لأن قوامه أحداث ترجع إلى علم "العليم" وحكمة "الحكيم"، كما في قوله تعالى عن يوســف عليه السـلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة يوسف: 100].

---

1 ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 303.

- وأما مقام التشريع وإقرار الحكم فالأمر فيه راجع إلى العلم الشامل أولاً؛ لأن العلم هو أســـاس بناء الأحكام، ثم تأتي الحكمة لتنزل الحكم على الواقع، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ۚ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة التحريم: 2].

وتقديم اسم "العليم" على "الحكيم" لأن مبنى الأحكام على إحاطة العلم أولاً، ثم الحكمة في تنزيل العلم على الواقع بما يحقق الانســـجام والتوافق بين الأحكام الشرعية والطبائع البشرية، وذلك ما يميز الشريعة الإسلامية على الدساتير والشرائع الوضعية.

وأما تقدّم اسمه ســبحانه "الحكيم" على اسمه عز وجل "العليم" فيلاحَظ في مقامين هما:

- مقام التوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: 83].

- مقام إجراء المعجزات كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة الذاريات: 30].

وذلك مضـــمون الألوهية في مقام التوحيد؛ قهرٌ وقوةٌ وغلبةٌ، يقابلها من العباد طاعةٌ وعبادةٌ وخضـــوعٌ، فتقديم الحكمة في هذا المقام – والله أعلم - ليُعلم أن

ألوهيّته عز وجل السارية على من في السماوات والأرض مسارُها الحكمة[1].

ولا شك أن آدم عليه السلام في قوله تعالى: "وعلّم آدم الأسماء كلَّها" انفتح له بابٌ عظيمٌ في معرفة الله والإيمان به من خلال الأسماء الحسنى، فعاش مع اسم الله الحكيم وتجلّياته في حياته، وأثره في نفسه، وشواهده في الكون، والأحكام التي أُنزلت عليه، وحكمة الله في أفعاله وأقداره، فقد كان آدم عليه السلام يدرك في أسماء الله عز وجل من العبوديات وما يلزم عليها من الرضا والتسليم لقضاء الله وقدره، وأثرها في الحياة، وقد سار بنوه من الأنبياء على هديه.

وقد جاء اقتران اسم الله "الحكيم" في القرآن الكريم مع "العزيز" و"العليم" كما بيّنّا، وكذلك مع "الخبير":

- قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة سبأ: 1].

- وكذلك مع اسمه "العلي"، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [سورة الشورى: 51].

- وكذلك اقتران اسمه سبحانه "الحكيم" باسمه "التوّاب"، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة النور:

1 ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 305.

.[10

فهذه دعوة للتأمل والتفكّر والعيش مع اســم الله الحكيم، في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

سابعاً: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة: 33].

1-" قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ":

وآدم عيه السلام بالأمس كان طيناً لازباً ها هو اليوم صار أستاذاً للملائكة يعلّمهم من الأسماء ما جهلوه، يكلّمه ربُّه بلا واسطة، ويجعله أباً للبشرية، وفوق ذلك اختاره نبياً ورسولاً إلى أهل الأرض.

قال ابن عاشور: وابتداء خطاب آدم بندائه في قوله: "يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ"، مع أنه غير بعيد عن سماع الأمر الإلهي؛ للتنويه بشأن آدم، وإظهار اسمه في الملأ الأعلى، حتى ينال بذلك حسن السمعة مع ما فيه من التكريم عند الأمر[1].

2-" فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ":

وما إن بدأ آدم عليه السلام بتسمية المسميات بأسمائها؛ هذا اسمه كذا، وهذا

---

1 التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، 79/1.

اسمه كذا، وقد سمع آدمُ كلامَ ربّه ونفَّذه على الفور، وهذا يُثبت القول لله عز وجل بحرفٍ وصـــوتٍ مســـموعٍ؛ لأن آدم سمعه وفهمه فأنبأ الملائكة به، فالله عز وجل يتكلّم بكلام مسموعٍ، كلام مترتّب، بعضُه سابق لبعض، وآدم عليه السلام امتثل وأطاع ولم يتوقف وبادر وأنبأ الملائكة[1].

وما إن بدأ آدم عليه السلام في تسمية الأشياء حتى استيقنت الملائكة شرف هذا المخلوق، فخضـعوا واسـتسـلموا لإرادة الله، لأنهم علموا أن آدم ما عُلّم هذه الأشـــياء إلا بإرداة الله، فبالعلم نال هذا المخلوق المكانة الرفيعة، وعِلم الأسماء ذو أهمية قصـوى في حياة الإنسـان؛ كيف لا والإنسـان لا يسـتطيع العيش على هذه الأرض إلا بهذا العلم، وكيف ســتكون حال الناس في التخاطب والتفاهم بدون الأسماء؟ بالتأكيد سـتكون حياتهم جحيماً، ولو كان هناك علم آخر يُظهر شـرف آدم أكثر من علم الأسماء لعلّمه الله لآدم، ولو لم يعلّم الله آدم هذه الأسماء لكان آدم أعجزَ من الملائكة في الإخبار عنها[2].

3-"قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ":

أيّ ما غاب فيهما، وهو نوعان؛ نسـبيٌّ وعامٌّ، فأما النسـبي فهو ما غاب عن بعض الخلق دون بعض، وأما العام فهو ما غاب عن الخلق عموماً[3].

---

1 تفسير القرآن الكريم، محمد صالح العثيمين، 124/1.

2 آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص 49.

3 تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، مرجع سابق، 123/1.

وعموم علم الله عز وجل يتعلق بالمشـــاهدة والغائب؛ لقوله تعالى: "أَعْلَمُ غَيْبَ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"، كما أن الســـماوات ذات عدد، لقوله: "الســـماوات"، "والأرض" جاءت مفردة والمراد بها الجنس؛ لأن الله تعالى قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: 12]، أي في العدد[1].

4- "وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ":

"وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ" أي ما تُظهرون، "وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ" أي تُخفون، وهذا يدل على أن الملائكة بعد أن أعلمهم الله بخلق آدم عليه السلام قد كان منهم قولان في شأنه:

أحدهما: معلن منطوق به.

والثاني: سر ومكتوم.

فأما الذي أعلنوه وأظهروه بألســـنتهم في قول عامة أهل التفســـير فهو قولهم: "قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِـــدُ فِيهَا وَيَسْـــفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَـــبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ". وأما الذي كتموه من القول فاختلف فيه أهل العلم على قولين:

أحدهما: أنه قولهم سراً فيما بينهم: إن الله تعالى لا يخلق خلقاً إلا كنّا أعلم منه وأكرم.

1 المرجع نفسه، 124/1.

أما الثاني: أن الذي كتموه هو ما أسرّه إبليس من الكبر والعصيان[1].

"وأعلم ما تبدون" أي: ما تظهرون، "وما كنتم تكتمون" أي: تُخفون، والملائكة لها إرادات تُبدى وتُكتم، لقوله: "وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ"، والله عالم بما في القلوب سواء أبدي أم أخفي، والملائكة لها قلوب لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سورة سبأ: 23][2].

فالله يعلم ما يظهرون وما يسرّون، ويعلم من يصلح للخلافة على الأرض ومن يصلح لسكن السماء، فلا تعترضوا على حكمه وتدبيره وإرادته، فإنه عالم الغيب والشهادة.

وفي قصة آدم عليه السلام واستخلافه تركز ذكر العلم في ثلاثة مجالات:

- إثبات العلم الشامل لله عز وجل.
- نفي العلم عن الملائكة إلا ما علّمهم إياه رب العزّة.
- إثبات التعليم لآدم عليه السلام بما يصلح أن يقوم به أمر الخلافة ويستقيم[3].

ويظهر من خلال الآيات الكريمة في قصة آدم عليه السلام فضل العلم وأهله، وفي الحديث: (وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم)[4]، أي تخضع

---

1 قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 85.

2 تفسير القرآن الكريم، العثيمين، مرجع سابق، 124/1.

3 الحوار والاستدلال في القرآن، خالد الياسين، ص 495.

4 مسند أحمد، 240/1.سنن الترمذي، 509/5-510، صحيحه ابن حبان، 147/4-148، رقم: 319.

وتتواضـع، وإنما تفعل ذلك لأهل العلم خاصـة؛ لأن الله تعالى ألزمها ذلك في آدم عليه السلام فتأدبّت بذلك الأدب[1].

ثامناً: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْـجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: 34].

هذه الآية الكريمة تسـجّل إحدى الوقائع الغيبيّة المهمّة في قصـة خلق أبينا آدم عليه السلام لم يشـهدها أحد من ذريته، وإيرادها في كتاب الله يمثل وجهاً من أوجه الإعجاز الإنبائي الغيبي[2].

ومعنى هذه الآية الكريمة يؤكّده ربنا تبارك اسمه في مواضـــع أخرى في محكم كتابه العزيز:

– ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْـجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [سورة الأعراف: 11].

– وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْـــجُدُوا لِآدَمَ فَسَـــجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [سورة الإسراء: 61].

– وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَـــقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ

1 تفسير القرطبي، مرجع سابق، 198/1.

2 من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، النجار، مرجع سابق، 103/1.

لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [سورة الكهف: 50].

– وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [سورة طه: 116].

1– الأمر بالسجود لآدم نقطة محورية في قصة آدم:

بتتبّع الآيات الواردة في قصة آدم نجد أن النقطة المحورية والركيزة الأساسية في قصة آدم عليه السلام هي سجود الملائكة لآدم مقروناً برفض إبليس له، فلا تخلو سورة من السور التي تناولت قصة آدم من ذكر هذه النقطة؛ وَرَدَتْ بسياقات مختلفة كلها تؤدي إلى ذلك المعنى، كما مر معنا في سورة البقرة، والأعراف، والإسراء، والكهف، وفي طه، وفي سورة ص، وجاء في سورة الحِجر وحدها بلفظ الخبر: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [سورة الحجر: 73-74].

وهذه الآية في سورة البقرة جاءت بعد إعلام الله ملائكته بخلقه آدم لقصد الاستخلاف في الأرض، وبعد بيان فضله عليهم بتعليمه من الأسماء ما عجزت الملائكة عن الإنباء به، فبان للملائكة ما خفي عنهم من شأن هذا المخلوق الجديد، وليس الأمر كما ظنّته الملائكة بأن دوره في الأرض ينحصر في سفك الدماء والإفساد في الأرض، ولم يزل الله يرفع شأنه حتى جعله مسجود الملائكة.

ولتأكيد أهمية هذا المخلوق ومكانته عند الله تعالى جاء الأمر للملائكة

بالسجود في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: 34].

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتنَّ بها على ذريّته؛ حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم[1].

2- وجه سجود الملائكة لآدم عليه السلام:

لم يكن القصد من سجود الملائكة لآدم عليه السلام عبادة آدم بذلك السجود، بإجماع المسلمين، وإنما كان الغرض منه تنفيذ أمر الله طاعةً له فيما أمر، وإكراماً لآدم به، وإظهاراً لفضله، وتنويهاً بمكانته عند الله.

أ. حقيقة السجود الذي أُمر به الملائكة:

السجود في لغة العرب التذلل والخضوع، وقد يكون معه انحناء. وحقيقته في الشرع وضع الجبهة على الأرض، وقد اختلف أهل العلم في نوعية هذا السجود، والصحيح الذي عليه الجمهور أنه كان بوضع الجباه على الأرض؛ لأن السجود إذا أُطلق انصرف إلى السجود المعروف في الشرع، ولو أريد غيره لقُيّد بما يفيد ذلك[2]. وهذا سجود تكريمٍ لا سجود عبادةٍ، فهو شبيه بقوله تعالى في شأن يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [سورة يوسف: 100].

---

1 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 227/1.

2 قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 116.

وقد اتّفق علماء الإسـلام أن العبادة لا تكون إلا لله، والسـجود على وجه العبادة لا يكون لملكٍ مقرَّبٍ ولا نبيٍّ مرسلٍ؛ هو لله وحدَه.

هل كان آدم قِبلة لهم في السجود؟

لو كان كذلك لكان الأنسب أن يُقال: اسجدوا إلى آدم، فالسياق استعمل لفظ "اسجدوا لآدم" في جميع المواضع التي وردت فيها القصة.

هل كان آدم إماماً لهم وهم يسجدون وراءه؟

هذا لا يساعد عليه السياق، وهو قول متكلّف.

هل كان السجود بمعنى الانحناء؟

يُشكل على هذا قوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [سورة الحجر: 29]، والوقوع ظاهره الخرور إلى الأرض.

وهل السجود تعبير عن توكيل الملائكة بشأن آدم والقيام على أمره وأمر ذرّيّته وحياتهم ومماتهم؟

في التنزيل بيان تكليف الملائكة بأمر نفخ الروح، ونزع الروح، وأمور الرحمة، وأمور العذاب، وما شاء الله من أمر كتابة الأعمال والأحوال والحسنات والسيئات، وتكليف الملائكة بذلك حق ثابت، ولكن لا يحسن قصر معنى السجود عليه، فثمَّ موقف غيبي أُمر الملائكة فيه بالسجود لآدم ففعلوا وامتنع إبليس، وهو سجود حقيقي يناسب خلق الملائكة وما جُبلوا عليه مما يعلمه الله ولا نعلمه نحن ولا

نستطيع تكييفه[1]. **فللسجود أوضاع وهيئات تتفاوت بتفاوت المخلوقات:**

- ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [سورة الرحمن: 6].

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الحج: 18].

- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ [سورة النحل: 49].

وفي السُّنّة سجود الشمس تحت العرش لا ينكر الناس من أمرها شيئاً.

قال القرطبي: وقال قوم لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم بوضع الجبهة على الأرض، ولكنه مُبقىً على أصل اللغة؛ فهو من التذلّل والانقياد، أي: اخضعوا لآدم وأقرّوا له بالفضل[2].

والأقرب أن ما أُمروا به هو فعل زائد عن مجرد الخضوع والإقرار بالفضل، مناسب للمقام ولهم، أُمروا بأدائه إظهاراً لفضل آدم وذريته، وإعلاناً لحقبة جديدة يكون له ولعقبه فيها الخلافة في الأرض.

واللائق بأمور الغيب إمضاؤها على ظاهرها دون إيغالٍ في تصويرها أو تصوّرها، أو تفصيلها أو تأويلها؛ رعايةً لحرمة النصوص، وتقديراً لطبيعة "تعميم"

---

1 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 145.

2 تفسير القرطبي، مرجع سابق، 293/1.

العقل البشـري الذي يبدع في الكشـف والابتكار، وينجح في ميدان المادة، ويحقق حين يتحركُ فيما وراء الطبيعة، وهو سرُّ تفوق آدم وعلو مقامه.

والسـجود لآدم طاعة للذي خلقه وفضّـله، وهو عبادة لله الذي أمر به، مثله مثل الطواف بالكعبة وتقبيل الحجر الأسود[1].

يقول الشـيخ الدكتور عبد الحليم محمود: وهذه القصـة التي نمرّ عليها فلا نكاد نُعيرها التفاتاً جديرةٌ بالتأمل والاعتبار، والقضـايا التي نريد أن نذكرها عظة واعتباراً، وهي في نفس الوقت ذات دلالات عميقة، هي ما يأتي:

- لقد صـدر أمر إلهي بالسـجود فاسـتجابت له طائفة، فنعموا برضـوان الله، وشذّ فريق، فطُرد من رحمته سبحانه.

- أنه طُرد لأنه لم يستجب للأمر الإلهي مع علمه بأنه أمر إلهي.

- كان عدم استجابته ناشئاً عن كبرياء في نفسه، وعن تمرّد في فطرته.

- لم تلغِ عبادته كبرياءه، فهي إذن لم تكن عبادة بالمعنى الصـحيح؛ لأن العبادة والكبرياء لا يجتمعان.

- هـذه الكبرياء كما تمثلت في مخالفة الأمر الإلهي تمثلت في المحاولة التي أراد هـذا المتمرّد أن يبرز بها موقفه مسـتنجداً بمنطقه وعقله، قائلاً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ

1 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 146.

خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [سورة الأعراف: 12].

ولم يكن هذا إلا منطق الهوى ومنطق الكبرياء، فسجوده لآدم ليس عبادة له وإنما هو عبادة لله؛ لأنه خضوع لأمر الله وحسب.

– والمغزى لما سبق، وهو ما يرشد إليه روح القصة، بل وتعبيرها، أنه عند الأمر الإلهي يجب أن تكون الاستجابة فورية، وربما كان هذا هو ما ترشدنا إليه كلمة "إذْ" في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [سورة الأعراف: 12]، وهذه الفورية طبعاً هي كل أمر بما يناسب وضعه الزماني والمكاني.

والقضية التي نختم بها هذه القضايا، أو هذه المفاهيم المستَنتجة من القصة، هي أن الله إذا كان قد أمر الملائكة والجن بالسجود للإنسان الأول فليس معنى ذلك إلا التصريح الصريح بأن طبيعة الإنسان فيها الاستعداد الكافي للرقيّ في مدارج السمو الروحي درجةً فدرجةً حتى تسمو على الملائكة والجن، ولا معنى إذن بعد هذا الأمر الإلهي للملائكة والجن بالسجود للإنسان لأن يختلف علماءِ الإسلام في المفاضلة بين الإنسان والملك؛ فإن الفيوضات الإلهية على الإنسان لا تنتهي إلى حدٍّ (ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن).

وباب الفيوضات الإلهية مفتوح على مصراعيه، والقرب منه ميسور، وإذا سجد الإنسان لله رفعه الله إليه، وقرّبه منه، وغمره برضوانه[1].

---

1 قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص 45.

ب. الإيمان ليس معرفة وحسب والسجود لله طريق السعادة:

إن المبدأ المهم الذي نريد أن يجعله كل مؤمن نصـــب عينيه هو: الإيمان ليس معرفة وحسب؛ ذلك أن إبليس كان يعرف أن الله موجود، وقد عرف فيما بعد أنه أرسـل نوحاً وإبراهيم ومحمداً عليهم الصـلاة والسـلام، إنه يعرف أن لا إله إلا الله، ويعرف أن محمداً رسـول الله، ويعرف أن عيسـى وموسـى وبقية الأنبياء رسـل الله، ومعرفتـه بهذه المســـائل هي من القوة والثبات بحيث تزيد على معرفة كثير من المؤمنين. ولكنـه مع ذلـك مطرود من رحمـة الله، ذلـك أن الإيمـان ليس معرفـة فحسـب، وإنما خشـوع واسـتجابة، قول وعمل واعتقاد، إنه سـجود، فإذا لم يتأتَّ السجود فلا إيمان، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَـجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِـهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَـيْتَ وَيُسَـلِّمُوا تَسْـلِيمًا﴾ [سورة النساء: 65].

لقد كان سـعيد بن جبير رحمه الله يقول: "ما آسـى على شـيءٍ من الدنيا إلا على السـجود". وأما علي بن عبد الله بن عباس فقد كانوا يسـمونه "السـجّاد" لكثرة سـجوده، وقد كان يكثر من السـجود -كما هو المتبادر إلى الذهن-ليكون على النقيض من إبليس[1].

وما من شـك في أن السـجود بمعناه الحقيقي، أي سـجود القلب والجوارح لله

1 قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبدالحليم محمود، مرجع سابق، ص 45.

تعالى، إنما هو استجابة لله سبحانه وتعالى وخضوع له، وبهذا المعنى يقود الإنسان إلى الجنة[1].

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي فراس ربيع بن كعب الأسلمي، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أهل الصفة، رضي الله عنه قال: كنت أبيتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فآتيه بوضوئه وحاجته، فقال: (سلني)، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: (أو غيرُ ذلك؟)، فقلت: هو ذاك، قال: (أعنّي على نفسك بكثرة السجود)[2].

السجود إذن مما يعين على ترويض النفس لتتزكى، وهو بذلك من الوسائل التي توصل إلى الجنة، وفي هذا المعنى يروي الإمام مسلم أيضاً، عن أبي عبد الرحمن بن ثوبان، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (عليك بكثرة السجود؛ فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة، وحطَّ عنك بها خطيئة)[3].

والسجود الذي يريده رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، والذي ورد في هذه الأحاديث، ليس مجرد الحركة المعروفة، وإنما هو مع الحركة المعنى العميق في النفس الذي يتمثل في جلال الله وعظمته ورحمته وودّه، ويتمثل فيه الخضوع لهذا الجلال

---

1 المرجع نفسه، ص 46.

2 رواه مسلم. قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص 46.

3 رواه مسلم، قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص 46.

وهذه العظمة، والانقياد المطلق لرحمة الله التي تتمثل في الرسـالة الإسـلامية؛ أوامرها ونواهيها.

فإذا كان السـجود تعبيراً عن التطامن والتذلل لله سـبحانه وتعالى، وذلك هو معناه الصـحيح، عندما يكون السـجود عبادة، ويكون خضـوعاً له سـبحانه، فإنه يكون سبيلاً إلى الجنة، وإلى أكثر من الجنة؛ وهو القرب من الله سبحانه.

– يقول الله تعالى: ﴿وَاسْـجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [سـورة العلق: 19]، أي اقترب من الله بالسـجود. ورسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[1].

وهذا المعنى في السـجود هو الذي حقّقته الملائكة، وهو الذي أباه إبليس، ولم يسـجد إبليس بسـبب كبريائه، لقد أبى واسـتكبر وكان من الكافرين، وقادته كبرياؤه إلى الإصـرار على ما فعل، مبرراً له، ولو أنه رجع إلى نفسـه فندم واسـتغفر وتاب لقبل الله توبته، ولكنه عاند وأصـرّ فطرده الله من رحمته وودّه، وأخرجه من رياض رضوانه ورأفته، حارماً إياه من نعمه.

3- هل كل الملائكة أمروا بالسجود؟

علّق الشـيخ محمد متولي شـعراوي على قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [سورة ص: 72]، قال بعض العلماء: إن أمر

---

1 المرجع نفسه، ص 47.

الله تعالى بالسجود هنا المراد به هو التحية والتعظيم وليس السجود الفعلي؛ لأن السجود لغير الله منهي عنه. ولكن السجود هنا لا بد أن يؤخذ بمعنى السجود؛ لماذا؟

لأن الملائكة لم تسجد لآدم، وإنما يسجدون لأمر الله تعالى بالسجود لآدم، تماماً كمسألة القِبلة عندما أمرنا الله تعالى أن نتّجه في الصلاة إلى المسجد الأقصى، لم يكن المسلمون يسجدون للمسجد الأقصى، ولكن لأمر الله تعالى في الاتجاه إليه، فلما تغيّر الأمر وأصبحت الكعبة هي القبلة اتجه المسلمون إلى الكعبة، ولكنهم لا يسجدون للكعبة ذاتها، ولكن لأمر الله تعالى بالسجود في اتجاه الكعبة.

إذن فالسجود هنا لأمر الخالق، والعمل بالنية، والنية في سجود الملائكة لم تكن لعبادة آدم، ولكن لطاعة أمر الله، وأمر الله لا بد أن يطاع.

وبعض الناس يسأل: لماذا كان سجود الملائكة لآدم؟

نقول: إن الله تعالى سخّر الكون كله لآدم وذريته، منهم المدبرات أمراً الذين يقومون بتنفيذ أوامر الله تعالى بالنسبة للإنسان، ومنهم الحفظة الذين يكتبون كل ما يحدث من البشر، فكأن سجود الملائكة هو سجود ألفة ومعرفة، والذين سجدوا هم الموكّلون بخدمة الإنسان في الأرض، وأما الملائكة العالون المقرّبون إلى الله فإنهم لم يسجدوا، بدليل قول الله تعالى لإبليس حينما رفض السجود: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [سورة ص: 75]، أي من الملائكة العالين

الذين لم يشملهم أمر السجود، إذن كان السجود لآدم بأمر الله ولأجل أنه أمر سبحانه وتعالى[1].

وأما العلامة سلمان العودة فقد قال: كل الملائكة الذين أُمروا بالسجود سجدوا أجمعين بلا استثناء: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [سورة الحجر: 73].

وهل كان الأمر بالسجود موجهاً لجميع الملائكة أم لبعضهم ممن هم موكّلون بالحياة الآدمية من نفخ وحفظ وقبض؟

ظاهر السياق أن عامة الملائكة أمروا بالسجود فسجدوا له؛ من ملائكة الأرض، وملائكة السماء، وأشراف الملائكة، كجبريل وميكائيل وإسرافيل، والأمر فيه مجال واحتمال. والسجود طواعية للآمر المتفرّد جل وتعالى، وعبر الرسالات كلها كان السجود على الجبهة من أعظم مظاهر الخضوع والدينونة لله عز وجل[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا قرأ ابن آدم السَّجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويله -وفي رواية أبي كريب-يا ويلي: أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فلَهُ الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيت فلي النار) [3].

---

1 قصص الأنبياء، الشعرواي، مرجع سابق، 17/1.

2 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 146.

3 رواه مسلم، 87/1.

قال القرطبي: وبكاء إبليس المذكور في الحديث ليس ندماً على معصـــية ولا رجوعاً عنها؛ وإنما ذلك لفرط حسده وألمه مما أصابه من دخول أحدٍ من ذرية آدم الجنة ونجاته، وذلك نحو ما يعتريه عند الأذان، والإقامة، ويوم عرفة.

والعودة إلى الجنة تمرّ عبر بوابة السجود، وبقدر نزول الجبهة يرتفع الشأن، كما مر معنا، ويوم القيامة يُدعى الناس للسـجود فيسـجد المؤمنون، ويحاول غيرهم فلا يستطيعون، وتأبى ظهورهم أن تنحني لله، وهي التي طالما انحنت لغيره[1].

لقد اختلف العلماء هل المأمورون بالسـجود لآدم جميع الملائكة أو بعضـهم؟ فقد قال بعض أهل العلم إنهم بعض الملائكة وليســوا كلهم، ثم اختلفوا فيما بينهم في البعض الآخر الذي أمر بالسـجود لآدم، فقال بعضـهم: هم ملائكة السـماء، وقال آخرون: هم ملائكة الأرض، وقال غيرهم غير ذلك[2].

قال الرازي: قال الأكثرون إن جميع الملائكة مأمورون بالسجود لآدم، واحتجوا عليه بأن لفظ الملائكة صـفة الجمع، وهي تفيد العموم، لا سـيما أن هذه اللفظة وردت مقرونة بأكمل وجوه التأكيد في قوله: ﴿فَسَـــجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [سورة ص: 73] [3].

وقال ابن كثير: وظاهر الآية الكريمة العموم: ﴿فَسَـجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ

---

1 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 147.

2 قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 117.

3 التفسير الكبير مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، 1995، 22/2.

﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ [سورة ص: 73-74].

فهذه أربعة أوجه مقوّية للعموم، والله أعلم[1]، وهي:

- تعريف الملائكة بالألف واللام وهي تفيد الاستغراق.

- تأكيد ذلك بلفظ "كلهم" وهي من ألفاظ العموم.

- التوكيد أيضاً بلفظ "أجمعون" وهي أيضاً من ألفاظ العموم، وتأكيد التأكيد من أقوى صيغ العموم، أي لم يتخلف عن السجود أحد منهم.

- والرابع أنه تعالى استثنى إبليس منهم، واستثناء الشخص الواحد منهم يدل على أن من عدا ذلك الشخص كان داخلاً في الحكم[2].

4- فضل آدم عليه السلام على الملائكة وبقية المخلوقات:

لا خلاف بين أهل العلم أن آدم عليه السلام أفضل من الجن والشياطين، ولم يتبقَّ من المكلفين إلا الملائكة، وقد اختُلف في الأنبياء والملائكة أيهما أفضل، فقد استُدل بسجود الملائكة لآدم على أن الأنبياء أفضل من الملائكة، ووجه ذلك أن السجود هو نهاية التذلل، ولا يُتصور أن يكون إلا من المفضول إلى الأفضل، مضموماً إلى أدلة أخرى؛ منها أن آدم أعلم من الملائكة والأعلم أفضل، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: 33].

---

1 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 223/1.

2 تفسير الرازي، مرجع سابق، 22/2.

والعالم هو ما ســـوى الله، وعليه فالملائكة من جملة العالمين، ومنها أن الملائكة حفظة وبنو آدم محفوظون، والمحفوظ أشـــرف منه، وأعزّ من الحافظ، إلى غير ذلك من الأدلة التي احتج بها من ذهب إلى تفضيل الأنبياء على الملائكة[1].

وقال ابن تيمية بعد كلام طويل في تفضـــيل الأنبياء وصـــالحي البشـــر على الملائكة: وما علمت عن أحد من الصـــحابة ما يخالف ذلك، وهذا هو المشـــهور عند المنتســـبين إلى الســـنة من أصـــحاب الأئمة الأربعة وغيرهم، وهو أن الأنبياء والأولياء أفضل من الملائكة[2].

وقال الشوكاني: وقد شُغل كثير من أهل العلم بما لم تكن إليه حاجة ولا تتعلق به فائدة؛ وهو مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء، أو الأنبياء على الملائكة[3].

والراجح أن الأنبياء والأولياء أفضـــل عند الله من الملائكة؛ لأن إيمان الملائكة فطري، وعبادة الملائكة لله عبادة فطرية، ليس لهم في ذلك إرادة ولا اختيار، ويتوجهون إليه دون ســـعي وكســـب ومجاهدة وتربية، والله فطرهم على ذلك، وهم يؤدّونه دون فتورٍ أو كسلٍ أو مللٍ.

وأما البشـــر فقد كلّفهم الله بذلك تكليفاً، وأدّى الأنبياء والصـــالحون أمر الله باختيارهم وكســـبهم واجتهادهم وســـعيهم، وتغلّبوا على المعوقات والمثبّطات

---

1 قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 121.

2 مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، 372/1.

3 فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، 334/4.

والمغريات، وجاهدوا أنفسـهم، وتركوا ما حرّم الله، وارتقوا إلى المنازل العالية بفضل الله عليهم الذي وفقهم وأعانهم، وكما أن الإنسان الكافر أحطُّ عند الله من الحيوانات لعدم قيامه بواجبه، كذلك الإنسان الصالح الذي يستعلي على ضعفه ويجاهد نفسه أفضل عند الله من الملائكة الذين يؤدون عبادتهم بدون جهد أو مجاهدة[1].

تاسعاً: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: 34].

1- إبليس والجن والشيطان:

لا بد هنا من أن نبيّن الفرق بين هذه التسميات الثلاث: الجن وإبليس والشياطين، لأن كثيراً من الناس يخطئون في التمييز بينها ويخلطون بين معانيها.

الجن هم العالم الخاص المقابل للإنس، الذين خلقهم الله من مارج من نار، وهم قسمان؛ جن مؤمنون وجن قاسطون كافرون.

وأما إبليس فهو من الجن بنص القرآن، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [سورة الكهف: 50].

وظن بعضهم خطأ أن إبليس من الملائكة؛ لأنه شمله الأمر بالسجود لآدم،

---

1 سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 75.

وهذا ظن باطل وكلام مردود لأنه يتعارض مع صـــريح القرآن "إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ".

ولو كان إبليس من الملائكة لما عصـــى الله، لأن الله خلق الملائكة مفطورين على الطاعة فطرة، ويســتحيل أن تصــدر منهم معصــية، والله تعالى يقول: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: 6].

ولو كان من الملائكة لكان مخلوقاً من النور، مع أنه صـرّح بأنه مخلوق من نار، التي خُلق منها الجن، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْــجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [سورة الأعراف: 12].

أما الشـيطان فإنه وصـف يطلق على موصـوف وليس اسماً لشـخص أو جنسٍ أو صـنفٍ، وهذه الكلمة "شـيطان" مشـتقة من "شَـطَنَ" أي ابتعد، وهذا الوصـف يُطلق على كل كافر عدو للمؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّــيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [سورة فاطر: 6].

والشـــياطين وصـــف يطلَق على كل الكفار من عالم الإنس أو من عالم الجن؛ لأن هؤلاء الشياطين ابتعدوا عن رحمة الله بكفرهم.

والخلاصة أن الشياطين أصناف ثلاثة:

الأول: إبليس، أول شيطان، لأنه أول كافر عاصٍ متمرد، وهو إمام الشياطين وقائدهم[1].

وهو أبو الشياطين وأصلهم الأول، والشياطين هم المتمردون من عالم الجن.

والفرق بين اللفظتين "إبليس" و"الشيطان" في الاستعمال أن "إبليس" خاص به لا يطلق على غيره، و"الشيطان" يستعمل لكل عاصٍ من الجن والإنس[2].

وإبليس اسم له قبل أن يرفض السجود لآدم، وهو اسم علم أعجمي؛ فلا نبحث عن مادة اشتقاقه في اللغة العربية[3]، وقيل اسم عربي مشتق من الإبلاس وهو اليأس[4]، وهو مشتق كذلك من الإبعاد والغضب أو التمرد والرفض[5].

وبعد التمرد على الله أُطلق عليه وصف يتفق مع التمرّد، حيث وصفه الله بأنه شيطان، قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [سورة البقرة: 37].

و"شيطان" صفة مشتقة، واشتقاقه من "شَطَنَ"، ومعنى الشَّطن الابتعاد.

---

1 سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 25.

2 آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص 57.

3 القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، 112/1.

4 قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 122.

5 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 159.

ووُصف إبليس بذلك لتشيطنه وابتعاده بذلك عن رحمة الله وكرامته واستحقاقه الاحتراق بالنار في جهنم. إذن: اسمه "إبليس" ووصفه "شيطان"[1].

الثاني: الجن الكفار الذين أغووا أتباعهم من الإنس، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: 128].

الثالث: الإنس الكفار، فكل كافر من عالم الإنس شيطان، مهما كان دينه ومهما كان سبب كفره، فبما أنه ليس مسلماً فهو شيطان كافر.

وقد أطلق القرآن على الإنس والجن الكفار شياطين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [سورة الأنعام: 112].

والجني المؤمن لا يسمّى شيطاناً؛ لأنه مطيع لله، وهو في الآخرة منعّم في الجنة مع الإنسي المؤمن[2].

والخلاصة أن إبليس من الجن، وهو قائد الكافرين من الإنس والجن، والشيطان وصفٌ يطلق على كل كافر من الإنس والجن، وأما الجن فليسوا كلهم شياطين؛

---

1 القصص القرآني، الخالدي، مرجع سابق، 112/1.

2 سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 26.

الكافرون منهم شياطين، والمؤمنون منهم كمؤمني الإنس صالحون[1].

2- إبليس من الجن وليس من الملائكة:

قال ابن كثير عند تفسيره قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [سورة الكهف: 50]، أي: خانه أصله، فإنه خُلق من مارجٍ من نار، وأصل خلق الملائكة من نور. إلى أن قال: ونبّه تعالى ههنا على أنه من الجن، أي على أنه خُلق من نار[2].

والجن: اسم جنس، يُطلق على ذلك الصنف من المخلوقين، حيث خلقهم الله من النار، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [سورة الرحمن: 14-15].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [سورة الحجر: 26-27].

ونار السَّموم هي النار الحارّة شديدة الحرارة، ومارجُ النار هو آخر جزء حارّ في لهيب النار، وأول جزء من الدخان الأسود المتصاعد من النار، ومزج هذين الجزأين وخلطهما معاً.

وهذا ما أكده رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد روى مسلم عن عائشة

---

1 مواقف الأنبياء في القرآن، صلاح الخالدي، مرجع سابق، ص 34.

2 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، 84/3.

رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خُلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم) [1].

ولأن الجان مخلوقون من "مارج من نار" كانت طبيعتهم نارية خفيّة. وطبيعتهم نارية بسبب ذلك الجزء من لهيب النار الحارّ، وهي خفيّة "مستترة" بسبب ذلك الجزء من الدخان الأسود، ومعلوم أن الدخان الأسود يحجب ما وراءه ويستره.

والجن المخلوقون من مارج النار في مقابل الإنس المخلوقين من الطين، وهما الصنفان العاقلان المكلفان اللذان يعيشان على وجه الأرض.

والجن لهم عالمهم الخاص وحياتهم الخاصة، ويتحركون معنا على الأرض، وهم يروننا ونحن لا نراهم[2]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [سورة الأعراف: 27].

وسمي الجن جناً لاجتنانهم، أي: استتارهم، لأن الاجتنان هو الاستتار، وهو مأخوذ من جنَّ الليل إذا أظلم فستر الأشياء بظلامه، وسميت الجنَّة لأنها تستر بأشجارها الكثيفة من يدخلها، ونسمي الجنين لاستتاره في بطن أمه[3].

والجن المكلفون مثلنا؛ مأمورون بالإيمان بالله وحده، وعبادته وحده، ومنهم من أسلم واهتدى، ومنهم من تمرّد وكفر، مسلموهم في الجنة مثابون منعّمون، وكافروهم

---

1 صحيح مسلم، رقم: 2996.

2 مواقف الأنبياء في القرآن، الخالدي، مرجع سابق، ص 31.

3 آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص 58. لسان العرب لابن منظور، 92/13.

في النار معذّبون.

قال تعالى عن الجن المسلمين والجن الكافرين: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [سورة الجن: 14-15].

ولهذا أعلن الجن إيمانهم لما سمعوا القرآن، كما ورد في الآيات الأولى من سورة الجن، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [سورة الجن: 1-2].

هذا عن عالم الجن بقسميه:

الجن المسلمين والجن الكافرين، مثل عالم الإنس بقسميه: الإنس المسلمين والإنس الكافرين[1].

ويفهم من الآيات التي تحدثت عن قصة آدم أن إبليس كان مع الملائكة لكنه ليس من الملائكة، وأخبرنا الله أن اسمه إبليس، وأنه من الجن[2]، والأدلة على أن إبليس من الجن كثيرة، منها:

أ. قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [سورة الكهف: 50].

---

1 مواقف الأنبياء في القرآن، الخالدي، مرجع سابق، ص 31.

2 سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 76.

إن الله صـــرح في هـذه الآيـة الكريمـة بأن إبليس كـان من الجن، والجن غير الملائكة، فلا يجوز أن يُنسب إلى غير ما نسبه الله إليه[1].

قال الألوسـي: "كَانَ مِنَ الْجِنِّ" [سـورة الكهف: 50]؛ كلام مسـتأنف سـيق مساق التعليل لما يفيده استثناء اللعين من الساجدين، فكأنه قيل: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان أصله جنياً، وهذا ظاهر في أنه ليس من الملائكة[2].

وقال الشـنقيطي: وقوله في هذه الآية الكريمة: "كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَـقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ" [سـورة الكهف: 50]؛ ظاهر أن سـبب فسـقه عن أمر ربه كونه من الجن، وقد تقرر في الأصـــول مســـلك النص وفي مســـلك الإيماء والتنبيه: أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل؛ أيّ لعلة كينونته من الجن، لأن هذا الوصـف فرّق بينه وبين الملائكة، لأنهم امتثلوا الأمر وعصى[3].

ب. أن إبليس لو كـان من الملائكة لما عصـــى الله عندما توجه إليه بالأمر بالســـجود لآدم، لقوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُـــونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: 6].

ج. أن الله أخبر أن إبليس له نســـل وذرية، قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [سورة الكهف: 50].

---

1 عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبد الكريم نوفان عبيدات، مرجع سابق، ص 479.

2 روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، محمود شكري الألوسي، 15/421-422.

3 أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، 4/119.

فإبليس وذريته يتوالدون كما يتوالد بنو آدم، كما قال الحسـن[1]: ويأكلون ويشربون، والملائكة لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون، فدل هذا على أن إبليس من الجن وليس من الملائكة[2].

د. أن الله أخبر أنه خلق إبليس من النار ولم يخبر أنه خلق الملائكة من شـيء من ذلك، بل ورد في الحديث قوله عليه الصـلاة والسـلام: (خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارجٍ من نار، وخُلق آدم مما وُصف لكم)[3].

وقد ورد التصـريح من القرآن على لسـان إبليس بأن الذي دعاه إلى عدم السجود لآدم هو أنه من النار وآدم مخلوق من الطين، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [سورة الأعراف: 12].

فالذي دعا إبليس لعدم السجود هو ظنه الفاسد أن النار أشرف من الطين، وأن المخلوق منها أشرف من المخلوق من الطين[4].

هـ. قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝

---

1 تفسير الطبري، مرجع سابق، 426/1.

2 عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص 481.

3 صحيح مسلم، 2293/3.

4 تفسير روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، 120/1.

وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [سورة الشعراء: 91-95].

قالوا: دلّت هذه الآيات على أن لإبليس جنوداً، وأنهم جميعاً سوف يُساقون إلى النار، وإبليس على رأسهم، في حين أن الملائكة لا جنود لهم، بل هم أنفسهم جنود الله تعالى.

و. قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سورة سبأ: 40].

قالوا هذه صريحة في الفرق بين الجن والملائكة، لم يكن إبليس من الملائكة، مع ما صرّح به القرآن أنه كان من الجن.

ز. إبليس لم يكن رسولاً من الله لعباده أبداً، وكان الملائكة رسلاً لعباده دائماً، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحج: 75].

وبما أن إبليس من الجن وليس من الملائكة فإن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: 34]؛ إنه استثناء منفصل، كما يقول علماء النحو؛ وهو الذي يكون فيه المستثنى من غير جنس المستثنى منه الذي قبله؛ كأن يقول: أكلت الطعام إلا الماء، فالماء مشروب وليس من جنس الطعام المأكول، وإبليس من الجن وليس من جنس الملائكة.

3. الحكمة من خلق إبليس:

إن النظر في قصة إبليس كما جاء في خبر الوحي مخبر أن الله سبحانه لم يخلق إبليس ليضلّ الناس، وإنما خُلق إبليس كما خُلق البشر؛ للعبادة، غير أن إبليس اختار أن يتكبر على أمر الله بالسجود "لآدم"، ورضي لنفسه طريق الضلالة والإضلال. لقد اختار إبليس –وهو من الجن–أن ينحرف عما خُلق له إلى غير ما خُلق له، عاصياً أمر الله ومتكبراً على طلب السجود[1].

كما أن في وجود إبليس على ضلاله حِكَماً جليلة يصعب استقصاؤها، وقد ذكر علماء الإسلام –كابن القيم–طرفاً منها يدفع القولَ المتوهَّم بأن وجود إبليس شرٌّ محضٌ لا خير معه، ومن ذلك[2]:

أ– أن وجود إبليس يكمل لرسل الله وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه ومخالفته ومراغمته في الله، وإغاظته وإغاظة أوليائه، والاستعاذة به منه، والالتجاء إليه أن يعيذهم من شره وكيده، فيترتّب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه، ومعلوم أن الموقوف على الشيء لا يحصل بدونه.

ب–خوف الملائكة والمؤمنين من ذنبهم بعدما شاهدوا من حال إبليس ما

---

1 مشكلة الشر ووجود الله، سامي عامري، ص 106.

2 شفاء العليل في مسائل القدر والحكمة والتعليل، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ص 469.

شاهدوه، وسقوطه من المرتبة التكريمية إلى المنزلة الإبليسية يكون أقوى وأتمّ.

ج-جعل سبحانه إبليس عبرةً لمن خالف أمره وتكبّر عن طاعته، وأصرّ على معصيته، كما جعل ذنب أبي البشر عبرةً لمن ارتكب نهيه، أو عصى أمره ثم تاب وندم ورجع إلى ربه، فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب، وجعل هذا الأب عبرة لمن أصرّ وأقام على ذنبه، وهذا الأب عبرة لمن تاب ورجع إلى ربه.

د-حال إبليس محكٌّ امتحن الله به خلقه ليتبيّن به خبيثهم من طيبهم، كما جعل أنبياءه ورسله محكّاً لذلك التمييز، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [سورة آل عمران: 179].

فأرسله إلى المكلّفين وفيهم الطيب والخبيث، فانضاف الطيب إلى الطيب، والخبيث إلى الخبيث. واقتضت حكمته البالغة أن خالطهم في دار الامتحان، فإذا صاروا إلى دار القرار يميّز بينهم، وجعل لهؤلاء داراً على حدة، ولهؤلاء داراً على حدة، حكمة بالغة وقدرة قاهرة.

هـ- ليُظهر كمال قدرته في خلق مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه، فهو خالق الأضداد؛ كالسماء والأرض، والضياء والظلام، والجنة والنار، والماء والنار، والحر والبرد، والطيب والخبيث.

و- خلقُ أحد الضدّين من كمال حسن ضده؛ فإن الضد إنما يظهر حسنه

بضده، فلولا القبيح لم تُعرف فضيلة الجميل، ولولا الفقر لم يُعرف قدر الغنى.

ز- من أسمائه سبحانه الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل المنتقم، وهذه الأسماء تستدعي متعلقات تظهر فيها أحكامها، كأسماء الإحسان والرزق والرحمة ونحوها، ولا بد من ظهور متعلقات هذه وهذه.

ح- الله سبحانه هو الملك التام الملك، ومن تمام ملكه عموم تصريفه وتنوعه بالثواب والعقاب، والإكرام والإهانة، والعدل والفضل، والإعزاز والإذلال، فلا بد من وجود ما يتعلق به أحد النوعين كما أوجد من يتعلق به النوع الآخر[1].

ط- إن الله تعالى شاء وقضى أن النعيم والسعادة لا يوصل إليهما ولا ينتهى عندهما إلا على جسر من التعب والمشقة المحفوف بالأشواك والمنغصات، ولا تُنال لذّتهما إلا من باب المكاره والصبر والمجاهدة في سبيل الله جل وعلا، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: (حفَّت الجنة بالمكاره وحفَّت النار بالشهوات)[2]، فوجود عدو الله إبليس وتسليطه على الإنسان وتمكينه من وسائل الغواية والإضلال من أسباب ظهور تلك الإرادة والمشيئة، وهذا من السنن المتفق عليها عند العقلاء، حيث إن من أراد بلوغ المقاصد الحسنة، والغايات الجميلة والفضائل الكريمة، فلا بد من مجاهدة نفسه في تحصيلها، والجد والتعب من أجل تحقيقها، وكل من كان أكثر مجاهدة وأطول مصابرة كان أسعد حالاً وأحسن عاقبة ممن هو دونه، وسائر

1 مشكلة الشر ووجود الله، سامي عامري، مرجع سابق، ص 107.

2 صحيح مسلم، رقم: 2822.

العقلاء يعدّون ذلك التعب والجهد والمشقّة لتحقيق تلك الغايات من الأمور المحبّبة إلى نفوسهم، بل يجدون في القيام بها من اللذة والسعادة ما لا يجدون في غيرها؛ لعلمهم أنها الطريق الموصل إلى تلك الفضائل والكمالات[1].

ي-إن الاستعاذة بالله تعالى، واللوذ به جل وعلا، مما يحبّه تعالى من عباده، ولذا حث نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ به من شر الشيطان وحزبه، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [سورة المؤمنون: 97-98].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ۝ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [سورة الناس: 1-6].

وحثّ نبيه أن يستعيذ به سبحانه عند قراءة القرآن: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [سورة النحل: 98]، فهذه الاستعاذة بالله تعالى عند خلق إبليس، إذ هو سبب ذلك العوذ ولازمه.

وقد كان إبراهيم عليه السلام يعوّذ إسماعيل وإسحاق من الشيطان، قال ابن عباس رضي الله عنه: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوّذ الحسن والحسين، ويقول: (إن أباكما كان يعوّذ بهما إسماعيل وإسحاق، أعوذ بكلمات الله التامة

1 عداوة الشيطان للإنسان، عبد المنعم الحواس، ص 158.

من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة) [1].

ك- تحقيق الحمد المطلق لله تعالى من جميع الوجوه، فهو تعالى محمود على خفضه وعدله ومنعه وإهانته وانتقامه، كما هو محمود جل وعلا على عطائه ورفعه وتفضيله وإحسانه، وقد حمد نفسه تبارك وتعالى على ذلك كله؛ فحمد نفسه على ربوبيته الشاملة للخلائق، فقال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة: 2].

وحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [سورة الأنعام: 1].

وحمد نفسه على وحدانيته سبحانه وتعالى في الألوهية والملك، فقال جل وعلا: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [سورة الإسراء: 111].

كما حمد نفسه تعالى في كل زمان ومكان: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [سورة الروم: 17]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ [سورة القصص: 70].

وقد وصف نفسه جل ثناؤه بالحمد في كتابه الكريم في آيات كثيرة جداً، ووصفه به ملائكته في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ

1 صحيح البخاري، رقم: 2371.

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الزمر: 75].

بل إن خلقه جل وعلا يلهجون بحمده سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: 44].

وحين يدخل أهل الجنة جنةَ ربهم فإنهم يمجّدونه على هذه النعمة العظيمة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [سورة الزمر: 74].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوّطون ولا يتمخّطون، قالوا فما بال الطعام؟ قال: جُشاء[1] ورشح كرشح المسك، يُلهمون التسبيح كما يلهمون النَّفَس)[2].

فبخلق عدو الله إبليس ووجوده في الدنيا يحصل هذا الحمد المطلق من جميع وجوهه، فكل ما كان من لوازم حمده تعالى فله في خلقه ووجوده الحكمة التامة، وله في ذلك الحمد المطلق، إذ كلما كان الفاعل أعظم حكمة كان أعظم استحقاقاً للحمد، والله جل وعلا له الحكمة البالغة في كل شيء، وله الحمد كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه[3]، والله تعالى أعلم.

---

1 الجُشاء هو تنفس المعدة عند الامتلاء.

2 صحيح مسلم، رقم: 2835.

3 عداوة الشيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص 160.

4. ذم الكبر وأن أصله إبليس:

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: 34]. وهنا "أبى"؛ أيّ: امتنع إبليس من السجود لآدم فلم يسجد له.

"واستكبر" يعني بذلك أنه تعظَّم وتكبَّر عن طاعة الله في السجود لآدم، والاستكبار هو سبب الإباء والامتناع والتعليل له والباعث الذي حمل صاحبه على عدم التنفيذ، وبذلك يكون ترتيب خطوات تمرد إبليس هكذا: استكبار إبليس هو سبب هلاكه، وهو الذي دفعه إلى الإباء والامتناع، وهذا الإباء قاده إلى الكفر، وبذلك خسر الدنيا والآخرة "أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ".

وعبّر عن كفره بلفظ الماضي "وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ"؛ للإشارة إلى ما علمه الله عنه منذ الأزل، قبل أن يخلقه، أي إن الله كان يعلم ما سيفعله إبليس قبل أن يخلقه، وأنه سيرفض أمره، ويكفر به، ويكون قائد الكافرين، ولما تمرّد إبليس فعلاً وكفر في عالم الواقع تحقّق بذلك ما علمه الله عنه منذ الأزل، فمعنى قوله: "وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ" كان إبليس في علم الله من الكافرين[1].

قال الشنقيطي: لم يبيّن هنا موجب استكباره في زعمه، ولكنه بيّنه في مواضع أخر، كقوله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [سورة الأعراف: 12].

---

1 سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 80.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [سورة الحجر: 33].

ولا غرابة إذن أن يكون جوهر فساد إبليس الكبر ورفض السجود والاعتراض على الله في شريعته وحكمته، وأن يكون الكبر مانعاً من دخول الجنة[1]، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرَّةٍ من كِبر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبُهُ حسناً ونعلُهُ حسنةً. قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكِبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس)[2]. ومعنى الحديث: مثقال ذرة: زِنة ذرّة.

- بَطَرُ الحق: هو أن يجعل ما جعله الله حقاً من توحيده وعبادته باطلاً، وقيل: هو أن يتجبّر عند الحق فلا يراه حقاً، وقيل هو أن يتكبّر عن الحق فلا يقبله.

- غَمْطُ الناس: الغَمْطُ الاستهانة والاستحقار، ومع أن الله سبحانه يعلم السبب الذي دفع إبليس إلى عدم السجود فإنه سأله؛ وذلك ليتكلم إبليس ويُظهر ما في نفسه ويعترف بلسانه، ولتكون عقوبته بعد تسجيل اعترافه، وجاء جواب إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [سورة ص: 76].

"أنا خير منه": جملة كبيرة مليئة بكل معاني الأنانية والتكبّر والانتفاش

1 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 158.

2 صحيح مسلم، رقم: 147. التدبر والبيان، المغراوي، مرجع سابق، 405/1.

والاســـتعلاء، وكانت ســـر هلاك إبليس وخســـارته، ودفعته إلى التمرّد على الله وعصيانه.

وهذه الجملة نفســها ســر هلاك كل مســتكبرٍ متعالٍ تملك عليه أنانيته حياته، فلا يرى إلا نفســه متكبّرة منتفشــة، تلغي كل ما ســواها وتملأ الأماكن والمواضــع كلها، ويتصــرف على هذا الأســاس؛ فيُذِل، ويَحقر، ويَزدري، ويَطحن، ويَســحق، ويتطاول على من سواه، ويرفض أن يخضع لله سبحانه.

هذا المرض النفسي الخطير الذي انتقل للمتكبّرين من إبليس وجعلهم جنوداً له قالها أول مرة عن آدم: "أنا خيرٌ منهُ"، فأصـــابت العدوى كل واحد من هؤلاء المستكبرين المعقّدين، ونادى بأنانية واستعلاء: "أنا خيرٌ منه"[1].

إن الأنانية العمياء والتعاظم وانتفاخ الـ "أنا" نقيض العبودية لله "أنا خيرٌ منه".

كما أن الحسـد من شـر الأدواء التي تمنع من قبول الحق والانقياد له، لذا يجب على المسلم الاحتراز من الكبر والحسد لأنهما إثمان عظيمان.

قال الإمام الرازي: إن إبليس وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر.

كما أن العنصـرية البغيضـة المقيتة، والتفاخر بالأصـل والفصـل، والأب والجد والقبيلة، من أسـباب الفسـاد العظيم: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، وهذا هو الكبر الصُّـــراح الذي يتعلّل به كثير من بني البشـــر حين يعتزّون بأجناســـهم

---

1 سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 86.

وأحسابهم على غيرهم من البشر، وقد يكون من بني جلدتهم أو من أهل لسانهم أو ربما من أقربائهم[1].

إن عبارة إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [سورة الأعراف: 12] فيها عدة أمور يجب على المسلم أن يبتعد عنها:

- لو قالها مسلم فمعنى ذلك أنه تكبّر على غيره، والله تعالى أمر أحبَّ الناس إليه بالتواضع، فقال له: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحجر: 88].

- وقال عن المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة المائدة: 54].

- لو قالها مسلم فمعنى ذلك أنه زكّى نفسه ومَدَحَها، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [سورة النجم: 32].

- لو قالها فمعنى ذلك أنه افتخر بأصله ونسبه كالشيطان حينما قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [سورة الأعراف: 12].

ومعنى مقولته تلك عند الرازي: أنا أشرف منه في الأصل والنسب فكيف أسجد له؟ وكيف أتواضع له؟[2]

- كما يظهر من قصة إبليس مع آدم عليه السلام جهل إبليس في افتخاره

---

1 العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، عبد الهادي سعد هادي الشمراني، ص 63.

2 المستفاد من قصص القرآن، عبد الكريم زيدان، 41/1.

بمادته التي خُلق منها؛ جهل ظاهر من وجوه:

الأول: أن أصل بعض الأشياء النفيسة خسيس أو نجس أو قذر؛ فالمسك من الدم، وجوهر الألماس من الكربون الذي هو أصل الفحم، والأقذار التي تُعاف من مادة الطعام الذي يُحَب ويُشتهى.

الثاني: أن الملائكة خلقوا من النور، والشيطان خلق من مارج من نار، وما فوقه دخان وما تحته لهب صافٍ، ولا شك أن النور خير من النار، والملائكة على قدرهم وحسن خلقهم امتثلوا لأمر الله وسجدوا لآدم، فكان هو أولى بالسجود.

وإذا سلّمنا جدلاً أن خيريّة الشيء تابعة لأصله الذي خُلق منه فلا نسلّم أن النار خير من الطين؛ فإن جميع الأحياء النباتية والحيوانية في هذه الأرض مخلوقة من الطين بالذات أو بالواسطة، وهي خير من النار بكل نوع من أنواع الاعتبارات التي تعرفها العقول، وليس للنار مثل هذه المزايا ولا ما يقرب منها[1].

ويظهر جهل إبليس وحُمقه حين غفل عما خصّ الله به آدم من خلقه بيده والنفخ فيه من روحه، وشرّفه بسجود الملائكة له، وجعله أفضل من الملائكة، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة والطاعة[2].

- كما أن العناد والضلال يوردان المرء الموارد الوبيلة ويسوقانه سوقاً إلى التردي

---

1 تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، 331/8-332.

2 العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، الشمراني، مرجع سابق، ص 64.

في مهاوي الهالكين، وهذا ما حصل لإبليس حين عاند ورد أمر الله، وافتخر وتكبّر بأصله، وامتنع عن السجود، ولم يتنازل عن مبدئه مع علمه بهلاكه، نعوذ بالله من غضبه وأليم عقابه[1].

إن معصية إبليس معصية عظيمة وخطيرة، ولهذا كررها الله في القرآن الكريم وأعادها بضع مرات؛ لنعتبر ونكون منها على غاية الحذر. ومعصية الكبر أو ما يسمى جنون العظمة يؤدي في الغالب إلى الكفر – والعياذ بالله -لأن المتكبر يرى غيره لا شيء، فيغمط الناس حقوقهم، ويرد الحق ولو كان مثل الشمس[2].

5- إبليس أول مخلوق أخبرنا الله بكفره:

إن إبليس أول مخلوق أخبرنا الله تعالى بكفره، ولم يخبرنا تعالى بكفر أحدٍ قبله، حيث لم يثبت بدليل صحيح وجود كافرين قبل إبليس، وما استُند إليه من حديث ابن عباس لا يُحتج به [أي حديث؟]، كما قال ابن كثير، بل ذهب أكثر أهل العلم إلى أن إبليس أول من كفر بالله[3]، فهو إذن من الكافرين الذين وافقوه في الكفر بعد ذلك. فيكون معنى الآية: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: 34] مبنيّاً على اعتبار أن الخطاب فيها موجَّهٌ إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ بين حدوث قصة إبليس وصدور الكفر منه وبين بعثة النبي

---

1 الشمراني، المرجع نفسه، ص 64.

2 الشمراني، المرجع السابق، ص 64.

3 عداوة الشيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص 225.

صـــلى الله عليه وســـلم قرونٌ كثيرة كان فيها كثير من الكافرين؛ كفرعون وهامان وقارون ونمرود وغيرهم، فهؤلاء الكافرون بالنسبة إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم ماضٍ غابر، وإبليس كذلك، وعليه فإن إبليس من الكافرين الذين وجدوا فعلاً قبل زمن المخاطبين، والله تعالى أعلم[1].

وأما سـبب كفره فإنه أبى السـجود واسـتكبر وعاند وطعن واعتقد أنه محِقٌّ في تمرّده وطغيانه، فكأنه ترك السجود لآدم تسفيهاً لأمر الله وحكمته، وقد بيّن الله عز وجل ســـبب كفر إبليس ورتّب كفره على الإباء والاســـتكبار، قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْـــتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، فكفر إبليس إنما هو بإبائه واســـتكباره على طاعة الله وامتثال أمره سبحانه وتعالى[2].

فإبليس رفض امتثال أمر ربه، ورفضـــه كان مصـــحوباً بالتعاظم والاســـتكبار والإصرار على الإباء والرفض، فصار قائداً للمخالفين لأوامر الله والمستكبرين عنها، فكل من تكبّر وخالف أمر الله فهو تلميذ لإبليس وتابع له[3].

وكان كفر إبليس عناداً، وإنما حمله على كفره حبُّ الرِّياسة، والكبر، والإعجاب بما أوتي، وقد نصّ الإمام أحمد على معرفة إبليس بالله تعالى، واحتجّ بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [سورة الحجر: 39].

---

1 الحواس، المرجع السابق، ص 226.

2 المرجع نفسه، ص 229.

3 المرجع نفسه، ص 230.

واستبعد ابن عطية كفر إبليس عناداً، مع بقاء العلم، ولكنه يرى أن ذلك جائز لا يســتحيل مع خذل الله لمن شــاء، وقال أبو حيان تعقيباً على رأي ابن عطية: وهذا الذي ذكر جوازه واقع بالفعل؛ فهذا فرعون كان عالماً بوحدانية الله وربوبيته دون غيره، ومع ذلك حمله حب الرِّياســـة والإعجاب بما أوتي من الملك فادّعى الألوهية مع علمه، وأبو جهل كان يتحقّق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ويعلم أن ما جاء به حق، ومع ذلك أنكر نبوّته وأقام على الكفر، وكذلك الأخنس بن شريق، وأمية بن أبي الصلت، ممن كفر عناداً مع علمهم بصدق الرسل[1].

عاشــراً: قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْــكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِــئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّــجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: 35].

هذا النداء جاء بعد خلق آدم عليه الســلام ونفخ الروح وتعليمه الأسماء كلها، وبعد إسـجاد الملائكة له، فناداه ربه في هذه الآية باسمه لإظهار مزيدٍ من إكرام الله تعالى له، وأمره هو وزوجته بسـكن الجنة تفضّـلاً منه سبحانه وتعالى، وأذِن لهما أن يتمتّعا بكل ما فيها، وأباح لهما أن يأكلا منها ما شــاءا غير شــجرة واحدة نهاهما عن أكلها والقربان منها؛ ابتلاءً واختباراً وتهيئةً لهما بتحمّل التكاليف الشـــرعية بمقاومة رغبات النفس.

1 عداوة الشيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص 232.

1. زوجة آدم عليه السلام حواء "أمُّنا العزيزة":

قال الله لآدم: "اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ"، وهذا معناه أن آدم عرف أن هذه المخلوقة الأنثى "حواء" زوجٌ له، ولم يكن في الجنة أنثى غيرها، لأنه كان في الجنة الملائكة، وهؤلاء لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، وفيها إبليس وهو من الجن[1].

وفي هذه الآية أدخل الله عز وجل حواء في خطابه لآدم، وقد سميت حواء لأنها أمُّ جميع الأحياء من الجنس البشري[2].

ووضح الله لنا أن كل خلق من خلقه إنما هو خلق من زوجين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء: 1].

أ. يقوله الشيخ متولي شعراوي: إن حواء لو كانت ضلعاً من آدم لقول الحق تعالى: جعل منها زوجها، ذلك أن الجعل بعض الأخذ من نفس المادة وصناعة ما يريد، وهو الحق المالك لكل الكون.

إن قول الله تعالى: "وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا" هو تعبير عن خلق جديد مستقل. إلى أن قال: أي خَلَقَ حواء مثلما خلق آدم، وكما أوضح لنا الحق تعالى أنه خلق آدم

---

1 سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 115.

2 المرأة في القصص القرآني، أسماء عبد المنعم العميري، ص 73.

من طين، فكذلك خلق حواء[1].

ب. قال الدكتور صلاح الخالدي: وقد ذهب بعض العلماء المفسرين إلى أن حواء مخلوقة من نفس آدم، واعتمدوا في ذلك على ظاهر قوله: "وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا"، أي إن حواء مخلوقة من بعض جسم آدم؛ لأن "مِن" تدل على التبعيض، وهذا المعنى هو ضلع آدم.

ولا نعتبر الآية دالة على هذا؛ لأن الآية تتحدث عن تكريم الله للرجال والنساء جميعاً، ويخبرنا الله أنه خلقنا نحن البشر "من نفسٍ واحدةٍ"، وخلق من هذه النفس الواحدة زوجها، والمراد بالنفس الواحدة هنا النفس الإنسانية التي تتمثّل فيها الطبيعة البشرية، هذه النفس المكوّنة من مادة وروح، والمتمثّل فيها الكيان البشري بما فيه من أعضاء وأجهزة، يقوم عليه جسمه المادي بما فيه من مشاعر وأحاسيس وصفات وسمات وغرائز وشهوات وآمال وتطلعات، وما فيه من قلب وروح وتصور وفكر وخيال، هذا الكيان الإنساني كله هو النفس التي خلقها الله.

وخلق الله من هذه النفس الواحدة المتكاملة الرجل، ثم خلق من هذه النفس الواحدة المتكاملة المرأة. وأول نموذج عملي للنفس الواحدة هو آدم أبو البشر عليه السلام، الذي تمثلت فيه النفس الواحدة بكامل خصائصها وسماتها.

وثاني نموذج للنفس الواحدة زوجه حواء التي خلقها الله وجعلها زوجاً له،

---

1 قصص الأنبياء، الشعراوي، مرجع سابق، 9/1.

وتمثلت فيها النفس الواحدة بكامل خصائصها وسماتها، مع فروق فردية جعلها الله الحكيم –بيولوجياً وعاطفياً– بين الرجل والمرأة ليقوم كل منهما بدوره في الحياة.

وهذا معناه أن الرجل نفس إنسانية سوية بجسمه وروحه وشخصيته، وأن المرأة نفس إنسانية سوية لها جسمها وروحها وشخصيتها، وهي معززة مكرمة كالرجل، وليست أدنى أو أحطّ منزلة منه، وهذا تكريم وتشريف عظيم للمرأة.

ليس المراد بالنفس الواحدة في الآية آدم عليه السلام حتى نقول: إن الله خلق له منه زوجه حواء؛ إنما هي النفس الإنسانية التي خلق الله منها آدم أولاً، ثم خلق منها حواء بعد ذلك، ثم بثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء[1].

واللطيف أن هذه الآية التي تتحدث عن النفس الواحدة التي خلق الله منها الرجل والمرأة في صدر سورة النساء، التي تتحدث كثيراً عن النساء وأحكامهن، وبهذا نرى أن القرآن –والإسلام– قد كرّم المرأة تكريماً عظيماً عندما اعتبرها كياناً شريفاً فاضلاً مخلوقاً من النفس الواحدة التي خُلق منها الرجل[2].

ج. قال الدكتور سلمان العودة: كيف خلقت حواء؟ في العهد القديم والروايات الإسرائيلية أنها خلقت من ضِلَع آدم الأيسر، ومسؤولية هذا الحرف ليست على صريح القرآن ولا صحيح السنة، ولكن في القرآن "خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ

---

1 سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 108.

2 الخالدي، المرجع نفسه، ص 109.

وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا"، ظاهر هذه الآية أن حواء خُلقت من آدم، لكن دون تعيين الموضع، وفي الحديث: (إن المرأة خلقت من ضِلَع) [1]، وهذا يحتمل أن تكون خلقت من ضـــلع آدم، أو تكون تلك إشـــارة إلى طبيعة المرأة وفطرتها وروحها وعاطفتها، كما في قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [سورة الأنبياء: 37]، ولذا قال بعده: (وإن ذهبتَ تقيمها كســـرتها، وكســـرها طلاقها). وقيل خلقت خلقاً مستقلاً من الطين كآدم[2].

بعد طول تردّد في المسألة صرت أميل إلى أنها خلقت من ضلع آدم، فهو جارٍ على ظاهر المعنى، وليس فيه تنقيص للأنثى؛ فهي خُلقت من شـــيء حي متقدم على التراب والطين، وهو العظم اللين في جنب آدم، والذي هو بطبيعته مائل ليكون على استدارة الجنب، وهذا من كمال الخلقة، ولولا اعوجاجه لم يكن ضلعاً.

قال ابن عباس: خُلقت حواء من ضِلَع آدم الأقصر الأيسر وهو نائم. وكان آدم نائماً يوم خلقت منه، وكأنها عملية استنساخ، ويبدو –والله أعلم- أنها خلقت من نخاع العظم، فلكل ضلع نُخاع، والإعجاز هنا استنساخ الأنثى من الذكر بعد أن كانت كامنة فيه لتتمحَّض رجولته وتســتقلّ أنوثتها، وكأن نومه يشـــبه التخدير لإتمام عملية الاستلال، ولله الحكمة البالغة.

وتفصـــيلات الحقائق الماضـــية لا يلزم أن تمتلك دليلاً قطعياً يذعن له الناس

---

1 صحيح البخاري، رقم: 3331.

2 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 174.

جميعاً، والخلاف فيها سـائغ، وربما كان دليل الوجدان العاطفي القلبي الروحي لا يقل أهمية عن الدليل العقلي المنطقي.

والحنين المتبادل والاحتواء والحب يوحي بأن الزواج السـعيد يمثل حالة عثور الشطر على شطره الآخر، وكما هو استكمال للدين فهو استكمال للشخصية[1].

2. هل أمنا الحبيبة حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام؟

لم نجد في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها مخلوقة من ضلع آدم، بل من ضِلَع، والضِّلَع من معانيها المشقة والتعب والاعوجاج والجور، كما في كتب اللغة:

- ضَلِعَ الرُّمحُ ضَلَعاً اعوجَّ[2].
- والضَّالع الجائر، وقد ضَلِعَ يضلَعُ مالَ، ومنه ضَلعُك معَ فلانٍ[3].
- ضَلِعَ عنِ الحق: مالَ وجارَ. وأضلعَ الحِمْلُ ثَقُلَ.

قد عرفنا من خلال آيات القرآن أن حواء خُلقت –مثل آدم– من النفس الإنسانية الواحدة، لكن أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المرأة خُلقت من ضِلْع فما المراد بهذا الضِّلْع؟

---

1 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 175.

2 المخصص، المرجع السابق، 174/1.

3 المرجع نفسه، 45/3.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خُلقت من ضِلْعٍ، وإنَّ أعوجَ ما في الضِّلْعِ أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمُهُ كسرتَهُ، وإن تركتَهُ لم يزل أعوجَ، فاستوصوا بالنساء خيراً)[1].

وحمل بعض العلماء الضلع المذكور في الحديث على ظاهره، واستصحبوا في ذاكرتهم الإسرائيليات التي تحدَّثت عن خلق حواء من آدم، وقالوا: يصرّح الحديث بأن حواء خُلقت من ضلع، فلماذا تخالفونه ولا تقولون بذلك؟

تخبر الإسرائيليات وأساطير العهد القديم أنه بينما كان آدم نائماً وحده في الجنة أخذ الله ضلعاً من أضلاع جانبه الأيسر وخلق من ذلك الضلع حواء في لحظة، وجعلها امرأة حية فيها كل الملامح الأنثوية، وجلست بجانب آدم، فلما استيقظ ورآها قال لها: من أنتِ؟ قالت له: أنا حواء، قال لها: وما معنى ذلك؟ قالت: أنا امرأتك، خلقني الله من ضلعك، وجعلني لك، فتحسَّس آدم أضلاعه فوجدها ناقصة، فحنَّ إلى حواء لأنها جزء منه.

هذه إسرائيليات موجودة في أسفار العهد القديم، وقد نقلها الإخباريون المسلمون، لكن لا يوجد في القرآن والسنة الصحيحة ما يؤيّدها، ولذلك نتوقف نحن فيها؛ لا نصدّقها ولا نكذّبها، ولا نقول بها، والعلم عند الله سبحانه[2].

---

1 صحيح البخاري، رقم: 3331، وصحيح مسلم، رقم: 1468.

2 سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 111.

إن الحديث الصحيح السابق لا يدل دلالة صريحة على أن حواء خُلقت من ضلع آدم، وهو لا يتكلّم عن أمّنا حواء، وإنما يتكلّم عن المرأة عموماً[1].

والنبي صلى الله عليه وسلم استخدم ضلع على سبيل المجاز لا على الحقيقة؛ لتأكيد الوصية بالنساء، لما يلقى في المرأة من ضعف، وأنه لا بد من حسن معاملتها والرفق بها؛ لأن معاملة المرأة في ذلك الوقت كانت متعسّفة، حتى إنها كانت تدفن حية ولا ترِث، والأدهى من ذلك أن المرأة نفسها كانت تورَث، فجاء كلام النبي صلى الله عليه وسلم من باب الحرص على النساء والوصية بهن[2].

والأحاديث التي وردت فيها كلمة ضلع لم يرد فيها ضلع آدم، لذا نقول: إن المعنى هنا على سبيل المجاز لا الحقيقة، كالمشقّة والتعب والميل والجور، وما يتناسب مع ذلك.

والدليل على ذلك: هل المرأة خلقت من الزجاج الذي تصنع منه القوارير؟ بالطبع لا، فإذا استخدم النبي صلى الله عليه وسلم هذا اللفظ فهو على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة، من مثل قوله صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم في باب: "رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء"، عن أنس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، وغلامٌ أسودُ يقال له أنجشة يحدو، فقال له

---

1 المرجع نفسه، ص 111.

2 آدم عليه السلام من وحي القرآن، عقيل حسين عقيل، ص 261.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أنجشة رويدك سوقاً بالقوارير)[1].

فالقوارير مفردها قارورة، والقارورة مصنوعة من الزجاج، والمرأة ليست مخلوقة من الزجاج، ولكن هذا من باب المجاز كناية عن لين المرأة وضعفها ورفقاً بها، ومن باب التساوي بين آدم وزوجه ما كان لهما في الجنة من أوامر ونواهٍ ودلالة تلك الأوامر والنواهي[2].

إن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرّب الطبيعة العاطفية الانفعالية عند المرأة إلى أذهاننا. يُصوّر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا التصوير البليغ المعبّر، حيث عرض ذلك في صورة ضلع، فمن المعلوم أن الضلع أعوج، وأن أعوج ما في الضلع أعلاه، وأنه يستحيل تقويم الضلع وإزالة اعوجاجه، ومن فعل ذلك فسوف يكسره، وعلى الإنسان أن يتصرف مع الضلع على أساس اعوجاجه، وهكذا خلق الله المرأة عموماً[3].

3. حكمة التزاوج بين الزوجين:

بعدما خلق الله حواء أخبر آدم أنها "زوج" له، كما أنه هو "زوج" لها، وينطبق هذا على الأزواج من البشر، فالرجل زوج لامرأته، وامرأته أيضاً زوج له، وكل منهما زوج للآخر، وفي هذا دلالة عجيبة على الصلة الوثيقة الدقيقة بين الزوجين، فلا

---

1 المرجع نفسه، ص 262، رواه مسلم.

2 المرجع نفسه، ص 262.

3 سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 112.

تستقيم الحياة ولا تتحقق الخلافة إلا بهذه الزوجية وما ينتج عنها من اتحاد وتلاحم.

ومعنى هذا أن الرجل بمفرده لا يمكنه تحقيق ذاته، ولا عمارة الأرض ولا ممارسة الحياة، وهناك جزء مهم في كيانه فارغ لا تملؤه إلا المرأةُ زوجُهُ، فهي بزوجيَّتها له تُكمل نقصَه، وتملأ فراغَه، وتحقّق إنسانيته. وقل مثل هذا في المرأة؛ فإنها لا يمكنها بمفردها تحقيق ذاتها، ولا عمارة الأرض وممارسة الحياة، ففي كيانها جزء مهم فارغ لا يملؤه إلا الرجلُ زوجُها، فهو بزوجيَّته لها وزواجه منها يكمل نقصها ويملأ فراغَها، ويحقق إنسانيَّتها، ولا بد من الحياة الزوجية الكاملة لسد النقص وملء الفراغ عند كلٍّ من الرجل والمرأة؛ الحياة الزوجية القائمة على اللقاء النفسي والروحي والقلبي والجسدي بينهما، الذي تنتج عنه الأسرة والأولاد والاتفاق على الهموم والآمال والتطلعات المشتركة، وكلما زادت الحياة الزوجية مدةً زاد التوافق والالتقاء والتزاوج متانة[1].

ولهذا كان الرجل زوجاً للمرأة وكانت المرأة زوجاً للرجل، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: 35].

وكم تمزّقت المادية الغربية عندما حاربت هذا التزاوج بين الزوجين، وجعلت علاقة الرجل بالمرأة "مشاعاً" قائماً على مجرد التقاء جسديهما لقاء عابراً لممارسة

1 سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 113.

الجنس و"قضاء الحاجة"[1].

إن مؤسسة الزوجية عريقة عراقة آدم وحواء، ولا بديل عنها شرعاً وفطرةً، ويتحتّم على كل طرف السعي في ترميم العلاقة وحمايتها.

إن الله خلق حواء زوجة لآدم، وخاطبها مع زوجها: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، وخطاب الله المباشر لها مع زوجها تشريف وتكليف، وترسيم لمسؤوليتها وذمّتها المستقلّة، وأنها ليست تابعةً للأب أو الزوج.

فالقاعدة في أوامر الشرع ونواهيه أن للذكر والأنثى سواء، إلا ما دلَّ دليل على تخصيصه بأحدهما[2]. والخوض في تفضيل أحد الجنسين على الآخر لا لزوم له، بل بعضهم من بعض: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [سورة البقرة: 288].

وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم الفتى بأمه ثلاثاً، وبأبيه واحدة[3]، وإن التفضيل الخاص للأم لا ينفي التفضيل العام للأب، والخطاب واحد، والعقاب واحد، والجزاء واحد، والشريعة واحدة، وليس الضعف واللين الذي تتميز به المرأة مدعاة لفضيلة مطلقة للرجل؛ للرجل أخلاق وميادين، وللمرأة مثلها، وإذا كان الرجل يمتاز بالصبر على الشدائد وتبعات الحياة والعمل فهو لا يطيق صبر المرأة على الحمل والولادة والحضانة.

---

1 المرجع نفسه، ص 114.

2 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 176.

3 العودة، المرجع السابق، ص 176.

الرجل الشديد يتبرّم من حمل طفل لدقائق، ويعجز عن مشاهدة آلام المخاض فيمن يحب، ويضيق بصراخ الأطفال عند نومه، ومن ثَمَّ رجال يُضرب المثل بوفائهم لآبائهم وأمهاتهم، وثَمَّ نساء يُضرب بهنَّ المثل في الوفاء لأزواج أحياء أو غيّاب أو أموات[1].

أ. حسن وجمال حواء:

الكلام في حق حواء هو نفس ما قيل عن الجمال والإبداع في خلق آدم، ولكننا نستطيع أن نزيد عليه أن الأكيد في شكل ووصف حواء أنها كانت تمثّل أكمل وأبهى صور الجمال الأنثوي، فالجمال والحسن في حقها أوجبُ مما قلناه في وصف بهاء وجمال صورة آدم.

فمنها أخذت كل أنثى منذ بدء الخلق وحتى الآن جزءاً من الجمال والأنوثة والرِّقة، فحواء تمثل أعلى قمّة جمال وحسن المرأة، إنها المرأة الأولى، والأنثى الأصل التي خلقها الله في أبدع صورة وفي أحسن تقويم، وهيّأها لأداء وظيفتها في أن تكون مصدراً للسكينة وينبوعاً للرحمة وأصلاً للمودة والأُنس، وأن تكون لزوجها ملاذاً يأوي إليها، وإشباعاً لحرمانه، وإرواء لعطشه، فلا تقصّر في أدائها تقصيراً يدفع بشهواته لأن تنطلق خارج محيطها فيعصي ربَّه ويعاقَب، ولا يرى منها إلا ما يجعل نظره لا يرتفع عنها إلا ليعود إليها بشوقٍ جديدٍ ولهفةٍ لا تنضب.

---

1 المرجع نفسه، ص 176.

كما أن شكلها وتكوينها الجسماني والروحي والعاطفي قد تهيّأ لتحمّل مهمّة حمل أطفالها في جوفها، ثم إرضاعهم من لبنها، والحنوّ عليهم بعطفها، وإروائهم من حنانها، ومساعدتهم والأخذ بأيديهم حتى يبلغوا الحلم، لذا فحواء هي الأنثى الأولى، وهي الأنثى الكاملة، والمثال الأتمّ والنموذج الأول لجمال كل امرأة في الوجود[1].

وهي المرأة الأولى في تاريخ الإنسانية التي انبثقت عنها كل نساء الدنيا، ووَرِثْنَ حسنَها وأنوثتَها ودلالها وجمالها ووظيفتَها في السكينة والمودّة والرحمة والأمومة والحنان[2].

ب. حب آدم وحواء:

لقد نادى الله حواء في القرآن منسوبةً إلى آدم، أو مجتمعةً معه بلفظ المثنّى:

- ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ [سورة البقرة: 35].
- ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ [سورة الأعراف: 22].
- ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [سورة البقرة: 35].

وكانت بداية خلق حواء لغاية محددة ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [سورة الأعراف: 189].

1 آدم وحواء أسرار وحقائق، محمد عبد الباقي، ص 64.

2 المرجع نفسه، ص 55.

وعاشا في الجنة سوياً، وعصيا ربهما، وأكلا من الشجرة، وبدت لهما سوءاتهما، وهبطا إلى الأرض والتقيا فيها، وعاشا رغد الجنة وشظف العيش في الأرض معاً، لم يرَ آدم ولم يدُر بخَلَدِه أن يرى في يقظةٍ أو منامٍ إلا هي، فقد كانت أنيسَه ونيسَه وخلَّه الوفيَّ، ورأى ذريَّتَه وأولاده منها، وسعدا وفرحا بوجود أرواح أخرى غيرهما، وطارا من الفرح حين وجدا نسخة وشبيهاً لهما يخرج للحياة من جوف حواء، لذا فقد كانت حواء لصيقةً بآدم، وكانت العلاقة بينهما مزيجاً من الحب، والصداقة، والألفة، والعشرة، والبداية المشتركة، والهدف والمصير الواحد، لم يتكبّر يوماً أحدُهما على الآخ؛، فلا فوارق اجتماعية أو طبقية بينهما، ولم يتشاجرا لغيرةٍ أو حساسيةٍ مفرطةٍ، فلم يكن هناك منافس ولا ندٌّ ينظر أي منهما إليه، ولم تكن هناك "حماة" لحواء توصيها على ولدها ولا تُنافسها في حبّها له، ولا تغار منها حواء لأنّ آدم يحب صفاتِ وأكلاتِ أمّه أكثر مما يحبّ من حواء، ولم تكن كذلك لآدم "حماة" تذكّره دائماً بأن حواء كانت تستأهل من هو أفضل منه، ولا تذكّره دائماً بأنّ عيشة ابنتها حواء أقل من عيشة غيرها من قريباتها ممن هنَّ أقل منها شكلاً وحسباً.

لقد كان آدم وحواء منفردين في هذه الناحية لا يفترقان ولا يختلفان ولا يتشاجران ويأوي كل منهما للآخر ويأنس بكنفه.

لقد علمت حواء وظيفتها منذ البداية في أن تكون سكناً لآدم ورفيقة له في دربه، ثم لم تلبث أن حملت وولدت وأرضعت حملاً بعد حمل، فانشغلت بهذه

المهمّة الجديدة التي ميزتها عن آدم، وأن لآدم مهمة أن يسعى ويكدّ لتوفير المأكل والملبس لحواء ولأبنائه[1].

ج. الزواج سنة الله في خلقه:

قد تبين لنا أن الله عز وجل خلق حواء وزوّجها من آدم عليه السلام، وعاشا معاً في الجنة، ثم هبطا معاً إلى الأرض.

- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [سورة النساء: 1].

- وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [سورة الأعراف: 189].

- وقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [سورة البقرة: 35]، ثم قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: 38].

وقرّر القرآن الكريم شِرعة الزواج لآدم عليه السلام لتكون سنّة الله تعالى للبشرية للسكن والمودة وقضاء الشهوة وإنجاب الذرّية حتى تقوم الساعة، وهو ما تكرّر في القرآن الكريم في شِرعة الأنبياء الآخرين، ثم تأكّد وتكرّر في الشريعة الإسلامية، ليكون هو الوسيلة الشرعية الحصريّة الطاهرة النقية المباركة في لقاء الذكر والأنثى

---

1 آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، مرجع سابق، ص 65.

واستمرار النسل حتى تقوم الساعة، ويسمّى أيضاً النكاح، قال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [سورة النساء: 3]، وقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور: 32].

وثبت ذلك في السنّة العمليّة والقوليّة في أحاديث كثيرة؛ منها قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءَةَ فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء) [1]. وهو المقرر في أحكام الأسرة في الزواج، وفي قوانين الأحوال الشخصية اليوم[2].

والزواج سنة من سنن الفطرة؛ لأنه يوافقها ويلائمها، ولأن الرباط الذي جمع بين أبوينا آدم وزوجه حواء هو رباط الزواج، ولقد جاء الإسلام بما يوافق الفطرة السليمة ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: 30].

وهو سنة كونيّة، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يس: 36]. وكذلك سنة إنسانية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ

1 صحيح البخاري، رقم: 2779.

2 شرعة الله للأنبياء، الزحيلي، مرجع سابق، ص 44.

بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الروم: 21] [1].

4. الجنة:

قال تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [سورة البقرة: 35].

إن المراد بالجنة في قوله تعالى: "اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ"؛ فالجنَّة دار النعيم التي أعدّها الله للمؤمنين المتَّقين، والراجح أن المشاهد الأولى من قصة آدم وحواء وإبليس كانت في الجنة دار النعيم؛ لأنّ غالب استعمال كلمة "الجنَّة" في القرآن بهذا المعنى، ويُراد بها الجنَّة المباركة العظيمة التي خلقها الله قبل آدم وإبليس، وجعلها دار النعيم التي هي مأوى للمتقين الصالحين.

وقد ذهب بعضهم إلى أن المراد بالجنة في قصة آدم: "اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ"، جنَّة على الأرض تتمثَّل في مكانٍ مرتفعٍ على رأس جبل عالٍ، وهذا المكان فيه أشجارٌ وثمارٌ وأنهارٌ وعيونٌ وبيوتٌ وقصورٌ، وهو ممتدٌّ فسيحٌ، سّمي "الجنَّة" لهذا السبب، ولسنا مع هؤلاء في تأويلهم واجتهادهم؛ لأنَّه لا يتفق مع ظاهر التعبير القرآني عن إسكان آدم وزوجه الجنَّة، وهذا هو الأصل في معنى الجنَّة في القرآن[2].

والذي عليه أهل السنة أن الجنة التي أُخرج منها آدم وحواء وقبلهما إبليس هي جنة الخلد قولاً واحداً عندهم[3]. وقال ابن بطال إن أهل السنة مجمعون على أن

---

1 المرأة في القصص القرآني، العميري، مرجع سابق، 108/1.

2 سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 116.

3 قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 143.

جنة الخلد هي التي أُهبط منها آدم عليه السلام، فلا معنى لقول من خالفهم[1].

ولهذا القول أدلّة كثيرة أذكر منها طرفاً يحصل به المقصود بإذن الله تعالى؛ ومن تلك الأدلة:

أ- إن أل في "الجنَّة" للعهد الخارجي، ولا معهود غيرها، والجنة المعهودة المعلومة للمسلمين هي جنة الخلد، فوجب صرف اللفظ إليها عند إطلاقها؛ حملاً للألفاظ الواردة في النصوص على اصطلاح الشرع، قال ابن عاشور: لما كان المقصود منه القصص لنا حُكي بالألفاظ المتعارفة لدينا، فيكون تعريف "الجنَّة" منظوراً فيه إلى متعارفنا، أي: قلنا له اسكن البقعة التي تسمّونها أنتم اليوم بالجنَّة، والحاصل أن الأظهر أن الجنَّة التي أُسكنها آدم هي الجنَّة المعدودة داراً لجزاء المحسنين[2].

ب- ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [سورة البقرة: 36]، قال ابن تيميّة: وهذا يبيّن أنهم لم يكونوا في الأرض، وإنما أُهبطوا إلى الأرض، فإنّهم لو كانوا في الأرض وانتقلوا إلى أرضٍ أخرى كانتقال قوم موسى من أرض إلى أرض لكان مستقرهم ومتاعهم إلى حين في الأرض قبل الهبوط وبعده، إلى أن قال: ولفظ النزول كلفظ الهبوط؛ فلا يستعمل هبط إلا إذا كان من علوٍّ إلى سفل، وهو يبين أنهم إنما هبطوا إلى الأرض من غيرها[3].

---

1 تفسير القرطبي، مرجع سابق، 303/1.

2 التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، 136/1، مع تصرّف باختصار.

3 مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، 373/1

ج-قوله تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [سورة الأعراف: 13].

ووجه دلالة الآية على أنها جنة الخلد أنّ جنة الخلد هي التي يحرم فيها التكبّر، بخلاف غيرها من الجنان في الدنيا؛ فإنّه يكثر فيها المتكبّرون من الملوك وغيرهم في كل بقاع الأرض، كما هو مشاهد، وهو أمر معلوم لدى العقلاء[1].

د-قال ابن تيمية: وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (احتجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: يا آدمُ أنت أبو البشر، خلَقَك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجَدَ لك ملائكته، فلماذا أخرجتنا من الجنة إلى المشقّة والنكد؟)، فلو كان ذلك بستاناً في الأرض لكان غيره من بساتين الأرض يعوِّض عنه... والله أعلم[2].

هـ-من حديث حذيفة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يجمع الله تبارك وتعالى الناسَ، فيقوم المؤمنون حتى تُزلَف لهم الجنّة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم؟ لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله...)، الحديث[3].

---

1 قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 144.

2 مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، 373/1.

3 صحيح مسلم، رقم: 288.

ووجه الدلالة أن الجنة التي طلبوا من آدم أن يســـتفتحها لهم هي جنة الخلد بالاتفاق، وعليه فإن قول آدم في هذا الحديث: (وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم؟)، يعني بذلك الجنّة التي طُلب منه أن يستفتحها لهم، لا يحتمل هذا الكلام إلا ذلك، فدلّ على أن الجنة التي كان آدم ســبباً لخروج بنيه منها هي الجنة التي قُرِّبت لهم يوم القيامة، قال ابن كثير معلقاً على هذا الحديث: وهذا فيه قوة جيدة في الدلالة على أنها جنة المأوى، وليست تخلو عن نظر[1].

- وقد وصف الله عز وجل في كتابه العزيز خلق الجنة بأوصافٍ عظيمةٍ جليلةٍ، كما جاء وصــف خلق الجنة على لســان رســول الله صــلى الله عليه وســلم في أحاديث كثيرة مفصــلاً تفصــيلاً دقيقاً؛ جاء فيه وصــف أرضــها وتربتها ومائها وأنهارها وأشــجارها وطيورها ونســائها وغلمانها، ومســاكنها وفرشــها، ونعيمها وأنســـها، بما لم يأتِ التفصـــيل به عن مخلوقٍ آخر، وما ذاك إلا لأنها موعود الله العظيم وجائزته الكبرى لعباده المؤمنين ومستراحهم ومقيلهم[2].

- قال تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ [سورة الفرقان: 15-16].

- وقال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [سورة

---

1 قصص الأنبياء، ابن كثير، ص 14.

2 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 212.

الفرقان: 24].

والجنة موجودة الآن كما ثبت ذلك في الآيات والأحاديث الصـــحيحة، قال تعالى: ﴿وَسَـــارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُـــهَا السَّـــمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران: 133].

وقال الإمام البخاري: "باب ما جاء في صـــفة الجنة وأنها مخلوقة"، وقال ابن حجر في شـــرحه: أي موجودة الآن، وقد ذكر المصـــنّف في الباب أحاديث كثيرة دالّـة على مـا تَرجَمَ بـه، فمنهـا مـا يتعلق بكونهـا موجودة الآن، ومنهـا مـا يتعلق بصفتها، وأصرحُ من ذلك ما أخرجه أحمد وأبو داوُد بإسنادٍ قويٍّ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها) .[1]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال الله: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشـر، فاقرؤوا إن شـئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سـورة السـجدة: 17]) .[2]

وفي حديث البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لـــمّا مات إبراهيم –

1 فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، 6/265-269.

2 المرجع نفسه، 6/366.

أي ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم-: (إن له مرضعاً في الجنة)[1].

وقال ابن القيم بعد أن ذكر كلاماً مطوّلاً في بداية كتابه "حادي الأرواح"، عن الإمام أبي الحسن الأشعري: والمقصود حكايته عن جميع أهل السنة والحديث أن الجنة والنار مخلوقتان، وقد دل على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [سورة النجم: 13-15]، وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى، كما في الصحيحين من حديث أنس في قصة الإسراء، وفي آخره: (ثم انطلق بي جبريل حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، فغشيها ألوانٌ لا أدري ما هي، قال: ثم دخلت الجنة فإذا فيها جنابذُ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك)، رواه البخاري في كتاب الإيمان[2]، والأدلة في ذلك كثيرة مستفيضة[3].

وهذا المخلوق العظيم الكريم الذي جعله الله منزلَ كرامةٍ لعباده المؤمنين، ووصفه بأعظم الأوصاف، واختار له أجمل الأسماء وأحسنها؛ لتزداد له النفوس شوقاً، وبه تعلقاً، ومن أجله جدّاً واجتهاداً[4].

يقول ابن القيم رحمه الله: ولها عدة أسماء باعتبار صفاتها، ومسماها واحد

---

1 المرجع نفسه، 368/6.

2 حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن القيم، ص 18.

3 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 215.

4 المرجع نفسه، ص 216.

باعتبار الذات، فهي مترادفة من هذا الوجه، وتختلف باعتبار الصفات، فهي متباينة من هذا الوجه، ثم ذكر أسماء الجنة فقال ما ملخّصه:

الاسم الأول: الجنة، وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرة الأعين.

الاسم الثاني: دار السلام، وقد سماها الله بهذا الاسم في قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الأنعام: 127].

الاسم الثالث: دار الخلد، وسميت بذلك لأن أهلها لا يظعنون عنها أبداً، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [سورة هود: 108].

الاسم الرابع: دار المقامة، قال تعالى حكاية عن أهلها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [سورة فاطر: 34-35].

الاسم الخامس: جنة المأوى، قال تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [سورة النجم: 15].

الاسم السادس: جنات عدن، فقيل هي اسم لجنة من الجنات، وإنه اسم لجملة الجنات، وكلها جنات عدن: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [سورة مريم: 61].

الاسم السابع: دار الحَيوان، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: 65].

الاسم الثامن: جنات النعيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ [سورة لقمان: 8].

الاسم التاسع: المقام الأمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [سورة الدخان: 51].

الاسم العاشر: مقعد صدق، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [سورة القمر: 54-55].

فسمى جنّته مقعد صدق لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها[1]، وأما مكان الجنة ففوق السماء السابعة وتحت عرش الرحمن، وأما كونها فوق السماء السابعة فدل عليه القرآن: ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [سورة النجم: 14-15]، وسدرة المنتهى فوق السماء السابعة، كما في حديث الإسراء المشهور، وفيه: (ثم عُرج بنا إلى السماء السابعة: فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمّد صلى الله عليه وسلم، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففُتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهرَه إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب

1 حادي الأرواح، ابن القيم، مرجع سابق، ص 77-81.

بي إلى ســــدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقِلال، قال: فلمّا غشيها من أمر الله ما غشي تغيّرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاة)[1].

فهذا الحديث يدل على أن سدرة المنتهى بعد السماء السابعة، وبما أنَّ الجنة عندها إذن فهي فوق السماء السابعة[2].

وأما كون الجنة تحت عرش الرحمن فدلّ على ذلك من السنة حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاةَ، وصامَ رمضانَ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنَّة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي وُلد فيها. قالوا: يا رسول الله أفلا نبشّر الناس؟ قال: إن في الجنّة مئة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض. فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة)، أراهُ قال: (وفوقَه عرش الرحمن، ومنه تفجَّر أنهار الجنة)[3]. فأعلى درجات الجنّة هي الفردوس، كما في الحديث، وفوقها عرش الرحمن، إذن فالجنة تحت عرشه سبحانه[4].

---

1 صحيح مسلم، رقم: 162.

2 اليوم الآخر في القرآن الكريم والسنة المطهرة، عبد المحسن بن زبن المطيري، ص 410.

3 صحيح البخاري، رقم: 2790.

4 الإيمان باليوم الآخر، علي محمد محمد الصلابي، ص 181.

5. ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِـــئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّـــجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: 35].

أ. "وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا": أي: كلا منها أكلاً واسعاً من أي مكان فيها دون جهد وتعب، فالرَّغَد: العيش الطيب الهنيء الذي لا عناء فيه.

ب. "وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّــجَرَةَ": لما أذِن الله لآدم وحواء بالأكل من حيث أرادا في الجنة لم يمنعهما إلا من شـجرة واحدة معيّنة من أشـجار الجنة العديدة الكثيرة، تثمر ثمراً خاصــاً شـهياً مرغوباً، وكان آدم وحوّاء يعرفانها، ولذلك لما نهاهما الله عن الاقتراب منها أشـار لها باسـم الإشـارة "هذه" الذي يُشـار به للقريب، وهذا يدل على قرب الشـــجرة منهمـا قرباً مـادياً وقرباً علميـاً ومعنوياً، و"أل" التعريف في "الشجرة" للعهد الذهني؛ لأنها شجرة معروفة عند آدم وحواء[1].

ولم ينهَ الله آدم وحواء عن مجرد الأكل من ثمار تلك الشـــجرة المحرّمة، إنما نهاهما عما هو أبلغ؛ وهو الاقتراب منها، حيث قال: "وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّـــجَرَةَ"، والنهي عن الاقتراب من الشجرة أبلغ من مجرد النهي عن الأكل منها؛ لأنه يتضمن النهي عن الأكل منها، أما النهي عن الأكل فإنه لا يتضـــمّن النهي عن الاقتراب. إنهما إذا لم يقتربا من الشـــجرة فلن يأكلا منهـا من باب أولى، وهـذا معنـاه أنهمـا كـانا منهيَّين عن شيئين؛ الاقتراب من الشجرة والأكل منها.

1 سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 117.

وهذا هو المسمَّى في الإسلام بسد الذرائع؛ أي تحريم كل طريق توصل إلى الحرام، فعندما حرَّم الإسلام الزنا سد الذرائع إليه، وحرَّم كل طريق توصل إليه، فحرَّم النظرة والمصافحة والقُبلة والاختلاط والتبرُّج، وغيرَ ذلك.

ولما نهى الله آدم وحواء عن الاقتراب من الشجرة أخبرهما أنهما إن فعلا ذلك كانا من الظالمين[1]. وقد يتساءل متسائل؛ لماذا كلَّفهما الله بالنهي عن الاقتراب من تلك الشجرة؟

ولعل الحكمة من ذلك التكليف هي تقوية إرادة آدم وحواء، وتنمية معاني التكليف والالتزام عندهما، وتدريبهما على ذلك وهما في الجنة ليحسنا النظر إليه، ويتمرَّنا على التفاعل معه، لأن الله سيُنزلهما بعد ذلك إلى الأرض، وستقوم حياتهما الدنيوية على التكليف والأمر والنهي، وسيكون هذا التكليف لهما في الجنة تمهيداً للتكاليف الشرعية لذريّتهما من بعدهما، فما كُلّف الأبوان في الجنة هذا التكليف وتدرّبا عليه كذلك تُكلف ذريتهما من بعدهما هذا التكليف وتتدرب عليه وتتكيّف معه[2].

وقد خاض كثير من المفسّرين في تحديد تلك الشجرة، فقال بعضهم: إنها كانت شجرة البُرّ، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل كانت شجرة التين، وقيل كانت شجرة الحنطة، وقيل كانت سنبلة، وقيل غيرها. وعدم اتفاقهم على واحدة

---

1 الخالدي، المرجع السابق، ص 119.

2 سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 120.

منها دليل على عدم توقيف شـيء من ذلك في كتاب أو سـنة، ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: والصـواب في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن، ولا من السـنة الصـحيحة[1]. رجَّحه ابن كثير بقوله: "وهو الصواب"[2].

ج. "فتكونا من الظالمين"، فإنه يعني: فتكونا من المعتدين إلى غير ما أُذن لهم وأُبيح لهم فيه، وإنما عنى بذلك أنكما إن قربتما هذه الشجرة كنتما على منهاج من تعدّى حدودي وعصى أمري واستحلَّ محارمي؛ لأن الظالمين بعضهم أولياء بعض، والله وليّ المتقين، وأصل الظلم في كلام العرب وضع الشيء في غير موضعه[3]. وقال غيره: يعني إن أكلتما من هذه الشجرة ظلمتما أنفسكما[4].

6. تحذير آدم وحواء من عدوهما إبليس:

وبعد أن أذن الله لآدم أن يسـكن هو وزوجه في الجنة، وأن يأكلا من ثمارها ما شـاءا؛ غير شـجرة واحدة، توجَّه الله بخطابٍ آخر إلى آدم يحذّره فيه إبليس اللعين

---

1 تفسير الطبري، مرجع سابق، 521/1.

2 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 235/1.

3 تفسير الطبري، مرجع سابق، 234/1.

4 قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، 51/1.

وعداوته، وأبلغه كل ما توعَّد به من إضـلاله وإغوائه ما استطاع إلى ذلك سـبيلاً، وحذَّره أن يكون إبليس ســبباً لإخراجه من الجنة، وفي ذلك يقول تعالى، كما في ســورة طه: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْــقَىٰ ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [سورة طه: 117-119].

قال الله لآدم: إن إبليس عدوٌّ لك ولزوجك حواء، فاحذرا منه، وإياكما أن تستجيبا لوساوسه، فإنه لا يريد الخير لكما، وإنما يريد إخراجكما من الجنة.

وإنك إن خرجت من الجنة شـقيت وتعبت؛ لأن كلَّ حاجتك في الجنة مؤمَّنة ميسَّـرة، فأنت فيها لا تجوع، ولا تعرى، ولا تعطش، ولا يؤذيك حر الشـمس في الضحى، فإن استجبت لوساوس الشيطان وأُخرجت بسبب ذلك من الجنة فإنك ستخسر وتشقى؛ حيث تجوع وتعرى، وتظمأ وتعطش، وتضحى من حر الشمس.

وقد وسـوس إبليس لآدم وحواء، وكانا منتبهين له، متذكّرين لعداوته، واسـتمرّ بالوسـوسة مراتٍ ومراتٍ، وهما حذران منه، ولكنهما نسيا في آخر الأمر ووقعا في المحذور.

وقد فصّلت آيات سورة الأعراف في وسوسة إبليس التي أدّت إلى نسيانهما ومخالفتهما[1]، يأتي الحديث عنها لاحقاً بإذن الله تعالى.

---

1 القصص القرآني، الخالدي، مرجع سابق، 127/1.

7. من لطائف التعبير القرآني:

وهذه مقارنة بين آيتي إسكان آدم وزوجه الجنة:

- قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [سورة البقرة: 35].

- وقال تعالى في سورة الأعراف الآية (19) في القصة نفسها: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [سورة الأعراف: 19].

وعند التأمل في هاتين الآيتين نجد بين التعبيرين فيهما بعضَ الفروق؛ أهمها ما يأتي:

- في الآية الأولى جاءت كلمة " وَقُلْنَا"، ولم تأتِ في الآية الثانية.

- في الآية الأولى قال تعالى: "وَكُلَا مِنْهَا" بالواو، وفي الثاني قال تعالى: "فَكُلَا" بالفاء.

- في الأولى قال تعالى: "وَكُلَا مِنْهَا"، وفي الثانية لم ترد منها.

- في الأولى جاءت كلمة "رَغَدًا"، ولم تأتِ في الثانية.

- في الآية الأولى قال تعالى: "حَيْثُ شِئْتُمَا"، وفي الآية الثانية قال تعالى: "مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا".

والسر اللطيف في هذه الفروق بين التعبيرين هو –والله تعالى أعلم–أن القصة في سورة البقرة وردت في مقام تكريم آدم عليه السلام؛ إذ فيها إخبار الله الملائكة باستخلاف آدم في الأرض، وفيها إسجاد الملائكة لآدم، وفيها تفضيل آدم على

الملائكة بتعليمه الأسماء كلها. وليس في سورة البقرة معاتبة الله أو توبيخه لآدم وزوجه على معصيتهما، بل فيها بشارة بتوبة الله على آدم[1].

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة: 37].

وأما القصة في سورة الأعراف، فجاءت في مقام العتاب والعقاب والمؤاخذة، وليس فيها ذكر الاستخلاف ولا التعليم، وتكريم آدم في الأعراف جاء ثانوياً، بينما التوبيخ جاء فيها صريحاً قارعاً: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة الأعراف: 22].

وفي سورة الأعراف جاء اعتراف آدم وزوجه بأنهما ظلما أنفسهم، وفيها أنهما طلبا من الله المغفرة والرحمة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: 23]. ولم يُذكر في الأعراف أن الله تاب عليهما كما ذُكر في سورة البقرة.

ومن أجل اختلاف المقام بين السورتين "التكريم والعتاب" جاء الاختلاف في التعبير القرآني بين آيتي إسكان آدم وزوجه الجنة فيهما[2].

قال الإمام الكرماني: "اسكُنْ" في الآيتين ليس بأمرٍ بالسكون الذي هو ضد الحركة، وإنما الذي في البقرة من السكون الذي معناه الإقامة، والذي في الأعراف

---

[1] من لطائف التعبير القرآني، فؤاد السندي، ص 54.

[2] المرجع نفسه، ص 52.

من السُّكنى التي معناها اتخاذ الموضع مسكناً[1].

ولمناسبة تكريم آدم عليه السلام في سورة البقرة، فإن الله تعالى نسب القول في آياتها لنفسه جل شأنه، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [سورة البقرة: 35].

ولمناسبة مقام عتاب آدم عليه السلام في سورة الأعراف جمع الله بين طرد إبليس وإسكان آدم بقول واحد، قال بإسناد القول إلى الغائب: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: 18-19].

وهذا النمط الدقيق في اختيار اللفظة المناسبة مع السياق قد سار عليه التعبير في القرآن كله والتزمه، ففي مقام التعظيم والتكريم والتلطف يسند الله تعالى القول إلى نفسه، وقد وقع في كتابِ اللهِ العزيز أربعاً وعشرين مرة منها:

- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:34].

- وقوله تعالى في سورة هود: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:40].

[1] أسرار التكرار في القرآن، محمد بن حمزة الكرماني، ص 25.

– وقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69]

– وقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الإسراء: 104] وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ [الإسراء: 60]

– وقوله تعال في سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِينَ﴾ [الأعراف: 166].

– وفي قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّة شَهِيداً فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [القصص: 75]. فسبحان الله العظيم منزل هذا القرآن الحكيم على قلب نبيه الكريم، بلسان عربي مبين[1].

ونعودُ إلى الآيتينِ في سورة البقرة والأعرافِ لنقفَ عندَ الأمرِ بالأكلِ فنجده قد اقترنَ في البقرةِ بالواو قال تعالى: "وَكُلا"، وفي الأعراف قد اقترنَ بالفاء قال تعالى: "فَكُلا". والسر اللطيفُ في ذلك والعلمُ عند الله هو: أنهُ لما كان المرادُ بقوله: بـ"اسكُن" في سورة البقرة الإقامة، والإقامة كما قال الكرماني تستدعي زماناً ممتداً جاء التعبير فيها، وَكُلا بالواو؛ لأن الواو تفيد مطلق الجمع بين الإقامة في الجنةِ

---

[1] من لطائف التعبير القرآني، السندي، مرجع سابق، ص 54.

والأكل من ثمارِها من غيرِ تقيدٍ بترتيب وتدل على السعةِ في الاختيارِ وهو المناسبُ لمقامِ التكريم الموجود في سورةِ البقرة، ولو قالَ هنا: "فَكُلا" لوجبَ تأخير الأكلِ إلى الفراغِ من الإقامة.

وأما في سورةِ الأعراف، فجاء التعبيرُ فَكُلا بالفاء؛ لأنَّ السُّكنى هنا مراد بها: اتخاذ الجنّة مسكناً واتخاذ المسكن لا يستدعي زماناً ممتداً، ومن جهةٍ أخرى أيضاً لا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه وإنما يقع عقبه، والفاء تفيدُ التعقيب والترتيب لهذا ناسب مجيئها في آيةِ الأعرافِ، فَكُلا ثمَّ زيادة في تكريمِ آدم عليه السلام في سورةِ البقرة أعادَ فيها ضمير الجنّة منها وزادَ فيها كلمة رَغداً قال تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: 35]. وفي سورة الأعرافِ لم يعد ضمير الجنة، ولم يذكر كلمة رغداً. قال تعالى: "فَكُلا"؛ وذلك لأن المقامَ هُنا مقام عتاب لا مقام تكريم، فالمقامان مختلفان، فجاءَ التعبير في كلِّ سورة وفقَ ما يقتضيهِ المقام، فسبحان الله العظيم الحكيم[1].

وأمّا الظرف: حيثما شئتما، فكما قالَ الدّكتور فاضل السامرائي في كتابهِ التعبير القرآني، في آية سورة البقرة: "يحتمل الظرف أن يكونَ للسكن وللأكل جميعاً، والمعنى اسكنا حيثُ شئتما، وكُلا حيث شئتما، لهذا لم يسبق بمن. أما في سورةِ الأعراف، فلا يحتمل الظرف إلّا أن يكونَ للأكل ولا يصح تعليقه بالسكن، إذ يصح أن يُقال: فكلا من حيثُ شئتما ولا يصحُ أن يقال: اسكنا من حيث شئتما لذا زيدت من

---

[1] لطائف التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان، ط4، 2006م، ص 290.

في سورة الأعراف: ﴿فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ [الأعراف: 19]. فسبحان الله العظيم دقَّت حكمته في كل شيء وتناهت روعة كلامهِ في كُل لفظ"[1].

الحادي عشـر: قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة: 36].

1- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾:

معنى ذلك أوقعهما في الزلة واستجرهم الشيطان حتى زلوا والضمير في قوله: فأزلهما عائد على أبوينا آدم وحواء عليهما السلام وكانا قد أُسكنا الجنة ثمَ طُردا منها بمعنى أنَّ الشيطانَ بوسوسته إليهما قد أوقعهما في الخطأ الذي كان سبباً في إخراجهما من الجنةِ وتنحيتهما عنها، والتعبير يوحي بصورةِ الشيطان وهو يجرهما بغوايتهِ ويلقي بهما إلى خارج الجنة إلقاء بعنف ويدفع بهما إلى خارجها دفعاً عنيفاً فتزل أقدامهما من تحتهما لشدةِ الدفع[2].

وهذه الآية الكريمة جاءت في معرضِ الحديث عن غوايةِ إبليس اللعين لأبوينا آدم وحواء عليهما السلام، وأكدَّ ربنا تبارك وتعالى تلك الواقعة في كل من سورتي الأعراف وطه. وبيّنَ الله عزَّ وجل وسائل الشيطان في إغواء آدم وزوجهِ بكافة

---

1 السامرائي، المرجع نفسه، ص 291

2 من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن، زغلول النجار، مرجع سابق، ص 119.

الأساليب المغرية، فلم يترك سبيلاً إلا ولجه ولا باباً إلا طرقه، ولم يكن إغراءُ إبليس لآدم وحواء على مرحلة واحدة، بل سبقَ ذلك مراحل عديدة وكان دائم التردد عليهما مرة يستفرد بآدم ويوسوس إليه ومرة يوسوس إليهما معاً، فكانَ إبليس شديد الإلحاح وقد استخدمَ طرق كالنُصحِ والإرشاد والقسم باليمين[1].

أ- وسوسة إبليس:

قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: 20]. أطلقَ الله تعالى على إبليس وصفهِ الشيطان وليس اسمه لأنّ اسمه إبليس، وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ لأن الوسوسة يُناسبها التعبير بالوصفِ فهي من عملِ الشيطانِ ولذلكَ عدلَ من اسمِهِ إلى وصفِهِ. والوسوسة إيحاءٌ من الشيطانِ لهما أو حديثٌ متواصل منه معهما وقد يكون هنا الحديث ظاهراً علينا وقد يكونُ شعوراً باطنياً خفياً.

وفِعل وسوس يوحي باستمرار حديث إبليس معهما وإيحاءاته العلنية والخفية، وهذا الاستمرار منه يدلُ على أنهما لم يستجيبا له من المرة الأولى أو الثانية أو العاشرة.

إنَّ فعلَ وسوس يشيرُ إلى أنهما بقيا حذرين منه متذكرين عداوتِهِ وحافظا على

[1] آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر العمصي، مرجع سابق، ص 102.

الوعي والانتباه فترة واستجابا لتحذيرِ الله تعالى لهما. كما أنَّ هذا الفعل وسوس يشير إلى الجهد الكبير الذي بذلهُ في الوسوسة لهما وخداعهما ومواجهتهما لوسوسته بالانتباه[1].

ب- التعري غاية الإغواء:

وسوس الشيطان لهما، في قوله تعالى: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: 20]؛ اللام ليبديَ لام التعليل والجملة بعدها تُعللُ لوسوسة الشيطان وتبيين هدفه منهما.

إنَّ الهدفَ الأصلي الكبير للشيطانِ هو إخراج آدم وحواء من الجنةِ وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُو لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: 117]. وهنا هدف آخر من الوسوسة في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: 20].

ولا تعارضَ بين الآيتين، فالهدف الأساسي للشيطان هو إخراجهما من الجنة، ومن وسائلهِ في تحقيق هذا الهدف الشيطاني كشف عوراتهما وإبانة سوءاتهما، فإنَه إذا تمكنَ من ذلك وحققَ هذا الهدف الجزئي بالوسوسة حققَ هدفه الكبير بإخراجهما من الجنة.

---

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 126.

- ومعنى ﴿يُبۡدِيَ﴾ يظهر ويكشف. وتعلق الإبداء والإظهار فيهما فقط ليُبدي لهما.

- ومعنى ﴿وُۥرِيَ﴾ أخفى وستر. وتعلَّق الفعل بهما بما وريَ عنهما، فالله عز وجل أخفى وستر عن آدم وحواء سوءاتهما وأراد الشيطان أن يُظهر لهما تلك السوءات المواراة عنهما.

- ومعنى ﴿سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ جمع سوءة، وهي العورة التي يسوء الرجل والمرأة كشفها ويخجلان من إظهارها ويحرصان على سترها وتغطيتها[1].

إن إبليس عملَ على خروج آدم وحواء من الجنة، وحرمانهم من مزاياها ونعيمها الذي ذكرهُ الله عز وجل في قولِهِ في سورةِ طه: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾[طه: 117-119]؛ فهيَ موطن خالٍ من الشقاءِ، لا جوعَ فيها ولا عُري ولا ظمأ ولا حر شمس، ومعنى هذا أن البديل فيه شقاء، كما أنَّ معنى ذلك أنَّ هذه الأشياء الأربعة هيَ أساسيات الحياة الهنية السّوية ليس لأحدهما أهمية أكثر من الآخر2.

وتكررت قصة إغواء إبليس لآدم وزوجِهِ في أكثر من موضع بينت عداوتِه المستحكمة وإصرارِهِ على تعمد الإغواء غيرَ أنَّ التفصيل الوارد في الآيات السابقة لصور الشقاء الأربع التي تنتظر آدم عليه السلام في حالِ تقبلهِ لإغواءِ إبليس، والذي

---

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 127.

[2] قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 288.

تضمنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: 118-119]. هذا التفصيل في تعداد صور الشقاء اختصرته الآية التي بعدها والآيات التي في سورة الأعراف أيضا من هدفِ إبليس من كشفِ عورةِ آدم وحواء[1].

يقول الله عزّ وجل في سورة طه: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [طه: 121].

وفي سورة الأعراف يقول تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾[الأعراف:20]؛ ثمَّ بيّنَ الله عزّ وجل نتيجة الوسوسة تلك في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾[الأعراف:22] ثمَّ جاءَ التحذير الإلهي لبني آدم مؤكداً خطورة هذه الصورة من صور الشقاء في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۚ﴾[الأعراف: 27].

إنَّ هذه الآيات الكريمة في قصة آدم الأولى، تؤكد لنا عدد من المسائل المهمة، وهي أنَّ ستر العورة فطرة مترسخة في النفسِ البشرية وأصلٌ من أصولِ تكوينها المغروس في حِسها منذ بدءِ الخلق، كما تؤكد أنَّ مسألة التعري هو هدف شيطاني متأصل في برنامجهِ التدميري منذ بدء الخلق وهو كذلك مستمر إلى قيام الساعة[2].

ج- غريزة التملك وحب الخلود مدخل الشيطان للإنسان:

---

[1] الخزعان، المرجع نفسه، ص 289.

[2] قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 89

خاطب إبليس غريزتين في آدم وحواء، وهما: حب التملك، والخلود؛ لأنهما غريزتان أساسيتان عميقتانِ في النفس الإنسانية، كل نفس تحبُ أن تتملك وتزيد ما تتملكه وكل نفسٍ تحبُ الخلود، وتعمل له وتسعى إليه، فجاءَ الشيطان إلى آدم وحواء عن طريقِ النُّصح والإرشاد وأنَّه يخاف عليهما من الموت، فهم يجب أن يكونا مع الملائكة وأن يكونا من الخالدين الذين لا يصيبهم الموت. واسترسلَ في الوسوسة والحديث عن الخلود لهم والملك الدائم الذي لا ينقضي ولا يفنى. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف:20]. وقال تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: 120]، فاستثار الشيطانُ بذلك كوامن النفس البشرية في حبِ الخلود والملك الدائم والارتقاء إلى الحالة الملائكية، لأن الإنسان بطبيعته يكره الفقر ويكره الموت، ويحب الغنى والخلود[1].

من هذا الباب يَدخل الشيطان إلى نفوسِ بني آدم، لأنه يعلم أنَّ معظم الناس لا يتمالكون أمام الرغبة في التملك والرغبة في الخلود، فالرغبة الغريزية في الحصول على أكبر مقدار ممكن من التملك تجعل الإنسان مستجيباً لوساوس الشيطان، فيمتلك الممتلكات من أي مصدر، سواء أكانت حلالاً أو حراماً، والرغبة الغريزية في الخلود تجعله يحرص على حياتهِ ولا يبذلها في سبيل الله، ويتمسك في الدنيا وينسى الآخرة وكان إبليس كاذباً في تزيينِ التملك والخلود لآدم وحواء وهدفهُ هو إسقاطهما.

---

[1] آدم عليه الإسلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص 102.

فقد شاء الله الحكيم أن لا يجعلَ لبشرٍ الخلود في هذهِ الدنيا، وجعلَ لكل إنسانٍ أجلاً محدداً، لا بُدَّ أن يموتَ عندما يستوفيه، والدنيا نفسها زائلة وسيموت آدم وحواء عند حلولِ أجلهما سواء أكلا من الشجرة أم لم يأكلا منها. ولم يجعل الله الحكيم لأحد من المخلوقين مُلكاً لا يبلى، ومهما ملكَ الإنسان من ملك فلا بُّدَ أن يبلى ويفنى ويزول والمالك الحقيقي لكلِّ ما في الكون هوَ اللهُ سبحانه، وماذا تقولُ في مُلكٍ يتركه صاحبهُ خلفة عندما يموت؟[1].

د- أقسم الشيطان لهما بالله كذباً:

قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 21]؛ لم يصدق آدم وحواء إبليس في تبريره لهما الأكل من الشجرة لأنهما مؤمنان باللهِ عز وجل، يعلمان أنَّ الله حكيم في نهيهما عن الأكلِ من الشجرة وأنَّ مصلحتهما تتحقق بالالتزامِ بحكمِ الله وليس بمخالفتِهِ.

وبقيَ آدم وحواء يقظين واعيين حذرين من إبليس ووساوسه وإبليس حريصٌ على إغوائهما ولم تنفع وساوسه معهما حتى الآن فماذا يفعل؟

لجأ إلى وسيلةٍ شيطانيةٍ ماكرة لا يهتدي لها إلا هو، ولا تخطر إلا على بالِهِ، فلم يبقَ أمامَهُ إلا أن يُقسم لهما باللهِ عزَّ وجل، أنَّهُ صادقٌ ناصحٌ أمين.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[الأعراف: 21]، ومعنى قاسمهما :

---

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 133.

أقسمَ لهما باليمين وحلَفَ لهما بالله قائلاً: أقسمُ لكما بالله أنني صادق ناصحٌ لكما وأنني أريدُ الخير لكما، وأنني أدلكما على سبيل تحققان به التملك والخلود وأنّ مصلحتكما في الأكلِ من الشجرة.

وهذِهِ أول يمين كاذبة في تاريخِ البشرية وكانت في الجنة، قبلَ حياة آدم وحواء على الأرض، وهذِهِ اليمين الكاذبة صدرت عن إبليس، فهوَ أول من حلفَ باللهِ كاذباً[1].

ولم يظن آدم وحواء أنَّ مخلوقاً من مخلوقات الله يقسم بجلالِ اللهِ وعظمتهِ كاذباً، فاغترا بقولِهِ وافتَتَنا بقسمه، فأكَلا وزَلا بإغوائه وانخدعا بِمعسول قولِه[2]. وعلقت الآيات التي حَلَفَ بها إبليس لهما كاذباً بقولِهِ: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُور﴾ [الأعراف: 22].

ومعنى "دَلَّىٰهُمَا": أنزلهما. نقول: دليت الدّلو في البئرِ: إذ أنزلته فيه بالحبل وكان الإنزالُ بالتدريج إبليس دلىّ آدم وحواء بعدَ يمينه الكاذب حيث أكلا من الشجرة، وبذلك أهبطهما وأنزلهما عن المرتبة العالية التي كانا فيها إلى مرتبةٍ أدنى حيث أنزلا إلى الأرض. والباءُ في قوله: "بِغُرُور" باء المسببة أي دلاهما وأنزلهما بسبب غروره لهما والغرور هو: الخداع.

غرَّهما وخدعهما عندما أقسم بالله فانخدعا بيمينه الكاذب وأكلا من الشجرة ناسيين، فهو السبب في ما حصل لهما[3].

---

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 134.

[2] آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص 104

[3] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 136.

هـ- ما ترتب على تذوق الشجرة:

قال الله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُور فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّ مُّبِين﴾ [الأعراف: 22]. وقال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: 121].

وبمجرد تذوق آدم وحواء الشجرة بدت وظهرت العورة لم يكررا الأكل، بل بمجرد أن ظهرت العورة عرفا أنهما قد ارتكبا المعصية، لذلك عندما رأى كل واحد منهما عورة الآخر غلبَ عليه الحياء، فأسرعا إلى أوراق شجرة من أشجار الجنة بحركة عفويةٍ وسريعة وصارَ كل واحد منهما يقطع من الأوراق التي أمامه ويُلزقها على جسمِهِ ويخصفها على بدنهِ ويحرص على أن يسترَ بها سوأته، حتى لا يراها الطرف الآخر أو غيره، لقد شعرا بالحياء والخجل من ظهور السوءات وسارعا بسترها فورا[1]، فلم يرى آدم و حواء عورة الآخر قبل المعصية، فكلاهما كان مستور العورة عن الآخر.

ولقد ذهب العلماء في الستر الذي كان يستر سوءاتهما أقوالاً منها، ما روي عن وهب بن منبه عن عمرو عن أبيه، قال: كان عليهما نور لا تُرى سوءاتهما، وقيل كان ذلك الستر ظفراً طويلاً، حتى كانت تصل إلى قدميهما وكانت هي التي تستر

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 104.

ثمَّ زالت بالمعصية[1]، وغير ذلك من الأقوال.

يقولُ الشيخ محمد متولي الشعراوي: لقد أتعب العلماء أنفسهم في كيف كانت عورتا آدم وحواء مستورتين عنهما، فالله سبحانه وتعالى كان يستر عورتي آدم وحواء بما شاء من أنواع الستر، وسواء ستر الله سبحانه وتعالى عورتي آدم وحواء بثوبٍ أو بأظافر أو بنورٍ من عنده، فالمهم أنَّ هذه العورات كانت مستورة عن أعينهما[2]. وأما الورق الذي غطى بهِ كل من آدم وحواء عورتهما بعد ما انكشفت وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، فلم يحدد القرآن نوع الشجرة التي غطى بهما آدم وحواء عورتهما[3].

و- ستر العورة فطرة إنسانية سوَية:

إنَّ آدم وحواء أصل البشرية سارعا إلى ستر العورة بمجرد أن علما أنها عورة، وقبلَ أن يأمرهما الله سبحانه بذلك، وهذا المعنى الإنساني الفطري النبيل جعله الله في كلِ نفسٍ إنسانية، فهي مفطورة على السترِ والفضيلة والتعفف والحياء وعدم إبداء السوأة وكشف العورة والخجل إذا ظهرت بدون قصد منه ومسارعة تغطيتها، هذه هي الفطرة الربانية في كل نفسٍ سوية[4].

إن الشيطان يريد تعرية الناس لإشاعة الفاحشة والفجور بينهم، والفطرة الربانية

---

[1] آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص 104.

[2] أحمد جابر، المرجع السابق، ص 104.

[3] أحمد جابر، المرجع نفسه، ص 105.

[4] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 143.

الكامنة في أعماق النفس الإنسانية تدعو إلى ستر العورات ومحاربة التعري والفواحش والرذائل.

وإنَّ كشف العورات تصرف جاهلي شاذ، يتصادم مع الفطرة السّوية والعجيب أنّ حزب الشيطان من الشاذين والشاذات في هذا العصر الجاهلي حريصون على مصادمة الفطرة وتدميرها والقضاء عليها. ويستخدمون كل شيء من أجل أن يتعرّى الرجال والنساء في الأماكن العامة والخاصة لا يكاد يستر عوراتهم حتى المغلّظة منها شيء، وانتشرت نوادي وأفلام وفضائيات العُري في هذا الزمان، وغزت بلاد ومجتمعات وبيوت المسلمين، وزيّن شياطين الإنس للناس المنحرفين أنّ التعري هو الأصل. كما أنّ تغطية المرأة لبدنها تخلُف وانغلاق وعدم استجابة لمتطلبات الحياة المعاصرة، فقتلوا الفطرة السويّة عند المرأة، كما قتلوا عفتها وفضيلتها وطهرها، وصارت تتباهى بفتنتها وانحطاطها وقلة حيائها وشتان بينَ ما يريده الرحمن من ستر السوءات وتغطية العورات وبين ما يريده الشياطين من محاربةِ الفطرة وكشف العورات، وما أجمل وأعظم ما قامَ بهِ أبوانا في الجنة، عندما سارعا بتغطية العورة بورق الجنة بمجرد أن عرفا أنها عورة يسوئهما كشفها[1].

ز-الله سبحانه يلوم آدم وحواء:

قال الله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُور فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 149.

لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 22 -23].

نادى الله الاثنين آدم وحواء ولامهما على أكلهما من الشجرة، وذكّرهما بنهيه السابق لهما وقال لهما: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾، واللطيف في التعبير القرآني أنّه لما نهاهما عن الاقترابِ من الشجرة أشار لهما باسم الإشارة للقريب "هذه"، في قوله تعالى: "وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ"، أما بعدما أكلا من الشجرة، فقد أشارَ لهما باسم الإشارة للبعيد "تِلۡكُمَا" في قوله تعالى: "أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ"، فالشجرة قبل الأكل منها كانت قريبة إلى مشاعر النفس وأحاسيسها وإلى عالم الشعور، تودُّها النفس، لأن كل ممنوع مرغوب كما يُقال، أما بعد الأكل منها، وما ترتب على ذلك الأكل من المخالفة وبُدُوِ السوءات والشعور بالذنب، فإنّ هذا جعل الشجرة بعيدة عن المشاعر والأحاسيس، فأشار لهما بالإشارة للبعيد تلكما. وذكّرهما الله في ندائه وعتابه بسابق تحذيره لهما من إبليس وعداوته: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[1].

ح- آدم وحواء متساويان في المسؤولية:

إنّ النص القرآني واضح بما لا يدع مجالاً لأي شك أن الوسوسة التي كانت من إبليس كانت للاثنين آدم وحواء وأن المعصية وقعت منهما بالتساوي، ولا يوجد أي

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 149.

نص قرآني يُشير من قريب أو بعيد إلى أن حواء هي التي كانت أغوت آدم، أو إن إبليس أغوى حواء بمفردها أو قبل غواية آدم، يمكن القول:

- الاثنان نُهيا عن الاقتراب أو الأكل من الشجرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾.

- الاثنان حذرا بصورة واضحة من عداوة الشيطان ومن عقاب سماع كلامه واتباع إغوائه، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ﴾ [الأعراف: 21].

- الاثنان أزلهما الشيطان في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾.

- الاثنان وسوس لهما الشيطان في قوله تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: 20].

- الاثنان أقسم لهما الشيطان، في قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 21].

- الاثنان أغواهما وغَرَسَ أقدامهما في الخطيئة، في قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ﴾ [الأعراف: 22].

- الاثنان ذاقا الشجرة المحرمة عليهما معاً في نفسِ التوقيت، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف 22].

-الاثنان ظلما أنفسهما، في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23].

-الاثنان تابا إلى الله وسألاه العفو والمغفرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

هناك من الآيات ما أشارت إلى تحمل آدم السبب في المعصية دون ذكر لحواء، فالعهدُ كان لآدم والنسيانُ كان منه وقلة العزيمة كانت منه دون حواء، وإن كان الغالب أنَّ المقصود هاهنا الاثنان، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡماً﴾ [طه: 115].

إنّ الخطاب والتحذير بسوءِ عاقبة الأكل من الشجرة كان موجهاً إلى آدم في قوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: 117]. وفي قوله تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه:120]. وفي قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: 121].

فلا ينبغي بعد الآن أن يخرجَ علينا كاتب أو مؤلف مسلسلات أو سيناريو أفلام ويُجري حواراً على لسانِ أحد أبطالِهِ أو بطلاتِهِ يُكذب فيها ما جاءَ بكتاب الله ويتبع الأساطير والكتب المحرفة والتي نُسبت زوراً إلى الله عزّ وجل وذُكرَ فيها زوراً وبهتاناً وعن سوءِ نية وقصد أنَّ حواء أخرجت آدم من الجنة وأنها سبب غوايته أو أنها هي التي طلبت منه أو سوّلت له أو أغرته أن يأكل من الشجرة.

فيا منظمات حقوق الإنسان...

ويا جمعيات الدفاع عن المرأة...

ويا أيُّها المتاجرون والمتاجرات بحقوق المرأة في كلِّ منتدى...

ويا كل أصحاب الحضارات والثقافات...

ويا مؤسسات الفكر واليونسكو ويا أصحاب نوادي مناصرة النساء...

هذا كتاب الله تعالى ينطق بالحق، يبرئ المرأة الأصل وسيدة الكون الأولى،

والأنثى الكاملة حواء من تهمة أُلصقت بها على مرِّ العصور، جهلاً أو عن سوء قصد ونية سيئة، ألا وهي تهمة غواية آدم وإخراجه من الجنة وجرجرة البشرية إلى هوانِ الأرض وحرمانها من رغدِ ونعيم الجنة.

هذه آيات الله واضحةٌ جلية لا لبَسَ فيها ولا غموض، تُعلم البشرية أنَّ حواء لم يكن لها دور في غواية أو إقناع آدم بالأكلِ من الشجرة. أنّ حواء مساوية لأبي البشر، ولكن قد تكون أقل من آدم في تحملها لمسؤولية الأكل من الشجرة واتباع الشيطان ومخالفة الرحمن ونسيان أمره[1].

إنَّ الآيات القرآنية حريصة على تحميل المسؤولية لكل من آدم وحواء، وعدم تبرئة واحد منهما: هما أخطآ وهما تابا واستغفرا، وتاب الله على كلٍّ منهما ولم يعاقب واحداً منهما[2].

إنَّ هبوط آدم إلى الأرض هو المقصود من خلقه، في قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: 30]. إنه ليسَ عقاباً محضاً، إنما هو سبب مكتوب والإهباط إلى الأرض والاستخلاف هو من صنع الله وقدره، وله الحكمة في ذلك والإنسان مسؤول عن أعماله الإرادية الاختيارية والظروف والبيئة وسائر المؤثرات لها اعتبار في تعظيم المسؤولية، ولا تلغى التبعة الدنيوية القانونية ولا الأخروية المترتبة على تصرفاته[3].

---

[1] آدم وحواء أسرار وحقائق، محمد عبد الباقي، مرجع سابق، ص 84.

[2] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 148.

[3] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 218.

د- هل أكل آدم عليه السلام من الشجرة ناسياً:

يرى بعض أهل العلم ذلك محتجاً بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْما﴾ [طه: 115]، وهذا القول عندي ضعيف لوجوه:

- أن الله سبحانه قال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: 121]، والناسي لا يكون عاصياً.

- أن النسيان يطلق على الترك أحياناً قال تعالى في شأن الكفار: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾ [التوبة:67].

- قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:126]

- إن آدم وحواء عليهما السلام قالا: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]، والناسي لا يكون ظالماً لنفسه.

- إن الناسي لا يُؤاخذ ولا يُعاقب فالنسيان شيء لا يتحكم فيه الشخص والذي يظهر أنَّ آدم عليه السلام طمع في جنة الخلد فلذلكَ أكل من الشجرة، كما أفادت بعض الآيات منها:

- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْك لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: 120].

- قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 21].

- وقوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُور﴾ [الأعراف: 22]، والله أعلم.

ويقول الدكتور عبد الكريم زيدان: والراجح في تحليل أكل آدم وزوجته من الشجرة الممنوعة اجتماع عدّة أمور منها في نفس آدم وفيما قاله إبليس وبيان ذلك ما يلي:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡما﴾ [طه: 115][1].

إذن، فإن المعنى؛ ولقد عهدنا إلى آدم أن لا يقرب من الشجرة، فنسيَ العهد أي هذا الأمر بأن لا يقرب من الشجرة ولم نجد له عزما أي تصميماً في حفظه، أي في حفظِ العهد الذي هو أمره بعدم الاقتراب من الشجرة أي بنهيه عن الأكل منها، ولو كان له تصميم على حفظ العهد لما أزله الشيطان ولما استطاع أن يغره[2].

وقال الإمام الرازي في قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾، وفي نسيان آدم قولان:

أولهما: ما هو نقيض الذكر، وإنما هو عوقب على ترك التحفظ والمبالغة في الضبط حتى تولد منه النسيان.

ثانيهما: أن المراد بالنسيان الترك، وأنه ترك ما عُهد إليه من الاحتراز من الشجرة والأكل من ثمارها ولم نجد له عزما أي لم نجد له عزماً على التحفظ والاحتراز عن الغفلة[3].

---

[1] قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، مرجع سابق، 67/1.

[2] تفسير القاسمي، 197/11. وانظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1419هـ 1998م، 20/1.

[3] عبد الكريم زيدان، المرجع السابق، 1/ 21.

الثاني عشر: قال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة: 36]:

1- ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ [البقرة: 36]:

لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له، لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبل توبتهُ، وإنما أهبطه إما تأديباً وإما تغليظا للمحنة والصحيح إهباطه وسكناه في الأرض قدر لحكمة أزلية في ذلك وهي نشر نسله فيها ليكلفهم ويمنحهم ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروي، إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف فكانت تلك الأكلة سبباً في إهباطه من الجنة ولله أن يفعل ما يشاء وفي قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: 30]؛ منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفة، وقد تقدمت الإشارة إليها مع أنه خلق من الأرض، وإنما أهبطه بعد أن تاب عليه، وذلك في قوله تعالى: "قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ"[1]، وسيأتي الحديث عنه لاحقاً بإذن الله.

﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ [الأعراف: 24]

وهذه سنة ربانية مطردة دائمة حتى قيام الساعة، أجملتها جملة موجزة في القرآن وهي جملة: "بعضكم لبعض عدو"، والعداوة موجودة بين الجن والإنس، الجن الذي يمثلهم أبوهم إبليس والإنس الذي يمثلهم أبوهم آدم عليه السلام وكم من الخلافات والنزاعات والعداوات بين عالم الجن وعالم الإنس، وبين المؤمنين من الجن والإنس من

[1] تفسير القرطبي، مرجع سابق، 362/1

جهة والكافرين من الجن والإنس من جهةٍ أخرى، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ يشير إلى العلاقات والعداوات التي تقع بين مجموعات وأفراد الجنِّ فيما بينهم وإلى العلاقات والعداوات التي تقع بين مجموعات وأفراد الإنس فيما بينهم.

وإذا كنا لا نعرف تفاصيل ومظاهر وصور الخلاف والعداوة بين أفراد الجن، لأننا لا نعرف تفاصيل حياتهم فإننا نعرف الكثير من صور العداوة التي تقع بين عالم الإنس والتي تدخل ضمنَ هذه الجملة المجملة: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾.

كم من الخلافات والعداوات تقع بين الأفراد القريبين من الإنس كالزوج مع زوجه، والأب مع ابنه، والأخ مع أخيه، والقريب مع قريبه، والصديق مع صديقه، وكم من الخلافات والعداوات تقع بين أفراد الأسرة الواحدة والعائلة الواحدة والقبيلة الواحدة والمدينة الواحدة والوظيفة الواحدة والمهنة الواحدة والدولة الواحدة.

وكم من الخلافات والعداوات تقع بين الأمم والشعوب والدول وتؤدي إلى الحروب والقتال وسفك الدماء وتقع تلك العداوات والخلافات لأسباب عديدة كالخلاف على المال أو الجاه أو الأرض أو المنصب أو العمل أو غير ذلك.

ولا تنتهي العداوة بين مختلف الأطراف إلا عند قيامِ الساعة، فالخلاف والنزاع والحرب والعداوة كل هذا مستمر على الأرض، منذ هبوط آدم وإبليس على الأرض وهذا تطبيق لقوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾[1].

---

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص. ص 169-170.

2- ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة: 36]:

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾؛ أيّ لكم في الأرض موضع قرار يلائمكم ويناسبكم وقد جعلها الله سبحانه وتعالى ملائمة لحياتكم ومسخَّرة ومذلّلة لمعيشتكم عليها فهي موضع استقرار[1]، ﴿ومَتَاعٌ﴾ أي لكم فيها متاع، بما خلقَ الله لكم فيها من أرزاق[2] والمتاع ما يستمتع به من أكل ولبس وحياة وحديث وأنس وغير ذلك.

﴿إلى حِينٍ﴾ أي إلى أن تحين أجالكم التي تنتهي بها حياتكم. وهكذا بيَّن الله تعالى للإنسان الأول، السمات الكبرى لحياتهِ على الأرض عندما أهبطه إليها، فالصراع فيما بينهم وبين الشيطان أبرز هذه السمات وهو من أهم أسباب الابتلاء والاختيار في حياة الإنسان على هذه الأرض[3].

الثالث عشر: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37]:

1- ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾:

إنها كلمات قليلة سهلة واضحة مباشرة، والتلَّقي يوحي بالانتظار والترقب من غير تطويل ولا إبطاء ولا شروط. إنها توبة ناجزة قاطعة، ولذا استخدم حرف الفاء وهو للتعقيب السريع. وجميل أن يكون التحذير قبل الخطأ قوياً، والعتاب بعده

---

[1] تفسير القرطبي، مرجع سابق، 363/1.

[2] التفسير الموضوعي، طهماز، مرجع سابق، 90/1.

[3] طهماز، مرجع سابق، 90/1.

لطيفاً، خاصة لمن استوعب الدّرس، ويا لها من رحمة أنَّ السيئات التي تؤلمنا ذكراها نجدها في موازيننا حسنات يوم البعث.

وحين تطلب الناس منك الصفح فعليك أن تسرع بالاستجابة وتغالب نفسك وتنسى المظلمة، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: 40]، وأنت ذو الخطأ الذي يحتاج أن يغفر الله له وأن يغفر له الناس.

الكلمات كانت أقوالاً صادقة من سويداء القلب معجونة بدمع العين السخين ولا أحب إلى الله من دمعة تائب[1]، ولذا ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف 23].

ويلاحظ في هذا الاعتراف أنهما لم يحاولا أن يُبرِّرا ما فعلا، ولم يلقيا المسؤولية على الشيطان، فلم يقولا يا ربَّنا إنَّ الشيطان هو السبب، فهو الذي وسوس لنا، وهو الذي أقسم لنا اليمين، وأننا كنا حذرين منه لكننا لما أقسم اليمين صدّقناه لأننا لم نتوقع أن يحلفَ كاذباً فهو السبب، لم يفعلا ذلك كما يفعله كثير من العصاة والمذنبين من ذريتهما.

واليوم، عندما يقع أحدهم في ذنب يبرر ذنبه بعدة تبريرات ويُحَّمل غيره مسؤولية إغوائه، ويجعل نفسه ضحيّة، والمؤمن يقتدي بأبويه آدم وحواء عليهما السلام، فيعترف بذنبه وضعفه وخطئهِ، ويسارع بالتوبة والاستغفار، ويطلب من الله المغفرة والرحمة، وقد أخبرنا الله تعالى عن توبة آدم وحواء عليهما السلام، ففي قوله

---

[1] علمني أبي مع آدم، العودة، مرجع سابق، ص 226.

تعالى:﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف 23]، وقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة 37].

والإشارة إلى التوبة في سورة البقرة مجملة، وهي مفصّلة في سورة الأعراف وحتى نعرف الكلمات التي تَلقاها آدم عليه السلام لابُدَّ أن نستحضرَ آيات سورة الأعراف، وهذا من باب تفسير القرآن بالقرآن، فما أُجمِلَ في موضع فصِّلَ في موضعٍ آخر وما أُبهِمَ في موضع بُيِّنَ في موضعٍ آخر[1].

ولا تزال كلمات الأبوين المنكسرة المتوجعة تذّكرنا بالطريق الآمن إلى الله كلّما عاصرنا الذنب، ومنهما نتعلّم أن لا نيأس ولا نستسلم للخطأ، ولو تكرر أو أصبح إدماناً يلحُ علينا، فالذي قدَّرّ الذنب شرع التوبة وسهَّل أسبابها ويسَّر طريقها فجعله موصولاً به دون واسطة، وكان اعتذارهما معلناً كما الخطأ. وتكرّرت القصة في القرآن الكريم لتؤكد حصول الذنب وانكشاف العورة، وحالة الركض بحثاً عن ورق شجرة يواريهما لنتعلم ألا أحد بمعزلٍ عن احتمال الخطأ، وأن الصدق ليس ادّعاء الطهورية والتظاهر بالصفاء، بلِ الاعتذار والنَّدم والتكفير عن الذنب بما يناسبه، والخوف من الله لا من الناس مع إدراك أن المجاهرة بالذنبِ ذنبٌ آخر واستخفاف وإفساد للبيئة[2].

كما أن قصة الإنسانية الأولى وأبويها تعلمنا أنَّ الخطيئة ليست حالاً دائمة بل لحظةٍ

---

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 150.

[2] علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص 227.

عابرة يفيقُ منها القلب وهو أرقّ وأصفى.

وتعلّمنا أنّ التوبة تحتاج إلى مناجاة وندمٍ واعتراف بين يدي الله عزَّ وجل، وبأنَّ الدموع الحقيقية هي زيتُ سراجها، وتعلّمنا أنَّ الهبوط إلى الأرضِ ليس عقاباً، وكيفَ يعاقبهم وقد سامحهم، ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ الله أهبط آدم إلى الأرض قبلَ أن يخلقه، وعنى بذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فهو مخلوق للأرض ليعمرها[1].

﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾؛ أيّ قبل توبته، وتابَ العبد رجع إلى طاعة ربه وأصل التوبة الرجوع[2].

2- ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

تناولت في حديثي أسماء الله الحسنى التي ذكرت في قصة آدم عليه السلام، وبينت معناها وثمارها وهي: الرب والعليم والحكيم، وفي هذه الآية الكريمة التي تحدثت فيها عن توبة آدم عليه السلام جاءَ ذكر اسم الله التواب والرحيم.

أ – التّواب:

ورد اسمه سبحانه التّواب في إحدى عشرة آية من القرآن الكريم منها تسع آيات اقترنَ فيها باسمه سبحانه الرحيم كما في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ

---

[1] علمني أبي آدم من الطين إلى الطين، العودة، مرجع سابق، ص 228

[2] تفسير القرطبي، مرجع سابق، 366/1 .

فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37]، وقوله: ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيم﴾ [البقرة: 128]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّاب رَّحِيم﴾ [الحجرات 12].

وجاء في آية واحدة مقترناً باسمه الحكيم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: 10]، وجاءَ مفرداً في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: 3].

- المعنى في حق الله عزَّ وجل:

قال الطبري (رحمه الله) عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وإن الله جلَّ ثناؤه هو التوّاب على من تاب إليه من عباده المذنبين من ذنوبه، التارك مجازاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيته بما سلف من ذنبه وتوبة الله على عبده هو أن يرزقه ذلك ويؤوب من غضبه عليه إلى الرضا عنه ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه[1]. ويقول الشيخ السعدي: فهو التائب على التائبين أولاً. بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه وهو التائب على التائبين بعد توبتهم قبولاً لهم وعفواً عن خطاياهم[2]، ووصف الله سبحانه نفسه بالتّواب لكثرةِ من يتوب إليه[3].

من آثار الإيمان باسمه سبحانه "التّواب":

محبة الله عزَّ وجل والأنس به، لأنه سبحانه الرحيم بعباده ومن رحمته ولطفه بآدم

---

[1] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 581

[2] تفسير السعدي، مرجع سابق، 300/5

[3] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 582

وحواء وبنيهم من بعدهم أن وفق من شاء من عباده على التوبة والرجوع إليه، وهذا يحدث للإنسان أنس ومحبه لخالقه ومولاه عزَّ وجل. وإن إفراد الله عزَّ وجل بالتوبة وطلب المغفرة والعفو منه، من العبادات كالصلاة والاستغاثة والاستعانة والاستغفار ولا يجوز صرفها إلا إليه وحده سبحانه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الشورى: 25].

فالتوبة لا تكون إلا إلى الله عزَّ وجل وحده، فلا يتاب إلى نبيٍّ مرسل، ولا ملك مقرّب، وقد قال الله عزّ وجل لرسوله (صلى الله عليه وسلم): ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: 128][1].

- ومن آثار الإيمان باسمه سبحانه "التّواب":

الحياء من الله عزّ وجل البرُّ الرحيم التّواب الغفور الذي يفرح بتوبة عبده، وهذا الحياء إذا تمّكن من القلب أثمر تعظيماً لله عزّ وجل وحياء منه ومبادرة إلى طاعته وترك معاصيه قدر الجهد والاستطاعة[2].

إنَّ أبوينا آدم وحواء (عليهما السلام) علّما ذريتهم من بعدهم أهمية المبادرة إلى التوبة النصوح عند الوقوع في الخطأ أو المعصية مهما كان عظيماً، وعدم اليأس من رحمة الله تعالى، والقوة في رجائه سبحانه، لأنه التواب الرحيم الغفور الودود ولابُدَّ أن تكون التوبة صادقة حتى يقبلها الله عز وجل وينتفع بها العبد.

---

[1] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 583

2 الجليل، المرجع نفسه، ص 584

والتوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعاودة وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة فمتى اجتمعت هذه الأربعة فقد اكتمل شرائط التوبة[1].

وأضاف أهل العلم شرطاً خامساً. إذا كان الذنب ناشئاً عن الاعتداء على حقوق العباد في نفسٍ أو مالٍ أو عرض. وذلك بأن يتحلل من أصحاب الحقوق ويعيد حقوقهم إليهم، وإن كان في كتم الحق وإضلال الناس، فلا بُدَّ من التوبة من ذلك من بيان الحق المكتوم ورد الناس إلى الحق بعد تلبيسه عليهم[2].

إن الإنسان الذي خلقه الله عزَّ وجل في حاجة إلى التوبة في جميع مراحل عمره وأنها لا تفارقه ولا غنى له عنها[3]. وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: ومنزل التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولايزال فيه إلى الممات وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه ونزل به فالتوبة هي بداية العبد ونهايته وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أنَّ حاجته إليها في البداية كذلك. قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور:31].

وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم ثمَّ علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه وأتى بأداة "لعلَّ" المشعرة بالترجي إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح،

[1] المفردات، الأصفهاني، مرجع سابق، ص 76.

[2] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 584.

[3] المرجع نفسه، ص 585.

فلا يرجو الفلاح إلا التائبون جَعَلنا الله منهم[1].

وفي الصحيح عنه (صلى الله عليه وسلم) أنَّه قال: "يا أيها الناس توبوا إلى الله فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"[2]. وكان أصحابه يعدّون له في المجلس الواحد قبلَ أن يقوم: "ربِّ اغفر لي وتب علي إنك أنت التوّاب الغفور مائة مرة"[3]. وما صلّى صلاة قط بعد إذ أنزل علي قول تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: 1] إلى آخرها إلا قال فيها: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي"[4]. وصحَّ عنه (صلى الله عليه وسلم) أنَّه قال: "لن يُنجي أحدكم منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل"[5]. فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته، وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها[6].

والتوبة لا يستغني عنها أحد حتى الأنبياء صلوات الله عليهم لأنها ليست نقصاً بل هي من الكمال الذي يحبه الله ويرضاه ويأمر به وقد سُئِل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن معنى قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ

---

[1] مدارج السالكين، ابن القيم، مرجع سابق، 1/178-179

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، رقم 6307، كتاب الدعوات باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة، الجزء 19 ص216، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، 1434هـ، 2013م.

[3] أخرجه مسلم في صحيحه، رقم الحديث، 2702.

[4] أخرجه البخاري في صحيحه، رقم 794، أبواب صفة الصلاة_ باب الدعاء في الركوع، ص423، وفي: مسلم، 484.

[5] أخرجه البخاري في صحيحه، رقم 6463كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، الرسالة العالمية، ط1 2013م.

6 ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 586.

وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التوبة: 117]. والتوبة إنما تكون عن شيء يصدر من العبد، والنبي معصوم من الكبائر والصغائر؟

فأجاب رحمه الله تعالى: الحمد لله، الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون من الإصرار على الذنوب كبارها وصغارها وهم بما أخبر الله به عنهم من التوبةِ برفع درجاتهم ويُعظم حسناتهم فإن الله يحبُّ التوابين ويحب المتطهرين وليست التوبة نقصاً، بل من أفضل الكمالات وهي واجبة على جميع الخلق كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُوما جَهُولا لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورا رَّحِيمَۢا﴾[الأحزاب: 72 -73]. فغايةُ كل مؤمن هي التوبة ثمَّ التوبة تنوع كما يُقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين[1].

- اقترَان اسمه سبحانه ﴿التواب﴾ باسمه ﴿الرحيم﴾:

جاء هذا الاقتران في تسع آيات من القرآن الكريم سبق ذكر بعضها آنفاً ومنها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّاب رَّحِيم﴾ [الحجرات: 12]، ومناسبة هذا الاقتران والله أعلم هو: أن توبة الله عزَّ وجل على من يشاء من عباده بتوفيقهم إليها ثم قبولها منهم هو من آثار رحمة الله تعالى وبرِه وإحسانه وكذلك كونه سبحانه لا يعاقب من تاب إليه ولا يرد من تاب إليه بصدق. قال الطبري رحمه الله تعالى: قال قتّاد في قوله

---

1 الجليل، المرجع السابق، ص 586

تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 104].

فالله هو الوهاب لعبادِهِ الإنابة إلى طاعته الموفق من أحب توفيقه منهم لما يرضيه عنهم الرَّحيم بهم أن يعاقبهم بعدَ التوبة أو يخذل من أراد منهم التوبة والإنابة ولا يتوب عليه[1].

ب- الرحيم:

عادة عندما يتحدث العلماء عن أسماء الله الحسنى يتحدثون عن الرحمن الرحيم مع بعضهم البعض، وهذان الاسمان الكريمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، وهي الرقة والتعطف. وإن كان اسم الرحمن أشدُّ مبالغة من اسم الرحيم؛ لأن بناء فعلان أشد مبالغة من فعيل، وبناء فعلان: للسعة والشمول. وقد اتفق أهل العلم على أن اسم الرحمن عربي لفظه وفي الحديث القدسي: ﴿أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي﴾[2] فقد دلَّ هذا الحديث على الاشتقاق، وكانت العرب تعرف هذا الاسم، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ [الزخرف: 20].

وجاء في أشعارهم قول الشاعر:

وعجلتم علينا إذ عجلنا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق[3]

---

[1] الجليل، المرجع السابق، ص 587.

[2] السلسلة الصحيحة، الألباني، ص 520

[3] النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، محمد محمود النجدي، المجلد الأول، القسم الأول، 1/75-76.

- الفرق بين الاسمين:

فرَّق بعض أهل العلم بين هذين الاسمين الكريمين، وذلك بالفروق التالية:

أولاً: اسم الرحمن: هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة، وأما اسم الرحيم: هو ذو الرحمة للمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيما﴾ [الأحزاب 43]. ولكن يُشكل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوف رَّحِيم﴾ [البقرة: 143]. وفي قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: 66].

ثانياً: إنَّ اسم الرحمن عائد على الرحمة الذاتية، والرحيم دال على الرحمة الفعلية، يقول ابن القيم رحمه الله: إن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه وتعالى، والرحيم دال على تعلقهما بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال على أنّ الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، ولذلك رحم آدم عليه السلام وحواء، وإذا أردت فَهمَ هذا فتأمل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيما﴾ [الأحزاب: 43]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوف رَّحِيم﴾ [التوبة: 117]. ولم يجيء قط رحمن بهم فعُلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة والرحيم هو الرحيم برحمته[1].

ولذلك يقرن الله سبحانه وتعالى في كتابه استواءه على العرش بهذا الاسم كثيراً كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ

[1] بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، 24/1.

عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡلۡ بِهِۦ خَبِيرا﴾ [الفرقان:59]. إن الله تعالى استوى على العرش باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات، وقد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: 156]. فسبحانه استوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات فلذلك وسعت رحمته كل شيء[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش: إنَّ رحمتي تغلب غضبي﴾[2]. فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعه عند العرش وطابق بين ذلك وبين قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه: 5]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡلۡ بِهِۦ خَبِيرا﴾[الفرقان: 59]. يفتح لك باباً عظيماً هي معرفة الرب تبارك وتعالى[3].

ثالثاً: اسم﴿الرحمن﴾ من الأسماء التي لا يجوز للمخلوق أن يتسمى بها، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾[الإسراء: 110]، فعادل به الاسم الذي لا يشركه فيه غيره وهو الله جلَّ جلاله، وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به نبيه صلى الله عليه وسلم حيث قال: ﴿حرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوف رَّحِيم﴾[التوبة: 128] . قال ابن كثير: والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره ومنها مالا يُسمى به غيره كاسم الله، الرحمن، الخالق، الرازق، ونحو

---

[1] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 121.

[2] البخاري، رقم 7404، باب التوحيد، كتاب الاعتصام بالكتاب، الطبعة الأولى 1434هـ، 2013م.

[3] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص121.

ذلك، ولهذا بدأ باسم الله الموصوف بالرحمن لأنه أخص وأعرف من الرحيم ولأن التسمية أولاً تكون بأشرف الأسماء، ولهذا ابتدأ بالأخص فالأخص[1].

- رحمة الله لعباده نوعان:

الأولى: رحمة عامة: وهي لجميع الخلائق بإيجادهم وتربيتهم ورزقهم وإمدادهم بالنعم والعطايا وتصحيح أبدانهم وتسخير المخلوقات من نبات وحيوان وجماد في طعامهم وشرابهم ومساكنهم ولباسهم ونومهم، وحركاتهم وسكناتهم وغير ذلك من النعم التي لاتُّعد ولا تحصى[2]. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡما﴾ [غافر:7].

الثانية: رحمة خاصة: وهذه الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين فيرحمهم الله عزَّ وجل في الدنيا بتوفيقهم إلى الهداية والصراط المستقيم ويثبتهم عليه ويدافع عنهم وينصرهم على الكافرين ويرزقهم الحياة الطيبة ويبارك لهم فيما أعطاهم ويمدهم بالصبر واليقين عند المصائب ويغفر لهم ذنوبهم ويكفرها بالمصائب، ويرحمهم في الآخرة بالعفو عن سيئاتهم والرضا عنهم والإنعام عليهم بدخولهم الجنة ونجاتهم من عذابه ونقمته وهذه الرحمة هي التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيما﴾ [الأحزاب: 43][3].

---

[1] تفسير ابن كثير، المرجع السابق، 21/1.

[2] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 128.

[3] الجليل، المرجع السابق، ص 129.

- من آثار الإيمان باسمه سبحانه الرحمن الرحيم:

محبة الله عز وجل المحبة العظيمة وذلك حينما يفكر العبد وينظر في آثار رحمة الله عزَّ وجل في الآفاق وفي النفس والتي لاتُّعد ولا تُحصى، وهذا يثمر تجديد المحبة لله عز وجل والعبودية الصادقة له سبحانه وتعالى، وتقديم محبته عز وجل على النفس والأهل والمال والناس جميعاً والمسارعة إلى مرضاته، والدعوة إلى توحيده والجهاد في سبيله وفعل كل ما يحبه ويرضاه.

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُور رَّحِيم﴾ [آل عمران:31]؛ أيّ أن عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله تعالى وعدم اليأس من رحمته سبحانه وتعالى.

وإن الله عزَّ وجل قد وسعت رحمته كل شيء، وهو الذي يغفر الذنوب جميعاً كما أنَّ الرجاء والنظر إلى رحمة الله الواسعة وآثارها، ويثمر الأمل في النفوس، ويمسح عليها الرَّوح، وحسن الظن بالله تعالى، وانتظار الفرج بعد الشدة ومغفرة الذنوب[1]. قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر:53]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرا﴾[الشرح:5-6]، وقال تعالى:﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰه مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلا مَّا

[1] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 140.

تَذَكَّرُونَ﴾[النمل: 62].

وقد حضَّ الله عزَّ وجل عباده على التخلق بصفة الرحمن، ومدح بها أشرف رسله، فقال: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُول مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوف رَّحِيم﴾ [التوبة: 128].

ومن أسمائه صلى الله عليه وسلم أنه "نبي الرحمة"[1]، ومدح الله تعالى الصحابة رضي الله عنهم بقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: 29]. وخصَّ أبو بكر رضي الله عنه بالكمال البشري في الرحمة بعد الرسل، حيث قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ﴿أرحم أمتي بأمتي أبو بكر﴾[2]. وكما بيَّن النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) أن الرحمة تنال عباده الرحماء فقال: ﴿إنما يرحم الله من عباده الرُحماء﴾[3].

وأعظم رحمة بالناس هدايتهم إلى التوحيد، وإخراجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم عزَّ وجل، ثم الرحمة بهم في أنفسهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم ودفع الظلم عنهم، وتفريج كروبهم والإحسان إليهم وتعزية مصابهم وقضاء حوائجهم وأولى الناس بهذه الرحمة الوالدان والأقربون.

– التعرض لرحمة الله تعالى بفعل أسبابها:

ومن أعظم ما تستجلب به رحمة الله تعالى، فعل ما يرضيه ويأمر به، واجتناب

---

[1] مسلم، 2355.

[2] صحيح الترمذي صححه الألباني 2981

[3] البخاري، كتاب التوحيد، الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله تعالى: [قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى] [الإسراء 110]، ج 24. وانظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني، دارالرسالة العالمية، ط 2013م.

ما يسخطه وينهى عنه باتباع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيب مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف:56].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡء فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾[الأعراف: 156 -157]، وامتثال قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[النور:56]، وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُور رَّحِيم﴾[البقرة: 218].

ومما نستجلب به رحمة الله تعالى الرحمة بالخلق والإحسان إليهم. وتدبر القرآن والإنصات إليه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204]. وكذلك الاستغفار من أعظم ما تستجلب به رحمة الله تعالى، قال تعالى: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النمل:46]. وقد أرشدنا الله عزَّ وجل إلى سؤاله سبحانه وتعالى الرحمة لأنفسنا وأقاربنا وقد أثنى سبحانه على أنبيائه بذلك وذكرهم للتأسي بهم[1].

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83]، وقال عزَّ وجل عن موسى عليه السلام ودعائه لنفسه وأخيه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: 151]،

---

[1] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 144.

وقال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: 118][1].

- ذكر أسماء الله الحسنى التي جاءت في القرآن مقترنة باسمه سبحانه ﴿الرحيم﴾:

جاء اسم الله ﴿الرحيم﴾ في القرآن الكريم مقترناً ببعض الأسماء الحسنى:

- اقترانه باسمه الرحمن: وجاء في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 2-3]. وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰه وَٰحِد لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]. وجاء هذا الاقتران في ستة مواضع من القرآن، وقد مرَّ معنا هذان الاسمان الكريمان وأصل اشتقاقهما والفرق بينهما ومن الجمع بين هذين الاسمين الكريمين.

يقول ابن القيّم رحمه الله: أما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى وهو أنَّ الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرَّحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال على أنّ الرحمة صفته والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته[2].

وبذلك يُفهم أنَّ الجمع بين الرحمن والرحيم يدل على كمال رحمته سبحانه وتعالى وشمولها من جهة، وخصوصها من جهة أخرى كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡء فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: 156].

---

1 الجليل، المرجع نفسه، ص 145.

2 ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 146.

- اقترانه باسمه الغفور:

وهذا كثير في القرآن الكريم بلغ (75) موضعاً تارة بقوله: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾. وتارة بقوله: ﴿إنَّ الله كان غفوراً رحيماً﴾. وتارة بقوله: ﴿وهو الرحيم الغفور﴾. وتارة بقوله: ﴿إنَّ الله غفورٌ رحيم﴾. وتارة بقوله: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾. وتارة بقوله: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾. وتارة بقوله: ﴿إنّه لغفور رحيم﴾. وتارة بقوله: ﴿إنَّ ربي لغفور رحيم﴾. وتارة بقوله: ﴿والله غفور رحيم﴾.

ولا تخفى على المتأمل المناسبة بين هذين الاسمين وبين الآية التي ختمت بها، واقتران هذين الاسمين الجليلين في مواطن كثيرة من القرآن يدلُّ على أن مغفرة الله عزَّ وجل لعبده مع استحقاقه العقوبة بمقتضى عدله إن هو إلا أثر من آثار رحمة الله تعالى، وهذا من مقتضى رحمته التي كتبها على نفسه، وإلا لكان مقتضى العدل أن يؤاخذ العبد على ذنبه كما يجزيه على عمله الصالح.

فجمع الله سبحانه وتعالى بين هذين الاسمين الكريمين، لأن بالمغفرة تسقط عقوبة الذنوب وستر الله عزَّ وجل ذنوب عباده ويقيهم آثامها كما يقي المغفر الرأس من السهام من السهام وهذا مقتضى رحمته سبحانه[1]. كما أنَّ في الجمع بين هذين الاسمين الكريمين إشارة إلى الكرم الغامر، والفضل العميم، فإنه سبحانه الغفور يقتضي تجاوزه عن الزلات والعثرات، فإذا قرن الغفور بالرحيم الذي ظهرت آثار رحمته فهو الفضل الذي ليس وراءه فضل، فالمغفرة تخلية عن الذنوب، والرحمة تحلية بالفضل

[1] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 148

والثواب[1].

- اقتران اسمه ﴿الرحيم﴾ باسمه سبحانه ﴿الرؤوف﴾:

وجاء هذا الاقتران في ثماني آيات من القرآن الكريم منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوف رَّحِيم﴾ [البقرة:143].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوف رَّحِيم﴾ [الحديد:9]، وهذا الاقتران يدل على أعلى درجات الرحمة والرأفة وهي من موجبات الرحمة وآثارها[2]، وأقرب الخلق إلى الله تعالى أعظمهم رأفة ورحمة كما أنَّ أبعدهم منه من اتصفَ بضد صفاته[3].

- اقتران اسمه ﴿الرحيم﴾ باسمه ﴿التواب﴾:

وجاء هذا الاقتران في تسعة مواضع:

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰت فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 104]. وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 16]. وسر الاقتران بين هذين الاسمين الكريمين واضح، ذلك أنّ من آثار وثمار رحمة الله تعالى توفيقه لعباده إلى التوبة ثم قبولها منهم.

---

[1] الجليل، مرجع سابق، ص 148.

[2] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 149

[3] كتاب الروح، ابن القيم، مرجع سابق، ص 557.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيما﴾ [النساء: 27]. وتوفيق الله سبحانه العبد للتوبة ثم قبولها منه يترتب عليه حسن العاقبة والنجاة من عذاب الله تعالى وتلك رحمة خاصة، بل إنه سبحانه من عظيم رحمته بعبده أنَّه يفرح بتوبته فرحاً عظيماً[1] والله سبحانه وتعالى يحب التوابين.

- اقتران اسمه سبحانه ﴿الرحيم﴾ باسمه ﴿العزيز﴾:

وجاء هذا الاقتران في ثلاثة عشر موضعاً من القرآن الكريم منها تسع مواضع في سورة الشعراء، وذلك بالتعقيب على قصة كل نبي مع قومه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَة وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: 8-9]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: 217]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس: 5]. ومنها قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان:42]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة:6].

واقتران هذين الاسمين واضح لمن تأمله حسب السياق القرآني في الآية التي يختمها بهذين الاسمين الجليلين. في سورة الشعراء لما كانت الآية بمثابة التعقيب على قصة كل نبي مع قومه ناسب ختمها بهذين الاسمين الكريمين، وذلك أن ما حصل للمكذبين من عذاب وهلاك إنما هو مقتضى عزته سبحانه وقوته وغلبته، وهو

---

[1] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 150.

موجب اسمه سبحانه وتعالى العزيز، وما حصل من إنجاء للرسل وأتباعهم إنما هو مقتضى رحمته ولطفه وهو موجب اسمه سبحانه الرحيم. وبالجملة فإن اقتران هذين الاسمين الكريمين يدل على الكمال والعدل والحمد والعزة والرحمة وذلك ببيان أنه سبحانه مع كونه عزيزاً قوياً غالباً قاهراً لكل شيء فلا ينفي أن يكون رحيما براً محسناً، ولا يعني كونه سبحانه رحيماً بعباده ألا يكون قوياً غالباً.

فرحمته سبحانه وتعالى ناشئة عن قدرة وقوة وعزة لاعن ضعف وعجز. واجتماع الوصفين يدل على صفة كمال ثالثة وهي: جريان عزته سبحانه وتعالى على سنن الرحمة التي تستلزم إفاضة الخير والإحسان[1].

- اقتران اسمه الرحيم باسمه سبحانه﴿البر﴾:

وجاء هذا الاقتران مرة واحدة في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْض يَتَسَآءَلُونَ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: 25-28].

والبر: هو المحسن الرفيق المتفضل، وهذه الصفات هي من موجبات رحمته الخاصة لعباده المؤمنين فبرُّ الله عز وجل بعباده الذي هو عبارة عن توالي وتتابع إحسانه وإنعامه أثر من آثار رحمته الواسعة التي غمرت الوجود، وتقلب فيها كل موجود، وعن طريق تلك المنن الجزيلة. وذلك الإحسان العميم عرف العباد أن ربهم رحيم،

---

[1] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 151

فاقتران البرُّ بالرحيم لعلَّه من اقتران المسبب بالسبب[1].

وتقديم البرُّ على الرحيم أبلغ في المدح، والثناء بالترقي من الأخص إلى الأعم، ومن المسبب إلى السبب[2].

– اقتران اسمه ﴿الرحمن﴾ باسمه سبحانه ﴿الرب﴾:

قال تعالى: ﴿سَلَٰم قَوۡلا مِّن رَّبّ رَّحِيم﴾ [يس: 58]. من آثار اسم الرب سبحانه أنه رحيم كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ، ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 2-3]. وإن صفة الرحمة من آثار ربوبيته سبحانه فالرب على الحقيقة لا يمكن إلا أن يكون رحيماً، وأنَّ المؤمنين لم يدخلوا الجنة ويتلقوا السلام من رهم سبحانه إلا برحمته عز وجل والتي هي من موجبات ربوبيته تبارك وتعالى.

– اقتران اسمه سبحانه وتعالى ﴿الرحيم﴾ باسمه عز وجل ﴿الودود﴾:

وجاء هذا الاقتران مرة واحدة في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيم وَدُود﴾ [هود:90]. ولا يخفى وجه الارتباط بين هذين الاسمين الجليلين لأن معنى ﴿الودود﴾ هو الذي يحبُّ عباده التوابين المنيبين وهذا من موجبات رحمته. وقد اختار شعيب عليه السلام هذين الاسمين الكريمين وهو يدعو قومه إلى الاستغفار والتوبة وذلك ليطمعهم في توبة الله عز وجل عليهم وأنها مقتضى رحمته سبحانه وتعالى ومحبته عز وجل للمنيبين إليه[3].

---

[1] مطابقة أسماء الله الحسنى مقتضى المقام في القرآن، نجلاء الكردي، ص 624

[2] نجلاء الكردي، المرجع السابق، ص 624

[3] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 152

يقول السعدي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيم وَدُود﴾ أيّ: لمن تاب وأناب، يرحمه فيغفر له ويتقبل توبته ويحبه، ومعنى الودود من أسمائه تعالى أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه، فهو فعول بمعنى فاعل ومعنى مفعول[1].

وما ألطف اقتران اسمه ﴿الودود﴾ بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين وإذا تاب عبده أحبه ولو كان منه ما كان[2].

3- الحكمة من معصية آدم وتوبته:

إنَّ الله تعالى درّب آدم عليه السلام قبل أن يباشر مهمة الاستخلاف في الأرض تدريباً يؤهله لمسؤولية الاستخلاف في الكون، وكان التدريب في مكان يكفل الحياة والراحة والأمن، وما كان الله ليزج بآدم في ذلك الكون الواسع دون أن يدربه أولاً على مهمته.

حيث أوضح الله تعالى له الأوامر وأجلى له النواهي، وحذره من الشيطان، ولم يكتف الخالق الرحيم بذلك بل قدم لآدم الفرصة للتوبة إن أصابته الغفلة، وأعلمنا

1 تفسير السعدي نقلاً عن التدبر والبيان، مرجع سابق، 12/ 447.

2 ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 153

الحق كيف أن الشيطان قد ثأر لنفسه من آدم عليه السلام. إذ عصى الشيطان فلم يسجد لآدم، وأراد أن يستأثر بآدم ليوقعه هو وأبناءه في الخطيئة، ولقد نبه الله تعالى آدم لعداوة إبليس، ومع ذلك وسوس إبليس لآدم وقاده إلى الخطأ، ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:37].

ومعنى ذلك أن الله تعالى خلق التوبة، وأنه يقبلها، لذلك فلا وجود لواسطة بين الله وبين البشر، ولا وجود لإنسان بمفرده قادر على أن يحمل عن البشر خطاياهم؛ فخطأ آدم تمَّ تصويبه، أما الخطيئة التي يرتكبها أيُّ كائن من البشر فالخالق يعاقبه عليها، وما فعله آدم ليس خطيئة إنما هو خطأ، أما الخطيئة كالقتل وسفك الدماء والدس بين الناس، وإثارة الوقيعة بينهم فالعقاب عليها، إما في الدنيا وإما في الآخرة ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: 164].

ويجب ألا ينظر أبناء آدم إلى أبيهم آدم كأول من ارتكب الخطيئة ولكنه ارتكب خطأ، فهو أمن للغفلة والسهو. إن خطأ آدم ليس من ذنوب الاستكبار على الله عز وجل كذنب إبليس، ذلك أن آدم وحواء اعترفوا بخطئهم: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]. وهنا نرى

كيف استغفر آدم ربه؟ لقد تحدث آدم إلى ربه بانكسار، لذلك تاب الله عليه[1].

إنَّ آدم عليه السلام أقرَّ بطاعة مطلقة للخالق الأكرم في التشريع، وطاعة آدم في اختيار وانكسار واعتذار ورغبة في أن يقبل الله توبته، لماذا؟

محبة منه لله الخالق، فلو نظرنا في هذا الموقف، وهو موقف طلب آدم التوبة لوجدناه مبدأ نورانياً في حياة الجماعة. وإن طلب آدم للتوبة وقبول الله لتوبته، إنما هو وضع أساس مهم لمسيرة الإنسان. كما أن مرتكب الذنب سوف يجد باب التوبة مفتوحاً، فيقبل على الله بانكسار، ولا يتمادى في معصيته.

ولو أن باب التوبة لم يكن مفتوحاً لتاه كل صاحب ذنب ولفَسدت الدنيا، ولكن يجب أن لا تقبل على طاعة الله بغرور واستكبار، ويجب ألا يخطئ أحد ذلك الخطأ الذي قد يقع فيه البعض فيقول بغرور: -حاشا لله-وماذا لله عندي؟

إن له العبادة، وها أنذا أعبده. إن الله تعالى لا يريد مثل هذا اللون من الإقبال على عبادته، إن الله يحب أن يُقبل الإنسان على عبادته وهو محب لله الذي فرض هذه العبادة، ذلك أن العبادة ليست شكلاً تؤديه بدون مضمون.

إن العبادة إجراء كامل من الخضوع التام لله تعالى شكلاً ومضموناً، فهناك حكمة من خلق الإنسان، وله خاصية الاختيار وليس مقهوراً على العمل الصالح فالحكمة هي أن الله تعالى أراد الإنسان حراً في اختيار الطاعة أو العصيان حتى يقبل

---

[1] قصص الأنبياء، الشعراوي، مرجع سابق، [24/1]

الإنسان وهو طائع بحب، أو يعصي باختياره فينال عقابه[1].

إن التوبة تستدعي أن يُنيب ويرجع الإنسان إلى ربه، وأن يُسلم الإنسان بكل جوارحه لله عز وجل، وأن يسرع الإنسان بالتوبة قبل أن يفاجأ بالعذاب في الحياة الدنيا أو في الأخرة، ولا بُدَّ أن يتبع التائب أفضل ما نزل من الخالق إلى المخلوقات وهو القرآن الكريم، ونحن نعرف في قصة آدم عليه السلام أنه تاب إلى الله وأنَّ الخالق هو التواب الرحيم، وكأن الله تعالى في حديثه عن آدم يقول لنا: إنني توّاب لم أقبل توبة آدم وحده ولكنني أقبل توبة أي عبد منكم يا أبناء آدم. ولنا أن نعرف أن حديث الله عن نفسه أنه توّاب يتضمن التوجيه المباشر لكل عاص أن يسرع بالتوبة إليه وإلى تلقي رحمته وهو يغفر الذنوب جميعا لمن يسلم قلبه وجوارحه إليه.

إن الخالق يستر على عباده رحمة بهم وترغيباً لهم في التوبة إليه، ولكن عندما يزيد الأمر عن الحد فإن الله يأخذ العبد بذاك الذنب الذي ارتكبه، لذلك فالمؤمن الواعي هو من يسمع قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: ﴿والله إني لا آمن مكر الله﴾. إن صاحب هذا القول هو الصديق الذي أسلم وجهه لله فور دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم له، وصدّقه يوم أن كذّبه الناس، هذا الصديق لا تغفل عينه عن مراقبة نفسه خشية أن يرتكب معصية فيعاقبه الله تعالى عليها، لهذا فكل منا عليه أن يعرف أن الله تعالى ﴿لا تأخذه سنةٌ ولا نوم﴾ وأنّه ﴿الحيُ القيوم﴾[2].

---

[1] قصص القرآن، الشعراوي، مرجع سابق، 24/1

[2] قصص الأنبياء، الشعراوي، مرجع سابق، 26/1

إن آدم عليه السلام لم يكن مخلوقاً ليعيش في الجنة وإنما خلق للعيش في الأرض، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. ومهمة آدم الأساسية في الأرض هي المقام في طاعة الله عزَّ وجل والحكم بالعدل بين خلقه، والفترة التي قضاها في المكان الذي أطلق عليه الجنة كانت تدريباً على مهمته في الأرض، فلا نقول: إنه طُرد من الجنة بسبب المعصية، لأن المعصية أعقبتها توبة مقبولة ثمَّ نبوة، أما الجنة فكانت مرحلة من مراحل الإعداد للخلافة في الأرض الأرض[1].

4- بين معصية آدم وإبليس:

ربَّ سائل يسأل ويقول إنَّ إبليس عصى فعوقب باللعنة والطرد من الجنة وجعله الله خالداً في النار، وآدم عصى ربه فتاب عليه، وتلقى منه كلمات فاجتباه واصطفاه فما الفرق بين هاتين المعصيتين: وقد أجاب العلماء على ذلك من خلال عدة وجوه.

الوجه الأول: إن معصية إبليس كانت عن إصرار وتعمد فعندما يسأل الله إبليس: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: 32]. فأجاب إبليس مصراً على المعصية: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:33]. فمن أجل إصراره على المعصية لعنه الله وطرده: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيم، وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: 34-35].

[1] قصص الأنبياء، الشعراوي، مرجع سابق، 27/1.

وهذا بخلاف معصية آدم فإن آدم عصى الله لكنه لم يعصه عن عناد وصلف وغرور، بل كان معصيته عن سهو وغفلة ونسيان ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه:115].

الوجه الثاني: إن إبليس لم يبادر إلى الاستغفار والتوبة بعدما علم بمعصيته لأمر الله، بل تمادى في غيهِ رافضاً أوامر الله بالسجود لآدم في حين أن آدم وحواء سارعوا إلى طلب المغفرة والرحمة وتضرعا إلى الله بكل كيانهما أن يغفر لهم خطيئتهم التي ارتكبوها[1].

الوجه الثالث: إن إبليس زاد في معصيته وتوعدَّ أن يستغوي الإنسان ويضله وسيقف له في كل طريق ويمنيه الأماني الكاذبة: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16]، وأما آدم وحواء زادا في استغفار ربهما.

فالفرق واضح بين معصية آدم ومعصية إبليس، لذلك كان مصير إبليس الطرد واللعنة والخلود في النار، وأما آدم عليه السلام، فقد تاب الله عليه وغفر له واجتباه واصطفاه[2]؛ لأنه ندم وشعر بالذنب واعترف بالظلم والخطأ والتجأ إلى التوبة والاستغفار[3]، ومعه أُمنا حواء، ولم يبق للعصيان أثر بعد توبة آدم وزوجه، فقد تم قبولهما وتمَّ اصطفائهما، وقد ترتقي النفس وتسمو بعد المعصية إلى درجة أعلى منها قبل المعصية بسبب التوبة والتضرع والاستغفار والإقبال على ما يُرضي الله عز وجل.

---

[1] آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص 109.

[2] أحمد جابر، المرجع السابق، ص 109.

[3] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 159.

وبهذه التوبة وحسن التعامل مع التوّاب الرحيم الغفار تفوّق الإنسان على الشيطان، وتغلبت نوازع الخير في داخله على وسوسة الشيطان، وتحقق قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر:42]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰن وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلا﴾ [الإسراء: 65]. وكانت لآدم وزوجه على حد سواء فقد خاطبهما الله تعالى من قبل فقال: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 35]، وقال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰت فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة:37]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: 122]. فالحكمة من ذلك ما ذكره العلماء من أن المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر، ولذلك لم تُذكر. وقال الحسن: أنه دل بذكر التوبة عليه أنه تاب عليهما إذ أمرهما سواء[1]. وقال بعضهم: أن المرأة حرمة مستورة، فأراد الله الستر عليها ولذلك لم يذكرها في المعصية بقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:121]. ولم يذكرها في التوبة ستراً لها وصوناً لحرمتها وكرامتها[2].

إن القرآن الكريم سجلّ لنا أول معصيتين وقعتا في الوجود، فإبليس عصى ربه أولاً فأول معصية كانت من الجان، وثاني معصية كانت من الإنسان، والراجح أن إبليس هو أبو الجن. كما أن آدم هو أبو الإنس، فبدأ الجن تاريخهم بمعصية صدرت من أبيهم إبليس، وبدأ الإنس تاريخهم أيضاً بمعصية صدرت من أبيهم آدم، ومعلوم

---

[1] تفسير القرطبي، مرجع سابق، 177/1. وانظر: الشوكاني، فتح القدير، 69/1.

[2] آدم بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص 108

أنَّ الإنس والجن مكلفون، وجعل الله عندهم قدرة على الطاعة، كما جعل الله لهم قدرة على المعصية[1]. فمعاصي الجن والإنس المؤمنين كمعصية آدم، تكون عن غفلة وضعف وينتج عنهما الندم والاعتراف بالخطأ ثمَّ التوبة والاستغفار ويزداد بعدها المؤمن قرباً من الله وذكراً وعبادة له. وأما معاصي الجن والإنس الكافرين فإنها كمعصية إبليس، تكون عن تعمد وإصرار ويزداد بعدها الكافر كفراً وبعداً عنه[2].

5- عقيدة النصارى في خطيئة آدم عليه السلام:

تقوم هذه العقيدة -كما تقول المسيحية-على أن الجنس البشري قد وُصم بوصمة المعصية، بإبعاده من الجنة، فأصبح على ذلك مستحقاً للعنة الله، محكوماً عليه بالهلاك الأبدي في الجحيم[3].

ويقولون بجانب ذلك: إن رحمة الله شاءت تخليص هذا العالم، والتجاوز عن ذلك بالذنب الفطري المورث له، فوجب تقديم الترضية اللازمة لله، ويقولون: إنه لما كان المحكوم عليه بالموت يجب تنفيذ الحكم عليه أو تقديم غيره أو تطوع سواه بدلاً عنه، فقد سمح الله بتضحية ابنه على الصليب كفارة عن الناس لأن خطيئة آدم ظلت عالقة في ذريته حتى جاء يسوع الذي جمع بين الألوهية والبشرية، فهو ابن الله وابن مريم فصُلب جسمه البشري ليمحو الخطيئة عن أبناء آدم، وبالرغم من ذلك فإنهم

---

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 158

[2] الخالدي، المرجع نفسه، ص 160.

[3] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، محمد علي، ص 536.

يدعون أنه لا ينجو سوى من آمن بهذه الدعوى واتخذها له عقيدة[1]. وعليه فإن الفداء عند النصارى: هو الخلاص من الموت الناتج عن الخطيئة التي دخلت إلى البشرية بآدم[2].

ويعتقد النصارى أن المسيح مات مصلوباً فداءً للخليقة، وذلك أنَّ الله لشدة حبه للبشر، فإنه أرسلَ وحيده ليخلص العالم من الخطيئة التي ارتكبها آدم حينما أكل من الشجرة المحرمة، وأنَّ عيسى قد صُلب عن رضى تام فتغلب بذلك على الخطيئة، وأنَه دفن بعد صلبه وأنه قام بعد ثلاثة أيام متغلباً على الموت، ثم ارتفع إلى السماء، ومن لا يؤمن بقضية الصليب لا يُعد نصرانياً، لذلك أدمجوا قضية الصليب في دستور إيمانهم الذي يجمع كل عقائدهم، وعلى هذا فالله كما يزعم النصارى نزل من السماء وتجسد في الروح القدس ومريم العذراء، وصُلب بإراقته دمه ليرفع عن البشر وزر خطيئة آدم[3]. وعقيدة الصلب هذه باطلة من أولها إلى آخرها، لأن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله لم يصلب بل رفعه الله إليه، والمسيح عليه السلام لم ينسب إلى نفسه الخلاص، وكذلك لم ينسب الحواريون إلى عيسى الخلاص، وإنما الذي نَسب إلى عيسى أنه مخلص هو بولس، الذي كان من ألد أعداء المسيحية، ثم انقلب فجأة وبدون مقدمات إلى المسيحية وأصبح عقلها المفكر وراعيها المدبر، وكان أول إعلان له أن المسيح ابن الله، ونسب إلى المسيح أنه الإله المتجسد الذي

---

[1] المسيح والتثليث، محمد وصفي، ص 148

[2] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، محمد علي، مرجع سابق، ص 537

[3] بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، ص 72

نزل ليصلب ويخلص البشرية على غرار الآلهة المخلصين الوثنيين.

ولقد انتشرت عقيدة بولس في الخلاص بسبب الأسلوب الذي استخدمه لنشر دعوته والطريقة التي سار عليها، إذ رأى أن يخرج بالمسيحية من دائرتها الضيقة في بيت المقدس إلى الميدان الواسع في البيئات غير اليهودية، ولكي تناسب دعوته هذا المجتمع الجديد أجرى بعض التعديلات للعقائد التي لا يرضى عنها المجتمع الجديد.

إن عقيدة الخلاص المسيحية، التي هي من وضع بولس قائمة على أسس باطلة، وهي أن آدم عليه السلام أخطأ وأنَّ هذه الخطيئة انتقلت بالوراثة إلى كل أبنائه والطريق الوحيد للخلاص منها هو ما زعموه من أن الله نزل وتجَسد في صورة بشرية ليصلب ويتغلب على الموت فيقوم وبذلك ينال الناس الخلاص[1].

إننا ننزِّه المسيح عليه السلام عما جاء في كتب النصارى من الصلب والإهانات التي تعرَّض لها وما ذلك التنزيه إلا لأن المسيح عليه السلام واحد من رسل الله المصطفين الأخيار الذي اختارهم الله لتبليغ رسالته إلى خلقه، فكيف يُهان هذه الإهانة وقد جعله الله مباركاً، كما أخبر المسيح عن نفسه في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: 31].

إنَّ النصارى استندوا في قولهم بالصلب على الأناجيل، وقد بينت في كتابي (المسيح عيسى بن مريم) أنها مُحرفة ومبدلة ومتناقضة، وذلك بالدليل والبرهان، وأنها لم تنقل عن طريق التواتر، فهي أخبار آحاد مقطوعة الصلة بالمسيح، لانقطاع سندها

[1] الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، أحمد علي عجيبة، ص 155

فكل ما جاء فيها من أخبار مشكوك فيه ولا يرقى أبداً إلى درجة الصدق واليقين. وقد أجمعت الفِرق النصرانية "المثلّثة" على أن المسيح صُلب تكفيراً عن خطيئة آدم التي ارتكبها وتوارثها أبناؤه من بعده، ومن أجل أن تُمحى الخطيئة لابدَّ أن يتجسد الإله ويُقتل، وأن يدخل نار جهنم ويعذب نفسه عذاباً أليماً، ثم يصير الإله ملعوناً بذلك الصليب، كل ذلك فعله الإله في زعم النصارى ليمحو خطيئة آدم فهل يعقل هذا في حق الله سبحانه وتعالى؟[1].

ولاشكَ أن هذا الاعتقاد به جهلٌ بالغ وفاضح، تنكره العقول السليمة والفطرة المستقيمة، والعلوم الراسخة التي مصدرها هدايات السماء من الوحي المعصوم الذي من عند الله عزَّ وجل، ومن الردود التي ذكرها العلماء في هذا الباب:

أ- ليس عند الله خطيئة موروثة:

ليس عند الله خطيئة تحتاج إلى التكفير عنها بصلب نبي أو ابن نبي، بل آمن المسلم أن كل إنسان مسؤول عمّا اقترفه ومحاسب عليه، والإنسان يولد مبرئاً من كل خطيئة ومن كل ذنب، وإنما يولد على الفطرة السوية مهيئاً لقبول الحق، ذلك أن الفطرة هادية إلى الخير والحق، فالإنسان يولد نظيفاً لا يحمل شيئاً من أوزار من سبقه، وإذا كان الإنسان لا يحمل وزر غيره، فإن غيره لا يحمل وزره، وإنما كل إنسان مسؤول عن عمله. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾[الأنعام: 164]. وإن الشرائع السماوية اتفقت على هذا المبدأ، قال تعالى:

[1] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، محمد علي، مرجع سابق، ص 545.

﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ [النجم:36-40].

وإن القرآن الكريم ليصور لنا أخذ البريء بالمذنب لا على أنه مضاد للشريعة فحسب، بل هو مع ذلك غير متوافق مع الفكرة الأساسية للعدالة الإنسانية[1]. قال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: 79].

ب – إذا كان آدم عليه السلام قد أخطأ فما ذنب ذريته ليتوارثوا خطيئته من بعده:

هذا مبدأ قد نهت عنه كل الشرائع السماوية، وهل من العدل أن يضار البشر جميعاً بسبب خطيئة ارتكبها آدم؟، وكيف رضي الله أن يخلد موسى وإبراهيم وسائر الأنبياء والمرسلين في النار بسبب خطيئة آدم؟

ثم ما بال المسيح يتحمل وزر وجريرة آدم، ويلقى ذلك العذاب الذي استغاث عنه استغاثة شديدة. ويا ليته المسيح فحسب، بل الإله في زعم النصارى، فالخطيئة لم تقتصر على النوع الإنساني بل تعدته إلى الإله فذاق مرارة العذاب ألواناً[2].

---

[1] الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، أحمد علي عجيبة، مرجع سابق، ص 757.

[2] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، محمد علي، مرجع سابق، ص 547.

إن أكل آدم من الشجرة لا يعد خطيئة يترتب عليها العذاب، ذلك أن آدم عليه السلام كان نبياً والأنبياء معصومون من الخطأ، وما وقع منه من الأكل من الشجرة إنما هو من قبيل حسنات الأبرار وسيئات المقربين التي لا يؤاخذ عليها آدم، على أن آدم أكل من الشجرة ناسياً، والله سبحانه أكرم من أن يؤاخذ عبداً على ذنب فعله ناسياً.

هذا إلى جانب أن آدم تاب، والتوبة تغسل الحوبة وتغفر الذنب والله سبحانه وتعالى قَبِلَ توبته فهو سبحانه وتعالى التّواب الرحيم، كل ذلك ينفي الذنب عن آدم وبالتالي ينفي وراثته حيث إنه لا يوجد ذنب، كما إن إهباط آدم إلى الأرض ليس عقوبة كما يتوهم النصارى، بل تكريماً وتشريفاً، حيث يباشر مهمة استخلافه في الأرض كما وعد الله من قبل في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

والله تعالى ما نزل بآدم إلى الأرض لينقصه ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله، وقد أنزله إلى الأرض قبل أن يخلقه لقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فما قال في الجنة ولا في السماء، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة وليس نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتشريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توافرت فيه العبوديتان استحقَّ أن يكون خليفة[1]. ويدل على ذلك أن القرآن الكريم أشار إلى أن إهباط آدم إلى الأرض كان بعد التوبة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ قَالَ ٱهۡبِطَا﴾ [طه: 122-123]. وهذا يدل على أن إهباط آدم إلى

[1] الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، عجيبة، مرجع سابق، ص 156

الأرض كان تكريماً وتشريفاً، إذ أن التوبة تمحو الذنوب فلا بدَّ أن يكون لإهباط آدم معنى آخر غير العقوبة على الذنب وأقرب المعاني إلى الاجتباء هو التكريم والتشريف، هذا إلى جانب أن نزول آدم إلى الأرض ليكون خليفة في الأرض وليحصل على معيشة بالكدِّ والتعب والمشقة، ولاشكَّ أن الثواب مع المشقة والتعب أكبر، وكذلك ثوابه على الأرض، وهذا يدلُ على إن إهباط آدم إلى الأرض ليحصل على ثواب عظيم ولحكمة بالغة أرادها الله في خلقه وتعمير ملكه[1].

إن طريق الخلاص من عذاب الله والوصول إلى مرضاته سبحانه وتعالى ثم دخول جناته الواسعة يحتاج إلى توبة صادقة، فعلى العبد أن يتوب عن كل إثم ويمتنع عن كل عمل يبعده عن الله عزَّ وجل وعليه أن يخلص النية في هذه التوبة.

قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُور رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: 39]، ويقول تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡا﴾ [مريم: 60]. وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّار لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: 82]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَٰلِحا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّاتِهِمۡ حَسَنَٰت وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورا رَّحِيما﴾ [الفرقان: 70].

وفي قوله: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰت﴾؛ جاء في تفسير الآية أن السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى

[1] المسيح عيسى ابن مريم، علي محمد الصلابي، ص 391

ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار يوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه، فإنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته[1].

إن طريق الجنة كما رسمه الله تعالى في القرآن الكريم يكون عبر الإيمان الصحيح بالله عز وجل، وأركان الإيمان الستة، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره والعمل الصالح من صلاة وزكاة وحج وصيام وصدقة واستغفار وجهد وثناء على الله عز وجل، حتى تكون الموازين ثقيلة برحمة الله تعالى وتوفيقه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ [القارعة: 6-7]. والعمل الصالح الذي يثقل موازين العبد يوم القيامة هو كل طاعة أمر الله بها سبحانه وتعالى بالامتثال لأوامره واجتناب نواهيه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [النساء: 13][2].

الرابع عشـــر: قال تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 38-39].

1- الهبوط:

شاء الله أن تنتهي أحداث قصة أدم بعدما تاب وأناب، وتاب الله عليه واصطفاه واجتباه وأمر الله بإهباط الثلاثة إلى الأرض: آدم وزوجه حواء وعدوّه إبليس، وقد

---

[1] إزهاق الباطل الرد على شبهات القمص زكريا بطرس، صلاح أبو السعود، دار الطيبة للطباعة الجيزة، ط1 /2009، ص 285.

[2] أبو السعود، المرجع نفسه، ص 286.

جاء ذكر الهبوط في آيات عديدة: قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِين﴾ [البقرة: 36]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُو وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِين﴾ [الأعراف: 24].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:123].

الهبوط: الأمر الإلهي بالنزول إلى الأرض، وقد أخبرت الآيات في سورة البقرة أن إبليس بوسوسته أزلَّ أدم وحواء إزلالاً فأخرجهما مما كانا فيه، من نعيم الجنة وخيراتهما والإزلال: هو الإسقاط، تقول: زَّلت قدم فلان أثناء السير: أيّ انحرفت قدمه فسقط. وتقول زلَّت به قدمه أي: سقط. وتقول: أزللت فلان، أي دفعته وأسقطته فزّل وسقط. فإبليس أزلَّ كُل من أدم وحواء أي: أسقطهما، وذلك عندما أكلا من الشجرة، وبذلك أخرجهما مما كانا فيه من نعيم الجنة. والله الحكيم قَدّر بقدرته أن يكون هبوط أدم إلى الأرض بعد أكله من الشجرة، ولذلك أهبط الله أدم وحواء إلى الأرض، وقال لهم: اهبطوا منها جميعا، وعندما ننظر في الأمر بالهبوط من الجنة إلى الأرض فإننا نجد فعل الأمر على حالتين:

الأولى: كان فيهما مسنداً إلى ضمير المثنى وذلك في سورة طه في قول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ﴾ [طه:123].

الثانية: كان فيهما مسنداً إلى واو الجماعة، وذلك في سورة البقرة وسورة الأعراف، في قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ﴾.

ويبدو أن الأمر في سورة طه كان موجهاً إلى آدم وإبليس: اهبطوا منها جميعاً على أن آدم هو أبو الإنس وإبليس أبو الجنّ فلما أهبطهما الله على الأرض انتشرَ من آدم الإنس وانتشر من إبليس الجن والله أعلم.

والأمر في سورة البقرة وسورة الأعراف كان موجهاً إلى الثلاثة الذين عرفناهم من القصة: آدم وزوجه حواء وإبليس، اهبطوا بعضكم لبعض عدو. وهكذا انتهت أحداث قضية آدم في الجنة، دار النعيم للمؤمنين وبدأت أحداث القسم الثاني من قصته وهو المتعلق بحياته على الأرض.

القسم الأول الذي جرت أحداثه ومشاهده في الجنة وهو المتعلق بمراحل خلقه: من تراب ثم من طين، ثم من طينٍ لازب، ثم حمأ مسنون، ثم من صلصل كالفخار، ونفخ الروح فيه، وسجود الملائكة له، وتفوقه في الامتحان على الملائكة، وخلق زوجه حواء له، و استمتاعه بالأكل حيث شاء من أشجار وثمار الجنة، عدا شجرة واحدة نُهيا عن الاقتراب منها، ووسوسة الشيطان لهما وحلفه اليمين لهما بصدقه في نصحهما، ونسيانهما وأكلهما من الشجرة وبدوُّ سوءاتهما لهما بعد الأكل مباشرة وشعورهما بالحياء، وتغطيتهما السوءات بورقِ الجنة ولوم الله لهما، ثم أمرهما بالهبوط من الجنة .

ويبدأ القسم الثاني من قصة آدم من لحظة هبوط الثلاثة إلى الأرض[1]، وقد تحدث القرطبي عن الهبوط في سورة البقرة، فقال: قلنا اهبطوا. كرّر الأمر على جهة التغليظ

---

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 166

وتأكيده، كما تقول لرجل: قُم قُم وقيل كرّر الأمر لما علق بكل أمر منهما حُكماً غير حكم الآخر، فعُلّق بالأوّل: العداوة والثاني: إثبات الهدى. وقيل: الهبوط الأول من الجنة إلى السماء، والثاني: من السماء إلى الأرض، وعلى هذا يكون فيه دليل على أن الجنة في السماء السابعة كما دلّ عليها حديث الإسراء[1].

2- أين هبط آدم وما هي حكمة الهبوط؟

أ- أين هبط آدم؟ وخروجه من الجنة يوم الجمعة:

أما المكان الذي هبط إليه آدم وحواء من الأرض فقد نقلت روايات عن تحديده، فقيل إنه هبط في الهند، وقيل إنه هبط في مكان بين مكة والطائف[2].

هل هبط على قمة إفرست من جبال الهملايا؟ والتي هي من أعلى القمم في العالم، أم بالشام؟ أم بالحجاز؟ أم بالصفا عند المسجد الحرام؟ وهل نزلت حواء معه أم في مكان آخر؟ هل هو جدة؟ وهل التقيا بعرفات أم بالمزدلفة؟ كل ذلك مما لايقين فيه ولا حجة في ترجيح قول على قول ولم يثبت حديث صحيح يحدد مكان هبوط الأبوين[3].

قال ابن كثير رحمه الله: وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهما، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها. ولو كان في

---

1 تفسير القرطبي، مرجع سابق، 368/1

2 قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص

3 علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 254

تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم ودنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله صلى الله عليه وسلم[1].

وأما خروجهم من الجنة فكان يوم الجمعة كما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم وفيه أُدخل الجنة، وفيه أخرج منها"[2]. وخروج آدم من الجنة خير كما يوحي به سياق الحديث، والحياة نعمة والعمر عطاء، وكيفما تحب الحياة تكون لك، ويوم الجمعة الذي خرج فيه آدم إلى الأرض هو يوم عيد المسلمين[3].

ونظراً لوجود الأحاديث الصحيحة التي تبين أن خلق آدم كان يوم الجمعة ودخوله الجنة كان يوم الجمعة وخروجه منها كان يوم الجمعة، فقد دلَّت بعض الأحاديث الصحيحة والآثار الواردة عن السلف من أن آدم خُلقَ في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة، فإن كان خروجه في نفس اليوم الذي خرج فيه، يترجح القول: إن آدم مكث ساعة من يوم الجمعة، وهي تعادل ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر من سنيّ الدنيا[4]. لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَة مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:47].

ومعلوم أن آخر ساعة من نهار يوم من أيام الآخرة، هو من الأيام التي يعدل

---

[1] قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 301. وانظر: تفسير ابن كثير، 207/2.

[2] رواه مسلم كتاب الجمعة، فضل يوم الجمعة رقم الحديث، 854.

[3] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 254.

[4] آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص 163.

اليوم الواحد منها ألف سنة من سنيننا إنما هي ساعة بعدَ مُضي إحدى عشر ساعة، وذلك ساعة من اثنتي عشرة ساعة وهي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر من سنيننا[1].

وهذا ما رجحه الطبري في تاريخه، وجاء في الكامل لابن الأثير: إن الله أهبط آدم قبل غروب الشمس من ذلك اليوم الذي خلق فيه وهو يوم الجمعة مع زوجته حواء من السماء. وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس: أن آدم أُسكِن الجنة وأُخرِجَ منها في آخر ساعة، وقال الحاكم: حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه[2].

أما إن كان خروج آدم في يوم جمعة آخر غير الجمعة التي خلق فيها، فتكون المدة التي مكثَ آدم في الجنة حينئذ في علم الله، ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بهما ونتوقف عن تعيينها لأنه ضرب من الخيال وضرب في المحال[3].

ب- ما هي الحكمة من الهبوط؟

إن الله عز وجل قضاؤه وقدره وتدبيره حِكَمٌ كلها، سبحانه لا يليق به العبث ولا الظلم فهو العدل الحكيم الخبير، وقد تحدث ابن القيم (رحمه الله تعالى) في كتابه "شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل" عن الحكمة من نزول آدم إلى الأرض، فقال: كم لله سبحانه في ذلك من حكمة، وكم فيه من نعمة ومصلحة تعجز العقول عن معرفتها على التفصيل، ولو استفرغت قواها كلها في

---

[1] أحمد جابر، المرجع نفسه، ص 161.

[2] آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، المرجع السابق، ص 163.

[3] أحمد جابر، المرجع السابق، ص 163.

معرفة ذلك، وإهباط آدم وإخراجه من الجنة، كان نفس كماله ليعود إليها على أحسن أحواله وهو سبحانه خلقه ليستعمره وذريته في الأرض ويجعلهم خلفاء يخلف بعضهم بعضاً، فخلقهم سبحانه ليأمرهم وينهاهم ويبتليهم، وليست الجنةُ دار ابتلاءٍ وتكليف، فأخرج الأبوين إلى الدار التي خلقوا منهما وفيها ليتزودوا منها إلى الدار التي خلقوا لها فإذا ذاقوا تعب دار التكليف ونَصبِها وآذاها عرفوا قدر تلك الدار وشرفها وفضلها.

ومن الحِكم في ذلك أنه سبحانه أراد أن يتخذ من ذرية آدم عليه السلام رُسلاً وأنبياء وشهداء يحبهم ويحبونه، وينزل عليهم كتبه، ويعهد عليهم عهده، ويستعبدهم له في السراء والضراء، ويؤثرون محبته ومرضاته على شهواتهم. وكذلك من الحِكم اقتضاء أسماء الله الحسنى لمسمياتها ومتعلقاتها، كالغفورِ الرحيم التَّواب، العفو، المنتقم، الخافض الرافع، المعز المذل، المحيي، المميت، الوارث، ولابد من ظهور أثر هذه الأسماء، ووجود ما يتعلق به، فاقتضت حكمته أن أَنزلَ الأبوين من الجنة ليظهر مقتضى أسمائه وصفاته فيهما وفي ذريتهما، وأيضا فإنهم أنزلوا إلى دارٍ يكون إيمانهم فيها تاماً، فإنَّ الإيمان قول وعمل وجهاد ذو صبر واحتمال وهذا كله يكون في دار الامتحان لا في جنةِ النَّعيم، وأيضاً فإنه سبحانه سبق حكمه وحكمته بأن يجعل في الأرض خليفة وأعلمَ بذلك ملائكته فهو سبحانه قدَّر أن يكون هذا الخليفة وذريته في الأرض قبل خلقهِ، لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة.

وأيضاً فإنه سبحانه وتعالى أرادَ أن يظهر للملائكة ما خفيَ عليهم من شأن من

كانوا يعظِّمونه ويجلونه ولا يعرفون ما في نفسه من الكبرِ والحسدِ والشر، فذلك الخير وهذا الشر كامن في نفوسٍ لا يعلمونها، فلابُدَّ من إخراجه وإبرازه لكي تُعلَم حكمة أحكم الحاكمين في معاملة كل منهما بما يليق به[1].

3- آدم مهيأ لعمارة الأرض:

هيأ الله آدم للأرض قبلَ أن يهبط إليها، فإنه لما كانت الحياة على هذا الكوكب الجديد كوكب الأرض تقتضي معرفة أحواله وماضيه، وكيفية التعامل معه وأساليب العيش والأكل والشرب والزراعة والعمل، والطبخ وطرائقه، والسعي في الأرض بما يقيم حياة الإنسان، ويحقق مبدأ الخلافة فيها وعمارتها، فقد هيأ الله سبحانه وتعالى لآدم ذلك كله. وكان أول ذلك ومبدأه تعليمه أسماء الأشياء الواردة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 31]. ويدخل من ضمن المقصود بذلك أسماء الأشياء والمخلوقات وأسماء الأفعال كالقيام والقعود والحركة والسكون وغير ذلك وكان ذلك إشارة واضحة إلى أن آدم هو المنوط به عمارة الأرض والإقامة فيها. جاء في تفسير ابن كثير: عن أبي موسى قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علَّمه صنعة كل شيء، وزوده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير[2].

---

[1] شفاء العليل، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، 2/661-665.

[2] قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص303.

إن آدم عليه السلام هو أصل البشرية الذي بثَّ الله منه الناس، فتكاثرت ذريته وانتشرت في الأرض كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡس وَٰحِدَة وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالا كَثِيرا وَنِسَآء﴾ [النساء: 1]. وذرأ منهما–أي من آدم وحواء–رجالاً كثيراً ونساء ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وألسنتهم وألوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر. وهذا يؤكد حقيقة الوجود البشري على الأرض بخلاف ما تفتريه النظريات الغربية الإلحادية التي تنفي هذه البداية، وتنطلق من مادية الكون، ومبدأ الصدفة الساقط عملياً وواقعياً، والمتناقض مع العقل والفطرة، لاسيما نظرية دارون التي تفترض تسلسل الخلق بطريقة تعسفية متناقضة[1].

إن الذين يقولون إن الخلق تمَّ صدفة، ويتم بالصدفة هم جاهلون بحقيقة العلم، وفي جوهر الإيمان، أيُّ صدفة تلك التي تملك القدرة على خلق بويضة من مبيض المرأة تنزل إلى الرحم في وقت لا يعلمه إلا الله وحده؟

ومن ثم يأتيها الإخصاب من حيوان منوي خلقه الله تعالى ضمن ملايين الحيوانات المنوية في الكيس الحامل لهذه الحيوانات بالجهاز التناسلي للرجل ثم يحدث الإخصاب وتكوين العلقة؛ فالمضغة وكساء العظم لحماً، ثم إنشاء الإنسان، ليولد ليكون من الميلاد ذكراً أو أنثى، ومن ثم شعوباً وقبائل، لذلك لا يمكن أن تكون صدفة، لأن الصدف لا نظام لها. وبالنسبة لخلق الإنسان، فله نظام حكيم وضعه

[1] قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 304.

إله قادر خالق قدر لكل خلق زماناً ومكاناً وهدفاً. إنه يخلق على هدى وعلى قدر، إن الإحصاء المادي هو دليل إيمان بالله تعالى إن التعداد السكاني يزداد، ولو أردنا معرفة تعداد سكان الأرض في القرنِ السابق لوجدناهم أقل بكثير من زماننا هذا، ولو عدنا إلى الوراء لأكثر من قرن لوجدنا التعداد ينقص أكثر، ولو استمرت عملية قياس السكان بالقياس إلى الأزمان الماضية فلا بدَّ أن نصل إلى آدم وحواء ليثبت صدق قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49]، هذا من أمر خلق آدم وحواء[1].

4- الأرض منزلنا الكبير:

الأرض كل الأرض لبني الإنسان ولذرية آدم عليه السلام، انتقلوا فيها ومشوا في مناكبها وضربوا طولاً وعرضاً حيث شاءوا، ولكنا نرى الإنسان ينحرف عن هدايات الله عز وجل، يظلم ويفسد ويضع الحدود (قديماً وحديثاً).

لماذا أقمنا نحن البشر السور الحديدي الذي حرم مئات الملايين في الاتحاد السوفييتي سابقاً مثلاً من الضرب في الأرض وقيَّد حريتهم؟

لماذا سكتنا عن الجدار العازل الذي قسم الأسرة الفلسطينية الواحدة وحرم على أفرادها أن يروا بعضهم وأن يعيشوا بسلام؟

لماذا صنعنا التعقيدات في السفر والتنقل والترحال؟ ولماذا عوقنا اتصال البشر

---

[1] قصص الأنبياء، الشعراوي، مرجع سابق، 10/1.

بعضهم ببعض، إلا ما كان تنظيماً تقتضيه المصلحة الظاهرة والضرورة القاهرة!؟

الأرض ليست لنا وحدنا:

لنا شركاء فيها ذوي أرواح تتحرك وتحس مثلنا وتحيا وتموت وتتضمنها معنا بعض الأحكام الفقهية والتشريعات الربانية، حين هبط آدم كانت الطيور والحيوانات والديناصورات، والله أعلم، قد سبقته إلى الأرض، وقد عرفها وعرف أسمائها وتعامل معها وفق توجيه الله له، وعرف تحريم إيذائها أو التحريش بينها أو استهدافها لغير حاجة ومن بعده عاتب الله أحد أنبيائه على قتل نملة بوحي من السماء[1]، وجعل في شريعة خاتم الرسل أن المرء قد يدخل الجنة في كلبٍ سقاه أو يدخل النار في هرٍ حبسه[2].

كيف يمكن تغيير مشاعري الجامدة نحو الأرض التي أسكنها؟ وإني أحب بيتي وسكني الخاص، وكيف لي أن لا أحب أرضي!؟ ورسول الله يقول: أحدٌ جبل نحبه ويحبنا[3]، هو شعور دفءٍ وحميمة حتى مع الصخر.

كان عمر (رضي الله عنه) يُقَبّلَ الحجر الأسود، ويخاطبه فيقول: إني أعلم أنك حجر لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) يُقبلك ما

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، الرقم 3319، كتاب بدء الخلق باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، رواه أبي هريرة.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، رقم 2242، كتاب السلام باب تحريم قتل الهرة.

[3] علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص 262.

قبلتك[1].

كيف نضفي شيء من الروح والوجدان على أرضنا ومنزلنا الكبير ونحقق العبودية الشاملة لله عز وجل فيها قبل الرحيل منها؟

أينما كنت تذَّكر أنك في مملكتك وأنَّ من حولك يمتُّون إليك بسبب ونسب فبادر بالوصل والابتسامة، والكلمة الطيبة والعمل الطوعي، والإحسان ولو بالقليل، كما فعل موسى عليه السلام حين ورَدَ ماء مدين ولا تحجب عنهم هدىً دلك الله عليه، وخيراً أرشدك الله إليه، فوالله لأن يهدي بك الله أحد لهو خير لك من الدنيا وما فيها، ومن أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعا[2].

حياتنا في منزلنا الكبير -الأرض-فيها الحرث والبناء والإعمار والصنيعة والتناسل والمعرفة، منحنا الله عز وجل أعماراً يتذكر فيها من تذّكر وجعلَ للفرد أجلاً وللأمة والدولة أجلاً لا يتقدم ولا يتأخر، فنحن البشر أساس الحضارة والتشييد والحضارة تقوم لتنفعنا وتعطينا وتُسَّهل عيشنا لا لتقتلنا وتفنينا.

غرس الله في فطرتنا حب منزلنا الكبير الأرض وحب الحياة، ورزقنا القدرة على التعلم وكسب المعرفة ومقاسات التجربة وتحصيل الخبرة. وطلب الله من الإنسان الإعمار والبناء على سبيل الوجوب، كبناء المساجد والمرافق الضرورية ومالا يتحقق للإنسان العيش والخصوصية والستر إلا به، أو على سبيل الاستحباب فيما يسهل على الناس

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه رقم الحديث 1270 كتاب الحج باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف

[2] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 263

تحقيق مصالحهم الدنيوية والأخروية من الأبنية والطرقات والجسور وسواها. أو على الإباحة ككل بناء لا نص على تحريمه أو إسراف فيه.

طلب منا الله عز وجل الإعمار المادي الذي يكفل حق الطريق حساً ومعنىً، وحق الخصوصية ألا تنتهك، وحق الصحة، كما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمة بجوار المسجد لتمريض سعد بن معاذ[1]. وقد بينت الشريعة الحقوق المتعددة، ومنها:

- حق الجزية: حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه.

- حق الأمن: من أصبح أمناً في سربه معافى في جسده عنده طعام يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها.

- حق الجوار: مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.

- حق الجمال: حتى يحاكي الإنسان في الأرض صورة الجمال الذي رآه آدم في الجنة وحكاه الوحي من الخضرة والماء والغرف وغيرها.

- حق العلم: بما هو أجمل وأكمل وأوسع وأعظم والعلم موهبة زوَّد الله بها آدم عليه السلام، لذا خاطبه الشيطان وأغراه بالخلود والملك العريض.

- حق العدل بين الناس: فالأرض وُضعت للأنام، وتسلط الجبارين المتكبرين على مواقعها الجميلة، وتركهم الضعفاء للعشوائيات والبلدان الفقيرة والنامية مع نهب ثرواتها وتركها فريسة للمرض والجوع والجهل، هو مما نها عنه الله وأنكره عليهم، فقال

[1] كتاب الصلاة، باب الخيمة في المسجد للمرضى وغيره، صحيح البخاري، رقم 463.

تعالى: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [إبراهيم: 45].

المؤمن متنقل بين فضل الله في الضرب في الأرض وبين رحمته في التعبد والخشوع، وهو يقول في دعائه: ﴿يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَة وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَة وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 201]. وهو مؤتمن على هذا الكوكب البهي حفاظاً على سلامته وأمنه وعلى جماله وزينته وعلى نظافته وطيبه ولم لا وهو صادر عن الرب الكريم[1].

5- أقدم الوصايا في تاريخ البشرية:

إن أهم إيحاءات قصة آدم عليه السلام هي القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الإسلامي الرباني الذي يرسمه الله للإنسان حتى يسير على هداه في رحلة الأرض، والذي يتضح في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:38-39]؛

إنها كانت هذه وصية الله تعالى لآدم وزوجه حين أخرجهما من الجنة وأهبطهما إلى الأرض. وقد جاء في سورة طه قوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه:

[1] علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص 268.

.[123

لقد أعلنت الخصومة في الملأ الأعلى بين آدم وذريته وبين إبليس وقبيله وشاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسلهم بالهدى قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم[1]. وقد قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَة ضَنكا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرا، قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه:123-127].

كانت هذه وصية الله لأبوي البشر حين أهبطهما إلى الأرض، فهي من أقدم الوصايا لذلك كانت خليقة بأن تكون سنة كونية لا يتخلف مدلولها عن أحد من خلقه في أي حال من الأحوال، والقرآن الكريم مليء بالسنن الكونية[2] التي لا تتبدل ولا تتحول، قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43]. فهذه السنن ماضية، فمن اتبع هدى الله وآمن برسله وكتبه واهتدى بهم وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب والامتثال للأمر والاجتناب للنهي، فقد اهتدى وأفلح، قال تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: 123].

---

[1] قصص الرحمن في ظلال القرآن، أحمد فائز الحمصي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 579/1.

[2] الحمصي، المرجع السابق، ص 579/1.

لقد ترتب على اتباع هذه السنة أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن والضلال والشقاء.

وبالنسبة لنفي الخوف والحزن فإن الفرق بينهما: أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظراً أحدث الخوف. فنفاهما عمن اتبع هداه وإذا انتفيا ثبت ضدهما وهو الهدى والسعادة فمن اتبع هداه حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف والحزن والضلال والشقاء، فحصل له المرغوب واندفع عنه المرهوب[1].

إن الهُدى بالأنبياء والرسل وما يبلغونه عن الله ويبينوه للناس يجعل اتباعهم سعادة ومخالفتهم شقاء، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه:124].

6- الصراع بين الحق والباطل:

إن الناس في موقفهم من هدى الله فريقان:

- الفريق الأول: المؤمنون الصالحون، الذين اتبعوا هدى الله، وصدّقوا رسله، واستقاموا على طاعة الله فهؤلاء سعداء في الدنيا لا يضل أحدهم ولا يشقى وهم في أمان الله لايخافون ولا يحزنون. قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه:123]. ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ

[1] تفسير السعدي، مرجع سابق، 1/76-77.

هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُون﴾ [البقرة:38].

– الفريق الثاني: الكافرون المكذبون بآيات الله الذين أعرضوا عن ذكر الله ورفضوا هداه، وحاربوا رسله واتبعوا الشيطان، هؤلاء خاسرون هالكون، وفي الأخرة معذبون بالنار وهم الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:124]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِاٰيَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:39]؛ فالذين يقودون المؤمنين المهتدين هم الأنبياء والرسل ثم اتباع الرسل من العلماء والدعاة، بينما يقود الكافرين المكذبين إبليس وأعوانه من مردة الشياطين الإنس والجن.

إن هذا الأمر يؤكد حقيقة مطردة، وهي الصراع بين الحق والباطل، والمواجهة بين الخير والشر، هذا الصراع الذي بدأ منذ المشاهد الأولى من قصة آدم التي حدثت في الجنة، عندما رفض إبليس السجود لآدم، ثم زيَّن له الأكل من الشجرة وقد كان آدم أبو البشر يمثل جانب الحق، وكان إبليس يمثل جانب الباطل.

وسيبقى الصراع بين الحق والباطل قوياً ممتداً مستمراً حتى قيام الساعة، وسيبقى الناس منقسمون في هذا الصراع إلى قسمين: أصحاب الحق وأصحاب الباطل.

وأصحاب الحق هم حزب الله الذين قال الله عنهم: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْما يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوح مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰت تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ

حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[المجادلة:22].

وأصحاب الباطل هم حزب الشيطان الذين قال الله عنهم: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة:19].

والسعيد الموفق هو الذي يأخذ هدى الله ويتبعه، وينحاز إلى الحق ويكون من حزب الله من المفلحين والخاسر الهالك هو الذي يرفض هدى الله ويكفر بالحق، وينحاز إلى حزب الشيطان من الخاسرين[1].

7- النار:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:39].

وإن خلق الله النار وأوصدَ أبوابها على العاصين الزائغين الضالين، فمن أطاع دخل الجنة برحمة الله، ومن عصى فمأواه النار بعدل الله، فكل كاسب ثمرة كسبه، ولكل عامل جزاء عمله، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [المؤمنون:115]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:7-8].

أ- النار موجودة الآن:

---

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 174

النار موجودة الآن كما تدل على ذلك الآيات والأحاديث والآثار عن الصحابة رضوان الله عليهم، وقد بوّب البخاري في صحيحه، فقال: باب صفة النار وأنّها مخلوقة وأورد في ذلك جمعاً من الآيات والأحاديث[1]. ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: 5-6]، فهي غير خامدة أعدّها الله للعصاة[2]. وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:24]، ﴿أعدت﴾؛ رصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله، وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على أن النار موجودة، وذلك لقوله تعالى "أعدت" أيّ: أرصدت وهُيئت والأحاديث في ذلك كثيرة منها قوله الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) هذا حجر ألقي به في شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها وهو عند مسلم. وحديث صلاة الكسوف وليلى الإسراء وغير ذلك من الأحاديث متواترة المعنى[3].

ب-مكانها:

ورد أن جهنم في الأرض السابعة كما روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "الجنة في السماء السابعة، ويجعلها الله حيث يشاء يوم القيامة وجهنم في الأرض السابعة". أخرجه أبو نعيم. وخرج ابن منده عن مجاهد، قال: قلت لابن عباس:

[1] الفتح، 379/6. وانظر: قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 227

[2] تفسير القرطبي، مرجع سابق، 20/ 185.

[3] قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 228.

"أين الجنة؟ قال: فوق سبع سماوات قلت أين النار؟ قال: تحت سبعة أبحر مطبقة"[1].

واستدل بعض العلماء بهذا بأن الله أخبر أن الكفار يعرضون على النار غدواً وعشياً يعني في عالم البرزخ، قال تعالى في قوم فرعون في سورة غافر: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ (٤٥) ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر:45-46].

وأخبر الله سبحانه أنه لا تفتح لهم أبواب السماء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَاد وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاش وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 40-41]، وهذا دالٌ على أنَّ النار في الأرض[2]. وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّين﴾[المطففين:7]، وفي حديث البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم في صفة قبض الروح قال في روح الكافر: حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون فلا يفتح له، ثمَّ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[الأعراف: 40]. قال: يقول الله تعالى: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى قال: فتطرح روحه طرحاً[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص 229.

[2] قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 229.

[3] أخرجه الإمام أحمد وغيره. قصة الخلق، الخزعان، ص 229.

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي صلى الله عليه وسلم في صفة قبض الروح وقال في روح الكافر: فتخرج كأنتن ريح جيفة، فينطلقون بها إلى باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح، كلما أتو على أرض قالوا ذلك، حتى يأتوا بها إلى أرواح الكفار[1]. فهذه الأدلة وأمثالها تدل على أن النار في الأرض أو في الأسفل وليست في السماء، بخلاف الجنة التي ثبت أنها في السماء، وأن سقفها عرش الرحمن[2].

ت-النار دركات:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145] والدرك إذا كان بعضها أسفل من بعض والدرج إذا كان بعضها فوق بعض[3]. ودرجات الجنة تذهب علواً ودركات النار تذهب سفولاً[4].

ج-أبواب النار:

إن النار لها سبعة أبواب، قال تعالى: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ [الحجر:44]، وهي أبواب عذاب بحسب الذنوب والمعاصي، كما أن أبواب الجنة بحسب الأعمال الصالحة[5].

وقد كتب الله لكل باب منها من أتباع إبليس يدخلونها لا محيد لهم عنه، أجارنا

---

[1] أخرجه ابن حيان والحاكم وغيرهما، التخويف من النار لابن رجب ص45-46

[2] قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 229.

[3] قصة الخلق، الخزعان، المرجع السابق، ص 230.

[4] التخويف من النار، ابن رجب الحنبلي، مكتبة دار البيان 1988م، ص 50.

[5] قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 229.

الله منها، وكل يدخل من باب بحسب عمله ويستقر في درك بقدر عمله.

وقال عكرمة: سبعة أبواب سبعة أطباق، وقال ابن جرير: سبعة أبواب أولها جهنم ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية[1].

كما أن جهنم لها قعرٌ ودركٌ أسفل، فالدرك بينته الآية السابقة التي تحدثت عن المنافقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145]. ولها قعر فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فسمعنا وجبة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أتدرون ما هذا؟ فقلنا الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفاً، فالآن انتهى إلى قعرها[2].

ح-أقسام جهنم:

مما ورد في خلق جهنم وعذابها أنها قسمان ونوعان من العذاب، قسم ونوع من النار الموقدة بحرِّها ولهيبها وشررها ودخانها، وقسم ونوع هو الزمهرير الشديد البرد، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾ [ص: 55-58]. وقال ابن كثير: أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حرّه، وأما الغساق فهو: ضده وهو البارد الذي لايستطاع من شدة برده المؤلم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾

---

[1] تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 5/551-552.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه. وانظر: قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص231.

[ص:58]، أيّ وأشياء من هذا القبيل: الشيء وضده يعاقبون بها[1].

خ-النار محكمة الإغلاق:

وإمعاناً في شدة عذاب النار نعوذ بالله منها فقد جعلها الله سبحانه مغلقة محكمة الإغلاق، مؤصدة مطبقة قال تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَار مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ [البلد:20]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَة﴾[الهمزة:8].

قال مجاهد: هي بلغة قريش: أصد الباب أغلقه[2]. وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: 29]؛ السرادق: كل ما أحاط بشيء[3].

د-صفات النار:

النار كأنها حي من الأحياء، فوصفها الله عز وجل بأنها تطلع على الأفئدة، قال تعالى: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ [الهمزة:7]. وقيل معنى تطلع على الأفئدة أيّ: تعلم مقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب[4]. وذكر القرطبي في تفسيره: وتأكل النار جميع ما في أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد، خُلقوا خلقاً جديداً، فرجعت تأكلهم[5]. ووصفه النار بأنها كما قال الله تعالى: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾

---

[1] تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 41/4.

[2] التخويف من النار، ابن رجب، مرجع سابق، ص60

[3] قصة الخلق، الخزعان، مرجع سابق، ص 233

[4] الخزعان، المرجع السابق، ص 234.

[5] الخزعان، المرجع نفسه، ص 235.

[المعارج:17]. وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۢ بَعِيد سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظا وَزَفِيرا﴾[الفرقان:12].

فوصفها بهذا فلا يبعد أن توصف بالعلم، أي تعلم مايستحقه كل واحد من العذاب، فتعذبه بقدر ذلك، وقد وصف الله عز وجل النار بأوصاف عظيمة مهولة رهيبة تنخلع لها القلوب وترتعد لتصورها الأبدان، ووصفها الله بأنها أشد حراً من نار الدنيا بقوله سبحانه عن حر الصيف الذي تثاقل المنافقون أن يخرجوا فيه مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الجهاد في غزوة تبوك، فقال عز وجل: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾[التوبة: 81]. ووصفها بأنها نارٌ حامية بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ [القارعة:10-11]. وبأنها تتلظى في قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:14]. أي: تلتهب وتتوقد. وبأنها ذات لهب في قوله: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارا ذَاتَ لَهَب﴾ [المسد:3]. أيّ: ذات لهب وشرر وإحراق شديد[1]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم. قيل: يارسول الله، إن كانت لكافية، قال: فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهنّ مثل حرّها[2]. وقد وصفها الله بالنار الكبرى في قوله: ﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ [الأعلى:12]؛ أيّ العظمى

[1] قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 235.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، رقم 3118، كتاب بدء الخلق.

وهي السفلى من أطباق النار وعن الحسن: الكبرى نار جهنم، والصغرى: نار الدنيا[1].

ذ-وقود النار:

أما وقود النار فليس حطباً وفحماً، وإنما وقودها الناس والحجارة، فقال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظ شِدَاد لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:6]. والمراد بالحجارة هنا: حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة، وهي أشد الأحجار حراً إذا حميت، أجارنا الله منها. وعن عبد الله بن مسعود قال: هي حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السماوات والأرض في السماء الدنيا، يعدها للكافرين وقيل: المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:98]. وذلك أن النار إذا أضرمت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد لحرّها وأقوى لسعيرها، ولاسيما على ما ذكره السلف من أنها حجارة من كبريت، خلقها الله يوم خلق السماوات والأرض في السماء الدنيا يعدها للكافرين، وقيل المراد بها: حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله عز وجل.

ر-الشرر يبعث على الهول:

أما شرر النار، فليس كشرر نار الدنيا، بل هو من الكبر والضخامة بما يبعث

---

[1] تفسير القرطبي، مرجع سابق، 21/20.

على الهول والرعب في النفوس تأمل قوله عز وجل: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَر كَٱلْقَصْرِ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَت صُفْر﴾ [المرسلات: 32]. وقد قال ابن كثير: يتطاير الشرر من لهبها كالقصر، وقال ابن مسعود: كالحصون، وقال ابن عباس: يعني أصول الشجر. كأنه جمالات صفر: أيّ كالإبل السود، وعن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: جمالات صفر: يعني حبال السفن أو قطع النحاس[1].

فسبحان الله كم احتوى هذا الوصف من الهول لأقل شيء من النار في العادة حجماً وحرارة، فالشرر أقل مافي النار من حيث الحجم وأقله حرارة، حيث حرارته كلسع الحشرات الصغيرة، ومع ذلك فهو في نار جهنم مثل الحصون، وفي السواد مثل الإبل السود، نسأل الله السلامة والعافية. وأما دخانه فلهيب مُحرق وسواد خانق، وصفه الله سبحانه وتعالى بأسوأ الأوصاف وأكثرها كآبة قال تعالى: ﴿وَظِلّ مِّن يَحْمُوم لَّا بَارِد وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: 43-44]. وقال سبحانه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَب، لَّا ظَلِيل وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: 30-31]. إذا، هذا الظل هو ظل الدخان، يبدوا كالظل لكنه عذاب محرق كريه، وقال ابن عباس: ظل من دخان. وعن مجاهد: ظل من دخان جهنم وهو السموم، لابارد المدخل، ولاكريم المنظر، وقال أيضاً: الظل ذي الثلاث شعب هو: دخان جهنم: اللهب الأخضر والأسود والأصفر الذي يعلو النار إذا أوقدت[2].

---

[1] تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 460/4.

[2] قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 237.

ز-ملائكة النار:

اختار الله للنار ملائكة غلاظاً هيئتهم، شداداً في قوتهم، قال تعالى: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظ شِدَاد لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:6]. فمصير الذين كفروا وكذبوا بآيات الله النار ويصبحوا من أصحابها، وقد فَصَّل الله عز وجل حديثه عن النار في كتابه العزيز، وماذكرته عن النار إلا القليل من كثير من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

8- ماعلاقة القدر بآدم عليه السلام؟

هذه القصة تكشف عن ذلك: فقد سأل موسى ربه: يا رب أرنا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة، فأراه الله آدم، فقال: أنت أبونا آدم؟ فقال له آدم: نعم، قال: أنت الذي نفخ الله فيك من روحه؟ وعلَّمك الأسماء كلها وأمر الملائكة فسجدوا لك؟ قال: نعم، قال: فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟

فقال له آدم: ومن أنت؟ قال: أنا موسى، قال: أنت نبيُّ بني إسرائيل الذي كلمك الله من وراء حجاب لم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟ قال: نعم قال: أفما وجدت أن ذلك كان في كتاب قبل أن أُخلق؟ قال: نعم، قال: فبم تلومني في شيء سبق من الله تعالى فيه القضاء قبلي؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند ذلك: فحجّ آدم موسى، فحجّ آدم موسى[1].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه رقم، 3409، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى.

كانت حجة آدم (عليه السلام) أغلب وأقوى، ولعل قوة الحجة التي قالها آدم مبنية على:

أ-أن الكلام كان في أمر قد مضى وانقضى: فلا سبيل إلى رده فهي مصيبة وقعت وليس أمام العبد إلا أن يرضى ويسلم، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:11].

ب-أنه ذنب قد تاب منه آدم وأناب وقبل الله توبته: فلا سبيل إلى معاتبته وتوبيخه وهو بعد التوبة خير منه قبل الذنب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له. وهذا يكون في المصائب ويكون في الذنوب لمن تاب منها[1].

ج-أن الخروج من الجنة وقع لآدم وحواء فحسب، وأما موسى وسائر ذرية آدم فلم يكونوا في الجنة أصلاً.

ح-أن هبوط آدم إلى الأرض هو المقصود من خلقه، قال تعالى: ﴿نِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وليس عقاباً محضاً، إنما هو سبب مكتوب، والإهباط إلى الأرض والاستخلاف هو من صنع الله وقدره وله الحكمة في ذلك.

الإنسان مسؤول عن أعماله الإرادية الاختيارية والظروف والبيئة والجينات وسائر المؤثرات لها اعتبار في تعاظم المسؤولية، ولا تلغى التبعية الدنيوية القانونية ولا الأخروية

---

[1] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 218

المترتبة على تصرفاته[1].

9- نبوة آدم عليه السلام ورسالته:

إن المستعرض للآيات التي وردت في قصة آدم (عليه السلام) يجد فيها أن الله نادى آدم غير مرة، وكلمه بلا واسطة وعلمه كل الأسماء -وهو في الجنة-ونهاه من أكل تلك الشجرة وحذَّره فيها من إبليس وعداوته له، وبعد اقتراف الخطيئة بادر بالتوبة بإيحاء من الله، فنادى هو وزوجه ربهما طالبين منه المغفرة والصفح وهذا وحده كاف في إثبات نبوته عليه السلام وهو في الجنة، كان نبياً يعمل فيها بتوجيهات الله ثم بعد إخراجه من الجنة اختاره الله رسولاً يبلغ الرسالة إلى ذريته. ومن الأدلة في ذلك:

1-قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡض وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 33-34]. والاصطفاء هو: الاختيار والاجتباء وهو في اصطلاح القرآن الكريم: النبوة والرسالة.

2- قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [ص: 42]. ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِير﴾ [الحج: 75]. وقد أجمعوا على أنَّ المراد بهذا الاصطفاء هو: النبوة وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل

[1] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 217

عمران:33]. يتضح عطف نوح عليه السلام المجمع على كونه من أولي العزم من الرسل على آدم في الاصطفاء دليل على أنَّ آدم أيضاًمن المرسلين، وتخصيص آدم عليه السلام بالذكر هنا لأنه أبو البشر ومنشأ النبوة، فكما أنه أبو البشر بالإجماع كذلك هو أبو الأنبياء. روى أبو حاتم وابن جرير عنه بأسانيد صحيحة عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:33]، أنه قال: فضلّهم الله على العالمين بالنبوة على الناس كلهم.كانوا هم الأنبياء الأنقياء المصطفين لربهم[1].

3- ومن الأدلة على نبوة آدم عليه السلام قوله تعالى في سورة طه: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: 122]. فالاجتباء هنا: هو اختياره نبياً ورسولاً وليس معناه اجتباه بالتوبة كما قاله بعض المفسرين، لأن الله تعالى قد غاير بين التوبة والاجتباء هنا بعطف أحدهما على الآخر، والعطف يقتضي المغايرة والمعنى أن آدم أدركته رحمة الله بعد أن عصاه، فاصطفاه للرسالة فقبل الله توبته وهداه إلى الصراط المستقيم.

4- من الأدلة على نبوة آدم عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وسلم لما عُرِج به إلى السماوات العلا مرَّ على كل سماء، وفي كل سماء على نبي من الأنبياء فكان من بين الممرور بهم آدم في السماء الدنيا ولم يمر في تلك الرحلة على غير الأنبياء، فدل على أن أدم عليه السلام من هؤلاء الأنبياء، بل ومن طليعتهم عليهم السلام

---

[1] تفسير القرطبي، مرجع سابق، 6 /327.

حيث ابتدأت به الزيارة قبل غيره من الأنبياء لكونه أبا البشر وأول الأنبياء[1].

5-من الأدلة كذلك على نبوة آدم عليه السلام، أن الناس يوم القيامة في المحشر يستشفعون بالأنبياء إلى الله فيأتون آدم، ثم نوحاً، ثمَ إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمد عليه الصلاة والسلام والقاسم المشترك بين هؤلاء المستشفع بهم هو كونهم جميعاً من الأنبياء[2].

6-من الأدلة على نبوة آدم عليه السلام قصة التيه حين اختلف ولداه في أمر أختهما فتقرب كل منها بقربانٍ إلى الله، كما ثبت في قوله تعالى: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾ [المائدة: 27]. وفي هذا دليل على أنه كان عندهما شرع من الله تعالى قد علماه من أبيهما آدم، أخبرهما بأن قبول القربان من أحد الخصمين، دليل على أحقيته في القضية. فقد قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:27]. وهذ من الغيب الذي لايُعلم إلا بوحي من الله[3].

وأما كون آدم نبياً بالإجماع فثابت بلا مرية، ومنقول بلا خلاف وفوق ذلك هو من الخمسة والعشرين المذكورين في كتاب الله تعالى، وممن قصَّ الله علينا أخبارهم، وقد اتفقت طوائف المسلمين على عدِّ آدم عليه السلام من الأنبياء والمرسلين، فهذه كتبهم في العقيدة المعنية في هذا الموضوع طافحة بذكر ذلك، نقل خلفهم عن

---

[1] قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 91.

[2] أبو بكر، المرجع السابق، ص 92.

[3] قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 92.

سلفهم، ولاحقهم عن سابقهم في كل العصور وفي كل الأمصار، وقد دلَّ على ذلك قبل ذلك، كما تقدم كتاب الله بصريح العبارات والسنة النبوية بوضوح الدلالات[1].

9-آدم نبي عليه السلام ورسول بالعقل:

إن الله تعالى قد خلق الإنس والجن لعبادته، وهي الغاية من خلقهم، وآدم عليه السلام ليس هو من البشر فحسب، بل هو أبو البشر كما تقدم، إذن، فلابد أن يكون محققاً لتلك الغاية التي من أجلها خُلق في نفسه أولاً، ثم في ذريته ثانياً فتتوجه إليه مكالبته بها فور تأهله لها، ومعلوم أنه ليس باستطاعته أن يعبد الله دون إذن من الله في نوعية تلك العبادة وكيفيتها، إذ لا يصح من عبد الله أن يعبد الله كيفما شاء وعلى حسب هواه، بل لابدَّ أن يعبد الله بما شرع، والشرع لا يُتَّلقى إلا من الله، فتَعيَّن أن يكون آدم نبياً وتقررَّ تكريمه بالعقل الذي هو مناط التكليف، فكان به قادراً على تلقي التوجيهات من ربه حتى لايبقى لحظة من عمره غير عارف بربه وبما يريده منه.

ولهذا جَرَتْ سُنة الله في المكلفين أن يُرسل إليهم الرسل تباعاً واحداً تلو الآخر حتى لا يخلو زمان من داعٍ لله وقائم بالحجة لئلا تنقطع صلتهم بخالقهم، فيتخبطوا في الحياة تخبط العشواء فلا يهتدون سبيلاً في هذه الدنيا ولا يسلمون من عذاب الآخرة[2]. وختمت الرسالات السماوية برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿خاتم

---

[1] أبو بكر، المرجع السابق، ص 94.

[2] قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص92.

النبيين﴾ وهي باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

كان آدم عليه السلام يعلّم ذريته، وهم ليسوا مشركين إلا أن البشر يفتقرون إلى الوحي فيما يتعلق بعبادتهم وأحكامهم وأمور غيبهم، ومن هنا قامت الضرورة التامة للنبوة والوحي.

النبأ: هو الخبر إن كان خطاباً مباشراً من الله، كما في حالة موسى أو بواسطة الملك جبريل عليه السلام وسمِّي: رسول الملائكة، أو إلهاماً ربانياً لمن يختارهم الله. فهم النخبة المصطفاة الذين يأتيهم خبر السماء وتعاليم الله، ولذا سمُّوا أنبياء فإن اعتمد هذا بتكليفهم بالبلاغ وإنزال شريعة أو كتاب، وإقامة حجة، والإتيان بمعجزة، فهي الرسالة، فكل رسول هو نبي وليس كل نبي رسول. والقول في الفوارق بين النبي والرسول أوسع من هذا، ولكن القرآن يدل على أنهما ليسا بمترادفين كما ادّعى بعضهم، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُول وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:52]. وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ رَسُولا نَّبِيّا﴾ [مريم:54]. والنبوة تعضيد للعقل ورسم لمساره الصحيح وتحفيز لحركته ﴿لعلكم تعقلون﴾، وليس تخديراً أو عزلة عن الحياة والعمل وخلافة الأرض. والنبي الأول هو أول من وضع لبناتِ الكشوف في الحرث والصنائع، والانتفاع من تسخير السماوات والأرض وكشف أسرارها.

النبوة طمأنينة للقلب وسكينة للروح، ترشيد لسلامة الطريق، وحسن العاقبة، ويقين الإيمان، وصحة المعتقد ليعلم الإنسان أنَّه ليس متوحداً ولا معزولاً، ولا

مستوحشاً على هذه الأرض وأنه موصول الحبل بدار الآخرة مطمئِن القلب إلى طريق النجاة فيها إن أراده[1].

النبوة كشف لعالم الغيب، وإخبار عن الله تعالى وملائكته، وعن الآخرة والحساب والثواب والعقاب بما هو حق مطابق. والنبوة تشريع مفصل بضبط علاقات الناس وزوجاتهم ومعاملاتهم يجعلهم أقرب للرشد والصواب، وإن كان لا يخرجهم عن طبيعتهم المركبة.

النُبوة ضرورة للعدل الرباني بتقديم البلاغ وإنذار الآخرة، بل ورحمة للبشر. وأن يكون الرجل الأول نبياً فهو ترسيخ لأصالة الخير في الإنسان وفي الأرض وعمقه واتساعه. ولذا لم تقم حضارة ولم تتكون أمة إلا والدين حاديها وملهمها[2]. حتى أعتى النظريات المادية اتَّكأت على موروث ديني ولم تستطع إنكار دور الدين في حياة البشر، وشعوب العالم تشهد هبَّات متكررة في العودة إلى التدين هروباً من الضياع والكآبة والعدمية والقلق، واستجابة للفطرة المطمورة المنتفضة[3].

وأما كون آدم رسول الله بالعقل، فلأن آدم (عليه السلام) لم يكن له بد من أن يكون لديه من شرع الله مايتعرف به على تنظيم علاقته مع زوجه ويتمكن به من تصريف شؤون أولاده في السلم والحرب والزواج والانفصال، ليعلم من خلاله ما يحلُّ له مما يحرم عليه من الأطعمة والأشربة وسائر ما وضع الله له في الأرض، وتلك مهمة

---

[1] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 244

[2] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 244.

[3] العودة، المرجع السابق، ص245.

لا يضطلع بها إلا رسول قد أكرمه الله بالرسالة وكلفه بالبلاغ عنها، قال تعالى: ﴿رُّسُلا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيما﴾ [النساء:165][1].

---

[1] العودة، المرجع نفسه، ص 95.

المبحث الثاني: قصة آدم عليه السلام في سورة الأعراف:

إن سورة الأعراف سورة مكية، وقد تضمنت سنة الله الكونية في الأمم المخالفة، وتذكيراً للناس بآيات الله في الكون وخلقه، وخلق الإنسان وضعفه، وبداية عداوة الشيطان للإنسان، وذكر الله فيها جملة من حجج المعاندين من الأمم السابقة، وحذّر من سلوك طريقهم وخَوَّفَ من يوم القيامة، ومن عاقبة الكافرين في النار، ورَغَّبَ بالجنة وذكر عاقبة أهلها[1].

وقد مهّد الله عز وجل قبل الحديث عن الأمم السابقة، وقبل الدخول في قصة البشرية تفصيلاً بالحديث عن تمكين الله عز وجل للجنس البشري في الأرض، ومن هنا نبدأ الرحلة الكبرى في مسيرة البشرية، ثم الشروع في قصة آدم عليه السلام وعداوة إبليس له وجاءت تفاصيل مثيرة وحقائق خطيرة لا توجد إلا في كتاب الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلا مَّا تَشۡكُرُونَ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّار وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِين قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي

---

[1] التفسير والبيان لأحكام القرآن، عبد العزيز بن مرزوق الطريفي، 3/1281.

لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُوما مَّدۡحُوراۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُور فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّ مُّبِين قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِين قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡر ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَة قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِد وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ،فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ

عِندَ كُلِّ مَسۡجِد وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَة يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡم يَعۡلَمُونَ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ،وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَل فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَة وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: 10-34].

أولاً: بداية الرحلة الكبرى وربط الحياة بالله عزوجل:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف:10]؛ حيث بدأت الآيات الكريمة تمهد عن تمكين الله للجنس البشري في الأرض، كحقيقة مطلقة وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلاً.

إن الله خالق الأرض وخالق الناس هو الذي مكّن لهذا الجنس البشري في الأرض، وهو الذي أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التي تسمح بحياة هذا الجنس وتقوته، وتعينه بما فيها من أسباب الرزق والمعايش.

هو الذي جعلها مقراً صالحاً لنشأته بجوها وتركيبها وحجمها وبُعدها عن الشمس والقمر، ودورتها حول الشمس، وميلها إلى محورها، وسرعة دورتها إلى آخر هذه الموافقات التي تسمح بحياة هذا الجنس البشري عليها، وهو الذي أودع هذه الأرض من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات ما يسمح بنشأة هذا الجنس وحياته، وبنمو هذه الحياة ورقيها معاً، وهو الذي جعل هذا الجنس سيد مخلوقات هذه

الأرض قادراً على تطويعها واستخدامها بما أودعه الله من خصائص واستعدادات للتعرف على بعض نواميس هذا الكون وتسخيرها في حاجته.

ولولا تمكين الله للإنسان في الأرض بهذا وذلك، لما استطاع هذا المخلوق الضعيف القوي أن يقهر الطبيعة، كما يعبر أهل الجاهلية قديماً وحديثاً، ولا كان بقوته الذاتية قادراً على مواجهة القوى الكونية الهائلة الساحقة.

إن التصورات الجاهلية الإغريقية والرومانية هي التي تطبع تصورات الجاهلية، وهي التي تصور الكون عدواً للإنسان، وتصور القوى الكونية مضادة لوجوده وحركته، وتصور الإنسان في معركة مع هذه القوى -بجهده وحده- وتصور كل تعرف إلى النواميس الكونية وكل تسخير لها -قهراً للطبيعة- في المعركة بينها وبين الجنس الإنساني.

إنها تصورات سخيفة، فوق أنها تصورات خبيثة، لو كانت النواميس الكونية مضادة للإنسان، عدوة له وتتربص به وتعاكس اتجاهه، وليس وراءها إدارة مدبرة كما يزعمون، ما نشأ هذا الإنسان أصلاً وإلا فكيف ينشأ؟ وكيف ينشأ في كون معاد بلا إدارة وراءه؟ ولما استطاع المضي في الحياة على فَرَض أنه وُجد وإلا فكيف يمضي والقوى الكونية الهائلة تعاكس اتجاهه؟ وهي بزعمهم التي تتصرف بنفسها ولا سلطان وراء سلطانها؟[1].

إن التصور الإسلامي وحده هو الذي يمضي وراء هذه الجزئيات ليربطها كلها

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، 1263/3.

بأصل شامل متناسق. وإن الله هو الذي خلق الكون، وقد اقتضت مشيئته وحكمته أن يجعل طبيعة هذا الكون بحيث تسمح بنشأة هذا الإنسان. وأودع الإنسان من الاستعدادات ما يسمح له بالتعرف إلى بعض نواميس الكون واستخدامها في حاجته.

وهذا التناسق الملحوظ هو الجدير بصنعة الله الذي أحسن كل شيء خلقه ولم يجعل خلائقه متعاكسة متعادية متدابرة.

وفي ظل هذا التصور يعيش الإنسان في كون مأنوس صديق، وفي رعاية قوة حكيمة مدبرة، يعيش مطمئن القلب، مشروح النفس، ثابت الخطو ينهض بأمور عمارة وخلافة الأرض في اطمئنان الواثق بأنه مُعان على الخلافة، ويتعامل مع الكون بروح المودة والصداقة، ويشكر الله كلما اهتدى إلى سرٍ من أسرار الوجود، وكلما تعرف إلى قانون من قوانينه التي تعينه في خلافة الأرض، وتُيسر له قدراً جديداً من الرقي والراحة والمتاع. إن هذا التصور لا يكفه عن الحركة لاستطلاع أسرار الوجود والتعرف إلى نواميسه، على العكس، هو يشجعه ويملأ قلبه ثقة وطمأنينة، إنه يتحرك في مواجهة كون صديق لايبخل عليه بأسراره ولا يمنع عنه مدده وعونه وليس في مواجهة كون عدو يتربص به ويعاكس اتجاهاته ويسحق أحلامه[1]. بل هذا الكون وهذه الأرض مسخرة عند الله عز وجل للإنسان.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعاً ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ

1 سيد قطب، المرجع السابق، 3/ 1263.

فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰت وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيم﴾ [البقرة:29]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشا﴾ [البقرة:22]، ومن الآيات التي تدل على تسخير الكون للإنسان قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدا﴾ [طه:53]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارا﴾ [غافر: 64].

إن الإنسان هو ابن هذه الأرض، وهو ابن هذا الكون، لقد أنشأه الله في هذه الأرض ومكنه فيها، وجعل له فيها أرزاقاً ومعايش، ويسر له المعرفة التي تسلمه مفاتيحها، وخلق نواميس موافقة لوجود هذا الإنسان تساعده حتى يتعرف إليها على بصيرة وتُيسر له حياته[1].

إن الله يُريد من الإنسان أن يدرس حياته دائماً بما تشمل عليه من إمكانات القوة ومواطن النعمة، فيربطها بالله المصدر لكل قوة ونعمة، ليدفعه ذلك إلى الشعور بالمسؤولية أمامه فيما يستخدم فيه القوة أو يستعمل فيه النعمة، وذلك هو مفهوم الشكر العملي. المفهوم الذي يريد الله من الإنسان أن يجعله الطابع العام لحركة حياته، والسّمة البارزة لشخصيته، وذلك بأن يحوّل كل ما أعطاه الله إلى السبيل الذي يتحرّك فيه أمر الله ونهيه، لأنه لا يملك ذلك كله، فلا حرية له أن يتصرف فيه تبعاً لمزاجه وهواه، بل يعتبر ذلك منه تمرُّداً على الله وضاداً لحالة الشكر له، ولن يتحقق ذلك إلا بالوعي الدائم لارتباط الوجود الإنساني في عناصره وخصائصه بالله، والابتعاد عن الانغلاق الفكري والروحي داخل الذات الذي يوحي إليه بالإمكانات

---

1 المرجع نفسه، 1263/3.

الذاتية التي يستمدها من وجوده بعيداً عن الله[1].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ في ما أودعه من عناصر القوّة في الإنسان وما سخرّه له من مخلوقاته.

وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ﴾؛ في ماتأكلون وتشربون وتلبسون وتستمعون، لتشكروا الله على ذلك وتنطلقوا به في طريق طاعته.

وقال تعالى: ﴿قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ تلك هي النتيجة الطبيعية للغفلة عن معنى الحياة المسؤولة في صلتها بالله، لأن قضية الشكر هي قضية وعي وانفتاح وإيمان، لتعرف أن الله لم يخلقك عبثاً، ولم يخلق الحياة بدون هدف، ولم يترك الإنسان بدون نظام[2].

والشكر: هو صرف العبد كل ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله[3]، من نعمه ظاهرة باطنة في النفس والمال، فيصرف ذلك كله إلى عبادة ربه بما يليق بكل جارحة على الوجه الأكمل، وإذا ما فعل ذلك كان قد أظهر نعم الله عليه وأدى واجب شكرها[4].

ويعتبر الشكر من أجلّ الأخلاق السلوكية الإيمانية التي على المؤمن أن يتحلى بها في كل أحواله لما فيه من الاعتراف بالنعم لمسديها.

---

1 تفسير من وحي القرآن، محمد حسنين فضل الله، 30/7.

2 تفسير من وحي القرآن، فضل الله، مرجع سابق، 30/7.

3 تفسير من وحي القرآن، فضل الله، مرجع سابق، 30/7.

4 أخلاق النبي في القرآن والسنة، أحمد عبد العزيز الحداد، 185/1.

ولقد كانت عناية القرآن الكريم بهذا الخلق عظيمة كعظم مكانته في الأخلاق، فقد ورد ذكره في نحو من سبعين آية آمراً به، وحثاً عليه، وثناء على أهله ووعداً لهم بحسن جزائه، ونهياً عن ضده مما يدل على أمر هذا الخلق عظيم الشأن[1]. ومن الأوامر القرآنية للتحلي به كثيرة منها قوله تعالى:

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة:152]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة:172]. وقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلا طَيِّبا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [النحل:114].

فإن كانت عبادتكم خالصة له سبحانه حقاً فعليكم أن تشكروا نعمه فإن العبادة تستلزم الشكر بل هو من ضروب العبادة وأنواعها[2]، ويأتي الحديث مفصلاً عن هذا الخلق في محله بإذن الله.

لقد أعطانا الله عز وجل أدوات التمكين، وسخر لنا كونه وأرضه وجعل لنا فيها المعايش التي تستحق شكره ليلاً ونهاراً، سراً وعلناً، قولاً واعتقاداً وعملاً.

ثانياً: خلق الإنسان وتصويره:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف:11].

---

[1] المرجع السابق، 186/1.

[2] مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، 249/2

1- قال تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ :

بدأ الله خلق الإنسان من طين، ثمَّ صوره حتى تكامل خلقه إنساناً سوياً يملك الصورة الجميلة والجسم المعتدل والأجهزة الدقيقة التي تتحرك في نظام محكم متوازن، فتحرّك فيه العقل والإرادة الذين يستطيع من خلالهما أن يحمل مسؤولية نفسه ومسؤولية الكون من حوله[1]. وتحدث الله عز وجل في كتابه عن مراحل خلق الإنسان.

أ-المرحلة الأولى: التراب:

البداية قبضة من تراب الأرض حيث ذكر الله ذلك في مواضع عديدة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَاب ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:59]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَاب ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَر تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:20]، والخطاب في الآية لبني آدم وهم مخلوقون عن طريق الزواج والتناسل، ولكن ينطبق على أبيهم آدم عليه السلام وبما أن أباهم مخلوق من تراب فهم أيضاً مخلوقون من تراب[2].

وشاء الله الحكيم أن يكون تراب الأرض مختلفاً متفاوتاً في لونه، وطبيعته لتوافق بقاع الأرض وتتناسق وتتكامل في إنتاج مختلف أنواع الزروع والثمار، فهناك تراب أحمر، وهناك تراب أسود وهناك تراب أبيض وهناك تراب رمادي، وهناك تراب

---

[1] تفسير من وحي القرآن، فضل الله، مرجع سابق، 33/7

[2] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 33

سهل، وهناك تراب حزن صعب، وهناك تراب لين، وهناك تراب قاس جلد صلب. ولما أراد الله خلق الإنسان الخليفة أخذ قبضة من تراب الأرض، تمثَّل فيها مختلف ألوان التراب وخصائصه[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إن الله خلق آدم من قبضة، فقبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر، والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل، والحزن والخبيث والطيب وبين ذلك﴾[2].

يُخبرنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن أسباب اختلاف ألوان الناس واختلاف طبائعهم وسجاياهم، وإن السبب في ذلك هو اختلاف ألوان التراب الذي خلق الله منهم أباهم آدم، فقبضة التراب التي خلق منها آدم ضمت مختلف ألوان التراب الأحمر والأبيض والأسود وغيرها. وتحولت ألوان التراب المختلفة إلى جينات وراثية، تنتقل من الآباء إلى الأبناء، وأعطى الله الحكيم كل سكان إقليم في الأرض لونهم الخاص بهم، وأعطى كل إنسان لونه الذي اختاره له بحكمته سبحانه، فهناك أقاليم ألوان سكانها سوداء وهناك أقاليم ألوان سكانها بيضاء وأخرى حمراء، وأخرى بنية وهكذا.

إن الله الحكيم هو الذي اختار لكل إنسان لونه ولا إرادة لأي إنسان في اختيار لونه، وجعل الله اختلاف ألسنة الناس وألوانهم آية في عظمته ووحدانيته وقدرته قال

---

[1] الخالدي، المرجع نفسه، ص 30.

[2] سنن أبي داوود، رقم 4693، كتاب السنة باب في القدر.

تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم:22].

وطالما أن لون الإنسان لا إرادي في حياته، فلا يصلح أن يكون أساسي التفاضل بين بني البشر، لأنه لا يجوز أن يتفاضل أناس بشيء لا دخل لهم فيه ولا قدرة لهم على اختياره، إنما يتفاوتون في جانب يقوم على اختيارهم وجهدهم وسعيهم وهو الإيمان والعمل الصالح والتقوى[1]. ووكم ضلت أمم جعلت أساس التفاضل اللون، ففضلت لون أفرادها واحتقرت ألوان أفراد آخرين، ومارست ضدهم التمييز العنصري بأبشع صوره.

لقد فضَّلت النازية في آلمانيا الجنس الآريّ على سواه، لأن اللون الأحمر هو الذي يلّون أفراده، وفضّل الأمريكان الجنس الأنجلوسكوني على غيره واحتقروا السود في بلادهم لا لذنب وإنما لأن لونهم أسود. وكما كان الناس مختلفين في ألوانهم بسبب اختلاف ألوان التراب، كذلك كانوا مختلفين في طبائعهم وشخصياتهم بسبب اختلاف طبيعة تراب الأرض، وطبائع النفوس متفاوتة فهناك نفوس سهلة لينة هاشّة باشّة، تألف وتؤلف، دائمة الابتسامة والحيوية، ترتاح إليها وتسعد معها وتأنس بالتعامل معها، وهناك نفوس بائسة تعيسة، عابسة جامدة كأنها قدّت من صخر، تنفر منها وتكره لقاءها والتعامل معها. فسبحان الله الحكيم الخبير في خلقه التربة متفاوتة في ألوانها وطبيعتها. وفي خلقه الناس متفاوتين مختلفين في ألوانهم وطبائعهم

---

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 31.

وهذا من أوضح الآيات على وحدانية الله[1].

لقد أجرى العلماء تحليلاً دقيقاً لمكونات الأرض، فوجدوا فيها أكثر من مائة عنصر من عناصر الطبيعة المعروفة حتى الآن، كما أجروا تحليلاً لجسم الإنسان نفسه، فوجدوه مكوّناً من حوالي ثلاثة وعشرين عنصراً هي خلاصة عناصر الأرض أو العناصر المهمة فيها، وصدق الله العظيم الذي قال في قرآنه المعجز: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [المؤمنون:12]؛ أيّ من خلاصة الأرض وهذه هي الحقيقة بعينها فتبارك الله أحسن الخالقين. وقد قال تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ [النجم:32][2].

ب- المرحلة الثانية: الماء:

قال تعالى: ﴿أَوَ لَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾ [الفرقان:54]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النور:45]. ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [السجدة:8]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾

[1] سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص32.

[2] آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، مرجع سابق، ص29.

[المرسلات:20]، وقال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّآء دَافِق، يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:5-7].

إن هذه الآيات تدل على أن آدم خلق من ماء كما أن كل شيء حي وكل دابة تدب على الأرض خلقت من ماء، وآية سورة الفرقان تدل على أن البشر تحديداً قد خلقوا من الماء، ثم تبين الآيات بعد ذلك أن الخلق التالي لخلق آدم وحواء أي ذريتهما قد خلق من ماء مهين وهو ماء الرجل المني وإن كانت الحقيقة الأولى وهي أن كل الدواب بما فيها الإنسان قد خلقت من الماء صالحة كذلك للخلق التالي على خلق آدم فالماء يكون أكثر من 70% من جسم الإنسان. إذا خلق آدم من تراب ومن ماء خلط بهذا التراب ليكون المادة الأولية التي خلق منها آدم وهي الطين، وقد جاء في وصف الطين الذي خلق منها آدم، والمراحل التي مر بها هذا الطين ليخرج منه أهم في وأفضل مخلوق في الكون تفصيلياً في القرآن الكريم[1] كما سنرى بإذن الله.

ت- المرحلة الثالثة: الطين:

أخبر الله تعالى أنه خلق آدم من طين، وهذه مرحلة مزج التراب بالماء فصار طيناً، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِين ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاۖ وَأَجَل مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾[الأنعام:2]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡر مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّار وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِين﴾[الأعراف:12]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ

[1] آدم وحواء أسرار وحقائق، محمد عبد الباقي، مرجع سابق، ص34.

أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾[السجدة:7]، وقال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرا مِّن طِينٖ﴾ [ص:71]. والطين الذي خلق منه آدم وُصف في القرآن بثلاث صفات، ويمكن اعتبارها مراحل تحول التراب والطين إلى جسد من لحم ودم وعظام وأعضاء وهذه الصفات هي:

- الطين اللازب
- الحمأ المسنون.
- الصلصال[1].

يقول شيخي الأستاذ الدكتور سلمان العودة (حفظه الله): أجد مراحل الطين في ذاتي حين تمر بي تحولات الفرح والحزن والسعادة والشقاء والسكون والثورة واليقين والشك، أتذكر الطين اللازب، والصلصال، والحمأ المسنون، بل أتذكر الماء الذي عُجن به الطين وماء الأرض فيه الحلو العذب الفرات وفيه الملح الأجاج، وفيه المر. وإن مراحل الطين تمر بِيّ جميعها، وأنواع الماء:

أجد الحمأ المسنون في مسامِ الجسد، فأحتاج لمعالجته لأشعر بنشوة النظافة ونفثة العطر. وأجده في مسامٍ الروح فأحتاج للتهليل والتسبيح والذكر والاستغفار، لأمحو لحظة غفلة أو شرود واستجابة للنفس الأمارة[2].

الطين خصب قابل للإنبات، تكون فيه الورود والأزهار والأشجار النافعة،

---

[1] آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، مرجع سابق، ص 34.

[2] علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص 14.

وتكون الأشواك والأشجار السامة المخدرة، وقد تتجاوز هذه وتلك، ونحن فينا التقوى والفجور، وفينا المؤمن والكفور.

وكون الله عز وجل خلق الإنسان من طين الأرض، فذلك أدعى لنجاحه في استعمارها، والغوص في أسرارها، ومعرفة قوانينها والضرب فيها. وإن العمل والكدُّ والكدح وعرق الجبين ليس عيباً، إنه سر التميز والإبداع.

والطين يمنح المرونة والتّشكل والتكيُّف مع الظروف والمتغيرات المناخية والاجتماعية، بخلاف ما لو كان الخلق من القش أو من الصخر، الصخر قاس لا يلين، والقش متفرق لا يلتئم[1]. وإن الطين يمنح التنوع، الأحمر والأسود ومابين ذلك، والطيب والخبيث ومابين ذلك، واختلاف الطبائع والميول يثري الحياة ويوسعها. والطين يجمع بين الليونة والقوة، والطين يوحي بالنهاية، قال تعالى: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه:55].

والنجاح دائماً ممنوح لأولئك الذين يبدؤون العمل وعيونهم على النهاية: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل. يبقى التراب أصلنا ولو وضعنا قباب الذهب فوق شواهد قبورنا، وأصررنا على تجاوز البساطة حتى بعد موتنا[2].

ث- المرحلة الرابعة: الطين اللازب:

وكلمة لازب ذُكرت مرة واحدة في القرآن الكريم كله في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ

---

[1] العودة، المرجع السابق، ص 15.

[2] علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق ص 15.

أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِين لَّازِبِۢ﴾ [الصافات:11]، واللازب: هو الثابت شديد الثبوت المتماسك الثخين. والطين اللازب ناتج عن الطين الرّخو، حيث زادوا خلط الطين بعضه ببعض، فأصبح لازباً غليظاً كثيفاً تمهيداً لتجميده وتيبيسه[1].

أيّ: أنا خلقناهم من طين لاصق، وإنما وصفه جلَّ ثناؤه باللزوب، لأنه تراب مخلوط بماء، والتراب إذا خُلط بماء صار طيناً لازباً، أيّ: لاصقاً، ومن المعاني التي أضافتها كلمة لازب أن من خصائص هذا الطين الذي خُلق منه آدم أنه لزج، يلصق باليد، وأنه طين ثابت، فاللازب: الثابت، وأيضاً أنه خالص، فاللزب الخالص، وربما أن مرحلة الطين اللازب هذه هي التي تمَّ فيها تشكيل جسم آدم وتخليق أعضائه وشكله الخارجي من رأس ووجه ورقبة وأطراف وأيدي وأرجل، إذ أن الطين اللازب اللزج هو الذي يصلح للتشكيل والتكوين، وقد يكون تشكيل الجسد جاء بعد المرحلة الثالثة وهي: الحمأ المسنون.

تركت كتلة الطين اللازب بعد تشكيلها، فاسودّ لونها فأصبحت حمأ وتغيرت رائحته بمرور االسنين فأصبح الطين مسنوناً.

ج- المرحلة الخامسة: الحمأ المسنون :

أخبر الله عز وجل في كتابه أنه خلق آدم من صلصل من حمأ مسنون. قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰل مِّنۡ حَمَإ مَّسۡنُون﴾ [الحجر:26]، وقال

---

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 35.

تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرا مِّن صَلۡصَٰل مِّنۡ حَمَإ مَّسۡنُون﴾ [الحجر:28]، وقال تعالى: ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰل مِّنۡ حَمَإ مَّسۡنُون﴾ [الحجر:33]، فكلمة حمأ وردت ثلاث مرات في القرآن الكريم وفي كل المواضع أتت مسبوقة بالصلصل ووصفته بأنه حمأ مسنون[1]. وهذا معاذ الله أن يكون لتحقير الإنسان ولكنه بيان أصله المتواضع ليتواضع فقد أودع الله فيه من المواهب مالم يضبطه بضابط الإيمان والتواضع فإنه سيستكبر، ومقتله وعلله كلها في هذا التكبر، فشاء الحكيم أن يكون خلقه من هذا الأصل المتواضع جداً من الطين الأسود المتعفن الذي تحول إلى صلصال، فجمع ضعة الأصل وضعفه معاً.

كل ذلك ليتواضع لا ليحقر ولا ليهان ولا لينتقص من قدره، ولو كان هذا فلماذا أسجد له ملائكته؟ أليحقره ويهون من شأنه؟ بالطبع لا[2].

قال ابن عاشور: المقصود من ذكر هذه الأشياء الدلالة على عجيب صنع الله تعالى إذ أخرج من هذه الحالة المهينة نوعا هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحياة، وفيه إشارة إلى ماهية الحياة تتقوم من الترابية والرطوبة والتعفن. وتوكيد الجملة بلام القسم وبحرف قد لزيادة التحقيق، تنبيهاً على أهمية هذا الخلق، وأنه بهذه الصفة[3].

قال السعدي: من صلصال من حمأ مسنون: أي من طين قد يبس بعدما خُمِّر حتى صار له صلصلة وصوت كصوت الفخار. والحمأ المسنون: الطين المتغير لونه

---

[1] آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، مرجع سابق، ص 36

[2] تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص 190.

[3] المرجع نفسه، ص 190.

وريحه من طول مكوثه[1].

وهذه مرحلة تالية بعد مرحلة الطين اللازب، حيث ترك الطين اللازب الغليظ إلى أن جف ويبس، فتحوَّل إلى طين أسود متغير، ولما ازداد جفافه صار جافاً يابساً صلصالاً، فإذا نقر عليه نقرة خرج منه صوت، وبعد وصول جفافه ويبوسته غايتها، شبه في ذلك بالفخار[2].

ووصفُ الطين الذي سيخلق منه آدم بالحمأ المسنون يستفاد منه معان كثيرة منها:

- أن لون الطين كان أسوداً.

- أن تشكيل وتخليق جسد آدم تم في مرحلة الطين اللازب.

- أفادت بعض معاني كلمة مسنون أن جسد آدم في هذه المرحلة كان حاد المعالم مسنون بلا زوائد ولا ترهلات.

- أن هذا التشكيل والنحت لجسم آدم قد ترك فترة من الزمن لا يعلمها إلا الله ليجف ويصل المرحلة التالية وهي الصلصال.

د- المرحلة السادسة: الصلصال :

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ [الرحمن:14]، والصلصال: هو الطين اليابس الذي يسمع له صوت إذا ضُرب، وهو يشبه الفخار الذي تصنع

---

[1] المرجع نفسه، ص 191.

[2] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 36.

منه الجرار وأواني الفخّار التي تتميّز بحفظ الماء وتبريده وتعبئته. فبواسطتها يتسلل الهواء لأعماق الماء ويمنحه معنىً جديداً ومذاقاً حياً للماء إذاً حياة.

فجسد الآدمي وعاء أو منجم صغير مكون من ثلاث وعشرين عنصراً موجوداً في الأرض وقد عبَّر الرسول صلى الله عليه وسلم عن مرحلة ماقبل الروح حين قال: "إني عبد الله لخاتم النبيين وإن آدم عليه السلام لمنجدل في طينته"[1]. وهذا التمثال الآدمي المنجدل على الأرض تشّكل من:

- تراب

- عجن بالماء، فصار طيناً.

- ثم ترك ما شاء الله من الأزمنة حتى أصبح طيناً لازباً ملتصقاً بعضه ببعضه.

- ثم ترك ما شاء الله من الأزمنة حتى أصبح حمأ مسنوناً منتناً أسود، وربما بدأت تظهر عليه بعض ملامح التكوين الإنساني.

- ثم ترك (ما شاء الله) حتى صار صلصالاً كالفخار، قد تكون أربع مراحل أو خمساً أو ثلاثاً، وهي مراحل بحث وتردد تشبه مراحل الجنين في بطن أمه، وكل مرحلة أربعون يوماً كأيام الجنين أيضاً، ولعلها من أيام الله فيكون ثمَّ تفاعل كيميائي استغرق من السنين الطوال ما الله به أعلم، حتى تتخمر هذه القبضة الطينية وتشكل الحمض

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده، رقم 17150. وانظر: ابن أبي عاصم، رقم 409.

النووي ثمَّ الخلايا الحيّة[1].

إن الآيات التي تحدثت عن أبينا آدم عليه السلام قبل نفخ الروح فيه لا تعارض بعضها، وإنما أخبرت كل آية عن مرحلة من المراحل التي مرَّ بها خلقه، فأخبرت آية عن مرحلة خلقه من تراب، وأخبرت آية أخرى عن المرحلة الثانية من تراب وماء، مرحلة الطين، وأخبرت ثالثة عن مرحلة خلقه من طين لازب، وأخبرت آية رابعة عن مرحلة خلقه من صلصال من حمأ مسنون، وأخبرت آية خامسة عن مرحلة خلقه من صلصال كالفخار.

فلا بدَّ من جمع الآيات المتفرقة التي تتحدث عن هذه المراحل والنظر فيها مجتمعة لنحسن فهمها وحسن استخراج دلالتها ولا يعلم إلا الله وحده الفترة الزمنية لكل مرحلة، وهل هي حقبة أو مدة؟

كما لا يعلم إلا وحده تعالى مظاهر التطور على هذا الطين اللازب والحمأ المسنون والصلصال كالفخار وعوامل التفاعل فيه، وكان الله بنقله من مرحلة إلى مرحلة أخرى فهو الذي خلقه وأوجده من العدم ونقله بين هذه المراحل[2].

2- مرحلة تصوير آدم عليه السلام وتسويته:

بعدما مَرَّ آدم عليه السلام بالمراحل المذكورة خلقه من تراب، ثم تحول التراب إلى طين، ثم تحويل الطين إلى طين لازب، ثم تحويل اللازب إلى صلصال من حمأ

---

[1] علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص 21

[2] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص

مسنون ثم تحويل ذلك الصلصال إلى صلصال كالفخار تمثالاً مجسماً وجسداً بدون روح، هذه المرحلة هي مرحلة التصوير تمهيداً لنفخ الروح فيه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف:11]. الخطاب في الآية لبني آدم، والحديث فيه عن خلق وتصوير أبيهم آدم عليه السلام، وقد عطف مرحلة التصوير على مرحلة الخلق بحرف العطف ثم الذي يدل على التراخي والبعد الزمني بين المرحلتين والتصوير المذكور في الآية تصوير مادي مجسم. فلما خلق الله تعالى آدم من الطين اللازب وصار كصلصال من حمأ مسنون كالفخار، فقد صوّره الله بأن جعل له أجهزة الجسم البشر المعروفة الظاهرة والباطنة تمهيد لنفخ الروح فيه، جعل الله لهذا المثال اليدين والرجلين والرأس، بما فيهما العينين والأذنين، والفم والأنف وجعل له الجذع والظهر والبطن وجعل فيه القلب والرئتين والمعدة، والأمعاء والأوردة والأعصاب وغير ذلك.

لكنها أجهزة جامدة ليس فيها حياة، وهذا التصوير المجسم بتسويته في آية أخرى قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر:29]، والتسوية هنا بمعنى: التصوير أو تقوم على إنشاء مختلف لأجهزة الجسم وتجهيزها وتهيئتها للعمل بعد نفخ الروح فيها[1].

وما جرى لآدم من تصوير قبل نفخ الروح فيه يجري لكل واحد من ذريته حتى قيام الساعة، والفرق بين التصويرين أن تصوير آدم كان خارجياً ظاهراً فجاءت

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 39.

صورته المادية تمثالاً مجسماً كبيراً، أما تصوير ذريته فإنه يكون بداخل الرحم وتكون الصورة مصغرة جداً، ولذلك قال تعالى: ﴿ياأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 6-8].

1-آدم تمثال ملقى في الجنة:

كان خلق آدم وتصويره في الجنة التي خلقها الله قبل تصويره، وبقي تمثال آدم ملقى في الجنة فترة زمنية لايعلمها إلا الله.

وقد أخبرنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الخلقة الأولى التي كانت البداية في تركيب جسد آدم المصوّر، والتي يبدأ منها تركيب أجسام بنيه في الأرحام[1]. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "كل بني آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خُلق، ومنه يركب"[2]. وفي لفظ آخر للحديث: "وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة"[3].

وعجب الذنب: هو آخر فقرات العمود الظهري، من عمود الظهر وهو أصغر تلك الفقرات، ومعروف باسم: العُصعص. ولقد كانت بداية خلق آدم من عجب الذنب، ثم تمت تسويته وأكملت تصويره بعد ذلك لأن الحديث يقول: "منه خُلق". هذا عام يشمل كل إنسان، آدم وبنيه، عندما يموت الإنسان ويوضع في قبره يبلى كل شيء فيه ويصير تراباً إلا تلك الفقرة الصغيرة في أسفل العصعص، فإن الله شاء

---

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص39

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، رقم 2955،كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب مابين النفختين.

[3] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 40

ألا تبلى ليرَكّب الخلق منها يوم القيامة، عندما يشاء ربنا بعث الناس من جديد[1].

وعندما تتأمل الإنسان حينما يموت، فأول نقص لبُنيته أن تخرج منه الروح، وكانت آخر شيء في بنائه، ثم يتصلب الجسد ويتجمد كما كان في مرحلة الصلصالية، ثم يتعفن وتتبخبر رائحته كما كان في مرحلة الحمأ المسنون، ثم تمتص الأرض مافيه من مائية ليصير إلى التراب كما بدأه خالقه من تراب: إذن، صدق الله تعالى في المشهد حين بيّن لنا الموت، فبذلك صدقنا ما قاله في الحياة، وقد تبدو هذه الحقائق لبعض القراء بديهية ومنطقية، ولا تحتاج إلى شرحٍ أو تفصيل، ولكنها في الحقيقة في غاية الأهمية، حين تعرض على غير المسلمين وخاصة الشعوب التي تعيش في جهالة من أهل الغرب والشرق، وكذلك العلمانيين واللادينين، وتلك أمور هامة جداً حينما نجادل من يحاول أن يتبع بعض النظريات التي تحاول أن تثبت أن الإنسان حيوان. من منظور أو متحول عن بعض الأجناس كالقرود والشمبانزي، ويطلقون على بعض فصائل القرود: إنسان الغاب، وإنه للعجب العجاب أن يبلغ بنا التفكير ذلك الحال!

لذا ينبغي أن تكون هذه الحقائق عن مراحل خلق الإنسان وطريقة خلق آدم، والمادة التي خُلق منها واضحة جلية، وأن تكون القاعدة الصلبة التي ينطلق منها المؤمن الواعي المتفتح عندما تعرض عليه أفكار أخرى مخالفة لصريح القرآن[2].

---

[1] المرجع نفسه، ص 40

[2] آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، مرجع سابق، ص 41.

ب- إبليس يُفكر في تمثال آدم:

كان إبليس في الجنة، وكان يرى مراحل خلق آدم تراباً وطيناً وصلصالاً من حمأ مسنون. وها هو يراه الآن تمثالاً مجسماً ممدداً في الجنة، فتحجب منه، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "لما صوّر الله آدم في الجنة تركه ما شاء أن يتركه، فجعل إبليس يطوف به، وينظر إليه، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك"[1]. كان دوران إبليس حول الجسد الآدمي تفحصّاً خرج منه بملاحظة يشتمل على جوف ويحتاج إلى طعام وشراب، فهو بذلك غير متماسك ولا قادر على التحكم في نفسه وضبطها[2]. فهو لا يملك نفسه عند الغضب، لأنه أجوف ولا يملك نفسه عند الفتنة ولا يملك نفسه عند الشهوة والإغواء لأنه أجوف، ولا يملك نفسه عند زخارف الدنيا، لأنه أجوف. فإبليس عرف نقطة ضعف هذا التمثال، وقد احتفظ بهذا الاكتشاف الخطير لنفسه ليحسن الاستفادة منه في المستقبل، إذا احتاج إليه ودخل إبليس على بني آدم ليغوي الذي لا يتمالك نفسه عند الشهوة، ولا يتمالك نفسه عند ملذات الدنيا، والذي لايتمالك عند المحنة والشدة[3]. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيم وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيما يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفا﴾ [النساء:

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، رقم 2661.

[2] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 22.

[3] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 42.

.[28-26

ج-اكتمال جسد آدم عليه السلام:

كان آدم جسداً ملقى على الأرض تمر به الملائكة والشياطين تحاول استكشافه، تحول التمثال الطيني بنفخ الروح فيه إلى عظم ولحم وأوردة وخلايا، ثمّ تحّول بعد ذلك لإنسان حي، كما قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: 17]، وحين تنزع الأرواح تبقى الأجساد كما كانت من دون حياة، فماذا فقدت إذاً؟ فقدت روح الحياة، وهي الطاقة الخصبة التي بها قوام الجسد وكأن الجسد بيت والروح تيار كهربائي يضيء جوانبه.

الجسد: هو الجانب المادي في الإنسان وهو توأم الروح وحاملها، والاهتمام بالجسد نظافة وجمالاً وصحة من الفطرة. كان آدم عليه السلام كبيراً طويلاً جميلاً قوياً متناسقاً طويل الشعر.

عن أُبي بن كعب (رضي الله عنه): إن الله عز وجل خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدى منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعرة شجرة فنازعها فنادى الرحمن: يا آدم مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن، قال يارب: لا ولكن استحياء[1].

كان منتصب القامة وليس ذلك لشي من الحيوانات، والانتصاب: هو الشموخ

---

[1] أخرجه ابن سعد 31/1. وانظر: البيهقي في البعث والنشور، رقم الحديث 175، واختلف في رفعه ووقفه.

والشمم ولذا شبهه بالنخلة والنخلة هي الشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، يواجه الريح بصدره ويحمل الأعباء على كتفه، ولايحني رأسه لغير خالقه، وبهذا فسّر ابن عباس رضي الله عنه معنى الكبد في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد:4] [1].

– وجهه كان مركز الحياة والجمال: فيه العينان والفم والأنف والأذن وهو مجمع الحواس، ولذا جاء في الحديث: "إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته".

– جمال يوسف الصديق (عليه السلام) الذي أُعطي شطر الحسن، كان حسنه نصف حسن آدم عليه السلام، حسب قول المفسرين[2].

– وفي الحديث: "عشر من الفطرة: قصُّ الشارب، وإعفاء اللحية، والسّواك، واستنشاق الماء، وقصّ الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط وحلق العانة، وانتقاص الماء. وقد قال أحد الرواة: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة، وانتقاص الماء: يعني الاستنجاء"[3]. وهي تعود إلى فطرة آدم عليه السلام، والعناية بها من كمال الإنسانية وما يحدث من تعمّد إطالة الأظافر والشعر الداخلي مخالفة لسنن الفطرة: هو نقص الاتباع وطروء الضعف. ويدخل في الفطرة: التّطيب والتطهر الذي يزيل درن الجسد ويحسن مزاجه.

---

[1] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 26.

[2] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص27.

[3] أخرجه مسلم في صحيحه، رقم 261، كتاب الطهارة باب خصال الفطرة.

– الإسلام دين الفطرة، ومقاصده ملائمة للعناصر الأساسية المكونة للإنسان. مادة خلق الجسد التراب والماء وهما طاهران، وتظل صلة الإنسان بهما قائمة باعتبارها ضرورة حياتية وشرعية.

– إن الانتساب لآدم المخلوق من جملة طين الأرض مدعاة للإيمان بالمساواة ورفض العنصرية ضد لون أو جنس.

– المبالغة في التجمل والإغراء والتعري لدى الأنثى، أو استعراض العضلات والقوة لدى الذكر، هو من الجَور على الجسد والروح معاً، وأسوأ ما يكون حين يتحول الإنسان الكريم إلى آداة لتسويق السلع والتربح.

– الشعور بالقبح، وطول النظر إلى الذات، مرض نفسي يحمل على المبالغة في التجمل المتكلَّف، والوحي ينص على جمال الخلقة وحسنها. قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين:4]، وقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر:64].

– الجسد جزء منك ولكنه ليس ملكاً لك، وهو رفيق له حق الطريق، ﴿فإن لجسدك عليك حقاً﴾.

– العناية والتنظيف والتغذية الجيدة والرياضة والنوم والراحة بعض حق جسدك عليك.

– تعذيب الجسد حرام وهو أمانة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إنّ الله

عن تعذيب هذا نفسه لغني﴾[1]. سواء كان على سبيل التعبد والزهد أو الرياضة.

– امتهان الجسد وتلطيخه أو ترك استعمال الماء والمنظفات هو جور آخر على الجسد، سواء كان تعبداً وتذليلاً للبشر.

– الحمية الشاقة تحت ذريعة طلب الرشاقة إذا جاوزت قدر الطاقة فهي تصرف في الجسد بغير ما أمر الله به.

– الحواس: السمع والبصر، والشم، الذوق، اللمس، أدوات محايدة تجري فيها الأحكام الخمسة:

– يحرم الاستماع للفجور والفحش.

– ويكره الاستماع لما قد يضر من فضول القول الذي لا فائدة منه.

– ويباح سماع الأشياء العادية.

–ويجب الإنصات لسماع القرآن والفاتحة في الصلاة وخطبة الجمعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡولا﴾ [الإسراء: 36].

– القلب ملك الأعضاء وسيدها، والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد وإن فسدت فسد الجسد.

– المضغة العادية تضخ الدم وسلامتها سر العافية، والمضغة المعنوية سر الحياة وطمأنينتها بالإيمان سبب الصلاح، وسلامتها من التحاقد والتحاسد سبب النجاح والفلاح.

---

[1] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 29

- يبدأ الإنسان ضعيفاً ويقوى ويشتد ثم يضعف ثم يموت وتفارقه الروح، سنة الله في بني آدم، فالحضور الأقوى للروح، وهي الأكثر ديمومة من الجسد. ولذلك فلا تسخر من ضعيف أو مريض أو معاق أو شيخ[1]، فهذا خلق الله عز وجل وربما تكون أنت الضعيف أو المريض أو المعاق في المستقبل الأمور بيد الله من قبل ومن بعد.

3- الروح التي نفخها الله في آدم عليه السلام:

شاء الله العليم الحكيم الخالق المصور أن يجعل هذا التمثال المجسم حياً، فأخبر الملائكة بذلك، وطالبهم أن ينتظروا إحياءه، فإذا رأوا أن الله نفخ فيه من روحه فعليهم أن يسجدوا له، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرا مِّن طِين ،فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِين﴾[ص: 71-72]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[الحجر:29]، لقد نفخ الله في هذا التمثال المجسم من روحه، فدَّبت فيه الحياة وصار إنساناً حياً متحركاً[2]. أي بث الله فيه الروح: التي هي سر الحياة والتي لايعلم شأنها إلا من خلقها فهي في عالم الغيب، وهي الجزء المهم في هذا الإنسان وهي التي أعطته القيمة والكرامة، فنفخه الروح سبب الحياة وسر الحياة، وكم من أمر لايعلمه البشر ولكنهم يؤمنون به فالكهرباء حتى الآن مازالت طلسماً أفلا يؤمن بها البشر؟؟

---

[1] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 30

[2] سيرةآدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 50.

وكيف لا، وجل حياتهم وآلاتهم وأجهزتهم مرتبطة بها أو قائمة عليها، ولم يمنع البشر عدم فهمهم لماهية الكهرباء أن يؤمنوا بها وينتفعوا بها ولايقول أحد منهم: أقنعني بالكهرباء وأنها موجودة! [1].

ومعنى "ونفخت فيه من روحي": أي أفضت عليه ماهية حياته، وهو الروح الذي هو من أمري[2]. وتكريم هذا الإنسان يفوق الوصف فقوله تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر:29]؛ منتهى التكريم لهذا المخلوق الوافد الجديد.

وكرامة الإنسان بنفخه الروح لا من قبضة الطين، فسَمَت قبضة الطين بنفخ الروح، والدين والروح هو روح الروح وحياتها، فكانت الكرامة لهذا الإنسان بأمرين: بالروح وروح الروح، فتأمل[3].

أ- ﴿مِن رُّوحِي﴾: بيانية وليست تبعيضية:

حرف الجر من في قوله من روحي للبيان وليس للتبعيض ولا يمكن أن تكون من تبعيضية، لأن هذا يتعارض مع العقيدة الإسلامية الواضحة فالله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، له صفات الكمال والجلال والعظمة.

وهو الخالق لكل شيء وكل ما سواه مخلوق، وهذا معناه أن الروح التي نفخها الله في آدم عليه السلام مخلوقة وهو الذي خلقها سبحانه وهذا معناه أن هذه الروح

---

[1] تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، مرجع سابق، ص 203.

[2] أحمد نوفل، المرجع السابق، ص 205.

[3] تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، مرجع سابق، ص 206.

المخلوقة ليست جزءاً من ذات الله سبحانه وهذا معنى قولنا يستحيل في العقيدة أن تكون من تبعيضية، لأنها لو كانت كذلك لكانت هذه الروح التي في آدم قطعة من روح الله وجزءاً وقسماً من روح الله اقتطعه الله من ذاته وجعله في جسم آدم فالذي من آدم جزء من الله.وهل ذات الله سبحانه يمكن أن تتجزأ وتتبعض وتنقسم ليدخل في جسم آدم جزء منها؟

إن هذا مرفوض عقلاً، ومتعارض مع عقيدتنا الإسلامية الصافية[1]. ولذا نقول: إنَّ "من" في قولالله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ بيانية، وهي تبين أن الروح التي جعلها الله في آدم من عنده هو، أي أنه هو الذي خلقها والذي نفخها في آدم. ولذا أضاف تلك الروح إليه: ﴿مِن رُّوحِي﴾ وهذه إضافة تكريم لتلك الروح، هي كإضافة ناقة صالح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحاً قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥقَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَة مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَة فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيم﴾ [الأعراف:73].

وكإضافة البيت المحرم الكعبة إلى الله في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: 37]، وقال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:37]. وقد أخطأ النصارى في نظرتهم

---

[1] سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص51.

إلى الروح التي نفخها الله في فرج مريم عليها السلام، فخلق منها عيسى عليه السلام حيث اعتبروا هذه الروح جزءاً من روح الله أي أن حرف "من" في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:12] تبعيضية، وذلك بأن أعطى الله تعالى جبريل عليه السلام قطعة من روحه منفصلة عنه، وأمره أن ينفخها في مريم فكان منها عيسى عليه السلام. أيّ: الروح التي في عيسى عليه السلام جزء من رَوح الله، ولهذا اعتبره النصارى ابناً لله.

إن الروح التي نفخها الله في آدم مخلوقة خلقها الله وهي من عند الله، والروح التي خلق الله منها عيسى عليه السلام في رحم أمه مخلوقة من عند الله، وحرف الجر "من" في الموضعين للبيان، وليس للتبعيض، وهذه الروح التي خلق الله بها آدم أبا البشر، هي الروح التي يخلق الله بها ذريته في بطون أمهاتهم، ولا يعلم ماهيتها إلا الذي خلقها، استأثر بالعلم بهاِ، وحجب هذا العلم عن خلقها[1].

ب- ماهية الروح وجوهرها:

أفضل من كتب عن الروح ابن القيم في كتابه "الرُوح"، والروح عنده: جسم نوراني عُلوي خفيف حي متحرك يسري في الأعضاء سريان الماء في الورد، والدهن في الزيتون والنار في الفحم[2].

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 52

[2] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 49

واليوم بمقدورك أن تقول: تسري الروح في الجسد سريان الكهرباء في الموصلات أو الإنترنت في الأجهزة.

ويظل النص المحكم إليه تعالى في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلا﴾ [الإسراء:85]؛ قُل الروح من أمر ربي: هذا هو الجواب في شأن الروح وماهيتها ومادتها وكل مايتصل بها هذا كله من أمر الله أي شأنه عائد إلى الله وهذا من اختصاص الله لا أحد سواه يعلم مايتعلق بها كلياً أو جزئياً وإذا كنا نجهل الكهرباء فكيف نعرف الروح؟

وما الضير أن تكون بعض المعلومات محجوبة مؤقتاً أو مؤبداً؟ وهل كنا ندرك ونحن أطفال ما معنى التفجير الذري؟ وما هو الطرد المركزي؟ وما الفرق بين القنبلة الذرية والنيوترونية والهيدروجينية؟

فهذا، ومثله محجوب مؤقتاً حتى تحصل قدراً من المعرفة يمكنك البناء عليه لتفهم. وشيء من المعلومات محجوب طيلة الحياة، فنحن لا نرى الملائكة ولا نرى أشياء كثيرة لكن في لحظة الموت، فنحن نرى ما لم نكن نراه، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡس مَّعَهَا سَآئِق وَشَهِيد لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَة مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيد﴾ [ق: 19-22]. والروح سبب الحياة ولا يعلم حقيقتها إلا الله عز وجل مثل أشياء كثيرة أخرى والإيمان يجعلك في انسجام مع الكون وفهم وأما الكفر

فانطماس وانغلاق على الحواس[1].

فالروح في ماهيتها وجوهرها من عالم الغيب الذي استأثر الله به، وهذا لا يمنع البحث في تأثيراتها وأنواعها وصلتها بالجسد وعلاقتها بالنفس وهو موضوع كتاب ابن القيم، وبحث الغزالي في الإحياء وفي معارج القدس في مدارج النفس.

ومع تقدم العلوم الطبيعية والمادية ظلت الدراسات المتعلقة بالنفس والروح بعيدة عن تحقيق تقدم ملموس أو اختراق علمي يناسب ما تحقق في سائر العلوم[2].

إن الروح التي نفخت في آدم هي روح سرت في الطين سريان الماء في الورد فحولته خلق آخر وهي التي بها يحيا الإنسان ويصبح قلبه وعقله وجسده وسائر مضامينه في وضعية الجاهزية والقدرة على آداء المهمات الموكولة إليه أياً كانت، إذا لم يكن ثمة عائق آخر[3].

والروح طاقة روحانية تشرف وتنتعش بالإيمان والمناجاة والقرآن والصلاة فتمنح السعادة والرضا والإنجاز وتضعف الغفلة، والروح هي النافذة المفتوحة للإنسان ليُحلق ويسمو ويتجاوز جدران الواقع الضيق أو الألم والقيد أو الإعاقة أو الظلم، فحين يعجز الجسد يملك الإنسان أن يشرق بروحه وينتقل إلى آفاق أسمى وأعلى[4]. والأرواح مجاميع وفي الحديث: ﴿الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها

---

[1] تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، ص 414-415.

[2] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 50.

[3] العودة، المرجع السابق، ص 50.

[4] العودة، المرجع نفسه، ص51.

اختلف﴾[1]. ومن الممكن أن يكون إشارة إلى تلاقي الأرواح في عالم الذّر قبل وصولها إلى الأجساد على أن الأرواح خلقت قبل خلق الأجساد. وربما كان إشارة إلى التشاكل في الخير والشر، وفي الطبع وفي المزاج وفي نمط التفكير والاهتمام، والحديث يلهم أن الروح تشكل شخصية الفرد وتميزه عن غيره، وتضع جزءاً من هويته الخاصة به، وكذلك نفعل بالمجموع بالفريق وبالطائفة وبالشعب وبالأمة.

والروح محدثة بعد أن لم تكن وباقية لا تفنى، والموت هو مفارقة الروح للبدن ولذلك فالملائكة تموت، ولو فنيت الروح ما تنّعمت ولا عذبت، حين نتخيل الموت انتقالاً للروح وتخلّياً عابراً عن الجسد نشعر بطمأنينة وتصالح مع منعطف بنقلنا إلى الضفة الأخرى. حضرت الوفاة أعرابياً فلم يكترث وقال: إنما انتقل من سلطان الله إلى سلطانه[2].

قد تتشكل الروح في عالم الغيب بصورة ما، كما في الصحيح أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، فعن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:169]، وقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فأخبرنا أن أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم إطلاعة فقال: هل تشتهون

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً، وأخرجه مسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه).

[2] علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص57

شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: ربنا أي شيء نشتهي ونحن نسرح في الجنة حيث شئنا؟[1]

الإنسان روح أولاً ثم جسد والعناية بتحرير الروح وتساميها وعافيتها وإشراقها هو المقصد الأول للرسالات بالتوحيد والعبودية والمقصد الأول للخلق والاستخلاف وهو لايتعارض مع حقوق الجسد والمادة[2].

ج- نفخ الروح بكيفية لا ندريها ولا نعرف كنهها:

وردت كلمة الروح في القرآن الكريم بمعان كثيرة منها الوحي، ومنها الدلالة على سيدنا جبريل ومنها الدلالة على القرآن الكريم وغيرها، ولكن بالنسبة لآدم فقد جاء النص القرآني مشيراً إلى أن الله سبحانه قد نفخ فيه من روحه تعالى بكيفية لا ندريها ولن نستطيع بلوغ معناها ولا كنهها، فيقول الله سبحانه عن بدء الخليقة مخاطباً الملائكة الذين طلب منهم السجود لآدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص:72]، فكان توقيف السجود معلق على عملية نفخ الروح في هذا الجسد المخلوق من طين ويستفاد من هذا النص الآتي:

- أن نفخ الروح هو الذي ترتب عليه سريان الحياة في الجسد المسوى من أديم الأرض.

- أن نفخ الروح كان في المرحلة النهائية بعد تسوية البدن واكتمال الجسد.

- أن هذه الروح من الله سبحانه، وأنها سر من أسراره لايعلم حقيقتها أحد

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة من حديث عبد الله بن مسعود رقم الحديث 1887

[2] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 57

مطلقاً.

– أن استحقاق السجود والتكريم والرفعة لهذا المخلوق جاء بعد نفخ الروح وقد تكون هذه الروح هي التي ارتفعت بهذا الجسد من الوصف بأنه طين وتراب وحمأ مسنون إلى أن يكون مخلوقاً مميزاً يستحق سجود الملائكة.

– أن اكتساب مهارات التعليم والمعرفة جاء بعد نفخ الروح في الجسد المسوى من تراب الأرض.

– لا مجال مطلقاً للقول: بأن الإنسان متطور أو متحول من جنس آخر أو من فصيلة أخرى كما ادعى دارون ومن سار على دربه، كما أن ما ذكره الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه "أبي آدم" من أن الإنسان تطور من جنس آخر أطلق هو عليه لفظ البشر غير صحيح أيضاً.

– السياق واضح تمام الوضوح، فالله خلق آدم من تراب ومن طين فسواه، فعدله فأحسن تصويره، ثم نفخ فيه الروح فصار آدم أول مخلوق لجنس البشر وتوالت ذريته من بعده[1].

ح–استحالة معرفة حقيقة الروح:

هل يستطيع أحد أن يصف لنا الصدق: ما لونه؟ وما طعمه؟ وماهيته؟ وما حجمه وما وزنه؟

إن أحد لا يستطيع أن يفعل ذلك لأن الصدق شيء لا لون له ولا طعم ولا

[1] آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، مرجع سابق، ص 44

وزن، ولا حجم له، ولا هيئة، ولا تركيب. ومع ذلك فإن لا أحد يستطيع أن ينكر أن للصدق قوة فاعة لها أثرها في ظاهرة الحياة.

ولست أعني أثرها الاجتماعي حين يتخذها الناس دستوراً لأقوالهم وأعمالهم إنما أعني أثرها الخاص في نفس صاحبها باعتبارها قوة دافعة تجتاز السدود، وتهدر كل اعتبار يعترض سبيلها، أو يتعارض مع غاياتها وأهدافها، فكم رأينا الصدق يهدر اعتبار الصداقة والقرابة ويتخطى بصاحبه كل المواقع والعوائق المعنوية ليقول الحق ضد مصلحة صديقه أو ضد مصلحة ولده، وكم رأيناه يجتاز بصاحبه كل اعتبار للمصلحة الخاصة، ليقول الحق على نفسه، وهو غير آسف على ما يفوته من نفع ولا وجل مما يلحقه من أذى[1].

وهذا يناقض المذهب المادي الذي يقول: تصرفات المرء لا تتأثر إلا بالعوامل المادية القائمة على ما ينبغي لنفسه من نفع اقتصادي دون دخل لأي اعتبار روحي يناقض مصلحته الخاصة. فالصدق إذا قوة كاملة في النفس لها أثرها الواقعي وهو مثلٌ نضربه للعوامل الروحية التي لها آثارها الملموسة في الحياة دون أن ترى بالعين، أو تلمس باليد أو تدرك بحاسة من الحواس، فإذا تقرر هذا سهل علينا أن ندرك شعاعاً من أشعة معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:85]. ولا أقول إن الروح كالصدق، أو أن الصدق كالروح، إنما أقول: إنهما يلتقيان في أنه لكل منهما وجوده الواقعي الذي لا

[1] آدم عليه السلام، بهي الخولي، ص 40

ينكر، دون أن يكون له مادة يتألف منها كيانه. وقد نفخ الله سبحانه فينا سراً من روحه، فكان الصدق والأمانة والشجاعة ونحوها ثمرة من ثماره.

ومحاولة الكشف عن حقيقة الروح ضرب من المستحيل ما دامت حواسنا العادية هي سبيلنا الوحيد لما تحصل عليه عقولنا من علم ومعرفة، فقد استأثر الله تعالى بعلمه وحجب تلك الحواس. إذا ليس لنا من سبيل أو مصدر حق للحديث عنه إلا ما جاء بكتاب الله عز وجل وما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنا سنعول عليهما وحدهما في الحديث عن تلك الهبة الروحية الجليلة وأثرها في حياة الإنسان وصلته بالكون الذي يحيا فيه ببدنه وفكره[1].

خ-بيان الدلائل على خلق الأرواح:

أجمع الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) على أن الروح محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله عليهم، كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث، وأن معاد الأبدان واقع، وأن الله وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الفضيلة على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة[3]. ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنيه

[1] آدم عليه السلام، بهي الخولي، مرجع سابق، ص 40.

[2] الروح، ابن القيم، مرجع سابق، ص 222.

[3] المرجع نفسه، ص 224.

وعيسى ومن سواه من بني آدم مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها واخترعها ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰت لِّقَوْم يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:13][1].

ومن الدلائل على خلق الله تعالى للأرواح:

– قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْء وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْء وَكِيل﴾ [الزمر:62]:

فهذا اللفظ عام لا تخصيص فيه بوجه ما، ولا يدخل في ذلك صفاته، فإنها داخلة في مسمى اسمه، فالله سبحانه هو الإله الموصوف بصفات الكمال بعلمه وقدرته وحياته وإرادته وسمعه وبصره وسائر صفاته داخل في مسمى اسمه ليس داخلاً في الأشياء المخلوقة كما لم تدخل ذاته فيها، فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق. ومعلوم قطعاً أن الروح ليست من الله ولا صفة من صفاته، وإنما هي مصنوع من مصنوعاته فوقع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والجن والإنس.

– قوله تعالى لزكريا عليه السلام: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئا﴾ [مريم:9]؛ وهذا الخطاب لروحه وبدنه وليس لبدنه فقط، فإن البدن وحده لا يفهم ولا يخاطب ولا يعقل، إنما الذي يفهم ويعقل ويخاطب الروح.

– قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ [الأعراف:11]: وهذا الإخبار إنما يتناول أرواحنا وأجسادنا كما يقوله الجمهور.

---

[1] الروح، ابن القيم، المرجع السابق، ص 224.

- النصوص الدالة على أنه سبحانه ربنا ورب آبائنا الأولين ورب كل شيء وهذه الربوبية شاملة لأرواحنا وأبداننا، فالأرواح مربوبة له مملوكة كما أن الأجسام كذلك وكل مربوب مملوك فهو مخلوق.

أول سورة في القرآن وهي الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه منها:

- أحدهما قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:2]. والأرواح من جملة العالم فهو ربها.

- قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5]، فالأرواح عابدة مستعينة ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعان بها.

- أنها فقيرة إلى هداية ربها فاطرها، وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم.

- أن منها أرواح منعم عليها مرحومة، ومغضوب عليها وضالة شقية، وهذا شأن المملوك والمربوب لا شأن القديم غير المخلوق.

- النصوص الدالة على أن الإنسان عبد بجملته وليست عبوديته واقعة على بدنه دون روحه، بل عبودية الروح أصل وعبودية البدن تبع كما أنه تبع لهما في الأحكام، وهي التي تحركه وتستعمله وهي تبع لها في العبودية.

- قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:1]، فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئا مذكوراً، فإنه هو

إنسان بروحه لا ببدنه فقط كما قيل:

ياخادمَ الجسمِ كم تشقى بخدمته   فأنت بالروحِ لا بالجسمِ[1]

– النصوص الدالة على أن الله سبحانه كان ولم يكن شيء: كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين أن أهل اليمن قالوا: يا رسول الله جئناك لنتفقه في الدين، ونسألك عن أوّل هذا الأمر فقال: كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء[2].

فلم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوي وجودها وجوده، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً بل هو الأول وحده لا يشاركه غيره في أوليته بوجه من الوجوه[3].

– النصوص الدالة على خلق الملائكة وهم أرواح مستغنية عن أجسادهم، تقوم بها وهم مخلوقون قبل خلق الإنسان وروحه، فإذا كان الملك الذي يحدث الروح في جسد ابن آدم بنفخته مخلوقاً فكيف تكون الروح الحادثة بنفخة قديمة؟

وهؤلاء المغالطون يظنون أن الملك يرسل الجنين بروح قديمة أزلية بنفخها فيه كما يرسل الرسول بثوب إلى الإنسان يلبسه إياه، وهذا ضلال وخطأ وإنما يرسل الله سبحانه الملك فينفخ فيه نفخة تحدث له الروح وحدوثها له كما كان الوطء والإنزال سبب تكوين جسمه، والغذاء سبب نموه، فمادة الروح من نفخة الملك، ومادة الجسم من صب الماء في الرحم، فهذه مادة سماوية وهذه مادة أرضية، فمن الناس

---

[1] الروح، ابن القيم، مرجع سابق، ص227.

[2] ابن القيم، المرجع السابق، ص228.

[3] ابن القيم، المرجع نفسه، ص 228.

من تغلب عليه المادة السماوية فتصير روحه علوية شريفة تناسب الملائكة، ومنهم من تغلب عليه المادة الأرضية فتصير روحه سفلية ترابية مهينة تناسب الأرواح السفلية، فالملك أب لروحه والتراب أب لبدنه وجسمه[1].

– حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري وغيره عن النبي صلى الله عليه السلام: ﴿الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف والجنود المجندة لاتكون إلا مخلوقة﴾.

– أن الروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال وهذا شأن المخلوق المحدث: قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الزمر: 42]، والأنفس هاهنا هي الأرواح قطعاً، وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي قتادة الأنصاري عن أبيه قال: "سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ذات ليلة، فقلنا: يارسول الله:لو عرست بنا، فقال: إني أخاف أن تناموا فمن يوقظنا للصلاة، فقال: يا رسول الله لو عرست بنا؟ فقال: إني أخاف أن تنامو فمن يوقظنا للصلاة؟ فقال بلال: أنا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعرس بالقوم فاضطجعوا واستند بلال إلى راحلته فغلبته عيناه فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طلع جانب الشمس، فقال يا بلال: أين ما قلت لنا؟ فقال: والذي بعثك بالحق ما ألقيت على نومة مثلها فقال رسول الله صلى الله عليه

---

[1] المرجع نفسه، ص 228.

وسلم: إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء"[1].

فهذه الروح المقبوضة هي النفس التي يتوفاها الله حين موتها وفي منامها وهي التي يتوفاها ملك الموت، وهي التي تتوفاها رسل الله سبحانه وهي التي يجلس ملك عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرها، ويكفنها بكفن من الجنة أو النار، ويصعد بها إلى السماء فتصلي عليها الملائكة أو تلعنها، وقف بين يدي ربها فيقضي فيها أمره، ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه، فيسأل ويمتحن، ويعاقب وينعم، وهي التي تجعل في أجواف الطير الخضر تأكل وتشرب من الجنة، وهي التي تعرض على النار غدواً وعشياً، وهي التي تؤمن وتكفر وتطيع وتعصي، وهي الأمارة بالسوء، وهي اللوامة وهي المطمئنة إلى ربها وأمره وذكره، وهي تعذّب وتنّعم وتسعد وتشقى وتحبس وترسل، وتصح وتسقم، وتلذ وتتألم، وتخاف وتحزن، وما ذاك إلا سمات مخلوق مبدع، وصفات منشأ مخترع وأحكام مربوب مدبر مصّرف تحت مشيئة خالقه وفاطره وبارئه[2]. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند نومه: "اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها، لك مماتها ومحياها، فإن أمسكتها فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين"[3]. وهو تعالى بارئ النفس كما هو بارئ الأجساد قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد:22].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه باب الأذان بعد ذهاب الوقت، رقم الحديث: 595. انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني.

[2] الروح، ابن القيم، المرجع السابق، ص 229

[3] أخرجه مسلم في صحيحه، 2712، باب الذكر والدعاء من حديث عبد الله ابن عمر (رضي الله عنهما).

قيل من قبل أن نبرأ المصيبة، وقيل: من قبل أن نبرأ الأرض، وقيل: من قبل أن نبرأ الأنفس، وهو أولى لأنه أقرب مذكور إلى الضمير ولو قيل: يرجع إلى الثلاثة أي من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس لكان أوجه[1].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر:15]. وهذا الخطاب بالفقر إليه للأرواح والأبدان ليس هو للأبدان فقط وهذا الغناء التام لله وحده لايشركه فيه غيره، وقد أرشد الله سبحانه عباده إلى أوضح ذلك على ذلك بقوله: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ، وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ، وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ، فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ، تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[الواقعة: 83-87]، أي فلولا أن كنتم غير مملوكين ومقهورين ومربوبين ومجازين بأعمالكم تردون الأرواح إلى الأبدان إذا وصلت إلى هذا الموضع، أولا تعلمون بذلك أنها مدينة مملوكة مربوبة محاسبة مجزية بعملها[2].

ع- بيان معنى الروح في القرآن على عدة أوجه: والروح في القرآن على عدة أوجه منها:

أحدها: الوحي كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى:52]. وقوله تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر:15] وسمي الوحي روحاً لما يحصل به من حياة القلوب

---

[1] الروح، ابن القيم، مرجع سابق، ص 229

[2] الروح، ابن القيم، مرجع سابق، ص 230

والأرواح.

الثاني: القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من يشاء من عباده المؤمنين كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: 22].

الثالث: جبريل عليه السلام كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: 193-194].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:97]، وقال تعالى:﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ ﴾[النحل:102].

الرابع: الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا أنها من أمر الله وقد قيل أنها الروح المذكورة في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ [القدر:4].

الخامس: المسيح ابن مريم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء:171] .

وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن الكريم إلا بالنفس:

- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:27].
- وقال تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:2].
- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: 53].
- وقال تعالى: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:93].
- وقال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [الشمس: 7-

.[8

- وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡس ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [آل عمران: 185].

وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح[1]. وتحدث ابن القيم في مباحث متعلقة بالنفس والروح وهل هي شيء واحد أم شيئان متغايران؟، ووجه تسمية الروح والنفس والفرق بينهما وذكر خلاف العلماء في هذه المسائل ثم قال: أما الروح التي تتوفى وتقبض فهي روح واحدة وهي النفس.

وأما ما يؤيد الله به أولياؤه من الروح فهي روح أخرى غير هذه الروح كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوح مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة:22]. وقال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ [المائدة:110]. وكذلك الروح التي يلقيها على من يشاء من عباده هي غير الروح التي في البدن.

وأما القوى التي في البدن، فإنها تسمى أيضاً أرواحاً، فيقال: الروح الباصر، والروح السامع، والروح الشام، فهذه الأرواح قوى مودعة في الأبدان تموت بموت الأبدان وهي غير الروح التي لا تموت بموت البدن ولا تبلى كما يبلى، ويطلق الروح على أخص من هذا كله وهو قوة المعرفة بالله عز وجل والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته، ونسبة هذه الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه، وهي الروح التي يؤيد بها أهل ولايته

---

[1] ابن القيم، المرجع السابق، ص 236

وطاعته، ولهذا يقول الناس: فلان فيه روح، وفلان ما فيه روح، فللعلم روح، وللإحسان روح، وللإخلاص روح، وللمحبة والإنابة روح، وللتوكل والصدق روح، والناس متفاوتون في هذه الأرواح أعظم تفاوت، فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانياً، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيماً، والله المستعان[1].

4- أول قول وفعل لآدم عليه السلام:

بنفخ الروح في آدم صار به خلقاً آخر يختلف عن الحال التي كان عليها، إذ كان جماداً من الجمادات، وبعد أن نفخ الروح صار إنساناً يعقل وينطق، بل ويتلقى الأوامر والتوجيهات من رب العالمين، وهكذا حال ذريته بتحول الجنين من بطن أمه من حال إلى حال، من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام مكسوّة بلحم، وهو في تلك الأطوار جثة لا روح فيها إلى أن ينفخ فيه الروح، فيصير بذلك خلقاً يختلف عن الأو،ل وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَة مِّن طِين ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَة فِي قَرَار مَّكِين ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَة فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَة فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰماً فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 12-14]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾؛ يعني نفخ الروح فيه[2]، فصار بذلك خلقاً آخر ذا عقل وسمع وبصر وحركة، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "لما خلق الله آدم، ونفخَ فيه الروح عطس، فقال: الحمد

---

[1] ابن القيم، المرجع السابق، ص317.

[2] قصة آدم عليه السلام، أبو بكر، ص 38.

لله، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: يرحمك الله يا آدم"[1].

وبدأت حياة أبينا آدم بعطسة، بدءٌ عجيب مثير، يتناسب مع الواحد من أبنائه، حيث يبدأ حياته عند ولادته بصرخة، وسبحان الله الحكيم. وأمر مقصود أن يلهم الله آدم حمده عندما عطس، وبذلك كانت أول كلمة نطق بها آدم ذكراً لله سبحانه، أي افتتح تاريخ البشرية بأول كلمة نطق بها آدم عليه السلام فكانت ذكراً وحمداً منه لله رب العالمين، وهذه بداية إيمانية مقصودة أرادها الله الحكيم سبحانه، وأخبرنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن نفخ الروح في آدم كان في يوم الجمعة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها"[2]، وهذا الحديث يدل على فضل يوم الجمعة، باعتباره أفضل أيام الأسبوع وهو خير يوم طلعت فيه الشمس[3].

أول ما لفظ آدم هو الحمد، الحمد على الروح وعلى الحياة، وعلى التكريم وعلى الإنسانية وعلى المعرفة والتعليم. وليس مصادفة أن تكون الرحمة أول خطاب من الله لآدم يرحمك الله، وقوله سبحانه يرحمك الله ليس دعاء كما قد يتوهم البعض، هو خير وحكم وقرار، واسم "الرحمن الرحيم" أكثر الأسماء الحسنى تردداً في نصوص الشريعة بعد اسم الله، وهما مكرران في سورة الفاتحة، ومن أكثر الأسماء تردداً على ألسنة الخلق، فكلمة "بسم الله الرحمن الرحيم" وتحية "السلام عليكم ورحمة الله"

---

[1] أخرجه الترمذي في صحيحه، رقم 8478. وانظر: ابن خزيمة في التوحيد، 160/1، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، رقم 854، كتاب الجمعة باب فضل يوم الجمعة من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

[3] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص59.

عبارتان واسعتا الاستخدام كثيراً في الحياة الإسلامية[1]. والشعور بالرحمة الإلهية يُولّد الحب، والحب أعظم ما عُبد الله به، وحين تحب فسوف تخاف، تخاف من الفقد والبعد والحرمان، وحين تحب فسوف تستحي، وحيت تحب فسوف تُسرع بالرجوع كلما نأى بك الطريق[2]. فآدم رحمة من الله، وهو مرحوم منه، وحياته تخللتها رحمة الله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [آل عمران:156]؛ ومنها آدم وبنوه. ولما صار آدم مخلوقاً جديداً في هذه المنظومة كان بحاجة إلى التواصل مع من حوله من الملائكة والجن وغيرهم من المخلوقات الأخرى، فكان لا بد من تعليم أدوات التواصل مع الآخرين قبل أي شيء أخر[3].

روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن"[4]. فهذا الحديث يدل على أمور مهمة منها:

– أهمية السلام، هو أنه الوسيلة الوحيدة للتواصل بين المخلوقات المكلفة، ولهذا اقترن مشروعيته بخلق آدم إيذاناً من الله تعالى ببداية تكليف آدم عليه السلام بالآخذ

---

[1] علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص 235.

[2] العودة، المرجع السابق، ص 236.

[3] قصةآدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 38

[4] أخرجه البخاري في صحيحه رقمالحديث 6227كتاب الاستئذان، باب بدء السلام من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

بهذه التشريعات تحقيقاً للعبودية التي من أجلها خلق آدم عليه السلام.

– أن السلام هو التحية الوحيدة المشروعة للتواصل بين بني آدم من زمن أبينا آدم إلى قيام الساعة، وفي جميع الأديان، وذلك في دليل قوله تعالى لآدم عليه السلام في الحديث الشريف: فإنها تحيتك وتحية ذريتك من بعدك، وهو كذلك تحية أهل الجنة في الجنة.

أفكيف بعد هذا بأمة خصها الله بأعظم كتاب أنزل إلى الأرض أن تقلد غيرها من الأمم الكافرة في أخص خصوصياتها السلام الذي هو اسم من أسماء الله، وشعارها الذي يميزها عن غيرها من أمم الأرض.

ولم تعرف الأمة الإسلامية تحية غير تحية الإسلام حتى سقطت معظم البلدان تحت قبضة الاحتلال الصليبي، فتحوَّل السلام في نظر المهزومين نفسياً رمزاً للتخلف والرجعية، واستمر الوضع على هذا إلى أن انتشرت هذه الصحوة المباركة في ربوع البلدان الإسلامية؛ فأعادت بحمد الله إلى الإسلام مكانته وأحيته من جديد امتثالاً لقول نبينا صلى الله عليه وسلم: أفشوا السلام بينكم[1].

– إن آدم عليه السلام كغيره من الأنبياء أعطاه الله القدرة على رؤية الملائكة لأن الله لم يقل له: اذهب إلى أولئك الملائكة. إلا وهو يراهم ويشاهدهم وهم على صورتهم الأصلية.

– أن زيادة الملائكة على لفظ آدم في السلام بلفظ ورحمة الله دليل على أن هذا

---

[1] قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص 39

السلام كان معروفاً لدى الملائكة قبل آدم عليه السلام ومعمول به فيما بينهم.

والسلام الكامل: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) وهو مبذول لكل أحد بدئاً وردّاً ومثله البر والإقساط والإحسان لمن لم يتورط في حرب أو عدوان[1].

5. صورة آدم بشرية وطوله وجماله:

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "خلق الله آدم على صورته ستون ذراعاً، ثم قال له: اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فذهب فقال السلام عليكم فقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم في طوله، ستون ذراعاً، فلم تزل الخلق بعده تنقص حتى الآن"[2].

أ- معنى حديث خلق الله آدم على صورته:

إن هذا الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم لنا معلومات في غاية الأهمية، فيما يتعلق بأبينا آدم عليه السلام، وبقصة بدء الخلق، إن الهاء في "على صورته" تعود إلى آدم عليه السلام وهو أقرب مذكور قبلها (خلق الله آدم على صورته)، والمراد بصورته صورته التي أهبطها الله عليها إلى الأرض وعاشها على الأرض ورآها عليه أولاده، وهو صورته البشرية وجسمه الآدمي بأعضائه وأجهزته وهي أعضاء وأجهزة جسم كل منا، أي أن آدم عليه السلام خلق في الجنة وعاش فيها

---

[1] علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص 238

[2] أخرجه البخاري في صحيحه رقم، 3326، كتاب أحاديث الأنبياء باب خلق آدم وذريته منحديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

مدة من الزمان وكان في الجنة على نفس الصورة والجسم والأعضاء والأجهزة التي رآها عليه أولاده[1].

إن الصورة التي رآها عليه أولاده على الأرض والتي خلق الله عليها ذريته جميعاً من البشر هي نفس الصورة التي خلقها الله عليها في الجنة وهي الصورة البشرية المعروفة ومما يؤكد معنى هذا الحديث تأكيد القرآن على بشرية آدم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرا مِّن صَلْصَٰل مِّنْ حَمَإ مَّسْنُون﴾ [الحجر: 28]. والآدمي هو كل إنسان من الناس، وآدم عليه السلام هو أبو البشر وأولهم، والبشر مشتق من البشرة وهو ظاهر جسم الإنسان[2].

ب- طول آدم ستون ذراعاً:

يخبرنا هذا الحديث الصحيح أن آدم عليه السلام كان أطول منا قامة، فالله جعل طوله ستين ذراعاً وهو ما يزيد على أربعين متر وهذا ارتفاع شاهق، إن قامات الناس أقل من مترين وشذّ من يزيد طوله على مترين سنتمترات، إن آدم عليه السلام كان أطول منا بحوالي ثلاثين ضعفاً وهذا أمر عجيب، لكنه ليس مستحيلاً لأن الله الذي خلقه على ذلك الطول وهو الحكيم فيما يفعل، الفعال لما يريد سبحانه فطالما أراد خلق إنسان بهذا الطول فسيفعل ذلك. والأساس هو صحة الحديث وبما أن الحديث في الصحيحين فهو صحيح ويجب علينا الأخذ به ولا يجوز إنكاره.

---

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص61.

[2] سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 62.

وإن اللطيف هو أن الله يُعيد للمؤمنين طول أبيهم آدم عليه السلام في الجنة فكل واحد منهم يدخل الجنة وطوله ستون ذراعاً، فليس في الجنة طويل أو قصير لأنهم جميعاً على مقاس واحد لئلا يقع بينهم تحاسد أو تباغض أو غيره، والجنة منزهة عن هذه النقائص، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن"[1]. وقد أخبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث السابق أنه ما زال الخلق يتناقص عن آدم بعد ذلك، وهذه معلومة في غاية الأهمية أيضاً، ومازال أبناء آدم عليه السلام يقصرون وطولهم يتناقص حتى صار متوسط طول البشر في زماننا حوالي مائة وسبعين سنتمتر.

إن هذا الحديث الصحيح يُقرر عكس نظرية دارون في النشوء والارتقاء[2]، والتي سيآتي الحديث عنها لاحقاً بإذن الله. فالحديث يُقرر أن الله هو الذي خلق آدم، وأنه خلقه بشر سوياً من أول لحظة في حياته التي عاشها في الجنة وأن كان طويلاً ساحقاً طوله ستون ذراعاً وأن أولاده مازالوا يتناقصون طولاً وعمراً[3].

ج- جمال آدم وحسن صورته وإتقان خلقه:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء باب خلق آدم عليه السلام وذريته، رقم الحديث 3148.

[2] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 63.

[3] الخالدي، المرجع السابق، ص64.

[السجدة:7]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين:4]، وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص:75]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآء وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر:64]، ونستطيع أن ندرك من خلال الآيات الكريمة عن خلق الإنسان وتصويره، إن آدم كان في صورته وشكله وكماله في أجل صورة من صور الجمال والكمال والوجاهة والحسن والبهاء، قال تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَة مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:8]، فآدم عليه السلام:

- هو من صُنع يدي الله وكلنا من خلق الله عز وجل ولكن آدم تميز عنا بأنه الصنعة المباشرة التي عملت فيه يد الله. قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص:75].

- هو المتمتع الأول بنفخة روح الله فيه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص:72].

- هو الذي قال الله عنه أنه خلقه في أحسن تقويم.

- هذا أحد ذرية آدم قد أُعطي نصف الحسن الموجود وجمال الطلعة وكمال الخلق، ففي مسند الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم: "أعطي يوسف عليه السلام شطر الحسن"[1].

وقد حكى القرآن أيضاً عن جمال يوسف أن النسوة التي جمعتهن امرأة العزيز ليرين يوسف أنهن وصفنه وقلن عنه: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:31]. إذن، فآدم عليه السلام كان من الحسن والجمال والكمال والشكل والصورة مايفوق ابنه يوسف فجينيات وموروثات صفاته كانت بالطبع منقولة من الأب والأصل آدم.

ومن ذرية آدم كذلك من وصف بأكمل الصفات والميزات فوصف بأنه على خلق عظيم، وبأنه النور وبأنه السراج المنير، وبأنه رؤوف رحيم وبأنه خير ولد آدم، وأنه أول شافع، وأول مشفع وأول من يطرق حلق باب الجنة فتفتح له، وهو محمد صلى الله عليه وسلم. هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بكل جماله الحسي والمعنوي، وصفاته الكريمة، ومناقبه العظيمة، فرع من آدم عليه السلام وذرية من نسله إذاً فكل جمال وكمال يوصف به النبي صلى الله عليه وسلم لأبيه آدم منه حظ ونصيب.

فالمخلوق الأول آدم عليه السلام من المؤكد أنه كان مخلوق تام الحسن والجمال مكتمل الصفات لا عيب فيه ولا تَشوه ولا أمراض ولا عوارض أخرى تكتنفه، كما ستسلط بعد ذلك على ذريته فتنقص من جمالهم وكمال أوصافهم وآدم عليه السلام كان جماله كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم كالقمر ليلة البدر جمالاً وإشراقاً

[1] آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، مرجع سابق، ص49. وانظر: الحديث في مسند الإمام أحمد.

وبهاءً ونوراً فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على ضوء أشدِ كوكبٍ دري في السماء السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوَّطون ولا يمتخَّطون ولا يتفُلون أمشاطهم الذهب ورشحُهم المسك ومجامرهم الألوة أزواجهم الحور العين أخلاقُهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً"[1].

إن عناية الله بأمرِ آدم عليه السلام، تشير بأن له شأناً عظيماً عند الله جل في علاه، ووزناً في نظام هذا الوجود، وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق سواءِ في تكوينه الجسماني البالغ الدقة والتعقيد، وفي تكوينه العقلي الفريد، وفي تكوينه الروحي العجيب، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4].

وإن كان هذا الشرح بديهياً للمسلم المؤمن بكلام ربه، فإنه من الأهمية بمكان لغير المسلم ولمجادلة المكذبين والمدعيين الذين يدعون نظريات شتى عن خلق الإنسان، ففي هذه الآية بيان ورد على كل من ادعى أن الإنسان متطور من حيوان أدنى منه مرتبة، وأنه مر بمراحل من الخلق أدنى من المستوى الذي هو عليه الآن، فالآية نص صريح قاطع أن بداية خلق الإنسان وإيجاده من العدم كانت ابتداء في غاية الدقة وروعة الصنعة وأنه خلق خلقاً أولياً في أحسن صورة وأتم خلقة، فصيغة التفضيل أحسن تثبت أن الإنسان الأول آدم خلق في أفضل صورة ممكنة. وكلمة

[1] آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، مرجع سابق، ص50. الحديث في سنن ابن ماجه، رقم 3513.

تقويم يندرج تحتها معاني لا حصر لها في اكتمال خلقة الإنسان عضوياً ونفسياً وفكرياً[1]. وتفتح المجال واسعاً للباحثين الجادين. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 6-8].

6. زوجة آدم عليه السلام وأبوته:

أ- زوجة آدم عليه السلام وأمنا حواء:

تحدثنا عن أمنا العزيزة حواء في تفسير سورة البقرة بشكل مفصل، وذكرنا أقوال العلماء في خَلق الله عز وجل لأمنا حواء، وملت إلى رأي الشيخ محمد متولي الشعراوي والدكتور صلاح الخالدي، وقد ذكر الدكتور الحاج محمد وصفي بأن القصة توحي بأن الله خلق زوج آدم من نفس العناصر والمكونات التي خلق الله منها آدم عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿يأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡس وَٰحِدَة وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالا كَثِيرا وَنِسَآء وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبا﴾ [النساء:1]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡس وَٰحِدَة وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ [الأعراف: 189]، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡس وَٰحِدَة ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [الزمر:6]. فزوج آدم خلقت من نفس العناصر التي خلق منها آدم، وأن نفسها نفس إنسانية، فهي

[1] آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، المرجع نفسه، ص 51.

من الجنس البشري، وليست من جنس الملائكة أو الجن أو الحيوانات. فالله خلق زوج آدم من نفس نوع آدم كما خلق لنا من أنفسنا أزواجاً، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجا﴾ [النحل:72]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّة وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰت لِّقَوۡم يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:21]. وليس معنى هذا أن الله خلق من ضلوعنا أزواجاً، ومثل ما تقدم في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُول مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوف رَّحِيم﴾ [التوبة:128].

أيّ: من الجنس البشري من بني آدم وليس من جنس الملائكة[1]، قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَة يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكا رَّسُولا﴾ [الإسراء: 95]. وأما الحديث الذي جاء فيه: "استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج مافي الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً"[2]، فإنما يدل على معنى مجازي وهو أن المرأة قد خلقت أنثى لها صفاتها الخلقية والعقلية والنفسية الخاصة بأنوثتها، والتي قد يعتبرها البعض شذوذاً فيها أو انحرافاً، إذا حاول مقارنتها بالصفات المميزة للرجولة، فإذا حاول أن يقيم ما يتوهمه فيها من اعوجاج فقدها، وفقد ما يحتاج إليه من عاطفة ورقة وضعف وغير ذلك من مميزات المرأة الطبيعية، فهي كالضلع الذي وضعه الله

[1] الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والمرسلين، محمد وصفي، دار ابن حزم، ط1، 1418هـ/ 1997م، ص 24

[2] أخرجه البخاري في صحيحه رقم الحديث 3116، كتاب النكاح باب الوصاة بالنساء

على صورة خاصة من القفص الصدري، فإذا حاول المرء أن يقيم ضلعه أفقده وظيفته، وكان هذا وبالاً عليه فقد خلقه الله ملائماً للقوام الجسماني وللوظائف الوظيفية العضوية الفيسولوجية في البدن[1].

ب-أبوة آدم عليه السلام:

آدم وحواء كانا بلا أب ولا أم، بل هما أبو البشرية جمعاء، وإن أبوهما الطين والتراب والأرض، ولو وضع آدم شجرته التاريخية، لكانت:

- الماء/ التُّراب.
- الطين.
- الطين اللازب.
- الحمأ المسنون.
- الصلصال.
- نفخ الروح.

لم ينظر آدم إلى الوراء ليبحث عن شجرة نسبه، نظر إلى الأمام ليضع امتداده العظيم بزواجه وإنجابه وأفلح في بناء أسرته العريقة الواسعة الباسقة، بمقدورنا أن نصنع الشيء ذاته. انظر أمامك واصنع نفسك وشجرتك بنفسك تزوج أنجب فهذه أسرتك وهذا نسبك، واضرب في الأرض لن تسأل عن غيرك ولن يسأل عنك غيرك.

كن ابن من شئت واكتسب أدباً   يغنيك محموده عن النسب

---

[1] الارتباط الزمني والعقائدي، الوصفي، مرجع سابق، ص 25.

إن الفتى من يقول ها أنا ذا   ليس الفتى من يقول كان أبي

آدم هو الأب وليس له أب، لم يكن قلق أو مكتئب لأنه بلا آب ولا حزيناً لأنه الرجل رقم واحد في أسرته هكذا أنت فكن. لم تعرف والديك ولم ترهم لسبب ما، وفاة وضع غامض، خلاف عائلي عميق أنت ضحيته، حروب حالات لجوء، سرقة، اختطاف، اتجار بالبشر، الأسباب متنوعة والمؤدى واحد أنك أعزل لا تنتمي لأسرة معروفة، أجدادك القدماء معروفون وهم بلا أبوين، ولذا سلموا من فساد الطباع الذي كثيراً ما ينتقل بالجينات من الآباء إلى الأبناء وسلموا من سوء التربية وتأثير البشرية المحيطة.

- الآبائية أحياناً نشوة الخيال وتجعل الابن على مسار والديه طوعاً أو كرهاً، وتحجم فرص الاختيار الحر الرشيد، ومثله كما قال الله تعالى على لسان أمثاله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:22].

- آدم بكل مرجعية طبيعية تمكن من الانفكاك عن سلطة الآباء والأجداد والبيئة السابقة غير الرشيدة وقصة آدم ليست تشريعاً كلها ولكنها أساس لفهم الواقع والإنسان والملكات والمواهب والإبداع والفطرة.

- القرآن يخاطبنا يا بني آدم تذكيراً بالأصل وتحقيقاً للمساواة الأولية فهل نستشعر أننا أبناء آدم حقا؟ وهل نعي معنى كوننا أبناء نبي؟ كان أبونا في منتهى الجمال جسداً وروحاً.

بنفس النتيجة جدتك حواء كانت بلا أب ولا أم، تخيلي عندما تعرض لها

مشكلة أو يطرأ سؤال أو هَم أو ألم لمن كانت تشكو وتنوح؟

تلك الوردة الأولى النابتة في الطين ومن الطين، تنفتح للحياة والحب والأمل، وتحمل وتنجب وتنفث عطرها الجميل كانت تعرف ربها السميع الرحيم القدير العليم الحكيم، وتعرف زوجها الحنون وتنشغل بحياتها وذريتها وتدبير معيشتها[1].

– نوح عليه السلام كان أباً ثانياً للبشرية لأن الطوفان عم الأرض وقد ذكر تعالى قصة ابنه الذي غرق وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود:46]. تأكيداً على مبدأ مسؤولية الإنسان عن ذاته وانفكاك الابن عن أبيه والأب عن ابنه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الإنفطار:19].

– عيسى عليه السلام بلا آب وقد ملأ الدنيا ذكراً وحباً وسلاماً، وقصة آدم عليه السلام مرجع في تفسير ما أشكل في شأن عيسى، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَاب ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:59]؛ فأراد الله أن ينفي كون عيسى إله أو ابنا للإله تعالى الله.

– فَضّل الله عيسى بالنبوة والرسالة، ورفعه إليه في السماوت العُلى، وكان آية للعالمين، وقلّما يرد ذكره في القرآن إلا مقروناً باسم والدته قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَة مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيها فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ، وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل

[1] علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص 38

عمران: 45][1].

– إن لم يكن لديك أب فلكَ رب، وكم من مربّ أو مربية قاموا مقام الوالد، ورب أخٍ لك لم تلده أمك.

إن يكدِ مطّرف الإخاء فإننا نغدو ونسري في إخاء تال

أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدّر من غمام واحد

أو يفترق نسب يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد[2].

ج– ذرية آدم عليه السلام:

الله سبحانه وتعالى الذي خلق آدم من تراب إلى أن أصبح إنساناً كاملاً، يتناسل ويتكاثر بالتزاوج يحمل شيئاً من السر الإلهي في الخلق وهي الروح، لهو دليل على قدرته تعالى وسعة علمه التي يجب على الإنسان أن يستشعرها في حياته فيشكر الله على نعمه الكثيرة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرا فَجَعَلَهُۥ نَسَبا وَصِهۡراۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرا﴾ [الفرقان: 54]. فهو القادر سبحانه على أن يهب الذكور لمن يشاء من خلقه ويهب الإناث لمن شاء منهم ويهب الذكور والإناث لمن شاء ويجعل من يشاء عقيماً[3].

قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثا

1 علمني أبي، العودة، المرجع السابق، ص 39.

2 العودة، المرجع نفسه، ص50. والشعر قاله أبو تمام وهو يصف عمق العلاقة الأدبية مع على بن الجهم.

3 التربية الجنسية في الإسلام، عبد الرحمن داود، شركة دار البيروني، الطبعة الأولى 2017م، ص 194.

وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانا وَإِنَاثاًۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيم قَدِير﴾ [الشورى: 49-50]، فهي قدرة الله وعلمه بعلل الأشياء، يعلم الله تعالى لماذا وهب هؤلاء ذكوراً، وأولئك إناثاً، وغيرهم ذكوراً وإناثاً، كما يعلم أن ما يناسب غيرهم من الناس ألا ينجبوا إناثاً ولا ذكوراً، وهي قدرته التي تنفذ ماسبق في قدرته[1].

أتقن الله تعالى خلق آدم عليه السلام من تراب ثم جعل ذريته من تكاثر وتزاوج، فما أعظم حكمة الله تعالى في ذلك وجعل الله في الإنسان السمع والبصر والفؤاد، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل:78]. فهي تسمع وترى وتعقل فالسمع أقواها وأحدها، ثم البصر، وماينقله السمع ينقله البصر من مفردات فيذهبان به إلى الفؤاد ليحلل ما سُمِعَ وما رُئي ثم يصدر الأوامر بحسب ذلك، فعلى الإنسان أن يبادر إلى شكر الله بالقيام بالعمل الصالح وعدم القيام بالعمل الفاسد بل وتجنبه ويجب علينا شكر الله على خلقنا وإيجادنا[2].

7- مرحلة خلق الإنسان في الرحم:

ذكر الله القرآن المرحلة الأولى من خلق الإنسان الأول عليه السلام، وكان ذكره لهذه المرحلة بما يناسبها من حجم وأهمية، ولما جاء الحديث عن مرحلة الرحم، بَيَّنت الآيات القرآنية هذه المرحلة بكل خطواتها بكل دقة وعلمية وبألفاظ بسيطة سهلة،

---

[1] داود، المرجع نفسه، ص 194.

[2] التربية الجنسية في الإسلام، داود، مرجع سابق، ص 195.

سهلة التناول والفهم، حيث يقول الطبيب الفرنسي بوكاي في هذا المقام: "أن القرآن الكريم يعدد مراحل الخلق بدقة وتحديد دون أي يكون في قرائتها أي مقولة مشوبة بالخطأ، إنه يعبر عن ذلك بعبارات بسيطة، يسهل على فهم الإنسان إدراكها، وتتفق تماماً مع ما سيكتشف بعد ذلك بكثير، وإن مقولات القرآن عن التناسل البشري تعبر في ألفاظ بسيطة عن حقائق أولى أنفقت مئات السنين"[1].

لذا نجد أن القرآن الكريم قد أشار إلى هذه المرحلة فجعلها في أربع خطوات أساسية، وهي خطوة النطفة وخطوة القرار، وخطوة العلقة وأخيراً خطوة المضغة والعظام والكسيّ باللحم والإنشاء خلقاً آخر، فالخطوة الأولى والثانية والثالثة ذكرت بالقرآن منفردة كما ذكرت مع غيرها مع الخطوات، وأما الخطوة الرابعة التي ضمت تغيرات معينة فقد ذكرت مجموعة في القرآن الكريم، حيث جعلها القرآن الكريم خطوة واحدة نتناول الخطوات فيما يلي تباعاً[2]:

أ- الخطوة الأولى: النطفة:

وهي من أكثر الخطوات ذكراً ووصفاً في القرآن الكريم ومجمل ما وصفها القرآن الكريم خمس صفات:

نطفة، تُمنى، أمشاج، محل تكوينها في الصلب والترائب، محل التخزين مستقر ومستودع[3].

1العلم بين التوراة والإنجيل والقرآن، مورس بوكاي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1425هـ-2004م، بتصرف.

2 التربية الجنسية في الإسلام، داود، مرجع سابق، ص 197.

3 داود، المرجع نفسه، ص 197.

والنطفة: الماء الصافي قليلاً كان أو كثيراً فمن القليل نطفة الإنسان[1]، والنطفة التي خلق منها الإنسان ليست قاصرة على نوع واحد، بل هي ثلاثة أنواع كل نوع يسمى نطفة وإن اختلفت إطلاقاته.

فالنوع الأول: النطفة المذكّرة: هي الحيوانات المنوية الموجودة في المني، والتي تفرزها الخصية.

النوع الثاني: النطفة المؤنثة: هي البيضة التي يفرزها المبيض مرة في الشهر.

النوع الثالث: النطفة الأمشاج[2]، وهي النطفة المختلطة من الحيوان المنوي الذي يلقح البويضة أي (البويضة الملقحة)[3]. فهذه الأنواع الثلاثة للنطفة تشير إلى أن الله يخلق الجنين من نطفة الرجل ونطفة المرأة، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة:39][4].

- تعدد إطلاقات بداية خلق الإنسان:

يذكر سبحانه في آيات خلق الإنسان أن يبتدئ أول مراحل خلق الإنسان بالنطفة كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ [المؤمنون:12-13]، ومرة أخرى يقول سبحانه إنه خلق الإنسان من ماء دافق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٖ

---

[1] تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء صالح البحر، ص120.

[2] رجاء الصالح، المرجع السابق، ص 120.

[3] خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار، ص107.

[4] تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص121.

دَافِقٖ﴾ [الطارق: 5-6].

وبعد معرفة هذه الإطلاقات يتبادر إلى الذهن سؤال وهو لماذا اختلفت إطلاقات بداية خلق الإنسان؟

أقول والله أعلم بالصواب: إن تعدد الإطلاقات على بداية خلق الإنسان فيه إشارة معجزة إلى بيان أصل كل جزء خلق الله منه الإنسان[1]. فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [السجدة: 8]، فهنا يذكر الإنسان أنه خلق الإنسان من سلالة والسلالة: هي من خلاصة سُلّت من بين الكد[2]، وقيل: وسلالة الشيء من ما استلَّ منه والنطفة سلالة الإنسان[3].

فالسلالة هي جزء من الماء البشري، ثم حدد سبحانه هذا الجزء وبينه لنا فسماه النطفة كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ [القيامة:37]. ولم يدرك البشر هذه الحقيقة المعجزة في خلق الإنسان إلى ما بعد مضي وقت طويل وبعد تطور العلوم الطبيعية أدرك الأطباء هذه الحقيقة[4].

ويقول الدكتور محمد البار: إن القرآن الكريم قد ميز بين النطفة والمني، فجعل النطفة جزءاً من المني، ونحن نعلم الآن أن جزءاً يسيراً جداً من المني هو الذي يخلق الله منه الولد، فالدفقة الواحدة من المني تحمل مائتي مليون حيوان منوي، والذي

[1] البحر، المرجع نفسه، ص 121.

[2] الكليات، ص 519. وانظر: تنوع خطاب القرآن، ص 122.

[3] مختار الصحاح، الرازي، مرجع سابق، ص310.

[4] تنوع الخطاب القرآني في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص 132.

يلقح البويضة هو حيوان منوي واحد فقط[1]. ولقد أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى هذا في الحديث الذي يرويه أبو سعيد الخدري يقول: سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزل! فقال: "ما من كُل الماء يكون الولد وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء"[2].

وكما بين سبحانه أن من النطفة التي هي جزء من أجزاء الماء البشري يخلق الزوجين الذكر والأنثى، فقد خصص سبحانه أي النطف التي تحدد جنس الكائن الإنساني فقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَة مِّن مَّنِيّ يُمۡنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَة فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: 37-39]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ، مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ [النجم: 45-46]. ويقول الدكتور محمد البار في الإشارة العلمية التي احتوتها الآية: ولم تكتف الآية الكريمة بذلك بل إنها قالت إن خلق الزوجين الذكر والأنثى هو من النطفة التي تمنى، حيث يقول سبحانه في نفس الآية الكريمة فجعل منه أي المني، الزوجين الذكر والأنثى كما يقول في الآية الكريمة في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ، مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ [النجم: 45-46].

إذن، الذكورة والأنوثة في الجنين يحددها الحيوان المنوي الذي تختاره القدرة الإلهية المبدعة، فإذا أراد الله إيجاد ولد ذكر لقح حيوان منوي يحمل شارة الذكور البويضة،

---

[1] خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار، مرجع سابق، ص109.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه كتاب النكاح باب حكم العزل، رقم الحديث 1438.

وإن أراد سبحانه وتعالى أن يخلق أنثى جعل الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الأنوثة هو الذي يلقح بويضة المرأة[1]. ووصفه سبحانه بأنه ماء مهين كما قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [السجدة:8]، مُهين: حقير[2]، وهو ليس حقيراً في ذاته، ولكن لعدم إدراك الإنسان لهذا الماء وما يحتويه فهو يريقه دون إدراك لعجيب ما خلق الله فيه من أصل الكائن البشري[3].

يقول الدكتور محمد البار: وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه ماء مهين، لأنه يراق ويسفح ويهان ولا يكرم ولا ينتبه له أحد[4]. وذكر سبحانه أنه خلق الإنسان من ماء دافق كما قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ [الطارق: 5-6]. وقد وصفه سبحانه بأنه ماء دافق، والدافق السائل بسرعة[5]، والدفق: الصب، دفق الماء يدفقه، ويدفقه: فهو ماء دافق أي مدفوق[6].

إذاً فالآية تشير إلى أن هذا الماء له حرية الحركة والتدفق ولكن ماهو سبب تدفقه؟ يقول د.محمد البار في سبب تدفق هذا الماء: وسبب تدفقه تقلصات في جدار الحويصلة المنوية مع تقلصات القناة القاذفة للمني وتقلصات عضلات

---

[1] خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار، مرجع سابق، ص 111.

[2] مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، مرجع سابق، ص 638.

[3] تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص123.

[4] خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار، مرجع سابق، ص 112.

[5] مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم 1430هـ 2009م الطبعة الرابعة، ص 316.

[6] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، 604/2.

العجان[1]. فكلمة دافق: كلمة موجزة معجزة لما تعلمه من تعبيرات ومعان ترشد العاقل إلى عظمة من تكلم بهذا الكلام المعجز. وبعد هذه الآية المباشرة ذكر لنا سبحانه أماكن تدفق هذا الماء فقال تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآء دَافِق، يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: 6-7].

الصلب والترائب: قبل أن نعرض لكيفية تدفق الماء البشري من بين الصلب والترائب نعرف كلاً من الصلب والترائب:

- الصلب:

يقول الراغب الأصفهاني في معنى الصلب، الصُّلب: الشديد وباعتبار الصلابة والشدة سمي الظهر صلباً[2]، وجاء في معناه: الصلب عظم من لدن الكاهل إلى العجب[3].

- الترائب:

الترائب هي ضلوع الصدر، الواحدة تريبة[4]. يقول الفيروز آباد في معنى الترائب: الترائب: ضلوع الصدر أو ما ولي الترقوتين منهما أو ما بين الثديين والترقويتين أو أربع أضلاع من يمنة الصدر أو وأربع من يسرته، أو اليدان، والرجلان، والعينان، أو

---

[1] خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار، مرجع سابق، ص112.

[2] مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني، مرجع سابق، ص 489

[3] القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ص 135

[4] مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني، مرجع سابق، ص 165

موضع القلادة[1].

ومن معانيها الترائب: عظام الصدر مما يلي الترقوتين وهي موضع القلادة واحدتها تريبة[2]. فهذه المعاني اللغوية لكل من الصلب والترائب الواردة في الآية.

ولكن مع اختلاف المكانيين اللذين يخرج من بينهما هذا الماء، لماذا قال سبحانه ماء ولم يقل مائيين؟ يقول النسفي: وقوله: من ماء دافق ولم يقل من مائيين لامتزاجها بالرحم واتحادها فيما ابتدئ في خلقه[3]، ومما يلفت أنظارنا أن الآية قال فيها سبحانه: يخرج من بين الصلب والترائب ولم يقل من الصلب والترائب. أي من بين صلب كل واحد منهما من الرجل والمرأة وترائب كل منهما. وإنما قال من بين الصلب والترائب على اعتبار أن الرجل والمرأة يصيران كالشيء الواحد فكائن الصلب والترائب لشخص واحد[4].

ويذكر الرازي الإعجاز القرآني في تخصيص هذين العضوين بالذكر، فيقول: ولا شك أن أعظم الأعضاء معونة في توليد المني هو الدماغ وللدماغ خليفة وهو النخاع وهو في القلب، وله شعب كثيرة نازلة إلى مقدم البدن وهي التريبة، فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضويين بالذكر[5].

---

[1] بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، مرجع سابق، 297/2

[2] المعجم الوسيط، 86/1. انظر: مختار الصحاح، ص76.

[3] مدارك التنزيل وحدائق التأويل، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، 677/3.

[4] روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، 97/30 بتصرف.

[5] تفسير الرازي، مرجع سابق، 118/31.

ويَذكر الدكتور محمد علي البار تفصيلاً علمياً في سبب تخصيص هذين العضويين للذكر مما يكشف الإعجاز العلمي في القرآن فيقول: تقول الآية الكريمة أن الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب ونحن قلنا إن هذا الماء المني إنما يتكون من الخصية وملحقاتها كما تتكون البويضة في المبيض لدى المرأة، فكيف تتطابق الحقيقة العلمية مع الحقيقة القرآنية؟

إن الخصية والمبيض إنما يتكونان من الأعضاء التناسلية بين صلب الجنين وترائبه. والصلب: هو العمود الفقري، والترائب: هي الأضلاع، وتتكون الخصية والمبيض في هذه المنطقة بالضبط أيّ بين الصلب والترائب، ثم تنزل الخصية تدريجياً حتى تنزل إلى كيس الصفن خارج الجسم في أواخر الشهر السابع من الحمل بينما ينزل المبيض إلى حوض المرآة ولا ينزل أسفل من ذلك. ومع هذا فإن تغذية الخصية والمبيض بالدماء والأعصاب تبقى من حيث أصلها أيّ من بين الصلب والترائب، فشريان الخصية أو المبيض يأتي من الشريان الأبهر، الأورطي البطني من بين الصلب والترائب كما أن وريد الخصية يصب في نفس المنطقة يصب في الوريد الأيسر من الوريد العلوي الأيسر بينما يصب وريد الخصية الأيمن في الوريد الأجوف السفلي، وكذلك أوردة المبيض وشريانها تصب في نفس المنطقة أي بين الصلب والترائب كما أن الأعصاب المغذية للخصية أو المبيض تأتي من المجموعه العصبية الموجودة من بين الصلب والترائب، فهل يبقى بعد هذا شك أن الخصية أو المبيض إنما تأخذ تغذيتها ودمائها وأعصابها من بين الصلب والترائب، فالحيوانات المنوية لدى الرجل أو

البويضة لدى المرأة إنما تستقى مواد تكوينها من بين الصلب والترائب كما أن منشأها ومبدأها هو من بين الصلب والترائب، والآية الكريمة إعجاز كامل حيث تقول يخرج من بين الصلب والترائب ولم تقل من الصلب والترائب فكلمة بين ليست بلاغية فحسب، وإنما تعطي الدقة العلمية المتناهية[1].

وبعد معرفة حقيقة تدفق ذلك الماء ومعرفة مكان أصل تدفقه أنه من بين الصلب والترائب، وليس من الصلب والترائب يتبين لنا الإعجاز اللغوي والعلمي الذي احتوته تلك الآية العظيمة[2].

- مكان نشأة النطف:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡس وَٰحِدَة فَمُسۡتَقَرّ وَمُسۡتَوۡدَع قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡم يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام:98]. ولقد تعددت أقوال المفسرين في معنى المستقر والمستودع، فيقول الطبري في تفسيره: وإلهكم، أيها المجادلون بالله الذي أنشأكم يعني: الذي ابتدأ خلقكم من غير شيء فأوجدكم بعد أن لم تكونوا شيئاً من نفس واحدة يعني من آدم وأما قوله فمستقر ومستودع: فإن أهل التأويل مختلفون فقال بعضهم معنى ذلك وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمنكم، مستقر في الرحم، ومنكم مستودع في القبر حتى يبعثه الله لنشر القيامة. وقال آخرون: المستقر: في القبر والمستودع في الدنيا[3].

---

[1] تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص 127.

[2] المرجع نفسه، ص 127.

[3] جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، مرجع سابق، 5/ص281.

ثم يذكر قوله: وأولى التأويلات في ذلك بالصواب أن يُقال إن الله جل ثناؤه عمَّ بقوله فمستقر ومستودع كل خلقه الذي أنشأ من نفسٍ واحدة، مستقراً ومستودعاً، ولم يخصص من ذلك معنى دون معنى.

ولا شك أن من بني آدم من هو مستقر في الرحم ومستودع في الصلب، ومنهم من هو مستقر على ظهر الأرض أو بطنها ومستودع في أصلاب الرجال، ومنهم مستقر في القبر ومستودع على ظهر الأرض فكل مستقر أو مستودع ومعنى من هذه المعاني داخل في عموم قوله فمستقر ومستودع ومراد به إلى أن يأتي خبر يجب التسليم له بأنه معنيٌّ به معنى دون معنى وخاص دون عام[1].

يقول الرازي: كثر اختلاف المفسرين في تفسير هذين اللفظين على أقوال[2]: وأولى هذه الأقوال المنقول عن ابن عباس في أكثر الروايات[3]، أن المستقر هو الأرحام والمستودع هو الأصلاب، ومما يدل على قوة هذا القول: أن النطفة الواحدة لا تبقى في صلب الأب زماناً طويلاً والجنين يبقى في رحم الأم زماناً طويلاً، ولما كان المكث في الرحم أكثر مما في صلب الأب كان حمل الاستقرار على المكث في الرحم أولى[4].

والطب الحديث يؤكد ما قاله ابن عباس في أن المستقر: هو الرحم، والمستودع: هو الصلب.

---

[1] تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص 129.

[2] المرجع نفسه، ص 129

3 تفسير الرازي، مرجع سابق، 84/12.

[4] تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص 129

يقول الدكتور داوود سليمان السعدي ويأتي الطب الحديث ويعطينا تفسيراً دقيقاً لتلك الكلمتين التي عبرتا عن الجهاز التناسلي للإنسان تعبيراً قرآنياً سامياً في بلاغته المعجزة فالمستقر الرحم. والمستودع الخصيتان والمبيضان فالأنطاف الذكرية تستودع في الخصيتين والأنطاف الأنثوية في المبيضيين ومن المستودع المخزن تخرج نطفتا الذكر والأنثى وتلتقيان ثم تتحدان مكونتين النطفة الأمشاج البويضة المخصبة التي تجد لها في الرحم مقراً مكيناً به يحفظها ويمدها بأسباب الحياة والنمو حتى تستوي إنساناً كاملاً[1].

- الأمشاج:

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:2].

يقول الطبري: أن الله تعالى خلق ذرية آدم عليه السلام من نطفة من ماء الرجل وماء المرأة، وهذه النطفة ممشوجة أي مخلوطة من عدة أخلاط وذلك للابتلاء والاختبار[2]. ومن المعلوم طبياً أن النطفة أو الحيوان المنوي تشكيله وإكسابه صفات ومزايا معينة في عدة مراحل أثناء خروجه، ينتقل فيها من مرحلة إلى أخرى حتى يخرج من مبدأه إلى منتهاه عند الرجل مُمشجاً، فالنطفة تحتوي على عدة أخلاط مختلطة مع بعضها البعض مكونة بذلك صفاته الفسيولوجية، وكذلك إن النطفة تحمل

---

[1] أسرار خلق الإنسان، السعدي، مرجع سابق، ص 111.

[2] التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص202.

التركيب الجيني الوراثي للجنين من والده، فالصفات الوراثية تكون ممشوجة في هذه النطفة أيضاً مكونة بذلك الشفرة الوراثية من الأب وكذلك يكون المشجج أيضاً بين ماء الزوج وماء الزوجة، ويتم نقل شبه الجنين من والديه وهو مازال نطفة إذاً فالنطفة ليست مجرد شيء واحد بل هي نطفة مفردة مشكلة من عدة أمشاج، فذلك هو المزيج من الصفات الذاتية للنطفة والصفات الوراثية من الأب والأم، كل ذلك ممزوجاً ممشوجاً تماماً كما وصفه القرآن الكريم فسبحان الله الحق الخالق[1]. وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن احتلام المرأة فقال: ﴿تغتسل إذا أبصرت الماء فقيل له: أترى المرأة ذلك فقال عليه السلام وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك، إذا على ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله وإذا على ماء الرجل مائها أشبه الولد أعمامه﴾[2].

ب- الخطوة الثانية: القرار المكين: الرحم:

بعد إلقاء النطف بالأرحام، أيّ بعد خروج النطف من المستودع إلى المستقر، وهو ما أشرنا إليه سابقاً، هنا تأتي الخطوة الثانية: خطوة القرار المكين، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآء مَّهِين فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَار مَّكِينٍ إِلَىٰ قَدَر مَّعۡلُوم فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: 20-24]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَة مِّن طِين ،ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَة فِي قَرَار مَّكِين﴾ [المؤمنون:12-13]، وقال تعالى:

[1] داود، المرجع السابق، ص203.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الحيض باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها. داود، التربية الجنسية ، مرجع سابق، ص203

﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ [الزمر:6].

فيا لروعة الوصف القرآني فالرحم قرار والرحم مكين والرحم من الرحمة والرحم مجموع ومحاط بعظام حوض المرأة الذي يصعب الوصول إليه بسهولة وييسر، ففيه كل ما يجعله مهيئاً للاستقرار والثبوت كما فيه ما يجعله أهلاً للتمكين والظفر، وعليه يكون الرحم بالنسبة للجنين هو المكان الذي جمع بين الثبات والاستقرار وبين الظفر وبين التمكين مما وجد فيه[1]، والآيات الكريمة أشارت إلى أن أصل الخلق من الماء المهين النطفة التي تودع في القرار المتين الرحم وتسمية الرحم بالقرار المتين الذي يستقر به الجنين إلى قدر معلوم حدده الله عز وجل وتسمية ذات دلالة وقد وفر له وسائل الراحة والاستقرار والعناية الربانية التي تفوق التصور وتبرز هذه الوسائل مع دقتها في الأمور التالية:

- الحوض وشكله:

يتكون من مجموعه من العظام متصلة ببعضها اتصالاً دقيقاً فتكون مثل الصندوق الخشبي، ونظراً لاختلاف وظيفة حوض المرآة عن وظيفة حوض الرجل في قضية المحافظة على وضع الرحم المتنامي الذي يبلغ آلاف المرات في نهاية العمل عن حجمه قبل الحمل، حيث لا تتجاوز سعة الرحم قبل الحمل لأكثر من 2.5ملم عند الأنثى البالغة، أما نهاية الحمل فيتسع لسعة آلاف المليمترات، لذا كان تجويف الحوض عند

[1] التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص 209.

الأنثى أوسع وأقصر وعظام الحوض أرق وأقل خشونة وأبسط تضاريساً، كل ذلك ليكون حصناً ودرعاً للرحم الذي يحمل هذه الدرة الثمينة، التي تتجلى عظمة الخالق في تكوينها، وتكوين عظام الحوض يتناسب تماماً مع ما يتطلب منها من القيام بعمل تنفرد به دون غيرها من عظام الهيكل، وهكذا يحفظ الحوض العظمي الرحم بداخله بحيث لايصله شيء من الكدمات والهزات التي تتعرض لها المرأة، بل لو أصيبت المرأة بحادث أو سقطت من شاهق وتكسرت عظامها فتجد الرحم في أغلب الأحوال سليماً لم يمسه سوء والحوض على متانته له مفاصل أربعة يمكن من خلالها أن يتحرك حتى يزداد اتساعاً وخاصة عند الحمل والولادة بينما حوض الرجل لايكاد يتزحزح[1].

- العضلات والأربطة:

تكاد العضلات تحيط بالرحم من جميع جوانبه لتحفظ توازنه وبقائه معلقاً في منتصف الحوض ومنها العضلات التي تمسكه من الأعلى، ومنها ما تشده إلى الأسفل، ومنها ما تجره يمنة ويسرة، ومنها ما تشده إلى عظام الحوض، وإلى جهات أخرى من الأحشاء تعرف بالصفاقات الحشوية والصفاقات الجدارية.

وهذه الأربطة تتفاوت جميعاً في حفظ الرحم في موضعه الطبيعي، وفي الوقت

[1] مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، مرجع سابق، ص 229.

نفسه تسمح له بالحركة الحقيقية، والنمو الهائل بفترة الحمل، وكأنما الرحم جسر معلقة تربطه مجموعه محكمة من الأربطة والأعمدة المتينة، بل إنه أعظم من ذلك بكثير إذ لا يمكن للجسر المعلق أن ينمو أو يغير وضعه وهو متصل بمكانه لا يبرحه، كما أن وجود وفرة من الأحشاء الطرية اللينة وامتلاء الحوض بها يهيئ فراشاً وثيراً للرحم عند امتلائه بالجنين وتعاظمه خلال الأشهر الأخيرة من الحمل[1].

- هرمون الحمل ﴿البروجسترون﴾:

ويؤثر هذا العمل على تقلصات عضلات الرحم فيجعلها متئدة وقورة بدلاً من تلك الحركة النزقة الطائشة التي يسببها هرمون الأنوثة الأستروجين، ولهرمون الحمل تأثير مهم في استقرار الرحم في فترة الحمل، حتى يقذف الجنين وخاصة في أشهره الأولى، وهكذا تتضافر العوامل لجعل الرحم القرار المكين وهل هناك وصف أعظم من هذا الوصف وتحديد أدق للوظيفة من التحديد الرباني لطبيعة تكوين الرحم ومهمته؟، إنه وصف الخالق لمخلوقه قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:14]. إنها العناية الربانية بهذا المخلوق المعزز المكرم، إنه الله عزوجل الذي قدر وأحكم وإنه الإعجاز الباهر الذي جاء به على لسان النبي الأمي في قوله

---

1 المرجع نفسه، ص 230.

تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآء مَّهِين، فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَار مَّكِينٍ، إِلَىٰ قَدَر مَّعۡلُوم فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات:20-23].

- الظلمات الثلاث:

يقول الطب الحديث عن الظلمات إنها ثلاثة أغشية تحيط بالجنين داخل الرحم، وهي:

الأول: غشاء السلى أو الأمنيون: ويحيط بالجنين مباشرة، وهو عبارة عن كيس غشائي رقيق مقفل يحيط بالجنين إحاطة تامة وبه سائل يزداد مع نمو الجنين، والجنين يلعب وسط هذا السائل ويتقلب يمنة ويسرة ويتشقلب رأساً على عقب، ويمسك بالحبل السري وهو في أمان تام وللسائل الأمنيوني فوائد جمة من أهمها:

- تغذية الجنين حيث يحتوي السائل على مواد زلالية وسكرية وأملاح يمتصها الجنين، مما يساعد على تغذيته ونموه.

- حماية الجنين ووقايته من الصدمات المفاجئة والحركات الخفيفة والسقطات التي تتعرض لها الأم.

- يحتفظ الجنين بحرارة ثابتة تقريباً فهو مكيف جيداً بحيث لاتزيد الحرارة ولا تقل إلا في حدود ضئيلة جداً.

- يمنع السائل الأمنيوني غشاء الأمنيوني من الالتصاق من الجنين، وذلك لأن التصاق الغشاء بالجنين من العوامل المهمة بحدوث التشوهات الخلقية فوجود السائل عامل مهم في تجنب هذه التشوهات الخلقية.

الثاني: غشاء الكوريون أو الغشاء المشيم:

هو الغشاء الثاني من الأغشية التي تحيط بالجنين والزغابات الكثيرة الموجودة في هذا الغشاء ينتقل الغذاء والأكسجين بواسطتها من الأم إلى الجنين كما ينتقل غاز ثاني أكسيد الكربون والبولينا من الجنين إلى دم الأم، وبدء يتكون هذا الغشاء عند تكوين النطفة الأمشاج بعد تلقيح البويضة بالحيوان المنوي وتنقسم البويضة الملقحة وتصبح مثل الكرة أو مثل ثمرة التوت وتسمى التوتة وتتكون من طبقات فالطبقة الداخلية يتكون منها الجنين وأما الطبقة الخارجية فيتكون منها هذا الغشاء المشيمي وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡب مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَاب ثُمَّ مِن نُّطۡفَة ثُمَّ مِنۡ عَلَقَة ثُمَّ مِن مُّضۡغَة مُّخَلَّقَة وَغَيۡرِ مُخَلَّقَة لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَل مُّسَمّى﴾[الحج:5]، فهذه المضغة غير المخلقة تقوم بمهمة مضخ كامل لتهيئة الغذاء المبسط المناسب للجنين وإبعاد الفضلات التي يطرحها إلى الدورة الدموية للأم، حيث تفرزها بواسطة الكلى عن طريق البول.

الثالث: الغشاء الساقط:

وهو الغشاء الثالث الذي يحيط بالجنين من جميع جوانبه وهو مكوّن من الغشاء المخاطي المبطن للرحم وسمي الساقط لأنه يسقط ويخرج من دم النفاس فسبحان من

خلق فسوّى وقدر فهدى جل جلاله وعظمت حكمته[1].

ج- الخطوة الثالثة: العلقة:

قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ، ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[العلق:1-5]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَة مِّن مَّنِيّ يُمۡنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَة فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾[القيامة:37-39]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَاب ثُمَّ مِن نُّطۡفَة ثُمَّ مِنۡ عَلَقَة ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلا مُّسَمّى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [غافر:67].

والعلقة: وهي من علق الشئ إذا نشب منه[2]، وتشير إلى انغراس البيضة المخصبة في الغشاء المخاطي للرحم[3]، ثم تكون قطعة من الدم الجامد[4].

وقد عبّر القرآن الكريم في هذه المرحلة بالعلق لأمور منها:

إنك أيها الأنسان عليك أن تتعلق بما يأتيك من علو من عند الله عز وجل وإلا فإنك تكون قد قطعت صلتك بخالقك الكريم الذي أوجدك من يوم من الأيام من علقة من رحم أمك، وكذلك أيها الإنسان مهما كبرت وقويت ونموت وغذيت فإنك بحاجة ماسة إلى أن تتعلق بمن كبرك وقواك ونماك وغذاك فتطيع أوامره وتجتنب نواهيه

---

[1] مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 232

[2] لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، 261/10

[3] موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، ص205

[4] محاسن التأويل، القاسمي، مرجع سابق.

حتى تفوز برضاه وتنجو من عذابه وأنت أيها الإنسان عليك أن تعلق قلبك ومشاعرك وأحاسيسك بربك، الذي يسر لك الرحم تتعلق فيها وترحم بوجودها وبتعلقك فيها وإن لم تفعل ذلك فإنه يكون قد حكم على نفسه بأنه سقط من رحمة الله والعياذ بالله[1].

د- الخطوة الرابعة: المضغة والعظام واللحم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:12-14].

وإن المضغة في لسان العرب من مضغ أي لاكَ، والمضغة من اللحم مقدار ما يلقيه الإنسان في فيه، كاللقمة التي تمضغ من الطعام، فانظر إلى مقدار المضغة وشكلها وامتزاجها مما سبق تكوينه، أي من ماء الرجل والمرأة ومما اكتسبه بعد تعلقه بالرحم وكأن العملية تتم في هذه الخطوة بعد خلط وتقليب ودمج وتشكيل مما جاء من الآب والأم لينتج عن ذلك كائن جديد يحمل صفات الكائنين الأبوين نصفه من الآب ونصفه من الأم، فيأخذ نصف الكروموسومات من الأب ومثلها من الأم تأتي هذه الخطوة متعاقبة بسرعة فانتقال العلقة إلى المضغة ومنها إلى العظام وصولاً إلى الكسي باللحم، قد عبَّر القرآن عنه بحرف العطف الفاء الذي يفيد الترتيب مع

---

[1] التربية الجنسية في الإسلام، داود، مرجع سابق، ص 210.

التعقب لكنه لما عبر عن فترة الانتقال إلى الإنشاء خلقاً آخر فقد استعمل حرف العطف ثم والذي يفيد الترتيب مع التراخي، فالكسي باللحم يستمر فترة أطول نسبياً مما قبلها من حالات، فيا لروعةِ و دقة التعبير القرآني في وصفه العلمي لهذه الخطوة[1].

والمضغة تمر بمرحلتين هما:

الأولى: المضغة المخلقة.

الثانية: المضغة الغير مخلقة.

والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولاً قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً[2]، ومخلقة مستبينة الخلق ظاهرة التصوير[3].

إن الله عزوجل خلق الإنسان على غير مثال ثابت لكنه حينما تحدث عن النطفة قال "جعلنا" وذلك أنه تغير لشئ موجود إلى شي آخر، ثم ذكر الله مراحل الخلق بقوله "خلقنا" ليدل على أن الله تعالى في كل مرحلة وخطوة يوجد خلق جديد على غير المثال السابق فهو تعبير بالخلق دون الجعل. فالنطفة تحول عن صفاتها إلى صفات العلقة ونقطة الدم المتعلقة تتحول إلى قطعة لحم كأنها بمقدار اللقمة الممضوغة وهذه المضغة تخلق شيء أخر بصفات أخرى وهي العظام ثم كسي العظام باللحم ثم عبر بعد ذلك بالإنشاء لا بالجعل ولا بالخلق وذلك أنه جعل إنشاء الروح له وتمام خلقه

---

[1] التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص 213

[2] أصل الإنسان بين الإسلام والفكر المادي، صالح الفريج، ص19.

[3] المرجع نفسه، ص19

في معنى الإنشاء[1].

ومرحلة العظام واللحم تستغرق الأسبوع الخامس والسادس والسابع وفي الأسبوع السادس تتكون هذه الهياكل الغضروفية لعظام الأطراف العلوية، ويسبق الطرف السفلي ببضعة أيام وأول علامة عل وجود عضلات الأطراف تظهر في هذا الأسبوع. ومعنى هذا أن العظام تسبق العضلات، ثم تكسو العضلات العظام، فصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰما فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْماً﴾، ويمر تخلّق الجنين في رحم أمه في ظلمة بل ظلمات قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْس وَٰحِدَة ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰج يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقا مِّنْ بَعْدِ خَلْق فِي ظُلُمَٰت ثَلَٰث ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر:6].

فذلك خلق الله لكم أيها الناس خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، وهي:

- ظلمة البطن.
- ظلمة الرحم.
- ظلمة المشيمة.

والذي فعل ذلك كله هو ربكم الذي له الملك وسلطانه ظاهر في ملكه، فلا ينبغي أن يكون هناك معبود غيره تعالى ولا تصلح العبادة إلا له سبحانه فكيف

---

[1] التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص214

تذهبون عن عبادة ربكم إلى عبادة من لا ضر عنه لكم ولا نفع[1].

إن الآيات السابقة في سورة الزمر دعوى للتفكر، فالنطفة خلق جديد تام كامل لا عيب فيه ولا نقص، والعلقة خلق جديد آخر تام يختلف بصفاته عن ما قبله وعن ما بعده، وهكذا تخلق المضغة خلقاً جديداً، وتصيرها إلى خلق العظام خلق جديد أخر، ثم كسيها باللحم خلقاً جديداً وإنشائها خلقاً جديداً ، كل ذلك من خلق الله تعالى للجنين خلقاً من بعد خلق، ألا يستحق هذا الرب الخالق المبدع منا الشكر والعبادة فقد أثبت علم الأجنة التشريحي أن خلايا العظم غير خلايا اللحم، وقد ثبت أن خلايا العظم هي التي تتكون أولاً في الجنين ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد خلايا العظم وتمام الهيكلة العظمي للجنين وهذا ما وصفه القرآن وصفاً واضحاً ودقيقاً[2].

هـ- الخطوة الخامسة: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ :

وهو التصوير والتسوية والتعديل ثم نفخ الروح لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 6] ويقول عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 6-8].

وأما التسوية فهي تتم مع التصوير وقبله وبعده فهي تشمل جميع الأعضاء، إن

---

[1] التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص 214.

[2] التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص 216

عميلة الهدم والبناء والتسوية والتعديل مستمرة في الجنين بشكل مثير، إذ كل يوم بكل كل ساعة تشهد جديداً هذه أنبوبة القلب المستطيلة تتحول إلى شكل ثم تتكون الغرف المتتالية: الأذين العام والبطين العام، وبصلة القلب والجيب الوريدي، ثم الآذنين الأيمن، وتدخل بصلة القلب في البطين الأيمن والأيسر، ومن بصلة القلب تنشئ جذور الشريان الأورطي والشريان الرئوي.

إن عملية التسوية والتعديل عملية مستمرة في بناء جسم الإنسان منذ أن كان جنيناً إلى أن يصبح شيخاً هرماً، ولكن هذه التسوية والتعديل أبرز ما تكون في الجنين، ولا يمكن أن تتم التسوية والتعديل إلا بعد وضع الأسس لجميع الأعضاء والتي توضع في الفترة ما بين الأسبوع الرابع والثامن ولهذا تعتبر هذه الفترة هي الفترة الحرجة، التي تكونت فيها الجينات أشد ماتكون قابلة للتغيير، لذا فإن تأثير الأدوية والعقاقير أو الأشعة أو الجينات تكون أوج تأثيرها على الجنين في هذه الفترة[1].

وقد شرحت بعض الأحاديث النبوية جوانب في هذه المرحلة، فقد جاء في صحيح مسلم، قال صلى الله عليه وسلم: ﴿إذا مرَّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً، فصورها، وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال يا رب: أذكر أم أنثى؟، فيقضي ربك ما شاء، ويكتبه الملك﴾[2]، ففي الحديث يقرر الرسول صلى الله عليه وسلم عدة حقائق من حقائق علم الأجنة وهي:

---

[1] المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص 303

[2] أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي، رقم الحديث 2646.

– يخلق الإنسان من النطفة المنوية من ماء الرجل وبيضة المرأة كما سبق بيانه، وقد أشار إلى ذلك الحديث النبوي: إذا مر بالنطفة أي أن الإنسان يخلق من النطفة لا من دم الحيض كما كان شائعاً بين الأطباء إلى القرن السابع عشر.

– حدد الحديث ليلة معينة من عمر الجنين يدخل بعدها الملك، إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً.

– ﴿فصورها﴾ أي أن الصورة الآدمية للجنين تبدأ بالظهور بعد الليلة الثانية والأربعين.

– ﴿وخلق سمعها﴾ وكذلك يبدأ ظهور الأذن وجهاز السمع.

– ﴿وجلدها﴾ ويخلق الملك الجلد بعد الليلة الثانية والأربعين.

– ﴿ولحمها﴾ ويخلق الملك اللحم العضلات بعد نفس الليلة.

– ﴿وعظمها﴾ ويخلق الملك العظام الهيكل العظمي بعد نفس الليلة.

– ثم قال: يارب: أذكر أم أنثى؟ أي أن الملك يبدأ بتشكيل الأعضاء التناسلية الخارجية الفرج في الذكر والأنثى وذلك بعد الليلة الثانية والأربعين أيضاً.

يمر الجنين بأطوار قبل الليلة الثانية والأربعين، وهو ليس في صورة آدمية، ولا توجد فيه الأعضاء والأجهزة التي ذكر الحديث خلقها بعد الليلة الثانية والأربعين.

ويقول الطب الحديث: في نهاية الأسبوع السادس تكون النطفة بلغت أوج نشاطها في تكوين هذه الأعضاء وهي قمة المرحلة الحرجة الممتدة من الأسبوع الرابع حتى الأسبوع الثامن. والمبيض والخصية لا يمكن التعرف عليها إلا في الأسبوع السابع

والثامن، حيث يمكن التعرف على الغدة التناسلية أهي خصية أم مبيض؟ وفي رواية أخرى عند مسلم: ﴿إن النطفة إذا استقرت في الرحم أربعين ليلة ثم يتشور عليها الملك فيقول: يارب أذكر أم أنثى؟ وفي رواية: بضع وأربعين ليلة. وفي رواية: لخمس وأربعين﴾[1].

وهكذا ترى من مجموعة الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة أن قمة تكوين الأعضاء، وتحديد الذكورة والأنوثة على مستوى الغدد التناسلية إنما يكون في الأربعين.

وفي هذه الفترة يستطيل الحمل من 5 مليميترات إلى 23 ميليمتراً وتظهر عليه علامات خارجية واضحة وإن كان بعضها لم يكتمل في هذه الفترة، ومما تقدم يبدو أن التقسيم القرآني لمراحل نمو الجنين الإنساني أدق من وصف علم الأجنة، ولا يركز بعض علماء علم الأجنة على مرحلة العلقة، كما يركز عليها التقسيم القرآني وكذلك مرحلة التصوير والتسوية والتعديل، أما نفخ الروح فهو لا يزال في طي الغيب الذي لا يعمله إلا الله[2]، قال تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: 7]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ،ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة:58-59]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [لقمان:11]، وقال

[1] أخرجه مسلم في صحيحه رقم الحديث 2645، كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمي.

[2] مباحث في إعجاز القرآن، مسلم، مرجع سابق، ص 23.

تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21]، وردت أحاديث عن المصطفى صلى الله عليه وسلم يخبر فيهم عن مراحل خلق الإنسان ومابينهما من مدة زمنية:

جاء في صحيح البخاري عن عبد الله قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليهم وسلم وهو الصادق المصدوق قال: إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم علقةً، ثم مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع: برزقه وأجله وشقي أم سعيد ثم ينفخ فيه الروح، فوالله إن أحدكم أو الرجل ليعمل بعمل أهل النار وحتى ما يكون بينه وبينها غير با ع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها وإنّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها[1]. فسبحان الله عز وجل القائل في كتابه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَة مِّن طِين، ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَة فِي قَرَار مَّكِين ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَة فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَة فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰما فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡما ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 12-14]

إن الإنسان حين يتأمل هذه التفاصيل ويعلم علم اليقين أن أطوار خلق الإنسان لا تتجاوز قيد أنملة لا يملك إذا كان سليم العقل ومتجرداً في طلب الحق إلا أن يُسلّم بأن هذا العلم ليس إلا من عند الله تبارك وتعالى. وهنا يقول أحد مفكري

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، رقم الحديث 2643، كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله.

الغرب: إنني مقتنع تماماً بأنه لا يمكن لأحد أن يفهم حق الفهم معنى آيات معينة في القرآن الكريم تتحدث عن الإنسان إلا إذا كان على علم بالمعلومات الخاصة بهذا الموضوع والتي اكتشفت بالعقود الأخيرة، فإذا قارن المرء بين ما ذكره القرآن الكريم وبين اكتشافات علم الوراثة فسوف يتضح له المعنى الحقيقي لهذه الآيات وضوحاً كاملاً وغني عن القول إن الآيات كانت مفهومة للإنسان على مر العصور، ولكن المفسرين لم يتمكنوا إلا منذ عهد قريب من كشف معناها الظاهر[1].

ويقول موريس بوكاي: أما القرآن فيحتوي حقاً على آيات بينات بالمنطق البشري إذا وضعنا في اعتبارنا مستوى المعارف التي كانت سائدة في وقت نزول القرآن[2].

– نعمة الحواس والاتصال بالعالم الخارجي: يمتن الله سبحانه وتعالى على الإنسان بنعمة الحواس، والتي من خلالها يستطيع الإنسان الاتصال بالعالم الخارجي، وبها ترتقي البشرية إلى العالم الغيبي عن العالم الحسي المشاهد إذا أحسنوا استخدام تلك الحواس وفق أمر الله وصيانتها عن المحرمات ويبدأ اتصال الجنين بالعالم الخارجي عن طريق حاسة السمع التي تبدأ عملها قبل بقية الحواس، لذا ابتدأ ذكرها قي كثير من الآيات على سائر الحواس، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: 78]، وقال في سورة السجدة:﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾

1 أصل الإنسان، موريس بوكاي، مرجع سابق، ص224.

2بوكاي، المرجع السابق، ص 224.

[السجدة:9]، يقول أبو السعود في معنى الآية: فقوله ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ﴾ لتسمعوا آيات الله وتمتثلوا ما فيها من الأوامر والنواهي، وتتعظوا بمواعظها. ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ لتنظروا بها إلى الآيات الكونية الشاهدة على وجود الله عزوجل. ﴿والأفئدة﴾ لتتفكروا بها فيما تسمعونه وتشاهدونه من الآيات التنزيلية الكونية، وترتقوا في معارج الإيمان والطاعة.

ويقول في منافع الحواس: وجعل لكم هذه الأشياء آلات تحّصلوا بها العلم والمعرفة وتحسوا بمشاعركم جزئيات الأشياء، وتدركوها بأفئدتكم، وتنتبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرار الإحساس، فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية[1].

ويَذكر الدكتور محمد البار: تحليلاً علمياً في سر تقديم السمع على سائر الحواس فيقول: في كل الآيات القرآنية الكريمة يقدم الله السمع على البصر، ولا تكاد تجد آية قدَّم فيها البصر على السمع، ذلك لأن السمع أعظم النعم من البصر ذاته، لأن المولود يتعلم بحاسة السمع أضعاف أضعاف ما يتعلمه بواسطة البصر، فالأصم منذ الولادة لايستطيع أن يتعلم اللغة، بل اللغات بكل يسر، ونستطيع أن نعد مئات بل آلاف العباقرة من فاقدي نعمة البصر، ولكن من العسير أن تجد آلاف من العباقرة الذين فقدوا نعمة السمع، وخاصة إذا كان فقد السمع منذ الولادة أو الطفولة المبكرة، ووحّد لفظ السمع بينما جمع لفظ الأبصار وذلك لأن هناك مركزين للأبصار

[1] إرشاد العقل السليم، أبو السعود، مرجع سابق، 5/131-132.

في مؤخرة الدماغ بينما نجد أن مركزي السمع في الدماغ مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بحيث يمكن اعتبارهما مركزاً واحداً [1].

هذا عن سر تقديم السمع عن بقية الحواس، أما عن بداية عملها، فيقول الدكتور البار: إن الجنين يستطيع سماع الأصوات منذ الشهر الرابع، بل إن الجنين يسمع صوت أمه وقرقرة أمعائها رغم أنه محاط بالأغشية وبكيس السلي، بل لقد أصبح من الثابت أن الجنين يسمع الأصوات والضوضاء الخارجية ويتعود عليها[2]. ويقول الرازي: في سبب ختم الآيات بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:78]، وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة:9]، وذلك لأن شكر الله تعالى هو أن يصرف تلك النعم إلى مرضاته، وأنتم لما صرفتم السمع والبصر والعقل لا إلى طلب مرضاته فأنتم ما شكرتم نعمته البتة[3].

- الإنسان بعد ولادته:

ولا يقف الإنسان في مراحل تكوينه عند هذا الحد بل يمر مراحل أخرى ترافقه طيلة حياته، تبدأ بخروجه طفلاً وتنتهي بشيخوخته، ومن الناس لم يستكمل هذه المراحل لدنو أجله. ومن الآيات التي ذكرت أطوار الإنسان بعد خروجه إلى الدنيا، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡف ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡف قُوَّة ثُمَّ جَعَلَ

---

[1] خلق الإنسان بين الطب والقرآن، البار، مرجع سابق، ص 315-316.

[2] المرجع نفسه، ص323.

[3] مفاتيح الغيب، الرازي، مرجع سابق، 65/30.

مِنۢ بَعۡدِ قُوَّة ضَعۡفا وَشَيۡبَة يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم:54]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَاب ثُمَّ مِن نُّطۡفَة ثُمَّ مِنۡ عَلَقَة ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلا مُّسَمّى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [غافر:67]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡم شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيم قَدِير﴾ [النحل:70].

يقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡف ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡف قُوَّة ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّة ضَعۡفا وَشَيۡبَة يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾[الروم:54]، ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم مضغة، ثم يصير عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، وينفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى، حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً ثم مراهقاً، ثم شاباً وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل[1] ثم يشيخ [2] ثم يهرم[3]، وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة والبطش وتشيب اللمة[4]، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ولهذا قال تعالى: ﴿ثم جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[الروم:54]؛ أيّ يفعل

---

[1] الكهل: من جاوز الثلاثين وقيل من جاوز الأربعين.

[2] الشيخ: يُقال لمن طعن في الستين من العُمر.

[3] الهرم: أقصى الكِبر.

[4] اللمة: الشعر المجاوز شحمة الأذن

ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد، وهو العليم القدير[1]. ويقول الطبري في تفسيره قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَاب ثُمَّ مِن نُّطۡفَة ثُمَّ مِنۡ عَلَقَة ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلا مُّسَمّى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[غافر:67]، يقول تعالى ذكره، آمراً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بتنبيه مشركي قومه على حججه عليهم في وحدانيته: قل يا محمد لقومك: أمرت أن أسلم لرب العالمين الذي صفته هذه الصفات وهي أنه خلق أباكم آدم من تراب ثم خلقكم:

- ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَة ثُمَّ مِنۡ عَلَقَة﴾ بعد أن كنتم نطفة ثم يخرجكم طفلاً من بطون أمهاتكم صغاراً.

- ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ فتتكامل قواكم ويتناهى شبابكم وتمام خلقكم شيوخاً

- ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾، قبل أن يبلغ الشيخوخة.

- ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلا مُّسَمّى﴾ يقول ولتبلغوا ميقاتاً مؤقتاً لحياتكم وأجلاً محدوداً لا تتجاوزونه، ولا تتقدمون قبله ولعلكم تعقلون يقول: كي تعقلوا حجج الله عليكم بذلك وتتدبروا آياته، فتعرفوا بها أنه لا إله غيره فعل ذلك[2].

هذه مراحل خلق الإنسان منذ بدايته من تراب وحتى ينتهي إلى حيث بدأ لا يعلم شيئاً، تتخللها نعم الله الكثيرة والتي من أعظمها نعمة الإيمان بالخالق سبحانه

[1] تنوع خطاب القرآن الكريم، رجاء الصالح، مرجع سابق، 76/11.

[2] جامع البيان، الطبري، مرجع سابق، 76/11.

وتعالى. ولكن هناك فئة من بني آدم تقف موقف النكران والجحود والاعتراف بخالقها، وترفض التوجه إليه بالطاعة، فهذه الفئة الكافرة خاطبها الله في كثير من الآيات مبيناً لهم حقارة نشأتهم أمام عظيم مخلوقاته[1]، قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ، مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ، مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: 17-22].

وقد تضمنت الآيات من التَعجب من حال الإنسان الذي رفض الاعتراف بخالقه، وبما جاء به نبي الهدى من الحق[2]:

- ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ تعجب في إفراطه من كفران نعمة الله ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ولا أخشن مساً ولا أدل على سخطٍ ولا أبعد شوطاً في المذمة من تقارب طرفيه ولا أجمع للأئمة على قصر متنه، ثم أخذ في وصف حاله من ابتداء حدوثه إلى أن انتهى، وما هو مغمور فيه من أصول النعم وفروعها وما هو غارق في رأسه من الكفران وقلة الالتفات إلى ما يتقلب فيه وإلى ما يجب عليه من القيام بالشكر.

- ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ من أي شيء حقير مهين خلقه ثم بين ذلك الشيء بقوله من نطفة خلقه فقدره فهيأه لما يصلح له ويختص به، ثم السبيل يسره: ثم سهل سبيله وهو مخرجه من بطن أمه أو السبيل الذي يختار سلوكه من طريق الخير والشر

---

[1] تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص 150.

[2] المرجع نفسه، البحر، ص150.

بأقداره وتمكينه لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:3]. أيّ بين له سبيل الخير والشر، فأقبره: فجعله ذا قبر يوارى فيه تكرمة له، ولم يجعله مطروحاً على وجه الأرض تأكله الحيوانات.

-﴿أَنشَرَهُ﴾ أنشأه النشأة الأخرى[1].

– ويقول الطاهر بن عاشور فيما احتوت عليه جملة: "ما أكفره" من معان كثيرة في عبارة موجزة وافية مما يثبت أن القرآن هو كلام الله المعجز الذي أيدَّ به رسوله صلى الله عليه وسلم، وجملة ما أكفره تعليل لإنشاء الدعاء عليه، دعاء التحقير والتهديد، وهذا تعجب من شدة كفر هذا الإنسان، ومعنى شدة الكفر: أن كفره شديد كماً وكيفاً؛ لأنه كفر بوحدانية الله وبقدرته على إعادة خلق الأجسام بعد الفناء وبإرساله الرسول وبالوحي إليه صلى الله عليه وسلم، وأنه كفر قوي لأنه اعتقاد قوي لا يقبل التزحزح وأنه مستمر لا يقلع عنه مع تكرار التذكير والإنذار والتهديد، وهذه الجملة بلغت نهاية الإيجاز وأرفع الجزالة، بأسلوب غليظ دال على السخط بالغ حد المذمة جامع للملامة ولم يسمع مثلها قبلها فهي من جوامع الكلم القرآنية[2].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 6-8]، وفي هذه الآيات ينبه سبحانه المنكرين لوحدانيته وقدرته على الخلق والإيجاد أن الله أكرمهم بكثير من النعم، ومن

---

[1] تفسير الزمخشري، مرجع سابق، 219/4.

[2] التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ص 121.

نعمه عليهم أنه خلقهم في أتم خلقة، وأحسن صورة، وأكرمهم بنعمة العقل، فأي نعمة بعد هذا يجعلهم يصرون على الكفر والعناد إلا الكبر، وحب اتباع الهوى الضال.

ومع ذلك التذكير والبيان لعظمة خلق الله تعالى إلا أن الإنسان الكافر مستمر في عناده حتى بلوغه المستوى العقلي الذي لا يصلح للمحاورة والخطاب يقول تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَاب ثُمَّ مِن نُّطْفَة ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلا لَّٰكِنَّا۟ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدا﴾ [الكهف:37-38].

إن من جمال التعبير القرآني في هاتين الآيتين مخاطبته للإنسان وتذكيره بأصل خلقته. كما يذكر لنا الرازي سبب ذلك، فيقول: سبب ذلك أن دليل الأنفس أشمل وأكمل وأتم وألزم فإن الإنسان قد يغفل عن الأنعام وخلقها عند غيبتها ولكن لا يغفل هو مع نفسه متى ما يكون وأين ما يكون.

والآيات التي في سورة الكهف مجمل تفسيرها كالآتي أكفرت بالذي خلق آدم عليه السلام من تراب، ثم أنشأك من نطفة الرجل والمرأة، ثم سواك رجلاً سوياً ذكراً أو أنثى، فإن ذلك قادر على خلقك يوم القيامة.

- في سورة الحج: مراحل خلق الإنسان:

قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡب مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَاب ثُمَّ مِن نُّطۡفَة ثُمَّ مِنۡ عَلَقَة ثُمَّ مِن مُّضۡغَة مُّخَلَّقَة وَغَيۡرِ مُخَلَّقَة لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَل مُّسَمّى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم

مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج:5]

إن كنتم أيها الناس في شك من قدرة الله تعالى على بعثكم من القبور للحساب، فإن في ابتداء خلق الإنسان آدم عليه السلام لكم دليل حيث خُلق من تراب ثم من نطفة آدم عليه السلام، ثم تفرقت النطفة حالاً بعد حال في الأرحام، فإن في ذلك دليل على قدرته تعالى على إعادة خلقكم بعد الممات، والتحلل كما خلقكم أول مرة، وتكون النطفة مخلقة اذا كان فيها خلقاً سوياً، وتكون غير مخلقة إذا كان ما في الأرحام غير سوي مما تدفعه الأرحام وتلقيه سقطاً قبل أن يكون خلقاً، فقد ثبت عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "إذا وقعت النطفة في الرحم بعث ملكاً فقال: يا رب مخلقة أم غير مخلقة؟ فإن قال غير مخلقة مجّتها الأرحام وإن قال مخلقة، قال: يا رب فما صفة هذه النطفة أذكراً أم أنثى؟ وما رِزقها؟ وما أَجلها؟ أَشقي أم سعيد؟ قال: فينطلق الملك فينسخها، فما تزال معه يأتي على آخر صفاتها"[1].

كل ذلك بينه الله تعالى لإظهار قدرته على الخلق، ومن كتب الله تعالى له بقاء في الرحم وحياة إلى أمد فإنه يعيشه حتى يأتي وقت الولادة فلا تسقطه المرأة من رحمها فإذا بلغ وقت الخروج أذن الله له بالخروج طفلاً ثم تبلغوا كمال عقولكم وقواكم أيها البشر بعمركم، فمنكم من يموت قبل أشده ومنكم من يشأ في أجله فيهرم، فيرد

[1] التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص222.

بعد بلوغه وشبابه وأشده إلى أرزل العمر لكي لا يعلم من علم كان بعمله شيئا[1].

صرّحت الآية الكريمة بمرحلة الطفولة ومرحلة البلوغ والشباب، ثم مرحلة الكهولة لمن كتب الله تعالى له البقاء في الحياة الدنيا، فبينت أن ليس كل من طال عمره فهو محمود فعله، فقد يطول عمر من يصل إلى أرذل العمر فينسى كثيراً وتصيبه الأمراض والعلل كالخرف والزهايمر، وأنه ليس كل من وصل للشيخوخة فإنه يصاب بهذا المرض المنسي[2].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَاب ثُمَّ مِن نُّطۡفَة ثُمَّ مِنۡ عَلَقَة ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلا مُّسَمّى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [غافر:67]

وفي آية غافر وفي آية الحج التي ذكرناها إشارة وفكرة على الإنسان أن يتنبه إليها وهي أن الإنسان يولد طفلاً غير متمتع بكثير من الصفات، منها أن الطفل يولد بلا إحساس بالجنس ولا أسنان ولانطق ولا حركة إرادية ولا اتزان وغيرها الكثير، ثم يبدأ ينمو عنده كل ما لم يولد معه، لكنه مهيأ من العلي القدير أن يستقبل مالم يولد به ويكون ذلك في مراحل متعاقبة متلاحقة في حياته فالنطق مثلاً، يكتمل عندما يصل الطفل السادسة من عمره تقريباً، والحركة باتزان تكون بعد الثالثة تقريباً، وأما الإحساس بالجنس يأتي في مراحل أخرى حينما يصل الطفل مرحلة البلوغ والمراهقة،

---

[1] تفسير الطبري، مرجع سابق، ج17. وانظر: التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص 222.

[2] التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص 222.

وأن ما ادعاه مهوسو البشر من أصحاب النظريات البشرية من أن الطفل يتعامل مع أمه من منطلق جنسي، هو كلام باطل عار عن الصحة.

إذن، الآيتان تشيران إلى تنقل الفرد الإنسان من مرحلة الطفولة إلى البلوغ إلى الشباب والأشد ثم الكهولة ثم تأتي آية سورة الروم لترسم رسماً جديداً لحياة الإنسان وتخط له الخطوط الرئيسية في الحياة الدنيا بوصف دقيق وبلاغة جديدة وإعجاز واضح للعيان[1]، حيث يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡف ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡف قُوَّة ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّة ضَعۡفا وَشَيۡبَة يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم:54]

فالله تعالى هو الذي خلقكم من ضعف أول مرة وهو النطفة ثم الماء المهين فالجنين، ثم جعل لكم قوة على التعرف بعد أن خلقكم من ضعف ثم أحدث لكم الضعف بالهرم والكبر عما كنتم عليه أقوياء في شبابكم، وأحدث لكم الشيبة فالله تعالى هو الذي يخلق ما يشاء من ضعف وقوة وشباب وهرم وشيب لأنه العليم بتدبير خلقه القدير على ما يشاء[2].

- زواج آدم عليه السلام:

تحدث القرآن الكريم عن زواج آدم عليه السلام في ثلاث مواضع، وفي ثلاث سور، وهي:

---

[1] التربية الجنسية في الإسلام، داود، مرجع سابق، ص 224.

[2] تفسير الطبري، ج21. وانظر: التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص 224.

في سورة البقرة؛ بينت بأن حواء خُلقت لتحقيق هدف السكن والطمأنينة. وفي سورة طه؛ عرضت قصة آدم عليه السلام وحواء في الجنة ومعصيتهما لله تعالى وكشف السوءات. وفي سورة الأعراف؛ لتبين نزول آدم عليه السلام وحواء على الأرض وأول جماع جنسي بينهما[1].

ليكون سبباً في ذُرية آدم عليه السلام وانتشارها في الأرض قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡس وَٰحِدَة وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفاً فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: 189].

أيها الناس إن الله تعالى خلقكم من نفس واحدة وهي نفس آدم عليه السلام وجعل من زوجها حواء ليأوي إليها، لقضاء الحاجة واللذة فلما تغشاها وتدثرها لقضاء حاجته حملت منه حملاً خفيفاً، وكذلك هو حال حمل المرأة من زوجها فإن حمل ماء الرجل حمل خفيف عليها ومرَّت به أي استمرت به قياماً وقعوداً حتى أتمت الحمل، فلما أصبح ثقيلا بعد أن كان خفيفاً ودنت ولادتها هناك دعا آدم عليه السلام وحواء ربهما أن يكونوا من الصالحين إذا كان ما في بطنهما صالحاً في الخلق وصالحاً في الدين وصالحاً في العقل والتدبير[2].

ونلاحظ آدب الحديث عن الجنس، فالقرآن يتحدث عن أول لقاء جنسي

---

[1] التربية الجنسية في الإسلام، داود، مرجع سابق، ص 237.

[2] دواود، المرجع نفسه، ص 243.

بالبشرية كما يتحدث عن طبيعة اللقاء الجنسي بين الأزواج بغاية من الآدب والترفع والحس فلا يجرح شعوراً ولا يخدش إحساساً بل يشير إلى ذلك لعبارة بسيطة في لفظها، وارفة بظلالها كثيرة بفوائدها مترامية بآدابها فالإنسان إذا أراد أن يتحدث عن واحدة من مسائل الجنس ومفرداته في أي حال من أحواله وفي وقته وزمانه عليه أن يلتزم الآدب الجم وهو يصف أمراً أو ناهياً أو مسترشداً. فقد عبر القرآن الكريم عن الجماع وكنّى ألفاظ عدة غاية في الآدب والترفع[1].

وبداية الحمل ثم الولادة انطلاقة للبشرية على هذه المعمورة لكي يتحقق مقصد الخلّاق العليم من خلق الإنسان من عمارة الأرض وتحقيق العبادة لخالقه العظيم وتمضي سنة الابتلاء والاختبار بين الناس فمن أطاع الله وعصاه، وإلى الله المصير واليه ترجع الأمور سبحانه وتعالى.

لقد عاش آدم مئات السنين على الأرض وشاهد الأولاد والأحفاد ومن بعدهم، خلَّد الله آدم بذريته فهو معروف في معظم الثقافات والأديان ولدى كل الشعوب[2] والبشر جميعا وتجمعهم الإخوة الإنسانية القائمة على النسب الواحد لآدم وحواء، وأخوة الإيمان أخص وأعظم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]، وعلينا ألا نجور على حقوق الأمة الإسلامية التي تجمعنا بشركائنا في التوحيد لله والإيمان برسله وبخاتمهم صلى الله عليه وسلم[3].

---

[1] التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص 244.

[2] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 43.

[3] علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص 43.

8- الخالق المصور سبحانه وتعالى من أسماء الله الحسنى:

إن الله عزوجل خلق آدم عليه السلام وبنيه وصوّرهم في أحسن صورة، فآدم وبنوه من أثر اسم الله الخالق والمصور ولذلك أردنا أن نتعرف على هذين الاسمين الجليلين من أسماء الله الحسنى.

أ-الخالق الخلّاق:

ورد اسمه سبحانه الخالق في القرآن الكريم (8) مرات بصيغة المفرد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: 24]. وقوله تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: 3]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾[الزمر:62] وغيرها من الآيات،كما ورد اسمه سبحانه الخالق بصيغة التفضيل مرتين، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: 14]، وقوله تعالى: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[الصافات 125]، ومرة بصيغة الجمع كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾[الواقعة:59].

أما اسمه سبحانه وتعالى "الخلاق"، فورد ذكره في القرآن الكريم مرتين، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الحجر:86]، وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يس: 81]، اسم مبالغة من الخالق.

وأما معناهما في حق الله عز وجل:

قال الخطابي: الخالق: هو المبدع للخلق المخترع له على غير مثال سابق، قال

سبحانه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:3].

والخلّاق: من أفعال المبالغة من الخالق تدل على كثرة خلق الله تعالى وإيجاده فكم يحصل في اللحظة الواحدة من بلايين المخلوقات التي هي أثر من آثار اسمه سبحانه الخلّاق قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الحجر: 86]

وإن اسمه سبحانه الخالق والخلّاق ممّا أقرت به جميع الأمم مؤمنهم وكافرهم، ولظهور ذلك وكون العلم بديهي فطري، احتجّ الله به على من أشرك به في عبادته، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر:38]،في غير موضع في كتابه[1].

فعُلم أن كونه سبحانه خالقاً من أظهر شيء عند العقول وهو أصل كل حقيقة، فجميع الحقائق تنتهي إلى خلقه وإيجاده فهو الذي خلق وهو الذي علم، كما قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: 1-5][2].

وعند التأمل والتدبر والتفكُّر في مخلوقات الله العجيبة ابتداء بالإنسان ثم الكواكب والنجوم وفي هذا الكون وجماله وعظمته ترى العجب العجاب من إبداع

---

[1] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 434.

[2] المرجع نفسه، ص 434.

الخالق العظيم. تأمل معي هذه النماذج على سبيل المثال لا الحصر:

- ما بين 500-600 مليون حيوان منوي تمر عبر المهبل، وكل واحد من هذه الحيوانات قادر على أن يكون إنساناً بإذن الله عز وجل، لكن الله سبحانه وتعالى بقدرته وحكمته يختار واحداً من هذه الملايين يقوم بتلقيح البويضة ليكون هذا الإنسان السوي المختار، الناطق العاقل، المتصرف بشؤونه بإذن ربه، هكذا خلقنا فلنتواضع لعظمة الله عز وجل وكبريائه، ولنتذكر البداية التي كنا منها، لنُدرك الفرق الهائل بين هذه النطفة وهذا الإنسان السوي القوي المتين، إن ذلك يوجب على الإنسان أن ينطلق بتسبيح الله عزوجل وذكره وشكره.

- في جسد الإنسان أكثر من مئة تريليون خلية، وما في داخل كل خلية من هذه الخلايا أجهزة وأعمال ونواة وبرامج وخرائط ومعلومات، كلها تُسبّح ربها عز وجل، وتؤدي دورها على أفضل وأحسن ما يكون في كل خلية واحدة، وفي جسدك نحو ما يزيد عن ثلاثين مليار حرف من الحمض الوراثي النووي الذي هو ذو حروف أربعة (والله أعلم)؛ وهو عبارة عن مادة وراثية موجودة في نواة البويضة، ومسؤولة عن جميع وظائف الجسم الحيوية المختلفة. وإن هذه الأعداد الهائلة من الحروف الحمضية النووية، وهذه الكميات الهائلة من الذرات والخلايا الموجودة في جسدك كلها ناطقة ومعترفة بعظمة الله سبحانه وتعالى وأنه هو الخالق الخلّاق[1].

- ارفع رأسك إلى الأعلى وانظر إلى السماء فوق رأسك ثمّة مليارات المجرات،

---

[1] مع الله الاسم الأعظم وقصة الأسماء الحسنى، سلمان العودة، مرجع سابق، ص82.

والمجرة عبارة عن تجمع من النجوم المختلفة الواسعة الكثيرة الهائلة التي منها لا يزال في مرحلة الطفولة، ومنها الشاب الذي في مرحلة المراهقة ومنها مثله الشيخ الكهل ومنها مثل الهرم الذي رد إلى أرزل العمر، وهو يعيش أيامه الأخيرة، كلها تسبح لله في الفضاء وبينها من التباعد ما لا يحيط به إلا الله عز وجل، حتى ولو افترضنا أن مركبة تسير بسرعة الضوء التي هي 186 ألف مل بالثانية، لاحتاجت لعدة آلاف من السنوات حتى تجتاز مجرة واحدة من هذه المجرات، فما بالك بما ورائها وما فوقها!؟

ولهذا قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة:38-39]، وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: 75-76].

إن هذه المجرات التي نتحدث عنها، تضم المجرة منها ما بين مائة بليون إلى ألف بليون نجم، ومايزال العِلم يكتشف كل يوم جديداً في عالم الفضاء، مع ألوف وسائل الكشف والتي لا تزال قاصرة عن إدراك ما وراء ذلك كله.

إن الطبيعة كتاب مفتوح يسبح بحمد الله جل جلاله. قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غفُورا﴾[الإسراء:44]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن

مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[الحج:18].

إن روعة هذا الكون وجماله وعظمته هي قبسة يَسيرة من إبداع الخالق العظيم، وإن الإنسان عندما يحاول أن يُطبق ما يسمى بفكرة المصادفة بالخلق يقع في مغالطة فاحشة[1].

إن الإنسان الملحد إنسان يائس؛ أُغلقت أمامه الأبواب والسدود يتخبط على غير هَدي ويَسير بدون غاية، ويعيش في ظلمة حالكة لا يعرف بداية أتى منها ولا نهاية يصير إليها ولا غاية يتجه إليها، أما المؤمن فهو يشعر بطمأنينة، وهو يتأمل في ملكوت الله تبارك وتعالى فيرى عظمة الله في خلقه وحكمته البالغة في تدبيره قال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰط مُّسۡتَقِيم﴾ [الملك:22].

إن التأمل في خلق الله عز وجل وملكوته يقود إلى رسوخ الإيمان به سبحانه، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰت لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰما وَقُعُودا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: 190-191]، فتأمل وسبّح وتعبّد لمن خلقك وذرأك وإليه المصير[2].

إن الخالق سبحانه وتعالى هو المالك المتصرف المدبر، والأمر لا يقف عند مجرد

---

[1] مع الله، العودة، مرجع سابق، ص 82.

[2] مع الله، العودة، مرجع سابق، ص85.

الاعتراف فقط، فلقد قرأت كلاماً لنيوز ويك وهو عالم أمريكي من علماء الفلك، بعد سبعين سنة قضاها بالمختبر وعبر الأجهزة والتلسكوبات والمكبرات يقول: الآن اعترفت بالله وأيقنت أنه لا بد أن يكون وراء هذا الكون قوة خارجة عن المادة. بعد سبعين سنة آمن بوجود هذا الإله فمتى يصل إلى العبودية له ومتى سوف يؤدي حقه؟ ومتى سوف يذكره؟ ومتى سوف يشكره؟

إن هذه المعاني تقود العبد إلى الله تبارك وتعالى ليمتثل في محراب الإيمان به والتضرع إليه والتوكل عليه والانصياع لأمره والوقوف عند حدوده ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:54].

فالذي له الخلق هو الذي له الأمر أي له الشرع وهو الذي من حقه أن يأمر فيطاع وينهى فيطاع، ويحدَّ الحدود ويسنَّ السنن والخلق يستجيبون له ويطيعون لأنهم يعرفون أنه ما خلقهم إلا لهذا[1].

إن الإلحاد فكرة جاهلة تستعصي على الفهم خاصة في عصر المعرفة والتخطيط والكشوفات الهائلة، قد يكون الإلحاد قراراً سياسياً كما في عصر الشيوعية، أو أزمة نفسية عند أقوام لم تسعفهم سكينتهم النفسية بالوصول الى استقرار وهدوء يسمه لهم بالإيمان أو مغالطة ذهنية صادرة عن اللامبالاة، وهو ما بينه القرآن بقول الخالق البديع سبحانه وتعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾[الأحقاف:3]، أو وسوسة عابرة تخطر

---

[1] العودة، المرجع نفسه، ص 86.

في بال إنسان ثم تمضي في غير قرار، أما أن يكون الإلحاد حكماً عقلياً فلا[1].

إن إيماننا العظيم بخالقنا الكريم وباسمه الخلاق واسمه الخالق له آثار في حياتنا منها:

– الإيمان بإسمه سبحانه الخالق: يستلزم الإيمان بوحدانيته سبحانه وألوهيته وإفراده وحده بالعبادة وهذا ما احتج به الله عزوجل على المشركين الذين يقرون بأنه الخالق الرازق وحده ثم هم يعبدون غيره مما لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت. قال سبحانه: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: 191]. وقال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:61].

– الإيمان باسمه الخالق يورث المحبة الكاملة له عز وجل: لأنه سبحانه الذي خلقنا وأنعم علينا بنعمه ونعمة الإيجاد بعد أن لم نكن شيئاً مذكورا، ثم أمدنا سبحانه بما خلقه في هذا الكون من نعم وبما سخَّره لنا من مخلوقاته وبما خلق في قلوب الأمهات والآباء من الرحمة والرعاية، وبما أمدنا به من السمع والبصر والأفئدة وغير ذلك من النعم التي لا تعد ولا تحصى فحلي بمن خلقنا وأوجدنا وربانا بنعمه أن يحب غاية الحب وأن نذل له غاية التذلل وهذان هما قطبا التعبد لله عز وجل.

– الإيمان باسمه الخالق يدل على صفاته سبحانه وتعالى الأخرى: كالحياة والقدرة والعلم والإرادة والحكمة إذ لا يمكن أن يكون خالق غير قادر ولا مريد ولا عالم بما

---

[1] المرجع نفسه، ص 86.

خلق، أو أنه فيما خلق حكمة ولا علة[1]. فالمخلوقات بأسرها شواهد صفات الرب جل جلاله ونعوته وأسمائه فهي كلها تشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها وتنادي عليها وتدل وتخبر بلسان النطق والحال.

فلَست ترى شيء أدل على شي من دلالة المخلوقات على صفات خالقها، ونُعوت كماله وحقائق أسمائه، وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها، فهي تدل عقلاً وحساً وفطرة ونطراً واعتباراً[2].

– الإقرار بألوهية الخالق عز وجل وتقدمه على كل شيء: قرر ابن القيم (رحمه الله) تعالى بقوله إنه سبحانه متقدم على كل فرد من مخلوقاته تقدماً لا أول له، فلكل مخلوق أول، والخالق سبحانه لا أول له، فهو وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن[3]، وهذا قول الرسل جميعاً وأتباعهم[4].

– الإيمان باسمه الخالق يستلزم الإيمان بحكمته سبحانه وتعالى من هذا الخلق وأنه قائم على الحق سبحان منزه عن العبث واللهو وأنه لا بد من يوم يبعث فيه الخلق ويحاسبون قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[المؤمنون: 115-116]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ لو أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا

---

1 ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 435

2 مدارج السالكين، ابن القيم، مرجع سابق، 3/355-356

3 شفاء العليل، ابن القيم، مرجع سابق، 1/208.

4 ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص 438

لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[الأنبياء: 16-18].

- الإيمان باسمه الخالق يستلزم قبول شرعه والحكم به والتحاكم إليه، وعدم الرضى بغيره بديلاً لأنه الشرع الصادر عن الخالق الحكيم العليم بخلقه ونوازعهم ومصالحهم فكان أحسن الشرع وأكمله وأصلحه قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:14].

- الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى لم يزل خالقاً كيف شاء ومتى شاء ولا يزال لقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:47]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [القصص:68]، وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ، فَعَّال لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:15-16].

وليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداثه البرية استفاد اسم الباري وذلك من كماله ولا يجوز أن يكون فاقداً لهذا الكمال أو معطلاً عنه في وقت من الأوقات قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:17].

- الإيمان بأنه الخالق لكل شيء يقتضي الإقرار بعلم الخالق سبحانه بجزئيات خلقه كلها صغيرها وكبيرها دقيقها وجليلها ومن أحسن الأدلة على إثبات علمه سبحانه بالجزئيات كلها قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:14].

- تعظيم الله عز وجل وتكبيره وإجلاله: عند معاينة مخلوقاته العظيمة في الآفاق والأنفس لأن عظمة هذه المخلوقات ودقتها و انتظامها يدل على عظمة الخالق وإتقانه لما خلق قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَة وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾[النمل: 88] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰت طِبَاقاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُت فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُور ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِير﴾[الملك: 3-4].

وعظمة الله عز وجل، تستلزم عبادته وحده لا شريك له، وتعظيم أوامره ونواهيه، وتعظيم حرماته وشعائره.

- الإيمان بِعُلوه سبحانه على خلقه، ومباينته لهم:

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: إن صفاته لا تَحل في شيء من المخلوقات، كما أن مخلوقاته لا تحل فيه. فالخالق سبحانه بائن عن المخلوق بذاته وصفاته، فلا اتحاداً ولا حلولاً ولا ممازجة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً [1].

- اقتران اسمه سبحانه "الخلاق" باسمه سبحانه "العليم":

ورد هذا الاقتران مرتين في كتابه عز وجل، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الحجر:٨٦]. وفي قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يس:81].

1 مدارج السالكين، ابن القيم، مرجع سابق، ١١٢/٣.

إن اسم "الخلّاق" مبالغة في الخلق، وهو خاص بالله عز وجل: كثير الخلق حيث إن مخلوقاته لا يُحصيها إلا هو وهو ما زال يخلق ما شاء كيف شاء ومتى شاء سبحانه وبحمده. وعن المعنى الزائد المستفاد من اقتران هذين الاسمين الجليلين "الخلاق العليم"، هو -والله أعلم-أن خلقه سبحانه للأشياء والأحياء إنما هو عن حلم منه سبحانه بما يخلق، كيف يخلقه، ومتى يخلقه، ويعلم الحكمة من خلقه؛ أيّ أنه سبحانه وتعالى لم يخلق شيئاً عبثاً وسدى، بل خلقه عن علم ورحمة وإرادة. واجتماع صفة العلم والخلق فيهما صفة كمال أخرى.

وللشيخ الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير، توجيهٌ للمناسبة بين هذين الاسمين الكريمين بربطه سياق الآية السابقة للآية المذكورة في سورة الحجر[1]. إذ يقول رحمه الله تعالى: وجملة "إن ربك هو الخلاق العليم"؛ في موقع التعليل للأمر بالصفح عنهم، أيّ الآن في الصفح عنهم مصلحة لك ولهم، يعلمها ربك. فمصلحة النبي صلى الله عليه وسلم في الصفح هي كمال أخلاقه، ومصلحتهم في الصفح رجاء إيمانهم. فالله الخلاق لكم ولهم ولنفسك ولأنفسهم العلم بمصلحة كل منكم[2].

ب- المصوّر (سبحانه وتعالى):

ورد اسمه "المصوّر" في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر:24].

---

1 ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص 356.

2 التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، 7/ 78.

وجاء بصيغة الفعل عدة مرات، من ذلك قوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:6]، وفي قوله تعالى:﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن:3].

والمعنى أنه سبحانه واضع الصور وخالقها ومبدعها على غير مثال سابق، بل بمقتضى حكمته ورحمته وعلمه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍۢ﴾ [التين:4].

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف:11].

- قال ابن كثير رحمه الله في معنى قوله تعالى:﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:24]؛ أيّ: الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون على الصفة التي يريد والصورة التي يختار، كقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:8]، ولهذا قال "المصوّر" أي: الذي يُنفّذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها[1].

- وقال الخطابي: "المصوّر" هو الذي أنشأ خلقه على صورة مختلفة ليتعارفوا بها، فقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ﴾[الأعراف:64][2].

- الفرق بين أسمائه سبحانه "الخالق والبارئ والمصوّر" ووجه اقتران هذه الأسماء:

يقول صاحب أضواء البيان رحمه الله تعالى: ف "الخالق"؛ هو المقدر قبل الإيجاد و"البارئ" الموجد من العدم على مقتضى الخلق والتقدير، وليس كل من قدر شيئاً أوجده إلا الله و "المصوّر" المشكّل لكل موجود على الصورة التي أوجده عليها، ولم

---

1 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 344/4.

2 شأن الدعاء، حمد أبو سليمان، ص 51

بفرد كل فرد على صورة تختص به إلا الله سبحان وتعالى كما هو موجود في خلق الله للإنسان والحيوان والنبات في كل صورة تخصه[1].

وهذه الفروق تعرف عند اجتماع هذه الأسماء، أما عند افتراقها، فإن كل اسم من هذه الأسماء الحسنى يشمل معناه ومعاني الاسمين الآخرين.

ويتحدث الإمام ابن القيم (رحمه الله) عن بعض الأسرار في اقتران هذه الأسماء الحُسنى، فيقول: إن البارئ المصوّر تفسير لمعنى اسم الخالق.

والخلق من أعظم الأدلة على عظمة الله وعُلو هيبته؛ فإن انبثاق الحياة والحركة والحسِ في الموات هو آية ربانيته وقدرته وهو من الإعجاز بحيث لا يجحدها إلا مكابر فضلاً عن التصوير الذي هو تخصيص كل مخلوق بصورة تميزه عمَّا عداه[2].

– ومن آثار الإيمان باسمه سبحانه" المصوّر"؛ ما ذكر من الآثار في اسمه سبحانه "الخالق" يصلح أن يذكر هنا ويضاف إلى ذلك.

– قد امتن علينا بأنه صورنا، فأحسن صورنا: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: 64]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن:3]، وتصويرنا الذي امتن الله علينا به يتمُّ على وجهين:

الأول: تصوير أبينا آدم عليه السلام، فقد خلقه الله تبارك وتعالى بيده وصوره،

---

1 أضواء البيان، محمد الشنقيطي، مرجع سابق، 124/8.

2 مع الله، سلمان العودة، مرجع سابق، ص90

ثم نفخ فيه الروح، وأسجد له الملائكة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ﴾ [الأعراف:11].

والتصوير الثاني لبني آدم وهو الذي تم في الأرحام، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:6].

- تصوير الله وخلقه إعجاز... وأيُّ إعجاز!؟

فلو نظرت إلى نوع واحد من أنواع المخلوقات وهو الإنسان فضلاً عن الجان والملائكة وأنواع الحيوان وغيرها، لوجدت كل إنسان يمتاز بصورة لا يشابهه فيها غيره، فعلى الأرض اليوم ما يزيد على خمسة مليارات من البشر، كل واحد منهم تغاير صورته صورة غيره في الملامح والسمات، وفي الألوان والهيئات وكم من البشر ولدوا فوق هذه الأرض فيما مضى، وكم سيخلق من البشر فيما سيأتي إلى يوم الدين، كل إنسان له صورته التي خلقه الله عليها، وعند التدقيق في الخلق والتكوين تتضح الفوارق أكثر وأكثر، فهي تختلف في نعمة الباري المبدع المصور، فتبارك الله رب العالمين[1].

9- مصرع النظرية الدارونية:

بعد معرفة مراحل خلق أبي البشر آدم (عليه السلام)، ومراحل خلق ذريته يتضح لكل عاقل متبصر في تلك المراحل أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى، وتبطل كل دعوى في أن الخلق وُجد صدفة أو أن الطبيعة هي التي أوجدت هذا الكون،

1ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص447.

وما فيه من مخلوقات أو أن المخلوقات كانت بدائية ثم تطورت بعد مرور الزمان، وبعد أن انتهت مراحل تكونها وتطورها أخرجت لنا الإنسان. فهذه النظرية تُسمى بنظرية التطور والارتقاء التي جاء بها دارون، وهذه النظرية مخالفة للحقيقة العلمية التي جاء بها علم التشـــريح الذي بيَّن فروق خلقته بين الكائنات الحية مما يُثبت خطأ الأساس الذي قامت عليه تلك النظرية[1].

ويقول دعاة النظرية الداروينية: إن أصل المخلوقات حيوان صغير، نشأ من الماء ثم أخذت البيئة تفرض عليه من التغيرات في تكوينه مما أدى إلى نشـــوء صـــفات جديدة في هذا الكائن، أخذت هذه الصـــفات المكتســـبة تورث في الأبناء حتى تحولت مجموعة من الصـفات الصـغيرة الناشـئة من البيئة عبر ملايين السـنين إلى نشـوء صـفات كثيرة راقية جعلت ذلك المخلوق البدائي إلى مخلوق أرقى. واسـتمر ذلك النشـــوء للصـــفات بفعل البيئة والارتقاء في المخلوقات حتى وصـــل إلى هذه المخلوقات التي انتهت بالإنسان.

ولو كان ما قاله صـــحيحاً لوجدت كائنات أخرى غير الذي نرى الآن، ولو بعد مضـي سنين، ولو أخذ بنظريته لكان ارتباط المرأة بالرجل غير ضـروري، ولكن قوله هذا غير صـــحيح وباطل، فهو مجرد نظرية كشـــف العلم بطلانها وفســـاد ما قامت عليه[2]، وإليك الأدلة على مصرع النظرية الداروينية:

---

1 تنوع الخطاب الكريم في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص 152.

2 البحر، المرجع السابق، ص 153.

أ-الأدلة من القرآن الكريم والسنة:

إن قصـــة آدم في القرآن الكريم تقرر أن الله خلق آدم من طين ونفخ فيه من روحه. وهذه الآيات قطعية الدلالة، فلا مجال لتأويلها من أجل نظرية فرضـــية مشكوك فيها[1]. قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4]؛ أيّ على أحسن صورة وأبهى آية كما هو الآن. فالله يخبرنا أن بداية الإنسان كان على أحســـن صـــورة وليس كما يدعي دارون، ويقول رب العزة: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: 71،72]، وقال تعالى:﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70]، فالله كَرَّم آدم بأن خلقه بشراً سوياً من طين، وكَرَّمه بنفخ الروح، وبسجود الملائكة، وبإسكانه الجنة، وليس إكرامه بتطوره من حيوانات مسخة تطورت من نوع إلى نوع حتى وصلت إلى الإنســـان، فالآيات ذات دلالة دامغة على بطلان هذه النظرية.

وقد تولى الله عز وجل عرض قصة آدم (عليه السلام) في القرآن الكريم، وبيّن لنا في قصته أنه هو الإنسان الأول الذي بَثَّ الله منه هذه السلالة من البشر على وجه الأرض، كما حدد لنا الله في كتابه كيفية خلق أبينا آدم بشكل صريح واضح لا يحتمل التأويل، فلا مجال لإيراد تكهنات وتخيلات وفرضـــيات حول كيفية بدء وجود الإنسان على هذه الأرض، ولا مجال لفرضيات دارون وغيره بعد أن ورد إلينا

---

1 آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد العمصي، مرجع سابق، ص 35.

يقين لا شبهة فيه على الذي خلق وصوّر وهو بكل شيء عليم. ونحن نعلم أن كل اعتقاد يخالف ما تضمنه القرآن الكريم بشكل قاطع هو اعتقاد مخالف للحقيقة[1].

وجاءت السنة النبوية مؤكدة لما جاء في القرآن الكريم؛ إذ إن آدم عندما خلقه الله، خلقه على صورته، كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خلق الله آدم على صورته[2]. فقد خُلق آدم على صورته ذاتها التي استمر عليها وعُرف بها، أيّ أنه لم ينشأ متنقلاً من شكل إلى آخر خلال تاريخه كله أو من فصيلة لأخرى، بل إن آدم كما هو على صورته منذ خلقه الله عز وجل[3].

ب-الأدلة من العلم على بطلان نظرية دارون علمياً وعقلياً:

ألف عشرات العلماء مئات الكتب والتقارير والنشرات حول بطلان نظرية دارون علمياً وعقلياً، وقد توصلوا بجهودهم العلمية إلى نسف النظرية من أساسها، وتقويض أركانها ودعائمها مستندين في ذلك على العلم الحديث كعلم الوراثة والجيولوجيا وغيرهما، مستخلصين عشرات الأدلة على بطلانها، وقد اخترنا بعضها على سبيل التدليل:

- أشار بعض العلماء إلى أن دارون نفسه في كتابه "أصل الأنواع" أقر بوجود ثغرات كثيرة ومشكلات كبيرة ومعقدة في نظريته، منها على سبيل المثال: أنه عثر

---

1 العمصي، المرجع نفسه، ص 35.

2 صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، 2183/4.

3 آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، العمصي، مرجع سابق، ص 35

على هياكل حيوانات تعود إلى ما قبل العصـــــر الجليدي تُشـــبه هياكل حيوانات مماثلة لا تزال موجودة في عصرنا.

– أثبت العلم الحديث أن لكل نوع من الأحياء خارطة وراثية ثابتة لا تتغير مهما تطاول الزمن، وبذلك يحافظ كل صـنف على اسـتقلاليته وخصـائصـه، فلا ينشأ من تكاثره مع صنفه أو صنف مغاير له في خارطة المورثات صنف جديد فلا تلد القرود إنســـاناً ولا يلد الإنســـان قرداً أبداً. فعلم الوراثة الحديث قد هدم كل أساس لهذه النظرية، فقد أصبح من الثابت أن الأصول تورث الفروع المتفرعة عنها كل ما تحمله من خصـــائص بواســـطة الكروموســـومات[1]. ولا نجد بين أجناس الكروموسـومات وعددها توافقاً، فمثلاً في الإنسـان 46 وفي القرود 48 وفي الغنم 54 وفي الحصــــان 66 وفي الكلب 78، ولهذا فقد أعلن القرار العلمي بطلان النظرية الداروينية.

– إن المكتشـــفـات التي عثر عليهـا الجيولوجيون تنقض نظريـة دارون من أساسـها، فقد زعم دارون أن الأحياء البسيطة التي تطور منها الإنسـان يُعثر عليها في الطبقات الســـفلى من الأرض دائماً بينما أثبتت الحفريات عكس ذلك، فقد وجدت من الهياكل والصـور الحية المسـتخرجة من باطن الأرض أحياء أعقد تركيباً وأرقى مما فوقها من الأحياء[2].

---

1 الكروموسـومات: الصـبغيات، وهي كلمة مشـتقة من اللغة الإغريقية تعني الجسـم الملون، وتمثل الكروموسـومات أو الصـبغيات جسـيمات متناهية الصـغر منفردة ورقيقة يصـعب رؤيتها مجهرياً في أغلب أوقات حياة الخلية، وتُعنى الكروموسات بنقل صفات الآباء للأبناء، وتحدد صفاتهم المختلفة مثل: الطول ولون العينين والشعر وغيره، للمزيد انظر الفيديو: https://bit.ly/3bpK8PW

2 الإنسان بين الأمل والأجل، عبد الحميد طهماز، ص 55.

– زعم دارون أن الإنسان متسلسل من سلالات حيوانية، وأنه أخذ صورته الإنسانية منذ مليون سنة، ولكن علم المستحاثات هنا لا يثبت ذلك الزعم، إذ لم يعثر على السلاسل المزعومة التي تسلسل منها الإنسان، فهناك حلقات كثيرة مفقودة بين الإنسان والغوريلا أو الشمبانزي الذي يتوهم أن أصل الإنسان منها. فالحكم بانحدار الإنسان من القرود تعسف لا تحتمله نتائج البحث العلمي، علاوة على وجود اختلافات بين الإنسان والقرد في المظهر والشكل والقامة والملامح والاستعدادات الروحية والعقلية والعاطفية واللغوية[1].

– عثر بعض العلماء في السنوات الأخيرة في البحار القريبة من جرز القمر على سمكة كانوا يعتقدون انقراضها منذ عدة ملايين من السنين، كل ذلك يؤكد بطلان هذه النظرية[2].

وإذا كانت نظرية التطور صحيحة، فلماذا لم تتطور القرود وتتمدن، ونحن نعيش في عصر التمدن والتطور[3].

ثالثاً: سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس وحواره مع رب العالمين:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ

1 المرجع نفسه، ص 56.

2 المرجع نفسه، ص 57.

3 آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، العمصي، مرجع سابق، ص 37.

أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ۝ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:11 - 18].

وبعد الحديث عن الخلق والتصوير لبني الإنسان كان الحديث عن سجود الملائكة لآدم عليه السلام، والذي كان الغرض منه تنفيذ أمر الله، وذلك طاعة له فيما أمر، وإكراماً لآدم به، وإظهاراً لفضله، وتنويهاً على مكانته عند الله. وقد مرّ معنا الحديث مفصلاً في الآيات التي جاءت في سورة البقرة، ولم يكن إبليس من المنفذين لأمر الله عز وجل استكباراً وحسداً لآدم.

1- قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]

أيّ: ما منعك من السجود؟ وما حملك على أن لا تسجد؟ عندما توجه إليك أمري وإلى الملائكة بالسجود لآدم؟

ولم يخاطب الله عز وجل إبليس في هذا الحوار باسمه إهانة له واحتقاراً واكتفى بضمير المخاطب، وأما في سورة الحجر فقال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:32].

وفي سورة ص، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص:75]، فقد خاطبه باسمه تلطفاً به[1]، وأصرّ إبليس على عناده وتشبَّث بتكبره وصلفه، ولم يراجع نفسه أمام ربه مما يدل على استحكام الكفر والاعتراض على الله عز وجل وعدم الاستجابة لأوامره النافذة، بل يرى من العبث والظلم أن يسجد مخلوق أعلى رتبة لمخلوق أدنى منه في الرتبة والمنزلة والخلق[2].

- ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف:12]

إن إبليس عارض أمر ربه بشبهته التي ركَّبها من مقدمتين، هما:

المقدمة الأولى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، فهذه مقدمة صغرى، وأما الكبرى فهي محذوفة، تقديرها: والفاضل لا يسجد للمفضول: واستند في ذلك بقوله:﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

المقدمة الثانية: معلومة من المقدمة الأولى، أي: ومن خلق من نار أفضل ممن خلق من طين.

هاتان المقدمتان اللتان ادّعاهما إبليس، ليستا هما الأصل في امتناعه عن السجود، وإنما ذكرهما تعنُّتاً وعناداً، إذ الأصل في امتناعه عن السجود لآدم عليه السلام هو الكبر والكفر والإباء المجرد، فالله تبارك وتعالى أخبر في كتابه الكريم أن

1 الحوار والاستدلال في القرآن الكريم، خالد سليمان، مرجع سابق، ص 10

2 الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ص 998/3-999.

إبليس لم يسجد مع قدرته على السجود بقوله ﴿أَبَى﴾ فالإباء هو الامتناع مع القدرة والاختيار ولا يقال لمن لم يكن قادراً على الفعل: إنه أبى، كما أخبر سبحانه وتعالى أن هذا الإباء والاستكبار من إبليس، نتيجة للكفر المتأصِّل في نفسه بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، يقول أبو عبد الله الشبلي: اعلم أن هذه الشبهة التي ذكرها إبليس، إنما ذكرها على سبيل التعنّت وإلا فامتناعه من السجود لآدم إنما كان عن كبر وكفر ومجرد إباء وحسد[1]، وهذه الشبهة التي رتَّب عليها إبليس تلك المقدمتين، واستخلص منهما نتيجته الفاسدة، هي شبهة باطلة لعدة وجوه، هي فيما يأتي:

أ- إن شبهة إبليس قامت على القياس مع وجود النصّ:

وكل قياس مع وجود النص إبليسي باطل، وقد أكد العلماء هذا الوجه في ردِّ شبهة إبليس وشنعوا عليه قياسه الفاسد، قال ابن الجوزي: "قال العلماء: وقع الخطأ من إبليس حيث قاس مع وجود النص، وخفي عليه فضل الطين على النار"[2].

- يقول الشهرستاني: اعلم أن أول شبهة وقعت في الخليقة شبهة إبليس لعنه الله ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختياره الهوى في معارضة

---

1 آكام المرجان في أحكام الجان، محمد بدر الدين الشبلي، مرجعص 153.

2 زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، مرجع سابق، 174/3.

الأمر، واستكباره بالمادة التي خلق منها، وهي النار على المادة التي خلق منها آدم عليه السلام، وهي الطين[1].

– يقول ابن القيم عن قياس إبليس: إنه قياس في مقابلة النصّ، والقياس إذا صادَم النص وقابله كان قياساً باطلاً، ويسمى قياساً إبليسياً، فإنه يتضمن معارضة الحق بالباطل، وتقديمه عليه، ولهذا كانت عقوبته أن أفسد عليه عقله ودنياه وآخرته[2].

ويعتبر هذا القياس الإبليسي هو أول قياس وقع، قال الحسن البصري: قاس إبليس وهو أول من قاس، وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالقياس[3].

وهذا من الرأي المذموم والقياس المتكلف المنهي عنه وكل ما يورد من الأحاديث الضعيفة والأخبار الواهية في ذمّ القياس فهي محمولة على هذا النوع من القياس المذموم، الذي ليس له في الشرع أصل معلوم[4].

وأما القياس الصحيح المعتمد على الاجتهاد والاستنباط من كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) وإجماع الأمة هو الحق الواجب والفرض اللازم لأهل العلم وبذلك جاءت الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن جماعة الصحابة

---

1 الملِل والنحَل، أبو الفتح محمد الشهرستاني، 1/ 15-16.

2 الصواعق المرسلة، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ص 1002/3.

3 تفسير الطبري، مرجع سابق، 131/8.

4 تفسير القرطبي، مرجع سابق، 155/7.

والتابعين، وقال أبو بكر رضـــي الله عنه: أقيلوني بيعتي. فقال علي: والله لا نقيلك ولا نســتقيلك رضـيك رسـول الله لديننا أفلا نرضـاك لدنيانا؟ فقاس الإمامة على الصـلاة، وقاس الصـدّيق الزكاة على الصـلاة، وقال: والله لا أفرق بين ما جمع الله. وصـرّح علي بالقياس في شـارب الخمر بمحضـر من الصـحابة وقال: إنه إذا سـكر هَذَى، وإذا هَذَى افترى، فحدّه حدّ القاذف، وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري كتاباً فيه: الفَهم الفَهم فيما يختلج في صـــدرك مما لم يبلغك في الكتاب والســـنة، اعرف الأمثال والأشـباه، ثم قس الأمور عند ذلك، فاعمد إلى أحبها إلى الله تعالى وأشـبهها بالحق فيما ترى[1]. وحينما قال أبو عبيدة رضـى الله عنه لعمر رضـي الله عنهما في حديث طاعون عمواس حين رجع عمر من سـفره من الشـام: تفرُّ من قدر الله؟

فقال عمر: نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله، ثم قال له الفاروق: "أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصـــبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصـــبة رعيتها بقدر اللّه، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر اللّه"، فقاســـه وناظره بما يشـبه من مسـألته بمحضـر المهاجرين والأنصـار، وحسـبُك فإن الآثار وآيات القرآن في هذا المعنى كثيرة، وهو يدل على أن القياس أصل من أصول الدين وعصـــمة من عِصـــم المســـلمين، يرجع إليها المجتهدون ويفزع إليه العلماء العاملون

1 تفسير القرطبي، مرجع سابق، 154/7.

فيستنبطون به الأحكام[1].

ب- إن تفضيل إبليس أصل خلقه على أصل خلق آدم عليه السلام واستناده في زعمه هذا على قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ غير صحيح للاعتبارات الآتية:

- أن التراب منفعته أكثر من النار، فالتراب إذا وُضع فيه القُوتُ أنتج أضعافاً كثيرة وهذا من بركته، إذ وصف الله الأرض بالبركة والتراب هو مادة الأرض وعنصرها، قال تعالى في بركة الأرض العامة: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت:9،10].

وأخبر عن الأرض أنها تهتز وتربو بالماء ثم تُخرج الزروع والثمار اليانعة، قال سبحانه:﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:5]، وهذه الأرض هي مصدر رزق الإنسان ومنبت قوته ومعاشه، يقول جلّ شأنه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾

1 المرجع نفسه، 154/7.

[عبس:24-32]. وإلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي جاءت في وصف الأرض بالفضل والبركة والمنفعة للعباد.

وأما النار فلم يخبر الله تعالى أنه جعلها مباركة كما أخبر عن الأرض، ولم تذكر النار في القرآن الكريم إلا في معرض العقوبة والتخويف وجاءت في موضع واحد بأنها تذكرة ومتاع للمقوين، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۝ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ۝ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:71-73]. فالنار بالنسبة إلى الأرض كنسبة الخادم إلى المخدوم، إذا استغنت عنها أبعدتها وإذا احتاجت إليها استدعتها، وهي مذهبة لبركة ما يطوله لهبها، فلا ترجع إلا هشيماً تنسفه الرياح[1].

- إن النار طبعها الخفة والطيش والحِدَّة، وأما التراب ففيه الثبات والرزانة، ولما في الأرض من السكينة و الاستقرار، استطاع الإنسان أن يستفيد من خيراتها وكنوزها المكنونة فيها، إذ جعلها الله مذللة للإنسان، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك:15].

ولقد أكد العلماء على هذا الفرق البَيّن بين التراب والنار، فيقول ابن جرير: فجهل عدو الله وجه الحق وأخطأ سبيل الصواب، إذ كان معلوماً أن من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع علواً، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حمل

1 عداوة الشيطان للإنسان وعلاجها، عبد المنعم الحوّاس، ص118.

الخبيث بعد الشقاء الذي سبق له من الله في الكتاب السابق، على الاستكبار عن السجود لآدم والاستخفاف بأمر ربه، فأورثه العطب والهلاك وكان معلوماً أن جوهر الطين: الرزانة والأناة والحلم والحياء والتثبت وذلك الذي في جوهره من ذلك، كان الداعي لآدم بعد السعادة التي كانت سبقت له من ربه في الكتاب السابق إلى التوبة من الخطيئة ومسألة ربه العفو عنه والمغفرة[1].

ويقول ابن كثير: فأخطأ أي إبليس قبحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين، أيضاً فإن الطين من شأنه الرزانة والأناة والتثبّت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الطيش والإحراق والسرعة، ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة[2].

- أن التراب لا يستغني عنه الإنسان والحيوان، ولا عن ما يتكون فيه ومنه، فهو ضروري لهما، أما النار فيستغني عنها الحيوان. وقدرت المنفعة العظيمة للتراب، في ذكر الله تعالى الاستفادة منه في الحرث والزرع والثمار في سياق بعض نعم الله عز وجل على خلقه، كما قدم ذكره على ذكر النار والاستفادة منها وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۞ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ

1 تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 130/8-131.

2 تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ص 204/2.

حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة:63-67].

وذكر الله تعالى نعمة الماء ثم ذكر جلّ وعلا نعمة الاستفادة من النار.

– التراب لا يفتقر إلى حامل يحمله فهو قائم بذلك، في حين أن النار لا تقوم بنفسها، فهي مفتقرة إلى محل تقوم به ويحملها، بل إن هذا المحل لا يكون غالباً إلا من التراب أو فيه، فأين الأكمل والأفضل، القائم بنفسه المستغني عن غيره، أم الذي لا يقوم إلا في المحل بغيره ويتوقف حصوله على وجود محله؟

– أن الله عزّ وجل أودع في الأرض منافع كثيرة، ففيها المعادن والأنهار والثمار والعيون والأقوات وأضاف الحيوانات والجنان وغيرها، أما النار فإنه لا يوجد فيها شيء من ذلك أصلاً، فمن أراد الوقوف على الفرق بين التراب والنار، فلينظر إلى البساتين الخضرة والثمار اليانعة والروائح الطيبة الزكية والمياه العذبة... إلخ، ثم ليشاهد النار وحرَّها ولهبها، فإنه يتبيّن له فضل التراب على النار.

– التراب إذا خُلط بالماء صار طيناً، وبهذا الطين الذي احتقره إبليس شُيّدت المساكن وأقيمت المدائن ورفعت المآذن التي يُذكر فيها اسم الله تعالى وعُمّرت بيوت الله للعبادة، أما النار فأي شيء عمّرته ورفعته غير لهبها، فهي مع ما فيها من المنفعة مخربة للبلاد والعباد.

– الطين مركب من أصلين أساسيين للحياة على الأرض، وهما:

الماء الذي جعله الله سبباً رئيساً لحياة الإنسان والحيوان والنبات، قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:30]

والتراب الذي جعله الله خزانة للمنافع ومستودعاً لها ومحضناً للبذر ومنبتاً للزرع والثمار وسبباً لحصول القوت، أما النار فلا يوجد فيها هذان العنصران أو أحدهما.

– لو سُلّم بطريقة الفرض الباطل أن النار خير من الطين، فلا يلزم من ذلك أن يكون المخلوق من النار خير من المخلوق من الطين، فالله تعالى قادر على أن يخلق من المادة الأدنى من هو خير من المخلوق من المادة الأفضل، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء وهو من كمال قدرته تعالى، يقول ابن عطية: "وقول إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ قياس أخطأ فيه، وذلك أنه لما توهم أن النار أفضل من الطين، قاس أن ما خُلق من الأفضل فهو أفضل من الذي خلق من المفضول، ولم يدرِ أن الفضائل تخصيصات من الله تعالى يسمُ بها من يشاء"[1].

ويقول ابن تيمية رحمه الله: إنه وإن كانت النار خيراً من الطين، فلا يجب أن يكون المخلوق من الأفضل أفضل، فإن الفرع قد يختص بما لا يكون في أصله، وهذا التراب تخلق منه الحيوانات والمعادن والنبات مما هو خير منه، والاحتجاج على فضل الإنسان على غيره بفضل أصله على أصله حُجَّة فاسدة احتجّ بها إبليس وهي حُجَّة الذين يفخرون بأنسابهم.

1 تفسير ابن عطية، مرجع سابق، ص 12/ 489.

– الله تبارك وتعالى شرّف طينة آدم (عليه السلام) التي خلق منها وفضّلها بأمرين:

- أن الله تعالى شرّفها بأن خلقها بيديه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص:75].
- أن الله جلّ وعلا شرّفها بنفخ الروح المقدّسة فيها كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:72].

فهذان الأمران من أعظم الأسباب الموجبة لتفضيل الطين على النار[1]. وبهذا يتبين سقوط هذه الشُّبهة الإبليسية التي قامت على الكبر والعناد والمعارضة لأمر الله تبارك وتعالى، فصار إبليس بها إماماً لذوي الآراء الفاسدة والشُّبهات الباطلة والأهواء المائلة. يقول ابن القيم: وظنَّ أن هذه الشبهة تنفعه في تأويله، فجرى عليه ما جرى، وصار إماماً لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله الباطل إلى يوم القيامة، ولا إله إلا الله كم لهذا الإمام اللعين من أتباع من العالمين، وأنت إذا تأملت عامة شُبه المتأولين التي تأولوا لأجلها النصوص وعطّلوها، رأيتها من جنس شبهته[2].

ويعلق الدكتور عبد الحميد محمود طهماز على قوله تعالى: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ

---

1 عداوة الشيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص 121

2 الصواعق المرسلة، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ص 371/1.

وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾: فإبليس يرى أن الفضـــل والتقدم يرجع إلى الأصـــل، فهو إذن مصدر النظريات التي استحدثها بعض الناس القائلة بتفوُّق بعض الأعراق البشرية والأجناس على غيرها، والتي تســـببت في كثير من الحروب والنكبات لأبناء آدم، وآخرها الحربان العالميتان الأولى والثانية في النصف الأول للقرن الميلادي العشرين[1].

2- قال تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف:13].

إن علمه بالله لم ينفعه، واعتقاده بوجوده وصـــفاته لم ينفعه، وكذلك كل من يتلقى أمر الله ثم يجعل لنفســـه نظراً في هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضـــه، وحاكمية في قضية الله فيها من قبل، يرد بها قضاء الله في هذه القضية، إن الكفر إذن مع العلم ومع الاعتقاد فإبليس لم ينقصه العلم، ولم يكن ينقصه الاعتقاد، لقد طرد من الجنة وطرد من رحمة الله وحقَّت عليه اللعنة وكتب عليه الصغار[2].

وقال الشـــنقيطي: بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أنه عامل إبليس اللعين بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، والصغار أشد الذل والهوان وقوله تعالى: ﴿مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾. ونحو ذلك من الآيات، ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة وإنما يحصل له نقيض ذلك، وصرّح بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا

---

1 التفسير الموضوعي، محمد الكومي ومحمد قاسم، مرجع سابق، ص 24/3.

2 في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص 1266/3

كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر:56].

وقد بيّن الباري تبارك وتعالى في مواضع أخرى كثيراً من العواقب السيئة التي تنشأ عن الكبر، أعاذنا الله والمسلمين منه، فمن ذلك أنه سبب لصرف صاحبه عن فهم آيات الله والاهتداء بها كما في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف:146]. ومن ذلك أنه من أسباب الثواء في النار، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:60]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:35]، ومن ذلك أن صاحبه لا يحبه الله تعالى كما في قوله جلّ شأنه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:23]. ومن ذلك أن موسى عليه السلام استعاذ من المتصف بالكِبر، ولا يُستعاذ إلا مما هو شر، كما في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر:27] إلى غير ذلك من نتائجه السيئة وعواقبه الوخيمة[1].

وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"[2].

ويفهم من مفهوم المخالفة في الآية الكريمة أن المتواضع لله جلّ وعلا يرفعه الله،

1 أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ص 2/ 10 -11.

2 رواه مسلم، رقم 149.

وقد أشـار تعالى إلى مكانة المتواضـعين له عند موضـع آخر كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّـذِينَ يَمْشُـونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَـاطَبَهُمُ الْجَـاهِلُونَ قَـالُوا سَـلَامًـا﴾ [الفرقان:63].

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:183].

وقد صحّ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنه أوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد"[1]. وقد قال الشاعر:

تواضـع تكن كالبدر تبصـر على صـفحات الماء وهو

ولا تكُ كالدخان يعلو بنفسه إلى صـفحات الجو وهو

3- قـال تعـالى: ﴿قَـالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَـالَ إِنَّـكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف:14،15].

أ. إبليس يُريد الخلود:

خرج إبليس صـاغراً ذليلاً بحكم الله العادل، ثم عاد إلى ربه يطلب منه أن يبقيه حياً إلى يوم القيامة[2]، وهذه أيضاً جهلة أخرى من جهالته الخبيثة، سأل ربه ما قد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق الله إليه وذلك أنه سأله النظرة إلى قيام الساعة وذلك هو يوم يبعث

1 صحيح مسلم، 2197/4-2199. وفي: سنن أبي داوود، رقم 4895

2 آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد العمصي، مرجع سابق، ص69.

فيه الخلق، ولو أُعطي ما سأل من النظرة كان قد أعطي الخلود، وبقاء لا فناء معه، وذلك أنه لا موت بعد البعث[1].

وجاء إنظار إبليس في القرآن الكريم على النحو التالي:

- في سورة الأعراف قال تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف:14،15].

- وفي سورة الحجر قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر:36- 38].

- وفي سورة الإسراء قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62].

- وفي سورة ص قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص:80،81].

ومن خلال الآيات السابقة، نجد أن إبليس قد طلب من ربه أن ينظره إلى يوم الدين، فكانت أقواله على النحو التالي:

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

---

1 تفسير الطبري، مرجع سابق، 132/5.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

ومن خلال ما سبق نجد أن قوله: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

لفظ واحد تكرر ثلاث مرات لفظاً ومعنى، أما الصورة الرابعة فجاءت على صورة مشابهة في المعنى، مختلفة في اللفظ، وهذا التصوير الرباني لموقف إبليس يكشف لنا مدى اللهفة والحرص على أن يتحقق لإبليس ما طلب من الله، فقد ضاع منه كل شيء وهذا هو الأمل الأخير الذي تعلق به إبليس، فإن أجيب له ما أراد تنفست نفسه الصعداء ليبث حقده وسمومه على آدم وذريته من بعده[1].

كان طلب إبليس من الله عزّ وجل دليلاً على خبثه ومكره وخِداعه فهو يريد أن يكون مخلداً في هذا الوجود ولا يموت كما يموت باقي المخلوقين، معنى أن يبقى حياً إلى يوم البعث أن يشهد موت الناس وأن يشهد نفخة الصعق التي يصعق كل الأحياء عند حدوثها ويموتون، وأن يشهد موت الملائكة جميعاً وأن يبقى حياً يتفرج على جميع المخلوقين الموتى وأن يبقى حياً يشهد نفخة البعث ويرى الموتى وهم يبعثون أحياء، وهذا معناه أن لا يموت، بل يكون مخلداً، وأن الله العليم يعلم معنى طلبه:﴿رَبِّ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، ويعلم هدفه من ذلك الطلب ولكن هذا يتعارض مع سنة الله في المخلوقين من الإنس والجن والملائكة وغيرهم والتي تقرر أنهم لا بُد أن يموتوا كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل

[1] آدم بين اليهودية والنصرانية والإسلام، العمصي، مرجع سابق، ص 70.

عمران:185][1]. وإذا كان جميع الجن والإنس والملائكة سيموتون فإن إبليس لا بُد أن يموت ثم يبعث للحساب ولذلك ردّ الله على طلبه قائلاً:﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: 37،38]، أنظره الله وأمهله وأطال عمره وأخّر موته وقبض روحه ليس إلى يوم يبعثون، ولكن ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾، وهو اليوم الذي حدّد الله فيه موت إبليس، وهو معلوم محدد مقدر لا يتقدم ولا يتأخر وهذا سيكون قبيل قيام الساعة أي أن إبليس لا بد أن يموت قبيل قيام الساعة[2].

والمشهور أن يوم النفخة الأولى هو يوم الوقت المعلوم، وفي سورة ص والحجر تم التقيد لطلب إبليس بيوم الوقت المعلوم[3]، كما أن جواب الله لإبليس إخبار عن أمر تحقق قد قضاه الله وقدره من قبل سؤاله وليس إجابة لطلبة إبليس، لأنه أهون على الله من أن يجيب له طلباً، وهذه هي النكتة في العدول على أن يكون الجواب: أنظرتك أو أجبت لك، مما يدل على تكرمه باستجابة طلبه ولكنه أعلمه أن ما سأله أمر حاصل فسؤاله تحصيل حاصل[4] ، ولكن إلى ﴿يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾، وهذا ابتلاء للإنسان واختبار لحركة عقله وإرادته في الطاعة الإرادية

---

1 سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص90.

2 سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 90.

3 روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، ص 463/8.

4 التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ص 46/8.

القائمة على وقوفه أمام خياري الخير والشر[1].

ب-سماع قول الظالم:

وفي هذه الآية وما قبلها: عدل الله سبحانه وتعالى بسماع قول الظالم وطلبه قبل عقابه وهو أعلم سبحانه بظلمه وعناده وسوء قصده، وذلك أن الله لا يُنزل عقوبة بظالم حتى يقيم الحجة عليه، ليقطع عذره عند نفسه قبل غيره ومن ذلك:

أن يقيم الحجج المادية على العباد في الآخرة بالبينات عليهم وهو أعلم بهم بالكتابة عليهم وإشهاد الملائكة وإشهاد جوارحهم عليهم ليقطع بذلك أعذارهم وهذا من كمال عدله، فجعله سبحانه على نفسه ولم يجعله عليه أحد، وفي هذه الآية: أنه وجب على السلطان والقاضي أن يسمع قول الظالم والجاني ولو قامت البيّنات عليه من غير إقراره لأن من مقاصد الحكم إقامة العدل في الظالم عند نفسه حتى لا تسوِّل له نفسه وشيطانه أنه ظلم وبغي عليه ولم يسمع قوله أو يدعي أحد من أهله وذويه أن له حجة لم تسمع فيقع ذلك في بعض النفوس الجاهلة، فإن وقع فهو ظلم تسبَّب فيه السلطان بتقصيره بعدم سماع قول الظالم وإزالة شبهته وعناده عند نفسه ولو لم يقرّ بذلك عند غيره. وهذا إذا كان من سماع الظالم المعاند، فإنه من حق المظلوم وصاحب الحق أولى وأوجب.

وإذا كانت خصومة بين اثنين أو جماعة وجب على القاضي السماع منهما جميعاً في مجلس واحد، حتى يستوفي الردود بينهما، ولا يجوز له أن يسمع من كل

[1] تفسير من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله، ص 41/7.

واحد في مجلس، حتى لا يقول في خصـــمه شــيئاً وهو غائب وعنده حجة تدفعه، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: يا عليُّ إذا جلس إليك الخصمان فلا تقضي بينهما حتى تســـمع من الآخر كما سمعت من الأول؛ فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء[1]. وعن عبد الله بن الزبير قال: قضى رسول الله صلى عليه وسلم أن الخصمين يقعدان بين يدي الحكم[2].

ومن مقاصد الشرع في سماع أطراف الخصومة ولو تبيّن الظالم منهما:

إقناع الباغي ببغيه، وقطع حجته عند نفسه حتى تنزل العقوبة بتسليم لا بعناد، فتجد نفسه مدخلاً لاتهام الشريعة وأهلها، فيتحوّل من الذّنب والظلم إلى الكفر، ومن مقاصدها:

أن تسـد أبواب اتهام الشـرعية وأهلها من المنافقين أو من أهل الجهل من قرابة الظالم بأن الظالم لم ينصف وقد ظُلم وبُغي عليه، لأن لديه حجة لم تسمع منه[3].

ج-إبليس من أطول المخلوقات عمراً:

ردَّ الله تعالى على طلب إبليس قائلاً: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾؛ أنظره الله وأمهله وأطال عمره وأخّر موته وقبض روحه ليس إلى يوم يبعثون لكن إلى﴿ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾؛ وهو اليوم الذي حدّد الله فيه موت إبليس، وهو يوم معلوم محدّد مقدّر لا يتقدم ولا يتأخر.

---

[1] أخرجه أحمد، 111/1. وانظر: سنن أبي داود، رقم 3582.

[2] سنن أبي داود، رقم 3588. وانظر: مسند أحمد، 4/4.

[3] التفسير والبيان لأحكام القرآن، الطريفي، مرجع سابق، 1288/3.

وقد تبين من خلال الدراسة للآيات الكريمة إن إبليس من أطول المخلوقات عمراً، فقد خلقه الله قبل آدم (عليه السلام) لفترة لا يعلم مقدراها إلا الله، وشهد أحداث قصة آدم في الجنة وهبط مع آدم إلى الأرض، وعاش حياة البشر على الأرض منذ ساعاتها الأولى وبقي حياً يشهد مرور آلاف وملايين السنين، ويرى تعاقب الأجيال من البشر، ويمارس دوره في الإغواء والإفساد وبعد ذلك سيموت قبيل قيام الساعة.

إن معنى هذا أن يعيش إبليس فترات زمنية لا يعلمها إلا الله عز وجل، فهو من أطول المخلوقات عمراً، لكنّه بعد ذلك سيموت، لأن كل مخلوق سيموت[1].

4- قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:16،17].

بعد أن يئس إبليس من كل خير، وأيقن باللعن والرجم وضمن أن يعيش إلى قبيل قيام الساعة وقطع على نفسه عهداً بذلك أمام الله وهو الإصرار على الشر والتصميم المطلق على الغواية، وبذلك تتكشف هذه الطبيعة عن خصائصها الأولى شراً ليس عارضاً ولا وقتياً، إنما هو الشر الأصل العامد القاصد العنيد ثم هو التصوير المشخص للمعاني العقلية والحركات النفسية في مشاهد شاخصة حية،

---

[1] سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص91.

وهنا يعلن إبليس في تبجح خبيث - وقد حصل على قضاء البقاء الطويل- أنه سيرد على تقدير الله له الغواية وإنزالها به بسبب معصيته وتكبره وحسده لآدم وامتناعه عن طاعة الله عزّ وجل، بات يغوي ذلك المخلوق الذي كرمه الله والذي بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده ويجسم هذا الإغواء الذي حكاه القرآن عنه[1].

- ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾؛ أيّ: إنه سيقعد لهم على صراط الله المستقيم.

والإغواء إيقاع الغي في القلب وهنا نجد أن إبليس يعترف بسلطان الله تعالى الكامل على العقول والنفوس، وأن الغفلة التي سترت مداركه وأضلت تفكيره هي بإرادة الله تعالى وبعمل منه[2]، وقال ابن جرير الطبري في قوله تعالى: "﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: فبما أضللتني وكان بعضهم يتأول قوله:﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ بما أهلكتني من قولهم: غوي الفصيل يغوي غوىً، وذلك إذا فقد اللبن فمات"[3]، وقال القرطبي في تفسيره: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، الإغواء إيقاع الغي في القلب أي فيما أوقعت في قلبي من الغي والعناد والاستكبار وهذا لأن كفر إبليس ليس كفر جهل، بل هو كفر عناد واستكبار[4].

- ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ إن المعنى -والله أعلم- لأقعدن للعباد

---

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، 1267/3.

[2] زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ص 2796/5.

[3] جامع البيان، الطبري، مرجع سابق، ص 8/ 133-134.

[4] تفسير القرطبي، مرجع سابق، 155/7.

على طريق الحق والاستقامة والإسلام أصرفهم عنها وأزهدهم فيها وفي سلوكهم وأصدهم عنها وأزين لهم الباطل حتى يهلكوا كما هلكت ويضلوا كما ضللت ويخيبوا كما خبت[1].

وقد ورد في السنة النبوية من النصوص في بيان صفة عداوة إبليس، فعن بن الفاكه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه[2]، فقعد له بطريق الإسلام فقال له: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك قال: فعصاه فأسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول[3]، قال فعصاه فهاجر، قال: ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: هو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال، قال: فعصاه فجاهد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة)[4].

في هذا الحديث من الفوائد: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير ويدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وفي الصحيح

---

[1] التسهيل لتأويل التنزيل (سورة الأعراف)، العدوي، ص52.

[2] بأطرقه: جمع طريق.

[3] الطِّول: الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره والطرف الآخر في يد الفرس ليدور فيه ويرعى ولا يذهب

[4] مسند أحمد، 483/3، الوقص: كسر العنق.

عنه صلى الله عليه وسلم: "إن شيطاناً تفلت عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتي"[1]، وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله كان اعتراض الشيطان له أكثر، فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير[2].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح حتى أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، قال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني"[3].

- ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

في قوله تعالى: ﴿لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، فللعلماء فيه أقوال:

أحدها: أن قوله: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني به: أشككهم فيما هم مقبلون عليه من أمر البعث والجزاء والثواب والعقاب فلأشككنهم في ذلك، وأوسوس إليهم بأن لا بعث ولا ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار، والثاني: يعني به الدنيا، أحببهم فيها وأرغبهم في طلبها.

وفي قوله: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أشككهم في الأخبار التي نقلت لهم عن سلفهم من الأمم الماضية التي أهلكتها أو أكرمتها ولأحملنهم على تكذيب تلك الأخبار،

---

[1] صحيح البخاري، رقم 3423.

[2] إغاثة اللهفان، ابن القيم، مرجع سابق، 1/150-151.

[3] شرح السنة، البغوي، مرجع سابق، رقم 1293، 5/76.

والثاني: يعني الآخرة أشـــككهم فيها وأصـــرفهم عن العمل لها. وأما قوله: ﴿وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾، ففيه أيضاً أقوال:

وأحدها: ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني: من قبل الحق ألبســـه عليهم وأزهدهم فيه وأنفرهم عنه، والثاني: ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني: من قبل الحســنات أحملهم على تركها وأشـــغلهم عنها، والثالث: ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي من ناحية دينهم ألبس عليهم أمر دينهم.

وأما عن ﴿شَمَائِلِهِمْ﴾:

أحدها: من قبل الباطل أزينه لهم وأحببهم فيه وأرغبهم في عمله وســـلوكه، والثاني: ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ يعني المعاصي أزينها لهم[1].

قال الطبري: وأولى هذه الأقوال عندي بالصـــواب قول من قال: معناه: ثم لآتينهم من جميع وجوه الحق والباطل فأصـــدّهم عن الحق وأزين لهم الباطل، وذلك أن ذلك عقيب قوله:

﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فأخبر أنه يقعد لبني آدم على الطريق الذي أمرهم الله أن يســلكوه وهو ما وصــفنا من دين الله دين الحق فيأتيهم في ذلك من كل وجوهه، ومن الوجه الذي أمرهم الله به، فيصـــدّهم عنه وذلك: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من الوجه الذي نهاهم الله عنه فيزينه لهم

[1] التسهيل لتأويل التنزيل تفسير سورة الأعراف، العدوي، مرجع سابق، ص54

ويدعوهم إليه وذلك: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾[1]، وقيل: لم يقل من فوقهم، لأن رحمة الله تنزل على عباده من فوقهم[2].

وقال ابن القيم: السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأيّ سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان رصداً له، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يثبطه عنها ويقطعه أو يعوقه ويبطئه، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملاً له خادماً ومعيناً وممنيّاً، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك[3].

وقد وردت الاستعاذة من الشيطان وتسلطه من الجهات المذكورة وغيرها، ففي الحديث: اللهم احفظني من بين يديَّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي[4]، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم الاستعاذة من الشيطان على الإنسان من جهاته كلها[5].

- ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي: موحِّدين طائعين مظهرين الشكر[6] لفضلك وإحسانك ومنقادين لأمرك وقول إبليس هنا جاء على سبيل الظن والتوقع، فهو لا يعلم الغيب ولكنه علم نقاط الضعف البشري التي يمكنه التسلط

---

[1] تفسير الطبري، ص 137/8.

[2] المرجع نفسه، ص 137/8.

[3] إغاثة اللهفان، ابن القيم، مرجع سابق، ص 166/1.

[4] سنن أبي داود، رقم 5073، وأخرجه الحاكم وصححه.

[5] التدبر والبيان، المغراوي، مرجع سابق، ص 75/11.

[6] تفسير القرطبي، مرجع سابق، ص 157/7.

على الإنسان بواسطتها فيُحسن له الضلال ويبعده عن الصراط المستقيم[1].

قال ابن عطية: وقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أخبر أن سعايته تفعل ذلك؛ ظناً منه وتوهماً في خلقه آدم، حين رأى خلقته من أشياء مختلفة فعلم أنه ستكون لهم شيم تقتضي طاعته كالغل والحسد والشهوات ونحو ذلك، وما ظنه إبليس صدّقه الله عزّ وجل ومنه قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:20][2].

5- قوله تعالى: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:18]

- ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾

إن إبليس لما وعد بالإفساد الذي ذكر، خاطبه الله تعالى بما يدل على الزجر والإهانة فقال تعالى: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾؛ أيَّ من الجنة أو من السماء ﴿مَذْءُومًا﴾

أيّ محقوراً، والذام الاحتقار والمذءوم المذموم بأبلغ الذم[3]، وليس في القرآن غيره

﴿مذءوماً﴾، ولم تذكر هذه الكلمة إلا في هذا الموضع، فهو ذم شديد خاص

---

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 27/3.

[2] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، ص 381/2.

[3] تفسير الرازي، مرجع سابق، ص 216/5.

باللعين[1]. وقال الشنقيطي: بيّن في هذه الآية الكريمة أنه قال لإبليس: اخرج منها في حال كونك مذءوماً مدحوراً. والمذءوم: المعيب أو الممقوت، والمدحور: المبعد عن الرحمة المطرود[2]، وذم إبليس بما اتصف به من الرذائل وطرد لتنزيه عالم القدس عن مخالطته[3].

- ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

وهذا قسم من الله جلّ ثناؤه، أقسم أن من اتبع من بني آدم عدو الله إبليس وأطاعه وصدق ظنه عليه أن يملأ من جميعهم، يعني من كفرة بني آدم أتباع إبليس ومن إبليس وذريته جهنم[4]، وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:84،85]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۝ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:63،64]، وقوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء:94،95] إلى غير ذلك من الآيات[5]. والمتأمل لهذه الآيات

---

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 27/3.

[2] أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ص 11/2،12.

[3] التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ص 51/9.

[4] تفسير الطبري، المرجع سابق، ص 139/8.

[5] أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ص 11/2 – 12.

يجد معظمها ذكرت كلمة: ﴿تبعَ﴾؛ مما يدل على أن الموالين للشيطان والسائرين وراءه لهم إرادة وكسب واختيار في اتباعهم للشيطان وإعراضهم عن الصراط المستقيم طريق الهادي الرحيم، ولهذا فهم مسؤولون عن اختيارهم وكسبهم كما يتضح من كلمة ﴿تبعَ﴾[1].

رابعاً: قصة آدم في الجنة وخروجه منها:

قال الله تعالى: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۝ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:19-25].

- وفي تفسير الآيات:

1- قال تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا

---

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 28/1.

وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:19]

أ- ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾:

وفي توجيه الخطاب لآدم عليه السلام بهذه الفضيلة بحضور إبليس بعد طرده هو زيادة إهانة، لأن إعطاء النعم لمرضيّ عليه في حين عقاب من استأهل العقاب زيادة حسرة على المعاقب، وإظهار للتفاوت بين مستحقي الإنعام، ومستحق العقوبة[1].

- ومعنى ﴿اسْكُنْ﴾ إنما هو أمر تقرير، أيّ: ابق في الجنة وفي هذا تكريم لآدم وزوجه بمسمع من إبليس، مقمعة لإبليس، لأنه كان مستقراً في الجنة من قبل، فالقمع ظاهر إذ طرده الله، وأسكن الذي تَكبَّر هو عن السجود إليه في المكان المشرف الذي كان له قبل تكبره، وإن لم يكن إبليس ساكناً في الجنة قبل، فإكرام الذي احتقره وترفعه عليه قمعٌ له، فقد دل هذا الكلام في هذه السورة على معنى عظيم من قمع إبليس، زائد على ما في آية سورة البقرة وإن كانتا متماثلتين في اللفظ ولكن هذا المعنى البديع استفيد من الموقع وهذا من بدائع إعجاز القرآن[2].

والنداء للإقبال على آدم والتنويه بذكره في ذلك الملاء والإتيان بالضمير المنفصل ﴿أَنْتَ﴾ بعد الأمر لقصد زيادة التنكيل بإبليس، لأن ذكر ضميره في مقام العطف يذكر غيره بأنه ليس مثله وإن كان من قبيل اللقب وليس له مفهوم

---

[1] التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ص 53/9.

[2] المرجع نفسه، ص 53/9 – 54.

مخالفة فإنه قد يفيد الاحتراز عن غير صـــاحب الضـــمير بالقرينة على طريقة التعريض... فما اختير الفصل بالضمير المنفصل إلا بالتعريض لغيره.

ولفظة ﴿اسْكُنْ﴾؛ وردت مرتين في الخطاب القرآني بمعنى السكن والسكينة، وتستخرج من الجذر الأصلي الذي من أجله صارت كلمة مسكن معنى السكينة. إنه التصالح مع النفس ومع الآخرين، إنه التصالح الذي يلم أطراف الجميع ويجمعهم تحت قيمة أسرة واحدة تستهدف مجتمعاً جديداً متصالح مع نفسه دون صراع ينهشه من الداخل[1].

– ﴿وزَوْجُكَ﴾: في هذه الفترة، وبعد حصول آدم على المنزلة الراقية وسجود الملائكة له أذن الله سبحانه وتعالى بوجود مخلوق جديد في هذا الكون، وسيكون نظيراً لآدم ومشـــابهاً له في الخلق ويكون في النهاية شـــريكاً في جميع المراحل التي سوف يمر بها وهذا الشريك هو زوجة آدم أو امرأته وتدعى حواء وكما ذكرنا سابقاً في سورة البقرة، فبعد أن خلق الله آدم وعلمه ذلك العلم السامي والغزير وأدخله في اختبار لعلمه وعقله مع الملائكة كما رأينا، وكي لا يبقى وحيداً فلا بُد من نظير يكمله ويستقر إليه فخلق الله سبحانه وتعالى له حواء من نفس جنسه وطينته[2].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ

[1] الفردوس المستعار والفردوس المستعاد، أحمد العمري، ص91.

[2] تفاحة آدم وشجرة الختام، بشير محمد، ص150.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:1].

خُلقت حواء من نفس النوع والمنشــــأ والطينة التي خلق منها آدم، فأخذت نفس الصفات التي اكتسبها آدم، وتذكر بعض الأقوال بأن حواء خُلقت من ضلع آدم وسميت بهذا الاسـم: ﴿حواء﴾، وذلك لأنها خلقت من حي، وذكرت خلاف العلماء في هذه القضية، ومن أراد التوسع فليرجع إليها في سورة البقرة.

إن الذي يمكن الجزم به هو أن الله خلق له زوجاً من جنســـه فصــــارا زوجين اثنين. والسُــــنة التي نعلمها عن كل خلق الله هي الزوجية، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَـيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ فهي سـنة جارية، وهي قاعدة في كل خلق الله أصـيلة، وإذا سـرنا مع هذه السُـنة، فإن لنا أن نُرجح أن خلق حواء لم يمكث طويلاً بعد خلق آدم، وأنه تم على نفس الطريقة التي خلق بها آدم (عليه السلام)[1].

إن آدم (عليه السلام) هو الذكر، ويقابله من الطرف الآخر حواء وهي الأنثى، أيّ تحقق طرفي المعادلة والثنائية المطلوبة، وهما سـيكونان سـبباً لأشـياء أخرى كما سيمر معنا في مجريات قصة آدم (عليه السلام)، فحواء صورة مشابهة لآدم في كثير من الصفات، ولكن تختلف معه في بعضها، وذلك بسبب ميلها إلى عاطفتها أكثر من عقلها، وذلك لمهمة سـتتولاها فيما بعد، ولكنها بالنسـبة لآدم شـقيقة روحه ونظيرته في الخَلق ونصــفه الآخر الذي يكمله وأُنســه الذي من جنســه، وملاذه

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص 1268/3.

الوحيد بعد الله سبحانه وتعالى[1]، فبدأت الحياة الإنسانية لهذه الثنائية المباركة التي خلق الله منها بني الإنسان وفق حكمته ومشيئته وإرادته سبحانه وتعالى.

- ﴿الْجَنَّةَ﴾؛ المراد بها دار النعيم التي أعدّها الله للمؤمنين المتقين والراجح أن المشاهد الأولى من قصة آدم وإبليس كانت في الجنة دار النعيم، لأن غالب استعمال كلمة: ﴿الْجَنَّةَ﴾ في القرآن بهذا المعنى، ويُراد بها الجنة المباركة العظيمة التي خلقها الله قبل آدم وإبليس، وجَعلها دار النعيم التي هي مأوى للمتقين الصالحين.

وذهب البعض إلى أن المراد بالجنة في قصة آدم: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، بأنها جنة على الأرض تتمثل في مكان مرتفع على رأس جبل عالٍ، وهذا المكان فيه أشجار وثمار وأنهار وعيون وبيوت وقصور، وهو ممتد فسيح، سُمي ﴿الْجَنَّةَ﴾ لهذا السبب، ولسنا مع هؤلاء في تأويلهم واجتهادهم، لأنه لا يتفق مع ظاهر التعبير القرآني عن إسكان آدم وزوجه الجنة، وهذا هو الأصل في معنى الجنة في القرآن[2]، والذي عليه أهل السنة أن الجنة التي أخرج منها آدم وحواء وقبلهما إبليس هي جنة الخلد قولاً واحداً عندهم[3]، وقال ابن بطال: إن أهل السنة مجمعون على أن جنة الخلد هي التي أُهبط منها آدم عليه السلام، فلا معنى لقول من خالفهم[4]، ولهذا أقوال كثيرة ذكرت منها طرفاً يحصل منه المقصود بإذن الله في قصة

---

[1] تفاحة آدم وشجرة الختام، بشير محمد، مرجع سابق، ص151.

[2] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 116.

[3] قصة آدم، عمر أبوبكر، مرجع سابق، ص143.

[4]تفسير القرطبي، مرجع سابق، ص 303/1.

آدم عليه السلام في سورة البقرة.

ب- ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾:

بدأت حياة آدم وزوجته الجديدة، وهم في قمة السعادة، وفي عز الشباب، وهما بكامل الحرية بأن يأكلوا من جميع ثمار الجنة إلا شجرة واحدة ممنوع الأكل منها وهذه ليست مشكلة، فلديهم متسع كبير من نعيم الجنات وأعداد لا يمكن حصرها إلا هذه الشجرة التي خلقها من شجر الجنة، يتمتعان بالأكل من ثمارها المتنوعة ويشربون من شراب الجنة ومائها العذب وبالفعل كان لهما هذا الأمر، يَسرحون ويمرحون ويتمتعون بين أشجار الجنة يأكلون من ثمارها اللذيذة ويشربون من شرابها العذب، ليس لهم فضلات، فهم لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتمخطون ولا يتفلون، ولكن ذلك يَرشح من جسديهما عطراً وطيباً ومسكاً وغرق آدم وزوجته في لذة نعيم الجنة ونسيا أنهما في مرحلة اختبار في هذه الجنة وأن هناك شجرة وحيدة ممنوع الأكل من ثمارها وأن هناك عدو يتربص لهم بالسوء وينتظر الفرصة المناسبة ليوقعهما في المكيدة ليفسد عليهما هذا النعيم[1].

وأصبح آدم وزوجته بين اختيارين إما أن يُطيعا أمر الله ويأكلان من ثمار الجنة ويكون غذاؤهما منها، ويعيشا فيها بشكل دائم وهذا هو الاختيار الجيد، وإما أن يُخالفا أمر الله، ويأكلا من ثمار الشجرة الممنوعة، وبسببها يعاقبا ويهبطان إلى

[1] تفاحة آدم وشجرة الختام، بشير محمد، مرجع سابق، ص160.

الأرض، ويكون غذاؤه الدائم منها، وهذا هو الاختيار السيء.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى نمط وأسلوب المعيشة التي سينعم فيها آدم وزوجته في الجنة، حيث قال: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه:117-119].

وإذا دققنا في معاني هذه الآيات الكريمة، نجد بأن الله سبحانه وتعالى بَيَّن لآدم بكل وضوح نمط وأسلوب معيشته في الجنة في حال التزم بأوامر الله تعالى، أما إذا اتبع آدم خطوات الشيطان، فسوف يعيش في نمط معاكس تماماً لنمط معيشته في الجنة، وهو نمط شقاء العيش خارج الجنة. وبالتالي، كانا أمام أسلوبين من المعيشة وهما:

- سعادة العيش في الجنة.
- شقاء العيش خارج الجنة.

وسنوضح ذلك فيما يلي:

- سعادة العيش في الجنة:

في حال التزمت يا آدم بأوامر الله تعالى، فإنك ستعيش بقمة السعادة في هذه الجنة، حيث تستمتع بالأكل من جميع ثمارها بكامل المتعة، وتتلذذ في ذلك الأكل من دون أن تجوع أو تشبع وأن تشرب من مائها العذب من دون أن تشعر بالعطش أو الارتواء وذلك لدوام واستمرار النعيم والمتعة، وأيضاً تعيش بدون عورة

تسوؤك لكي لا تحتاج إلى أن تتعرى لقضاء حاجتك الطبيعية، وأيضاً: أنت في ظل شجر الجنة الدائم حيث لا يوجد شمس تعاني من لهيب أشعتها.

- شقاء العيش خارج الجنة:

هنا الخطاب الإلهي لأبينا آدم أنه حال اتبعت خطوات عدوك إبليس، فسوف تخرج من الجنة، وتعيش بشـــقاء، حيث تتحول إلى نمط عيش معاكس تماماً لنمط العيش في الجنة، حيث سيتعرض جسدك إلى أذى شديد وتتعرض من جراء ذلك إلى الجوع والعطش وسـوف تشـكل لديك سـوءات تحتاج إلى أن تتعرى لقضـاء حاجتك الطبيعية مما يسبب لك الإحراج والخجل، ولكي تحصل على لقمة العيش سـوف تعمل وتتعب وتشـقى وتتعرض لأشـعة الشـمس الحارقة لكي تحصـل على لقمة عيشك.

وهذا هو آدم عندما وقع في المعصـية، فخرج من الجنة وحُرم من نعيمها، ونزل إلى الأرض وشقائها كما هو معلوم[1].

- ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّـــجَرَةَ﴾: عندما أذن الله لآدم وحواء بالأكل من حيث أرادا في الجنة لم يمنعهما إلا من شـــجرة واحدة معيّنة من أشـــجار الجنة العديدة الكثيرة، تثمر ثمراً خاصـاً شـهياً مرغوباً، وكان آدم وحواء يعرفانها، ولذلك لما نهاهما الله عن الاقتراب منها أشـار لها باسـم الإشـارة ﴿هَذِهِ﴾ الذي يشـار به للقريب، وهذا يدل على قرب الشـــجرة منهما قرباً مادياً وقرباً علمياً ومعنوياً. وأل التعريف

[1] تفاحة آدم وشجرة الختام، بشير محمد، مرجع سابق، ص 172.

في ﴿الشَّـجَرَةَ﴾ للعهد الذهني لأنها شـجرة معروفة عند آدم وحواء، ولم ينه الله آدم وحواء عن مجرد الأكل من ثمار تلك الشــجرة المحرّمة إنما نهاهما عما هو أبلغ، وهو الاقتراب منها، حيث قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّــجَرَةَ﴾؛ والنهي عن الاقتراب من الشجرة أبلغ من مجرد النهي عن الأكل منها، لأنه يتضمن النهي عن الأكل منها، أما النهي عن الأكل فإنه لا يتضــمن النهي عن الاقتراب منها، حيث إنهما إذا لم يقتربا من الشـجرة فلن يأكلا منها من باب أولى وهذا معناه أنهما كانا منهيّين عن شيئين، الاقتراب من الشجرة والأكل منها.

وهذا هو المســمّى في الإســلام بســد الذرائع، أي تحريم كل طريق توصــل إلى الحرام، فعندما حرّم الإســلام الزنا ســد الذرائع إليه، وحرّم كل طريق توصــل إليه، فحرّم النظرة والمصافحة والقُبلة والاختلاط والتبرج وغير ذلك.

ولما نهى الله آدم وحواء عن الاقتراب من الشــجرة أخبرهما أنهما إن فعلا ذلك كانا من الظالمين، وقد يتســاءل البعض: لماذا كلّفهما الله بالنهي عن الاقتراب عن تلك الشجرة؟

لعـل الحكمـة من ذلـك التكليف هي تقويـة إرادة آدم وحواء، وتنميـة معـاني التكليف والالتزام عندهما، وتدريبهما على ذلك، وهما في الجنة ليُحســنا النظر إليه، ويتمرّنا على التفاعل معه، لأن الله سينزلهما بعد ذلك إلى الأرض وستقوم حياتهما الدنيوية على التكليف والأمر والنهي، وســيكون هذا التكليف لهما في الجنة تمهيداً للتكاليف الشــرعية لذريتهما من بعدهما، فما كلّف الأبوان في الجنة هذا التكليف

وتدربا عليه، كذلك تكلف ذريتهما من بعدهما هذا التكليف وتتدرب عليه وتتكلف معه[1].

وقد خاض كثير من المفسرين في تحديد تلك الشجرة، فقال بعضهم: إنها كانت شجرة البُرّ، وقيل: كانت شجرة العنب وقيل كانت شجرة التين وقيل كانت شجرة الحنطة، وقيل كانت سنبلة وغير ذلك. وإن عدم اتفاقهم على واحدة منها دليل على عدم توقيف شيء من ذلك في كتاب أو سنة ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: والصواب في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فأكلا منها ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن، ولا في السُنة الصحيحة[2]، رجّحه ابن كثير بقوله: وهو الصواب[3].

– ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ يعني: فتكونا من المعتدين إلى غير ما أذن لهم وأبيح لهم فيه، وإنما عنى بذلك أنكما إن قربتما هذه الشجرة، كنتما على منهاج من تعدَّى حُدودي، وَعصى أمري، واستحلَّ محارمي، لأن الظالمين بعضُهم أولياء

---

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص 120

[2] تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 521/1.

[3] تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ص 235/1.

بعض، والله وليّ المتقين وأصـــل (الظلم) في كلام العرب، وضـــعُ الشـــيء في غير موضعه[1]. وقال غيره: يعني إن أكلتما من هذه الشجرة ظلمتما أنفسكما[2].

2- قال تعالى: ﴿فَوَسْـوَسَ لَهُمَا الشَّـيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآَتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّـجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف:20]

أ- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾:

أي: ألقى إليهما الوسوسة وهي الصوت الخفي المتكرر[2].

هدفه الأول من الوسـوسـة أن يزيل عنهما حرمة أهل الجنة وكرامتها وسعادتها، فيتلطخا بوحل المعصية وشؤمها وقبحها[3]، أي استزلهما بالوسوسة والإغراء اللذين لهما أعظم التأثير في القلوب، حيث غزاهما بدغدغة العواطف وتحريك الأنانية الكامنة في القلوب[4]، قائلاً لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

ولا خلاف بين أهل العلم أن إبليس اللعين هو الذي تولى إغواء آدم حتى أكل من تلك الشـــجرة التي نهي عنها، ولكنهم اختلفوا في الكيفية التي تمكن إبليس من

---

[1] تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 234/1.

[2] قصص الأنبياء، العدوي، مرجع سابق، ص 51/1.

[3] روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، ص 99/8.

[4] العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، الشمراني، مرجع سابق، ص71.

تحقيق ذلك[1].

فهناك من العلماء من قال: إن إبليس كلم آدم وحواء مشافهة وأغواهما بالوسواس حتى أكلا من تلك الشجرة وكل ذلك وهو على باب الجنة من الخارج، وليس بداخلها، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:21]، والمقاسمة ظاهرها المشافهة[2].

وهناك قول آخر من أقوال العلماء: إن إبليس لم يدخل على آدم في الجنة بعد أن خرج منها مذءوماً مدحوراً ملعوناً، وإنما أغواه إبليس بشيطانه وسلطانه ووساوسه بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[3].

وهناك أقوالاً أخرى في المسألة ضربنا عنها صفحاً لأنها باطلة وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدي بأسانيده، وأبي العالية ووهب بن منبه وغيرهم، هاهنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية وإبليس وكيف جرى من دخول إبليس إلى الجنة ووسوسته[4].

ومثل هذا الرأي يُكتفى بذكره عند الرد عليه، فكل من عقل عن الله يدرك

---

[1] قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص155.

[2] المرجع نفسه، ص156.

[3] صحيح البخاري، رقم 1898.

[4] تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ص 236/1.

بطلان مثل هذه الآراء، إذ يســـتحيل أن يتمكن إبليس من الاحتيال على الله في الدخول إلى الجنة، وقد أخرجه الله من الجنة بقوله: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر:34]. وهذه الأقوال قد نسبت إلى بعض الصحابة ولكن لا يصح السند إليهم ولو صح عنهم فرضاً يكون مما أخذ عن بني إسرائيل[1].

ب- ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾:

أيّ: ليظهر لهما ما سُتر عنهما من عوراتهما، فعورة الإنسان سوءته، وإظهارها وكشــفها يُســيء إليه، وينزله عن مرتبة كرامته التي ميزه الله تعالى بها عن الحيوانات والتي رفعه إليها عندما أمر الملائكة بالسجود له سجود التكريم والاحترام كما ذكرنا سابقاً[2].

فاللام في قوله تعالى ﴿لِيُبْدِيَ﴾؛ لام التعليل وهذا يدل على أن تعرية آدم وحواء من ثيابهما كانت أمنية لإبليس اللعين قبل حدوث ذلك معهما[3]، ليزيل عن آدم وزوجه الحرمة والكرامة، بإظهار عوراتهما وكشــف ســوءاتهما، وكانا لا يريانها تكريماً لهما، وما يفعله كثير من الناس في العصر الحاضر من تعمّد كشف العورات وإظهار الســوءات، انتكاس عن كرامة الإنســان وحرمته، وارتكاس وانحطاط إلى

---

[1] قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص 157

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 30/30.

[3] قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص 163.

الحيوانية البهيمية ومزالقها[1].

ج- ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّاَ نْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾:

بذلك داعب رغائب الإنسان الكامنة، بأنه يجب أن يكون خالداً لا يموت أو معمراً أجلاً طويلاً كالخلود، ويجب أن يكون له ملك غير محدد بالعمر القصير المحدد، وفي قراءة ﴿ملِكين﴾ بكسر اللام وهذه القراءة يعضدها النص الآخر في سورة طه: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴾ [طه:120]، وعلى هذه القراءة يكون الإغراء بالملك الخالد والعمر الخالد، وهما أقوى شهوتين في الإنسان بحيث يمكن أن يُقال: إن الشهوة الجنسية ذاتها إن هي إلا وسيلة لتحقيق شهوة الخلود بالامتداد في النسل جيلاً بعد جيل، وعلى قراءة ﴿ملَكين﴾ بفتح اللام يكون الإغراء بالخلاص من قيود الجسد، كالملائكة مع الخلود، لكن القراءة الأولى -وإن لم تكن هي المشهورة- أكثر اتفاقاً مع النص القرآني الآخر، ومع اتجاه الكيد الشيطاني وفق شهوات الإنسان الأصليّة[2]، ومعنى الكلام: فجذب إبليس إلى آدم حواء وألقى إليهما: ما نهاكما ربكما عن أكل ثمر هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، ليبدي لهما ما واراه الله عنهما من عوراتهما، فغطاه بستره الذي ستره عليهما، وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 30/3.

[2] في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص 1269/3.

رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّـــجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾. ويقول- جلّ ثناؤه-: وقال الشيطان لآدم وزوجته حوّاء: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة أن تأكلا ثمرها إلا لئلا تكونا ملكين.. أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ في الجنة، الماكثين فيها أبداً، فلا تموتا[1].

قال ابن القيم: ومن هنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها، وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطها ويسألها عما تحبه وتؤثره، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب، وكذلك علّم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضـهم الفاسـدة من بعضـهم بعضـاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه، فإنه باب لا يخذل في حاجته من دخل منه ومن رام الدخول من غيره فالباب مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود، فشام عدو الله الأبوين، فأحسَّ منهما إيناســاً وركوناً إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم، فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين وقال: ﴿قَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾

وكان عبد الله بن عباس يقرؤها: ﴿ملَكين﴾ بكسر اللام، ويقول: لم يطمعا أن يكونا من الملائكة، ولكن اســتشــراف أن يكونا ملِكين فآتاهما من جهة الملك،

[1] تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 140/8.

ويدل على هذه القراءة قوله في الآية الاخرى: ﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾، وأما على القراءة المشـــهورة، فيقال: كيف أطمع عدو الله آدم عليه الســـلام أن يكون بأكله من الشـــجرة من الملائكة وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشـــرب وكان آدم عليه الســـلام أعلم بالله وبنفســـه وبالملائكة، من أن يطمع أن يكون منهم بأكله، ولا سيما مما نهاه الله عز وجل عنه؟[1].

فالجواب: أن آدم وحواء عليهما السلام لم يطمعا في ذلك أصلاً، وإنما كذبهما عدو الله وغرّهما، وخدعهما بأن مسمى تلك الشجرة شجرة الخلد، فهذا أول المكر والكيد ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها، فســـموا الخمر: أم الأفراح، وسموا أخاها بلقيمة الراحة، وسموا الربا بالمعاملة، وسموا المكوس بالحقوق الســلطانية وسموا أقبح الظلم وأفحشــه بشــرع الديوان، وسموا أبلغ الكفر وهو جحد صـفات الرب تنزيهاً، وسموا مجالس الفسـوق مجالس الطيبة، فلما سماها شـــجرة الخلد قال: ما نهاكما عن هذه الشـــجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ولا تموتا فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون، ولم يكن آدم عليه السلام قد علم أنه يموت بعد، واشتهى الخلود في الجنة وحصلت الشبهة من قول العدو وإقســامه بالله جهد أيمانه أنه ناصــح لهما، فاجتمعت الشــبهة والشــهوة، وساعد القدر لما فرغ الله سبحانه من تقديره فأخذتهما سِنة الغفلة، واستيقظ لهما

[1] التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، 86/11.

العدو، كما قيل:

واستيقظوا وأراد الله غفلتهم   لينفذ القدر المحتوم في الأزل

إلا أن هذا الجواب يعترض عليه قوله: ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾، فيقال: الماكر المخادع لا بد أن يكون فيما يمكر به ويكيد من التناقض والباطل ما يدل على مكره وكيده ولا حاجة بنا إلى تصحيح كلام عدو الله والاعتذار عنه وإنما يعتذر عن الأب في كون ذلك راج عليه وولج سمعه فهو لم يجزم لهما بأنهما إن أكلا منها صارا ملكين، إنما ردّد الأمر بين أمرين: أحدهما: ممتنع، والآخر: ممكن، وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر ولهذا لما أطمعه في الأمر الممكن؛ جزم له به ولم يردّده فقال: ﴿قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه:12]، فلم يدخل أداة الشك هاهنا كما أدخلها في قوله: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾، فتأمله![1].

ونلاحظ الشعارات التي رفعها إبليس في خطته، لم يقل: إن الممنوع مرغوب ولم يقل شيئاً مباشراً قط، لكنه رفع شعارات في غاية الجاذبية والبراءة، بل إنه أقسم لهما أنه لهما ناصح، وأنه يبذل جهده من أجلهما فلنلاحظ شعاراته:

﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾

﴿تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾

---

[1] إغاثة اللهفان، ابن القيم، مرجع سابق، ص 1/179-181.

﴿مُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾

كلها براقة وجذابة، لكن كلها مزيفة وخداعة[1].

3- قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:21]

أ- ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾:

وحلف لهما، كما قال في موضع آخر: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ بمعنى: تحالفوا بالله.

ب- وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾:

أيّ لممَّن ينصح لكما في مشورته لكما، وأمره إياكما بأكل ثمر الشجرة التي نهيتما عن أكل ثمرها، وفي إخباري إياكما بما أخبركما به من أنكما إن أكلتماه كنتما ملكين، أو كنتما من الخالدين[2].

وتدل صيغة: ﴿قَاسَمَهُمَا﴾ على أنه كرر القسم أكثر من مرة، وأنهما كانا في أول الأمر لا يثقان به ولا ينصاعان لوسوسته وأنه حصلت بينهما مراوغات ومحاولات بذل فيها الجهد[3].

وقال ابن القيم: تضمن هذا الخبر أنواعاً من التأكيد:

---

[1] الفردوس المستعار، العمري، مرجع سابق، ص99.

[2] تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 141/8.

[3] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 32/3.

أحدها: تأكيده بالقسم.

الثاني: تأكيده بإن.

الثالث: تقديم المعمول على العامل، إيذاناً بالاختصاص: أي نصيحتي مختصة بكما، وفائدتها عائدة إليكما لا إليّ.

الرابع: إتيانه باسم الفاعل الدال على الثبوت واللزوم، دون الفعل الدال على التجدد، أي: النصح صفتي وسجيتي، ليس أمراً عارضاً لي.

الخامس: إتيانه بلام التأكيد في جواب القسم.

السادس: أنه صوّر نفسه لهما ناصحاً من جملة الناصحين فكأنه قال لهما: الناصحون لكما في ذلك كثير، وأنا واحد منهم.

وورّث عدو الله هذا المكر لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين، كما كان المنافقون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاؤوه: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون:1]، فأكّدوا خبرهم بالشهادة وبـ ﴿إنّ﴾ وبلام التأكيد، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ [التوبة:56][1].

وقال: لم يكن آدم يَظن أن أحداً يُقسم بالله كاذباً يمين غموس، يتجرأ فيها على الله هذه الجرأة، فغرّه عدو الله بهذا التأكيد والمبالغة، فظن آدم وصدقه أنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة، ورأى أن الأكل وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود

[1] إغاثة اللهفان، ابن القيم، مرجع سابق، ص 181/1.

أرجح، ولعله يتأتى له اســتدراك مفســدة النهي أثناء ذلك، إما باعتذار وإما بتوبة وإما بغير ذلك، كما تجد هذا التأويل قائماً في نفس كل من يؤمن بالله واليوم الآخر إيماناً لا شك فيه إذا أقدم على المعصية[1].

وقال ابن عاشور: وتأكيد إخباره عن نفسه بالنصح لهما بثلاث مؤكدات دليل على مبلغ شــك آدم وزوجه في نصــحه لهما، وما رأى عليهما من مخائل التردد في صـــدقه وإنما شـــكّا في نصـــحه لأنهما وجدا ما يأمرهما مخالفاً لما أمرهما الله الذي يعلمان إرادته بهما للخير علماً حاصلاً بالفطرة[2].

ونســي آدم وزوجه – تحت تأثير الشــهوة الدافعة والقســم المخدر– أنه عدوهما الذي لا يمكن أن يدلهما على خير، وأن الله أمرهما أمراً عليهما طاعته ســـواء عرفا علته أم لم يعرفا، وأنه لا يكون شــيء إلا بقدر من الله فإذا كان لم يقدر لهما الخلود والملك الذي لا يبلى فلن ينالاه[3]، واســـتطاع إبليس اللعين أن يتمكن من التأثير على آدم وحواء مســـتخدماً في ذلك كل ما يملك من أدوات التغرير بهما وأقنعهما بأن تلك هي نصائح يقدمها إليهما بدافع الحرص لهما على الخير مؤكداً على ذلك بالقسم[4].

---

[1] الصواعق المرسلة، ابن القيم، مرجع سابق، ص 375/1.

[2] التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ص 60/8.

[3] في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص 1269/3.

[4] قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص 149.

4- قوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف:22]

أ- ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾:

- ﴿فَدَلَّاهُمَا﴾: أي أنزلهما عمّا كانا من عز الطاعة وشرفها ومنعتها، ونبّه سبحانه بهذا اللفظ على أن الشيطان أهبطهما من درجة عالية إلى رتبة سافلة، فإن التدلية والإدلاء إرسال الشيء من الأعلى إلى الأسفل[1].

- ﴿بِغُرُورٍ﴾: وهما متلبّسان بخداعه ومكره، فما زال يزين لهما المعصية حتى أثار شهوتهما إلى المحظور، فغلب عليهما وأنساهما نهي الله تعالى وتحريمه الأكل من الشجرة فما أقدما على المعصية تصديقاً للشيطان وإنما أكلا منها بسبب ضعفهما أمام الشهوة التي أثارها الخبيث فيهما[2].

قال الألوسي رحمه الله: وذهب كثير من المحققين إلى أن التصديق لم يوجد منهما لا قطعاً ولا ظناً وإنما أقدما على المنهي عنه لغلبة الشهوة، كما نجد من أنفسنا أن نقدم على الفعل إذا زيّن لنا الغير ما نشتهيه، وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال[3].

---

[1] تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ص 534/2.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 32/3.

[3] روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، ص 100/8.

وفي قوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾: جعلهما يتدليان نحو القاع، نحو القعر، نحو أسفل سافلين، بينما هما يتصوران أنهما يركبان سلم الرقي والتطور، وقادهما إلى تلك الشجرة المحرمة، خطوة خطوة، وخطوة إثر خطوة من خطوات الشيطان في دواخلهم، في نوازعهم، فيما بدا لهم أنه أصيل في أعماقهم، دلاهما بغرور، بخديعة ووصلا إلى تلك الشجرة، عبر خطوات الشيطان.

ويذكرنا ذلك، لو أردنا التذكر، بكل سقوط حدث في هذا العالم الذي استغرق سقوطه تاريخاً إثر تاريخ، حتى على الصعيد الشخصي ستجد بصمات هذه الخطوات واضحة جلية.

سنجد هذا الهمس دائماً، فأنت حر، خلقك الله بهذه النوازع، والزمن تغير وكانوا يتزوجون وقتها مبكراً، لقد خلقنا الله لنستمتع بهذه الدنيا، أنت أهم شخص في حياتك، فلا تهتم بما يقول الآخرون، ليس هناك من ضرر في هذا، لن يضر هذا أحداً، والله لن يحاسبنا إلا على ما يضر الناس، الناس تطوروا الآن والقيم تغيرت. هل ستظل بهذه العقلية؟

وهي إنما خطوة فخطوة من خطوات الشيطان في داخلنا إلى أن نصل إلى تلك الشجرة المحرمة التي نسقط بعدها: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾؟[1]

ب- ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾:

---

[1] الفردوس المستعار، أحمد العمري، مرجع سابق، ص100.

- ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّــجَرَةَ﴾: وذلك يدل على أنهما تناولا اليســير بقصــد معرفة طعمه ولولا أنه تعالى ذكر في آية أخرى أنهما أكلا منها، لكان ما في هذه الآية لا يدل على الأكل لأن الذائق قد يكون ذائقاً من دون أكل[1].

- ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾: نزع عنهما لباس الجنة وسيما أهل الجنة، ورأى كل منهما عورة الآخر، وفوجئا بما طرأ عليهما من تغير وتبدل وأدركا فوراً جنايتهما ومعقبتهما، وغلب عليهما الحياء من الله تعالى، وأخذا يبحثان عن شــيء يســتر سوءاتهما فلم يجدا غير ورق شجر الجنة[2].

ت- ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾:

أي: شرعا يجمعا ورق الجنة ورقة فوق ورقة لكي يسترا به عورتيهما[3].

وما من معصــية ترتكب إلا ولها تبعاتها في الدنيا أو في الآخرة إن لم يتب منها صاحبها توبة نصوحاً، فها هو آدم وهو ممن اختاره الله أن يكون خليفة في الأرض لما أكل من تلك الشجرة حلت عليه بسببها تلك العقوبات التي جاء في مقدمتها تعريته من ثيابه التي كان يســتر بها عورته، فضــاقت عليه الجنة بما رحبت حينما ظهرت عورته وعورة زوجه للعيان فشرعا يستراها بما أمكن لهما من ورق الشجر،

---

[1] تفسير الرازي، مرجع سابق، ص 220/5.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 33/3.

[3] المرجع نفسه، ص 33/3.

وخاطبهما ربهما وهما على تلك الحالة الحرجة[1]. وهذه الآيات الكريمة جميعها تُبطل نظرية الإنسان الحجري العاري من الثياب.

إن كثيراً من المؤرخين الغربيين يروّجون لنظرية الإنســان الحجري، ويعنون بذلك أن الإنســان في بداية أمره كان يعيش بالأدوات الحجرية، أيّ أنه كان بدائياً في كل شــيء ومن مقتضــى ذلك أن الإنســان كان يمشــي عرياناً كما ولدته أمه، ولم يكن على جسده لباس يستر به عورته، بل كان يفترش الأرض ويلتحف السماء.

وهذا كله كذب وافتراء على البشـــرية في تاريخها، وتنكر لنعم الله التي أنعم الله بها على بني آدم، من ستر عوراتهم، ولم يكن الإنسان في تاريخه يوماً فاقداً ما يستر به عورته، قد أوجد الله لآدم وحواء وهما في الجنة من اللباس ما يستران به سوءاتهما، واستمرت تلك النعمة من ستر العورة من ذلك الوقت وتلك نعمة تكفلها الله لبنيه من بعده إلى قيام الساعة[2].

وقد يحدث العري عند أمة من الأمم باختيارٍ منهم مع توفر اللباس لديهم أو معرفة الوسائل التي توصلهم إليه، فيمشون عراة تماشياً مع أعرافهم وتقاليدهم، كما تعيش بعض القبائل في أدغال أفريقيا، وهم لا يزالون عراة أو شبه عراة، ويرون أخذ اللباس عيباً ومخالفاً لعاداتهم وتقاليدهم. وقد يكون العُري عند بعضـــهم راجعاً إلى

[1] قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص151.

[2] المرجع نفسه، ص152.

انحراف عقدي كحال بعض قبائل العرب[1].

قال ابن كثير: كانت العرب – ما عدا قريش –لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها وكانت قريش – وهم الحُمس–يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسيّ ثوباً طاف منه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، فمن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً، وربما كانت امرأة فتطوف فتجعل على فرجها شيئاً يستره بعض الشيء وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يَطفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آباءهم مستند إلى أمر من الله وشرعه، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:28].

وقد يكون سبب العري راجعاً لانحلال أخلاقي كحال الغرب في العصور المتأخرة فإنهم مع تقدمهم المادي وتمكنهم من وسائل الإنتاج يتجردون عن ثيابهم شيئاً فشيئاً، حتى إن نساءهم لا يكدن في هذا العصر يسترن إلا العورة المغلظة،

[1] قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص152.

بل لديهم أماكن خصصت للعراة منهم، يمشي الرجال مع النساء جنباً إلى جنب دون حياء ولا خجل[1].

إن العري منافي للفطرة الإنسانية، ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان، وإن رؤية العري جمالاً هو انتكاس في الذوق البشري قطعاً[2].

وعلى كل حال فلم تفقد البشرية عبر تاريخها ما تستتر به عورتها، وإن كان اختلف نوعية اللباس من جيل إلى جيل، فقد يكون لباس بعضهم في فترة من الفترات جلود البهائم والسباع، وقد يضع آخرون لباسهم من جذوع الأشجار وجريدة النخل. والدليل على ما قلنا إن الرسالات السماوية لم تنقطع عن أهل الأرض يوماً منذ الخليقة الأولى، والأنبياء هم قادة البشر عبر التاريخ، وإن وجد كثير ممن يعارضونهم، لكن كانت العاقبة لهم دوماً، وهذا يدل على رُقي البشرية، إذ كانت تتلقى التوجيهات من الله في جميع مناحي الحياة وفي ذلك ما يدحض تلك المزاعم التي تنزل الإنسان إلى مستوى البهائم[3].

إن من الفطرة، الاستتار والتزين باللباس ولو بين الزوجين، وإبداء السوءتين والعورات بين الزوجين بلا حاجة ولا مقصد مأذون به غير أنه مكروه، لأنّه يسقط

---

[1] تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ص 402/3.

[2] في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص 208/3.

[3] قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص154.

هيبة الحياء في النفس، وتزهد نفوس بعضهما في بعض، وتتشوف إلى غيرهما من الحرام وقد فطر الله آدم وحواء على ذلك، فسترا عوراتهما بورق الشجر مع أنه لا يراهما أحد من البشر غيرهما، فليس لهم ذرية عند ذلك، ولذلك قال تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف:27].

فجعل رؤية بعضهما لبعض بلا حاجة من مقاصد الشيطان، ولو كانت مباحة في الأصل، ولكنّ الأصل الستر، واللباس وأمّا الكشف فعارض.

وقد جعل الله الأصل في بني آدم الستر باللباس، فتستتر المرأة وتتزين ولو كانت لا يراها أحد، والرجل يكون وحده ولو في فلاة فلا يراه أحد يُحَبُّ أن يستر بدنه. فذلك استتار تحبه النفس وهي مفطورة عليه حتى لو كان الإنسان في بيته مغلق الأبواب، لم يحب أن يبقى عرياناً لأن ذلك مخالف للفطرة، ولو كان الإنسان أعمى البصر لا يرى عورة نفسه ولا يراه أحد، لأحبَّ أن يستتر، لحرارة الفطرة في نفسه التي يجدها[1].

وقد شرع الله الاستتار باللباس، لجملة من الأسباب:

– حياءً من الله، فالله يحب أن يُستحيا منه وذلك من تعظيمه وإجلاله، والله لا تُستر عنه عين، ولا تستر عنه عورة فلا يراها، وإنما مجرد فعل اللباس والاستتار به في الحياء من الله ولو كان في علم العبد أن الله يراه، فالإنسان يستتر في نفسه وهو

---

[1] التفسير والبيان لأحكام القرآن، الطريفي، مرجع سابق، ص 1290/3.

يعلم نفسه حفظاً لحياء نفسه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الله أحق أن يستحيا منه من الناس).[1]

– وكان بعض خيار السلف يستترون فيغطُّون رؤوسهم وهم في الخلاء حياءً من الله، كما صحَّ عن أبي بكر الصديق قال وهو يخطب الناس: يا معشر المسلمين، استحيوا من الله، فو الذي نفسي بيده، إني لأظل حين أذهب إلى الغائط في الفضاء مغطياً رأسي، استحياء من ربي[2]. وكان طاوسي يأمر ابنه بذلك.

– حياء من الملائكة، فإن الملائكة تتأذى ممّا يتأذى منه بنو آدم، كما جاء في الحديث وممّا يتأذى منه بنو آدم، بُدُوُّ السوأة، وذلك من مقاصد قيام الفطرة في آدم وحواء وذريتهما وحبهما للاستتار في الجنة، وليس فيها من البشر غيرهما وقد دلَّ الدليل على أن الملائكة مجبولة على الحياء كبني آدم، كما قال صلى الله عليه وسلم: "ألا تستحي من رجل تستحي منه الملائكة"[3]، يعني عثمان بن عفان رضي الله عنه.

– الاستتار عن الناس والحياء منهم، فإن هذا من أعظم مقاصد اللباس وغير ذلك من الأسباب[4].

ت– ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ

---

[1] سنن أب داود، رقم 4017، وانظر: سنن الترمذي، رقم 2794.

[2] مصنف بن أبي شيبة، رقم 1127.

[3] أخرجه مسلم، رقم 2401.

[4] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 1293/3.

لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: وهنا جاءهما النداء من الله مذكراً ومؤنثاً، كيف خالفتما هذا النهي؟ وعصيتماني؟ ما حجتكما في ذلك؟ هل هي وسوسة الشيطان؟ وكيف لم تنتبها إلى وسوسته[1]. ألم أنهاكما عن الشجرة؟ فهنا عتابان وتوبيخان من الله:

الأول على فعل المعصية، والثاني على الاغترار بوسوسة الشيطان[2].

وقد تأخر نداء الرب إياهما إلى أن بدت لهما سوءاتهما، وتحيّلا لستر عوراتهما ليكون للتوبيخ وقع مكين من نفوسهما حين يقع بعد أن تظهر لهما مفاسد عصيانهما، فيعلما أن الخير في طاعة الله وأن في عصيانه ضرًّا[3]، وسمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية وإغفال النصيحة، أما كيف كان النداء وكيف سمعاه فهو كما خاطبهما أول مرة وكما خاطب الملائكة وكما خاطب إبليس، كلها غيب لا ندري عنه إلا أنه وقع وأن الله يفعل ما يشاء[4].

وتمثلت لآدم وحواء الجريمة في مستوى الكارثة، فكيف نسيا تحذير الله لهما وكيف أقبلا على ممارسة الرغبة المحرّمة وغفلا في عداوة الشيطان لهما وكيف خالفا أمر الله الذي خلقهما وأنعم عليهما؟

وبدآ يعيشان الندم كأعمق ما يكون في إحساس بالحسرة والمرارة والذُّعر

---

[1] تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مرجع سابق، ص 50/7.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 33/3.

[3] التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ص 65/8.

[4] في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص 1269/3.

ولكنهما لم يستسلما لهذه المشاعر السلبية طويلاً ولم يسقطا في وهدة اليأس فلهما من الله أكثر من أمل، لأنه الرب الكريم الذي لا يتعاظمه غفران الذنب العظيم، فرجعا إليه وعادا إلى كنف رحمته يتطلعان إلى مغفرته ورضــوانه في موقف الاعتراف الخاشع: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [1].

5- قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَــنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:23].

وفي هذه الآية يتكشـف الجانب الآخر في طبيعة هذا الكائن المتفرد، إنه ينسى ويُخطئ، إن فيه ضـعفاً يدخل منه الشـيطان، إنه لا يلتزم دائماً ولا يسـتقيم دائماً ولكنه يدرك خطأه ويعرف زلته ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة ويثوب ويتوب إلى الله، إنها خصيصـة الإنسـان التي تصـله إلى ربه وتفتح له الأبواب إليه لا حول ولا قوة إلا بعون الله ورحمته وإلا كان من الخاســرين، وهنا تكون التجربة الأولى قد تمت، وتكشفت خصائص الإنسان الكبرى وعرفها هو وذاقها، واستعد بهذا التنبيه لخصائصه الكامنة لمزاولة اختصاصه في الخلافة وللدخول في المعركة التي لا تهدأ أبداً مع عدوه[2].

والآية غنية بمفاهيم عديدة:

---

[1] تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مرجع سابق، ص 51/7.

[2] في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص 1270/3.

– مفهوم الربوبية، ومفهوم الظلم، ومفهوم النفس، ومفهوم المغفرة، ومفهوم الرحمة ومفهوم الخسران.

أ- ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾:

افتتح آدم وحواء عليهما السلام دعاؤهما الخاشع باسم الله ﴿الرب﴾ ربنا والرب هو المربي لجميع عباده بالتدبير وأضاف النعم وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم ولهذا كان دعاء الأبوين الكريمين بهذا الاسم العظيم ﴿ربنا﴾، يا ربنا، فقد اتجهوا معترفين بذنوبهم مقرّين بخطئهم وقد أحسوا بأن مغبة العصيان وقعت، فنادوا ربهم ﴿ربنا﴾ وهنا حرف النداء محذوف وهو نداء ضراعة وخشية[1].

إن من أخص صفات الرب عز وجل الرحمة والرأفة بعباده وإنعامه عليهم وقد وسع الله عز وجل كل شيء برحمته وربوبيته، فمفتاح المغفرة والرحمة الدعاء إلى الله ورسوله بأسمائه الحسنى وهنا نتعلم من الأبوين اسم الرب في مناجاة الله والانكسار بين يديه، وطلب المغفرة والرحمة منه.

ونرى أن آدم وحواء عليهما السلام في ضراعة وخشية وانكسار بين يدي الله عز وجل، أي يا ربنا ظلمنا أنفسنا. وظلمهما لأنفسهما كان بادياً لعيانهما عندما ذاقا الشجرة فقدت بدت لهما سوءاتهما وأخذا يخصفان عليهما من ورق الجنة

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2800/5.

وظلما أنفسهما بعصيان الله وذلك ظلم مبين، وظلما أنفسهما باغترارهما بالشيطان، وقد قال لهما ربهما: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ واضح العدوان[1].

ب- ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾:

- ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾: إن أنت لم تستر علينا ذنبنا فتغطيه علينا وتترك فضيحتنا به بعقوبتك إيانا عليه، ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ بتعطفك علينا وتركك أخذنا به، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين﴾ يعني: لنكونن من الهالكين.

وقال السمرقندي: في الآية دليل على أن الله تعالى يعذب عباده إذا أصروا على الذنوب، ويتجاوز عنهم إذا تابوا. ولأن إبليس لم يتب وسأل النظرة، فجعل مأواه جهنم، وتاب آدم ورجع عن ذنبه، فقبل توبته.

ونقل ابن جرير بسنده عن الضحاك في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية: قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه[2]، وقد تم شرح الآية الكريمة: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:37]

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2800/5.

[2] تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 144/8.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ بيان معرفتهم العميقة لمن يغفر الذنوب وهو سبحانه الغفور لعباده فقد دخل آدم وحواء عليهما السلام إلى عالم الأنس والمغفرة بهذا الدعاء متلمسين الغفران والتجاوز من الغفور سبحانه وتعالى، فالأبوين يعلمانا بأن ربنا غفور وغفّار، وإن الإنسان في حاجة إلى مغفرته في جميع أدوار حياته. وأمام معرفة الأبوين للغفور الغفار والعفوّ سبحانه وتعالى، وأن من صفاته يغفر الذنوب، بدأت جدران اليأس وجبال الهموم وكآبة المعاصي تتصدع وتزول وتتلاشى وتنطلق أرواحهما من سجون المعاصي إلى آفاق التوبة، هل هناك أجمل من طلب المغفرة بعد الوقوع في الذنوب والمعاصي من الله؟ بالله قل: أستغفر الله، لا تقلها فقط، تأمل فيها: أستغفر الله، إن قلتها من قلبك تتناثر جميع الوساوس والهواجس والمخاوف![1].

فطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى الذي من أسمائه الحسنى (الغفور)، أصل أصيل لبني الإنسان منذ بداية البشر، ودعاء أبويهما لله عزّ وجل وطلب المغفرة منه سبحانه. فالغفور والعفو سبحانه وتعالى: الذي لم يزل ولا يزال بالعفو معروفاً وبالغفران والصفح عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعدنا بالمغفرة لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه82][2].

---

[1] لأنك الله، علي بن جابر الفيفي، ص156.

[2] ولله الأسماء الحسنى، عبدالعزيز الجليل، مرجع سابق، ص569.

فالغفور سبحانه: الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب[1].

واسمع لربك يا ابن آدم الذي يعلم كل ذنب سيقترفه عباده من لدن آدم وحتى قيام الساعة، يعلم بتفاصيل تلك الذنوب وخطواتها وشناعة أمرها فيقول تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:53].

- وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾؛ طلب الرحمة من الله الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى، وهنا تظهر عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله ومغفرته وعدم اليأس من رحمته التي وسعت كل شيء وهو الذي يغفر الذنوب جميعاً.

ومما تستجلب به رحمة الله الاستغفار، ولذلك قدم الأبوين الاستغفار ودفع الذنوب ثم طلبا من الله الرحمة التي فيها التوبة والرضى من الله عز وجل.

والمتأمل في دعاء الأبوين يُلاحظ حضور اسم الرب في دعائهما مع انكسار وخشوع وطلب المغفرة من الغفور والرحمة من الرحيم سبحانه وتعالى، فجمع الأبوان بين طلب الرحمة والمغفرة من الغفور الرحيم، وجمع الله سبحانه بين هذين الاسمين الكريمين؛ لأن المغفرة تسقط عقوبة الذنوب ويستر الله عز وجل ذنوب عباده ويقيهم آثامها، كما يقي المغفر الرأس من السهام، وهذا مقتضى رحمته سبحانه، كما أن في الجمع بين هذين الاسمين الكريمين إشارة إلى الكرم الغامر

[1] المرجع نفسه، ص 569.

والفضل العميم، فإن كونه سبحانه (الغفور) يقتضي تجاوزه عن الزلات والعثرات، فإذا قرن (الغفور) بـ(الرحيم) الذي ظهرت آثار رحمته، فهو الفضل الذي ليس وراءه فضل، فالمغفرة تخلية عن الذنوب والرحمة، وتحلية بالفضل والثواب[1].

- ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: أيّ الهالكين، فلا غنى للإنسان عن رحمة الله وعفو وفضله، ومن دونها، يكون مصيره الخسران والهلاك[2].

إن الله عز وجل أوحى إلى آدم كلمات تعرّف من خلالها على كيفية الخروج من هذه المعصية وتبين له طريقة التوبة من تلك المعصية. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:37]، أي أن آدم عليه السلام تلقف وتلقى من الله كلمات ألهمهن إياه فأخذهم آدم، وعمل بهن، ورددها هو وحواء، وتلك الكلمات ما تمّ شرحها آنفاً: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:23].

وتلك الكلمات تلقاها آدم إما بطريق الوحي، وهو الأظهر أو الإلهام ويكفينا أن آدم عليه السلام قد قال بها، فكانت سبباً في قبول توبته وقد قبل الله توبته ومحا ذنوبه، وهذه منّة أخرى من الله على آدم، لأنه لو شاء الله لما رضي عنه، ولكنه لما علم الله من آدم صدق التوجه إليه والإقبال عليه للخروج من تبعات ذلك الذنب

---

[1] ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص 148

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 33/3.

فقبل الله توبته ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:122]

ولما أظهر آدم عبوديته لله وافتقاره إليه رفع الله مكانته فكان حاله بعد التوبة أحسن منه بعدها، وقد قال بعض أهل العلم: رُبَّ معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزّاً واستكباراً[1].

6- قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف:24].

انتهت بهذه النتيجة التجربة وما فيها من دروس وعبر وأمر الله تعالى الإنسان إلى الأرض التي خلق ابتداءً منها ليستخلفه سبحانه فيها:

أ- ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾:

والخطاب لآدم وحواء وإبليس وكرر أمر الهبوط في حقه ليبين أنه قرين الإنسان وأنه ابتلي به في جميع أحواله أو الخطاب لآدم وحواء وخوطبا بصيغة الجمع لأنهما أصل العنصر البشري كله[2]، وقد هبطوا جميعاً إلى الأرض، وآدم وزوجه، وإبليس وقبيله هبطوا ليصارع بعضهم بعضاً، وليعادي بعضهم بعضاً، وتدور المعركة بين طبيعتين وخليقتين: إحداهما ممحصة للشر، والأخرى مزدوجة الاستعداد للخير والشر، ليتم الابتلاء ويجري قدر الله بما شاء[3].

---

[1] قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص 165.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 34/3. وانظر: تفسير النسفي، 103/1.

[3] سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص 1270/3.

ب- ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾:

فبين الإنسان والشيطان عداوة وصراع منذ فجر وجوده وبين الناس أيضاً: صراع هو السبب الرئيس الأول لحركة تاريخ البشرية بتقدير الله تعالى، ولولا هذا الصراع لكانت حياة الإنسان في الأرض ساكنة هامدة، لا حسَّ فيها ولا حركة.

إن جميع أحداث التاريخ البشري نابعة من هذا الصراع القائم على الأرض بين الخير والشر، فهو محركها وباعث نشاطها.

إن تفسير القرآن الكريم لأحداث تاريخ البشرية، يلتقي مع ما ذكره فلاسفة التاريخ من علماء الغرب عندما ردُّوا حركة التاريخ البشري إلى الصراع، ولكنه يخالفهم في حقيقة هذا الصراع وأبعاده ومداه، فهو ليس صراعاً بين الطبقات على الموارد المالية ووسائل الانتاج كما زعم انجلز وماركس في نظرياتهم الاقتصادية، يؤدِّي في النهاية بزعمهم إلى الحتمية التاريخية، وبانتصار طبقة العمال (البروليتارية)، لقد أظهر الواقع أن هذه الحتمية التاريخية وهم وسراب، وقد انهارت الشيوعية في أكبر معاقلها، وتراجعت عن الكثير من مبادئها وأعلنت فشلها وإفلاسها وانحسارها الكبير.

إنّ الصراع الذي يُحرك أحداث التاريخ هو الصراع بين الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلال، الخير والحق والهدى المتمثل في دين الله تعالى وشرعه المنزل على الناس بواسطة الأنبياء والمرسلين وبين الشر المتمثل بالشيطان وأوليائه

من الجن والإنس كما قال تعالى:﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 38،39][1].

ج- ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾:

- ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾: أي موضع استقرار لحياتكم ومعاشكم[2].

وقال ابن عطية: وقوله تعالى: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: لفظ عام لزمن الحياة ولزمن الإقامة في القبور، وبزمن الحياة فسر أبو العالي وقال: وهي كقوله:﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة:22] وبالإقامة في القبور فسر ابن عباس واللفظ يعمها فهي كقوله:﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات:25،26][3].

- ﴿وَمَتَاعٌ﴾: وانتفاع بما فيها من خيرات خُلقت من أجلكم كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:10][4].

واستقرار الإنسان في الأرض غير دائم فهو مؤقت بوقت محدود لا يزيد ولا ينقص، قدّره الخالق الحكيم ولهذا قال:

---

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 35/3.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 35/3.

[3] المحرر الوجيز، ابن عطية، مرجع سابق، ص 3/ 387-388.

[4] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 35/3.

– ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: أي إلى الوقت الذي قدّره سبحانه[1]، وهو بحسب الجملة إلى قيام الساعة، وبحسب مفرد بلوغ الأجل والموت والحين في كلام العرب الوقت غير المعين[2]، وللأرض اتصال كبير بالإنسان، فمنها خلق، وفيها يعيش ويموت وهي مركز صراعاته، ونشاطاته الحضارية وسائر ممارساته كما قدّره سبحانه[3].

7- قال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:25]

قال ابن كثير: وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:25]، وفي قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:55].

يُخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم، وفيها مماتهم وقبورهم ومنها نُشورهم في يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي كلاً بعمله[4].

وهذا حكم الله وقدره، ولا خيار للإنسان فيه ولا حرية، فالأرض هي أمه ووطنه، يستطيع الإنسان أن يرتاد النجوم، ويطوف بمركباته في الفضاء الواسع

---

[1] المرجع نفسه، 36/3.

[2] المحرر الوجيز، ابن عطية، مرجع سابق، ص 387/2-388.

[3] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 36/3.

[4] تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ص 36/3.

الرحيب ولكنَّه لن يجد مستقراً في غير الأرض، ولن يجد مكاناً فيه جميع أسباب حياته ومعاشه بين ملايين الكواكب والأجرام غير الأرض كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:55].

وها هو الفضاء أمامكم، قربت بعضه لكم المناظير الضخمة في المراصد العلمية والمركبات الصاروخية، ابحثوا فيه عن وطن آخر للإنسان وطوفوا بين أجرامه ومجراته ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:101]، واحجزوا منه ما تشاؤون، وتقاسموا كما تريدون، فلن تستطيعوا الاستقرار في غير الأرض[1].

خامساً: النداءات الإلهية الأربعة لبني آدم بعد قصة آدم (عليه السلام) وما فيها من تقرير وتحذير:

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝ فَرِيقًا

---
[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 36/3.

هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۞ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ۙ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: 26-36].

وبعد حديث الآيات عن مبدأ الوجود البشري على الأرض وسماته الكبرى، جاء دور النداءات والتعقيبات لتسليط الأضواء على دروسه وعبره من خلال أربعة نداءات بصيغة يا بني آدم.

والحكمة من توجيه الخطاب إلى عامة الناس بهذه الصيغة واضحة، فالعهد قريب بالحديث عن خلق آدم وتصويره وتكريمه، وعن حسد الشيطان له ومكره وإغوائه، مما أدى إلى إنزاله إلى حضيض المعصية وتجريده من ثياب أهل الجنة، وظهور سوءته، ثم إعلان توبته، وقبولها بفضل الله تعالى ورحمته، وهبوطه إلى الأرض لتكون له مستقراً ومتاعاً إلى حين، فكل هذه الدروس والمواعظ ليست لآدم وحده،

وإنما هي لجميع أبنائه، إنها للإنسان في كل زمان ومكان[1].

1- قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:26].

هذا النداء يجيء في ظل المشهد الذي سبق عرضه من القصة، مشهد العري وتكشف السوءات والخصف من ورق الجنة، لقد كان هذا ثمرة للخطيئة والخطيئة كانت في معصية أمر الله وتناول المحظور الذي نهى الله عنه وليست هي الخطيئة التي تتحدث عنها أساطير (الكتاب المقدس) والتي تعج بها التصورات الفنية الغريبة المستقاة من تلك الأساطير ومن إيحاءات (فرويد) المسمومة... لم تكن هي الأكل من (شجرة المعرفة) كما تقول أساطير العهد القديم وغيرة الله سبحانه وتعالى من الإنسان وخوفه تعالى - عن وصفهم علواً كبيراً — من أن يأكل من شجرة الحياة أيضاً فيصبح كواحد من الآلهة، كما تزعم تلك الأساطير ولم تكن كذلك هي المباشرة الجنسية كما تطوف خيالات الفن الاوروبي دائماً حول مستنقع الوحل الجنسي لتفسر به كل نشاط الحياة كما علمهم فرويد اليهودي[2].

وفي مواجهة مشهد العُري الذي أعقب الخطيئة، ومواجهة العري الذي كان يزاوله المشركون في الجاهلية، يذكر السياق في هذا النداء نعمة الله على البشر، وقد

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق 39/3.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 39/3.

علمهم، ويسّر لهم وشرع لهم كذلك اللباس الذي يستر العورات المكشوفة، ثم يكون زينة – بهذا الستر– وجمالاً بدل قبح العري وشناعته ولذلك يقول: ﴿أَنزَلْنَا﴾ أيّ: شرعنا لكم في التنزيل، واللباس قد يطلق على ما يواري السوءة، وهو اللباس الداخلي والرياش قد يطلق على ما يُستر به الجمال كله ويتجمل به وهو ظاهر الثياب، كما قد يطلق الرياش على الرغد والنعمة والمال، وهي كلها معانٍ متداخلة ومتلازمة[1].

أ- ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾:

هذا تمهيد لبيان أن ما كان يفعله بعض العرب من الطواف عرايا، هو خروج عن الفطرة، وهو خروج عن الحياء الإنساني الذي جعل آدم وحواء يخصفان عليها من ورق الجنة.

والنداء لبني آدم جميعاً، لأنه مجاوبة للفطرة الإنسانية التي جعلت أبويّ البشر يخصفان عليهما من ورق الجنة، ولذا كان النداء إلى آدم أولاً، وفيه إشارة إلى تلك الفطرة السليمة، وإلى ذلك الحياء الفطري الذي هو سِمة الإنسانية الرفيعة لا إلى تلك الإنسانية المسيخة، التي تظهر في العري الفاحش الذي يقره بعض الذين تبلدت مشاعرهم وأحاسيسهم.

- ﴿يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ﴾

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص 1278/3.

وذلك بإنزال المطر الذي ينبت منه النبات، وتأكل منه الأنعام، ويحيا به كل شـــيء حي في هذه الأرض، ثم يكون من النبات القطن والكتان، ويكون من الأنعام الأصواف والأوبار والأشعار، مما يتخذ لباساً تستر به العورة، وقد بيّنا أن السوءة ما يسوء النظر إليه، ولا تقرّه الفطرة السليمة[1]. وثمة هناك ارتباط بين ستر العورة وكرامة الإنسان وأنّ كشفها تجريد للإنسان عن كرامته، فمن فضل الله على الإنسان الذي حُرم من ثياب الجنة وأهبط إلى الأرض أن أنعم عليه وهو في الأرض بنعمة اللباس الذي يحفظ له عورته ويحفظ له كرامته ومروءته[2].

- ﴿وَرِيشًـا﴾ أيّ: وأنزلنا عليكم ريشـاً. والريش للطائر معروف وهو لباسـه وزينته، فاستعير للإنسان لأنه لباسه وزينته.

والمعنى: وأنزلنا عليكم لباسـين: لباسـاً يواري سـوءاتكم، ولباسـاً لزينتكم لأن التزيين غرض صحيح، بشرط أن تناسب الزينة حال المتزين. فللرجال زينة تناسب رجولتهم، وللنسـاء زينة تناسـب أنوثتهن، وبشـرط آخر أيضـاً: وهو عدم الغلو والإسراف، كما سيأتي معنا[3].

وأطلق الريش على لباس الزينة، على أنه من قبيل التشـبيه بريش الطير الذي

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2805/5.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 40/3.

[3] المرجع نفسه، ص 40/3.

يتزين به وتصيبه الحسرة إن خلع منه[1].

ب- ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾:

انتقلت الآيات من الحديث عن لباس الأجساد إلى الحديث عن لباس الضمائر والقلوب: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ الذي يستر عورات النفس وخصالها المذمومة. فالعورات تستر بلباسين: حسّي: وهو الثياب التي تستر سوءات البدن، ومعّنوي: وهو التقوى التي تستر سوءات القلوب. وآفات النفوس من الكبر والعجب والحسد وحب الظهور... إلخ، ولا علاج لكل هذه الآفات إلا بتقوى الله ومراقبته[2]. وتقوى الله هي خشيته في ما أمر به ونهى عنه خوفاً من سخطه وغضبه وعقابه.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾؛ أيّ: ذلك اللباس الذي هو التقوى خير من لبس الثياب[3].

قال الشاعر:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التُّقى

تقلَّب عرياناً وإن كان كاسياً

وخير لباس المرء طاعة ربه

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2805/5.
[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 41/3.
[3] المرجع نفسه، ص 41/3.

ولا خـــير فيمن كان لله عاصياً[1]

ولو تجمل الإنسان بأحسن الملابس وهو لا يتقي الله تعالى، كان كلُّه سوءات، ولو كان متقياً، وليس له إلا خُريقة توراي عورته، كان في غاية الجمال والســـتر والكمال، فالمهم جمال الباطن، والأفضـــل أن يجمع الإنســـان بين جمال الباطن والظاهر، ولعل النبي صلى الله عليه وسلم نبّه إلى أهمية جمال الباطن في قوله الكريم: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"[2].

فمن اتقى الله أيّ: جعل بينه وبين غضـــب الله وســـخطه وقاية بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وكان مؤمناً بالله ومنه خائفاً، وله مراقباً ومن كان كذلك ظهرت آثار الخيرية عليه، فحســـن سمته وســـلوكه، واســـتقامت أخلاقه ورُئيت عليه بهجة الإيمان ونورها وكل إناء بالذي فيه ينضح[3].

ومن تقوى الله عز وجل ستر العورة، وتشمل التقوى مناحي الحياة، وتدخل في شِـــعب الإيمان، من إزالة الأذى في الطريق وســـتر العورات إلى لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والإنسان المؤمن تقي في طعامه وشرابه ولباسه، فلا يأكل ولا يشرب ولا يلبس

---

[1] تفسير القرطبي، مرجع سابق، ص 164/7.

[2] البخاري، رقم 52، وفي: مسلم، رقم 1599

[3] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 41/3.

إلا حلالاً وتقي في شـــهوته ولهوه ولعبه، فلا يأخذ بالحرام من ذلك، وتقي في علاقاته الاقتصـــادية والاجتماعية والســـياســـية والثقافية والحضـــارية والعلمية والفكرية... إلخ.

وهناك تلازم بين شـــرع الله للباس لســـتر العورات والزينة وبين التقوى، كلاهما لباس:

هذا يســـتر عورات القلب ويزينه وذلك يســـتر عورات الجســـم ويزينه وهما متلازمان، فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه ومن لا يســـتحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العري، فالعري من اللباس وكشف السوأة، هو عري من الحياء والتقوى.

إن ســـتر الجســـد من الحياء، فهو ليس مجرد اصـــطلاح عرفي بيئي كما تزعم الأبواق المســـلطة على حياء الناس وعفتهم، لتدمير إنســـانيتهم، وفق خطط إبليس وأعوانه وأتباعه، وســـتر الجســـد أيضـــاً فطرة خلقها الله في الإنســـان، ثم هي شـــريعة أنزلها الله للبشـــر، وأقدرهم على تنفيذها بما ســـخر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق.

والله يذكّر بني آدم بنعمته عليهم، وفي تشريع اللباس والستر صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم وفي تمكينهم منه بما يسر لهم من الوسائل[1].

---

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص 1279/3.

ج. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾:

- ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أيّ (لباس التقوى)؛ فإن التقوى ستر لعيوب النفس، ووقاية لها من غضب الله، وهي زينة القلوب ونورها المشرق، ولذلك قال فيها: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾

في ذاته وخير عما سواه من زينة الناس، فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[1].

- ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾؛ والإشارة بذلك إلى نعمة الله تعالى في إنزال المطر التي يكون منها الزرع والحرث والنسل، ثم يكون منها للناس الرياش.

لقد حكم الله سبحانه وتعالى أنه من آيات الله في إنزال المطر الذي كان منه كل شيء حي والذي أنشأ الله جنات معروشات وغير معروشات، فهذا كله من آيات الله تعالى ونعمه التي توجب الشكر وتمنع الكفر، وهي مع ذلك دالة على وحدانيته[2].

- ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾: الضميران يعودان إلى المشركين الذين كفروا بالله والذين يكفرون بنعمة الله ويطوفون بالبيت عراة، وقد أنزل عليهم لباساً يواري سوءاتهم وريشاً يتزينون به فلعلهم يتذكرون فينخلعوا عن هذه العادات انخلاعاً[3].

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2806/6.

[2] المرجع نفسه، ص 2806/6.

[3] المرجع نفسه، ص 2807/6.

ولعلهم يتذكرون أن الزينة الإنسانية هي زينة الستر بينما الزينة الحيوانية هي زينة العري فيتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها وذلك بالتزام شرعه سبحانه وتعالى.

وقال الزمخشري: وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب بدوّ السوءات وخصف الورق عليها إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى[1].

2- ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:27]

وبعد بيان أهمية اللباس وستر العورة، وعلاقته بزينة الإنسان وكرامته جاء النداء الثاني لبني آدم يحذرهم من مكر الشيطان وكيده وفتنته[2].

أ- ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾:

- ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾؛ الفتنة الابتلاء والامتحان: ومعنى الآية الكريمة يا بني آدم لا يخدعنكم الشيطان، فيبدي سوءاتكم للناس بطاعتكم إياه عند اختباره لهم،

[1] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، مرجع سابق، ص 74/2.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 41/3.

كما فعل بأبويكم آدم وحواء، عند اختياره إياهما فأطاعاه وعصيا ربهما، فأخرجهما بما سبب لهما من مكره وخدعه عن الجنة ونزع عنهما ما كان ألبسهما من اللباس، ليريهما سوءاتهما بكشف عورتهما وإظهارها لأعينهما بعد أن كانت مستترة[1].

ففي هذا النداء تحذير لبني آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الإسلام في الطليعة، أن يستسلموا للشيطان، فيما يتخذونه من مناهج وشرائع وتقاليد؛ فيسلمهم إلى الفتنة كما فعل مع أبويهم من قبل، إذ أخرجهما من الجنة، ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، فالعري والتكشف الذي يزاولونه، والذي هو طابع كل جاهلية قديماً وحديثاً، هو عمل من أعمال الفتنة الشيطانية وتنفيذ لخطة عدوهم العنيدة في إغواء آدم وبنيه، وهو طرف من المعركة التي لا تهدأ بين الإنسان وعدوه، فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم، وأن ينتصر في هذه المعركة وأن يملأ منهم جهنم في نهاية المطاف[2].

ونلاحظ في صيغة المضارع ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ أنها تدل على استمرار الشيطان على تعرية الإنسان وإظهار عورته فهدف الشيطان إظهار سوءة الإنسان وعورته لأبناء جنسه، فيكون سبباً لإثارة الشهوات وإشاعة الفواحش والزنى، وهذا ما تسعى إليه دُور الأزياء ومصممو الملابس، إنهم يستهدفون أول كلِّ شيء إظهار المفاتن، وإبراز العورات، بشكل يثير الغرائز ويفجر الشهوات، حتى أصبح الناس في

[1] تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 8/151-153.

[2] في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص 3/1279.

كثير من الحالات لا يستطيعون التمييز بين الكاسيات والعاريات، تماماً كما جاء في الحديث الشريف:(صنفان من أهل النار لم أرهما بعد: رجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا)[1].

وقد أصبح لهذا الدور شأن كبير في المجتمعات الإسلامية فاحتلت معظم المجلات والصحف مواقع الصدارة فيها، مع أن هدفها الأساس هو إظهار العورات وإشاعة الفاحشة بين المسلمين وإبعادهم عن دينهم، واستنزاف أموالهم[2].

ب- قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

ومعنى قبيله: أي جماعته وجنده وأعوانه، يعني جل ثناؤه بذلك: إن الشيطان يراكم هو، والهاء في ﴿إِنَّهُ﴾ عائدة على الشيطان، وقبيله يعني: وصنفه وجنسه الذي هو منه واحد، جمعه: قُبُل، وهم الجن.

- وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾: من حيث لا ترون أنتم أيها الناس الشيطان وقبيله.

---

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 42/3.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع السابق، 43/3.

قال صديق حسن خان: قد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشيطان غير ممكنة، وليس في الآية ما يدل على ذلك، وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه وليس فيها أنا لا نراه أبداً. وإن انتفاء الرؤية منا له في وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقاً، قال مالك بن دينار: إن عدواً يراكم ولا ترونه، كأن في الكلام حذفاً تقديره جدير بأن يحذر ويتقى، والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة وتكون الآية مخصوصة بها فيكونون مرئيين في بعض الأحيان لبعض الناس دون بعض[1].

- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

وإنها لحقيقة أن الشيطان ولي الذين لا يؤمنون، كما أن الله هو ولي المؤمنين وهي حقيقة رهيبة ولها نتائجها الخطيرة وهي تُذكر هكذا مطلقة ثم يواجه بها المشركون كحالة واقعة، فترى كيف تكون ولاية الشيطان وكيف تفعل في تصورات الناس وحياتهم[2]. والآية التي بعدها تبين ذلك وهي:

3- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:28]

اعلم أن في الناس من حمل الفحشاء على ما كانوا يحرمون من البحيرة والسائبة

---

[1] فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان البنوجي، 326/4.

[2] في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص 1280/3.

وغيرهما، وفيهم من حمل على أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنســـاء، والأولى أن نحكم بالتعميم والفاحشة عبارة عن كل معصية كبيرة فتدخل فيها جميع الكبائر[1].

وقال الراغب: الفُحش والفحشاء: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال[2].

والفاحشـــة هنا في قول أكثر المفســـرين: طوافهم بالبيت عراة وقال الحســـن البصـــري: هي الشـــرك والكفر، واحتجوا على ذلك بتقليدهم أســـلافهم وبأن الله أمرهم بها[3].

أ- ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آَبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾:

فالقوم أدمنوا على الفواحش وألفوها فإذا ما نُهوا عنها احتجوا لها بأمرين: تقليد الآباء والافتراء على الله تعالى.

كان العرب ماعدا قريش لا يطوفون بالبيت الحرام في ثيابهم التي لبســـوها، يتأوّلون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصـــوا الله فيها، وكانت قريش، وهم الحُمُس، يطوفون في ثيابهم ومن أعاره أحمســـي ثوب طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمســـي ثوباً طاف عرياناً، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على موضـــع

---

[1] تفسير الرازي، مرجع سابق، ص 225/5.

[2] التدبر والبيان في تفسير القرآن، المغراوي، مرجع سابق، ص 122/11.

[3] تفسير القرطبي، مرجع سابق، ص 166/7.

العفة شيئاً ليستره بعض الستر.

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة في الليل؛ لأن الليل يستر، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسـهم واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مسـتند إلى أمر الله وشرعه فرد الله عليهم[1].

ب. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

أمر الله تعالى نبيه بأن يواجههم بافترائهم على الله تعالى ببيان أنه يستحيل على الله ما يفترون عليه، لأن الله تعالى له الكمال المطلق ومن له الكمال المطلق لا يأمر بالفحشـاء، لأنه لا يصـدر عنه إلا ما هو كمال في ذاته ولا يتنافى مع عقل عاقل ويرضاه ذو الذوق السليم.

وقال تعالى: ﴿لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ولم يقل "ما أمر بذلك" أو ما أمر بالفحشاء، بل قال نافياً الأمر بالفعل المضارع "لا يأمر بالفحشاء" فلا يمكن أن يأمر بذلك لا في الماضي ولا في المستقبل وليس شأنه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وكان النفي بالمضارع، لأنه نفي لشأن الله ثم قال تعالى، كما أمر نبيه أن يستنكر قولهم: "أتقولون على الله ما لا تعلمون"؟، والاستفهام هنا إنكاري لإنكار الواقع، أي لتوبيخهم على ما وقع منهم، لأنهم فعلاً افتروا على الله افتراء فقالوا ما لا يعلمون صدقه، ولم يصل إليهم عن الله تعالى أمره فيه وحكمه.

---

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 44/3.

وإن ذلك فوق أنه توبيخ لهم واستنكار لفعلهم، فيه توجيه لهم لئلا يتكلموا إلا بعلم، وأن الشيطان لينفذ إلى ما يحكمون به أوهامهم وأهواءهم.

وتقديم قوله تعالى "على الله" لبيان وجه الاستنكار الشديد وهو أنهم يقولون على الله جل جلاله، فكان قولهم هذا أشد الافتراء، ثم بين سبحانه فكان أن نفى أنه يأمر بالفحشاء[1].

4- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الأعراف:29].

ذكر الله سبحانه في الآية السابقة أن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء، أي لا يأمر بالأمر بفحش فلا تستطيع العقول المستقيمة المدركة أن ترضى به وهنا يبين ما يأمر به سبحانه.

أ- ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾:

وإن السياق يقتضي أن يكون ما أمر الله به نقيض الفحشاء، فالقسط هنا يفسر بأنه العدل، والعدل كل أمر في ذاته مستقيم تقرّه العقول ولا ينكره الذوق السليم. فالعدل يشمل العدل في الحكم والعدل في الأقوال والأفعال والاعتدال في كل ما يختار من الأمور، فلا يمتد إلى الحرمان ولا إلى الاعتداء. ولذلك قال بعض المفسرين: إنه يشمل كل ما أمر الله به، فما أمر إلا بما هو عدل، وما نهى إلا عما

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2812/6.

هو ظلم وقال أبو مسلم في تفسيره: إنه الطاعات كلها والتعبير بالماضي في "أمر" فيه تكذيب لافترائهما وأنه لم يأمر به الله سبحانه فالله سبحانه وتعالى ما أمر بالفحشاء بل أمر بالقسط، وما به تستقيم الأمور في العقول ولقد صرّح سبحانه بما يجب للمساجد من تعظيم، لا أن يطَّوفوا عراة بالمسجد الأعظم الذي كرمه الله تعالى، وتشد إليه الرحال[1]. وقد قال تعالى:

ب. ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾:

أي: وجهوا وجوهكم حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة وقال آخرون: بل عنى بذلك: واجعلوا سجودكم لله خالصاً دون ما سواه من الآلهة والأنداد وقال الربيع: وهو أن القوم أمروا أن يتوجهوا بصلاتهم إلى ربهم لا إلى ما سواه من الأوثان والأصنام، وأن يجعلوا دعاءهم لله خالصاً لا مكاءً ولا تصدية[2].

والقصد هنا التوجه إلى الله تعالى حيثما كان العبد مستقيماً على أمره في أداء الصلوات. فهي تؤدى في أي مكان، فالأرض في الإسلام كلها مسجد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أُعطيتُ خمساً لم يعطهنَّ أحداً من قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم، ولم تحلّ لأحد من قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيما رجل أدركته الصلاة صلَّى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2813/6.

[2] تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 155/8-156.

الشفاعة"[1].

وإذا كانت الأرض كلها مسجد، فالمساجد الخاصة لها مكانة عظيمة عند الله وعند المسلمين، ولذلك يجب الاهتمام بها، وإعطائها حقها في الاحترام والإجلال، فلا يصح أن يكون فيها عري أو ما يكون رذيلة في ذاته، أو يبعث على الرذيلة، وأن يكون الاحتشام هو الزي الأكمل وإقامة الذات لله تعالى أن تكون خالصة له سبحانه ومستشعرة خشيته وجلاله. وقرن هنا بالمسجد لكرامة المسجد كما ذكرنا ولأنه رمز الصلاة، فإقامة الوجه في الصلاة، بأن تكون مقومة فيها باستحضار عظمة الله سبحانه في قراءتها، وأدعيتها وكل حركاتها، لا يعمر القلب فيها غير الله تعالى[2].

ج. ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾:

قرن سبحانه وتعالى الأمر بإقامة الوجوه لله بالأمر بالدعاء، وهو الأمر بالعبادة لأن العبادة دعاء، والدعاء في ذاته اتجاه إلى الله بضراعة وخشوع وخضوع. وقد أمر الله تعالى بمعاملة الناس بالقسط بينهم، ثم أمر من بعد بإقامة الوجه لله تعالى، بالانصراف إليه بذواتنا، بأن نجعل كل مشاعرنا، وخلجات قلوبنا لله تعالى، بحيث لا نحب إلا لله، ولا نبغض إلا لله، وأن نكون ربانيين في أنفسنا، وعقولنا، وقلوبنا، ثم أمرنا من بعد أن نعبده وحده وقد خلصت قلوبنا له، ولذا قال: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ

[1] رواه مسلم، رقم 2878

[2] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2814/6.

الدِّينَ﴾ والدين هنا الطاعة، وكل العبادات، مخلصين له كل هذا، بحيث لا نشرك في عبادته أحداً فلا نعبد أحداً سواه ولا نرائي في عبادته، فالرياء في العبادة هو الشرك الخفي، ولذا ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من صلى يُرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك"[1].

إن الإخلاص لله تعالى هو: أن يجرد العبد أقواله وأفعاله من كل شائبة من شوائب الشرك وأن يتوجه لله وحده بالعبادة[2].

وقد قرن -سبحانه وتعالى- هذه الأوامر بالتحذير من عصيانه، والتذكير بالبعث وأنه وراء البعث القيامة، والحساب والثواب، أو العقاب، ولذا قال:

د. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾:

في هذا النص دعوة إلى الإيمان بالبعث، وتذكير به، وهذا التذكير يحمل في نفسه دليله و"الكاف" دالة على التشبيه والمعنى بهذا البدء بالخلق والتكون، تعودون: أي يعيدكم كما بدأكم، ففي الآية ذكر للبعث ودعوة إلى الإيمان به والدليل عليه بقياس الإعادة على الإنشاء، وأنه أهون عليه، والله على كل شيء قدير، وأنه يكون لمن عبده الجزاء فمن اهتدى فله الثواب ومن ضل نزل به العقاب[3].

---

[1] أبو زهرة، المرجع نفسه، 2814/6.

[2] الإخلاص في القرآن، حمد محمد الوهيبي، ص22.

[3] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2814/6.

ومما يســـاعد الإنســـان على الإخلاص لله تعالى ويجعله مخلصـــاً له وحده في عبادته، أن يتذكر مسؤوليته يوم القيامة أمام ربه عز وجل: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أيّ: كما أنشأكم من العدم يُعيدكم يوم القيامة إلى حُكمه وأمره سبحانه، ويَبعثكم فريقين، كما كنتم في الدنيا، فمن مات على الإيمان يبعث مع المؤمنين ومن مات على الكفر يبعث مع الكافرين[1].

وفي الحديث الشـريف: عن جابر بن عبد الله رضـي الله عنه: أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال: يُبعث كل عبد على ما مات عليه[2].

وقال الشـيخ الشـنقيطي في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، أيّ كما خلقكم أولاً، ولم تكونوا شـيئاً، فإنه يعيدكم مرة أخرى، ويبعثكم من قبوركم أحياء بعد أن مُتُّمْ وصِـرتم عِظاماً رميماً، والآيات الدالة على هذا الوجه كثيرة جداً. وورد في:

- قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا﴾ [الأنبياء:104]
- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم:27]
- قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:79].

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 45/3.

[2] رواه مسلم، رقم 2878.

– قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:5]، إلى غير ذلك من الآيات[1].

5. قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف :30].

أ. ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾؛ ففريقاً هدى كحال "تعودون" في الآية ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، أيّ يعودون فريقاً هداه الله تعالى، وفريقاً حقت أيّ ثبتت عليه الضلالة، والفريق الذي هداه الله قد اتخذ الطريق المستقيم سبيلاً، ولم يتخذ طريقاً عوجاً، فيَضل. والفريق الذي ثبتت وتقررت عليه الضلالة، هو الذي اتخذ الشياطين أولياء لهم يودهم ويحبهم؛ لأنه اتجه إلى المعاصي، وجعل قلبه موطناً للشيطان يسكنه ويغويه ليُحقق قسمه لله بقوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:82].

لقد بَيَّن النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) في أحاديث عدة أن الناس يُولدون

[1] أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ص 297/2.

على الفِطرة، والفطرة التي فطر الله الناس عليها مستقيمة دائماً، لا تخرج عن سنن الحق بمقتضى العهد الفطري الذي أخذه على بني آدم من ظهورهم، وذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا، وإن الشياطين هي التي تحولهم من الفطرة إلى الضلالة، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو يُنصّرانه أو يُمجّسانه"[1].

وروى مسلم في حديث قدسي عن النبي (صلى الله عليه وسلم): "إني خلقت عبادي حنفاء وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم"[2].

فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق، وهم يدركون بفطرهم أن لهذا الكون خالقاً وأنه وحده الذي انفرد بالخلق والتكوين، وذلك بمقتضى الميثاق الذي أخذ عليهم بمقتضى الفطرة والغريزة كما ذكرنا.

وإن من يسلك طريق السعادة يتجنب الاستجابة للشيطان، ويستيقظ لفتنته، فلا يمكنها من أن تسيطر عليه وتستمكن من منازعه. وإذا مَكَّن للشيطان من أن يصل إلى فكره ونفسه وإرادته، فقد اتخذه من دون الله ولياً، وقد روي في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم: "فأما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2815/6

[2] أبو زهرة، المرجع نفسه، 2816/6.

الشقاوة"[1].

أ. ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾:

إن الفريق الذي حق عليه الضلالة إنما ضلوا عن سبيل الله، وجاروا عن قصد المحجة باتخاذهم الشياطين نصراء من دون الله وظهراء، جهلاً منهم بخطأ ما هم عليه من ذلك، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هدى وحق، وأن الصواب ما أتوه وركبوه، وهذا من بين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عناداً منه لربه فيها، لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل، وهو يحسب أنه هاد وفريق الهدى فرق، وقد فرق الله بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية[2].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي أنهم فتحوا قلوبهم وسخروا عقولهم وإراداتهم للشيطان فكان لهم ولياً من دون الله، لأنهم هجروا فطرتهم وهجروا أوامر الله تعالى ونواهيه، ومعنى ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تعالى أي من غير طاعة الله، ولقد قال تعالى في آية سابقة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:27].

وفي هذه الآية يُقرر الله تعالى أن أهل الضلال اتخذوا الشياطين أولياء، فالولاية

---

[1] صحيح البخاري، رقم 1362. انظر: مسلم، رقم 2647.

[2] تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 159/8.

تثبت من الجانبين: الشياطين أرادوها للإغواء وأهل الضلالة فتنوا بالإغواء فاتخذوهم أولياء، وإنه لاتخاذهم الشياطين أولياء كان منهم ضلال فكري بهذا الاتخاذ، ولذا قال:

- ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾: الضمير يعود على فريق الضلالة الذين حقت عليهم، ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ معناه يظنون، متوهمين أنهم مهتدون، أي أنهم بسبب عملهم الإيجابي في اتخاذهم الشيطان أولياء من دون الله تعالى انقلبت أفهامهم، وأركس إدراكهم، فزين لهم سوء أعمالهم فحسبوه حسناً، فظنوا بأوهامهم أنهم مهتدون. وهذا شر أنواع الضلال بأن يَسير المرء في طريق الباطل، وهو يحسب أنه الحق والهداية، وإن هؤلاء في حسبانهم الغواية محاسبون على ذلك، لأن الله بيّن الحق فأعرضوا، وعاندوا واستكبروا، فلم يطيعوه عناداً واستكباراً، حتى فسدت مداركهم وضلت أفهامهم، فحسبوا الباطل حقاً، والضلالة هداية، ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

بيَّن الشيخ الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، بأن الكفار اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، وما تلك الموالاة إلا طاعتهم لهم فيما يخالف ما شرعه الله تعالى، ومع ذلك يظنون أنهم على هدى، وبيّن في موضع آخر: أن من كان كذلك فهو أخسر الناس عملاً، والعياذ بالله تعالى وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2817/6.

ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾؛ فهذه النصوص القرآنية تدل على أن الكافر لا ينفعه ظنه أنه على هدى، لأن الأدلة التي جاءت بها الرسل لم تترك في الحق لبساً ولا شبهة، ولكن الكافر لشدة تعصبه للكفر لا يكاد يفكر في الأدلة التي هي كالشمس في رابعة النهار لجاجاً في الباطل وعناداً، فلذلك كان غير معذور والعلم عند الله[1].

فالهداية بفضل الله ومَنّه، والضلالة بخذلانه للعبد إذ تولى -بجهله وظلمه وعناده وكِبره- الشيطان، وتسببّ لنفسه بالضلال[2].

6. قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:31].

هذا النداء الثالث الذي يُريد الله أن يوجه به الإنسان إلى منهجه ليمارس من خلاله حياته، وما يحتاجه جسده من طعام وشراب ولباس وزينة، ليقف بين ذلك كله في نقطة التوازن، فلا يتعقّد من حاجات الحياة الطبيعية فيعتبرها قذراً وخباثة وحراماً من موقع الفكرة التي ترفض ماديات الحياة جملة وتفصيلاً، وتدعو إلى السموِّ نحو روحيَّاتها، ولا ينجذب على هذه الحاجات، فيعتبرها قيمة وطموحاً وهدفاً، بل يقف بين هذا وذاك، فيراها حاجة طبيعية يحفظ بها جسده ويصون بها حياته، في نطاق الحدود التي فرضها الله ورسمها لعباده، فيميز بين ما يفسد الحياة

---

[1] أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ص 2817/2.

[2] تفسير السعدي، مرجع سابق، ص541.

من حوله فيتركه، وبين ما يصلحها أو لا يسيء إليها فيفعله، وذلك هو خط هذه الآيات في النداء الرباني الثالث لبني آدم[1].

أ. ﴿يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: فالله عز وجل ابتدأ بإحلال ما كان العرب يحرمونه من ستر أنفسهم في الحج عند الطواف بالبيت الحرام، فقد كان بعض العرب يطوفون عُراة، كما بيَّنا في ذكر معاني الآيات السابقة، وإن الله قد أنعم علينا باللباس الذي يُواري سوءاتنا والريش من الثياب الذي نتزين به لنبدو في أقوم صورة لا تبغضها الأنظار، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله جميل يحب الجمال"[2].

ولذا قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؛ فالنداء لبني آدم يَشمل الناس أجمعين. وقد جعل الخطاب فيه لبني آدم، تذكيراً لهم بحال أبيهم آدم ومكر إبليس به وبزوجه حتى انكشفت سوءاتهما، التي قد ذكرها الله قريباً من هذه الآية، وأن فعل كفّار قريش من تسويل الشيطان ومن جنس ما فعله بأبيهم وفعلهم أعظم لأن آدم لم يكشف سوءته بنفسه، وإنما عوقب بكشفها، وقريش فعلت ذلك تديناً وتعبداً، وفي حرم الله، وأمام الناظرين[3].

وفي الخطاب بـ "يا بني آدم" تذكير بأن الستر واللباس فِطرة آدمية تشترك فيها

---

[1] تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مرجع سابق، ص 82/7.

[2] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2817/6. وانظر: مسلم، كتاب الإيمان، رقم 131.

[3] المرجع نفسه، ص 1299/6.

جميع البشـــرية، لا تحتاج إلى دليل من الوحي يُثبتها، ولو رجعوا إلى فطرتهم بعقول صحيحة لوجدوا ذلك وبان لهم تعدّيهم.

وقول الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْـجِدٍ﴾: المراد به: المســجد الحرام ويدخل في حكمه كل مسجد، للاشتراك في العِلة.

وقوله: ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْــجِدٍ﴾ أيّ: موضـــع تتعبدون الله فيه ويكون المراد به، القصـد، كلما قصـدتم المسجد فخذوا زينتكم في كل مرة فجعل الموضع الواحد في كل مرة مســـجداً ويؤيد هذا قوله تعالى قبل ذلك: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:29].

أيّ: عند كل مرة تتعبدون الله فيها للصـلاة والدعاء، ولو كان الموضـع واحداً، ويدخل في معنى الآية أخذ الزينة لغرضين:

الأول: لموضـــع العبادة، ســـواء كان بغرض العبادة أو لغيرها وللعبادة آكد، لاجتماع الأمرين، وذلك أن مواضـــع العبادة محترمة معظمة فيســـتحب التزين لها وعدم دخولها مع كشـــف العورة أو رائحة نتنة، تعظيماً لها وللملائكة وللمصـــلين والمعتكفين والذاكرين.

الثاني: لعبادة الصــلاة؛ فيســتحب أخذ الزينة لها ولو لم يكن ذلك في موضـع عبادة وهو المسجد، فالمقصد من الزينة العبادة، لأن دور العبادة لم تتخذ إلا لأجل العبادة وإنما عظمت المســـاجد لأجل العبادة فيها، ولو لم يكن فيها عبادة لم تكن

معظّمة، فمن أراد الصلاة استُحب له أخذ الزينة لها، والاستتار ولو كان المصلي في بيته لا يراه أحد[1].

وفي الآية: دليل على أن الأصل في اللباس: الحلُّ، فسمى الله اللباس بالزينة، ولم يَستثني منه شيئاً. وإذا ورد النص بإطلاق الحل على عين، دلَّ أن الأصل فيها الحلُّ، وأن الاستثناء فيها قليل، وقد صرحت الآية بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:32]. ودلت على أن ستر العورة زينة للإنسان، بل هي أعظم زينة له، فمهما استعمل الإنسان من وسائل الزينة، فإنه يبدو قبيحاً إذا كان مكشوف العورة بادي السَوءة[2].

وفي الآية دليل على وجوب ستر العورة للصلاة فإذا وجب الستر في موضع العبادة، فإن سترها للعبادة من باب أولى، وسبب نزول الآية دالة على ذلك، وبهذه الآية استدل بعض السلف كمجاهد قال: الزينة ما وارى سوءتك ولو عباءة[3].

إن ستر العورة باللباس السابغ الطيب الذي هو زينة في ذاته، والعُري فيه ظهور

---

[1] التفسير والبيان لأحكام القرآن، الطريفي، مرجع سابق، ص 1300/3.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 47/3.

[3] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 1302/3.

للعورات، والعورات سوءات يسوء النظر إليها. وقد حَسّن النبي صلى الله عليه وسلم التجمل عند دخول المساجد، وكان يتجمل في ثيابه ولا يتبذل فيها وخصوصاً في المسجد، وعند استقبال الوفود[1]، وفي الأعياد ويوم الجمعة... وغير ذلك.

ب. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

قال ابن كثير: قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾[2].

وقد جمع الله في هذه الآية أمور كثيرة نافعة في الدين والبدن والحال والمآل، فالأمر بالأكل والشرب يدل على الوجوب، وأن العبد لا يحل له ترك ذلك شرعاً، كما لا يتمكن قدراً ما دام عقله معه، وأن الأكل والشرب مع نية امتثال أمر الله يكون عبادة؛ لأن الأصل في جميع المأكولات والمشروبات الإباحة، إلا ما نصّ الشرع على تحريمه، لضرره لإطلاق ذلك، وعلى أن كل أحد يأكل ما ينفعه ويناسبه ويليق به، ويوافق لغناه وفقره، ويوافق لصحته ومرضه ولعادته وعدمها، لأنه حذف المأكول والآية ساقها الله لإرشاد العباد إلى منافعهم، وهي تدل على ذلك كله وعلى أصل صحة البدن ينبغي تدبير الغذاء بأن يأكل ويشرب ما ينفعه، ويقيم صحته وقوته، وعلى الأمر بالاقتصاد في الغذاء والتدبير الحسن، لأنه لما أمر

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2818/6.

[2] تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ص 406/3.

بالأكل والشرب نهى عن السرف، فالسرف منهي عنه وخصوصاً في الأطعمة والأشربة، لأن السرف يضر بالدين والعقل والبدن والمال. وأما الضرر الديني: فكل من ارتكب مما نهى الله عنه ورسوله، فقد انجرح دينه، وعليه أن يُداوي هذا الجرح بالتوبة والرجوع.

وأما ضرره العَقلي: فإن العقل يُجمل صاحبه أن يفعل ما ينبغي على الوجه الذي يَنبغي، ويُوجب له أن يُدبر حياته ومعاشه، ولهذا كان حسن التدبير في المعاش من أبلغ ما يدل على عقل صاحبه، فمن تعدى الطور النافع إلى طور الإسراف الضار فلا ريب أن ذلك لنقص عقله فإنه يستدل على نقص العقل بسوء التدبير.

وأما ضرره البدني: فإن من أسرف بكثرة المأكولات والمشروبات انضرَّ بدنه واعتراه أمراض خطرة، وكثير من الأمراض إنما تحدث بسبب الإسراف في الغذاء، ثم إنه يضرّ أيضاً من وجه آخر، فإن عوَّد بدنه شيئاً اعتاده، فإذا عوّده كثرة الأكل، أو أكل الأطعمة المتنوعة، فربما تعذرت في بعض الأحوال لفقر أو غيره، وحينئذ يفقد البدن ما كان معتاداً له فتنحرف صحته.

وأما ضرره المالي: فظاهر، فإن الإسراف يستدعي كثرة النفقات، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء:29] [1].

---

[1] تفسير السعدي نقلاً عن التدبر والبيان، مرجع سابق، ص 148/11.

إن الإسـراف هو: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسـان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشـهر، ويقال تارة اعتباراً بالقدر، وتارة بالكيفية، ولهذا قال سـفيان: ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف وإن كان قليلاً[1].

وقد بغض الله سـبحانه وتعالى الإسـراف للناس ببيان أنه سـبحانه لا يحبه ولا يرضـاه لعباده، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، وقد أكد سـبحانه وتعالى بغضه للإسراف بنفي المحبة، ومحبة الله مطلب المؤمنين[2].

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾؛ إنها قاعدة عامة تتجاوز معاني الآية الواضـحة إلى غيرها من التصـرفات المالية والعملية التي تعرّض الإنسـان للإسـراف، وتضـعه وجهاً لوجه أمام التزامه بالاعتدال من أجل الحصول على رضا الله، بينما يكون الإسراف سبباً لفقدانه لمحبة الله سبحانه وتعالى[3].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وهذا نهاية التهديد، لأن كل من لا يحبه الله تعالى يبقى محروماً من الثواب، لأن معنى محبة الله تعالى للعبد إيصـاله الثواب إليه، فعدم هذه المحبة عبارة عن عدم حصـول الثواب، ومتى لم يحصـل الثواب، فقد حصـل العقاب، لانعقاد الإجماع على أنه ليس في الوجود مكلف لا

---

[1] التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المغراوي، مرجع سابق، ص 146/11.

[2] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2819/6.

[3] تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مرجع سابق، ص 84/7.

يثاب ولا يعاقب[1].

7. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:32].

لا يكتفي السياق بالدعوة إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد وإلى الاستمتاع بالطيب من الطعام والشراب، بل يستنكر تحريم هذه الزينة التي أخرجها الله لعباده وتحريم الطيبات من الرزق، فمن المستنكر أن يحرم أحد برأيه ما أخرجه الله للناس من الزينة أو من الطيبات، فتحريم شيء أو تحليله لا يكون إلا بشرع من الله[2].

أ. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾

أمر الله تعالى نبيه الكريم بأن يستنكر ما كان من الذين حرموا زينة اللباس افتراءً على الله كما كان يفعل المشركون، أو تزهُّداً كما فعل جهلة المتعبدين فقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الاستفهام إنكاري لنفي الواقع لا لنفي الوقوع؛ لأنه وقع من المشركين، وإنكار الواقع توبيخ لهم على ما وقع، وقد وقع في هذا بعض العرب، فطافوا عراة في المسجد الحرام كما ذكرنا. وقد كان الأمر في الآية السابقة بأخذ الزينة في المسجد الحرام وعند كل مسجد، وفي هذه الآية يستنكر تحريم الزينة في المسجد وغيرها، وهي آمرة باتخاذ الزينة كأمر إباحة، وكان

[1] تفسير الرازي، مرجع سابق، ص 230/5.

[2] في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص 1282/3.

النبي صـــلى الله عليه وســـلم يتجمل في ثيابه، وإن كان يرقعها أحياناً وكان يحث أصحابه على أن يتخذوا أحسن الثياب حتى إذا أوشكت على البلى تصدقوا بها، وكان الســلف من الصــحابة والتابعين يعتنون بثيابهم، وإذا كان قد روي عن عمر رضـــي الله عنه أنه في مدة خلافته كان يلبس أحياناً ثوباً تعد رقعاته، فما ذلك لتحريم التجمل على نفســه، بل لمعنى في الحكم الآمر نفســه، فهو يقول: لا أكون أمير المؤمنين إن لم أعش كأضعف المؤمنين[1].

– وقوله تعالى: "الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ"؛ يراد بهم جميع الناس مؤمنهم وكافرهم، فالعبودية تكون طوعاً وكرهاً، فالكافر عبد لله ولو كره لا يخرج عن تقديره عليه، والمؤمن عبد لله طائعاً وكارهاً، فيَشـــترك مع الخلق بخضـــوعه لتقدير الله، ويزيد بخضوعه لأوامره الشرعية، وبهذا اختُصّ واستحق الرضا، والله يرزق الكافر في الدنيا كما يرزق المؤمن، لأن هذا مقتضـــى ربوبيّته فالخالق متكفل بالخلق والثواب على طاعته والعقاب على عصيانه يكون في الآخرة، وإن عجّل الله بعضه في الدنيا[2].

وتبين الآية أن الله سبحان وتعالى مكَّن عباده من إخراجها ونسجها وأنشأ لهم مصــدر وجودها، فهو ســبحانه وتعالى الذي أنزل المطر بالماء العذب من الســماء فكان النبات، وعاش بالنبات الحيوان، وكان من النبات القطن والكتان، وكان من الحيوان الصـوف والوبر والشـعر وكان من كل ذلك اللباس والرياش، وما خلق ذلك

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2820/6.

[2] التفسير والبيان لأحكام القرآن، الطريفي، مرجع سابق، ص 1309/3.

عبثاً، بل وفق ما سنّه سبحانه وتعالى، ولا يليق بمؤمن أن يردّ إنعام الله[1].

والإنسان في طبعه يحب أن يُرى جميلاً، وذلك حظ للنفس لا يُلام عليه، ولهذا يسرح شعره وينظر في المرآة ويسوي عمامته، ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى الداخل وظهارته الحسنة إلى الخارج، وليس من هذا ما يكره ولا يذم[2]. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر، فقال رجل: إن الرجل يُحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال. الكِبر بطر الحق وغمط الناس"[3]، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة تدل كلها على النظافة وحسن الهيئة[4].

– قوله تعالى "وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ": وكما استنكر القرآن الكريم الذي أنزله رب العالمين تحريم الزينة استنكر أيضاً تحريم الطيبات، والطيبات هي الأطعمة التي تستلذ وتستطاب ما دامت لا تضر الأجسام، وهي ضد الخبائث كما قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ..﴾ [الأعراف:157]؛ أيّ الطعام الطيب الهنيء المريء الذي تُقبل عليه النفس وتهنأ به وهو لا يعقبه ضرر: من لحم طري، وسمك شهي وغير ذلك مما يستطيبه الإنسان ولا يتم الطعام الطيب، ويكمل إلا إذا كان طيباً في طريقة كسبه، فلا يكون أخذ من حرام فالنار أولى

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2820/6.

[2] التدبر والبيان، المغراوي، مرجع سابق، ص 155/11.

[3] صحيح مسلم، رقم 147

[4] تفسير القرطبي، مرجع سابق، ص 177/7.

به[1]. فالطيب من الطعام له خاصتان، أولاهما: أن يكون مستطاباً في ذاته مريئاً في عاقبته، والثانية: أن يكون من كسب حلال، وإنه من المقررات العلمية أن يكون من غير إسراف كما ذكر الله تعالى في الآية السابقة ويجب أن يعالج العاقل نفسه، حتى لا تندفع إلى الإسراف، ولذلك يحسن ألا يأكل كل ما يشتهي ولو كان حلالاً، بل يفطم النفس في بعض الأحيان أو كلها لأمرين:

أولها: أن ذلك تقوية للإرادة فلا يكون عبداً لبطنه، فلا يقع في الإسراف المنهي عنه.

ثانيهما: أن التمكن من أكل الحلال أمر كله لا يدوم، فقد يصاب بالحرمان فيستعد له قبل الابتلاء به فيكون قادراً على الصبر[2].

ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه امتنع من طعام لأجل طيبه قط، بل كان يأكل الحلوى والعسل والبطيخ والرطب، ولكنه كان يكره التكلف لما فيه من التشاغل بشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة[3].

إن الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، تنفتح على المزيد من التخطيط للشكل الحضاري والتطور الإنساني في الحياة المدنية التي تضع في حساباتها تطوير الواقع المدني للإنسان والحاجات الحيوية

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2821/6.

[2] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2821/6.

[3] التدبر والبيان، المغراوي، مرجع سابق، ص 156/11.

الحسيّة له، من دون أيّة عقدة دينية في هذا الجانب. فيمكن للقائمين على شؤون الإسلام والمسلمين أن يعملوا في خطة تصاعدية للسير بالواقع الإسلامي في حركة التطور في جميع الأوضاع المتحركة في الحاجات العامة[1].

ب. قوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾:

أي أنها مباحة في الحياة الدنيا للذين يستمتعون بحلالها من غير إسراف ولا تقتير وقوله "خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ" يحتمل أن يكون المعنى أن هذه المتع يشترك في الدنيا معهم فيها غير المؤمنين، أما يوم القيامة وفي الآخرة فتكون خالصة للمؤمنين؛ لأنها تكون جزاءً وفاقاً لما قدموا في الدنيا ويحتمل أن المعنى أنها تكون في الدنيا صادرة عن نفوس طيبة مؤمنة وتكون خالصة لله تعالى، وخالصة من كل إثم، أما غير المؤمنين فإن تناولهم لهذه الطيبات قد يكون إثم مبطئ من الخير، فحبطت أعمالهم والاحتمالات جائز جميعها، فيكون المعنى خالصة يوم القيامة لهم، وخالصة من الآثام في الدنيا[2].

ت. قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

أيّ: كما بينت لكم الواجب عليكم في اللباس والزينة والحلال من المطاعم والمشارب، والحرام منها وميّزت بين ذلك لكم أيها الناس، كذلك أبين جميع أدلتي

---

[1] تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مرجع سابق، ص 87/7.

[2] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2822/6.

وحججي وأعلم حلالي وحرامي وأحكامي، لقوم يعلمون، ما يبين لهم، ويفقهون ما يميز لهم[1]. وفي الآية إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك جهلاً فاستحقوا العلم وفي الآية لين خطاب معهم فيُلان مع الجاهل خلاف المعاند[2].

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أيّ: كهذا البيان الذي بينه تبارك وتعالى في هذا الشأن، ويُفصل فيه، أيّ يبين الآيات الكونية والقرآنية لقوم من شأنهم أن يعلموا، فلا تغطي غواش الأوهام والأهواء قلوبهم، فيدركون الحق ويعملون بنور بصائرهم ومن شأنهم أن يعلموا[3]. وإن الذين "يَعْلَمُونَ" حقيقة هذا الدين هم الذين ينتفعون بهذا البيان، وأمّا الذي حرمه الله حقاً فليس هو الزينة المعتدلة من اللباس، وليس هو الطيب من الطعام والشراب في غير سرف ولا مخيلة[4]، إنما الذي حرمه الله حقاً هو الذي يزاولونه من الفواحش والإثم والبغي والشرك والقول على الله بغير علم، وجاءت الآية التي بعدها فبينت ذلك.

8. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:33].

---

[1] تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 166/8.

[2] التفسير والبيان لأحكام القرآن، الطريفي، مرجع سابق، ص 1309/3.

[3] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2822/6.

[4] في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص 1283/3.

أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله "قُلْ" لأنه مبين شريعة القرآن أو المبلغ عنها، فبين لهم قصر التحريم على الفواحش والإثم والبغي والشرك والكذب على الله.

- ﴿إِنَّمَا﴾؛ للقصر، أي أن التحريم مقصور على هذه المحرمات كلها وأهل الشرك ما كانوا يتحرجون عنها، بل ارتكبوها كلها.

- ﴿حَرَّمَ رَبِّيَ﴾؛ للإشارة إلى أن المحرّم هو رب الوجود ورب الإنسان الذي يعلم الفطرة، وفي ذلك إشارة إلى أن الذي حرم هذا، إنما حرمه متسقاً مع الفطرة التي فطر الناس عليها، وهو رب كل شيء.

- ﴿الْفَوَاحِشَ﴾؛ هي الأمور التي تفحش وتزيد على الفطرة، وهي تشمل كل المعاصي، وخصوصاً كبائر الذنوب، فتشمل كل الموبقات المفسدة للنفوس والجماعات، وبذلك كل ما يجيء من إثم وبغي يدخل في عمومها، ويكون ذكر الإثم والبغي، تخصيص بعد تعميم، فيكون العطف عليها من عطف الخاص على العام.

وقد تقول: إذا اجتمعنا خصص كل واحد بمعنى، فخصص الفواحش بالمعاصي الصارخة التي تُفسد النفس والمجتمع كالزنا والخمر والربا وغير ذلك، وبعضهم خصصها بالزنا وما يتصل به من قذف للمحصنات وغير ذلك، والفواحش على معناها العام والخاص يحرم ما ظهر منها وما بطن، وما يظهر منها وما يعلن،

وجريمتها جريمتان: جريمة الفعل وجريمة الإعلان، وما بطن ما استتر كاتخاذ الأخدان ويشمل ما بطن، فسق القلوب وذلك بالعزم على فعل ما هو شر في ذاته، ولكن يحول دون تنفيذه أمر فوق إرادته فهذا يكون معصية، ولا يدخل في ضمن حديث النفس الذي تجاوزه الله عن أمة محمد، لأنه حدث ونوى واعتزم التنفيذ ولكن حيل بينه وبين جريمته بغير إرادته وعلى رغمه.

- ﴿وَالْإِثْمَ﴾؛ ذنب لا يتجاوز أذاه فاعله فهو يبطئه عن فعل الخير، وآثامه على نفسه كشرب الخمر، وتناول الآفات التي تضر نفسه، ولا تتعدى إلى غيره وإن كانت التفرقة بينهما في بعض المجتمعات عسيرة[1].

- ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ فلا يكون البغي إلا بغير الحق، وهو تنبيه إلى ما يتضمنه البغي فهو يتضمن إثم التعدي، وإثم أنه فعل غير الحق فهو تصريح بما هو قبيح في ذاته، ومن البغي أكل أموال الناس بالباطل في الربا، والرشوة والسحت، ومن البغي أكل مال اليتيم، ومن البغي النميمة والغيبة، وأشد البغي الحكم بغير ما أنزل الله، والحكم بين الناس بالباطل ومن أفحش البغي ظلم الحكام للرعية والغلظة عليها، وإرهاقها، وإيذاؤها في حرياتها، ولقد قال صلى الله عليه وسلم: "اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً، فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به"[2].

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2823/6.

[2] صحيح مسلم، رقم 1828.

- ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ هذا أشد المحرمات، وهو محرم بأمر الله، ومحرم ببديهة العقول، حتى لقد قال العلماء: إن وحدانية الله تعالى أمر تصل إليه العقول بالبديهة أو النظر القريب.

- ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ أي تجعلوا شيئاً أو حجراً شريكاً لله تعالى في العبادة، أو شخصاً لم ينزل الله به سلطاناً، ويقول العلماء: إن السلطان هنا الحجة أو الدليل.

وأرى ما رأوا، ولكن في التعبير عن الحجة بـ "سُلْطَانًا" إشارة إلى معنى أن هذه الأوثان، وما شابهها لا قدرة لها، ولا تثبت أن لها قوة تنفع وتضر ومهما يكن، فإنهم يعبدونها بالأوهام المسلطة من غير سلطان من حجة أو دليل، ومن غير أن يعرفوا بالعيان أن لها سلطاناً في الأفعال أو التوجيه في الكون، إنما هي الأوهام التي تصورها صالحة للعبادة مع الله تعالى لا شريك له[1].

- ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

ومن أنواع المحرمات، هو الافتراء، بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون أن الله حكم به وقاله أو شرعه كتحريم بعض الأحكام، وتحريم لبس اللباس في الطواف، ويقولون إنه من عند الله وما هو من عند الله[2].

وهذه الآية تبين أن الله سبحانه وتعالى حرّم الافتراء عليه سبحانه، وذلك بأن

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2823/6.

[2] أبو زهرة، المرجع نفسه، ص 2824/6.

يصـفوه بصـفات لا تليق بكماله وجلاله سـبحانه وتعالى أو: حَرَّم أن تنسـبوا إليه سبحانه تحريم أشياء لا علم لكم بتحريمها[1]، تلك أهم المحرمات القطعية في دين الله تعالى، فكيف كذبوا على الله تعالى عندما استحلوا الفواحش كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَــــةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:28] [2].

وقال السعدي في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكل هذا قد حرمه الله ونهى العباد عن تعاطيه لما فيه من المفاسد الخاصة والعامة ولما فيها من الظلم والجرأة على الله والاستطالة على عباد الله وتغيير دين الله وشرعه[3].

- وقفة مع النداءات السابقة:

ظهر لي من خلال النداءات الإلهية الماضية لبني آدم أسباب كثيرة تؤدي إلى هلاك الأمم وسقوط الحضارات، منها:

- اختلال التوازن في سلوك الفرد والجماعات بين مطالب الإنسان الجسدية والروحية.

---

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 50/3.

[2] المرجع نفسه، ص 50/3.

[3] تفسير السعدي، مرجع سابق، ص 543.

- الانهماك في اتباع الشـهوات، وإرواء الغرائز الجسـدية، والإسـراف في المطاعم والمشارب والزخارف والزينة وشيوع الزنا والعُري، وكشف العورات استجابة لوساوس الشيطان، كل ذلك سيؤدي إلى انحلال الأخلاق وانهيار المجتمعات.

- كما أن الغلو في العبادات والمتطلبات الروحية والانصراف الكامل إليها واهمال متطلبات الحياة الدنيوية، يؤدي أيضاً إلى تعطيل طاقات الإنسان عن عمارة الأرض، واستثمارها وتحقيق معنى استخلافه فيها، بما يفرضه على نفسه من رهبانية وعزلة، فيتوقف النمو، وتتآكل الحضارة وتضعف، ثم تنهار[1].

ومع ذلك فإن مسيرة الحياة الإنسانية على الأرض غير خاضعة لوتيرة واحدة، وغير ملتزمة بطريقة معينة، بل نراها في اضطراب دائم، وتذبذب مستمر، والخط البياني للمسيرة البشرية يرتفع تارة وينخفض تارة أخرى ويسرع ويتباطأ، وذلك بسبب ارتباط حركة التاريخ البشري بالصراع القائم بين الخير والشر، بين الرسالات الإلهية والشرائع السماوية، وبين الشيطان وأتباعه وأنصاره.

ومن خلال هذا الصراع الذي قدّره العليم الحكيم تشكّل تاريخ الوجود البشري على الأرض، ويمارس الإنسان حريته واختياره، يعلو أو يهبط، يعمّر أو يخرّب، يستقيم أو ينحرف.

ومن وراء كل ذلك نواميس علوية وسنن إلهية لا تتبدل ولا تتغير، لأنها بمشيئته

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص51/3.

سبحانه وحكمته وعلمه، وقد ذكرها سبحانه في آيات كثيرة منها:

- ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:62]

- ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:23]

- ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:137].

إن هلاك الأمم وسقوط الحضارات وإن كان مرتبطاً بأسباب تتصل بحرية الإنسان واختياره، فإنه لن يخرج عن النواميس الإلهية الثابتة التي جعلها الله تعالى متحكمة في تاريخ البشرية[1].

إن من سار في طريق الفواحش والإثم والبغي والشرك والافتراء على الله وقع في شباك إبليس وانحرف عن الصراط المستقيم، وتعرّض لغضب الله وسخطه وهذا ما يريده الشيطان الرجيم.

9. قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:34].

لما بين سبحانه وتعالى الحلال والحرام وأحوال التكليف، بيّن أن لكل أحد أجل

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، المرجع السابق، ص 51/3.

معين لا يتقدم ولا يتأخر، وإذا جاء ذلك الأجل مات لا محالة، والغرض منه التخويف ليتشدد المرء في القيام بالتكاليف كما ينبغي[1].

ومن خلال سياق قصة آدم عليه السلام في سورة الأعراف وعلاقتها بهذه الآية يتضح أن الله أخرج بني آدم من العدم على هذه الأرض وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلاً مسمى، لا تتقدم أمة من الأمم على وقته المسمّى ولا تتأخر، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها[2].

والسياق القرآني يعقب على قصة آدم عليه السلام بإيقاع قوي مؤثر، إنه يعقب بتنبيه بني آدم إلى أن بقاءهم في هذه الأرض محدد مرسوم، وأنه إذا جاء الأجل فلا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون.

إنها حقيقة أساسية من حقائق هذه العقيدة، يوقع لها السياق على أوتار القلوب الغافلة، غير الذاكرة ولا الشاكرة لتستيقظ فلا يغرها امتداد الحياة.

والأجل المضروب إما أجل كل جيل من الناس بالموت المعروف الذي يقطع الحياة، وإما أجل كل أمة من الأمم بمعنى الأمد المقدر لقوتها في الأرض واستخلافها[3]، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي ما قدّره الله سبحانه في سابق علمه ومشيئته من أجل في التمكن والظهور والارتفاع في سُلّم العمران والتحضر وأجل أيضاً للتراجع والانهيار والهلاك، فالتاريخ دول، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا

[1] تفسير الرازي، مرجع سابق، ص 234/5.

[2] تفسير السعدي، مرجع سابق، ص 543

[3] في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص 1285/3.

بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:140]، ودوام الحال من المحال وكل شـيء في هذه الدنيا مصـيره إلى الزوال والانتهاء، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَـيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:88]

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ المقدر لهم، ﴿لَا يَسْـتَأْخِرُونَ سَـاعَةً﴾ أي : قطعة من الزمان قليلة، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فالآجال المقدرة في علم الله ومشيئته لا يستطيع فرد أو أمّة أن يغيرها، عجزت همم الرجال عن خرق أسوأ الأقدار[1].

يقول العلامة محمد أبو زهرة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:34]

هذا بيان نهاية كل إنسـان في هذه الحياة، فهو يعيش إلى أجل محدود قد عينه الله تعالى له، لا يتأخر ولا يتقدم، وأجل الإنسان هو نهاية حياته.

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ ولم يقل لكل إنسان أجل مع أنه لكل إنسـان أجل فعلاً فلماذا اختار جل جلاله ذكر أجل الأمة، دون الآحاد بآحاداها، أولاً: لأنه إذا كان للأمة بآحادها وجماعتها أجل فأولى أن يكون للآحاد آجالها، وثانياً: لأن الجماعة هي التي يجمعها عصـر وعادات وتقاليد، ويكون فيها توجيه إلى الخير أو إلى الشر فهي جيل له أحواله وعليه تبعاته، فالله سبحانه أخبرنا أن لكل جيل من الأجيال أجله الذي ينتهي عنده، ويذهب بأثقاله ويجيء من بعده جيل آخر له شأنه.

---

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص52/3

- وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ والساعة أقل من الزمان، والسين والتاء في "يَسْتَأْخِرُونَ" للطلب، والمعنى لا يتأخرون، والتغيير بالسين والتاء هنا إشارة إلى أنه لا يتأخر، ولو طلبوا تأخيره، بما يقتضيه حب الحياة بالنسبة للعصاة فإنهم يتمنون الحياة، ولا يتمنون الموت أبداً[1].

- ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لا يُقدّم ولو طلبوا أن يقدموا كأولئك المؤمنين الذين يستعجلون لقاء ربهم لا طلباً للموت ولكن رغبة في الحياة الآخرة ولقاء ربهم، طمعاً في ثوابه أو رغبة في رضوانه.

والمعنى لكل أجل كتاب، والموت بأي سبب من الأسباب هو نهاية الأجل الذي لا يتأخر ولا يتقدم فالموت بمرض أو بقتل أو حرق أو غرق، أو استشهاد في سبيل كلمة حق لأجل الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

[النساء:78]، وقدم قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ على ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لأن الرغبة كثيرة، والرغبة في التقديم، والله يتولى الأنفس وهو بكل شيء عليم[2].

10. قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2826/6

[2] المرجع نفسه، ص 2826/6

فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(35) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (36)﴾ [الأعراف:35،36]

هذا هو عهد الله لآدم وبنيه وهذا هو شرطه في خلافتهم في أرضه سبحانه وتعالى التي خلقها وقدّر فيها أقواتها، واستخلف فيها هذا الجنس، ومكنه فيها، ليؤدي دوره وفق هذا الشرط وذلك العهد وإلا فإن عمله رد في الدنيا لا يقبله ولا يمضيه مسلم لله، أو هو في الآخرة وزر جهنم لا يقبل الله من أصحابه صرفاً ولا عدلاً[1].

وهذا هو النداء الرابع الحاسم في دعوة الناس إلى اتباع الرسل الذين يبعثهم الله ليقصُّوا عليهم آياته بما تدل عليه، من عظمة الإبداع في خلقه، لتقودهم إلى التأمل بها والتفكير فيها، وبما تذكرهم به من نعم الله التي تتصّل بوجودهم، وبامتداده بالمستوى الذي يجعل منها رحلة طيبة رائعة في مسيرة الكون وبما تخطط لهم من المنهج الفكري والعملي الذي يقودهم إلى الخط السليم في التفكير والصراط المستقيم في العمل، وبما توجِّههم إليه من أساليب وأهداف في نطاق الحياة كلها، كموقع ينطلق فيه الإنسان إلى الآخرة عبر مسيرته المسؤولة في الدنيا وعلى ضوء هذا، فإن هؤلاء الرسل جاؤوا ليقصُّوا علينا هذه الآيات الإلهية من أجل وعي إيماني

---

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص1288/3.

منفتح، وعمل تقوائيّ صـــالح متحرك لتواجه النتائج الإيجابية في أجواء التقوى والنتائج السلبية في أجواء الكفر والاستكبار وتلك هي قصة الرسالات مع الناس في حركة البداية والنهاية[1].

أ. قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُــلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّــونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:35].

وهنا خاطب الله تعالى بني آدم، وفي ذكر آدم عليه السلام تنبيه وتذكير بما كان من إبليس لآدم عليه السلام وعمله على إغوائه وإغواء ذريته من بعده وقوله: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾؛ فيه "إن" الشـــرطية و"ما" المؤكدة لمعنى الشـــرطية وهذا تأكيد من الله تعالى بأنه سيرسل رسلاً مبشرين ومنذرين كما قال تعالى:﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:24].

– وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:15].

ولذا أكد الشرط مع "ما" بالنون، ومؤدى الآيات أن الله تعالى مرسل الرسل لا محالة ولكن ذلك ليس بواجب الله تعالى، ولا يجب عليه شـــيء ومن الذي يوجب عليه شـــيئاً، فهو عز وجل كما قال في حق ذاته: ﴿لَا يُسْـــأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:23]، فالكمال كله لله تعالى.

[1] تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مرجع سابق، ص 94/7.

- و ﴿رُسُلٌ﴾: جمع رسول، وقد أشار سبحانه إلى عملهم وهو التبليغ عن الله تعالى[1].

- ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾: أي يعرضون عليكم أحكامي وشريعتي، ويخبرونكم بها ويبينونها لكم بالتتابع، فالتعبير "يَقُصُّونَ" يفيد معنى التتبع والتتابع، فالرسل يتتبع بعضهم بعضاً دون اختلاف بينهم في أصول رسالاتهم وشرائعهم[2].

- ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنون﴾: فمن آمن منكم بما أتاه به رسلي مما قص عليه من آياتي وصدق واتقى الله، فخافه بالعمل بما أمره به والانتهاء عما نهاه عنه على لسان رسوله[3]، وأصلح أعماله الظاهرة والباطنة.

- ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: من الشر الذي يخافه غيرهم[4].

- ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: فلا خوف عليهم يوم القيامة من عقاب الله إذا وردوا عليه[5].

- ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنون﴾: على ما فاتهم من دنياهم التي تركوها وشهواتهم التي تجنبوها؛ اتباعاً منهم لنهي الله عنها إذا عاينوا من كرامة الله ما عاينوا هنالك.

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2827/6.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 52/3.

[3] تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 167/8-168.

[4] تفسير السعدي، مرجع سابق، ص 543.

[5] تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 167/8-168.

– ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنون﴾: على ما مضى وإذا انتفى الخوف والحزن، حصل الأمن التام والسعادة والفلاح الأبدي[1].

ب. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾:

وهنا جاء ذكر الذين يعصون الرسل، ويكفرون بما جاءوا في مقابل الذين اهتدوا بهديهم، وهو هدى الله تعالى وقد ذكر الله تعالى وصفين لهما، هما اللذين أديا بهم إلى عذاب الله تعالى وهما:

الوصف الأول: أنهم كذبوا بآيات الله تعالى، فكذبوا آيات التكليف ولم يؤمنوا بصدقها عن الله تعالى مع قيام الأدلة على صدقها، والبراهين الدالة على أن الرسل يتكلمون صدقاً عن الله، فهم إذ يكذبون الرسل فيكفرون بمن أرسلهم، ويكذبون بما تدل عليه الآيات الكونية من خلق السماوات والأرض، وما يكون منها من زروع وثمار وحياة كاملة، وما في السماء من نجوم وبروج إلى آخر ما في الكون من دلالات على أن خالقها واحد أحد هو الفرد الصمد.

الوصف الثاني: أنهم استكبروا عن آيات الله فحسبوا أن اتباع الرسل ينافي عزتهم، وينقص من كبريائهم، فأخذتهم العزة الواهمة بالإثم الحقيقي، وهنا نجد أن الله تعالى يقول: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾؛ فعبر هنا عن التجاوز، وذلك للإشارة إلى المجاورة

[1] تفسير السعدي، مرجع سابق، ص 543.

للحقيقة، أي أن استكبارهم تجاوز بهم عن فهم الآيات وإدراكها لتضمن "وَاسْتَكْبَرُوا" لمعنى التجاوز، فكان التعدي بـ "عَنْ" والسياق هذا مؤداه: استكبروا متجاوزين عنها تاركين لها[1].

وإن الاستكبار عن الآيات هو رفض قبولها كبراً وعناداً، ولمن جاء بها أن يكون إماماً متبوعاً للمستكبرين، لأنهم يرون أنفسهم فوقه، أو أقوامهم فوق قومه، أو يحبون أن يُروا الناس ويوهموهم بذلك، فرؤساء قريش المستكبرون، منهم من كان يرى الضعة والمهانة في أن يكون مرؤساً للنبي صلى الله عليه وسلم نفسه، لأنهم أكثر منه مالاً وأعز نفراً، أو أكبر سنًّاً، فيرون أنهم أحق بالرياسة وكان من هؤلاء بعض عشيرته من بني هاشم، ومنهم من كان يستكبر أن يتبع رجلاً من بني هاشم كأبي جهل وأبي سفيان، وآخرين مات بعضهم على الكفر ودان بعضهم بالإسلام بعد ظهوره، ولم يكن في غير قريش من العرب من يستكبر أن يتبع رجلاً منهم إلا لعدم اتباعهم هم له، كما أن أحبار اليهود استكبروا عن اتباعه لأنه عربي وهم يرون أن النبوة يجب حصرها فيهم كما جاءت الآيات في سورة "البقرة"، وكذلك أمراء المجوس ورؤساء دينهم إذ كانوا يحتقرون العرب كافة إلا من هدى الله من الفريقين.

ولا يزال بعض الشعوب يأبى الاهتداء بالإسلام استكباراً عن اتباع أهله، بل نرى بعض غلاة العصبية الجنسية المرتدين عن الإسلام من الترك كذلك، حتى

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 2828/6

نقلت صحف الأخبار عن بعضهم أنه قال: إن قومه يستنكفون أن يتسفلوا لاتباع الخلفاء الراشدين، بل قالوا ما هو أكبر من ذلك إثماً.

والمعنى: أن الذين كذبوا بآياتنا المنزلة على أحد من رسلنا، واستكبروا عن اتباع ما جاء بها حسداً على الرياسة وتفضيلاً لأنفسهم عليه، أو لقومهم على قومه؛ فأولئك أصحاب النار الذين يخلدون فيها، لا كالذين يعذبون فيها زمناً معيناً على ذنوب اقترفوها.

وجملة القول في هذه الآية، أن جميع الرسل قد بَلغوا أممهم أن اتباعهم فيه اتقاء ما يفسد فطرتهم من الشرك وخرافاته والرذائل والمعاصي، وفيه إصلاح أعمالهم بالطاعات، وما يترتب عليه الأمن من الخوف من كل ما يتوقع، والحزن على كل ما يقع، إما مطلقاً، وإما بالنسبة إلى غير المؤمنين المتقين. وإن تكذيب ما جاؤوا به من آيات الله والاستكبار عن اتباعها يترتب عليه الخلود في النار، وهذا فضلاً عن ما بينته آيات أخرى من سوء الحال في الدنيا وقد سكت عن الجزاء الدنيوي هنا، لأن الآية الأولى تدل عليه، ولأنه لا يظهر للناس في كل وقت[1].

وقال السعدي (رحمه الله): في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾، أيّ: لا آمنت بها قلوبهم ولا انقادت لها جوارحهم: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ إنهم استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها، فأهينوا

[1] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ص 8/410-411.

بالعذاب الدائم الملازم[1].

[1] تفسير السعدي، مرجع سابق، ص543.

المبحث الثالث: قصة آدم (عليه السلام) في سورة الحجر:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۝ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ۝ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۝ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۝ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ۝ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ۝ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۝ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝﴾ [الحجر:26-49]

تحدّث العلماء عن الربط والمناسبة بين قصة بدء الخلق بعد الكلام عن الإحياء

والإماتة

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾؛ فهناك علاقة قوية بينها وبين الآيات التي سبقتها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر:23]

حيث يتكلم الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن ذاته العلية بنون التعظيم، ولعل هذه الآية من أندر الآيات في القرآن الكريم، إذ كل كلمة فيها نون التعظيم، وهذه الصيغة من التعبير، أعني الكلام بنون التعظيم، هي وفق أساليب العرب في بيانهم، وبينت الآية الكريمة في وضوح أن الله هو المحيي والمميت ووارث الكون وما عليه وما فيه ومن عليه ومن فيه.

وهذا الخطاب القرآني الكريم يتماشى مع العقل، وينسجم مع الفطرة، ويُقرّه المنطق، فالاعتقاد بالإله الحي الباقي الوارث ضرورة لا بد من الصيرورة إليها، فأنت ترى الكل يفنى ولا بد من باق يرث هذا الكون ويكون المصير إليه وهذا الدين متماشي تماماً مع العقل، إنما الخارج عن المنطق والعقل والفطرة: الإلحاد والجحود والإنكار والكفر[1].

- في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ [الحجر:24]

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾: من تقدم منكم ولادةً وموتاً. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ من تأخر ولادة وموتاً، أو من خرج من

---

[1] تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص178.

أصلاب الآباء ومن لم يخرج بعد، أو من تقدم في الإسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة ومن تأخر في ذلك لا يخفى علينا شـيء من أحوالكم وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته، فإن ما يدل عليها دليل عليه، وفي تكرير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ ما لا يخفى من الدلالة على كمال التأكيد[1].

ومن دروس الآية:

- علم الله المطلق.
- الأولون والآخرون في علم الله سواء.
- البعث يحتاج أولاً إلى علم ثم قدرة[2].
- في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر:25]، فقد أضاف الرب سبحانه وتعالى إلى ضمير خطابه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ربك﴾، وذلك تلطفاً به وتكريماً له، وتنويهاً بشأنه[3].
- ﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾: يبعثهم ويجمعهم للحساب والجزاء.
- ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾: هذا هو ختام الآية، فناسب أن تختم الآية المتحدثة عن الحشر بالحكمة والعلم.

فالذي أوجد الناس في الدنيا أوجدهم لحكمة، والذي يبعثهم بعد موتهم ليجازيهم على ما كان منهم يبعثهم لحكمة، فكل أفعاله صادرة عن الحكمة والعلم

---

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، ص 73/5.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 181

[3] نوفل، المرجع السابق، ص. ص 181 – 182.

فهو ختام مناسب تماماً للآية[1].

- و"الحَكِيم" هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، وهو الذي أحسن كل شيء خلقه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:50]، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع سدى، وهو الذي له الحكم في الأولى والآخرة وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك فيحكم بين عباده، وفي شرعه وفي قدره، وجزائه، والحكمة: وضع الأشياء في مواضعها، وتنزيلها منازلها[2].

- و"العَلِيم": هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي وبالماضي والحاضر والمستقبل فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[3].

والنصوص كثيرة في ذكر إحاطة علم الله وتفصيل دقائق معلوماته، كثيرة جداً لا يمكن حصرها وإحصاؤها، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وإنه لا يغفل ولا ينسى سبحانه[4].

وإن من الدروس المستفادة من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر:25]

- الرب الرحيم الخالق هو الرب الرحيم الذي يبعثهم للجزاء والحساب.

---

[1] المرجع نفسه، ص 182.

[2] تفسير السعدي نقلاً عن ولله الأسماء الحسنى، مرجع سابق، ص 283.

[3] ولله الاسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص 333.

[4] المرجع نفسه، ص 333.

– الإيمان بالبعث هو ضابط للحياة وإيقاعها وحركتها وضابط للقيم والأخلاق وبدون الاعتقاد في الآخرة يصبح الناس وحوشاً ضارية.

– الحكمة والعلم أساس الحساب والبعث والجزاء[1].

إن العودة إلى قصة بدء الخليقة مناسب تماماً لمعرفة الحكمة من الخلق: ألم تختم الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾؟

فهو يُعيدك إلى بدء الخليقة لتفهم حكمته وعلمه من خلق هذا المخلوق المكرم "الإنسان"، وجعل الملائكة تسجد إكراماً له واعترافاً بقدره وفضله، والشيطان الذي أبى السجود هو عدو هذا الإنسان، وهو الذي أضله وأدخله إلى النار وسوء المصير وسوء القرار والخسارة والبوار، فكانت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، وما بعدها مناسب تماماً للسياق، وموضحة لقصة وجود هذا الإنسان الذي يتكلم السياق عن خلقه وإحيائه وإماتته وبعثه ونشوره وحشره[2].

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر:26]

1– ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾:

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 183

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 181

إن الواو للعطف أو الاستئناف واللام للقسم، وقد للتحقيق.

- ﴿خَلَقْنَا﴾؛ أوجدنا من العدم، وأنشأنا على غير مثال سابق.

- ﴿الْإِنْسَانَ﴾؛ هذا المخلوق المتفرد (المكرم) الذي يبدو ضئيلاً قصير العمر محدود القدرة، لكنه أعظم الموجودات ما استقام على نهج الإله، وأهونها وأدناها إذا خرج عن مساره، فيتحطم وتضيع منه الكرامة، ويفقد المنزلة، ويسقط عنه رداء الشرف والعزة والكرامة والمكانة.

والإنسان إما مشتق من الأنس أو النسيان، وكثيراً ما تكلم الله عز وجل عن الإنسان بصفته هذه، أيّ مخاطباً بإنسانيته التي هي أكرم ما فيه ليستجيب، والأنسنة "الأنس" ما أحوجنا إلى اِستعادتها بعد أن توحش الإنسان وأصبح ضارياً كالمفترسات يقتل بلا سبب، ويروع العباد بلا داعٍ، ويتأله، ويستكبر ويستعلي ويفجر ويجرم ويرتكب الموبقات والكبائر والدواهي بحق نفسه وبحق أخيه الإنسان وبحق الموجودات وبحق الوجود، بل بحق موجد الوجود سبحانه، إذ يشرك معه هواه أو ما شاء هواه من آلهة مزعومة، أو يجحده كل الجحد وينظر لذلك ويُفلسِفُه ويمنطقه ويخترع له المذاهب ويكتب فيه الكتب والمدونات ويجعل له مدارس فكرية وفلسفية ومذاهب اجتماعية واقتصادية[1].

ففي قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾: تأكيد لحقيقة إيمانية بديهية فطرية عقلية منطقية لا مجال لإنكارها إلا من جاهل عنيد معاند مكابر مستغل

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 188.

غليظ، هذه حقيقة الحقائق وأمها، فهذا الكون كله مخلوق للخالق العظيم وهذا الإنسان أكرم مخلوق وهو أيضاً مخلوق لهذا الخالق العظيم، وإلا فمن أوجد الوجود ومن أوجد هذا الإنسان وأودع وأبدع فيه هذه المواهب الفائقة العظيمة من عقل وخيال وتصور وإرادة؟

لا بد من التسليم بهذا، وإلا فإنه التيه والضلال، والحيرة والتخبط وفساد القيم، والحصاد مر، حصاد الأشواك والشقاء الذي ترزح تحت وطأته البشرية المعذبة بما اخترعت من مذاهب.

وأعتقد أن إحلال نظرية التطور محل عقيدة الخلق أخطر ما مُني به العقل البشري والاجتماع الإنساني، فيراد له أن يعتقد نفسه كمادة تطورت ولا حكمة من وراء خلقه وإبداعه، وأي هوان أهون من هذا الهوان وأي شقاء أشقى من هذا الشقاء؟

الاعتقاد بعقيدة الخلق هو الكرامة الإنسانية فأنت موجود لغاية جليلة وحكمة عظمى، فلا تقبل التنازل عنها، وإياك أن تقبل نظرية مخلوق فاسد ذي أغراض شيطانية وترفض عقيدة الحق الصادرة من عند الخالق العظيم، وبالتالي: أيُّ شيطان هذا الذي يقود خطى البشرية نحو الهاوية ويصرفها عن ربها!؟[1]

2- ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾:

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 189

تفردت سورة الحجر بهذا الوصف للصلصال، بأنه: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ وقد تكررت هذه الجملة ثلاث مرات سياق السورة. وحاشا لله أن يكون تحقيراً للإنسان، ولكنه لبيان أصله المتواضع ليتواضع، فقد أودع الله فيه من المواهب ما إن لم يضبطه بضابط الإيمان والتواضع فإنه سيستكبر، ومقتله وأمراضه وعلله كلها في هذا التكبر، فشاء الحكيم أن يكون خلقه من هذا الأصل المتواضع جداً، من الطين الأسود المتعفن، الذي تحول إلى صلصال، فجمع ضعف الأصل وضعفه معاً.

أقول: كل ذلك ليتواضع لا ليحقر ولا ليُهان ولا ليُنتقص من قدره، ولو كان هذا فلماذا أَسجدَ له ملائكته؟ أذلك ليحتقره ويهون من شأنه؟ بالطبع لا[1].

قال ابن عاشور: المقصود من ذكر هذه الأشياء الدلالة على عجيب صنع الله تعالى، إذ أخرج من هذه الحالة المهينة نوعاً هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحياة، وفيه إشارة إلى أن ماهية الحياة تتقوم من الترابية والرطوبة والتعفن.

وتوكيد الجملة بلام القسم وبحرف "قد" لزيادة التحقيق تنبيهاً على أهمية هذا الخلق وأنه بهذه الصفة. فقد قال السعدي: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾؛ أي من طين يبس بعدما خُمّر حتى صار له صلصلة وصوت كصوت الفخار. وأما الحمأ المسنون فهو الطين المتغير لونه ورائحته بسبب طول مدة مكثه[2].

---

[1] نوفل، المرجع السابق، ص 191.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 191

وهنا الآية: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾: بيان أطوار خلق آدم أبي البشر، ابتدأ الله خلقه من تراب مفرق الأجزاء، ثم بله بالماء وتركه حتى اسودّ وتغير رائحته، ثم صور فيه تمثال إنسان أجوف، فجف وييس حتى إذا نقر سمعت له صلصلة، فغيره طوراً بعد طور، حتى نفخ فيه من روحه، فتبارك الله أحسن الخالقين[1].

- ﴿صَلْصَالٍ﴾: طين يابس غير مطبوخ "مشوي بالنار" له صلصلة وصوت إذا نقر، كما هو صوت الحديد، فإذا طبخ الفخار بالنار فهو الفخار، "حَمَإٍ": طين أسود متغير "مَسْنُونٍ" مصور، من سن الشيء صوّره وعلى هذه الأطوار تخرَّج الآيات في أطواره الطينية، كآية: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾، وآية: ﴿بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ وهذه الآية[2].

قال الزمخشري: الصلصال: الطين اليابس الذي يُصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخّار، والحمأ: الطين الأسود المتغير.

والمسنون: المصوّر، من سنة الوجه، وقيل: المصبوب أيّ: أفرغ في صورة إنسان كما تفرَّغ الصور من الجواهر المذوبة في أمثلتها.

وقيل: المنتن، من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به، أي خلقه من صلصال كائن من حمأ وحق مسنون بمعنى مصور، أن يكون صفة لصلصال، كأنه أفرغ الحمأ، فصور منها تمثال إنسان أجوف، فيبس حتى إذا نقر صلصل، ثم غيره

[1] المرجع نفسه، ص 191.

[2] المرجع نفسه، ص191.

إلى جوهر آخر، والجان للجن كآدم للناس[1].

وقد تحدث العلماء عن الفرق بين الصلصال والفخار، فقالوا: إن الطين اليابس هو صلصال ما لم تمسه نار، فإذا مسته النار فهو يصبح فخاراً[2].

وقال الراغب الأصفهاني: أصل الصلصال تردد الصوت من الشيء اليابس، وسمي الطين الجاف صلصالاً[3].

وظاهر من هذا التقرير اللغوي أن آنية الصلصال أقل تماسكاً من آنية الفخار التي أنضجتها النار، فهي يابسة قليلة التماسك وتحدث الصوت أي تصلصل إذا نقر عليها مثلاً.

ويقول تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾؛ هي ليست فخاراً، إنما هي "كَالْفَخَّارِ"[4].

لقد أضافت قصة آدم عليه السلام في سورة الحجر عنصراً جديداً مهماً، لا بد للإنسان أن يكون على علم به، وهو أن الله تبارك وتعالى خلق هذا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون، وذلك لأن لعنصري الصلصال والحمأ المسنون في خلق الإنسان وفي حياته بعد ذلك دوراً لا يمكن إغفاله فالصلصال لا يتماسك كثيراً، بل سرعان ما يتحطم ويتفتت، فهو هش لأنه الطين الذي حرقته الشمس فهو لا

---

[1] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، مرجع سابق، ص 576/3

[2] آدم عليه السلام، البهي الخولي، ص23

[3] البهي الخولي، المرجع السابق، ص 23.

[4] المرجع نفسه، ص24.

يملك خاصية المحافظة على ذاته، فسرعان ما يتفتت، فليس في شدته كالفخار الذي سوته، والحمأ المسنون: الطين الذي اشتد سواده وتغيرت رائحته تغيراً مكروهاً، والمسنون المصور، وهاتان خاصيتان لعدم التماسك وعدم الاحتفاظ بخاصية الصلاح وحدوث الفساد والتغيير، وهما ملازمتان للإنسان، إلا إذا تداركه الله بعفوه ورحمته، فإنه حين ذلك يكون قوياً بعيداً عن أن يطرأ عليه فساد[1].

ويرى الدكتور البهي الخولي: أن سواد الحمأ يقابله في تلك البشرية غموض المرء، أي عدم وضوحه وصراحته وجنوحه إلى التخفي بالدسائس والخديعة ونصب المكائد والغيلة والغدر، وكل فعلة سوداء يدير لها الجبن في خفية الظلام، لا تحت أسماع الناس وأبصارهم، ومنها الرشوة والتزوير والاختلاس، والمساومة لتيسير منفعة باطلة أو السكوت عن تواطؤ مريب[2].

وقال: ونتن الحمأ: يقابله أمران:

- الأول: ما يصدر عن المرء من أفعال دنيئة تدعو إلى الاشمئزاز وانقباض النفس، كابتذال الكرامة والتضعضع لذوي الجاه زلفى إليهم ولنيل رضاهم، والتجسس والوشاية والنفاق، وإهدار العرض والإتجار بالضمير والمقدسات في أسواق الرأي والقلم وميادين التحلل.

- الثاني: مقومات الضمير نفسه التي تصدر عنها الأفعال السابقة، أي

[1] قصص القرآن، فضل عباس، ص 113.

[2] آدم عليه السلام، البهي الخولي، مرجع سابق، ص 24.

المقصــــود بها "الحالة النفســــية" التي تقابل حالة الطين إذا أنتن، إذ يغدو بها المرء خبيث النفس دنساً، ولو تسنى لنا أن نبصر المعنويات أو نشمها لأبصرنا وشممنا ما هو أشد كراهة من الجيف ورحم الله أبا العتاهية إذ يقول:

أحــــســــن الله بنــــا | أن الخــطايا لا تفـــوح
فـــإذا المســـتور منــا | بيـــن جنبيـــه فضـوح[1].

وقد تلقى أحد هؤلاء وأنت تعرفه، فإذا مجرد الفراسـة تكشـف لك منه خسـة خنزير، فتحس كأنك تحذره وتنقبض منه، فإن للنفوس سمات باطنة تبدو على ظاهر الوجه، أو في تعبير العين أو نحوه[2].

تلك إشارة إلى ما يقابل خصائص الحمأ المسنون في بشرية الإنسان، وهو أمر جبلي في كل نفس آدمية، فإذا تفاوت الناس في درجة ظهوره بحســـب ما لهم من مجاهدات التزكية والتطهير، فلا بد من غفلة أو فترة ينزع فيها الطبع إلى خصـائصـه ولو على هون ما يقوله أحدهم:

ولا بـــد من أن ينزع المرء | إلى الحمأ المســـنون ضـــربة

وما يقابل صفات الصلصال في الإنسان، فقد قدمنا أن صفات الصلصال هي قلة التماسـك، والصـلصـلة وقلة التماسـك تبدو في تهالك الحسـين الماديين على

---

[1] الفضوح: المفتضح.

[2] آدم عليه السلام، الخولي، ص25.

[3] اللازب: اللازم.

مطالبهم الغريزية، وأغراضــهم، أو عجزهم عن الجهود التي يتطور بها الإنســان من طينة الحمأ إلى القيمة العلوية التي ســجدت له بها الملائكة، وهي جهود تتمثل في الصبر عن شهوات النفس، والثبات على المشقة في تحقيق المثل العليا مع ما يقتضيه ذلك من مكارم البذل وصـنع المعروف والاهتمام بمواســاة الناس، وفك ضـوائقهم وإبطال الباطل ومكايدة الهواجر، وما يخفي الليل، تصفية للنفس وسمواً إلى الله.

إن قلة التماسـك تبدو في تثاقل الحسـين الماديين أو نكوصـهم عما ذكرنا من تكاليف الصعود إلى القمة، وتهالكهم في مطالب الغرائز، وشهوات الدنيا، حسبهم من ذلك أن تكون لهم صلصلة أو شنشنة باطلة عن فضائل النفس، شأن الذين يقولون ما لا يفعلون، ويحبون أن يحمدوا بما ليس فيهم.

وما أعجب ما تذكر اللغة في صلصلة الفخار إذ يقول الراغب الأصفهاني: إنه سُمي بذلك لصوته كأنما تصور بصورة من يكثر التفاخر.

وحســبك بأناس تفاهة أن يهد كاهل أفراده بحمل المكارم، فلا يكون حظهم إلا منفعة الأدعياء الذين لا يقيمون لله سنة في قول أو عمل.

إن بشــرية الإنســان في بعدها الطيني ســلبية من حيث قدرتها على إبداع الفضـائل أو الإمداد بها، ولا سـبيل للإنسـان إلى الفضـائل إلا بما منحه الله له في جانبه الروحي، وقد منحنا الله هذا الفضـل فنفخ فينا من روحه، فكان للإنسـان – إلى بشريته–عنصر علوي يتضمن الاستجابة لإيداع أكرم المثل، وأشرف الفضائل[1].

---

[1] آدم عليه السلام، الخولي، مرجع سابق، ص 26

ومن الدروس المستفادة من الآية:

- الإنسان أنفس موجودات الوجود وأصله من أهون موجودات الوجود وهو: الطين المتأسن.

- لو أراد الله تحقير الإنسان ما أسجد له الملائكة.

- شرف الإنسان بالدين وإن كان أصله من الطين[1].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾:

الجان للجن كآدم للناس أي خلقنا أبا الجن من قبل آدم[2]، أو خلقنا جنس الجن: من قبل الإنسان، وقال ابن جرير: القصد بالجان هنا إبليس أبا الجن، أي إبليس خلقناه من قبل الإنسان من نار السموم[3]، وبعضهم قال: الجان: أي الجن الذي من إبليس[4].

وهذه الآية تبين أن الجان خلق قبل الإنسان وجاءت بعد ما ذكر الله خلق الإنسان لا لأسبقيته ولكن لأحقيته في القديم لكرامته، "إن استقام بطبيعة الحال" عطف عليه خلق الجان، وإن كان أسبق في الزمان على نهج سورة الرَّحْمَنِ إذ قال الله تعالى هناك: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 192

[2] تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته، ص 2578/7

[3] تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 30/14

[4] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 4085/8

مِنْ نَارٍ﴾ فالآيتان في نسق موضوعي ونسق سياقي ونسق قرآني.

– أما النسق الموضوعي، فالكلام في السورة عن قدرة الله والتي منها الخلق، الذي منه خلق الإنسان والجان.

– وأما النسق السياقي، فبعد الحديث عن الإحياء والإماتة جاء الحديث عن الحشر، فناسب تفصيل بدء الخلق هذا الذي سيحشر ويحاسب، وكيف انصرف عن نهج العبودية بوسوسة الشيطان، وهكذا السياق في سورة الحجر.

– وأما النسق القرآني، فكما رأينا نموذجه في سورة الرَّحْمَنِ.

أضف إلى ذلك نون العظمة التي يتردد صداها في الآيات، والتي لا تكاد تغيب عن آية: وفي السابقة "خلقنا" وهنا "خلقناه" فالأنساق متعددة.

والجان، ورد هذا اللفظ في القرآن هنا لأول مرة والفرق بين الجان والجن في المؤدى النهائي واحد[1]، والقبلية في خلق الجان قبل الإنسان، لا يعلم قدرها ولا عمرها إلا الله الخالق، فقد تقدر بملايين السنين وقد تقدر دون ذلك، وما لم يعلمنا الله إياه فلا سبيل لمعرفته، و "قيل وقال" لا تغني ولا تسمن[2].

1- الجن في الاصطلاح:

ورد لفظ الجن في القرآن الكريم في آيات كثيرة وسميت باسمهم سورة هي سورة الجن، وورد في السنة المطهرة كذلك ذكر الجن في مواضع متعددة، وكل ذلك إنما يدل على أهمية

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 194

[2] المرجع نفسه، ص 194

هذا المخلوق، إذ أنه يشاطر الإنس في التكليف، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]. وعلى هذا، فما هو هذا المخلوق؟

يستخلص من التعريفات المتعددة للجن: بأنهم نوع من الأرواح العاقلة المريدة المكلفة على نحو ما عليه الإنسان، مجردون عن المادة، مستترون عن الحواس، لا يرون على طبيعتهم ولا بصورتهم الحقيقية، ولهم القدرة على التشكل، يأكلون ويشربون ويتناكحون ولهم ذرية، وهم محاسبون على أعمالهم في الآخرة[1].

2- أصل المادة التي خلق منها الجن:

صرح القرآن الكريم والسنة النبوية بذكر المادة التي خلق منها الجن فقد ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾[الحجر:27]، في مقابل الحديث عن خلق الإنسان من طين، وفي قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن:15].

وغير ذلك من الآيات التي تتحدث عن إباء إبليس للسجود لآدم عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:12]

وأما في السنة النبوية فقد ورد في صحيح مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من

[1] العقائد الإسلامية، السيد سابق، ص133.

نار وخلق آدم مما وصف لكم"[1].

وهكذا نلاحظ أن القرآن الكريم والسـنة النبوية قد حددا ماهية المادة التي خلق منها الجن، فقد عبر القرآن عنها مرة بنار السـموم ومرّة بأنها من مارج من نار، فما هي هذا المادة وطبيعتها؟

قال الطبري في تفسـير المارج: هو ما اختلط بعضـه ببعض من بين أحمر وأصـفر وأخضـر، من قولهم: مَرِج أمر القوم: إذا اختلط، ومن قول النبي (صـلى الله عليه وسـلم) لعبد الله بن عمرو بن العاص: كيف بك إذا كانت في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم[2]. الحديث، وذلك هو لهب النار ولسانه[3].

ومما يؤيد هذا القول ما ورد عن ابن عباس في تفسـير المارج قال: المارج: اللهب، وقال: خلق الله الجان من خالص النار، وعنه أيضاً: من لسانها الذي يكون في طرفها إذا التهبت، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه اللهب الذي يعلو النار، فيختلط بعضـه ببعض: أحمر وأصفر وأخضر. وقال الليث: المارج الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد. وقال المبرد: المارج: النار المرسلة التي لا تمنع[4].

وفي وقع الأمر أن هذه الروايات كلها متقاربة المعنى وتؤدي معنى واحداً، فخالص النار أو ما كان في طرفها إذا التهبت واختلطت، تعطي ألواناً من الحمرة والصـفرة

---

[1] مسلم، كتاب الزهد والرقاق، 294/4.

[2] أحمد، 162/2. وانظر: سنن أبي داود، 513/4.

[3] تفسير الطبري نقلاً عن عالم الجن في القرآن، مرجع سابق، ص14.

[4] تفسير القرطبي نقلاً عن عالم الجن في القرآن ص 14

والاخضرار، وهو الذي خلق منه الجن.

وأما بالنسبة للسموم في الآية الأخرى، فقد قال ابن عباس في تفسير ذلك: السموم الريح الحارة التي تقتل وعنه: أنها نار لا دخان فيها، وقال ابن مسعود: نار السموم التي خلق منها الجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم[1].

وقال الإمام النسفي: من نار السموم: من نار الحر الشديد النافذ في المسام[2]، وهذا التفسير لنار السموم لا يخالف تفسير المارج –كما تقدم– إذ أن الشعلة الزرقاء الملتهبة التي تكون في طرف النار، تمتاز بقوة الحرارة ولها خاصية النفاذ من كل المسام[3].

وهذا التفسير لنار السموم هو الذي عليه أكثر العلماء وهو الموافق لظاهر القرآن، وقوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ [الأعراف:12]، ولا ينافي قوله تعالى في الآيات الأخرى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:27]

وقوله: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن:15]، ذلك أن النار جنس عام، والمارج والسموم نوع منها، أو أوصاف لها[4].

وإذا تساءل أناس: وكيف يعقل خلق الجن من نار؟

فالجواب: أن الله قادر على إيجاد العقل والحياة في الجسم الحار كما أوجدها في الإنسان المخلوق من الطين، على أن الجن لم يبق على صورة النار، بل استحال بقدرة الله

---

[1] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبد الكريم نوفان عبيدات، ص 14

[2] تفسير النسفي، مرجع سابق، ص 272/2

[3] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص 15

[4] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، المرجع السابق، ص 16.

إلى نوع آخر، يكون قابلاً للحياة كما هو الشأن في الإنسان[1].

3– إثبات تكليف الجن:

تصـــف كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أن الجن مكلفون بالتكاليف الشرعية، وأنهم مأمورون بفعل الطاعات والقيام بالعبادات، وأنهم منهيّون عن ارتكاب المعاصـــي والمحرمات، وأنهم مختارون لهذا الأمر والنهي، وهذا ما عليه جمهور أهل الإسلام وهم بهذا كالبشر الذين كلفهم الله بالتكاليف الشرعية أمراً ونهياً[2].

– قال الإمام القرطبي: إن ســـورة الرحمن والأحقاف والجن دليل على أن الجن مخاطبون مكلفون مأمورون منهيون، معاقبون كالإنس ســـواء بســـواء، مؤمنهم كمؤمنهم وكافرهم ككافرهم، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك[3].

– وقال الفخر الرازي: وأطبق المحققون على أن الجن مكلفون[4]. وقد وردت آيات كثيرة تدل على تكليف الجن وهي على أنواع مختلفة منها:

أ. ما جاء في التصريح في الحكمة من خلق الجن والإنس:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:57-56].

---

[1] عبيدات، مرجع نفسه، ص 16.

[2] عبيدات، المرجع نفسه، ص 175. وانظر: فتح الباري، 344/6.

[3] تفسير القرطبي، مرجع سابق، ص169/17.

[4] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص 176.

فالآية صـريحة في أن الله قد خلق الجن والإنس للعبادة وعلى هذا وردت أقوال العلماء[1].

قال ابن عباس: "إلا ليعبدون"؛ أي ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً وهذا اختيار ابن جرير الطبري[2].

ب- ما ورد عن صرف الجن إلى الرسول واستماعهم للقرآن منه:

- قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۝ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:29-3] .

فقد أخبر القرآن الكريم أن الله قد صـرف الجن إلى الرسـول عليه الصـلاة والسـلام لاستماع القرآن منه، وفي هذا دلالة على استماعهم للقرآن منه عليه السلام وانصاتهم لسماعه، قال ابن القيم: وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف:29] ، الآية تدل على تكليف الجن من عدة وجوه:

---

[1] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص 177.

[2] تفسير الطبري، مرجع سابق، ص8/27. وانظر: عالم الجن، عبيدات، المرجع نفسه، ص177.

– أحدها: أن الله تعالى صرفهم إلى رسوله ليستمعوا للقرآن، وليؤمنوا به ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه.

– الثاني: أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه، وأنه يهدي إلى الحق وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى والكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له، وأنه هاد إلى صراط مستقيم وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة، وهم قادرون على امتثال ما فيه، والتكليف يستلزم العلم والقدرة.

– الثالث: أنهم قالوا لقومهم ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآَمِنُوا بِهِ﴾ والآية صريحة في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول وهو تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر[1].

وقال الألوسي في قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾؛ هذا ونحوه يدل على أن الجن مكلفون[2]، وقال ابن كثير: "وفي هذا دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين الجن والإنس، حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم وهي سورة الرحمان ولهذا قال: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾[3].

---

[1] طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، مرجع سابق، ص 421

[2] روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، ص 32/26

[3] مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص 327/3

- وقوله تعالى في سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ۝ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ۝ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:1-15].

وقد جاءت هذه الآيات إخباراً للرسول عليه الصلاة والسلام باستماع نفر من الجن وهو يقرأ القرآن بأصحابه، وذلك بعد أن منع الجن من استراق أخبار السماء، فعرفوا أن هذا المنع ما حصل إلا لشيء قد حدث في الأرض، فجابوا الأرض فكان النفر الذين أخذوا نحو تهامة في بلاد الحجاز قد مروا على رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هو الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم

منذرين، فأنزل الله تعالى إلى نبيه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾.

وقد دلت هذه الآيات على إيمانهم بالقرآن، وأخذهم عهداً على أنفسهم ألا يشركوا بالله وذلك في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن:1،2].

- ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾ [الجن:12].

ففي إيمانهم بالقرآن، ووصفهم بأنه يهدي إلى الرشد، وعدم إشراكهم بالله، دلالة على أنهم مكلفون وكذلك مسارعتهم لاستماعهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:19]، أي لما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ربه ويقرأ القرآن اجتمع الجن عليه متلبدين متراكمين، حرصاً على ما جاء به من الهدى[1].

فقد كانوا حريصين متأملين عند سماعهم للقرآن وفي هذا دلالة على كمال عقولهم وهو يقتضي التكليف وقد تقدم أن الجن مخلوقات عاقلة مريدة مختارة عندها القدرة على التمييز بين الحق والباطل[2].

ج- ما يتضمن التصريح بإرسال الرسل إليهم:

[1] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص180.

[2] عبيدات، المرجع نفسه، ص 180.

قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام:13].

ففي هذه الآية خطاب للجن والإنس يوم القيامة وهذا الخطاب فيه تقرير من الله في أنه قد بعث رسلاً إلى الجن والإنس: حيث يسألهم وهو أعلم بهم: هل بلَّغتهم الرسل رسالاته؟[1]

وبذلك يزول العذر وتنقطع الحجة لأي واحد من الجن والإنس إذ بعث الله رسلاً يوضحون ويأمرون بعبادة الله وينهون عن معصيته، ولا شك أن أمر الرسل ونهيهم للجن والإنس هو محض التكليف[2].

قال ابن القيم: هذه الآية تدل على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم لكن دعوة أولئك الرسل كانت مقصورة على بعض الإنس والجن، أما رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فهي عامة لجميع الإنس والجن[3].

د- ما يتضمن خطاب الجن والإنس معاً:

في سورة الرحمن، وذلك في قوله تعالى بعد الحديث عن نعمه على عباده:

[1] مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، مرجع شابق، ص 619/1.

[2] عالم الجن، عبيدات، مرجع سابق، ص 181.

[3] طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، مرجع سابق، ص 421، بتصرف.

﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:13]؛ حيث ورد هذا الخطاب في واحد وثلاثين موضـــعاً من ســـورة الرحمان وفيه خطاب للجن والإنس معاً، وفي هذه المواضع امتنان الله على عباده بهذه النعم التي لا يجحدها إلا كافر[1]. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ سورة الرحمان من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً[2] منكم، كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد[3].

قال ابن القيم: وهذا يدل على ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب وعلمهم أنهم مقصودون به[4].

هـ- ما يتضمن تحدي الثقلين بالإتيان بمثل القرآن:

وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآَنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:88].

فهو تحدٍ للإنس والجن معاً في أن يقدروا على الإتيان بمثل هذا القرآن، ولكنهم لن يســتطيعوا ذلك وتوجّه الخطاب بالتحدي للإنس والجن من دون الخلائق دليل على أنهم هم المعنيون بأمر هذا القرآن وما اشتمل عليه من أنواع الإعجاز المختلفة

---

[1] عالم الجن، عبيدات، مرجع سابق، ص 181.

[2] أي أحسن رداً.

[3] سنن الترمذي، ك التفسير، 33/9.

[4] عبيدات، عالم الجن، مرجع سابق، ص 182

وفي هذا دليل على تكليف الجن كالإنس[1].

و- ما يتضمن بشارة المؤمنين من الجن بالثواب على أعمالهم وتحذير الكافرين والعصاة منهم بالعقاب على كفرهم ومعصيتهم في الآخرة:

وقد وردت البشارة بالتحذير في مواضع متعددة من القرآن منها:

- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ۝ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف:18-19].

فقد أخبر الله في هذه الآيات أن في الجن من حق عليه القول، أي: وجب عليه العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، وفي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين، وتعلق الأمر والنهي بهم ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي في الخير والشر يوفونها ولا يظلمون شيئاً من أعمالهم فدل ذلك لا محالة على أنهم كانوا مأمورين بالشرائع متعبدين بها في الدنيا ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر[2].

- وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ

---

[1] المرجع نفسه، ص 182

[2] طريق الهجرتين، ابن القيم، مرجع سابق، ص421 بتصرف

حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:128] فهذه الآيات تتحدث عن الجن والإنس وموقفهم من بعضهم بعضاً واستذكارهم لاستمتاعهم ببعضهم في الدنيا: سواء كان بطاعة الإنس للجن فيما يأمرون به من الشهوات، أو التجاء الإنس بالجن عند النزول في واد أو فقر موحش لا إنسي به، وتلذذ الجن بهذه الطاعة من قبل الإنس، التي تشعر بسيادة الجن على الإنس[1]، فكان من نتيجة هذا الاستمتاع البعد عن طاعة الله، الذي ترتب عليه الخلود في النار كما نصت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، وفيه خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في العذاب واشتراكهم في العذاب يدل على اشتراكهم في التكليف[2]، وقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ فيه إنذار لهم بالخوف من عذاب ربهم على لسان الرسل الذين بعثوا إليهم، إذا هم تنكبوا عن الطريق ولم يمتثلوا لهذا الإنذار[3].

– وقوله تعالى في سورة سبأ إخباراً عن سليمان عليه السلام: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ:12]، ففي هذه الآية تهديد للجن بالعذاب إذا هم خالفوا أمره تعالى في

---

[1] عالم الجن، عبيدات، مرجع سابق، ص 185. التفسير الكبير، مرجع سابق، ص 191/13

[2] عالم الجن، عبيدات، المرجع السابق، ص 185.

[3] عبيدات، المرجع السابق، ص 185.

طاعة نبيه سليمان عليه السلام فيما يسخرهم به من القيام بشتى الأعمال التي يأمرهم بها، وهو يدل على تكليفهم، وإلا لما استحقوا العذاب على هذه المخالفة[1]، ومن خلال ما تقدم يتبين لنا أن الجن مكلفون بنص القرآن، وأنهم هم والإنس في ذلك سواء وأنهم سيحاسبون على هذا التكليف في الآخر، فإن أحسنوا فلهم الجنة وإن أساؤوا فالنار مثواهم جزاءً عادلاً من الله سبحانه[2].

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر:28].

نبتدئ بالنسق السياقي ثم نثني بالنسق القرآني، فأما النسق السياقي، فقد ذكر خلق الإنسان في الآية السادسة والعشرون، فكأن ما هنالك كان الإجمال والآن جاء التفصيل منذ كان الإنسان خبراً أو بشرى يبشر الله بها الكون، أو علماً يعلمه الملائكة.

وأما النسق القرآني، فتأمل آيات سورة البقرة فما أشبهها بآيات سورة الحجر، وتلك "ألم" وهذه "ألر".

- اقرأ في البقرة قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:28].

---

[1] المرجع نفسه، ص 185.

[2] عالم الجن، عبيدات، مرجع سابق، ص 188.

- واقرأ في الحجر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر:23]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر:25].

- وفي البقرة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30].

- وفي الحجر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر:28].

لكن في البقرة ذكر وظيفته، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وفي الحجر ذكر مادته وطينته: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، والوظيفة تعين قبل الموظف، فسبحان من هذا ترتيب كلماته[1]. والمعنى:

1- ﴿وَإِذْ﴾: الواو للعطف أو للاستئناف، وإذ: ظرف لما مضى من الزمان يفيد استحضار المشهد والتركيز على لقطة معينة منه، فكأنما هو شريط طويل، توقفنا عند لحظة منه أو لقطة معينة منه، فتركز الأنظار عليها.

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 197.

2- ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾: قال: فعل ماضٍ، كما هو معلوم، لكن كيف قال للملائكة وكيف أبلغهم وكيف أوصل لهم مراده لا يعلم ذلك كله إلا الله، وليس مطلوباً منا معرفة كيف يتم ذلك، فنكله إلى من أنزله سبحانه، مع يقيننا به وبحصوله، وأضاف كلمة الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم وهو ضمير المخاطب كما يقول في مثله دوماً للتكريم والتشريف والتلطف أي:

- ربك الذي يتعهدك.
- ربك الذي يربيك.
- ربك الذي يعلمك.
- ربك الذي يحفظك.
- ربك الذي يزكيك.
- ربك الذي يرفع شأنك[1].

3- ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾: الجماعة منهم أم لجميعهم؟

لا يعلم ذلك إلا الله ولكن ظاهر اللفظ يوحي بالعموم، أم هذا العموم الظاهري مخصوص بخصوص الملائكة الذين لهم عمل مع هذا المخلوق سواء كان بتسجيل عمله، أم الإيحاء بالحسنى له، أم بتأييده وتثبيته ونصرته ببث اليقين في

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص198.

القلب في مواطن البأس والشدة والاشتباك، أم الملائكة تستلم أمانة الروح عند نهاية الأجل؟

كل ذلك محتمل ونكله في تحديده وتعيينه إلى صاحب العلم المطلق سبحانه وتعالى الأجلّ. والعموم والخصوص حديث يطول، أقصد لفظ الملائكة بين العموم والخصوص فقد عبر الله عنهم في قصة مريم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾؛ فاللفظ عام ولكنه قطعاً مقصود به الخصوص، أي من نزل على مريم، وقد يكون واحداً أو جماعة صغيرة والله أعلم. وعلم ذلك كله إلى العليم الخبير[1].

4- ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا﴾: هذا أمر قد بُت، وهذه كلمات لتعلموا فقط، وإن للتوكيد والياء ضمير المتكلم سبحانه بالإفراد، وهو هنا أليق.

﴿خَالِقٌ﴾: موجد منشئ والخالق من أسمائه سبحانه، وهو سبحانه خالق كل شيء بمعنى موجده في العدم وعلى غير مثال سابق.

﴿بَشَرًا﴾: مفعول به لاسم الفاعل والبشر من أسماء النوع الإنساني، ومن أي شيء تم اشتقاقه؟

أمن الشر أم من البشارة إذ هي التي يعرف بها وهي التي تظهر منه، أم لا من هذا ولا هذا؟ كل ذلك محتمل.

[1] نوفل، المرجع نفسه، ص198.

5- ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾: حدد في هذه الآية كما في السابقة الآية "26" أن مادته خلقه من الصلصال، والصلصال هو الطين إذ يجف فيصبح كالفخار له صليل إذ دُق عليه.

وهذا الصلصال ﴿مِنْ حَمَإٍ﴾: أي من طين أسود كطين المستنقعات أو هو منه وللباري الجليل حكمة في هذا الإيجاد من هذه المواد.

﴿مَسْنُونٍ﴾ والذي يظهر لي أن مسنون إما من قولنا مرت عليه سنون أو من حمأ متأسن أي غير متغير، من طول ما مرت عليه السنون والله أعلم.

" وقالوا في التفاسير لا في اللغة، مسنون: مصور"

والبشر: مرادف الإنس، أي إني خالق إنساناً وقد فهم الملائكة الحقيقة بما ألقى الله فيهم من العلم، أو أن الله وصف لهم حقيقة الإنسان بالمعنى الذي عبر عنه في القرآن بالعبارة الجامعة لذلك المعنى.

وإنما ذكر للملائكة المادة التي منها خلق البشر ليعلموا أن شرف الموجودات بمزاياها لا بمادة تركيبها[1]. وأما كيف ارتقى هذا الطين من طبيعته العنصرية المعروفة إلى أفق الحياة العضوية أولاً، وإلى أفق الحياة الإنسانية أخيراً؟ فهنا السر الذي يعجز عن تحليله البشر أجمعون.

وما يزال سر الحياة في الخلية الأولى خافياً لا يزعم أحد أنه اهتدى إليه، وما

---

[1] التحرير والتنوير نقلاً عن تفسير سورة الحجر، ابن عاشور، مرجع سابق، ص 200

تزال النظريات تتخبط حوله، ولا تملك الآن أن تنكر تفرد الإنسان بخصائصه منذ نشأته كما لا تملك أن تنبثق الصلة المباشرة بينه وبين أي كائن قبله[1].

ومن الدروس المستفادة من الآية الكريمة:

أ-أن يكرر مولانا مادة خلقنا 3 مرات: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، لا ليخجلنا من هذا الأصل، بل لنعتز بالدين الذي رفعنا من الحمأ المسنون إلى أعلى الدرجات في الرفعة بحيث أسجد لنا الملائكة المقربين والملائكة أجمعين.

ب-إعلام الله للملائكة إخبار، لا كما قال بعض نقلة الأخبار أن المولى استشار، فمن يستشير، علمه يعتريه نقص وهذا طبع[2].

رابعاً: قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر:29،30].

وقصة هذا المخلوق المكرم مستمرة وهذه مسألة أخرى تتعلق به أو بأمر إلهي آخر بشأنه، فهو يخبر الملائكة أنهم وبمجرد أن تدب الحياة في هذا المخلوق عليهم أن يقعوا له ساجدين، اعترافاً بقدره وشأنه عند الله[3].

1- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾: الفاء تفريعية على ما سبق، وإذا: شرط وفعله سويته، ومعنى التسوية الخلق المستوي أو المسوّى أيّ المعتدل المقوم المخلوق أتم خلقه

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 200.

[2] نوفل، المرجع السابق، ص 201.

[3] المرجع نفسه، ص 202.

وأحسن خلقه، أي أصبح الجسم يحتوي بين جنباته المكونات الأساسية لاستمرار وجوده في هذه الحياة، فهو يمتلك كافة الأجهزة الحيوية التي تحافظ على حياته مثل أجهزة الهضم والتنفس، والجهاز الدموي والبولي والعصبي وغيرها والتي تعمل على استمرار حياته وعيشه ووجوده على سطح هذه الأرض، وجميع هذه الأجهزة تعمل بدقة لا متناهية وبنظام عجيب ومعجز، وما يزال العلماء يكتشفون كل يوم معلومات جديدة عن عمل هذه الأجهزة وارتباطها بجميع خلايا الجسم وما يزال البحث في علوم الطب الحديث مستمراً لاكتشاف أسرار هذا الجسد ومتابعة الأمراض التي تصيبه ومن ثم اكتشاف الأدوية المناسبة لعلاجها، وكما ذكرنا بأن هذا الجسد مخلوق من تراب وماء أي "طين" فهو يأخذ خاصية الطين اللينة والضعيفة التي خلق منها.

فمهما كان الجسم قوياً فلا يستطيع أن يتحمل أي أذى يتعرض له لأن الطين لين ولا يستطيع المقاومة، حيث تقوم هذه النباتات بسحب العناصر الأساسية من التربة وتقوم باستقبالها وطبعاً بوجود الماء، ومن ثم تحويلها إلى مواد بروتينية وسكرية وفيتامينات ومعادن وغيرها على شكل عناصر مفيدة لتصبح في النهاية غذاءً كاملاً متمثلاً بجميع أنواع الحبوب والبقول والخضار والفواكه، يتناولها الإنسان والحيوان على حد سواء.

وكذلك يتناول الإنسان لحوم بعض الحيوانات التي تتغذى على النباتات حصراً مثل الأغنام والأبقار والدواجن، أما الحيوانات التي تتغذى على لحومات حيوانات

أخرى فهي ضـــارة جداً، ولذلك هي محرّمة مثل ذات الأنياب والمخالب، لتكون اللحوم الحلال هي مرحلة غذائية مركبة وأعلى قيمة بالســعرات الحرارية والفوائد الأخرى.

فمكونات هذا الجسد جميعها مستندة على مكونات الطين، وعناصر تكوينه هي نفسها عناصر تكوين التراب والماء[1].

ولاستمرار حياته وتكاثره جعل الله فيه شـهوة البطن لتناول الطعام والشـراب وذلك لاستمرار "العيش"، وشـهوة الفرج للتزاوج وإنجاب الذرية وذلك لاستمرار "النسل"، وهاتان الشهوتان يشترك معه فيهما الحيوان لأنه أيضاً خلق من التراب، كما أن الجسم لا يملك أي سلاح يدافع فيه عن نفسه، فلا توجد له مخالب ولا أنياب ولا إبر ولا سموم، فقط جسم تكسوه البشـرة الرقيقة اللينة وتؤذيه شـوكة صغيرة.

فهذا الجسد الضعيف دائماً يكون عرضة للأمراض وهدفاً سهلاً لجميع أعدائه من أصــغر وأحقر المخلوقات مثل الفيروســات والجراثيم، وأعتاها مثل الذئاب والضباع وغيرها وعلى رأس هؤلاء الأعداء إبليس اللعين.

فالعقل هو الجهاز الوحيد في الجســد الذي يتولى حماية الجســد، وذلك بعد النفخ فيه بالروح والعناية به والدفاع عنه في جميع الأحوال، فهو يوجهه لحماية نفسه من الخطر واتخاذ الأساليب المناسبة للدفاع عن نفسه في جميع الأخطار التي

[1] تفاحة آدم، بشير جهد الله، مرجع سابق، ص121

يمكن أن يتعرض لها.

والجسد مطيع للعقل إلا في حالة واحدة فقط وهي غياب هذا العقل، فعند غيابه يصبح الجسد هائماً على وجهه متخبطاً يقوم بتصرفات عشوائية لا يعلم أي شيء لأنه فقد عقله الذي يسيره ويرشده فيدعى عند ذلك "مجنون"، فيصبح الإنسان بلا عقل، منبوذاً من المجتمع وبلا أي قيمة، فالجسد بلا عقل مثل السيارة بلا سائق تسير بجميع مكوناتها إلى الهاوية[1]. وإن العقل يقود الجسد بطريقتين:

الأولى: يقود العقل البشري الباطن الحركات اللاإرادية عند الإنسان مثل حركات القلب والتنفس والأمعاء وجميع الحركات الانفعالية التي تحدث بشكل مفاجئ عند حدوث أي خطر يهدد الجسد، وهذه الحركات جميعا مسيرة وليس للعقل الظاهر للإنسان أي تحكم أو إرادة فيها.

ويكون مصدر هذه الحركات هي معلومات مخزنة في العقل الباطن للإنسان منذ الولادة، وهذه المعلومات أساسية ولا يمكن الاقتراب منها والمساس بها، لأنها تعتبر معلومات مبرمجة مسبقاً وأساسية في العقل البشري وأي خلل فيها يؤدي إلى الهلاك مثل توقف القلب أو التنفس، وتكون على الأغلب متمركزة في المخيخ وهي تشبه الذاكرة الأساسية الموجودة في الجوال والتي يطلق عليها في المصطلح الحديث اسم "معلومات ضبط المصنع".

والثانية: يقود العقل البشري الظاهر الحركات الإرادية عند الإنسان وهي

---

[1] تفاحة آدم، بشير جهد الله، مرجع سابق، ص 121

الحركات التي يتحكم بها العقل كيفما شاء، مثل حركات الأطراف واللسان والعين أي التحكم بحركات الأرجل والأيدي والكلام وغيرها من الحركات الإرادية، والتي يقوم بها لأداء جميع مهماته والقيام بأعماله في هذه الحياة ولذلك يكون العقل هو المسؤول مسؤولية كاملة عن أي حركة أو سكون لهذه الأعضاء لأنه يمتلك كامل الحرية والاختبار في التحكم بحركة هذه الأعضاء وسيحاسب عليها إن كان بالخير أو بالشر[1]، هذا بعض ما وصل إليه العلم الحديث فيما يتعلق بالجسد وقيادة العقل له، وهذا لا شك بعد نفخ الروح بالجسم.

إن التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾: يشير إلى التسوية: أي تعديل ذات الشيء وقد أطلقت هنا على اعتدال العناصر فيه واكتمالها بحيث صارت قابلة للنفخ، كما أن التعبير بالتسوية ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ يدل على تعديل الصورة وإتمام الخلق ونفخ الروح، وبإذن الله تعالى صار الإنسان بشراً سوياً[2].

إن التسوية تعني جعل الشيء صالحاً للمهمة التي تُراد له، وشاء سبحانه أن يُسوى الإنسان في صورة تسمح لنفخ الروح فيه، والنفخ من روح الله لا يعني أن النفخ بدفع الحياة عن طريق الهواء في فم آدم، ولكن الأمر تمثيل لانتشار الروح في جميع أجزاء الجسد[3].

---

[1] تفاحة آدم، بشير جهد الله، مرجع سابق، ص 122.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص205

[3] تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ص 7694/12

2- ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾:

نفخت فيه من روحي: لا يعلم هذه الكيفية إلا الله، أي بثثت فيه الروح: التي هي سـر الحياة والتي لا يعلم شـأنها إلا من خلقها، فهي من عالم الغيب وهي الجزء المهم من هذا الإنسان وهي التي أعطته القيمة والكرامة، فنفخة الروح سبب الحياة وسرها، وكم من أمر لا يعلمه البشر ولكنهم يؤمنون به، فالكهرباء حتى الآن ما زالت طلسماً، أفلا يؤمن بها البشر؟

وكيف لا وجل حياتهم وآلاتهم وأجهزتهم مرتبطة بها أو قائمة عليها ولم يمنع البشـر عدم فهمهم لماهية الكهرباء أن ينتفعوا بها، ولا يقول أحد منهم أقنعني بالكهرباء، وأنها موجودة[1].

إن كرامة الإنسان بنفخة الروح لا من قبضة الطين فسميت قبضة الطين بنفخة الروح، والدين هو روح الروح وحياتها فكانت الكرامة لهذا الإنسان بأمرين:

- بالروح.
- وروح الروح فتأمل[2].

1- ﴿مِنْ رُوحِي﴾: بيانية، وليست تبعيضية:

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 203

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 206

حرف الجر "من" في قوله: ﴿مِنْ رُوحِي﴾ للبيان وليس للتبعيض ولا يمكن أن تكون "مِنْ" تبعيضية لأن هذا يتعارض مع العقيدة الإسلامية الواضحة، فالله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير له صفات الكمال والجلال والعظمة.

وهو الخالق لكل شيء وما سواه مخلوق، وهذا معناه أن الروح التي نفخها الله في آدم مخلوقة، هو الذي خلقها سبحانه وهذا معناه أن هذه الروح المخلوقة ليست "جزءاً" من ذات الله سبحانه، وهذا معنى قولنا: يستحيل في العقيدة أن تكون "مِنْ" تبعيضية، لأنها لو كانت كذلك لكانت هذه الروح التي في آدم قطعة من روح الله وجزءاً وقسماً من روح الله، اقتطعه الله من ذاته وجعله في جسم آدم، فالذي في آدم جزءٌ من الله. وهل "ذات الله" سبحانه يمكن أن تتجزأ وتتبعّض وتنقسم ليدخل في جسم آدم جزء منها؟

إن هذا مرفوض عقلاً ومتعارض مع عقيدتنا الإسلامية الصافية[1]. ولذا نقول: إنَّ "مِنْ" في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ بيانية، وهي تبين أن الروح التي جعلها الله في آدم من عنده هو، أي هو الذي خلقها والذي نفخها في آدم، ولذا أضاف تلك الروح إليه: ﴿مِنْ رُوحِي﴾ وهذه إضافة لتكريم تلك الروح وهي كإضافة ناقة صالح عليه السلام: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ﴾ [الأعراف:73]، وكإضافة

[1] سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 51

البيت المحرّم – الكعبة – إلى الله في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾[إبراهيم:37]، وقد أخطأ النصارى في نظرتهم إلى الروح التي نفخها الله في فرج مريم عليها السلام، فخلق منها عيسى حيث اعتبروا هذه الروح جزءاً من روح الله، أي أن حرف "مِنْ" في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم:12] تبعيضية، وذلك بأن أعطى الله جبريل "قطعة" من روحه منفصلة عنه، وأمره أن ينفخها في مريم فكان منها عيسى، أي الروح التي في عيسى عليه السلام جزء من روح الله ولهذا اعتبره النصارى ابن الله.

إن الروح التي نفخها الله في آدم مخلوقة، خلقها الله وهي من عند الله، والروح التي خلق الله بها عيسى عليه السلام في رحم أمه مخلوقة من عند الله، وحرف الجرّ "مِنْ" من الموضعين للبيان وليس للتبعيض، وهذه الروح التي خلق الله بها آدم أبا البشر هي الروح التي يخلق بها ذريته في بطون أمهاتهم وهذه الروح سرّ غيبي، لا يعلم كيفيتها ولا كنهها ولا ماهيتها إلا الذي خلقها، استأثر بالعلم بها وحجب هذا العلم عن خلقه[1].

وقد تحدثنا بالتفصيل في قصة آدم عليه السلام في سورة الأعراف عن ماهية الروح وجوهرها، ونفخ الروح بكيفية لا ندريها ولا نعرف كنهها، وعن استحالة

---

[1] الروح، ابن القيم، ص 268. علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص 49

معرفة حقيقة الروح، وبيان الدلائل عن خلق الأرواح وغير ذلك في هذا الكتاب فمن أراد التوسع فليرجع إليها.

2- ورود كلمة الروح في القرآن الكريم:

وردت كلمة "روح" في القرآن الكريم في عدة آيات، وتعاقبت بمعانٍ مختلفة حسب موقعها من الآيات التالية:

- قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة:87].

- وفي قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل:2]، وردت بمعنى الوحي مطلقاً.

- وفي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:22]، قال ابن عباس: نصرهم على عدوهم، وسمي ذلك النصر روحاً لأن به يحيا أمرهم[1].

- وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر:29].

---

[1] زاد المسير، ابن الجوزي، مرجع سابق، ص 200/8

وسمى الله تعالى عيسى عليه السلام: "روحاً منه"، وقد بينا بأنها روح مخلوقاته، و"من" بيانية، وليست تبعيضية.

يتبين من خلال سردنا أن الآيات الكريمة تعرضت للروح كفعل وكقدرة، وليس كماهية. وبعبارة أوضح، لم تتعرض لطبيعة الروح، وللمادة المكونة لها، وهل هي عضو من الأعضاء أم تيار نوراني يسكن الجسم، ولعل هذه أعظم ميزة للإسلام إذ حسم في هذا الإشكال الكبير، وذلك بكل بساطة، لأن الروح من عالم الأمر وليست من عالم الخلق، أي أنها ليست خاضعة لمقاييس المادة المحسوسة، فهي تنفلت من قبضة يد الباحث الإنساني المادية، بخلاف عالم الخلق، فهو كل ما يمكن أن يدركه علم البشر، وهو الذي زوده الله تعالى بملكاته وبالأدوات اللازمة لإدراكه[1].

وتبقى الآية الخامسة والثمانون من سورة الإسراء هي مرجع كل علماء المسلمين، حين يسألون عن الروح وعن ماهيتها وعن طبيعة تكوينها، يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:85]؛ أيّ يسألك الكفار يا محمد عن الروح ما هي؟ وما حقيقتها؟ فقل لهم: إنها من الأسرار الخفية التي لا يعلمها إلا رب العالمين[2].

---

[1] العلاج النفسي وخطورة المنطلق، إدريس الوزاني، ص 228.

[2] صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ص 109/2.

فوضعت الآية حداً لعلماء المسلمين وللمسلمين عموماً بعدم الخوض في ماهية الروح وحقيقتها التكوينية واهتموا على الخصوص بتقصي المجالات التي تتجلى فيها كقدرة وكفعل[1].

يقول الدكتور إدريس عبد السلام الوزاني: البحث في موضوع الروح ليس من قبيل الترف الفكري أو التحليق الفلسفي، هذا الموضوع يهمّ الإنسان في أعمق وأخطر جانب يخصه وهو مصيره، والتفسيرات التي أتينا بها لعلماء مسلمين كلها تدلنا على أن الروح تمثل حلقة الوصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة، أيّ بين مقومات الإيمان والعقيدة وبين الحياة بهذه الحقائق وعلى ضوئها. وبمعنى أبسط فإن مفهوم الروح من منظور إسلامي يتطرق لفعلها وللإحساس بنتائج هذا الفعل، مختصراً بذلك الطريق على المسلم كي لا يستهلك وقته الثمين والقصير في تحليقات عقيمة تحوم حول ذاته وحول عالم الخلق، فعالم الأمر كما بينه علماؤنا لا يخضع للتجريب أو القياس[2].

3- الروح ورفعة الإنسان وأهم المظاهر الروحية له:

إن الروح هي التي رفعت مستوى هذا الإنسان إلى مقام التميز على مخلوقات الله الحية على ظهر هذا الكوكب، حيث خلقه سبحانه بيده ونفخ فيه من روحه

---

[1] العلاج النفسي وخطورة المنطلق، الوزاني، مرجع سابق، ص 229.

[2] العلاج النفسي وخطورة المنطلق، الوزاني، مرجع سابق، ص 233.

وأسـجد له ملائكته وفضـله على جميع مخلوقاته تفضـيلاً، وجعل من ذريته الأنبياء والمرسلين والشهداء والصديقين والصالحين وجعل من هؤلاء خلفاء في الأرض.

والروح هي محل الإيمان وقيم الخير والصـلاح التي تحدد إنسـانية الإنسـان عن غيره من المخلوقات، ويعتبر عنصر الروح هو العنصر الذي يوجه الإنسان إلى الله، فيحل الخير في الأرض ابتغاء مرضـات الله، سـداً لحاجته الروحية التي لا يمكن إشباعها إلا بفعل الطاعات المأمور بها في ميزان الشرع الحنيف واجتناب المنكرات المنهي عنها في شـريعة الله ليحافظ على خيريته وصـلاحه الفطري والمكتسـب، فالتسـامي الروحي هو من نتائج التوجه لفعل الخير، وينال به الإنسـان السعادة في الدنيا والآخرة معاً.

فالطبيعة الإنسـانية طبيعة مزدوجة، وتشـتمل على العنصـر المادي والعنصـر الروحي، فالشهوات والغضب لدى الإنسان تدفعه للشر والفساد، والعقل والروح عبارة عن ضوابط وموجهات لكل سلوك يصدر عنه، وهذا بمثابة التوازن في الطبيعة البشـرية والمكون من الجسـد والروح دون غيرها من طبائع المخلوقات الأخرى، كالملائكة في عالم الروح الخالص، والحيوان الشـهواني المفرط في الشـهوات بحكم غريزته الحيوانية، فالإنسان مخلوق تشده الأشواق الروحية إلى أعلى وتجذبه الشهوات الجسمية إلى أسفل[1]، ولكي يكون الإنسان جامعاً بين معطيات الجسم ومعطيات

[1] الإنسان الصالح، علي الغامدي، ص 247

الروح في الخير والتفاعل الحضـــاري، فلا بد من العمل للدنيا والآخرة في توازن معتدل يلبي مطالبه الروحية ومطالبه المادية باعتبارها وحدة إنســانية فيها الجســد والروح، والعقل يستطيع أن يحقق هدف التربية الإسـلامية المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِــيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِــنْ كَمَا أَحْسَــنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَــادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِــدِينَ﴾ [القصص:77][1].

إن الروح: هي لطيفة مخلوقة لله لا يعرف كنهها إلا خالقها، تنتشــر في جميع أجزاء الجسد فتكسبه الحياة والوعي والشعور بما حوله، لها صورة نورانية، تستمد حياتها من خالقها العظيم سبحانه وتعالى. وأصلها خير فهي تسر بطاعة الله وذكره وتسعد صاحبها الذي يعمل الخير ويلزمه ويأمر به وينشر غذائها من تعاليم ربها وهدي رسـله، ولها صـفات تميزها فيها مادة الحياة وتتصـف بالإدراك والبصـيرة والشعور بالارتقاء والحاجة إلى الله، ولها حكم البقاء[2]، قال ابن القيم:

ثمانية حكم البقاء يعمُّها ... من الخلق والباقون في حيز

هي العشر والكرسي نار ... وعـــــجب وأرواح كذا اللوح [3]

[1] الغامدي، المرجع السابق، ص 247.

[2] المرجع نفسه، ص 250.

[3] الإنسان الصالح، الغامدي، مرجع سابق، ص 250.

ومن أهم مظاهر الحياة الروحية:

4- العيش في واحة الأسماء الحسنى وظلالها الوارفة:

إن معرفة أسماء الله ومعرفة صفاتها وإحصاءها وترديدها على اللسان ودعاؤه بها، يكسب الإنسان اتصالاً بالله وذكراً وثناءً عليه سبحانه، كما أن التأمل بعظمة قدرته وأفعاله ومخلوقاته ودقة صنعه وإبداع خلقه ودقة علمه الذي يسري إلى كل جزء من أجزاء الكون، وفي أعماق نفس الإنسان[1] يعد مظهراً من أهم مظاهر الحياة الروحية، قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:59،60].

فإذا علم الإنسان سعة علم الله وأنّ الله يعلم السر وما تخفي الصدور، وأنه يعلم ما كان وما لم يكن، زاد خشية وتقديساً وإجلالاً لله وتسبيحاً بعظمته سبحانه وإذا علم الإنسان أن لله بصراً يراه، وسمعاً يسمعه، فإنَّ ذلك يكسبه مراقبة لله، فلا يسمع الله إلا خير ولا يفعل الشر خشية أن يراه خالقه عليه، فإن عاش مع الله فإنّ ضميره يحيا وحيائه منه يزيد، فيدفعه إلى فعل الجميل وترك القبيح كما أن معرفته لله بأسمائه

[1] فلسفة الحياة الروحية، مقداد يلجن، ص. ص 45 – 46.

وصفاته يتحقق بها السير الصحيح إلى الله ويوصل إلى الاستقرار الروحي والسلامة من الخواء الروحي الذي يورث الشقاء والقلق ويحرم الإنسان من الطمأنينة واليقين الذي يحمي من الشك والاضطراب[1].

5– التأمل العقلي في مخلوقات الله المبثوثة في الكون الفسيح:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة :164].

وبهذا التأمل تكتسب الروح قرباً من ربها فيتذكر الإنسان خالقه قائماً وقاعداً في كل أحواله فيلهج لسانه بعد أن يعرف هدف التأمل والنظر في مخلوقاته، وهو الوصول إلى تسبيحه والاعتراف بحكمة الله في الخلق فقال تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران:191].

– أداء شعائر العبادات: العبادات حق لله على الإنسان يؤديها لخالقه خالصة متبعاً رسول الله في صفتها وكيفية أدائها، وحين يتصل الإنسان بخالقه وتقوى علاقة العبودية بينه وبين الله، فإن الروح تسمو وتتزكى ويظهر صفاؤها الفطري فينعكس ذلك على الإنسان شعوراً بالرضا وسعادة تملأ النفس وواقعاً في الرغبة في

---

[1] الإنسان الصالح، الغامدي، مرجع سابق، ص 252

الإكثار من العبادات والاستزادة من الخير ليتحقق للروح غذاؤها الكامل، ولحاجة الإنسان المستمرة إلى الطاقة الروحية فقد تنوعت العبادات المأمور بها من الله فالصلاة عبادة مستمرة طوال الحياة شعيرة تغذي روح مؤديها والصوم والزكاة والحج والذكر كلها عبادات الشعائر يحتاجها الإنسان لتكسبه التوازن الروحي والاستعلاء على الشهوات وتمده بالطاقة الروحية التي تجعله فاعلاً في أداء رسالته في الحياة باقتدار[1].

– تبني الخير والمشاركة في فعله: الخير هوية الصالحين وميدانهم الذي يتسابقون فيه ووسيلة لابتهاج الروح وانشراح النفس، والروح تسمو بعمل الفضائل وتجنب الرذائل وتوجه الإنسان نحو طريق الله ورضاه ومنهجه الذي ارتضاه سبحانه وتعالى.

– استغفار الله ودعائه ودوام ذكره: فالاستغفار هو الذكر الذي يعيد للإنسان توازنه الروحي بعد الزلة والخطيئة وقد رأينا ذلك في قصة أبينا آدم عليه السلام، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أهمية الاستغفار من الذنوب والمعاصي والخطايا، فقال صلى الله عليه وسلم: من لزم الاستغفار جعل الله لهم من كل همّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب[2].

---

[1] الإنسان الصالح، الغامدي، مرجع سابق، ص 252.

[2] مسند أحمد، رقم 2234.

فبالاستغفار يحصل الإنسان على مغفرة الله وعفوه وأمنه، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء:110]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:33].

إن مُلازَمة الاستغفار والدعاء ودوام الذكر من أهم العبادات في تقوية الروح، والطاقة الروحية في الإنسان هي أكبر طاقاته وأعظمها وأشدها اتصالاً بحقائق الوجود، وطاقة الجسم محددة بما تدركه الحواس، أمّا طاقة العقل فهي أكثر طلاقة لكنها محدودة بالزمان والمكان، أما طاقة الروح فلا تعرف الحدود والقيود وهي وحدها تملك الاتصال بالله عز وجل[1].

وأما عبادة الدعاء فهي تصل الروح بخالقها وتلبي لديها الحاجة في طلب العلو والالتجاء إلى الله القوي العزيز وخير الدعاء ما كان بأسماء الله الحسنى[2]، وقد ذكر الله عز وجل في حديثه عن قصة آدم عليه السلام مجموعة من أسمائه الحسنى وعلاقته بالإنسان والكون ومخلوقات الله عز وجل وكيف تعامل معها آدم عليه السلام، كالرب، والعليم والحكيم، والتواب، والرحيم، سبحانه وتعالى.

إن شفافية الروح وانطلاقها نحو خالقها تجعل من الإنسان عبداً صالحاً متأملاً متفكراً متدبراً في آيات الله المنظورة وآياته المتلوة في كتابه العزيز متأثراً بدلالاتها

[1] الإنسان الصالح، الغامدي، مرجع سابق، ص 253.

ومعانيها، فتثمر في ذلك العبد المتأمل إيمان وخشـــية لله عز وجل، فعن جبير بن مطعم قال: سمعت النبي صـلى الله عليه وسـلم يقرأ في المغرب بالطور فلما قرأ هذا الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ [الطور:35-37] كاد قلبي أن يطير[1].

ومن صـور التأثر بآيات الله الكونية بعد القراءة والتأمل والتفكر صـورة رسـول الله صلى الله عليه وسلم عندما فاضت عيناه بالبكاء متأثراً بآيات الله الكونية، فعن عائشـة رضـي الله عنها قالت: أقام رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فتطهّر ثم قام يصـلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: وكان جالسـاً فلم يزل يبكي صـلى الله عليه وسـلم حتى بلَّ لحيته، قالت: ثم بكى حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصـلاة فلما رآه يبكي قال: يا رسـول الله تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، قال: أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد نزلت عليّ الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُـــبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:190-191][2].

---

[1] متفق عليه في الصحيحين، رقم 572.

[2] موارد الظمآن لدروس الزمان، عبد العزيز المحمد السـلمان، ص 139. وانظر: سـلسـلة الأحاديث الصـحيحة، الألباني، رقم

إن الانقطاع عن ذكر الله يسبّب للمسلم جفافاً روحياً، وذكر الله يروي هذا الجفاف ويتسامى بالروح نحو خالقها ودوام ذكر الله والإكثار منه من الأمور المأمور بها شرعاً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:41،42]، فالذكر غذاء روحي وزاد يزكيها ويدفع صاحبها إلى السلوك الفاضل، كما أنه يعطي الفرد صحة نفسية نتيجة الإشباع الروحي بذكر الله، فوجهت السنة على لسان صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام إلى دعاء زوال الهم والغم والحزن كما جاء في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول عن الكرب: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله الا الله رب العرش العظيم، لا إله الا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم[1].

إن الاهتمام بالتربية الروحية تعني رعاية الروح وتعهدها بالبرامج الأصيلة التي تحافظ على نقائها الفطري، وذلك عن طريق العيش مع كتاب الله قراءة وتدبراً وعملاً بما جاء فيه، والاقتداء بما ثبت عن رسول الله من أعمال وأفعال والعمل بما أمر به من أوامر واجتناب ما نهى عنه، واتباع ما أقره عليه الصلاة والسلام في رضى تام وتسليم مطلق وانشراح عظيم[2].

.68

[1] صحيح الكلم الطيب، ابن تيمية، تحقيق الألباني رقم127.

[2] الإنسان الصالح، الغامدي، مرجع سابق، ص 256.

إن سمو الروح من أهم الوسائل في الارتقاء بإنسانية الإنسان والتي تكوّن معيناً وزاداً معنوياً لأداء رسالته المناطة به في الأرض[1] وتحقيق أشواقه الروحية في عبادة خالقه العظيم.

إن التوازن في طبيعة الإنسان المادية والروحية وسيلة عليا للارتقاء بإنسانية الإنسان والعبودية في مراتب الغطاء الديني والدنيوي لتكون صلته بالأرض وعمارتها وصلته بالسماء متوازنة لا يطغى جانب على جانب ولا يتفضل أحد المزيجين عن الآخر. وإنما التوازن بين خصائص الطين وبين النفحة الربانية في الإنسان[2].

3- ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾: معناه خروا له ساجدين، سجود تحية وتكرمة لا سجود عبادة وصلاة فالعبادة لله وحده لا شريك له[3] وفي أمرهم بالوقوع أي: السقوط، دليل على أن المأمور به ليس مجرد الانحناء كما قيل، بل السجود بالمعنى المتبادر استجابة لأمر الله فهو في الحقيقة عبادة لله[4]، والآية تبين: أن عملية السجود قد حدثت بصورة مباشرة وحاسمة وسريعة وكان سجودهم هو طاعة لله، لا طاعة لآدم[5].

---

[1] الغامدي، المرجع السابق، ص 257.

[2] المرجع نفسه، 258.

[3] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 4085/8.

[4] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 375/4

[5] تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ص 7695/12

4- ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر:30]

آخر كلمة في الآية السابقة "ساجدين"، وأول كلمة هنا "فسجد" فالخيط متصل ولا قطع ثم النسق على الأتم، والحمد لله أن جعل الله كلامه نسقاً مفيدا وكتابه عزيزاً مجيداً. والأولى مفتتحة بالفاء، وهذه كذلك.

المعنى: فسجد: الفاء تفيد التعقيب والمسارعة، لقد صدر الأمر في الآية السابقة وسارع الملائكة للتنفيذ كما في هذه الآية، بالفاء المفيدة والتعقيب. والسجود هيئة معلومة لا تعوز إلى بيان، وهي وضع الجبهة على الأرض امتثالاً لأمر الله.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾: والملائكة تحتمل المأمور منهم، والأولى والأمثل أن يكون الأمر للملائكة بأجمعهم وليس فئة منهم كما يرى العلامة الشعراوي إذ يقول إن "العالين" من الملائكة الذين لم يسجدوا، ويفسر قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي من هؤلاء، ولا دليل عليه والنص لا يساعد على هذا الفهم.

والأولى من الأقوال أقوى وأدعى للامتثال، فنقف عند المتبادر من النص والذي يساعد عليه التوكيد أجمعون، ولا استثناء فلم نستثني؟

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾. فنفذ الملائكة أمر ربهم بالوقوع ساجدين، ولم يقل فوقع الملائكة ساجدين، لأن معنى "فَسَجَدَ" تنفيذ الأمر كما صدر لا أنهم

اختلفوا عن الأمر أو خالفوه معاذ الله، ولفظ الملائكة عام كما أسلفنا فليبق على عمومه كما أطلقه الله. وقوله ﴿كُلُّهُمْ﴾. تفيد العموم كذلك[1].

قال السعدي: تأكيد بعد تأكيد ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد وذلك تعظيماً لأمر الله وإكراماً لآدم حيث إنه علّم مالم يعلم[2].

قال الشوكاني: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾. أخبر سبحانه بأن الملائكة سجدوا جميعاً عند أمر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخ، قال المبرّز قوله: ﴿كُلُّهُمْ﴾. أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد، وقوله: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ توكيد بعد توكيد، ورجّح هذا النيسابوري بالقول: وذلك لأن "أجمع" معرفه فلا يقع حالاً، ولو صح أن يكون حالاً لكان منتصباً[3].

وقد يصدق أن يقال كلا اللفظين ﴿كُلُّهُمْ﴾، ﴿أَجْمَعُونَ﴾ يفيد التأكيد، ولكن هذا لا يعني أنهما مترادفان في التأكيد فيقال فيهما توكيد بعد توكيد وإنما لكل منهما تأكيده الخاص وجهته المنفردة.

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 208

[2] نوفل، المرجع نفسه، ص 208

[3] تفسير فتح القدير، الشوكاني، ص 157/3

- فلفظ (كل) في صـــوره المختلفة يدل على الإحاطة والشـــمول، يقال تكلله أي أحاط به الإكليل، والتاج سمي بذلك لإحاطته بالرأس وإكليل الظفر ما أحاط به اللحم.

- أما لفظ (أجمع) فيدل على الضم والاجتماع.

- ولهذا الفرق بينهما يقول: حضـــر القوم كلهم تريد الدلالة على الإحاطة والشمول في الإفراد أي لم يتخلف واحد منهم.

وتقول حضـــروا (أجمعون) تريد الدلالة على الاجتماع في الأفعال أي لم يتأخر واحد منهم.

- فيكون الأول تأكيد لمعنى الوحدة في الفاعل، والثاني تأكيداً لمعنى الوحدة في الفعل، ويكون ذكرهما معاً في الآية الكريمة لإحكام البيان في صـــفة الســـجود وهيئته ليدل بالأول على عموم الامتثال ﴿كُلُّهُمْ﴾ وبالثاني ﴿أَجْمَعُونَ﴾ على سرعة الاستجابة وبهذا يكون التأكيد بـــ (كل) لإفادة العدد العديد إذا صار فرداً واحداً في امتثال الفعل، ويكون التأكيد بـــ (أجمع) لإفادة أن العديد صار فرداً واحداً في حركة الفعل[1].

وقد ســئل المبرد عن اجتماع اللفظين في الآية فقال: لو قال فســجد الملائكة

---

[1] النور المبين في تدبر آيات القرآن الكريم، زين محمد شحاته، ص 674/1

احتمل أن يكون سجد بعضهم، فلما قال (كلهم) زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا، ثم بعد ذلك بقي احتمال آخر وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد منهم في وقت آخر، فلما قال (أجمعون) ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة[1] في وقت واحد.

ومن الدروس المستفادة في الآية:

- هذا السجود أدل دلائل التكريم، فكيف يُنكر الإنسان كرامته إذ ينكر عالم الغيب، وما مصلحته في هذا الإنكار؟

- من يخدعون الناس بدعوى الإلحاد يخدعونهم عن عزتهم وكرامتهم وإنسانيتهم.

- الاختيار بين الايمان والهدى أو الضلال والشرود يُبنى عليه إما خلود في النعيم لمن اختار الهدى أو خلود في الجحيم لمن اختار الردى والشرود عن سبيل الهدى.

فيا أيها الإنسان أحسن الاختيار فسرّ كرامتك اختيارك، وسر سعادتك أو شقائك حسن اختيارك أو سوء اختيارك[2].

---

[1] شحاته، المرجع السابق، ص 1/ 675.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 209.

5- ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:31] .

والمعنى: إلا ابليس: إلا: هل الاستثناء متصل أم منقطع؟

إبليس بالقطع ليس من الملائكة، لأن هناك نصاً صريحاً يقول فيه الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ...﴾ [الكهف:50] .

وهكذا حسم الحق سبحانه الأمر بأن إبليس ليس من الملائكة، بل هو من الجن: والجن جنس مختار كالأنس، يمكن أن يطيع ويمكن أن يعصي[1]. وبناء على هذا فإن الاستثناء منقطع، وهذا الأرجح والأوفق والأصوب، وإن كان المقصود.

إلا إبليس لم يكن من الساجدين على احتمال عموم الساجدين، فالاستثناء متصل وإن كنا نفضل الأول لأنه الأولى[2]. وقد خلق الله إبليس مختاراً، شأنه شأن سائر الجن، لأنه منهم: فيستطيع أن يقبل على أعمال الخير وأعمال الشر بإرادته الكاملة التامة.

فلو لم يعطه الله الاختيار التام لما استطاع أن يَعصي ربه بعدم السجود حين أمره بذلك، ويدل على هذا الأمر دلالة واضحة قوله تعالى: ﴿أَبَى﴾ لأنه لا يقال (أبى) إلا إذا قدر على فعل الشيء، لكنه امتنع عنه. ولقد أشار القرآن الكريم إلى

---

[1] تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ص 7696/12.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص210.

أن الجن قســـمان: مؤمنون وكافرون، وتقســـيمهم إلى قســـمين دليل أن لهم إرادة واختياراً، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَـــدًا ۝ وَأَمَّا الْقَاسِـــطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: 14،15]. وهنا القاسطون: هم أولئك الجائرون الحائدون عن صراط الحق[1].

قال الحسـن البصـري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصـل الجن كما أن آدم عليه السـلام أصـل البشـر. وكان قبل أن يأمر بالسـجود لآدم قد التزم التزاماً رفعه إلى مســتوى الحضــور مع الملائكة تكريماً له، لأنه كان يجلس مع الأطهار، لكنه ليس مَلاكاً.

وهناك بعض العلماء صنفوه بمستوى أعلى من الملائكة، والبعض الآخر صنَّفه بأنه أقل من الملائكة، لأنه من الجنَّ، ولكن الأمر المتفق عليه بأنه لم يكن ملاكاً بنص القرآن الكريم، وســواء أكن أعلى أم أدنى، فقد كان عليه الالتزام بما يصـــدر من الحق ســبحانه وتعالى، لكنه أبى واســتكبر وكان من الكافرين وعرض المولى عز وجل هذه المسألة في القرآن الكريم مرة بـ ﴿أَبَى﴾ ومرة بـ ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ ومرة جمع بين الإباء والاستكبار.

– ففي سـورة الحجر، قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّـاجِدِينَ﴾ [الحجر: 31].

---

[1] آدم عليه السلام خلقة ومعصيته، إبراهيم النعمة، ص 27.

– وفي ســـورة ص، قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْـــتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص:74].

– وأما الجمع بينهما فجاء في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة :34] [1].

وفي ســورة الحجر، نلاحظ أن النص لم يقل أبى أن يســجد أو أبى الســجود، ولكن قال: ﴿أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّـــاجِدِينَ﴾، ولم يقل كذلك من الســـاجدين. فالنص فيما أراه يُفيد منه منتهى الكبر، فالانفراد أولاً عن الجماعة والشــذوذ عنهم ثم التوقف عن العمل وهو الســـجود، بل رفضـــه وإباؤه، ثم رفض الانخراط لا أن يكون "من" وهي المماثلة والتماهي والاندماج، ولكن رفض مجرد أن يكون "مع"، فأفادت الآية كما ســـلف القول منتهى التمرد والإباء والشـــذوذ والخروج على الجماعة وعلى الأمر وعلى الآمر، فهو باللغة القانونية قد ارتكب عدة جنايات لا واحدة.

والصـــياغة القرآنية فتحت الباب لكل هذه الاحتمالات من المعنى، فمجرد الكون مع الساجدين مرفوض بالنسبة له وليس السجود مع الساجدين.

والنص كل كلمة فيه هادفة بوضـــوح وجلاء بعِظم جناية هذا المجرم وعظم كبره وتنفُّخه وتجاوزه قدره، وهذه هي البلاغة، بأن تســتخرج من اللغة أقصــى طاقتها،

[1] تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ص 7697/12

ومن الشعور أقصى درجات تفاعله، ومن العقل أقصى درجات وعيه وفهمه واستيعابه[1]. ومن دروس هذه الآية:

– القَدر العالي لبلاغة القرآن أنه بالألفاظ المعدودة يصور المعاني اللامحدودة، ويبين مشاعر من يتحدث عنه، وفي هذه الآية كان المحور بيان نفسية الشيطان وتكبره.

– الكِبر أكبر الكبائر (وأبى) امتنع تكبراً.

– إباء السجود فعل واحد استدرج صاحبه إلى ما لا نهاية له من أفعال الشر وراكم عليه من المؤاخذات ما يورده الهلكة والخلود في العذاب، وهذا يبين خطورة المعصية والذنب والتمادي فيه.

– إبليس يرفض لا السجود وحسب ولكن يرفض مجرد أن يكون مع الساجدين.

– العجب أن أغلب بني البشر اليوم أتباع لأعدى أعدائهم ومن رفض تكريم أبيهم وهذا من أشد المفارقات[2].

خامساً: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝ قَالَ لَمْ

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 211.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 212.

أَكُنْ لِأَسْــجُدَ لِبَشَــرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَــلْصَــالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْــنُونٍ﴾ [الحجر:32،33] .

1- ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:32] .

بين ســبحانه في هذه الآية الكريمة أنه ســأل إبليس ســؤال توبيخ وتقريع عن الموجب لامتناعه من الســجود لآدم الذي أمره ربه جل وعلا به، وبين أيضــاً في سورة "الأعراف" و سورة "ص" أنه وبخه لهذا السؤال.

- قال الله تعالى في ســورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْــجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف:12] .

- وقال تعالى في سورة ص: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:75].

وناداه باسمه في ســورة الحجر وســورة ص ولم يناده به في ســورة الأعراف[1]، ولنلحظ أن في سورة الحجر هنا: أن المتكلم هو الله وهو الذي يعلم أنه خلق إبليس بخاصيّة الاختيار، فله أن يطيع وله أن يعصي وهو سبحانه هنا يوضح ما علمه أزلاً عن إبليس، وشاء سبحانه إبراز هذا ليكون حجة على إبليس يوم القيامة[2].

---

[1] أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ص 145/3

[2] تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ص 7698/12.

2- ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [الحجر:33]

.

في الآية السابقة سؤال موجه من الله لإبليس، وفي هذه الآية جوابه على السؤال وهناك سأل عن إباءه السجود: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، وهنا يجيب بلا حيدة عن الموضوع مما يعني أنه مصر على خطيئته وذنبه مع الوعي التام عن الموضوع الذي يرفضه، فهو يقول: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾ ويستحضر في الجواب ما مرّ مرتين في السياق وهو قوله تعالى عن المخلوق الجديد أعني الانسان: ﴿بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾؛ فيقول هنا معللاً مبرراً إباءه للسجود بأنه لا يسجد: ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾؛ فهو يردنا بهذا الجواب إلى العنصر والعنصريات، يريد أن عنصره خير من عنصر آدم عليه السلام. والخيرية يحددها الله لا الأهواء ولا أحد سواه ويكفي العنصرين شؤماً أن ابليس إمامهم في تفضيل:

- لون على لون.
- أو عرق على عرق.
- أو عنصر على عنصر.
- أو جنس على جنس.

وإنه يوم القيامة يدعو الله سبحانه كل أناس بإمامهم. وهي الدعوى التي دمرت أوروبا في الحربين العالميتين الطاحنتين: الحرب العالمية الأولى والثانية التي حصـــدت الملايين بدعوى النازية، أي القومية الألمانية التي رآها هتلر فوق الجميع فهي دعوى عنصرية قومية شوفينية ترى نفسها أعلى وأفضل. وهي دعوى إيطاليا الفاشستية. وهي دعوى البيض بالتفوق على السود.... إلخ.

باختصار هي دعوى شيطانية مدمرة ودعوى لاستعباد الخلق لبعضهم، نبغي مقاومتها بكل سبيل[1].

إن المتبصر في حوار ابليس –عليه لعنة الله–مع الحق سبحانه وتعالى، يجد فيه الاعتراض الوقح على حكمة الله في خلقه، والاســـتبداد القبيح بالرأي، والمكابرة الجائرة للحقائق، والأسلوب الممجوج في العناد والتعنت.

لقد بينت الآيات القرآنية ما أظهره عدو الله إبليس من مخالفة للأمر، وتحكم للهوى واستكبار على الله سبحانه واستعلاء على المخلوقات بمادة خلقه من النار. وبهذا يكون إبليس أول من أبى واستكبر، بل إنه أول من زرع بذور الشك والريب، وأثار الفتن والشـــبه الباطلة وعلى منواله تســـبح أتباعه من الجن والإنس، إن أول شبهة وقعت في الخليقة شبهة ابليس، ومظهرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختيار الهوى في معارضة الأمر، واستكباره بالمادة التي خلق منها وهي النار، على

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 219

مادة آدم عليه السلام وهي الطين[1].

إن ابليس أباً روحياً للعنصريين في تفضيل عنصر على عنصر وعرف على عرف بلا أساس ولا مستند للدعوى نفسها، وقد بين القرآن في مواطن أخرى تفصيلاً لهذا، وذلك اعتقاده أن تفضيلاً له قد خص به من حيث المادة التي خلق منها والعنصر الذي شكل منه، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فأحال ما في هذا الموضع إلى ما في ذاك الموضع، والقرآن يتكامل ويبين بعضه بعضاً ويفسر بعضه بعضاً[2].

أ- المعنى في قوله ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾ قال: أي ابليس، لم أكن لأسجد: وهي أشد في النفي والإنكار من قوله لا أسجد. فهذه الصيغة من أشد صيغ النفي. فهي تنفي الأمر من أساسه وأصله وجذوره ومنذ أوائله... أي من أول صدور، بل من قبل صدوره وهو منطلق في ذلك مما قلنا من تنظير العنصريين لتفضيل عنصر على عنصر وعرق على عرق وهكذا بلا أساس.

ب- ﴿لِبَشَرٍ﴾: هذا القول من إبليس مقابل للقول الإلهي: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا﴾ [الحجر: 28] . فهو يرد على كل كلمة بالرفض والتمرد.

---

[1] الحوار والاستدلال في القرآن الكريم، خالد سليمان، مرجع سابق، ص 470.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 219.

ج- ﴿خَلَقْتَهُ﴾: أي وجدته وأنشأته فهو يعي كل هذا الحقائق ويتمرد فعلاً أنه شيطان، وإنه إبليس وحق أن يكون كذلك أي مطرود من رحمة الله مبعداً عنها إذ وعي كل هذا ثم تمادى.

د- ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾: أي من طين أصله من حمأ متأسن ثم جف فأصبح كالفخار فهو يصلّ - بتشديد اللام- أي يصدر صوتاً كالصوت الذي نعهده جميعاً إذ ندق على الفخار[1].

أ- الإنسان في القرآن الكريم غير البشر:

قالت الدكتورة عائشة بنت الشاطئ: الإنسان في القرآن الكريم غير البشر، فباستقراء مواضع ورود كلمة "بشر" في القرآن كله، يؤذن بأن البشرية فيه هي هذه الأدمية المادية التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، وفيها يلتقي بنو آدم على وجه المماثلة التي هي أم المشابهة.

وبهذه الدلالة ورد لفظ البشر، كاسم جنس في خمس وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم، منها خمسة وعشرون موضعاً في بشرية الرسل والأنبياء مع النص على المماثلة فما هو من ظواهر البشرية وأعراضها المادية بينهم وبين سائر البشر[2].
قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 219

[2] القرآن وقضايا الإنسان، عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ، ص15-17

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء:2-8]. وغير ذلك من الآيات.

وقالت الدكتورة عائشة بنت الشاطئ: وقد تأتي الآيات في تقرير بشرية الرسل دون التصريح بلفظ المماثلة فيها لبشرية الناس جميعاً، لكن السياق فيها شاهد على هذه المماثلة وإن لم تذكر بلفظها نصاً. ففي الإسراء من الآية التسعون وحتى الآية الثالثة والتسعون، ذكر مقترحاً للكافرين ورد فيه كلمة "الرسول" في ختام القول: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾، ومعها آيات الأنبياء (الرابعة والعشرون) والفرقان (العشرون) والشورى (الحادية والعشرون)[1].

وقد علق الطاهر بن عاشور على قول إبليس: ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾؛ فهو برأيه تأييد لإبايته من السجود، وأن المخلوق من ذلك الطين حقير ذميم لا يستأهل السجود، وهذا ضلال نشأ عن تحكيم الأوهام بإعطاء

[1] القرآن وقضايا الإنسان، بنت الشاطئ، مرجع سابق، ص 15-17

الشــيء حكم وقعه في الحاســة الوهمية دون وقعه في الحاســة العقلية، وإعطاء حكم ما منه التكوين للشــــيء الكائن. فشـــتان بين ذكر ذلك في قوله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، وبين مقصد الشيطان من حكاية ذلك في تعليل امتناعه من الســجود للمخلوق منه بإعادة الله الألفاظ التي خاطب بها الملائكة وزاد فقال ما حكي عنه في ســورة ص إذ قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، ولم يحك عنه هنا، وبمجموع ما حكي عنه هنا وهناك كان إبليس مصـــرحاً بتخطئة الخالق، كافراً بصـــفاته، فاســـتحق الطرد من عالم القدس[1] وسيأتي بيانه في سورة ص إن شاء الله تعالى.

- لقد أظهر إبليس عليه – لعنة الله – ضـروب من الجهالة وأنواع الفســق والعصيان فإنه:

– اعترض على خالقه واحتج عليه بما يؤيد به اعتراضه.

– إنه جعل امتثال الأمر موقوفاً على اســـتحســـانه وموافقته لهواه وهذا رفض لطاعة الخالق وترفع عن مرتبة العبودية.

واســـتدلاله على خيريته بالمادة التي منها التكوين، وخيرية المواد بعضـــها على بعض أمر اعتباري إلى أن الملائكة خلقوا من النور وهو خلق من النار والنور خير

[1] التحرير والتنوير، ابن عاشور، الجزء الرابع عشر مرجع سابق، ص 46/7

من النار وهم قد سجدوا امتثالاً لأمر ربهم.

إنه قد جَهل ما خص به أدم من استعداده العملي والعلمي أكثر من سواه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له فكان بذلك أفضل منهم وهم أفضل من إبليس بصفة الخلقة والطاعة لربهم[1].

وفي قصة آدم وإبليس تنفرد سورة الحجر من بين تلك السور التي قصت قصته بالحديث عنه دون أن تلفظ اسم آدم فيه وإنما اكتفت بذكره بلفظ إنسان أو بشر: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ واكتفى من السورة بعرض موقف إبليس فحسب، ولعل ذلك مما ينسجم مع تركيز السورة والمعنى في هدفها قدما دون توسع، إذ تحقق بذكر القصة دور إبليس في إغواء البشر، واحتضان المؤمنين -إن جاز التعبير- باسم "عبادي" في جنات وعيون.

وأما الغاوون فإن جهنم موعدهم أجمعين وهي تلخص قصة البشرية من أولها إلى آخرها وهذا ينسجم مع شمولية السورة لموضوعات الخلق والطاعة والمعصية[2].
ومن الدروس المستفادة من الآية:

- العنصريات مردوده جملة وتفصيلاً.

- يكفي العنصريات شؤماً أن إبليس منشؤها وما حصدت من الأرواح.

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، 222.

[2] النسق القرآني، محمد ديب الباجي، ص 729.

– ميزان التفعيل والتقديم والتأخير يضعه الله تعالى ويحدده: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾

– ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ...﴾

– وقد قال من له الحق المطلق: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ..﴾ ولو وزن كل أحد على هواه لاختل ميزان الوجود.

– إبليس متمرد عن سبق التصميم والوعي والإرادة فهو أشد جرماً.

– المؤلم أن يتخذ البشر عدوهم صديقهم، بل يطيعونه بدل الله.

– طاعة الشيطان عبادة كما سماها الله تعالى بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس:60-61][1].

– يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: وهكذا أفصح إبليس عما يكنه من فهم خاطئ لطبيعة العناصر، قد توهم أن الطين والصلصال أقل مرتبة من النار التي خلقه منها الله وامتناع إبليس عن السجود إذن، امتناع الذي يعطي التمايز، وأن تجاهل الأمر هو إرادة المعنصِر الذي يُرتب المراتب بحكمته وليس على هوى أحد

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 223

من المخلوقات[1].

ثم من قال إن النار أفضل من الطين؟ ونحن نعلم أنه لا يقال في شيء أنه أفضل من الآخر إلا إذا استوت المصلحة فيهما، والنار لها جهة استخدام والطين له استخدام مختلف، وأي منهما له مهمة تختلف عن مهمة الآخر.

ومن توجيه الله تعالى في فضائل الخلق أن من يَطلي الأشياء بالذهب لا يختلف عنده سبحانه عن الذي يَعجن بالطين ليصنع منه الفخار، فلا يفضل أحدهما على الأخر إلا بإتقان مهمته، وهكذا أفصح إبليس أن الذي زيّن له عدم الامتثال لأمر السجود هو قناعته بأن هناك عنصراً أفضل من عنصر، ويأتي الأمر بالعقاب من الحق سبحانه فيقول تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[2] [الحجر: 34].

سادساً: قال تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر:34-35]:

ففي الآية السابقة رد إبليس الأمر الإلهي وجوابه على طلب المولى سبحانه بالسجود لهذا المخلوق الطيني، وفي هذه الآية رد الإله العظيم على رده، وجوابه لإبائه الأمر وهو الطرد والإبعاد ولا يظلم ربك أحد من العباد[3].

---

[1] تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ص 7699/12.

[2] المرجع نفسه، ص 7699/12.

[3] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 224.

1- قال تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر:34] .

- ﴿قَالَ﴾: أيّ الله عز وجل وعبر الضمير ضمير الغائب.

- ﴿فَاخْرُجْ﴾: الفاء تفريع على ما قال، وكأنها الجواب على رده، والخروج المغادرة مطروداً مبعداً مدحوراً مذموماً.

- ﴿مِنْهَا﴾: الضمير في منها محير: فهل المقصود من السماء؟ أم من الجنة؟ أم من الحضرة كما يقولون؟ أم من الرتبة؟ أم من الجوار والقرب والكرامة؟ أم من هذه جميعاً؟، وأظن الأمر شاملاً كل ما ذكر وما لم يذكر.

- ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾: هذه الفاء الثانية، الأولى عللت الأمر قبلها وهو الإباء، وهذه عللت ما بعدها أي الإخراج و "إن" للتوكيد وكاف الخطاب لإبليس.

ورجيم: مرجوم مع الطرد والإبعاد، والرجم وإرصاد الرجم واحد من واجبات الحج، للتذكير باستحقاق الشيطان لذلك.

ومن صور الرجم أن تطارد الشهب كل شيطان يسترق السمع كما قال الله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر:17-18]، وكما في سورة الصافات، قال تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:8-10].

وكما قال تعالى في سورة الملك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك:5].

وقد وردت كلمة ﴿رجِيمٍ﴾ في القرآن الكريم ست مرات كلها بحق الشيطان، ولم تتكرر الكلمة في سورة إلا في سورة الحجر في الآيات السابعة عشر والثامنة عشر[1].

قال الزمخشري: ﴿رجِيمٍ﴾ شيطان من الذين يرجمون بالشهب أو مطرود من رحمة الله، لأن من يطرد يرجم بالحجارة. ومعناه: ملعون، لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد[2].

وقد قال ابن عاشور: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ الفاء دالة على سبب إخراجه و(إن) مؤذنة بالتعليل: وذلك إيماء إلى سبب إخراجه من عوالم القدس، وهو ما يقتضيه وصفه بالرجيم، متلوث الطوية وخبيث النفس، أي ظهر هذا فيك فقد خبثت نفسك خبثاً لا يرجى بعده صلاح فلا تبقى في عالم القدس والنزاهة[3]. وقال أبو زهرة: ورجيم: معناها مطرود مرجوم بالحجارة[4]. وقال مخلوف: رجيم مطرود من

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص225

[2] نوفل، المرجع نفسه، ص 225.

[3] التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ص 47/7.

[4] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ص 4087/8.

الرحمة مرجوم بالشهب[1].

ومن دروس الآية السابقة:

– الإصرار على المعصية والاستكبار عن الطاعة سبب للطرد من رحمة الله.

– الشيطان مرجوم، ومن عبادات الحج رجم إبليس تذكيراً بما كان منه وتذكيراً بعداوته.

– نسيان العداوة لهذا الشيطان مدعاة للهلاك وما خطيئة أبينا إلا هذا "فَنَسِيَ".

– أخطر جناية، هي جناية المخلوق على نفسه فما أوقع أحد أحداً في شر مما أوقع فيه إبليس نفسه[2].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر:35]

– إن لعنة الله حلت بإبليس فأقصته عن مظان الرحمة دوماً من غير انقطاع كما سيأتي ببيان ذلك بإذن الله تعالى ومعنى الآية:

– ﴿وَإِنَّ﴾: الواو للعطف وإن للتوكيد.

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص226.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 226

- ﴿عَلَيْكَ﴾: حرف جر، وكاف الخطاب تعود للشيطان، وقدم خبر إن على اسمها لإفادة الاختصاص.

- ﴿اللَّعْنَةَ﴾: الطرد من رحمة الله، وعرّفها إما إفادة للتعريف أو التحديد والتعيين أو اللعنة المحددة المعروفة الخاصة بك أو اللعنة المطلقة التامة.

- ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾: فهو مطارد ملاحق باللعنة إلى يوم الدين فإذا كان ملاحقاً باللعنة إلى يوم الدين والحساب فما شأنه عند يوم الحساب وبعد الحساب؟ وليس المعنى انتهاء اللعنة بيوم الدين، وإنما إذا انتهت هذه اللعنة بدأت لعنة خاصة وأشد وأعنف[1].

قال النسفي: ضرب يوم الدين حداً للعنه، لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم والمراد به أنك مذموم مدعوّ عليك باللعنة في السماوات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تعذب فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه[2].

و﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾: هو يوم الحساب[3]، وقد ورد أكثر من نص شرعي في القرآن الكريم يلعن إبليس وما ذلك إلا لمكره وخبثه، ومن هذه النصوص القرآنية:

- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا

---

[1] تفسير صورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 228.

[2] نوفل، المرجع نفسه، ص228.

[3] موسوعة الصحيح الميسور من التفسير بالمأثور، حكمت ياسين، 157/4.

۝ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء:117_118] .

- قال تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الحجر:34،35].

- قال تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [ص: 77،78].

ويُؤخذ من هذه النصوص بعض الدلائل المستنبطة من الآيات التي لعنت إبليس، وهي كما يلي:

- ورود أكثر من نفي يؤكد حلول لعنة الله بإبليس.

- أضافت الآية بعض الأوصاف التي ذكرت ضمن سياق الآية التي أخبرت عن لعنه، من ذلك أنه متمرد وأنه أخرج من الجنة مرجوماً.

- ذكرت الآية في سورة الحجر حلول اللعنة على إبليس بشكل عام ثم تكرر الأمر في سورة ص بإضافتهما إلى الله تعالى من أجل أن يتحقق اللعن بشكله الجماعي من الله ومن الناس.

- أخبر القرآن الكريم بأن هذه اللعنة ملاصقة لإبليس لا تنتزع عنه إلى يوم القيامة حيث عقابه في جهنم.

- إن إبليس من الذوات التي تحقق منها لعن الله، لذلك يكون تأثيره جلياً بكل معاني اللعن من حيث الإبعاد والإقصاء والتفريق[1].

- إن اللعن هو الطرد من رحمة الله وقد خص إبليس بها من لحظة قيلت له إلى ما لا نهاية، فإذا انتهت لعنة ما قبل الحساب بدأت لعنة ما بعد الحساب.

إن جناية إبليس على نفسه ليست لها حد ولا وصف ولا نظير ولا تصوير ولا تقريب[2]. إن السبب الرئيسي في لعن إبليس هي المعصية التي بدأت منه تجاه رب العالمين من التعالي والتكبر، والتمرد على أمر الله، والإصرار على المعصية وحسده لأدم عليم السلام وغير ذلك من الأسباب التي منعته من التوبة والرجوع إلى الله، فأبعده الله مع السخط عليه[3].

سابعاً: قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38)﴾ [الحجر:36-38] .

1- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر:36] .

هذا طلب إبليس بعد أن سمع الحكم عليه من الله بالإخراج والطرد والإبعاد

---

[1] نصوص اللعن في القرآن الكريم، عمر الكبيسي، ص372

[2] تفسير صورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص229

[3] نصوص اللعن في القرآن الكريم، الكبيسي، مرجع سابق، ص 328 إلى 385 مع التصرف والاختصار.

واللعن، فطلب كما بينت هذه الآية الإمهال إلى يوم البعث أو يوم الدين يوم يبعثون أي الخلائق[1].

وهذا المخلوق بالذات –إبليس– يشتري الوقت كما يُقال، ويؤخر عقوبته لا أن يدفعها بالتوبة، فكأنه حكم على نفسه بالشقاوة المؤبد،ة ولو استرجع لدفع عنه العقوبة، لكن ركب مركب العناد واللجاجة والكبر والفجاجة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وليكون هذا الصراع بين معسكر الحق بقيادة الأنبياء والمرسلين وهم من ذرية آدم النبي الكريم عليه السلام ومعسكر الباطل بقيادة وزعامة هذا المتمرد المخذول المرذول الشيطان[2].

– ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾: قال: أي إبليس، رب: هو يعلم أنه الرب وأنه ربه هو ورب كل شيء، ولكنه من أضل نفسه على علم فأضله الله، ولم يستخدم ياء النداء إما للقرب فهو في الحضرة كما نفترض، أو للتقرب أي ليستجاب له، يتلطف ويتودد وفي الوقت ذاته فإن مضمون كلامه التحدي، وهو أهون وأقل من هذا التحدي أوليس كل كافر يبارز الله ويعالنه الحرب ويشاقه ويحاده ويعاديه ويشكل تحالف مع إبليس، أعدى أعداء الله؟

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص229

[2] نوفل، المرجع نفسه، ص 229.

- ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾: ما دُمت حكمت علي بكيت وكيت فأنظرني، فكأنها واقعة جواب في جواب كلام محذوف مقدر ومتفرعة عنه.

والإنظار: إمهال وإرجاء وإعطاء فرصة من الوقت.

- ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: إلى يوم البعث، لهذا المخلوق وذريته أو للخلائق أجمعين، لكن الذي يهمه الآن من بين الجميع هذا المخلوق الجديد وذريته، إنه يملك معلومات ويبني عليها ويمكر وفقاً لها، وما أسوأ طريق اللجاجة وما أبأس العناد، وأسوأ من كل ذلك ما سببه، وهو شعور الحسد والحقد. ألا فلتتنظف العقول والقلوب من كل هذا البقع السوداء والتشوهات والمشاعر السلبية[1].

لقد طلب النظرة إلى يوم البعث لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق العظيم ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكف عن إثمه ولكن لينتقم من آدم وذريته، جزاء ما لعنه الله وطرده، يربط لعنة الله له بآدم ولا يربطها بعصيانه لله في تبجح كبير. ومن دروس الآية:

- لجأ إبليس إلى أسلوب يطلق عليه الناس بلغة هذا العصر الهروب إلى الأمام.

- إبليس كما يقال هذه الأيام يشتري الوقت ويدفع عذابه الذي تحقق منه بعد خطيئته، ولو كان أعقل لدفع العذاب أبداً بالتوبة.

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص220

- العاقل يفر إلى الله بعد خطيئته ويعلن توبته والأحمق من فر من الله إلى عدوه الشيطان، فياللتعاسة والحماقة.

- العناد واللجاجة من أسوأ الطباع وأرذل الأخلاق.

- الحسد والحقد والعنصرية والكبر والعجرفة والغرور كلها أمراض نفسية وعقد تؤدي بصاحبها وتردي صاحبها وما أحوج النفوس إلى علاج من هذه الأمراض[1].

2- قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الحجر:37] .

هذا جواب الله عز وجل على طلب إبليس ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾، فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أي كما طلب لا عن كرامة ولكن عن استدراج، ثم إن النص القادم سيبين أن الإنظار حاصل لكن لا إلى يوم القيامة ولكن إلى الوقت المعلوم الذي يحدده الله فمتى هو ولماذا هذا التعديل؟ فكل ذلك إلى علم الله مرده.

- ﴿قَالَ﴾: أي المولى الجليل سبحانه.

- ﴿فَإِنَّكَ﴾: كأن الفاء واقعة في جواب الكلام كما وقعت الفاء في الجواب قبلاً، فكأن المولى يقول له ما دمت طلبت الإنظار فإنك من الممهلين المنظرين المؤخرين المؤجلين، لكن إلى الوقت الذي أحدده وأعينه لا الذي تريده[2].

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص231

[2] المرجع نفسه، ص232

قال السعدي: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه، وإنما ذلك امتحان وابتلاء من الله له ولعباده ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه، ممن ليس كذلك ولذلك حذرنا منه غاية التحذير وشرح لنا ما يريده منا[1].

من دروس الآية:

- الاستجابة ليست دليل كرامة، وهذا في حق إبليس.

- ربما يكون إبليس قد فرح بإجابته، ولكنه فرح سيعقبه ندم وألم لا ينتهي.

- الاستدراج واحد من سنن الله في أعدائه.

- رب ظاهر له ثوب الفرح ولكنه في حقيقته ترح.

- ما أشقى وأتعس من يوظف الوقت في معصية الله، أيّ في سبب مزيد من شقائه وعذابه[2].

3- قال تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر:38] .

أجاب الله طلب إبليس لأنه وافق الأقدار ولم يجب في التوقيت، بل قيل له: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ ولم يحدد النص القرآني الكريم ما المقصود من هذا التوقيت المعلوم، وأعتقد أنه ما دام هناك بشر فالمعركة بين الخير والشر والحق

[1] تفسير السعدي نقلاً عن تفسير سورة الحجر، مرجع سابق، ص232.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص33.

والباطل مستمرة، والصراع على أشده ومكر إبليس في إضلال الناس مستمر، أما وجود أناس بلا فتنة فلا يتصـــور، فليس الوقت المعلوم -إذاً- وفريق من الناس موجود، فطالما هناك بشـــر فعدو البشـــر موجود وفتنتهم موجودة أعني بهذا العاتي المتمرد[1].

ولعله أراد أن يكون من هؤلاء المقصـودين في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ...﴾ [الزمر:68] .

﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾: معناها إلى الوقت الذي علمه الله وحده لا إلى الوقت الذي أردته أنت، لتشـتري الوقت وتؤخر عن نفسـك العذاب إلى أقصـى المسـتطاع وهو مدركك على كل حال[2]. إن إبليس سـيذوق الموت حتماً لأن كل المخلوقات ستذوق الموت من قبل أن تقوم القيامة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: 26]، وهكذا لم يفلت إبليس من الموت[3].

ولقائل أن يسأل: وكيف كلّمه الله؟

ونقول: لم يكلمه الله تشـــريفاً أو تكريماً، بل غلظ له العقاب كما أن للحق سـبحانه ملائكة يمكنهم أن يبلغوا ما شـاء لمن يشـاء[4]. وقد قال مخلوف: الوقت

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص235

[2] المرجع نفسه، ص235

[3] تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ص 7702/12

[4] المرجع نفسه، ص 7702/12

المعلوم وقت النفخة الأولى[1]. ونحن لا نستطيع الجزم والقطع إلا بدليل قاطع لا بمجرد الفهم أو روايات المفسرين والله أعلم بمراده[2].

وتظهر بعض الحكم في إنظار إبليس إلى يوم الوقت المعلوم منها:

أ- أن الله سبحانه لما جعل إبليس محكاً يمتحن به عباده ليميز الطيب من الخبيث، ويميز وليه من عدوه، اقتضت حكمته إبقاءه ليحصل الغرض المطلوب بخلقه، ولو أماته لفات ذلك الغرض[3].

قال الزمخشري: فإن قلت: لم أجيب إلى استنظاره؟ وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم؟ قلت: لما في ذلك من ابتلاء العباد وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده[4]، ولذلك اقتضت حكمته سبحانه امتحان أولاد آدم من بعد أن امتحن أباهم ليميز الله الخبيث من الطيب ويظهر فيهم فضله وعدله، ولما كان إبليس قد أصر على معصيته، وخاصم ربه فيما ينبغي التسليم لحكمه كان إمهاله في الدنيا ليزداد إثماً فوق إثمه الذي ارتكبه بعصيان أمر ربه، ليستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره فيكون رأس أهل الشر في العقوبة، كما

---

[1] صفوة البيان في معاني القران، حسين مخلوف، ص 337

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص235

[3] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص510

[4] تفسير الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ص 69/2

كان رأسهم في الشر والكفر، فلا ينزل عذاب بأهل النار إلا بدأ به فيه، ثم يسري منه إلى أتباعه عدلاً ظاهراً وحكمة بالغة[1].

ب- ولو عذب الله أتباع إبليس دون أن ينزلهم إلى دار التكليف بناء على علمه المسبق فيهم، لاحتجوا على الله لأنه لم يترك لهم مجالاً للاختبار، فهذا هو قد أنزلهم إلى الدنيا وكلفهم بطاعته ومخالفة عدوه على لسان رسله فأخفقوا في الامتحان، وتحقق علم الله فيهم، فلا عذر لهم بعد ذلك، وكان تعذيبهم بالنار جزاء عادلاً منه سبحانه الذي لا يظلم أحداً من خلقه.

ومن هنا كان بعث الرسل من عند الله ليقيم الحجة على عباده وليقطع عذرهم إذا كذبوا في الأخرة، وما كان الله ليعذب أحداً من خلقه دون أن يبعث رسولاً يدله على طاعة ربه ومخالفة عدوه قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:15][2].

ت- ولو أدخل الله عباده المؤمنين الجنة، الذين يسبق صلاحهم في علمه الأزلي لما عرفوا قيمة النعيم دون أن يقاسوا ألم الحرمان والصبر على الشدائد والفتن في الدنيا، فإذا أنزلوا إلى دار التكليف في الدنيا وعملوا بطاعة الله وجاهدوا في سبيله، ثم أثابهم ربهم على ذلك الجنة، فإنهم عند ذلك سيعرفون قيمة النعيم المقيم

---

[1] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص510

[2] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص511

الذي أعده لهم فيشكرونه على ذلك، فإن الصحة لا تعرف قيمتها إلا بالمرض والمعاناة فكم لله في ذلك من الحكمة البالغة التي لا تحيط بها العقول، ولا ينكر ما ظهر منها إلى المكابرون[1].

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر:38]

وفي الآية دروس منها:

– الوقت أعظم رأس مال لمن كان في نهج العبادة لا في نهج الضلال، وحتى هذا أي الضال، فإنه يحب الوقت لأنه يعلم نهايته غير السعيدة، فهو يستظل الزمن لعلمه بالعواقب ونموذج هذا المنهج إبليس.

– أخطر ثروة يبددها الإنسان هي الوقت.

– وأخطر ما يعمل الشيطان على هدره من قبل الإنسان هو الوقت، ولذلك يلعب على هذا العنصر بالوعود والتمنيات.

– إجابة الدعاء من قبل المولى عندما دعا إبليس لأنه وافق تقدير الله بابتلاء البشر بهذا العدو فمن عصاه وأطاع مولاه فله الجنة ومن أطاعه وعصا مولاه فله النار.

[1] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع نفسه، ص511.

- ليست الإجابة في حالته علامة كرامة بل هي استدراج، لذا ينبغي فهم سنن الله وأفعاله في هذا الكون[1].

ثامناً: قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:39،40]

.

بعد أن اطمأن إبليس أنه لن يعاجل بالعقوبة بدأ يكشف مخبوءه الخبيث، وهو منكشف لله غير مستور عنه سبحانه فهو يعلم السر وأخفى وإبليس يعلم هذا، وأن الله يعلم لكن حقده أبى أن ينكتم وما استطاع له حبساً، فكشف مخططه لنطلع نحن عليه أما المطلع فهو العليم الخبير لا يحتاج إلى من يطلع عليه سبحانه[2].

1- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾

قال: أي إبليس رب: ينادي ربه تعالى بلا ياء النداء كما سلف لأنه قريب ولا يعني أنه لا يراه.

- ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: الباء للسببية والتعليل أي بما أنك أو بسبب أنك أضللتني والغي: الضلال، وأعجب من بعض مفسرينا وليسوا بالقليلين عدداً ولا قدراً ممن

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 236

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص237.

قال: أصدق كلمة قالها إبليس هذه الكلمة[1].

يقول الدكتور أحمد نوفل: و والله مع الاحترام لهم فإنها أوقح كلمة قالها إبليس، وهو يريد أن يقول أن الغواية حصلت له من الله لا من عند نفسه، تماماً كقول المشركين في سورة الأنعام وقد سجلت عليهم وسجلت تكذيبهم وردهم وإليك الآية: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:148] .

– وكذلك قال اليهود المقولة ذاتها وأبطلها الله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:88] .

– وفي سورة النساء: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:155].

فهل بعد هذا نقول إنها أصدق كلمة، بل هي أفجر كلمة قالها هذا المجرم منذ فجر الخليقة[2]. وقد قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: والحق سبحانه وتعالى لم يغوه بل أعطاه الاختيار الذي كان له به أن يؤمن ويطيع أو يعصي ويعاقب،

[1] المرجع نفسه، ص 237.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 238

فسبحانه قد مكّن إبليس من الاختيار بين الفعل وعدم الفعل، فخالف إبليس أمر الله وعصاه[1].

وهنا يظهر الفرق بين إبليس وبين آدم عليه السلام وزوجه، فإبليس نسب معصيته إلى الله ولعل ذلك من الأسباب التي رافقت معصية إبليس، فدفعته إلى غضب الله ولعنته، وذلك ما تكشفه النصوص القرآنية حيث إن إبليس حينما عصى ربه نسب المعصية إلى الله وبرأ نفسه منها في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ فقد نسب الإغواء والضلال إلى الله تعالى بخلاف آدم وزوجه فقد نسبا الخطأ إلى نفسيهما، فقالا: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:23] .

لذلك طرد الله إبليس ولعنه، واجتبى آدم وتاب عليه[2].

2- ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾:

لأحسنن لهم كل قبيح ولأجملن لهم كل منفر مستقذر مستهجن من الأخلاق والأعمال والعقائد والمذاهب والفلسفات والسلوكات والخلافات والقوانين والشرور والطباع والحروب والأطماع والإفساد والفواحش وكل أنواع السوء[3].

---

[1] تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ص 7703/12

[2] نصوص اللعن في القران الكريم وأثرها في الأحكان الشرعية، الكبيسي، مرجع سابق، ص384.

[3] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص238.

- ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: في الدنيا التي هي دار الغرور، أي لأزيننّها في أعينهم وجعل التزيين في الأرض يفيد انتشاره في جميع ما على الأرض من الذوات وأحوالها[1]. وما فيها من شهوات كثيرة، وآمال طويلة، تجعلهم ينصرفون عن عبادة الله وطاعته ويغفلون عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء[2].

إن من أسباب الشيطان أن يزين الباطل لبني آدم في الأرض ويحسن لهم كل قبيح ومحرم، فإبليس هو الذي زين الكفر والعصيان للأمم السابقة وحسّن لهم الصدود والإعراض عن دعوة الله على لسان أنبيائه حتى أخذهم الله بجزاء أعمالهم[3].

قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: 63].

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام 42-43].

- ويخبرنا القرآن الكريم أن طغيان قومي هود وصالح عليها السلام وتكبرهم عن الاستجابة لدعوة أنبيائهم والاغترار بما عندهم من القوة والعدة، إنما كان بتزيين

---

[1] التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ص 50/7

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 377/4

[3] عداوة الشيطان للإنسان وعلاجها، الحواس، مرجع سابق، ص 309

عدو الله الشيطان لهم تلك الأعمال السيئة حتى صدهم عن سبيل الله تعالى، يقول جل وعلا: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: 38][1].

– وحينما عبدت ملكة سبأ وقومها الشمس من دون الله تعالى كانت تلك العبادة والسجود بتزيين الشيطان لها ولقومها ذلك الفعل، حتى حسّن لهم ببناء قصر عظيم رفيع البناء محكم التشييد وكان فيه ثلاثمائة وستون نافذة من مشرقه ومثلها من مغربه، وقد وضع بناؤه على أن تدخله الشمس كل يوم من نافذة وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحاً ومساءً، يقول الحق تعالى مخبراً عن تلك الملكة وقومها حكاية عن هدهد سليمان عليه السلام[2]. قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل:22-26].

---

[1] عداوة الشيطان للإنسان وعلاجها، الحواس، مرجع سابق، ص309

[2] عداوة الشيطان للإنسان وعلاجها، الحواس، مرجع سابق، ص 310

- ولما بزغت شمس الإســلام وظهر نوره، ســاء ذلك عدو الله الشــيطان وكره انتشــار الإســلام، فجمع أمره للكيد لهذا الدين وجنده، لما يعلم أن في هذا الدين سعادة للإنسـان في الدنيا والآخرة، فزيّن للناس كراهية هذا الدين وحسّـن لهم دين الآباء والأجداد والانتصــار له ومحاربة الرســول صــلى الله عليه وســلم، حتى نســج للمشـركين مخطط قتله صـلى الله عليه وسـلم، فمن ذلك ما زينه لهم يوم بدر لحرب للمؤمنين وإزهاق الحق وإظهار الباطل الذي هم عليه بصورة الحق الذي يستميتون من أجل الدفاع عنه، حتى قال وليُّ الشــيطان أبو جهل: اللهم أولانا بالحق فانصــره[1]، وفي ذلك يقول الحق تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّــيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَــدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 48] .

واختلف في كيفية تزيين الشــيطان الباطل المذكور في الآية، هل كان التزيين بالوسوسة فقط، أم تحول الشيطان في صورة إنسان فخاطب المشركين وزين لهم أعمالهم؟

على قولين في المسألة هما فيما يأتي:

---

[1] دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي، ص 79/3. وتفسير القرطبي، مرجع سابق، ص 26/8

– قيل: أن الشيطان زين للمشركين بوسوسته من غير أن يتحول إلى صورة إنسان، وهذا قول الحسن والأصم، وبه قال أبو السعود والألوسي[1].

– وقيل: بل ظهر لهم الشيطان في صورة إنسان، وهو سراقة بن مالك بن جُعْشُم، وهذا قول ابن عباس والسدي وعروة بين الزبير ومحمد بن كعب وابن جرير والطبري[2]، والفراء وابن جزي وابن كثير وهو قول الجمهور[3].

وهو الظاهر لما رواه ابن جرير والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إبليس تمثل بيوم بدر في صورة سراقة بن مالك وأخذ يحرض المشركين على القتال[4]، ولقد أضل عدو الله الشيطان بأسلوب تزيين الباطل كثيراً من الناس، فكم حسّن من قبيح وزيّن من فاحش وجمّل من رذيلة وملّح من ذميم، وقنّع عيوناً لترى الفواحش والمنكرات والحرمات في قالب مزخرف وصورة حسنة، وهي تُخفي في حقيقتها السمّ الزُّعاف والدّاء الدّفين، فهو يظهر الباطل في صورة الحق مع إضافة الشهوات كي تندفع إليها النفوس المريضة، لتقع فريسة للشيطان الذي يتربص بها الشر ويقودها إلى هلاكها وخسرانها، فعدو الله يعلم أن السبيل لإيقاع بني آدم في فخ طاعته ومن ثم موافقتهم إياه في جهنم، هو في اقتراف المحّرمات والوقوف في

---

[1] تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ص 364/2. روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، ص15/10

[2] تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 18/10-20

[3] تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ص318/2. عداوة الشيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص 312

[4] عداوة الشيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص 312

الموبقات وإطلاق العنان للشهوات لتشبع نهمها بكل طريق[1].

– إن الشيطان حين يزين الباطل للإنسان فإنه بالمقابل يظهر الحق في صورة قبيحة ومستهجنة، لينفر النفوس عنه، فلا تتبعه وتدعو اليه، فالشيطان هو الذي أوحى إلى أوليائه من كفار قريش بوصف النبي صلى الله عليه وسلم بالسّحر والكهانة والجنون والكذب والشعر.

– إن الشيطان هو الذي أوحى إلى أوليائه بتسمية الحدود الشرعية قسْوة ووحشية، مع أن إقامتها يحقق العدل ويعمّ الأمن، وهو الذي أوحى إليهم بتسمية المرأة المحتشمة بحجابها الشرعي رجعية ومتخلفة وأوحى إلى أوليائه بتسمية الدين أفيون الشعوب، وشعائر الإسلام قيود فكرية، والإسلام كبت ورجعية ... إلخ من الأوصاف التي ينعق بها الإعلام الموجّه، لإطفاء نور الإسلام وسحق الهوية الإسلامية، وهو إعلام ينطق على لسان عدو الله الشيطان الذي يدعو الناس إلى الكفر بعد الإيمان والضلال بعد الهدى[2]. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: 25] .

[1] المرجع نفسه، ص 317

[2] المرجع نفسه، ص 318

- إن الشــيطان حين يزين المعصــية في نفس الإنســان، فإنه لا يدعوه إليها مباشرة، بل يقرّبه منها خطوة خطوة وشيئاً فشيئاً حتى يقع في الفخ الذي نصب له، ولذا حذرنا الله تعالى من اتباع خطوات الشيطان والاسترسال معها يقول جل وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّــلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّــيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: 208]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّــيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّــيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَــاءِ وَالْمُنْكَرِ...﴾ [النور:21].

فالشيطان يتدرج مع الإنسان في إضلاله وغوايته، فيدعوه للمعصيّة ويزينها في نفســه، ثم يحبب له النظر إليها فتحسُــن في عينيه، ثم يدعوه إلى الاقتراب منها وتحسسها وكيفية ارتكابها، وهو في ذلك يوسوس له بأن المعصية من اليسر اقترافها وليس هناك ما يدعو إلى التردد، حين يزيل هيبة المعصــية من قلبه، ثم يؤمنه من عقاب فعلها، بأنه لن يكشــف أمره، ولن يطلع أحد على جريمته، وأنه فعل ينتهي في وقته، وليس له مطالب ولا جريرة ويوحي إليه بأنها فرصــة نادرة عليه اغتنامها والتلذذ بها، فربما لا يسمح بمثل هذه اللذة الحاصلة والفرصة النادرة.

وهكذا يقود الشــيطان هذا الإنســان إلى تلك المعصــية عن طريق الخطوات الشيطانية المتتابعة حتى يملأ فكره وقلبه ومشاعره بالرغبة في ارتكابها، ويشحذ عزمه

وهمته على فعلها، ولا يدعه حتى يراه متلبساً بفعلها، وغارقاً في رذائلها، فيُسر عدو الله الشيطان غاية السرور وهو يراه مواقعاً لتلك المعصية فيتبهج بتطبيق خطته ونجاح مهمته.

إن عدو الله الشيطان يسعى باستخدامه أسلوب التدرج في الإضلال أن ينقل الإنسان من معصية إلى ما هو أعظم منها، فهو بخبثه يتلطف الإنسان في قيادته من ذنب إلى آخر أكبر جُرماً حتى يصل به إلى هدفه الأكبر، والذي يسعى إليه بكل وسائله وأساليبه، وهو إخراج الإنسان من دائرة الإيمان بالله تعالى إلى الكفر والشرك بالله تعالى[1].

ومن الوسائل الشيطانية في تزيين الباطل: تسمية الأمور المحرمة بأسماء محببة إلى النفوس، فأضل وأغوى بهذه الوسيلة الخبيثة كثيراً من الناس الذين كانوا يبتعدون عن المعاصي والمنكرات ويشمئزون منها حين كانت الموبقات تسمى بأسمائها الشرعية والعرفية، بيد أن إبليس استطاع بمكره وخبثه أن يحول تلك النفوس النقية إلى نفوس سيئة عفنة همها إشباع شهواتها بأي طريق كان بعد أن وسوس لها الشيطان بأسماء لتلك المنكرات تميل إليها وتهواها، وأوحى إليها بأن هذه المحرمات إنما هي في حقيقتها لمصلحتهم ومنفعتهم وهذا أمر ملاحظ في كثير من الناس الذين يقترفون المعاصي ويغشون المنكرات فتجدهم يخرجون لأنفسهم بمخارج

---

[1] عداوة الشيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص 319

إبليسية، من أهمها إخفاء الاسم الحقيقي لتلك الأمور المحرمة وتقنيعها بأسماء أخرى مغرية، فسموا الزنا حرية شخصية، وسمُّوا الخمر- وهي من أهم الخبائث - بمشروبات روحية وسمُّوا سفور المرأة وتبرجها خارج بيت الزوجية واختلاطها بالرجال الأجانب حضارة وتقدماً ومدنية، والربا فوائد، والغش والخيانة ذكاء وفطنة و"دبلوماسية" ...إلخ من المعاصي والمنكرات التي قنَّعها دعاتها بأسماء لامعة، فراجت عند كثير من العوام والجهال، ولاريب أن هذا من وسوسة الشيطان وإيحائه إلى أولوياته من الإنس لإظهار الباطل في صورة الحق[1].

- وإن انتشار الخمر وتنوع أشكاله واختلاف كيفياته هو بتزيين من الشيطان لصانعيه ومروّجيه ومتعاطيه، كي يقودهم بعد أن تخلط عقولهم إلى كل بلاء ومعصية. فالخمر هي حبل الشيطان الذي يقود به الإنسان إلى ما فيه عطبه وفساده، وهي أم الخبائث ودليلها، ولذا حذرنا الله من عاقبتها بعد أن نهانا عن شربها، وبيّن لنا تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة:90-91][2].

[1] عداوة الشيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص321

[2] الحواس، المرجع نفسه، ص 324.

- بالنسبة للفساد الجنسي الذي بث سمومه في العالم أجمع لم يكن لناره أن توقد ولا للهيبه أن يستعر في النفوس المريضة إلا بتزيين قائد الفساد في الأرض الشيطان اللعين[1]، الذي أعلن الحرب على الأخلاق الحميدة والعفة والستر والحياء، وحث على استخدام نوادي العراة والمجلات والروايات والتقنية الحديثة للإفساد وجعلها حرباً على الأخلاق والمثل العليا باسم الحرية، وهي في الحقيقة دعوة إلى حياة الغاب والنزوات الشهوانية والدمار في الدنيا، وسخط الله في الأخرة.

ولقد بلغ تزيين الشيطان الباطل للناس، أن زين لهم عبادته من دون الله تعالى، فقد وُجد قديماً وحديثاً من يعبد الشيطان[2]. ولقد وجدت معابد للشيطان عبر التاريخ، وفي وقتنا الحاضر في أمريكا وأوروبا، واشتهرت في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وغيرها من هذا العالم العجيب، ولها طقوسها الخاصة ويتعاطون العلوم السّرية للشيطان[3].

- إن الطقوس الشيطانية تعتبر الجنس هو الأساس الذي تقوم عليه، وهو أمر ملاحظ في المحافل التي تقام فيها تلك العبادات، فالرقص والعري والتفسخ والمجون هو شعار عبدة الشيطان، ولذا فهم أسوأ الناس خُلقاً وسُلوكاً، تقول مجلة "تايم": إن متعبدي الشيطان هم أكثر الناس انغماساً في الشر والفسق والفجور

[1] عداوة الشيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص 325

[2] الحواس، المرجع نفسه، ص 328.

[3] الحواس، المرجع نفسه، ص 337.

السري والعلني[1].

إن هذه الفئات من البشر استطاع الشيطان أن يحقق فيهم وعده ويبرّ قسمه، حيث زين لهم عدو الله تلك العبادة وحسّـــنها في أعينهم وأوحى إليهم بأنه الملك المطاع، فعليهم أن ينفذوا أوامره بلا قيد أو شـــرط، وهو في تزيينه لهم تلك العبادة الإبليســـية يُقبّح لهم عبادة الله تعالى، ويوحي لهم الشـــعور بالألم وعدم الراحة في امتثالها أو الفائدة في فعلها، وهو أسـلوب الشـيطان وخطّته التي ينفذها في خضـم حملته الشـرسـة على بني أدم، إذ حين يزين الكفر والشـرك للإنسـان، ويحسّـن له المنكر والفساد، فإنه بالمقابل يجتهد بكل حيله الإبليسية كي يصرفه عن منهج الله الذي ارتضـــاه لعباده، وذلك بكراهية طاعة الله وعبادته وحده وتقبيح من يفعل ذلك، والميل الشديد إلى إشباع الشهوات وإطلاق الغرائز والملذات دون ضابط من دين أو خُلق حتى يبلغ به من عدو الله مقصـــده وينتهي إلى حيث أراد من الوقوع في شراك مصيدته والسقوط في فخ طاعته.

وما ذلك التشـويه لدين الله تعالى الذي يدعو إليه الشـيطان بأسـاليبه الماكرة وأوليائه وجنده، إلا لأن عدو الله يعلم تمام العلم أن من توجّه إلى الله تعالى بالطاعة والعبادة وتعلق بحبله المتين واسـتمسـك بالعروة الوثقى بدوام ذكره تعالى وفعل ما يقرب إليه جل وعلا فإن كيد الشـيطان يبطل، ووسـاوسـه تذهب أدراج الرياح،

[1] عداوة الشيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص 338.

وتزيينه يبوء بالفشـــل لذا فإن عدو الله يجتهد كل الاجتهاد كي يصـــرف قلب الإنسان أولاً عن التعلق بربه، وجوارحه في التذلل والخضوع له تعالى، ومن ثم ينفث سمومه لتجد لها قلباً خاوياً فتتمكن منه وتؤثر فيه، فكل عبادة لغير الله تعالى، فهي بتزيين الشـيطان وهي في حقيقتها عبادة للشـيطان، ولقد قرر الله تعالى هذا الأمر في قوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّـيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس:60-61] .

وإن حكم الله تعالى على أولئك الذين صـــرفوا العبادة لغيره، بأنهم صـــرفوها لعدوهم الشـــيطان[1]، يقول ابن القيم: فما عبد أحد من بني أدم غير الله كائناً من كان إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع بالمعبود في حصوله غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله الذي هو غاية رضى الشيطان[2].

– وفي الجملة، فإن مجالات الباطل التي زينها الشـــيطان لبني آدم كثيرة جداً، فعداوة الشـيطان لإنسـان عدوة شـاملة وشـرسـة، وقدر تزيين الشـيطان الباطل للإنســـان بقدر اتســـاع هذه العداوة وشمولها، فعدو الله يزين الباطل للإنســـان ويوسـوس له بأنه من أنفع الأشياء، وينفره من الأفعال الحسنة، حتى يظن أنها من أضر الأشياء إليه، فيتمكن منه الباطل ويعمل به دون غيره، فكم سحر الشيطان

---

[1] عداوة الشيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص. ص 338 – 339.

[2] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن القيم، مرجع سابق، ص213.

بهذا التزيين من البشـر فألقاهم في الأهواء المختلفة والمهالك المتنوعة[1]، وصـدق الله تعالى حيث يقول: ﴿ وَقَيَّضْـنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِـــرِينَ ﴾ [فصلت:25] .

3- ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

الواو حرف عطف واللام الموطئة للقسم معطوف على أختها "لأزينن لهم".

والإغواء: من الغواية والغي وهي التضـــليل عن طريق الإغراء والتزيين والخداع وضمير الغائب "هم" يراد به آدم وذريته[2].

والغي ضد الرشد، والرشد الذي هو ضد الغي: درجة رفيعة من إدراك البصيرة، يهتدي بها المرء إلى حقائق الوجود ويميز قيم المعنويات، فلا يشتبه عليه حق بباطل، ولا يلتبس عليه الزيف الرخيص بالقيّم النفيس وهو الذي ذهب موسى عليه السلام بطلبه من العبد الصـــالح: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْـــدًا﴾ [الكهف:66] .

وأصـحاب هذا الرشـد يبدون في سـائر الناس كالعماليق بين الأقزام، وينظرون إلى سواهم كما ينظر الرجال إلى الأطفال وهم يعبثون، وهؤلاء هم أوصياء الإنسانية

---

[1] الجواب الكافي، ابن القيم، مرجع سابق، ص342.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص240.

التي لم تبلغ رشدها، والقائمون على هدايتها بإذن الله إلى سواء السبيل[1].

وإنك لترى أثر ذلك الرشد في البحث عن الحق والاهتداء إليه في سيرة إبراهيم عليه السلام إذ قال الله فيه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:51].

فإنه أدرك بتمييزه العالي أن هناك في هذا الكون حقاً أكبر غير تلك الكائنات الأرضية وغير تلك الكائنات السماوية التي تسخرها النواميس، فليس هو كوكباً آفلاً، ولا قمراً زائلاً، ولا شمساً غاربة، وان هذا الحق كما وصف الله تعالى ذاته العلية في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11].

فأول ما أدركه إبراهيم عليه السلام هو سقوط قيمة المرئيات وقصور كل شيء منها أن يكون رباً له. فقد قرأ على هذا المرئيات نفسها من آثار صفات الخالق سبحانه ما جعله يلتمس ربه في سواها.

وإن إدراك هذه الحقائق وتمييز قيمتها هو مقتضى الرشد فمن أدركها كما يدرك أن الواحد نصف الإثنين فهو الراشد، وإلا فهو القاصر، وإن حمل من إجازات العلم وألقابه ما حمل وإنك لترى أثر الرشد في ثبات إبراهيم عليه السلام إذ عرض على النار فما تغير له رأي، وإنه لثبات لم يتكلف له شجاعة، فإن الحق الذي يفتن من أجله ساطع في بديهته سطوع الشمس، فليس فيه شك لديه، ذلك هو

---

[1] آدم عليه السلام، الخولي، مرجع سابق، ص84.

الرشـد الذي يحرق كيد الشـيطان، ويجهد جهده أن يحتالنا عنه، ويطمس نوره في بصائرنا. وعكسه الغي، فإذا كنت قد أدركت الفرق بينهما فقد أدركت الفرق بين النور والظلمة، والحياة والموت، والعقل والحمق، وما يريد لنا الله، وما يريد لنا الشيطان. يريد لنا الشيطان هذا الغي الذي نفقد به إدراكنا العالي، وتميزنا الرفيع، فلا نبصر في الحياة إلا ما حولنا من شخوص المادية الزائلة، ولا نميز إلا قيم بعضها بالنسبة لبعض، ولا نشتغل إلا بتثميرها واستيلادها، وتداولها وتلك هي النكسة البائرة، والصفقة الخاسرة التي لا يود الشيطان سواها[1].

إن خطط إبليس مكشوفة، فلماذا لا نتفاداها؟

– التزيين والإغواء ركنا الخطة الإبليسية، وكل من يسير على خطة إبليس هو من جنده، فمن يغوي الناس على الحق ويزين لهم الباطل فليعلم أنه من معسكر إبليس[2].

هذا وقد استخدم الشيطان أساليب عديدة لإغواء بني الإنسان وهي أساليب تدل على المكر والدهاء وإجادة الأدوار وهذه بعضها:

أ- التشكيك: يشمل أمور منها:

---

[1] آدم عليه السلام، الخولي، مرجع سابق، ص 85.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 241.

- التشكيك بوجود الخالق: فهو أول أساليب التشكيك وأبرزها من تلك التي يسلكها الشيطان في تشكيك الإنسان بخالقه، لأنه إذا توصل لذلك يكون قد استولى على المرء وأحاط به من كل أقطاره، فلا رادع يردعه عن ممارسة أي عمل محرم أو اقتراف أي جريمة، وقد نبه الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك فيقول: "يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ ومن خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربك، فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته"[1]. وعن أبي عباس قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني لأحدث نفسي بالشيء لأن أخرّ من السماء أحب إليّ من أن أتكلم به، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة[2].

والشيطان مستمر في حملة التشكيك هذه فقد قال عليه الصلاة والسلام: "لن يدع الشيطان أن يأتي أحدكم فيقول من خلق السماوات والأرض، فيقول: الله، فيقول من خلقك؟ فيقول: الله، فيقول من خلق الله، فإذا أحس أحدكم بذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله"[3].

ولكن دعوة الشيطان هذه إلى إنكار وجود الله والتشكيك فيه قد وقع فيها بشر كثيرون فمن متسائل عن هذا السؤال ومن شاك أو جاحد مضلل ومن

---

[1] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص 529.

[2] البخاري، بدء الخلق، 336/6، من باب صفة إبليس وجنوده.

[3] مسند أحمد، 235/1. وانظر: عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص530.

منساق وراء الكفرة الجاحدين بلا وعي ولا تفكير، وقد كثرت هذه الأوصاف في هذا العصر فنشأت الفرق التي لا تؤمن بوجود خالق لهذا الكون، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وعلى رأسهم الملاحدة، الذين يكفرون بكل دين ويدوسون على كل فضيلة وخلق، ممن نراهم اليوم في شتى أقطار الأرض وفي بلاد المسلمين، وهم الذين يعتبرون الأديان أفيون الشعوب، فلا غرابة أن نجدهم يسحقون كل دعوة تتضمن الإيمان بوجود الله وأحقها بالحرب عندهم دعوة الإسلام[1].

- التشكيك في اختصاص الله بالعبادة وحمل الناس على عبادة الأصنام:

قد استطاع إبليس وأعوانه تشكيك الناس في عبادة الله حتى استطاع تحويلهم عنها إلى اتخاذ معبودات أخرى مع الله وذلك كما حصل مع قوم نوح عليه السلام، فقال تعالى مبيناً ذلك: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:23].

قال الطبري إن هؤلاء نفر من بني آدم فيما ذكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها، فعن محمد بن قيس: (ويعوق ونسرا) قال: كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكانوا لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانون يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذ ذكرناهم، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم[2].

---

[1] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص 531.

[2] تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 98/29-99

ومن ثم عرفت البشرية هذا النوع من الشرك بواسطة وسوسة إبليس وإيحاءاته، إذ يعمل جاهداً لتحويل الناس عن دين الله، فانتقل هذا النوع من الشـــرك إلى العرب قبل الإسلام فعبدوا الأصنام، قال تعالى عن مشركي العرب في ذكرهم للغاية من عبادة الأصنام: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:3].

فقد كان مشركو العرب يعترفون بوجود خالق لهذا الكون، ولكن إشراكهم بالله إنما كان باتخاذهم الأصـــنام شـــركاء مع الله، فلم تكن الحاكمية لله في التحليل والتحريم والخضوع[1].

- التشكيك في العقائد الإيمانية، مثل إنكار الملائكة، والجن وبعث الرسل واليوم الأخر وغير ذلك، فقد اسـتطاع إبليس تشـكيك كثير من الناس في العقائد الإيمانية فطعنت فرق في الملائكة والجن وأنكرت وجودهم وأنكر آخرون اليوم الأخر وطعن فريق بحجة الأنبياء ..إلخ.

قال ابن القيم: "ومن حيله ومكايده – أي إبليس – الكلام الباطل والآراء المتهافتة والخيالات المتناقضـــة التي هي زبالة الأذهان ونحاتة الأفكار والزبد الذي تقذف به القلوب المظلمة المتحيرة التي تعدل الحق بالباطل والخطأ بالصـواب، وقد تقاذفت بهم أمواج الشـبهات، ورانت عليهم غيوم الخيالات، فمركبها القيل والقال والشك والتشكيك وكثرة الجدال، ليس لها حاصل من اليقين تعول عليه ولا معتقد

[1] عالم الجن، عبيدات، مرجع سابق، ص 532

مطابق للحق ترجع إليه، ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام:112] فقد اتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجوراً وقالوا من عند أنفسهم، فقالوا منكراً من القول وزوراً، فهم في شككهم يعمهون، وحيرتهم يترددون، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تلته الشياطين على ألسنة أسلافهم من أهل الضلال، فهم إليه يتحاكمون، وبه يتخاصمون، فارقوا الدليل واتبعوا ﴿ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾" [المائدة: 77][1].

- التشكيك الذي يشمل حياة المسلم بشكل عام:

والتشكيك أسلوب بارز في حرب الشيطان للإنسان يسري على أمور كثيرة وتتسع مجالاته لتشمل تشكيك المسلم بكل شيء.

فهو يشككه في النية التي مدارها انعقاد القلب بفعل أمر من الأمور فتجد بعض الناس ممن يوسوس لهم الشيطان لا يكتفون في نية صلاة بما ورد في السنة، بل يذهبون إلى التكلم بكلام طويل قبل تأديته للصلاة فمثلاً يقول أحدهم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، نويت أصلي صلاة الظهر فريضة الوقت أداء لله إماماً أو مأموماً أربع ركعات مستقبلاً القبلة، ثم يرفع أعضاءه ويحني جبهته ويقيم عنقه

[1] مختصر إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان للإمام ابن قيم الجوزية، أحمد بن عثمان المزيد، ص113. وانظر: عبيدات، عالم الجن، مرجع سابق، ص533

ويصـــرخ بالتكبير كأنه يكبر على العدو. ولو مكث أحدهم عمر نوح يفتش هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أحد من أصحابه شيئاً لما ظفر به إلا أن يجاهر بالكذب البحت[1].

– ومنها التشكيك في الصلاة حيث يأتي الشيطان للمصلي فيلبس عليه في الصلاة ويشككه فيها حتى لا يدري كم صلى.

– منها التشكيك في الوضوء والطهارة، حيث يوسوس الشيطان للإنسان بالإكثار من ذلك في عدد المرات، مما يخرج المسلم عن حد الاعتدال الذي أمر به الإسلام إلى الإسراف الذي هو أحد أعمال الشيطان التي يسلكها مع الإنسان[2].

– من هذه الأساليب التي تعتبر خطراً على المجتمع الإسلامي التشكيك في أعراض المسلمين وسوء الظن بهم، فنجد بعض الناس ممن يروجون للإشاعات التي توحيها إليهم شياطينهم ، فتسري في المجتمع سريان النار في الهشيم وتفتك به مالا يفتكه عدو، ولما يترتب على ذلك من الخطورة فقد نبه القرآن الكريم لذلك وأرسى أسس الثقة بين أبناء المجتمع المسلم بدعوته إلى التثبت في نقل الأخبار أولاً، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6] وزيادة في الحذر والحيطة من

---

[1] مختصر إغاثة اللهفان، المزيد، مرجع سابق، ص 130.

[2] عالم الجن، عبيدات، مرجع سابق، ص 534

وساوس الشيطان ينبغي على المسلم أن يتجنب مواطن الشبهات، وليبادر المسلم إلى أخيه المسلم ويعلمه بحقيقة الأمر إذا وقع في مثل هذه المواقع، فعن صفية بنت حيي زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمت لأنقلب[1]، فقام معي ليقلبني - وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد – فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) على رِسْيلكما[2]، إنها صفية بنت حيي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، قال: وإن الشيطان يجري بالإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً أو قال شيئاً[3].

وقد ورد أن الشيطان يتشكل في صور بعض الناس ويمارس هذه الأمور بنفسه، فعن عبد الله بن مسعود قال: إن الشيطان يتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفرقون، فيقول الرجل منهم: سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث[4].

فهذا الأسلوب من قبل الشيطان إنما يقوم به ليزعزع الثقة بين المسلمين بحيث يروج للكذب والتشكيك، وبذلك يصبح المجتمع في حيرة إزاء هذه المواقف، فتزول

---

[1] لأنقلب: أي لأرجع

[2] على رسليكما: أي اثبتا ولا تعجلا: النهاية في غريب الحديث (223/2)

[3] البخاري، ك بدء الخلق، 336/6. وانظر: صحيح مسلم، 1712/4.

[4] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص536

الثقة، وتنعدم الطمأنينة بين كثير من الناس[1].

ب- تزيين الهوى والمعاصي:

الهوى هو مراعاة رغبة النفس لما تحب مع الميل إلى ذلك بما لا ينبغي، ولذلك غلب على الهوى صفة الذم، وقد ورد أن هذا اللفظ في القرآن الكريم في ثمانية وعشرين موضعاً جميعاً في مجال الذم[2]، فمن ذلك:

- قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 23].

- وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات:40] .

إلى غير ذلك من الآيات.

إن الهوى هو الدافع القوي لكل طغيان وكل تجاوز وكل معصية، وهو أساس البلوى وينبوع الشر، وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى، فالجهل سهل علاجه ولكن الهوى هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق وطويل واتباع الهوى هو ترك الحرية للنفس تفعل ما تشاء دون الشعور برقابة أحد ودون مراعاة خلق أو

---

[1] المرجع نفسه، ص 538.

[2] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص 740.

فضـيلة أو مصـلحة أحد من الناس، لأن عابد هواه قد زين له الشـيطان فعل كل شـيء وأوحى إليه أن كل تصـرف يقوم به إنما هو تصـرف سـليم، ولهذا نجد الله سبحانه يعتبر اتباع الهوى غاية في الضلال[1].

– قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص:50]

.

وأخبر الله تعالى عن الذي انسلخ عن آياته أن انسلاخه إنما كان بسبب اتباعه لهواه، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾[2]، فهو إنسان استعبده الشيطان وركبه لأنه اتبع هواه وإنساق مع رغبات نفسه وشهواتها، إذ الشيطان لا يأتي للنفس إلا عن طريق الشهوات يؤجج نارها في نفوس الناس ويحسنها لهم ويظهرها بمظهر الكسب العظيم الذي لا ينبغي تفويته[3].

والهوى ما تنساق إليه النفس وتهواه استحساناً له، من اعتقاد أو عمل بدافع من ظن كاذب، ورغبة في منفعة زائلة وهو مفتاح المعاصي الذي يدخل منه الشيطان إلى قلب آدم، فقد أخرج الحكيم الترمذي عن عطاف بن خالد قال:

---

[1] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص 539

[2] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص 539

[3] المرجع نفسه، ص 539.

بلغني أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ [آل عمران:135] .

صاح إبليس بجنوده وحثا على رأسه التراب ودعا بالويل والثبور، حتى جاءته جنوده من كل بر وبحر فقالوا: ما لك يا سيدنا؟ فقال: آية نزلت في كتاب الله، لا يضر بعدها من بني آدم ذنب، قالوا ما هي؟ فأخبرهم، قالوا: نفتح لهم باب الأهواء، فلا يتوبون ولا يستغفرون، ولا يرون أنهم على الحق، فرضي منهم بذلك[1].

قال الإمام الغزالي: ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى، لا جرم إن لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولات بالوسوسة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: ما منكم من أحد إلا وقد وكّل قرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير[2].

وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها، فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة وإطراح الآخرة، ومبدأ استيلائها إتباع الشهوات والهوى، ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب من قوت الشيطان، وهو الهوى والشهوات، وعمارته بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر الملائكة[3].

---

[1] سنن الدارامي، 78/1.

[2] مسلم، ك صفات المنافقين، 2167/4.

[3] إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ص 28/3

وهكذا يركب الشيطان الهوى ويسير بصاحبه إلى طريق يصعب الرجوع منها، لأنه كلما أوغل في اتباع الهوى كلما ازداد عشقه وافتتانه به، ومحاسبة النفس على اتباع الهوى أو تركه في موضوع المحنة والابتلاء[1].

واتباع الهوى بفعل المعاصي هو الباب الواسع الذي يدخل منه الشيطان إلى النفس، لأن المعصية مركب الشيطان في الأصل حيث عصى أمر ربه في السجود لآدم، وهو نفس الأسلوب الذي سلكه مع آدم بعد طرده من الجنة فوسوس له حتى أوقعه وزوجه في المعصية وحتى استجابا لهذا الإغراء المزين بالدعوة إلى الملك الخالد والقسم الكاذب[2].

والتزيين هو تحبيب المعاصي والترغيب فيها وعلى هذا فإن إبليس اللعين قد توعد بني آدم بتزيين المعاصي لهم وحملهم على فعلها وقد وصف الله سبحانه واقع الشيطان ومدار عمله بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 169].

إن الناظر في تاريخ البشرية الطويل يرى أن الشيطان قد بلغ من البشرية مراده وصدق فيهم ظنه إلا من عصمهم الله وهم فريق المؤمنين، فإن جميع المعاصي التي وقعت في تاريخ البشرية إنما كانت بفعل كيد الشيطان وتزيينه ابتداء من أكل آدم

---

[1] مختصر إغاثة اللهفان، المزيد، مرجع سابق، ص 74.

[2] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص 541.

وزوجته من الشـــجرة وقتل قابيل أخاه هابيل وفوق ذلك تزيين الكفر والشـــرك وتكذيب الرسـل، كما فعل قوم نوح من بعدهم، وظلت تتوالى المعاصـي على مدار التاريخ حيث يســعر نارها إبليس وجنوده، وهو يدأب ليل نهار على ذلك، يغذيه الحقد والكراهية لهذا المخلوق الـذي كرمه الله تعالى على كثير ممن خلق، فمن لم ينالوا منه معصية الكفر، أغراه بما دونه من المعاصي وهو يريد الكفر[1].

فمن هذه المعاصـي التي يحرص الشـيطان على إغراء بني آدم بها؛ شـرب الخمر ،والفسـاد الجنسـي من شـذوذ وزنا ولواط، والربا، وسـفك الدماء بإشـعال الحروب الظالمة، وغيرها وأبشـع الصـور هو سعي إبليس لإيقاع بني آدم في عبادته، تقديساً وخضوعاً وتذللاً له وقد استطاع إبليس استدراج جماعة من الناس في خضم حملته الشعواء لإغواء البشر وإضلالهم، فاستطاع استدراج مجاميع من بني آدم التي ركنت لأوهامه وأمانيه لها فاســتعبدها حتى آلت إلى النهاية المزرية من الانحطاط والانتكاس، وقد صـدق قول الله في هؤلاء: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[2][المجادلة:19].

ث-التثبيط عن فعل الطاعات:

---

[1] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص 542.

[2] عبيدات، المرجع السابق، ص560.

إن إبليس وجنوده وزيادة على تزيين المعاصي، فإنهم يقومون بتثبيط النفوس عن الطاعة، فعن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضـــرب كل عقدة مكانها، عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضـأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عُقْدُة كلها: فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان[1].

والشيطان يحاول التدرج مع الإنسان في المعاصي، فإن عجز عن تكفيره، فإنه يحاول إيقاعه في البدع، فإن عجز حاول إيقاعه في كبائر الذنوب، فإن عجز حاول إيقاعه في صـــغائر الذنوب، فإن عجز حاول إشـــغاله في المباحات التي لا ثواب عليها ولا عقاب فيكون قد شغله عما يثاب عليه من فضائل الأعمال، فإن عجز عن ذلك كله حاول أن يشوش على المؤمن فكره ويعكر عليه صفاءه[2].

قال ابن الجوزي: كم خطر على قلب يهودي ونصراني حب الإسلام، فلا يزال إبليس يثبطه ويقول له: لا تعجل وتمهل في النظر، فيســوِّفه حتى يموت على كفره، وكذلك يسوف العاصي بالتوبة، فيجعل له غرضه من الشهوات ويمنيه الإنابة كما قال الشاعر:

---

[1] البخاري، ك بدء الخلق، 335/6.

[2] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص 548.

لا تعجل الذنب لما　　　　　　وتأمل التوبة من قابل

وكم من عازم على الجد سوَّفه وكم من ساع إلى فضيلة ثبطه، فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه، فقال: استرح ساعة أو انتبه العابد في الليل يصلي فقال له: عليك وقت، ولا يزال يحبب الكسل، ويسوّف العمل ويسند الأمر إلى طول الأمد[1].

والشيطان هو الذي يلقي في نفس الإنسان أن الإنفاق على المحتاجين يذهب المال، ويأمره بالإمساك والبخل والحرص عليه، وعدم دفع الزكاة لمستحقيها ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: 268][2].

4- قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:40]:

هذا استثناء من قول إبليس السابق، وتهديده بإغواء الناس أجمعين، فقد استثنى هو عما قال هناك في الآية السابقة، استثنى هؤلاء العباد المخلصين فكأن الآيتين آية واحدة لشدة الارتباط.

- ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء.

- ﴿عِبَادَكَ﴾: مستثنى مما ذكر سابقاً وهم البشر جميعاً.

[1] تلبيس ابليس، ابن الجوزي، مرجع سابق، ص 404.

[2] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص 549.

وأضـــاف العباد إلى كاف الخطاب العائدة إلى الله تعالى الذي كان يخاطبه في الآية السابقة بقوله (رب)، فهو يفهم تماماً أن هؤلاء لا سلطان له ولا لغيره عليهم.

- ﴿مِنْهُمُ﴾: من للتبعيض، والضـــمير (هم) عائد على العباد وقدم (منهم) للاهتمام.

- ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾: بفتح اللام من أخلص بفعل فاعل خارج عن إرادته.

والمخلصين بكسر اللام هم من أخلصوا أنفسهم لله، والجمع بينهما هو الأصل والأساس[1].

هذا الشرط الذي قرره إبليس وهو يدرك أن لا سبيل إلى سواه، لأن سنة الله أن يستخلص لنفسه من يخلص له نفسه وأن يحميه ويرعاه[2]. وقد قال النسفي: استثنى المخلصين لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلونه منه[3].

وفي مختصر تفسير البغوي: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:40]؛ أيّ المؤمنين الذين أخلصـــوا لك الطاعة والتوحيد، ومن فتح اللام أي من أخلصـــته بتوحيدك فهديته واصطفيته[4].

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 242

[2] في ظلال القرآن نقلا عن تفسير سورة الحجر، سيد قطب، مرجع سابق، ص 242

[3] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 242

[4] مختصر تفسير البغوي، المرجع السابق، 493/4.

إن الإخلاص أســاس الدين، ولا يقبل الله ديناً ليس خالصــاً: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ ومن أخلص نفسه لله خلصه الله من كل الشوائب فصار من المخلصين أي من قبل الله تعالى، والعبودية لله أرفع مقامات الإنسانية[1].

أ- الإخلاص طريق النجاة:

كل عمل لا يبتغي به صاحبه وجه الله دون سواه يكون هباء ويُرمى في وجهه يوم الحساب، فالنوافل والخيرات والمبرات والطاعات إذا لم تصاحبها النية الصادقة والتجرد المطلق لله سبحانه، لا تكون في ميزان صاحبها يوم القيامة، بل تعود عليه بالوبال والحسرات[2].

فالذي يصوم لينتفع بالحمية أو يسافر للراحة أو هرباً من ضر أو يروي الحديث ليعرف بعلو الإسناد أو يطلب العلم ليماري به أهل العلم وتعلو مكانته بين العامة، أو يتصــدق مباهاة، أو يحج للســمعة، أو يقاتل ليعرف بالشــجاعة ويرى مكانه، يحبط عمله وهو في الأخرة من الخاسرين[3].

قــال تعــالى: ﴿وَقَـدِمْنَـا إِلَى مَـا عَمِلُوا مِنْ عَمَـلٍ فَجَعَلْنَـاهُ هَبَـاءً مَنْثُورًا﴾ [سورة الفرقان:23] .

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 243.

[2] في التزكية والسلوك، عدنان سعد الدين، ص29.

[3] المرجع نفسه، ص 29.

فالإخلاص شـــرط القبول لكل اجتهاد وجميع الأعمال تكون عرضـــة لضـــياع وذهاب الأجر، بل ولارتكاب الوزر إن لم تكن محصـــــنة بالإخلاص نقية من كل غرض أو خاطر دنيوي، بل ينبغي أن يقصـــد بها صـــاحبها وجه الله دون ســـواه ملتمساً في عمله رحمة المولى ورضاه.

والمؤمن في ســـلوكه الرباني تعتريه آفات قد تهوي به إلى مكان ســـحيق، إذا لم ينتبه لها ويحذر شرها، وأخطر هذه الآفات الرياء وحب الشهرة، فالرياء مرض وبيل تغري به وســاوس الشــيطان وتلح عليه، وهواجس النفس، ودواعي الهوى، فيكون ظاهراً حيناً وباطناً أحياناً، ينتهي بصـــاحبه إلى الشـــرك الخفي، وهو الرياء الأخطر على مصـير المؤمن، لأنه يدغدغ عواطفه، ويحرك مشـاعره ويجسـد طموحه وميوله، فلا مناص من مواجهته ومحاصـــرته وقهره والتخلص من شـــره، بالاســـتعانة بالله واللجوء إليه والاحتماء به أولاً، ثم بالإخلاص الذي هو مســـك القلب، وماء حياته، ومدار الفلاح كله عليه[1].

وبالإخلاص لله تعالى تكون حركة المؤمن وسكونه في سره وعلانيته ولا يمازجه شيء لا نفس ولا هوى ولا دنيا[2]، وهو سر الإخلاص وجوهره.

وأما حب الشــهرة، فإنها مرض فتاك ومطية للشــيطان، يســهل عليه امتطاؤها

[1] صلاح الأمة في علو الهمة، سيد حسين العفاني، ص 107/1.

[2] في التزكية والســلوك، ســعد الدين، مرجع ســابق، ص 30. وانظر: صــلاح الأمة في علو الهمة، العفاني، مرجع ســابق، ص 107/1.

والنفس التي تأمر بالسوء والفحشاء والمعاصي ساعية لها وحريصة عليها، فإذا لم يعتصم المؤمن بربه ويبرأ من أي رغبة أو ميل للشهرة وحب الظهور أمام الخلق بأعمال صالحة يكون من الهالكين، فالنجاة من هذا البلاء –حب الشهرة– أن لا يمازج العمل الطيب بما يشوبه مما تتطلع إليه النفس من التزيُّن في قلوب الخلق، أو طلب مدحهم، أو الهرب من نصحهم، أو طلب تعظيمهم، أو الطمع في أموالهم، أو الرغبة في خدمتهم، أو محبتهم، أو قضائهم لحوائجه، أو غير ذلك من الشوائب[1] التي يفرزها حب الظهور والشهرة.

– قال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله عبداً أحب الشهرة[2].

– وكان ابن محيريز يقول: اللهم إني أسألك ذكراً خاملاً.

– وقال عبد الله بن المبارك: قال لي سفيان: إياك والشهرة فما أتيت أحداً من العارفين إلا ونهاني عن الشهرة[3].

– وقال بشر بن الحارث: ما اتقى الله من أحب الشهرة[4].

فالإخلاص هو قارب النجاة لكل السائرين والسالكين لطريق الهدى، والتُقى

---

[1] في التزكية والسلوك، سعد الدين، مرجع سابق، ص31.

[2] صلاح الأمة في علو الهمة، العفاني، مرجع سابق، ص 108/1.

[3] العفاني، المرجع نفسه، ص 128/1.

[4] في التزكية والسلوك، سعد الدين، مرجع سابق، ص31.

هو المفتاح لكل أبواب الخير، بل هو السـر الرباني الذي اسـتودعه قلوب عباده الذين يحبهم ويحبونه وهو طريق الخلاص للمؤمنين من الرياء وحب الشـهرة، من الهواجس النفسـية والمزالق المنكرة التي يدفع الشـيطان إليها المؤمنين في وسـاوسـه وتلبيسـاته وذلك ما حذر منه القرآن الحكيم، والرسـول الكريم، والصـادقون المخلصون من العارفين[1].

ب- عناية القرآن الكريم بالحديث عن الإخلاص:

يعد الإخلاص جوهر الأخلاق الإيمانية ونقطة دائرتها لأنه هو المميز لما يترتب على الأخلاق الحسـنة من المدح والثواب وعظم المنزلة في الآخرة، فما كان منها مراداً به وجه الله أثمر الثمرة النافعة، وما تجرد منها عنه أو ما شـابه شـيء غير الله تعالى كان فاقد الأثر الحميد، لذلك كان لابد أن يتصـدر هذا الخلق كل الأخلاق السـلوكية الإيمانية والفردية والاجتماعية لما يقصـد به من تهذيب النفس وتزكيتها وتجردها عن الشـوائب المكدرة لصـفاء الأخلاق الإسـلامية[2]. ولهذه المكانة التي يتبوؤها هذا الخلق العظيم ،كانت عناية القرآن الكريم به كبيرة أمراً وترغيباً وثناءً على أهله، وتنويهاً وتبياناً لعظيم جزائهم عند الله تعالى في آيات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال مع الاختصار:

[1] في التزكية والسلوك، سعد الدين، مرجع سابق، ص 32.

[2] أخلاق النبي في القران والسنة، أحمد عبد العزيز قاسم الحداد، ص 158/1.

- قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:29] .

- وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: 14] .

- وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 65].

هذه الآيات وغيرها تأمر المؤمنين بلزوم الإخلاص في عباداتهم: دعاءً أو صلاةً أو زكاةً أو صياماً أو حجاً أو غيره[1]، ولم يكن المؤمنون من هذه الأمة هم الذين خوطبوا بمثل هذه الخطابات وألزموا بهذا الخلق العظيم، بل كل الأمم السابقة قد أمرت بمثل تلك الأوامر وأريد منهم ما أريد من المسلمين كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5].

وذلك لأن الدين عند جميع الشرائع ولدى جميع الرسل هو الإسلام كما قال سبحانه:﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:19].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ

---

[1] أخلاق النبي في القران والسنة، قاسم الحداد، مرجع سابق، ص 159/1.

الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:85].

وقد أثنى الله عز وجل ونوّه بأهل الإخلاص في كتابه وكان أولى من ينال ذلك التنويه العظيم أعظم الناس إخلاصاً لله تعالى وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولذلك أشاد الله تعالى بإخلاصهم وأعظم في الثناء عليهم كما قال جل ذكره عن موسى عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم :51].

– وقال عن يوسف (عليه السلام): ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:24] .

– وقال عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: 139] .

فتأمل مبلغ الثناء الذي تحمله الآيات على هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وذلك لإخلاصهم لله تعالى، حيث اختار الله تعالى هذا الخلق للثناء عليهم به دون بقية الأخلاق الفاضلة الكريمة التي كانوا يتحلون بها وهي كثيرة ككثرة الأخلاق الفاضلة نفسها، وهذا يدل على أن هذا الخلق كان أبرز سماتهم، وأخص خصائصهم، وقد دل على ذلك الواقع العملي من رسالاتهم، حيث بذلوا كل ما في وسعهم من طاقة لتبليغ رسالات الله والدعوة إلى الإيمان به وترك الإشراك به دون أن يكون لهم أي قصد شخصي أو نفع مادي، حسي أو معنوي يحملهم

على بذل ذلك الجهد العظيم في الدعوة والبلاغ، وكانوا يقولون لأقوامهم عند دعوتهم إياهم:﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:109] فقد وردت هذه الآية على لسان أكثر الرسل بنصها أو قريب منها وهي تدل على كمال تجردهم عن الأغراض الشخصية وكمال إخلاصهم في الدعوة إلى الله تعالى[1].

ولما كان المخلصون، قد تجردوا من كل شائبة تكدر صفو إخلاصهم، فصفت عباداتهم عن الأغيار، ونياتهم عن التشريك والأخطار، فحققوا مبدأ العبودية الحقة حيث صاروا لا يسمعون ولا يبصرون ولا يتكلمون ولا يفعلون ولا يذرون إلا بالله ولله، فكانوا بذلك أهلاً لأن ينالوا كل مكرمة عاجلة أو آجلة، وذلك ما منحهم الله تعالى إياه كما تحدثت بذلك آيات كتابه المبين.

- إن أول تلك المكرمات وأعظم تلك الهبات الفاضلات هي عصمتهم من الشيطان الرجيم الذي آلى على نفسه أن يغوي بني آدم حتى يشركهم معه في سخط الله وغضبه ولعنته وناره، فإن إبليس عليه اللعنة عندما يجيء إلى هذا الصنف من الناس لا يجد إليهم سبيلاً، لأن الله عصمهم منه فيبقون في حفظ الله ورعايته عابدين خاشعين قانتين كما تحدثت عن ذلك آيات كثيرة من الكتاب

[1] أخلاق النبي في القران والسنة، قاسم الحداد، مرجع سابق، ص 161/1.

العزيز[1].

- وأما ثاني تلك المكرمات فهي النجاة من عذاب الله تعالى وإسبال جزيل النعم في الدنيا والأخرة كما دل ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ۝ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ۝ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۝ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۝ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ۝ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ [الصافات: 38- 49].

فترى أي نعيم يناله أحد من عباد الله تعالى أكبر من هذا، ولقد سرد الله تعالى تعدادا لبعض أصنافهم تبهيجا لأنفس السامعين والقارئين وتبيانا لمنزلة أولئك المخلصين، وما أعظم أثره في الأنفس لا سيما بعد أن ذكر عذاب الكافرين[2].

وليس النجاء من عذاب الله للمخلصين قاصراً على إنجائهم من عذاب الأخرة، بل عذاب الدنيا ينجون منه كذلك، كما دل عليه قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ۝ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فكان إخلاصهم لله في التوحيد والعبادة

[1] أخلاق النبي في القران والسنة، قاسم الحداد، مرجع نفسه، ص 162/1.
[2] قاسم حداد، المرجع نفسه، ص 163/1.

قد أنجاهم من عذابه الأليم.

ولهذا كانت البشرية عندما ترى أنه قد أحاط بها عذاب الله تلجأ إلى الإخلاص إلى الله تعالى، علّها تدرك رحمة الله بالمخلصين، فتخلصهم مما حل بهم من العذاب كما قضى الله تعالى ذلك على ألسنة أقوام ممن أدركتهم سنة الله تعالى في إهلاك الكافرين الجاحدين في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس:22،23].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان:32].

فترى أن سنة الله تعالى لم تختلف عمن تحلى بهذا الخلق العظيم فهؤلاء الذين كان مصيرهم في خطر لم يجدوا بداً من صرف الالتجاء إلى الله تعالى وإخلاص العبودية له، ولم تختلف عنهم سنة الله تعالى في إنجاء المخلصين من العذاب، بل أدركتهم فخلصتهم مما كان قد أحيط بهم: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:23].

غير أن أولئك الناجين سرعان ما انقلبوا لما آمنوا الخطر فعادوا إلى ما كانوا

عليه من الكفر والطغيان، وستحيط بهم سنة الله في الأخرة من العذاب كما قال تعالى سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:23] [1].

إن الإخلاص هو قارب النجاة وهو المفتاح لكل أبواب الخير، قال الجنيد: إن لله عباداً عقلوا فلما عقلوا عملوا، فلما عملوا أخلصوا، فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع[2].

وقال المحاسبي في رسالة المسترشدين: "وعن الإخلاص يتشعب اليقين والخوف والمحبة والاجلال، والحياء والتعظيم، فالصدق ثلاثة أشياء لا تتم إلا به: صدق القلب بالإيمان تحقيقاً، وصدق النية في الأعمال، وصدق اللفظ في الكلام"[3].

وأما شعب الإخلاص، فلا يسمى المخلص مخلصاً حتى يفرد الله عز وجل من الأشياء والأنداد والصاحبة والأولاد[4].

وقال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا يا أبا علي ما أخلصه وما أصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإن كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله،

---

[1] أخلاق النبي في القران والسنة، قاسم الحداد، مرجع سابق، ص 164/1

[2] إحياء علوم الدين، الغزالي، مرجع سابق، ص 324/4

[3] في التزكية والسلوك، سعد الدين، مرجع سابق، ص 35.

[4] سعد الدين، المرجع السابق، ص 35.

والصـــواب: أن يكون على الســـنة ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:110] [1].

تاسعاً: قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُـــلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: 41-44].

وأوضـح الحق سـبحانه وتعالى أن صـراطه المسـتقيم هو الذي يقود العباد إلى الطاعة، فليس في الأمر تفضـــل من إبليس الذي ســـبق له أن حدد المواقع والاتجاهات التي سيأتي منها لغواية البشـر، حيث قال الحق سـبحانه ما جاء على لســـان إبليس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـــاكِرِينَ﴾ [الأعراف:17]، وقد حدد إبليس في هذا القول جهات الغواية التي يأتي منها وترك (الفوق) و (التحت)، لذلك نقول: إن العبد إذا استحضر دائما علوّ عزة الربوبية، وذلّ العبودية، لا يدخل له أبداً[2].

1- قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر:41].

رد الله على ما قال إبليس وما سجّلته الآية السابقة من استثناء المخلصين من

---

[1] مدارج السالكين، ابن القيم، مرجع سابق، ص 7706/12.

[2] تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ص 12/ 7706.

خطة الإغواء[1].

- ﴿قَالَ﴾: أيّ المولى الجليل سبحانه وتعالى.

- ﴿هَذَا﴾: اسم إشارة للقريب.

- ﴿صِرَاطٌ﴾: طريق نهج.

- ﴿عَلَيَّ﴾: ألزمت به نفسي.

- ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾: أيّ لا يميل ولا يحيد ولا يتحول ولا ينحرف ولا يتغير، وهو ما ستذكره الآية التالية.

والتعبير كله كناية أراد الله أن يوصل بها إلينا عهداً قطعه على نفسه/ وجعله قانوناً وناموساً مطرداً لا يتغير، وهو تحصين عباده من سلطان إبليس وهيمنته عليهم وإخراجهم من دائرة سلطانه.

- قال النسفي: قال هذا هو طريق مرجعه إليّ فأجازي كل امرئ بعمله إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ[2].

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 243.

[2] المرجع نفسه، ص 244.

- قال مخلوف: "قال": أيّ الله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي تخليص المخلصين من أعوانه حق علي أن أراعيه ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾: أي لا عدول عنه[1].

- وقال ابن كثير: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أيّ: مرجعكم كلكم إليّ فأجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:14].

وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي قاله مجاهد والحسن وقتادة[2]. وقيل: إن معناه هو عليّ استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية[3].

وقال الحجازي: في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ وقضاء قضيته على نفسي محتوم، إنك يا إبليس ليس لك سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانك على الذين لم يخلصوا بالإيمان، ولم يعمر قلوبهم نور الروح ولم يتصل بهم سرّ الله اتصالاً وثيقاً[4].

ومن دروس هذه الآية:

- قانون ثابت لله لا يتغير أن يخلّص المخلصين من سلطان الشياطين.

---

[1] صفوة البيان لمعاني القرآن، مخلوف، مرجع سابق، ص 337.

[2] التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المغراوي، مرجع سابق، ص 17/ 486

[3] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 246

[4] التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، ص 283/2

– الالتزام الإلهي بشـــيء هو أمر ألزم الله به نفســه، ولا يلزمه ولا يوجب عليه أحد.

– الطريق إلى الله ومرضاته واحد هو الصراط المستقيم وسبل الغواية التي تمزق الناس وتفرقهم وتجعلهم تبعاً للأهواء هي طرق معوجة متعرجة متعددة مهلكة، والعذاب الأليم في أخرها بانتظار ســالكيها، والشــيطان على رأســها وفي بدايتها يزينها للسالكين ويحسنها للمارين والعابرين من الغاوين[1].

2– قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُــلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [سورة الحجر:42].

هذا تصريح ألزم الله به نفسه، فقد قال في الآية السابقة: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْــتَقِيمٌ﴾؛ فما هو الذي أوجبه الله على نفســه وألزم به ذاته، وإنه ما بينته هذه الآية: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، وهنا الأمر أوضح من أن يحتاج إلى بحث، فالآيتان في نسق واحد[2].

أ– المعنى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُـلْطَانٌ﴾: هذه الآية شقان هذا هو الشق الأول منهما والثاني ما بقي منها وهو الاستثناء وما بعده.

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 248

[2] نوفل، المرجع السابق، ص 248

- ﴿إِنَّ﴾: للتوكيد أشد التوكيد.

- ﴿عِبَادِي﴾: أضافهم سبحانه إلى ياء المتكلم وضميره العائد إليه، لانتسابهم له وتشريفاً لهم وتكريماً فنسبهم إليه، ولم ينسبهم إليه بنون الجمع لأن الإفراد هنا أنسب فالشيطان يتوعد بأن يكون له نصيب منهم، فناسب أن ينسبهم إليه بالضمير المفرد، والله أعلم.

والعباد هم من اختاروا العبودية لله وارتضوها منهجاً لحياتهم والتزاماً بالطاعة وتنفيذ أوامر المولى الكريم سبحانه، وهذه العبودية هي منتهى كرامة الإنسان ومنتهى شرف الانتماء والانتساب.

والإنسان مخير بين عبودية من يستحق العبادة أو عبودية من لا يستحق، والعاقل من اختار أن يعبد خالقه ورازقه ومن إليه المصير سبحانه. أما الأحمق هو من اختار العبودية لعدوه الشيطان أو لأي معبود ليس له من الأمر شيء.

- ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؛ لا قوة لك ولا تأثير لك على عبادي ولا نفوذ ولا هيمنة[1].

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 249

ب- ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾؛ استثنى من هؤلاء من تبع إبليس من الغاوين أي من الضالين. ولاحظ تكرار: ﴿فبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ و﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾، والآن ﴿الْغَاوِينَ﴾.

ويكرر القرآن أحياناً لفظة ليرسخها في الذهن وليقرّها في الوجدان والوعي. وهل الاستثناء متصل أم منقطع؟

هذا يعتمد على تفسيرنا لكلمة ﴿عِبَادِي﴾ فإذا قلنا إن عبادي هنا بمعنى من اختار منهج العبودية لله وانضبط به والتزمه، فيكون الاستثناء منقطعاً، ولعله الأرجح، وإن كانت العبودية في كلمة ﴿عِبَادِي﴾؛ هي ما قهر عليه العباد من العبودية لا ما اختاروه، كما قال تعالى في نظرائهم: ﴿أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾؛ فالعبودية هنا بمعناها العام فكل ما في الكون عباد أو عبيد بمعنى مقهورين على العبودية لا فكاك لهم منها، وعلى هذا فالاستثناء متصل[1].

- قال ابن عاشور: إن الله وضع سنة في نفوس البشر أن الشيطان لا يُسلط إلا على من كان غاوياً، أيّ مائلاً للغواية، مكتسباً لها دون كبح نفسه عن الشر[2].

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص250

[2] نوفل، المرجع السابق، ص 250

– قال النسفي: أيّ هذا حق علي ألّا يكون لك سلطان على عبادي إلا من اختار إتباعك منهم لغوايته[1]. وقال السعدي: الغاوي: ضد الراشد، فهو الذي عرف الحق وتركه والضال الذي تركه من غير علم منه به[2].

قال دروزة: ﴿الْغَاوِينَ﴾: الضالين الذين سلكوا سبيل الغواية وانحرفوا عن الحق وطريق الهدى. وفي الآيات تذكير بآدم وموقف الملائكة وإبليس من أمر الله تعالى بالسجود له، وتوكيد رباني بأنّ الذين يتبعون إبليس وتزييناته وينحرفون عن طريق الحق والهدى هم الأشرار الغواة الذين فسدت أخلاقهم وحق عليهم بسبب ذلك عذاب جهنم وبأن إبليس لن يكون له سلطان وتأثير على عباد الله الصالحين المخلصين الذين حسنت نواياهم وطابت أخلاقهم فاتبعوا الحق والهدى[3].

ج-مدى سلطان الشيطان على الإنسان:

بعض الناس يتصورون أن للشيطان قدرة يستطيع بها أن يجبر الإنسان على ترك الطاعات وفعل المعاصي، ومن ثم فلا ذنب على الإنسان إذا قصر في طاعة الله أو فعل معصية من المعاصي.

وهذا التصور إنما سببه الجهل بالقرآن الذي بيّن حقيقة الشيطان، وبأنه ليس

---

[1] نوفل، المرجع نفسه، ص 250

[2] المرجع نفسه، ص 250

[3] التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، ص 48/4

له سلطان بقهر الإنسان على فعل المعصية أو يثبطه عن القيام بالطاعة لأنه في هذا التصور يكون مشاركاً لله في القدرة على قهر العباد وجبرهم على ما يشاء، وهذا هو عين الشرك في الربوبية، ولو كان للشيطان مثل هذه السلطة لكان في ذلك مناقضة لتكليف الله للبشر، وفي ذلك مناقضة صريحة لما في القرآن الكريم؛ لأن التكليف مبني على قدرة الإنسان في اختيار الخير أو الشر وانتفى الاختيار عند الإنسان -بسبب إجبار الشيطان له على فعل المعاصي وترك الواجبات- لكن في ذلك بطلان التكليف من قبل الله للإنسان، وهذا الكلام لا يقول به إلا كافر أو جاهل، لأن بعث الله للرسل على مدار التاريخ إنما جاء لاختبار هذه الإرادة عند الإنسان، فإما أن يستجيب هذا الإنسان لداعي الله، وإما أن يستجيب لداعي الشيطان الذي يوسوس للإنسان بالجنة أو النار ولقد نص القرآن الكريم أن يكون للشيطان سلطان على الكافرين فضلاً عن المؤمنين بقهرهم أو بالحجة لما يدعوهم إليه.

وقد بيَّن القرآن الكريم حدود سلطان الشيطان على الكافرين، وأنه مجرد دعوة للكفر والمعاصي، والاستجابة منهم له في ذلك بقول الله عز وجل في هذا الشأن حاكيا عن الشيطان، فقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم:

[22

وها هو الشـيطان في الأخرة يُعلن في صَـغار وإنكسـار تخليه عن أتباعه الذين أطاعوه فيما زين لهم من المعاصي، مما يوضح لهم أنه لم يكن له سلطان يجبر هؤلاء على ما كان سـبباً في دخولهم جهنم، قال الإمام الشـوكاني في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ....﴾ [إبراهيم: 22]؛ أيّ: وما كان لي تسلط عليكم بإظهار حجة على ما وعدتكم به وزينته لكم ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْـتَجَبْتُمْ لِي﴾؛ أيّ إلا مجرد دعائي لكم إلى الغواية والضـلال بلا حجة ولا برهان. وقيل: المراد بالسـلطان هنا: القهر، أيّ ما كان لي عليكم من قهر يضـطركم إلى إجابتي، وقيل: هذا الاستثناء هو من باب تحية بينهم وضرب وجيع، مبالغة في نفيه للسلطان عن نفسه، كأنه قال: إنما يكون لي عليكم سلطان إذا كان مجرد الدعاء من السلطان، وليس منه قطعاً[1].

وهذه الأقوال بمجملها تدل على انتفاء السلطان من قبل الشيطان على أتباعه في الدنيا، وأن وظيفته كانت منحصـرة في الدعوة إلى الغواية والضـلال، وهذه الدعوة البراقة معراة عن الحجة والبرهان من جهة وبعيدة عن القهر والسـلطان من جهة أخرى، وإذا انتفى الأمران انتفت معهما دواعي الاسـتجابة لهذه الدعوة من

[1] تفسير فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ص 103/3.

قبل الشيطان وبناء على ذلك فلا لوم ولا عتاب[1]. ولقد قام لهم الشيطان في هذا اليوم مقاماً يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم فأوضح لهم:

- أن مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله سبحانه، وأنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد، ولم يقف لهم بشيء منها.

- أنه لو قبلوا قوله بما لا يوجب القبول ولا يتفق مع عقل عاقل لانعدم الحجة التي لا بد للعاقل منها في قبول قول غيره.

- أنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان، الخالية من أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء.

- أنه نفى عليهم ما وقعوا فيه، ودفع لومهم له، وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم، لأنهم هم الذين قبلوا الباطل، الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل.

- بأنه لا نصرة من عنده ولا إغاثة ولا يستطيع لهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضرراً، بل هو مثلهم في الوقوع في البلية والعجز عن الخلوص عن هذه المحنة.

- بأنه صرح لهم بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه، وأثبتوه له، فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب[2].

---

[1] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص 392.

[2] تفسير فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ص 3/103-104، منقول بتصرف. وانظر: عالم الجن، عبيدات، مرجع سابق، ص 494.

وبهذا يتبين أن الله لم يجعل للشيطان سلطاناً على بني آدم، لتكون إرادة الناس حرة في اختيارها طريق الخير أو الشر، ومن ثم فليس له سلطان على الإنس في عقائدهم وتوجيه إرادتهم للأعمال السيئة، فإن ذلك مما لا سبيل إليه.

وإذا كان الشيطان قد أعلن بأنه لا سلطان له في إجبار الناس على المعاصي ولا حجة له عليهم فيما يدعوهم إليه، وإنما يتحدد سلطانه في دعوتهم إلى الباطل وتزينه لهم، حباً للفساد، وكيداً الإنسان، لعمق عداوته له منذ استكبر عن السجود لآدم، فمع من تثمر هذه الدعوة إذن بقبولها ومن هم الذين يرفضونها في مقابل ذلك؟

لقد أجابنا القرآن الكريم على هذا السؤال في كثير من الآيات الكريمة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل :100-99]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ:21-20]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:39-42]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ

وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:65] .

إن هذه الآيات التي سقناها تبين لنا أن دعوة الشيطان للضلال والفساد إنما تثمر مع الذين يعرضون عن ذكر الله ويتركون السلاح الذي أمر الله بالتسلح به ضد وساوس الشيطان ومراوغاته التي لا تهدأ لجر هذا الإنسان إلى الهاوية أما المؤمنون فقد عرفوا السلاح الذي يقاومون هذا التسلط[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:201]، وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:200].

وإن الطائف هو الوسوسة أو مبدؤها، وهو إذا مس المؤمنين تذكروا فإذا هم مبصرون، فلا يقعون في فخ طاعته[2].

وكلما قَوي الإيمان كلما ازداد الشيطان بعداً، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إيه يا ابن الخطاب: والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط إلا سلك فجاً غير فجك"[3].

وفي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ

---

[1] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص 395.

[2] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع نفسه، ص 395.

[3] البخاري، ك فضائل الصحابة، 41/7.

الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:42] .

وفي هذه الآية دروس وعبر منها:

- العبودية لله تحرر الإنسان من العبودية لسواه.

- لا حر إلا من اختار نهج العبودية لله.

- العبودية نوعان: عبودية اختيار وهؤلاء هم العباد وعبودية اضـــطرار وهؤلاء هم العبيد.

- يكرر الله تعـالى في القرآن لفظـة ليقررهـا في الـذهن: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ و﴿الْغَاوِينَ﴾.

- الإنسان بين خيارين إما الهدى والرشاد وإما الغي والضلال.

- كل الناس في النهاية عابدون لكن جل هؤلاء يعبدون الشـــيطان ومن لا يستحق العبادة، وقليل من العباد من يعبدون الله حقاً وهو الله الحق الجليل العظيم سبحانه وقد كرر القرآن قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1].

3- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:43] .

تكلم المولى تعالى في الآية الســابقة عن صـنفي العباد المهتدي والضـال، وهذا

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق ص 251.

الضال هو من يتبع الشيطان، وهنا في هذه الآية يبين لمن اختاروا هذا المسير، بأن لهم جهنم وبئس المصير وأنها موعد مضروب لهم سيلقونه لا محالة.

- ﴿وَإِنَّ﴾: الواو للعطف أو للاستئناف والتوكيد وظيفة إن.

- ﴿جَهَنَّمَ﴾: هذا واحد من أسماء النار، أي جهنم موعد جميع من اتبع إبليس[1].

- ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾: اللام المزحلقة لتأكيد المؤكد أصلاً، لمزيد من اليقين والموعد مكاني وزماني وهنا تأتي الكلمة بالمعنيين.

- ﴿أَجْمَعِينَ﴾: توكيد ذلك.

قال المراغي: أي أن جهنم موعد جميع من اتبع إبليس وهي مقرهم وبئس المهاد جزاء ما اجترحوا من السيئات وكفاء ما دنّسوا به أنفسهم من قبيح المعاصي[2].

ومن دروس هذه الآية:

- الموعد تأتي للزمان والمكان وهنا اجتمع الاثنان.

- كل من أطاع الشيطان واتخذه ولياً وتبعه فالنار موعده.

---

[1] التدبر والبيان في تفسير القرآن لصحيح السنن، المغراوي، 486/17.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 253.

- الاســتهانة والاســتهتار والاســتخفاف أهلكت الكثيرين من الخلف، ولو أخذوا الأمور بجدية لاستقام حال كثر منهم.

- كيف لا يُبالي الإنسان بمصيره هذا، والله إنه لأمر عجب[1].

4- قال تعالى: ﴿لَهَا سَــبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُــومٌ﴾ [الحجر:44]

في جهنم يكون موعد الغاوين، ومعهم كبيرهم إبليس الذي أبى واســتكبر، وصــممّ على غواية البشــر. وإن ألوان هذا العذاب ســتختلف، ولكل جماعة لهم جريمة يقرنون بها معاً، فمن يشــربون الخمر ســيكونون معاً ومن يلعبون الميســر يكونون معاً.

ولكل باب من أبوب جهنم جماعة تدخل منه ربطت بينهم في الدنيا معصــية ما وجمعهم في الدنيا ولاء ما، وتكونت بينهم صــداقات في الدنيا، واشــتركوا بالمخالطة ولذلك عليهم الاشــتراك في العقوبة والنكال وهكذا يتحقق قول الحق ســبحانه وتعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُــهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67] .

وفي الجحيم أماكن تأويهم، فقســم يذهب إلى اللظى وأخر إلى الحطمة وثالث

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، المرجع نفسه، ص253.

إلى سقر، ورابع إلى السعير وخامس إلى الهاوية. وكل جزء له قسم معين به: في كل قسم دركات، لأن للجنة درجات وللنار دركات تنزل إلى أسفل[1].

- ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: الضمير في لها عائد على جهنم المذكورة في الآية السابقة، ويطلق العرب العدد ويقصدونه أحياناً ولا يقصدونه أحياناً بل يقصدون التكثير ولكنه هنا مقصودٌ قطعاً وتماماً كقوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ فهذا العدد مقصود وإنما غير المقصود ما يكون فيه معنى التكثير، ورقم سبعة ليس كذلك لكن قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾؛ لا يعني بحال أن المرة الواحدة والسبعين تُقبل، ويقبل الاستغفار لهم، ليس كذلك، فالسبعون هنا للتكثير.

وقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ فالألف هنا للتكثير والسياق والعُرف اللغوي يحددان، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ فهنا الألف للعدد وللحقيقة، وليس للمجاز والتكثير.

- ﴿أَبْوَابٍ﴾: جمع باب ولك أن تتخيل سعة الباب حتى يتسع لمرور هذه الملايين ممن أغواهم الشيطان وأضلهم وخدعهم واستعبدهم.

---

[1] تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ص 7709/12.

إن كل باب له سعته من كثرة الداخلين وبحسبهم وبما يناسبهم وروّاد جهنم مع الأسف كثير، لأن الشيطان اجتهد في دعوتهم وقصرنا في دعوتهم فحاز منهم أكثر مما حاز دعاة الحق والخير. لا لأن دعوته أكثر تأثيراً، بل لأنه هو أكثر إصراراً واستمراراً ومثابرة، ليلاً ونهاراً وأتباعه مثابرون مثله.

– ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾: وهل المدخل أو الباب له علاقة بالذنب أو نوع الجريمة!؟

إذن تكون الأبواب للتخصص في الجريمة أو المعصية، فمثلاً باب مخصص للمتكبرين، وآخر للظالمين والطغاة، وباب للمفسدين وهكذا. كما في الأثار عن أبواب الجنة، مثل باب الريان للصائمين وهكذا.

أم هي أبوب لمجرد تنظيم دخول الداخلين!؟ ولا نقول خروج الخارجين لأن من دخلها من أصحاب المؤبدات لا يخرج منها ويخرج منها عصاة المؤمنين بعد أن يقضوا مدة محكوميتهم ويتغمدهم الله برحمته فيخرجون والأصل عدم الخروج أعني للجهنميين[1].

ولكل باب من السبعة أبواب حصة ونصيب وجزء معين مقسوم محدد منهم أي من أهل النار ولم ترد مقسوم في القرآن إلا هنا[2]. وقال الدكتور الزحيلي: أخبر الله سبحانه أن لجهنم سبعة أبواب، قد خصص لكل باب جزء منها، جزء مقسوم

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 256.

[2] نوفل، المرجع نفسه، ص 257.

وعدد معلوم من أتباع إبليس، يدخلونه، لا محيد لهم عنه، وكل واحد يدخل من باب حسب عمله، ويستقرّ في درك بقدر عمله، وفي تفسير الأبواب السبعة، قولان:

- الأول: بأنها سبع طبقات بعضها فوق بعض وتسمّى تلك الطبقات بالدركات والأبواب السبعة كلها في جهنم على خط استواء.

- الثاني: بأنها سبعة أقسام، ولكل قسم باب، أعلاها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم ثم الهاوية، وتكون الأبواب متوالية صعوداً ونزولاً، أو أنّ النار قسم واحد ذو دركات، وأبوابها السبعة مداخل لها، عافانا الله من النار وتغمدنا برحمته ومنه وكرمه[1].

إن الأرقام في اللغة العربية لها منهج لغوي في استخدامها، فمرة تستخدم للتكثير ولا يقصد العدد، ومرة يقصد والسياق يحدد.

- الجنة لها أبواب لم يرد عددها في القرآن وورد في السنة ثمانية، وجهنم لها سبعة أبواب كما ورد هنا ولم يرد في غير هذا الموطن عدد أبوابها.

- أفعال الله منضبطة مضبوطة منتظمة منظمة، فأبواب جهنم معلوم لكل باب من يدخله[2].

---

[1] التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ص 222/3

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 357

عاشـــراً: قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ ادْخُلُوهَا بِسَـلَامٍ آَمِنِينَ ۝ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُـدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُـرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۝ لَا يَمَسُّـهُمْ فِيهَا نَصَـبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:45-48]

بينت الآيات مصير المخلصين الذين لم يتمكن الشيطان من إغوائهم اتباعاً للأسلوب القرآني في الجمع بين الترهيب والترغيب[1].

1- قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر:45]

أنهت الآيات السابقة الحديث عن المتقين وجزائهم في جهنم لتبتدئ آياتنا هذه الحديث عن المتقين وجزائهم في الجنات والعيون وبضدها تتميز الأشياء.

- ﴿إِنَّ﴾: للتوكيد وتستخدم إما لأهمية الموضوع والإشارة إلى شأن القضية وإما إذا كان الذي أمامك متشككاً فيما تقول أو هما معاً، وأعتقد أنها هنا على الوجهين.

- ﴿الْمُتَّقِينَ﴾: هم الذي جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية ومن اتقوا ربهم بمعنى خشوه وأطاعوه والذين اتقوا النار، اتقوا غضب الجبار سبحانه.

- ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾: هم منعمون في الجنة بصورة يستغرقون فيها بالنعيم[2].

---

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ص 280/4.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 259.

قال المراغي: أي الذي اتقوا الله وخافوا عقابه فأطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه يمتعون في الجنات[1]. وذكرت: ﴿جَنَّاتٍ﴾ للتعظيم والتقدير.

- ﴿وَعُيُونٍ﴾: الماء حياة النبات، وإن كان قانون الجنة العلوية غير قانون الجنات الأرضيــة، إلا أن الماء يجري في الجنات ليزيد الجمال جمالاً لا ليجيء النبات. وذكرت ﴿عُيُونٍ﴾: للتكثير والتكبير والتعظيم والتقدير[2].

إن المتقين: هم الذين اعتصــموا بالله بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه وآمنوا به وتوكلوا عليه وأخلصوا له فنجوا من وساوس إبليس وزينته وغوايته ومكائده وكيده بتوفيق الله لهم.

وعرفوا أن الله عز وجل له صفات جلال، وصفات كمال وجمال يهب بصفات الكمال والجمال العطايا ويهب بصفات الجلال البلايا: فهو غفار وهو قهار، وهو عفو، وهو منتقم. فجعلوا بينهم وبين صفات الجلال وقاية بطاعته وخشيته، وجعلوا بينهم وبين الجمال والكمال قربى بعبادته وعرفوا أن الطريق إلى رضاه ورحمته ومغفرته بإتباع منهجه فساروا عليه في حياتهم[3].

ومن دروس هذه الآية:

---

[1] نوفل، المرجع السابق، ص 259.

[2] نوفل، المرجع نفسه، ص 259.

[3] تفسير الشعراوي مع التصرف، مرجع سابق، ص 7710/12.

- شتان بين مستغرق في النعيم وبين محترق في السعير والجحيم.

- المتقون مُنعَّمون بالجمال كما هم منعمون بالطعام والشراب.. وراحة البال.

- المتقون هم من اتقوا النار فوقاهم إياها جزاء اتقائهم إياها[1].

- فصل النبي (صلى الله عليه وسلم) بعض أسباب دخول الجنة، وهي التقوى وإفشاء السلام وصلة الأرحام وإطعام الطعام، والصلاة والناس نيام[2]، فعن عبد الله بن سلام (رضي الله عنه) قال: لما قدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المدينة، انجفل الناس إليه، وقيل قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب وكان أول شيء تكلم به أن قال: "يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام"[3]، وفي رواية الإمام أحمد زياده صلة الأرحام[4].

2- قال تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ﴾ [الحجر: 46]

تكلمت الآية السابقة عن دخول المتقين جنات النعيم والعيون، وأكملت هذه

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص260.

[2] التدبر والبيان في تفسير القران بصحيح السنن، المغراوي، مرجع سابق، ص 490/17.

[3] مسند أحمد، 451/5. وانظر: الترمذي، رقم 2485.

[4] التدبر والبيان في تفسير القران، المغراوي، مرجع سابق، ص 17 /490.

الآية ما ابتدأت به سابقتها، فقال تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾.

- ﴿ادْخُلُوهَا﴾: فعل أمر مفاده الإكرام، وهو فيما رأى في موضع الحال، أيّ في جنات وعيون، وحال كونهم يقال لهم ادخلوها، وفي هذه الكلمة فعل، وفاعل ومفعول به.

- ﴿بِسَلَامٍ﴾: وهذه حال بعد حال، ادخلوها حال، كون هذا الدخول بسلام، والباء من ﴿بِسَلَامٍ﴾ للمصاحبة.

- ﴿آمِنِينَ﴾: النجاة من الخوف وهذا كذلك حال، قال السعدي: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾: من الموت، والنوم والنصب واللغوب وانقطاع شيء من النعيم الذي هم فيه أو نقصانه، ومن المرض والحزن والهم وسائر المكدرات[1].

وقال عبد القادر الجرجاني ﴿بِسَلَامٍ﴾: بتسليم وتحية منّا لكم، أو بتسليم بعضكم على بعض، وقيل: بسلامة، قال المراغي: ادخلوها وأنتم سالمون من الآفات والمنغصات وأنتم آمنون من سلب تلك النعم التي أنعم بها ربكم عليكم وأكرمكم بها، لا تخافون إخراجاً، ولا فناء ولا زوالاً[2].

ومن دروس هذه الآية:

---

[1] درج الدرر في تفسير الآي والسور، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، ص 1056/3.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 261

- السلم والأمن من أهم أوصاف وأحوال أهل الجنة ودخولهم إليها وفيها.

- الترويع أكثر ما واجه المسلمين والمؤمنين من الأذى في الدنيا، والأمن والسلم أول ما يواجهون في الأخرة، وهو نقيض ما كانوا عليه، ومن روعوهم كانوا هم في الأمن وغداً هم في الفزع الأكبر.

- ﴿بِسَلَامٍ﴾: سالمين أو مسلماً عليكم ولذ وجب إحياء تحية الإسلام.

- هذا السلام تحية لهم على صبرهم على الأذى وصبرهم على العبادة وصبرهم على الدعوة ومكائد الكائدين فالآن وقت السلام[1].

3- قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:47].

في الآيتين السابقتين ذكر السياق نعيم أهل الجنة وفي هذه الآية ومن متممات النعيم أن ينزع ما في الصدور من غل.

- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ النزع: القلع والإبعاد واقتلعنا وأبعدنا ما في صدورهم من غل[2].

وكلمة ﴿وَنَزَعْنَا﴾: تدل على أن تغلغل العمليات الحقودة في النفوس يكون

[1] نوفل، المرجع نفسه، ص 261

[2] المرجع نفسه، ص 262

عميقاً، وأن خلعها في اليوم الآخر يكون خلعاً من الجذور وينظر المؤمن إلى المؤمن مثله والذي عاداه في الدنيا نظرته إلى محســـن له[1]. وذلك عبر بالصـــدور دون القلوب، لأن الصـــدر وعاء القلب، فقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

- ﴿مِنْ غِلٍّ﴾: من حقد وضـــغن وما إليه، فقد طهر الله قلوبهم من أن يتحاســـدوا على الدرجات في الجنة ونزع منها كل غل وألقى فيها التواد والتحاب والتصافي[2].

- ﴿إِخْوَانًا﴾: حال من المنزوع منهم الغل أي حالة كونهم إخواناً.

- ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾: سـرر جمع سـرير وهو ما يجلس عليه، مأخوذ من السـرور، لأنه موطئ أهل النعمة جمعه: أسرّة وسرر[3].

- ﴿متَقَابِلِينَ﴾: يجلســون متواجهين إكراماً لجميعهم وإتماماً لســرورهم، ودل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحســـن أدبهم فيما بينهم في كون كل منهم مقابلاً للأخر لا مســـتديراً له متكئين على تلك الســـرر المزينة بالفرش واللؤلؤ وأنواع

---

[1] تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ص 7712/12.

[2] تفسير المراغي، نقلاً عن تفسير سورة الحجر، ص 264.

[3] التدبر والبيان في تفسير القران، المغراوي، مرجع سابق، ص 492/17.

الجواهر[1].

- قال ابن عطية: ذكر الله تعالى في هذه الآية أنه ينزع الغل من قلوب أهل الجنة ولم يذكر لذلك موطناً، وجاء في بعض الحديث أن ذلك على الصراط، وجاء في بعضـــها أن ذلك على أبواب الجنة، وجاء في بعض الأحاديث أن نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم في الجنة. والذي يقال في هذا أن الله ينزعه في موطن من قوم، وفي موطن من آخرين، وقال علي بن أبي طالب رضـــي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُـدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر :47][2].

- قال الشنقيطي: بيَّن الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه نزع ما في صدور أهل الجنة من الغل في حال كونهم إخوانا وبيّن هذا المعنى في الأعراف، وزاد بأنهم تجري من تحتهم الأنهار في نعيم الجنة وذلك في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُـدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: 43].

وفي قوله تعالى: ﴿عَلَى سُـــرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ بين في هذه الآية الكريمة أن المتقين من أهل الجنة يوم القيامة يكونون على سرر، وأنهم متقابلون ينظر بعضهم إلى وجه بعض، ووصف سررهم بصفات جميلة بغير هذا الموضع منها.

---

[1] تفسير السعدي، مرجع سابق، ص 863.

[2] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، 3/363-364.

- أنها منسوجة بقضبان الذهب، وهي الموضونة، فقال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآَخِرِينَ ۝ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۝ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة: 13-16].

- وقيل الموضونة المصفوفة، كقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ [الطور:20] .

- ومنها أنها مرفوعة، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية:13].

- وقوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة:34].

- وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: 76] إلى غير ذلك من الآيات[1].

وأهم دروس الآية الكريمة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:47]:

- لا يتم النعيم إلا بنزع الغل.

- الأخوة نعيم عظيم.

---

[1] أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ص 2/278-279.

- الله تعالى يوفر كل الظروف ليتم النعيم ويتم الهناء لأهل الجنة، فلا يكدر نعيمهم شعور سلبي مما عهده الناس في الدنيا من بغضاء وحسد وغل ونوايا سيئة وأحقاد، كل هذا مبرأ منه أهل الجنة ليتم نعيمهم.

- الإخوة الملتقون على الإيمان في الدنيا يلتقون على النعيم المترتب على الإيمان في الآخرة فودهم موصول.

- مودة غير المؤمنين مقطوعة تتقلب الى عداوة يوم القيامة[1]: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:67].

4- قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:48]

هذه الآية تواصل الحديث عما سبقها فيه أخواتها الآيات الثلاث السابقة وهنا تتحدث الآية عن كون أهل الجنة لا يلحقهم تعب ولا مشقة.

- ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾: هذا هو القسم الأول من الآية. والمس: أدنى الإصابة واللحاق من الأذى، والنصب: التعب والمشقة.

- ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾: وليسوا منها بمبعدين ولا مخرجين مطرودين.

وما: بمعنى ليس والباء مزيدة نحوياً في جواب أو خبر ما وهي للتوكيد[2].

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص266.

[2] نوفل، المرجع السابق، ص266.

– وقال الشنقيطي: قوله ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة لا يمسهم فيها نصب، وهو التعب والإعياء وقوله: نصب، نكرة في سياق النفي فتعم كل نصب، فتدل الآية على سلامة أهل الجنة من جميع أنواع التعب والمشقة، وأكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:35]، لأن اللغوب هو التعب والإعياء[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة؛ أن أهل الجنة لا يخرجون منها وأكد نفي إخراجهم منها بالباء في قوله: ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾ فهم دائمون في نعيمها أبداً بلا انقطاع وأوضح هذا المعنى في مواضع كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: 108-107]، وقوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف:3-2]، وقوله تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:108]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص:54]، إلى غير ذلك من الآيات[2].

وقال المراغي: أيّ وهم خالدون فيها أبداً لا يبرحونها يشعرون بلذة النعيم ودوامه، فهم في خلود بلا زوال وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان[3].

---

[1] التدبر والبيان في تفسير القران، المغراوي، مرجع سابق، ص495/17

[2] المغراوي، المرجع نفسه، ص279/2.

[3] تفسير المراغي نقلاً عن تفسير سورة الحجر، مرجع سابق، ص267

فالآيات بينت أنه لا يلحق أهل الجنة أي نوع من الأذى أو التعب، وأعظم نعيم الجنة عدم الإخراج منها، ودوام نعيمها[1].

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: أتى جبريل النبي (صلى الله عليه وسلم)، فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فأقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب[2]. وإن معنى هذا الحديث:

- قصب: بفتح القاف والصاد، والمراد به: لؤلؤة مجوفة واسعة كالقصر المنيف.

- الصّخب: بفتح الصاد: الصياح والمنازعة برفع الصوت.

- النصب: بفتح الصاد والنون: التعب[3].

وقال السهيلي: مناسبة نفي هاتين الصفتين -أعني المنازعة والتعب-أنه صلى الله عليه وسلم دعا إلى الإسلام، فأجابت خديجة طوعاً، فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا إلى منازعة ولا تعب في ذلك، بل أزالت عنه كل تعب، وإنها آنسته من كل وحشة، وهوّنت عليه كل عسير، فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص267

[2] مسند أحمد، 2/ 230 -231.

[3] التدبر والبيان في تفسير القرآن، المغراوي، مرجع سابق، ص 469/17

بالصفة المقابلة لفعلها[1].

الحادي عشـــر: قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر:50-49]

إن هذه الآية تعقيب على قصـة آدم عليه السـلام وكفر إبليس وجحوده، فقد أعقب القصـة وصـف جهنم ووصـف المتقين وحالهم في الجنة، فلمن تاب وأصـلح، يقول الله تعالى: ﴿أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ولمن اتبع طريق الشـــيطان فيقول تعالى له: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر:50].

فيكون التعقيب بتحديد المصـير خير شـاهد ودليل على عدل المولى سـبحانه وتعالى، فالتعقيب هنا أبلغ وصـف، فختمت به قصـة آدم عليه السـلام، أيّ كان التعقيب بشرح العدالة الإلهية[2].

ونلاحظ أن الله سـبحانه أعطى أهل الجنة من الآيات ضـعف ما جعل لأهل النار، لأن مغفرته أعظم ورحمته أوسع لكن عقابه أيضاً شديد.

لقد جاءت هذه الآيات تعقيباً على ما مر في السـورة والسـياق من صـورتي التنعيم والتعذيب بهذا التعقيب[3]، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر:50-49]. وهذه الآيات الكريمة

---

[1] فتح الباري، المرجع السابق، 138/7.

[2] العلامة اللغوية في قصة آدم، هاني صبري آل يونس ورشا طه حامد، ص79.

[3] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص271.

دالة على مقامي الرجاء والخوف[1].

1- قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر:49]

أ – ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾: نبئ: أخبر بهذا النبأ العظيم الذي سيأتي، ولم يرد نبئ بهذه الصورة وهذه الصيغة إلا هنا في هذا الموطن، والنبأ ليس مجرد الخبر إنه الخبر الجلل أو ذو الشأن أو الخبر ذو الخطر والقدر والأهمية[2]. والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

– ﴿عِبَادِي﴾: تأتي عباد بالمعنى العام وهو كل الخلق من عبيده، فأخبره بهذه الحقيقة لكل الخليقة أو يقال إن "عباد" كلمة مصطلح لمن صلح من العباد واختار العبودية نهجاً وطريقاً وطاعة وحباً وخضوعاً وهم المؤمنون كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، وأرى أن الأرجح الثاني من المعاني ولا أستبعد الأول[3].

قال الرازي: في الآية لطائف: إحداها: أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله: ﴿عِبَادِي﴾؛ وهذا تشريف عظيم، ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:1]

[1] تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ص 158/4.

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص271.

[3] نوفل، المرجع نفسه، ص 271

ومنها: أنه لما قال ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ كان معناه: نبئ كل من كان معترفا بعبوديتي، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله[1].

ب- ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: هذا مضمون ما طلب منه عليه الصلوات أن ينبئ به وقدّم المغفرة لأن التبشير أليق، ولأن رحمته سبقت غضبه.

﴿أَنَا﴾ تأكيد الضمير في ﴿أَنِّي﴾ وضمير الإفراد هنا أولى من ضمير الجمع ولكل مقام مقال.

- ﴿الْغَفُورُ﴾: عظيم المغفرة.

- ﴿الرَّحِيمُ﴾: واسع الرحمة.

قال السعدي في قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؛ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته، سعوا بالأسباب الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها لينالوا مغفرته[2].

ونلاحظ أن الله عز وجل لما ذكر المغفرة والرحمة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة: أولها: قوله ﴿أَنِّي﴾، وثانيها: قوله ﴿أَنَا﴾، وثالثها: إدخال حرف الألف واللام على قوله ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

---

[1] تفسير الرازي نقلا عن التدبر والبيان، مرجع سابق، ص 17/ 499

[2] تفسير السعدي، مرجع سابق، ص 163

ولما ذكر العذاب لم يقل أنى أنا المعذب وما وصـــف نفســـه بذلك[1]، بل قال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

وإن من دروس الآية السابقة:

- البلاغ والتعليم والدعوة وإيصـال الحقيقة للناس مهمات عظيمة، قلّ من ينبري لها.

- العباد في القرآن تأتي بالمعنيين، العام وتشـــمل المؤمن والجاحد، والخاص وهي لصفوة العباد.

- يتكلم المولى في كتابه عن ذاته العلية بضمير الأفراد أحياناً وبضمير الجمع أحياناً والأليف ما عبر به في السياق الذي ورد فيه اللفظ أو الضمير.

- أكثر ما اقترن اسم الغفور باسـم الرحيم والاسمان الكريمان متكاملان في معاملة العباد، فالغفور يغفر ذنوبهم ويســـترها ويمحوها، والرحيم يســـعهم برحمته ويلطف بهم ويتفضل عليهم[2].

2- قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر:50]

عند التأمل والوقوف عند هذه الآية من أولها لآخرها، فإنه يكتمل النبأ بالمغفرة لمن آمنوا والعذاب لمن كفروا وكانوا من أهل الغواية. وإننا نلحظ أنه ســـبحانه لم

---

[1] تفسير الرازي نقلا عن التدبر والبيان، مرجع سابق، ص 499/17

[2] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص 275.

يشدد في تأكيد العذاب ذلك أن رحمته سبقت غضبه، كما بيَّن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار[1].

ونلحظ أن الآيتين السابقتين يشرحهما قول الحق سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد:6]، ولذلك نرى أن الآيتين قد نبّهتا إلى مقامي الرجاء والخوف وعلى المؤمن أن يجمع بينهما وألا يؤجّل العمل الصالح وتكاليف الإيمان وأن يستغفر من المعاصي لأن الله سبحانه وتعالى يعامل الناس بالفضل لمن أخلص النية وأحسن الطويّة[2]، ولقد تحدث الحق سبحانه عن صفاته الجلالية في الغفران والرحمة والانتقام[3]، وبيّن مصير الغاوين ومآل المتقين.

قال المراغي: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ أي وأخبرهم بأن عذابي لمن أصر على المعاصي وأقام عليها ولم يتب وهو العذاب الأليم المؤلم الموجع الذي لا يشبهه عذاب آخر وفي هذا تهديد شديد وتحذير لخلقه أن يقدموا على معصية[4].

والخلاصة إن الله جمع لعباده بين التبشير والتحذير ليكونوا على قدمي الرجاء والخوف

---

[1] مسلم، 5109/4، رقم 2755. وانظر: البخاري، رقم6469.

[2] تفسير الشعراوي، مرجع سابق، 7718/13

[3] المرجع نفسه 7718/13

[4] تفسير المراغي نقلاً عن تفسير سورة الحجر، مرجع سابق، ص276.

وحال الأنس والهيبة[1]، فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصير في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع منها[2].

وقد جاءت الآية: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ عقب ما تقدم من الوعد والوعيد في نهاية قصة آدم تقريراً لما ذكر، وتمكيناً له في النفوس، وهذه الآيات تربية على مقامي الخوف والرجاء، وعلى معرفة سنن الله[3].

ومن دروس الآية:

- التوازن في التربية والمشاعر

-مهم جداً للشخصية الإنسانية.

- الدين يوقّع على النفس الإنسانية أوتار الرجاء والخوف لأن النفس مجبولة مفطورة هكذا.

- وصف العذاب في القرآن بعدة أوصاف تهويلاً لشأنه.

- كثر الحديث في سورة الحجر عن أفعال الله فهذا نسق من أنساق السورة[4].

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص276.

[2] تفسير السعدي، مرجع سابق، ص864.

[3] الأساس في التفسير، سعيد حوى، مرجع سابق، 2887/6

[4] تفسير سورة الحجر، نوفل، مصدر سابق، ص277.

المبحث الرابع: قصة آدم عليه السلام في سورة الإسراء:

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۝ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۝ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:61-65]

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:61]

1- ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾: الواو في ﴿وَإِذْ﴾ إما عطف قصة على قصة، أو أنها واو الاستئناف و "إذ" ظرف لما مضى قبل قليل، وهو متعلق بمحذوف مقدر تقديره "واذكر إذ".

2- ﴿قُلْنَا﴾: نون العظمة تعود إلى المولى العظيم سبحانه.

3- ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾: لجميع الملائكة كما بينت آيات أخرى في سور أخرى.

4- ﴿اسْجُدُوا لِآدم﴾: هذا أكثر ما يتكرر في قصة آدم وهو أدل مشهد على الكرامة، والسجود مفروغ منه، إنه سجود تكريم طاعة لأمر الخالق الحكيم المعبود وحده سبحانه.

5- ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الاستثناء منقطع وإبليس من الجن كما تبين معنا سابقاً.

6- ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ وهو من ضمن الإباء بكل وضوح بالطبع ، لقد نظر الشقيّ إلى العنصر والمادة التي يتكون منها المخلوق، فما نظر إلى المآلات والوظيفة، وإن الكرامة ليس لها علاقة بالعنصر، فملك الوجود سبحانه إذا أراد أن ينعم على أهون الموجودات رقّاه وكرّمه فالأمر له وليس للشيطان وليس لأحد في الخلق حق الاعتراض على الخالق الحكيم، إذ معنى الاعتراض أن المعترض أوفر حكمة وأعلم من الأمر الذي اعترضه على أمره وهذا عين المستحيل[1].

وفي قوله: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ وهذا استفهام إنكار منه لعنه الله وقبحه ما أفظع كلمته! وما أشد جراءته ووقاحته، ينكر على ربه عز وجل خالقه محييه ومميته؟ وبهذا الأسلوب الإجرامي الذي ينضح منه الكبر من كل كلماته والعياذ بالله منه ومن حاله وكفره، وسبحان الله العظيم الحليم يسمع منه هذا الكفر، ويعلم من قلبه ما فيه من سوء الظن بالله، والعزم على مزيد من الكفر والإباء وهو سبحانه لا يعاجله بالعقوبة، بل يجيبه إلى ما طلب من النظرة، ما أهون الدنيا على الله وما أقصرها وما أحقرها إذ مد عمر إبليس إلى نهايتها[2].

وحسد إبليس لآدم جعله يذكر الطين ويغفل نفخة الله في هذا الطين[3].

---

[1] تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص 354.

[2] قصة آدم، ياسر برهامي، مصدر سابق، ص103.

[3] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 2238/4

وهذه الآيات التي كانت تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم في مكة تبين له أن موقف المشركين من دعوته يشبه موقف إبليس وعناده وتكبره، فقد شمله الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم احتراماً وتكريماً، فأبى تكبراً وعناداً، فموقف إبليس أصل في التكبر والعناد وموقف مشركي مكة فرع منه[1].

والهمزة في قوله: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾: هذه الهمزة للاستفهام الذي يحمل معنى الاعتراض والاستنكار، وقد فسرت هذه الآية بآيات أخر مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:12] فالمخلوقية لله متفق عليها، إنما الاختلاف في عنصر المخلوقية، هذا من نار وهذا من طين، لكن من قال لك يا إبليس: إن النار فوق الطين، أو خير منه؟ وهل نستطيع أن نقول: إن العين خير من الأذن مثلاً؟ أم أن لكل منهما مهمتها التي لا تؤديها الأخرى؟

وسبق أن قلنا مثلاً: إنك تفضل الحديد إن كان مستقيماً، أما إن أردت حطاماً فالاعوجاج خير من الاستقامة، أو أن اعوجاجه هو عين الاستقامة فيه، فكل شيء في الوجود مخلوق لغاية ولمهمة ولا يكون جميلاً ولا يكون خيراً إلا إذا أدى مهمته في الحياة، فمن أين جاء إبليس بخيرية النار على الطين؟

والنار الأصل فيها الخشب الذي توقد به، والخشب من الطين.

إذن: فالطين قبل النار وأفضل منه، فقياس إبليس إذن قياس خاطئ.

ومعنى: ﴿خَلَقْتَ طِينًا﴾ يعني: خلقته حال كونه من الطين أو خلقته من طين،

---

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، 208/4

والخلق من الطين مرحلة من مراحل الخلق، لأن الخلق المباشر له مراحل سبقته كما بيّنا في الصفحات السابقة.

فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر:29] سبقته مراحل متعددة، قال عنها الخالق سبحانه مرة: من الماء، ومرة: من التراب، ومرة: من طين. والماء إذا خُلط بالتراب صار طيناً، وبمرور الوقت يسودُّ هذا الطين، وتتغير رائحته، فيتحول إلى حمأ مسنون، ويتحول إلى الصلابة فيصير صلصالاً لا كالفخار، إذن لا وجه للاعتراض على القرآن في قوله عن خلق الإنسان مرة أنه من ماء أو من تراب، أو طين، أو حمأ مسنون، فهذه كلها للمكوّن الواحد[1].

ومن الدروس المستفادة من الآية الكريمة:

– هذا الإنسان أكرم الموجودات والمخلوقات التي أوجدها الله فقد جعله فوق رتبة الملائكة وحمّله الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال.

– شاء الله أن يجعل أصل هذا الإنسان المكرم من الطين أو الماء المهين لا تحقيراً معاذ الله ولكن لئلا يستكبر، إذ الاستكبار أخطر الأخطار التي تهدد هذا المكرم لأنه يؤدي إلى سلوك الفجار وفي الآخرة إلى النار، فأكرم الموجودات أصله من أهون الموجودات.

– الكبر أول معصية عُصي بها الله وقرينه الحسد وهما وجهان لقضية واحدة، فليُنتبه منهما.

[1] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 8662/14

– شاء الله أن يكون لهذا الإنسان عدو هو إبليس وهو عدو خطير ليشحذ الإنسان طاقاته.

– العنصرية أن تفتخر بعنصرك وأصلك وأول من صنع هذا وسنّه كسنة سيئة إبليس الخسيس.

– الإله العظيم إذا شاء التكريم لأي مخلوقاته كرّمه الله كائناً من كان ولا اعتراض[1].

ثانياً: قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:62]

تواصل هذا الآية نقل ما قاله إبليس في اعتراضه على أمر السجود لآدم، ففي الآية السابقة بيّن الأصل الطيني لهذا المخلوق وهنا يواصل شرح دوافع حسده وأنه تفضيل المخلوق الجديد عليه وتكريمه دونه، وأنه سيستلمه بالكيد والمكر وسيء التدبير[2].

1- ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾:

– ﴿قَالَ﴾: أي إبليس مواصلاً كلامه في الآية السابقة: أرأيتك: قال إبليس يسأل الله عز وجل والاستفهام هنا ليس مقصوداً منه حقيقية الاستفهام وإنما إشارة إليه، أي إلى الإنسان والتهديد بما يضمره نحوه[3].

---

[1] تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص 354.

[2] المرجع نفسه، ص 355.

[3] المرجع نفسه، ص 355.

- ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾: المعنى: أخبرني وأعلمني، لماذا فضلته علي، وكأن تفضيل آدم على إبليس مسألة تحتاج إلى برهان وتبرير[1].

- ﴿هَذَا﴾: إشارة لا يقصد منها ظاهر المقصود بالإشارة وإنما التحقير والتقزيم والتصغير[2].

- ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول يتحدد بصلته.

- ﴿كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾: صلة الموصول وهي الحيثية التي أثارت حفيظة الحاسد الأول في الوجود وهو إبليس، ومعنى كرمت، فضّلت وقدمت وجعلته في مقام التقدير والكرامة.

- ﴿عَلَيَّ﴾: أي فضّلته عليّ وجعلته أعلى رتبة مني.

2- ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾:

نرى السرعة واللهفة على التأخير وما يدري المنكود أن التأخير يعني مزيداً من الانزلاق نحو الهاوية والحضيض وجهنم.

واللام في "لئن" هي اللام الموطئة للقسم داخلة على إن الشرطية.. والجواب "لأحتنكن" جواب لهما معاً.

إلى يوم القيامة: هو يطلب التأخير إلى المدى الأقصى للوجود وهو إلى يوم القيامة، والله أجابه كما في سورة أخرى ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص:81]

---

[1] تفسير الشعراوي، مصدر شابق، 8663/14

[2] تفسير سورة الإسراء، نوفل، مصدر سابق، ص355.

3- ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

والاحتناك: يرد بمعنيين: الأول: الاستئصال ومنه قوله احتناك الجراد الزرع أي: أتى عليه كله واستأصله، والآخر بمعنى القهر على التصرف، مأخوذ من اللجام الذي يوضع في حنك الفرس، ويسمونه "الحنكة" وبها تستطيع أن توجه الفرس يميناً أو يساراً أو توقفه فهي أداة التحكم فيه والسيطرة عليه قهراً؛ فالاحتناك قد يكون استئصالاً للذات، وقد يكون قهراً لحركته[1].

وقال الأستاذ جعفر شرف الدين: الاحتناك هاهنا افتعال من الحنك. أي لأقودنّهم إلى المعاصي كما تقاد الدابة بحنكها غير ممتنعة عن قائدها وهي عبارة عن الاستيلاء عليهم والامتلاك لتصرفهم، كما يمتلك الفارس تصرّف فرسه، بثني العنان تارة وبكبح اللجام مرة[2].

وكأن إبليس يعتبر جنوده وأتباعه من ذرية آدم، من البهائم والدواب، يضع في حنك كل منهم خطافاً ورَسَناً يقوده به، وذاك المسكين يسير خلفه مستسلماً منقاداً ذليلاً كما تسير الدابة خلف صاحبها[3].

ومعنى ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾: أي فلأستولين عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم[4].

---

[1] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 8664/14

[2] الموسوعة القرآنية خصائص السور، شرف الدين، مصدر سابق، 108/5

[3] القصص القرآني، الخالدي، مصدر سابق، 117/1

[4] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 2238/4

وقيل أيضاً: المراد بذلك، لأضيّقنَّ عليهم مجاري الأنفاس من أحناكهم بإيصال الوسوسة لهم وتضاعف الإغواء عليهم[1].

والتعبير القرآني في غاية الدقة عندما قال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ وهي صورة للاستحواذ بأقصى طاقة[2] يسعى إبليس لتنفيذها.

وما أعجب منظر "صريع" الشيطان والحبل مربوط بحنكه والشيطان أمامه يقوده إلى عالم الانحراف والمعاصي ومن الذي يرضى أن يكون كالدابة يقاد من حنكه؟[3].

- ﴿ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾: أبناء هذا المخلوق وسلالته إلا قليلاً ممن اعتصم بإيمانه ودينه[4].

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: أما عبادك الذين هديتهم واصطفيتهم فلا دخل لي بهم، وليس لي عليهم سلطان، لقد تذكر قدرة الله وأن الله إذا أراد إخلاص عبده لنفسه لا يستطيع الشيطان أن يأخذه، فهذا القليل المستثنى هم المؤمنون المتوكلون المخلصون الذي حققوا العبودية الخالصة لله تعالى[5].

- ومن فوائد الآية:

- يعلن الشيطان عداوته وخططه وهو متأكد أو واثق أن هذا لا يغير من الواقع شيئاً والأصل أن إعلان الخطط يوقظ المستهدفين.

---

[1] الموسوعة القرآنية، شرف الدين، مصدر سابق، 109/5

[2] وقفات مع الإنسان في القرآن، فايز الربيع، مصدر سابق، ص 308.

[3] سيرة آدم، الخالدي، ص 97.

[4] تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص 356.

[5] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 8664/14

- فوائد قوم عند قوم مصائب، وكرامة قوم عند قوم مثار لهوايتهم في الدرك الأسفل من الحسد والحقد والكيد والجحيم.

- اجتهاد الباطل وأهله وتقاعس حملة الحق، فهذا الشيطان يعلن أنه سيلازم الذرية التي سينجبها هذا المخلوق الجديد ما بقي من الزمان ولئن كانت أطول مدة من دعوات الأنبياء والمرسلين، وممن دعا ألف سنة إلا خمسين عاماً "نوح عليه السلام" فإن إبليس مستمر في دعوة الشر من بدء الخليقة إلى نهاية العالم وهو درس لنا نحن المؤمنين من نحمل الحق.

- لقد صدَّق إبليس ظنه وهذا ليس غريباً، فمن خطّط حصد ومن جدّ وجد ولو في مجال الشر والشيطنة[1].

ثالثاً: قال تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء:63]:

ذكرت الآية السابقة طلب إبليس ولم تذكر إجابته صراحة لكنها ذُكرت ضمناً في هذه الآية في قوله ﴿قَالَ اذْهَبْ﴾ وأجابه على الإكثار من الأتباع بأنه فليكن؛ فجهنم بانتظاركم مهما كثرتم.

1- ﴿قَالَ﴾: أي المولى العظيم سبحانه جواباً على العدو المجرم لهذا الإنسان وهو إبليس، قال على سبيل التهديد لا الإذن والسماح.

[1] تفسير سورة الإسراء، نوفل، مصدر سابق، ص 356.

2- ﴿اذْهَبْ﴾: امضِ وانصرف لما خلقت له[1]، وهو أمر إهانة ويراد به التهديد كما يقولون في المثل: "أعلى ما في خيلك اركبه"[2]، وافعل ما تريد إن استطعت وفيه معنى: الطرد.

3- ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ﴾: أي اتبع خطواتك على سبيل الاتباع المنهجي لا مجرد الخطأ، فإن هذا الخطأ في الاتباع لا يكاد يحيد عنه إلا أقل القليل[3]، فالإنسان مزود بالعقل والإرادة، وهو يملك أن يتبعك أو يعرض عنك، ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ مغلباً جانب الغواية في نفسه على جانب الهداية، معرضاً عن نداء الرحمان إلى نداء الشيطان، غافلاً عن آيات الله في الكون، وآيات الله المصاحبة للرسالات[4]، فمآله إلى جهنم.

4- ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ أي وافياً صافياً كافياً[5].

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال: ﴿جَزَاؤُكُمْ﴾، ولم يقل "جزاؤهم" لأنه معهم وداخل في حكمهم وهو سبب غوايتهم وضلالهم وكذلك هو المخاطب في الآية الكريمة[6]، وأعيدت في الآية كلمة ﴿جَزَاءً﴾ للتأكيد اهتماماً وفصاحة[7]، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾: أي لا نقصان فيه، لأنهم لم يتبعوه من موقع شلل في الإرادة أو خلل في

---

[1] تفسير سورة الإسراء، نوفل، مصدر سابق، ص 356.

[2] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 8665/14

[3] تفسير سورة الإسراء، نوفل، مصدر سابق، ص 357.

[4] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 2239/4

[5] تفسير سورة الإسراء، نوفل، مصدر سابق، ص 357.

[6] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 8665/14.

[7] العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، الشمراني، مصدر سابق، ص 48.

العقل، أو عجز في القدرة، بل من خلال الإهمال في استنفار العناصر التي أودعها الله في عمق إنسانيته مما يؤكد له حركته في الاختيار السليم، ما يجعل الانحراف ناشئاً من سوء اختياره لأنه كان قادراً على أن يواجه الشيطان بعقله في تمييزه بين الخير والشر، والضرر والنفع وبإرادته في مواجهته للأمور الخيرة، بطريقة حاسمة، فكانت الحجة لله عليه وليس له على الله حجة[1].

ومن دروس الآية:

- إبليس يمكر بالبشر من ذرية آدم والله يمكر به بتجهيز جهنّم له ولأتباعه.

- ما أسوأ أن يمكر الإنسان بنفسه، فهذا الشيطان يمكر ببني الإنسان، ولكن جزءاً كبيراً من أعوانه هم من بني الإنسان من المفسدين في الأرض من بني إسرائيل وغيرهم، يمكرون بالجنس البشري عن طريق الفساد والجنس والأفلام والإعلام والمخدرات وتدمير إنسانية الإنسان لحساب الشيطان، فمتى يفيق البشر على أعدائهم الحقيقيين؟ متى يعرفون ما هو الإرهاب الحقيقي وما هو التدمير الشامل الحقيقي؟

- لا يغرنك هذه العربدة الإبليسية في الأرض للشيطان وأتباعه من بني صهيون، إن جهنم تنتظرهم على أحر من الجمر.

- لله حكمة بالغة في وجود الشر والشيطان وفي هذه المعركة الحامية الوطيس، الدائرة بين أتباع المرسلين وأتباع الشياطين[2].

---

[1] تفسير من وحي القرآن، محمد حسنين فضل الله، مصدر سابق 32/7.

[2] تفسير سورة الإسراء، نوفل، مصدر سابق، ص 357.

-الالتفاف في الضمير عن بني آدم: من ضمير الغائبين في ﴿مِنْهُمْ﴾ إلى ضمير المخاطبين في ﴿جَزَاؤُكُمْ﴾ إيذاناً بأن من اتبع إبليس فإنه يفقد إنسانيته، ويتحول إلى شيطان مريد مع الشياطين، حتى ولو كان نسبه شريفاً وهو ابن أبيه آدم في النسب، لكنه ليس منه في الأفعال والصفات وفيه أيضاً أن جهنم موفورة غير منقوصة لهم، فعذابهم والعياذ بالله كامل معد لهم مدّخر موفّر، جزاءً على أعمالهم[1].

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:64]:

يواصل النص القرآني في هذه الآية مد الحبل لهذا الشيطان فيما ظاهره إرخاء عنان وإخلاء ميدان وهو في الحقيقة تدمير بنيان وهذا هو المكر الحقيقي[2].

1- ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾:

﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ أي: واستخفَّ واستنفر بدعوتك إلى معصية الله سبحانه وتعالى بكل ما أوتيت من قوة وإغراء ووسوسة[3]، ﴿مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ﴾ من تقدر على استفزازه وخداعه فافعل[4].

---

[1] قصة آدم، ياسر برهامي، مصدر سابق، ص 109.

[2] تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص 358.

[3] الحوار والاستدلال في القرآن الكريم، خالد الياسين، مصدر سابق، ص 484.

[4] تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص484.

﴿بِصَوْتِكَ﴾ أي بوسوستك وإيحاءتك الشيطانية وصوت كل من يعاونك من شياطين الإنس من أصحاب النظريات الباطلة الفاسدة، والأفكار الهدّامة، والمذاهب الضالة الشاردة عن الحق وكل دعاة الشر، وأصوات المجون ونحوها، كل هذا داخل ﴿بِصَوْتِكَ﴾[1]، وصوت الشيطان هو كل الأصوات والعبارات المحرّمة التي تنتشر في حياة الناس، بهدف التأثير فيهم، ودعوتهم إلى التخلّي عن منهاج الله وارتكاب ما نهى الله عنه وما أكثر هذه الأصوات الشيطانية الصاخبة المجلجلة في هذا الزمان[2].

وفي قوله ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ ما يدل على مدى ما يبذله إبليس من استفزاز بني آدم، وإزعاجهم إلى المعاصي وهو يدل على أن أصل فطرة بني آدم عدم التحرك في المعصية حتى يوزّوا إليها أزّاً، ويدفعوا بالوسوسة إليها دفعاً، فمغبون من كان عنده عون فطري جُبل عليه من ربه سبحانه - الذي فطره على الحنيفية- ثم يقبل تحريك الشيطان ودفعه واستفزازه؛ فإنه ليس عليه في دفع الوسوسة إلا كف نفسه عن الشر وما أيسر ذلك على من يسره الله عليه، ومع ذلك فأكثر الخلق استفزتهم الشياطين واجتالتهم عن دينهم[3].

إن لإبليس أصوات عالية يطلقها ويرفعها ليؤثر بها في جنوده ويستفزهم ويحذرهم ويصرعهم ويهلكهم وهم ينفعلون مع تلك الأصوات الشيطانية ويخضعون لتأثيرها واستفزازها وأصوات الشيطان تملأ العالم في هذا الزمان، وتسحر الذين يسمعون لها

---

[1] المرجع نفسه، ص 358.

[2] القصص القرآني، الخالدي، مصدر سابق 118/1.

[3] قصة آدم، ياسر برهامي، مصدر سابق، ص109.

ويتفاعلون معها[1].

فكل داعٍ إلى معصية الله هو صوت إبليس، فكل غناء محرم بسبب الكلام الذي يتضمنه من الترغيب في الشهوات المحرمة، خاصة فيما يتعلق بعشق النساء أو بسبب الحث على الجاهلية، كالعصبية المذمومة والترغيب في سفك الدماء والانتقام بالباطل، وأذية الخلق، أو بسبب الغيبة والهجاء المحرم، وكذا المبالغة في مدح الكبار والرؤساء ووصفهم بما لا يجوز، أو بسبب تضمن الكفر -وهو أشده- كالاعتراض على أقدار الله وسبها والعياذ بالله والاعتراض على الله في حكمته في خلق العالم، وأنه لا يدري لماذا أتى الناس إلى العالم ونحو ذلك من الضلالات، أو كان التحريم بسبب الأداء: كأن تؤديه امرأة بالغة متبرجة كشفت زينتها بل شبه عارية والعياذ بالله ترقص يميناً وشمالاً في حركات مثيرة شيطانية، فلا يشك عاقل مسلم -فضلاً عن عالم- في تحريم ذلك إجماعاً قطعياً، لا خلاف فيه البتة[2].

ومن صوت الشيطان كل متكلم بالمعصية، وداع إلى الكفر أو البدعة المضللة أو الفسوق أو العصيان وكل مغتاب ونمام وكذّاب ومستهزئ، بالهمز واللمز وكل آمر بالمنكر وناهٍ عن المعروف وكل منافق يستعمل حجج الله بلسانه لصد عباده عن سبيله وكل سباب ولعان وقاذف للمحصنات، وكل فاحش بذيء طعان في أعراض المسلمين والمسلمات، وكل داع إلى الفجور والفساد[3].

---

[1] سيرة آدم، الخالدي، مصدر سابق، ص 98.

[2] قصة آدم، ياسر برهامي، مصدر سابق، ص110.

[3] المرجع نفسه، ص 111.

فالصوت الشيطاني كل صوت في غير طاعة الله، وقد نسب إلى الشيطان لأمره به ورضاه به[1].

وصوت إبليس يستفز النفوس ويزعجها ويهيجها، بالنواح عند المصيبة ويدفعها إلى الحزن والأسى والسخط بما قضى الله[2]، فكم من نصيب للشيطان في حياة الناس والعياذ بالله[3].

2- ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ﴾:

- ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ﴾ الجلبة والصوت والضجة[4]، أي وصح عليهم بجلبة وصياح كما يدعى الجيش للقتال، فأعد عدتك وأجلب من يكونون في جلبة لك، ﴿بِخَيْلِكَ﴾ بالذين يناصرونك من خيالة ﴿وَرَجِلِكَ﴾ اسم جامع لراجل.

وفي الكلام تشبيه وهو تشبيه حال الشيطان في دعوته الغاوية الضالة والمستعد للشر والإغواء بحال جيش من الأشرار يستفز الأنصار والأتباع ويكون جلبة من خيالة وراجلين، فهذه تشبه حال جيش فساد مستعد للإغارة على الخير[5].

وفي الآيات الكريمة: تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول، فهي المعركة الصاخبة تستخدم فيها الأصوات والخيل والرجل، على طريقة المعارك

---

[1] بدائع التفسير، ابن القيم، مصدر سابق، 90/3

[2] بدائع التفسير، ابن القيم، مصدر سابق، 90/3.

[3] قصة آدم، ياسر برهامي، مصدر سابق، ص 111.

[4] تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص 358.

[5] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 4417/8.

والمبارزات، يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة، فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل وأحاطت بهم الرجال[1]، وللشيطان قوات خاصة يستعين بها على أتباعه المخدّرين، بعض هذه القوات فرسان يركبون الخيل وبعضها "مشاة" راجلون يمشون على أرجلهم وأقدامهم[2].

–وفي قوله ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾:

– بيان لخيل الشيطان: فكل راكب في معصية الله ممن خرج من بيته مفاخرة ومباهاة وتكبراً على الخلق ومناوءة لأهل الإسلام، وكل من يذهب راكباً إلى أماكن المعاصي والفساد، كأماكن اللهو المحرم من ملاهي وحانات خمر وأماكن رقص تكشف فيه العورات مع الاختلاط المحرم بين الرجال والنساء التي تتكشف فيها العورات وتنتهك الحرمات، وكذلك إلى أماكن الظلم والعدوان وأذية الناس في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وكمن يركب لقطع الطريق على الناس: الحسّي والمعنوي بالصدّ عن سبيل الله[3].

–وأما رَجِلُ الشيطان: فكل ماشٍ في معصية الله، كمن يمشون في الطرقات للنظر إلى العورات، ومعاكسة الفتيات، والتقاط الساقطات، وهو يشمل من مشى إلى أماكن المعصية التي ذكرنا أمثلة لها في الركوب[4].

---

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 2239/4.

[2] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مصدر سابق، ص 99.

[3] قصة آدم، ياسر برهامي، مصدر سابق، ص 111.

[4] المرجع نفسه، ص 111.

3- ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾:

- قال الشنقيطي: اعلم أن الله قد بين في آيات من كتابه بعض ما تضمنته هذه الآية من مشاركة الشيطان لهم في الأموال والأولاد.

- كقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:140].

فقتلهم أولادهم المذكور في هذه الآية طاعة للشيطان، ومشاركة منه لهم في أولادهم، حيث قتلوهم في طاعته، وكذلك تحريم بعض ما رزقهم الله المذكور في الآية طاعة له ومشاركة منه لهم في أموالهم أيضاً.

- وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام:136].

- وكقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:138].

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس:59] إلى غير ذلك من الآيات[1].

- وقال السعدي: وذلك شامل متعلق لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم من منع الزكاة والكفّارات والحقوق الواجبة وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر،

---

[1] أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، 170/3.

وأخذ الأموال بغير حقّها أو وضعها بغير حقّها أو استعمال المكاسب الرديّة، بل ذكر كثير من المفسرين أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد، ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع وأنه إذا لم يُسمِّ الله في ذلك، شارك فيه الشيطان[1].

وعن ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أما لو أن أحدهم يقول حين يأتي أهله بسم الله، اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقدّر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً"[2].

وعن جابر بن عبد الله أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل ولم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم العشاء"[3]، فكل الليل يقضونه في المشاكل والصراعات، وقال محمد متولي الشعراوي: يزين لهم المال الحرام، فيكتسبوا من الحرام وينفقوا في الحرام، ويزين لهم "الأولاد" والمفروض في الأولاد طهارة الأنساب، فدور الشيطان أن يفسد على الناس أنسابهم ويزين لهم الزنا، فيأتون بأولاد من الحرام أو يزين لهم تهويد الأولاد أو تنصيرهم أو يغريهم بقتل الأولاد مخافة الفقر أو غيره، هذا من مشاركة الشيطان في الأولاد[4].

وقال الدكتور صلاح الخالدي: إن إبليس يشارك أتباعه في أموالهم ويشاركهم في

---

[1] تفسير السعدي، مصدر سابق، 929/2.

[2] مسلم، رقم 1434.

[3] مسلم انظر: تفسير النابلسي، مصدر سابق، 99/7.

[4] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 8668/14.

أولادهم، ومشاركة أتباعه في أموالهم عندما يدعوهم إلى جمعها من الحرام، كالربا والسرقة والرشوة والنهب، والمتاجرة بالمخدرات والأعراض ويدعوهم إلى إنفاقها في الحرام وتضييعها بالتبذير والإسراف.

وما أكثر الأموال العامة والخاصة في هذا الزمان التي يشارك فيها الشيطان أصحابها، وما أكثر الشركات الشيطانية الاقتصادية والتجارية في الغرب والشرق، التي قامت على أساس الشراكة مع الشيطان.

وكما يشارك الشيطان أتباعه في أموالهم، كذلك يشاركهم في عائلاتهم فيشارك الرجل امرأته، عندما تكون حياتهم الجنسية والعائلية قائمة على إغضاب الله وإرضاء الشيطان، وعندما ينشأ أولادهم في البيت نشأة شيطانية وفق وساوس الشيطان وتوجيهاته فينبتون نباتاً شيطانياً وينمون نمواً شيطانياً، ويكونون في شبابهم وجهودهم وطاقاتهم حصاداً شيطانياً[1].

وقال أبو زهرة: ومعنى هذه المشاركة في الأموال أنه يشاركهم في إثمها والعذاب عليها لا أنه يشاركهم فيها بالأخذ، إنه لا يريد منهم إلا الإغواء فهو يغويهم، ويشاركهم في كل مآثم الإغواء[2].

والأمر في ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ و ﴿وَأَجْلِبْ﴾ و ﴿وَشَارِكْهُمْ﴾ فهو للتهديد لا أمر طاعة، كقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾ [المرسلات:46] والمعنى: شاركهم في الإثم، لا في المال[3].

---

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مصدر سابق، ص 100.

[2] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 4417/8.

[3] العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، الشمراني، مصدر سابق، ص 49.

4- ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾:

- ﴿وَعِدْهُمْ﴾: ولعل هذا من أخطر أساليب ووسائل ومناهج الشيطان[1]، ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة، فيتلطف إلى تلك النفوس المتحرجة ويزين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة، وإبليس مأذون في أن يستخدم وسائله كلها، ومنها الوعود المغرية المخادعة كالوعد من الإفلات من العقوبة والقصاص والوعد بالغنى من الأسباب الحرام والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة[2]، ﴿وَعِدْهُمْ﴾: الوعود المزخرفة التي لا حقيقة لها[3]، ومنّيهم بأمانيك الكاذبة كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:268][4].

- ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾: حصر وقصر أن وعود الشيطان ليست شيئاً إلا الوهم والغرور والخداع والكذب وهو قد اعترف بها كما سجلته سورة إبراهيم في خطابه

---

[1] تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص 359.

[2] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 2239/4.

[3] تفسير السعدي، مصدر سابق، 929/2.

[4] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 8668/14.

إلى أتباعه في الآخرة عندما قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم:22][1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾: أي لا يستطيع أن يغرَّ بوعوده إلا صاحب الغرّة أو منها الغرور: أي يُزيّن لك الباطل في صورة الحق فيقولون: غرَّهُ. وأنت لا تستطيع أبداً أن تصوّر للإنسان الباطل في صورة الحق إلا إذا كان عقله قاصراً غافلاً؛ لأنه لو عقل وانتبه لتبيَّن له الحق من الباطل، إنما تأخذه على غِرَّة من فكره، وعلى غفلة من عقله، لذلك كثيراً ما يُخاطبنا الحق سبحانه بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:60].

- ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:50].
- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ..﴾ [النساء:82].
- وينادينا بقوله تعالى: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ..﴾ [الطلاق:10].

وهذا كله دليل على أهمية العقل وحثٌّ على استعماله في كل أمورنا، فإذا سمعتم شيئاً فمرِّروه على عقولكم أولاً، فما معنى أن يطلب الله منّا ذلك؟، ولماذا يوقظ فينا ملكة التفكير والتدبر في كل شيء؟، لا شك أن الذي يوقظ فيك آلة الفكر والنقد المتميز ويدعوك إلى النظر والتدبر، هو الثقة من حسن بضاعته، ولو أراد الحق سبحانه أن يأخذنا هكذا على جهل وعمى ودون تبصُّر ما دعانا إلى التفكر والتدبر.

وهكذا الشيطان لا يُمنيك ولا يُزيّن لك إلا إذا صادف منك غفلة، إنما لو كنت

---

[1] تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص 359.

متيقظاً له ومتعصباً للعقل، وعارفاً بحيله ما استطاع إليك سبيلاً، ومن حيله أن يزين الدنيا لأهل الغفلة ويقول لهم: إنها فرصة للمتعة فانتهزها وخذ حظك منها فلن تعيش مرتين، وإياك أن تُصدق بالبعث أو الحساب أو الجزاء، وهذه وساوس لا يُصدقها إلا من لديه استعداد للعصيان وينتظر الإشارة مجرد الإشارة فيطيع ويقع فريسة لوعود كاذبة، فإذا كان يوم القيامة تبرأ إبليس من هؤلاء الحمقى[1].

إذن: في الآيتين السابقتين خمسة أوامر لإبليس: اذهب، استفزز، وأجلب، وشاركهم، وعدهم، وهذه الأوامر ليست لتنفيذ مضمونها، بل للتهديد ولإظهار عجزه عن الوقوف في وجه الدعوة، أو صدّ الناس عنها، وكأن الحق سبحانه يقول له: افعل ما تريد ودبِّر ما تشاء فلن توقف دعوة الله[2].

ولما أخبر الله عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد ذكر ما يُعتصمُ به من فتنه، وهو عبودية الله والقيام بالإيمان والتوكل عليه[3]، فقال:

خامســـاً: قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُــلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:65]

تكرر مثل هذا النص في القرآن عدة مرّات، وهنا كذلك فالشيطان في الآية السابقة كان يتهدد ويتوعد، وفي الآية هنا طمأنة للمؤمنين من ناحية وإحباط للشياطين من

---

[1] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 8669/14.

[2] المرجع نفسه، 8670/14.

[3] تفسير السعدي، مصدر سابق، 930/2.

ناحية أخرى، أن المعتصم بالله لن تتمكنوا منه، وإنما تمكنكم من الأجوف الفارغ غير المتدرع بدرع الإيمان[1].

أ- ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾:

المقصود بعبادي في: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾: عبودية الاختيار وعبودية الاجتباء[2]، فهؤلاء لهم شرف الانتساب إلى الله تشريفاً وتكريماً، لأنهم قاوموا غرور الشيطان وخداعه وإغواءه، فكانوا جديرين بأن يخصهم الله بأنهم عباده وإن كان الجميع عباداً لأنه خلقهم، فالطائع والعاصي عباد لله، ولكن الاختصاص هنا للطائعين[3]، الذين اتصلت قلوبهم بالله واتجهوا إليه بالعبادة وارتبطوا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها وأشرقت وأنارت أرواحهم بعبادة الله حق العبادة[4].

- ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: وسلطان: بمعنى تأثير، ونفوذ وقوة وإرادة وإملاء[5]، أي ليس لك عليهم تسلط لأنك لا تقدر على إغوائهم أو إغرائهم، فهم محفوظون محروسون من الشيطان الرجيم، بكنف الله سبحانه وتعالى وحمايته، متحصنون بحصن الله عز وجل ونور العلم، والإيمان، والذكر، والقرآن وطاعة الرحمان[6].

وتحصنوا بالعزيمة والإرادة والعزم القوي والاتعاظ بعظات الله تعالى والاهتداء بهدي

---

[1] تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص 361.

[2] المرجع نفسه ص 361.

[3] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 4418/8.

[4] في ظلال القرآن، سيد قطب، 2239/4.

[5] تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص 361.

[6] تفسير ابن كثير، مصدر سابق، 61/3.

رسله[1].

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:99،100].

ب- ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾: وهذا جوهر الدين وروحه، أي كفى بالله حافظاً ومعيناً ومؤيداً ونصيراً وكافلاً ومجيراً، فتوكلوا على ربكم يحميكم ويحفظكم من وساوس الشيطان، ونفثه وشبهاته وإغوائه وإغراءاته[2].

-قال الألوسي في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾؛ يتوكلون عليه جل وعلا ويستمدون منه تعالى في الخلاص عن إغوائك، فيحميهم سبحانه منه والخطاب في هذه الجملة قيل للشيطان كما في الجملة السابقة، ففي التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة، والتصرف الكلي مع الإضافة إلى ضميره، إشعار بكيفية كفايته تعالى لهم وحمايته إياهم منه، أعني سلب قدرته على إغوائه، وقيل للنبي عليه الصلاة والسلام، أو للإنسان كأنه لما بين سبحانه من حال الشيطان ما بين صار ذلك لحصول الخوف في القلوب فقال سبحانه: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ﴾ أيها النبي وأيها الإنسان وكيلاً فهو جل جلاله يدفع كيد الشيطان ويحفظ منه، والقلب يميل إلى عدم كونه خطاباً للشيطان واستدل

---

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 4418/8.

[2] الحوار والاستدلال في القرآن الكريم، خالد الياسين، مصدر سابق، ص 485.

بالآية على أن المعصوم من عصمه الله تعالى، وأن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلال وإلا لقيل وكفى بالإنسان وكيلاً لنفسه[1].

–وقال محمد متولي الشعراوي: الوكيل هو المؤيّد وهو الناصر، وتقول: وكلت فلاناً، أي: وثقت به ليؤدي لي كل ما أريد، فإن كان من البشر من تثق به، وتأتمنه على مصالحك، فما بالك إن كان وكيلك هو الله عز وجل؟، لا شك إن كان وكيلك الله فهو كافيك ومؤيدك وناصرك فلا يُحوجك لغيره سبحانه[2].

–من أسماء الله الحسنى الوكيل:

ورد اسم الوكيل في القرآن الكريم أربع عشرة مرة، ومن ذلك:

–قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:3].

–وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الإسراء:65].

–وقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:173].

واسمه الوكيل يأتي بمعنى الوكيل العام على جميع خلقه وذلك لأنه خالقهم ومدبر أمرهم والمتكفل بأرزاقهم وحاجاتهم ومحييهم ومميتهم وذلك كما قال في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام:102].

يقول الطبري –رحمه الله– عند هذه الآية: والله على كل ما خلق من شيء رقيب وحفيظ يقوم بأرزاق جميعه وأقواته وسياسته وتدبيره وتصريفه بقدرته[3].

---

[1] روح المعاني، الالوسي، مصدر سابق، 145/15.

[2] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 8671/14.

[3] تفسير الطبري، مصدر سابق، 299/7.

ويقول السعدي -رحمه الله-عند قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:62].

فإخباره بأنه على كل شيء وكيل يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء وكمال قدرته على تدبيرها وكمال تدبيره وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء في مواضعها[1].

ويقول في موطن آخر "الوكيل" المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته، الذي تولى أولياءه فيسرهم لليسرى وجنبهم العسرى وكفاهم الأمور[2].

وأما المعنى الخاص "للوكيل" فهو ما ذكره الشيخ السعدي سابقاً بقوله: الذي يتولى أولياءه فيسرهم لليسرى، وجنبهم العسر وكفاهم الأمور[3].

-وهو المراد في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:3].

-وقوله سبحانه: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:173].

وهذه الوكالة خاصة بالمؤمنين حيث أن فيها معنى زائد على المعنى العام الذي سبق ذكره، وهو الرعاية الخاصة بأوليائه وإعانته ونصرته لهم[4].

والوكيل المطلق هو الله، قال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام:102]

بيده حياتك ورزقك، ومن فوقك ومن تحتك، وبيده أقرب الناس إليك، وأبعد الناس

---

[1] تفسير السعدي، مصدر سابق، 235/4. ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص 477.

[2] ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص477.

[3] المرجع نفسه، ص 477 تقلاً عن تفسير السعدي.

[4] المرجع نفسه، ص 478.

عنك، والذي يحبك والذي لا يحبك بيده، دقائق جسمك وأجهزتك بيده، فالله على كل شيء وكيل، لذلك ليس الوكيل المطلق إلا الله، وليس من بني البشر من هو وكيل لك في كل أمورك ولكن الله وكيل لك في كل الأمور ووكيل لك في كل الظروف، وفي كل حياتك[1].

فالله عز وجل هو الوكيل الحق الذي يغنينا ويرضينا ويكفينا وعندما نتعامل مع هذا الاسم تعاملاً حقيقياً لا نكتفي بمعنى الوكيل وما تعريفه، فالقضية أكبر من ذلك، المهم أن نكل إليه أمرنا، ولا يوجد مؤمن على الإطلاق بإخلاص شديد وبصدق بالغ وكّل إلى الله شأناً من شؤون حياته إلا ويتولّى الله أمره[2].

فأحياناً يكل الإنسان إلى الله أمر أولاده وهو على فراش الموت أو يكل إلى الله أمر بناته أو صحته، وقد أعجز العلاج وكاد يَيأس وقد يتألم ويقول: يا رب توكلت عليك وفوّضت أمري إليك أنت أعلم وأنت أرحم وأنت أكرم وأحكم، هذا الحال إذا توكلت على الله حقيقة -والله- سترى العجب العُجاب وسوف ترى أنك أقوى الناس.

ولذلك قالوا: إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتقِ الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك مما في يديك، فالذي يتوكل على الله هو أقوى الناس، والدعاء سلاح المؤمن وكلنا ضعفاء ولكنّك قويٌّ بالله وغني بالله، وكريم بالله، فأنت كريم بطاعة الله وغنيٌّ بالاعتماد على الله،

---

[1] موسوعة أسماء الله الحسنى، محمد النابلسي، مصدر سابق، 907/2.

[2] المرجع نفسه، 908/2.

وقويٌّ بتوكلك على الله، ولذلك ما توكل على الله أحد وخيَّب ظنه وما توكل على الله أحد إلا كفاه وأرضاه وأكرمه[1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "حسبنا الله ونعم الوكيل" قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: "إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل"[2].

فالوكيل سبحانه حي لا يموت عزيز لا يغلب، رحيم يرعى مصالح عباده ويسوق الخير إليهم بعلم وحكمة، أما من سواه فإنه يموت ويُغلب، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن أن يملكه لغيره، وحقيقة التوكل تكون في غاية الاعتماد على الله تعالى مع غاية الثقة في كفايته وقدرته[3].

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "والاستعانة" تجمع أصلين: الثقة بالله والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره –مع ثقته به–لاستغنائه عنه وقد يعتمد عليه –مع عدم ثقته– لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به.

والتوكل: معنى يلتئم من أصلين: من الثقة والاعتماد وهو حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5]

وهذان الأصلان –وهما التوكل والعبادة–قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع وقرن

---

[1] المرجع نفسه، 909/2.

[2] البخاري رقم: 4563.

[3] ولله الأسماء الحسنى، عبدالعزيز الجليل، مصدر سابق، ص 479.

بينهما، وهذا أحدهما[1]. وصدق التوكل على الله تعالى من علامات الإيمان الحق، قال عزّ وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:2][2].

وتأمل معي قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:62].

لا يمكن أن يتفلت شيءٌ من قبضة الله، فقد تجد إنساناً مُتفلتاً ومخيفاً ويثير الرعب بين الناس ولكنه في قبضة الله –وهذا هو الإيمان الصحيح–، الوحوش الفتاكة والأشخاص العتاة والشريرون –أتباع إبليس–هؤلاء كلهم بيد الله عز وجل، لا يسمح لهم أن يفعلوا ما يفعلوا إلا بمشيئته وأمره.

–قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:3].

الله جل جلاله يطلب منا أن نتخذه وكيلاً فهو رب المشرق والمغرب:

–قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل:9][3].

ومن أسباب التوكل أن تكون على الحق المبين ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل:79][4].

وعندما نترجم هذه الحقائق إلى مشاعر وتصرفات وإلى مواقف تتم الاستفادة الحقيقية

---

[1] مدارج السالكين، ابن القيم، مصدر سابق، 75/1.

[2] ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، ص480.

[3] موسوعة أسماء الله الحسنى، النابلسي، مصدر سابق، 911/2.

[4] المرجع نفسه، 912/2.

من دروس أسماء الله الحسنى، والتي أساسها الطاعة والاستسلام لله عز وجل[1].

وعندما يعيش الإنسان مع هذا الاسم العظيم ويحقق معاني عبوديته لله عز وجل يتشتت جمع إبليس ويهزم كتائبه الخاصة والعامة بإذن الله، فلا يتأثر بزينته ولا إغوائه وإغرائه، ولا وسوسته، ولا استفزازه ولا جلبته وسبحان الله عز وجل القائل: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

فتكون مع الله، قريباً منه متوكلاً عليه فهو على كل شيء وكيل، فسوف ترى أن الله كفاك وأغناك وأرضاك وحفظك من إبليس وجنده برحمته وفضله ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:99]، والتوكل على الله عبادة وتوحيد ونهى سبحانه عن التوكل على غيره ولا يصرف التوكل إلا لله عز وجل[2]، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء:2].

---

[1] المرجع نفسه، 914/2.

[2] مع الله، سلمان العودة، مصدر سابق، ص 202.

المبحث الخامس: قصة آدم عليه السلام في سورة الكهف:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف:50،51].

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:50].

قد يسأل سائل: ما علاقة هذه الآية بالتي قبلها؟

آيات القرآن الكريم مترابطة والدليل أنه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود:1]، فالآيات التي قبلها فيها:

- الحشر: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:47].

- والعرض: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف:48].

-ووضع الكتاب بعد أن ذكر الله عز وجل الموقف العصيب الذليل المخيف الذي يقفه العُصاة يوم القيامة حينما يفتح الكتاب لينطق بكل أعمالهم صغيرها وكبيرها: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:49].

ذكر الله عز وجل بني آدم كيف أخذ عليهم العهد ألا يعصوه وألا يستجيبوا للشيطان[1]، وذكر الله أصل مسيرة الإنسان منذ قصة أبية آدم الأولى مع الملائكة وإبليس[2].

لقد انتقلت الآيات من مشاهد القيامة، حيث يرى الناس أعمالهم وينالون جزاءهم إما في الجنة وإما في النار، إلى مشهد موغل في القدم يوم خلق الله أبا هؤلاء البشر وأسجد له ملائكته، فبين الله عز وجل مبدأ العداوة بين إبليس وذريته، والمتأمل لهذه النقلة تظهر له نكتة بديعة، فما كان من صاحب الجنتين، وما كان من كفار قريش المتكبرين من طلب طرد ضعاف وفقراء المؤمنين، وما كان من كل المجرمين المكذبين مما نتج عنه تلك الوقفة الذليلة يوم عرض الكتب، كل هذا يبدو استجابة لعدو آدم وذريته إبليس، فجاءت الآيات لتوقظ الغافلين عن هذه الحقيقة ولتذكرهم بأصل العداوة ولتبصرهم بالولي الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يتولوه وهو الله جل وعلا، وتنعى عليهم استبدال هذه الولاية الحقة بولاية أشد الخلق عداوة لهم، وتلك لعمر الله لخفة عقل وغباوة

[1] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 204/7.

[2] التفسير التوحيدي، حسن الترابي، مصدر سابق، 611/2.

منقطعة النظير.

ونكتة أخرى، وهي المشابهة بين تكبر المشركين وصاحب الجنتين وتكبر إبليس، إذ أبى أن يسجد لآدم لما يراه لنفسه من فضل وشرف الأصل وهو النار، ولم يسجد لآدم لأنه من طين وكذلك أولئك الذين رأوا لأنفسهم فضلاً لشرف الأصل ولكثرة المال والولد وغير ذلك من المتاع فشابهوه في الفعل فناسب أن يذكرهم بما حصل في مبدأ الخلق[1].

قال البقاعي: لما ذكر البعث وختمه بإحسانه بالعدل المثمر لإعطاء كل أحد ما يستحقه أتبعه -بماله من الفضل-بابتداء الخلق الذي هو دليله في سياق مذكر بولايته الموجبة للإقبال عليه، وعداوة الشيطان الموجبة للإدبار عنه، مبين لما قبلوا به عدله فيهم وفي عدوهم من الظلم كما تكبر على آدم عليه السلام بأصله، فتكبروا على فقراء المؤمنين بأصلهم وأموالهم وعشائرهم، فكان فعلهم فعله سواء فكان قدوتهم وهو عدوهم[2].

إن فتنة الشيطان للإنسان أعظم الفتن، وبلاء الإنسان به أشد بلاء، لأن الشيطان رأس الشر، ومنبع الكفر، وهو أكبر عدوّ للإنسان، ويجري منه مجرى الدم من العروق، وما أكثر ما حذّرنا الله سبحانه منه في آيات التنزيل الحكيم، فقد ذكر الله سبحانه قصّة أبينا آدم مع الشيطان في عِدّة سور من القرآن الكريم، وفي سورة الكهف حذّرنا الله منه بعد أن يبين حال المفتونين بالدنيا والأموال والأولاد، لأن الاغترار بالدنيا والأموال والأولاد من أعظم الوسائل التي يتمكن الشيطان بها من فتنة الإنسان[3].

---

[1] إشراقات سورة الكهف، ناصر العمر، مصدر سابق، ص 435.

[2] نظم الدرر، البقاعي، مصدر سابق، 152/5 بتصرف مع اختصار.

[3] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، 69/5.

1- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم﴾:

وقد تكرر ذكر هذه القصة في مواضع من الكتاب الكريم، وهي في كل موضع سيقت لفائدة غير ما جاءت له في مواضع أخرى على اختلاف أساليبها وعباراتها، ولا عجب فهي من العليم الخبير[1].

قال الطاهر بن عاشور: وهذ القصة تكررت في مواضع كثيرة من القرآن، وهي في كل موضع تشتمل على شيء لم تشتمل عليه في الآخر ولها في كل موضع ذكرت فيه عبرة تخالف عبرة غيره، فذكرها في سورة البقرة –مثلاً– إعلام بمبادئ الأمور وذكرها هنا تنظير للحال وتوطئة للإنكار، والتوبيخ، وقس على ذلك[2].

وقال الدكتور فضل حسن عباس عن الجديد في قصة آدم عليه السلام في سورة الكهف:

- أن إبليس من الجن وهي الآية الأولى التي يصرح فيها بذلك.
- أنه فسق عن أمر ربه بعد أن لم يكن كذلك.
- أنه لا يجوز لبني آدم أن يتخذوا إبليس وذريته أولياء من دون الله مع عداوته لهم.

هذه الآية الكريمة وما فيها من قضايا جديدة، كانت آخر الحديث عن قصة آدم في العهد الملكي[3].

---

[1] تفسير المراغي، مصدر سابق، 1619/5.

[2] التحرير والتنوير، ابن عاشور، مصدر سابق، 340/15.

[3] قصص القرآن، فضل حسن عباس، مصدر سابق، ص 115.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم﴾: أي "واذكر يا محمد" لهم به إذ "قلنا" بما لنا من العظمة[1].

أ- ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أي لجميع الملائكة، والملائكة خلقت من النور، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم"[2].

وخلقتهم عظيمة، منهم من له جناحان ومن له ثلاثة، ومن له أربعة ومن له أكثر وهم ذوات محسوسة وليسوا أموراً معنوية، ولا قوى خفية، يسكنون السماء وهم جند من جنود الله، قادرون على التشكل بأشكال جسمانية، حسبما يأذن الله وهم مقربون من الله، ومكرّمون لا يوصفون بالذكورة والأنوثة، ولا يتناسلون ولا يأكلون ولا يشربون، طعامهم من التسبيح والتهليل ولا يملون ولا يتعبون، ويتصفون بالحسن والجمال والحياء والنظام.

ويختلفون عن البشر، بأنهم جُبِلوا على الطاعة، خلقهم الله لعبادته وتنفيذ أوامره، يسبحون الله ليلاً ونهاراً، ويطوفون بالبيت المعمور في السماء ويخشون الله تعالى وهم أصناف كثيرة موكلة بأعمال مختلفة، ولا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى، قد حجبهم عنّا، فلا نراهم في صورهم ولكن كشفهم لبعض عباده كما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل على صورته مرتين[3].

---

[1] نظم الدرر، البقاعي، مصدر سابق، 475/7.

[2] مسلم: 2996/2294/4.

[3] اشراقات سورة الكهف، ناصر العمر، مصدر سابق، ص 436.

ب- ﴿اسْجُدُوا لِآدم﴾

قال الشنقيطي: قدمنا في سورة البقرة أن قوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدم﴾ [البقرة:34] محتمل لأن يكون أمرهم بذلك قبل وجود آدم أمراً معلقاً على وجوده، ومحتمل لأنه أمرهم بذلك تنجيزاً بعد وجود آدم وأنه -جلّ وعلا- بين في سورة "الحجر" وسورة "ص" أن أصل الأمر بالسجود متقدم على خلق آدم معلّق عليه.

-قال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر:28،29].

-وقال تعالى في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:71،72].

ولا ينافي هذا أنه بعد وجود آدم جدّد لهم الأمر بالسجود تنجيزاً، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَسَجَدُوا﴾ محتمل لأن يكونوا سجدوا كلهم أو بعضهم ولكنه بين في مواضع أخرى أنهم سجدوا كلهم كقوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر:30] ونحوها من الآيات[1].

وآدم عليه السلام أبو البشر، خلقه الله من طين بيده تشريفاً ونفخ فيه من روحه وأسكنه جنته وأسجد له ملائكته، وخلق معه زوجه وهو نبي، سأل رجل النبي صلى الله

---

[1] أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، 290/3.

عليه وسلم فقال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: نعم معلَّم مكلَّم[1].

2- ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾:

أما الملائكة فاستجابوا كلهم لأمر الله عز وجل وسجدوا في الحال بلا تردد لأن طاعة ربهم جل وعلا من صفاتهم التي فطرهم عليها، قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر:30] و[ص:73] .

وأما إبليس فأبى السجود، استكباراً وعناداً، وحسداً، وكفراً.

-قال ابن كثير: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾: خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه وخانه الطبع وذلك أنه كان قد توسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة[2].

-قال القرطبي: وإبليس وزنه إفعيل، من الإبلاس، وهو اليأس من رحمة الله، ولم ينصرف لأنه معرفة ولا نظير له فشبه بالأعجمية، قاله أبو عبيدة. وقيل أعجمي فلم ينصرف للعجمة والتعريف، قاله الزجاج[3].

-وقال ابن عثيمين: "قوله هنا: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ اختلف العلماء في هذا الاستثناء؟ هل هو استثناء متصل أم هو استثناء منفصل؟ فمنهم من قال: إن الاستثناء هنا متصل،

---

[1] اشراقات سورة الكهف، ناصر العمر، مصدر سابق، ص 436.

[2] تفسير ابن كثير، مصدر سابق، 167/5 بتصرف واختصار.

[3] تفسير القرطبي، مصدر سابق، 295/1 بتصرف واختصار.

لأنه الأصل في الاستثناء، أي أن الأصل في الاستثناء أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، واستدل هؤلاء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم[1].

وهذا القول أرجح، لكنه يشكل عليه: كيف يكون إبليس من غير الملائكة، ويصح أن يتوجه إليه الخطاب في قوله: ﴿اسْجُدُوا لِآدم﴾.

والجواب عن هذا؛ نقول: صحّ أن يتوجه إليه الخطاب لأنه كان في عامتهم أي أنه كان معهم يعمل بعملهم ويتعبد كما يتعبدون، لكن الأغلب عليه الطبع الخبيث فلما أُمر بالسجود رأى أنه فوق مرتبة آدم، فاستنكر أمر الله عز وجل وبهذا يزول الإشكال[2].

وقال الرازي: وأصل ما يدل على أنه ليس من الملائكة، أنه تعالى أثبت له ذرية ونسلاً في هذه الآية: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾، والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل فوجب أن لا يكون إبليس من الملائكة[3].

وقد نقلت كثير من كتب التفسير والتاريخ جملة من أقوال العلماء يذكرون أن إبليس كان من الملائكة وأنه كان خازناً للجنة أو للسماء الدنيا، وأنه كان من أشراف الملائكة

---

[1] مسلم: 2294/4.

[2] تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، مصدر سابق، ص 163. وانظر: التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المغراوي، مصدر سابق، 168/20.

[3] تفسير الرازي، مصدر سابق، 137/21.

وأكرمهم قبيلة إلى آخر تلك الأقوال[1].

وقال ابن كثير: وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائيليات التي تُنقل ليُنظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد قطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غُنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة العلماء، والسادة الأتقياء، والأبرار النجباء، من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي – خاتم الرسل، وسيد البشر عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات – أن ينسب إليه كذاب، أو يحدّث عنه ما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم وقد فعل[2].

وقد سبق الحديث عن الجن في سورة الحجر من قصة آدم عليه السلام ومن أراد التوسع فليراجع كتاب عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة للدكتور عبد الكريم نوفات عبيدات وهي رسالة ماجستير مطبوعة ذكر فيها الكاتب: المراد بالجن وصفاتهم وأصنافهم وطريق العلم بوجودهم، وتكليفهم وعلاقتهم بالإنسان، وفي إبليس والحكمة من خلقه،

---

[1] التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المغراوي، مصدر سابق، 169/20.

[2] تفسير القرآن العظيم 169/5

والجنس الذي هو منه وأنه سبب الفساد في الأرض.. إلخ.

3- ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾:

قال ابن جرير: فخرج عن أمر به وعدل عنه ومال[1].

والفسق: الخروج، يقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها وفسقت الفأرة: إذا خرجت من جُحرها[2].

﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي سيده ومالكه المحسن إليه بإبداعه وغير ذلك من اصطناعه في شأن أبيكم، إذ تكبر عليه فطرده ربه من أجلكم، لأنه زاد في الافتخار، والتكبر على الضعفاء، فإن من كانت خطيئته في كبر لم يكن صلاحه مرجواً ومن كانت خطيئته في معصية كان صلاحه مرجواً[3].

والفسق أكبر وأصغر، فالأكبر كفر، والأصغر من جنس المعاصي، والمراد هنا هو الأكبر أي الكفر[4].

4- ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾:

- ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾ والاستفهام في الآية للإنكار والتوبيخ مع التعجب من حال أولئك الذين يوالون الشيطان ويتابعونه ويُفتنون به[5].

---

[1] تفسير الطبري، مصدر سابق، 42/18-43 بتصرف واختصار.

[2] التدبر والبيان، المغراوي، مصدر سابق، 166/20.

[3] تفسير الدرر، البقاعي، مصدر سابق، 476/7.

[4] اشراقات سورة الكهف، ناصر العمر، مصدر سابق، ص 438.

[5] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، 70/5.

أي: أتتخذ الشيطان ولياً لك من دون الله؟ والله تعالى يقول: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:257]، فالتفوق الأكبر في الأرض أن تكون ولياً لله وما من مرتبة على وجه الأرض أعظم عند الله من أن تكون وليه، قال سبحانه: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:62،63][1].

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾ أي: أيصح منكم يا بني آدم أن تتخذوا عدوّ أبيكم، وعدوّ ربكم، وعدوّكم أيضاً وليّاً توالونه وذريته بالطاعة لهم والاستجابة لما يطلبون منكم من أنواع الكفر والفسق[2].

وقال الشنقيطي: وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ دليل على أن للشيطان ذرية، فادعاء أنه لا ذرية له مناقض لهذه الآية مناقضة صريحة كما ترى وكل ما ناقض صريح القرآن فهو باطل بلا شك، ولكن طريقة وجود نسله هل هي عن تزويج أو غيره، لا دليل عليها من نص صريح والعلماء مختلفون فيها.. فقد دلت الآية الكريمة على أن له ذرية، أما كيفية ولادة تلك الذرية، فلم يثبت فيه نقل صحيح ومثله لا يعرف بالرأي[3].

وقال محمد متولي الشعراوي: ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾: تدل على تناسل إبليس وأن له أولاداً وأنهم يتزاوجون ويمكن أن نقول: ذريته: كل من كان على طريقته في الضلال والإغواء ولو كان من الإنس كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي

---

[1] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 206/7.

[2] أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، مصدر سابق، 1001/1.

[3] أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، 292/3.

بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:112][1].

والظاهر أن المراد من الذرية الأولاد، ففي الآية دليل على أن للشيطان أولاداً وهذا يؤكد أنه ليس من الملائكة فالملائكة لا يتوالدون[2].

وذرية إبليس من الجن توسوس للإنسان بالشر وبالشهوة وبالمعصية، فكيف تدعون كتاب الله وصراطه المستقيم وتوجيهه الكريم ودستوره العظيم وتتجهون إلى وسوسة تُهلك صاحبها إلى الأبد؟[3]

كيف تمنحونهم المودة وتعطونهم الثقة وتنتهون لأوضاعهم وتنفّذون خططهم الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية من خلال ما يوحون إليكم من أفكار وآراء ومشاعر: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ لأنهم يضمرون لكم المكر الذي يودي بكم إلى خسارة الدنيا والآخرة من وجوه كثيرة[4].

إن إبليس وذريته قد محضوا العداوة محضاً، فإنهم لم يفكّروا ولن يفكّروا بأية مبادرة خير للإنسان كله في كلّ وسوساتهم وتهويلاتهم وتسويلاتهم من خلال الخطة الخبيثة في إضلال بني آدم عن الصراط المستقيم[5].

وفي الآية: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ الحث على اتخاذ

---

[1] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 8935/14.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، 70/5.

[3] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 206/7.

[4] تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مصدر سابق، 368/11.

[5] المرجع نفسه، 369/11.

الشيطان عدواً والإغراء بذلك وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي ظلم أعظم من ظلم من اتّخذ عدوه الحقيقي ولياً وترك الولي الحميد[1].

وقد حذرنا الله تعالى في كتابه العزيز من تولي الشيطان وجنده واتباع خطواته[2]، مثل الآية التي مر تفسيرها ومن ذلك ما يلي:

- قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدم أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس:60].

- وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور:21].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:6] والآيات هنا كثيرة جداً[3].

5- ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾:

أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان وذريته الذين لا يأمروهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمان الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته[4].

قال ابن جرير: يقول عزَّ ذكره: بئس البدل للكافرين بالله اتخاذ إبليس وذريته أولياء

---

[1] تفسير السعدي، مصدر سابق، ص 967.

[2] التسهيل لتأويل التنزيل تفسيره سورة الكهف، العدوي، مصدر سابق، ص 184.

[3] المرجع نفسه، ص 184.

[4] تفسير السعدي، مصدر سابق، ص 967.

من دون الله وهو لهم عدو، من تركهم اتخاذ الله ولياً باتباعهم أمره ونهيه وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم المتفضل عليهم من الفواضل ما لا يحصى بدلاً[1].

وقال أبو حبان: قوله ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾: لأنهم اعتاضوا عن الحق بالباطل وجعلوا مكان ولايتهم إبليس وذريته وهذا نفس الظلم، لأنه وضع الشيء في غير موضعه[2]، وأي معاملة أكثر سوء من معاملة يستبدل فيها الشيطان وذريته بالله العزيز الحميد؟.

وقد ورد في السنة النبوية نصوص صحيحة تبين بعض وظائفه وأعوانه منها:

أ- عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثاً، قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني[3].

خِنزَب: هو لقب له. والخنزب قطعة لحم منتنة، ويروى بالكسر والضم[4].

ب- عن سلمان رضي الله عنه قال: لا تكونن -إن استطعت-أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها، فإنها معركة للشيطان، وبها ينصب رايته[5].

[1] تفسير الطبري، مصدر سابق، 262/15.

[2] البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، مصدر سابق، 129/6.

[3] مسند أحمد: 216/4، مسلم: 1728/4،2203.

[4] التدبر والبيان، المغراوي، مصدر سابق، 172/20.

[5] مسلم: 1906/4،2451.

ت- عن أبي موسى رضى الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا أصبح إبليس بث جنوده فيقول: من أضلّ اليوم مسلماً ألبسته التاج. قال: فيخرج هذا فيقول: لم أزل به حتى طلق امرأته. فيقول: أوشك أن يتزوج. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى عقَّ والديه، فيقول: أوشك أن يبرهما. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى أشرك، فيقول: أنت أنت. ويجيء فيقول: لم أول به حتى زنى، فيقول: أنت أنت. ويجيء هذا فيقول: لم أول به حتى قتل، فيقول أنت أنت، ويلبسه التاج[1].

ث- وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا ما تركته، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال: فيدنيه منه، ويقول: نِعمَ أنت، قال الأعمش: أراه، قال: فيلتزمه[2].

وفي قول إبليس: "نِعمَ أنت": نعم بكسر النون وإسكان العين وهي نعم الموضوعية للمدح، فيمدحه لإعجابه بصنعه وبلوغه الغاية التي أرادها[3].

ومن فوائد الأحاديث السابقة:

اشتملت هذه الأحاديث على بيان بعض وظائف الشيطان وأعماله الخبيثة مثل إضلال الناس، والتفريق بينهم وإيقاعهم في ما يغضب الله ويسخطه، وتضمنت بعض

---

[1] الحاكم: 350/4 صححه ووافقه الذهبي.

[2] مسلم: 2167/4

[3] التدبر والبيان، المغراوي، 172/20.

الأماكن التي ينصب فيها الشيطان ألويته وأعلامه كالأسواق فهي مقره ومجتمع أعوانه، ومطية إغوائه ومقام نزغه وكيده، كما تضمنت أن له جنوداً وأعواناً وسرايا يبعثهم لإغواء بني آدم، فأكثرهم فتنة وإغواء، كما دل حديث عثمان بن أبي العاص من أسماء بعض أعوانه: "خِنزب" وهذا أصح ما ورد في اسمه[1]، وقد بين ابن عطية أنه قد ثبت عنده في صحيح مسلم أن للوسوسة شيطان يقال له: خِنزب[2].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف:51]:

يبين الله عز وجل في هذه الآيات أن الذي يستحق العبادة هو الله وحده ولا شيء سواه، فالشيطان ما أسهم في خلق الإنسان حتى يكسب حق عبادة الناس له، وهؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دون الله، وتتحركون بتوجيهاتهم، وبوساوسهم الشيطانية؛ هم أعداء لكم، وما كانوا حاضرين يوم خلقت السماوات والأرض، أي: أن الله عز وجل لم يستعن بهم على خلق السماوات والأرض، بل كانوا غائبين، ونفي الاستعانة بهم في غيابهم أشدّ من نفيها في حضورهم، ومع ذلك اتخذتموهم أولياء وتعبدونهم من دون الله، وتستجيبون لوساوسهم وتأكلون المال الحرام استجابة لهم، وما كانوا شاهدين يوم خلق السماوات والأرض[3].

---

[1] المرجع نفسه، 173/20.

[2] المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، 522/3.

[3] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 206/7.

فالإنسان حينما يتنطّع في تفسير بداية البشرية، فيقول: الإنسان الحجري، والإنسان البدائي، وما إلى ذلك ويلغي البداية التي شرحها الله في القرآن الكريم، نقول لهذا الإنسان كيف عرفت بداية الخلق؟

إن عقلك لا يكفي، فالعقل البشري مهمته أو قدرته استدلالية، أي: أنه يظهر إلى الشيء فيحكم من خلال تلك النظرة على صانعه، فالعقل يرى الكون فيرى المكوِّن، ويرى النظام فيرى المنظِّم، ويرى الأثر فيرى المؤثِّر، ويرى الخلق فيرى الخالق، وأما أن ينتقل العقل إلى مئات ألوف ملايين السنين، وإلى ملايين السنين قبل أن نخلق جميعاً ويقول لك: كان كذا وكذا وجرى كذا وكذا، وحصل كذا وكذا، فالإجابة الحاسمة من قبل الخالق جلَّ وعلا أنه: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾، فلذلك نحن لا نعرف عن بداية الخليقة إلا ما ذكره الله[1]، وهنا نقطة دقيقة جداً: الإيمان نوعان، إيمان تحقيقي، وإيمان تصديقي، فنحن أمام خطين كبيرين من خطوط العقيدة، فيما نيط بعقلك أن يعقله؛ فهذا أنت مكلف أن تعرفه، فإيمانك بوجود الله تحقيق، وإيمانك بأسمائه الحسنى تحقيق وإيمانك برسالة النبي صلى الله عليه وسلم تحقيق، وإيمانك أن معه معجزة تحقيق، وإيمانك بأن هذا الكلام كلام الله تحقيق، وأما ما أخبر عنه فليس لك إلا أن تصدّق الخبر الصادق فيه، كالإيمان بعالم الأزل وعالم الأبد وما بعد الموت، والبرزخ والصراط، والصُّور، ونشر الصحف، والجنة، والنار، وربنا عزّ وجل أشار إلى بداية الخلق والحياة في هذه الآية.

---

[1] المرجع نفسه، 207/7.

وإيمانك ببداية الخلق تصديق، لأن هذا الشيء يعجز عن الوصول إليه فلا بدَّ من التصديق به فنحن لا نعرف ما كان في الماضي السحيق، وليس بإمكاننا أن نعرف إلا ما أخبرنا الله به، ونحن لا نعرف ما سيكون في المستقبل البعيد وليس بإمكاننا أن نعرف إلا ما أخبرنا الله به، فأنت بين تحقيق فيما وُكِلَ إلى عقلك وتصديق لما عجز عنه عقلك.

لكن الله سبحانه وتعالى رحمة بنا أخبرنا عن الشيء الذي عجز عقلنا عن إداركه ونحن في أمس الحاجة إليه وهو إخبار الصادق، فإن حكّمت عقلك فيما أخبرك الله به، فإيمانك بالله ضعيف، وما أخبرك الله به هو الذي يحكم عقلك وليس عقلك الذي يحكم ما أخبرك الله به، وأيّة نظرية تقرؤونها عن أصل العالم، وعن أصل الإنسان، وأن أصله قرد كما يقول دارون وأن الإنسان نشأ نشأة بدائية متوحّشة، فهذه النظريات لا تزيد على أنها تخمينات ولا تزيد على إلقاء الكلام على عواهنه.

وكلما تقدَّم العلم كشف خطأ ما فسره العلماء المنحرفون، فالإنسان مخلوق من حيوان منوي واحد من بين ثلاث مئة ألف حيوان، فيلقح بويضة تنقسم في ثمانية أيام إلى عشرة آلاف قسم، ثم تلتصق بجدار الرحم ثم يبدأ تكوّن الدماغ والأحشاء والأعضاء وهذا في تسعة أشهر وعشرة أيام، فيصبح طفلاً كاملاً له دماغ وجمجمة، ومخ، ومخيخ، وبصلة سيسائية ونخاع شوكي، وقلب وشرايين ورئتان ومعدة وأمعاء وكبد وبنكرياس، وكليتان ومثانة، وأعصاب وعضلات، وعظام، وجلد، وغدد دهنية وغدد صبغية[1].

[1] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 208/7.

1- ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾:

-قال ابن جرير: يقول عزّ ذكره: ما أشهدت إبليس وذريته ﴿خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما أحضرتهم ذلك فأستعين بهم على خلقه، بل تفرّدت بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير، يقول: فكيف اتخذوا عدوّهم أولياء من دوني، وهم خلق من خلق أمثالهم، وتركوا عبادتي وأنا المنعم عليهم وعلى أسلافهم، وخالقهم وخالق من يوالونه من دوني منفرداً بذلك من غير معين ولا ظهير[1].

-قال ابن عطية: الضمير في ﴿أَشْهَدْتُهُمْ﴾ عائد على الكفار وعلى الناس بالجملة، فتتضمن الآية الرد على طوائف من المنجمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء، وسواهم من كل من يتخوض في هذه الأشياء. وقيل: الضمير في ﴿أَشْهَدْتُهُمْ﴾ عائد على ذرية إبليس، فهذه الآية، على هذا تتضمن تحقيرهم.

والقول الأول أعظم فائدة، وأقول إن الغرض المقصود أولاً بالآية، هم إبليس وذريته، وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة وعلى الكهان والعرب المصدقين لهم والمعظمين للجن حين يقولون: أعوذ بعزيز هذا الوادي؛ إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته، وهم أضلوا الجميع، فهم المراد الأول بالمضلين، وتندرج هذه الطوائف في معناهم[2].

---

[1] تفسير الطبري، مصدر سابق، 263/15.

[2] المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، مصدر سابق، 523/3.

-قال الشنقيطي: وهذا المعنى الذي أشارت إليه الآية من أن الخالق هو المعبود وحده، جاء مبيناً في آيات كثيرة وقد قدمنا كثيراً منها في مواضع متعددة:

- كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:17].

-وقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:16].

-وقوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [لقمان:11].

-وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [الأحقاف:4].

2- ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾:

أي: مساعدين ومعاونين ومساندين، فما أشهدتهم الخلق.

والعَضُد: أصله ما بين المرفق إلى الكتف ويستعمل بمعنى المعين كاليد ونحوها وهو المراد هنا[1].

والعضد هو القوة التي تُسعفك وتسندك، وهو مأخوذ من عضُد الإنسان، حيث يزاول أغلب أعماله بيديه وحين يزاول أعماله بيديه تتحرك فيه مجموعة من الأعضاء قبضاً وبسطاً واتجاهاً، يميناً وشمالاً وأعلى وأسفل، وكل هذه الحركات لا بد لها من منظم أو

---

[1] تفسير المراغي، مصدر سابق، 160/15.

موتور وهو العضد، وفي حركة اليد ودقتها في أداء مهمتها آيات عظمى تدل على دقّة الصّنعة[1].

فالمراد من نفي إشهادهم ذلك الإشعار بضلالة هؤلاء المضلين الذين يتخذون من دون الله أولياء، فهم لم يشهدوا الخلق، فضلاً عن أن يُستشاروا أو يشاركوا فيه، وما داموا كذلك، فلا يستحقون الطاعة والخضوع لأن الإنسان مفطور على طلب معبود كامل لا يعجزه شيء ولا يحتاج لمعين ليعبده، ويلجأ إليه لتحقيق الأمن، والاستغناء به عمن سواه؛ وهؤلاء ليس أحد منهم كذلك، فليس ذلك إلا لواجب الوجود سبحانه وتعالى وهذا دليل علة وجوب اتخاذه ولياً من دون أولئك المضلين[2].

– قال الطاهر بن عاشور: والمعنى: لا يليق بالكمال الإلهي أن أتخذ أهل الإضلال أعواناً فأشركهم في تصرّفي في الإنشاء؛ فإن الله مفيض الهداية وواهب الدراية، فكيف يكون أعوانه مصادر الضلالة؛ أي لا يعين المعين على أمثاله ولا يكون إلا قريناً لأشكاله[3].

– وقال الشنقيطي: وفي هذه الآية الكريمة التنبيه على أن الضالين المضلين لا تنبغي الاستعانة بهم والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، والمعنى المذكور أشير له في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص:17]، والظهير المعين، والمضلون الذين يضلون أتباعهم عن طريق الحق[4].

---

[1] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 8936/14.

[2] اشراقات سورة الكهف، ناصر العمر، مصدر سابق، ص 456.

[3] التحرير والتنوير، ابن عاشور، مصدر سابق، 344/15.

[4] أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، 295/3.

ونستفيد من ذلك ضرورة البعد عن المضلين الذين يتحرّكون في الموقع الذي يمنع الناس عن السّير في خط الهدى، ويبتعد بهم عن الإيمان بالله وعن خطّ طاعته، فلا ندخلهم في مشاريعنا الثقافية والاجتماعية والسياسية ليكونوا لنا أعواناً في تخطيطها وتنفيذها، لأنهم لن يكونوا في موقع الإخلاص للأهداف الكبيرة التي نستهدفها، بل يكونون مشكلة لنا في الاستفادة من هذا الموقع للتخريب والإرباك والإضلال، ولا بد لنا من اختيار الناس الطيبين المخلصين الذين يلتقون معنا بالفكر والخط والهدف في عملية تكامل وتعاضد وانسجام، ويمكن لنا الاستفادة من التاريخ الإسلامي وغيره، حيث قام المنحرفون بوسائلهم الخفيّة بالإضرار بالواقع الفكري والاجتماعي والسياسي وإبعاده عن الخط المستقيم في عملية استغلال للمواقع القيادية أو ما يقترب منها للنّفاذ إلى داخل الواقع العام للعبث بمقدّراتنا وأوضاعه العامة والخاصة[1].

3- بطلان النظرية الداروِنية وفسادها:

إن الآية الكريمة التي ذكرناها لمعجزة في سياقها، تدحض النظريات الخاطئة في أصل نشأة الكون ونشأة الإنسان: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

وقد ظهرت نظرية دارون في وقت وقر في نفوس كثير من الناس في أوروبا أن العلم والدين ضدان لا يلتقيان نتيجة الصراع الذي قادته الكنيسة وحاولت فرض بعض

[1] تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مصدر سابق، 370/11.

معتقداتها الفاسدة على عقول الناس.

وقد ألقى دارون نظريته التي تلقاها ممن سبقوه إلى أن وضع أسسها بإصداره كتاب "أصل الأنواع" الذي أصدره في عام 1859م، وحاول فيه أن يوجد تصوراً شاملاً مفسراً نشوء الحياة على الأرض وانتشار الأحياء، وتكاثرها وتنوعها، حتى وصلت إلى ما انتهت إليه اليوم من تنوع أجناسها، وكانت محاولاته هذه آتته حظاً في انتشار نظريته وقبولها عند فئة من الناس فور نشرها وذلك يعود إلى أسباب عدة منها:

بساطة نظريته مع قدرته على عرضها بأسلوب يشد الانتباه، وقد جاءت في وقت سئم فيه الناس –في المحيط الغربي الناهض–تعاليم الدين وأصبحوا يقيسون الإنسان في عقله وتطوره بقدر انسلاخه منه، وقد وقر في نفوسهم أنّ العلم والدين ضدان لا يلتقيان[1].

ولابد لنا هنا أن نشير إلى خطأ ما يسمى بنظرية النشوء والارتقاء، أو نظرية دارون لأنها تصادم الآيات القرآنية الكريمة التي سبقت في هذه السورة وفي غيرها من السور القرآنية والتي بين الله تعالى فيها كيف بدأ خلق الإنسان، وذلك بسبب انتشار هذه النظرية بين كثير من أبناء المسلمين، فهي تدرّس في كثير من مدارسهم وجامعاتهم، وتتحدث عنها بشكل مستمر وسائل الإعلام بواسطة الأفلام التلفزيونية التي يسمونها: العلمية، مع أن نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية تكذبها وكذلك العلم الحديث قد نقضها ولم يعد يأبه بها[2].

---

[1] مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، 425/1.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، 381/4.

وتقول هذه النظرية: إن الأحياء يتخلّق بعضها من بعض بسبب تأثير البيئة والزمن وإن هناك اختباراً طبيعياً في الأحياء، بحيث لا يبقى إلا الأقوى وصفاته التي تورث عنه، وقد صنّف أصحاب هذه النظرية المخلوقات الحية، فوجدوا أن أعلاها الإنسان، يليه القرد، وأن أدناها وحيد الخلية، فقالوا تبعاً لهذا: إن الخلق ابتدأ بوجود الخلية، ثم تطور وارتقى حتى وصل إلى الإنسان[1].

وأما قولهم: أنّ الأحياء يتخلّق بعضها من بعض بسبب تأثير البيئة والزمن، فلا دليل لهم عليه، فلو أن مهندساً أنشأ ألف بناية تتميز كل واحدة عن التي قبلها ببعض التفاصيل ولكنها تشترك كلها بطريقة واحدة في التصميم والإنشاء فهل نقول: إن كل بناية قد اشتقت من التي قبلها وتطورت عنها؟ أم نقول: إن الذي صمم وأنشأ الأولى هو نفسه الذي صمم وأنشأ الثانية وطورها حسب الظروف التي حدثت[2].

ثم إن علم الوراثة الحديث قد هدّم كل أساس لهذه النظرية، فقد أصبح من الثابت أن الأصول تورث الفروع المتفرعة عنها كل ما تحمل من خصائص بواسطة الكروموسومات، ولا نجد بين أجناس المخلوقات اتفاقاً في الخصائص الموروثة، بل نجد بينها تبايناً ظاهراً واختلافاً حتى في عدد الكروموسومات، فعددها مثلاً في الإنسان (46) وفي القرد (48) وفي الغنم (54) وفي الحصان (66) وفي الكلب (78)[3].

ولهذا فقد أعلن القرار العلمي عن بطلان النظرية الدارونية، بل إن دارون نفسه في

---

[1] المرجع نفسه، 382/4.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، 382/4.

[3] المرجع نفسه، 382/4.

كتابه (أصل الأنواع) أقرّ بوجود ثغرات كثيرة معقدة في نظريته منها: أنه عثر على هياكل حيوانات تعود إلى ما قبل العصر الجليدي تشبه هياكل لحيوانات مماثلة لاتزال موجودة[1].

وكان دارون يعلق أمله الكبير على تعزيز نظريته بالأحافير التي تكتشف في المستقبل ولكن هذا الأمل خاب، إذ دلت الأحافير جميعاً على خلاف ما قال[2].

وقد بدأ داروين متناقضاً مع نفسه، فهو مع إصراره على الاعتماد على الفلسفة المادية وعدم الاكتراث بجانب الدين، وبدعوة هاجس الفطرة أحياناً إلى الاعتراف بالخالق على رغم ادعائه أن الكائنات تطورت وذلك في قوله: يبدو أن كل الكائنات قد انحدرت من مخلوق بدائي جاء إلى الحياة لأول مرة بواسطة الخالق[3].

فمهما يكن من مجانبة الحقيقة في دعواه هذه أن الكائنات جميعاً انبثقت من مخلوق بدائي، إلا أنه يعترف أنه مخلوق، من ورائه خالق[4]. ونجد من المفكرين الأمريكين من يصرح بأن السواد الأعظم في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها يرفضون هذه النظرية من أساسها ويعارضون تدريسها لأطفالهم فقد ذكر الفيلسوف الأمريكي الشهير ألفين كارل بلانتينغا أنّ 85% من الشعب الأمريكي يؤمنون بالتدين ويرفضون نظرية دارون ويعدونها مصيبة على العالم[5].

---

[1] المرجع نفسه، 383/4.

[2] مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، 429/2.

[3] مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، 429/1.

[4] المرجع السابق، 429/1.

[5] المرجع نفسه، 435/1.

وأما المفكرون المسلمون الذين عنوا بنقض هذا الفكر بحمد الله كثير، بل أستطيع أن أقول إن كل مسلم راسخ الإيمان ثابت العقيدة لا يقبل ما يناقض إيمانه ويهدم عقيدته من الأوهام، التي ليست إلا نتيجة مكابرة الحق والإيمان، والتعامي عن براهين العقل وحجج العلم وقد انبرى كثير من هؤلاء لنقض هذا الفكر، وتعرية شبهه وإقامة الأدلة على عيوبه وثغراته[1]، وقد استدل العلامة الخليلي في كتابه مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان بأقوال كثيرة لعلماء من غير المسلمين، لأن ذلك أبلغ في إقناع الذين أسرتهم هذه النظرية وطرحت بهم في مهاوي الضلال[2].

وقال: وإنما يلاحظ على ما كتبه المتخصصون في الكيمياء الحيوية والفلك وعلم طبقات الأرض وغيرها من العلوم الكونية أنهم عدلوا عن التعبير بالخلق إلى التعبير بالتصميم الذكي مع أن حججهم جميعاً تدل على أن هذا الكون خلقه الله تعالى من عدم، وبيده وحده وتصريفه، فكل ما فيه شاهد على وجوده تعالى، ولكن بسبب العداوة المستحكمة في نفوس جماهير من الناس للدين، صار كل تعبير يؤيد جانب التدين، ويعزز الإيمان بالله تعالى، منفراً للناس من الإنصات إليه وتقبله، فهم ينفرون عن كل ما يشير إلى الإيمان بالله – ولو بعد حين– ويشمئزون من كل ما يمت بصلة إلى الدين، فلذلك عدل هؤلاء عن التعبير بالخلق إلى التعبير بالتصميم الذكي مع أن هذا التصميم هو بنفسه دليل على من صممه وليس هو غير خالق السموات والأرض الذي يسبح بحمده الوجود وتشهد

---

[1] المرجع نفسه، 435/1.

[2] المرجع نفسه، 436/1.

بجلاله وعظمته كل مشهود[1].

أ- ضرورة الكشف عن أوهام ما تعلقت به النظرة الدارونية:

قام العلاّمة الخليلي في كتابه مصرع الإلحاد في بيان هذه النظرية من أساسها وبدّد الشُبَه.

إن من الضرورة لمن أراد أن يضع الحق في نصابه أن ينظر أولاً في الآيات التي تحدثت عن خلق الإنسان مجتمعة غير متفرقة، فقد ذكر الله تعالى خلق الإنسان في العديد من الآيات، بعضها ذكر آدم عليه السلام باسمه الصريح وفي بعضها اقتصر على ذكر الإنسان كما مرّ معنا في سورة البقرة والأعراف والحجر.

وفي الآيات التي في سورة البقرة والتي تم شرحها، مالا يخفى من كون الخليفة المشار إليه إنما هو آدم وذريته، وقد عرض استخلافه في الأرض على الملائكة الكرام، فردوا بما ردوا به مستلهمين ما وصفوا به هذه الخليقة مما علمهم الله تعالى في طبعه وشأنه والسياق يدل أن آدم عليه السلام لم يكن مسبوقاً في هذه الأرض بأحد من جنسه، وإن كانت قبله خلائق قامت بعمارة الأرض فإنها من أجناس أخرى، وقد أراد الله تعالى أن تنقرض تلك الأجناس، ويأتي آدم وذريته ليخلفوهم في عمارة هذه الأرض.

---

[1] مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، 436/1.

- وبيّن تعالى للملائكة الكرام بأن لآدم وذريته مزايا تؤهلهم للاستخلاف في الأرض، إذ جعلهم الله تعالى مهيئين لتلقي العلم، ومقتدرين على البحث في المعلومات، واستلهام نتائجها من مقدماتها.

- وقد ابتلي آدم وزوجه بوسوسة الشيطان التي أدت بهما إلى النسيان، حيث عهد الله تعالى إليهما أن يجتنبا الأكل من شجرة معينه من أشجار الجنة، وقد فرض الله سبحانه وتعالى أن يكونا دائماً على ذكر من هذه المخافة، ليزدجرا عن كل ما نهاهما الله تعالى عنه، فلذلك أخرجهما من الجنة إلى الأرض التي خلقا لعمارتها وبيّن لهما أنهما لن يتركا وذريتهما سدى، وإنما سيتحملون تكاليف، تأتيهم من قبل الله تعالى[1].

- وهذا مما يؤذن بأنهما أساس الوجود البشري في الأرض، إذ البشر جميعاً مكلفون بتكاليف، ليبوؤا بعاقبة ما يفعلونه من خير أو شر، وما يكونون عليه من هدى وضلال، وقد تعاقبت بعدهما إلى محيط الجنس البشري رسالات عدة، كان كثير منها مختصاً بطوائف من الناس، كما كان من إرسال نوح إلى قومه، وإرسال لوط إلى قومه وشعيب إلى مدين وكانت هذه الرسالات جميعاً موطئة للرسالة الخاتمة التي تعم جميع العالمين، وهي التي بعث بها النبي محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل السلام، فهي تعم جميع الناس[2].

- وعليه، فإن كل ما في القرآن الكريم من خطاب للناس أو امتنان عليهم فإنه يعم جميعهم ولا يكون خاصاً بفئة منهم، كأهل مكة، أو العرب، ويتبين بهذا أن الخطاب

---

[1] مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، 489/1.

[2] المرجع نفسه، 490/1.

موجه إلى الناس مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم﴾ [الأعراف: 11].

وهذا ما يدل على أن آدم هو الإنسان الأول، وقد تعزّز ذلك بذكر خلق الإنسان مطلقاً من الطين، كما بينت بعض الآيات الكريمة، ويتبين بهذا قطعاً أن هذا هو البشر الذي خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون، إنما هو آدم عليه السلام، وهو أبو البشر جميعاً، فإن جنس الإنسان مخلوق من هذا العنصر نفسه، كما نص عليه تعالى قبل ذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر:26].

لأنهم جميعاً متسلسلون من آدم وراجعون إليه في نسبهم كما بينت الآيات الكريمة التي مرت معنا في الأعراف والحجر والإسراء، ما توعد به إبليس بإغوائهم أجمعين، إنما يعود إلى هذا الجنس البشري الذي تسلسل من آدم المذكور في القصة بوصف البشر، فالتوعد من الشيطان إنما هو للجنس البشري جميعاً وكذلك ما تبعه من وعيد الله تعالى لمن اتبع الشيطان، ووعده الحسنى لمن كان من عباده المخلصين، فلا يمكن أن يكون الخطاب فيه منصرفاً إلى طائفة معينة من النّاس، فإنّ الكل مطلوبون بأن يحذروا مكائد الشيطان ووساوسه وأن يخالفوه باتباع أمر الله والإزدجار عن نهيه[1].

وقد ذكر الله سبحانه قصة آدم في سورة الأعراف ثم أتبعها بقوله: ﴿يَا بَنِي آدم لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ

---

[1] مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، 492/1.

يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:27].

وهذا التحذير من الله سبحانه لا يمكن أن يكون خاصاً ببعض الناس دون بعض، وإنما هو تحدي لهم جميعاً أن يفتنهم الشيطان.

ونحن علينا أن نؤمن بكل ما جاء في القرآن، وألا نشك في حرف منه، فهذه النصوص جميعاً تدلنا على أن آدم إنما هو أحسن الحديث وأصدقه فلم نتلقه من التوراة المحرفة، وما كان في التوراة مما هو موافق لنص القرآن الكريم. فلا شك في ثبوته لكونه مما أنزله الله على موسى عليه السلام، ولأن القرآن صدقه وهو المهيمن على ما نزل من قبله من كتاب[1].

ولا يخفى أن كل خطاب لبني آدم في القرآن إنما يقصد به الجنس البشري جميعاً، فإن ما في القرآن من تشريع وعظة وبيان وامتنان يقصد به الناس جميعاً ولا تختص به طائفة دون غيرها، وكما تبين أن ما يوجه من خطاب إلى بني آدم فهو لجميع الجنس البشري، كذلك أيضاً ما يوجه من خطاب إلى الناس لا تختص به طائفة من البشر دون أخرى كما في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13].

وقد حذر الله تعالى في هذه الآية الناس من التعالي بالأنساب والأحساب وذكرهم بأنه خلقهم من ذكر وأنثى، وأنت تدري أنه لا يمكن أن يكون شيء من خطاب الآية

---

[1] المرجع نفسه، 492/1.

مخصوصاً به بعض الناس دون بعض فكلهم مأمورون أن يرعوا حق كل طائفة منهم، وأن يحترموهم ولا يتعالوا عليهم، فهم جميعاً خلقوا شعوباً وقبائل من أجل أن يتعارفوا، لا من أجل أن يتخالفوا ويتخاصموا وميزتهم جميعاً إنما هي تقوى الله، فلا يمتاز أحد بعنصر ولا بلون، وإذا كان الخطاب في جميع الآيات ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ شاملاً لجميع فئات البشر دون غيرها، على أن القرآن الكريم هو هدى لهم جميعاً، فهو هدى للناس، وذكر للعالمين، والله المعبود هو ربهم جميعاً[1].

وقد تبين أن ما ذكر في خلق الإنسان أو البشر من طين كما في سورتي الحجر و ص، فالمقصود به آدم عليه السلام، كيف، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى على أثر ذلك الأمر بالسجود له، مع نصه في أكثر من آية، وأكثر من سورة على أن الأمر بالسجود إنما كان لآدم، فهو البشر المخلوق من طين وإذا كان خلقه من طين فإنه يستحيل أن يكون مر بسلسلة من التطور تدرج فيها من حيوان إلى غيره، حتى انتهى به الأمر إلى أن يكون إنساناً بالطبيعة البشرية، فإن الله آذن ملائكته بأنه خالقه من طين، ومن صلصال من حمأ مسنون، وأنهم مطالبون بأن يسجدوا له إذا سواه ونفخ فيه من روحه، وعليه فأين تكون هذه الأطوار المزعومة التي تدرجت به حتى وصل إلى طور الإنسانية، مع أن الله سبحانه آذن الملائكة أنه خالق من هذا الطين بشراً وبمجرد الانتهاء من خلقه وتسويته طالبهم بأن يسجدوا له؟

فهل هذه المطالبة بالسجود له كانت في مرحلة الإنسانية أم في مرحلة الحيوانية؟

---

[1] مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، 1/ 495.

لا شك أن كل ذي بصر وبصيرة يدرك أن السجود كان تكريماً للإنسان، ولم يكن تكريماً للحيوان، وعليه فإن تكوّنه إنساناً كان بمجرد خلقه من الطين، ولم يمر قبل ذلك بطور حيواني –كما زعموا–[1]. وإنما بعد التسوية والنفخ فيه بالروح.

ب– نقض ما بنيت عليه الدارونية من النواميس:

وأما ما ذكروه من النواميس التي قامت عليها نظرية داروين فقد تعقبها العلامة أحمد الخليلي وبيّن عوارها وبطلانها وفسادها فقال:

–أما ناموس تنازع البقاء: فهو مجرد وهم إذ أن الله سبحانه الذي خلق الكائنات خلق كل شيء منها بحكمة وقدرها تقديراً، وبها يكون التكامل في هذه الحياة الدنيا، ومهما يَبْد من بعضها أنها ضرر محض وخطر على الحياة، فإن الله أودع في طي هذا الضرر من المنافع ما يبهر العقول لو توصلت إليه، ففي الزواحف السامة من الدواء والعلاج من الأمراض ما فيه نفع العباد، إذ السموم قد تعود بنفع في بعض الأحيان وكذلك الجراثيم، أو ما يعبر عنه بالبكتيريا، فقد جعل الله فيها خزائن للمنافع مع ما فيها من الضرر ولا يسلم أنّ الكائنات تتنازع البقاء في هذه الحياة، فلكل نصيبه منها بحسب ما قدّر الله تعالى.

ولو كان القوي يذهب بالأضعف من هذه الكائنات لما بقي للعصافير وسائر الطيور وجود على ظهر الأرض، لأن الغلبة للصقور والبزاة[2] في القوة ومثل ذلك ما بين الأسود

---

[1] مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، 495/1.

[2] الباز: الجمع بيزان أو أبواز أو بزاة: ومعروف بالبربي في شمال أفريقيا، وهو طائر جارح طويل الذيل وحاد البصـــر يعيش في

والقطط، وأمثالها ونحن نرى أن هذه الأنواع تجتمع في مكان واحد وتتغذى معاً، لكن لا يتحول نوع منها إلى نوعٍ آخر سواء في الترقي أو الانحدار، فلا يتحول الهرّ إلى أسد، ولا يتحول الأسد إلى هرّ، وإنما لكل منها نصيبه ومجاله في الحياة، وهكذا سائر الوحوش وكذلك ذوات الأظلاف من الحيوانات فلا يذهب القوي بالضعيف منها وإلا لكان الجاموس مستأثراً بالحياة دون الغزلان، وكذلك يقال في ذوات الأخفاف والحوافر.

ومنذ خلق الله الحياة في الأرض تجد أنواعاً من الكائنات تنطوي تحت جنس واحد بينها تشابه ولكن ليس بينهما تراحم، فلا يذهب بعض منها ببعض، وإلا لما بقي للحشرات الضعيفة وجود بين هذه الكائنات القوية الضخمة، وإنما اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون متكاملة في وجودها، كتكامل البشر مع اختلاف مواهبهم الفطرية والكسبية، وتنوع قواهم العقلية والجسمية حتى يجد واحد بألف، وألف بواحد.

ولو كانت الحياة نزاعاً بين هؤلاء لكن الأولى بها الأصحاء الأقوياء دون المرضى الضعفاء، ولكن كم يطول عمر الضعيف المريض الذي أدنفه المرض، ويقصر عمر القوي الصحيح، وقد شاهدت بنفسي من ذلك ما يثير العجب والدهشة ولا أزال أذكر قصصاً متعددة تتعلق بذلك من بينها[1]:

-أن رجلاً من المعارف اتصل بي في هزيع من الليل قبل أكثر من ثلاثين عاماً، فأيقظني من نومي وقال لي: بأن شخصاً صالحاً من معارفي يجود بنفسه وهو في حالة

الغابات.

[1] مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، 497/1.

احتضار وأن أولاده أمروه أن ينتقل بي، فاسترجعت، ولما أصبح الصباح استكشفت الأمر فإذا الرجل المريض الدنف – الذي يراه الكل أنه في حالة احتضار– تدب في جسمه الحياة بعد أن كانت ميؤوساً منها مع أن الرجل اجتمعت عليه أمراض وقد أُجريت له ثلاث عمليات في نفس الوقت وقد جاوز الثمانين من عمره فما لبث أن عادت إليه الصحة وغادر المستشفى إلى بيته وأهله، فأقبل شهر رمضان المبارك فكان يؤم جماعة المصلين في مسجد الحي الذي يسكنه، في الصلوات ومن بينها صلاة التهجد، فكان يقرأ بهم في تهجدهم جزأين من القرآن حتى أتم رمضان وهو بحال الصحة والعافية[1].

وكان من بين الأصدقاء من كان يتمتع بحيويته وشبابه وهو مفتول العضلات قوي البنية شديد المراس، وقد عرف أنه قبل شهر رمضان ذلك عدا على قدميه بين الجبال مسافة تكاد تصل 30 كم، وقد أمضى أيام العيد بين أهله في نعمة ورغد وصحة يهنؤها، وبُعيد العيد كان في سهر من خلانه وأراد أن يسقيهم من المشروبات الغازية ولكن ذكر لهم أنه يحس بعدم ارتياح، فلذلك طلب لنفسه لبناً رائباً وأوعز إلى من حوله أنه يريد أن يرتاح ولكنه يحرص على سماع نشرة الأخبار، فأراد منهم أن يوقظوه عندما تحين النشرة، فلما جاؤوا لإيقاظه وجدوه جثة هامدة، بينما ظل ذلك الشيخ –الذي كان دنفاً– يتمتع بالحياة، فليت شعري، أيهما كان أولى بالحياة لو كانت غرضاً للتنازع فيها؟.

ومنذ ما يقرب من أربعين عاماً أتاني أحد المعارف فذكر لي أن أختاً له تدرس

---

[1] مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، 497/1.

بالولايات المتحدة الأمريكية وكانت اتفقت مع أحد زملائها الطلبة العمانيين هناك أن تكون بينهما رابطة الزوجية، ولكن عكر صفو هذه الرغبة أنها أصيبت بالمرض الخبيث، وقد قرر الأطباء في الولايات المتحد الأمريكية أنها لن تعيش إلا عاماً واحداً إن استمر بها العيش، غير أن ذلك الشاب الذي واعدها بالزواج قرر أن يتزوجها ولو لم يكن معه إلا يوماً واحد فلذلك أراد مني أخوها أن أعقد زواجه بها حتى تكون حليلته إذا عاد إليها، فتم عقد الزواج في بيتي[1].

ولم يمض من الوقت إلا زمن يسير حتى بدأت الصحة تزاحم المرض وتجري في أوصالها، فكانت النهاية أن عادت صحيحة كما كانت لا تشكو شيئاً من الأسقام، واقترن بها زوجها وهما الآن في عيش هانئ، وقد ولدت لهما ذرية، وقبل بضع سنوات ولدت لذريتهما ذرية متسلسلة والحمد لله.

وكم في هذه الفترة فُقد من الأصدقاء الأقوياء الذين لم يكونوا يشكون سقماً ولا بلوى، وكم من آية يشاهدها -الناس- في أنفسهم لو كانوا يعقلون[2].

- ناموس الانتخاب الطبيعي: بسقوط هذا الوهم يسقط ما ذكروه من الناموس الثاني وهو الانتخاب الطبيعي، فإن الطبيعة محكومة بإرادة الله تعالى الذي يولج الليل من النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وليس للطبيعة أي أثر إلا بمشيئة الله سبحانه، الأسباب لا تفضي إلى مسبباتها إلا بأمر الله وحده فقد يتهيأ

---

[1] المرجع نفسه، 498/1.

[2] مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، 498/1.

لأمر سبب قوي ولكنه يقف دون أن يقضى إليه، وقد يتحقق لسبب ضعيف لا يحسب له أي حساب، على أن هذه الفكرة تفتح أبوابها للشر فيما بين الناس، فكل فئة من الناس ترى أنها أولى بالبقاء وانتخاب الطبيعة لها دون غيرها، ولذلك لا تبالي في ما تسفكه من دماء وتزهقه من أرواح وتستحوذ عليه من أموال من أجل أن تبقى هي ويفنى غيرها، وتكون له السلطة على الغير لأنها أولى بهذا الانتخاب.

وقد تبين أن الشيوعيين بنوا على هذا الفكر ما بنوا من اجتياحهم البشر وإزهاقهم الأرواح وتسلطهم على الأموال، وذلك أن الطبيعة عندهم اختارتهم دون غيرهم، بتمكينهم من رقاب الآخرين وقد تقدم قليل من كثير فيما سبق من ذكر جرائمهم وعدوانهم على البشر، وهكذا جميع المتغلبين في الأرض فإنهم من منطلق هذه الفكرة يرون أنهم أحق بالحياة وخيراتها والتسلط فيها دون غيرهم، وهذا ما مكن لما يسمونه الرجل الأبيض من تنفيذ جرائمه نحو البشرية، وقد عبروا عن فلسفتهم هذه بما أسموه الدارونية الاجتماعية، وأن الأفراد والمجتمعات يتنافسون من أجل البقاء وأن المتفوقين من الأفراد والمجموعات والسلالات هم أولى بالنفوذ والثراء، فحسب الانتخاب الطبيعي لا يبقى إلا الأفراد الأكثر استعداداً وهم يتكيفون مع المجتمعات الجديدة بينما يفشل الأخرون الذين لا يصلحون للبقاء[1].

وقد بنت العولمة الجديدة نظامها على هذه الفلسفة نفسها، ولم يبال هؤلاء في سبيل تحقيق رغباتهم بالوطء على القيم الإنسانية، فضاعت بينهم الرحمة وانحسرت عنهم

---

[1] مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، 500/1.

الأخلاق، وأدع المجال في هذا لقلم الطبيب الماهر الأستاذ الدكتور محمد علي البار الذي سلط الضوء على علاقة المذهب الداروني بالعولمة والرأسمالية والاستعمار[1]. فقد قال ما نصه: ويؤكد الداروينيون الاجتماعيون أن الأفراد الذين يستطيعون البقاء، يكدسون الثروات بأيديهم ولذا فالفقر دليل على عدم كفاءة الفرد أو المجموعة، واعتمد روبرت سبنسر البريطاني هذه النظرية ونشرها وفلسفها ولقيت من الرواج ما لقيته نظريات داروِن في الطبيعة لأن منهجهما واحد يتجه لتبرير جرائم الرجل الأبيض، والرأسمالية البشعة بوجه خاص، وظهر مفهوم (العمل هو العمل) و لا أخلاق فيه، وبالتالي لا بد أن يكون القوي هو الأكثر ذكاء وخداعاً وكذباً... وهو في ذلك يحقق الطبيعة، ولا لوم عليه ولا تثريب، وإنما يقع اللوم والتثريب على المغفلين والسذج والفقراء الذين يمتص دمائهم، ثم ظهرت العولمة وهي تعمل لمزيد من سيطرة الأغنياء على الفقراء حتى يزداد الأغنياء غنى على قوة ويزداد الفقراء فقراً أو ضعفاً، وإذا ثاروا أو تألموا فيكفي أن نقول لهم أن هذه هي قوى السوق، أو قوى الطبيعة وأن البقاء للأصلح والطبيعة تفعل فعلها، فهناك انتخاب طبيعي قد قرره داروِن منذ قرن ونصف من الزمان وما علينا إلا الطاعة لعوامل الطبيعة وعوامل السوق وهي التي تقرر من يبقى ومن يذهب، وكذلك من يعيش ومن يموت؟

والذكي المخادع الكاذب الذي يستخدم كافة الوسائل القذرة للحصول على الثروة والقوة هو الأحق بالحياة وهو صاحب الفضل، لأن ذلك ما قررته الطبيعة على لسان داروِن، ومن قبله مالثوس أستاذ داروِن المؤثر فيه وفي أفكاره رغم أنهما لم يلتقيا فبينهما

[1] المرجع نفسه، 500/1.

نصف قرن من الزمان تقريبا وأما مالثوس هذا فهو قسيس إنجليزي.

الغريب حقاً أن كلاً من داروين ومالثوس قد درس اللاهوت، أما داروين فقد تركه غير آسف عليه، وأما مالثوس فاستمر فيه مع دراسة الاقتصاد والسكان.

ولد توماس روبرت مالثوس عام 1766م في منطقة سري بريطانيا، ودرس اللاهوت في جامعة كمبريدج وعمل أستاذاً في كلية شركة الهند الشرقية التي استعمرت الهند، وكانت تعد رجالاتها في هذه الكلية الخاصة والتي كان مالثوس من أبرز أساتذتها، والتي بقي فيها من عام 1805م حتى وفاته عام 1834م، عندما كان داروين يجوب البحار في سفينة الأبحاث "بيجل".

وفي عام 1798م نشر مالثوس مقالته عن مبادئ علم السكان، التي جعلها بعد ذلك في كتاب وكان مالثوس يرى أن السكان يزدادون على هيئة متواليات حسابية "1-2-3-4".

وعليه فإن البشرية ستواجه حسب وجهة نظره ندرة في الطعام، ولذا لا بد من إيجاد عوائق لهذا النمو المطرد في السكان والعوائق الإيجابية هي الحروب والمجاعات والأوبئة... وهذه يمكن استخدامها لمواجهة الإنسان البدائي (وهو ما فعلته أوروبا والرجل الأبيض بالنسبة لأفريقيا وآسيا والهنود الحمر في الأمريكيتين).

أما الرجل الأبيض المتحضر فينبغي أن يستخدم العوائق الوقائية وهي الرهبنة، وتأخير سنّ الزواج والامتناع الطوعي عن مباشرة الزوجة فترة من الزمن، وكلها كان يحبذها حسب ثقافته الكنسية، أما وسائل منع الحمل فكانت تعتبر لديه لا أخلاقية.

ومن أراء مالثوس أن فقر الفقراء ليس إلا نتيجة لكسلهم وأن غنى الأغنياء ليس إلا نتيجة عملهم وكدهم وعملهم واجتهادهم، ولذا ينبغي أن نحد بصورة جليّة عدد السكان من الفقراء وأن البقاء بالتالي ليس إلا للأصلح وهم في نظره الأغنياء والأقوياء.

وأوضحت هذه النظرية الاستعمارية الرأسمالية (القذرة) مدى أخلاقيات رجل الكنيسة الذي سار في ركاب الرأسمالي الجشع، وكانت أفكار مالثوس هي الدافع الحقيقي لشارلز دارون الذي اعترف بتأثير مالثوس عليه تأثيراً عميقاً، حيث أوضح مالثوس أن جميع الكائنات الحية تنزع إلى التكاثر بسرعة كبيرة ولكن القليل من نسلها هو الذي يكتب له البقاء والنماء والوصول إلى سن النضج، وأوضح بجلاء أن حبوب اللقاح أو بويضات الحشرات والزواحف والأسماك والطيور من الكثرة بحيث لا يمكن أن تترك لغيرها أي مجال للبقاء لو نمت كل واحدة منها، ولهذا لا بد أن تعتريها عوامل الفناء من كل حدب وصوب حتى تبقي المجال للبقاء للأصلح، وأخذ دارون هذه الفكرة "البقاء للأصلح" واعتمدها اعتماداً كاملاً في نظريته، حتى وجد أن هناك صراعاً على البقاء بين الكائنات المختلفة ثم هناك صراع شديد على البقاء بين الكائنات المختلفة ثم هناك صراع شديد على البقاء بين كل نوع من الأنواع مع أفراد نوعه، وخاصة إذا كانت هناك ظروف بيئية قاسية مثل الجفاف أو الثلوج أو الكوارث.

وعدّد دارون الأمثلة لهذه الصراع، وانتهى إلى القول بأن النظام الذي نراه في الطبيعة ليس نتيجة لتدخل قوة عليا خارجية، ولكنه نتيجة للتوافق أو للتكيف بين أعضاء الكائن الداخلية وظروف البيئة الخارجية، وهكذا التقت مالثوس مع آراء دارون لتدعم النظام

الرأسمالي الجشع البشع، وتوجد له الفلسفة النظرية التي تدعمه باسم العلم والطبيعة ونظريات البقاء للأصلح، والأصلح عندهم دون ريب هو الرجل الأوروبي الأبيض الذي استعمر العالم وأخذ خيراته واستغلها لنفسه ثم في داخل أوروبا ذاتها هناك التفاوت بين العمال الفقراء الأغبياء والأغنياء الأثرياء الأذكياء أصحاب رأس المال، الذي ينبغي أن تمهّد لهم الطرق أو على الأقل أن تبرر جميع سلوكياتهم المنافقة لكل الدوافع الإنسانية والخيرة التي تنادي بها الأديان على اعتبار أن هذا السلوك الإجرامي ليس إلا ما أفرزته الطبيعة ذاتها وعلينا أن نسمع ونطيع لهذه الطبيعة بقوانينها القاسية والتي فيها خير الأجناس كلها في نهاية المطاف لأنها تزيح الأضعف وتُبقى الأقوى والأصلح.

كما استخدم الرأسماليون نظريات مالثوس ودارون لدعم اتجاههم وفلسفاتهم، وكذلك استخدم كارل ماركس آراء دارون في الصراع والبقاء للأصلح في نظرياته حول الصراع الطبقي، وجعلت الماركسية دارون من أكابر مؤيديها، وكانت روسيا البلشفية تدعم بكل قوتها آراء دارون وتقيم له المتاحف الكبرى، وقد بُنيت علوم الطبيعة والبيولوجيا في الاتحاد السوفيتي على آراء دارون وتم تطويره على يد أوبارين الروسي، والواقع أن نظرية التطور أخرجت من سياقها العلمي لتحقيق أغراض أخرى لا علاقة لها بالعلم وهذه هي المأساة في نظرية التطور[1].

هذه هي بعض ثمار هذه النظرية الفاشلة الباطلة الني يلتفت حولها المبطلون، ويسعى

[1] خلق آدم ونظرية التطور، محمد البار، مصدر سابق، ص 23-26. مقال نشر على شبكة المعلومات مصرع الإلحاد 503/1.

كل منهم إلى أن يستغلها استغلالاً يقضي بنجاحه فيما يمارسه من ظلم ويرتكبه من عدوان ضد الوجود الإنساني في الأرض وضد القيم الإنسانية وعلاقة البشر بعضهم ببعض، والحقيقة أن هذه النظرية ليست من العلم في شيء وإنما خدعت الناس ببريق دعاياتها الفاجرة وإلا فإن شواهد العلم تجتثها من أساسها[1].

إن الدّاروينية لا تبقي شيئاً من حقوق الإنسان لأي أحد طفلاً كان أو كبيراً، فهي تسلب الإنسان أهم خصائصه الفطرية وهي الرحمة والشفقة والحنان وتحوله إلى سبع كاسر لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً[2]، إن جميع الأيديولوجيات الإجرامية التي ظهرت في القرن العشرين من النازية والفاشية إلى الستالينية والماوية كلها كانت مستندة على الرؤية التطورية والتقنية العرقية وأن هناك أجناساً أفضل من أجناس[3].

وقد حدث استئصال طبقة كاملة من الناس وتفريغ قارتين كاملتين من البشر–تفريغ الأمريكيتين من الهنود الحمر–، وما كان ذلك ليحدث لولا الرؤية المادية للوجود الإنساني، وقد اعتبر اللبراليون الأوائل أن إبادة الهنود الحمر نوع من الدفاع الشرعي ونتيجة لذلك تقلص عدد الهنود الحمر من 10 مليون إلى 200 ألف نسمة خلال سنوات قليلة، ولذلك يقول سمون بوليفار محرر أمريكا اللاتينية: يبدو أن الولايات المتحدة تسعى لتعذيب وتقييد القارة باسم الحرية[4].

---

[1] مصرع الإلحاد، الخليلي، مصدر سابق، 504/1.

[2] الخليلي، المرجع السابق، 505/1.

[3] مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، 508/1.

[4] الخليلي، المرجع السابق، 510/1.

وغير ذلك من التضحيات بالملايين والتي حدثت لبني البشر، فقد اعتبروها غاية في حد ذاتها من أجل المكاسب المادية وتفريغ القارات من البشر[1]، يقول ريتشارد فيكارت لقد نجحت الداروينية أو تأويلاتها الطبيعية في قلب ميزان الأخلاق رأساً على عقب ووفرت الأساس العلمي لهتلر وأتباعه لإقناع أنفسهم ومن تعاون معهم، أن أبشع الجرائم العالمية كانت بالحقيقة قضية أخلاقية مشكورة[2]، كان داروين أول من صور الإنسان على أنه حيوان ضارباً الصفح عما به من ملكات قادرة ومواهب فذة ترتفع به عن كل أنواع الكائنات الأخرى، وستظل حاجزاً تفصل بينه وبينها إلى يوم القيامة[3].

وإذا تبين بطلان الناموسين المذكورين أدركت أن ناموس المطابقة – وهو التطور بسبب الأغذية– وناموس الوراثة، لا يختلفان عن الناموسين المذكورين من قبل، فكل ذلك وهم ليس عليه من دليل، فكم من دواجن الحيوانات تطعم ما يطعمه الناس من أنواع الطعام الراقي، الذي يعد بعناية فائقة، ولكن ذلك لا يغير شيئاً من طباعها، ولا يحول نسلها إلى جنس غير جنسها، فالكلب يبقى كلباً والهرّ يبقى هرّاً، وهكذا سائر الحيوانات واقتضت حكمة الله تعالى أن تتنوع مخلوقاته ويتميز بعضها على بعض، مما جعل الله فيها من الخصائص الخلقيّة في هذا التنوع تكامل بين المخلوقات الله تعالى، فإن لكل منها دورة في هذه الحياة ولا فرق بين صغارها وكبارها حتى صغار النمل وما هو أدق منها: ﴿وَكُلُّ

---

[1] المرجع نفسه، 510/1.

[2] إما الإيمان وإما الفوضى، هيثم طلعت، مصدر سابق، ص 356 إلى 358، مصرع الإلحاد، الخليلي، مصدر سابق، 510/1.

[3] مصرع الإلحاد، الخليلي، مصدر سابق، 514/1.

شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:8]، وبقاؤها على ما هي عليه عبر هذه القرون من غير أن تنقرض الأجناس التي هي أضعف وأصغر، دليل بيِّن أن قضية تنازع البقاء وهم لم يبن على شيء من العلم والدليل على أن هناك من الأجناس التي تلاشت وانقرضت ما هو أقوى بكثير مما ظل باقياً إلى الآن فكم بين الديناصور وبين الحشرات النى تعيش بيننا من فارق القوة، وقد أثبتت نتائج الأحافير وعلم الفيزياء، والكيمياء الحيوية فشل في هذه النظرية وبطلانها[1].

ومن أراد التوسع فليرجع إلى كتاب مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان. وسبحان الله القائل في كتابه العزيز: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة:7]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى:3].

وهذه حقائق وليست أوهاماً يثبتها الواقع ويؤيدها العقل والمنطق، ويؤكدها الشرع، ولكن ماذا يصنع بمن لا يلتفت إلى واقع ولا عقل ولا منطق ولا يلوي على شرع وإنما يتبع هواه قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:50][2].

وكما قيل: الهوى يعمي ويصم، وإلا فأي أثر يشاهد من هذه الكائنات – التي لا يحصيها العدّ ولا يحيط بها الحدّ– ينطق بأنها صنع عليم خبير، سميع بصير، واسع قدير؟ وأي حجة أبلغ من العقل وأثقل في السمع من هذه الألسنة الناطقة من كل هذه البرمجيات

---

[1] مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، 521/1.

[2] المرجع نفسه، 556/1.

التي لا تخلو منها ذرة في الكون وهي شاهدة على الصنع المتقن ممن لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض؟[1]

- إن أفضل ما يعطي التصور الحقيقي والعلم اليقيني عن نشأة الإنسان وبداية خلقه وعلاقته بالكون والمخلوقات والخالق العظيم (الله عز وجل) هو القرآن الكريم وما ثبت من الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

- إن أفضل السبل لبحث قضية آدم عليه السلام هو سلوك طريق القرآن والسُّنة الصحيحة الثابتة وتفسير الآيات تفسيراً منهجيّاً صحيحاً، وجميع الآيات والروايات الواردة في هذا الباب ودراستها دراسة تفصيلية تحليلية موسعة قبل تكوين رأي معين عنها.

- إن مراحل خلق آدم عليه السلام من تراب إلى نفخ الروح فيه، ذكرها الله وفي أكثر من موضع وبينها النبي صلى الله عليه وسلم وليست من المتشابهات ولا مما يستأثر العلم التجريبي بتفسيره.

- الآيات والروايات الواردة حول آدم في الشرع غنية جداً وشاملة وواضحة ولا لبس فيها إلا من كان اللبس في فهمه هو، ولا تعارض بينها وبين ما ثبت من يقينيات العلم التجريبي والتفكير المنطقي، ومن خلالها فقط نستطيع الوصول إلى لب قصة آدم عليه السلام[2].

---

[1] مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، 556/1.

[2] آدم بين التطور والتطور الموجه والوحي، إبراهيم الشحات، مصدر سابق، ص 556.

المبحث السادس: قصة آدم عليه السلام في سورة طه:

قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدم مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ۝ فَقُلْنَا يَا آدم إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ۝ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدم هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ۝ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدم رَبَّهُ فَغَوَى ۝ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ۝ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ۝ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۝﴾ [طه:114،127]

أولا: قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114]

وهذه الآية تتحدث عن اسم الله الملك واسم الله الحق وطريقة تلقي القرآن الكريم

وعدم الاستعجال في أخذه وحفظه، والاستماع إلى جبريل عليه السلام وترشيد الرسول الله عليه وسلم بالدعاء لطلب العلم من الرب سبحانه وتعالى، وهذه الآية من لطائفها واشاراتها ما يتعلق بقصة آدم عليه السلام التي جاءت في سورة طه والتي تبدأ بالآية التي بعدها، فالملك هو المشرع لخلقه، وتشريعه حق وقصصه في وجه حق، ومنها قصة بداية الإنسان الممثلة في آدم عليه السلام، ومن وحي الله تعالى لنبيه عليه السلام قصص الأنبياء والمرسلين ومنها قصة آدم عليه السلام ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم بزيادة العلم، جاءت الآيات التي بعدها لتبين نوع من أنواع العلوم التي لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الوحي الرباني ودعاء الله عز وجل لمعرفة حقائق الكون والحياة وتاريخ الإنسانية وسنن الله في خلقه، وغيرها من أنواع العلوم النافعة لبني الإنسان وعلى رأسهم سيدهم محمد صلى الله عليه وسلم.

1- ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾:

أ- ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾: جل الله وعظم وارتفع وتنزه في ذاته وصفاته وأفعاله عن مماثلة المخلوقين، وعن مماثلة صفاتهم وأفعالهم وتنزه عن إلحاد الملحدين وعما يقوله المشركون والجاحدون وفيه تنبيه عما يلزم خلقه من تعظيمه وتمجيده[1].

﴿فَتَعَالَى﴾: علا قدره وارتفع التنزيه ارتفاعاً لا يوصل إليه، وأمّا التعالي في البشر فيما بينهم فأمر ممقوت، أما تعالي الحق سبحانه فمن مصلحة الحق ومن مصلحة الكون كله

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، 291/5.

أن يكون الله متعالياً فأي متعال أو جبار من البشر عندما يعلم أن الله أعلى منه يندك جبروته وتعاليه، وأي ضعيف يعلم أن له سنداً أعلى لا يناله أحد، فيطمئن ويعيش آمناً[1].

- ﴿فَتَعَالَى﴾ من ألفاظ التنزيه، أي تعالى الله علواً كبيراً عن أن يخلقنا عبثاً، وأن يهضم حقوقنا وأن يظلمنا وألا يرحمنا، تعالى عن كل نقيصة سبحانه[2]، فالله عز وجل ارتفع وتقدس عن كل نقص أو آفة[3].

- ﴿اللَّهُ﴾ هذا الاسم الجليل، تعلقت به جميع العوالم لذاتها وأنواعها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:15].

فجميع العباد يقولون: يا الله دعاءً أو سؤالاً، نداء أو ذكراً أو مناجاة[4].

- ﴿اللَّهُ﴾: هو اسم علم دال على ذات الله تعالى رب العالمين، الإله المعبود حقاً، المتصف بجميع الكمالات المطلقة التي لا تعد ولا تحصى ولا تحد ولا تستنقص، والمتنزه عن جميع العيوب والآفات ولم يتسم بهذا الاسم غيره سبحانه[5].

- ﴿اللَّهُ﴾: الله دال على كونه مألوهاً معبوداً، تؤلهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب[6].

- ﴿اللَّهُ﴾: هذا الاسم هو جامع الأسماء الإلهية: الظاهرة والباطنة، على الوجه الذي

---

1 تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 9406/15.

2 تفسير النابلسي، مصدر سابق، 370/7.

3 تفسير السعدي، مصدر سابق، ص 1046.

4 المسيح عيسى ابن مريم، الصلّابي، مصدر سابق، ص 436.

5 المرجع نفسه، ص 436.

6 تفسير الفاتحة، ابن قيم الجوزية، مصدر سابق، ص 47.

لا نهاية له كما هو أهله سبحانه، لأنّ أسماءه تعالى هي على حسب صفات كماله وصفات كماله ما لها نهاية، فأسماؤه ما لها نهاية، ولهذا الاسم الجليل خصائص وفضائل كثيرة مذكورة في كتب المطولات[1].

إنّ معرفة الله تعالى أجلُّ المعارف، وإرادة وجهه أجل المقاصد وعبادته أشرف الأعمال والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال[2].

ب- ﴿الْمَلِكُ﴾: ورد في القرآن الكريم (5 مرات) منها:

-قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:4].

-قوله تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس:2].

-قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [طه:114].

-قوله تعالى: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة:1].

والملك الذي لا ملك فوقه ولا شيء دونه[3].

ومن أسماء الله الحسنى (الملك) ومعناه الحقيقي ثابت له -سبحانه- بكل وجه وهذه الصفات تستلزم سائر صفات الكمال، إذ من المحال ثبوت الملك الحقيقي التام لمن ليس له حياة ولا قدرة ولا إرادة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا فعل اختياري يقوم به، وكيف يُوصف بالملك من لا يأمر ولا ينهى ولا يثيب ولا يعاقب ولا يعطي ولا يمنع ولا يعز ولا

---

[1] السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، صالح علي، مصدر سابق، ص 79.

[2] إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن القيم، مصدر سابق، 208/2.

[3] ولله الأسماء الحسنى، عبدالعزيز الجليل، مصدر سابق، ص 358، تفسير الطبري، مصدر سابق، 36/28.

يذل ولا يُهين ولا يُكرم ولا يُعطي ولا يُنعم ولا ينتقم ولا يخفض ولا يرفع ولا يرسل الرسل إلى أقطار مملكته، ولا يتقدّم إلى عبيده بأوامره ونواهيه؟ فأي ملك في الحقيقة لمن عدم ذلك؟.

وبهذا يتبين أن المعطلين لأسمائه وصفاته جعلوا مماليكه أكمل منه ويأنف أحدهم أن يقال في أمره وملكه ما يقوله هو في ربّه.

فصفة ملكه الحق مستلزمة لوجود ما لا يتم التصرف إلا به والكل منه –سبحانه– فلم يتوقف كمال ملكه على غيره، فإن كلّ ما سواه مُستند إليه متوقف في وجوده على مشيئته وخلقه[1].

وهذه المعاني التي تضمّنها اسم الجلالة (الملك) هي ما تتم به حقيقة الملك كما ذكر ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى في موطن آخر حيث يقول: إن حقيقة الملك:

إنما تتم بالعطاء والمنع

والإكرام والإهانة

والإثابة والعقوبة

والغضب والرضا

والتولية والعزل

وإعزاز من يليق به العزُّ وإذلال من يليق به الذل.

---

[1] شفاء العليل، ابن القيم، مصدر سابق، 2/609-610.

–قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ۝﴾ [آل عمران:26-27].

–وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:29].

يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويكشف غمّاً وينصر مظلوماً ويأخذ ظالماً ويفك عانياً ويغني فقيراً ويجبر كسراً ويشفي مريضاً ويقيل عثرة ويستر عورة، ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً ويُعطي سائلاً ويذهب بدولة ويأتي بأخرى ويداول الأيام بين الناس ويرفع أقواماً ويضع آخرين ويسوق المقادير التي قدّرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها، فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كلٌّ منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه، وسبق به علمه فهو المتصرِّف في الممالك كلها وحده، تصرُّف ملك قادر قاهر، عادل رحيم، تامّ الملك لا ينازعه في ملكه منازع ولا يعارضه فيه معارض، فتصرّفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان، والحكمة والمصلحة والرحمة فلا يخرج تصرُّفه عن ذلك[1].

وصفة الملك الحقيقي لله عز وجل تقتضي الحكمة في خلق الخلق وعدم تركهم سدى،

[1] طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، مصدر سابق، ص228،229.

كما تقتضي إرسال الرسل وإنزال الكتب وأمر العباد ونهيهم وثوابهم وعقابهم[1]، وهذا ما بينته الآيات الكريمة التي جاءت بعدها وفصلت قصة آدم عليه السلام وعداوة الشيطان له وأهمية تتبع هدى الله وخطورة مخالفته كما سيأتي بيانها بإذن الله تعالى، لأن من لوازم الملك لله تعالى الحكم والتشريع فكان لازماً على العباد قبول حكم الله وشرعه ورفض ما سواه والإعراض عن التحاكم لغيره، فالحكم لله وحده[2].

والملك: الذي المِلكُ وصفه، والخلق كلهم مماليك له وأحكام الملك القدرية والشرعية نافذة فيهم[3].

2- ﴿الْحَقُّ﴾: ورد هذا الاسم الكريم في عشر آيات من القران الكريم منها:

-قول الله تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:32].

-وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:25].

-قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان:31].

والحق: هو المتحقق كونه ووجوده وكل شيء صح وجوده وكونه فهو حق، ومنه قوله

---

[1] ولله الأسماء الحسنى، عبدالعزيز الجليل، مصدر سابق، ص 363.

[2] المرجع نفسه، ص 365.

[3] تفسير السعدي، مصدر سابق، ص 365.

تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ۝﴾ [الحاقة:1-2] معناه والله أعلم: الكائنة حقاً لا شك في كونها ولا مدفع لوقوعها ويقال: الجنة حق، والنار حق، والساعة حق. يراد أن هذه الأشياء كائنة لا محالة[1].

ومن المتحقق كونه ووجوده بإخبار الله لنا قصة آدم مع عدو الله إبليس وسيأتي الحديث عنها بعد هذه الآية وهي من قصص الحق التي ذكرها الله في كتابه العزيز.

وقال ابن الأثير ﴿الْحَقُّ﴾: هو الموجود حقيقة، المتحقق وجوده وإلهيته والحق ضد الباطل[2].

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله: ﴿الْحَقُّ﴾ في ذاته وصفاته فهو واجب الوجود كامل الصفات والنعوت وجوده من لوازم ذاته ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً، فقوله حق وفعله حق، ولقاؤه حق ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق وعبادته وحده لا شريك له هي الحق وكل شيءٍ ينسب إليه فهو حق.

-قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:29].

---

[1] شأن الدعاء، الخطابي، مصدر سابق، ص 67 باختصار.

[2] النهاية لابن الأثير، مصدر سابق، 413/1.

-قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81][1].

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: فكما أن ذاته (الحق): فقوله الحق ووعده الحق وأمره الحق وأفعاله كلها حق وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الأخر حق، فمن أنكر شيئاً من ذلك فما وصف الله بأنه (الحق) المطلق من كل وجه وبكل اعتبار فكونه حقاً يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه[2].

ومن المعاني التي يتضمنها هذا الاسم الكريم من أسمائه سبحانه الحسنى:

-أنه له الوجود الحق فالخلق كلهم يزولون ويفنون وهو سبحانه الحي الذي لا يموت وهو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا تعب ولا لغوب.

-وأن أسمائه سبحانه وصفاته كلها حق، فليس فيها شيء باطل لا في علمه ولا قدرته، ولا عزته، ولا حكمته فهو الإله الحق الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته.

-وأنه هو الحق في ربوبيته وألوهيته فهو (الرب) الحق لكل مربوب وهو المعبود الحق لكل مألوه وعابد مربوب.

-وأن أفعاله سبحانه كلها حق ومقتضى الحكمة فخيره حق وشرعه حق، وقضاؤه حق وجزاؤه حق، والله أنزل الكتب بالحق وأرسل رسله بالحق وخلق السماوات والأرض

---

[1] تفسير السعدي نقلاً عن ولله الأسماء الحسنى، مصدر سابق، ص 217.

[2] بدائع الفوائد نقلاً عن ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص 217.

بالحق، وقضى الله تبارك وتعالى القصص بالحق ووعد الله حق لا يتخلف، فنصره لأوليائه حق، والبعث بعد الموت حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق وكل ما وعد الله به فهو حق، لأنه صدر عن الحق سبحانه وتعالى[1]، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: خلق مخلوقاته بسبب الحق ولأجل الحق، وخلقها متلبس بالحق، وهو في نفسه (حق) فمصدره حق وغايته حق وهو متضمن للحق[2].

2- ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾:

قال الشنقيطي: في تفسير هذه الآية: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه صلى الله عليه وسلم من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله في هذه الآية إلى ما ينبغي، فنهاه عن العجلة بقراءة القرآن مع جبريل، بل أمره أن ينصت لقراءة جبريل حتى ينتهي، ثم يقرؤه هو بعد ذلك، فإن الله ييسر له حفظه وهذا المعنى المشار إليه في هذه الآية أوضحه الله في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝﴾ [القيامة:16-19][3].

ولما كانت عجلته صلى الله عليه وسلم على تلقف الوحي ومبادرته إليه تدل على محبته التامة للعلم، وحرصه عليه، أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم فإن العلم خير وكثرة

---

[1] ولله الأسماء الحسني، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص 218.

[2] شفاء العليل، ابن القيم، مصدر سابق، 57/2.

[3] أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، 102/4-103.

الخير مطلوبة، وهي من الله والطريق إليها الاجتهاد والشوق للعلم وسؤال الله والاستعانة به والافتقار إليه في كل وقت.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة الأدب في تلقي العلم وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنى ويصبر حتى يفرغ المملي والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام ملقي العلم، فإنه سبب للحرمان وكذلك المسئول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل، ويعرف المقصود منه قبل الجواب، فإن ذلك سبب لإصابة الصواب[1].

أ - ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾: أي لا تتعجل ولا تنشغل بالتكرار والترديد فسوف يأتيك نضجها حين تكتمل، فلا تخشى أن يفوتك شيء منه طالما أني تكفلت بحفظه، فاطمئن ولا تقلق على هذه المسألة؛ لأن شغلك بحفظ كلمة قد يفوت عليك أخرى.

والعجلة أن تخرج الحدث قبل نضجه، كأن تقطف الثمرة قبل نضجها وقبل أوانها وعند الأكل تُفاجأ بأنها لم تستو بعد، أو تتعجل قطفها وهي صغيرة فلا تكفي شخصاً واحد، ولو تركها لأوانها لكانت كافية لعدة أشخاص، والقرآن كلام في مستوى عالٍ من البلاغة، وليس كلاماً مألوفاً له يسهل عليه حفظه، لذلك كان حريصاً على الحفظ والتثبت.

وهذه الظاهرة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، نبي ينزل عليه عدة أرباع من القرآن، أو السورة كاملة ثم حين يُسرى عنه الوحي يعيدها كما أنزلت عليه ولك أن تأتي

[1] تفسير السعدي نقلاً عن التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، مصدر سابق، 205/21.

بأكثر الناس قدرة على الحفظ واقرأ عليه لمدة عشر دقائق مثلاً من أي كتاب أو أي كلام ثم اطلب منه إعادة ما سمع فلن يستطيع.

أما النبي صلى الله عليه وسلم فكان يأمر الكتبة بكتابة القرآن ثم يمليه عليهم كما سمعه، ولا يغير منه حرفاً واحداً، بل ويملي الآيات في موضعها من السور المختلفة فيقول: ضعوا هذه في سورة كذا وهذه في سورة كذا.

وأحياناً الآيات تنزل متفرقة، فإذا ما قرأ صلى الله عليه وسلم في الصلاة مثلا قرأ بسورة واحدة نزلت آياتها متفرقة، هذه نزلت اليوم، وهذه نزلت بالأمس هكذا، ومع ذلك يقرؤها مرتبة آية آية قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 19].

وخاطب النبي صلى الله عليه وسلم في آية أخرى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44] فالبيان من الله تعالى والتبيين من النبي صلى الله عليه وسلم[1].

ب- ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾: أي: انتظر حتى يسري عنك، لكن كيف يعرف الرسول ذلك؟ كيف يعرف أن الحالة التي تعتريه عند نزول الوحي قد زالت؟ والصحابة يصفون حال النبي صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحي عليه فيقولون: كنا نسمع رأسه كغطيط النحل وكان جبينه يتصبب عرقاً[2]، ويبلغ منه الجهد مبلغاً وإن نزل

[1] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 9412/15.

[2] البخاري، ك بدء الوحي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 9412/15.

الوحي وهو على دابة كانت تنخ برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 5][1].

3- ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾:

هذا توجيه للنبي صلى الله عليه وسلم للاستزادة من العلم، فما دمت أنت يا رب الحافظ فزدني منه، ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيحتاج إلى علم تقوم عليه حركة الحياة من لدنه إلى أن تقوم الساعة، علم يشمل الأزمنة والأمكنة فلا بد أن يُعدّ الإعداد اللازم لهذه المهمة[2].

وفي هذه الآية إشارة دقيقة إلى أن القيمة الأساسية التي أرادها الله لتكون عاملاً مرجحاً بين بني البشر هي العلم، والشيء الوحيد الذي أمرنا الله أن نزداد منه هو العلم، فلم يقل زدني مالاً ولم يقل: زدني جاهاً، لأن المال ظل زائل، وعارية مستردة ولأن الجاه ينتهي بالموت ولكن الله عز وجل قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

وطريق العلم الرباني وطلب الزيادة منه هو الطريق إلى العلم بالله عز وجل، فيجب أن تعرف الله ويجب أن تعرف أمره ويجب أن تعرف خصائص الأشياء، فإذا عرفت الله، عرفت نفسك وعرفت من أنت وعرفت أين كنت، وعرفت أين المصير، وعرفت ما يجوز وما لا يجوز، فإذا عرفته أفلا ينبغي أن تعبده؟ وكيف تعبده؟ ولابد أن تعرف أحكامه وأن تعرف الهدف الذي من أجله خُلقت وأن تعرف أين كنت وأن تعرف أين ستكون، وأن

---

[1] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 9412/15.

[2] المرجع نفسه، 9415/15.

تعرف هويتك وأن تعرف سر الوجود وحقيقة الحياة وجوهر الأشياء وسر التصرف الإلهي هذا كله ينطوي تحت باب العلم الأعلى، ويسميه الفلاسفة اليوم علم ما وراء الطبيعة وهذا العلم أصل في صحة العقيدة[1]، ما جاء منه في القرآن الكريم وضح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ولذلك جاءت الآيات الكريمة التي بعدها تتحدث عن فقه آدم عليه السلام وما فيها من دروس وعبر وفوائد وإجابات لكثير من الأسئلة الوجودية التي يحتاج الإنسان فيها إلى جواب كافي وشافي وصادق ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

ثانياً: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدم مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه:115].

هذه المرة السادسة لذكر قصة آدم في القرآن، بعد البقرة، والأعراف، والحجر والإسراء والكهف ومناسبة هذه الآيات لما قبلها، أنه بعد أن عظم أمر القرآن وأبان ما فيه من الوعيد لتربية التقوى والعظة والعبرة، أردفه بقصة آدم للدلالة على أن طاعة بني آدم للشيطان أمر قديم وأنهم ينسون الأوامر الإلهية، كما نسي أبوهم آدم، ثم ذكر إباء إبليس السجود لآدم للتحذير من هذا العدو والذي أخرج بوساوسه آدم من الجنة، ثم بين جزاء المطيع للهدي الإلهي وجزاء المعرض عنه وأنه سيحشر أعمى عن الحجة التي تنقذه من العذاب بسبب إعراضه في الدنيا عن الآيات البينات التي تهديه إلى سبيل الرشاد[2].

---

[1] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 373/7.

[2] التفسير المنير، الزحيلي، مصدر سابق، 295/16.

وفي هذه الآية الكريمة يذكر الله تعالى أن النسيان وإمحاء العزم هما سبب هبوط المرء إلى المعصية، ونستطيع أن نقول بناء على هذا أن التذكر وانعقاد العزم هما سبب صعود المرء إلى الرشد والخير، والصعود والهبوط، أو مالم يكن هناك مثل أعلى ينسب إليه سلوك المرء، وتقاس به الأقوال والأفعال فيعرف الصالح والفاسد، والطيب والخبيث فإن السبل تنبهم، والأعمال تختلط، والقيم تتشابه، ويصبح المحسن والمسيء في ميزان تلك الفوضى متماثلين في الجزاء والتقدير.

لذا ترى الآية الكريمة قد تضمنت الإشارة إلى ذلك القياس وذلك المثل الأعلى إذا قالت: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدم مِنْ قَبْلُ﴾، فعهد الله -سبحانه- من أمر ونهي هو المرجع الذي يرجع إليه ليعرف على ضوئه صعود الأعمال أو هبوطها، حسنها، أو قبحها، خيرها أو شرها فنحن -إذا- بإزاء أمور ثلاثة تقررها الآية الكريمة بشأن الصلاح والفساد وهي:

-عهد الله الذي يصف لنا الخير فنتبعه والشر فنجتنبه.

-نسيان العهد وذكره.

-إمحاء العزم أو انعقاده[1].

1- ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدم مِنْ قَبْلُ﴾:

وعهد الله إلى آدم هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة، تتمثل في المحظور

---

[1] آدم عيه السلام، البهي الخولي، مصدر سابق، ص 148.

الذي لا بد منه لتربية الإرادة وتأكيد الشخصية والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد؛ فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها وهذا هو المقياس الذي لا يخطئ في قياس الرقي البشري، فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى في سلم الرقي البشري، وكلما ضعفت أمام الرغبة وتهاونت كانت أقرب إلى البهيمية وإلى المدارج الأولى، من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التي ترعى هذا الكائن الإنساني أن تعده لخلافة الأرض باختيار إرادته، وتربية قوّة المقاومة فيه وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التي يزينها الشيطان، وإرادته وعهده للرحمان[1].

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدم﴾: أي أمرنا ووصيّنا ووعظنا.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾ هذه الكلمة لها دور في القرآن وقد حسمت لنا مواقف عدة، منها قوله هنا في آدم والمراد: خذ لهم أسوة من أبيهم الذي كلفه الله مباشرة، ليس بواسطة رسول، وكلّفه بأمر واحد، ثم نهاه أيضاً عن أمر واحد: كُل من كُلِّ الجنة إلا هذه الشجرة، هذا هو التكليف ومع ذلك نسي آدم ما أمر به[2].

وفي القصة عهدان عهد الله بهما إلى آدم: أحدهما خاص والآخر عام، فالعهد الخاص حيث أمره ونهاه وحذره.

- أمره أن يسكن الجنة وزوجته، وأن يأكلا منها رغداً حيث شاءا.

---

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 2353/4.

[2] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 9415/15.

– ونهاه أن يقرب شجرة بذاتها بيّنها له وحذره الشيطان بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه:117].

والعهد العام يتعلق بفطرته عليه السلام إذ يقول تعالى في تقويمه الروحي: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وإذ يقول تعالى في تقويمه العقلي: ﴿وَعَلَّمَ آدم الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

وقد قدمنا خصائص كل من التقويم الروحي والتقويم العقلي ولا سيما خاصيته المعنوية التي تدرك الشواهد الربوبية والخالقية في الكائنات، ومما قدمنا في كثير من مواطن هذا الكتاب يتبين أن هذه الروح العلوية وتلك الخاصية الفكرية، هما التأهيل الخلقي الوحيد في تكوين الإنسان الذي يقيم به شأنه في هذه الأرض على أساس معرفة الله، فهما الجهاز الذي سوى عليه جماع تكوين آدم والإنسان بمحض التكوين أو الخلقة، مفطوراً على معرفة الله، ولهذا دعاه الله تعالى إلى تلك الخاصية الفطرية ليعدل نهج نظره في الحياة بمعاييرها، إذ قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:30].

قال القرطبي في تفسير هذه الفطرة في تلك الآية: وقال ابن عطية والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة والتي هي نفس الإنسان، وهي معدة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ويستدل بها على ربه[1].

فهذا الاستعداد الخلقي الفطري، لتمييز مصنوعات الله والإقرار بربوبيته، هو عهد من الله تعالى لآدم عهد تكوين وفطرة لا عهد وحي وشريعة.

---

[1] آدم عليه السلام، البهي الخولي، مصدر سابق، ص 149.

وإذا كان هذا العهد فد بث خصائصه وقواه في تكوين آدم ابتداءً فقد انتقلت إلينا -نحن أبناءه- بطريق الوراثة تلك الخصائص والقوى، فكانت هي التأهيل الرباني الذي أعلن عنه عهد الربوبية، إذ قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:20].

وبهذا العهد كانت للإنسان ككافة آدم وبنيه صلاحيته لتلقي وحي الله، وحمل ما في كلامه ورسالته من أمر ونهي وحلال وحرام وعقيدة وشريعة، ولهذا اجتمعت لهذا العهد مزايا العهد العام[1]، وما ينزل الله من عهد للناس، أي من شرع يأمرهم فيه وينهاهم، لا ينابذ أحكام هذه الفطرة، بل يوافقها ويزكيها ولو خلا الإنسان إلى فطرته -أي إلى عقله الروحي هذا- لاستقام على عهد الله وأفضل ما يتضمن من مثل عليا.. ولكن تلك الفطرة عورضت بما في جانبه الحسي من قوى وميول، هي التي يسمونها الغرائز، أو بعبارة أصح عورضت بقابلية هذه الغرائز للانحراف عن هداية الفطرة بما يزين لها الشيطان من غرور وأهداف لا حقيقة لها، وقد رأينا فيما تقدم كيف أن الشيطان حين سول لآدم عليه السلام أن يأكل من الشجرة لم يأته من قبل صوابه الروحي، بل من قبل غرائزه، حتى تحولت عن عهد الله إلى ما أراد لها من المعصية، ولكن كيف وقعت المعصية؟ أو كيف كان النسيان، فكانت المعصية؟[2].

2- ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾:

هناك من العلماء من يرى: (نسي) هذا العهد ونسي تلك الوصية، ولم يعص عن

---

[1] المرجع نفسه، ص 150.

[2] المرجع نفسه، ص 145.

عزم وتصميم لكنَّ معصيته جاءت عن نسيان وسهو[1].

ويرى الدكتور سلمان العودة: أما نسيان آدم بالأكل من الشجرة فكان مقصوداً، وكان حالة استسلام لإغراء الشيطان وتصديقاً لزعمه، ولذا نزلت رتبة آدم عن أولي العزم وهم: (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم) وهو النسيان الذي يرفع عنهم المؤاخذة والعتب لأنهم فعلوا أو تركوا من غير قصد[2].

وهل نسيان آدم عليه السلام نعمة؟ أو رحمة؟ أو زلّة مكتوبة لنفاذ القدر باستخلاف البشر؟ كانت حالة ضعف أو غفلة أو ذهول، حالة صراع وتردد بين الإقدام والإحجام، حالة قصور في التذكر بسبب تحرك غريزة أخرى وسيطرتها مثل: غريزة الاستكشاف أو حب البقاء، أو التملك أو الشهوة، نسي الحال التي كان عليها عندما عهد الله إليه.

كثيرون يمرون بمرحلة إشراق وحماس ثم يعتريهم فتور يجعل التأويل والتملُّص والبحث عن المخارج وسيلة للتجاوز، وهو لم ينس المعلومة، ولكن نسي أهميتها وجدارتها وشعوره القوي تجاهها حين أدركها أول مرة.

في الأرض كان آدم وزوجته محتاجين إلى أن يتناسوا ما كانوا عليه في الجنة ليتكيفوا مع الأرض وطبيعتها، ولا ينكفئوا على أنفسهم دون أن ينسوا ذنبهم ولو للحظة.

ما هو النسيان؟

هو أن تفقد معلومة أو تفقد حيوية المعلومة وحرارتها وعمقها في قلبك وتأثيرها

---

[1] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 376/7.

[2] علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، سلمان العودة، مصدر سابق، ص 86.

عليك. وتشرق الفكرة عندي أحياناً بصورة رائعة وأتحدث عنها مع أصدقائي بطريقة مؤثرة فعالة ومقنعة، وبعد فترة أسبوع، تعود الفكرة فتأتي خاملة هامدة غير مؤثرة حتى كأنها غير الفكرة الأولى، وبعض الكتب ليس فيها الكثير من المعلومات لكن فيها روح.

لقد بقي ذنب آدم عليه السلام أمام عينيه حتى هرب من ربه حياءً وخجلاً، النسيان كان من قبل، والذكر الدائم كان من بعد، وظل إلى الأبد حتى يوم القيامة يذكر ذنبه ويعتذر عن الشفاعة، الخطير أن يحيط النسيان بالعبد قبل الذنب وبعده ويمضي قدماً لا يلوى على شيء.

تميز آدم بالذاكرة الإنسانية والحفظ ولذا وُصف بالنسيان، النسيان استثناء في مقابل تعليم الأسماء كلها وإلهام اللغة كما المعصية استثناء والأصل الاستقامة[1]، فكما أن آدم عليه السلام ورث ذريته الذاكرة الجيدة المصممة لبناء الحضارة وتطوير المعرفة، فقد ورّثهم النسيان المساعد على التكيُّف والتجدد وتجاوزت العثرات.

كلنا ننسى بعض أعمارنا، أو ننسى العمر كله لأن العمر يطول ويتسع بالإنجاز والتأثير وعمل الخير وليس بعد السنين فحسب

قد يَهُـــون العُـــمرُ إلا ســاعة

وتهــون الأرض إلّا موضــعا

أضف إلى عمر الطفل عند ولادته سنة فهي أهم مرحلة في حياته وهي تحدّد مساره وصحته، وذكاءه ومزاجه وشكله وأشياء كثيرة في حياته.

---

[1] علمني أبي آدم، العودة، مصدر سابق، ص 88.

الصينيون يعدّون العمر منذ الحمل.

والذاكرة انتقائية متنوعة، فمنها ذاكرة الأرقام أو الأسماء أو الوجوه أو الأفكار أو المبادئ، فما حُفظ في الطفولة يصعب نسيانه وهو نقش على الحجر، والتعويد والتربية للصغير على الأوراد والصلاة بالكلمة الطيبة والاعتماد على النفس وخدمة الغير، والبر والكرم والجود والفضيلة يحفظ حياته ويزكي عمره[1].

إن النسيان فطرة في الإنسان وقد يكون إحدى النعم الكبرى حتى لا ينفجر الدماغ، وإن الله تعالى لا يؤاخذ على النسيان بالإثم والعقاب الأخروي ولكن يرتب عليه المؤاخذة والمسؤولية في أمور الدنيا والتعويض للآخرين لتمام العدالة وحفظ الحقوق ووقع النسيان لآدم عليه السلام، ولذلك يقال: إن أول ناس هو أول إنسان ويقال: وما سمي الإنسان إنساناً إلا لنسيانه، وقيل: سمي إنساناً من الأنس، وحصل النسيان مع آدم وأصبح النسيان من طبيعة بني آدم، قال رسول الله عليه وسلم: ونسي آدم فنسيت أمته[2].

إن الله عز وجل بين من خلال قصة آدم عليه السلام أن الطبيعة الإنسانية تنسى، وأنها إذا لم تذّكر بشرع الله ولم تقوى الإرادة برجاء الثواب وخوف العقاب لا تكون للإنسان عزيمة، وآدم أبو البشرية في هذا الوقت الذي نسب الله تعالى إليه أنه نسي، ولم يجد له عزماً، كان وهو على الفطرة الأولى التي لم يكن فيها شرائع مدونة قد جاء بها رسل ولم يكن قد تسلط عليهم إبليس اللعين، وتسلط على ذريته وكل هذا التسلط منه على

---

[1] المرجع نفسه، ص 89.

[2] سنن الترمذي: رقم 3076 حديث حسن صحيح.

ذرية آدم بعد أن هبط من الجنة إلى الأرض[1].

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدم مِنْ قَبْلُ﴾، أي من قبل الشرائع والرسل، أو من قبل أن يقع، يقول الشيخ محمد أبو زهرة: والمعنى عهد الله تعالى لآدم قبل أن يوسوس إليه الشيطان وهذا العهد هو أمر الله وتكليفه وإن لم يكن في دار التكليف وكل أمر من الله تعالى هو عهد بين العبد وربه وذلك العهد هو قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35].

ولقد بين الله تعالى أن ذلك عهد مؤكد وقد أكده سبحانه بـ(اللام) وبـ(قد)، وبإضافة العهد إليه سبحانه وتعالى، وأنه وثق على آدم أشد توثيق، ولقد ذكر سبحانه وتعالى وصفين لآدم أحدهما إيجابي والثاني سلبي، أما الأول فهو النسيان فقد قال: (فنسي)، (الفاء) للعطف ونسي منصبة على العهد، أي فنسي العهد ووقع في المحظور الذي حذره منه وليس ذلك ما يكون غضاضة على آدم، لأن الله تعالى يصف الطبع الإنساني، وأنه يعرض له النسيان وتعرض له الغفلة، وما يقع في ما ينهى عنه إلا وهو ناس غافل.

الأمر الثاني، وهو السلبي ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ أي عزيمة صادقة تحزم أموره وتقطعها وعبر سبحانه بهذا القول ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ عن الأمر الواقع، والله تعالى يعلم به من قبل أن يقع، فقد قدر الله تعالى كل ذلك وعلم ما وقع قبل وقوعه فكيف يقول: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ وهو الذي خلقه وصوره وقدره، ونقول: إنه وجده واقعاً وهو يعلم علماً أزلياً لأنه هو الذي خلق وصور وإن إبليس وذريته يجيئون إلى ذرية

---

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 4797/9.

آدم من نسيانهم وغفلتهم ونقص عزيمتهم، كما جاء إبليس اللعين إلى أبي الإنسانية من جهة نسيانه، وأنه لم يكن له عزم مانع، فليحذر الناسي بعد أن جاءتهم الشرائع من وسوسة إبليس وذريته[1]، وأتباعه، وجنوده.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾: والعزم هو التصميم والتصلب، ويحتمل ولم نجد له عزماً على القيام على المعصية فيكون إلى المدح أقرب.

ويحتمل أن يكون المراد، ولم نجد له عزماً على ترك المعصية أو لم نجد له عزماً على التحفظ والاحتراز عن الغفلة، أو لم نجد له عزماً على الاحتياط في كيفية الاجتهاد إذا قلنا: إنه عليه السلام إنما أخطأ بالاجتهاد[2]، وهناك من قال: عزماً تصميماً صلباً أن يصابر ويجاهد الفتنة ويربط على قلبه إرادة نافذة لحفظ الوفاء بعقد التذكّر والطاعة لله أبداً عبر كل بلاء[3]، ولا بد لنا أن نشير هنا إلى أن آدم عليه السلام ما عصى ربه إلا بعد أن صارت له الإرادة حرة في الإقدام على الفعل أو الإحجام، فيستطيع بإرادته من الإقدام على الطاعة أو العصيان وهو بهذا العصيان قد غوى أي ضل عن الطريق السوي الذي أمر الله به، ونتأمل هذه الآية مرة أخرى فنرى أن الحكيم الخبير امتحن سيدنا آدم من قبل أن يعهد إليه خلافة الأرض ولم ينجح عليه السلام في ذلك الامتحان، ولكن الله عز وجل لم يتركه، بل تداركه برحمته فاجتباه وهداه[4] كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

---

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 4497/9.

[2] تفسير الرازي، مصدر سابق، 106/8.

[3] التفسير التوحيدي، الترابي، مصدر سابق، 753/1.

[4] آدم علية السلام خلقه ومعصيته، إبراهيم النعمة، مصدر سابق، ص 37.

ثالثاً: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ۝ فَقُلْنَا يَا آدم إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه:116-117]

1- ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه:116]

قال الشنقيطي: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى أن يسجد، فذكر عنه هنا الإباء ولم يذكر عنه هنا الاستكبار، وذكر عنه الإباء أيضاً في الحجر في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:31].

وقوله تعالى في آية الحجر هذه: ﴿أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ يبيّن معمول (أبى) المحذوف في آية (طه) هذه التي في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أي: أبى أن يكون مع الساجدين كما صرح به في الحجر، وكما أشار إلى ذلك في الأعراف في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: 11]، وذكر عنه في سورة ص الاستكبار وحده في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: 74]، وذكر عنه الإباء والاستكبار معاً في سورة البقرة في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34][1].

---

[1] أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، 106/4.

وقال السعدي: لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء وفضله وكرمه، أمر بالسجود له إكراماً وتعظيماً وإجلالاً فبادروا بالسجود ممتثلين وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه وامتنع من السجود لآدم وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فتبينت حينئذٍ عداوته البليغة لآدم وزوجه لما كان عدو الله، وظهر من حسده ما كان سبب العداوة فحذر الله آدم وزوجته منه[1].

2- ﴿فَقُلْنَا يَا آدم إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه:117]:

وكانت هذه رعاية من الله وعنايته أن ينبه آدم إلى عدوه ويحذره غدره عقب نشوزه وعقابه، والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾، فالشقاء بالكد والعمل والشرود والقلق والحيرة، واللهفة والانتظار والألم والفقدان، كلها تنتظر هناك خارج الجنة، وأنت في حمى منها كلها ما دمت في رحاب الفردوس[2].

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي في قوله تعالى: ﴿فَتَشْقَى﴾ بصيغة الإفراد، ولم يقل فتشقيا. لماذا؟ لأن مسؤولية الكدح والحركة للرجل وأما المرأة فهي في السكن المريح المنشط لصاحب الحركة، على خلاف ما نرى في مجتمعنا من الحرص على عمل المرأة بحجة المساعدة من تبعات الحياة[3].

---

[1] تفسير السعدي نقلاً عن التدبر والبيان، مصدر سابق، 209/21.

[2] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 2354/4.

[3] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 9428/15.

وقد تحدث الشيح أبو زهرة عن تفسير الآية فقال:

- (الفاء) السببية، لأن ما قبلها سبب لما بعدها فالحكم بأنه عدو لآدم وزوجته مترتب على امتناعه عن السجود وما سوغ له الامتناع هو توهمه أنه خير منه، وأنه يحسده على منزلته عند ربه وأي عداوة أقوى من ذلك، وإذا كانت العداوة قد بدت فتوقع الشر، والإيذاء يقترن بها لا محالة، ولذا أكد الله هذه العداوة فقال: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾، وأكد العداوة بـ(إنّ) المفيدة للتوكيد وبالجملة الإسمية وبالإشارة؛ لأن الإشارة متجهة نحو ما بدا منه وهو كلامه وامتناعه عن السجود، فالإشارة تشير إلى سبب العداوة، وإذا ثبتت العداوة فلا بد أن يتوقع آدم نتائجها وهي محاولة إخراجه من المكان الذي كرم فيه وكان السجود والخضوع فيه، ولذا قال تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾، (لا) ناهية، والنهي سببه العداوة وقد أكد النهي بنون التوكيد الثقيلة، وبأن الخروج من الجنة، وأنه يترتب عليه الشقاء[1].

- وفي قوله ﴿فَتَشْقَى﴾ لم يقل: فلا يخرجنكما من الجنة فتشقيا بل قال: ﴿فَتَشْقَى﴾ لأن السعي لطلب الرزق والكدّ على الرجل في نظر الدين الإسلامي وأما الأمومة والتربية فعلى المرأة فالرجل يعمل، ليكسب الرزق والمرأة تربّي الأولاد وتنشئهم تنشئة عالية.

فالرجل يعمل خارج البيت لكسب الرزق وأخطر عمل تقوم به المرأة على وجه الأرض هو تربية الأولاد، فمن أجل أن يكون الأولاد في المجتمع صالحين لا بد لهم من أم رؤوم تحنو عليهم وتعطي وقتها من أجلهم فلذلك قال: ﴿فَتَشْقَى﴾ أي: فتشقى وحدك، إنها

---

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 4799/9.

في البيت وأنت خارج البيت، لأنك مكلف بكسب المال، فالرجل يأتي إلى البيت متعباً وليس التعب تعباً مادياً فحسب، بل تعب نفسي أيضاً، فإن صعوبات الحياة والمتاعب والعقبات كلها يواجهها الزوج على وجه صارخ وأما الزوجة، فهي في بيتها ناعمة المآل، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وعلى الزوجة أن تقدر مشاق كسب المال، وأحوال الحياة الصعبة، فلا تثقل على زوجها ولا تحمله ما لا يطيق وقد كانت نساء السلف رضوان الله عليهن تقول إحداهن لزوجها: يا فلان نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام، فاتق الله فينا[1].

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة[2]: أي المرأة التي ترضى باليسير الودود الولود، التي تكتم نقاط الضعف في زوجها عن الناس، ولا تفضحه، والمرأة الصالحة تكون عونا لزوجها على الشيطان، ولا تكون عونا للشيطان على زوجها[3].

رابعاً: قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ۝ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدم هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ۝ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدم رَبَّهُ فَغَوَى ۝ ثُمَّ

---

[1] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 4799/9.

[2] المرجع نفسه، 378/7.

[3] المرجع نفسه، 378/7.

اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:118إلى 122].

1- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه:118،119].

بين الله سبحانه وتعالى بهاتين الآيتين أن في الجنة كل ما يطمع فيه الإنسان من حياة هنية فيها كل مرافق قوامة الآدمي من أكل وكسوة، وشرب وإقامة، وفي ذلك إشارة إلى ما يجب أن يطلبه، فإذا كُفي هذا فقد أوتي الدنيا بحذافيرها، فإن وراء المطامع الأخرى من جاه وسلطان وتحكم المصارع كما قال عليّ رضي الله عنه: مصارع الرجال تحت بروق المطامع.

ومعنى الآيات: أنك تجد كفايتك في الحياة فتجد الطعام الذي تأكله واللباس الذي يقيك العري والماء الذي تشربه والسكن الذي يؤويك وحسبك ذلك وكفى[1]. وقال البيضاوي في هذا النص القرآني الكريم: إنه بيان وتذكير لما له في الجنة من أسباب الكفاية وأقطاب الكفاف التي هي الشبع والري والكسوة والسكن، مستعيناً عن اكتسابها والسعي في تحصيل أغراض ما عسى ينقطع ويزول منها بذكر نقائضها ليطرق بأصناف الشقوة المعذر عنها[2].

أي أنه ذكر هذه الكفاية وهي الطعام والكسوة والشراب والمسكن بصيغة النفي، لأن عدمها هو موضع التحذير والمنع، ولأن عدمها هو الشقاء في الجنة، وقد نفى بذلك أنه

---

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 4799/9.

[2] المرجع نفسه، 4799/9.

لا يشقى في الجنة إنما الشقاء في غيرها، وإبليس العدو يعمل على شقائكما وكدحكما، إذ أخرجكما من الجنة فلا تطيعاه، وقد أشرنا إلى أن هذه الأمور يجب أن تكون مطلبك يا آدم، وإن في طلب غيرها التناحر على البقاء، ومعه الشقاء، وهذه موعظة لمن أراد جنة الدنيا دون شقائها وفي الآيتين من أساليب البيان، فذكر المطلب الأساس للإنسان "إن لك" مؤكداً أن له الأكل والكسوة والشراب والمأوى، هذا لك وحده ليس لك غيره، وفي الجنة، ويجب الاقتصار عليها في الحياة التي تستقبلك[1].

وفي الآيات: مقابلة بين الجوع والعري دون الجوع والظمأ، وبين الظمأ والضحى دون الظمأ والجوع، فإن الجوع عري الباطن وذله، والعري جوع الظاهر وذله، فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حر الباطن، والضحى حر الظاهر فقابل بينهما[2].

وقال ابن القيم: تأمل كيف قابل الجوع بالعري، والظمأ بالضحى والواقف مع القالب، ربما يخيل إليك: أن الجوع يقابل بالظمأ والعري بالضحى والداخل إلى بلد المعنى يرى هذا الكلام في أعلى الفصاحة والجلالة، لأن الجوع ألم الباطن، والعري ألم الظاهر، فهما متناسبان في المعنى، وكذلك الظمأ مع الضحى، لأن الظمأ موجب لحرارة الباطن والضحى موجب لحرارة الظاهر فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً[3].

وفي هذه الآيات راعى الله عز وجل فيها جانب المعنى لأن الجوع خلو الباطن عن

---

[1] المرجع نفسه، 4800/9.

[2] بدائع التفسير، ابن القيم، مصدر سابق، 170/3.

[3] بدائع التفسير، ابن القيم، مصدر سابق، 170/2. بدائع الفوائد، ابن القيم، مصدر سابق، 240/3.

الغذاء، والتعري خلو الظاهر عن الثياب، و"الظمأ" احتراق الباطن بالحرارة، "والضحى" احتراق الظاهر فظهرت المناسبة من حيث المعنى فيها[1].

2- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدم هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه:120]

أ- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾: نلاحظ أن الحق سبحانه اختار لعمل الشيطان اسم يناسب الإغراء بالشيء، وهي كلمة ((الوسوسة)) وهي في الأصل صوت الحليّ أي: الذهب الذي تتحلى به النساء، كما نقول: نعيق الضفادع، وصهيل الخيل، وخوار البقر، ونهيق الحمير، وثغاء الشاة، وخرير الماء، وحفيف الشجر، وكذلك الوسوسة اسم لصوت الحليّ الذي يجذب الأسماع ويغري بالتطلع إليه وأن الحق سبحانه يحذرنا أن الشيطان سيدخل لنا من طريق الإغراء والتزيين[2].

قال الشنقيطي: اعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أي: كلمه كلاماً خفيفاً فسمعه منه آدم وفهمه، والدليل على أن الوسوسة المذكورة في هذه الآية الكريمة كلام من إبليس سمعه آدم وفهمه، أنه فسّر الوسوسة في هذه الآية بأنها قول، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدم هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ فالقول المذكور هو الوسوسة المذكورة وقد أوضح هذا في سورة الأعراف وبين أنه

---

[1] بدائع التفسير، ابن القيم، مصدر سابق، 171/3.

[2] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 9430/15.

وسوس إلى حواء أيضاً مع آدم وذلك في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف:21-22][1].

ب: ﴿قَالَ يَا آدم هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾:

وهذا من وسوسة إبليس لآدم عليه السلام ونحن نعجب لإبليس ما دمت تعرف شجرة الخلد والملك الذي لا يبلي لماذا لم تأكل منها وتحوز هذه الميزة[2].

لقد استطاع إبليس عليه لعنة الله أن يلمس في نفس آدم عليه السلام الموضع الحساس، فالعمر البشري محدود، والقوة البشرية محدودة، ومن هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الطويل ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان وآدم عليه السلام مخلوق بالفطرة البشرية وضعف البشر، لأمر مقدور وحكمة مخبوءة.. من ثم نسي العهد وأقدم على المحظور[3]، والاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ...﴾ للتنبيه أي أن هذه الشجرة التي نهى عن الأكل منها هي شجرة الخلد من أكل منها نال الخلود والبقاء والسيطرة والسلطان[4]. وجاء إبليس لآدم عليه السلام بصورة الناصح وتلطف له في الكلام، فاغتر به آدم عليه السلام[5].

وفي هذه الآية إشارة ربانية إلى بعض غرائز الإنسان الأصلية، كغريزة حب الخلود فهي

---

[1] أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، 110/4.

[2] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 9430/15.

[3] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 2354/4.

[4] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 4800/9.

[5] تفسير السعدي، مصدر سابق، 195/5-197.

ليست عارضة بل هي سر مقيم فيه ما قامت به الحياة واستقامت له الظروف على ما يحب، أي أن اتجاهه إلى (حب الخلود) اتجاه طبيعي دائم غير متقطع ولا موقوت بأجل وقد ورد في البحوث الخاصة بالغرائز عبارات:

- (المحافظة على النفس)
- (وغريزة المقاتلة)
- (وغريزة الخلاص أو الهرب)
- (غريزة الاستغاثة)
- (غريزة البحث عن الطعام)

ولا شك أن كلها معان تهدف إلى التشبث بالحياة ومدافعة كل خطر يتهدد بقاء الإنسان، أي أن ما ذهب إليه أصحاب البحوث يندرج تحت الميل الفطري إلى "الخلود" وهو الميل الذي استغله الشيطان في آدم عليه السلام حين وقف يزين له الأكل من الشجرة.

وقد يبدو للنظرة العابرة أن غريزة (حب الخلود) أصل في فطرة الإنسان من (غريزة الزوج) فهي أولى أن تقدم عليها في (قائمة) غرائز الإنسان، لكن التأمل الدقيق لا يلبث أن يرينا غير هذا.

إذن، ما جدوى حياة أو نعيم يشعر فيه المرء بالوحدة، أو يشعر كأن جانباً من حياته يملؤه فراغ مقفر وخلو موحش... فالزواج هو تمام الوجود المعنوي للمرء أو هو السالب للموجب والموجب للسالب في حياة الإنسان، فليتم الوجود أولاً، ثم لنعمل على البقاء

والتمسك بأسبابه[1].

وقد تحدث القرآن الكريم عن غريزة الزوج حين آن لآدم عليه السلام أن يزاول اختصاص بشريته وأن يتحول إلى أفق غرائزه كان أول غريزة نوى إليها هي (غريزة الزوج) وذلك قوله سبحانه: ﴿وَقُلْنَا يَا آدم اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ [البقرة:35].

وعلماء النفس يتكلمون عن "الغريزة الجنسية" وعن "غريزة الوالدية" ولكن ما جاء به القرآن أعمق وأصدق وأشمل، فالزواج ضرورة فطرية أعمق مما يتصور الناظر إلى الوالدية وشهوة الجنس، وهو نظام رباني يلتئم به شمل كل ما نرى ويصلح عليه وجوده ويخرج به ثمره، والله سبحانه يقول: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾.

ولا يعلم أحد إلا هو سبحانه مدى سعة تلك (الكلية) التي تضمنها قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ فإنها في مفهوم اللغة تنسحب على الأشياء جميعاً، ما نعلم وما لا نعلم، من حي وجامد، وصامت وناطق، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:36].

فنظام (الزواج) ليس دائرة ضيقة، ولا أفقٌ محصورٌ أو مقصورٌ على الإنسان والحيوان والنبات، بل هو سنة كونية دقيقة واسعة المدى، وفطرة أزلية لا يلتئم شمل الشيء إلا إذا اتخذت مكانها الطبيعي في وجوده، فهناك حنين أزلي، ونوع فطري يتجاذب به (أزواج) النوع الواحد بعضهما إلى بعض، فلا يسعد شوق أحدهما إلى الأخر، ولا يسكن قلقه

[1] آدم عليه السلام، البهي الخولي، مصدر سابق، ص 143.

ويكمل أمره ويخرج ثمره إلا أن يلتقيا على السنة التي قررها الله سبحانه لأفراد نوعها، وهل السالب والموجب في الكهرباء إلا زوجان ينزع كل منهما إلى الآخر، ويرنو إلى الاتصال به، فإذا لم يتصل فهو في كساد وعطل في خلية الثمر والعمل، أما إذا اتصلا فما شئت من نار ونور وحركة وقوة وخير[1].

فالقصة الكريمة وهي تقرر غرائز الإنسان الأصلية في بدء الوجود، جعلت أولى هذه الغرائز (غريزة الزوج)، والزواج الكامل بين أفراد الإنسان، هو ما روعي فيه أن يكون بين إنسانية إنسان وإنسانية إنسانة إلى أنه اقترن ذكر بأنثى، وأجمل ما في الإنسان إنسانيته، فإذا حي كل زوج في الأفق الإنساني للآخر، فقد حي في سماء الجمال التي لا يفتأ يطالعه فيها شموس وكواكب من الفضائل والمحاسن التي لا تقدر[2].

ومن عجائب خلق الله لإنسانية الإنسان أنها تنقسم إلى زوجين: سالب وموجب وأن كلاً من الشطرين يرنو إلى الاتصال بالآخر شوقاً لما ينفرد به من خصائص التكرمة ونفائس المثل[3]. قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:49].

وأهم غرائز الإنسان التي جاءت في قصة آدم عليه السلام:

- غريزة الزوج.
- غريزة الخلود.

---

[1] آدم عليه السلام، البهي الخولي، مصدر سابق، ص 140.

[2] المرجع نفسه، ص 142.

[3] المرجع نفسه، ص 142.

- غريزة التملك.

- غريزة التدين.

ولنرجع إلى غريزة الخلود فقد مارس آدم عليه السلام رغبات هذه الغريزة فبرزت في مجال نشاطها الأول مرة حين رأت في ثمر الشجرة المحرمة سبباً يصلها بسر الخلود، ولبى آدم نداءها واستجاب لتزيينها، فأكل من الشجرة، وسجل الرقيب العتيد أن (جهاز الغرائز في آدم سليم من هذه الناحية)[1].

وثمة غريزة ثالثة تعرضها علينا القصة الكريمة، تلك هي (غريزة الملك) وهي القوة التي ناغاها إبليس في آدم ونبهها في نفسه لأول مرة وهو يقول له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه:120].

وقد تطغى غريزة التملك في الإنسان، فيصير بها عنصراً فاسداً في الأرض وآلة تخريب وتدمير، وقد تعتدل وتختلف بالأهداف السامية فيكون بها عنصر خير وبر وعمارة، وفي القرآن الكريم مثل تاريخية واقعية تبين طغيان تلك الغريزة في نفوس أصحابها أو اعتدالها وتبين أثرها الاجتماعي في الحالتين، ولكنا لسنا بصدد بيان شيء من ذلك، وقد أكل آدم من الشجرة استجابة لداعي تلك القوة الغريزية التي تنزع إلى ملك ما يمكن ملكه. وقد ذكر العلماء قائمة غرائز الإنسان ومنها (غريزة التملك) وذكروا جانبها (غريزة السيطرة) ونحسب أن السيطرة نتوء يتفرع من غريزة الملك ليشمل التسلط على الناس بعد

---

[1] آدم عليه السلام، البهي الخولي، مصدر سابق، ص 143.

أن شمل معنى السيطرة على ما يحاز من أنواع المال والمتاع[1].

3- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدم رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: 121]

ما ذكره الله جل وعلا في آية (طه) هذه من ترتب بدو سوءاتهما على أكلهما من تلك الشجرة، أوضحه في غير هذا الموضع كقوله تعالى في الأعراف: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الأعراف: 22]، وقوله فيها أيضاً: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف: 27][2].

وقد دلت الآيات المذكورة على أن آدم وحواء كانا في ستر من الله يستر به سوءاتهما وأنهما لما أكلا الشجرة التي نهاهما ربهما عنها انكشف ذلك الستر بسبب تلك الزلة. فبدت سوءاتهما أي عوراتهما وسميت العورة سوءة لأن انكشافها يسوء صاحبها، وصارا يحاولان ستر العورة بورق شجر الجنة كما قال تعالى هنا: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، وقال تعالى في الأعراف: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:22][3].

وبمجرد أن أكلا منها بدت لهما سوءاتهما أي عوراتهما فالعورة يسوء النظر إليها، وليس النظر إليها ساراً عند أهل الطبائع المستقيمة، وكشف السوءتين في هذا الموضع فهم

---

[1] المرجع نفسه، ص 144.

[2] أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، 113/4.

[3] المرجع نفسه، 113/4.

منه بعض القارئين للقرآن الكريم أن الشجرة الممنوعة تتعلق بالجنس ولكن الله لم يبين ورسوله لم يفسر، فحق علينا ألا نقف على ما ليس لنا به علم[1]، ومهما يكن من حالهم التي انكشفت فإن آدم الكريم عصى ربه الذي خلقه وأمر الملائكة أن يسجدوا له ولم يكن في طاعة تقيه ذلك الانكشاف وتجنبه إبليس ووسوسته[2].

﴿فَغَوَى﴾: أي ضل عن طريق الرشد واغتر بكلام عدوه، ونسب سبحانه العصيان والغواية إلى آدم وحده دون حواء مع أنها أكلت معه، لأن آدم هو المقصود في القصة وحواء تبع له في الحكم[3].

﴿فَغَوَى﴾: أي ضل عن مطلوبه الذي هو الخلود في الجنة والبقاء في نعيمها، فلم ينل بأكله من الشجرة ما أراده لأنه إنما أكل منها ليصير ملكه دائماً فلما أكل منها زال ملكه وخاب سعيه وضل عن المأمور به وهو التباعد عن الشجرة والذي أمره الله تعالى به في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أو عن الرشد، حيث اغتر بقول العدو، لأن الغي خلاف الرشد وقيل: فسد عليه عشية بنزوله إلى الدنيا.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدم رَبَّهُ فَغَوَى﴾ أي: خالف نهيه، فالعصيان: هو المخالفة، لكنه خالف بتأويل، لأنه اعتقد أنه لا أحد يحلف بالله كاذباً، أو لأنه اعتقد أن النهي قد نسخ لما حلف له إبليس، أو لأنه اعتقد أن النهي عن شجرة معينة، وأن

---

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 4801/9.

[2] المرجع نفسه، 4801/9.

[3] روح المعاني، الألوسي، مصدر سابق، 275/6. التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، 297/5.

غيرها من بقية أفراد الجنس ليس منهياً عنه[1].

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ الاجتباء: الاصطفاء والاختيار. أي: ثم بعد ما صدر من آدم بمهلة اصطفاه ربه واختاره فتاب عليه وهداه إلى ما يُرضيه ولم يبيّن هنا السبب لذلك، ولكنه بيّن في غير هذا الموضع أنه تلقى من ربه كلمات فكانت سبب توبة ربه عليه وذلك في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدم مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:27]، أي: بسبب تلك الكلمات كما تدل عليه الفاء وقد قدمنا في سورة البقرة: أن الكلمات المذكورة هي المذكورة في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:23] وخير ما يفسر به القرآن القرآن[2].

والتعبير ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ ((ثم)) عاطفة للترتيب والتراخي، للإشارة إلى البعد بين المرتبتين مرتبة العصيان والغواية ومرتبة الاجتباء والهداية، وقد اجتباه ابتداء بأن جعله أو خلقه، واجتباه ثانياً بأن اختاره للاختيار، وتاب عليه من هذه المعصية التي عصاها فرجع الله تعالى إليه بالمغفرة، إذ تاب هو بالشعور بالخطأ وعاد الله تعالى عليه بالمغفرة ثم بالهداية بعد ذلك، وهذا المعنى يشير إلى أن الخطأ في طبيعة الإنسان، والتوبة خلق المهديين والله تعالى غفور رحيم[3]، وفي قوله تعالى: ﴿وَهَدَى﴾ أي: وفقه سبحانه

---

[1] حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله العمروري، سورة طه ص17.

[2] أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، 4/119-120.

[3] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 9/4802.

أيضاً في الثبات والاستقامة، أو بيّن له سبيل الهداية والسعادة بما أوحى إليه[1].

ومن الغرائز الأصلية في الإنسان (غريزة التدين) ومن مظاهرها الرجوع لله سبحانه وتعالى والإنابة إليه، والنزوع إلى غوثه ورعايته سبحانه، والفرق بين هذه الغريزة وغرائز الزوج والخلد والملك التي تحدثنا عنها سابقاً، أن الأوليات قوى بشرية تعمل في حقل الماديات للإنسان، وأما هذه فذات مجال علوي، لأنها من خصائص الروح الذي نفخه الله في الإنسان، فالأوليات ينزعن به إلى الأرض وهذه تذهب به صاعدة إلى السماء، فإذا ما استحقت الخصائص ذات الاتجاه المادي الحيواني أن تسمى ((غرائز))، فأولى ثم أولى أن تسمى فطرة التدين (غريزة) لأن مدد الروح من الإنسان من أمر الله وهو أقوى وأدوم وآصل مما سواه ويظهر أثر تلك الغريزة بارزاً قوياً من حالتين متميزتين:

الأولى: حينما يقع أهل الغفلة والشرود عن الله في كرب لا تنفع الحيل والأسباب في دفعه، وتغدو به حياتهم مهددة بالمصير الذي يهلعون منه، وإلى مثل ذلك يشير قوله سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: 22].

فهم حينئذ إنما يدفعون إلى الله بدافع الفطرة المخبوءة التي طالما تجاهلوها، وأكثروا من إلقاء ركام الغفلة والشهوات عليها حتى خيل إليهم أن ليس فيهم ما ينزع إلى السماء، فلما جاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم وعجزت الأسباب أن تمد لهم يداً

[1] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، 298/5.

المعونة، تنحت الغفلة وانحسر عن أذهانهم غرور الحياة الدنيا فإذا بالفيض المحتبس ينبجس، وإذا بالقوة المطمورة تنبعث، وإذا هم بلسان الفطرة -لا بلسان الإرادة- يذكرون الله الذي نسوا ويدعونه تضرعاً وخفية: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، وهذا الصنف من الناس لا خير فيهم غالباً، فإنهم لا يلبثون إذا نجاهم الله أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من الإثم والغفلة: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: 23].

وأما الحالة الثانية: فتقع لطراز من الناس ألطف حساً وأرقى بصيرة وأصفى نفساً، فهم حين لا يستطيعون دفع غريزة ولا مقاومة ميل إلى إثم ولا تبين رشد وسط ما تنشره الشهوة المتلظمة من ضباب في أفق صوابه، فإذا قضت النفس وطرها سكن هائجه وخمد ثائره وانحسر ضباب الشهوة عنه وصفى أفقه فإذا به أمام صحوة ضمير، ويقظة روح، وإشراق نفس، فيتبين ضعفه أمام ما كان ويدركه للأسف وتثور به النفس وتضيق عليه نفسه فلا يجد ملجأ من ضميره إلا أن يقبل على الله تائباً مستغفراً[1]. ولقد أثنى الله سبحانه على ذلك الصنف من عباده فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران:135،136].

وتلك الحال الأخيرة تماثل ما ذكرت القصة عن آدم -عليه السلام- فإنه ما لبث بعد

---

[1] آدم عليه السلام، البهي الخولي، مصدر سابق، ص 146.

المعصية أن أشرقت فطرته فتبين شناعة ما أتى، فلم يتمالك أن ضرع إلى الله من ذل معصيته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]

وبهذه التجربة الرائعة سجلت القصة الكريمة نشاطاً لغريزة التدين، فعلمنا أن الإنسان محكوم بلونين من الغرائز: لون يمد له سبيل الفتنة والمعصية، وآخر يمهد له سبل الإنابة والمغفرة، وذلك هو مقتضى ما سوي عليه من خصائص التراب وخصائص الروح، فهو متنازع بين هذين الطرفين الفطريين:

- ظلمة ونور.
- دنس وطهور.
- معصية وتوبة.

وذلك شأن النمط الأوسط من الناس والله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

وليس من قصدنا أن تفصل أحوال الناس في التقلب بين هذين الطرفين، واختلاف حظوظهم من الاستجابة لهذا النوع أو ذلك، فلذلك مبحث آخر، فلنسجل ما تنص عليه القصة من أن الخطيئة بعض لوازمنا، وأن الإنابة إلى الله من أسمى خصائصنا، وألا ذنب مع إنابة، ولا خطيئة مع استغفار، ولا عقوبة إلا مع الإصرار، وأنه سبحانه أسرع مما يكون إلى عبده بالقبول حين ينكسر إليه ضارعاً من فراش الذلة والخطيئة والمعصية، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدم مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:

37][1.

وبعد: فهذه غرائز أربع كبار يتفرع منها سائر ما يعرف للإنسان من غرائز فرعية، وميول آخر ومن مجموعها يتألف ما نسميه: جهاز الغرائز في الإنسان، وقد قصت علينا القصة الكريمة نبأ التجربة الأولى لكل غريزة من هذه الغرائز، وبهذا دخل آدم عليه السلام في أفق غرائزه بصفة عملية، وأثبتت خصائص بشريته وجودها وصلاحيتها للاتصال بما حولها ولكن القصة الكريمة لم تكتف في باب الغرائز وأسمائها وتسجيل تجاربها الأولى، بل مضت في تعليل انحدارها وهبوطها تعليلاً يدرك به سبب الهمة والتماسك كما ندرك به سبب العزلة وانتقاص العروة على نحو ما سبق[2].

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:122]، مثل آدم دور الإنسان العادي الذي يطيع ويعصي وسمع كلام الشيطان، لكن ربه شرع له التوبة كما قال سبحانه: ﴿فَتَلَقَّى آدم مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

إذن: عصى آدم وهو إنسان عادي وليس وهو نبي كما يقول البعض فقوله: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:122]، هذه بداية مرحلة النبوة في حياة آدم عليه السلام و(ثم) تعني الترتيب مع التراخي، (اجتباه) اصطفاه ربه.

ولم يقل الحق سبحانه: ثم اجتباه الله، إنما ﴿اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ لأنه الرب المتولي للتربية والرعاية، ومن تمام التربية والإعداد للهمة ومن ضمن إعداد آدم لمهمته، أن يمر بهذه

---

[1] آدم عليه السلام، البهي الخولي، مصدر سابق، ص 147.

[2] المرجع نفسه، ص 147.

التجربة وهذا التدريب في الجنة[1].

خامســاً: قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُــكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِـلُّ وَلَا يَشْـقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَـةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِـيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَـى ۝ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْـرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۝﴾ [طه:123-127]

1- ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُــكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:123]

أ- ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وبذلك أعلنت الخصومة بين الثقلين، فلم يك هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم إنما أخذت على غرة ومن حيث لا أدري، فقد درى وعلم، وأعلن هذا الأمر في الوجود كله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿اهْبِطَا..﴾ بصيغة التثنية أمر لاثنين: آدم مطمور فيه ذريته وإبليس مطمور فيه ذريته، فقوله: ﴿اهْبِطَا..﴾ إشارة إلى الأصل وقوله في موضوع آخر:

---

[1] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 4433/15.

[2] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 2355/4.

﴿اهْبِطُوا﴾ [البقرة:28] إشارة إلى ما يتفرع عن هذا الأصل[1].

- ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: والمراد أنت عدو للشيطان إن كنت طائعاً، والشيطان عدوك إن كنت طائعاً، فإن كنت عاصياً فلا عداوة إذن، لأن الشيطان يريدك عاصياً[2].

وطبيعة الحياة الدنيا فيها ابتلاء وفيها امتحان في كل شيء، والإنسان في بعض الأحيان تكون امرأته عدوة له إذا حملته بطلباتها على معصية الله، وقد يكون الزوج عدواً لامرأته إذا حملها على معصية الله رغبة في شهوته، وقد يكون الابن عدواً لأبيه إذا سمح له الأب بشيء يرفع مقامه في الدنيا على حساب دينه، فيأتي يوم القيامة يقول يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي؛ كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:67]، فكل إنسان حمل إنساناً على معصيته، أو دفعه إلى مخالفة أو كلّفه ما لا يطيق، فعصى الله عز وجل؛ فستكون له هذه العداوة الحقيقة[3].

ومع هذا الإعلان الذي دوت به السماوات والأرض وشهده الملائكة أجمعون شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى، قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم، فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس، أنهم آتيهم بهدى منه فمجاز كلاً منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى[4].

---

[1] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 9434/15.

[2] المرجع نفسه، 9434/15.

[3] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 381/7.

[4] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 2355/4.

ب-	﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾:

والظاهر أن الخطاب لبني آدم. أي: فإن يأتكم مني هُدى أي: رسول أرسله إليكم، وكتاب يأتي به رسول، فمن اتبع منكم هداي أي: من آمن برسلي وصدق بكتبي، وامتثل ما أمرت به واجتنب ما نهيت عنه على ألسنة رسلي، فإنه لا يضل في الدنيا، أي لا يزيغ عن طريق الحق لاستمساكه بالعروة الوثقى، ولا يشقى في الأخرة لأنه كان عاملاً بما يستوجب السعادة من طاعة الله تعالى وطاعة رسوله وهذا المعنى المذكور هنا ذُكر في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في البقرة: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:38] ونحو ذلك من الآيات وفي هذه الآيات دليل على أن الله بعد أن أخرج أبوينا من الجنة لا يرد إليها أحداً منا إلا بعد الابتلاء والامتحان بالتكاليف من الأوامر والنواهي، ثم يطيع الله فيما ابتلاه به[1].

إن اتباع هدى الله فيه النفع والفلاح للإنسان، كما أنك إذا اتبعته في كل شيء لا تضل ولا تشقى، أي: لا يضل عقلك ولا تشقى نفسك، بل تسمو وترتقي وتنجح وتتفوق وتفلح وتحقق الهدف من خلقك على وجه الأرض ففي هذه الآية: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ طمأنينة عقليّة وقلبيّة، فإذا اعتقدت اعتقاداً موافقاً للقرآن الكريم، فلن تضل ولن تتحير ولن تتفاجأ ولن يأتي يوم يكون الخبر عليك كالصاعقة، أو أن هذا الذي اعتنقته أصبح خرافة، هذا في الإسلام لن يقع أبداً

[1] أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، 2355/4.

لأنك مع توجيه خالق الكون ومع الثوابت، وقد يقع ذلك في المذاهب الوضعية، كأن تعتنق مبدأ وتدافع عنه وتتحمس له وتبذل من أجله الغالي والرخيص والنفس والنفيس، ثم في نهاية المطاف تكتشف أن هذا المبدأ باطل وأنه كلام فارغ لا معنى له وأن كل المبادئ التي صدّقتها وعملت لها، مبادئ خُلبّيّة لا أصل لها في الواقع ولم تؤتِ أكلها إطلاقاً، ولم تحقق هدفاً إطلاقاً، وهذا الذي يحدث لأهل الدنيا حينما يعتنقون مبادئ وضعية، يصابون بخيبة أمل كبيرة جداً فقد يُفسّر الإنسان حادثة، فإذا كان تفسيره مطابقاً للواقع فترتاح نفسه، وإن اكتشف أن هذا التفسير غير صحيح يحتقر نفسه ويحتقر عقله، فهنيئاً لمن وافق سلوكه الهدى الربّاني في زواجه وبيعه، وشرائه، وعقيدته ومعاملاته، وعلاقاته ومشاعره وعواطفه والناس على صنفين: من اتبع الهدى، فلم يضلّ ولم يشقى، والصنف الثاني[1] في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾.

2- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ۝﴾ [طه:124-126]

أ- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾:

واختلف العلماء في المراد بهذا العيش الضيق على أقوال متقاربة، ولا يكذب بعضها بعضاً، وقد قدّمنا مراراً أن الأولى في مثل ذلك شمول الآية لجميع الأقوال المذكورة، ومن

[1] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 382/7.

الأقوال في ذلك: أن معنى ذلك أن الله عز وجل جعل مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله والرضا بقسمته فصاحبه ينفق مما رزقه الله بسماح وسهولة فيعيش هنيئاً، ومما يدلل على هذا المعنى من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97].

-وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [هود: 3].

وأما المعرض عن الدين فإنه يستولي عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلط عليه الشح الذي يقبض يده على الإنفاق، فعيشه ضنك وحاله مظلمة ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة بسبب كفره .

-كما قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 61].

ومن ذلك العيش الضنك بسبب الإعراض عن ذكر الله، وبين في مواضع أخر أنهم لو تركوا الإعراض عن ذكر الله فأطاعوه تعالى، فإن عيشهم يصير واسعاً رغداً لا ضنكاً.

-كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 66].

-وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96].

-وقوله تعالى عن نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:10-12].

-وقوله تعالى عن هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 52].

-وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ۝ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: 16، 17].

وعن الحسن، أن المعيشة الضنك: هي طعام الضريع والزقوم يوم القيامة، وذلك مذكور في آيات من كتاب الله تعالى، كقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية:6].

-وقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ [الشورى:43،44]، ونحو ذلك من الآيات.

وعن عكرمة والضحاك ومالك بن دينار، المعيشة الضنك: الكسب الحرام، والعمل السيئ. وعن أبي سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود وأبي هريرة، المعيشة الضنك: عذاب القبر وضغطته وقد أشار تعالى إلى فتنة القبر وعذابه في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾

[إبراهيم: 27][1].

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة، أن المعيشة الضنك في الآية: عذاب القبر وبعض طرقه بإسناد جيد كما قاله ابن كثير في تفسير هذه الآية: ولا ينافي ذلك شمول المعيشة الضنك لمعيشته في الدنيا وطعام الضريع والزقوم، فتكون معيشته ضنكاً في الدنيا والبرزخ والآخرة والعياذ بالله تعالى[2]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ فالحياة المقطوعة بالله ورحمته الواسعة، ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع.

إن ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه، ضنك الحيرة والقلق والشك، ضنك الحرص والحذر، الحرص على ما في اليد والحذر على الفوت، ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله وما يحس بالراحة النفسية إلا وهو متمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً وسعة والحرمان.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ وانقطع عن الاتصال بي ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾[3].

–وقال السعدي: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: فإن جزاءه، أن نجعل معيشته ضيقة مشقة ولا يكون ذلك إلا عذاباً.

---

[1] التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المغراوي، مصدر سابق، 218/21.

[2] أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، 127/4.

[3] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 2356/4.

وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره ويحصره فيه ويعذبه جزاء لإعراضه عن ذكر ربه وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر.

-والثانية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام:92].

-والثالثة قوله عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:46][1].

ومنهم من فسرها بعذاب القبر فقط من السلف، وقصرها على ذلك -والله أعلم- آخر الآية، وأن الله ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة، وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك عامة في دار الدنيا بما يصيب المعرض عن ذكر ربه من الهموم والغموم والآلام التي هي عذاب معجل وفي دار البرزخ وفي الدار الآخرة، وفي الإطلاق فكل المعيشة ضنك.

وعدم تقييدها ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ أي: هذا المعرض عن ذكر ربه، فإنه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ البصر على الصحيح، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:97]، فيقول على وجه الذل والمراجعة والتألم والضجر من هذه الحالة: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ﴾ في دار الدنيا ﴿بَصِيرًا﴾، فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة، ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ يإعراضك عنها ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ أي: تترك في العذاب، فأجيب بأن هذا هو عين عملك والجزاء

---

[1] التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المغراوي، مصدر سابق، 219/21.

من جنس العمل، فكما عميت عن ذكر ربك وعشيت عنه ونسيته ونسيت حظك منه، أعمى الله بصرك في الآخرة، فحشرت إلى النار أعمى، أصم، أبكم وأعرض عنك ونسيك في العذاب[1].

-وقال ابن كثير: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه، وأخذ عن غيره هذا، ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة[2].

3- قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْـــرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:127].

قال الشيخ محمد أبو زهرة: ذكر الله تعالى عقوبتين لمن أعرض عن ذكر ربه، أي عن الداعي لذكر ربه:

أولاهما: المعيشة الضنك، أي الضيقة التي تضيق فيها النفوس وتطوع للمطامع التي لا تنال، وإن نيلت طلبت غيرها، وقد بين ابن كثير في تفسيره كيف كان الخلو من اليقين يجعل المعيشة ضنكاً، قال ابن كثير في معنى الضنك: أي ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة ولا انشراح صدر، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما

[1] تفسير السعدي نقلاً عن التدبر والبيان، مصدر سابق، 220/21.

[2] تفسير ابن كثير، مصدر سابق، 317/5.

شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة.

هذه هي العقوبة الأولى وقد أشرنا إليها من قبل، أما العقوبة الثانية فقد أشار سبحانه وتعالى إليها بقوله عز من قائل: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ وذكرنا أن العجز هو عن الحجة والبرهان حيث يجب الإدلاء بها، فهو عجز في موضع الحاجة، ذانكم عقابان أحدهما في الدنيا، وهو مشتق من ذات الجريمة فهو عقاب من ذات الفعل، والآخر وهو على ما لم يستعد له من الحساب وقد جاء من إنكار البعث، ولو كان آمن به فلم يستعد له، وما فوجئ به وارتج قلبه، فكان هذا عذاباً شديداً لأن اللسان يقف حيث الحاجة أشد ما تكون إليه والبصر يكون عليه غطاء عند إرادة الإبصار.

هاتان العقوبتان قبل عذاب الآخرة الذي يكون بعد الحساب وتقدير الجزاء، وهذان العقابان ينالان من أسرف في أمره وانغمر في الشهوات ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾، كهذا العقاب الدنيوي من إحساس بضنك العيش والضيق فيه والتبرم بحياته والإحساس بفقد الاطمئنان لأي شيء، والإسراف على نفسه باللذات وبالإحساس بالحرمان المتجدد الذي لا يشبع من لذة، ثم يستكبر الأمور وبخع النفس عند المسرفين في المعاصي، والمسرفين على أنفسهم بقلقهم وعدم اطمئنانهم، ومع ذلك يكون إحساسهم بسد الطرق في وجوههم.

فالإشارة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ وهي إلى المعيشة الضنك والحشر أعمى، ﴿وَكَذَلِكَ﴾ مفعول لـ ﴿نَجْزِي﴾ والتعبير بالموصول ﴿مَنْ﴾ للإشارة إلى

أن الصلة، وهي الإسراف، سبب لذلك الجزاء وقد بين سبحانه أن وراء هذا العذاب عذاباً أشد وأبقى فقال عز من قائل: ﴿وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ وهو الذي يكون بعد الحساب، وتقرير أن الجزاء أشد لأنه بالنار، وهو أبقى أي إنهم يكونون في جهنم خالدين فيها وبئس المهاد[1].

ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه، أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس شراء وذخر. وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له، فلم يبصر من آيات الله شيئاً، فلا جرم أن يعيش معيشة ضنكاً ويحشر يوم القيامة أعمى؛ إنه اتساق في التعبير، واتساق في التصوير.

هبوط من الجنة وشقاء وضلال، يقابله عودة إلى الجنة ونجوة من الشقاء والضلال، وفسحة في الحياة يقابلها الضنك وهداية يقابلها العمى... ويجيء هذا تعقيباً على قصة آدم -وهي قصة البشرية جميعاً- فيبدأ الاستعراض في الجنة وينتهي في الجنة كما مر معنا في سورة الأعراف مع الاختلاف في الصور الداخلة في الاستعراض هنا وهناك حسب اختلاف السياق[2].

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مصدر سابق، 4807/9.

[2] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 2357/4.

المبحث السابع: قصة آدم عليه السلام في سورة ص:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۝ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:65-88].

وأول مرة جاء الحديث عن قصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم ونزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم في سورة "ص" المكية، ونلاحظ أن قصة خلق آدم وبداية الإنسان جاءت في سياق أمر الله عز وجل للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بأن يعلن

للبشرية جمعاء أن لله وحده الألوهية والربوبية في العالم كله وجاءت القصة في سياقات أظهرت مجموعة من الفوائد والدروس منها:

- تقرير التوحيد بأدلته وعلاماته.

- تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن ما جاء به وحي من الله، شواهده من الخبر عن الملأ الأعلى الذي لا يعلم ما يجري فيه إلا بوحي.

- إظهار عداوة إبليس لآدم وذريته.

- ذم صفة الكبر والحسد وبيان شرّها وأذاها على من اتصف بها.

- تقرير مبدأ الحوار والرد على إبليس بوضوح وصراحة تامة بالحجة البالغة[1].

وغير ذلك من الدروس والفوائد التي سنبينها عند شرحنا للآيات بإذن الله تعالى.

أولاً: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [ص:65-70].

1- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص:65].

قل أيها الرسول لأهل مكة إنما أنا منذر من الله تعالى، أخوفكم عذابه ومخالفته، وآمركم بطاعته واحترام وحيه وكتابه ولست ساحراً ولا كاهناً ولا كذاباً كما تدعون، إنما

[1] تفسير المدينة، نخبة من العلماء، مصدر سابق، 405/2.

أنا رسول من عند الله، أحمل لكم وحي من السماء، ولا أملك الهداية ولا أستطيع أن أجبركم عليها.

-قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:21-22].

-وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى:48]، أما الأصنام التي تعبدونها فليست بآلهة، لأنها لم تخلق ولم ترزق، ولا تسمع ولا تجيب، ولا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، فضلاً عن أن تنفع غيرها.

أ- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾:

ليس هناك من إله سوى الله تعالى، الواحد الأحد الفرد الصمد، والقهار الذي قهر كل شيء بعزته وجبروته، فهو خالق الكون، وهو رافع السماء، وباسط الأرض[1].

-من أسماء الله الحسنى الواحد القهّار:

أ- الواحد:

ورد اسم الله الواحد في أكثر من عشرين موضعاً في القرآن ومن ذلك:

-قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:16].

-وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل:51] .

-وقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16].

---

[1] تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته، مصدر سابق، 4686/12.

وفي الكتب التي تتحدث عن أسماء الله الحسنى يأتي الحديث عن أسماء الله "الواحد، الأحد"، ويقول الشيخ السعدي رحمه الله: "الواحد الأحد" هو الذي توحد بجميع الكمالات، وتفرد بكل كمال، وجلال وجمال، وحمد وحكمة ورحمة وغيرها من صفات الكمال؛ فليس فيها مثيل، ولا نظير ولا مناسب بوجه من الوجوه، فهو الأحد في حياته وقيوميته وعلمه وقدرته وعظمته وجلاله وجماله وحمده وحكمته وغيرها من صفاته، موصوف بغاية الكمال ونهايته من كل صفة من هذه الصفات، فيجب على العبيد توحيده عقلاً وقولاً وعملاً بأن يعترفوا بكماله المطلق وتفرده بالوحدانية ويفردوه بأنواع العبادة[1].

ب- القهار: ورد ذكر اسم الله القهار في القرآن الكريم ست مرات مقترن فيها باسمه الواحد ومن ذلك:

-قوله تعالى: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:16].

-وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:48]، وغيرها من الآيات.

وقال الخطابي: "القهار" هو الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة وقهر الخلق بالموت[2].

والقهار: اسم مبالغة "للقاهر" وهو الذي خضع له كل شيء وذل لعظمته وقوته كل شيء، لا يخرج شيء ولا حي عن قدرته وتدبيره وملكه، وقهر كل الخلق بالموت، وهذا

[1] ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص 106.

[2] ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص 415. شأن الدعاء، الخطابي، مصدر سابق، ص 53.

يفسر – والله أعلم- شيئاً من سر اقتران اسمه "الواحد" باسمه "القهار"، حيث إن من موجبات اسمه الواحد في ربوبيته وملكه وألوهيته وأسمائه وصفاته أن يكون قاهراً قهاراً غالباً لكل شيء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وما من دابة إلا هو سبحانه آخذ بناصيتها ماض فيها حكمه عدل فيها قضاؤه، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود:56] وكونه تعالى "الواحد" يقتضي كونه "القهار"[1].

ووحدته تعالى وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهاراً، والقهار لا يكون إلا واحداً وذلك ينفي الشركة من كل وجه[2]، إن القهر ملازم للوحدة فلا يكون اثنان قهاران متساويين في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يعبد وحده كما كان قاهراً وحده[3].

كما يشير هذا الاقتران إلى معنى بديع: وهو أن الغلبة والإذلال من ملوك الدنيا إنما يكون بأعوانهم وجندهم وعُددهم، والله تعالى يقهر كل الخلق وهو واحد أحد فرد صمد مستغنٍ عن الظهير والمعين؛ فاقتران الاسمين يشير إلى كماله سبحانه في تفرده وكماله في قهره[4].

وقبل الحديث عن قصة بداية الإنسان وصراعه مع عدوه إبليس كانت الدعوة إلى توحيد الله من خلال التعريف بأسمائه الحسنى، وفي هذا الموقع كان الحديث عن "الواحد

---

[1] ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص 112.

[2] تفسير السعدي، مصدر سابق، 308/4.

[3] المرجع نفسه، 299/4.

[4] مطابقة أسماء الحسنى مقتضى المقام، نجلاء كردي، مصدر سابق، ص 492.

القهار" سبحانه.

2- ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [ص:66]:

فالله عز وجل وصف نفسه في الآيتين (65) و(66) بخمس صفات:

- أنه الإله الواحد لا شريك له.

- القهار الذي قهر كل شيء بقدرته.

- رب السماوات والأرض وما بينهما، حيث رفع السماء وبسط الأرض، وسخّر الهواء والفضاء، والرياح والسحاب والأمطار والنبات والليل والنهار.

قال تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه:6].

- العزيز:

- الغفار[1]:

من أسماء الله الحسنى: العزيز الغفار:

أ- العزيز: ورد ذكر اسمه "العزيز" في القرآن في اثنتين وتسعين مرة جاء في أكثرها مقترناً بأسماء أخرى من أسمائه سبحانه الحسنى ومن ذلك:

- قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:260].

- وقوله سبحانه: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [ص:9].

---

[1] تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته، مصدر سابق، 4686/12.

-وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران:4].

-وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:9].

-وقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس:38].

-وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:28].

-وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج:8].

والله عز وجل هو العزيز بكل معاني العزة كما قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:10]. ويقول ابن القيم رحمه الله في نونيته:

وهو العزيز فلـــن يرام جنابـــه

أنى يرام جانب ذي السلطان

وهـو العزيز القاهر الغلاب لم

يغلبـه شـــيء هذه صفتـــان

وهو العزيز بقوة هي وصـــفه

فالعـــز حينئـذ ثلاث معـان

وهي التي كملت له سبحانه

من كل وجـه عادم النقصان[1]

ويوضـح العلّامة السـعدي (رحمه الله تعالى) هذه المعاني الثلاثة للعزيز، فيقول: "العزيز" الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله

---

[1] ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص 405.

أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته1.

ب- الغفّار:

ورد اسمه سبحانه "الغفار" في خمسة مواضع منها:

-قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر:5].

-وقوله: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح:10].

فالغفار: الستّار لذنوب عباده والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته، ومعنى الستر في هذا: أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه، ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره في عيونهم[2].

وأما عن وجه اقتران اسمه سبحانه "العزيز" باسمه "الغفار" فيمكن القول بأن الله عز وجل العزيز الغالب لكل شيء القاهر فوق عباده، قادر على أن يأخذ عباده بذنوبهم ويعذب من يشاء من أنواع العذاب، ولكنه سبحانه مع عزته وقهره إلا أنه غفور رحيم، وعفوه ومغفرته تكون منه سبحانه عن عزة وقدرة لا عن ضعف وعجز، فهو كامل في عزته وكامل في مغفرته، وكامل في الجمع بين مغفرته وعزته والله أعلم[3].

3- ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾:

---

[1] المرجع نفسه، ص 406.

[2] ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص 568.

[3] المرجع نفسه، ص 411.

تأتي هذه الفقرة تأكيداً لما مرّ في أول سورة "ص" من تنبيه للقرآن: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، حيث تنبِّه على عظمة القرآن، وأهمية الوحي في التعليم والتوجيه والإرشاد والإسعاد والرقيّ، وهو يتحدث عن الملائكة وآدم وإبليس، وهي غيبية ما كان للنبي الأميّ علم بها إلا عن طريق الوحي، وتمهد الآيات لقصة آدم وإبليس، ولمحاورة ومناقشة بين الحق سبحانه وتعالى وإبليس، وتصوّر الحكمة في خلق الخير والشر في هذه الحياة، وتنبّه البشر إلى رغبة الشيطان في إضلالهم وأنه لا ملجأ للإنسان في هذه الدنيا إلا الاعتصام بالله عز وجل والتمسك بكتابه وهديه والالتجاء إلى عنايته وفضله ورعايته وتوفيقه[1].

أ- ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾: إن خبر الوحي وإرشاد السماء واختيار رسول الله ليكون واسطة بين الله وبين خلقه نبأ عظيم وأمر خطير، وأن يتفضل الله على عباده بأن يرسل محمداً صلى الله عليه وسلم مبشراً ونذيراً وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً.

إن هذا الوحي في حد ذاته شرف للإنسانية كلها، حيث اختار الله من بينها يتيماً فقيراً أمياً وأنزل عليه الوحي من السماء لهداية الناس وإرشادهم[2].

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ قل لهم يا محمد: إن ما جئتهم به وما يعرضون عنه أكبر وأعظم مما يظنون، وإن وراءه ما وراءه مما هم عنه غافلون، وإنه لأمر أعظم بكثير من ظاهره القريب، إنه أمر من أمر الله في هذا الوجود كله وشأن من شؤون هذا الكون بكامله، إنه قدر من قدر الله في نظام هذا الوجود، ليس منفصلاً ولا بعيداً عن شأن السماوات

---

[1] تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته، مصدر سابق، 4685/12.

[2] تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته، مصدر سابق، 4686/12.

والأرض وشأن الماضي السحيق والمستقبل البعيد، ولقد جاء هذا النبأ العظيم ليتجاوز قريشاً في مكة والعرب في الجزيرة والجيل الذي عاصر الدعوة في الأرض، ليتجاوز هذا المدى المحدود من المكان والزمان ويؤثر في مستقبل البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها، ويكيف مصائرها منذ نزوله إلى الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لقد نزل في أوانه المقدر له في نظام هذا الكون كله، ليؤدي دوره هذا في الوقت الذي قدره الله له.

ولقد حول خط سير البشرية إلى الطريق الذي خطته يد القدر بهذا النبأ العظيم، سواء في ذلك من آمن به ومن صدّ عنه ومن جاهد معه ومن قاومه في جيله وفي الأجيال التي تلته، ولم يمر بالبشرية في تاريخها كله حادث أو نبأ ترك فيها من الآثار ما تركه هذا النبأ العظيم، ولقد أنشأ من القيم والتصورات، وأرسى من القواعد والنظم في هذه الأرض كلها، وفي أجيال البشرية جميعها، ما لم يكن العرب يتصورونه ولو في الخيال.

وما كانوا يدركون في ذلك الزمان أن هذا النبأ إنما جاء ليغير وجه الأرض، ويوجه سير التاريخ ويحقق قدر الله في مصير هذه الحياة، ويؤثر في مصير البشرية وواقعها، ويصل هذا كله بخط سير الوجود كله وبالحق الكامن في خلق السماوات والأرض وما بينهما، وأنه ماض كذلك إلى يوم القيامة يؤدي دوره في توجيه أقدار الناس وأقدار الحياة[1]، والنبأ العظيم هو القرآن الكريم في كل ما جاء به.

---

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 3026/5.

ب- ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾: لكن أهل مكة أخذهم الغرور والكبر، ومنعهم حب الذات والعظمة الكاذبة من أن يتبعوا هذا الرسول رغم الأمانة وفضل ما يحمله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:44]، وليت أمتنا تعيد النظر في أمر هذا الكتاب وهديه، وتشريعاته وآدابه وصفاته، لتتجه نحوه قراءة وحفظاً، وتدبراً وشرحاً، وعملاً به واقتداء، وتتمثله سلوكاً وخلقاً، إذاً لعاد إليها المجد والخير والبركة والسعادة الحقيقية[1].

وفي قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ ترغيب في النظر والاستدلال ومنع من التقليد، لأن ما جاء به القرآن الكريم من مطالب شريفة وعالية من دعوة لتوحيد الله وإفراده بالعبادة، ونبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وإثبات الحشر والنشر والقيامة.. إلخ، تحتاج لتدبر وتأمل وتفكر وإعمال للعقل حتى يكون الإنسان فيها على الحق لكي يفوز بأعظم أبواب السعادة، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل، فقد وقع في أعظم أبواب الشقاوة، فكانت هذه المباحث ومقاصد القرآن الكريم أنباء عظيمة ومطالب عالية بهية، وصريح العقل يوجب على الإنسان أن يأتي فيها بالاحتياط التام وأن لا يكتفي بالمساهلة والمسامحة[2].

4- ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص:69]:

أي: لولا الوحي من أين كنت لأدرى باختلاف الملأ الأعلى في شأن آدم وامتناع

---

[1] تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته، مصدر سابق، 4687/12.

[2] تفسير الرازي، مصدر سابق، 407/9.

إبليس عن السجود ومحاجته ربه في تفضيله عليه[1].

إن الملأ الأعلى اختصموا وأحسن ما قيل فيه أنه تعالى لما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30]، وقال الرازي: وهو أحسن ما قيل فيه[2]، ولا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة الحوار المجاز، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه[3].

5- ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [ص:70]:

لقد كان العرب الأولون يظنون أن الأمر هو أمرهم، وأمر محمد من عند الله اختياره من بينهم، لينزل عليه الذكر وكانوا يحصرون همهم في هذه الشكلية، فالقرآن يوجه أنظارهم بهذا إلى أن الأمر أعظم من هذا جداً وأنه أكبر منهم ومن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وأن محمداً ليس إلا حاملاً لهذا النبأ ومبلغاً، وأنه لم يبتدعه ابتداعاً وما كان له أن يعلم ما وراءه لولا تعليم الله إياه، وما كان حاضراً لما دار في الملأ الأعلى منذ البدء إنما أخبره الله.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

---

[1] تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته، مصدر سابق، 4687/12.

[2] تفسير الرازي، مصدر سابق، 407/9.

[3] المرجع نفسه، 408/9.

وعند هذا يأخذ السياق في عرض قصة البشرية وما دار في الملأ الأعلى بشأنها منذ البدء مما يحدد خط سيرها، ويرسم أقدارها ومصائرها وهو ما أرسل محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغه وينذر به في آخر الزمان[1].

ثانياً: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: 71-73]

1- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾:

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان يفيد استحضار المشهد والتركيز على لقطة معينة منه، فكأنما هو شريط طويل إذ يوقفنا عند لحظة منه أو لفظة معينة منه فتركز الأنظار عليها.

﴿قَالَ رَبُّكَ﴾: قال فعل ماضي كما هو معلوم، لكن كيف قال للملائكة وكيف أبلغهم وكيف أوصل لهم مراده؟، لا يعلم ذلك كله إلا الله وليس مطلوباً منا معرفة كيف تم ذلك فنمرّه ونكله إلى من أنزله سبحانه، مع يقيننا به وبحصوله، وأضاف كلمة الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم وهو ضمير المخاطب كما نقول في مثله دوماً للتكريم والتشريف والتلطف، أي:

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 3026/5.

- ربك الذي يربيك.

- ربك الذي يعلمك.

- ريك الذي يحفظك.

- ربك الذي يزكيك.

- ربك الذي يرفع شأنك[1].

﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾: الجماعة منهم أم لجميعهم؟ لا يعلم ذلك إلا الله، ولكن ظاهر اللفظ يوحي بالعموم، أم أن هذا العموم الظاهري مخصوص بخصوص الملائكة الذي لهم عمل مع هذا المخلوق سواء كان بتسجيل عمله أن الإيحاء بالحسنى له؟، أم بتأييده وتثبيته ونصرته ببث اليقين في القلب في مواطن اليأس والشدة والاشتباك؟، أم الملائكة التي تستلم أمانة الروح عند نهاية الأجل؟

كل ذلك محتمل ونكله في تحديده وتعيينه إلى صاحب العلم المطلق سبحانه وتعالى الأجلّ، والعموم والخصوص حديث يطول -أقصد لفظ الملائكة بين العموم والخصوص - فقد عبر الله في قصة مريم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾، فاللفظ عام ولكنه قطعاً مقصود به الخصوص، أي من نزل على مريم وقد يكون واحداً أو جماعة صغيرة والله أعلم، وعلم كل ذلك إلى العليم الخبير[2].

---

[1] تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص 198.

[2] نوفل، المرجع السابق، ص 198.

﴿إِنِّي خَالِقٌ﴾: هذا أمر قد بُت، وهذه كلمات لتعلموا فقط، وإن للتوكيد والياء ضمير المتكلم سبحانه بالإفراد، وهو هنا أليق.

﴿خَالِقٌ﴾ موجد منشئ والخالق من أسمائه سبحانه، وهو خالق كل شيء بمعنى موجد من العدم وعلى غير مثال سابق.

﴿بَشَرًا﴾ مفعول به لاسم الفاعل والبشر من أسماء النوع الإنساني ومن أي شيء اشتقاقه؟، أمِن البشر أم من البشارة إذ هي التي يعرف بها وهي التي تظهر منه؟، أم لا من هذا ولا هذا؟، كل ذلك محتمل، والبشر: مرادف الإنس أي إني خالق إنساناً، وقد فهم الملائكة الحقيقة بما ألقى الله فيهم من العلم أو أن الله وصف لهم حقيقة الإنسان، بالمعنى الذي عبر عنه في القرآن بالعبارة الجامعة لذلك المعنى[1].

﴿مِنْ طِينٍ﴾: فالتراب إذا بُلَّ بالماء يصير طيناً، فإذا أنتَن يصير حمأً مسنوناً، فإذا يبس يصير صلصالاً كالفخَّار، ومرّ معنا أنَّ علم التحليل الكيميائي أثبت أن بُنية الإنسان المادية مكونة من عناصر التراب[2].

2- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:72]

وقصة هذا المخلوق "آدم عليه السلام" مستمرة وهذه مسألة أخرى تتعلق به أو أمر إلهي آخر بشأنه، فهو يخبر الملائكة أنهم بمجرد أن تدُب الحياة في هذا المخلوق عليكم

[1] تفسير الطاهر بن عاشور نقلاً عن تفسير سورة الحجر، مصدر سابق، ص 200.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، 226/7.

أن تقعوا له ساجدين، اعترافاً بقدره وشأنه عند الله[1].

- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾: الفاء تفريعية على ما سبق، وإذا: شرط وفعله سويته، ومعنى التسوية الخلق المستوي أو المسوّى أي المعتدل المقوم المخلوق أتم خلقة وأحسن خلقة[2]، أي أصبح بين جنبات الجسم جميع المكونات الأساسية لاستمرار وجوده في هذه الحياة، فهو يمتلك كافة الأجهزة الحيوية التي تحافظ على حياته مثل أجهزة الهضم والتنفس والجهاز الدموي والبولي والعصبي وغيرها والتي تعمل على استمرار حياته وعيشه ووجوده على سطح هذه الأرض، وجميع هذه الأجهزة تعمل بدقة متناهية وبنظام عجيب ومعجز.

وما يزال البحث في علوم الطب الحديث مستمراً لاكتشاف أسرار هذا الجسد ومتابعة الأمراض التي تصيبه ومن ثم اكتشاف الأدوية المناسبة لعلاجها، وكما ذكرنا أن هذا الجسد مخلوق من تراب وماء "أي من طين"، فهو يأخذ خاصية الطين اللينة والضعيفة التي خلق منها، فمهما كان الجسم قوياً فلا يستطيع أن يتحمل أي أذى يتعرض له لأن الطين لين ولا يستطيع المقاومة[3].

إن التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾: يشير إلى التسوية: أي تعديل ذات الشيء، وقد أطلقت هنا على اعتدال العناصر، فهي واكتمالها بحيث صارت قابلة للنضج، كما أن التعبير بالتسوية ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ يدل على تعديل الصورة وإتمام الخلق،

---

[1] تفسير سورة الحجر، نوفل، مصدر سابق، ص200.

[2] نوفل، المرجع السابق، ص 202.

[3] تفاحة آدم، بشير محمد، مصدر سابق، ص 121.

وبعد نفخ الروح بإذن الله تعالى صار الإنسان بشراً سوياً[1].

إن التسوية تعني جعل الشيء صالحاً للمهمة التي تُراد له، وشاء سبحانه أن يُسوّي الإنسان في صورة تسمح لنفخ الروح فيه، والنفخ من روح الله لا يعني أن النفخ قد تمّ بدفع الحياة عن طريق الهواء في فم آدم ولكن الأمر تمثيل لانتشار الروح في جميع أجزاء الجسد[2].

- ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾: لا يعلم هذه الكيفية إلا الله، أي بثثت فيه الروح: التي هي سر الحياة والتي لا يعلم شأنها إلا من خلقها، فهي من عالم الغيب وهي الجزء المهم من هذا الإنسان وهي التي أعطته القيمة، والكرامة، فنفخة الروح سبب الحياة وسر الحياة، وكم من أمر لا يعلمه البشر ولكنهم يؤمنون به فالكهرباء حتى الآن ما زالت طلمساً، أفلا يؤمن بها البشر؟

وكيف لا وجل حياتهم وآلاتهم وأجهزتهم مرتبطة بها أو قائمة عليها، ولم يمنع البشر عدم فهمهم لماهية الكهرباء أن ينتفعوا بها ولا يقول أحد منهم أقنعني بالكهرباء، وأنها موجودة[3].

إن كرامة الإنسان بنفخة الروح لا من قبضة الطين فسمت قبضة الطين بنفخة الروح، والدين والروح هو روح الروح وحياتها فكانت الكرامة لهذا الإنسان بأمرين:

---

[1] تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص 205.

[2] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 7694/12.

[3] تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص 203.

- بالروح.

- وروح الروح، فتأمل[1].

وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ رُوحِي﴾: "من" بيانية وليست تبعيضية، فحرف الجر "من" للبيان وليس للتبعيض ولا يمكن أن تكون "من" تبعيضية لأن هذا يتعارض مع العقيدة الإسلامية الواضحة فالله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، له صفات الكمال والجلال والعظمة، وهو الخالق لكل شيء وكل ما سواه مخلوق، وهذا معناه أن الروح التي نفخها الله في آدم مخلوقة، هو الذي خلقها سبحانه، وهذا معناه أن هذه الروح المخلوقة ليست "جزءاً" من ذات الله سبحانه، وهذا معنى قولنا: يستحيل في العقيدة أن تكون "من" تبعيضية ، ولو كانت كذلك لكانت هذه الروح التي في آدم "قطعة" من روح الله وجزءاً وقسماً من روح الله اقتطعه الله من ذاته وجعله في جسم آدم، فالذي في آدم جزءٌ من الله.

- وهل "ذات الله" سبحانه يمكن أن تتجزأ وتتبعّض وتنقسم ليدخل في جسم آدم جزء منها؟ إن هذا مرفوض عقلاً ومتعارض مع عقيدتنا الإسلامية الصافية[2].

ولذا نقول: إنّ "من" في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ بيانية وهي تبين أن الروح التي جعلها الله في آدم من عنده هو، أي هو الذي خلقها والذي نفخها في آدم ولذا أضاف تلك الروح إليه: ﴿مِنْ رُوحِي﴾، وهذه إضافة تكريم لتلك الروح وتشريف وهي

[1] تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص 206.

[2] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مصدر سابق، ص 51.

كإضافة ناقة صالح عليه السلام ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ﴾ [الأعراف:73]، وكإضافة البيت المحرّم –الكعبة– إلى الله في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم:37][1].

وقد تحدثت بالتفصيل في قصة آدم عليه السلام في سورة الأعراف عن ماهية الروح وجوهرها، ونفخ الروح بكيفية لا ندريها ولا نعرف كنهها، وعن استحالة معرفة حقيقة الروح وبيان الدلائل عن خلق الأرواح وغير ذلك في هذا الكتاب، فمن أراد التوسع فليرجع هناك.

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، قال فيها محمد راتب النابلسي: والسرّ في هذه النفخة أنها من روح الله عز وجل فصيّر فيه دماغاً يفكر ويحاكم، والعين تبصر الألوان وتبصر جمال الجبل الأخضر وتبصر جمال البحر الأزرق وتبصر جمال وردة فواحة، والأذن تسمع الأصوات، والأنف يشم رائحة عبقة، وهذا الإنسان يعبر، ويتكلم ويضحك، ويخطب ويبيّن ويفسِّر، ويؤلف ويتحرك حتى إذا مات الإنسان وكان على سرير تحته ميزان، فكم غراماً ينقص وزنه حينما تخرج روحه إلى السماء؟ ولا غراماً، ولا ميليغرام، ولا ميكروغرام، ومع ذلك العين لا ترى، والأذن لا تسمع، والدماغ لا يفكر والمعدة لا تهضم، والرئتان لا تخفقان، والقلب لا ينبض، فما الذي حدث؟ ما هذا الذي خرج منه؟

الإنسان كائن راقي جداً، فإذا ذهبت روحه؛ أصبح مخيفاً، والغرفة التي ينام فيها تبقى أياماً بل أسابيع بل شهوراً مهجورة في البيت مع أنه هو كان مصدر أنس البيت، فهو

---

[1] الروح، ابن القيم، مصدر سابق، ص 268. علمني أبي، العودة، مصدر سابق، ص 49.

الأب، فإذا دخل هبّ إليه أولاده فرحين، فما الذي حدث حينما انسحبت هذه الروح؟ أصبح مخيفاً، وأصبح جثة هامدة بعد أن كان مصدر النظافة والأناقة والعطور الفواحة، وإن مات في الصيف احتاج إلى حمض الكلور، وإلّا خرجت منه روائح كريهة.

كنت أعجب، لماذا يصلى على الجنائز بعد العشاء؟ الموتى هناك في كل وقت، وفي الشام يكون العصر آخر وقت للدفن، قيل: لا تبقى الجثة في الحنوط هنا أكثر من ساعات وإلا تنفسخ لشدة الحر في تلك البلاد المقدسة[1].

- ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾: معناه خروا له ساجدين سجود تحية وتكرمة لا سجود عبادة وصلاة، فالعبادة لله وحده لا شريك له[2]، وفي أمرهم بالوقوع أي: السقوط، دليل على أن المأمور به ليس مجرد الانحناء كما قيل، بل السجود بالمعنى المتبادر استجابة لأمر الله فهو في الحقيقة عبادة لله[3].

3- ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص:73]:

والملائكة تحتمل المأمور منهم، والأولى والأمثل أن يكون الأمر للملائكة بأجمعهم وليس فئة منهم كما يرى العلامة الشعراوي، إذ يقول: إن "العالين" من الملائكة لم يسجدوا ويفسر قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي من هؤلاء، ولا دليل عليه والنص لا يساعد على هذا الفهم.

---

[1] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 559/10.

[2] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 4085/8.

[3] تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص 208.

والأول من الأقوال أقوى وأدعى للامتثال، فنقف عند المتبادر من النص والذي يساعد عليه التوكيد أجمعون ولا استثناء، فلم نستثنى؟.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فنفذ الملائكة أمر ربهم بالوقوع ساجدين، ولم يقل فوقع الملائكة ساجدين، لأن معنى فسجد تنفيذ الأمر كما صدر، لا أنهم تخلفوا عن الأمر أو خالفوه معاذ الله والملائكة عام كما أسلفنا، فليبق على عمومه كما أطلقه الله، وقوله كلهم تفيد العموم كذلك[1].

قال السعدي: تأكيد بعد تأكيد ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيماً لأمر الله وإكراماً لآدم حيث إنه عُلّم ما لم يعلم[2].

قال الشوكاني: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أخبر سبحانه، بأن الملائكة سجدوا جميعاً عند أمر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخ، قال المبرّد قوله ﴿كُلُّهُمْ﴾ أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد، وقوله ﴿أَجْمَعُونَ﴾ توكيد بعد توكيد ورجّح هذا الزجاج، قال النيسابوري: وذلك لأن ﴿أَجْمَع﴾ معرفة فلا يقع حالاً، ولو صح أن يكون حالاً لكان منتصباً[3].

وقد يصدق أن يقال كلا اللفظين ﴿كُلُّهُمْ﴾ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ يفيد التأكيد، ولكن هذا لا يعني أنهما مترادفان في التأكيد فيقال فيهما توكيد بعد توكيد وإنما لكل منهما تأكيده الخاص وجهته المنفردة.

---

[1] المرجع نفسه، ص 208.

[2] المرجع نفسه، ص 208.

[3] فتح القدير، الشوكاني، مصدر سابق، 157/3.

-فلفظ ﴿كُلُّ﴾ في صوره المختلفة يدل على الإحاطة والشمول، يقال تكلله أي أحاط به الإكليل التاج وسمي بذلك لإحاطته بالرأس وإكليل الظفر ما أحاط به من اللحم.

-أما لفظ ﴿أَجْمَع﴾ فيدل على الضم والاجتماع ولهذا الفرق بينهما تقول: حضر القوم كلهم تريد الدلالة على الإحاطة والشمول في الإفراد أي لم يتخلف واحد منهم.

وتقول: حضروا ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تريد الدلالة على الاجتماع في الأفعال أي لم يتأخر واحد منهم، فيكون الأول تأكيد لمعنى الوحدة في الفاعل، والثاني تأكيد لمعنى الوحدة في الفعل، ويكون ذكرهما معاً في الآية الكريمة لإحكام البيان في صفة السجود وهيئته ليدل بالأول ﴿كُلُّهُمْ﴾ على عموم الامتثال وبالثاني ﴿أَجْمَعُونَ﴾ على سرعة الاستجابة، وبهذا يكون التأكيد بـ ﴿كُلُّ﴾ لإفادة العدد العديد، فصار فرداً واحداً في امتثال الفعل ويكون التأكيد بـ ﴿أَجْمَع﴾ لإفادة أن العدد العديد صار فرداً واحداً في حركة الفعل[1].

وقد سئل المبرد عن اجتماع اللفظين في الآية فقال: لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال ﴿كُلُّهُمْ﴾ زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا، ثم بعد ذلك بقي احتمال آخر وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد منهم في وقت آخر، فلما قال ﴿أَجْمَعُونَ﴾ ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة في وقت واحد[2].

---

[1] النور المبين في تدبر آيات من القرآن الكريم، زين محمد شحاته، مصدر سابق، 674/1.

[2] شحاته، المرجع نفسه، 675/1.

ثالثاً: قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْــجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْــتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝ قَالَ فَـاخْرُجْ مِنْهَـا فَـإِنَّـكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْـكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الـدِّينِ﴾ [ص:74-78]

1- ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص:74]:

إن إبليس لم يسجد لآدم وامتنع عن السجود، وبينت الآية سبب الامتناع وهو الاستكبار والكفر، فجوهر فساد إبليس الكبر ورفض السجود والاعتراض على الله في شريعته وحكمته، والكبر مانعٌ من دخول الجنة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس[1].

ومعنى الحديث: مثقال ذرة: زنة ذرة.

- بطر الحق: هو أن يجعل ما جعله الله حقاً من توحيده وعبادته باطلاً، وقيل: هو أن يتجبر عند الحق فلا يراه حقاً، وقيل هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله.

[1] صحيح مسلم: رقم 147، التدبر والبيان، المغراوي، مصدر سابق، 405/1.

-غمط الناس: الغمط الاستهانة والاستحقار، ومع أن الله سبحانه يعلم السبب الذي دفع إبليس إلى عدم السجود فإنه سأله، وذلك ليتكلم إبليس ويظهر ما في نفسه ويعترف بلسانه، ولتكون عقوبته بعد تسجيل اعترافه كما سيأتي بيانه.

إن إبليس لعنه الله تعظَّم وتكبَّر عن طاعة الله في السجود لآدم، والاستكبار هو سبب الإباء والامتناع، والتعليل له والباعث الذي حمل صاحبه على عدم التنفيذ، وبذلك يكون ترتيب خطوات تمرد إبليس هكذا: استكبار إبليس وهو سبب هلاكه، وهو الذي دفعه إلى الإباء والامتناع وهذا الإباء قاده إلى الكفر وبذلك خسر الدنيا والآخرة.

وعبَّر عن كفره بلفظ الماضي: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ للإشارة إلى ما علمه الله عنه منذ الأزل، قبل أن يخلقه، أي إن الله كان يعلم ما سيفعله إبليس قبل أن يخلقه وأنه سيرفض أمره ويكفر به أو يكون قائد الكافرين، ولما ظهر تمرد إبليس فعلاً وكفر في عالم الواقع تحقق بذلك ما علمه الله عنه منذ الأزل فمعنى قوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، كان إبليس في علم الله من الكافرين[1].

إن إبليس أول مخلوق أخبرنا الله تعالى بكفره ولم يخبرنا تعالى بكفر أحد قبله، حيث لم يثبت بدليل صحيح وجود كافرين قبل إبليس، وما استند إليه من حديث ابن عباس لا يُحتج به، كما قال ابن كثير، بل ذهب أكثر أهل العلم إلى أن إبليس أول من كفر بالله[2]، فهو إذن من الكافرين الذين وافقوه في الكفر بعد ذلك على اعتبار أن الخطاب

[1] سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مصدر سابق، ص80.

[2] عداوة الشيطان للإنسان، عبد المنعم الحواس، مصدر سابق، ص 225.

في الآية موجّه إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ بين حدوث قصة إبليس وصدور الكفر منه وبين بعثة النبي صلى الله عليه وسلم قرون كثيرة كان فيها كثير من الكافرين، كفرعون وهامان وقارون ونمرود وغيرهم، فهؤلاء الكافرون بالنسبة إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم ماضٍ غابر، وإبليس كذلك، وعليه فإن إبليس من الكافرين الذين وُجدوا فعلاً قبل زمن المخاطبين والله تعالى أعلم[1].

2- ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْـجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْـتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص:75]

أي: لما خلقته بنفسي بلا واسطة أب وأم، وهو سؤال توبيخ وإنكار، وترتيب الإنكار على خلق الله تعالى آدم بيديه أفاد تأكيد الإنكار، وتشديد التوبيخ، كأنه قال: ما منعك أن تكرِّم بالسجود من هو أهل للتكريم، لكونه المخلوق الذي خلقته بيدي.

وفي حديث محاجة آدم وموسى عليه السلام ما يدل على أن المخلوقية بها وصف تعظيم؛ حيث قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله تعالى بيده[2]، وفي هذه الآية إثبات اليدين لله سبحانه على الوجه اللائق بجلاله وكماله[3]، وهذه الآية استدل بها علماء السلف في إثبات صفة اليدين لله عز وجل، والآيات في إثبات صفة اليدين لله واضحة وكذلك الأحاديث النبوية وإجماع السلف.

---

[1] المرجع السابق، ص 226.

[2] مسلم، رقم 2652.

[3] البخاري، رقم 6565.

-قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:64].

-قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:75].

والأدلة من السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم: إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمان عز وجل وكلتا يديه يمين، والذين يعدلون في أهلهم وحكمهم وما ولوا[1].

وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك[2].

وأجمع السلف على إثبات اليدين لله فيجب إثباتهما له بدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل وهما يدان حقيقيتان لله تعالى يليقان به[3]، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى صفة اليد بالإفراد والتثنية والجمع:

-ففي الإفراد مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:1].

-وفي التثنية كقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:64].

-وفي الجمع كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس:71].

والتوفيق بين هذه الوجوه أن نقول:

الوجه الأول مفرد مضاف فيشمل كل ما ثبت لله من يد ولا ينافي الثنتين، وأما الجمع فهو للتعظيم لا لحقيقة العدد الذي هو ثلاثة فأكثر وحينئذ لا ينافي الثنتين على أنه قد

---

[1] مسلم، ك الإمارة، فضل الإمام 1458/3.

[2] مسلم، ك صفة المنافقين رقم 2788.

[3] لمعة الاعتقاد، ابن قدامة، مصدر سابق، ص 49. من عقيدة المسلمين، الصلابي، مصدر سابق، ص 87.

قيل: إن أقل الجمع اثنان، فإذا حمل على أقله فلا معارضة بينه وبين التثنية أصلاً[1].

وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له، وإن كان خالق كل شيء وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمسجد، فخاطب الناس بما يعرفونه في تعاملهم[2].

-وفي قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي: أستكبرت عن السجود من غير استحقاق؟ أم كنت مستحقاً للعلو؟ وقد يكون المعنى أحدث لك الاستكبار؟ أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين؟ ولا شك أنه تعالى يعلم حقيقة إبليس وسؤاله له سؤال توبيخ وتقريع[3]، وإنكار لامتناعه عن السجود[4].

3- ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص:76]:

وقول إبليس هذا يدل على أنّه رأى لنفسه فضلاً على آدم بأصله، مع أن الفضل لا يكون بالأصل وإنما بطاعته لله تعالى، وامتثال أمره، فاستحق بسبب تكبُّره طرده ولعنته[5].

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ جملة كبيرة مليئة بكل معاني الأنانية والتكبّر والانتفاش والاستعلاء، وكانت سر هلاك إبليس وخسارته، ودفعته إلى التمرّد على الله وعصيانه، وهذه الجملة نفسها هي سر هلاك كل مستكبر متعال تملك عليه أنانيته حياته، فلا يرى إلا نفسه

---

[1] لمعة الاعتقاد، ابن قدامة، مصدر سابق، ص 50.

[2] تفسير القرطبي، مصدر سابق، 200/15.

[3] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، 228/7.

[4] تفسير القرآن الكريم، شحاته، مصدر سابق، 4691/12.

[5] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، 228/7.

متكبرة منتفشة، تلغي كل ما سواها وتملأ الأماكن والمواضع كلها، ويتصرف على هذا الأساس؛ فيذل ويحقر ويزدري، ويطحن، ويسحق ويتطاول على من سواه ويرفض أن يخضع لله سبحانه.

هذا المرض النفسي الخطير الذي انتقل للمتكبرين من إبليس وجعلهم جنوداً له، قاله أول مرة عن آدم ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ فأصابت العدوى كل واحد من هؤلاء المستكبرين المعقّدين ونادى بأنانية واستعلاء ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾[1].

إن الأنانية العمياء والتعاظم وانتفاخ ال (أنا) نقيض العبودية لله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، كما أن الحسد من شر الأدواء التي تمنع من قبول الحق والانقياد له، لذا يجب على المسلم الاحتراز من الكبر والحسد لأنهما إثمان عظيمان.

قال الإمام الرازي: إن إبليس وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، كما أن العنصرية البغيضة المقيتة والتفاخر بالأصل والفصل، والأب والجد والقبيلة من أسباب الفساد العظيم: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، وهذا هو الكبر الصّراح الذي يتعلل به كثير من بني البشر حيث يعتزّون بأجناسهم وأحسابهم على غيرهم من البشر، وقد يكون من بني جلدتهم أو من أهل لسانهم أو ربما من أقربائهم[2].

ويظهر من قصة إبليس مع آدم عليه السلام جهل إبليس في افتخاره بمادته التي خلق منها؛ جهل ظاهر من وجوه: الأول: أن أصل بعض الأشياء النفيسة خسيس أو نجس

[1] سيرة آدم، الخالدي، مصدر سابق، ص 86.

[2] العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، الشهراني، مصدر سابق، ص 63.

أو قذر؛ فالمسك من الدم، وجوهر الألماس من الكربون الذي هو أصل الفحم والأقذار التي تُعاف من مادة الطعام الذي يُحب ويُشتهى، والثاني: أن الملائكة خلقوا من النور والشيطان خلق من مارج من نار وما فوقه دخان وما تحته لهب صافٍ ولا شك أن النور خير من النار، والملائكة على قدرهم وحسن خلقهم امتثلوا لأمر الله وسجدوا لآدم، فكان هو أولى بالسجود.

وإذا سلمنا جدلاً أن خيرية الشيء نابعة لأصله الذي خلق منه، فلا نسلِّم أن النار خير من الطين، فإن جميع الأحياء النباتية والحيوانية في هذه الأرض مخلوقة من الطين بالذات أو بالواسطة، وهي خير من النار بكل نوع من أنواع الاعتبارات التي تعرفها العقول، وليس للنار مثل هذه المزايا ولا ما يقرب منها[1]، ويظهر جهل إبليس وحُمقه حين غفل عما خصّ الله به آدم من خلقه بيده والنفخ فيه من روحه، وشرّفه بسجود الملائكة له وجعله أفضل من الملائكة وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة والطاعة[2].

كما أن العناد والضلال يوردان المرء الموارد الوبيلة ويسوقانه سوقاً إلى التردي في مهاوي الهالكين، وهذا ما حصل لإبليس حين عاند ورد أمر الله وافتخر وتكبّر بأصله وامتنع عن السجود، ولم يتنازل عن مبدئه مع علمه بهلاكه، نعوذ بالله من غضبه وأليم عقابه[3].

إن معصية إبليس معصية عظيمة وخطيرة، ولهذا كررها الله في القرآن الكريم وأعادها

---

[1] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مصدر سابق، 8/331-332.

[2] العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، الشمراني، مصدر سابق، ص 64.

[3] المرجع نفسه، ص 64.

بضع مرات لنعتبر منها على غاية الحذر، ومعصية الكبر أو ما يسمى جنون العظمة يؤدي في الغالب إلى الكفر –والعياذ بالله–لأن المتكبر لا يرى غيره، فيغمط الناس حقوقهم ويرد الحق ولو كان مثل الشمس[1].

4- ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص:77]:

- ﴿قَالَ﴾: أي الله عز وجل وعبر بالضمير ضمير الغائب.

- ﴿فَاخْرُجْ﴾: الفاء تفريع على ما قال وكأنها جواب على رده والخروج المغادرة مطروداً مبعداً مدحوراً مذموماً.

- ﴿مِنْهَا﴾: الضمير في منها محير: فهل المقصود من السماء؟، أم من الجنة؟، أم من الحضرة كما يقولون؟، أم من الرتبة أم من هذا الجوار والقرب والكرامة؟، أم من هذه جميعاً وأظن الأمر شاملاً كل ما ذكر وما لم يذكر.

- ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾: هذه الفاء عللت ما بعدها، أي الإخراج وإن توكيد وكاف الخطاب لإبليس.

ورجيم: مرجوم مع الطرد والإبعاد، رجم وإرصاد والرجم واحد من واجبات الحج... للتذكير باستحقاق الشيطان لذلك.

ورجيم معناه: ملعون لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد[2].

---

[1] المرجع نفسه، ص 64.

[2] تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص 225.

وقال مخلوف: رجيم مطرود من الرحمة مرجوم بالشهب[1].

وقال أبو زهرة: ورجيم: معناها مطرود مرجوم بالحجارة[2].

وقال عبد الله شحاته: مطرود من رحمة الله وفضله وعنايته وهدايته[3].

5- ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص:78]:

وإن عليك لعنتي وغضبي إلى يوم القيامة، فقد حلت لعنة الله بإبليس فأقصته عن مظاهر الرحمة دوماً من غير انقطاع.

- ﴿وَإِنَّ﴾: الواو للعطف وإن للتوكيد.

- ﴿عَلَيْكَ﴾: حرف جر وكاف الخطاب تعود للشيطان بإضافتها إلى الله عز وجل، وأما في سورة الحجر فحلول اللعنة على إبليس بشكل عام ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنة﴾ من أجل أن يتحقق اللعن بشكله الجماعي من الله ومن الناس، وقد أخبر القرآن الكريم بأن هذه اللعنة ملاصقة لإبليس لا تنتزع عنه إلى يوم الدين حيث عقابه جهنم، إن إبليس من الذوات التي تحقق فيها لعن الله، لذلك يكون تأثيره جلياً بكل معاني اللعن من حيث الإبعاد والإقصاء[4].

إن اللعن هو الطرد من رحمة الله وقد خص إبليس بها من لحظة قيلت له إلى ما لا نهاية فإذا انتهت لعنة ما قبل الحساب بدأت لعنة ما بعد الحساب، إن جناية إبليس على

---

[1] نوفل، المرجع السابق، ص 226.

[2] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 4087/8.

[3] تفسير القرآن الكريم، شحاته، مصدر سابق، 4691/12.

[4] نصوص اللعن في القرآن، عمر الكبيسي، مصدر سابق، ص 372.

نفسه ليس لها حد ولا وصف ولا نظير ولا تصوير ولا تقريب[1].

إن السبب الرئيسي في لعن إبليس هي المعصية التي بدأت منه تجاه رب العالمين من التعالي والتكبر، والتمرد على أمر الله، والإصرار على المعصية وحسده لآدم عليه السلام وغير ذلك من الأسباب التي منعته من التوبة، والرجوع إلى الله، فأبعده الله مع السخط عليه[2].

رابعاً: قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:79-85]

1- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص:79]:

هذا طلب إبليس بعد أن سمع الحكم عليه من الله بالإخراج والإبعاد والطرد واللعن، فطلب كما بينت هذه الآية الإمهال إلى يوم البعث أو يوم الدين يوم تبعث الخلائق[3].

- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ قال: أي إبليس، رب: هو يعلم أنه الرب وأنه ربه ورب كل شيء، لكن أضل نفسه على علم فأضله الله، ولم يستخدم ياء النداء إما للقرب فهو في الحضرة نفترض أو للتقرب، أي ليُستجاب له، ويتودد في الوقت ذاته فإن مضمون كلامه

---

[1] تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص 229.

[2] نصوص اللعن في القرآن، عمر الكبيسي، مصدر سابق، ص382 إلى 385 مع التصرف.

[3] تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص 229.

التحدي وهو أهون وأقل من هذا التحدي، أوليس كل كافر يبارز الله ويعالنه الحرب ويشاقه ويحادّه ويعاديه ويشكل تحالفاً مع إبليس أعدى أعداء الله؟.

- ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: إلى يوم البعث لهذا المخلوق وذريته أو للخلائق أجمعين، لكن الذي يهمه الآن من بين الجميع هذا المخلوق الجديد وذريته، إنه يملك معلومات ويبني عليها ويمكر وفقاً لها، وما أسوأ طريق اللجاجة وما أبأس العناد وأسوأ من كل ذلك ما سبّبه وهو شعور الحسد والحقد، ألا فلتتنظف العقول والقلوب من كل هذه البقع السوداء والتشوهات والمشاعر السلبية[1].

لقد طلب النظرة إلى يوم البعث لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق العظيم، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكفر عن إثمه الجسيم، ولكن لينتقم من آدم وذريته جزاء ما لعنه الله وطرده، يربط لعنة الله له بآدم ولا يربطها بعصيانه لله في تبجح وتكبر[2].

2- ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [ص:80]:

هذا جواب الله عز وجل على طلب إبليس: ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ فأجابه الله ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أي كما طلب لا عن كرامة ولكن عن استدراج، ثم إن النص القادم سيبين أن الإنظار حاصل لكن ليس إلى يوم القيامة ولكن إلى الوقت المعلوم الذي يحدده الله، فمتى هو ولماذا هذا التعديل؟ فكل ذلك إلى علم الله مرده.

- ﴿قَالَ﴾: أي المولى الجليل سبحانه.

[1] المرجع نفسه، ص230.

[2] تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص 230.

- ﴿فَإِنَّكَ﴾: كأن الفاء واقعة في جواب الكلام كما وقعت الفاء في الجواب قبلاً فكأن المولى يقول له: ما دمت طلبت الإنظار، فإنك من المهملين المنظرين المؤخرين المؤجلين.. لكن إلى الوقت الذي أحدده وأعينه لا الذي تريده[1].

قال السعدي: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ليست إجابة الله لدعائه كرامة في حقه وإنما ذلك امتحان، والبلاء من الله له ولعباده ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير وشرح لنا ما يريده منا[2].

3- ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوم﴾ [ص:81]:

معناه إلى الوقت الذي علمه الله وحدده لا إلى الوقت الذي أردته أنت لتشتري الوقت وتؤخر عن نفسك العذاب إلى أقصى المستطاع وهو مدركك على كل حال[3].

إن إبليس سيذوق الموت حتماً لأن كل المخلوقات ستذوق الموت من قبل أن تقوم القيامة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمان:26]، وهكذا لم يفلت إبليس من الموت[4].

ولقائل إن يسأل: وكيف كلّمه الله؟

ويقول: لم يُكلّمه الله تشريفاً أو تكريماً، بل غلّظ له العقاب كما أن للحق سبحانه

---

[1] المرجع نفسه، ص 232.

[2] المرجع نفسه نقلاً عن تفسير السعدي، ص 232.

[3] المرجع السابق، ص 235.

[4] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 7702/12.

ملائكة يمكنهم أن يبلّغوا ما شاء لمن شاء[1].

وقد قال مخلوف: الوقت المعلوم وقت النفخة الأولى[2]، ولا نستطيع الجزم والقطع إلا بدليل قاطع لا بمجرد الفهم أو روايات المفسرين والله أعلم بمراده[3].

وتظهر بعض الحكم من إنظار إبليس إلى يوم الوقت المعلوم منها:

-أن الله سبحانه لما جعل إبليس محكاً يمتحن به عباده ليميز الطيب من الخبيث ويميز وليه من عدوه، اقتضت حكمته إبقاءه ليحصل الغرض المطلوب بخلقه، ولو أماته لفات ذلك الغرض[4]، وقد ذكرنا بعض الحكم في ما مضى من سورة الحجر.

4- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:82،83]:

عندما اطمأن إبليس إلى بقائه حياً إلى يوم الوقت المعلوم، تجرأ على الله وأقسم بعزة الله وجبروته وقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأضلن ذرية آدم أجمعين، أي لأحملنهم على الغي والضلال ولأكوننّ سبباً لغوايتهم وضلالهم بتزيين المعاصي لهم وإدخال الشكوك والشبهات فيهم، واستثنى فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام: الذين أخلصتهم واصطفيتهم لطاعتك وعصمتهم من الشيطان، وقرئ بالكسر على صيغة

---

[1] المرجع نفسه، 7702/12.

[2] صفوة البيان لمعاني القرآن، حسنين محمد مخلوف، مصدر سابق، ص 337.

[3] تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص 235.

[4] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مصدر سابق، ص 510.

اسم الفاعل، أي: الذين أخلصوا أعمالهم وقلوبهم لله تعالى من غير شائبة الرياء، قال بعض العلماء: العبد المخلص، هو الذي يكون سره بينه وبين ربه بحيث لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله.

ثم لا شك أن من العباد عباداً إذا رأى الشيطان أثر سلطنة ولايتهم، وعزة أحوالهم يذوب كما يذوب الملح في الإناء ولا يبقى له حيل، ولا يطيق أن يمكر بهم، بل ينسى في رؤيتهم جميع مكرياته ولا يطيق أن يرمي إليهم من أسهم وسوسته، بل مكره محيط به، لا بأهل الحق وهكذا حال ورثة الشيطان من المنكرين المفسدين[1] مع عباد الله المخلصين، فإنهم محفوظون بحفظ الله ومحصنين ضد غوايته وقد تكلمنا عن المخلصين في قصة آدم في سورة الحجر.

وقال السعدي في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يُحتمل أن الباء للقسم وأنه أقسم بعزة الله ليغوينهم كلهم أجمعين ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾: علم أن الله سيحفظهم من كيده ويحتمل أن الباء للاستعانة وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه وأنه لا يضل أحداً إلا بمشيئة الله تعالى فاستعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم هذا وهو عدو الله حقاً[2]، ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون المقرُّون لك بكل نعمة، ذريّة من شرفته وكرمته فنستعين بعزتك العظيمة، التي أوصلت إلينا بها ما أوصلت من النعم الدينيّة والدنيوية، وصرفت بها عنّا ما صرفت من النقم، أن تعيننا على محاربته وعداوته والسلامة

[1] حدائق الروح والريحان، محمد الأمين بن عبدالله الهرري، 24/420-468.

[2] تفسير السعدي، مصدر سابق، ص 1504.

من شرّه، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[1].

5– ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:84،85]

– ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ قال سبحانه وتعالى الحق والأمر الثابت، ولا يقول سبحانه سوى الحق فهو سبحانه الحق ولا يقول إلا الحق[2]، فالحق وصفه سبحانه والحق قوله سبحانه[3] دائماً، والقرآن الكريم يؤكد الإشارة إليه في شتى صوره ومناسباته ومواضيعه، فالله خلق السماوات والأرض بالحق وأرسل الرسل بالحق وأنزل الكتب السماوية بالحق وأمر بالحكم بين الناس بالحق، ثم يجيء ذكر الحق في سياق قصة آدم عليه السلام مع عدوه إبليس على لسان القوي العزيز سبحانه ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ فهو الحق الذي تتعدد مواضعه وصوره وتتحد طبيعته وكنهه ومنه هذا الوعد الصادق.

– ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهي المعركة إذن بين الشيطان وأبناء آدم، يخوضونها على علم والعاقبة مكشوفة في وعد الله الصادق الواضح المبين،

---

[1] المرجع نفسه، ص 1504.

[2] تفسير القرآن الكريم، شحاته، مصدر سابق، 4692/12.

[3] تفسير السعدي، مصدر سابق، ص 1504.

وعليهم تبعة ما يختارون لأنفسهم بعد هذا البيان وقد شاءت رحمة الله ألا يدعهم جاهلين ولا غافلين فأرسل إليهم المنذرين[1].

خامساً: قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:86-88]:

1- ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:86]:

إنها الدعوة الخالصة للنجاة بعد كشف المصير وإعلان النذير، الدعوة الخالصة التي لا يطلب صاحبها أجراً وهو الداعية السليم للفطرة، الذي بنطق لسانه لا يتكلف ولا يتنطع[2]، وبينت الآية الكريمة براءة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم من أي مطلب دنيوي كما بينت الآيات صدقه في تلقي الوحي وتبليغه، فكل ذلك من أدلة صدقه وصحة رسالته[3].

2- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص:87]:

أي: ما القرآن إلا ذكر للعالمين فالضمير عائد على القرآن الكريم، فرسالة القرآن الكريم عامة شاملة للعالمين[4].

---

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 5029/5.

[2] سيد قطب، المرجع نفسه، 5029/5.

[3] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، 330/7.

[4] المرجع نفسه، 330/7.

3- ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:88]:

ولتعرفن خبره وأثره وفضله بعد وقت من الزمان حين يظهر فضل القرآن، ويسطع نوره في المشارق والمغارب، وتفتح البلاد وتنضوي تحت علمه بلاد الفرس والروم وشمال افريقيا ومعظم بلاد العالم في ذلك الحين[1].

فلم يمر وقت طويل على نزول هذه الآية الكريمة حتى شهدت البشرية أعظم وأعمق تحول في تاريخها الفكري والسياسي والتشريعي، ولا يزال العلم يكتشف كل يوم كثيراً من الحقائق العلمية التي ورد الخبر فيها في بعض آيات الذكر الحكيم إشارة أو تصريحاً، فيزيدنا تصديقاً بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلماً بأن القرآن الكريم كلام الله الذي يعلم السر وأخفى[2].

ومن معاني تفسير الآية الكريمة: أن المراد: ستعلمون صدق القرآن عند موتكم وعند البعث والحشر، والحساب والجزاء وكان الحسن البصري يقول: يا ابن آدم عند الموت يأتي الخبر اليقين، اللهم اختم لنا بالإيمان والإسلام يا رب العالمين[3].

---

[1] تفسير القرآن الكريم، شحاته، مصدر سابق، 4692/12.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، 230/7.

[3] تفسير القرآن الكريم، شحاته، مصدر سابق، 4692/12.

المبحث الثامن: هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض وقصة النبي آدم عليه السلام:

أولاً: هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض:

شاء الله أن تنتهي أحداث قصة آدم في الجنة بعدما تاب وأناب وتاب الله عليه واجتباه واصطفاه، وأمر الله بإهباط الثلاثة إلى الأرض: آدم وزوجه حواء، وعدوّه إبليس، وقد جاء ذكر الهبوط في آيات عديدة قد تمّ تفسيرها وبيانها في مواضعها في كل من سورة البقرة، والأعراف، وطه، وهي:

- قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:36].

- وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۝ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:24،25].

- وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:123].

هيأ الله آدم وحواء للأرض قبل أن يهبطا إليها فإنه لما كانت الحياة على هذا الكوكب الجديد، ككوكب الأرض تقتضي معرفة أحواله وماضيه وكيفية التعامل معه وأساليب العيش والأكل والشرب والزراعة والعمل والطبخ وطرائقه، والسعي في الأرض بما يقيم حياة الإنسان، ويحقق مبدأ الخلافة فيها وعمارتها، فقد هيأ الله سبحانه لآدم ذلك كله وكان

أول ذلك ومبدأه تعليمه أسماء الأشياء في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 31].

ويدخل من ضمن المقصود بذلك أسماء الأشياء والمخلوقات وأسماء الأفعال، كالقيام والقعود والحركة والسكون وغير ذلك، وكان ذلك إشارة واضحة إلى أن آدم هو المنوط به عمارة الأرض والإقامة فيها وجاء في تفسير ابن كثير: عن أبي موسى قال: إن الله حين هبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير[1]، ومن ذلك أن آدم وأمنا حواء هما أصل البشرية التي بث الله منهما الناس فتكاثرت ذريتهما وانتشرت في الأرض.

-قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

أي وذرأ منهما -أي من آدم وحواء- رجالاً كثيراً ونساءً ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر[2].

1- الحضارة الإنسانية على الأرض:

ومع نزول آدم وحواء إلى الأرض ومع هذا الواقع الجديد رضي آدم وزوجته بما قدر الله سبحانه وتعالى عليهم وقبلوا بهذه الحياة الجديدة وبهذا الواقع الصعب والمؤلم مقارنة مع

[1] قصة الخلق، محمد الخزعان، مصدر سابق، ص 303.

[2] قصة الخلق، محمد الخزعان، مصدر سابق، ص 304.

ما كانا عليه من رغد العيش والنعيم الذي كان في الجنة، وبدأ آدم يتأقلم مع ظروف الحياة الجديدة فقد أوحي إليه كيف يتأقلم مع هذه الحياة ويدير شؤون معيشته، ومن ثم تزوج حواء وأنجب منها الأولاد العدد الكثير[1].

أ- الزواج والتناسل:

إذا كان آدم عليه السلام هو أصل البشرية، الذي خلقه الله بيده من طين لازب، ثم خلق الله زوجه بقدرته سبحانه كما شاء وأراد فإنه سبحانه جعل توالد ذريته وتناسلهم بصورة أخرى من صور الخلق البديعة العظيمة، التي تدل على قدرة القادر العظيم والخالق المدبر لما يشاء كما يشاء، فقد جاء خلق آدم بطريقة، وخلق حواء بطريقة غيرها، وجعل سنة الخلق في ذريتهما بصورة كذلك، ليدل ذلك على تنوع القدرة وتعدد صورها وليعلم الناس أنه: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:16][2].

وقد تحدّث القرآن الكريم عن أول لقاء جنسي بين آدم عليه السلام وزوجه في الأرض:

-قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:189]، بينت الآية الكريمة أن الله تعالى خلقكم من نفس واحدة وهي نفس آدم عليه السلام وجعل منها زوجها حواء؛ ليأوي إليها لقضاء

---

[1] تفاحة آدم، بشير محمد، مصدر سابق، ص 200.

[2] قصة الخلق، الخزعان، مصدر سابق، ص 309.

الحاجة واللذة، فلما تغشّاها وتدثّرها لقضاء حاجته حملت منه حملاً خفيفاً، وكذلك هو حال حمل المرأة من زوجها، فإن حمل ماء الرجل حمل خفيف عليها، ومرّت به أي استمرت بها قياماً وقعوداً حتى أتمت الحمل، فلما أصبح ثقيلاً بعد أن كان خفيفاً ودنت ولادتها، هناك دعا آدم عليه السلام وحواء ربهما أن يكونا من الصالحين، إذا كان ما في بطنهما صالحاً في الخلق وصالحاً في الدين وصالحاً في العقل والتدبير[1]، ونلاحظ في الآية الكريمة:

-أدب الحديث عن الجنس، فالقرآن يتحدث عن أول لقاء جنسي في البشرية، كما يتحدث عن طبيعة اللقاء الجنسي بين الأزواج بغاية من الأدب والحس، فلا يجرح شعوراً ولا يخدش إحساساً، بل يشير إلى ذلك بعبارة بسيطة في لفظها وارفة بظلالها كثيرة بفوائدها مترامية بآدابها، فالإنسان أو المسلم إذا أراد أن يتحدث عن واحدة من مسائل الجنس ومفرداته، في أي حال من أحواله في وقته وزمانه عليه أن يلتزم الأدب الجم وهو يصف أمراً أو ناهياً أو مسترشداً، فقد عبر القرآن الكريم عن الجماع وكنّى بألفاظ غاية في الأدب والترفع، فإذا شعر الإنسان بحرج من لفظ ما أمام الناس، فليعلم أنه حاد طريق الأدب ونزل عن الترفع[2].

-الحمل في بداياته خفيف لا تشعر به المرأة ولا تشعر بثقله إلا بعد أشهر على التدريج، ولو شعرت بثقله للتوّ وفور الجماع لما استطاعت أنثى حمله، لكنها رحمة الله

---

[1] التربية الجنسية في الإسلام، عبد الرحمن داود، مصدر سابق، ص 243.

[2] المرجع نفسه، ص 244.

تعالى بالإنسان وعنايته به، سواء أكان في ذلك الجنين أم الأم أو الأب، فاستحق الله تعالى مزيداً من الشكر والعبادة على ذلك، من المرأة والرجل على الفور ومن الجنين على التراخي، ألا ترى المرأة تجب عليها الصلاة كل وقتها وهي حامل، ولا تعذر بتركها أو التقصير فيها، كما هو حالها أيام حيضها أو نفاسها.

- الولادة عملية إنتاج إنسان من إنسان، وهي بحاجة إلى كثير من الدعاء والتوجه إلى الله تعالى، فهي لحظات صعبة وشديدة على الأم الوالدة ولا يملك الفرد منا أن يكافئ أمه بشيء من آلام الطلق والولادة حتى لو طاف بأمه على عاتقيه الكعبة بالحج، روى البخاري في الأدب المفرد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً يمانياً يطوف بالبيت، حمل أمه وراء ظهره، يقول: إن لها بعيرها المذلل إن أذعرت ركابها لم أذعر، ثم قال لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: يا ابن عمر أتراني جزيتها؟ قال: لا ولا بزفرة واحدة[1].

وهكذا بدأت الحياة على الأرض بالتزاوج والتكاثر والتوالد ولا بد أن آدم مع شريكة حياته أدار ما حولهم من أمر الأسرة وتوزيع الأدوار وحل المشكلات بطريقة مناسبة وسعوا إلى معرفة نواميس الكون من حولهما وتحقيق العبادة لله وعمارة المعمورة، ونرى في قصة الخلق والتكليف والإعمار أن السيدة حواء عليها السلام لم تغب عن مسرح الأحداث وإنما كانت في ظل آدم عليه السلام بالمعنى الخفي وليس المبهم الغامض، فهي شريكة في كل التكاليف الشرعية والعمرانية والتربوية وغيرها من المهمات التي تحس المرأة بواجب

[1] التربية الجنسية في الإسلام، عبد الرحمن داود، مصدر سابق، ص 245.

الوقوف مع زوجها راعية له معينة على همومه ومواجهة المشكلات التي تعترضه.

والكرامة للجنس البشري في عمومة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ﴾ [الإسراء:70]، وبنو آدم ليسوا ذكوراً فحسب، وإنما هم ذكور وإناث، وجمع الله تعالى الجنسين على التعميم في ﴿بَنِي آَدَمَ﴾ وهذا في أكثر من آية في القرآن وفي مواضع متعددة، لأن قصة البشرية كانت قد بدأت في الشريكين آدم وحواء واستمرت في ذريتهما وما زالت وستستمر، فالتكريم لم يكن فيه استثناء لنوع من النوعين الذكور والإناث، وإنما هو جامع لهما في التكليف والتكريم والتشريف والفضل من الله تعالى، فكان آدم وحواء عليهما السلام بطلين في قصة الخلق واستمرار النوع البشري، لقد كرّم الله تعالى الإنسان سواء كان ذكراً أو أنثى لإنسانيته.

فحواء عليها السلام شريكة لآدم في هذا التكريم وهذا التخصيص، كما هي شريكة له في الاستعدادات الكونية لمشاركته مسيرة الحياة على الأرض... من علم ومعرفة واستعداد فطري للعمل والتضحية وللمشاركة في إعمار هذا الكون[1].

كانت الحياة بين الأبوين بعيدة عن التنافر، بل كانا متآلفين وبينهما مودة ورحمة وحققا مفهوم السعادة للأسرة الإنسانية الأولى، وبذلك استطاعا تحقيق ما أراده الله من ذرية تخلف في الأرض ويقدر لهم العبادة والطاعة، ويختبرهم إبليس "عدوهم الأبدي" لهم ولذريتهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فيكون الخير للصالحين وجزاؤهم الجنة وحسن المآب، وطريق الشر للعاصين وجزاؤهم جهنم وبئس المهاد، وهكذا كان لأمنا

[1] الشخصية النسائية في القصة القرآنية، هدى عريان، مصدر سابق، ص .187

العظيمة "المرأة الأولى" مع أبينا العظيم "الرجل الأول" دور بارز في الكون الوسيع الفسيح[1].

إن الله تعالى جعل حواء مشاركة لآدم، فأصل الإنسانية "آدم وحواء، رجل وامرأة" خلقهما الله من نفس واحدة، فهي ليست مخلوقة هامشية لا دور لها في الحياة وإنما هي مثله تحمل نصيبها من تبعة التكليف ومسؤولية العمل والعبادة، لهذا فهي تخطئ وتحاسب على خطئها، فهي لم تحاسب لأن آدم أخطأ فقط.

بل هي شاركت آدم في الخطأ وأكلت من الشجرة التي أمرها الله أن لا يقربا منها ولا يأكلا، لذا تحملت ذنب ما اقترفته هي، وليس ذنب آدم وذلك بمقتضى كمال إنسانيتها واستقلال شخصيتها استقلالاً كاملاً كالرجل، فكل منهما مسؤول بما يعمله من خير أو شر وكل منهما محاسب على عمله ثواباً وعقاباً، فهي مصدر الحب الأمومي والتضحية السامية لزوجها وذريتها وطبيعي أن يكون لهما من علو الشأن والمكانة والاهتمام ما يتفق مع طبيعتها ووظيفتها المقدسة التي شرفها الله بها.

والرجل مسؤول والمرأة مسؤولة وكلاهما يكملان جوهرة الحياة في الدنيا والآخرة ولكل بريقه في هذه الجوهرة، لا يطفئ أحدهما الآخر، ويسرق بريقه.. بل كل منهما يضيء نوره ويستمده من إشعاع الآخر وبهذا نرى حواء شاركت آدم عليه السلام النسيان والخطأ والألم والانكسار، وطلب العفو والمغفرة من الله تعالى وشاركته في مسيرة الحياة في السماء والأرض وشاركته في تحقيق سنة الكون، وبدون دورها الأساسي في قصة الخلق، لم يكتمل

[1] المرجع نفسه، هدي عريان، ص .189

الحدث، وينمو ويتطور، ويصل إلى الهدف الإيجابي الذي سعت من أجل تحقيقه أمنا حواء وآدم أبو البشر في قصة الخلق، فلذلك دورها رئيسي في قصة الخلق لأنها ساهمت في نمو الحدث مع آدم عليه السلام إلى نهاية القصة[1].

إن بداية الحضارة الإنسانية الأولى في الأرض بدأت من خلال رجل وامرأة بتكوين أسرة صغيرة على الزواج الذي هو من سنن الله في خلقه، وفي الأرض كانت حوّاء أم الأمهات وقدوتهن في الأمومة وكل ما تقوم به النساء من أعمال، كانت حوّاء قد غزلت، ونسجت، وعجنت، وخبزت وعملت أعمال النساء كلها، ثمّ علّمت بناتها تلك الأمور لتستمر مسيرة البشرية إلى ما شاء الله، إلى أن يرث الأرض ومن عليها[2].

وآدم عليه السلام هو الأب لكل البشرية، ولم يكن قلقاً أو مكتئباً لأنه بلا أب، ولا حزيناً لأنه الرجل رقم (1) في أسرته، فهكذا أنت فكن، وأبناء آدم هم البشر وفيهم بيوت النبوة، آل ابراهيم، وآل عمران، وآل داوود، وآل محمد عليهم صلوات الله وسلامه، وفيهم بيوت الحكمة: كآل لقمان، وبيوت الزهد وهي كثيرة في هذه الأمة والأمم قبلها، كما فيهم بيوت المال وبيوت السلطة والجاه، وكل البشر المؤمنين والكافرين والمظلومين والظالمين والأتقياء والمجرمين هم من ذرية ذينك الوالدين الصالحين الطيبَيْن "آدم وحواء"، والأصل بينهما المساواة، من الأرض خرجوا وإليها يعودون ولا فضل لأحد منهم إلا بالخير والإحسان والتقوى، وأما عدد أولاد آدم في حياته، فلم يستوعبهم كتاب جامع ولم يأت

---

[1] الشخصية النسائية في القصة القرآنية، هدى عريان، مصدر سابق، ص 197.

[2] نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسنة، أحمد خليل جمعة، مصدر سابق، ص 52.

فيهم نص قاطع هل هم (240)، أم (40) أم (25)؟

عاش آدم مئات السنين على الأرض وشاهد الأولاد والأحفاد ومن بعدهم خلّد الله آدم بذريته ولدى كل الشعوب، وهل كانت حواء تلد توائم "ذكراً وأنثى"؟، ثم يزوّجون الذكر من الأنثى من التوأم الآخر نظراً لضرورة الحياة وعدم وجود غيرهم؟، وقبل أن تنزل الكتب السماوية بتحريم ذلك هناك من قال بذلك، وبعد ذلك اكتملت التشريعات مرحلة بعد أخرى بتطور الحياة البشرية، وتلك والآراء التي حولها قضية موغلة في القدم ولم يأت فيها نص هادٍ فلتبقَ إذن متروكة للمزيد من الأدلة خاصة وهي قضية لا ينبني عليها عمل[1].

إن الأخوة الإنسانية قائمة على النّسب الواحد لآدم وحواء وعلى الفطرة والطبيعة الواحدة، حيث يسهل فهم الآخر لأنه نظيرك في الخلق، وقد يكون المرء أخاك لأمك ولأبيك، ولكنه على غير دينك فتسميه أخاً وأخوة الدين أخص: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ علينا ألا نتنكر للنسب الواحد، ولا نتجاهل الفطرة المشتركة وعلينا ألا نجور على حقوق الأخوة الإسلامية التي تجمعنا بشركائنا في التوحيد والإيمان برسله، وبخاتمهم صلى الله عليه وسلم[2].

ب- توفر أسباب الحياة:

انطلق الأبوان العزيزان في تحقيق مهمة الخلافة في الأرض بالتناسل والتكاثر والزواج،

[1] علمني أبي آدم من الطين إلى الطين، العودة، مصدر سابق، ص 44.

[2] المرجع نفسه، ص 45.

وبدآ يتأقلمان مع الواقع الجديد واجتهد آدم في عمله في الأرض وساعده أبناؤه لما كبروا وتفننوا في الزراعة والصناعة وتربية الحيوانات، وطوروا أسلوب حياتهم لأنهم يملكون العقل الواعي الذكي الذي يستطيعون به اكتشاف أسرار الكون ومصادر الرزق، وأساليب الطبخ والأكل من النباتات ولحوم الحيوانات والطيور ... إلخ وثمار الأشجار وفاكهتها المتعددة الكثيرة من فضل الله ونعمته عليهم.

وبدأ يبني البيوت ليستتر فيها من كل ما يسوؤه، ويستمتع مع زوجه بشهوة الفرج وإنجاب الأولاد بكثرة ويحمي نفسه فيها من تقلبات الطقس ويتفنن في هندسة بنائها وزينتها[1]، وتطور اللباس فقد كان أول لباس مستقل لبساه "آدم وحواء" من ورق الجنة وتمت صناعته بطريقة الخصيف مثل الخرز، ويشبه الخياطة ويعني ضم أطراف الشيء بعضها إلى بعض، شبكها بعود أو نحوه وبهذا أصبح اللباس ستراً يواري عورة الإنسان ويعينه على احتشامه حتى من نفسه وزوجه إذا لم يكن ثمّ حاجة تدعو إلى ذلك، وكان آدم وحواء يستتران من بعضهما بهذا الورق المخصوف.

وكشف العورة بين الزوجين من غير داعٍ مستهجن، واللباس يحقق الحشمة والستر ويحقق الجمال والزينة والجاذبية في الوقت نفسه، وبهذا أصبح اللباس رمزاً للفطرة الإنسانية منذ نشأتها الأولى، فهو كان مع آدم وحواء أول ما تفتّقت فيهما روح الاجتماع والوصال واشتياق بعضهم لبعض، وتمّ التوازن بين الروح الأرضي والروح العلوي وبهذا أصبح اللباس جمالاً وزينة ويكفي أنه من ورق الجنة.

---

[1] تفاحة آدم، بشير محمد، مصدر سابق، ص 212.

وفي الأرض كانت ثيابهم من شعر الضأن؛ جَزُّوه، ثم غزلوه فنسج آدم جُبَّة، ونسجت حواء درعاً وخماراً، وكانت بداية الصناعة ومباشرة العمل باليد، لتدبير أمر اللبس فهو من ضرورات الحياة والصحبة والتعبد، وقد يجوز أن يكون ما نسجوا ولبسوا غير هذا ولكنه من جنسه.

وتوارث الأنبياء حب اللباس الجميل – حتى لبس خاتمهم صلى الله عليه وسلم- الجُبَّة والحُلّة والإزار والرداء، والقميص، وكان أصحابه يحبون أن تكون ثيابهم حسنة ونعالهم حسنة، وخافوا أن يكون هذا من الكِبر فقال لهم: إن الله جميل يحب الجمال[1].

وقد أصبح للباس وظيفة معنوية تشعر الإنسان بهويته البشرية وميزته الإنسانية وتذكّره بالعهد والميثاق الإلهي: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، فثمّ لباس ظاهر من الثياب الخاصة الشخصية أو العامة، التي هي الريش ولباس باطن من الحب والمودة والرحمة كما سمّى الله الزوجين: لباساً: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ ولباس الطيبة والخير والصلاح والتقوى كما قيل:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى

تقلّـب عُرياناً وإن كان كاسيا

وخير خصال المرء طاعة ربـــه

ولا خـير فيمن كان لله عاصيا[2]

---

[1] مسلم: رقم 91 من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

[2] ديوان أبي العتاهية، مصدر سابق، ص 434.

وإنزال اللباس قد يعنى إنزال المادة التي يُصنع منها أو المطر الذي ينبته أو إنزال الامتنان به وإباحته وتشريعه للبشر[1].

وبعض الناس يلبس أفخر الثياب للتجمعات ويذهب للصلاة في ثياب النوم وهذه غفلة عن وظيفة اللباس: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

واللباس الجميل فضل ونعمة، والاعتدال فضيلة، والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده وهو لا يحب المسرفين ولا يحب المتشدّدين المحرّمين بغير علم، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:32].

والحياء والحشمة للمرأة أوجب وألصق وأليق، واليوم نشكو من إسبال الرجال وتشمير النساء، وكشف المؤمنة البالغة لشعرها لغير ضرورة محرّم ومعصية، وهو مثل مخالفات يرتكبها الرجال علانية ويخالفون فيها شريعة الله، وليس هذا ولا ذاك من الكفر وليس مدعاة للوصم بالفجور، ولا الاعتداء والوقوع في أعراض المؤمنين والمؤمنات وإهدار حقوقهم[2].

كانت الحياة الإنسانية الأولى تشق طريقها على هذه الأرض، وعرف الأبوان وأولادهم وأحفادهم كيف يوفرون لقمة العيش واحتياجاتهم الحيوانية والنباتية والصناعية والسكنية و.. إلخ. فاستصلحوا الأراضي للزراعة وكان الماء متوفراً من الأمطار المحجوزة في أغوار

---

[1] علمني أبي مع آدم، سلمان العودة، مصدر سابق، ص 110.

[2] المرجع السابق، العودة، ص 112.

من التلال، وقد تمكنوا من صنع رحى لطحن القمح وكذلك محراثاً حجرياً وقطعوا أخشاب الأشجار العتيقة وبنوا كانوناً لطهي الطعام وتعلموا استخراج النار من قدح الأحجار الصخرية وكان الله عز وجل يلهم آدم مما علمه من أسماء الأشياء ووظائفها فهيأ لعائلته حياة طيبة رغدة، واستجابت له الأرض ومطر السماء بإذن الله عز وجل فأعطت من خيراتها الكثير الكثير وهذا من تسخير الله مخلوقاته للإنسان[1].

وبدأت تتشكل الأسر الإنسانية الأولى بتوجيهات نبي الله آدم عليه السلام التي نزلت عليه من الله عز وجل عن طريق الوحي، ومن تلك الأسر انطلقت الحضارة الإنسانية الأولى.

وبهذا يكون قد تم الأمر الرباني الذي أعلن في الملأ الأعلى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي كل ما جرى من أحداث في قصة آدم عليه السلام وزوجه لتكوين الجنس البشري خليفة في الأرض، ولكي يستمر في وجوده على هذه البسيطة لا بد أن يأكل ويشرب ويتناسل وينجب الأولاد، ولكي يحدث ذلك ركب الله فيه دوافع للطعام والشراب.. إلخ، وهذه الرغبات والشهوات جعلها الله سبباً في استمرار الحياة البشرية على الأرض ومن الطبيعي لكي يحصل الإنسان على ما يشتهي من طعام وشراب... إلخ، ليستمر في العيش على سطح هذه الأرض بكل سعادة ويتمتع بهاتين الشهوتين لا بد أن يعمل ويجد ويجتهد من أجل الحصول على ما يشتهي، ولهذا السبب وغيره مما هيأه الله قام بعمارة الأرض وبالغ في ذلك حتى وصل الإنسان إلى ما وصل إليه وكل ذلك

[1] قصة أبينا آدم، منصور عبد الحكيم، مصدر سابق، ص 162.

بجهده وتفكيره وتوفيق الله لبني الإنسان ليحصل على ما نراه من التطور الحضاري الحاصل الآن[1]، والذي هو في أشد حاجة لهدايات السماء ووحي الله عز وجل والرسالة الخاتمة المحمدية والتي فيها سعادة الإنسان المادية والروحية والعقلية والنفسية والوجدانية.

2-آدم عليه السلام داعية التوحيد والهداية الربانية:

إن آدم عليه السلام كان نبياً يعبد الله وحده، وعلم أبناءه التوحيد، فقد سئل النبي صل الله عليه وسلم عن آدم: "أنبيٌّ هو قال: نعم نبي مكلمّ خلقه الله بيده ثم نفخ فيه روحه"[2].

فالتوحيد هو المنهج الذي صحب البشرية منذ بدئها وعليه قامت الحياة وعمرت الأرض ومن أجله خلق الله الجن والإنس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. وأما الشرك والكفر والفساد والضلال فكل ذلك طارئ وانحراف عن أصل الخلقة والفطرة التي فطر الله الناس عليها[3].

وقد علّم آدم أولاده التوحيد والإيمان بالخالق وقصته مع الخالق المصور العليم الحكيم التواب الرحيم سبحانه وتعالى، وقد أدى رسالته الربانية إلى ولده، فقد كان أول الأنبياء الذي أوحى الله إليهم، ومن أهم العقائد التي علّمها لذريته، عقيدة التوحيد، وأنه ليس هنالك من خالق غير الله، فالله هو الذي خلق السماوات والأرض وخلق الملائكة والجن،

---

[1] تفاحة آدم، بشير محمد، ص 213.

[2] مسند أحمد: 5/265-266، اسناده صحيح.

[3] قصة الخلق، الخزعان، مصدر سابق، ص 305.

فلا يجوز أن يعبد من دونه شيء في السماوات أو في الأرض.

- وعلاقته بالملائكة وقضية خلقه وتصويره زوجه من الله عز وجل.

- وعرّف ذريته بأسماء الله الحسنى وصفاته كالعلم والحكمة والسمع والبصر

- وحقيقة الملائكة وعداوة إبليس وقصته وزوجه مع الجنة وكيف خرجوا منها، لحكمة أرادها الله عز وجل وكيفية الرجوع إليها هو وزوجته وذريته من أولاده الصالحين.

- وبين لهم خطورة المعاصي والذنوب وأهمية التوبة وطلب المغفرة والرحمة من الغفار التواب الرحيم سبحانه، وبين لهم الحياة البرزخية، والتي سيدخلها الإنسان بعد الموت، وأن الله يبعث من في القبور فيخلقهم من التراب مرة أخرى، وأن الناس سوف تحشر جميعاً ليوم الحساب، وكل من الحياة البرزخية والبعث يستدل عليها في خطاب الله تعالى لآدم وعدوه: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾.

- وبين لهم فناء الحياة الدنيا بأسرها وهو اليوم الذي جعله الله حداً أقصى لحياة إبليس، وأن لعنة الله على إبليس مستمرة إلى يوم الدين، وبعد ذلك سوف يكون مصيره إلى النار كغيره من الكفار.

- وبين لهم أن الله تعالى قد أعد للكافرين جهنم يملؤها بإبليس وأتباعه من الجن والإنس، وقد ذكر الله في قصة آدم عليه السلام أن جهنم هي النار التي شاء

أن يعذب فيها هؤلاء الكفار، وهم الذين كذبوا بآياته ولم يؤمنوا بها، وبيّن الله أن هذه النار دائمة وأن العذاب فيها مستمر، وأن أصحابها وأهلها يخلدون فيها وأنه لا يدخلها عباد الله المخلصون الذي لا سلطان للشيطان عليهم، وآدم عليه السلام هو بطل قصة بداية الخلق للجنس البشري، وبالتالي كل ما تحتويه من دروس وعبر وفوائد من طبيعي أن يحكيها لأولاده وأحفاده مع مشاركة أمنا حواء في ذلك.

- وبين آدم عليه السلام لأولاده وذريته أن خلود الكافرين في جهنم يقابله خلود في نعيم لمن اتبع هدى الله، وهذه المقابلة مبنية في الآيتين الكريمتين سابقتي الذكر، قال تعالى في قصة آدم في سورة البقرة ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ۝﴾ [البقرة:38-39].

وفي قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ﴾: نستطيع أن نذكر في هذه المناسبة ما نعتقده من أن كل آية صدرت بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ﴾ قد أنزل معناها في كتب الرسل ووحي الله إليهم منذ عهد آدم، أي: أنزلت بنصها على لسان أول رسول بعد آدم، أو على آدم نفسه وباللغة التي كان يتفاهم بها بنو آدم منذ نشأتهم على الأرض، وأنها أنزلت على خاتم النبيين، شأنها شأن الآيات الأخرى التي نزلت بلسان النبيين من قبل ونعتقد أنه بمراجعة هذه الآيات وتدبرها جميعاً، يظهر صدق ما نقوله ولنذكر هذه الآيات فيما يلي:

- قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف:26].

- قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 27].

- قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31].

- قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف :72].

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:70].

ومن الأدلة على أن هذه الآيات لكافة بني آدم في إرشاداتها وتوجيهاتها ابتداء من آدم عليه السلام، أن معظم الآيات باستثناء ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ نزلت بعد قصة آدم مباشرة في سورة الأعراف وبعد قول الله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:25].

وأن فيها ذكر التفضل من الله بإنزال اللباس الذي يواري السوأة، ولقد كان هذا اللباس من أول الأشياء التي أنعم الله بها على آدم، وعلى آدم وحواء، ويلاحظ في الآيات الكريمة شريعة الصلاة، والأمر بأشياء تتعلق بالشرب والأكل، وهي تعاليم ما كان الله ليؤخر إنزالها إلى ما بعد عهد آدم، ثم إن فيه كذلك التنبيه بإتباع الرسل والكتب المنزلة

والتفرقة بين المؤمنين ومآل كل فريق منهم، مما جاء مثله في قصة آدم نفسها.

ويلاحظ أن هذه الآيات صدرت بنداء بنى آدم على خلاف ما نراه من مناداة المؤمنين من أمة محمد بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ومناداة البشر عامة بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، ويلاحظ أن الله تعالى بدأ بمناداة الناس في فجر حياتهم بلفظ ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ وأنه سوف يناديهم يوم القيامة بنفس هذا اللفظ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ۝ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ۝ ﴾ [يس:60-65][1].

3- عبادة الله في الأرض:

أكرم الله آدم عليه السلام بالنبوة والرسالة الربانية، فبدأ يعبد الله كما علمه الله بتعليم رسالته الجديدة وبلغها لأبنائه، وبدأ يعلم أولاده من بعده شرع الله تعالى وعلى كيفية عبادة الله والإخلاص له وسعى بكل ما يستطيع أن يقيم شرع الله في الأرض وأن يحقق العدالة في خلق الله سبحانه وتعالى وعلى أرضه[2]. وقد كان أميناً على رسالة الله صادقاً في تبليغها لذريته عليه السلام، وقد غرس الأخلاق الأساسية في بنيه كالصدق والإخلاص والأمانة والعدل.

---

[1] الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، محمد وصفي، مصدر سابق، ص 36 إلى 47.

[2] تفاحة آدم، بشير محمد، مصدر سابق، ص 212.

حرص آدم عليه السلام على غرس عبادة الله في ذريته، وتحقيق العبودية لله قيمة كبرى تسمو بالإنسان إلى معالي الأمور وترفع مستواه على سائر المخلوقات، وتعتبر من القيم الكلية الكبرى والتي من أهمها العدل والإحسان والحكمة، وتعتبر قيمة العبودية لله عز وجل من أرقى القيم الإسلامية التي دعا إليها آدم عليه السلام وموكب الأنبياء والمرسلين من بعده.

والأنبياء والمرسلون وعلى رأسهم آدم عليه السلام ينظرون إلى العبادة على أنها شاملة لكل نواحي الحياة دون خروج شيء منها عن شرع الله تعالى ودون بتر وتجزئة لمفهومها العام.

ولا بد من التأكيد على أن العبودية: نوعان: عبودية عامة وعبودية خاصة.

العبودية العامة: عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله برّهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم، فالناس كلهم عباد الله، بل الأشياء كلها كذلك، فهي عبودية اضطرارية شاملة لجميع المخلوقات، وهي التي يسميها ابن القيم رحمه الله عبودية القهر والملك قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:43] فهذا يدخل فيه المؤمن والكافر.

ولا شك أن آدم عليه السلام النبي الكريم وصاحب المعرفة العظيمة والعلوم الغزيرة، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، فقد حدّث أولاده عن عظمه الله الخالق العظيم وعن مخلوقاته المتنوعة العابدة لله طوعاً وكرهاً، ومكانة الإنسان من هذه المخلوقات وعلاقته بها وأهمية إفراد الله عز وجل بالعبادة له.

العبودية الخاصة: وهي التي قام بها آدم وأمنا حواء غاية القيام، وحرصوا على غرسها في ذريتهم من الآباء والأحفاد: عبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر، وهي المأمور بها في نحو:

-قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:21].

-وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:42].

فالخلق كلهم: عبيد ربوبيته سبحانه، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلاهيته[1]، وهذه هي التي عليها المدار[2].

تعتبر العبودية لله أساس القيم كلها، فهي قيمة كلية شاملة مهيمنة على القيم الأخرى، بل وعلى الوجود الإنساني كله، وذلك لأنها تبدأ بالإيمان بالله رباً وإلهاً مشرعاً، وبرسله ابتداءً من آدم عليه السلام إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فقد جاءت تفصيليةً بصفتها التشريع المنزل من عند الله تعالى، لتحفظ للإنسان إنسانيته ولتحقق الغاية المنشودة من وجوده على وجه هذه الأرض على أكمل وجه، ثم تتمثل في الالتزام بهذا التشريع، وترجع أهمية هذه القيم العليا الكبرى إلى عدة أمور:

أ. أنها غاية الوجود الإنساني في هذا الكون ومن أجلها خلق الله الخلق قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]، فغاية وجود الإنسان على وجه الأرض هي عبادة الله وحده لا شريك له وإفراده بجميع أنواع العبادات القلبية

---

[1] المفردات، الراغب الأصفهاني، مصدر سابق، ص 8.

[2] القيم بين الإسلام والغرب، مانع بن محمد بنعلي المانع مع التصرف، مصدر سابق، ص 31.

والبدنية، مع كمال المحبة والخضوع والتذلل وتفريغ القلب عما سوى المعبود سبحانه وتعالى.

ب. أنها الغريزة الفطرية الكبرى في الذات الإنسانية تغذيها هدايات السماء وترشدها دعوة الأنبياء والمرسلين.

ج. أنها الغاية التي بعث الله تعالى رسله جميعاً بها، ابتداءً من آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام كما قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:56].

وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم من الرسل عليهم السلام لقومهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:63].

د. ارتبط التاريخ البشري منذ بداية الحضارة الإنسانية الأولى بهذه القيمة العظيمة، وسعى آدم وزوجه لتحقيقها في ذريتهما وكانوا على معرفة عظيمة بالله عز وجل، وخشية جليلة له، ومحبة غامرة في قلوبهم للودود الرحيم، فحققوا في ذلك المجتمع الوليد توحيد الله عز وجل وإفراد العبادة له.

فكانوا حريصين على ما يحبه الله ويرضاه، ونشر ذلك في أولادهم وأحفادهم بما في ذلك من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة من صلاة وحج، وصدق الحديث، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإحسان لخلق الله عز وجل، والدعاء والذكر وأمثال ذلك من العبادة، وإخلاص الدين لله وخشيته في السر والعلن والشكر لنعمائه والصبر على بلائه والرضى بقضائه والتوكل عليه، والرجاء برحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك من العبودية لله عز

وجل، فقد حقق آدم عليه السلام مقام النبوة والرسالة وكانت حواء مصدقه له وانعكس ذلك على جذور الحضارة الإنسانية الأولى في الأسر الجديدة التي قامت على التوحيد وعبادة الله، وهذا هو الأصل في الحياة الإنسانية وبداية انطلاقها، فالإنسانية إذن بدأت بالتوحيد وإفراد العبادة لله ثم انتهت شيئاً فشيئاً إلى الشرك والتعدد، فكان أول شرك وقع في بنى آدم في قوم نوح عليه السلام وقد فصلت ذلك في كتابي (نوح عليه السلام والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية).

ومهما يكن من شيء فإنه حينما انحرفت الإنسانية في عقيدتها شاءت إرادة الله أن يرسل نوحاً عليه السلام مبشراً بالحق في مجال العقيدة، وبالخير في مجال الأخلاق وبالعدالة في مجال التشريع[1].

- إن آدم وحواء عليمها السلام حققا العبودية المطلوبة منهما من الله عز وجل بعنصريها الحب والذل لله في غايتهما، ويعنى ذلك تلقائياً تحليهما بالفضائل وتخليهما عن الرذائل وذلك لأن تحقيق العبودية لله تعالى له أثر كبير في تسامي العبد خلقياً قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:45].

كما أن انحراف الإنسان خلقياً دليل على نقص في عبوديته وضعف في إيمانه وتعلق جزئي أو كلي نحو محبوبات أخرى سوى الله تعالى، مالاً أو جاهاً أو شهوة أو منصباً أو نحوها، فيرتكب في سبيل تحقيقها وإرضائها مالا يتوافق ويتناسب مع الفضائل الخلقية

---

[1] قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، مصدر سابق، ص 64.

المنبثقة من العبودية بصفتها قيمه عليا[1].

- إن آدم وحواء تحرروا من وسواس إبليس وتغلبوا على كيده ومكره وحققوا كامل الحرية الإنسانية، التي تنسجم مع الفطرة وتقنع العقل وترضي الوجدان البشري: فكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية وكلما ازداد عبودية ازداد له حباً وحرية مما سواه[2].

- إن العبودية لله تعالى تحرر الإنسان من العبودية لغيره فهي بذلك تحقق له منتهى الكرامة الإنسانية، فهي تزكي نفسه وتربطه بخالقه وترفعه بالتالي فوق عناصر الذل والهوان التي كان أسير شباكها وكلما بذل جهداً أكبر في تحقيق العبودية الخالصة تعالت نفسه وتسامت فازدادت كرامته وارتفعت تبعاً لذلك[3].

- تعد السعادة مطلباً عاماً لكل البشر، وهي في إطار قيمة العبودية ممكنة التحقيق إذا ما سعى إليها الإنسان وبحث عنها بكل جد ومثابرة، فالسعادة الحقيقية ليست مجرد تلذذ مادي وجسدي فحسب، وإنما السعادة التي يقابلها الشقاء منشؤها القلب، والقلب مرتبط بالله تعالى ومن ثم فسعادته إنما هي محبة لله تعالى، واتصاله به والعبودية له، وهي غاية كمال العبد وسعادته التي لا كمال له ولا سعادة له بدونها أصلاً، وكانت المحبة الصادقة إنما تتحقق بإيثار المحبوب على غيره من محبوبات النفوس واحتمال أعظم المشاق في طاعته ومرضاته[4]، وشقاؤه وتعاسته في البعد عن الله تعالى والانقطاع عن جانبه، قال

---

[1] القيم بين الإسلام والغرب مع التصرف، مانع بن محمد المانع، مصدر سابق، ص 33.

[2] العبودية، ابن تيمية، مصدر سابق، ص 33.

[3] القيم بين الإسلام والغرب، مانع المانع، مصدر سابق، ص 34.

[4] مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مصدر سابق، 113/1. القيم بين الإسلام والغرب، مانع المانع، مصدر سابق، ص 34.

تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ﴾ [طه:124].

وآدم وحواء عليهما السلام كانوا من أسعد خلق الله عز وجل مع التعب والمعاناة والمشقة، فقد كان الله بهما رحيماً، وعلمهما طريق التوبة، والإنابة، والعبادة، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:37]، والكلمات هي في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:23].

فقد عرفوا ربهما وأخلصوا له الحب والرجاء والخشية، وأصبح الله هو غاية مرادهما ونهاية مقصودهما، فحققوا حقيقة التوحيد والعبودية فكانت السعادة لهما من ثمرات ذلك وسار على هذا المنهج والطريق من أراد الله لهم الخير من ذريتهما ولم يقع في شباك إبليس اللعين.

4- آدم عليه السلام والبيت الحرام:

مما يذكر في هذا المقام ما ورد عن البيت الحرام ومكانه في الأرض، وأنه أول بيت وضع للناس في الأرض، وأن أول من بناءه آدم عليه السلام بقول الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:96].

فهو أول بيت وضع للناس يتعبدون الله فيه، يقول ابن كثير رحمة الله: يخبر تعالى أن

أول بيت وضع للناس – أي لعموم الناس– لعبادتهم ونسكهم ويطوفون به، ويصلون إليه ويعتكفون عنده[1].

ومما يتضح من كثير من الأحاديث أن أول بناء البيت الحرام كان من بدايات تاريخ البشرية على هذه الارض، قال ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة:127]، وضع – يعني إبراهيم– البيت على أركان رآها قبل أن تخلق الدنيا بألفي عام، ثم دُحيت الأرض من تحته، وقال مجاهد: خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة، وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى[2].

وقال القرطبي رحمه الله: اختلف الناس فيمن بنى البيت أوّلاً وأسّسه فقيل: الملائكة، وقيل: إن الله عز وجل أوحى إلى آدم: إذا هبطت ابن لي بيتاً ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف بعرشي الذي في السماء، فهذا بناء آدم علية السلام، ثم بناه إبراهيم عليه السلام بعد ذلك، وهذه الأقوال وإن كانت تستند على أدلة لا تخلو من مقال –كما ذكر ابن كثير رحمة الله–، إلا أن هناك أدلة أخرى صحيحة تؤكد أن الله عز وجل قد اصطفى موقع بناء البيت منذ خلق السماوات والأرض وأنه قد بني قبل بناء ابراهيم عليه السلام له، فمن ذلك ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أوّل مسجد وضع في الأرض قال: المسجد الحرام قلت: ثم أي؟ قال:

---

[1] تفسير ابن كثير، مصدر سابق، 383/1.

[2] قصة الخلق، الخزعان، مصدر سابق، ص 306.

المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال أربعون عاماً... الحديث. ومما هو ثابت أن بناء بيت المقدس الأخير كان من قبل سليمان عليه السلام، كما رواه النسائي بإسناده من حديث عبد الله بن عمرو ومن المعلوم زمنياً أن بين إبراهيم وسليمان عليهما السلام أكثر من أربعين سنة بدون ريب، إذ سليمان هو ابن داود عليهما السلام وقد جاءا بعد موسى وهارون بزمن كذلك، وهم من ذرية بنى يعقوب ابن اسحاق عليهم السلام، فدل ذلك على ما أثبته الحديث السابق، وهو أنه بناء غير بناء إبراهيم علية السلام فقيل: إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنّما جدّدا ما كان أسّسه غيرهما، وقد روي أن أوّل من بنى البيت آدم عليه السلام كما تقدّم فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاماً، ويجوز أن تكون الملائكة أيضا بنته بعد بنائها البيت بإذن الله، وكلٌ محتمل، والله أعلم.

وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه: أمر الله تعالى الملائكة ببناء بيت في الأرض وأن يطوفوا به وكان هذا قبل خلق آدم، ثم آدم بنى منه ما بنى وطاف به، ثم الأنبياء بعده، ثم استتم بناءه إبراهيم علية السلام.

ومن الأدلة كذلك ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم فتح مكة: إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة[1]، فقداسة هذا البلد وحرمته واصطفاؤه قديم قدم الأرض والسماوات، ويقول الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾

[1] قصة الخلق، الخزعان، مصدر سابق، ص 307.

[إبراهيم:37]، يدل على أن البيت كان قديماً – على ما روي- قبل الطوفان. فهذه أدلة متضافرة على تأكيد أقدمية بيت الله الحرام، وأنه أول موضع تجلى به التوحيد الخالص على وجه هذه الأرض والتأم فيه شمل المؤمنين لعبادة الله عز وجل.

غير أن البيت رفع –كما ورد في بعض الروايات–أو أنه تهدم بسبب الطوفان، ولم يبق منه إلا قواعده وأسسه، وتشتت الأمم في الأرض، ولم يعد البيت الحرام هو مرتكز النبوة والرسالة، فقوم هود في الأحقاف، وقوم صالح في الحجر، وقوم شعيب في مدين، وهكذا من بعدهم من الأمم، ولم يعد بناؤه إلا على يد أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام[1].

ولعل من أجل العبر والدلائل ما خص الله به هذه الأمة من رعاية هذا البيت العتيق، وأنه جعلها أمة البيت الحرام، وبعث الله هذا النبي الكريم محمداً صلى الله عليه وسلم من أهله، في إشارة إلى البشرية قد بلغت منتهاها، وآن لها أن تعود إلى ما كانت عليه في عهدها الأول أمة واحدة، كما هي في عهد آدم وذريته الذين كانوا على دين واحد هو التوحيد، لا تتعدد فيه الشرائع ولا يقبل الله من أحد غيره.

إن ميراث أمة محمد صلى الله عليه وسلم للبيت الحرام، الذي هو أول بيت وضع للناس دليل على أن قيادة البشرية تنتهي إليها، وأنها وريثة آدم في التوحيد والإيمان بالله عز وجل، وإفراد العبادة له وحده سبحانه وتعالى، وأنها الشهيدة على الناس قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

---

[1] الخرعان، المرجع نفسه، ص 308.

[البقرة:143].[1]

إن الحج ركن من أركان الإسلام الكبرى، يثبت العقيدة في نفوس المؤمنين حتى تقتفي آثار رسولها الكريم وتأخذ عنه مناسكها، أو حين تلبي نداء الله من قبل حين أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج:27-28].

كما أنه يزيد الصلاح حيث تجتمع فيه العبادات كلها من صلاة وصيام وصدقة وذكر الله تعالى وإخلاص في العبادة، وصبر على طاعة الله وطواف بالكعبة وغير ذلك من الأعمال، التي ينال بها الحاج رضوان الله ومغفرته، ومباهاته سبحانه بهم يوم عرفة ملائكته، إنه مؤتمر إسلامي عالمي يتساوى فيه الناس في المشاركة فيه ويتفاوتون في درجات العمل وصدق التوجه إلى الله، فلا يكتمل صلاح الفرد إلاّ بالحج المبرور الذي ليس له جزاء إلا الجنة[2].

5- البناء الأخلاقي للحضارة الإنسانية الأولى:

اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الأنبياء والرسل من المصطفين الأخيار، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:33].

---

[1] قصة الخلق، الخرعان، مصدر سابق، ص 308.

[2] الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي، علي الغامدي، مصدر سابق، ص 299.

فلا غرابة فالأنبياء والرسل جميعاً نماذج مثالية عليا في التربية الأخلاقية والسلوكية، فقد كان آدم عليه السلام حريصاً على تربية أولاده وأحفاده على جدار القيم الأخلاقية الأصيلة المستمدة من هدايات السماء التي أوحاها الله إليه، والإنسانية بفطرتها تميل إلى حب الخير والفضيلة، والله عز وجل منذ خلق آدم عليه السلام وبارك في ذريته يعلم ما يزكيه ويرفعه ويعلم ما يدنسه ويهبط به ويلغي إنسانيته، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:14].

فجاءت التعاليم الربانية لآدم عليه السلام هادية لبنيه وذريته إلى ما يصلح شأنهم عقيدةً وعبادةً وأخلاقاً، واجتهد آدم عليه السلام في رفع مشاعر أبنائه الإنسانية نحو الكمال المرغوب وحرص على تطهير نفوسهم من الأدران الأرضية وعمل على بناء لبنات صالحة يقيم عليها تأسيس الحضارة الإنسانية الأولى القائمة على النقاء والطهر والاتجاه الصادق نحو إرضاء الله وحده دون سواه[1]، ودعا آدم عليه السلام أولاده إلى محمود الأخلاق، ونهى عن مذمومها مسترشداً بهدايات السماء وما أعطاه الله من علم، وعقل يميز بين الخير والشر، والحق والباطل والصالح والفاسد.

وكانت أقواله وتوجيهاته مطابقه لسلوكه وأفعاله، وكانت طبيعة الأخلاق الإنسانية الأولى تستمد مبادئها وأصولها من وحي الله، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:38].

- والأخلاق المستمدة من وحي الله عز وجل ثابتة لا تتغير مع الظروف والأحوال،

---

[1] الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي، علي الغامدي، مصدر سابق، ص 301.

بل هي صالحة لكل الناس، ومناسبة لكل زمان ومكان، فالأخلاق ليست نسبية في الإسلام وإنما تنبع من حقائق خالدة، تستند إلى الوحي الإلهي[1].

– وهي معتدلة وموازنة لطبيعة الإنسان الذي خلقه الله عليها، والتي تتكامل فيها الجوانب المادية والروحية معاً عن طريق التربية المهذبة للأخلاق والموجهة لطبيعة الإنسان المزدوجة نحو السلوك اللائق به كمخلوق مكلف يحمل أمانة الإسلام الخالدة في الأرض، وهذا العامل الخير المتوائم مع فطرته الخيرة، وطبيعته الإنسانية الأصيلة المحبة للخير والفضيلة والرشاد، في سبيل محافظة الإنسان على إنسانيته يحتاج إلى نظام أخلاقي متزن يستطيع أن يدخل الاتزان عليه ويبقيه في دائرة فطرته السليمة[2].

– والأخلاق مرتبطة بالإسلام وشعائره الظاهرة، ومبادئ الأخلاق القيمية عند غاية واحدة لها طرفان أصيلان لا ينفكان عن بعضهما، الأول نصّ عليه الكتاب العزيز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]، والثاني نصت عليه السنة النبوية في قوله عليه الصلاة والسلام: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[3]. فالعبادات تساعد على تأصيل الأخلاق وممارستها في دورة الحياة كجزء أساسي من الحياة الإسلامية الرشيدة[4].

6- أصول الأخلاق والفضائل الإنسانية الأصيلة:

---

[1] الإسلام والتربية الاجتماعية، محسن عبد الحميد، مصدر سابق، ص 141.

[2] البخاري: رقم 1906.

[3] البخاري: رقم 1903.

[4] نوح والطوفان العظيم، الصّلابي، مرجع سابق، ص 306.

اتصف آدم عليه السلام وبنوه من الأنبياء والمرسلين بأفضل الصفات وأنبل الأخلاق والفضائل، وفي مقدمتها الصدق والأمانة والفطانة والبيان وغيرها، وقد تحدث القرآن الكريم عن أصول الدين وشرائعه الجامعة التي اتفقت عليها الرسل وهي متفق عليها في كل الديانات السماوية ومقررة في كل الشرائع العادلة كالوصايا العشر المذكورة في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:151-153].

فهذه الوصايا العشرة هي وصايا الله تعالى لبناء مجتمع إنساني كامل يبنى على أساس التعاون الإنساني، والمودّة ودفع الأذى ووقاية المجتمع من الآفات ورعاية الضعفاء.

- الوصية الأولى: النهي عن الشرك:

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾:

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هو الأمر الأول الذي حرّمه الله وهو أعظم الأمور وأقواها أثراً لأنه يتعلق بخالق الكون ومنشئ الوجود، وهو أصل الاعتقاد الديني وهو أول الشريعة

وعليه اجتمعت كل الرسالات، فالوحدانية لبُّ الإيمان، والله يجعل كل السيئات قابلة للغفران إلا الشرك.

وإن الوحدانية فيها تطهير للعقول من رجس الأوثان والإذعان للإنسان والأصنام، وهي تربي العزة في المرء فلا يخضع إلا لله الواحد الأحد، الفرد الصمد[1].

-الوصية الثانية: الإحسان إلى الوالدين:

قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

إن الإحسان إلى الوالدين برٌّ ممن جعلهم سبباً مادياً في وجود الولد، ولذا قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، فهذا هو الأمر الثاني وهي الوصية بالوالدين، والوصية بهما هي الإحسان إليهما، والإحسان مرتبة أعلى من العدل، إذ هو فوق العدل في الرحمة والرأفة فهو عدل ورأفة ووفاء وبرّ، ولذلك كان الأمر بالإحسان بجوار الأمر بالعدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:90].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:23].

-الوصية الثالثة: النهي عن قتل الأولاد:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:151].

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مصدر سابق، 2732/5.

-الوصية الرابعة: الابتعاد عن الفواحش وعدم الاقتراب منها ما ظهر منها وما بطن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، هذه الوصية الرابعة وهي تتصل بالنهى عن الفواحش والفواحش هي المعاصي، لأن فيها انحراف، والأصل في الفحش الزيادة عن المعقول والفطرة، والخروج عن مناهجها، وعن الطريق المستقيم، وما ظهر: ما يُعلن ويجهر به، والجهر في المعصية في ذاته حرام، وما بطن: أي ما استتر ولم يُجهر به وهو إثم، ولكنه دون إثم المجاهرة، ومن يجهر بالمعاصي فإنما يفعله إثمان، إثم الفعل وإثم المجاهرة[1].

-الوصية الخامسة: النهي عن قتل النفس بغير الحق:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾:

هذه الوصية الخامسة التي أوصى بها رب العالمين، ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ والإشارة إلى المذكور من النهى عن الشرك والأمر بالإحسان إلى الوالدين، والنهي عن قرب الفواحش وهو نهي عن المقاربة لا عن الوقوع، لأنه نهى عن أن يدنو منها، فمن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه، والنهي عن القرب يدل على النهي عن الوقوع، والإشارة تشمل النهي عن قتل النفس، فهذا كله من وصايا الله سبحانه وتعالى، ووصايا الله جديرة بالإتباع وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي ترجعون دائماً أن تكونوا متذكرين، و التوصية هي الطلب المؤكد من العباد[2].

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مصدر سابق، 2732/5.

[2] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مصدر سابق، 2735/5.

-الوصية السادسة: تحريم أكل مال اليتيم:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

-الوصية السابعة: الإيفاء بالكيل والميزان بالقسط:

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

-الوصية الثامنة: العدل وقول الزور:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾.

-الوصية التاسعة: الوفاء بالعهد:

قال تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾.

-الوصية العاشرة: اتباع الصراط المستقيم:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم: فإنه لما نهى الله وأمر، حذر هنا عن اتباع غير سبيله، فأمر فيها باتباع طريقه، فكل الوصايا هي طريق الله تعالى، وهي طريق مستقيم. وقوله: ﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ فالصراط: الطريق وهو دين الإسلام.

ومستقيماً: حال من اسم الإشارة، ومعناه مستوياً قويماً لا اعوجاج فيه.

إن هذا الصراط هو جميع التوصيات، لذا قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: رجاء أن تمتلئ قلوبكم بتقوى الله تعالى وأن تجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية،

ولعلكم ترجون رحمته بعد خوف عقابه، فإن الله غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى[1].

إن هذه الوصايا مجمع عليها من الأديان، وهي الأساس النفسي لتكوين الجماعات الفاضلة وقد جاءت بها الأديان كلها ورضيتها الشرائع الوضعية المستقيمة[2]، وهي من وصايا الإسلام الذي هو دين الله الخالد الذي لا يقبل الله سواه، وأن هذا الدين هو الذي فرضه الله على البشر، منذ خلقهم، جاء به آدم عليه السلام ونوح وإبراهيم وآل عمران، وأنه تمّ برسالة خاتم النبيين، وهو الدين الذي يدعو إلى الوحدانية الخالصة التي لا يشوبها أدنى شرك، وهو الدين الذي يشمل العقائد الصحيحة والأحكام العامة التي لا تتغير بتغير الزمان أو المكان أو بتغير أحوال الناس في سلسلة حياتهم الإنسانية على وجه الأرض مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وبيئاتهم ومهما تغيرت مهنهم وحرفهم وثقافتهم في الحياة الدنيا[3].

إن التاريخ الإنساني بدأ من أول إنسان خلقه الله في الأرض بخصائص كاملة في مكوناته العقلية والنفسية والروحية، وفي أخبار آخر كتاب منزل من الله فإن ذلك الإنسان هو آدم الذي هيأه الله ليكون خليفة في الأرض بأعماله الحضارية التي تصدر منه بإرادته وعلى أساس الإيمان بالله واتباع هداه[4].

---

[1] زهرة التفاسير، أبو زهرة، مصدر سابق، 2743/5.

[2] المرجع نفسه، 2740/5.

[3] الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، محمد وصفي، مصدر سابق، ص 318.

[4] الجيو حضارة أو جغرافية الأمم، أحمد سريات، مصدر سابق، ص 77.

إننا لا يمكننا أن نستلهم معالم الاتجاه الإيماني في التاريخ الذي يخلو من الانحياز والتطرف، ولا يمكننا أن نستخلص المنهج السليم في سبر أغواره إلّا في القرآن الكريم الكتاب الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

إن من مساوئ النظرة التاريخية الغربية للأحداث في المسيرة الحضارية الإنسانية هو إغفالها وتجاهلها الجوانب التاريخية لعلاقة الإنسان بالله وما كان من تداعياتها[1]، ولذلك لم ينصفوا قادة البشرية، وسادتها في القيم الروحية والأخلاقية والتشريعية، وهم الأنبياء والمرسلون ابتداء من آدم عليه السلام إلى خاتم النبيين، بل تعرّض الكثير منهم للتشوية والتزوير والإفك المبين.

7- عمارة الأرض:

إن من مقاصد خلق الله عز وجل لآدم وذريته عمارة الأرض، وأعطى لآدم الملكات والقدرة على تحقيق العمارة في الأرض وتوريث تلك المعارف والعلوم لأولاده وأحفاده وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمر الله فيهم[2].

قال العلاّمة الطاهر بن عاشور مؤكداً معنى العمارة: فالخليفة آدم وخَلَفِيّتهُ قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى في تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي[3].

[1] الجيوحضارة أو جغرافية الأمم، أحمد سريرات، مصدر سابق، ص 75.

[2] تفسير البيضاوي مع التصرف، مصدر سابق، 64/1.

[3] التحرير والتنوير، ابن عاشور، مصدر سابق، 208/1.

-قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [هود:61].

قال الطبري مؤكداً معنى العمارة في الآية ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: يقول وجعلكم عمّاراً فيها[1].

وقال البيضاوي: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ عمّركم فيها واستبقاكم من العمر أو أقدركم عن عمارتها وأمركم بها[2]، فالإنشاء من الأرض هو في خلق آدم من الأرض، لأن إنشاءه إنشاء لنسله، وإنما ذكر تعلق خلقهم بالأرض لأنهم كانوا أهل غرس وزرع[3].

والاستعمار عند كثير من المفسرين هو الإعمار أي جعلكم عامرين لها، فالسين والتاء للمبالغة كالتي في استبقى واستفاق، ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع لأن ذلك يعد تعميراً للأرض حتى سمي الحرث عمارة لأن المقصود منه عمر الأرض[4]. فمقصود هذه الآيات وغيرها واضح الدلالة في بيان مقصود العمارة من خلق الإنسان وأنه واجب على مجموع الخليقة في القيام به[5]، وهذا ما حرص عليه آدم وبنوه في نشأة الحضارة الإنسانية الأولى من تحقيق هذا المقصد السامي الذي جعله الله من أهداف خلافة الإنسان في الأرض.

---

[1] تفسير الطبري، مصدر سابق، 386/15.

[2] تفسير البيضاوي، مصدر سابق، 103/3.

[3] مقاصد القرآن الكريم مجلة علمية محكمة عدد (3)، ص 145. الوعي الحضاري، مسفر علي القحطاني، مصدر سابق، ص 83.

[4] مقاصد القرآن الكريم مجلة علمية محكمة عدد (3)، مصدر سابق، ص 146.

[5] المرجع نفسه، ص 146.

وتعتبر عمارة الأرض بما يحقق حسن السير فيها والقيام بمعاشها واحتياج الخلق منها، مقصداً من أعظم مقاصد التشريع التي دلت عليها كليات الشريعة وجزئياتها، وقد حكى هذا المقصد العام من التشريع غير واحد من علماء الفقه والأصول، ومنهم الإمام ابن عاشور في قول: إن من أكبر مقاصد الشريعة الانتفاع بالثروة العامة بين أفراد الأمة على وجوه جامعة بين رعّي المنفعة العامة ورعّي الوجدان الخاص وذلك بمراعاة العدل مع الذي كدّ لجمع المال وكسبه، ومراعاة الإحسان للذي بطأ به جهده وهذا المقصد من أشرف المقاصد التشريعية[1].

ويقول الشيخ علال الفاسي: المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض وحفظ نظام التعايش فيها وصلاحها بصلاح المستخلفين فيها وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة ومن صلاح في العقل وفي العمل وإصلاح في الأرض واستنباط لخيراتها وتدبير لمنافع الجميع[2].

فعمارة الأرض بالبناء والصناعة والزراعة والانتفاع بما في باطنها من معادن وخيرات مطلوب من الناس عامّة ومن المسلمين خاصّة، فهو من مقتضيات الاستخلاف العامّ للناس في الأرض[3].

نجح آدم عليه السلام وزوجه وأولاده في تحقيق العبودية لله وعمارة الأرض والعمل بمقومات الاستخلاف فيها، ومن الوسائل التي استخدمها آدم وبنوه في عمارة الأرض

---

[1] المرجع نفسه، ص 147.

[2] مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، مصدر سابق، ص 41-42.

[3] مقاصد القرآن الكريم مجلة علمية محكمة عدد (3)، مصدر سابق، ص 147.

والتي هي رحمة لله بعباده من أهمها:

أ- العقل:

العقل نعمة أنعم الله بها على آدم وزوجه عليهما السلام وذريتهما وعلى الجنس البشري، وهو موهبة وهبها الله الوهاب، وهي من الأدوات الإنسانية الرفيعة التي أكرم الله بها الإنسان في معرفة كليات الوجود وسنن ونواميس الكون وموقعه منها، فالعقل وسيلة الإنسان لإدراك الوجود، والعقل الإنساني أداة الإدراك الأساسية وأداة الفهم والنظر في ملكوت الله والتلقي من وحي الله، والتمييز والموازنة بين الأشياء.

والعقل هو موجه الإنسان ودافعه ووسيلته في إدراك موقعه من الحياة، وهو موجهه ودافعه ووسيلته في طلب علم الغيب والتلقي عن رسالات الوحي بفهم ورشد، ثم العمل في حصانة تحميه من الخرافة والفساد، فالعقل المسلم يتميز بتكامل مصادر معرفته في عالمي الغيب والشهادة، فالوحي مصدر عالم الكليات وعالم الغيب، والعقل مصدر عالم الشهادة وإدارة الحياة[1].

فدور الوحي الرباني الذي نزل على آدم عليه السلام هو إمداد العقل الإنساني متمثلاً في الجيل الإنساني الأول الذي أنشأ الحضارة الإنسانية بحاجته في علم عالم الغيب وتوضيح غايته الخيرة من خلق الإنسان في عالم الشهادة ودوره في عمارة الأرض وخلافاتها، ودور العقل الإنساني في السعي إلى عالم الشهادة وإقامة العمارة والخلافة على نور من توجيه

[1] أزمة العقل المسلم، عبد الحميد أحمد، مصدر سابق، ص 118-119.

الوحي من الرسالة الربانية.

فالعقل الإنساني في عهد آدم عليه السلام استمد قوته وتوازنه وثبات خطواته واستقامته بما لديه من علم الوحي وهدايات السماء التي كان يقود بها آدم عليه السلام ذريته من أولاده وأحفاده في المرحلة الأولى من تاريخ البشرية، فكان عقلاً مؤمناً راشداً مطمئناً غير مكابر ولا جاحد ولا مستكبر ولا متروك اليقين إلى الظن، ولا يترك الهداية إلى الضلالة وهو عقل مؤمن تستغرقه مسؤولية خلافة الكون والحياة والإعمار والإصلاح باعتبار ذلك من الأهداف التي خلق الله آدم وذريته من أجلها.

وقد استطاع آدم عليه السلام وبنوه وضع أسس علمية بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، وقد ساهمت هذه الأسس في انطلاق الحضارة الإنسانية الأولى في التعامل مع الوحي والكون والاستفادة من نعمة العقل في اعمار الأرض، وفتحت آفاقاً جديدة لأجيال الإنسانية المتلاحقة في مجال الحضارة التي قاد ركبها الأنبياء والمرسلون في مسيرة الإنسان الطويلة.

وما عملية تسخير الكون التي تمت بتوظيف العقل الإنساني الأول "آدم وبنوه"، من كشف عن قوانين الكون ونواميسه وخفاياه والإفادة من ذلك لصالح الحضارة الإنسانية الأولى وزيادة الإعمار الكوني والحياتي إلى إدراك لعظمة الخالق من خلال الوقوف على أسرار خلقه[1] والرغبة في تحقيق غاية الاستخلاف، ومن التراكم المعرفي والرقي الحضاري في الماديات والمعنويات لدى الإنسانية اليوم، إلا ثمرة من ثمار الجيل الأول الذي أسس

---

[1] الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي مع التصرف، الغامدي، مصدر سابق، ص 319.

الحضارة الإنسانية بقيادة أبينا آدم عليه السلام وبتوفيق الله له.

إن آدم عليه السلام المربي الأوّل للإنسانية والمعلم الكبير للبشرية جعل من التفكير والتأمل مدرسة أصيلة بين أبنائه لمعرفة الله عز وجل ومعرفة تأثير أسمائه وصفاته ثم عبادته وخشيته وطاعته والالتزام بأوامره ونواهيه والوقوف عند تعاليمه وغرس في أبنائه قيمة الحرية، في التفكير والتعبير عن كينونتهم الإنسانية والتحرر من عبودية الشيطان والأهواء، وإفراد الله بالعبادة بالعقل والمنطق والوجدان والفعل والأقوال وعمارة الكون على وفق منهج الله القويم.

ب- الفطرة:

قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم:30].

- يقول القرطبي مفسراً هذه الآية: هي الخلقة التي خلق عليها كل مولود يعرف بها ربها[1].

- وقال ابن كثير: فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره[2].

والفطرة: هي الخلقة السليمة التي خلق عليها المولود، وهي الجبلة، تقول: جبله الله على كذا أي: فطره عليه[3].

والفطرة: هي الخلقة السليمة التي خلق عليها الإنسان، والتي تجعله يشعر بوحدانية

---

[1] تفسير القرطبي، مصدر سابق، 27/14.

[2] تفسير ابن كثير، مصدر سابق، 432/3.

[3] الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي، الغامدي، مصدر سابق، ص 332.

الله في صفاء، وهو مطمئن بمعرفته وتوحيده، يدفعه صفائها ونقائها إلى حب الخير كله والرغبة في عبودية الله وحده في علاه، وأنه الخالق المستحق للعبادة وحده دون سواه، مع رغبة في فعل الخير والبعد عن الشر في توجه صادق مخلص لله يحقق الصفاء الروحي والاطمئنان القلبي والسعادة الكاملة للإنسان[2].

والفطرة غراس رباني جبلي يملكه كل إنسان، وحرص آدم عليه السلام على سلامة فطرة أولاده وذريته وخيريتها وعمل على حمايتها من الفساد والضلالات بهدايات السماء، وأساس الفطرة هو توحيد الله عز وجل وجذور هذه المعرفة عميقة في النفس ولا سبيل إلى إنكارها أو التخلص منها[1].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ۝﴾ [الأعراف:172-173].

فقد حرص آدم عليه السلام بتعهد فطرة أولاده باعتبارها قاعدة الأساس العقدي العبودي والأخلاقي للإنسان السليم، فدعوة آدم عليه السلام لأبنائه هي دعوة الإسلام وهو دين الله فاطر الفطرة وخالق الناس، فالرغبة في الاتصال بالله أمر فطري والتطلع إلى ما عند الله هو جزء من طبيعة الإنسان وفطرته التي فطر الله الناس عليها.

وقد دلّ آدم عليه السلام بنيه إلى الطريق التي تجعل الفطرة صحيحة وسليمة وذلك

---

[1] منهج القرآن في التربية، محمد شديد، مصدر سابق، ص 81_82.

عن طريق طاعة الله بالعبادة والخضوع لشرعه والرجاء فيه، والتسليم في كل ما جاء من عنده، فالصلاة والذكر والدعاء ومراقبة الله في السر والعلن والخشية لله والخوف منه والرجاء في رحمته ومحبته سبحانه[1]، كلها من دلالات آدم وإرشاده لبنيه وذريته عليه السلام.

وكان آدم عليه السلام قدوة لبنيه في توحيد الله، وإفراده بالعبادة وعمارة الأرض، وساهم ذلك على الاستفادة من رصيد الفطرة لأولاده في عبادة الله وعمارة الأرض، فالفطرة السليمة مجبولة على توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة والسعي في إعمار الأرض.

ج- الحواس:

أحد المعطيات الربانية التي أنعم الله بها على الإنسان وتستحق منا الشكر، فالحواس أمانة عند الإنسان، عليه أن يسخرها في العلم والإيمان والعمل، باعتبارها مقومات أساسية للمعرفة الإنسانية وتساعد الإنسان على تحقيق غايات وجوده من عبودية لله والاستخلاف في الأرض، وعمارة الكون والحياة وفق المنهج الرباني[2].

فالحواس هي أحد أبواب تحصيل المعرفة وأحد نوافذها المحدودة بعالم الحس ويطلق عليها الحواس الخمس (السمع، البصر، الشم، اللمس، الذوق) اعتباراً لهذه الحواس الظاهرة التي تتعامل مع وسائل الحس الباطنة للحصول على المعرفة، وهذه الحواس بمثابة منافذ يطل منها الفكر على العالم فيدرك منه بشكل مباشر ما تستطيع هذه الحواس أن تحس به وتنقله من صفات الأشياء إلى منطقة الإدراك الفكري، ثم تسجل الذاكرة من أمور

---

[1] الإنسان الصالح وتربيته، الغامدي، مصدر سابق، ص 335 بتصرف.

[2] الإنسان الصالح وتربيته، الغامدي، مصدر سابق، ص 348.

وردت إليها عن طريق الحواس الظاهرة[1].

والحواس أحد مصادر المعرفة بعد الوحي، وبها يستطيع الإنسان أن يكسب العلم والمعرفة منذ ولادته بما وهبه من حواس يرى ويسمع ويلاحظ ويميز ويستوعب ويحلل ويتأمل، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:78].

فالحواس مداخل نافعة لأداء مهمة الفطرة والثبات في معرفة الحق، وأما إذا انحرفت الفطرة عن الحق فإن نتيجة ذلك تعطيل الحواس عن مهمتها التي خلقها الله لتكون عوناً للإنسان على معرفة الحق[2].

فأخبر الله عن حال من انحرفت فطرته وتعطلت حواسه، فقال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف:26]، فالحواس نعمة يمتن بها الله على عبادة فهي وسيلة الإنسان للمحافظة على حياته كما أنها مصدر موثوق للمعرفة وأداة تثبيت العقيدة وترسيخ الإيمان[3].

وقد علق الأستاذ المودودي على الآية السابقة فقال: إن هذه الكلمات لم يتنزل بها الوحي في كتاب الله لتعني فقط مجرد القدرة على الرؤية والسمع والتفكير، وذلك بأن السمع معناه احتراز المعرفة التي اكتسبها الأخرون، والبصر معناه تنميتها بما يضاف إليها

---

[1] ضوابط المعرفة، عبد الرحمن حسن حبنكة، مصدر سابق، ص126-127.

[2] منهج الإسلام في تزكية النفس، أحمد كرزون، مصدر سابق، ص 28.

[3] مكانة الحواس من المعرفة في الإسلام، صالح سليمان العمرو، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى.

من ثمرات الملاحظة والبحث.

والفؤاد معناه تنقيتها من أدرانها وأوضارها ثم استخلاص النتائج منها، وكل هذه القوى الثلاث إذا ما تضافرت بعضها على بعض نجمت عنها تلك المعرفة التي منّ الله بها على بنى آدم[1].

وقد حرص آدم عليه السلام على توجيه أولاده وأحفاده إلى الاستفادة من نعمة الحواس في تثبيت الإيمان بالله في نفوسهم، واكتشاف أسرار الكون من خلال التجارب العملية في خبرة الحياة، مع معرفة السنن الكونية مع الوحي والعقل، ودون تعطيل دورها في مساعدة العقل في تدبر هذه السنن والتعرف على أثار خلق الله وآثار عظمته وجمال صنعه في الوجود، والاستمتاع بنعم الله المشاهدة والملموسة والعمل على المحافظة على أمانة الاستخلاف وعمارة الأرض وهذا الكون الفسيح وفق شريعة الله والمفاهيم الربانية والقيم الحاكمة في حياة الناس.

د- المنهج الرباني:

هو المنهج الذي أنزله الله على آدم عليه السلام ليبلغه لأولاده وذريته، وهو بداية الرسالات السماوية في حياة الإنسانية وهو منهج كامل وتام ومفصل ومحكم ومتناسق، وهو هدى ونور وشفاء ورحمة وموعظة وبشرى وذكر، قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾

[1] الوسطية في التربية الإسلامية، عبد الله محمد الزهراني، مصدر سابق، ص 20.

[طه:123].

وقال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:38].

فقد أسس آدم عليه السلام للحضارة الإنسانية الأولى مناهج ورؤى صحيحة في عمارة الأرض وتحقيق الاستخلاف من خلال المنهج الرباني الذي ربّى عليه أولاده.

والمنهج الرباني الذي دعا إليه آدم عليه السلام ذريته يحقق عبادة الله في الأرض وعمارتها بقيم العلم والإيمان والعبادة والتفكر في مخلوقات الله تعالى، سواء السماوية كالشمس والنجوم والكواكب، والأرضية من وديان وجبال وسهول ونبات وأنهار وعيون وحيوانات وليل ونهار، وشتاء وخريف وربيع وصيف ويوم وأسبوع وشهر وسنة... إلخ، وترتيب الحياة الاجتماعية وقد قرر المنهج الرباني حقائق الفطرة وجعل الأسرة من حقائق الفطرة وأقامها بناء أصيلاً، وكرّم المرأة متمثلاً في شريكة الحياة الإنسانية، وبداية مشوارها الطويل متمثلاً بذلك أمنا حواء عليها السلام.

- ورسم المنهج الرباني الذي دعا إليه آدم عليه السلام الخطوط العريضة للحضارة الإنسانية الأولى لصياغة الإنسان الفاعل في حركة الحياة، وقدم رؤية متكاملة جسمياً وعقلياً وروحياً للإنسان الأول، ساعدته في عمارة الأرض.

وأجاب المنهج الرباني على الأسئلة الوجودية المتعلقة بالإنسان في قصة خلقه، ووجوده في الحياة ومصيره الذي ينتظره بعد الموت، وإن المنهج الرباني الذي دعا إليه آدم عليه السلام هو تناول الحقائق الكلية كلها، حقيقة الألوهية وحقيقة الحياة وحقيقة الكون

وحقيقة الإنسان، وعمل على تحقيق التوازن بين تحقيق القوة والكرامة الإنسانية، ومقام الإنسان في الكون وبين عبوديته لله، بل وضح أن رفعة الإنسان وتكريمه وفاعليته مستمده جميعها من كونه عابداً لله وحده[1]، كما أنه متوازن بين مصادر المعرفة، بين التلقي من الوحي والنص، وبين التلقي من الكون والحياة، وإعطاء كلاً منها ما يستحق من الدرجة والاعتبار[2].

لقد استطاع آدم عليه السلام من خلال المنهج الرباني أن يظهر إيجابية بنيه في الكون وعمارة الحياة لاستغلال الحواس وكامل الاستعدادات في معرفة علل الكون وأسراره وتسخيره لخدمة الحضارة الإنسانية الأولى، وكيف لا وآدم عليه السلام هو المعلم الأول وصاحب العقل الرشيد والفطرة السوية، والحواس المباركة والمؤيد من خالقه الجليل العلي الكبير سبحانه وتعالى، فقد أوتي علماً وفكراً وبياناً ومنطقاً وحججاً ساهمت في إقناع بنية وأحفاده في تأسيس الحضارة الإنسانية الأولى.

8- الاستخلاف:

قال الراغب الأصفهاني: الخلافة: النيابة عن الغير إمّا لغيبة المنوب عنه وإما لموته، وإمّا لعجزه وإما لتشريف المستخلف، وعلى هذه الوجه الأخير: استخلف الله أولياءه في

---

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 1/532-556 بتصرف.

[2] الإنسان الصالح وتربيته، الغامدي، مصدر سابق، ص 355.

الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر:39]، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام:165]، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود:57][1].

أ- مفهوم الاستخلاف عند بعض المفسرين والعلماء:

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30].

قال بعض المفسرين: هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر، وفضله، وأن الله حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك وأن الله مستخلفه في الأرض[2]، وللعلماء في خليفة وخلائف وخلفاء آراء كثيرة منها: الخلافة عن الله ومنها: أن خليفة بمعنى خلفاء يعقب بعضهم بعضاً ولا بقاء لهم، ومنها: أنهم يخلفون من كان قبلهم من الجن بعد أن أهلكهم الله بسبب فسادهم[3]، ويرى بعض العلماء أن الخلافة إما أن تكون متمثلة في آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه[4]، وإما أن تكون لجميع البشر فيخلف بعضهم بعضاً، ومنهم من يخرج عن طاعة ربه ويكفر بما جاءه من الهدى[5]، ولذلك فرق بعض الباحثين بين مسمّى "خلائف" ومسمى "خلفاء"، وجعل "ضيعة

---

[1] دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، 825/2.

[2] تفسير السعدي، مصدر سابق، 1/70-73.

[3] فتح القدير، الشوكاني، مصدر سابق، 62/1.

[4] تفسير ابن كثير، مصدر سابق، 70/1.

[5] دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، 825/2.

خلائف" في الوراثة الزمنية للأمم الكافرة التي أهلكها الله والتي يجب أن تكون الأمم الخالفة فيها مخالفة للأمم المخلوفة في نهجها وسلوكها[1]، وجعل "صيغة خلفاء" في الوراثة الدينية الصالحة، لأنها جاءت بعد انقضاء أجل الأمة الصالحة وهذا يعنى أن الأمة الخالفة تقتدي بالأمة المخلوفة وتسير على نهجها وسلوكها[2].

ومهما بلغت الفوارق بين صيغ (خليفة) و (خلائف) و (خلفاء) و (مستخلفين) ونحو ذلك مما ورد في قضية الاستخلاف، فإن العبرة بما قصّه الله من تفضيله لآدم عليه السلام وذريته على سائر المخلوقات، وما فطره الله عليه من التوحيد والعلم، وكذلك ما حدث منه وزوجه من معصية كانت سبباً لإخراجهما من الجنّة، ثم ما حدث معهما من ندم وتوبة، وما تفضل به أرحم الراحمين[3] من قبول لتوبتهما. ومن ثمّ بدأ تاريخ الاستخلاف، فقال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:38-39].

وببداية الاستخلاف بدأ الصراع بين الخير والشر فقد أهبط آدم وزوجته ومعهما إبليس إلى الأرض لتبدأ ملحمة العداء بين آدم هو وذريته في جانب، مع إبليس وذريته في الجانب الآخر[4].

---

[1] الخلافة في الأرض، أحمد حسن فرحات، مصدر سابق، ص 23.

[2] فرحات، المرجع نفسه، ص 27.

[3] دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، 828/2.

[4] بدائع التفسير، ابن القيم، مصدر سابق، 304/1-312.

قال بعض المفسرين: من المعلوم أن العدو يجد ويجتهد في ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق وحرمانه الخير بكل طريق، ففي هذا أي: قوله ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة:36]، تحذير بني آدم من الشيطان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:6].

-وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:50].

ثم ذكر الإهباط فقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [البقرة:36]، أي: مسكن وقرار ﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:36] انقضاء آجالكم، ثم تنقلون منها للدار التي خلقتم لها وخلقت لكم، وفيها أن مدّة الحياة مؤقتة، عارضة، ليست مسكناً حقيقياً، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة:38] هدىً أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم مني، ويدنيكم من رضائي، فمن تبع هداي منكم، بأن آمن برسلي وبكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:38] وفي الآية الأخرى ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:123].

فترتب على اتباع هذه أربع أشياء: نفي الخوف والحزن، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية، والهدى، وانتفى عنه كل مكروه من الخوف، والشقاء، فحصل له المرغوب واندفع عنه المرهوب،

وهذا عكس من لم يتبع هداه[1].

ويتبين من هذا ونحوه: أن الاستخلاف ينطوي على شيء من الابتلاء والامتحان، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام:165].

- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:14].

- وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر:39].

واقتضت حكمة الله أن يتحقق الاستخلاف بظهور الحق وانتصار الصالحين وتمكينهم في كل دورة من دورات الصراع بين الحق والباطل، وأن تكون العاقبة للمتقين وأن يؤول الاستخلاف إليهم.

- قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود:57].

- وفي آية أخرى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد:38].

- قال ابن كثير في تفسيرها: أي: ولكن يكونون سامعين ومطيعين له ولأوامره[2].

---

[1] تفسير السعدي، مصدر سابق، 75/1-76-77.

[2] تفسير ابن كثير، مصدر سابق، 182/4.

– وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:55].

والاستخلاف في الاصطلاح: عبادة طوعية لله بالتزام هديه وشرائعه ينشأ عنها ضبط السلوك الإنساني في علاقته مع الله وعلاقته مع الكون والمخلوقات بحيث تسير الحياة الإنسانية ضمن إطار الصلاح[1]، والمستخلف الأول في هذه الأرض وبهذا المعنى آدم وزوجته وأولادهما وأحفادهما.

ب- أهمية الاستخلاف:

وتظهر أهمية الاستخلاف لكونه من الأهداف المهمة التي تحقق توحيد الله عز وجل من بني الإنسان وإفراده في العبادة وعمارة الأرض وفق منهجه الذي ارتضاه لبني الإنسان.

والاستخلاف في الأرض من أهم الأصول الاعتقادية للحضارة الإنسانية التي قادها الأنبياء والمرسلين منذ آدم عليه السلام، فإذا كان التوحيد هو إفراد الله بالألوهية والربوبية فإن (الاستخلاف) هو التطبيق العملي لهدايات السماء على جميع المستويات المختلفة للفعل الإنساني: الفردية والاجتماعية والتاريخية... إلخ، بل وعلى مستوى الإنسان كنوع من أنواع الخلق، فالاستخلاف هو تطبيق المنهج الرباني في الأرض بقيادة الأنبياء والمرسلين ومن سار على هديهم ونهجهم من المصلحين.

---

[1] استخلاف الإنسان في الأرض، فاروق الدسوقي، مصدر سابق، ص 6-7.

وبذلك اختلفت الحضارة الإنسانية الربانية بمقتضى هذا الأصل عن سائر الحضارات المخالفة لها، والتي استطاع الشيطان أن يؤثر على قادتها بالتزيين والشبهات والشهوات، وبخاصة الحضارة الغربية المعاصرة التي تقف عقائدياً وتشريعياً على النقيض من الحضارة الإسلامية التي قادها الأنبياء والمرسلون منذ آدم عليه السلام والتي تعتبر هي الحضارة الإنسانية الصحيحة الحقة اللائقة بالإنسان بوصفه إنساناً[1].

ج- مقومات الاستخلاف:

يمكن بيان مقومات الاستخلاف فيما يلي:

- العلم:

أساسه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:30].

قال ابن القيم الجوزية في صدد حديثه عن قصة استخلاف آدم في الأرض وسؤال الملائكة ربهم بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:30].

إنه سبحانه أظهر فضل الخليفة عليهم بما خصّه به من العلم الذي لم تعلمه الملائكة، وأمرهم بالسجود له تكريماً له وتعظيماً له وإظهاراً لفضله، ثم إنه سبحانه لما علم آدم ما علّمه، ثم امتحن الملائكة بعلمه فلم يعلموه فأنبأهم به آدم، وكان في طي ذلك جواباً لهم كون هذا الخليفة لا فائدة في جعله في الأرض فإنه يفسد فيها ويسفك الدماء، فأراهم

[1] دراسات تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، 832/2.

من فضله وعلمه خلاف ما كان ظنهم[1].

وبهذا تتضح أهمية العلم في الاستخلاف وأنّه من مقومات الاستخلاف الرئيسية، وفي ذلك يقول أحد الباحثين: أما تحقيق السيادة فيقوم على ركيزتين أساسيتين الأولى: وهبها الله للإنسان فهي ركيزة ذاتية وتتمثل في الفاعلية الإنسانية التي تعمل بترشيد من العلوم التجريبية التي تمكن الإنسان من توسيع دائرة عمله وتأكيد وترسيخ وتقوية فاعليته، فعلم الأسماء يدخل كمقوم أساسي في هذه الركيزة، لأن العلم التجريبي ليس سوى معرفة خصائص الأشياء والقوانين التي تحكم العلاقات والتأثير بينها، فإذا عرف الإنسان طبيعة الشيء، أو الحي وخصائصه، وتأثيره وتأثره بغيره استطاع تسخيره له والانتفاع به، وتحقيق سيادته عليه، فالعلم التجريبي هو المؤهل الذاتي المحقق لسيادة الإنسان في الأرض[2].

ومما يلحظ الاستخلاف من حيث المبدأ والتاريخ أن هذا النوع من العلم قد ينفك عن الخلافة الربانية، ويتأتى للأمم الكافرة وتستطيع عن طريقه أن تحقق شيئاً من السيادة والعلو في الأرض، وبمعنى آخر أن تقيم حضارة بالمفهوم الوضعي، وقد وصف الله بعض الناس بأنهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم 70].

قال ابن عباس في تفسيرها: يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا وهم في أمر الدين جُّهال[3].

---

[1] بدائع الفوائد، ابن القيم، مصدر سابق، 4/138-139. دراسات في تمييز الأمه الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، 2/834.

[2] دراسات في تمييز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، 2/834.

[3] تفسير ابن كثير، مصدر سابق، 3/427.

وقال بعض المفسرين إنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا فينظرون إلى الأسباب ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ وقد توجهتهم قلوبهم وأهواؤهم وإرادتهم إلى الدنيا وشهواتها، وحكامها، فعملت لها، وسعت وأقبلت بها، وأدبرت وغفلت عن الآخرة، ومن العجيب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا، إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب، وأظهروا من العجائب الذرّيّة والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه[1]، ويندرج تحت هذا النوع من العلم ما توصَّل إليه الإنسان في هذا العصر من: أنواع المعارف الإنسانية، سواء كان مصدرها العقل كالرياضيات، أم الحسن والتجربة، بالإضافة إلى العقل كالطب[2]، ولكنها مهددة بصور عدة من العقاب الإلهي إذا لم ترتبط بالإيمان بالله والسير في طريقه المستقيم.

– قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آَخَرِينَ﴾ [الأنعام:6].

– وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ

---

[1] تفسير السعدي، مصدر سابق، 6/111-112.

[2] مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، عبد الرحمن بن زيد بن الزنيدي، مصدر سابق، ص 48.

الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:40].

- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:42-45].

فهذه الأبيات تبين بجلاء ووضوح أن الله علم الإنسان، وبهذا العلم مكّنه من استعمار الأرض وعمرانها وسيادته عليها وعلى كثير من المخلوقات الموجودة فيها حتى من بني جنسه، وأن هذا التمكين يمثل البلاء والامتحان، فإن أحسن وحقق عبوديته لله واستقام على الطريق المستقيم فاز في الدنيا والأخرة، وإن تنكب الطريق وظلم وطغى وبغى فإنه يصبح عرضة للعقاب التدريجي الذي يشمل الإنذار والدعوة لتصحيح المسار والعودة إلى صراط الله المستقيم فإن حدث هذا تاب الله عليه ومتعه الله إلى حين، وهذا ما حدث لقوم يونس عليه السلام[1]، وإن استمر الإنسان في الخرافة ولم يتعظ تتابعت عليه الآيات وكانت كل آية أكبر من أختها[2]، حتى يتم الاستئصال التام كما حدث لقوم لوط وفرعون، وغيرهم[3].

[1] دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، 836/2.

[2] المرجع نفسه، 836/2.

[3] سنة الله في عقاب الأمم، عبد السلام نصر الله، مصدر سابق، ص 49-50.

ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:26].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم:9-10].

وإذا كانت الحضارة الغربية وما يلتف حولها من أمم في العصر الراهن تتطلع للسيادة والهيمنة وذريعتها في ذلك العلم ومناهجه التجريبية والتطبيقية ونحوها فإنها ستواجه المصير الذي آلت إليه الأمم من قبل، لأنها حصرت - في مسارها العام- العلم فيما جاء عن طريق التجربة والخبرة الحسية وحدها[1].

وفصلت بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وعن ذلك يقول أحد المفكرين: وعليه فإن العلم باصطلاحهم محصور مصدراً في التجربة، وميداناً في المجال الرياضي والطبيعي، وما يقبل موضوعه الخضوع للتجربة والاستقرار والمقاييس الكمّية وهذا التجديد لمفهوم العلم متولد من المذهب التجريبي للفلسفة المعاصرة، الذي يمثل في اتجاهات فلسفية أبرزها الاتجاهان:

الاتجاه الوضعي والاتجاه الماركسي، وقد أدى هذا المفهوم إلى إنكار العلم فيما يتجاوز

---

[1] دراسات في تمييز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، 837/2.

ميدان التجربة وهو: عالم الطبيعة وإنكار عالم ما وراء الطبيعة، وكل ما كان مصدره الوحي الإلهي أو الشعور الأخلاقي من العلوم[1].

وبذلك شقيت أمم الغرب ومن دار في فلكها بهذا العلم وصرّح نخبة من المفكرين الغربيين بإفلاس الحضارة الغربية ومن أسموه الانتحار العلمي[2]، ويقول رجاء جارودي: إن حضارتنا تقوم على أسس خاطئة فنحن في المرحلة الأخيرة من الحضارة التي لا تكاد تبدأ، ما زلنا لا نعرف أن نحدد لأنفسنا غايات حقيقية، ولا نسيطر على وسائلنا، إن حضارتنا تقوم على هذه الموضوعات الثلاثة:

- تحيل الإنسان إلى العمل والاستهلاك.
- تحيل الفكر إلى ذكاء.
- تحيل اللانهائي إلى الكم[3].

ثم تقرّر أنها حضارة مؤهلة للانتحار، انتحار لفقدان الهدف، يشهد على ذلك ضروب الفرار إلى المخدرات، وانتحار المراهقين بأعداد كبيرة في الأصقاع، انتحار لإفراط الوسائل، يبرهن على ذلك مثلاً المنظور الجائز لنضوب المصادر الطبيعية والتلوث، وذلك نتيجة الأزمة لتصور لا يرى في الطبيعة شيئاً آخر، سوى أنها مستودع ومعمل[4].

وأما الحضارة الربانية التي قادها الأنبياء والمرسلون منذ آدم عليه السلام إلى خاتمهم

---

[1] دراسات في تمييز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، 838/2.

[2] الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، توفيق الواعي، مصدر سابق، ص 87.

[3] دراسات في تميز الأمة، إسحاق السعدي، مصدر سابق، 838/2.

[4] الحضارة الإسلامية، توفيق الواعي، مصدر سابق، ص 676.

محمد صلى الله عليه وسلم، فإنها تنظر إلى العلم باعتباره يشمل على جميع المعارف الإنسانية، سواء كان مصدرها العقل كالرياضيات، أو الحسّ والتجربة بالإضافة إلى العقل كالطب، أو النقل والسماع كاللغة، أو الوحي والنقل كعلوم الدين[1].

وعلى هذا فإن الأمة التي ورثت الحضارة الربانيّة التي أسسها آدم عليه السلام وطوّرها الأنبياء والمرسلون من ذريته هي الأحق بالاستخلاف في ما بعد الحضارة الغربية إذا أخذت بسنن الله في النهوض الحضاري وتعاملت مع قوانينه على مستوى القادة والنخب والشعوب، وما من شيء يحول دون ذلك إذا جددت صلتها بدينها، والتزمت صراط الله المستقيم وهديه القويم.

- التسخير:

وهو من المقومات العامّة للاستخلاف في الأرض ويعني ذلك أن الله سخر ما في الكون من مخلوقات على نحو يتماشى مع استخلاف الإنسان في الأرض.

-قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:13].

- قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [لقمان:20].

---

[1] دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، 839/2.

- وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج:65].

وفي سورة النحل وردت ثلاث عشرة آية على التوالي، تعرض صورة جامعة للكون في شيء من التفصيل بذكر أقسامه الكبرى: عالم الأفلاك، عالم النباتات، عالم الحيوان... إلخ، أوضحت ما سخره الله للإنسان من منافع الطبيعة[1].

فللإنسان في الأنعام دفء ومنافع، وفي الخيل والبغال والحمير وسائل للركوب، وفي الشمس والقمر فوائد، والبحر يأكل من حيتانه، وتسير فيه السفن ليبتغي من فضل الله، وإضافة لهذا التسخير فإن موجودات الكون تشتمل على عنصر الجمال الذي هو عنصر الحضارة، مما يؤكد قضية الاستخلاف، وأن التسخير مقوّم من مقوماته العامة، ثم إن الله عز وجل أودع في الأرض من المنافع والمعادن والأنهار، والعيون، والثمرات، والحبوب، والأقوات وأضاف الحيوانات، وأمتعتها، والجبال، والجنات، والرياض والمراكبّ البهيّة والصور البهيجة[2].

وأخبر عن منافعها وأنه جعلها مهاداً وفراشاً وبساطاً وقراراً وكفاتاً للأحياء والأموات[3]، ما يتسق مع خلافة الإنسان وما يحتاج إليه ليحقق ذلك الاستخلاف، ويستوي بهذا التسخير البرّ والفاجر، والتقي والشقي، ولكن النهاية للتقوى والمتقين، والوراثة النهائية لعباد الله الصالحين.

---

[1] دراسات أدبية لنصوص من القرآن، محمد المبارك، مدر سابق، ص 58-59.

[2] بدائع الفوائد، ابن القيم، مصدر سابق، 141/1.

[3] دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، 840/2.

وفي ذلك وردت آيات كثيرة منها – إضافة لما سبق–، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:105]. وقال تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام وهو يخاطب قومه في وقت كان فرعون يهددهم فيه بقتل الأبناء واستحياء النساء: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:128].

هذان المقومان: العلم والتسخير، هما أبرز مقومات الاستخلاف العامّة مع ما يقتضيانه من العقل، وعوامل القوة المختلفة، والوسائل والأساليب، كذلك الإرادة والعزم، وكل ذلك ونحوه هيأه الله للإنسان وزوده به، في إطار الفرد وعلى صعيد الأمّة، والآيات الدالة على ذلك من الكثرة بمكان وكذلك الأحاديث والآثار والوقائع التاريخية ممّا لا يتسع هذا المجال لذكره[1]. ولكن نكتفي بالإشارة إلى أن العلم والتسخير هما الأساس في كل ذلك، وأنهما مرتبطان بالاستخلاف الكوني القدري الذي قد يرتفع الإنسان به إلى أحسن تقويم، أو يرتد به إلى أسفل سافلين[2].

وعن هذا قال أحد الباحثين: بيّن سبحانه أنّ آثار الإنسان في الأرض تشتد، وأن قوته تزيد على الأشياء والأحياء، ويتمكن منها بالعلم، وأن الناس في المجتمعات التي تكون على درجة متقدمة في مجال السيادة بسبب زيادة حصيلتهم من العلم، عادة أو غالباً ما يفتنون وينحدرون في جانب الأخلاق، ويتسفلون في الجانب الإنساني، أي: جانب

[1] استخلاف الإنسان في الأرض، فاروق الدسوقي، مصدر سابٌ، ص 17-75. خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، عبد المجيد النجار، ص 47-72.

[2] دراسات في تميز الأمه الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، 841/2.

العبودية، ومن ثم تجري عليهم سنة فناء الحضارات بهذا السبب، ولا يغني تقدمهم في الجانب المادي عن ارتدادهم إلى أسفل سافلين في جانب العبودية[1].

قال تعالى مبيناً ذلك كله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ۝﴾ [غافر:82-85].

ويتضح لنا من قوله تعالى: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أن التقدم المدني والتقني والعمراني يحدث في جانب السيادة بسبب زيادة حصيلتهم في العلوم والخبرات، وقد فتنهم هذا كله، فلم يستجيبوا لدعوة الرسل للسمو في جانب العبودية، والارتفاع إلى أحسن تقويم، فحقت عليهم سنة الله في فناء الحضارات[2]. وما يقال عن العلم كمقوّم للاستخلاف في مفهومه العام يقال عن المقوم الآخر التسخير[3].

---

[1] المرجع نفسه، 841/2.

[2] استخلاف الإنسان في الأرض، الدسوقي، مصدر سابق، ص 57-58.

[3] دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، 842/2.

9- بنو آدم عليه السلام والأمانة:

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:72].

أفادت الآية الكريمة الإنباء على سنة عظيمة من سنن الله تعالى في تكوين العالم وما فيه، وبخاصة الإنسان، ليرقب الناس في تصرفاتهم ومعاملاتهم مع ربهم ومعاملاتهم بعضهم مع بعض، بمقدار جريهم على هذه السنّة ورعيهم تطبيقها فيكون عرضهم أعمالهم على معيارها مشعراً لهم بمصيرهم ومبيناً سبب تفضيل بعضهم على بعض واصطفاء بعضهم من بين بعض، والافتتاح بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر أو تنزيله[1].

وافتتاح الآية بمادة العرض، وصوغها في صيغة الماضي وجعل مُتعلقها السماوات والأرض والجبال والإنسان، يومي إلى أن هذا العرض كان بعد ما خلق الله الإنسان لأنه كان بعد خلق الله للسموات والأرض والجبال، وهناك من العلماء من يقول أن المقصود بالآية: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾:

- القول الأول: أن المراد بالإنسان آدم عليه السلام[2].
- القول الثاني: أن المراد بالإنسان الجنس، أي عموم الناس[3].
- القول الثالث: أن المراد بالإنسان الكافر والمنافق[4].

---

[1] حقوق الإنسان في ضوء الكتاب والسنة، يسرى السيد محمد، ص 50.

[2] التدبر والبيان، المغراوي، مصدر سابق، 27/ 484.

[3] المرجع نفسه، 27/ 484.

[4] التدبر والبيان، المغراوي، مصدر سابق، 27/ 484.

وتبعاً لذلك اختلف في مرجع الضمير المتصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

فقيل: إن الضمير يرجع إلى جنس الإنسان، سواء أريد بالإنسان في الآية آدم عليه السلام أو أريد عموم الناس[1].

وقيل: يرجع إلى الكافر والمنافق إن حمل لفظ الإنسان عليهما[2].

وقال الشنقيطي: الظاهر أن المراد بالإنسان آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وأن الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ راجع للفظ: (الإنسان) مجرداً عن إرادة المذكور منه الذي هو آدم، والمعنى: أنه أي الإنسان الذي لا يحفظ الأمانة ﴿كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أي كثير الظلم والجهل والدليل على هذا أمران:

أحدهما: قرينة قرآنية دالة على انقسام الإنسان في حمل الأمانة المذكورة إلى معذّب ومرحوم في قوله تعالى بعده، متصلاً به: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:73]، فدل على أن الظلوم الجهول من الإنسان المعذب والعياذ بالله، وهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات، دون المؤمنين والمؤمنات واللام في قوله: ﴿لِيُعَذِّبَ﴾ لام التعليل وهي متعلقة بقوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾.

الأمر الثاني: أن الأسلوب المذكور الذي هو رجوع الضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار

---

[1] أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، 6/ 259.

[2] التدبر والبيان في تفسير القرآن، المغراوي، مصدر سابق، 27/484.

المعنى التفصيلي معروف في اللغة التي نزل بها القرآن، وقد جاء فعلاً في آية من كتاب الله، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر:11] لأن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ راجع إلى لفظ المعمر دون معناه التفصيلي، كما هو ظاهر، وقد أوضحناه في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان:61].

وبيّنا هناك أن هذه المسألة هي المعروفة عند علماء العربية بمسألة: عندي درهم ونصفه، أي: نصف درهم آخر، كما ترى وبعض من قال من أهل العلم: إن الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ عائد إلى آدم، قال: المعنى أنه كان ظلوماً لنفسه جهولاً، أي غرّ بعواقب الأمور، وما يتبع الأمانة من الصعوبات والأظهر ما ذكرنا والعلم عند الله[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾: مبالغاً في الرحمة والمغفرة والرحمة حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعاتهم[2].

وهنا لطيفة: وهي أن الله تعالى أعلم عبده بأنه غفور رحيم، وبصره بنفسه فرآه ظلوماً جهولاً، ثم عرض عليه الأمانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعلمه فيما يجبرها من الغفران والرحمة والله أعلم[3].

---

[1] أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، 6/ 259-260.

[2] إرشاد العقل السليم، أبو السعود، مصدر سابق، 119/7.

[3] تفسير الرازي نقلاً عن التدبر والبيان، مصدر سابق، 485/27.

أ- مفهوم الأمانة ومجالاتها:

إن من أجل القيم الخلقية التي بنيت عليها شريعة الإسلام الأمانة، وهي قيمة عظيمة تصان بها حقوق الله وحقوق الناس، لذا ألزم الإسلام الناس بها إلزاماً وأوجبها عليهم وجوباً، ودعا إلى أدائها في جميع الأمور التي تتصل بالفرد والمجتمع.

ولعظم منزلة الأمانة نجد المولى عز وجل في كتابه الكريم وصف بها عباده المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون:8]، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم ربط الأمانة بالإيمان إذ قال: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)[1].

ومن الأمانة الكبرى التي حملها الإنسان أمام الله عز وجل بالخضوع لأوامره، والانتهاء عن زواجره، انبثقت سائر الأمانات مثل:

- أمانة الشهادة لهذا الدين.
- وأمانة العلم.
- وأمانة الدعوة إلى الله تعالى.
- وأمانة المحافظة على حرمات المجتمع.
- وأمانة التعامل مع النّاس وردّ أماناتهم إليهم[2].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: والأمانة في الصلاة، والأمانة في الصوم، والأمانة في

---

[1] مسند أحمد: 135/3 اسناده حسن.

[2] الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص 6.

الحديث، وأشدُّ ذلك الودائع[1]، فالأمانة في الإسلام مفهومها شامل لدين الإنسان وطاقته في تحمل أعباء التكاليف التي فرضها الله تعالى عليه[2].

وتدخل الأمانة في مجالات كثيرة منها: الدين والأعراض والأموال والأجسام والأرواح والمعارف والعلوم والولاية والوصاية والشهادة والقضاة والكتابة ونقل الحديث والأسرار والرسالات والسمع والبصر وسائر الحواس، ولكل واحدة من التفاصيل ما يناسبها[3].

لقد شملت الأمانة التكاليف والواجبات التي طولب بها الإنسان أداء لحقها، ولم يترك الإسلام أمرها إلى مجرد عرف المجتمعات وعقول الأفراد، لأن هذا ما لا تهتدي إليه عقول الناس، وآراؤهم وخبراتهم دون توجيهات الوحي وإرشاده، بل انفرد بمنهجه الكامل لشرح الأمانة وتطبيقها في كل مجالات الحياة[4]، وهذا المفهوم ممتدة جذوره منذ مولد الحضارة الإنسانية الأولى التي أسسها آدم عليه السلام.

وتتمثل الأمانة في الآتي:

– في مجال العقيدة: ارتباط الأمانة المتين بالإيمان بالله تعالى، وبالملائكة عليهم السلام، والإيمان بالكتب المنزلة وبالرسل عليهم الصلاة والسلام، والإيمان باليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

---

[1] تفسير الطبري، مصدر سابق، 240/20.

[2] الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص 6.

[3] الأخلاق الإسلامية وأسسها، حبنكة الميداني، مصدر سابق، 647/1.

[4] الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص 494.

- في مجال العبادة: إقرار الأمانة الوثيق بجميع التكاليف والعبادات المتعلقة بالأفراد كالصلاة والزكاة والصوم والحج، وسائر المعاملات وكذلك أداء العبادات المتعلقة بالجماعة كإمامة المصلين والأذان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- في المجال الاجتماعي: الأمانة آصرة اجتماعية قوية تحث على:

- رعاية الأسرة المسلمة وتشمل التأكيد على أمانة الزوجين في أداء الحقوق الزوجية، وأمانة الزوجين في تربية الأولاد، وأمانة الأولاد في البرّ بوالديهم.

- العلاقات، وتتمثل الأمانة في حفظ أسرار البيوت والمجالس، وما يؤتمن عليه من أسرار، سواء على المستوى الفردي أو على مستوى الدول والحكومات، وما يجب على المسلم من ستر عورات إخوانه صيانة للمجتمع من استشراء نار الفساد.

- الولايات، وتعد الأمانة شرطاً أساسياً في تعيين الولاة وتقليد المناصب، والتكليف بالوظائف، لأن الولاية مسؤولية جسيمة، وأمانة ثقيلة لا تصلح إلا لمن كان مؤهلاً لها بصفات معينة مثل: الإيمان وكمال العقل، وتمام القوة، والكفاءة الحقيقة للمنصب، والعفة عن سؤال المنصب، والصدق في الأقوال والأعمال ليتمكن من أداء واجبات الولاية على الوجه الأكمل كما قرّره الشرع الحكيم، وبذل النصح لمجتمعه ومشاورة الأمناء فيما يهم من أمر الدنيا والدين.

- في المجال الاقتصادي ويمكن إجمال الأمانة في أنها من الأخلاق العظيمة التي تدعو إلى الآتي:

- أداء الأمانات إلى أهلها ويدخل فيها حفظ الديون بكتابتها وعدم الزيادة على

أصل الدين، وحسن أداء الحقوق وتعني الأمانة بتوفية الكيل والميزان وعدم التطفيف فيهما وذلك مدعاة لحفظ حقوق الآخرين وتأكيد أواصر المحبة في المجتمع وشيوع الأمن والرخاء[1].

- الوفاء بالعقود المالية: ويشتمل على تأدية الأمانة في عقود المعاوضات، مثل توفية أجور المستأجرين وصون بيع المرابحة عن الخيانة والكذب ببيان ثمن السلعة من غير بينة ولا استخلاف، وكذا الأمانة بكتابتها صحيحة خالية من الغدر بحقوق الآخرين، أو الإضرار بالورثة، وعلى الموصى إليه أمانة إنفاذ الوصية على الوجه الصحيح، وتتضمن الأمانة ردّ الودائع وصيانتها من الضياع أو التفريط فيها وردّها لصاحبها متى طلبها كاملة غير منقوصة، وهذا من قوام ازدهار النشاط الاقتصادي في المجتمع وتكافل أفراده[2].

- المجال العلمي:

العلم أمانة عظيمة يحملها ويؤديها الأخيار من الأمة لفظاً ومعنى وتأليفاً ونشراً مع القيام بالأمانة في كلٍ من:

- حفظ العلم بتحمل سماعه أو قراءته على الشيوخ الأمناء، مهتدين بفعل الصحابة رضي الله عنهم في أمانة الحفظ والأداء ومثال ذلك: جمعُ القرآن الكريم، وحفظ السنة من الضياع والتحريف، والحكم على الإسناد والمتن وفق طرق دقيقة لمعرفة الحديث الصحيح

[1] الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص 495.

[2] المرجع نفسه، ص 495.

من الضعيف، ومن ثم تأدية العلم للأجيال بعدم كتمانه، والتوقف على الفُتيا بلا علم، وصيانة العلم عن التحريف والتضليل.

- التأليف العلمي ونشره، والتي تعد من أعظم الأمانات العلمية وتتحقق بالدقة في نقل الأقوال وتوثيقها، وتصحيح التصحيف، مع ما تتضمنه الأمانة من رعاية حق المؤلف والناشر، والتزام المصداقية فيما يؤلف وينشر من كتب ومصنفات بما يُنمي الثروة العلمية والمكانة الحضارية للمجتمع[1].

ب- مقومات الأمانة:

إن هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ مهمة جداً، فهي تحدد هوية الإنسان وتحدد مهمته وتحدد مرتبته من بين المخلوقات، وهي آية التكليف والأمانة وهي أصل التكليف، فأنت إنسان مكلَف، وأنت المخلوق المكرّم وأنت الذي سخر له خالق الكون ما في السماوات والأرض، فيجب أن تعرف من أنت؟ لأنه من عرف نفسه عرف ربه، ويجب أن تعرف المهمة التي من أجلها خُلقت، ويجب أن تعرف الرسالة التي حملت ويجب أن تعرف الدار التي أنت عليها مقبل، ويجب أن تعرف الحساب الذي سوف تحاسب به، فهذه أسئلة خطيرة جداً[2].

وإن السماوات والأرض والجبال مخلوقات عرضت عليها الأمانة: فهذا العرض والإباء

---

[1] الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص 496.

[2] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 138/10.

والإشفاق كله حق، وقد خلق الله السماوات والأرض والجبال إدراكاً بعلمه هو جلّ وعلا ونحن لا نعلمه، وبذلك الإدراك أدركت عرض الأمانة عليها وأبت وأشفقت أي: خافت.

ومثل هذا تدل عليه آيات وأحاديث كثيرة، فمن الآيات الدّالة على إدراك الجمادات المذكور: قوله تعالى في سورة البقرة في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة:74] فصرّح بأن من الحجارة لما يهبط من خشية الله، وهذه الخشية التي نسبها الله لبعض الحجارة بإدراك يعلمه هو سبحانه وتعالى.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:44].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء:79]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الأحاديث الصحيحة الدالة على ذلك قصة حنين الجذع، الذي كان يخطب عليه الصلاة والسلام عليه لما انتقل بالخطبة إلى المنبر وهي في الصحيح وغيره[1]، ومنها ما ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: إني لأعرف حجراً كان يسلّم عليّ في مكة[2].

وأمثال هذا كثيرة، فكل ذلك المذكور في الكتاب والسنة إنما يكون بإدراك يعلمه الله، ونحن لا نعلمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، ولو كان المراد بتسبيح

---

[1] سنن الترمذي: 2/ 379. التدبر والبيان، المغراوي، مصدر سابق، 83/27.

[2] مسلم: رقم 2277.

الجمادات دلالتها على خالقها لكُنّا نفقهه، كما هو معلوم وقد دلت عليه آيات كثيرة[1].

إن الإنسان حينما قبل الأمانة التي عرضت عليه من رب العالمين، عظمت مسؤوليته وجعلت نفسه أمانة بين يديه فإذا استطاع أن يعرّفها إلى ربها وأن يجعلها على طاعته وأن يجعلها تتقرب إليه تعالى سعد إلى الأبد، وإذا نسي هذا المخلوق ربه ونسي الأمانة التي حُملها، ونسي التكاليف الذي كلف بها وانغمس في شهواته شقي إلى الأبد، لذلك يقول الله عز وجل: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:8-10].

فبإمكانك أن تزكي نفسك وبإمكانك أن تطهرها وبإمكانك أن تجعلها مستقيمة، وبإمكانك أن تسمو بها، وذلك بأن تحملها على طاعة الله، فتستحق النعيم الأبدي وحينما تلتفت إلى الدنيا، وتنغمس في حمأتها، وتلهث وراء شهواتها، تدنّسها وإذا دنستها استحقت العذاب الأبدي، هذه هي الأمانة.

والأمانة أن يعرف الإنسان ربه، وأن يزكي عمله، والأمانة ألاّ يكون جهولاً لربه، وألاّ يكون ظلوماً لعمله، أما إذا كان ظلوماً جهولاً، فقد ضيع الأمانة واستحق المهانة، وشقي في الدنيا والآخرة، فكيف تزكي نفسك التي جُعلت أمانة عندك؟ وكيف تطهرها؟ وكيف تسعد بها؟ وكيف تسمو بها؟ ربنا عز وجل حينما حمّل الإنسان الأمانة أعطاه الوسائل التي يستعين بها وأعطاه المقومات، وإليكم هذه المقومات.

- المقوم الأول:

[1] أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، 6/ 258-259.

– تسخير الله للإنسان هذا الكون: الله عز وجل سخر للإنسان كوناً هو في الحقيقة مظهر لأسماء الله الحسنى ولصفاته الفضلى ومظهر لكمالاته، فالكون أول مقوم من مقومات حمل الأمانة، فيستحيل على الإنسان في الدنيا أن يرى الله لأن مادّيته لا تحتمل، فسيدنا موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف:143].

فإذا كان الإنسان في الدنيا لا يستطيع أن يرى الله عز وجل، فكيف السبيل إلى معرفته؟

السبيل أن يرى خلقه، فإذا نظرت في خلقه عرفته، فهل تريد أن تعرف الله عز وجل؟

انظر إلى جسمك وإلى أعضائك، وإلى أجهزتك، وإلى حواسك، وتأمل في طبيعة نفسك وفطرتك، ونظام التوالد، ونظام الزوجية، وانظر إلى طعامك وإلى أنواع الخضروات، وإلى أنواع الفواكه، وإلى البقول، وانظر إلى الماء الذي أنزله الله من السماء، فاهتزت به الأرض، وأنبتت من كل زوجٍ بهيج، وفكّر في الهواء الذي تستنشقه، وفي الجبال، وفي الأنهار، وفي البحيرات، وفي البحار، وفي السهول، وفي أنواع الطيور، وفي أنواع الأسماك وفي أنواع المخلوقات وانظر إلى كل ما في الكون، قال الشاعر:

وفـي كـلِ شـــيء له آيـة

تــدل على أنــه واحــد

وإذا استفاد الإنسان من الكون استفادة مادية، وما استفاد منه في معرفة الله، فقد عطّل السبب الأول لخلق الكون والدليل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:12].

إذن، إن العلّة الأولى لخلق الكون هو أن تعرف الله عز وجل، فإذا لم تهتم بهذه الناحية واهتممت كيف تستفيد من هذه الأرض؟ وكيف تستخرج الثروات؟ وكيف تربح؟ وكيف تسعد في الدنيا؟ فقد عطلت الهدف الأكبر والأول من خلق الكون[1].

- المقوم الثاني:

هو العقل، فالعقل السليم: يستحسن الأمانة باعتبارها قيمة كبرى وضرورة عقلية للتعامل الإنساني في جميع شؤون الحياة، فالعقل هو المميز الجوهري للإنسان، وهو سرّ الإنسانية المؤهلة للتكليف وحمل الأمانة، فالعقل السليم يُقدر الأمانة؛ لأنه يميز بين طريقي الهداية والضلال بعد بيان الرسل لهما[2].

وهذا العقل الذي أودعه الله فيه هو مناط التكليف، فلولا العقل لما كُلّف الإنسان، وهذا العقل يتوافق في مبادئه مع مبادئ الكون، ففي الكون نظام السببية، والعقل لا يفهم الشيء إلا عن طريق السبب، وفي الكون نظام الغائية والعقل لا يفهم الشيء إلا بغاية كافية لوجوده، والكون فيه تناقض والعقل يرفض التناقض، وللعقل مهمات محدودة

---

[1] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 141/10.

[2] الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص 493.

فبإمكانه إذا نظر في الكون أن يحكم بوجود خالق هذا الكون، وبإمكانه إذا قرأ كتاب الله عز وجل أن يكتشف إعجازه فيحكم عندئذ أن هذا كلام الله عز وجل، ويستنبط أن الذي جاء بهذا الكتاب المعجز لابّد من أن يكون رسول الله[1]، وكلما كان عقل الإنسان سليماً منسجماً مع فطرته كلما حرص على تحقيق الأمانة في حياته بمفهومها الشامل.

- المقوم الثالث:

هو الشهوة فالله تعالى أودع فيك الشهوة، ويجب أن تعلم علم اليقين أن هذه الشهوات ما أودعت فيك إلا لترقى إلى الله عز وجل، فكيف ترقى إلى الله لولا هذه الشهوات التي أودعها الله فيك؟ كيف تحس أن الله يحبك إن لم يودع فيك شهوة تعاكسها؟، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:14].

فأودع فيك حب النساء، فكيف ترقى إلى الله عز وجل إن سرت مع هذه الشهوة؟، وذلك بالالتزام بأمانة التكليف بالحلال والابتعاد عن الحرام، وكذلك كافة الشهوات التي ركبها الله في الإنسان، فمثلاً أن نترفع عن المال الحرام وننفق المال الحلال في سبيل الله، فعن طريق شهوة المال مثلاً ترتقي مرتين: مرة صابراً عن الحرام، وترتقي مرة شاكراً لما وفقك الله من إنفاق في سبيله، فإذا أخذ الإنسان ما أبيح له يشكر فيرقى، وإذا ترك ما

[1] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 141/10.

نهي عنه يصبر فيرقى[1].

- المقوم الرابع:

هو الفطرة النقية: تنمو الأمانة في ظل التزكية والتثقيف وتنقص في ظل الإهمال والتكاسل، ويميل الناس فطرةً إلى تقدير الأمانة، وإجلال الأمناء في جميع المجتمعات[2].

فالله عز وجل فطر الإنسان فطرة عالية نقية بيضاء ليلها كنهارها، فإذا انحرفت عن طريق الحق تشعر بالانقباض، وبوخز الضمير، وبالكآبة وكل الآلام التي يتحدث عنها علماء النفس ما هي إلا الفطرة التي خلقها الله عز وجل، فإذا حِدت عن منهج الله عز وجل، عذبتك فطرتك وأنت لا تدري، فدعك عن كل علم، إن أخذت ما ليس لك تشعر بضيق، وإن أسأت إلى والدتك تشعر بضيق، وإن ظلمت إنساناً تشعر بضيق، وإن أسأت إلى حيوان، تشعر بضيق ما هذا الضيق؟.

إنه لأمر الفطرة النقية لله عز وجل قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم:30].

- المقوم الخامس:

هو حرية الاختيار، فالله عز وجل أعطاك قوة فيما يبدو، فبإمكانك أن تقوم وأن تسير، وأن تتحرك وأن تقول، وأن تفعل شيئاً، لكن لو كنت مقهوراً مجبراً، ولم تكن مخيراً لم تكن جنة، ولا نار، ولا حساب، ولا عقاب، ولا عذاب، ولا ثواب، ولا جزاء، ولا

[1] المرجع نفسه، 141/10.

[2] الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص 493.

سيئة ولا حسنة، كل شيء يتعطل، ولو أن الله أجبر عباده على الطاعة، لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو أنه تركهم هملاً؛ لكان عجزاً في القدرة[1]، ولذلك فحرية الاختيار من مقومات الأمانة.

المقوم السادس:

هو الشرع: فالله عز وجل أعطاك اختياراً، وفطرة وشهوة، وعقلاً وكوناً، فأنت مخير ومشته، وذو فطرة عالية، وذو عقل، وهناك كون سخره الله لك، فهذه كلها من مقوّمات التكليف، لكن العقل قد يضل، والفطرة قد تطمس، فأنزل الله لك شرعاً وجعله ميزاناً على العقل والفطرة، فعندك كتاب الله يعرفك إلى ذاتك ويعرفك إلى ربك، ويطلعك على بداية الخلق، وهذه الآية من ذلك ويطلعك على ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، يجب أن تعرف من أنت؟ أنت إنسان، ولأنك إنسان قبلت حمل الأمانة، وحينما قبلت حمل الأمانة صار أمامك خياران لا ثالث لهما: إما أن تكون أعلى كل المخلوقات وإما أن يكون هذا الإنسان أسفل كل المخلوقات، فيمكن أن تكون أعلى مخلوقات الكون بأن تعرف الله وأن يصلح عملك، فإذا دنّس الإنسان نفسه كان أسفل سافلين قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4]، فإذا لم يعرف ربه ﴿رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:5]. لقد حمل الأمانة فلو أداها بحقها، لكان له عطاء يفوق حد الخيال[2]، ولبلغ في سعادته مراتب متقدمة في رضى الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى.

---

[1] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 142/10.

[2] المرجع نفسه، 143/10.

قال ابن الماجشون: رُكب الحيوان من شهوة بلا عقل فالحيوان متعة مادية ولا حساب عليه، ورُكّب الملك من عقل بلا شهوة فمتعته روحيه ولا حساب عليه، فإذا غلب عقله شهوته، كان فوق الملائكة، وإن غلبت شهوته عقله، كان دون الحيوان ولا يوجد حل وسط، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:7]، أي هم أعلى من الملائكة، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:6] أي: هم دون الحيوان[1].

وحينما ينسى الإنسان ربه، وحينما ينسى المهمة الخطيرة التي نيطت به وحينما تستهلكه الحياة، وحينما ينغمس في الشهوات الدنيئة إلى قمة رأسه، وحينما يأكل ويشرب وينام ويستمتع كما تفعل البهائم تماماً، فقد صار ظلوماً جهولاً، والدين كلمتان: ألاّ تكون ظلوماً جهولاً، بأن تكون عالماً في عقلك صالحاً في عملك، فأنت في الدنيا لك مهمتان: أن تعلم وأن تعمل بما علمت، وأن تعرف الله عز وجل وأن تزكي نفسك، أن تتعرف إلى الله وأن تحسن إلى الخلق حتى تتأهل لتكون إلى الأبد في جنة عرضها السماوات والأرض.

لذلك يجب أن نعرف من نحن؟ ولماذا نحن في الدنيا؟ وماذا سيكون بعد الموت؟.

فقال تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:73][2].

ج- ضياع الأمانة من علامات الساعة:

---

[1] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 143/10.

[2] المرجع نفسه، 143/10.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟، فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدّث فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: أين أراه السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله، قال: فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة[1].

قال ابن بطال في شرح حديث أبي هريرة: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة[2]، هو كلام مجمل أحب الأعرابي السائل النبي صلى الله عليه وسلم شرحه له فقال له: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله، فأجابه بجواب عام دخل فيه تضييع الأمانة، وما كان في معناها مما لا يجري على طريق الحق، كاتخاذ العلماء الجهال عند موت أهل العلم، واتخاذ ولاة الجور وحكام الجور عند غلبة الباطل وأهله، وقد ذكر ابن ابي شيبة من حديث المقبري عن أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم: سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين، وينطق الرويبضة، قيل وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة[3].

---

[1] البخاري: 1/ 188-189.

[2] البخاري: 1/ 188-189.

[3] السلسة الصحيحة، للألباني، رقم 1887.

وقد رأينا أكثر هذه العلامات وما بقي منها غير بعيد[1].

قد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ضياع الأمانة من علامات الساعة، فالأمر جلل وخطير ويستحق الانتباه واليقظة والتحذير.

د- من آثار أداء الأمانة في المجتمع:

-الآثار السلوكية والنفسية:

- صلاح الفرد واستقامته من خلال تولية النفس وجهها شطر الحق والفضائل، وابتعادها عن الشر والرذائل، فيؤدي الفرد ما افترضه الله تعالى عليه من واجبات في العبادات والمعاملات، ويبتعد عن كل المنهيات التي زجر عنها، فيصدق الأمين في معاملاته ويقبل الحقّ ويُذعن له، فيستحق ثناء المولى الكريم عليه في كتابه ويعم الخير أفراده[2].

- الإخلاص في أداء الواجبات والمسؤوليات على النحو المطلوب، وتتضح آثار الأمانة في نمو الرقابة الداخلية ويقظة الضمير الحي، فيتقن الأمين الأعمال الموكلة إليه بكل دقة وإحسان، ويتحمل المسؤوليات المناطة به فردياً وجماعياً، مع مراعاة كل إنسان مسؤول بقدر استطاعته وتحمله، فيحاسب عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

- نيل السعادة والفلاح، من أعظم الآثار حصول محبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم للأمين، ثم محبة الناس واحترامهم وتقديرهم، فيكون ذلك سبباً لغناه فيحفظه الله في أهله وماله وفي حياته، وبعد وفاته، ثم ينال الفلاح في الآخرة، ويرتقي درجات

---

[1] التدبر والبيان في تفسير القرآن، المغراوي، مصدر سابق، 490/27.

[2] الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص 796.

النعيم الخالدة.

– الآثار الاجتماعية: وتتضح في الآتي:

– السمو الخلقي للمجتمع: تبرز آثار الأمانة في المجتمع في سلامة الصدر، وتماسك الأفراد، وتزكية النفوس، لأن المسلم يتمنى الخير للناس جميعاً، ويحرص على تحقيق مبدأ المحبة والنصيحة في ظل مجتمع أمين وارف.

– تبادل الثقة بين أفراد المجتمع: كلما ازدادت الثقة بين أبناء المجتمع كان ذلك دليلاً على توافر أمانتهم وسمو أخلاقهم، وهو يساعد على تحقيق التكافل الذي هو قاعدة المجتمع الإسلامي، وكذا الاحترام المتبادل لجهود الآخرين وما يقدمونه من عطاء وإسهام يجعل المجتمع أمة واحدة.

– المظهر الحضاري للمجتمع: تظهر الأمانة بين الأفراد في وجود نظام اجتماعي شامل لحياة الناس يقوم على العدل والتماسك والترابط والقوة، مما يؤول إلى تميز المجتمع ونهضته الحضارية في نشر الإسلام وظهور الحق[1].

– الآثار الاقتصادية: وتتضح في الآتي:

– استقامة التعامل المالي وسلامته؛ ذلك أن الاقتصاد في المجالات التي لا يكاد يستغني عنها أي فرد في أي مكان وزمان. لن ينهض المجتمع اقتصادياً، إذا لم يسلك أفراده مسلك الأمانة والاستقامة في التعامل المالي، وتنميته وفق أحكام الشريعة، وبجعل الدنيا وسيلة للآخرة وذخراً لمرضاة الله تعالى.

---

[1] الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص 797.

– تحقيق الأمن الاقتصادي في الإسلام بتنمية المال في شتى مجالات الحياة؛ ليتحقق الأمن المنشود باستغلال الموارد الاقتصادية التي هي هبات من الله تعالى، وهي أمانة في يد الأفراد والمجتمعات يمكن أن توظف في سبيل تحقيق الاستقرار وإشاعة الرخاء، والعمل على إقامة العدل، فيعم الأمن والأمان في أرجاء البلاد ونفوس العباد، وتكون الحركة التجارية أكثر ازدهاراً وتبادلاً للمنافع المعيشية والحاجات الضرورية والكماليات الاستهلاكية[1].

– الآثار العلمية:

– ضبط الموازين العلمية، وذلك بقيام العلماء بإرساء قواعد منهجية وفق مصادر الإسلام (الكتاب والسنة)، مرتبطة بالإيمان مع حرص على الأمانة في التحري والتثبت، وقد دفع هذا المنهج غير المسلمين إلى الاعتراف للمسلمين بالأمانة العلمية في مناهجهم العلمية، كما أبدع العلماء المسلمون في علم الإسناد والجرح والتعديل ودفع الكذب عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذا التعاون العلمي الموسوعي والتناصح بين العلماء.

– ازدهار الحركة العلمية، وتتمثل في كثرة العلماء من الصحابة والتابعين، من الصحابة يأخذون العلم ويدونون عنهم الآثار الصحيحة، ويبوبون الأحكام بأمانة فائقة ورعاية تامة، وقد بلغوا العلم ونشروه فلم يبق حاضرة من حواضر المسلمين إلا وأصبحت قاعدة

---

[1] الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص 498.

للمعرفة، ومنارة للعلم، وواجهوا الشبهات والتيارات الفكرية المنحرفة وحذّروا من الفرقة[1].

10- بنو آدم والكرامة الإنسانية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:70]

إن بني آدم من أصل واحد على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأعراقهم وأديانهم، وكرامتهم واحدة متساوون فيها بلا تفاوت وبلا منّة من أحد، فالله تعالى الذي خلق الإنسان وكرّمه لمجرد آدميته وإنسانيته بغض النظر عن دينه ولونه ولغته وعرقه، وقد جسد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في موقف من أروع المواقف الإنسانية، فقد روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: مر بنا جنازة فقام لها النبي صلى الله عليه وسلم وقمنا به فقلنا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي، قال: إذا رأيتم الجنازة فقوموا[2]، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: أليست نفساً[3].

ومظاهر هذا التكريم للإنسان كثيرة ومنها:

أ- التكريم الجسدي:

فقد خلقه الله تعالى بيده في أحسن تقويم، منتصب القامة، مرفوع الرأس، يمشي على رجلين، قال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4]، وقال:

---

[1] المرجع نفسه، ص 498.

[2] البخاري، ك الجنائز: رقم 960.

[3] البخاري، ك الجنائز: رقم 1312.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن:3] هذا في الوقت الذي خلق فيه خلقاً كثيراً ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾، ومن تكريم الله لآدم بأن نفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته احتفاءً به، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:71-72].

ب- التكريم العقلي:

لقد ميز الله تعالى الإنسان بالعقل عن غيره من المخلوقات وجعله مناط التكليف، فإذا غاب رفع التكليف[1]، وهو أداة العلم والمعرفة، وبه يعقل الإنسان الحق من الباطل والخير من الشر، وبالعقل يعقل الإنسان شهواته ويتحكم فيها، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:9].

وهو طريق الإقناع، وخاصة في قضايا العقيدة، وهو وسيلة التواصل والحوار، يقول الدكتور راغب السرجاني: فإذا كان العقل مشتركاً بين جميع البشر، فإنه وسيلة مهمه للتواصل بين أبناء الشعوب جميعاً، إذا ما احترمت الشعوب عقول الآخرين، والحضارة الإسلامية خير شاهد على أن المسلمين كانوا يحترمون عقول الآخرين، فالحضارة الإسلامية لم تكن يوماً من الأيام داعية إلى العزلة أو الانغلاق الفكري، بل فتحت أبوابها على مصراعيها للثقافات الأخرى.

[1] الحوار وبناء المشترك الإنساني في القرآن الكريم، المصطفى السماحي، مصدر سابق، ص 70.

وقد رفع الله من قيمة العقل، وأحاطه بعناية خاصة، فحرّم كل ما يفسده من مسكر أو مفتر، ومادام العقل مشتركاً بين جميع البشر، فإنه ينبغي أن يسهم الجميع في محاربة كل ما يفسده من مخدرات وخمور وأفكار وغيرها من المفسدات، فهذا من المشترك الإنساني الذي يجب التعاون عليه لما فيه من مصلحة مشتركة للجميع[1].

ج- التكليف وأمانة الاستخلاف:

فإذا كان الله تعالى قد حبا الإنسان بالعقل، فإنه جعله مناطاً لتكليفه فهو المخلوق الوحيد الذي اجتباه الله تعالى للقيام بمهمة الخلافة في الأرض وعمارتها بالخير، وتحقيق العبودية له، والقيام بالتكاليف الشرعية، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:72].

وهي مهمة مختصة بالإنسان دون سواه، والفعل المختص بالإنسان هو ثلاثة أشياء، وهي: عمارة الأرض، وعبادته وخلافته، وقد بيّنا ذلك في الصفحات السابقة.

- من مظاهر التكريم للإنسان أن الله سخر له الكون وما فيه انتفاعاً واستثماراً من أجل أداء أمانة الاستخلاف وتحقيق العبودية الكاملة لله، وقد تقرر أن الكون كله، بكل ما فيه من عالم الأشياء مهيأ في أصل صنعته من قبل صانعه تهيئة مقدرة، بحيث يستجيب الإنسان بقدر، فيما خص به من مهمة الحياة، ومن هذا المنطلق، فإنه يجب على هذا

---

[1] الحوار وبناء المشترك الإنساني في القرآن الكريم، المصطفى السماحي، مصدر سابق، ص 71.

الإنسان الخليفة الذي استُئمن على هذا الكون وهو من المشترك الإنساني أن يحفظه من الضياع حتى يرده الى من استخلفه، فالإنسان ليس هو المالك الحقيقي للكون وما فيه، بل هو مجرد حائز له بوكالة من صاحبه، وإنما المالك الحقيقي له هو الله تعالى كما هو واضح ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:7]، وقوله تعالى: ﴿وَآَتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آَتَاكُمْ﴾ [النور:33][1]. والمطلوب من الإنسان أن يلتزم بهدايات الله وشرعه في عبادته وعمارته للكون، لكي يحقق المقاصد الكبرى التي خلق من أجلها الإنسان.

د- الحرية من كرامة الإنسان:

فلا تكتمل كرامة الإنسان إلا بالحرية، فالإنسان يولد حراً وينبغي أن يبقى حراً، ومن ثم فلا سلطة لأحد على أحد، ولا سيادة لأحد على أحد لاستعباده في هذا الوجود، كما قال عمر رضي الله عنه: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً[2].

فالمظلوم المقهور لا يسلك في أذنه إلا صوت يبشره بالحرية والكرامة، إذ أن الكرامة هي أساس ومصدر حقوق الإنسان، والحرية هي المظهر الخارجي لهذه الكرامة، فلا كرامة للإنسان إلا بالحرية[3].

---

[1] الحوار وبناء المشترك الإنساني في القرآن الكريم، المصطفى السماحي، مصدر سابق، ص 73.

[2] المرجع نفسه، ص 73.

[3] المشترك الإنساني، السرجاني، مصدر سابق، ص 391.

كيف لا والحرية من المقاصد التي تشترك الرسالات السماوية في حفظها[1]، فما أرسل الله الرسل، وما أنزل الكتب إلا لتحرير الإنسان من عبودية غير الله من الطواغيت والشهوات والأصنام وغيرها، إلى عبودية الله وحده، يلخص ذلك ما قاله ربعي بن عامر رضي الله عنه لرستم قائد الفرس، لما سأله: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[2].

فالحرية إذن من المشترك الإنساني الذي تقدره وتقرره كل الأديان وجميع الحضارات وكل الشعوب والأمم منذ القدم إلى يومنا هذا، ومن أجلها ناضلت الشعوب وقاومت الاستعمار بكل أنواعه[3].

واليوم تؤكد المواثيق والمعاهدات الدولية التي وقعت عليها كل دول العالم أو جلها على قيمة الحرية وأهميتها، مما يدل على أن الحرية من القيم الإنسانية المشتركة التي يجب الاشتغال بها، والنضال من أجل تحقيقها لكل شعوب العالم دون تمييز أو تفضيل حتى لا تبقى حبراً على ورق، فما زال العالم اليوم يخشى التمييز والعنصرية والكيل بمكيالين، فلو مات إنسان غربي واحد لاهتزت له الدنيا وقامت ولم تقعد، وأما أن يموت الآلاف من غيرهم فإنهم لا يبالون، ولا يحرك لهم ساكناً. ومن الحريات التي كفلها الإسلام، حرية المعتقد، حيث منع الإكراه في الدين، ولم يجعله سبيلاً لإرغام الناس على اتباعه، قال

---

[1] المرجع نفسه، ص 395.

[2] البداية والنهاية، ابن كثير، مصدر سابق، 7/46-47.

[3] الحوار وبناء المشترك الإنساني في القرآن الكريم، المصطفى السماحي، مصدر سابق، ص 74.

تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256].

وهي آية محكمة غير منسوخة، قال ابن تيمية: وهذا نص عام أنّا لا نُكره أحداً على الدين، فلو كان الكافر يُقتل حتى يُسلم لكان هذا أعظم الإكراه على الدين[1].

ثم قال جمهور السلف والخلف بأن هذه الآية ليست مخصوصة ولا منسوخة، بل يقولون: إنا لا نُكره أحداً على الإسلام، وإنما نقاتل من حاربنا، فإن أسلم عصم دمه وماله ولو لم يكن من فعل القتال لم نقتله ولم نكرهه على الإسلام[2].

بل إن من غايات الجهاد في الإسلام الدفاع عن العقيدة وحماية الأديان من الازدراء كما هو واضح في الآية في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:40].

قال ابن كثير: في تفسيره الآية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيّن واضح جليّ بدلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره، ونوّر بصيرته، ودخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده في الدين مكرهاً مقهوراً[3].

وأي حرية أكثر من السماح لنصارى نجران بأن يمارسوا شعائرهم وصلاتهم داخل

[1] المرجع السابق، ص 74.

[2] المرجع نفسه، ص 74.

[3] تفسير ابن كثير، مصدر سابق، 682/1.

المسجد النبوي، فقد ذكر ابن القيم والمقريزي وغيرهما أنه لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلوا عليه مسجده بعد العصر فحانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوهم، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم.

هـ- فوائد تكريم الإنسان:

- إن تكريم الإنسان قيمة عظمى تدفع المسلم للاعتزاز بكرامته وعدم التفريط فيها، مما يجعله يرفض الظلم ويأبى الضيم فيعيش مرفوع الهامة قوي العزيمة رابط الجأش لا يخشى في الحق لومة لائم.

- إن قناعة المسلم بتكريم الله له ولغيره من البشر تجعله يحافظ على أرواح الناس ويبتعد عن إيذائهم أو إرهابهم، لأنه مطالب بأن يكرم من كرمه الله ورسوله، ومن يكرمه ربه ينبغي ألا يهينه أحد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج:18].

- إن تكريم الإنسان يدفع المؤمن الحقّ إلى شكر المولى عز وجل على تلك النعم العظيمة التي حباه بها وفضله على كثير مما خلق.

- إن من عرف إكرام الله له لابد وأن يبتعد عن معاصيه وإذا غلبه الشيطان فعصى فعليه المبادرة بالتوبة.

- إن تكريم الخادم -كما أمر الإسلام -كفيل بأن يقضي على حقده، والحسد من هؤلاء الخدم: الذين قد تدفعهم الإهانات المنافية لروح الإسلام إلى ارتكاب حماقات تصل إلى حد القتل.

– إن تكريم الإسلام للمرأة أمّاً وبنتاً وزوجاً يجعلها تشعر بقيمتها في المجتمع وتعتز بدورها في بناء الأسرة ولا شك أن المرأة إذا كانت راضية النفس، موفورة الكرامة، ستحول بيتها إلى جنة وارفة الظلال، وصدق الشاعر النبيل إذ قال:

الأم مدرســة إذا أعددته　　　أعددت شعباً طيـب الأعراق

– تكريم الإسلام ومن ثم المسلمين لأهل الذمة من المعاهدين والكتابيين وغيرهم يجعل هؤلاء يستشعرون عظمة الإسلام، ويوحد كلمة المجتمع فيصبح آمناً من الدسائس والمكائد التي يلجأ إليها من هضمت حقوقهم أو انتهكت حرماتهم، ويجعل من هؤلاء الذميين عناصر صالحة تعمل وتعطي دون خوف.

– إن تكريم المحارب —حتى وإن كان كافراً– يحمي البشرية من تلك المجازر الجماعية التي تقشعر لها الأبدان ويروح فيها الضحايا من النساء والولدان، وما ضحايا لبنان والبوسنة وغيرهما على أيدي سفاحي العصر الحديث عنا ببعيد، ولو كان هؤلاء يعرفون كرامة الإنسان كما أقرّها الإسلام ما سمعنا عن هذه الأهوال التي يشيب لها الوليد.

– إن إكرام الإنسان إذا كان غريباً أو لاجئاً يشعره بعظمة الإسلام ويفرج كربته.

– إكرام الإنسان إذا كان شيخاً فيه بشارة للمكرم بأنه سيعيش طويلاً وأنه سيرزق من كرمه، حينذاك.

– إن من يعرف إكرام الله له بخلقه من طين وتسويته ونفخه فيه من روحه لا يتكبر ولا يتجبر ولا يمنع خيراً رزقه إياه.

- إن من يعرف أن الله أكرمه فسخر له ما في الكون ورزقه السمع إلى ذكر الله، وإن نسي نسيه الله يوم القيامة.

- إن من يعذب الناس وينتهك بذلك آدميتهم ولا يعبأ بكرامتهم، عليه أن ينتظر عذاب الله يوم القيامة، فإذا منعه تكريم الإنسان من ذلك فقد أمن العذاب من هذه الجهة يوم القيامة[1].

- الإنسان المؤمن مكرّم حياً وميتاً، فالتكريم الإلهي يحفّ الإنسان من جميع جوانبه منذ أن خلقه الله سبحانه وأودع فيه فطرة التوحيد والإسلام، وأسجد له ملائكته وكلّفه بالعبادة والخلافة، وكرّمه في الحياة بالإيمان والهداية وفي الآخرة بالجنان إن اختار طريق الرحمن، لقد كرم الله هذا الإنسان يوم خلق، ويوم يموت ويوم يبعث حياً[2].

- إن الله تعالى كرّم الإنسان بأن جعل له حصانة من كل ما يضر به نفسياً وعقلياً وجسدياً وسلوكياً.

- العقل أهم خصائص الإنسان التي بموجبها فضل الله الجنس الإنساني على سائر المخلوقات، لذلك اعتبر الإسلام العقل مناط التكليف في سائر المسؤوليات الدينية والدنيوية، إذ به يهتدي الإنسان إلى الحقائق الكبرى التي دعا الله إلى الوصول إليها بالبراهين العقلية لا بمجرد الإيمان الأعمى.

[1] موسوعة نظرة النعيم، إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح عبد الله بن حميد وعبدالرحمن بن محمد، مصدر سابق، 1175/4.

[2] الكرامة الإنسانية في الشريعة الإسلامية،، فاخر عباس الدّاودي، مصدر سابق.

- كرّم الله بني آدم جميعاً، حيث وهبهم العقل على سواء، فلا تفاوت من حيث المنحة الإلهية، وإنما التفاوت في مدى استعداد الإنسان لها.

ثانياً: قصة ابني النبي آدم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ۝ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة:27 -32].

هذه الواقعة لم يشهدها من البشر أحد سوى آدم وزوجته وأولاده، ولولا أنّ القرآن الكريم قد سجلها بهذا التفصيل الدقيق الذي يمكن من استخلاص العبرة منها، ما علم بها أحد من البشر بعد، وما كان أمام العلماء والمؤرخين من وسيلة للوصول إلى معرفة

شيء من تلك الواقعة التي طواها الزمن في أستاره[1].

وإذا علمنا أن العرب من زمن الجاهلية لم يكونوا أهل علم وتدوين، بل كانوا في غالبيتهم من الأميين، وكذلك كانت غالبية أهل الكتاب الذين كانوا موجودين في عدد من الجيوب المعزولة على أطراف شبه الجزيرة العربية، كالمناذرة الذين سكنوا كلاً من شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق، وكانوا عرباً اعتنقوا النصرانية وتحالفوا مع الفرس، ثم دخلوا الإسلام بعد الفتح الإسلامي، وكالغساسنة وهم سلالة عربية كذلك، يمنية الأصل هجرت بلادها عند انهيار سدّ مأرب في القرن الثالث الميلادي واستوطنت كلاً من بلاد حوران وشرقي الأردن وفلسطين ولبنان، واعتنق عدد من أبنائها الديانة النصرانية، أسلمت غالبيتهم بعد الفتح الإسلامي، وكيهود كل من خيبر ويثرب الذين أسلم بعضهم بعد وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ويهود ونصارى كل من نجران واليمن، إذا علمنا ذلك أدركنا ومضة الإعجاز الإنبائي في إيراد القرآن الكريم لقصة ولدي آدم بالصورة التي اتسم بها كتاب الله العزيز في إيراد القصة، لا بتفاصيلها المكانية والزمانية ولا بكثرة أسماء وأعمار الأشخاص الواردة أسماؤهم فيها، ولكن بإيراد الدروس والعبر المستفادة منها، وهذا هو الفرق بين الوحي السماوي الذي حفظ بعهد من الله تعالى وبين قصص التراث الشعبي الذي نقل مشافهة عبر آلاف السنين فأضيف إليه ما أُضيف، وحذف منه ما حُذف[2].

---

[1] من آيات الإعجاز الإنبائيّ والتاريخي في القرآن الكريم، زغلول النجار، مصدر سابق، 125/1.

[2] من آيات الإعجاز الإنبائيّ والتاريخي في القرآن الكريم، زغلول النجار، مصدر سابق، ص 129.

والفارق بين روايتي كل من العهد القديم والقرآن الكريم لقصة ولدي آدم هو الفارق بين كلام الله تعالى وتعبير البشر عن الواقعة الواحدة وذلك بكل ما لله تعالى من صفات الكمال المطلق والعلم المحيط بكل شيء، وما للبشر من محدودية العلم، وقصور الحواس، وعرضة النسيان والنقص في كل شيء، أو الرغبة في التدليس والتزوير في كثير من الأحيان[1].

إن قصة ابني آدم التي جاءت في القرآن الكريم هي قصة الإنسان في ارتفاعه وانحطاطه، وفي طاعته ومعصيته وفي سعادته وشقائه، وفي سموّه وسقوطه، هي قصة البشر ولقد جعلها الله عز وجل درساً بليغاً لهذا الإنسان لكي يتعظ بها ويستفيد منها في حياته ويستخرج منها الدروس والعبر.

1- قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:27].

أ- ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾:

يقول الله آمراً نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على هؤلاء اليهود المجاورين لك والمحيطين بك.

- اتل على هؤلاء اليهود الناكثين للعهود، الناقضين للمواثيق، اتل على هؤلاء الذين

[1] المرجع نفسه، ص 131.

تصدر منهم الخيانة تلو الخيانة، والغدر بعد الغدر.

- اتل على هؤلاء وعلى غيرهم من النصارى والمشركين.

- واتل كذلك على أصحابك من المؤمنين والمسلمين، بل واتل على الجميع وذكّر الجميع وحذّر الجميع، إذ الله تعالى قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآَنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام:19][1]. واتل عليهم أي: اقرأ عليهم.

﴿نَبَأَ ابْنَيْ آَدَمَ﴾: النبأ هو الخبر العظيم ذو الشأن الذي يستدعي دراسة وعناية[2]، وهو الخبر المهم، والخبر المتميز والخبر الذي له دلالة[3].

اقصص عليهم خبر ابني آدم وهم ابناه لصلبه وفي عهده وزمانه[4]. أما عن اسمهما فلم يرد اسمهما في الكتاب، ولا في السنة بسند صحيح فيما علمت[5].

إلا أن كتب التفسير والتاريخ نصت على أن المقتول اسمه هابيل والقاتل اسمه قابيل، وهو موجود في الروايات الإسرائيلية وكتب أهل الكتاب.

والمهم أصل القصة وعبرتها ولا يضر اعتماد هذين الاسمين لشهرتهما، وقد ورد هذا عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما[6].

﴿بِالْحَقِّ﴾: أي أمر نزل من الحق فلا تغيير فيه ولا تبديل، ولذلك قال سبحانه:

---

[1] قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، مصدر سابق، 1/ 162.

[2] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2122/4.

[3] تفسير النابلسي، مصدر سابق، 501/3.

[4] قصص الأنبياء، العدوي، مصدر سابق، 162/1.

[5] المرجع نفسه، 162/1.

[6] علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، سلمان العودة، مصدر سابق، ص 271.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:105].

وعندما يقول سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آَدَمَ بِالْحَقِّ﴾ فهو يحكي قصة قرآنية تحكي واقعة كونية، ومادام الله هو الذي يقص فهو سيأتي بها على النموذج الكامل من الصدق والفائدة ولذلك يسميه سبحانه ﴿الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران:62][1].

ب- ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ﴾:

شبّ قابيل وهابيل ابنا آدم عليه السلام، واتجها إلى العمل يضربان في الأرض كسباً للرزق وابتغاء الخير، فكان قابيل من زُرّاع الأرض، وكان أخوه هابيل من رعاة الماشية، ثم وقع الخلاف والحسد بينهما، كما هي طبيعة البشر ووسوسة الشيطان، وادّعى كل منهما أن الصواب والحق معه، واتفقا ان يُقرّب كل منهما قرباناً إلى الله، فأيهما قُبل قربانه كان الأحق فيما يدعيه ويريده، وقدم هابيل جملاً أو كبشاً من أنعامه، وقدّم قابيل قمحاً من زراعته، فتقبل الله قربان هابيل، ولم يتقبل قربان قابيل لأنه لم يكن خالص النية[2].

وأما لماذا قرّبا القربان؟

فالله أعلم لماذا قرّبا القربان فلم يرد لذلك سبب واضح في الكتاب والسنة. وأما أهل العلم فبعضهم قد قال: إن الله أمرهما بذلك، وقال آخرون: إنهما قربا قرباناً يقوم مقام

---

[1] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 3068/5.

[2] شرعة الله للأنبياء في القرآن، محمد الزحيلي، مصدر سابق، ص 56.

الصدقة، لكون الصدقة لم تكن موجودة في زمانهما لعدم وجود من يقبلها[1].

وقال غيرهم من أهل العلم: إن كلاً منهما تقرب إلى الله بقربان كي يفصل بينهما في نزاع قد دار بينهما، ألا وهو أمر زواج أحدهما بأخت الآخر (أعني التي هي توأم الآخر)، وكان التقريب بأمر أبيهما آدم عليه السلام.

وهناك أقوال أُخر ليس عليها دليل ولا تستند إلى مستند صحيح، وقد أورد المفسرون في هذا الصدد آثاراً لا يصح منها شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن معظم الروايات تتحدث عن الزواج من البنت الأجمل، وهذا معنى ظل ساري المفعول في بني آدم، وكما قال ابن السمّاك: لولا ثلاث لم يقع حيف ولم يسل سيف؛ لقمة أسوغ من لقمة، وزوجة أصبح من زوجة، وسلك أنعم من سلك[2].

فالصراع على الجمال والثياب والطعام سير كثير من الحروب التي يوظف فيها من لا يدرك مغزاها، والقرآن لم يُعنى بتفعيل ذلك، لأن مقصده العبرة بتعظيم الدم وحرمته وحفظ حقوق الأخوة الإنسانية الآدمية القائمة بين البشر كلهم، إلا ما يقتضيه العدل وتأذن به الشريعة.

كما لم يُعنى القرآن بتفعيل القربان، وكان هابيل صاحب غنم، فقرب أفضل ما لديه بطيب نفس، وقابيل صاحب زرع فقرّب شرّ ما لديه وبغير طيب نفس[3].

وأما التقبل ويعني قبول الله للقربات فورد على أن علامته أن تأتي نار من السماء

---

[1] قصص الأنبياء، العدوي، مصدر سابق، 163/1.

[2] علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، سلمان العودة، مرجع سابق، ص 272.

[3] المرجع نفسه، ص 272.

فتحرقه، وجاء في القران قول اليهود: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [آل عمران:183].

وفي قصة (يوشع بن نون) أنهم جمعوا الغنائم فأقبلت النار فلم تأكلها، فأعادوا إليها الذهب المغلول فأقبلت النار فأكلتها، هل كان الأمر حسداً بسبب قبول القربان فحسب؟ أم كان القربان اختباراً ينتج عنه تحديد من يتزوج الأخت الجميلة منهما؟ الأمر محتمل[1].

والقربان كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة وغيرها، والقربة والقرابة هي ما يتقرب به إلى الله عز وجل من أعمال البر والطاعة وجمعها قُرب وقربات، قال تعالى ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ [التوبة:99].

والقربة في الشرع هي ما يتقرب به إلى الله تعالى من الطاعات، وهي نوع من الطاعة لأن الطاعة تشمل القربة، وتشمل إتيان المأمور به على الوجه الذي أمر به، وقد يتحقق به القرب، أو لا يتحقق، كما لو أطاع الأمر مُكرهاً.

والقربة هي أنواع: روحية، وبدنية، ومالية[2]، والقربة تشمل الصدقة التي تملك في الحياة بغير عوض لمحتاج بنية التقرب إلى الله، ولها فضلها بنصوص الآيات والأحاديث الكثيرة[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص 273.

[2] الموسوعة الفقهية الميسرة، 1572/2.

[3] المرجع نفسه، 1201/5.

فالقربان والقربة، والصدقة، والصدقات، هي من شرع الله في منهاج الأنبياء والمرسلين، وجاء القرآن الكريم فأكد ذلك وقرره حتى تقوم الساعة لتكون شرعة الله تعالى واحدة من آدم إلى آخر الدنيا وبابها مفتوح للمسلم، ولها أحكامها التفصيلية[1].

ج- ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾:

- ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾: تلك كلمة الظالم الآثم الذي خلا قلبه من كل شعور بالحق، فلم يشعر بالعدالة في ذاتها، ولم يشعر بالرحم الواصلة بينهما، ولم يشعر بحق الحياة التي خلقها الله تعالى وأودعها كل نفس، ولم يشعر بحرمة الدم وبأن القتل أعظم جريمة في هذا الوجود الإنساني وقد أكد عزيمته الآثمة وإصراره عليها من غير خور ولا ضعف، ولذلك أكدها أولاً بالقسم المطوي في القول، والذي تدل عليه اللام وهي مؤكدة بنون التوكيد الثقيلة، وكانت المجابهة الآثمة لأخيه بذلك الخطاب المواجه، ولم يستر نيته فكان التبجح السافر الذي أدى إلى الفجور في القول والإجرام في العمل والكسب الآثم، وإن هذا يدل على تصميمه على القتل، وهذه النص الموجز يبين روح الإجرام في المجرمين الذين يريدون السوء بالأخيار في المجتمع، وكلما زاد خير الأخيار أوغل المجرمون في الشر والإيذاء، حتى أنهم يستمرئون الشرّ كما يستطيب الأخيار حب الخير، وأن هؤلاء آفة الجماعة الإنسانية ومن تظهر مآثمه منهم تحق عليه كلمة العقاب، زجراً وردعاً وتهذيباً

---

[1] شرعة الله للأنبياء، محمد الزحيلي، مصدر سابق، ص 57.

للمجتمع، وتطهيراً له، فالذين يذهب بهم فرط رأفتهم لهم آثمون في حق جماعتهم، راضون بأن يعيش الشر في قلوب الآثمين[1].

- ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾:

تلك أول كلمة نطق بها التقي البر في مجاوبة اعتداء أخيه أو الجهر بنية الاعتداء، وهي في ذاتها اعتداء، فقد قال كلمات أربعة كل واحدة منها تنبئ عن إيمان مكين عميق، وتلك هي الأولى، وهذه الكلمة تفيد السبب في القبول، وترشد أخاه إلى تطهير قلبه، وإلى الاتجاه إلى ربه، وإلى الاستشعار بخشيته، وفي تلك الكلمة الطيبة معان كريمة.

فهي أولاً تفيد قصر القبول بلفظ "إنما" على المتقين، والقصر نفي وإثبات، أي أن التقوى هي سبب القبول، فإن وُجدت كان القبول، وإن لم توجد انتفى القبول، وتفيد ثانياً أن عدم القبول إنما يكون من نفس المتصدق، لا من أمر خارجي، فالجزاء على قدر النية، فالتقوى دائماً من القلوب[2].

وتفيد ثالثاً بتوجيه أخيه الفاسد إلى الإقلاع عن ذنبه بموضع الداء في قلبه، وأنه يُطب له، والتقوى التي أصبحت سبباً للجزاء الطيب، تتضمن خشية الله وامتلاء القلب برضاه، وتتضمن اتقاء الذنوب والآثام وتتضمن احترام حق الإنسان على أخيه الإنسان، فهي كلمة جامعة لكل معاني الفضيلة الدينية والخلقية والاجتماعية[3].

---

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2124/4.

[2] المرجع نفسه، 2124/4.

[3] المرجع نفسه، 2125/4.

2- قال تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:28].

أ- ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾: تلك هي الكلمة الثانية وبسط اليد مدّها بالاعتداء، ونرى في هذا النص قسماً ينبئ عن الطبيعة والخلق السمح، في المقابل قسم ينبئ عن الشر ونية الأذى والتصميم عليه، وهذا يصور ما بين الأخيار والأشرار من تضاد، فهو هنا يؤكد على سلامة القلب وسلامة العمل، أقسم الأول على القتل، وهو القسم المفهوم من لام الموطئة له في ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، وأقسم الثاني على عدم الرد ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ﴾، وقد أكد نفيه بهذا القسم وبالتعبير بالجملة الإسمية في جواب القسم.

لأن جواب القسم ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾، وقد أكد النفي بأمور ثلاثة:

أولها: التعبير بالوصف، فهو ينفي عن نفسه وصف بسط اليد لأجل الاعتداء، لأن ذلك ليس من شأنه ولا من رغباته.

والثاني: التعبير باليد للإشارة إلى أن بينهما من رابطة الرحم الموصولة عنده تمنعه من أن يمد إليه يده بالأذى.

والثالث: التعبير: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فيه أن هذه الجريمة تنفر الطبائع السليمة، ولا ترضى بها العقول المستقيمة، وخصوصاً إذا كان يريد قتله.

وقد أقسم الأول على الفعل فقال: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وردد كلامه في نية الاعتداء بالفعل

أيضاً، لأن موضوع القول هو ذلك الفعل الذي كان ثمرة للنية الخبيثة من فاعله، أما النفي الذي كان من الشاب الطيب، فقد كان عن نفي الوصف، أي أنه لا يقع منه ذلك الفعل، ولا يمكن أن يقع.

ويثير الفقهاء بحثاً من هذا الموضوع، وهو حول ما قرروه من أن الدفاع عن النفس عند محاولة الجاني للقتل أمر مشروع لا يتجافى مع التقوى، ويقرر الحنفية أن الشخص إذ تأكد أنه مقتول إذا لم يدافع عن نفسه ولو بالقتل يكون الدفاع واجباً حفظاً لنفسه، ويكتفي الأكثرون من الفقهاء بالقول بأن الدفاع يكون مشروعاً، ولا يكون لازماً، وسواء أكان هذا أم ذاك، فإنه ليس من التقوى أن يقف المجني عليه مكتوف اليد لا يدافع[1].

وقد أجاب جمهور الفقهاء، بأن التقوى في هذا المقام اختيارية أي أنه يختار أي الطريقين، فإما أن يدفع الشر وإما أن يكون عبد الله المظلوم ولا يكون عبد الله الظالم، وليس في كليهما ما ينافي التقوى.

وأما الحنفية الذين قالوا: أن الدفاع عن النفس واجب فقد قالوا: إن السكوت واعتباره من التقوى كان شرع من قبلنا، وأما شرعنا فهو واضح في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:194].

إن موقف ولدي آدم خارج عن موضوع الخلاف، لأن موضوع الخلاف هو في دفع الصائل الذي يجيء ليقتل فإنه يجب دفعه حتى لا يستشري شره، أما هنا فأخ يهدد أخاه بالقتل، ولو أنه هدده بمثل ما هدده به لدخلا في ملحمة، ولا يدري أيهما الغالب

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2126/4.

ويكون هذا داخلاً في معنى قوله صلى الله عليه وسلم: إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: هذا القاتل يا رسول الله، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه[1].

على أن في الصبر أجراً، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:126]، فهذه القضية خارجة خروجاً تاماً عن موضوع الخلاف، وخصوصاً أن الأمر بين أخوين لا بين صائل يضرب بالسيف ابتداء من غير فرصة للموازنة والتفكر[2].

ب- ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ هذه الكلمة الثالثة وهي تنبئ عن الباعث الذي جعله يقف ذلك الموقف السلبي، ويتخلى حتى عن الدفاع عن نفسه، والباعث عليه هو خوف الله تعالى، وفي ذلك إشعار لأخيه الذي يهم بقتله بأن يقف موقفه ويخاف الله تعالى الذي يقبل الطاعات ويرد المعاصي، وهو عليم بكل ما في الصدور، وهو شهيد على حركات الجوارح والأعضاء والقلوب، ولا يخفى عليه شيء في الأرض، وفي النص الكريم إشارات بيانية يحسن التنبيه إليها.

الأولى: تأكيد خوف الله تعالى بذكر "إنّ" المؤكدة للقول.

الثانية: ذكر الله تعالى جل جلاله بلفظ الجلالة، للإشعار بأنه هو وحده صاحب السلطان على نفسه، ولا سلطان سواه، فلا يدفعه غضب أو حب انتقام إلى مخالفة

---

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2126/4.

[2] المرجع نفسه، 2126/4.

أمره.

الثالثة: وصف الله جل جلاله بأنه رب العالمين، أي منشئ الكون ومن فيه، وهو يتعهدهم بالنماء والتربية والتغذية، فقتل النفس التي حرم الله تعالى قتلها هدم لما بناه الله تعالى، وتخريب في الأرض ونشر للفساد[1].

وهكذا يرتسم نموذج من الوداعة والسلام والتقوى في أشد المواقف استجاشة للضمير الإنساني وحماسة للمعتدى عليه ضد المعتدي، وإعجاباً بهدوئه واطمئنانه أمام نذر الاعتداء، وتقوى قلبه وخوفه من رب العالمين، لقد كان في هذا القول اللين ما يهدّي الحقد والحسد ويسكن الشر ويمسح على الأعصاب المهتاجة ويرد صاحبها إلى حنان الأخوة، وبشاشة الإيمان وحساسية التقوى، أجل لقد كان في ذلك كفاية ولكن الأخ الصالح يضيف إليه النذير والتحذير[2].

3- قال تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:29].

إذا أنت مددت يدك لتقتلني، فليس من شأني ولا من طبعي أن أفعل هذه الفعلة بالنسبة لك، فهذا الخاطر -خاطر القتل- لا يدور بنفسي أصلاً، ولا يتجه إليه فكري إطلاقاً، خوفاً من الله رب العالمين لا عجزاً عن إتيانه، وأنا تاركك تحمل إثم قتلي وتضيفه إلى إثمك الذي جعل الله لا يتقبل منك قربانك، فيكون إثمك مضاعفاً، وعذابك

---

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2127/4.

[2] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 876/2.

مضاعفاً: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

وبذلك صور له إشفاقه من جريمة القتل ليثنيه عما تراوده به نفسه، وليخجله من هذا الذي تحدث به نفسه تجاه أخ مسلم مسالم وديع تقي، وعرض له وزر جريمة القتل لينفره منها ويزين له الخلاص من الإثم المضاعف بالخوف من الله رب العالمين، وبلغ من هذا وذلك أقصى ما يبلغه إنسان من صرف الشر ودوافعه عن قلب إنسان[1]، ولكن النفس الحاقدة الحاسدة لم تنزجر ولم تتعظ بل زينت لصاحبها جريمة القتل وشجعته عليها[2].

4- قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:30].

بعد هذا كله، بعد التذكير والعظة والتحذير، اندفعت النفس الشريرة، فوقعت الجريمة، وقعت وقد ذللت له نفسه كل عقبة، وطوعت له كل مانع، وطوعت له نفسه القتل، وقتل أخيه، وحق عليه النذير[3].

أ- ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾:

هذا النص الكريم يدل على أمرين:

أحدهما: أن قابيل الذي قتل أخاه، ولو أنه أكد على الاعتداء بقوله: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾

---

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 876/2.

[2] التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، 288/2.

[3] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 876/2.

كانت نفسه يتردد منها عاملان:

الأول: عامل الود والرحم الواصلة.

والثاني: عامل الحسد والضغن.

وثانيهما: أن أخاه فيما ساقه من قول كان يريد أن يزرع في نفسه روح المودة والأخوة لتنتصر على الأخرى ولذلك ما تحرك لمقاومته، بل تحرك لمراجعته ليثوب إلى نفسه.

ومعنى كلمة: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾، قال فيها مفسرو السلف معاني تدل على أن هناك مقاومة في داخل شعوره قبل أن يقع في الجريمة، وقد فسر مجاهد ﴿طَوَّعَتْ﴾ شجعت، وفسرها بعض التابعين بسهّلت ووسّعت، وبعضهم بزينت وحسنت، وكلها تشير إلى أنه كانت هناك معركة في داخل نفسه بين الخير والشر، بين الإقدام على الجريمة والإحجام عنها، حتى انتصرت[1].

وقد صور السيد رشيد رضا في تفسير المنار معنى المغالبة في النفس تصويراً حسناً، فقال إن هذه الكلمة ﴿طَوَّعَتْ﴾ تدل على تكرار في حمل الفطرة على طاعة الحسد الداعي إلى القتل، كتذليل الفرس والبعير الصعب، فهي تمثل لمن يفهمها ولد آدم الذي زين له حسده لأخيه قتله، وهو بين إقدام وإحجام يفكر في كل كلمة من أخيه الحكيم، فيجد في كل منها صارفاً له عن الجريمة، ويدعم ما في الفطرة من صوارف العقل والقرابة، فينكر الحسد من نفسه الإمارة بالسوء على كل صارف من صوارف نفسه اللوامة، فلا

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2126/4.

يزالان يتنازعان ويتجاذبان حتى يغلب الحسد ويجذبه إلى طاعته[1].

وإن في نص القرآن الكريم إشارة إلى هذه المعاني من حيث التردد، فقد عبر عن المقتول بقوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾؛ فالمعنى: أن الأخوة والاطمئنان إلى القرابة كانا يعارضان دواعي القتل، وعبر عن الجريمة بقوله " قَتْلَ "، مما يدل على أن التطوع للحسد بعد المغالبة ترتب عليه أقوى شر في هذا الوجود وهو إزهاق النفس التي حرّم الله قتلها من غير جريمة، إلا أن يكون قبول الله لقربانه جريمة عند الحاسدين[2].

وفي قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، التعبير بالأخوة تذكير بالمشترك الإنساني بين البشر من بني آدم وتعظيم لحرمته وحقه وتحذير فوري من التجاوز والعدوان عليه[3].

والنص القرآني مع كل ما سبق، فيه إشارة إلى شناعة الجرم في ذاته من حيث الباعث عليه، ومن حيث الصلة بين القاتل والمقتول، ومن حيث ذات الفعل، فإنه أكبر جريمة إنسانية في هذا الوجود، ولكل هذه المعاني أشار القرآن الكريم بأوجه تعبير، وأدق الألفاظ، وهو سر الإعجاز وفيه بلاغة الإيجاز مع الوضوح، وإشعاع المعاني بالنور من ثنايا الألفاظ[4].

ب- ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: أيّ فصار من الخاسرين بعد تلك الجريمة الكبيرة التي

---

[1] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مصدر سابق، 6/345-346.

[2] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 4/2130.

[3] علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، سلمان العودة، مصدر سابق، ص 273.

[4] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 4/2130.

تحيط بها الشناعة من كل أطرافها، والتعبير بأصبح هيأ لها المقام في الكلام، لأن "أصبح" تدل على أنه كان مدركاً لما ارتكبه عندما أشرق نور الصبح كأنه وقت الحيرة، و إرادة الارتكاب في ظلمة من عقله وقلبه، وفي ديجور من الظلام يشبه ظلام الليل، حتى كان الصبح المنير الذي أراه الأمور على وجهها وأدرك في ذلك الضوء الذي جاء عند الصبح مقدار الإثم فيما فعل[1].

والخسران الذي لحقه هو خسران القلب المؤمن إذا أربد بالمعاصي وطعن عليه الشر، حتى غلبه وأركس في مهاوي الشر بسب ضغن نفسه وامتلاء قلبه بالحسد، وأحس بأنه خسر أخاه الطيب الطاهر العفيف، وأحس بغضب الله تعالى، وذلك هو الخسران المبين، وهكذا صار ممن غلبت عليه شقوته، وامتلأت نفسه بالحيرة على سوء ما فعل[2].

وهنا إشارة بيانية وهي في التعبير بقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فإن مؤداه أنه صار في زمرة الخاسرين الذين كسبوا السيئات وأركست نفوسهم في مهاوي الخسران، وأصبحوا ولا منجاة لهم، ولا بقاء، لأنهم نزلوا إلى قاع الهاوية، بارتكاب أعظم الجرائم بإصرار وتصميم[3].

- لقد خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك.
- وخسر أخاه فقد الناصر والرفيق.
- خسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة.

---

[1] المرجع نفسه، 2130/4.

[2] المرجع نفسه، 2131/4.

[3] المرجع نفسه، 2131/4.

- وخسر آخرته فباء بإثمه الأول وإثمه الأخير[1].

وقال القرطبي: تضمنت هذه الآية البيان عن حال الحاسد، حتى إنه قد يحمله حسده على إهلاك نفسه بقتل أقرب الناس إليه قرابة وأمسه به رحماً، وأولاهم بالحنو عليه ودفع الأذية عليه[2].

وقد ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، والتحذير من القتل بالظلم، وعن أبي مسعود قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سنّ القتل[3].

والحسد سبب أول جريمة قتل في الأرض، وتتابعت بعد هذا الجريمة النكبات والمآسي، والمذابح البشرية الجماعية، كل ذلك بسبب الحقد والحسد والبغي، ولم يتوقف إلى يومنا هذا، بل زادت حدة بعد اكتشاف الأسلحة الفتاكة الكيماوية، والنووية والذرية، وكل يوم نسمع عن مذابح للبشر وتكتشف المقابر الجماعية لرفات مئات من البشر أبيدوا جميعاً ولم يعلم عنهم إلا بعد حين من الدهر، وهكذا ترخص الدماء ويستباح القتل، تحت اسم أي شعار لا يمت للدين بصلة[4].

5- قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي

---

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 877/2.

[2] تفسير القرطبي، مصدر سابق، 141/6.

[3] البخاري: 448/6 رقم 3335.

[4] العقوبات الإلهية، عبد الهادي الشهراني، مصدر سابق، ص 100.

سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة:31] .

من الدلالات العلمية والإنسانية لهذا النص القرآني الكريم أن الغراب طائر شديد الذكاء، ومن أوضح الأدلة على ذلك أنه يدفن موتاه ولا يتركها نهباً للجوارح من الطيور ولغيرها من الحيوانات المفترسة، أو للتعفن والتحلل في الجو صوناً لكرامة الميت وترفقاً بالبيئة والأحياء فيها، وقد ثبت أن الغراب يقوم بحفر الأرض بواسطة كل من مخالبه ومنقاره ليكوّن حفرة عميقة فيها، ثم يقوم بطي جناحي الغراب الميت وضمهما إلى جنبيه، ورفعه برفق لوضعه في قبره، ثم يهيل عليه التراب حتى يخفي جسد الميت تماماً، كما يفعل المسلمون اليوم بموتاهم احتراماً لهذا الجسد حياً وميتاً[1] .

وتتضح روعة الإشارة القرآنية إلى الغراب، معلم الإنسان الأول كيفية الدفن الصحيح للموتى، ويأتي العلم المكتسب -في قمة من عطائه- ليؤكد لنا أن الغراب قد وهبه الله تعالى من المواهب الحسية والمعنوية ما جعله أذكى الطيور على الإطلاق وأقدرها على التحايل، وأن له من حدة البصر ما يمكنه من التقاط التفصيلات الدقيقة من الارتفاعات الشاهقة على مساحات تقدر بمئات الكيلومترات المربعة، وبتفاصيل تفوق قدرة الإنسان بثلاث أو أربع

[1] من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، زغلول النجار، مصدر سابق، 132/1.

مرات.

وهذه الواقعة التي تَعلّم فيها أحد ولدي آدم كيفية دفن الموتى من الغراب هي من جوانب الإعجاز الإنبائي في كتاب الله حيث لم يشهدها إلا "قابيل" وحده، وليس لها ذكر في أي من أسفار القديم أو العهد الجديد[1].

أ- ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾:

هذا الكلام يتضمن معاني سبقته ولم يذكرها القرآن الكريم، لأنها تفهم من المعنى والسياق من غير حاجة إلى الذكر ولا يدرك المعنى ولا يستقيم إلا بتقديرها، وذلك أن القاتل بعد أن ارتكب الجريمة، وأحس بالخسارة الشديدة التي نالته، لم يرد أن يترك أخاه تنهشه السباع، أو تنقره جوارح الطيور، ولا أن يترك جسمه ملقى، وألهم بالفطرة أنه لا بد من مداراة جسمه وستره، وإبعاده عن الأنظار لأنه بعد موته صار جسمه كله سوءة يسوء النظر إليه، ولا تألف الطباع السليمة رؤيته فالمراد بالسوءة الجسم كله بعد موته، لأنه يسوء النظر خصوصاً بعد أن تتحول حاله ويتعفن، وقد استيقظت الأخوة في نفسه، بعد أن خبت أمداً ارتكب فيه جريمته.

اتجه الأخ القاتل لمواراة جثة أخيه، أي ليسترها، وقد أراد الله تعالى أن يعلمه ذلك، فبعث غراباً، ومعنى بعثه أنه أفهمه أن يفعل ذلك، وقد رأى ذلك

[1] المرجع نفسه، 132/1.

الغراب الملهم غراباً آخر ميتاً، وأراد أن يستره عن الأنظار، فأخذ يبحث في الأرض أي يثيرها ويحفرها برجليه، حتى أوجد حفرة تسع الغراب الميت، فوضعه فيها، فكان هذا إعلاماً للقاتل بالطريقة التي يواري بها جثة أخيه.

وقد فهم بعض المفسرين من الآية أنه لم يكن ثمة غراب قد مات، أو قتله صاحبه، ولكنه رأى الغراب يبحث في الأرض عن شيء من الأشياء ليدفنه لأن من عادة الغربان حفر الأرض لدفن الأشياء، فلما رأى قاتل أخيه الغراب يحفر الأرض اهتدى إلى حفر الحفرة التي ألقى فيها جثة أخيه القتيل، والكثير من المفسرين على غرابين تنافرا فمات أحدهما، فدفنه الآخر بحفر حفرة في الأرض.

والحق أن الآية الكريمة نصت على أن الغراب قد أخذ يبحث في الأرض حتى حفر حفرة، دفن فيها شيئاً أو طيراً ميتاً، ولم تتعرض لكون المدفون طيراً أو غير طير، ولا لكون الطير مات بقتل الدافن، أو مات بسبب آخر، والآية الكريمة بينة واضحة المقصد من غير فرض واحد من هذه الفروض بعينه، وما دامت الأخبار التي لا مناص من قبولها لصدقها غير موجودة، فليس لنا أن نفرض واحداً من هذه الفروض بعينه، والفرض الواحد الذي يقتضيه بيان الغرض والمغزى هو أن نفرض أن الغراب أخذ يحفر في الأرض، حتى أتم حفرة وضع فيها شيئاً، فعلم القاتل الجهول أن ذلك هو الطريق لدفن أخيه.

وأصل كلمة "يبحث" معناها كشف أو دق الأرض أو حفرها، وقد جاء في مفردات الراغب الأصفهاني: البحث، الكشف والطلب فيقال بحثت عن الأمر، وبحثت كذا، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي﴾، وقيل بحثت الناقة الأرض بأرجلها في السير إذا شددت الوطء تشبيهاً بذلك، والمعنى: أن الغراب أخذ يدق بمنقاره مثيراً للأرض، حتى حفر حفرة فيها، ثم دفن ما شاء أن يدفنه، وأنه دأب في ذلك وقتاً طويلاً بدليل التعبير بقوله ﴿يَبْحَثُ﴾ بالمضارع بدل الماضي، لأن في التعبير بالمضارع إشارة إلى حال استمرت لا إلى واقعة وقعت فقط، فالتعبير بالمضارع عن أمر مضى لبيان أن الفعل مكث وقتاً وكان مجال استمرار.

وفي كل هذه الأمور التي كانت بعد قتل أخيه ما يثير العبرة، وإذا كان الغراب قد أراه كيف يواري سوءة أخيه، فإن ضميره قد استيقظ، وأصبح لا يستطيع كيف يواري سوءة فعله التي فتحت باب القتل والقتال إلى يوم القيامة، ولذلك صرح القرآن بأنه اعتراه الندم ولكن في غير مندم لأن الجريمة قد وقعت ولا منجاة منها[1].

ب- ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي﴾:

أخذ القاتل تعتريه الحسرة بعد الفعلة التي فعلها واكتسب بها ذلك الجرم

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2133/4.

الشديد البليغ الأثر في هذا الوجود، وقد كانت حسرته للفعل الذي ارتكبه، للعجز الذي لحقه، ولصغر نفسه أمام الطائر، وهو الذي أبى واستكبر لأن الله قبل قربان أخيه ولم يقبل قربانه، وطغى على أخيه وتجبر.

والويلة والويل البلية والفضيحة، والألف في قوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَا﴾ هي مقلوب ياء المتكلم مثل الألف في قوله تعالى: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف:84]، والمعنى ﴿يَا وَيْلَتَا﴾ أي يا فضيحتي، وهذا النداء يستعمل للتحسر وإظهار الألم النفسي، وإن هذه البلية والفضيحة اللتين نزلتا به، ويتحسر منهما، ويناديهما، وهما بين جنبيه انبعثا من قلبه، ومن فعلته التي فعلها، ومن جهله وغبائه، وعدم التفاته إلى ما يجب عليه بالنسبة لجثمان أخيه الذي كان سبباً في جعله جثة هامدة، بعد أن كان لساناً نقياً وقلباً تقياً وأخاً مباركاً، وقد صوّر جهله بهذا الاستفهام التقريري الذي يصور جهله وغفلته وحسرته، وقد حكاه الله تعالى عنه بقوله: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي﴾.

والمعنى أنه يقرر عجزه عن أن يكون مثل هذا الغراب، ولكنه قال ذلك بصيغة الاستفهام للتقرير والتثبيت وللحسرة على ما وقع منه، وللأسى والألم ولذلك عبر باللفظ "أخي" الذي كان يوجب المودة والمحبة بدل الحسد، وما أدى إلى قتله وهو شطر لحمه وهو جزء أبيه فقال "سوءة أخي"، وحسرته ليست للعجز عن مواراتها التراب وغفلته، ولكن لذلك ولأصل الجريمة بالذات،

ولـذلك كـان التعبـير بأخـي، وإن هـذه أولى درجـات النـدم إذ أن أولى الـدرجات فيـه أن يحس بعظـم الجريمـة الـتي ارتكبهـا وأثـر الإثم الـذي فعلـه، فقـد فعـل مـا فعـل بعـد ترديـد الفكـرة مـرتين، ولكنـه مـا إن فعـل حـتى رأى أثـر الجريمـة مجسـماً وبـذلك كانت الحسرة ثم كان الندم[1].

والآيات تبـين لنـا كـأن ابـن آدم القتيـل مسـجى علـى الأرض بدمائـه وبجانبـه أخيـه يبكـي علـى صـخرة مغطيـاً وجهـه في نـدم، ثم يقـوم ويحـاول أن يقلـد الغـراب في دفنـه لأول قتيـل في تاريـخ البشـرية، بينمـا تتجلـى في أفـق الآيـة الكريمـة قيمـة إيمانيـة وإنسـانية عظيمـة والـتي تخـبرك أن مـن قتـل نفسـاً فكأنمـا قتـل النـاس كـل النـاس، هـذه صـورة رمزيـة ذهنيـة قويـة للغايـة، اختزلـت عـدة صـفحات في علـوم النفس والاجتماع والقيم، تشرّبها ذهنك بسهولة ويسر حينما تكلم الإله[2].

ومنـذ أن حفـر القاتـل قـبر أخيـه المقتـول في زمـن الحضـارة الإنسـانية الأولى، أصـبح القـبر سـنة جاريـة في بـني آدم، وقـد كـان هـذا القتـل أول قتـل وقـع مـن بـني آدم علـى وجـه الأرض، لهـذا جهـل القاتـل سـنة المـواراة ولم يعلـم سـنة الله في المـوتى، فـأراد الله تعريفـه الطريقـة في مـوتى خلقـه، فبعـث الله غـراباً في المكـان الـذي هـو فيـه يبحـث في الأرض حكمـة منـه تعـالى لـيرى ابـن آدم كيفيـة المـواراة، وهـذا هـو معـنى قـول الله عـز وجـل: ﴿ثُمَّ أَمَاتَـهُ فَـأَقْبَرَهُ﴾ [عـبس:21]، أي: صـيّره

---

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2134/4.

[2] الإجابة القرآنية كيف أجاب القرآن عن أسئلتك الوجودية، مهاب العيد، مصدر سابق، ص 33.

وجعله مقبوراً ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض للطير والسباع، فالقبر مما أكرم الله به بني آدم[1].

ولم يشذ عن هذه السنة في دفن الأموات من بني آدم إلا طوائف قليلة زائغة، وقد اشتهر منها الديانة الهندوسية فهم لا يدفنون الموتى، وإنما يحرقونهم بالنار وهم على معتقدهم حتى هذا اليوم[2].

وهذا زيغ وضلال مع ما هم فيه من الضلال، وهو خروج عن سنة الله في خلقه، قال الله عز وجل: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:55]، وقد امتن الله عز وجل على عباده أن جعل لهم الأرض كفاتاً - أي وعاءً- في حال الحياة والموت، فقال سبحانه منبهاً عباده على نعمه عليهم: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات:25،26]، فهي تضم الأحياء على ظهرها والأموات في بطنها فهي تكفت أحياءكم في المساكن والمنازل فتضمهم فيها وتجمعهم وأمواتكم في بطونها في القبور فيدفنون فيها[3].

فأكرم الله بني الإنسان بالدفن وذلك لأن المقصود من دفن الأموات هو ستر سوآتهم بالتراب عن الأحياء، وهذه الآية تدل على وجوب مواراة الميت

[1] أحكام المقابر في الشريعة الإسلامية، عبد الله السحيباني، ص 18.

[2] السحيباني، المرجع السابق، ص 18.

[3] المرجع نفسه، ص 19.

ودفنه[1].

وقد أجمع المسلمون على أن دفن الميت فرض -على جميع المسلمين-على الكفاية، من فعله منهم سقط فرضه عن الباقين، وأخص الناس بذلك الأقربون الذين يلون الميت، ثم الجيرة ثم سائر المسلمين[2].

وليس في دفن الميت وإدخاله القبر أو حمله دناءة وسقوط مروءة، بل هو بر وطاعة وإكرام للميت وفعله الصحابة والتابعون ومن بعدهم أهل الفضل والعلم[3]، فدفن الميت والرفق به حال الدفن وقبله الغسل والحمل، وكذا الإسراع بتجهيز جنازته، وعدم حبسه كلها مظاهر تدل على إكرام الميت واحترامه.

وإذا وضع الميت في قبره فهو محترم، لا يجوز التعدي عليه وإيذاؤه، فالقبر هو بيت الميت، وللمسلم فيه من الحرمة ما جاءت به السنة، فلا يترك عليه شيء من النجاسات بالاتفاق، ولا يوطأ ولا يداس ولا يتكأ عليه عند جمهور العلماء[4]، ولا يجاور بما يؤذي الأموات من الأقوال والأفعال الخبيثة[5]، فاحترام الميت في قبره بمنزلة احترامه في داره التي كان يسكنها في الدنيا، فالقبور هي ديار الموتى ومنازلهم وعليهم تنزل الرحمة من ربهم والفضل من محسنهم، فهي

---

[1] المرجع نفسه، ص 19.

[2] مراتب الإجماع، ابن حزم، مصدر سابق، ص 34.

[3] المغني، 3/366،377،394.

[4] أحكام المقابر في الشريعة الإسلامية، عبد الله السحيباني، مصدر سابق، ص 20.

[5] اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، مصدر سابق، 2/665.

منازل المرحومين، فإكرام هذه المنازل واحترامها من تمام محاسن الشريعة كما هو ظاهر[1].

ج- ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾:

بعد أن رأى جثة أخيه بين يديه، وغفل من أن يواريها، وأحس البلية التي وقع فيها من رؤية جثمان أخيه الطيب ملقى، وهو عرضة لسباع البهائم وسباع الطير تنهشه، وأدرك مقدار الشر الذي ارتكبه، ومن المقررات العلمية أن أول إحساس يهول الجريمة أن يرى المجرم الفريسة التي افترسها سواء أكان ذا قربى أم لم يكن ذا قربى، فما بالك إذا كان المقتول لم يرتكب إثماً، بل فعل براً ولم يكن منه شر وأذى بل كان منه عظة وإرشاد[2].

وإن ذوي الخبرة من رجال التحقيق يستخدمون رؤية المقتول سبيلاً لاعتراف القاتل، فإنه بمجرد رؤيته تضطرب أعصابه، ويتخلى عن ثباته وإصراره على الإنكار، وإن لم يصرخ بالاعتراف، فإن قرائن الارتكاب تتكون من:

- اضطراب ظاهر.
- ومن سرعة نبض.
- ومن اصفرار وجه.

---

[1] أحكام المقابر، السحيباني، مصدر سابق، ص 20.

[2] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2134/4.

وذلـك سـبيل لأخـذ الاعـتراف الصـريح، لأن صـوت الفطـرة المسـتنكر يسـتيقظ ويتحـرك، ويظهـر في حركـات الجـوارح، وخلجـات اللسـان واضـطراب الأعصـاب وسـرعة النـبض، ولـذلك كانـت الندامـة الـتي اعتـبرت أول حاسـد وأول قاتـل، وقـد صـار مـن النـادمين، أي أنـه دخـل في زمـرة النـادمين، بعـد أن كـان في زمرة الحاقدين الحاسدين الباغين[1].

كمـا أن ندمـه لم يكـن نـدم التوبـة وإلا لقبـل الله توبتـه، وإنمـا كـان النـدم الناشـئ مـن عـدم جـدوى فعلتـه، ومـا أعقبتـه لـه مـن تعـب وعنـاء وقلـق[2]، ولا شـك أن نـدم التوبـة الصـادقة ينفـع في الآخـرة مـن كـل ذنـب حـتى مـن الشـرك والقتـل فمـا دونهما[3].

وعلينـا أن ننتبـه إلى الفـارق بـين "نَـدم" و"نـدم" وعلـى سـبيل المثـال، هنـاك إنسـان قـد تجـرأ علـى حـدود الله وشـرب الخمـر بالنقـود الـتي كـان عليـه أن يشـتري بهـا طعـام الأسـرة، وعنـدما عـاد إلى منزلـه ووجـد أهلـه في انتظـار الطعـام نـدم لأنـه شـرب الخمـر، فهـل كـان نـدم الرجـل علـى أنـه عصـى الله، أم نـدم لأنـه لم يشـترِ الطعـام لأهلـه؟، لقـد نـدم علـى عـدم شـراء الطعـام وذلـك نـدم مرفـوض، لـيس مـن التوبـة[4]، وقـد يكـون هـذا الشـارب للخمـر قـد ارتـدى أفخـر ثيابـه وخـرج فشـرب

---

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2134/4.

[2] في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، 877/2.

[3] علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، العودة، مصدر سابق، ص 275.

[4] تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 3085/5.

الخمـر ووقـع علـى الأرض وهنـا نـدم لأن شـرب الخمـر أوصـله إلى هـذا الحـال؛ فهـل نـدم لأنـه عصـى ربـه؟ أو نـدم لأنـه صـار هُـزأة بـين النـاس؟، وكـذلك كـان نـدم قابيل، لقد ندم على خيبته، لأنه لم يعرف ما عرف الغراب[1].

هـذا وقـد ذكـر أهـل التـواريخ والسـير أن آدم حـزن علـى هابيـل حـزناً شـديداً، وأنـه قـال شـعراً، وقولـه الشـعر كـلام غـير مسـلَّم بـه وأمـا حزنـه علـى ابنـه فـأمر طبيعي[2].

6- قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة:32].

مـن مقاصـد الشـرائع السـماوية حفـظ الحيـاة الإنسـانية وبيـان مـا ينتظـر القاتـل مـن عـذاب في الـدنيا والآخـرة، وهـذا مـا بينـه سـبحانه بعـد أن سـاق مـا جـرى بـين ابني آدم وما شرعه من شرائع تردع المعتدي وتبشر التقي.

والمتأمـل في هـذه الآيـة الكريمـة يجـد حكمـة الشـريعة وعظمـة تقـديرها للـنفس الإنسـانية وأمـن المجتمـع حـين بينـت أن قتـل الـنفس يعـدل قتـل النـاس جميعـاً

---

[1] المرجع نفسه، 3085/5.

[2] قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مصدر سابق، ص 46.

بالعقاب وأن إحياء النفس وحفظها يعدل إحياء الناس جميعاً بالثواب.

وخُص بنو إسرائيل في الخطاب مع أن الحكم عام، لأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل الأنفس مكتوباً، وكان قبل ذلك قولاً مطلقاً، ولأنهم أكثر الناس سفكاً للدماء وقتلاً للأنبياء والعلماء والمصلحين، ولأنهم عقدة الاستعلاء والكبر، وقولهم إنهم شعب الله المختار، أنشأ في نفوسهم حسداً وجرأة على الباطل وقتلاً وسفكاً للدماء، وما يجري الآن في فلسطين يصور عقيدتهم الباطلة ونفوسهم الشريرة وحسدهم واستكبارهم[1].

أ- ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾:

أي: من جرّاء هذه الجناية التي ارتكبها أحد ابني آدم ودلالتها على تغلغل الشر في نفوس بعض الناس واستعدادهم لأن تكون منهم الجريمة في كل وقت وحين، كان لا بد من رادع زاجر مانع، وهو العقاب.

وقد أشار الأصفهاني إلى معنى جدير بالنظر والترديد، وهو أن الأجل هو الجناية التي يخاف منها آجلاً، أي تكون لها عواقب على الأشخاص، أو على الجماعات، أي الجناية التي لا تنتهي مغبتها بوقت وقوعها، بل تكون لها آثار مؤجلة بعده إن لم تعالج تلك الآثار، وكذلك كانت جريمة أحد بني آدم فإنها

[1] خصائص الأمة الإسلامية الحضارية، إبراهيم الكيلاني ص125

جناية قد فتحت باب القتل والقتال إلى اليوم، وهي جناية دلت على مكنون النفس البشرية الذي استتر فيها من غلبة الحقد والحسد على بعض النفوس، حتى طغت على كل عناصر الخير فيها، فهي جناية آجلها وخيم كحاضرها، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تُقتل نفس ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل[1]، و "من" هنا للسببية، أي سبب هذه الجناية كان ما شرعه الله تعالى من شريعة القصاص الخالدة الباقية لدفع الشر إلى يوم القيامة، وعبر عن السببية بـ "من" لبيان الابتداء في الحكم، مع كون "من أجل ذلك" دالة على السببية وتشير إلى ابتداء الحكم، وأنه مقترن بما وقع من جريمة كان لها آجل هو شر إن لم تقمع النفوس وتردع الأهواء المتغلبة الطاغية[2].

وهنا معاني بيانية تجب الإشارة إليها:

-في الكلمة السامية: ﴿كَتَبْنَا﴾؛ فإنها تدل على تقرير العقاب وتسجيله حتى لا يقبل المحو، فإن الواجب الذي يكتب يكون مسجلاً على القراطيس، ويبقى أثر الكتابة باقياً غير قابل للنسيان، وفيها إضافة الفرضية والكتابة إلى الله تعالت قدرته وجل جلاله وتقدست ذاته، وفي ذلك إشارة إلى عظمة المكتوب المفروض، وهو شريعة القصاص فهي

[1] مسلم، رقم 1677.

[2] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2137/4.

شريعة عظيمة تمد المجتمع بحياة هادئة مطمئنة، إذ تحميه من أوضاره أن تتغلغل في كيانه ومن شراره من أن يتحكموا في خياره.

-أن الله تعالى خص بني إسرائيل بالذكر مع أن القصاص شريعة عامة لم يخل منها دين من الأديان السماوية، بل لم تخل منه شريعة وضعية على انحراف في تطبيقه، أو إهمال في العدالة فيه، والنفوس التي انحرفت عنه في الأيام الأخيرة قد غلب عليها هواها، فغلبت عليها شقوتها وعرّضت الجماعات فيها لأعظم المخاطر من عدوان الأشرار، فلماذا خص الله تعالى بني إسرائيل بالذكر مع أنه مفروض قبلهم ومفروض بعدهم، والجواب عن ذلك نتلمّسه ولا نجد نصاً يدل عليه، ونقول في ذلك والله أعلم بمراده، إن التوراة فيما بقي منها هي الكتاب الذي اقترن هو والإنجيل بالقرآن زمنياً، فالقرآن جاء مهيمناً عليها ومصدقاً للصادق منهما، فذكر بني اسرائيل دليل على أنه مفروض علينا بحكم الاقتران الزمني وبحكم أن هذا المبدأ الخالد قرره القرآن وجدده في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:45][1].

-وفوق ذلك ما يزال هذا المبدأ باقياً في التوراة ولم يندثر فيها، مع أنهم حرفوا ما حرفوا، والأنبياء الذين سبقوا يعقوب وليست كتبهم قائمة في أيدي الناس في عصر التنزيل، كما بقيت التوراة مع تحريفهم فيها الكلم عن مواضعه وكانت شريعة القصاص باقية بعد هذا التحريف، ثم إن بني إسرائيل قد كتبت عليهم شريعة القصاص كما كتبت

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2138/4.

على غيرهم من قبلهم ومن بعدهم، ومع ذلك هم أشد الناس إسرافاً في قتل الأبرياء والأطهار وما أشبههم في قتلهم أنبياءهم ودعاة الحق بقابيل الذي قتل أخاه هابيل، فهو قتله لما ظهر فيه من خير وهم قد قتلوا أنبياءهم لأنهم دعوهم إلى الخير.

–أن الله تعالى عندما بيّن شريعة القصاص، قد ذكر الباعث عليها، وحكمتها، وما يؤدي إلى تنفيذها واكتفى ببيان ذلك مكتفياً بما فصلته شرائع النبيين فيها، وما أتت به من بينات[1].

وما كتبه الله تعالى هو أن من قتل نفساً بغير حق شرعي مبيح لها، فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، وقد بين القرآن الكريم متى يكون القتل بغير حق مشيراً بإيجازه المعجز إلى القتل بحق، فبين أن القتل بغير حق هو ألا يكون في نظير نفس، فالقتل قصاصاً لا يكون إلا بالحق ولكن بعد أن يقرر القضاء أنه يجب القصاص أو يمكن ولي الدم من القصاص، وكذلك القتل لمنع الفساد في الأرض، كقتل الذين يعتدون على الجماعات المؤمنة ويرهقونهم في تدينهم، أو من يرتدون ليفسدوا عقائد المؤمنين، أو الزنادقة الذين يفسدون العقائد، أو أهل الدعارة والفساد من أهل الحرابة الذين يخرجون على الجماعات ويحاربون النظم التي قرّرها الشرع الشريف، وهكذا فإذا كان القتل لغير هذين الأمرين، فهو قتل بغير حق، ومن فعل ذلك فكأنما قتل الناس جميعاً.

ولقد تكلم العلماء في معنى هذا التشبيه وكيف يكون قتل الواحد بغير حق مشابهاً

---

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2138/4.

لقتل الناس أجمعين، قال بعض العلماء: إن المراد نفس الإمام العادل، وذلك لأن قتل الإمام العادل الاعتداء فيه ليس على شخصه وحده ولكن على كل من يسعدون بحكمه ويظللهم عدله، فمن قتله فكأنما قتلهم، إذ يصير أمرهم بوراً من بعده وتضطرب أحوالهم، وذلك قتل للجماعة، لأن تفريق الجماعة وحل رباطها هو موت لها، ومع سلامة ذلك التفكير، فإن قصر القتل المفسد على قتل الإمام لا دليل عليه، ولذلك كان الأولى التعميم بدل التخصيص، والإطلاق يدل على التقييد، إذ لا دليل من مخصص أو مقيد، فالأولى هو تفسيرها بالعموم ويبقى مع ذلك التشبيه سليماً، لا شبهة فيه، ووجه الشبهة الذي جعل قتل النفس الواحدة كقتل الناس جميعاً يكون من عدة نواحٍ[1]:

-الأولى: أن من قتل نفساً فقد استباح حق الحياة المصون المحترم الذي حماه الإسلام، ومن استباحه في نفس واحدة فقد استباحه في نفوس الناس جميعاً وقد أشار إلى هذا المعنى ابن كثير فقال في تفسيره للقرآن العظيم: من قتل نفساً واحدة بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية فكأنما قتل الناس جميعاً، وعن أبي هريرة قال: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت: جئت لأنصرك، وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين، فقال: معهم؟ قلت: لا، قال: فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً، فانصرف مأذوناً لك مأجوراً غير مأزور، قال فانصرفت ولم أقاتل. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: من استحل دم امرئ فكأنما استحل دم الناس جميعاً ومن حرّم دم امرئ فكأنما حرم دماء الناس جميعاً.

---

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2139/4.

- الثانية: أن وزر من قتل نفساً واحدة كوزر من قتل ألفاً.

- الثالثة: أن عقاب قتل نفس كعقاب قتل الأنفس، وهو في الدنيا بالقصاص العادل وفي الآخرة بعذاب جهنم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:93][1].

ب- ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾:

في هذا النص السامي نتكلم عن أمرين:

أولهما: معنى إحياء النفس.

وثانيهما: معنى تشبيه من أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً.

أما الجزء الأول وهو معنى الإحياء، فقد ذكر العلماء له معاني كثيرة، منها إحياءها بمعنى تحريم قتلها على نفسه والامتناع عن انتهاك حرماتها، ولكن ذلك أقرب إلى المعنى السلبي، اللهم إلا أن يقال: إنه كب نفسه عن ذلك الفعل الأثيم عندما تساوره قوة الشر دافعة حاملة له، فإن الكف حينئذ ليس عملاً سلبياً، بل هو عمل إيجابي، ومنها أن معناها: من أنقذ إنساناً كان مشرفاً على الهلاك في حرق أو غرق، أو مصاولة إنسان أو حيوان، فإن ذلك إحياء له، ولكن مع سلامة هذين المعنيين لا يمكن أن يكون تشبيه من يفعل ذلك سلباً أو إيجاباً بإحياء الناس جميعاً واضحاً، لأنه إحياء لفرد، اللهم إلا أن يقال إن مجرد حماية حق الحياة أو احترامه في فرد هو احترام أو حماية له في الناس أجمعين.

---

[1] المرجع نفسه، 2140/4.

ولقد قال بعض المفسرين: إن المراد بإحياء النفس حماية نفس الإمام ومعاونته على دفع شرور البغاة والخارجين عليه، وإن ذلك سير على أن قتل النفس الذي يكون قتلاً للجميع هو قتل الإمام، وقد بينّا أنه غير الأولى.

والحق الذي نراه أن المراد بإحياء النفس هو بالتمكين من القصاص، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة:179]، فإحياء النفس المقتولة بالقصاص لها ممن اعتدى وقتلها، وقد وجدنا الألوسي ذكر ذلك الرأي فقال: وقيل المراد، ومن أعان على استيفاء القصاص فكأنما .. إلخ[1].

وبهذا يتبين بوضوح الأمر الثاني، وهو أن من أحيا نفساً قد قتلت بالتمكين من القصاص لها فقد أحيا نفوس الناس جميعاً، بأن يوجد الردع العام عن القتل والاعتداء، فتحيا النفوس، وينقمع الأشرار، وهذا ما أشار إليه ما تلونا من قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ..﴾ [البقرة:179][2].

ت- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّنَاتِ﴾:

يخبر الله سبحانه وتعالى أنه أرسل الرسل لبني إسرائيل يبينون لهم الحقائق التي يقوم عليها بناء المجتمع السليم الذي تحمى به الدماء والأعراض، والفضيلة الإنسانية والتي تشتمل على ما كتبه الله تعالى من أجل اعتداء أحد ابني آدم على أخيه من غير ظلم وقع منه ولا باعث على ما ارتكب إلا الحسد والحقد،

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2141/4.

[2] المرجع نفسه، 2141/4.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أنه أرسل الرسل بالبينات وهي الشرائع البينة الواضحة التي تحمل في نفسها دليل صلاحها وتوضح غاياتها ومراميها ومعها الدليل القاطع المثبت لصحة الرسالة من معجزات باهرة وخوارق صارخة وقد أكد سبحانه بعث هؤلاء الرسل وسلامة ما يدعون إليه بمؤكدات ثلاثة:

أولها: باللام وقد، إذ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنا﴾، وقد مؤكدة للخبر، واللام مؤكدة لما بعدها.

وثانيها: بالتعبير بأن الرسل جاءتهم، أي لاصقوهم وصاروا قريبين منهم يخاطبونهم ويحاجونهم ويبينون لهم، ولا يدعون أمراً فيه التباس إلا أزالوا لبسه، ومنعوا الاشتباه عليهم.

وثالثها: أنه سبحانه أضاف الإرسال إلى ذاته العليا، وفي ذلك بيان قدسية الرسالة وفوق ذلك هي في ذاتها فيها حقائق واضحات منيرة للحق فلها بذلك شرفان:

- شرف ذاتي من حقائقها.
- وشرف إضافي من مُنزلها.

ولكن الآيات والنذر إنما تغني من يذعنون للحق ويؤمنون بالبينات مهما تكن نيّرة، لا يدرك نورها إلا ذو البصيرة المستنيرة وليس بنو إسرائيل من هذا

الصنف[1].

ث- ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾:

كان العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ للإشارة إلى بعد ما بين البينات الواضحات التي جاءت بها الرسل، ونتيجتها في قلوبهم، فهي في ذاتها أمر بيّن ولكن نتيجتها لم تكن كحقيقتها طيبة مثمرة في قلوبهم، بل كانت كالبذر الطيب يلقى في أرض سبخة لينبت قليلاً، ويخرج حطباً[2]، في أكثرها، ولم يحكم سبحانه على اليهود جميعهم بأنهم كانوا جميعاً مفسدين، بل حكم على كثير منهم ذلك الحكم، كما قال تعالى: ﴿.. مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:166].

وقد وصف سبحانه وتعالى كثيراً منهم بأنهم مسرفون، أي مفسدون لأنهم قتلوا المخلفين وعصوا أوامر الله، وعاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الشر في العالم حتى إنك لا تجد فساداً إلا كانوا مصدره، فهم الذين نشروا الربا والمجون والعبث والخمور، وكل ما هو شر في الأرض، والإسراف: هو الفساد مأخوذ من السُرفة وهي: الدودة التي تأكل الشجر، والإسراف حتى فيما أصله خير يقلبه إلى شر وفساد، وقد أكد الله تعالى إسراف اليهود في الشر بـ ﴿إِنَّ﴾ وباللام في قوله ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾، وبالجملة الاسمية .. وقى الله المسلمين شرهم

[1] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2142/4.

[2] تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، 2142/4. انتفاخ بطون الماشية من الأكل ولا يخرج ما فيها.

وألبسهم لباس الذل والخوف إلى يوم القيامة وهدانا الله جميعاً للخير، إنه الهادي إلى قصد السبيل[1].

لقد كان هذا الحدث في قصة آدم عليه السلام فاتحة لتشريع إلهي أكّدته جميع الرسالات اللاحقة وخص بالذكر بنو إسرائيل، ويلاحظ أن تذكير القرآن الكريم بهذه الجريمة وتهويل أمرها وربطها ببعد عالمي إنما هو تأكيد لقيمة الكرامة الإنسانية وحق الإنسان في الحياة بدون اعتداء على الغير، فالاعتداء على حياة أي فرد إنما هي اعتداء على جميع الناس واعتداء على آدمية الإنسان وتكريم الله له، والعكس كذلك، فإن أي إحياء للإنسان من مظلمة أو مهلكة إنما هو إحياء لكل الناس، وفي هذا البعد تكريس للوحدة الإنسانية المتعالية على أي بعد آخر، وبهذا تكون حقوق الإنسان في الحياة التي هي من فطرته وتكوينه قد تجلت مع أول وحي سماوي وبلغة بليغة ذات بعد عالمي يمتد مع امتداد الزمن واستمرار الإنسان.

وفي هذه القصة تجلت لنا معان ومعطيات تشريعية وأخلاقية سترافق الإنسان مع سائر التشريعات فنجد المعاني والمفاهيم التالية:

- التقوى.

- الحسد.

---

[1] المرجع نفسه، 2143/4.

- مخافة الله.

- الآخرة.

- الجزاء.

- الظلم.

- التوبة.

- الندم.

- تحريم القتل وتهويله[1].

- تكريم الإنسان بالدفن... إلخ.

وقد لوحظ من هذا النص التأكيد على أن المرحلة الآدمية كانت تشتمل على وحي سماوي، وهذه الحقيقة قد اتضحت من خلال قصة آدم عليه السلام وما نزل عليه من هدايات السماء وتربية أبنائه عليها وتبليغهم إياها، وتتجلى في منهج تلقي التشريع الإلهي الذي بدأ مباشرة في المرحلة الآدمية الفردية يتطور مع المرحلة العائلية بالأحكام المتعلقة بالحضارة الإنسانية الأولى من معرفة أحد ولدي آدم بقبول قربان أخيه دون قربانه، وبالنظر إلى رسالة آدم في جوهرها العام يلاحظ أن الرسالة الآدمية إنما تمثل مروراً من الزمان الطبيعي إلى الزمان التاريخي، والذي تأسست به المؤسسة الأسرية في مدلولها الخلقي والروحي وتحويل العلاقة الجنسية إلى علاقة تعاقدية تنبني عليها الحضارة الأسرية[2].

---

[1] رسالات الأنبياء، عبد الرحمن حللي، مصدر سابق، ص 54.

[2] رسالات الأنبياء، عبد الرحمن حللي، مصدر سابق، ص 55.

فأهم ما يمكن أن نجمل به دعوة آدم عليه السلام هو التأكيد على أن لفظ آدم يختزل لغة ومضموناً الإنسانية كلها، وبالتالي فهو متعال على الزمان والمكان، بل يربطها جميعاً ويشدها إليه كأصل واحد ينبغي أن لا يتنازل عنه في تأسيس العلاقات وبناء الحضارات[1].

ثالثاً: وفاة آدم عليه السلام والرحيل:

عاش آدم عليه السلام وفياً للرسالة الربانية، ووفياً للخلافة في الأرض بالبناء والإعمار، وعاملاً على حقن الدم ومنع الفساد والوفاء لتعاليم الله عز وجل، واقترب الرحيل من الحياة الدنيا، وحان وقت الأجل والمغادرة، والموت هو نهاية المطاف لجميع الخلق في الدنيا وهذه سنة الله في خلقه، فالموت مقدّر في اللوح المحفوظ منذ خُلق الإنسان فإذا جاءت ساعة الإنسان جاءته المنية ولو كان في بروج مشيدة، قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:78]، فحينما يأتي الأجل لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:34].

فالموت هو الانتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة البرزخية، وهي حياة ما بين الموت ونفخة الصور، فعندما انتهى أجل آدم وانتهت مهمته التي خُلق من أجلها، وبعد أن سلّم الراية إلى ولده من بعده وبعد ما تناسلت ذريته وتكاثرت، وأنزلت إليها الصحف، جاء أجل آدم لينتقل إلى حياة أخرى[2]، وفي وسوسة إبليس لآدم إغراء بالخلود وهو ما

---

[1] المرجع نفسه، ص 55.

[2] آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد العمصي، مصدر سابق، ص 175.

يشير إلى أن آدم ورد إليه هاجس الموت والفناء.

هل هي الفطرة المحضة وإدراك آدم لطبيعة تركيبه المادي المجوَّف المعرّض للمخاطر؟، أم بناه على حالة النوم التي تتغشاه وزوجه و"النوم أخو الموت"؟، أم أراه الله تعالى مصير الغابرين؟،

أيّاً ما كان فقد رأى آدم وحواء مصرع بعض بنيهم في قصة قابيل وهابيل وفي قصة المولود الذي خرج من بطن حواء خديجاً أو ميتاً كما في الروايات المسوقة عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:189].

خلق الله آدم للخلود، فالأرواح باقية والموت عبور إلى مرحلة جديدة وليس عدماً ولا فناء محضاً، والرغبة في الخلود مغروسة في جبلة آدم وأمنية محقّقة له ولولده، ولكن بصيغة أخرى تستشعرها الروح لأنها من شأنها. عاش آدم ألف سنة كما تراودت على ذلك النصوص[1] وقيل غير ذلك.

وفي القرآن عن بعض أهل الكتاب: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة:96] ربما كانت الأمنية مبنية على ما في كتبهم من عمر آدم عليه السلام، ويبدو أن ثمَّ تناسباً بين أعمار البشر وأعدادهم، حين كان الناس قليلاً كانت تطول أعمارهم ثم لم يزل الخلق ينقص بعد.

لم يخلق الله الخلق الأول ليعيش في الجنة أو في الحياة إلى الأبد، والموت ليس لعنة على الأبوين بسبب الخطيئة، فالروايات الكتابية تُسرف في وصف حزن آدم وحواء وعجزهما

[1] علمني أبي آدم، العودة، مصدر سابق، ص295. الترمذي: رقم 3068.

عن التكليف مع الكون والحياة ورغبتهما الملحة في الموت والرحيل، كما ورد فيها أن آدم قال: يا رب خذ روحي ولا تدعنِ أرى هذا الظلام... خارت قواي ولا أريد أن أعيش في هذا العالم ولا أعرف متى تأخذني حتى أستريح[1].

وسياق القرآن سهل واضح، ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ ثمّ استقرار واستمتاع وجمال وانسجام مع مهمة العمارة والعبادة والبناء والخلافة في الأرض، ونسيان آدم للسنين التي أعطاها داود من عمره ومواجهته لملك الموت حسب الروايات، تأكيد واضح لانتمائه للحياة ورغبته في أن يعيش مزيداً من السنين لأنه مفطور على حب ذلك، فكراهية الموت فطرة حتى في الحيوان فضلاً عن الإنسان وخيركم: "من طال عمره وحسُن عمله"[2]، "ولا يزيد المؤمنين عمراً إلا خيراً"[3]، والعمر الذي يمنحه الله للعبد فرصة للعمل وميدان للسباق وسبب لنمو التجربة ونضجها وإتقانها وتدارك أخطائها ومواطن ضعفها واتضاح الرؤية وجلائها: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ [فاطر:37] وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك:2].

قد يعمر المرء حين يكتمل إنجازه وتضعف قوته ويشيخ ويفقد متعة العيش ويشتاق للقاء الله، فيدعو كما دعا عمر رضي الله عنه: "اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيّتي، فاقبضني إليه غير مضيّع ولا مُفرّط"[4].

---

[1] المرجع نفسه، ص 295.

[2] السلسلة الصحيحة: رقم 1836.

[3] مسلم: رقم 2682.

[4] علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، العودة، مصدر سابق، ص 291.

وقد يعاني من اضطراب من حوله وتفاقم مشكلاتهم وتفرق أهوائهم فيدعو كما دعا عليٌّ رضي الله عنه: "اللهم إني قد سئمتهم وسئموني ومللتهم وملّوني، فأرحني منهم، وأرحهم مني".

وقد يهرم المرء قبل أوان الهرم ويفقد طموحه وحلمه وهو في أول الطريق، ثم شاب يريد إنجازاً سريعاً ودون تخطيط ولا تدريب فيختصر حياته في درس واحد، فحين يفشل يسرع إليه اليأس ويتخلَى طواعية عن عمر ثمين[1].

وقبل رحيله رتّب آدم أمر خلافته وعهد إلى أحد أبنائه من بعده بعد ما علّمه المواقيت والعبادات وبعض الأخبار والمعلومات الضرورية ومهارات القيادة لاستمرار الحضارة الإنسانية الأولى، مرض آدم عليه السلام وأحس بقرب الرحيل وشاركته ذاته، ودّع أهله وأولاده وكان يردد الكلمات المباركات التي تلقّاها من ربه، التوحيد والاستغفار والاعتراف بالذنب: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

-﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:23][2].

وقد ذكر علماء السير والتاريخ ما ذكره أبي بن كعب عندما قال: إن آدم لما حضره الموت، قال لبنيه: أيّ بني إني أشتهي من ثمار الجنة، فقال: فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل[3]. فقالوا لهم: يا بني

---

[1] المرجع نفسه، ص 291.

[2] المرجع السابق، العودة، ص 294.

[3] هي أدوات الحفر والدفن.

آدم ما تريدون وما تطلبون، أو ما تريدون وأين تطلبون؟ قالوا: أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة فقالوا لهم: ارجعوا فقد قضى أبوكم، فجاؤوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم، فقال: إليك عني خلي بيني وبين ملائكة ربي عز وجل، فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له وألحدوا وصلوا عليه، ثم أدخلوه قبره فوضعوه في قبره، ثم حثوا عليه، ثم قالوا يا بني آدم هذه سنتكم. قال ابن كثير هذا إسناد صحيح إليه[1]، أي صحيح الإسناد إلى أبي بن كعب[2].

وأخرج الحاكم في مستدركه عن سُمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما توفى آدم غسلته الملائكة بالماء وتراً وألحدوا له وقالوا هذه سنة آدم في ولده، قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[3].

وقيل إن أحد أولاده صلّى، وبموت آدم عليه السلام طويت صفحة البشرية من وجوده البدني والروحي معاً في الأرض، وأصبحت قصته معلماً للهُدى ومصباح نور تسترشد بها الحضارات الإنسانية المرتبطة بهديات السماء.

وكانت وفاته يوم الجمعة بحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): يوم الجمعة سيّد الأيام وأعظمها عند الله، خلق الله فيه آدم وأهبط فيه آدم إلى الأرض وفيه توفى الله آدم[4]،

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، مصدر سابق، 91/1.

[2] آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد العمصي، مصدر سابق، ص 178.

[3] مستدرك الحاكم: 545/1.

[4] مصنف ابن أبي شيبة، رقم 5516.

وماتت بعده حواء بسنة واحدة ودفنت مع زوجها في نفس المكان[1].

ولا تخبرنا النصوص الصحيحة عن العُمر الذي عاشه آدم، ولا عن المكان الذي توفي فيه ولا البقعة التي دفن فيها، فنتوقف عن الجزم في هذه الأمور من حيث التعيين والتحديد، وإنه لا مانع من ذكر بعض أقوال علماء السير والتاريخ كما مرّ معنا في عمره.

ولقد عاش آدم على مرحلتين:

المرحلة الأولى: عاشها في الجنة ولا نعرف مقدار سنواتها.

المرحلة الثانية: عاشها على الأرض ولا يمكن الجزم في معرفة سنواتها أيضاً[2].

واختلف في مواضع دفنه عليه السلام على عدة أقوال أهمها:

- دفن على جبل سرنديب بالهند، ذلك الجبل الذي أهبط إليه يقال له جبل نوذ وهذا الرأي مروي عن أبي صالح عن ابن عباس، وقال به الثعلبي.

- أنه توفي في مكة، وذلك عندما كان في الحج في تلك السنة فدفن في جبل أبي قبيس في غار يقال له الكنز، وهذا الرأي مروي عن مقاتل.

- أنه توفي بمنى ودفن بمسجد الخَيْف، هذا الرأي مروي عن عطاء، وحكاه ابن عباس قال: وحملته الملائكة من منى إلى الكعبة وصلت عليه عندها وطافوا به، ثم ردوه إلى مسجد الخيف فدفن بها.

---

[1] آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، العمصي، مصدر سابق، ص 176.

[2] قصص القرآن، صلاح الخالدي، مصدر سابق، 144/1.

-وقيل إنه دفن في مغارة تقع ما بين بيت المقدس وقبر الخليل، وهذا القول عن عبد الله بن أبي فراس ورواه ابن عساكر.

-وقيل إن نوحاً عليه السلام لما كان الطوفان حمله هو وحواء في تابوت فدفنهما في بيت المقدس، وقيل بل دفنه في أبي قبيس في غار الكنز، وجميع الأقوال السابقة لا دليل عليها والله أعلم بالصواب[1]، ومن يدري فقد تتعرّف البشرية يوماً ما إلى قبري آدم وحوّاء عليهم السلام ويرتفع الشك باليقين[2].

هذا ما وصلت إليه بعد سير وبحث في قصة آدم عليه السلام والفضل لله وحده وهو ولي التوفيق فمنه العون والسداد.

إن لقصة آدم عليه السلام أهمية خاصة في الأديان؛ لأنها كانت بداية الخليقة، فما من دين أو مذهب أو معتقد إلا وله عقيدة أو فلسفة معينة لبدء الخليقة، فجاء هذا الكتاب مفصلاً لبدء الخليقة معتمداً على كتاب الله عز وجل ومستنداً إلى المصدر الكوني الأول والأصدق كتاب الله العزيز: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

---

[1] آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، العمصي، مصدر سابق، ص 179.

[2] علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، العودة، مصدر سابق، ص 292.

الخلاصة

في خاتمة حديثنا عن قصـة بدء الخلق وخلق آدم عليه السـلام في سـياق التفسـير القرآني، ونظراً لأهمية تلك المرحلة التأسـيسـية ومكانتها العظيمة لدى المخلوقين كلّهم بمختلف ألوانهم وأطيافهم وألسـنتهم ومذاهبهم وتوجهاتهم، واسـتمرار الجدل والنقاش الفلسـفي والديني والاجتماعي والأخلاقي الطويل، والذي خاضته وتخوضه الإنسانية بمختلف اتجاهاتها وانتماءاتها الفكرية والعقائدية، وعلماء البيولوجيا والوراثة، ومراكز الأبحاث والدراسـات العالمية حول تلك المرحلة منذ القدم وحتى يومنا هذا، يمكننا أن نلخص أهم ما ورد في هذا الكتاب من أفكار ووقفات وحقائق علمية حول تلك القصة الإنبائية والإعجازية العجيبة في بدء خلق المخلوقات وميلاد الحضارة الإنسانية الأولى، والتي اسـتندتُ من بدايتها إلى نهايتها على كتاب الله العزيز الحكيم الذي "لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ". وقد اعتمدتُ على تفاسـيره المتعددة، كما استفدتُ كثيراً مما قاله الأولون والعلماء المعاصرون ونهلت من مصادرهم وكتاباتهم الرصينة حول تلك الفترة. وأبرز النتائج التي وصلت إليها التالية:

1. أوَّلُ كلمةٍ يدخلُ بها الإنسان بوّابةَ الإسلامِ، ويصلُ إلى مدارجِ التوحيد، ويرتقي في مراقي العبودية، هي كلمةُ "لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله"، التي بموجبها يعترفُ العبدُ للهِ عزّ وجلّ وحدَه بالربوبية والألوهية، ولمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بالرسالةِ. وقد عُرِفَتْ لا إله إلا الله لدى المسلمين "بكلمة التوحيد"، و"كلمة الإخلاص"، و"كلمة التقوى".

2. إن معنى كلمة "لا إله إلا الله" أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، فهو وحدَه سـبحانه

المستحقُّ بأنْ تُصرفَ له جميعُ العباداتِ، وتكونَ خالصةً له دون سواه. ومعنى شهادةِ "أنَّ محمداً رسول الله": الإقرارُ باللسانِ، والإيمان بالقلبِ، بأنَّ محمَّد بنَ عبد الله القرشيَّ الهاشميَّ رسولُ اللهِ إلى جميعِ الخلقِ من الإنس والجن.

3. إن لفظ الجلالة في كلمة الشهادة "الله" عزَّ وجلَّ، هو اسمٌ من أسمائه جلَّ وعلا، وهو اسمه الأعظم عندَ قومٍ، وهو أكثرُ الأسماءِ تردُّداً في القرآن والسنة. و"الله" هو أكثرُ الأسماءِ اشتهاراً وترديداً على ألسنةِ المخلوقين كلّهم بمختلف ألسنتهم. و"الله" هو الاسم الدالُّ على الذاتِ العظيمةِ الجامعةِ لصفاتِ الألوهية والربوبية. وهو اسمٌ له وحدَه، لا يتعلّق به أحدٌ سواه، ولا يُطْلَقُ على غيره، ولا يدّعيه أحدٌ مِنْ خلقه.

4. إن لكلمة "لا إله إلا الله" فضائل جمة وردت في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم. فقد وصفت في القرآن الكريم بالكلمة الطيبة، والقولِ الثابتِ، والعروة الوثقى. وأنّ الرسل جميعَهم أُرسلوا بها مبشّرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]. كما ورد فضلها في السنة المشرفة، فمن ذلك أنها أفضل شعب الإيمان، وأن الجهاد أُقِيْمَ من أجل إعلائها، وأنّها ترجُحُ بصحائفِ الذنوب.

5. إنّ ذكرَ اللهِ من أفضل العباداتِ المقرّبةِ إلى اللهِ تعالى وأجلّها، وأعظمِها أجراً، مع

سهولته ويُسْرِه على مَنْ يسرّهُ الله عليه. هذا وإنّ أفضل أنواعِ الذكر بعد القرآن العظيم هو قولُ المرءِ: لا إله إلا الله. وهي كلمةُ التوحيدِ، كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: "أفضلُ الذكرِ لا إله إلا الله".

6. إنَّ الولاءَ والبراءَ مِنْ لوازِمِ لا إله إلا الله، قال الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 28]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أوثقُ عُرى الإيمانِ الحبُّ في الله والبغضُ في الله".

7. إن لكلمة "لا إله إلا الله" آثارٌ عظيمة في حياة المؤمن بها، فهو لا يكون ضيّقُ النظر بخلاف من يؤمن بآلهة متعددة أو من يجحد الألوهية والوحدانية، والإيمان بهذه الكلمة يعطي المؤمن بها من الأنفة وعزة النفس مالا يقوم دونه شيء، فينشأ عنها ترفُّعٌ من غير كِبْرٍ وتواضعٌ من غير ذلٍّ، والإيمان بهذه الكلمة يربي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام، فلا يتسرب إليه اليأس ولا يقعد به القنوط.

8. لا توجَدُ في القرآن الكريم مناقشةٌ صريحةٌ لمنكري الخالق، فإنَّ الإيمانَ بوجودِ خالقٍ لهذا الكون قضيةٌ ضروريةٌ لا مساغَ للعقلِ في إنكارِها، فهي ليستْ قضيةً نظريةً تحتاجُ إلى دليلٍ وبرهانٍ؛ ذلك لأنّ دلالةَ الأثرِ على المؤثّرِ يدركُها العقلُ بداهةً،

والعقلُ لا يمكنُ أن يتصـــوّر أثراً من غيرِ مؤثّرٍ، ولو كانَ أثراً تافهاً، ولذلك لم يناقشِ القرآن الكريم هذه القضـية حتى حينما أوردَ إنكارَ فرعونَ لربِّ العالمين، يوم أن قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 23]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38].

9. من أدلة وجود الخالق دليل الخلق، فالخلقَ بكلِّ ما فيه شـــاهدٌ على وجودِ خالقه العليّ القدير سبحانه، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: 35-36]. ودليل الفطرة والعهد، وهو الذي دلَّ عليه القرآن الكريمُ والســنةُ النبويةُ المطهرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم:30].

10. من الأدلة على وجود الخالق دليل آياته في الآفاق، قال تعالى: ﴿سَـنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِـــهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ شَـهِيدٌ﴾ [فصلت: 53]. وقد أثبت الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما يدل على آيات الله في الآفاق، كنقص الأوكســـجين في المرتفعات، وحركة النجوم والكواكب في مداراتها، ودوران الأرض والجبال، والحاجز بين البحرين المالحين، واهتزاز الأرض وزيادتها بالمطر، وغير ذلك.

11. إن من أعظم الأدلـة على وجود الخـالق هو دليـل الأنفس، فلمـا كـان أقربُ

الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقُه وبارئُه ومصوّرُهُ وفاطرُه مِنْ قطرةِ ماءٍ إلى التبصُّرِ والتفكّرِ في نفسِه، فإذا تفكّرَ الإنسانُ في نفسِه استنارت له آيات الربوبيّةِ، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21].

12. إن من الأدلة على وجود الخالق سبحانه دليل الهداية، والهداية المقصودة هي إعطاءُ كلِّ مخلوقٍ من الخلق والتصوير ما يصلحُ به لما خُلِقَ له، وإرشادُه إلى ما يُصْلِحُه في معيشته، ومطعمه، ومشربه، ومنكحه، وتقلبه، وتصرفه. فمن أسماء الله الحسنى "الهادي"، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:50].

13. إن انتظام الكون وعدم فساده، وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي، وارتباطُ بعضِه ببعضٍ، وجريانُه على نظام مُحْكَمٍ، لا يختلف ولا يفسد، هو أدلُّ دليلٍ على وجود الخالق ووحدانيته، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 22].

14. إن من الأدلة على وجود الخالق ووحدانيته، دليل التقدير التي تبدو في كلّ ما خلقَ الله عزّ وجلّ في الأرض والسماءِ والإنسان والنبات والحيوان، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2]. ودليل التسوية وهو إحسانُ الخَلْقِ، وإكمالُ الصنعةِ، بحيث يكونُ المخلوقُ مهيئاً لأداءِ وظيفته، وبلوغِ كماله، المقدَّر عنه، وجعله مستوياً معتدلاً متناسبَ الأجزاء، بحيث لا يحصلُ

تفاوتٌ يخلُّ بالمقصـودِ منها، قال تعالى: ﴿صُـنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَـيْءٍ﴾ [النمل: 88].

15. يعتبر الترابط الهـادف بين بلايين أجزاء الكون دليلاً باهراً على وجود الله، وهو الترابط غائي على حدِّ تعبير الفلاســفة، أي: ترابط له غاية، فإنه ليس مجرد ترابط فقط، بل هو ترابط هادف فيه القصد وفيه الغاية، إذ إن كل شـيءٍ له غاية، وسمِّي أيضـاً "دليل القصـد"، وذلك أن كل ما في العالم مقصـود لا دخل للاعتباط فيه، هادف لا دخل للمصادفة فيه، ومن أجل ذلك اعتبر هذا دليلاً على وجود الله، ولقد سمِّي هذا الدليل أيضاً "الدليل الغائي".

16. غاص القرآن الكريم بتوجيه الأنظار إلى عناية الله بالكون، وعلى الخصـــوص بالإنســان في رحاب الكون، وهو إشــارة إلى دليل على وجود الخالق يســمِّى "دليل العناية"، وهو كون الله سـبحانه معنيٌّ بالعالم، وعنايته بالكون سـارية في جميع أجزائه، يقول ســبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

17. إن من أسماء الله اسم "الظاهر"، فالله سبحانه وتعالى ظاهر ظهوراً واضحاً، فهو أظهر من كل ما ســواه. والمؤثِّر في أعراف المؤمنين أظهر من الأثر، والخالق أوضح من الخلق، والمكوِّن أجلى من الكون، الكون كله بما فيه ومن فيه مظهر من مظاهر أسمائه وصــفاته، وعلاماته، فكل الكون يدل على الله أبداً، لذلك فإن أكبر وظيفة للكون أن نتعرف على الله من خلاله، ولو لم نستفِد منه.

18. الناس في كل زمان ومكان يشتاقون إلى معرفة كيفية خلق العالم، ويكثر تساؤلهم

بمتى وكيف؟ ويريدون تحديداً واضـــحاً عن الأول من المخلوقات وعما بعده، كما إنهم يريدون ترتيباً يكون فيه التعيين والتحديد. ولذلك فقد تكرر في القرآن الكريم ذكر بدء الخلق في أكثر من آية؛ مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِـئُ النَّشْـأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20].

19. يُصوّر الفكر الغربي المادي الحديث بداية الخلق كبداية غامضة أو هلامية، حيث جاء تفسـير بداية خلق الإنسـان بعيداً عن الدين فيه، وذلك تبعاً للفكر الاجتماعي والتربوي الإنسـاني الذي ينطلق من النظرية المادية الملحدة التي ترفض الدين والإيمان بالله وبما جاء عن الله في تفسير سلوك الإنسان، وارتباطه بالإيمان بالله، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والقضاء والقدر.

20. إن الله سـبحانه وتعالى هو الأول، فهو الأول بلا ابتداء، وهو الأول فليس قبله شـيء، كما قال سـبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3]. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء".

21. أقام الله عز وجل الحجّة العقلية الدامغة على الملحدين والمشـركين، وتحدّى عقولهم وكل قواهم في نفي الإلحاد وفي نفي الشـريك؛ وذلك من خلال تقرير مبدأ الخلق في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَـيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَـيْطِرُونَ﴾ [الطور: 35-37]. فهذه الآية تنفي مبدأ الإلحاد من خلال الإلزام بوجود خالق، إذ إنهم لم يُخلقوا من غير خالق، فكل مخلوق خالقه واحد.

22. إن أخطر شبهة يلقيها الشيطان على ابن آدم ولا يكاد يسلم من التعرّض لها أحد، هي وسوسة الشيطان في مسألة الخلق، فالتفكير في مبدأ الخلق دون هديٍ من الوحي مدخل من مداخل الشيطان ووسوسته، ولذا نبه لها النبي صلى الله عليه وسلم حتى لا يقع فيها المسلم، فقد روى البخاري من حديث أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء، فمن خلق الله؟، فإذا بلغه فليستعذ به ولينتهِ".

23. إن الله سبحانه وتعالى متصف بجميع صفات الكمال، وهو المنفرد بها وحده دون ما سواه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1-4]. فالإثبات بوصفه سبحانه بأنه هو الذي يرجع إليه كل أمر، وذلك لأنه هو المتصف بجميع صفات الكمال، فالمرجع والمرد إليه سبحانه. وأما التنزيه: فوصفه تعالى بأنه غنيٌّ عن كل شيء، فلا افتقار فيه بوجهٍ من الوجوه.

24. تعد آية الكرسي أفضل آية في كتاب الله، إذ كل ما فيها متعلق بالذات الإلهية العليّة، وناطق بربوبيته تعالى، وألوهيته وأسمائه وصفاته الدالة على كمال ذاته وعلمه وقدرته وعظيم سلطانه.

25.25. من أسماء الله الحسنى "الغني" وهي صفة لله سبحانه وتعالى، فهو لم يخلق الخلق ليأنس بهم من وحشة، ولا ليستكثر بهم من قلة، ولا ليقوى بهم من ضعف، فهو الغني عن خلقه وهم المفتقرون إليه في كل أحوالهم وهو العزيز الحميد. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: 15].

26. قضت إرادة الله تعالى بأن يكون الخلق في أوقات متفاوتة، فهو سبحانه لم يخلق الخلق جميعهم في وقت واحد ولا دفعة واحدة، وإنما خلق الخلق في أوقات متفاوتة، وخلق كل مخلوق في مراحل وأطوار متعددة، لتتجلى قدرته وتظهر دلائل تصرفه وتدبيره لخلقه.

27. إن ثنائية الخلق دليل على وحدانية الخالق عز وجل، فالله سبحانه خلق كل نوع وجنس من الخلق من زوجين، قال سبحانه: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49]. وقوله تعالى: "لعلكم تذكّرون"، أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له. فجعل ثنائية الخلق دلالة على وحدانية الخالق سبحانه.

28. إن الخلق والوجود لم يخلق عبثاً وإنما كان بقصد وحكمة ولغاية إلهية، فالله عز وجل ربط بين الخلق وبين الحكمة والعلة من الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: 38-39].

29. لا يوجد إجماع واتفاق على أي المخلوقات قد خلق أولاً؟، فمصدر معرفة أول المخلوقات وكيفية الخلق هو الخبر عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، وما فَهمه أهل العلم منهما، ذلك أن الحقيقة المجردة تقول أنه لا مصدر لذلك غير الوحي المعصوم والفهم المهتدي بهديه، وما عدا ذلك فهو فرضيات وتوقعات، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك: 14].

30. إن أول المخلوقات وأعظمها هي العرش والكرسي، فعرش الرحمن هو أعظم المخلوقات حجماً وكيفية وأعلاها مكاناً، فهو سقف الكون، وعليه ذو الجلال

والإكرام، ولا يدانيه في عظمته شيء من خلق الله، وقد أضافه إلى نفسه إضافة تشـــريف وتعظيم؛ فيقال: "عرش الرحمن"، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْـــتَوَىٰ﴾ [طه: 5]. والكرســـي خلق عظيم وهو بعد العرش في عظمة الخلق، فهو يسع السماوات السبع والأرضين السبع معاً في الخلق والحجم، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

31. الماء من أول المخلوقات وجوداً، فهو سر الحياة ومنبعها، ولذا فهناك من العلماء من قال بأن الماء أول المخلوقات، فقد خلق قبل العرش، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُـهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: 7]، وفيه إشـارة إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خُلقا قبل خلق السماوات والأرض، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء.

32. من آراء العلماء في أي المخلوقات خلق أولاً، أن بعضـــهم قال أنه القلم، وقد اســـتندوا في ذلك إلى حديث عبادة بن الصـــامت مرفوعاً: (أول ما خلق الله القلم، ثم قال اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة). والمقصود بالقلم هنا القلم الذي أمره الله سبحانه وتعالى في بدء الخليقة بأن يكتب مقادير الأشياء وما هو كائن من مخلوقات، وأحداث، وحياة وموت، إلى يوم القيامة، وذلك بمقتضى علم الله بخلقه.

33. اللوح المحفوظ أحد المخلوقات العظيمة التي خلقها الله في بدايات الخلق، وقد اقترن ذكره بالقلم في أحاديث كتابة القدر، وسماه الله محفوظاً لأنه لا يتطرق إليه العبث ولا تصل إليه الشياطين، فهو محفوظ من كل تغيير وتبديل، محفوظ من أن ينفُذ إليه أو بغير ما فيه من حكم أو قضـــاء أو قدر. والقرآن الكريم محفوظ في اللوح منذ الأزل، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ

مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: 21-22].

34. الزمان من مخلوقات الله العظيمة، فهو الزمان والوقت الذي نتحرك فيه ونعيش أيامه ولياليه، والذي به نحسب الأعمال والآجال، والوقت الذي هو محل الأعمال، وامتداد الآمال. والزمان كان مخلوقاً ومقدراً منذ بداية الخلق، وقد جاءت ألفاظ القرآن الكريم لتؤكد هذه الحقيقة، وقد بين الله سبحانه هذه الحكمة العظيمة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:12].

35. الأرض من أعظم مخلوقات الله تعالى، وقد خلقها قبل السماوات، فخلقها وقدر فيها الأقوات في أربعة أيام، ودحاها فأخرج منها الماء والمرعى، وأرسى فيها الجبال، وهي سبع أرضين كمثيلتها من السماوات كما صرح النص القرآني، وقد كروية أيضاً بمقتضى الإشارة القرآنية في قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: 5].

36. إن الجبال خلق من مخلوقات الله العظيمة، ذكرها الله في كتابه العزيز في أكثر من أربعين موضعاً؛ فتحدث عن صفاتها ووظائفها وخصائصها. فالجبال خلقت بعد الأرض، لقوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: 30-32]. ، وقد وصفها الله بأنها رواسي وأوتاد، فهي خلقت من أجل ترسية الأرض ومنعها من أن تميد بالناس، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: 31]. وقد دلت النصوص القرآنية على أنها تعبد الله تعالى فتسجد له وتسبحه وتخشع له، كما أنها تغضب

وتخشى وتهتز.

37. تكرر حديث القرآن الكريم عن خلق السموات والأرض في عديد من المواضع، فقد أشار إلى أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين في رتق واحد، وأن الله خلق السماء بغير عمد فجعلها سقفاً للأرض، وهيأها لعباده، فمنع سقوطها على الأرض وأحكم بناءها، فجعل الله السموات على قدر من العظمة بما لا يحيط به وصف، ولا يدركه حس، وذلك كله لتكون موضع عبرة ومحل تدبر وتفكر لعباد الله المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 190-191].

38. خلق الله الشمس والقمر ليتم بهما بناء الكون، وتستقر بوجودهما حياة الكائنات وتنمو، وليميز الله بهما بين الليل والنهار، والنور والظلام، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: 15-16].

39. خلق الله الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته، ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [فصلت: 37]. ففي تعاقب الليل والنهار ما يدعو إلى التدبر والاعتبار بتصرم الأيام وتبدل الأحوال، وقد فاضل الله بين بعض الليالي وبين بعض الأيام، فخصّ الليل بالقيام والنهار بالصيام، وجعل في بعض الليالي من الخصائص والأمور العظيمة ما لم يجعله في النهار.

40. إن النجوم من مخلوقات الله العظيمة وآية من آياته الباهرة، فالنجوم خلق جميل

بلألائه بديع بنوره، أقسم الله به وبمواقعه، وتحدث عن حكمة خلقه؛ زينة للسماء، وهداية للسائرين، ورجوماً للشياطين، وذكر سجوده لربه وخضوعه لسلطانه، فأقسم الله بها، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: 75]. وقد بين الله سبحانه الحكمة من خلقها، فقد خلقها لتكون آية على عظمته وقدرته يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وتُعرف بها الجهات شمالها وجنوبها وشرقها وغربها، فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 97].

41. إن الله تعالى خلق الهواء، عنصراً أساسياً من عناصر الحياة، فالهواء محيط بالأرض، وفيه يتنفس الإنسان والحيوان وذوات الأرواح من الطيور والحشرات، كما لا يستغني عنه النباتات في حياته ونموه وانتشاره، حتى الحيوانات في البحر لا تعيش بدونه.

42. خلق الله تعالى الرياح وسخرها من الهواء، فهي هواء متحرك وهي موجودة في الحياة فوق البسيطة، ولم يستأثر بها أحد دون الآخر، وما ملَّك الله الرياح أو وكَّل بها أحداً من الناس، بل زمام أمورها وتصريف حركتها وشؤونها بيد الخالق الرحيم، قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164]، والرياح قوة من قوى هذ الكون وجند من جنوده، وذكرها في مواضع للتعبير عن رحمته سبحانه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان: 48].

43. إن من مخلوقات الله عز وجل في هذا الكون العجيب السحاب والرعد والبرق والصواعق، وهي خاضعة لقوانينه وقدرته ومشيئته وفق حكمته وعلمه سبحانه

وتعالى، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: 12-13].

44. بدأ خلق النبات في الأرض في مرحلة الدحي الواردة في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: 30-31]، فمعنى الدحي هو إخراج الماء والمرعى وتمهيدها للأقوات. وللنبات منافع جمة للعباد في أنواعه وأشكاله وطعومه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 10-11]، وكما أن النبات للعيش والأكل فهو للبهجة والجمال والسرور، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: 60].

45. الأشجار رمز للجمال، وتعتبر من أهم الزينات التي تزين الأرض، جبالها وسهولها ووديانها وحدائقها ومساكنها وشوارع مدنها، وهي محل ضرب الأمثال الجمالية في القرآن الكريم، وأهمها شجرة النخيل التي قال الله تعالى في وصفها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: 24-25].

46. ذكر الله شجر الزيتون والتين في كتابه العزيز في معرض الحديث عن خلقه

للنبات، قال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: 1-3]. وفي القَسَم بالتين تأكيد لتميز ثمرته بقيمتها الغذائية والصحية، وما بها من إنزيمات مقيدة، وغير ذلك من المركبات الكيميائية المهمة، ومنها المضادة للسرطانات، والفيروسات والبكتيريا والطفيليات، وفي القسم بالزيتون إشارة إلى تميز أشجاره وثماره وزيوته بميزات عديدة لا تتوفر لغيره من النباتات. وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنواعاً أخرى من الأشجار كشجرة اليقطين وشجرة المراعي وغيرها.

47. إن من مظاهر القدرة والجمال في خلق الأشجار، تنوعها واختلاف ألوانها وتنوع ثمارها، مما يعطيها المزيد من الجمال والبهجة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: 141].

48. خلق الله تعالى الظلال لتقي الإنسان حر الشمس، ويتقي به لهيبها وشعاعها، ويستبرد فيها، كما أنه وسيلة توقيت يعرف بها الإنسان مراحل النهار. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: 81].

49. إن أول ورود لقصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم هو في سورة البقرة في الآيات (30-39)، وقد أخبر سبحانه وتعالى في هذه السورة ملائكته بأنه سيجعل خليفة في الأرض، والخليفة هو العامر لها، ويخلفه من ذريته خلفاء يتتابعون تناسلاً جيلاً من بعد جيل إلى ما شاء.

50. إن في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 28-29]، استدلال قاطع على أن الإيمان بالله أمر مستقر في الفطر والعقول، وأنه لا عذر لأحد في الكفر به البتة، فذكر تعالى أربعة أمور؛ ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم وهي كونهم كانوا أمواتاً لا أرواح فيهم قبل أن يخلقهم، وأنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة، وأنه يميتهم بعد هذه الحياة، والرابع منتظر موعود به وعد الحق، وهو أنه تعالى يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه.

51. افتتح الله عز وجل الحديث عن قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة بذكر اسم من أسمائه الحسنى، وهو "الرب" سبحانه، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]. وهذا الاسم من أعظم أسماء الله الحسنى، وعامة ما جاء هذا الاسم مضافاً إلى الخلق عموماً أو خصوصاً، مثل: رب العالمين، رب السماوات والأرض، رب العرش ... ونحو ذلك. وقد ورد في القرآن الكريم في أكثر من 90 موضعاً، فهو من أعظم الممادح التي مجد الله تعالى نفسه وبها، وهو من أكثر الأسماء التي يدعى بها الله عز وجل.

52. إن تعريف "الملائكة" في القرآن الكريم هم أجسام عُلوية قائمة بأنفسها، قادرة بالقدرة الإلهية على التشكّل، ذوو قدرات خارقة لا حصر لها، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينكحون، مقرّبون طائعون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء. والذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وإجماع المسلمين أن الملائكة خلق من خلق الله

سبحانه وتعالى خلقهم لعبادته كما خلق الجن والإنس. وعالم الملائكة عالم كريم طاهر، اصطفاه الله في الدنيا لقربه ولتنفيذ أوامره الكونية والشرعية، وجعل الله الملائكة رسله وسفراءه إلى خلقه لإبلاغ وحيه.

53. إن الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان عبد ولا يقبل إلا بتحقيقها، والقرآن الكريم أمر بالإيمان بهم وحذر من الكفر بهم، وبيّن أحوالهم مع الله ومع الناس. فتارة يقرن اسم الله عز وجل باسمهم ويجعل الإيمان به مستلزم الإيمان بهم. والإيمان بالملائكة يتضمن عدة أمور وأهمها: الإقرار بوجودهم وأنهم من خلق الله وأنه خلقهم لعبادته، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله وإثبات أنهم عباد الله تعالى، والإيمان بما ورد بحقهم في الكتاب والسنة وبمن سمى الله لنا منهم كجبريل وميكائيل...

54. إن الإيمان بالملائكة له أهميته في حياة الإنسان، ولذلك جاء ذكرها في بداية قصة آدم عليه السلام، وأخذت حيزاً من الحديث الرباني عنها في كتاب الله عز وجل؛ فللإيمان بهم في حياة المسلم أثار عظيمة، فهو يقوي شعور المسلم بعظمة الله عز وجل، ويحقق ركناً من أركان الإيمان، كما أن الإيمان بالملائكة يؤدي إلى الحصول على الطمأنينة والأمن في الدنيا وفي الأخرة. وإن هذا الإيمان يدفع الإنسان للتشبه بهم في الإقدام على الطاعات والابتعاد عن المعاصي، وهو يدفع الإنسان للاستحياء من الله تعالى والبعد عن معصيته في السر والعلن.

55. إن قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، يدل على أن هذا الخليفة ستكون إقامته في الجنة مؤقتة؛ لأنه لم يُخلق للإقامة فيها في الفترة الأولى من حياته، إنما خُلق ليكون خليفة في الأرض، وليسكن في الأرض وليعمرها

ويصلحها.

56. وردت كلمة "خليفة" في الاستعمال القرآني بالمفهوم الحياتي البنائي الشامل، فمهمة الإنسان عمارة الأرض، ولهذا خُلق: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]. و"الخلافة" لا تكون إلا حين يكون هذا الكائن يخلف بعضه بعضاً في عبادة تراكمية اختيارية، تقوم على تلك الأمانة العجيبة التي أبت السماوات والأرض والجبال حملها فحملها الإنسان، فهي تقوم على حرية إرادة هذا الكائن وحرية اختياره. وإن الخلافة والاستعمار في الأرض تجعل الكشف والبناء والعلم والاختراع لخدمة الإنسانية مهمة ربانية وليست أمراً هامشياً أو ثانوياً. وعليه فالاستخلاف هو عمارة الأرض بحسب نظام الله، وإنها تكليف معرفي وإنساني واسع. وليس المقصود بالخليفة شخص آدم فقط، بل المقصود به نوع الإنسان عامة، والاستخلاف في هذا المقام هو استخلاف تشريف للخليفة.

57. إن قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، يؤكد على أن أصل البشرية كلها من زوج واحد خلقه ربنا تبارك وتعالى خلقاً خاصاً بـــ "الخليفة"؛ لأنه تعالى وضع في بنائه القدرة على التزاوج وإنتاج سلالة خصبة ملأت الأرض ببلايين من الأفراد الذين عاشوا وماتوا، وبالبلايين الذين يملؤون جنبات الأرض اليوم. وقد طمرت الحضارة المادية المعاصرة حقيقة الخلق الخاصة بالإنسان هذه تحت ركام فكرة "التطور العضوي"، وهي فكرة أشاعها عدد من شياطين الإنس للتخلص من الإيمان بالخلق والخالق عزوجل. غير أن ربنا تبارك وتعالى أكد حقيقة خلق أبوينا آدم وحواء من نفسٍ واحدةٍ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا

رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

58. إن علم الوراثة يرد جسد كل واحد منا ومن الآباء والأمهات بالتسلسل الزمني حتى يصل بكل واحد منهم إلى خلية تناسلية من أبينا آدم وأخرى من أمنا حواء، ولما كان علم الوراثة هو من أحدث المعارف المكتسبة، فإن سبقَ القرآن الكريم بالإشارة إلى تلك الحقيقة العلمية من قبل ألف وأربعمائة سنة يعد واحداً من أوجه الإعجاز العلمي والإنبائي في كتاب الله، الذي أكد حقيقة وجود بني آدم جميعاً في صلب أبيهم آدم عليه السلام لحظة خلقه، وأكد القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172].

59. إن علم الوراثة الحديث قد هدّم كل أساس للنظرية الداروينية، فقد أصبح من الثابت أن الأصول تورث الفروع المتفرعة عنها كل ما تحمل من خصائص بواسطة الكروموسومات، ولا نجد بين أجناس المخلوقات اتفاقاً في الخصائص الموروثة، بل نجد بينها تبايناً ظاهراً واختلافاً.

60. إن الحكمة من خلق الإنسان حددها ووضع معالمها الله سبحانه وتعالى، فالحكمة سابقة على الخلق، وقبل أن يبرز آدم عليه السلام من العدم إلى الوجود بيّن الله تعالى الحكمة من وراء خلقه؛ ألا وهي الخلافة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]. وإن مفهوم الخلافة يدخل في السياسة، والاقتصاد، والحياة الاجتماعية، والرياضية، والفنية، والأدبية والشعرية، وفي كل نواحي الحياة.

61.في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30]، دليل على أن الملائكة كانوا على علم بأن مراد الله من خلق الأرض وأهلها هو الصلاح لا الفساد، والطاعة لا المعصية. وعليه فلم يكن هذا الاستفهام من الملائكة اعتراضاً على الله فيما أراد من خلق هذا المخلوق، كما أنه لم يكن حسداً من الملائكة لآدم عليه السلام. وإن استفهام الملائكة لا يمكن أن يكون إنكارياً، وإنما أرادوا أن يعرفوا الحكمة من استخلاف آدم؛ من باب العلم وزيادة اليقين، فسألوا الله عن ذلك من باب "الاستفهام".

62.الإفساد وسفك الدماء من أسس تعمير الأرض ومن لوازم الخلافة فيها، وهي ضريبة لا بد منها؛ لأن الناس عندما يُستخلفون على الأرض سيختلفون ويتنازعون، وسيتصادمون ويتقاتلون، وستتعارض مصالحهم وتتصادم أهواؤهم، كل يريد ما يحقق مصلحته وشهوته وهواه. والذي سيُفسد في الأرض وسيسفك الدماء ليس هو الخليفة الأول آدم أبا البشر عليه السلام، لأنه نبي صالح مصلح، إنما سيحصل ذلك من الكثير من ذريته، وهم الكافرون الظالمون.

63.إن في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:30]، إشارة إلى ثلاثة معانٍ تعبدية تقوم بها الملائكة وهي التسبيح والحمد والتقديس. والتسبيح هو تنزيه ذاته سبحانه وتعالى من كل نقص وعيب، وتنزيه صفاته من كل سوء وذم، ومن مماثلة صفات المخلوقين. وقد اقترن الحمد بالتسبيح في أكثر من موضع في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44]. وذلك أن صيغة التسبيح المقرون بالتحميد من أكمل صيغ الثناء على الله تعالى. وهم يقدسون الله وذلك باعتقاد صفات الكمال المناسبة

لذاته العليّة.

64. إن علم الله المقصـــود في قولـه تعـالى: ﴿قَـالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَـا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30]، هو علمه بالظواهر والسرائر، وعلمه أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف ما في ضـمن ذلك من الشـر، فلو لم يكن في ذلك إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصـديقين والشـهداء والصـالحين، ولتظهر آياته للخلق، وليظهر ما كمن في غرائز المكلفين من الخير والشـــر بالامتحان، وليتبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه واتصف به، لكفى، فهذه حكم عظيمة يكفي بعضها في ذلك.

65. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31]، فالله تعالى علّم آدم أسماء الأشـياء وألهمه توليد الأسماء وفكرة التسـمية ذاتها، وأعطاه القدرة على ابتكار الأسماء المناســبة للأشــياء، فعلمه أسماء كل شــيء بما فيها أسماء الذوات والأفعال. وبث الله في آدم عليه السـلام من أسـرار الفهم والتمييز والاسـتعداد الفطري ما يكشف به تلك النواميس والسنن، ويميز خصائص الأشياء بعضها من بعض. وقد يكون هذا الاسـتعداد الفطري عاملاً شـاملاً لجميع أفراد النوع الإنساني، كما في قوله سبحانه: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 5].

66. إن العقل هو الأداة الأساسية في التعلم والتعليم. وإن الميزة الأولى التي منحها الله تعالى لأبينا آدم عليه الســـلام هي الرغبة في التعلم، فكان وكان آدم عليه السـلام مزوّداً بملكة التفكير والنظر والتحليل والفهم والفقه واللغة. وفُضّـل آدم بالعلم، ولذا سـجدت له الملائكة، وفُضّـل بنو آدم بعضـهم على بعض بالعلم أيضــاً. ولذلك فالأفراد كما الأمم يجب أن يقيسـوا من أصـلهم الأول ديمومة

التعلم والتعليم، وطلب الزيادة من العلم، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

67. العقل نعمة أنعم الله بها على آدم وزوجه عليهما السلام وذريتهما وعلى الجنس البشري، وهو موهبة وهبها الله الوهاب، وهي من الأدوات الإنسانية الرفيعة التي أكرم الله بها الإنسان في معرفة كليات الوجود وسنن ونواميس الكون وموقعه منها، فالعقل وسيلة الإنسان لإدراك الوجود، والعقل الإنساني أداة الإدراك الأساسية وأداة الفهم والنظر في ملكوت الله والتلقي من وحي الله، والتمييز والموازنة بين الأشياء.

68. اختلف العلماء في سبب تسمية آدم عليه السلام بهذا الاسم، فمنهم من قال بأنه سمي بآدم لأنه خلق من أدمة الأرض، ومنهم من قال لأنه مشتق من السمرة من لونه، ومنهم من قال بأنه سمي بآدم لكونه من عناصر مختلفة وقوى متفرقة، وأما الفريق الرابع فقالوا بأنه سمّي بذلك لما طُيِّب به من الروح المنفوخة فيه، المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29]، غير أن أكثر العلماء رجحوا رأي الفريق الأول؛ أن آدم مشتق من أدمة الأرض، وذلك لما دلّت عليه أحاديث خلق آدم من التراب.

69. إن أول تعليم علّمه الله تعالى لآدم عليه السلام هو الكلام والتعبير، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، فعلمه الأسماء كلها ليقول ما يريد، ويسمّي الأشياء كلها بأسمائها، فأول شيء علّمه إياه بعد خلقه أو مع خلقه هو البيان، وقال تعالى عن بداية خلق الإنسان: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: 8-9]، ذلك أن أكبر وظيفة للسان والشفتين هي وظيفة التعبير والبيان، وهي وظيفة من أعظم الخصائص والمواهب الفطرية التي

ميّز الله بها الجنس البشري، وجعلها في تكوينه من أول أمره، فهي تشكّل جزءاً من هوية الإنسان وماهيّته.

70. لقد شَرَّف الله تعالى آدم عليه السلام وكرّمه بتعليمه علم الأسماء، حيث وهبه هذا العلم من غير كسب ولا مشقة، وذلك إعداداً لخلافة آدم في الأرض ليكون أهلاً لها ومتسلّحاً بالعلم في حياته، إذ إن الأسماء هي المدخل إلى معرفة الوجود، ولذا فإن معرفة الأسماء والعلم بها توقيفية من الله ابتداء لآدم عليه السلام، ثم تكون للأجيال من بعده بالاكتساب. فعلم الأسماء الأولي هو أثمن علم حصل عليه آدم وبنوه فهو يجعلهم قادرين على تحديد قيمة الأشياء إيجاباً أو سلباً، ويساعدهم على تمييز الحسن من القبيح، وهو القاعدة الصلبة والدعامة الحقيقة لفهم العلوم، واكتساب المعرفة، وتطوير الحياة، كما أنه يساعد على معرفة الله بأسمائه وصفاته ودعائه بها، ويعين الفرد على الإيمان والعمل الصالح.

71. إن الاعتراف الملائكي في قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32]، دليل على أن علم الملائكة هبة من الله سبحانه، وأنه ليس علماً ذاتياً مكتسباً. فقد اعترفوا بقصور علمهم وأثنوا على الله بما يستحقه، وجمعوا بين وصفه بالعلم ووصفه بالحكمة "إنك أنت العليم الحكيم".

72. إن اسم "العليم" من أسمائه الحسنى سبحانه، وهو اسم يدل على أن العلم كلَّه بجميع وجوهه واعتباراته لله تعالى، فيعلم الله الأمور المتأخّرة أزلاً وأبداً، ويعلم جليل الأمور وصغيرَها وكبيرَها، ويعلم ظواهر الأشياء وبواطنها، غيبها وشهادتها، ما يعلم الخلق منه وما لا يعلمون، ويعلم تعالى الواجبات أو

المستحيلات والجائزات. وقد ورد هذا الاسم في كثير من المواضع في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34].

73. وصف الله تعالى نفسه بـ "الحكيم" وجعله من أسمائه سبحانه في قوله: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَاۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32]. فهو الحكيم الذي لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة وغاية مقصودة لأجلها فعل كما فعل. "والحكيم" هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50]. وورد اسم "الحكيم" في واحد وتسعين موضعاً في القرآن الكريم، فجاء في جميع المواضع مقترناً مع اسم آخر من أسماء الله الحسنى كـ "العزيز" و "العليم".

74. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34]. وجاءت هذه الآية في سورة البقرة بعد إعلام الله ملائكته بخلقه آدم لقصد الاستخلاف في الأرض، وبعد بيان فضله عليهم بتعليمه من الأسماء ما عجزت الملائكة عن الإنباء به. وهذه الآية الكريمة تضمنت نقطة محورية وركيزة أساسية في قصة آدم عليه السلام وهي سجود الملائكة لآدم مقروناً برفض إبليس له، فلا تخلو سورة من السور التي تناولت قصة آدم من ذكر هذه النقطة، وإن كانت قد وردت بسياقات مختلفة.

75. إن أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا

لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: 34]، هو كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتنَّ بها على ذريّته؛ ولم يكن القصد من سجود الملائكة لآدم عليه السلام عبادة آدم بذلك السجود، بإجماع المسلمين، وإنما كان الغرض منه تنفيذ أمر الله طاعةً له فيما أمر، وإكراماً لآدم به، وتنويهاً بمكانته عند الله.

76. إن العبرة المستخلصة من أمر الله تعالى للملائكة بالسجود وامتناع إبليس عن تنفيذ الأمر، هي أن الإيمان ليس معرفة وحسب؛ ذلك أن إبليس كان يعرف أن الله موجود، وإنما الإيمان خشوع واستجابة، وقول وعمل واعتقاد، إنه سجود، فإذا لم يتأتَّ السجود فلا إيمان، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]. وقد كان عدم استجابة إبليس ناشئةً عن كبرياء في نفسه، وعن تمرّد في فطرته، فلم تلغِ عبادته كبرياءه، فهي إذن لم تكن عبادة بالمعنى الصحيح؛ لأن العبادة والكبرياء لا يجتمعان.

77. لا خلاف بين أهل العلم أن آدم عليه السلام أفضل من الجن والشياطين، ولم يتبقَّ من المكلفين إلا الملائكة، وقد اختُلف في الأنبياء والملائكة أيهما أفضل، فقد استُدل بسجود الملائكة لآدم على أن الأنبياء أفضل من الملائكة، ووجه ذلك أن السجود هو نهاية التذلل، ولا يُتصور أن يكون إلا من المفضول إلى الأفضل، مضموماً إلى أدلة أخرى؛ منها أن آدم أعلم من الملائكة والأعلم أفضل، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33].

78. إن ظن بعض أن إبليس من الملائكة؛ لأنه شمله الأمر بالسجود لآدم، ظن باطل

وكلام مردود لأنه يتعارض مع صـــريح القرآن، فإبليس من الجن، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْــجُدُوا لِآدَمَ فَسَــجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَـــقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: 50]. والكثير من الناس يخطئون في التمييز بين الجن وإبليس والشـــياطين، فالجن هم العالم الخاص المقابل للإنس، الذين خلقهم الله من مارج من نار، وهم قســـمان؛ جن مؤمنون وجن قاســـطون كافرون. والشيطان فإنه وصف يطلق على موصوف وليس اسماً لشخص أو جنسٍ أو صنفٍ، فهو يطلَق على كل الكفار من عالم الإنس أو من عالم الجن؛ أما لفظ "إبليس" فهو خاص به لا يطلق على غيره.

79. إن وجود إبليس على ضـلاله حكمة جليلة، فهو ليس بالشـر المحض الذي لا خير معه، فوجود إبليس يكمل لرســـل الله وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه ومخالفته ومراغمته في الله. وإن في وجوده وقصـــته لعبرة فهي تزرع الخوف في قلوب المؤمنين من ذنبهم بعدما شـــاهدوا من حال إبليس في سقوطه من المرتبة التكريمية إلى المنزلة الإبليسية، فقد جعل الله سبحانه إبليس عبرةً لمن خالف أمره وتكبّر عن طاعته، وأصـرّ على معصـيته. وإبليس محكٌّ يمتحن الله به خلقه ليتبيّن به خبيثهم من طيبهم، كما جعل أنبياءه ورسله محكّاً لذلك التمييز.

80. نسـب الله تعالى الكبر والاسـتكبار أول ما نسـبه إلى إبليس، فقال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْـــتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34]، ومن هذه الآية فإن إبليس أول مخلوق أخبرنا الله تعالى بكفره، ولم يخبرنا تعالى بكفر أحدٍ قبله، حيث لم يثبت بدليل صـــحيح وجود كافرين قبل إبليس، وذلك أنه تكبَّر عن طاعة الله في السجود لآدم، فقال إبليس في معرض الجواب على أمر الله تعالى:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: 76]، وهكذا يكون إبليس أول من صرح بالعنصرية البغيضة المقيتة، والتفاخر بالأصل والفصل، والأب والجد والقبيلة، وهذا هو الكبر الصُّراح الذي يتعلّل به كثير من بني البشر حين يعتزّون بأجناسهم وأحسابهم على غيرهم من البشر.

81. قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35]. جاء هذا النداء بعد خلق آدم عليه السلام ونفخ الروح وتعليمه الأسماء كلها، وبعد إسجاد الملائكة له، فناداه ربه في هذه الآية باسمه لإظهار مزيدٍ من إكرام الله تعالى له، وأمره هو وزوجته بسكن الجنة تفضّلاً منه سبحانه وتعالى، وأذِن لهما أن يتمتّعا بكل ما فيها، وأباح لهما أن يأكلا منها ما شاءا غير شجرة واحدة نهاهما عن أكلها والقربان منها؛ ابتلاءً واختباراً وتهيئةً لهما بتحمّل التكاليف الشرعية بمقاومة رغبات النفس. وفي هذه الآية أدخل الله عز وجل حواء في خطابه لآدم، وقد سميت حواء لأنها أمُّ جميع الأحياء من الجنس البشري.

82. وضح الله لنا أن كل خلق من خلقه إنما هو خلق من زوجين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]. فخلق الله من هذه النفس الواحدة المتكاملة الرجل، ثم خلق من هذه النفس الواحدة المتكاملة المرأة. وهذا معناه أن الرجل نفس إنسانية سوية بجسمه وروحه وشخصيته، وأن المرأة نفس إنسانية سوية لها جسمها وروحها وشخصيتها، وهي معززة مكرمة كالرجل، وليست أدنى أو أحطّ منزلة منه، وهذا تكريم وتشريف عظيم للمرأة.

83. لا يوجد في أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن آمنا حواء مخلوقة من ضلع آدم، وإنما هي رواية مصدرها الإسرائيليات وأساطير العهد القديم، فقد عرفنا من خلال آيات القرآن أن حواء خُلقت – مثل آدم- من النفس الإنسانية الواحدة، غير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن المرأة خُلقت من ضِلْع، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خُلقت من ضِلْعٍ، وإنَّ أعوجَ ما في الضِّلْعِ أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمُهُ كسرتَهُ، وإن تركتَهُ لم يزل أعوجَ، فاستوصوا بالنساء خيراً". والحديث الصحيح السابق لا يدل دلالة صريحة على أن حواء خُلقت من ضلع آدم، وهو لا يتكلّم عن أمّنا حواء، وإنما يتكلّم عن المرأة عموماً. وقد استخدم النبي صلى الله عليه وسلم كلمة "ضلع" على سبيل المجاز لا على الحقيقة؛ لتأكيد الوصية بالنساء، لما يلقى في المرأة من ضعف، وأنه لا بد من حسن معاملتها والرفق بها.

84. مؤسسة الزوجية عريقة عراقة آدم وحواء، ولا بديل عنها شرعاً وفطرةً، ويتحتّم على كل طرف السعي في ترميم العلاقة وحمايتها. فبعدما خلق الله حواء أخبر آدم أنها "زوج" له، كما أنه هو "زوج" لها، وينطبق هذا على الأزواج من البشر، فالرجل زوج لامرأته، وامرأته أيضاً زوج له، وكل منهما زوج للآخر، ومعنى هذا أن الرجل بمفرده لا يمكنه تحقيق ذاته، ولا عمارة الأرض ولا ممارسة الحياة، وهناك جزء مهم في كيانه فارغ لا تملؤه إلا المرأةُ زوجُهُ، فهي بزوجيَّتها له تُكمل نقصَه، وتملأ فراغَه، وتحقّق إنسانيته.

85.الزواج ســـنة الله في خلقه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189]. فقد قرَّر القرآن الكريم شِرعة الزواج لآدم عليه السـلام لتكون سنّة الله تعالى للبشـرية للسـكن والمودة وقضـاء الشـهوة وإنجاب الذرّية، وهو الوسـيلة الشـرعية الحصـريّة الطاهرة النقية المباركة في لقاء الذكر والأنثى واستمرار النسـل حتى تقوم السـاعة، والزواج سنة من سـنن الفطرة لأنه يوافقها ويلائمها، وهو سـنة كونية لأن الرباط الذي جمع بين أبوينا آدم وزوجه حواء هو رباط الزواج.

86.عند أهل الســـنة فإن الجنة المقصـــودة في قوله تعالى: ﴿اسْـــكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، والتي أُخرج منهـا آدم وحواء وقبلهمـا إبليس هي جنة الخلد قولاً واحداً عندهم. وقد وصـــف الله عز وجل في كتابه العزيز خلق الجنة بأوصـافٍ عظيمةٍ جليلةٍ، كما جاء وصـف خلق الجنة على لسـان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم في أحاديث كثيرة مفصـلاً تفصـيلاً دقيقاً؛ وهذا المخلوق العظيم الكريم جعله الله منزلَ كرامةٍ لعباده المؤمنين، ووصـفه بأعظم الأوصـاف، واختار له أجمل الأسماء وأحســـنها؛ لتزداد له النفوس شـــوقاً، وبه تعلقاً، ومن أجله جدّاً واجتهاداً.

87.لم ينهَ الله آدم وحواء عن مجرد الأكل من ثمار تلك الشـــجرة المحرّمة، إنما نهاهما عما هو أبلغ؛ وهو الاقتراب منها، حيث قال: "وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ"، وهذا هو المســمَّى في الإســلام بسـد الذرائع؛ أي تحريم كل طريق توصـل إلى الحرام.

ولعل الحكمة من ذلك التكليف هي تقوية إرادة آدم وحواء، وتنمية معاني التكليف والالتزام عندهما، وتدريبهما على ذلك وهما في الجنة ليحسنا النظر إليه، ويتمرَّنا على التفاعل معه، لأن الله سيُنزلهما بعد ذلك إلى الأرض، وستقوم حياتهما الدنيوية على التكليف والأمر والنهي، وسيكون هذا التكليف لهما في الجنة تمهيداً للتكاليف الشرعية لذريّتهما من بعدهما.

88. إن التعري كان غاية من غايات الشيطان في وسوسته لآدم وحواء، إضافة إلى غايته الأولى وهو إخراجهما من الجنة وستر العورة فطرة مترسخة في النفس البشرية وأصل من أصول تكوينها المغروس في حسها منذ بدء الخلق، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: 20].

89. خاطب إبليس غريزتين في آدم وحواء، وهما: حب التملك، والخلود؛ لأنهما غريزتان أساسيتان عميقتانِ في النفس الإنسانية، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف:20]. ومن هذا الباب يَدخل الشيطان إلى نفوسِ بني آدم، لأنه يعلم أنَّ معظم الناس لا يتمالكون أمام الرغبة في التملك والرغبة في الخلود. وقد شاء الله الحكيم أن لا يجعلَ لبشرٍ الخلود في هذهِ الدنيا، وجعلَ لكل إنسانٍ أجلاً محدداً، ومهما ملكَ الإنسان من ملك فلا بُدَّ أن يبلى ويفنى ويزول والمالك الحقيقي لكلِّ ما في الكون هوَ اللهُ سبحانه.

90. تبين في قوله تعالى في سورة طه: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ بأنَّ آدم وحواء أصل

البشـرية سـارعا إلى سـتر العورة بمجرد أن علما أنها عورة، وقبلَ أن يأمرهما الله سـبحانه بذلك، وهذا المعنى الإنسـاني الفطري النبيل جعله الله في كلِ نفسٍ إنسـانية، فهي مفطورة على السـترِ والفضـيلة والتعفف والحياء، وعدم إبداء السوأة وكشف العورة.

91. لقد سـاوى النص القرآني بين آدم وحواء عليهما السـلام في المسـؤولية بشـكل واضح وصريح، فالوسوسة التي كانت من إبليس كانت للاثنين آدم وحواء وأن المعصـية وقعت منهما بالتسـاوي، والاثنان نُهيا عن الاقتراب أو الأكل من الشـجرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّـجَرَةَ﴾، والاثنان أزلهما الشـيطان في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّـيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾، وكلاهما ظلما أنفسـهما وتابا إلى الله، وفي غيرها من المواضـع الكثيرة التي سـاوت بينهما. فالآيات القرآنية حريصـة على تحميل المسـؤولية لكل من آدم وحواء، وعدم تبرئة واحد منهما.

92. إنَّ هبوط آدم إلى الأرض هو المقصود من خلقه، وذلك في قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]؛ إذ أنه سبب مكتوب، والإهباط إلى الأرض والاسـتخلاف هو من صـنع الله وقدره، فلم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له، لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبل توبتهُ، وإنما أهبطه إما تأديباً وإما تغليظا للمحنة والصحيح إهباطه وسكناه في الأرض قدر لحكمة أزلية في ذلك وهي نشـر نسـله فيها ليكلفهم ويمنحهم ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروي.

93. إن في قوله تعالى: ﴿بَعۡضُـكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّ﴾ [الأعراف: 24]، سـنة ربانية مطردة دائمة حتى قيام الساعة، أجملتها جملة موجزة في القرآن في جملة: "بعضكم لبعض

عدو"، وهذه العداوة موجودة بين الجن والإنس، وأيضـــاً فإن من معاني هذه العـداوة العلاقـات والعـداوات التي تقع بين مجموعـات وأفراد الجنِّ فيمـا بينهم والعلاقات والعداوات التي تقع بين مجموعات وأفراد الإنس فيما بينهم. ولا تنتهي العداوة بين مختلف الأطراف إلا عند قيامِ الســـاعة، فالخلاف والنزاع والحرب والعداوة كل هذا مستمر على الأرض، منذ هبوط آدم وإبليس على الأرض.

94. قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37]، وفي هذه الآية إشارة إلى اسم وصفة عظيمة لله سبحانه وتعالى وهي "التواب"، وورد اسمه ســبحانه التّواب في إحدى عشـــرة آية من القرآن الكريم منها تسع آيات اقترنَ فيها باسمه سبحانه الرحيم كما في الآية السابقة، وجاء في آية واحدة مقترناً باسمه الحكيم، وجاءَ مفرداً في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصـر: 3]. فهو التائب على التائبين سبحانه، وإن الإيمان بهذا الاسم يحدث للإنسان أنس ومحبة لخالقه ومولاه عزَّ وجل، فالإنســان الذي خلقه الله عزَّ وجل في حاجة إلى التوبة في جميع مراحل عمره وأنها لا تفارقه ولا غنى له عنها.

95. إن اســـم الله تعالى "الرحيم" غالباً ما يأتي رديفاً لاسمه الرحمن، وهذان الاسمان الكريمان مشتقان من الرحمة والرقة والتعطف. واسم الرحمن أشدُّ مبالغة من اسم الرحيم. وقد فرق أهل العلم بين الاسمين الكريمين من حيث المعنى والمضـــمون، إلا أن كلاهما يشير إلى رحمة الله تعالى التي تنقسم إلى نوعين، رحمة عامة: وهي

لجميع الخلائق بإيجادهم وتربيتهم ورزقهم وإمدادهم بالنعم والعطايا، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْما﴾ [غافر:7]. ورحمة خاصة: وهذه الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين به سبحانه وتعالى.

96. يجب ألا ينظر أبناء آدم إلى أبيهم آدم كأول من ارتكب الخطيئة، ولكنه ارتكب خطأ، فهو أمن للغفلة والسهو. فخطأ آدم ليس من ذنوب الاستكبار على الله عز وجل كذنب إبليس، ذلك أن آدم وحواء اعترفوا بخطئهم وتابوا، قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]، ومن هنا فالتوبة تستدعي أن يُنيب ويرجع الإنسان إلى ربه، وأن يُسلم الإنسان بكل جوارحه لله عز وجل، وأن يسرع الإنسان بالتوبة قبل أن يفاجأ بالعذاب في الحياة الدنيا أو في الأخرة.

97. لا وجه للمقارنة بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس، فمعصية إبليس كانت عن إصرار وتعمد، وهذا بخلاف معصية آدم التي كانت عن سهو وغفلة ونسيان. كما أن إبليس لم يبادر إلى الاستغفار والتوبة بعدما علم بمعصيته بل تمادى في غيه، في حين أن آدم وحواء سارعوا إلى طلب المغفرة والرحمة وتضرعا إلى الله بكل كيانهما أن يغفر لهم خطيئتهم التي ارتكبوها. فالفرق واضح بين معصية آدم ومعصية إبليس، لذلك كان مصير إبليس الطرد واللعنة والخلود في النار، وأما آدم عليه السلام، فقد تاب الله عليه وغفر له واجتباه واصطفاه.

98.ليس عند الله خطيئة تحتاج إلى التكفير عنها بصلب نبي أو ابن نبي، فليس عند الله خطيئة موروثة كما في عقيدة النصارى التي تقول بأن خطيئة آدم ظلت عالقة في ذريته حتى جاء المخلص يسوع الذي جمع بين الألوهية والبشرية. أما الإسلام فيقضي بأن كل إنسان مسؤول عمّا اقترفه ومحاسب عليه، وأن الإنسان يولد مبرئاً من كل خطيئة ومن كل ذنب، وإنما يولد على الفطرة السوية مهيئاً لقول الحق، ذلك أن الفطرة هادية إلى الخير والحق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَة وِزْرَ أُخْرَىٰۚ﴾[الأنعام: 164].

99.شاء الله أن تنتهي أحداث قصة أدم بعدما تاب وأناب، وتاب الله عليه واصطفاه واجتباه وأمر الله بإهباط الثلاثة إلى الأرض: آدم وزوجه حواء وعدوّه إبليس، قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاًۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]. وبذلك انتهت أحداث قضية آدم في الجنة، دار النعيم للمؤمنين وبدأت أحداث القسم الثاني من قصته وهو المتعلق بحياته على الأرض. والله تعالى ما نزل بآدم إلى الأرض لينقصه ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله، وقد أنزله إلى الأرض قبل أن يخلقه لقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فما قال في الجنة ولا في السماء، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة وليس نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتشريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف.

100.إن أهم إيحاءات قصة آدم عليه السلام هي القيمة الكبرى التي يعطيها التصور

الإســـلامي الرباني الذي يرسمه الله للإنســـان حتى يســـير على هداه في رحلة الأرض، والذي يتضـــح في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:38-39]. وكانت هذه وصـية الله تعالى لآدم وزوجه حين أخرجهما من الجنة وأهبطهما إلى الأرض، فهي من أقدم الوصـــايا، لذلك كانت خليقة بأن تكون ســـنة كونية لا يتخلف مدلولها عن أحد من خلقه في أي حال من الأحوال، وهذه السـنن ماضـية، فمن اتبع هدى الله وآمن برسـله وكتبه واهتدى بهم وذلك بتصـديق جميع أخبار الرسـل والكتب والامتثال للأمر والاجتناب للنهي، فقد اهتدى وأفلح.

101. أعلنت الخصـومة في الملأ الأعلى بين آدم وذريته وبين إبليس وقبيله وشـاءت رحمة الله بعباده أن يرســل إليهم رســلهم بالهدى قبل أن يأخذهم بما كســبت أيديهم، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه:123]. وهذه الآية تؤكد حقيقة مطردة، وهي الصـــراع بين الحق والباطل، والمواجهة بين الخير والشر، هذا الصراع الذي بدأ منذ المشاهد الأولى من قصة آدم التي حدثت في الجنة، عندما رفض إبليس السـجود لآدم، ثم زيَّن له الأكل من الشـجرة وقد كان آدم أبو البشـــر يمثل جانب الحق، وكان إبليس يمثل جانب الباطل. وسيبقى الصراع بين الحق والباطل قوياً محتداً مستمراً حتى قيام الساعة.

102. إن نبوة سيدنا آدم ورسالته واضحة في الآيات التي وردت في قصة آدم عليه السلام، فالله نادى فيها آدم غير مرة، وكلمه بلا واسطة، وهذا وحده كاف في إثبات نبوته عليه السلام وهو في الجنة، فقد كان نبياً يعمل فيها بتوجيهات الله ثم بعد إخراجه من الجنة اختاره الله رسولاً يبلغ الرسالة إلى ذريته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡض وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 33-34]. فآدم عليه السلام أبو البشر ومنشأ النبوة، فكما أنه أبو البشر بالإجماع كذلك هو أبو الأنبياء.

103. النُبوة ضرورة للعدل الرباني بتقديم البلاغ وإنذار الآخرة، بل ورحمة للبشر. فالنبوة كشف لعالم الغيب، وإخبار عن الله تعالى وملائكته، وعن الآخرة والحساب والثواب والعقاب بما هو حق مطابق. والنبوة تشريع مفصل بضبط علاقات الناس وزوجاتهم ومعاملاتهم يجعلهم أقرب للرشد والصواب، والنبوة ترسيخ لأصالة الخير في الإنسان وفي الأرض وعمقه واتساعه فيها.

104. وردت قصة آدم عليه السلام في سورة الأعراف، وهي سورة مكية، وقد تضمنت سنة الله الكونية في الأمم المخالفة، وتذكيراً للناس بآيات الله في الكون وخلقه، وخلق الإنسان وضعفه، وبداية عداوة الشيطان للإنسان، وقد مهّد الله عز وجل قبل الحديث عن الأمم السابقة، وقبل الدخول في قصة البشرية تفصيلاً بالحديث عن تمكين الله عز وجل للجنس البشري في الأرض، ومن هنا يبدأ الحديث عن الرحلة الكبرى في مسيرة البشرية، ثم الشروع في قصة آدم عليه السلام وعداوة إبليس له وجاءت تفاصيل مثيرة وحقائق خطيرة لا توجد

إلا في كتاب الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقد وردت القصة في الآيات [10-34].

105. ربط الله تعالى الحياة والتمكين فيها بذاته العلية، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:10]. فالله عزوجل هو الذي مكّن لهذا الجنس البشري في الأرض، وهو الذي أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التي تسمح بحياة هذا الجنس وتقويته، وتعينه بما فيها من أسباب الرزق والمعايش.

106. إن التصور الإسلامي لقصة الخلق والخليقة هو وحده الذي يمضي وراء هذه جزئيات الكون ليربطها كلها بأصل شامل متناسق. فالله هو الذي خلق الكون، وقد اقتضت مشيئته وحكمته أن يجعل طبيعة هذا الكون بحيث تسمح بنشأة هذا الإنسان. وفي ظل هذا التصور يعيش الإنسان في كون مأنوس صديق، وفي رعاية قوة حكيمة مدبرة، يعيش مطمئن القلب، مشروح النفس، ثابت الخطو ينهض بأمور عمارة وخلافة الأرض في اطمئنان الواثق بأنه مُعان على الخلافة، ويتعامل مع الكون بروح المودة والصداقة، ويشكر الله كلما اهتدى إلى سرٍ من أسرار الوجود.

107. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون:12]؛ خلق الله تعالى الإنسان على مراحل، أولها التراب وثانيها الماء، ومن ثم فالطين، والطين الذي خلق منه آدم وُصف في القرآن بثلاث صفات، ويمكن اعتبارها

مراحل تحول التراب والطين إلى جسد من لحم ودم وعظام وأعضاء وهذه الصفات هي: الطين اللازب، و الحمأ المسنون، والصلصال. وكون الله عز وجل خلق الإنسان من طين الأرض، فذلك أدعى لنجاحه في استعمارها، والغوص في أسرارها، ومعرفة قوانينها والضرب فيها. وإن العمل والكدُّ والكدح وعرق الجبين ليس عيباً، إنه سر التميز والإبداع.

108. قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:14]، والصلصال: هو الطين اليابس الذي يسمع له صوت إذا ضُرب، وهو يشبه الفخار، وقد مر جسد الآدمي في عدة مراحل حتى تشكل، فمادته الأولى من التراب، والذي عجن بالماء، فصار طيناً، ثم ترك ما شاء الله من الأزمنة حتى أصبح طيناً لازباً ملتصقاً بعضه ببعضه، ثم ترك ما شاء الله من الأزمنة حتى أصبح حمأ مسنوناً منتناً أسود، وربما بدأت تظهر عليه بعض ملامح التكوين الإنساني، ثم ترك ما شاء الله حتى صار صلصلاً كالفخار.

109. إن الآيات التي تحدثت عن أبينا آدم عليه السلام قبل نفخ الروح فيه لا تعارض بعضها، وإنما أخبرت كل آية عن مرحلة من المراحل التي مرَّ بها خلقه، فأخبرت آية عن مرحلة خلقه من تراب، وأخبرت آية أخرى عن المرحلة الثانية من تراب وماء، مرحلة الطين، وأخبرت ثالثة عن مرحلة خلقه من طين لازب، وأخبرت آية رابعة عن مرحلة خلقه من صلصال من حمأ مسنون، وأخبرت آية خامسة عن مرحلة خلقه من صلصال كالفخار. فلا بدَّ من جمع الآيات المتفرقة التي تتحدث عن هذه المراحل والنظر فيها مجتمعة لنحسن فهمها وحسن استخراج دلالتها.

110. إذا كان آدم عليه السلام هو أصل البشرية، الذي خلقه الله بيده من طين

لازب، ثم خلق الله زوجه بقدرته سبحانه كما شاء وأراد فإنه سبحانه جعل توالد ذريته وتناسلهم بصورة أخرى من صور الخلق البديعة العظيمة، التي تدل على قدرة القادر العظيم والخالق المدبر لما يشاء كما يشاء، فقد جاء خلق آدم بطريقة، وخلق حواء بطريقة غيرها، وجعل سنة الخلق في ذريتهما بصورة كذلك، ليدل ذلك على تنوع القدرة وتعدد صورها وليعلم الناس أنه: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:16].

111. بعدما مر آدم عليه السلام بمراحل الخلق جميعها، وبعد أن انتهى إلى صلصال كالفخار، فأصبح تمثالاً مجسماً وجسداً بلا روح، وهنا بدأت مرحلة التصوير تمهيداً لنفخ الروح فيه. وما جرى لآدم من تصوير قبل نفخ الروح فيه يجري لكل واحد من ذريته حتى قيام الساعة، والفرق بين التصويرين أن تصوير آدم كان خارجياً ظاهراً فجاءت صورته المادية تمثالاً مجسماً كبيراً، أما تصوير ذريته فإنه يكون بداخل الرحم وتكون الصورة مصغرة جداً، ولذلك قال تعالى: ﴿ياأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 6-8].

112. الإسلام دين الفطرة، ومقاصده ملائمة للعناصر الأساسية المكونة للإنسان. مادة خلق الجسد التراب والماء وهما طاهران، وتظل صلة الإنسان بهما قائمة باعتبارها ضرورة حياتية وشرعية. وإن الانتساب لآدم المخلوق من جملة طين الأرض مدعاة للإيمان بالمساواة ورفض العنصرية ضد لون أو جنس.

113. قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين:4]، فالشعور بالقبح، وطول النظر إلى الذات، مرض نفسي يحمل على المبالغة في التجمل المتكلّف، والوحي ينص على جمال الخلقة وحسنها. وقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ

﴿فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر:64]. وإن المبالغة في التجمل والإغراء والتعري لدى الأنثى، أو استعراض العضلات والقوة لدى الذكر، هو من الجَور على الجسد والروح معاً، وأسوأ ما يكون حين يتحول الإنسان الكريم إلى آداة لتسويق السلع والتربح.

114. قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: 71-72]، نفخ الله في هذا التمثال المجسم من روحه، فدَّبت فيه الحياة وصار إنساناً حياً متحركاً . فبث فيه الروح: التي هي سر الحياة والتي لا يعلم شأنها إلا من خلقها فهي في عالم الغيب، فالروح سبب الحياة وسرها. وإن حرف الجر "من" في قوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِي﴾ بيانية وليست تبعيضية، فقوله من روحي للبيان وليس للتبعيض، لأن هذا يتعارض مع العقيدة الإسلامية الواضحة فالله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، له صفات الكمال والجلال والعظمة.

115. الروح في ماهيتها وجوهرها من عالم الغيب الذي استأثر الله به، وهذا لا يمنع البحث في تأثيراتها وأنواعها وصلتها بالجسد وعلاقتها بالنفس، غير أنه مع تقدم العلوم الطبيعية والمادية ظلت الدراسات المتعلقة بالنفس والروح بعيدة عن تحقيق تقدم ملموس أو اختراق علمي يناسب ما تحقق في سائر العلوم. والروح محدثة بعد أن لم تكن وباقية لا تفنى، والموت هو مفارقة الروح للبدن. والإنسان روح أولاً ثم جسد والعناية بتحرير الروح وتساميها وعافيتها وإشراقها هو المقصد الأول للرسالات بالتوحيد والعبودية والمقصد الأول للخلق والاستخلاف وهو لا يتعارض مع حقوق الجسد والمادة.

116. إن محاولة الكشف عن حقيقة الروح ضرب من المستحيل ما دامت حواسنا

العادية هي سبيلنا الوحيد لما تحصل عليه عقولنا من علم ومعرفة، فقد استأثر الله تعالى بعلمه وحجب تلك الحواس. إذا ليس لنا من سبيل أو مصدر حق للحديث عنه إلا ما جاء بكتاب الله عز وجل وما صح عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فإنا سنعول عليهما وحدهما في الحديث عن تلك الهبة الروحية الجليلة وأثرها في حياة الإنسان وصلته بالكون الذي يحيا فيه ببدنه وفكره، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:85]. وقد فشل المذهب المادي فشلاً ذريعاً في معرفة ماهية الروح وطبيعتها وتفسير ظواهرها.

117. بعد أن نفخ الروح في آدم صار إنساناً يعقل وينطق، بل ويتلقى الأوامر والتوجيهات من رب العالمين، وهكذا حال ذريته بتحول الجنين من بطن أمه من حال إلى حال، من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام مكسوّة بلحم، وهو في تلك الأطوار جثة لا روح فيها إلى أن ينفخ فيه الروح، فيصير بذلك خلقاً يختلف عن الأول وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَة مِّن طِين ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَة فِي قَرَار مَّكِين ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَة فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَة فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰماً فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡماً ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 12-14].

118. إن في قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "خلق الله آدم على صورته ستون ذراعاً، ثم قال له: اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فذهب فقال السلام عليكم فقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم في طوله، ستون ذراعاً، فلم تزل الخلق بعده تنقص حتى الآن"،

معلومات في غاية الأهمية، فهو يُقرر عكس نظرية دارون في النشــوء والارتقاء، فمازال أبناء آدم عليه الســلام يقصــرون وطولهم يتناقص حتى صــار متوســط طول البشر في زماننا حوالي مائة وسبعين سنتمتر.

119.المقصــود في قول رســول الله (صــلى الله عليه وســلم): "خلق الله آدم على صــورته"، هي صــورته التي أهبطها الله عليها إلى الأرض وعاشــها على الأرض ورآها عليه أولاده، وهو صورته البشرية وجسمه الآدمي بأعضائه وأجهزته وهي أعضــاء وأجهزة جســم كل منا، أي أن آدم عليه الســلام خلق في الجنة وعاش فيها مدة من الزمان وكان في الجنة على نفس الصــورة والجســم والأعضــاء والأجهزة التي رآها عليه أولاده.

120.إن آدم عليه الســلام هو المخلوق الأول من بني البشــر، ومن المؤكد أنه كان مخلوق تام الحسن والجمال مكتمل الصفات لا عيب فيه ولا تَشوه ولا أمراض ولا عوارض أخرى تكتنفه، كما ســتســلط بعد ذلك على ذريته فتنقص من جمالهم وكمال أوصــافهم، فهو من صُــنع يدي الله وكلنا من خلق الله عز وجل ولكن آدم تميز عنا بأنه الصــنعة المباشــرة التي عملت فيه يد الله، وهو المتمتع الأول بنفخة روح الله فيه، وهو الذي قال الله عنه أنه خلقه في أحســن تقويم، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين:4]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ [السجدة:7].

121.إن عناية الله بأمرِ آدم عليه السلام، تشير بأن له شأناً عظيماً عند الله جل في علاه، ووزناً في نظام هذا الوجود، وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق سواء في تكوينه الجسماني البالغ الدقة والتعقيد، وفي تكوينه العقلي الفريد، وفي تكوينه الروحي العجيب. قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ

فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ﴾ [التين:4]. فالآية نص صريح قاطع أن بداية خلق الإنسان كانت ابتداء في غاية الدقة وروعة الصنعة وأنه خلق خلقاً أولياً في أحسن صورة وأتم خلقة.

122. بعد إلقاء النطف بالأرحام، أيّ بعد خروج النطف من المستودع إلى المستقر، هنا تأتي الخطوة الثانية: خطوة القرار المكين، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآء مَّهِين فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَار مَّكِينٍ إِلَىٰ قَدَر مَّعۡلُوم فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: 20-24]، فقد وصف القرآن الكريم الرحم بالقرار المكين وهو من روعة الوصف والتوصيف القرآني، فالرحم قرار والرحم مكين والرحم من الرحمة والرحم مجموع ومحاط بعظام حوض المرأة الذي يصعب الوصول إليه بسهولة وييسر، ففيه كل ما يجعله مهيئاً للاستقرار والثبوت كما فيه ما يجعله أهلاً للتمكين والظفر، وعليه يكون الرحم بالنسبة للجنين هو المكان الذي جمع بين الثبات والاستقرار وبين الظفر وبين التمكين مما وجد فيه.

123. يمر تخلّق الجنين في رحم أمه في ظلمة بل ظلمات، قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡس وَٰحِدَة ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰج يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡق فِي ظُلُمَٰت ثَلَٰث ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [الزمر:6]، وهذه الظلمات الثلاث هي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة.

124. أنعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان بنعمة الحواس، والتي من خلالها يستطيع الإنسان الاتصال بالعالم الخارجي، وبها ترتقي البشرية إلى العالم الغيبي عن العالم الحسي المشاهد إذا أحسنوا استخدام تلك الحواس وفق أمر الله وصيانتها عن المحرمات، ويبدأ اتصال الجنين بالعالم الخارجي عن طريق حاسة السمع التي

تبدأ عملها قبل بقية الحواس، لذا ابتدأ ذكرها قي كثير من الآيات على سائر الحواس، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

125. الحواس من أهم العطايا الربانية التي أنعم الله بها على الإنسان وتستحق منا الشكر، فالحواس أمانة عند الإنسان، عليه أن يسخرها في العلم والإيمان والعمل، باعتبارها مقومات أساسية للمعرفة الإنسانية وتساعد الإنسان على تحقيق غايات وجوده من عبودية لله والاستخلاف في الأرض، وعمارة الكون والحياة وفق المنهج الرباني. وإن الحواس أهم أبواب تحصيل المعرفة وأحد نوافذها المحدودة بعالم الحس ويطل منها الفكر على العالم.

126. وصف القرآن مراحل تكوين الإنسان ، فقد ذكر أطوار الإنسان بعد ولادته وخروجه إلى الدنيا، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡف ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡف قُوَّة ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّة ضَعۡفا وَشَيۡبَة يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم:54]، فينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم مضغة، ثم يصير عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، وينفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى، حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً ثم مراهقاً، ثم شاباً وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ، ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة والبطش وتشيب اللمة.

127. تحدث القرآن الكريم عن زواج آدم عليه السلام في ثلاث مواضع، وفي ثلاث سور، وهي: في سورة البقرة؛ بينت بأن حواء خُلقت لتحقيق هدف السكن والطمأنينة. وفي سورة طه؛ عرضت قصة آدم عليه السلام وحواء في الجنة

ومعصيتهما لله تعالى وكشف السوءات. وفي سورة الأعراف؛ لتبين نزول آدم عليه السلام وحواء على الأرض وأول جماع جنسي بينهما. تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡس وَٰحِدَة وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفاً فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: 189].

128. يلاحظ آدب الحديث عن الجنس في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡس وَٰحِدَة وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفاً فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: 189]، فالقرآن يتحدث عن أول لقاء جنسي بالبشرية، وكما يتحدث عن طبيعة اللقاء الجنسي بين الأزواج بغاية من الآدب والترفع والحس فلا يجرح شعوراً ولا يخدش إحساساً بل يشير إلى ذلك لعبارة بسيطة في لفظها، وارفة بظلالها كثيرة بفوائدها مترامية بآدابها فالإنسان إذا أراد أن يتحدث عن واحدة من مسائل الجنس ومفرداته في أي حال من أحواله وفي وقته وزمانه عليه أن يلتزم الآدب الجم وهو يصف أمراً أو ناهياً أو مسترشداً. فقد عبر القرآن الكريم عن الجماع وكنَّى ألفاظ عدة غاية في الآدب والترفع.

129. إن روعة هذا الكون وجماله وعظمته هو أمراً بسيطاً من إبداع الخالق العظيم، وإن الإنسان عندما يحاول أن يُطبق ما يسمى بفكرة المصادفة بالخلق يقع في مغالطة فاحشة. ولذلك فالإلحاد فكرة جاهلة تستعصي على الفهم خاصة في عصر المعرفة والتخطيط والكشوفات الهائلة، قد يكون الإلحاد قراراً سياسياً كما في عصر الشيوعية، أو أزمة نفسية عند أقوام لم تسعفهم سكينتهم النفسية

بالوصـول الى اسـتقرار وهدوء يسـمه لهم بالإيمان أو مغالطة ذهنية صـادرة عن اللامبالاة، وهو ما بينه القرآن بقول الخالق البديع سبحانه وتعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾[الأحقاف:3].

130. الإيمان بإسمه سـبحانه "الخالق" يسـتلزم الإيمان بوحدانيته سـبحانه وألوهيته وإفراده وحده بالعبادة وهذا ما احتج به الله عزوجل على المشركين الذين يقرون بأنه الخالق الرازق وحده ثم هم يعبدون غيره مما لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت وقال سـبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:61]. والإيمان باسمه الخالق يورث المحبة الكاملة له عز وجل، ويحمل على الإقرار بألوهيته وتقدمه على كل شـيء، كما أن الإيمان باسمه الخالق يستلزم الإيمان بحكمته سـبحانه وقبول شرعه.

131. بعد معرفة مراحل خلق أبي البشر آدم عليه السلام، ومراحل خلق ذريته يتضح لكل عاقل متبصـر في تلك المراحل أن الخالق هو الله سـبحانه وتعالى، وهو ما يبطل كل دعوى في أن الخلق وُجد صدفة أو أن الطبيعة هي التي أوجدت هذا الكون، وما فيه من مخلوقات أو أن المخلوقات كانت بدائية ثم تطورت بعد مرور الزمان، وبعد أن انتهت مراحل تكونها وتطورها أخرجت لنا الإنسـان. وهذا ما تدعيه نظرية دارون التي تسـمى بنظرية التطور والارتقاء، وهذه النظرية مخالفة للحقيقة العلمية التي جاء بها علم التشـريح الذي بيَّن فروق خلقته بين الكائنات الحية مما يُثبت خطأ الأساس الذي قامت عليه تلك النظرية.

132. كتب العلماء مئات الكتب والتقارير والنشـرات حول بطلان نظرية دارون

علمياً وعقلياً، وقد توصلوا بجهودهم العلمية إلى نسف النظرية من أساسها، وتقويض أركانها ودعائمها مستندين في ذلك على العلم الحديث كعلم الوراثة والجيولوجيا وغيرهما، مستخلصين عشرات الأدلة على بطلانها. فأشار بعض العلماء إلى أن دارون نفسه في كتابه "أصل الأنواع" أقر بوجود ثغرات كثيرة ومشكلات كبيرة ومعقدة في نظريته، وقد أثبت العلم الحديث أن لكل نوع من الأحياء خارطة وراثية ثابتة لا تتغير مهما تطاول الزمن، وبذلك يحافظ كل صنف على استقلاليته وخصائصه، فلا ينشأ من تكاثره مع صنفه أو صنف مغاير له في خارطة المورثات صنف جديد فلا تلد القرود إنساناً ولا يلد الإنسان قرداً أبداً.

133. زعم دارون أن الإنسان متسلسل من سلالات حيوانية، وأنه أخذ صورته الإنسانية منذ مليون سنة، ولكن علم المستحاثات هنا لا يثبت ذلك الزعم، إذ لم يعثر على السلاسل المزعومة التي تسلسل منها الإنسان، فهناك حلقات كثيرة مفقودة بين الإنسان والغوريلا أو الشمبانزي الذي يتوهم أن أصل الإنسان منها. وإن المكتشفات التي عثر عليها الجيولوجيون تنقض نظرية دارون من أساسها، فقد زعم دارون أن الأحياء البسيطة التي تطور منها الإنسان يُعثر عليها في الطبقات السفلى من الأرض دائماً بينما أثبتت الحفريات عكس ذلك، فقد وجدت من الهياكل والصور الحية المستخرجة من باطن الأرض أحياء أعقد تركيباً وأرقى مما فوقها من الأحياء.

134. إن جميع الأيديولوجيات الإجرامية التي ظهرت في القرن العشرين من النازية والفاشية إلى الستالينية والماوية كلها كانت مستندة على الرؤية التطورية والتقنية العرقية وأن هناك أجناساً أفضل من أجناس.

135. إن تفضيل إبليس أصل خلقه على أصل خلق آدم عليه السلام واستناده في زعمه هذا على قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ غير صـــحيح ولا يُؤخذ به، فالتراب منفعته أكثر من النار، فإذا وُضـع فيه القُوتُ أنتج أضـعافاً كثيرة وهذا من بركته، إذ وصـــف الله الأرض بالبركة والتراب هو مادة الأرض وعنصـــرها، وأما النار فلم يخبر الله تعالى أنه جعلها مباركة كما أخبر عن الأرض، ولم تذكر النار في القرآن الكريم إلا في معرض العقوبة والتخويف إلا في موضع واحد بأنها تذكرة ومتاع للمقوين. كما أن النار طبعها الخفة والطيش والحِدَّة، وأما التراب ففيه الثبات والرزانة. والتراب لا يفتقر إلى حامل يحمله فهو قائم بذلك، في حين أن النار لا تقوم بنفســها، فهي مفتقرة إلى محل تقوم به ويحملها، وغيرها من الأسباب التي تفضل التراب على النار.

136. لو سُـلّم بطريقة الفرض الباطل أن النار خير من الطين كما ادعى إبليس، فلا يلزم من ذلك أن يكون المخلوق من النار خير من المخلوق من الطين، فالله تعالى قادر على أن يخلق من المادة الأدنى من هو خير من المخلوق من المادة الأفضـــل، وهذا فضـــل الله يؤتيه من يشـــاء وهو من كمال قدرته تعالى. وقد شرف الله تعالى طينة آدم عليه السلام التي خلقه منها وفضلها فخلقها بيديه، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص:75]، وشـرّفها بنفخ الروح المقدَّسـة فيها كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:72]. وهذا من أعظم الأسباب الموجبة لتفضيل الطين على النار.

137. خرج إبليس صاغراً ذليلاً بحكم الله العادل، ثم عاد إلى ربه يطلب منه أن يبقيه حياً إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ

مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف:14،15]، وكان طلب إبليس من الله عزّ وجل دليلاً على خبثه ومكره، فهو يريد أن يكون مخلداً في هذا الوجود ولا يموت كما يموت باقي المخلوقين، ولكن هذا يتعارض مع سنة الله في المخلوقين من الإنس والجن والملائكة وغيرهم والتي تقرر أنهم لا بُد أن يموتوا كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:185]، ولذلك ردّ الله على طلبه قائلاً: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: 37،38]، فأنظره الله وأمهله ليس إلى يوم يبعثون، ولكن ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾.

138. إن الله سبحانه وتعالى بَيَّن لآدم بكل وضوح نمط وأسلوب معيشته في الجنة في حال التزم بأوامر الله تعالى، أما إذا اتبع آدم خطوات الشيطان، فسوف يعيش في نمط معاكس تماماً لنمط معيشته في الجنة، وهو نمط شقاء العيش خارج الجنة، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه:117-119]. فبالطاعة يستجلب النعيم، وبالمعصية يستجلب الشقاء.

139. إن كثيراً من المؤرخين الغربيين يروّجون لنظرية الإنسان الحجري، أي أن الإنسان كان بدائياً في كل شيء ومن مقتضى ذلك أن الإنسان كان يمشي عرياناً كما ولدته أمه، ولم يكن على جسده لباس يستر به عورته. وهذا كله كذب وافتراء على البشرية في تاريخها، وتنكر لنعم الله التي أنعم الله بها على بني آدم، من ستر عوراتهم، ولم يكن الإنسان في تاريخه يوماً فاقداً ما يستر به عورته، قد أوجد الله لآدم وحواء وهما في الجنة من اللباس ما يستران به سوءاتهما، واستمرت تلك النعمة من ستر العورة من ذلك الوقت وتلك نعمة

تكفلها الله لبنيه من بعده إلى قيام الساعة.

140. إن من الفطرة الاستتار والتزين باللباس ولو بين الزوجين، وإبداء السوءتين والعورات بين الزوجين بلا حاجة ولا مقصد مأذون به غير أنه مكروه، لأنّه يسقط هيبة الحياء في النفس، وتزهد نفوس بعضهما في بعض، وتتشوف إلى غيرهما من الحرام، والعري ليس من الفطرة السليمة ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان، وإن رؤية العري جمالاً هو انتكاس في الذوق البشري قطعاً. وقد فطر الله آدم وحواء على الفطرة السليمة الصحيحة، فسترا عوراتهما بورق الشجر مع أنه لا يراهما أحد من البشر غيرهما، فليس لهم ذرية عند ذلك، ولذلك قال تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف:27].

141. في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:23]، يتكشف الجانب الآخر في طبيعة هذا الكائن المتفرد وهو الإنسان الذي ينسى ويُخطئ، إن فيه ضعفاً يدخل منه الشيطان، إنه لا يلتزم دائماً ولا يستقيم دائماً ولكنه يدرك خطأه ويعرف زلته ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة ويثوب ويتوب إلى الله، فهي خصيصة الإنسان التي تصله إلى ربه وتفتح له الأبواب إليه، وهذه التجربة الأولى له في التوبة قد تمت. وهذه الآية غنية بمفاهيم عديدة كمفهوم الربوبية، ومفهوم الظلم، ومفهوم النفس، ومفهوم المغفرة، ومفهوم الرحمة ومفهوم الخسران.

142. لما أظهر آدم عبوديته لله وافتقاره إليه رفع الله مكانته فكان حاله بعد التوبة أحسن منه بعدها، يقول تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:37]، فالله عز وجل أوحى إلى آدم كلمات تعرّف

من خلالها على كيفية الخروج من هذه المعصــية وتبين له طريقة التوبة من تلك المعصـــــية. وتلك الكلمات تلقاها آدم إما بطريق الوحي، وهو الأظهر أو الإلهام، فكانت ســــبباً في قبول توبته وقد قبل الله توبته ومحا ذنوبه، وهذه منّة أخرى من الله على آدم، لأنه لو شـاء الله لما رضـي عنه، ولكنه لما علم الله من آدم صدق التوجه إليه والإقبال عليه للخروج من تبعات ذلك الذنب فقبل الله توبته ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:122].

143. قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف:24]، إن تفسـير القرآن الكريم لأحداث تاريخ البشـرية، يلتقي مع ما ذكره فلاسـفة التاريخ من علماء الغرب عندما ردُّوا حركة التاريخ البشـري إلى الصـراع، ولكنه يخالفهم في حقيقة هذا الصـراع وأبعاده ومداه، فهو ليس صـراعاً بين الطبقات على الموارد المالية ووسـائل الانتاج كما زعم انجلز وماركس في نظرياتهم الاقتصـادية، ولكن الصـــراع الذي يُحرك أحداث التاريخ هو الصـــراع بين الخير والشـــر، والحق والباطل، والهدى والضـــلال. الخير والحق والهدى المتمثل في دين الله تعالى وشرعه المنزل على الناس بواسطة الأنبياء والمرسلين وبين الشر المتمثل بالشيطان وأوليائه من الجن والإنس.

144. وجه الله تعالى نداء لبني آدم عـامة في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف:27]، ففي هـذا النـداء تحذير لبني آدم عـامة وللمشـــركين الـذين يواجههم الإســلام في الطليعة، أن يسـتسـلموا للشـيطان، فيما يتخذونه من مناهج وشـرائع وتقاليد؛ فيسـلمهم إلى الفتنة كما فعل مع أبويهم من قبل، إذ أخرجهما من الجنة، ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، فالعري والتكشف

الذي يزاولونه، والذي هو طابع كل جاهلية قديماً وحديثاً، هو عمل من أعمال الفتنة الشـيطانية وتنفيذ لخطة عدوهم العنيدة في إغواء آدم وبنيه، وهو طرف من المعركة التي لا تهدأ بين الإنسـان وعدوه، فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم، وأن ينتصر في هذه المعركة وأن يملأ منهم جهنم في نهاية المطاف .

145. إن الانقطاع عن ذكر الله يسـبّب للمسـلم جفافاً روحياً، وذكر الله يروي هذا الجفاف ويتسـامى بالروح نحو خالقها ودوام ذكر الله والإكثار منه من الأمور المأمور بها شـرعاً. وسمو الروح من أهم الوسـائل في الارتقاء بإنسـانية الإنسـان والتي تكوّن معيناً وزاداً معنوياً لأداء رسالته المناطة به في الأرض وتحقيق أشواقه الروحية في عبادة خالقه العظيم. والتوازن في طبيعة الإنسـان المادية والروحية وسـيلة عليا للارتقاء بإنسـانية الإنسـان والعبودية في مراتب الغطاء الديني والدنيوي لتكون صـلته بالأرض وعمارتها وصـلته بالسـماء متوازنة لا يطغى جانب على جانب ولا يتفضـل أحد المزيجين عن الآخر. وإنما التوازن بين خصائص الطين وبين النفحة الربانية في الإنسان.

146. من الوسـائل الشـيطانية في تزيين الباطل تسـمية الأمور المحرمة بأسماء محببة إلى النفوس، فأضـل وأغوى بهذه الوسـيلة الخبيثة كثيراً من الناس الذين كانوا يبتعدون عن المعاصي والمنكرات ويشـمئزون منها حين كانت الموبقات تسـمى بأسمائها الشـرعية والعرفية، وهذا أمر ملاحظ في كثير من الناس الذين يقترفون المعاصـي ويغشـون المنكرات، فتجدهم يخرجون لأنفسـهم بمخارج إبليسـية، من أهمها إخفاء الاسـم الحقيقي لتلك الأمور المحرمة وتقنيعها بأسماء أخرى مغرية، فسـموا الزنا حرية شـخصية، وسمُّوا الخمر بالمشروبات الروحية وسمُّوا سفور المرأة وتبرجها خارج بيت الزوجية واختلاطها بالرجال الأجانب حضـارة وتقدماً

ومدنية، والربا فوائد، والغش والخيانة ذكاء وفطنة و"دبلوماســـية" ...إلخ من المعاصي والمنكرات التي قنَّعها دعاتها بأسماء لامعة.

147. التزيين والإغواء هما ركنا الخطة الإبليسية، وكل من يسير على خطة إبليس هو من جنده، وقد استخدم الشيطان أساليب عديدة لإغواء بني الإنسان وهي أســاليب تدل على المكر والدهاء وإجادة الأدوار، ومنها التشــكيك بوجود الخالق، والتشكيك في اختصاص الله بالعبادة وحمل الناس على عبادة الأصنام، والتشكيك في العقائد الإيمانية، مثل إنكار الملائكة، والجن وبعث الرسل واليوم الأخر وغير ذلك. والتشكيك الذي يشمل حياة المسلم بشكل عام.

148. يُعد الإخلاص جوهر الأخلاق الإيمانية ونقطة دائرتها لأنه هو المميز لما يترتب على الأخلاق الحســنة من المدح والثواب وعِظم المنزلة في الحياة الآخرة، لذلك كان لابد أن يتصـــدر هذا الخلق كل الأخلاق الســلوكية الإيمانية والفردية والاجتماعية لما يقصـــد به من تهذيب النفس وتزكيتها وتجردها عن الشـــوائب المكدرة لصفاء الأخلاق الإسلامية. قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: 14].

149. إن التصور القائل بأن للشيطان قدرة يستطيع بها أن يجبر الإنسان على ترك الطاعات وفعل المعاصي، ومن ثم فلا ذنب على الإنســان إذا قصــر في طاعة الله أو فعل معصــية من المعاصــي، إنما ســببه الجهل بالقرآن الذي بيَّن حقيقة الشــيطان، وهذا هو عين الشــرك في الربوبية، ولو كان للشــيطان مثل هذه السلطة لكان في ذلك مناقضة لتكليف الله للبشر، وفي ذلك مناقضة صريحة لما في القرآن الكريم؛ لأن التكليف مبني على قدرة الإنسـان في اختيار الخير أو الشر، فالله بعث الرسل على مدار التاريخ لاختبار هذه الإرادة عند الإنسان،

فإما أن يستجيب هذا الإنسان لداعي الله، وإما أن يستجيب لداعي الشيطان الذي يوسوس للإنسان بالجنة أو النار.

150. في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:42]، إنما هو إقرار بأن العبودية لله تحرر الإنسان من العبودية لسواه. ولا حر إلا من اختار نهج العبودية لله، والعبودية نوعان: عبودية اختيار وهؤلاء هم العباد وعبودية اضطرار وهؤلاء هم العبيد، والإنسان بين خيارين إما الهدى والرشاد وإما الغي والضلال. وقد كرر القرآن قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

151. قال تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: 46]، فالسلم والأمن من أهم أوصاف وأحوال أهل الجنة ودخولهم إليها وفيها. والترويع أكثر ما واجه المسلمين والمؤمنين من الأذى في الدنيا، والأمن والسلم أول ما يواجهون في الأخرة، وهو نقيض ما كانوا عليه. وقوله تعالى: ﴿بِسَلَامٍ﴾: أي سالمين أو مسلماً عليكم ولذ وجب إحياء تحية الإسلام.

152. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد:6]، فالله جمع لعباده بين التبشير والتحذير ليكونوا على قدمي الرجاء والخوف وحال الأنس والهيبة، فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصير في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع منها.

153. إن لإبليس أصوات عالية يطلقها ويرفعها ليؤثر بها في جنوده ويستفزهم ويحذرهم ويصرعهم ويهلكهم وهم ينفعلون مع تلك الأصوات الشيطانية

ويخضعون لتأثيرها واستفزازها وأصوات الشيطان تملأ العالم في هذا الزمان، وتسحر الذين يسمعون لها ويتفاعلون معها، وكل داعٍ إلى معصية الله هو صوت إبليس.

154. ﴿وَعِدْهُمْ﴾: لعل هذا من أخطر أساليب ومناهج الشيطان، ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة، فيتلطف إلى تلك النفوس المتحرجة ويزين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة، وإبليس مأذون في أن يستخدم وسائله كلها، ومنها الوعود المغرية المخادعة كالوعد من الإفلات من العقوبة والقصاص والوعد بالغنى من الأسباب الحرام والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة.

155. الله عز وجل هو الوكيل الحق الذي يغنينا ويرضينا ويكفينا وعندما نتعامل مع هذا الاسم تعاملاً حقيقياً لا نكتفي بمعنى الوكيل وما تعريفه. فالقضية أكبر من ذلك، المهم أن نكل إليه أمرنا، ولا يوجد مؤمن على الإطلاق بإخلاص شديد وبصدق بالغ وكّل إلى الله شأناً من شؤون حياته إلا ويتولّى الله أمره.

156. إيمانك ببداية الخلق تصديق، لأن هذا الشيء يعجز عن الوصول إليه فلا بدَّ من التصديق به فنحن لا نعرف ما كان في الماضي السحيق، وليس بإمكاننا أن نعرف إلا ما أخبرنا الله به، ونحن لا نعرف ما سيكون في المستقبل البعيد وليس بإمكاننا أن نعرف إلا ما أخبرنا الله به، فأنت بين تحقيق فيما وُكِلَ إلى عقلك وتصديق لما عجز عنه عقلك.

157. كلما تقدَّم العلم كشف خطأ ما فسره العلماء المنحرفون، فالإنسان مخلوق

من حيوان منوي واحد من بين ثلاث مئة ألف حيوان، فيلقح بويضة تنقسم في ثمانية أيام إلى عشرة آلاف قسم، ثم تلتصق بجدار الرحم ثم يبدأ تكوّن الدماغ والأحشاء والأعضاء وهذا في تسعة أشهر وعشرة أيام، فيصبح طفلاً كاملاً له دماغ وجمجمة، ومخ، ومخيخ، وبصلة سيسائية ونخاع شوكي، وقلب وشرايين ورئتان ومعدة وأمعاء وكبد وبنكرياس، وكليتان ومثانة، وأعصاب وعضلات، وعظام، وجلد، وغدد دهنية وغدد صبغية.

158. إن البعد عن المضلين الذين يتحرّكون في الموقع الذي يمنع الناس عن السّير في خط الهدى، ويبتعد بهم عن الإيمان بالله وعن خطّ طاعته، فلا ندخلهم في مشاريعنا الثقافية والاجتماعية والسياسية ليكونوا لنا أعواناً في تخطيطها وتنفيذها، لأنهم لن يكونوا في موقع الإخلاص للأهداف الكبيرة التي نستهدفها، بل يكونون مشكلة لنا في الاستفادة من هذا الموقع للتخريب والإرباك والإضلال، ولا بد لنا من اختيار الناس الطيبين المخلصين الذين يلتقون معنا بالفكر والخط والهدف في عملية تكامل وتعاضد وانسجام.

159. كانت الحياة الإنسانية الأولى تشق طريقها على هذه الأرض، وعرف الأبوان وأولادهم وأحفادهم كيف يوفرون لقمة العيش واحتياجاتهم الحيوانية والنباتية والصناعية والسكنية ... إلخ. فاستصلحوا الأراضي للزراعة وكان الماء متوفراً من الأمطار المحجوزة في أغوار من التلال، وقد تمكنوا من صنع رحى لطحن القمح وكذلك محراثاً حجرياً وقطعوا أخشاب الأشجار العتيقة وبنوا كانوناً لطهي الطعام وتعلموا استخراج النار من قدح الأحجار الصخرية وكان الله عز وجل يلهم آدم مما علمه من أسماء الأشياء ووظائفها فهيأ لعائلته حياة طيبة رغدة، واستجابت له الأرض ومطر السماء بإذن الله عز وجل فأعطت من

خيراتها الكثير الكثير وهذا من تسخير الله مخلوقاته للإنسان.

160. أكرم الله آدم عليه السلام بالنبوة والرسالة الربانية فبدأ يعبد الله كما علمه الله بتعليم رسالته الجديدة وبلغها لأبنائه، وبدأ يعلم أولاده من بعده شرع الله تعالى وعلى كيفية عبادة الله والإخلاص له وسعى بكل ما يستطيع أن يقيم شرع الله في الأرض وأن يحقق العدالة في خلق الله سبحانه وتعالى وعلى أرضه.

161. إن ميراث أمة محمد صلى الله عليه وسلم للبيت الحرام، الذي هو أول بيت وضع للناس دليل على أن قيادة البشرية تنتهي إليها، وأنها وريثة آدم في التوحيد والإيمان بالله عز وجل، وإفراد العبادة له وحده سبحانه وتعالى، وأنها الشهيدة على الناس قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:143].

162. لا يخفى أن كل خطاب لبني آدم في القرآن إنما يقصد به الجنس البشري جميعاً، فإن ما في القرآن من تشريع وعظة وبيان وامتنان يقصد به الناس جميعاً ولا تختص به طائفة دون غيرها، وكما تبين أن ما يوجه من خطاب إلى بني آدم فهو لجميع الجنس البشري، كذلك أيضاً ما يوجه من خطاب إلى الناس لا تختص به طائفة من البشر دون أخرى كما في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13].

163. إن أفضل ما يعطي التصور الحقيقي والعلم اليقيني عن نشأة الإنسان وبداية خلقه وعلاقته بالكون والمخلوقات والخالق العظيم (الله عز وجل) هو القرآن الكريم وما ثبت من الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

164. إن صفة الملك الحقيقي لله عز وجل تقتضي الحكمة في خلق الخلق وعدم

تركهم سدى، كما تقتضي إرسال الرسل وإنزال الكتب وأمر العباد ونهيهم وثوابهم وعقابهم، وهذا ما بينته الآيات الكريمة التي جاءت بعدها وفصلت قصة آدم عليه السلام وعداوة الشيطان له وأهمية تتبع هدى الله وخطورة مخالفته كما سيأتي بيانها بإذن الله تعالى، لأن من لوازم الملك لله تعالى الحكم والتشريع فكان لازماً على العباد قبول حكم الله وشرعه ورفض ما سواه والإعراض عن التحاكم لغيره، فالحكم لله وحده.

165. لقد بقي ذنب آدم عليه السلام أمام عينيه حتى هرب من ربه حياءً وخجلاً، النسيان كان من قبل، والذكر الدائم كان من بعد، وظل إلى الأبد حتى يوم القيامة يذكر ذنبه ويعتذر عن الشفاعة، الخطير أن يحيط النسيان بالعبد قبل الذنب وبعده ويمضي قدماً لا يلوى على شيء.

166. تميز آدم بالذاكرة الإنسانية والحفظ ولذا وُصف بالنسيان، النسيان استثناء في مقابل تعليم الأسماء كلها وإلهام اللغة كما المعصية استثناء والأصل الاستقامة[1]، فكما أن آدم عليه السلام ورث ذريته الذاكرة الجيدة المصممة لبناء الحضارة وتطوير المعرفة، فقد ورّثهم النسيان المساعد على التكيُّف والتجدد وتجاوزت العثرات.

167. تحدث القرآن الكريم عن غريزة الزوج حين آن لآدم عليه السلام أن يزاول اختصاص بشريته وأن يتحول إلى أفق غرائزه كان أول غريزة نوى إليها هي (غريزة الزوج) وذلك قوله سبحانه: ﴿وَقُلْنَا يَا آدم اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ [البقرة:3].

[1] علمني أبي آدم، العودة، مصدر سابق، ص 88.

168. أهم غرائز الإنسان التي جاءت في قصة آدم عليه السلام: (غريزة الزوج – غريزة الخلود – غريزة التملك – غريزة التدين).

169. قد تطغى غريزة التملك في الإنسان، فيصير بها عنصراً فاسداً في الأرض وآلة تخريب وتدمير، وقد تعتدل وتختلف بالأهداف السامية فيكون بها عنصر خير وبر وعمارة، وفي القرآن الكريم مثل تاريخية واقعية تبين طغيان تلك الغريزة في نفوس أصحابها أو اعتدالها وتبين أثرها الاجتماعي في الحالتين، ولكنا لسنا بصدد بيان شيء من ذلك، وقد أكل آدم من الشجرة استجابة لداعي تلك القوة الغريزية التي تنزع إلى ملك ما يمكن ملكه.

170. جاءت التعاليم الربانية لآدم عليه السلام هادية لبنيه وذريته إلى ما يصلح شأنهم عقيدةً وعبادةً وأخلاقاً، واجتهد آدم عليه السلام في رفع مشاعر أبنائه الإنسانية نحو الكمال المرغوب وحرص على تطهير نفوسهم من الأدران الأرضية وعمل على بناء لبنات صالحة يقيم عليها تأسيس الحضارة الإنسانية الأولى القائمة على النقاء والطهر والاتجاه الصادق نحو إرضاء الله وحده دون سواه.

171. هبوط من الجنة وشقاء وضلال، يقابله عودة إلى الجنة ونجوة من الشقاء والضلال، وفسحة في الحياة يقابلها الضنك وهداية يقابلها العمى... ويجيء هذا تعقيباً على قصة آدم –وهي قصة البشرية جميعاً– فيبدأ الاستعراض في الجنة وينتهي في الجنة كما مر معنا في سورة الأعراف مع الاختلاف في الصور الداخلة في الاستعراض هنا وهناك حسب اختلاف السياق.

172. الإنسان كائن راقي جداً، فإذا ذهبت روحه؛ أصبح مخيفاً، والغرفة التي ينام فيها تبقى أياماً بل أسابيع بل شهوراً مهجورة في البيت مع أنه هو كان مصدر

أنس البيت، فهو الأب، فإذا دخل هبّ إليه أولاده فرحين، فما الذي حدث حينما انسحبت هذه الروح؟ أصبح مخيفاً، وأصبح جثة هامدة بعد أن كان مصدر النظافة والعطور الفواحة، وإن مات في الصيف احتاج إلى حمض الكلور، وإلّا خرجت منه روائح كريهة.

173. يظهر من قصة إبليس مع آدم عليه السلام جهل إبليس في افتخاره بمادته التي خلق منها؛ جهل ظاهر من وجوه: الأول: أن أصل بعض الأشياء النفيسة خسيس أو نجس أو قذر؛ فالمسك من الدم، وجوهر الألماس من الكربون الذي هو أصل الفحم والأقذار التي تُعاف من مادة الطعام الذي يُحب ويُشتهى، والثاني: أن الملائكة خلقوا من النور والشيطان خلق من مارج من نار وما فوقه دخان وما تحته لهب صافٍ ولا شك أن النور خير من النار، والملائكة على قدرهم وحسن خلقهم امتثلوا لأمر الله وسجدوا لآدم، فكان هو أولى بالسجود.

174. العناد والضلال يوردان المرء الموارد الوبيلة ويسوقانه سوقاً إلى التردي في مهاوي الهالكين، وهذا ما حصل لإبليس حين عاند ورد أمر الله وافتخر وتكبّر بأصله وامتنع عن السجود، ولم يتنازل عن مبدئه مع علمه بهلاكه، نعوذ بالله من غضبه وأليم عقابه.

175. إن معصية إبليس معصية عظيمة وخطيرة، ولهذا كررها الله في القرآن الكريم وأعادها بضع مرات لنعتبر منها على غاية الحذر، ومعصية الكبر أو ما يسمى جنون العظمة يؤدي في الغالب إلى الكفر -والعياذ بالله- لأن المتكبر لا يرى غيره، فيغمط الناس حقوقهم ويرد الحق ولو كان مثل الشمس.

176. إن التاريخ الإنساني بدأ من أول إنسان خلقه الله في الأرض بخصائص كاملة

في مكوناته العقلية والنفسية والروحية، وفي أخبار آخر كتاب منزل من الله فإن ذلك الإنســـان هو آدم الذي هيأه الله ليكون خليفة في الأرض بأعماله الحضارية التي تصدر منه بإرادته وعلى أساس الإيمان بالله واتباع هداه.

177. إن آدم عليه السلام هو المربي الأوّل للإنسانية والمعلم الكبير للبشرية جعل من التفكير والتأمل مدرسة أصيلة بين أبنائه لمعرفة الله عز وجل ومعرفة تأثير أسمائه وصـــفاته ثم عبادته وخشـــيته وطاعته والالتزام بأوامره ونواهيه والوقوف عند تعاليمه وغرس في أبنائه قيمة الحرية، في التفكير والتعبير عن كينونتهم الإنسانية والتحرر من عبودية الشـــيطان والأهواء، وإفراد الله بالعبادة بالعقل والمنطق والوجدان والفعل والأقوال وعمارة الكون على وفق منهج الله القويم.

178. إن في قول الشيطان: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، دليل على اجتهاد الباطل وأهله وتقاعس حملة الحق، فهذا الشيطان يعلن أنه سيلازم الذرية التي سينجبها هذا المخلوق الجديد ما بقي من الزمان ولئن كانت أطول مدة من دعوات الأنبياء والمرسلين، وممن دعا ألف سنة إلا خمسين عاماً "نوح عليه السلام" فإن إبليس مستمر في دعوة الشر من بدء الخليقة إلى نهاية العالم وهو درس لنا نحن المؤمنين من نحمل الحق. ولقد صدَّق إبليس ظنه وهذا ليس غريباً، فمن خطّط حصد ومن جدّ وجد ولو في مجال الشر والشيطنة.

179. الفطرة غراس رباني جبلي يملكه كل إنســـان، وحرص آدم عليه الســـلام على سلامة فطرة أولاده وذريته وخيريتها وعمل على حمايتها من الفساد والضلالات بهدايات الســماء، وأســاس الفطرة هو توحيد الله عز وجل وجذور هذه المعرفة عميقة في النفس ولا سبيل إلى إنكارها أو التخلص منها.

180. كان آدم عليه الســـلام قدوة لبنيه في توحيد الله، وإفراده بالعبادة وعمارة

الأرض، وساهم ذلك على الاستفادة من رصيد الفطرة لأولاده في عبادة الله وعمارة الأرض، فالفطرة السليمة مجبولة على توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة والسعي في إعمار الأرض.

181. خلق الله آدم للخلود، فالأرواح باقية والموت عبور إلى مرحلة جديدة وليس عدماً ولا فناء محضاً، والرغبة في الخلود مغروسة في جبلة آدم وأمنية محقّقة له ولولده، ولكن بصيغة أخرى تستشعرها الروح لأنها من شأنها. إلا أن الله الخلق الأول ليعيش في الجنة أو في الحياة إلى الأبد، فالموت ليس لعنة على الأبوين بسبب الخطيئة.

182. هيأ الله آدم وحواء للأرض قبل أن يهبطا إليها، فإنه لما كانت الحياة على هذا الكوكب الجديد، كوكب الأرض تقتضي معرفة أحواله وماضيه وكيفية التعامل معه وأساليب العيش والأكل والشرب والزراعة والعمل والطبخ وطرائقه، والسعي في الأرض بما يقيم حياة الإنسان، ويحقق مبدأ الخلافة فيها وعمارتها.

183. الولادة عملية إنتاج إنسان من إنسان، وهي بحاجة إلى كثير من الدعاء والتوجه إلى الله تعالى، فهي لحظات صعبة وشديدة على الأم الوالدة ولا يملك الفرد منا أن يكافئ أمه بشيء من آلام الطلق والولادة حتى لو طاف بأمه على عاتقيه الكعبة بالحج.

184. بدأت الحياة على الأرض بالتزاوج والتكاثر والتوالد ولا بد أن آدم مع شريكة حياته أدار ما حولهم من أمر الأسرة وتوزيع الأدوار وحل المشكلات بطريقة مناسبة وسعوا إلى معرفة نواميس الكون من حولهما وتحقيق العبادة لله وعمارة المعمورة، ونرى في قصة الخلق والتكليف والإعمار أن السيدة حواء عليها السلام لم تغب عن مسرح الأحداث وإنما كانت في ظل آدم عليه السلام

بالمعنى الخفي وليس المبهم الغامض، فهي شريكة في كل التكاليف الشرعية والعمرانية والتربوية وغيرها من المهمات التي تحس المرأة بواجب الوقوف مع زوجها راعية له معينة على همومه ومواجهة المشكلات التي تعترضه.

185. إن الله تعالى جعل حواء مشاركة لآدم، فأصل الإنسانية "آدم وحواء، رجل وامرأة" خلقهما الله من نفس واحدة، فهي ليست مخلوقة هامشية لا دور لها في الحياة وإنما هي مثله تحمل نصيبها من تبعة التكليف ومسؤولية العمل والعبادة، لهذا فهي تخطئ وتحاسب على خطئها، فهي لم تحاسب لأن آدم أخطأ فقط.

186. الرجل مسؤول والمرأة مسؤولة وكلاهما يكملان جوهرة الحياة في الدنيا والآخرة ولكل بريقه في هذه الجوهرة، لا يطفئ أحدهما الآخر ويسرق بريقه...

187. رتب آدم عليه السلام قبل رحيله، أمر خلافته وعهد إلى أحد أبنائه من بعده بعد ما علّمه المواقيت والعبادات وبعض الأخبار والمعلومات الضرورية ومهارات القيادة لاستمرار الحضارة الإنسانية الأولى، ومرض آدم عليه السلام وأحس بقرب الرحيل وشاركته ذاته، ودّع أهله وأولاده وكان يردد الكلمات المباركات التي تلقّاها من ربه، التوحيد والاستغفار والاعتراف بالذنب: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

188. إن لقصة آدم عليه السلام أهمية خاصة في الأديان لأنها كانت بداية الخليقة، فما من دين أو مذهب أو معتقد إلا وله عقيدة أو فلسفة معينة لبدء الخليقة، فجاء هذا الكتاب مفصلاً لبدء الخليقة معتمداً على كتاب الله عز وجل ومستنداً إلى كتابه العزيز الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

189. إن بداية الحضـــارة الإنســـانية الأولى في الأرض بدأت من خلال رجل وامرأة بتكوين أسرة صغيرة على الزواج الذي هو من سنن الله في خلقه، وفي الأرض كانت حوّاء أم الأمهات وقدوتهن في الأمومة وكل ما تقوم به النســـاء من أعمال، كانت حوّاء قد غزلت، ونسجت، وعجنت، وخبزت وعملت أعمال النساء كلها، ثمّ علّمت بناتها تلك الأمور لتستمر مسيرة البشرية إلى ما شاء الله، إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

190. عاش آدم مئات الســنين على الأرض وشــاهد الأولاد والأحفاد ومن بعدهم خلّد الله آدم بذريته ولدى كل الشعوب.

191. إن آدم عليه السلام كان نبياً يعبد الله وحده، وعلم أبناءه التوحيد، فقد سئل النبي صل الله عليه وسلم عن آدم: "أنبيٌّ هو قال: نعم نبي مكلمّ خلقه الله بيده ثم نفخ فيه روحه".

192. التوحيد هو المنهج الذي صـــحب البشـــرية منذ بدئها وعليه قامت الحياة وعمرت الأرض ومن أجله خلق الله الجن والإنس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. وأما الشـــرك والكفر والفســـاد والضـــلال فكل ذلك طارئ وانحراف عن أصل الخلقة والفطرة التي فطر الله الناس عليها.

193. حرص آدم عليه الســـلام على غرس عبادة الله في ذريته، وتحقيق العبودية لله قيمة كبرى تســمو بالإنســـان إلى معالي الأمور وترفع مســـتواه على ســـائر المخلوقات، وتعتبر من القيم الكلية الكبرى والتي من أهمها العدل والإحســـان والحكمة، وتعتبر قيمة العبودية لله عز وجل من أرقى القيم الإســلامية التي دعا إليها آدم عليه السلام وموكب الأنبياء والمرسلين من بعده. والأنبياء والمرسلون وعلى رأسهم آدم عليه السلام ينظرون إلى العبادة على أنها شاملة لكل نواحي

الحياة دون خروج شـــيء منها عن شـــرع الله تعالى ودون بتر وتجزئة لمفهومها العام.

194. عاش آدم عليه الســـلام وفياً للرســـالة الربانية وللخلافة في الأرض بالبناء والإعمار عاملاً على حقن الدم ومنع الفســـاد والوفاء لتعاليم الله عز وجل، واقترب الرحيل من الحياة الدنيا وحان وقت الأجل والمغادرة، والموت هو نهاية المطاف لجميع الخلق في الدنيا وهذه سنة الله في خلقه، فالموت مقدّر في اللوح المحفوظ منذ خُلق الإنسان فإذا جاءت ساعة الإنسان جاءته المنية ولو كان في بروج مشـــيدة، قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَـــيَّدَةٍ﴾ [النســـاء:78]، فحينما يأتي الأجل لا يســـتأخرون ســـاعة ولا يســـتقدمون، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْـــتَأْخِرُونَ سَـــاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:34].

195. تعتبر العبودية لله أساس القيم كلها، فهي قيمة كلية شاملة مهيمنة على القيم الأخرى، بل وعلى الوجود الإنســـاني كله، وذلك لأنها تبدأ بالإيمان بالله رباً وإلهاً مشرعاً، وبرسله ابتداءً من آدم عليه السلام إلى رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم).

196. إن آدم وحواء تحرروا من وســـواس إبليس وتغلبوا على كيده ومكره وحققوا كامل الحرية الإنسانية، التي تنسجم مع الفطرة وتقنع العقل وترضي الوجدان البشـري: فكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية وكلما ازداد عبودية ازداد له حباً وحرية مما سواه.

197. كان آدم عليه الســـلام حريصـــاً على تربية أولاده وأحفاده على جدار القيم الأخلاقية الأصـــيلة المســـتمدة من هدايات الســـماء التي أوحاها الله إليه،

والإنسانية بفطرتها تميل إلى حب الخير والفضيلة، والله عز وجل منذ خلق آدم عليه السلام وبارك في ذريته يعلم ما يزكيه ويرفعه ويعلم ما يدنسه ويهبط به ويلغي إنسانيته، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:14].

198. إن من مساوئ النظرة التاريخية الغربية للأحداث في المسيرة الحضارية الإنسانية هو إغفالها وتجاهلها الجوانب التاريخية لعلاقة الإنسان بالله وما كان من تداعياتها، ولذلك لم ينصفوا قادة البشرية، وسادتها في القيم الروحية والأخلاقية والتشريعية، وهم الأنبياء والمرسلون ابتداء من آدم عليه السلام إلى خاتم النبيين، بل تعرّض الكثير منهم للتشوية والتزوير والإفك المبين.

199. نجح آدم عليه السلام وزوجه وأولاده في تحقيق العبودية لله وعمارة الأرض والعمل بمقومات الاستخلاف فيها، ومن الوسائل التي استخدمها آدم وبنوه في عمارة الأرض والتي هي رحمة لله بعباده من أهمها: العقل، والفطرة، والحواس، والمنهج الرباني، والاستخلاف في الأرض.

200. من مظاهر التكريم للإنسان أن الله سخر له الكون وما فيه انتفاعاً واستثماراً من أجل أداء أمانة الاستخلاف وتحقيق العبودية الكاملة لله، وقد تقرر أن الكون كله، بكل ما فيه من عالم الأشياء مهيأ في أصل صنعته من قبل صانعه تهيئة مقدرة، بحيث يستجيب الإنسان بقدر، فيما خص به من مهمة الحياة.

201. إن العبودية لله تعالى تحرر الإنسان من العبودية لغيره فهي بذلك تحقق له منتهى الكرامة الإنسانية، فهي تزكي نفسه وتربطه بخالقه وترفعه بالتالي فوق عناصر الذل والهوان التي كان أسير شباكها وكلما بذل جهداً أكبر في تحقيق العبودية الخالصة تعالت نفسه وتسامت فازدادت كرامته وارتفعت تبعاً لذلك.

202.الحضارة الربانية التي قادها الأنبياء والمرسلون منذ آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، فإنها تنظر إلى العلم باعتباره يشمل على جميع المعارف الإنسانية، سواء كان مصدرها العقل كالرياضيات، أو الحسّ والتجربة بالإضافة إلى العقل كالطب، أو النقل والسماع كاللغة، أو الوحي والنقل كعلوم الدين.

203.لا تكتمل كرامة الإنسان إلا بالحرية، فالإنسان يولد حراً وينبغي أن يبقى حراً، ومن ثم فلا سلطة لأحد على أحد، ولا سيادة لأحد على أحد لاستعباده في هذا الوجود، كما قال عمر رضي الله عنه: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. فالحرية إذن من المشترك الإنساني الذي تقدره وتقرره كل الأديان وجميع الحضارات وكل الشعوب والأمم منذ القدم إلى يومنا هذا، ومن أجلها ناضلت الشعوب وقاومت الاستعمار بكل أنواعه.

204.إن الأمة التي ورثت الحضارة الربانيّة التي أسسها آدم عليه السلام وطوّرها الأنبياء والمرسلون من ذريته هي الأحق بالاستخلاف في ما بعد الحضارة الغربية إذا أخذت بسنن الله في النهوض الحضاري وتعاملت مع قوانينه على مستوى القادة والنخب والشعوب، وما من شيء يحول دون ذلك إذا جددت صلتها بدينها، والتزمت صراط الله المستقيم وهديه القويم.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم

2.الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين كما جاء في القرآن الكريم، عبد الله ميرغني محمد صالح، دار الاعتصام.

3.الصلاة وحكم تاركها، أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، القاهرة، 2004م.

4.إثبات علو الله على خلقه "مائة دليل من الكتاب والسُنة"، جمع وإعداد: أبي الحسن خوجلي إبراهيم عمر، 2015/12/6.

5.الإجابة القرآنية كيف أجاب القرآن عن أسئلتك الوجودية، مهاب السعيد، دار الكاتب للنشر والتوزيع، الإسماعيلية، مصر، ط1، 2016م.

6.اجتماع الجيوش الإسلامية، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق عواد عبد الله المعتق، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط 1، 1988.

7.أحكام المقابر في الشرعية الإسلامية، عبد الله بن عمر السحيباني، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط3، 1433هـ.

8.إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1427هـ، 2006م.

9.الإخلاص في القرآن، حمد محمد الوهيبي، دار التوحيد، ط1، 1437هـ-2016م.

10.الأخلاق الإسلامية وأُسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق -

بيروت، ط2، 1407هـ.

11.أخلاق النبي في القرآن والسـنة، أحمد عبد العزيز الحداد، دار الغرب الإسـلامي، ط2، 419هـ-1999م.

12.آدم بين التطور والتطور الموجه والوحي، إبراهيم الشحات محمد خميس، مركز تكوين، الطبعة الأولى، 1440هـ، 2019م.

13.آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر العمصي، رسالة دكتوراه، جامعة أم درمان.

14.آدم عليه السـلام خلقه ومعصـيته، إبراهيم النعمة، المكتبة الوطنية طبعة 1419هـ، 1998م.

15.آدم عليه السلام من وحي القرآن، عقيل حسين عقيل، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ط1، 1431هـ-2010م.

16.آدم عليه السلام، محمد البهي، دار البشير، ط 1420هـ-2000م.

17.آدم وحواء أسرار وحقائق، محمد عبد الباقي فهمي، دار الكتب العلمية، 2013م.

18.آذان الأنعام، عماد محمد بابكر حسن والمهندس علاء الدين محمد بابكر حسن، دار وعد، القاهرة، 2011م.

19.الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والمرسـلين، محمد وصـفي، دار ابن حزم، ط1 1418هـ/ 1997م.

20.إرشـاد العقل السـليم، أبو السـعود. دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، الطبعة

الأولى، 2001م.

21.أزمة العقل المسلم، عبد الحميد أحمد أبو سليمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، كوالالمبور، 1991م.

22.إزهاق الباطل الرد على شبهات القمص زكريا بطرس، صلاح أبو السعود، دار الطيبة للطباعة الجيزة، ط1 /2009.

23.الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط6، 1424هـ.

24.استخلاف الإنسان في الأرض، فاروق الدسوقي، دار الدعوة للنشر والطبع والتوزيع، الإسكندرية.

25.أسرار التكرار في القرآن، محمد بن حمزة الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة.

26.الإسلام والتنمية الاجتماعية، محسن عبد الحميد، دار المنارة للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 1409هـ-1989م.

27.الأسماء والصفات، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبد الله محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة، ط1.

28.إشراقات سورة الكهف، ناصر العمر، مؤسسة ديوان المسلم، الرياض، ط1، 1434هـ-2013م.

29.أصل الإنسان بين الإسلام والفكر المادي، صالح الفريج.

30.أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، موريس بوكاي، ترجمة فوزي شعبان،

المكتبة العلمية.

31. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، ط2، 1985م.

32. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1995م.

33. إعجاز القرآن، أمير عبد العزيز، مكتبة دنديس، عمان، 2004.

34. الإعجاز القرآني في ضـــوء الاكتشـــاف العلمي الحديث، مروان وحيد شـــعبان التفتنازي، دار المعرفة للطباعة والنشر، 2006.

35. أعلام الموقعين عن رب العـالمين، محمـد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمـد عبـد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1991م.

36. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط 1، 1432 هـ.

37. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار اشبيلية، 1419هـ-1998م.

38. آكام المرجان في أحكام الجان، محمد بدر الدين الشـــبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

39. الاكتشـــافات العلمية الحديثة، ســـليمان عمر قوش، دار الحرمين، الدوحة، ط 1، 1987هـ.

40.الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، دار ابن الجوزي، ط1، 1426هـ.
41.الأمثال القرآنية القياسـية المضـروبة للإيمان بالله، عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط1، 2003م.
42.الأمثال القرآنية، عبد الرحمن حسـن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشـق، ط 1، 1980م.
43.الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي، علي خميس الغامدي، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، ط1، 1424هـ-2003م.
44.الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق، 1409هـ-1989م.
45.أنوار التنزيل وأسرار التنزيل، ناصر الدين أبو الخير عبد الله الشيرازي البيضاوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1402هـ-1982م.
46.آيات النبات في القرآن الكريم، زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
47.أيسـر التفاسـير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسـى أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط 5، 2003.
48.الإيمان بالقدر، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، ط2، 2011م.
49.الإيمان بالملائكة، الصلابي، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1432هـ-2011م.
50.الإيمان باليوم الآخر، علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة، ط2، 2011م.
51.الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط4، 1399هـ.

52.البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.
53.البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر ابن كثير، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط 1، 1997.
54.بدائع التفسير، ابن القيم، دار ابن الجوزي، الدمام السعودية، الطبعة الأولى، 1992م.
55.البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية، عبد المجيد العرجاوي، دار وحي القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2008م.
56.بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: محمد علي النجار وعبد العليم الطحاوي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط3، 1416هـ-1996م.
57.بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق محمد شامة، القاهرة، مكتبة وهبة، ط2.
58.بينات الرسول ومعجزاته، عبد المجيد الزنداني، دار الإيمان، القاهرة.
59.التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد الفقي، دار المعرفة، بيروت.
60.التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
61.التخويف من النار، ابن رجب الحنبلي، مكتبة دار البيان 1988م.

62.التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، ط1، 1435هـ-2014م.

63.التربية الجنسية في الإسلام، عبد الرحمن داود، شركة دار البيروني، ط1، 2017م.

64.التسبيح في الكتاب والسنة، محمد كندو، مكتبة دار المنهاج، ط1، 1426هـ.

65.التسـهيل لتأويل التنزيل (سـورة الأعراف)، أبو عبد الله مصـطفى العدوي، مكتبة مكة، ط1 1431هـ-2010م.

66.تفاحة آدم وشجرة الختام، بشير محمد، دار العرّاب، دمشق، سوريا، حلبوني الجادة.

67.التفسير التوحيدي، حسن الترابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 1432هـ-2011م.

68.التفسـير الحـديـث، محمـد عزة دروزة، دار الغرب الإسـلامي، بيروت، ط2، 1421هـ-2000م.

69.تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، القاهرة.

70.التفسير العلمي المعاصر، سليمان بن صالح القرعاوي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1425هـ.

71.التفسـير العلمي للآيات الكونية تاريخه وموقف العلماء منه، بكر زكي إبراهيم عوض.

72.تفسير الفاتحة، ابن قيم الجوزية.

73.تفسـير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر ابن كثير، تحقيق سـامي بن محمد سـلامة،

دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، 1999.
74.تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، الطبعة الأولى صفر 1423هـ.
75.تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته، دار الغريب، القاهرة.
76.تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1418هـ-1997م.
77.التفسير الكبير: مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، 415هـ-1995م.
78.تفسير المدينة، نخبة من العلماء، مركز تعظيم القرآن الكريم، دار الصميعي، ط1، 1436هـ-2015م.
79.تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، دار إحياء التراث العربي، ط2، 1985م.
80.تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط 1414هـ-1993م.
81.التفسير المنير، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط2، 1418.
82.التفسير الموضوعي، أحمد السيد الكومي ومحمد أحمد يوسف القاسم، ط1، 15402هـ-1982م.
83.التفسير الموضوعي، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق، ط2، 1435هـ-2014م.

84. تفسير النابلسي، محمد راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان، عمان، الأردن، ط1، 1438هـ-2017م.

85. التفســـير الواضـــح، محمد محمود حجازي، دار الجيل الجديد، بيروت، ط10، 1413هـ.

86. التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1.

87. تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، ط1، 435هـ-2014م.

88. تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن، ط1، 1440هـ-2019م.

89. تفســـير من وحي القرآن، محمد حســـنين فضـــل الله، دار الملوك، بيروت، ط3، 1439هـ-2018م.

90. التفسير والبيان لأحكام القرآن، عبد العزيز بن مرزوق الطريفي، مكتبة دار المنهاج، ط2، 1429هـ.

91. تقريب التهذيب، أحمد بن علي ابن حجر العســـقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، ط 1، 1986.

92. تلبيس ابليس، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق الدكتور الســـيد الجميلي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1409هـ.

93. تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء صـــالح البحر، مكتبة المتنبي، الدمام،

ط1، 1431هـ-2016م.

94. تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون، مؤسسة الرسالة، ط14، 1958.

95. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000م.

96. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2000.

97. جامع الرسائل، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، دار العطاء، الرياض، ط 1، 2001.

98. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 2، 1964.

99. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار المعرفة، المغرب، ط1، 1997.

100. الجيو حضارة أو جغرافية الأمم، أحمد سريرات.

101. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن القيم، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، 1428هـ.

102. حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله الهرري، دار المنهاج، دار طوق النجاة، ط5، 1434هـ-2013م.

103. الحريات من القرآن الكريم، علي الصلابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1،

1433هـ-2012م.
104.الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، توفيق يوسف الواعي، دار الوفاء، المنصورة، مصر، 1408هـ-1988م.
105.الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، دار ابن القيم، ط2، 1407هـ-1987م.
106.حقوق الإنسان في ضوء الكتاب والسنة، يسرى السيد محمد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1427هـ-2006م.
107.حماية الرسول صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، محمد بن عبد الله الغامدي، عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.
108.الحوار والاستدلال في القرآن، خالد سليمان الياسين، دار الغوثاني، دمشق، ط1، 1438هـ-2017م.
109.الحوار وبناء المشترك الإنساني في القرآن الكريم، المصطفى السماحي، عالم الكتب الحديث، إربد، 1441هـ-2019م.
110.الحوار وبناء المشترك الإنساني في القرآن الكريم، دراسة تأصيلية، المصطفى السماحي، مركز ابن غازي للأبحاث والدراسات الاستراتيجية، إربد، الأردن، 2020م.
111.خصائص الأمة الإسلامية الحضارية، إبراهيم زيد الكيلاني، الطبعة الأولى، 2004م.

112.الخلاص المسـيحي ونظرة الإسـلام إليه، أحمد علي عجيبة، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2006م.

113.خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

114.الخلافة في الأرض، أحمد حسن فرحات، دار عمّار، ط1، 1423هـ، 2003م.

115.الخلافة والخلفاء الراشدون بين الشورى والديمقراطية، المستشار سالم البهنساوي، مكتبة المنار الإسلامية، ط2، 1418هـ-1997م.

116.خلق آدم ونظرية التطور، محمد علي البار، سلالة من طين، مقال نشر على شبكة معلومات بصيغة PDF.

117.خلق الإنسـان بين الطب والقرآن، محمد البار، الدار السـعودية للنشـر والتوزيع، جدة، ط4، 1403هـ-1982م.

118.خليفة الله في الأرض، الإنسان من الخلق إلى البعث، عبد الحافظ سلامة حافظ، مركز الكتاب للنشر، ط1، 2014م

119.دراسات أدبية لنصوص القرآن، محمد المبارك، دار الفكر، بيروت، ط4.

120.دراسات في العقيدة الإسلامية، أحمد محمد أحمد الجلي، جامعة الإمارات العربية المتحدة، 2002م.

121.دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه، إسحاق بن عبد الله السعدي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، 1434هـ-2013م.

122.دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، عبدالرحمن عبدالواحد شجاع، دار الفكر المعاصر، صنعاء، اليمن، ط1، 1419هـ.
123.درج الدرر في تفسير الآي والسور، عبد القاهر بن عبدالرحمن الجرجاني، تحقيق: وليد بن أحمد بن صالح الحسين وإياد عبداللطيف القيسي، مجلة الحكمة، ط1، 1429هـ-2008م.
124.الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، عبد الكريم عبيدات، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2000م.
125.دلائل الإعجاز العلمي، سيف الدين الكاتب، دار الشرق العربي، لبنان، 2006.
126.دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، الحافظ أبو بكر أحمد البيهقي، تحقيق عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1420هـ.
127.ديوان أبو العتاهية، أبو العتاهية، دار بيروت، 1406هـ-1986م.
128.الرد على الجهمية والزنادقة، أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع، ط 1.
129.رسالات الأنبياء، عبدالرحمن حللي، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 2015م.
130.الرسالة، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط1، 1358هـ-1940م.

131.الرسائل المفيدة، عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، تصحيح عبد الرحمن الرويشد، 1398هـ، دار العلوم، القاهرة.

132.ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2001م.

133.روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، محمود شكري الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ-1999م.

134.زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت.

135.زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر ابن القيم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط27، 1994م.

136.زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، مدينة نصر، القاهرة.

137.السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، صالح علي العود، دار ابن حزم، ط 1، 2009.

138.سفر التكوين في ميزان القرآن من آدم إلى إبراهيم، صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط1، 1419هـ-1998م.

139.السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ.

140.سنة الله في عقاب الأمم، عبد السلام نصر الله، دار المقاصد، استنبول، ط1، 2015م.

141. سنن ابن ماجه، الحافظ أبو عبد الله بن زيد القزويني، تحقيق: صدقي جميل العطار، دار الفكر، 1424هـ-2003م.
142. سـنن أبي داوود، الإمام أبو داود السـجسـتاني، تحقيق وتعليق عزت الدعاس، 1391هـ.
143. سـنن الدارامي، عبد الله بن محمد بن الفضـل السـمرقندي، خرج آياته وأحاديثه مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ-1996م.
144. سـيرة آدم عليه السـلام، صـلاح الدين الخالدي، دار الفاروق، عمان، ط1، 1427هـ-2016م.
145. سيرة آدم، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار الفاروق، ط1، 1427هـ-2016م.
146. شأن الدعاء، أبو سليمان الخطابي، دار الثقافة العربية، ط1، 1412هـ.
147. الشخصية النسائية في القصة القرآنية، هدى عبد اللطيف عريان، دار غار حراء، ط1، 1426هـ-2005م.
148. شـرح أسماء الله الحسـنى، عبد الرحمن بن ناصـر السـعدي، تحقيق عبيد بن علي العبيد، الجامعة الإسلامية، المدينة النورة، العدد 112، السنة 33، 1421هـ.
149. شـرح السـنة، أبو محمد الحسـين بن مسـعود البغوي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد، دار الكتب العلمية، القاهرة، ط1، 1965م.
150. شرعة الله للأنبياء في القرآن الكريم والسنة النبوية، محمد مصطفى الزحيلي، دار

ابن كثير، دمشق، سوريا، ط1، 2018م.
151. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، 1978، ص 78.
152. صحيح البخاري كتاب العلم، محمد إسماعيل البخاري، دار الفكر، ط1، 1411هـ-1991م.
153. صحيح الترمذي، الألباني، مكتبة التربية العربية لدول الخليج، الرياض، ط3، 1408هـ-1988م.
154. صحيح تفسير القرآن العظيم، مصطفى العدوي، دار ابن رجب، ط 1، 2010.
155. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، شرح النووي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
156. صفوة البيان في معاني القرآن، حسين مخلوف، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، 1987م.
157. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1417هـ-1997م.
158. صلاح الأمة في علو الهمة، سيد حسين العفاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ-1997م.
159. الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط 1، 1408.

160.ضوابط المعرفة، عبد الرحمن حسن حبنكة، دار القلم، ط1، 1981م.
161.طريق الهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار السلفية، القاهرة، ط 2، 1394.
162.عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبد الكريم نوفان عبيدات، كنوز اشبيلية، ط3، 1426هـ-2005م.
163.عبودية الكائنات لرب العالمين، فريد إسماعيل التوني، رسالة ماجستير في العقيدة، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، فرع العقيدة.
164.العبودية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار المدين للطباعة والنشر، جدة، 1406هـ-1986م.
165.عداوة الشيطان للإنسان، عبد المنعم الحواس، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط1، 1425هـ-2004م.
166.العقائد الإسلامية، السيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت.
167.العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، عبد الهادي سعد هادي الشمراني، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط1، 1427هـ.
168.العقيدة الصافية، سيد سعيد عبد الغني، دار طيبة الخضراء، 1434 هـ.
169.العقيدة في الله، عمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط 12، 1999.
170.العلاج النفسي وخطورة المنطلق، إدريس الوزاني، مركز التراث الثقافي المغربي،

ط1، 1429هـ-2008م.

171.العلامة اللغوية في قصة آدم عليه السلام، هاني صبري آل يونس ورشا طه حامد، دار الحامد، عمان، الأردن، ط1، 1416هـ-2015م.

172.العلم بين التوراة والإنجيل والقرآن، مورس بوكاي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1425هـ-2004م.

173.علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، سلمان العودة، مؤسسة الإسلام اليوم، ط1، 1438هـ-2017م.

174.فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي ابن حجر، دار المعرفة، بيروت، 1379.

175.فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان البنوجي، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، 1412هـ-1992م.

176.فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر.

177.الفردوس المستعار والفردوس المستعاد، أحمد العمري، دار الفكر، 2007م.

178.الفساد في الأرض وموقف الإسلام منه، أسامة ظافر كبارة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2009م.

179.فقه التحضر الإسلامي، عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1999م.

180.فلسفة الحياة الروحية، مقداد يلجن، دار عالم الكتب، ط2، 1989.

181.في التزكية والسلوك، عدنان سعد الدين، دار عمار، عمان، الأردن، ط1، 1427هـ-2006م.

182.في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط17، 1412هـ.

183.الفيزياء ووجود الخالق مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين، جعفر شيخ إدريس، الناشر مجلة البيان، ط 1، 2001.

184.قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق: أشرف بن محمد بن عبد المقصود، 1422هـ-2002م.

185.القرآن وقضايا الإنسان، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة.

186.قصة أبينا آدم من الطين إلى الجنة، منصور عبد الحكيم، منصور عبدالحكيم، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط1، 2012م.

187.قصة آدم، عمر إيمان أبوبكر، دار الفكر العربي، ط1، 1438هـ-2017م.

188.قصة آدم، ياسر برهامي، دار الإيمان، الإسكندرية، 2005م.

189.قصة الخلق، محمد بن عبد الله الخرعان، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 2008.

190.فقه الشورى والاستشارة، توفيق يوسف الواعي.

191.قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، دار الرشاد للنشر والتوزيع، ط 1، 2010.

192. قصص الأنبياء، إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار الخير، دمشق، الطبعة الأولى، 412هـ، 1992م.

193. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط4، 1422هـ-2002م.

194. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، دار الراية، الجيزة، مصر، 2018م.

195. قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، مكتبة مكة، طنطا، مصر، ط1، 1436هـ-2015م.

196. قصص الرحمن في ظلال القرآن، أحمد فائز الحمصي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى.

197. قصص القرآن، فضل حسن عباس، دار النفائس، لبنان، ط7، 1439هـ-2018م.

198. القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط1، 1419هـ-1998م.

199. القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه، عبد الرحمن بن صالح المحمود، دار الوطن، ط2، 1997م.

200. القيم بين الإسلام والغرب، مانع بن محمد بن علي المانع، دار الفضيلة، الرياض، ط1، 1426هـ-2005م.

201. كتاب الروح، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، المكتبة التوفيقية،

القاهرة، الطبعة السادسة، 2013م.

202.كتاب السنة، باب في الجهمية، أبو داوُد، صححه الألباني.

203.الكرامة الإنسانية في الشريعة الإسلامية، فاخر عباس عيسى الداودي، دار رواد المجد، دار العصماء، دمشق، ط1، 1440هـ-2020م.

204.الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار المعرفة، 1967م.

205.لا يأتون بمثله، محمد قطب، دار الشروق، ط 1، 2002.

206.لا يأتيه الباطل، محمد سعيد رمضان، دار الفكر، دمشق، سوريا.

207.لأنك الله، علي بن جابر الفيفي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط13، 1438هـ-2017م.

208.لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان.

209.لطائف التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان، ط4، 2006.

210.لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، موفق الدين أبو محمد عبد الله أحمد بن قدامة، مكتبة الإمام البخاري والدار السلفية، ط2، 1412هـ-1992م.

211.الله أهل الثناء والمجد، ناصر سفر الزهراني، مكتبة العبيكان، الرياض، ط3، 1428هـ-2007م.

212.المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، علي بن عبد الحفيظ الكيلاني، عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط1، 1428هـ.

213. مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، دار المسلم، الرياض، ط2، 1416هـ.
214. مبادئ الإسلام، أبو الأعلى المودودي، مكتبة الشباب المسلم، دمشق، ط 3، 1961.
215. مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1995.
216. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت.
217. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، الدوحة، الطبعة الأولى، 1977م.
218. المحكم في العقيدة، محمد عياش الكبيسي، المكتب المصري الحديث، ط 1.
219. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان، 1986م.
220. مختصر إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان للإمام ابن قيم الجوزية، أحمد بن عثمان المزيد، مدار الوطن للنشر، الرياض، ط1، 1435هـ-2014م.
221. مختصر العلو للعلي العظيم، شمس الدين الذهبي، حققه محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، 1401هـ-1981م.
222. مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، 1402هـ-1981م.

223.مختصــر تفســير البغوي، عبد الله بن أحمد الزيد، دار الســلام للنشــر والتوزيع، الرياض، ط1، 1416هـ.

224.مختصر شرح العقيدة الطحاوية، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 2001م.

225.مدارج الســالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نســتعين، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد المعتصــم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1996م.

226.مدارك التنزيل وحدائق التأويل، عبد الله بن أحمد بن محمود النســفي، دار الكلم الطيب، بيروت.

227.دراسات في الثقافة الإسلامية (المصادر – الأسس – الخصائص – التحديات)، أحمد محمد بن جلي، 2016.

228.مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي، زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

229.المرأة في القصص القرآني، أسماء عبد المنعم العميري، كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 1434هـ-2013م.

230.مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، ابن حزم الظاهري، تحقيق: حسن أحمد أسبر، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م.

231.المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب، بيروت، ط1، 1411هـ-1990م.

232.المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة،

الطبعة الأولى 1419هـ- 1998م.
233. مسند أبي يعلى، أحمد بن علي أبو يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط 4، 1984.
234. مسند أحمد، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.
235. مسند البزار. أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتيكي، تحقيق: محفوظ عبد الرحمن زين الله وعادل بن سعد، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، 1424هـ-2003م.
236. المسيح عيسى ابن مريم، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط1، 2020م.
237. المسيح عيسى بن مريم الحقيقة الكاملة، محمد علي الصلابي، دار ابن كثير، ط 1، 2019م.
238. المسيح والتثليث، محمد وصفي، المطبعة الرحمانية، مصر، ط1، 1937م.
239. المشترك الإنساني، راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط1، 1432هـ-2011م.
240. مشكلة الشر ووجود الله، سامي عامري، اصدار المؤسسة العلمية للدعوة العالمية، رعاية مركز تكوين للأبحاث والدراسات، ط2، 1439هـ-2018م.
241. مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، عبد الرحمن بن زيد الزنيدي، مكتبة المؤيد، الرياض، ط1، 1412هـ-1992م.
242. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي، المكتبة العلمية،

بيروت، 205/2. أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 8، 2005.

243. مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، دار الكلمة الطيبة، مسقط، سلطنة عمان، ط1، 1441هـ-2019م.

244. مطابقة أسماء الله الحسنى مقتضى المقام في القرآن "الأسماء المقترنة"، نجلاء عبد اللطيف الكردي، رسالة دكتوراه، جدة، السعودية، 1422هـ.

245. مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، محمد علي عبد المعطي، مكتبة عباد الرحمن، القاهرة، ط1، 1431هـ-2010م.

246. مع الله الاسم الأعظم وقصة الأسماء الحسنى، سلمان بن فهد العودة، مؤسسة الإسلام اليوم، الرياض، ط1، 1430هـ-2009م.

247. مع الله، حسن أيوب.

248. مع الله، سلمان بن فهد العودة، دار الإسلام اليوم 1429هـ /2008م.

249. معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق عمر بن محمود، دار ابن القيم، الدمام، ط 1، 1990.

250. معالم التنزيل في تفسير القرآن، الحسين بن مسعود البغوي، دار إحياء التراث، ط1، 1420هـ.

251. معتقد فرق المسلمين واليهود والنصارى والفلاسفة والوثنيين في الملائكة المقربين، محمد بن عبد الوهاب العقيل، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط1، 1422هـ-

2002م.
252. المعجزة الخالدة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم براهين ساطعة وأدلة قاطعة، محمد علي الصلابي، دار المعرفة، 2016.
253. معجزة القرآن، محمد متولي الشعراوي، المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 1978.
254. المعجزة القرآنية الإعجاز العلمي والغيبي، محمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة، 1989.
255. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط 2.
256. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية، 1364هـ.
257. المعجم الوسيط، أحمد حسين الزيات ورفاقه، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة، تركيا، 1410هـ-1989م.
258. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.
259. مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط 1، 1412هـ.
260. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم، دمشق، ط1، 1412هـ-

1992م.

261.مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، دار الغرب الإسلامي، ط5، 1993م.

262.مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 2011م.

263. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1984.

264.مقاصد القرآن الكريم، مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات القرآنية، (الترتيل) الرباط، المملكة المغربية.

265.مكانة الحواس من المعرفة في الإسلام، صالح بن سليمان بن صالح العمرو، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى.

266.المِلل والنحَل، أبو الفتح محمد الشهرستاني، صححه وعلق عليه أحمد فهمي محمد، مكتبة الحسين التجارية، القاهرة، 1948.

267.من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1434هـ-2013م.

268.من آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم، زغلول محمد النجار، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 2005.

269.من آيات الإعجاز العلمي في السماء، زغلول راغب محمد النجار، دار المعرفة،

بيروت، ط 4، 2007.
270.من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، زغلول راغب محمد النجار، دار المعرفة، ط 4، 2007.
271.من عقيدة المسلمين، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2009م.
272.من لطائف التعبير القرآني، فؤاد السندي، مكتبة مكة المكرمة، ط1، 1424هـ-2002م.
273.منهج الإسلام في تزكية النفس، أحمد كرزون، دار نور المكتبات، دار ابن حزم، ط2، 418هـ-1997م.
274.منهج القرآن الكريم في التربية، محمد شديد، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، 1998م.
275.موارد الظمآن لدروس الزمان، عبد العزيز المحمد السلمان، ط30، 2004م.
276.مواقف الأنبياء في القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط1، 1424هـ-2003م.
277.موسوعة أسماء الله الحسنى، محمد راتب النابلسي، دار المكتبي، دمشق، سوريا، ط3، 1425هـ-2004م.
278.موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد السقا عيد، ط1 1430هـ/ 2009م.

279.موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، حكمت بشير ياسين، دار المآثر، المدينة المنورة، ط1، 1420هـ-1999م.

280.الموسوعة القرآنية خصائص السور، جعفر شرف الدين، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ-1999م.

281.موسوعة نضرة النعيم، إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح عبد الله بن حميد وعبد الرحمن بن محمد، دار الوسيلة، جدة، السعودية، ط1، 1418هـ-1998م.

282.نتائج الأفكار في شرح حديث الاستغفار، محمد بن أحمد السفاريني، تحقيق عبد العزيز الهبدان وعبد العزيز الدخيل، دار الصميعي، ط 1، 1996.

283.النسق القرآني "دراسة أسلوبية"، محمد ديب الباجي، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ومؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط1 1431هـ/ 2010م.

284.نصوص اللعن في القرآن الكريم وأثرها في الأحكام الشرعية، عمر الكبيسي، مؤسسة الريان، ط1، 1423هـ-2003م.

285.نظم الدرر، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ-1995م.

286.نهاية الإقدام في علم الكلام، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1425.

287.النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد

الطناحي، المكتبة الإسلامية، ط1، 1385هـ.
288. النهاية في غريب الحديث، مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير، (جول)، المكتبة العلمية، بيروت، 1979.
289. النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، محمد محمود النجدي، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط2، 1417هـ-1997م.
290. نوح والطوفان العظيم، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط1، 1441هـ-2020م.
291. النور المبين في تدبر آيات القرآن الكريم، زين محمد شحاته، دار ابن كثير، الكويت، 2015م.
292. نونية ابن القيم الجوزية، أبو عبد الله بن أبي بكر الدمشقي، تحقيق: زهير الشاويش، ط1 1404 هـ.
293. نونية القحطاني، أبو محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني، دار السوادي، السعودية، ط3، 1410هـ-1989م.
294. الواسطة بين الله وخلقه عند أهل السنة ومخالفيهم، المرابط بن محمد يسلم الشنقيطي، دار الفضيلة، الرياض، السعودية، ط1، 1424هـ.
295. الوسطية في التربية الإسلامية، عبد الله محمد الزهراني، رسالة دكتوراه، 2000م.
296. الوعي الحضاري، مسفر بن علي القحطاني، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان.

297.وقفات في حياة الأنبياء، خالد عبد العليم، مؤسسة علوم القرآن، دار ابن كثير، عمان.

298.وقفات مع الإنسان في القرآن، فايز الربيع، كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 1431هـ-2010م.

299.الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد القحطاني، دار طيبة، الرياض، ط 1.

300.ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، عبد العزيز الجليل، دار طيبة، الرياض، ط3، 1430هـ-2009م.

301.اليوم الآخر في القرآن الكريم والسنة المطهرة، عبد المحسن بن زبن المطيري، دار البشائر الإسلامية، ط3، 2008م.

فهرس المحتويات

مقدمة.. 3
تمهيد.. 20
الفصل الأول: أولة وجود الخالق وبدء قصة الخلق.............................. 30
المبحث الأول: معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ فضلُها وشروطُها 30
أولاً: معنى: لا إله إلا الله محمد رسول الله.................................. 30
ثانياً: فضل كلمة "لا إله إلا الله".. 36
ثالثاً: أفضلُ الذكرِ "لا إله إلا الله"....................................... 38
رابعاً: أشعةُ كلمةِ لا إله إلا الله تبدّدُ ظلماتِ القلوبِ........................ 40
خامساً: توافق بين "لا إله إلا الله" و"إياك نعبد"............................ 41
سادساً: شروط "لا إله إلا الله" 41
سابعاً: ارتباط (لا إله إلا الله) بالولاء والبراء................................ 46
ثامناً: آثار الإقرار بـ "لا إله إلا الله"...................................... 51
المبحث الثاني: إثبات وجود الخالق.. 55
أولاً: دليل الخلق.. 57
ثانياً: دليل الفطرة والعهد.. 59
ثالثاً: دليل الآفاق.. 63
رابعاً: دليل الأنفس... 68
خامساً: دليل الهداية... 71
سادساً: دليل انتظام الكون وعدم فساده.................................... 76
سابعاً: دليل التقدير.. 77

ثامناً: دليل التسوية.. 77
تاسعاً: دليل العناية... 85
عاشراً: الله سبحانه وتعالى هو الظاهر.......................... 91
الفصل الثاني: قصة بدء الخلق.................................. 97
المبحث الأول: بدء الخلق وقدرة الخالق سبحانه وتعالى........... 97
أولاً: بداية الخلق ليست غامضة...............................102
ثانياً: إثبات صفات الكمال لله تعالى............................118
ثالثاً: الله يُعرّفُ نفسه لخلقه في آية الكرسي......................120
رابعاً: الله غني عن خلقه...130
خامساً: خلق الله الخلق في أوقات متفاوتة........................132
سادساً: ثنائية الخلق دلالة على وحدانية الخالق.....................133
سابعاً: مظاهر الحكمة في الخلق.................................134
المبحث الثاني: أي المخلوقات خُلق أولاً؟...........................140
أولاً: خلق العرش والكرسي......................................143
ثانياً: خلق الماء...155
ثالثاً: خلق القلم...165
- القلم وكتابة المقادير..167
رابعاً: خلق اللوح المحفوظ.......................................168
خامساً: خلق الزمان...174
سادساً: الأرض خُلقت قبل السماوات............................184
سابعاً: خلق الجبال..199
ثامناً: خلق السماوات..213
تاسعاً: خلق الشمس والقمر......................................222

عاشراً: خلق الليل والنهار........................ 236

الحادي عشر: خلق النجوم........................ 239

الثاني عشر: خلق الرياح........................ 249

الثالث عشر: خلق السحاب والرعد والبرق والصواعق........................ 262

الرابع عشر: خلق الشجر والنبات........................ 271

الخامس عشر: خلق الظلال........................ 293

الفصل الثالث: حديث القرآن الكريم عن آدم عليه السلام........................ 304

المبحث الأول: قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة........................ 304

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾..... 308

ثانياً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾......... 346

ثالثاً: التسبيح والحمد والتقديس لله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ 357

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ..﴾ 383

خامساً: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ..﴾.......... 408

سادساً: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. 410

سابعاً: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ..﴾ 425

ثامناً: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ..﴾... 429

تاسعاً: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾........................ 444

عاشراً: قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾. 467

الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ.. ﴾. 501

الثاني عشر: قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ..﴾............ 518

الثالث عشر: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ...﴾............. 520

الرابع عشر: قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي..﴾ 556

المبحث الثاني: قصة آدم عليه السلام في سورة الأعراف........................ 591

أولاً: بداية الرحلة الكبرى وربط الحياة بالله عزوجل.......................593
ثانياً: خلق الإنسان وتصويره.......................598
ثالثاً: سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس وحواره مع رب العالمين.............712
رابعاً: قصة آدم في الجنة وخروجه منها.......................740
خامساً: النداءات الإلهية الأربعة لبني آدم بعد قصة آدم.........779
المبحث الثالث: قصة آدم (عليه السلام) في سورة الحجر.......................832
أولاً: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ..﴾ 836
ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ..﴾ 845
ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ ..﴾..859
رابعاً: قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ . .864
خامساً: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ..﴾ 891
سادساً: قال تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ..﴾ 901
سابعاً: قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ...﴾ 907
ثامناً: قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ..﴾...........916
تاسعاً: قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ...﴾.....................957
عاشراً: قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ...﴾ 975
الحادي عشر: قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ...﴾ 986
المبحث الرابع: قصة آدم عليه السلام في سورة الإسراء.......................992
أولاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيس..﴾ ..992
ثانياً: قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ...﴾................996
ثالثاً: قال تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ..﴾.....1000
رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ.﴾ .1003
خامساً: قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ..﴾ 1013

المبحث الخامس: قصة آدم عليه السلام في سورة الكهف 1022
أولاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ..﴾ .1022
ثانياً:قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ.﴾1037
المبحث السادس: قصة آدم عليه السلام في سورة طه........................1066
أولا: قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ..﴾ 1066
ثانياً: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدم مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ . .1079
ثالثاً: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾1089
رابعاً: قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ..﴾. 1092
خامساً: قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ..﴾......1108
المبحث السابع: قصة آدم عليه السلام في سورة ص.......................1119
أولاً: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ..﴾ ..1120
ثانياً: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ..﴾...............1131
ثالثاً: قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ...﴾ 1141
رابعاً: قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ...﴾...............1150
خامساً: قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ.﴾ 1156
المبحث الثامن: هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض وقصة النبي آدمﷺ.....1158
أولاً: هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض.........................1158
ثانياً: قصة ابني النبي آدم عليه السلام.......................1249
ثالثاً: وفاة آدم عليه السلام والرحيل.............................1289
الخلاصة..1296
المصادر والمراجع...1363
فهرس المحتويات...1394

كتب صدرت للمؤلف

1. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
7. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12. الوسطية في القرآن الكريم.
13. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
14. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
15. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
16. خلافة عبد الله بن الزبير.
17. عصر الدولة الزنكية.
18. عماد الدين زنكي.
19. نور الدين زنكي.
20. دولة السلاجقة.
21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
22. الشيخ عبد القادر الجيلاني.
23. الشيخ عمر المختار.

24.عبد الملك بن مروان وبنوه.

25.فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26.حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27.وسطية القرآن الكريم في العقائد.

28.فتنة مقتل عثمان.

29.السلطان عبد الحميد الثاني.

30.دولة المرابطين.

31.دولة الموحدين.

32.عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33.الدولة الفاطمية.

34.حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

35.صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36.استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37.الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38.الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39.المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

40.سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41.الشورى في الإسلام.

42.الإيمان بالله جل جلاله.

43.الإيمان باليوم الاخر.

44.الإيمان بالقدر.

45.الإيمان بالرسل والرسالات.

46.الإيمان بالملائكة.

47.الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.

48.فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.

49.المعجزة الخالدة.

50.الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

51.البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

52.التداول على السلطة التنفيذية.

53.الشورى فريضة إسلامية.

54.الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

55.العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

56.المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57.العدل في التصور الإسلامي.

58.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59.الأمير عبد القادر الجزائري.

60.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

61.سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

62.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

63.أعلام التصوف السُني «ثمانية أجزاء».

64.المشروع الوطني للسلام والمصالحة

65.الجمهورية الطرابلسية (1918 . 1922) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر

66.الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

67.المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام . الحقيقة الكاملة .

68.نوح عليه السلام والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

* * *

المؤلف في سطور



د. علي محمَّد محمَّد الصَّلاَّبي

مفكر ومؤرخ وفقيه

– ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ/ 1963م

– نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.

– حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.

– نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.

– اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

. زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.
- سير الخلفاء الراشدين.
- الدولة الحديثة المسلمة.
- الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط.

- فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.
- وسطية القرآن الكريم في العقائد.
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.
- تاريخ كفاح الشعب الجزائري.
- العدالة والمصالحة الوطنية.
- الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.
- المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام الحقيقة الكاملة.
- نوح عليه السلام والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.
- قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام.